سيد قطب ومنهجه في العقيدة

تأليف

أ.د / ماجد محمد علي شبالة

أستاذ العقيدة بجامعة إب – اليمن

المقدمة

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، ونعوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مضلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أن لاَ إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُه.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [سورة آل عمران:١٠٢]. {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾} [سورة النساء:١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [سورة الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإن أفضل العلوم نفعاً وأعلاها منزلة هو العلم بما يجب على العبد نحو ربه وإلهه عز وجل من توحيد الله في ربوبيته وألوهيته ، وأسمائه وصفاته ، ومن أجل ذلك خلق الله الخلق، وبعث الرسل، وأنزل الكتب، قال سبحانه :{وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾} [سورة الأنبياء:٢٥].

وقد ختم الله الرسالات بمحمد ﷺ ،الذي بُعث بالدين الحق على فترة من الرسل ، فدعا إلى صراط الله المستقيم ، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ثم قام بأمر هذا الدين بعد النبي ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم خير قيام ، فحملوا اللواء ، ونشروا الدين، وأتم الله نعمته بإظهار دينه ولو كره الكافرون .

ثم ظهرت الأهواء والبدع فتفرقت الأمة إلى طوائف وشيع متناحرة، حتى وصل حال المسلمين إلى قرن الضعف والهوان والشدة ،القرن الرابع عشر الهجري(القرن العشرين) ، حيث أُزيلت خلافتهم، وتقاسم الكفار بلادهم ، وبعدت الأمة عن عقيدتها وهويتها الإسلامية .

ومن عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة أن يبعث فيها الدعاة والمصلحون ، الذين يعملون على إعادتها إلى الله تعالى وتعريفها بأحكام الله في جميع شئون الحياة ، كلما اختلت عقيدتها، وفقدت توازنها، وصارت تتخبط في الظلمات .

ومن أبرز أعلام الدعوة الإسلامية المعاصرة (سيد قطب) – رحمه الله – الذي عاش حياة مليئة بالعطاء ، واكتوى بنار المحنة ، وقدم ملحمة رائعة في العمل والدعوة والصبر والثبات والاستعلاء ، مع علمه التام بالثمن الذي يدفعه المخلصون من العلماء والمصلحين وقادة الفكر عبر التاريخ .

وقد انتشرت كتبه ومؤلفاته بعد قتله، وأقبل الناس على كتبه درساً وبحثاً ، ونقاشاً ونقداً ، فظهرت أفهام مختلفة لفكره ، بين جافٍ وغالٍ ومنصف .

وكتب كثيرون عن(سيد قطب) كتابات متنوعة ، شملت أدبه، وفكره ومنهجه في التفسير والدعوة ، والتغيير، والحركة بهذا الدين .

كما كتب آخرون عن (سيد قطب) كتابات نقدية في مسائل متعددة ، واتهمه البعض في عقيدته ، فنسبوه إلى الصوفية الحلولية تارة ، والى المعتزلة والأشاعرة تارة ، وإلى الخوارج تارة أخرى.

ومن خلال تتبعي لما كُتب عن (سيد قطب) لم أجد من تعرض لبحث جهود سيد قطب ومنهجه في العقيدة ، وتحقيق ما نسب إليه من مخالفات عقدية بموضوعية وتجرد ، من خلال بحث أكاديمي يعنى بكل جوانب العقيدة عنده مقارنة بما عليه أهل السنة والجماعة، فرأيت أن أقوم بدراسة علمية لمنهج (سيد قطب) في العقيدة ، واستخرت الله تعالى ، وتشاورت في ذلك مع أهل الاختصاص فوجدت منهم استحساناً وتأييداً لهذا الموضوع ، فحزمت أمري ، وتوكلت على الله وجعلت موضوع رسالتي للدكتوراه بعنوان : **(سيد قطب –ومنهجه في العقيدة)** .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

تتلخص أهمية الموضوع وأسباب اختياري له في الأمور الآتية :-

١- أن (سيد قطب) - رحمه الله - أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، قدم فكراً دعوياً مؤثراً ، كان له أثرٌ واضحٌ في النهضة الإسلامية المعاصرة ، حيث أثارت أفكاره ولا زالت الكثير من القضايا ، وخاصة ما يتعلق منها بجانب العقيدة .

٢- تأثر قطاع كبير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة بفكر(سيد قطب) وأطروحاته، حتى أصبحت كتبه مرجعاً للدارسين والباحثين والمربين ، فكان لا بد من إبراز شخصية (سيد قطب) في الجانب العقدي من خلال كتبه ودراساته ، باعتبار أن هذا الجانب من أبرز الجوانب التي ساهم (سيد قطب) في إصلاحه والدعوة إليه .

٣- الوقوف على منهج (سيد قطب) مفصلاً في أبواب العقيدة ، وبيان مدى موافقته أو مخالفته لمنهج السلف في ذلك وأسباب المخالفة - إن وجدت -.

٤- دراسة ما نسب إليه من مخالفات عقدية وبيان حقيقتها.

٥- أنه لم يسبق أن كتب أحد عن (سيد قطب) - حسب علمي- في مجال العقيدة على وجه شامل، بحيث جمع كل ما يتعلق بمنهجه في كل قضايا العقيدة ومباحثها في بحث شامل ، ومقارنة ذلك بما عليه السلف .

منهجي في البحث : يتمثل منهجي في البحث فيما يأتي

١- جمــع مؤلفــات (ســيد قطـــب)- رحمـــه الله - وقــد اســتطعت بتوفيق الله الحصول على جميع كتبه المطبوعة .

٢- قراءة جميع كتبه قراءة فاحصة .

٣- حصر المسائل المتعلقة بالعقيدة التي اشتملت عليها كتبه.

٤- تقسـيم وتصـنيف المسـائل علـى أبـواب العقيـدة ومباحثهـا وفـق ما رسمه السلف في كتبهم ومؤلفاتهم .

٥- جمـع كـلام سـيد المتفـرق عـن كـل مسـألة مـن مواضـعه المختلفـة ، للتوصل إلى معرفة منهجه في تلك المسألة .

٦- حرصـت علـى نقـل كلامـه بـالنص فـي كـل مسـألة، ليقـف القـارئ علـى عباراتـه بـدون تصـرف فيهـا ، مـا لـم تـدع الحاجـة إلـى نقـل كلامـه بـالمعنى ، مـن أجـل تلخيصـه إذا كـان طـويلاً بحيـث يصـعب نقلـه بـالنص ، ومـا لـم تـدع الحاجـة إلـى سـوق كلامـه المفـرق مسـاقاً واحـداً لإعطـاء القـارئ صـورة متكاملـة عـن رأي سـيد فـي المسـألة إذا كـان بعـض كلامـه يكمـل بعضـا ، وإذا تكـرر كلامـه علـى مسـألة فـي أكثـر من موضع وكان متقارباً نقلته من أحدها وأحلت على الأخرى .

٧- أصـدر كـل مسـألة مـن مسـائل البحـث بالنصـوص الشـرعية المتعلقـة بهـا ثـم أنقـل كـلام سيد قطـب- رحمـة الله - وأبـيِّن فـي نهايـة كـل مسـألة مـا إذا كـان رأيـه موافقـاً لـرأي أهـل السـنة والجماعـة أو مخالفاً له.

٨- قد أكرر كلام سيد قطب في أكثر من موضع وذلك لاشتماله أحياناً على أكثر من مسألة من مسائل العقيدة.

٩- عزوت الآيات القرآنية الواردة في الرسالة إلى مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

١٠- خرجت الأحاديث من مصادرها المعتمدة، فإن كان الحديث في الصحيحين أو احدهما اكتفيت به في التخريج، وإلا خرجته من كتب السنن وغيرها مبيناً درجته.

١١- شرحت ما رأيت الحاجة إلى شرحه من الألفاظ الغريبة .

١٢- ترجمت للأعلام المذكورين في صلب البحث في أول موضع ورد ذكره فيه،عدا الجاهليين .

١١- ذيلت البحث بفهارس عامة لتيسير الاستفادة منه .

خطة البحث: تتكون خطة البحث من مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

المقدمة : وفيها أهمية البحث وأسباب اختياره ومنهج العمل فيه وخطته.

الباب الأول: (عصره و حياته)

وفيه ثلاثة فصول:-

الفصل الأول : (عصره)

وفيه ثلاثة مباحث :-

المبحث الأول : الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية والاقتصادية.

المبحث الثالث : الحالة العلمية والفكرية .

الفصل الثاني :- (حياته الشخصية)

وفيه ثلاثة مباحث :-

المبحث الأول: اسمه ونسبه وأسرته .

المبحث الثاني : نشأته وصفاته .

المبحث الثالث : أعماله ووفاته .

الفصل الثالث :- (حياته العلمية)

وفيه ثلاثة مباحث :-

المبحث الأول : تعليمه ورحلاته .

المبحث الثاني : ثقافته ومؤلفاته .

المبحث الثالث : جهوده في العمل الدعوي ومكانته العلمية .

الباب الثاني

(منهجه في تقرير مسائل الإيمان والعقيدة)

وفيه ثلاثة فصول : -

الفصل الأول : (منهجه في تقرير العقيدة)

وفيه أربعة مباحث :-

المبحث الأول : مصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب .

المبحث الثاني : منهجه في الاستدلال وتقرير مسائل العقيدة.

المبحث الثالث : موقفه من الفلسفة وعلم الكلام .

المبحث الرابع : موقفه من قضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان.

الفصل الثاني : (منهجه في الدعوة إلى العقيدة)

وفيه ثلاثة مباحث : -

المبحث الأول : أهمية العقيدة الإسلامية وخصائصها .

المبحث الثاني : منهجه في عرض العقيدة والدعوة إليها .

المبحث الثالث : موقفه من المخالفين .

الفصل الثالث : (منهجه في تقرير مسائل الإيمان)

وفيه خمسة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف الإيمان وبيان حقيقته .

المبحث الثاني : ثمرات الإيمان والتوحيد وآثارها في الحياة .

المبحث الثالث : زيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالإسلام .

المبحث الرابع : الكبائر وأحكام مرتكبيها .

المبحث الخامس: التكفير .

الباب الثالث : (منهجه في التوحيد)

وفيه تمهيد و ثلاثة فصول :

التمهيد :تعريف التوحيد وأقسامه.

الفصل الأول : (منهجه في توحيد الربوبية)

وفيه أربعة مباحث :-

المبحث الأول : وجود الله ووحدانيته .

المبحث الثاني : موقفه من القول بقدم العالم .

المبحث الثالث : موقفه من وحدة الوجود .

المبحث الرابع : منهجه في الإيمان بالقدر .

الفصل الثاني : (منهجه في توحيد الأسماء والصفات)

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : توحيد الأسماء والصفات بين أهل السنة ومخالفيهم

المبحث الثاني : منهج سيد قطب في تقرير منهج الأسماء والصفات

المبحث الثالث : منهج سيد قطب في إثبات الأسماء الحسنى .

المبحث الرابع : منهج سيد قطب في إثبات الصفات تفصيلاً.

الفصل الثالث : (منهجه في توحيد الألوهية)

وفيه ثلاثة مباحث :-

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين .

المبحث الثاني : منهجه في تقرير الألوهية وإبطال الشرك .

المبحث الثالث : خصائص الألوهية ومجالاتها .

الفصل الرابع :(منهجه في نواقض التوحيد والإيمان)

وفيه تمهيد و ثلاثة مباحث :-

التهميد : تعريف النواقض وأقسامها .

المبحث الأول : الشـرك .

المبحث الثاني : الكفــر .

المبحث الثالث : النفــاق .

الباب الرابع : (منهجه في النبوات والمعاد)

وفيه تمهيد وثلاثة فصول :-

التمهيد : مقدمة حول الغيب .

الفصل الأول:(الإيمان بالملائكة والكتب)

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان بالملائكة وما يتعلق بهم .

المبحث الثاني : الإيمان بالكتب وما يتعلق بها .

المبحث الثالث : الإيمان بوجود الجن والشياطين وما يتعلق بهم.

الفصل الثاني:(منهجه في الإيمان بالأنبياء والرسل).

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان بالرسل وما يتعلق بهم .

المبحث الثاني : الإيمان بنبوة محمد □ وما يتعلق بها .

المبحث الثالث : منهجه في الصحابة رضوان الله عليهم.

المبحث الرابع : منهجه في الإمامة والخلافة .

الفصل الثالث : (الإيمان باليوم الآخر والمعاد)

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان باليوم الآخر وأثره .

المبحث الثاني : مقدمات اليوم الآخر .

المبحث الثالث : اليوم الآخر (يوم القيامة) وما بعده .

المبحث الرابع : الجنة والنار .

الخاتمـة :

وفيها خلاصة البحث ونتائجه وتوصياته والمقترحات على هيئة نقاط .

الفهارس العلمية للبحث وتشتمل :-

١- فهرس المراجع والمصادر .

٢- فهرس الموضوعات .

وفي الختام : أحمد الله تعالى وأشكره أولاً وأخيراً ظاهراً وباطناً على أن وفقني لإتمام هذا البحث ، سائلاً الله العلي العظيم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به . والكمال لله وحده وحسبي أني بذلت جهدي وطاقتي واستفرغت وسعي ، ولكن يبقى النقص والقصور من طبيعة البشر ، فإن أحسنت فبتوفيق الله ، وأشكره سبحانه على ذلك ، وإن أخطأت أو قصرت فأستغفر الله وأتوب إليه ، وحسبي أني كنت حريصاً أن لا يقع ذلك مني ، وأتوسل إليه سبحانه في طلب عفوه وغفرانه ، بحسن النية وقصد الثواب ، إنه هو الغفور الرحيم .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

الباحث

البَابُ الأَوَّلُ

عصره وحيـاتـه :

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : عـــصــره .

الفصل الثـاني : حيـاته الشخصية .

الفصل الثالث : حيـاته العلميـة .

توطئـة :

في هذا الباب سأحاول إن شاء الله – أن أرسم صورة واضحة للعصر الذي عاش فيه – سيد قطب – رحمه الله وحياته ، لمعرفة المعالم والخطوط الرئيسة التي ساهمت في تكوين شخصيته وفكره ، وأثرت في مراحل حياته ودعوته .

وقضـايا هـذا البـاب وجوانبـه متعـددة، يصـعب تناولـها بالتفصـيل فـي بـاب واحد، وليس هذا هو هدف البحث إنما الهدف من هذا الباب رسم إطار عام للحياة التي كان لها أثر في شخصية – سيد قطب – وفكره ، ومن ثم سيكون الحديث منصباً على ناحيتين أساسيتين هما :

الأولى: عصره وواقع المجتمع الذي عاش فيه بأبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية .

الثانيـة : حياته الشخصية والعلمية في مراحلها المختلفة، وذلك من خلال الفصول الثلاثة الآتية :

الفصل الأول : عصره – رحمه الله – .

الفصل الثاني : حياته الشخصية .

الفصل الثالث : حياته العلمية .

الفصـــل الأول

عصــــر سيـد قطـب

لعل معرفة العصر الذي عاش فيه سيد قطب – رحمه الله – تعيننا على فهم كثير من آرائه ومواقفه ، والمادة العلمية التي تشتمل عليها كتبه. فبيان أراء أيِّ عالمٍ أو داعية ومواقفه له علاقة وثيقة بظروف العصر الذي عاش فيه ، بجوانبه السياسية والاجتماعية والعلمية وما يرتبط بها .

وقد عاش سيد قطب – رحمه الله – في القرن الرابع عشر الهجري (١٤هـ) – القرن العشرين الميلادي (٢٠م) – حيث ولد عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) وتوفي عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).

وقبل استعراض أحوال العصر الذي عاش فيه يستحسن أن أذكر بصورة موجزة الملامح العامة لوضع العالم في هذه المدة ، باعتبار أن القرنين الأخيرين من أكثر قرون التاريخ أحداثاً وتغيرات ، تعرض العالم الإسلامي فيها لموجات وتياراتٍ حادة أثرت عليه سلباً وإيجاباً . ومن أهمها:

أولاً : نمو الروح القوميـة :

وقعت في أوروبا نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تغيرات وانقلابات وثورات كانت في معظمها تعبيراً عن الروح القومية وتجسيداً لفكرة الولاء للعنصر أو الأرض ، وانتقلت هذه العدوى – القومية – إلى العالم الإسلامي في نهاية الخلافة العثمانية ، حيث برزت الدعوة إلى القومية (التركية) بدلاً عن (الرابطة الإسلامية) ، وسرت هذه الفكرة في العالم

العربي، حيث نشأ تيار جديد ينادي بالقومية العربية ، وقد ساعد على انتشار هذه الفكرة أمورٌ منها :

١- ضعف الانتماء الديني الصحيح في نفوس كثير من المسلمين .
٢- المظالم التي حدثت في نهاية الخلافة العثمانية ، وفساد بعض ولاة الأقاليم .
٣- تأثر المبعوثين إلى أوروبا بالثقافة الغربية السائدة هناك .
٤- حركات التبشير والاستشراق، ودعم القوى الغربية والاستعمارية لدعاة القومية وحركة الكشوفات الأثرية لربط البلاد الإسلامية بقوميات ما قبل الإسلام[١] .
٥- ظهور الاتجاهات المنحرفة والمخدرة للشعب كالتصوف المنحرف الذي دعمه الحكام العثمانيون المتأخرون لإشغال الناس عن مفاسد الحكم ٠

ثانياً : الاستعمار الصليبي للعالم :

كانت معظم البلدان العربية والإسلامية خاضعة للخلافة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (١٩م) حيث شهدت تآمراً غربياً وتخطيطاً يهودياً صليبياً للسيطرة على العالم الإسلامي وخلافته ، وشهدت بداية القرن العشرين (٢٠م) تنفيذ مخططات اليهود والنصارى على الخلافة

(١) الاتجاهات الوطنية، د / محمد محمد حسين ،المطبعة النموذجية – القاهرة – ط ٣ -١٤٠٠هـ -ص (ط – ي) .
وأوراق من تاريخ الإخوان المسلمين . جمعه أمين عبد العزيز ، دار التوزيع ، القاهرة ، ط١ ، عام ٢٠٠٣م ، ١٧/١ ، ص٥٠، ٢٩٣.

الإسلامية واستيلاء عملائهم (جمعية الاتحاد والترقي) على الحكم في تركيا.

وفي الربع الأول من القرن العشرين (٢٠م) نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) وتحالفت تركيا مع ألمانيا ضد إنجلترا وفرنسا ومن معهما ، وهزمت ألمانيا وتركيا وتم القضاء على سلطان الخلافة الإسلامية ، واقتطعت الدول المنتصرة معظم البلدان التابعة للخلافة العثمانية ، وقسمتها إلى دول صغيرة خاضعة لها لتبدأ معاناة أكبر في العالم الإسلامي. [(١)]

ثالثاً : ظهور الفكر الاشتراكي :

ولد الفكر الاشتراكي في أوروبا كرد فعل على مساوئ الرأسمالية وبعد الحرب العالمية الأولى وانتصار الثورة البلشفية في روسيا عام (١٩١٧م) ، ظهر المعسكر الشيوعي كقوة عالمية ، وانقسم العالم إلى معسكرين شرقي وغربي (شيوعي ورأسمالي) واتجهت كثير من الدول العربية والإسلامية إلى الانضواء تحت المعسكر الشيوعي[(٢)] . وعملت الأنظمة في تلك البلدان على فرض النظرية الاشتراكية بالقوة من خلال الأحزاب والمنظمات الاشتراكية في العالم العربي والإسلامي عموماً وفي مصر خصوصاً بكافة الوسائل [(٣)].

---

(١) أوراق من التاريخ جمعة أمين سعيد : ٤٨/١ .

(٢) الاشتراكية العربية ، أمين مصطفى وآخرون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٠م ، ص٧٤.

(٣) المصدر السابق ص٧٤ بتصرف .

رابعاً : سيادة الاتجاه المادي : وذلك بعد الثورة الصناعية حيث كان له تأثيره على جميع جوانب الحياة ووظائفها .

خامساً : إلغاء الخلافة الإسلامية :

وذلك على يد مصطفى أتاتورك[١] عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) وقد كان لهذا الحدث آثاره الخطيرة على العالمين الإسلامي والعربي ولا تزال إلى اليوم ، حيث فقد المسلمون المظلة التي كانت تظلهم طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان ، بالإضافة إلى ظهور الدعوة إلى محاربة فكرة الخلافة ومهاجمة من يدعو إليها في كثير من البلدان الإسلامية .[٢]

سادساً : نمو الدعوة إلى العلمانية[٣]

(١) هو :مصطفى كمال بن علي رضا بك ، ولد في سالونيك بتركيا عام ١٨٨٠م ،أحد ضباط الجيش التركي ،انقلب على الخلافة الإسلامية وألغاها عام ١٩٢٤م ،وحولها إلى دولة علمانية ،ترأس تركيا حتى هلك عام١٩٣٨م ،انظر : الموسوعة السياسية والعسكرية ، د/فراس البيطار دار أسامة ،الأردن ،طبعة عام ٢٠٠٣م ،١/٣٤٢-٣٤٦ ..

(٢) ينظر :الإسلام والخلافة في العصر الحديث : د/ محمد ضياء الدين الريس ص ١٦٢ .

(٣) العلمانية : مصطلح غربي ظهر مع الثورة الفرنسية ويعني :إقصاء الدين عن الحياة وإقامتها في كل مجالاتها بعيدا عن توجيهاته ، انظر : العلمانية د/سفر الحوالي ، مكتبة الطيب ،القاهرة ،ط١ ،١٤١٨ه،ص ٢١-٢٤، و العلمانية وثمارها الخبيثة لمحمد شاكر الشريف، دار الرياض للنشر .

والديمقراطيـة[1]: بسبب الاستبداد والصراع الذي ظهر بين الكنيسة وعلماء الاكتشافات المادية والظلم الاجتماعي الناتج عنه، فكان الحل عندهم هو (فصل الدين عن الحياة) وخصوصاً إقصاءه عن الدولة، وحصره في علاقة العبد بربه ، وبالتالي جاءت فكرة الديمقراطية والتي تقوم على حكم الشعب نفسه بنفسه من خلال ما تراه الأغلبية النيابية !!! [2]

وقد انتقلت هذه العدوى إلى العالم الإسلامي فظهرت الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة، وبدأت رحلة إقصاء الشريعة الإسلامية واستبدالها بالقوانين الغربية والشرقية من ذلك الوقت ولا تزال ،وليس هناك موجب لذلك إذ الإسلام لا يعارض أيَّ علم أو اكتشاف ؛ لأنه دين العلم والعقل .

---

(١) الديمقراطية : مصطلح غربي يعني : حكم الشعب نفسه بنفسه عن طريق ما تراه الأغلبية النيابية، فهي نزع للحاكمية عن الله وإعطاؤها للبشر، انظر : مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ، ص ١٨٧ ، والعلمانية ، للحوالي ،ص٢٤١

(٢) انظر : مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ص ١٨٧ ، والعلمانية ، للحوالي ، ص٢٤١

سابعاً : انتشار موجة الانحلال الخلقي :

حيث تعرض العالم الإسلامي لموجة من الانحلال الخلقي في بداية القرن العشرين الميلادي ، فظهرت السينما والمسارح والمجلات الهابطة والقصص الخليعة المترجمة عن الأدب الإباحي الغربي ، وزادت مظاهر التبرج والسفور والتعري على الشواطئ والاختلاط وحانات الخمور ومحلات البغاء ، وساعد على ذلك الاحتلال والأنظمة الاشتراكية والغربية على حدٍ سواء . (١)

ثامناً : نمو الدعوة إلى الاستقلال :

وظهور حركات التحرر الوطني المناوءة للاحتلال وكان للحركة الإسلامية عموماً أثر واضح في إذكاء روح الجهاد في الأمة وطرد المحتلين وإن كانت ثمرات جهادها يقطفها غيرها !!

(١) انظر : أوراق من التاريخ ،جمعة أمين سعيد ، ٢٣/١ بتصرف .

المبـحـث الأول

الحــالة السيـاسيـة

عند البحث في الحياة السياسية في وقت ومكان محدد ، ينصب الحديث عادة على السلطة المتولية على هذا القطر ، والحوادث الداخلية، والأوضاع الخارجية المتعلقة به ،ولما كان الحديث عن سيد قطب– رحمه الله – الذي عاش في مصر للفترة من ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) إلى ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) ، فسيكون حديثنا عن أحوال مصر وما يرتبط بها في تلك الفترة.

* بسط العثمانيون سيطرتهم على مصر عام ٩٢٢هـ بعد معركة (مرج دابق) مع المماليك ، وأصبحت مصر ضمن الخلافة الإسلامية العثمانية (١) .

* وفي عام (١٧٩٨م) كانت الحملة الفرنسية على مصر ، واستمرت ثلاث سنوات أمضتها في قتال عنيف مع الشعب المصري حتى أجبرت على الرحيل، وبعد رحيل الفرنسيين عن مصر حاولت إنجلترا فرض سيطرتها على مصر ودخلت في صراع مع الخلافة العثمانية

* وفي بداية القرن ١٩م ظهر في مصر المغامر محمد علي باشا (٢)،

---

(١) تاريخ مصر السياسي : أمين سعيد ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٧م ، ص١٣.

(٢) هو: محمد علي باشا ،ولد في مقدونيا عام ١٧٦٩م ،من أسرة ألبانية ، أحد ضباط الجيش العثماني الذي أرسل لحماية مصر ، استعان بالأوربيين فاستقل بمصر عن العثمانيين ،كان مفتونا بالغرب وفي عهده بدأت البعثات إلى الغرب ، ورحلة إقصاء الشريعة واستبدالها بالقوانين ، هلك عام ١٨٤٨م ، انظر : الموسوعة السياسية ٩٢/٦ .

وكان ضمن القوات العثمانية التي جاءت لحماية مصر ، وبدأ نفوذه يزداد حتى أرغم العثمانيين على تعيينه حاكماً لمصر عام ١٨٠٥م ، ثم دخل في صراع معهم حتى عقدت معاهدة لندن عام ١٨٤٠م والتي نصت على بقاء السيادة العثمانية على مصر مع ضمان عرش مصر في أسرة محمد علي باشا. ولأنه كان مفتوناً بالغرب فقد عمل على إرسال البعثات إلى دول أوروبا ، واستقدام الخبراء الغربيين لتطوير الجيش والمناهج والقوانين في مصر !!! (١)

* وظل أبناء محمد علي باشا يتوارثون عرش مصر بعد وفاته ، وغرقت مصر في عهدهم بالديون حتى وقعت في قبضة الاحتلال الإنجليزي عقب فشل الثورة العرابية عام ١٨٨٢م وأصبحوا ألعوبة في يد بريطانيا (٢) .

* وفي عام ١٩١٤م قامت الحرب العالمية الأولى، فاستغلت بريطانيا الحرب، وأعلنت حمايتها على مصر في ١٨/١٢/١٩١٤م، وبسبب سياسة الاستعمار فقد ضاق الشعب المصري ببريطانيا وقام العلماء والمفكرون بإذكاء روح الثورة والعداء لها، فاشتعلت الثورة ضدها في كل مكان ٠

* وفي ١٥/٣/١٩٢٢م ثار خلاف قوي بين القوى السياسية والملك حول الدستور ، انتهى بوضع دستور عام ١٩٢٣م الذي أتاح للانجليز التدخل في شؤون مصر، ثم أُجريت الانتخابات وفاز بها حزب الوفد وتولى شؤون

---

(١) عصر محمد علي باشا ، عبد الرحمن الرافعي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٣ ، عام ١٩٥١م ، ص٣٣٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) الثورة العرابية ، عبد الرحمن الرافعي ، بيروت ، دار نشر ، ط٣ ، عام ١٩٦٦م ، ص٣٣١ .

الحكم في مصر [١] .

* وفي عام ١٩٢٤م أعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا ، تلاها دعوات علماء العالم الإسلامي لعقد اجتماع في القاهرة في ١٩٢٤/٣/٢٥م لبحث مسألة الخلافة وتعيين شخص الخليفة وانتهى الاجتماع دون الوصول إلى نتيجة ، وأُسدل الستار على الموضوع[٢].

ثم بدأت حملة شرسة على مسألة الخلافة وعلاقتها بالدين، وكان أول من تولى كبرها (علي عبد الرازق)[٣] في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث تحرك عدد من علماء المسلمين للرد عليه ، ومناقشة أصحاب هذا الاتجاه أيضاً[٤] .

---

(١) في أعقاب الثورة المصرية : عبد الرحمن الرافعي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٥٩م ، ٤٣/١.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، د/أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥ ، عام ١٩٩٢م ، ٣٣٥/٥ ، والاتجاهات الوطنية د/محمد محمد حسين ، ٢٣/٢ وما بعدها .

(٣) هو :علي بن حسن بن أحمد عبد الرازق، ولد بمصر، عام ١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م ،عالم أزهري ، تولى منصب القضاء بالمنصورة ، سحبت منه شهادة الأزهر وفصل من القضاء بقرار من هيئة كبار العلماء في الأزهر بعد جلسة تأديبية حوكم فيها ، بسبب تأليفه كتاب (الإسلام وأصول الحكم ، توفي عام ١٣٨٦هـ -١٩٦٦ م ، انظر : الأعلام ، للزركلي ٤ /٢٧٦٠ .

(٤) منهم : الشيخ: محمد رشيد رضا في كتابه (الخلافة أو الإمامة العظمى) ، والشيخ: محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية وشيخ الأزهر في كتابه (حقيقة الإسلام وأصول الحكم ، والشيخ: محمد الخضر حسين،في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم :وشيخ الإسلام في تركيا: مصطفى صبري في كتابه (النكير) .

وهكذا أصبحت مصر بعد سقوط الخلافة وطناً باهتاً ، اقتطع من أصله ، وأصبحت ضمن الإمبراطورية البريطانية ، وإن منحت في الظاهر ثوب الاستقلال، وعمل المستعمرون على إذكاء النعرة الوطنية فشهدت الساحة المصرية ظهور عدة أحزاب سياسية ذات اتجاهات غربية أو اشتراكية ، لكن يجمعها كلها الدعوة إلى العلمانية ، وتمجيد الغرب أو الشرق ، وسيطرة كبار الملاك ورجال المال عليها ، مما جعلها تقبل التفاوض مع المحتل وتحول الصراع من ثورة شعب ضد معتدٍ غاصب، إلى مفاوضات سياسية بين طرفين لا تناقض بينهما أيدلوجياً (١).

* وفي عام ١٩٣٦م تولى السلطة الملك فاروق(٢) ، بعد وفاة أبيه و قام بالتوقيع على معاهدة مع بريطانيا بمباركة الأحزاب السياسية عدا الحزب الوطني الذي نجح في تأليب الشعب على الحكومة ، فاضطرت فيما بعد إلى إلغاء المعاهدة(٣) .

* وفي عام ١٩٤٨م قامت الحرب بين العرب وإسرائيل ، وشاركت مصر فيها ، وكان لجماعة الإخوان المسلمين دور بارز في الجهاد ضد اليهود ، وبعد الحرب أدرك اليهود والنصارى وأذيالهم خطورة الجماعة ،

---

(١) تاريخ النضال بين الاستقلال والاحتلال : أنور الجندي ، دار الطباعة ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٤٧م ، ص ٥٦، ص ٣٤، ٣٥ ، والإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية ، زكريا سليمان البوصي ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ص٤٢، ٤٣ .

(٢)هو فاروق بن فؤاد الأول ، ولد عام ١٩٣٠م ،شهدت مصر في عهده مفاسد ، تنازل عن العرش لابنه احمد بعد ثورة ١٩٥٢م ونفي إلى ايطاليا ،مات سنة ١٩٦٥م،انظر : الموسوعة السياسية و العسكرية ،٨٤٧/٣-٨٤٨ .

(٣) في أعقاب الثورة المصرية : عبد الرحمن الرافعي ، ٤٩/٣ ، وتاريخ مصر السياسي ، أمين سعيد ، ص٢٤٣.

فضغطوا على الملك ، فأصدر قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين في ديسمبر ١٩٤٨م، وعلى إثره دُبرت مؤامرة لاغتيال مؤ سسها، فاغتيل الإمام حسن البنا[١]– رحمه الله – في ١٩٤٩/٢/١٢م ،وسادت مصر بعد ذلك موجه من الفوضى والإرهاب وزادت المظاهرات خاصة بعد معركة القناة في ١٩٥٢/١/٢٦م بسبب الفساد المستشري في البلاد ، وكانت حركة الضباط الأحرار[٢] ترقب الأحداث وتتحين الفرصة للانقضاض على النظام الملكي القائم ، وأدرك النظام ما ينويه الضباط فقرر محاكمتهم ، لكنهم استبقوا الأحداث ، وقاموا بانقلاب ليلة الأربعاء ١٩٥٢/٧/٢٣م ، واختاروا اللواء محمد نجيب [٣]رئيساً للجمهورية ، وجمال عبد الناصر [٤]

(١) هو : حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البناء ، ولد في الإسكندرية ، سنة ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م ، تخرج من دار العلوم وأسس جماعة الإخوان المسلمين ، اغتيل سنة ١٣٦٨هـ -١٩٤٩م ،انظر ترجمته في : الأعلام ، للزركلي ، دار العلم ، بيروت، ط ١٤ ،١٩٩٩م ،ص ١٨٣-١٨٤.

(٢) هي حركة إخوانية الأصل، تكونت من (الإخوان الضباط ثم وسعها جمال عبد الناصر وأدخل فيها غيرهم، ثم أعلن انفصالها عن الإخوان عام ١٩٥١م مع استمرار الضباط الإخوان فيها ومشاركتهم بالثورة ، انظر : أسرار حركة الضباط الأحرار ، حسين حمودة ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م ، ص١٥٠ وما بعدها ، و تاريخ مصر السياسي ، أمين سعيد ، ص٣٣٧ .

(٣) هو: محمد نجيب ، ولد في الخرطوم عام ١٣١٨هـ ،درس في القاهرة ،وشارك في الثورة ،وتولى أول رئاسة للجمهورية ،وخلعه عبد الناصر عام ١٩٥٤م، انظر : التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ،١١٤/١٣ . ، الموسوعة السياسية و العسكرية ص ٩٧٩/٣

(٤) هو:جمال عبد الناصر حسين خليل ، ولد في أسيوط عام١٩١٨م ،وتربى في حارة اليهود في القاهرة ،شارك في الثورة وتولى حكم مصر من عام ١٩٥٤م -١٩٧٠م ،حيث مات بالفجأة ،انظر :الأعلام للزركلي ،١٣٤/٢ ، والتاريخ الإسلامي ، لمحمود

رئيساً للوزراء ، وتم إقصاء الملك فاروق من الحكم .

* وفي عام ١٩٥٤م أُعفي محمد نجيب من الرئاسة وعين جمال عبد الناصر رئيساً لمصر [١] ، ولم تكن الحياة السياسية وغيرها في عهد عبد الناصر ونظامه أحسن حالاً من الحياة في ظل الملكية ، بل زادت سوءاً ، ونخر الفساد فيها ، وظهرت فئات من النفعيين والمرتزقة والظالمين المدنيين والعسكريين ، الذين عملوا على إذكاء الخلاف بين عبد الناصر والإخوان ، حتى تحول عبد الناصر إلى عدوٍ لدودٍ للإخوان وللإسلام عموماً .

*وفي ١٩٥٤/١/١٥م قررعبد الناصر ضرب حركة الإخوان فأصدر مجلس قيادة الثورة أمراً بحل جماعة الإخوان مسبباً ذلك بخطورتها وتهديدها للأمن!! والتآمر ضد الوطن!!، وفي صباح اليوم التالي تم اعتقال قادة الإخوان، ثم أفرج عنهم بعد شهرين بسبب المظاهرات الضخمة التي قام بها الإخوان .

* وفي ١٩٥٤/١٠/٢٦م أعلن عن محاولة الإخوان لاغتيال عبد الناصر فيما يعرف بـ " حادثة المنشية " ليكون ذلك وسيلة للقضاء على الإخوان [٢]، والتي نتج عنها مذبحة ثانية للإخوان كانت أشد مما حدث لهم في عهد الملكية، حيث زُجَّ بهم في المعتقلات ، وصُبَّ عليهم صنوف

شاكر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١، عام ١٤١١هـ ،١٣١/١٣ -١٧٣ ، وعبد الناصر وعلاقاته ، لأحمد عبد المجيد ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط ١ ،١٤١٥هـ ،كاملا.

(١) الثورة والتنظيم السياسي، جلال يحيى ، دار المعارف ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٦م ، ص٢٥٧.

(٢) انظر تفصيلات ذلك في : الإخوان المسلمون . لمحمود عبد الحليم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط عام ١٩٧٩م ، ٢٦٨/٣ وما بعدها.

من الاضطهاد والتعذيب الذي لا يوصف ، وشكلت لهم المحاكم العسكرية التي لا مثيل لها في التاريخ إلا محاكم التفتيش في الأندلس (١) وكانت نهاية آلاف من الشباب على أعواد المشانق أو الموت في زنازين التعذيب ، {وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ} [سورة البروج:٨] .

* وفي عام ١٩٦٥م أعلن عبد الناصر عن محاولة انقلاب عليه وهو في موسكو، بتدبير الإخوان وكانت على إثرها المذبحة الثالثة وكان ممن اكتوى بنارها سيد قطب وتنظيم ١٩٦٥م وكان ذلك كله بمباركة دول الكفر شرقية وغربية .

ولم يكتف عبد الناصر بحربه على الجماعات الإسلامية بل عمل على إلغاء المحاكم الشرعية وتحويل الأزهر إلى جامعة عصرية ، كما قضى على مكاتب تحفيظ القرآن وقام بتوزيع الأوقاف ، وتأييد الدعوة البهائية ، واحتضانها ، وتشجيع الكتّاب الملحدين ، وفرض النظام الاشتراكي والولاء للغرب تحت ستار الوطنية والقومية (٢) .

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر ، لجابر رزق ، دار الوفاء ، القاهرة ، ط٨٦م ، ص١١٣، و أيام من حياتي لزينب الغزالي . دار التوزيع ، القاهرة ،ط١ ،١٤٢٠ هـ ،ص٥٠ وما بعدها ٠

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية ، أنور الجندي ، دار القافلة ، السعودية ، طبعة عام ١٩٩٧م ، ص ٤٣وما بعدها .

المبحث الثاني

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

في هذا المبحث نستعرض معالم البناء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المصري خلال الفترة التي عاش فيها سيد قطب وآثار ذلك على المجتمع من خلال المطلبين الآتيين :

المطلب الأول : الحياة الاجتماعية .

المطلب الثاني : الحياة الاقتصادية .

المطلب الأول

الحياة الاجتماعية

برزت على سطح الحياة الاجتماعية في مصر أوائل القرن العشرين الميلادي عدة ظواهر أثرت في الحياة الاجتماعية من أبرزها.

١- **ظاهرة الاحتلال:** وما صاحبها من مظالم وفساد أخلاقي واجتماعي وقهر، بالإضافة إلى ما نتج عنها من تخلف علمي وضياع للحقوق وتبعية وفساد للقيم.

٢- **ظاهرة النظام الطبقي** : حيث ظهرت الطبقية الصارخة في المجتمع المصري وأنشأت نوعاً من الظلم الاجتماعي ، أدى إلى الإحساس بالقهر والذل ، وظهور موجه الانحلال الخلقي في أوساط شرائح المجتمع ، فأثمرت جيلاً متغرباً في وطنه ، فاقداً لمعالم الشخصية الأخلاقية.

ونتيجة لذلك فقد ظهرت ثلاث طبقات في تركيبة المجتمع المصري هي [١]:

أ - **الطبقة العليا** : وتضم كبار الملاك وأصحاب الشركات والبنوك ووسائل الإنتاج ويعيش أفرادها حياة ملؤها الترف ، وتسودها الثقافة الليبرالية الغربية نتيجة لاتصال أفرادها بالمجتمع الأوروبي من خلال البعثات ومدارس التعليم الأجنبية والتي لعبت دوراً كبيراً في نشر الثقافة الغربية في مصر .

---

(١) ينظر : ميلاد ثورة ،محمد عودة ،دار الجمهورية ، القاهرة ،ط ١٩٧١م ،ص ١١١ وما بعدها ، و أوراق من التاريخ ، جمعة أمين سعيد ، ٦٦/١

ب- الطبقة المتوسطة : وتضم التجار المتوسطين ، وأصحاب الملكيات المتوسطة وقطاعاً كبيراً من المثقفين والعاملين بالحكومة ، الذين كان لهم تأثير واضح وقوي في المجتمع سلباً وإيجاباً .

ج – الطبقة الدنيا : وتضم الفلاحين والعمال ، وتمثل الأغلبية في المجتمع المصري "٦٠%" ويعيش أفرادها حياة الفقر والحرمان ، فلا يكادون يجدون لقمة العيش إلا بشق الأنفس ، مما سبب انتشار الجهل والمرض والانحلال الخلقي في أوساط هذه الطبقة .

٣- ظاهرة التحلل الأخلاقي والعقائدي : حيث انتشرت مظاهر الفساد ، وعمت المنكرات الخلقية في المجتمع، فظهرت الملاهي الليلية والحانات والخمارات،وأماكن البغاء المصرح بها !!! وعم الاختلاط في المدارس والنوادي والصالونات الأدبية، وظهر التعري على الشواطئ ، والسفور والتبرج ، وأصبحت الدعوة إلى هذه المنكرات علناً على صفحات الجرائد وفي وسائل الإعلام بصورة مقززة !! والأدهى والأمر أن تقوم الهيئات الحكومية بالدعاية للفساد الخلقي وحمايته وإصدار تراخيص للبغايا![(١)]

٤- حركة تحرير المرأة : بدأت حركة تحرير المرأة (كما يزعم دعاتها) منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان من أوائل من دعا إليها قاسم أمين [(٢)]، حيث بدأ الدعوة إلى تحرير المرأة في كتابين أصدر أولهما

---

(١) أوراق من التاريخ ، جمعة أمين ، ٨٤/١ – ٨٦ ، بتصرف .

(٢) هو :قاسم بن محمد أمين المصري ،كردي الأصل ، ولد عام ١٨٦٣م، كاتب وباحث ، درس في فرنسا وعين مستشارا في المحكمة بمصر ،من دعاة تحرير المرأة والتغريب ،له عدة مؤلفات ، مات عام ١٩٠٨م ،انظر : الأعلام للزركلي ١٨٤/٥ ، و

عام ١٨٩٩م والآخر عام ١٩٠٠م ، وتطورت هذه الدعوة بسرعة مذهلة، وأعان على نشرها جو الثورة ، وتزعم بعض النساء المدعومات من الغرب لجمعيات وحركات تحرير المرأة، ، وعلى رأسهن هدى شعراوي [١]، كما كان للصحافة تأثيرها في معركة السفور والمؤامرة على المرأة المسلمة. واستغل التغريبيون ظروف المرأة المصرية باسم التعليم والتثقيف والتحرير!! حتى أخرجت من مكانها الطبيعي، وجعلت سلعة للترويج التجاري والسينمائي فامتلأت المصانع والمتاجر والحانات بالعاملات ، وكسرت الحواجز بين الرجال والنساء وسقط الحجاب تدريجياً ، رغم محاولة العلماء والمفكرين الوقوف أمام هذه التيارات ولكن الأمر كان أكبر من أن يقضى عليه [٢].

٥-**<u>حركات التنصير</u>:** حيث استغلت الدول الغربية – النصرانية – ضعف المسلمين ووجود الأحزاب العميلة للغرب ، فغزت العالم الإسلامي بحملات تنصيرية ضخمة ،بدأت بشكل منظم منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي

معركة السفور والحجاب ، لمحمد أحمد إسماعيل المقدم ، دار طيبة الرياض ، ط ٣ ، عام ١٤٠٦ هـ ، ٣٣/١ وما بعدها.

(١) هي :هدى بنت محمد سلطان شعراوي ،ولدت في المنيا عام ١٩٣٠م ،ونشأت في القاهرة ، وكان أبوها رئيسا لأول مجلس نيابي في مصر ،تعد أول امرأة خلعت الحجاب في مصر ،أسست جمعية الاتحاد النسائي وعملت على تغريب المرأة ماتت عام ١٣٦٧هـ بالقاهرة ، انظر :التاريخ الإسلامي محمود شاكر ،٢٢/١٣ ،هامش ٢ .

(٢) معركة الحجاب والسفور، محمد أحمد المقدم ، ٢٥/١ وما بعدها ، والإخوان المسلمون، محمود عبد الحليم ، ٦٣/١.

وترأسها القس "زويمر" [1]، فكثرت مؤتمرات التنصير في مصر والعالم الإسلامي ، وانتشرت مدارس المنصرين في أغلب البلاد ، كما استغل المنصرون الجمعيات المشبوهة، والجرائد ووسائل الإعلام ، وساعدهم على تنفيذ مخططاتهم قوتان :

الأولى : قوة الاحتلال الصليبي ، الذي فتح الباب للحملات التنصيرية ، بعد أن مهد لها بنشر الجهل والفقر والمرض .

الثانية : قوة الحكام ، الذين أصبحوا يدينون بالولاء والطاعة للغرب النصراني ، ويعملون على نشر تعاليمه ، وبالتالي سهلوا للمنصرين مهمة العمل والتنقل والحماية !!! فانطلقوا في مصر يعملون على نشر الشبهات والطعن في العقائد الإسلامية ، ونشر الانحلال الخلقي ، واستهووا الشباب بالمال والنساء والمناصب مستغلين جهل الناس وحاجتهم [2] .

وبصورة عامة فقد كان المظهر الاجتماعي المصري في تلك الفترة فاحشاً سيئاً ، صوره سيد قطب بقوله :

" في مصر ما لا يحفظ التاريخ من فحش يعج وفحش يكتم .

وليس هذا الفحش بقاصرٍ على ما ينصرف إليه الذهن أول وهلةٍ ، ولكنه فحش يشمل كل شيءٍ ، يشمل الضمائر والأسرار ، ويشمل الترف

---

(١) هو :صموئيل زويمر ،منصر أمريكي ،ولد عام ١٨٦٧م ، زعيم الإرساليات التنصيرية في الخليج ، حرر مجلة العالم الإسلامي المعروفة بعدائها للإسلام والمسلمين ، هلك عام ١٩٥٢م ، انظر:المنجد في الأعلام ، دار المشرق ،بيروت ، ط٢٧ ،ص٢٨١.

(٢) الإخوان المسلمون ، محمود عبد الحليم ، ٥٩/١ .

الشخصي اليومي للألوف والملايين في مصر ، فحش من الفقر ، وفحش من الغنى ، فحش من الحرمان وفحش من المتاع وبينهما فحش من النعومة التافهة ، يقابله فحش من الخشونة العارمة " [(١)] .

---

(١) مجلة الرسالة ، العدد ٣٩٤ لسنة ١٩٤١م ، ص٧٨ ، نقلاً عن : سيد قطب حياته وأدبه ، لعبد الباقي محمد حسين ،دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢، عام ١٩٩٣م ، ص٢٦.

المطلب الثانـي

الحيـاة الاقتـصـاديـة

خضـعت مصـر للاحـتلال البريطـاني عـام ١٨٨٢ م، وأقبـل القـرن العشرون وقد ارتبط الاقتصاد المصري بالاقتصاد العالمي في أوروبا ومن ثم تـأثر اقتصـاد مصـر بـه سلباً وإيجابـاً ، ويمكـن إيجـاز ملامـح الوضـع الاقتصادي في مصر خلال تلك الفترة في الآتي : (١)

١–خضوع مصـر اقتصـادياً للسيطرة الأجنبيـة ، حيث قام المحتلـون بـربط اقتصاد مصر بالاقتصاد الإنجليزي ربطاً كاملاً من خلال :

أ – تشجيع المستثمرين الأجانب على إقامة المشروعات الكبرى ، وبيوت الأموال والبنوك .

ب– فتح السوق المصرية للمنتجات الصناعية الأجنبية .

ج – تحويل مصر إلى منطقة زراعية ، نظراً لخصوبة الأرض ووفرة المياه فيها .

د – تركيز الزراعـة علـى محصـول القطـن فقط نظـراً لحاجـة الغرب إليـه ، وإهمال الزراعات الأخرى.

---

(١) ينظر في ذلك : ١- تاريخ مصر السياسي . أحمد عبد الرحيم مصطفى . ص ٢٤.
٢- تاريخ مصر الاقتصادي . أمين مصطفى عفيفي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٣، عام ١٩٥٤م ، ص٤٨٨
٣ - أوراق من التاريخ ، جمعة أمين ، ص٨٨ وما بعدها .

هـ- اعتماد النقد المصري على أذونات الخزانة البريطانية ، واعتماد النظم الربوية في التعامل التجاري .

٢- سوء توزيع الملكية الزراعية ، بسبب النظام الإقطاعي ، حيث تركزت الملكية للأرض بيد فئة من كبار الملاك والشركات الاستثمارية ، وقد شجع هذا الوضع على الدعوة إلى الاشتراكية وإعادة توزيع الملكية فكان الحال " كالمستجير في الرمضاء بالنار ".

٣- فرض الحكومات للضرائب الباهضة على المزارعين مما ضاعف مأساة الشعب وقد أدت هذه الأوضاع إلى انخفاض مستوى المعيشة للشعب ، وتأثر الجانب الاجتماعي والأخلاقي بها .

المبحث الثالث

الحالة العلمية والفكرية

في هذا المبحث نلقي الضوء على جانب مهم من جوانب الحياة، وهو الجانب العلمي والفكري والثقافي للمجتمع المصري في تلك الفترة، من خلال المطلبين الآتيين :

المطلب الأول

الحياة العلمية

دخل العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين في غفوةٍ علمية طويلة ، متأثراً بالخَدَر الذي أنشأه الفكر الإرجائي من جهة ، والتصوف المنحرف الذي غلب على البلاد الإسلامية في نهاية الخلافة العثمانية من جهة أخرى، بالإضافة إلى تأثير الاستبداد السياسي وفساد الأنظمة على بقية نواحي الحياة في المجتمع [١].

ففي المجال العلمي حدث تقلص ضخم أبعد بالتدريج كل العلوم الدنيوية عن معاهد العلم ، وفي باب العلوم الشرعية اقتصُر فيه على فكر القرن الخامس الهجري ، مع ما في طريقة الدراسة من تخلف عن الصورة التي ينبغي أن تكون عليها ، ورويداً رويداً فقدت الأمة حاستها العلمية ،

---

(١) واقعنا المعاصر . محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، جدة ، ط٣ ، عام ١٩٩٠م ، ص١٧٤ ، بتصرف .

وقلَّ الإقبال على العلم ، ففشا الجهل والأمية في الأمة ، وجمدت العلوم الشرعية على صورتها التي كانت عليها قبل خمسة قرون ، بما كان قد دخلها من غزو فكري إغريقي ، وعلم كلامٍ حوَّل العقيدة إلى معضلات ، وأفرغها من محتواها الحي ، وجعلها في صورة قضايا فلسفية ، وتحولَّ الطلاب غالباً إلى حفظةٍ لا مفكرين ، يتعالم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والحواشي !!، كما ظهر التعصب المذهبي الذي أذكى الخلاف والفرقة بين المسلمين عموماً ، مع أنه لم يخل عصر من عصور الإسلام من عَالمٍ بالمعنى الحق للعلم ، ولكن قلتهم التدريجية أدت إلى فشو الجهل ، وانتشار التقليد وأصبحت الحالة العلمية في ركود شبه تام في نهاية الخلافة العثمانية (١).

ثم وقع العالم الإسلامي في براثن الاحتلال الصليبي بعد إسقاط الخلافة الإسلامية مما أدى إلى ظهور التيارات المختلفة الداعية إلى إصلاح أحوال الأمة ، والنهوض بالمجتمعات المسلمة ، وقد احتدم الصراع بين اتجاهين متمايزين في التصور والأسلوب (٢) هما :

<u>الأول : الاتجاه الإسلامي للإصلاح</u> والذي ترجع بداياته إلى دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب (٣)– رحمه الله – "١١١٥هـ –١٢٠٦هـ" "١٧٠٣–

---

(١) المصدر السابق . محمد قطب ، ص ١٧٦.

(٢) أوراق من التاريخ ، جمعة أمين سعيد ، ٩٨/١.

(٣) هو : محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ، ولد بالعيينة، ورحل إلى الحجاز والبصرة، ثم عاد إلى نجد، وقام بالدعوة إلى التوحيد فعاونه محمد بن سعود، فانتشرت دعوته في نجد ثم انتقلت إلى كثير من بلدان العالم، توفي عام ١٢٠٦هـ ، انظر : الأعلام

١٧٩١م" في الجزيرة العربية ، وتعتبر دعوته أول محاولة تجديدية في العصر الحديث ، تدعو للعودة بالإسلام إلى ما كان عليه السلف متأثرة بخطى شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)]– رحمه الله – حيث اهتمت بالعقيدة والتوحيد وإحياء العلم الشرعي ، ومحاربة البدع والخرافات ، وإحياء التفكير الإسلامي والاستمداد من الكتاب والسنة ، وكان لهذه الدعوة أثرها في مصر بصورة جلية تمثلت في إنشاء بعض الجمعيات والجماعات الإسلامية من أهمها : "الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة " بقيادة الشيخ السبكي [(٢)] "–رحمه الله – ، وجماعة أنصار السنة " بقيادة الشيخ :محمد حامد الفقي – [(٣)]رحمه الله–، وكان لهم جهود طيبة في إعادة طبع ونشر عدد كبير من كتب السلف من مختلف العصور والبلدان ، في شتى مجالات الحياة العلمية ، وخاصة الكتب التي توجه النقد

للزر كلي، ١٣٧/٧، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث، بيروت، ب٠ت ، ٢٦٩/١٠.

(١) هو :أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الدمشقي ، الحراني ،شيخ الإسلام ، أبو العباس ، ولد بحران سنة ٦٦١هـ ،وتحول إلى دمشق ،كان ذا علم وشجاعة وجهاد ، صنف في فنون متعددة ، وسجن عدة مرات ،توفي في دمشق سنة ٧٢٨هـ ،انظر : النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي ، دار الكتب ،بيروت ،ب.ت ٢٧١/٩ ، والبدر الطالع ،للشوكاني ،مطبعة السعادة ، بيروت ،ط ١٩٨٤م، ٤٦/١-٥٠ ٠

(٢) هو : محمود بن محمد بن أحمد بن خطاب السبكي ،فقيه مالكي ، ولد سنة ١٢٧٤هـ، تعلم في الأزهر ودرَّس فيه، وأسس الجماعة الشرعية بمصر، توفي سنة ١٣٥٢هـ ، انظر: الأعلام للزركلي، ٧/ ١٨٧ ٠

(٣) هو محمد بن حامد الفقي ، ولد في البحيرة بمصر ، حفظ القرآن صغيرا ،وتخرج من الأزهر، وأسس جماعة أنصار السنة، توفي سنة ١٣٧٨هـ ، انظر: معجم المؤلفين ١٧٢/٩ ٠

للممارسات الصوفية الخاطئة ، وكتب العقيدة والأصول ٠

بالإضافة إلى الدعوة السنوسية في ليبيا ، والدعوة المهدية في السودان .

كما ظهرت الدعوة الإصلاحية في مصر على يد جمال الدين الأفغاني(١) ومحمد عبده (٢)، ومن جاء بعدهما كالشيخ رشيد رضا (٣) – رحمهم الله –، حيث حاول بعض أفرادها التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية!! واستخدام نتاج الفكر والفلسفات الغربية في مجال العلوم الشرعية.

ثم ظهرت حركة الإخوان المسلمين بقيادة الإمام حسن البنا– رحمه الله– وكان لها أثركبير في الحياة العلمية ، في مصر والعالم الإسلامي عموماً متأثرة في أحيان كثيرة بالحركات السابقة الذكر(٤) .

<u>الثاني: الاتجاه التغريبي :</u> والذي بدأ إثر الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م

---

(١) هو :جمال الدين بن صفدر بن علي الحسيني ، ولد بهمدان ، سنة ١٢٦٦هـ - ١٨٠٨م ، تعلم في الأزهر، وسافر إلى الحجاز والهند ،ونفي إلى باريس، تأثر بالغرب في دعوته للإصلاح ، اتهمه البعض بالماسونية، ودافع عنه آخرون ، توفي بالقسطنطينية سنة ١٣١٤ هـ، انظر: معجم المؤلفين ١٤٥/٣ ٠

(٢) هو :محمد بن عبده بن خير الله التركماني، مفسر ومتكلم وأديب وسياسي، ولد في الغربية بمصر سنة ١٢٦٦هـ تعلم في الأزهر، وشارك في الثورة العرابية ، ونفي إلى الشام ثم سافر إلى باريس، وعاد إلى مصر، وتولى القضاء والإفتاء، توفي في القاهرة سنة ١٣٢٣هـ ، انظر : الأعلام ٢٥٠/٦ ومعجم المؤلفين ٢٧٢/١٠ ٠

(٣) هو :محمد رشيد بن علي القلموني، محدث ومفسر وأديب وسياسي، ولد في قلمون بطرابلس ، سنة١٢٨٢هـ-١٨٦٥م ، رحل إلى بيروت والحجاز وأوربا ومصر، عين رئيسا للمؤتمر السوري ،وأصدر مجلة المنار ،وتوفي سنة ١٣٥٤هـ-١٩٣٥م ، انظر: الأعلام ١٢٦/٦ ومعجم المؤلفين ٣١٠/٩ ٠

(٤) أوراق من التاريخ ، جمعة أمين ، ١٠٦/١ وما بعدها بتصرف.

على مصر والمشرق العربي ويدور أصحاب هذا الاتجاه في إطار عقلية الغرب ونمط تفكيره ، ورؤيته للحياة ، حيث ظهر هذا التيار في مصر بقوة وساعد على ظهوره عدة عوامل منها :

أ - الاحتلال الصليبي الغربي ، وما صاحبه من فرض قوانين ونظريات ومناهج المحتل .

ب- المدارس الأجنبية التي ظهرت في مصر، وفيها تربى أبناء النخبة الحاكمة وكان لهم أثر في تغريب الحياة العلمية في مصر.

ج - البعثات الدراسية إلى أوروبا ، وتربية المبعوثين في المحاضن الغربية وفق النمط الغربي العلماني وتسليمهم زمام النواحي التعليمية والثقافية في البلاد بعد ذلك .

ويمثل الاتجاه التغريبي :

١-التيار التحرري " العلماني ".

٢- التيار الشيوعي. (١)

وكلا التيارين يقومان على النظريات والمناهج الاجتماعية والفلسفية والنفسية التي ظهرت في الغرب والشرق، المبنية على الفوضى المطلقة والإلحاد أو الفهم العلماني للدين (٢).

وقد عمل الغربيون على طبع الحياة العلمية في مصر بالطابع الغربي ،

---

(١) ومن رموزه في مصر : سلامه موسى ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وعلي عبد الرازق وغيرهم.

(٢) أوراق من التاريخ ، جمعة أمين ، ١/١١٨ وما بعدها .

وتمكين التيار التغريبي من أبناء مصر من المناصب العلمية مما كان له أثر سيء على الحياة العلمية والتعليمية والثقافية في مصر كما سيأتي بيانه .

وبعد قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢م بدأت مرحلة أكثر تدهوراً وسوءاً مما كان سابقاً بسبب النظام الاشتراكي الناصري الذي عمل على محاربة الفكر الإسلامي وتجفيف منابعه.

المطلب الثانـي

الحـالة الثقافية والأدبيـة

هناك عدة عوامل أثرت في الحياة الثقافية والأدبية في مصر في بداية القرن العشـرين المـيلادي منهـا : التعلـيم ومؤسسـاته المختلفـة ، والبعثـات العلمية ، والصـحافة ، والترجمـة ، والمدارس الأدبيـة والنقديـة ، والتـي أثرت بشكل مباشر في ثقافة المجتمع المصري وفكر أبنائه ويمكن استعراض أهم العوامل إجمالاً فيما يأتي :

<u>أولاً : مؤسسات التعليم :</u>

ظلت سياسة وزارة المعارف المصرية هي السياسة التي وضعها الإنجليز أيام الاحتلال، وكانت الأسس الجوهرية التي وُضِعت للعملية التعليمية سواءً مـا يتعلـق بالأهـداف أو الخطـط أو المنـاهج تكفل دعـم الاحـتلال وتعضـد وجوده في مصر ، وتؤدي إلى محو مظاهر الحياة الإسلامية عن طريق :

١- القضاء على القيم الإسلامية في المتعلم .

٢- تخريج جيل من أشباه المتعلمين ، الذين لا يصلحون لشيء في الحياة

٣- حشو الأذهان بالمعلومات ، وإغفال مقومات التربية وخاصة الخلقية ، مما يؤدي إلى انحلال الناشئة وفساد عقولهم [(١)].

٤- حصـر التعليم الـديني ، وحصـاره مادياً ومعنوياً ، والحـط مـن قيمتـه والسخرية بطلابه ومعلميه، والعمل على تشجيع التعليم اللاديني ورفع

---

(١) أوراق من التاريخ ، جمعه أمين ، ١٢٩/١ .

شأنه في نفوس الناس [1].

٥- فتح المدارس بدلاً عن المعاهد الأزهرية، وجعل الأولوية في الوظائف لخريجي المدارس ، ورفع رواتبهم حتى تصبح المعاهد في نظر الناس دون المدارس .

٦- جعل مادة الدين من المواد الإضافية ، ويلحق بها دروس اللغة العربية والتاريخ الإسلامي.

٧- إنشاء المدارس الأجنبية في البلاد ، لتقوم بنشر الثقافة العلمانية والفكر التغريبي .

٨- رفع شأن اللغة الإنجليزية على حساب اللغة العربية ، وجعلها لغة التدريس .

٩- تشجيع الاختلاط ، وإنشاء المدارس والجامعات المختلطة ،وجعل الاختلاط من أسس التعليم.

١٠- تخريب المناهج الدراسية تحت ستار " تطوير المناهج " حيث تم استدعاء عدد من النصارى لتطوير المؤسسات التعليمية ، بما في ذلك مؤسسات التعليم الديني كالأزهر [2].

" ويزاد عدد المدارس ، وتفتح الجامعة الأهلية ، ثم تحول إلى جامعة حكومية ،

---

(١) عوامل تقهقر الأمة المسلمة ، د/ سليم القباطي ، مكتبة الجيل، صنعاء ، ط١ ، عام ٩٧م ، ص٢٠٤.

(٢) المصدر السابق ، د / سليم القباطي ، ص٢٠٤ .

ثم تتلوها الجامعات ولكن كلها تمضي على المخطط الذي وضعه الإنجليز [١].

ويلخص لنا " زويمر " [٢] زعيم المنصرين في العالم الإسلامي ما فعله المحتلون في مصر وما جاورها بقوله في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م "لقد قضينا في هذه الحقبة من التاريخ وبالتحديد منذ ثلث القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ، إننا قد أعددنا نشئاً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجنا المسلم من الإسلام ولم ندخله في المسيحية !!" [٣].

ثانيا : الحياة الأدبية والثقافية :

شهد مطلع القرن الـ (٢٠م) في مصر ظهور حركة أدبية واسعة ، حيث انتشرت ظاهرة الأدب والكتّاب على نطاق واسع بسبب عدة عوامل منها :

١- انتشار المدارس والمعاهد والجامعات.

٢- ظهور النوادي الأدبية والمجامع اللغوية .

٣- زيادة عدد الجرائد والمجلات التي تصدر في مصر.

٤- حركة الترجمة للأدب الغربي ، وتأثر طبقة الأدباء والنقاد به .

---

(١) واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، ص٢١٧ وما بعدها بتصرف ، و موسوعة تاريخ مصر . لأحمد حسين ، دار الشعب ، القاهرة ، ب .ت ١٢٦٧/٣.

(٢) هو: صموئيل زويمر ، منصر أمريكي وزعيم الإرساليات البروتستانتية في الخليج ،ولد عام ١٨٦٧م ، حرر مجلة العالم الإسلامي المعروفة بعدائها للإسلام والمسلمين ،هلك عام ١٩٢٥م ،انظر :المنجد في الأعلام ،دار المشرق ، بيروت ، ط ٢٧ ، ص٢٨١ ..

(٣) أساليب الغزو الفكري ، د/ علي جريشة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٩٨م ، ص٢٠٥.

٥- انتشار أدب الحداثة،القائم على الثورة على كل قديم ، بسبب أن رموزه تخرجوا من الجامعات الغربية أو الأجنبية ووضعوا في مواضع القرار والتوجيه (١).

وبناءً على ذلك فقد ظهرت في الحياة الأدبية والثقافية المصرية عدة اتجاهات، خاضت صراعاً ثقافياً وأدبياً على صفحات الجرائد والكتب والأندية ويمكن إجمالها فيما يأتي:

أ - الاتجاه المحافظ: ويمثل أصحابه التوجه الإسلامي في الأدب، ويعتبرون امتداداً للأدب العربي القديم (٢).

ب- المثقفون ثقافة فرنسية: وهؤلاء تنكروا للأدب العربي القديم، وتأثروا بالأدب الفرنسي، وصاروا دعاة إليه كما حاولوا فرنسة الأدب العربي (٣).

وقد كان لسيد قطب – رحمه الله- صولة في الرد على أصحاب هذا الاتجاه في كتابه (نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر).

ج- المثقفون ثقافة انجليزية : وهم أخف من القسم الثاني وكان لهم عناية بتلقيح الأصول العربية بالعناصر الغربية (٤).

---

(١) قصة الأدب المصري ، عبد المنعم خفاجي ، المطبعة اللندنية ، ط١، عام ١٩٥٦م ، ١٣/٢.

(٢) وعلى رأسهم مصطفى صادق الرافعي ، وأحمد شوقي وغيرهما

(٣) ويمثل هذا الاتجاه طه حسين ومحمد مندور وغيرهما ٠

(٤) ويمثل هذا الاتجاه عباس العقاد ،وإبراهيم المازني .

د – المثقفون ثقافة اشتراكية : ويمثلون الأدب الإباحي والشيوعي(١) .

ونتيجة لذلك فقد شهدت الحركة الأدبية والثقافية في مصر حراكاً واسعاً ومعارك أدبية ضارية بين أصحاب الاتجاهات السابقة ، وزاد لذلك عدد الكتب والدوريات والمجلات ، خاصة في الثلاثينات والأربعينيات من القرن العشرين، وباستثناء الاتجاه المحافظ نجد أن كل الاتجاهات الأدبية السابقة تقوم على فكرة الترويج للحضارة المادية ،والفصل بين الدين والحياة ، وفقدان الثقة بالإسلام حضارة وثقافة، سواءً كان منطلقهم باسم القومية أو باسم التغريب (٢).

---

(١)وعلى رأسهم سلامة موسى وعبد العزيز فهمي .

(٢) الاتجاهات الوطنية. د/محمد محمد حسين ، ٢١٣/٢ وما بعدها ،و دراسات في حضارة الإسلام . هاملتون جب ، ترجمة د / إحسان عباس وآخرون ، دار العلم ، بيروت ، ب .ت ص٣٥١ وما بعدها

الفصل الثـــــاني

حيــاتــه الشـخـصـيــة

وفيه ثلاثـة مباحـث :

المبحث الأول : إسمـه ونسبه وأسرته .

المبحث الثاني : نشأتـه وصفـاتـه .

المبحث الثالث : أعمـاله ووفاتــه .

المبحث الأول:

اسمه ونسبه وأسرته

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : إسمه ونسبه .

المطلب الثاني : مولده وأسرته .

المطلب الأول

اسمــهُ ونسـبـهُ

أولاً : اسمـه ولقبـه :

هـو : لسـان الـدين [١]سـيد بـن الحـاج قطـب بـن إبـراهيم بـن حسـين شاذلي[٢].

ثانياً : أصلـه ونسبه :

اختلـف الـذين كتبـوا عـن حيـاة سيد قطـب فـي تحديـد أصـله، هـل هـو مصري ؟ أم هندي ؟

١–يرى بعض البـاحثين أن سيد قطـب يعـود نسبه إلـى أصـلٍ هنـدي ، وأن جده السادس جاء من الهند إلى مكة ، للحج ، ثم قُدر لـه أو

---

(١) ولقب (لسان الدين)أطلقه عليه السيد محب الدين الخطيب . رئيس تحرير مجلة الأزهر ، الذي قدم لكتاب سيد (دراسات إسلامية) وحذفت المقدمة من الطبعات الأخيرة ، لكنها منشورة في كتاب (سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي) لمحمد علي قطب ، دار الحديث ، بيروت ، ط٢ ، ب .ت . ص١١٢- ١١٥

(٢) سيد قطب الأديب الناقد . د / عبد الله الخباص ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، ط١ عام ٨٣، ص٧٩.، و سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد . د / صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط٣ ، عام ١٤٢٠هـ ، ص١٥.

لأحد أبنائه أن يتوجه إلى مصر ويستقر في قرية (موشا) بالصعيد ، ويتزوج فيها ويتوفى هناك ، وسيد قطب نفسه هو الذي أشار إلى هذا ، فقد ذكر أبو الحسن الندوي[1]– رحمه الله – أنه زار القاهرة وقابل سيد قطب عام ١٩٥١م وعرض عليه زيارة الهند ، وأن– سيداً – قبل الدعوة قائلاً : " عندي باعثان إلى هذه الزيارة : الباعث الديني ،والباعث الطبيعي ، أما الباعث الديني فواضح فإني أريد أن أزور هذه الأمة الإسلامية العظيمة ، وأما الباعث الطبيعي فلأن جدنا السادس كان هندياً ، وهو الفقير (عبد الله)[2]،ولا تزال السحنة [3] الهندية موروثة في أسرتنا "[4] .

---

(١) هو: علي بن عبد الحي بن فخر الدين ،الحسني، الهندي، ولد عام ١٩١٣م، من الدعاة والمفكرين المعاصرين، ورئيس ندوة العلماء في الهند له، عدة كتابات في الدفاع عن الإسلام، توفي معتكفاً يوم الجمعة ٢٤ رمضان ١٤٢٠هـ ،انظر: جهود علماء الحنفية في العقيدة، لشمس الدين الأفغاني، دار الصميعي، الرياض، ط١ ،١٤١٦ هـ ، ٧٢/١ .

(٢) ذكر الندوي أن اسمه (عبيد الله)ولعله تصحيف ، فقد ذكر محمد قطب للخالدي أن اسمه (عبد الله) ، وأما لقب (الفقير) فهو يطلق على الرجل الصالح . انظر : سيد قطب للخالدي (سلسلة أعلام المسلمين الكتاب رقم) دار القلم ، بيروت ، ط٢ ، عام٢٠٠٠م ، ص٥١.

(٣) السحنة : لين البشرة والهيئة واللون. انظر :القاموس المحيط ، ص١٥٥٤ .

(٤) مذكرات سائح في الشرق الإسلامي، لأبي الحسن الندوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، عام ١٩٧٥م ، ص١٥٣.

ويؤكد ذلك بعض الذين كانت لهم صلة بأسرة سيد قطب ، كالحاجة زينب الغزالي الجبيلي (١) ، التي ذكرت بأن أصل سيد هندي (٢).

٢- ينفي آخرون أن يكون أصله هندياً ، ويرون أن أصله مصري ، ويعتمدون على كلام أخيه الشيخ محمد قطب ، الذي ينفي حكاية الأصل الهندية ، ويعلل كلام سيد لأبي الحسن الندوي بأنه كان من باب المجاملة والدعابة فقط ، أو أنه ظنٌ مبعثه التشابه بين تقاطيع وجه العائلة ووجوه أهل الهند (٣).

وأياً كان أصله فنسبه الحقيقي هو الإسلام، لأنه وكما يقول سيد -رحمه الله-" جنسية المسلم عقيدته " (٤) .

---

(١) هي : زينب الغزالي الجبيلي ، ولدت عام ١٩١٧م ، في الدقهلية بمصر ،لأسرة متدينة ، أسست المركز العام للسيدات المسلمات عام ١٩٣٧م وانضمت بعدها إلى الإخوان المسلمين ، وكانت ممن ابتلي في محنة عام ٦٥م مع سيد قطب ، وقد توفيت في ٢٠٠٥/٨/٣م، ودفنت في القاهرة انظر: علماء ومفكرون عرفتهم ، لمحمد المجذوب، دار الشواف ، الرياض ، ط ٤، عام ١٩٩٢م ،١٢٣/٢ -١٤٠ .

(٢) ممن أخبرتهم الأستاذ يوسف العظم ، انظر : رائد الفكر الإسلامي ، الشهيد سيد قطب ، ليوسف العظم ، دار القلم ، دمشق ، طبعة عام ١٩٨٠م ، ص١٩ .

(٣) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، د / صلاح الخالدي ، ص٢٩ .

(٤) عنوان أحد فصول كتاب (معالم في الطريق) لسيد قطب .

المطلب الثاني

مولده وأسرته

أولاً : مولده :

ولد سيد قطب – رحمه الله – في ٢٠ شعبان سنة ١٣٢٤هجرية (١).
الموافق ٩/١٠/١٩٠٦م (٢). في قرية (موشا) وهي إحدى قرى محافظة أسيوط في صعيد مصر، وتسمى (بلد الشيخ عبد الفتاح) ومعظم سكانها من المسلمين، ويسكن فيها بعض النصارى وتقع القرية بين جبلين صغيرين على جانب نهر النيل ، وتحيط بها الأراضي الزراعية ،وتمتاز بالنظافة والرقي النسبي عن القرى المجاورة (٣).

ثانياً : أسرته :

ولد سيد في أسرة لها مركز مرموق ،ويحدثنا سيد نفسه عن أسرته بأنه " نشأ في أسرة ليست عظيمة الثراء لكنها ظاهرة الامتياز.. وكان والده عميداً للأسرة ، وكذلك كانت أمه من أسرة مماثلة أو أعرق ،حيث جمعت

---

(١) لم أجد ذكر التاريخ الهجري لميلاد سيد عند من كتب عنه، لكني استنتجته بالمقارنة بين ميلاده وميلاد الإمام حسن البنا – رحمه الله – حيث ولد البنا في ١٤/١٠/١٩٠٦م الموافق ٢٥ شعبان ١٣٢٤هـ. أي بعد ميلاد سيد قطب بخمسة أيام .

(٢) سيد قطب الأديب الناقد . د / عبد الله الخباص ، ص ٧٩ ، وسيد قطب للخالدي ، ص١٥.

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص٢٥ .

أسرته بين الوجاهة الريفية ، والرقي العلمي "[١].

وتتكون أسرة سيد قطب من :

أ – والده : الحاج قطب إبراهيم ، الذي كان عميداً للأسرة ، ومحل تقدير أهل القرية نتيجة لما يتصف به من السجايا الطيبة ، وحسن التعامل مع أهل القرية والعمال الذين يفدون إلى القرية ، وكان رجلاً متديناً يحافظ على الصلاة في المسجد ، ويصطحب أبناءه معه ، وكان يتصدق على الفقراء والخدم ، ويقيم الموائد في بيته بالمناسبات كالعيدين ورمضان وغيرها ، ويجمع أهل القرية في بيته لقراءة القرآن ، كما أنه أدى فريضة الحج ولقب بـ " الحاج" [٢].

وقد أشار سيد قطب إلى تدين والده بقوله : " لقد طبعت في حسي – وأنا طفل صغير – مخافة اليوم الآخر ، لم تعظني أو تزجرني ، ولكنك تعيش أمامي واليوم الآخر في حسابك ، وذكراه في ضميرك وعلى لسانك ، كنت تعلل تشددك في الحق الذي عليك ، وتسامحك في الحق الذي لك بأنك تخشى اليوم الآخر، وكنت تعفو عن الإساءة وأنت قادر على ردها لتكون كفارة لك في اليوم الآخر ، وكنت تجود أحياناً بما هو ضرورة لك ، لتجده ذخراً في اليوم الآخر" [٣].

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لوالد سيد اهتمامات سياسية ، حيث كان

---

(١) طفل من القرية، سيد قطب، الدار السعودية للنشر، جدة، ب. ت . ص٢١ .

(٢) سيد قطب، للخالدي ، ص٥٧.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط١٥، عام ٢٠٠٤م ، ص٥ .

عضواً في الحزب الوطني ومشتركاً في صحيفة " اللواء " وكانت له مشاركة في التحضير لثورة ١٩١٩م [١].

ب- والدته : واسمها : فاطمة بنت حسين عثمان [٢]، وكانت الزوجة الثانية لوالده ، وكانت من أسرة مرموقة ، عاشت مع والدها فترة في القاهرة قبل أن تستقر في القرية ، ولها أربعة أخوة هم أخوال سيد ، اثنان منهم من خريجي الأزهر، أحدهما - أحمد حسين عثمان- كان مشتغلاً بالصحافة وأقام سيد عنده في القاهرة أثناء دراسته .

وكانت أم سيد امرأة متدينة ، تحب سماع القرآن ، وتحرص على الصلاة ، وتقوم بنفسها بإعداد الطعام للعمال والقرّاء الذين يأتون لقراءة القرآن في البيت ، وقد صور سيد حال أمه في إهدائه لها كتاب" التصوير الفني في القرآن" بقوله :" لطالما تسمعت من وراء الشيش - الستار- في القرية للقراء يرتلون في دارنا القرآن طوال شهر رمضان ، وأنا معك - أحاول أن ألغوا كالأطفال فتردني منك إشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ، فأنصت معك إلى الترتيل ، وتشرب نفسي موسيقاه ولم أفهم بعد معناه ، وحينما نشأتُ بين يديك بعثت بي إلى المدرسة الأولية في القرية ، وأولى أمانيك أن يفتح الله عليَّ فأحفظ القرآن ، وأن يرزقني الله الصوت الرخيم

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص٣٤.

(٢) عبقري الإسلام ، سيد قطب ، د . سيد بشير كشميري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ب . ت . ص٢٩.

فأرتله لك كل آنٍ .. " (١). وقد توفيت في القاهرة عام ١٩٤٠م ، ورثاها سيد رثاءً حاراً (٢).

<u>ج – إخوتــه</u> : أنجبت أم سيد خمسة أولاد : ابنين هما : سيد ومحمد، وثلاث بنات هن: نفيسة، وأمينة، وحميدة، ولعلنا لا نتعدى حدود البحث إذا أثبتنا شيئاً عنهم ٠

١– **<u>نفيسة قطب</u>** : وهي المولودة الأولى وتكبر سيد بثلاثة أعوام ، حيث ولدت عام ١٩٠٣م ، ونالها نصيب من المحنة كباقي أفراد أسرة قطب المجاهدة حيث سجنت وعذبت رغم شيخوختها ، فقد كان عمرها ٦٥عاماً ، كما عذُب ولدها (رفعت) وكان طالباً بكلية الهندسة حتى فاضت روحه في السجن الحربي ، حيث رفض أن يشهد ضد خاله سيد ، وكذا عذبوا ولدها الآخر (عزمي) الطالب بكلية الطب حتى كاد أن يموت ، وهي الوحيدة التي ليس لها مشاركات أدبية مع إخوتها (٣).

٢– **<u>أمينــة قطــب</u>** : وهي المولودة الثالثة ، تصغر سيد ببضعة أعوام، وكانت كاتبة أديبة وشاعرة ، أصدرت بعض القصص، وخطبت لأحد قادة

---

(١) التصوير الفني في القرآن – سيد قطب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٩ ، ١٩٨٠م ، ص٥ .

(٢) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ، ص٣٧ ، وسيد قطب للخباص ، ص٨١، ٨٢ .

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص٤٠ ، وعبقري الإسلام للكشميري ، ص٣٠ ، وسيد قطب للخباص ، ص٨٣ .

الإخوان المسلمين واسمه " محمد كمال السنانيري " [١]، عام ١٩٥٤م ، ولكنه أدخل السجن، وعرض عليها فسخ الخطوبة لكنها رفضت وظلت مخطوبة له حتى عام ١٩٧٣م حيث تزوجته وعمرها فوق الخمسين، ثم اعتقل زوجها عام ١٩٨١م، وعذب حتى مات في السجن وأشيع أنه انتحر، وأمينة أيضاً نالها ما نال أفراد أسرتها من الاعتقال والتعذيب، لكنها صبرت وخرجت من السجن أقوى إيماناً [٢]، ولها قصائد في رثاء زوجها وأخيها سيد، في ديوانها " رسائل إلى الشهيد" وفي بعض المجلات الإسلامية، وقد توفيت في ٢٠٠٧/١/٨م ودفنت في القاهرة .

٣- **محمد قطب** : وهو الشقيق الوحيد لسيد من أمه [٣]. ولد في إبريل عام ١٩١٩م ، وأكمل دراسته الثانوية في القاهرة ، والتحق بقسم اللغة الإنجليزية ، ثم عمل بعد تخرجه موظفاً في وزارة التربية ، واعتقل مرتين عام ١٩٥٤م ، وعام ١٩٦٥م . وعذب تعذيباً شديداً حتى أشيع أنه مات ، ثم أفرج عنه عام ١٩٧٢م ، فسافر إلى السعودية للعمل في جامعة أم القرى ، وتزوج بعد عمر الخمسين وله عدة أبناء أكبرهم أسامة، مارس محمد قطب كتابة المقالات الأدبية ، ونظم الشعر في شبابه ، ثم اتجه نحو الفكر الإسلامي ، وتأثر بأخيه سيد ، وأصدر عدداً كبيراً

---

(١) هو: محمد كمال الدين السنانيري، أحد قيادات الإخوان المسلمين بمصر ، سجن أكثر من عشرين عاماً،ثم أفرج عنه فسافر إلى أفغانستان للجهاد ثم اعتقل بعد عودته منها ، ومات في السجن عام١٩٨١م ، من جراء التعذيب ، انظر: من أعلام الحركة الإسلامية ، للعقيل ، ص٣٥-٣٧ .

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص٤١- ٤٤ . وسيد قطب للخباص ، ص٨٣ .

(٣) كان لسيد أخ غير شقيق يكبره بعدة أعوام ، أشار إليه في عدة مواضع من كتابه (طفل من القرية) ص٣٣، ١٥٦.

من الكتب والأبحاث الإسلامية الرصينة، ويعتبر في طليعة الدعاة الإسلاميين والمفكرين الحركيين في هذا العصر ٠

وكان لسيد فيه بصيرة نافذة حيث كان يعده ليخلفه من بعده ، كما جاء في مقدمة ديوان "الشاطئ المجهول" :

أخي ذلك اللفظ الذي في حروفه   رموز وألغاز لشتى العواطفِ

أخي أنت نفسي حينما أنت صورة   لآمالي القصوى التي لم تشارفِ

فأنت عزائي في حياة قصيرة   وأنت امتدادي في الحياة وخالفي(١)

وقد تحققت أمنية سيد في شقيقه ، فمد الله في عمره ، وحمل آراءه وأفكاره. (٢)

٤- **حميدة قطب** : وهي المولودة الصغرى، وكانت لها اهتمامات أدبية في البداية حيث كانت تكتب الخواطر، ثم صارت لها اهتمامات إسلامية عندما توجهت الأسرة كلها للعمل الإسلامي، وقامت برعاية أسر الإخوان المعتقلين مع المجاهدة زينب الغزالي،وكانت حلقة وصل بين سيد في السجن وبين التنظيم الجديد خارج السجن، وقد اعتقلت عام١٩٦٥م ونالها نصيب من التعذيب والبلاء، وحكم عليها بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة قضت منها ست سنوات وأربعة أشهر ، ثم أفرج عنها في بداية السبعينات ، وقد تزوجت من الدكتور حمدي مسعود ، وتقيم معه في فرنسا(٣).

---

(١) ديوان سيد قطب : جمع عبد الباقي محمد حسن ، دار الوفاء ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ ، ص٧ .

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص٤٤ ، وسيد قطب للخباص ، ص٨٤ .

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص٤٨ ، وعبقري الإسلام ، للكشميري ،ص ٣٠ ، وسيد قطب للخباص ، ص٨٦.

المبحـث الثـانـي:
نـشـأتـه وصفـاتـه

وفيه مطلبـان :

المطلب الأول : نشأتـه ومراحل حياته .

المطلب الثاني : صـفـــــاتــه .

المطلب الأول

نشأته ومراحل حياته

تعتبر حياة سيد قطب – رحمه الله – سلسلة متصلة من الحلقات المتتابعة، كانت نهايتها نتيجة طبيعية لكل ما سبقها من تجارب وتقلبات بدأت في القرية، وتنوعت في القاهرة، ونضجت في أمريكا وبعد عودته منها ، وانتهت بقتله عام ١٩٦٦م .

وقد قسم الذين كتبوا عن سيد قطب حياته إلى مراحل متعددة مختلفة ، نظراً لاختلاف هدف البحوث وطبيعتها، بين بحوث أدبية ، وفكرية ، وحركية ، ودعوية.

لكني سأعتمد على تقسيم –سيد قطب –نفسه لمراحل حياته ، فهو أضبط من غيره ، حيث ذكر سيد لأبي الحسن الندوي عندما زار مصر أنه مر بخمس مراحل في حياته:

المرحلة الأولى: نشأته في القرية على تقاليد الإسلام السائدة في عصره.

المرحلة الثانية: انتقاله إلى القاهرة وانقطاع صلته بالنشأة الأولى وتبخر الثقافة الدينية عنده.

المرحلة الثالثة: مرحلة الضياع والارتياب في الحقائق الدينية.

المرحلة الرابعة : الإقبال على مطالعة القرآن لدواعٍ أدبية .

المرحلة الخامسة : تأثره بالقرآن وتدرجه في الإيمان " حياته الإسلامية" (١).

---

(١) سيد قطب الأديب الناقد، د / عبد الله الخباص ، ص٧٩. ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد . د / صلاح الخالدي ، ص١٥.

وفيما يأتي استعراض موجز للمراحل مع بيان خصائص وملامح كل مرحلة وتأثيرها في فكره وحياته:

المرحلة الأولى: نشأته في القرية على تقاليد الإسلام السائدة في عصره (١٩٠٦- ١٩٢٠م)

ولد سيد قطب في قرية موشا عام ١٩٠٦م ، وعاش فيها أربعة عشر عاماً ، وكانت الحياة العامة في القرية يغلب عليها طابع التخلف والسذاجة ، سواءً في عقائدها أو معاملاتها وقد صور سيد قطب كثيراً من مظاهر الحياة في قريته ، وأشار إلى بعض المعتقدات الخرافية والتصورات الأسطورية التي عايشها في طفولته ، خاصة فيما يتعلق بالأولياء والمجاذيب، والتبرك بمشايخ الطرق الصوفية ، والاحتفالات الدينية !! التي تقام يوم عاشوراء، و ٢٧ رجب ،ونصف شعبان ، والاجتماع طوال ليالي شهر رمضان لقراءة القرآن في بيتهم ، وإن كان والداه أفضل من غيرهما فيما يتعلق بالخرافات السائدة في المجتمع نظراً لكونهما متنورين – إلى حد ما – كما يقول سيد(١)، مما جعل تأثير تلك الخرافات ضعيفاً على سيد ، بل كان في طفولته يكره الخرافات ويحاول إثبات بطلان كثير من المعتقدات الخرافية (٢).

وقد كان لحرص أبيه عليه، وعناية أمه به أثر في تربيته منذ الصغر، فقد كان أبوه حريصاً على اصطحابه إلى المسجد للصلاة ، وكانت أمه

---

(١) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص٩ وما بعدها بتصرف .

(٢) طفل من القرية، ص١٢١ – ١٢٣ .

تعتني به ، فلم تكن تتركه يلعب في الشوارع كالأطفال ، حفاظاً على ملابسه النظيفة ، وحمايةً له من التلوث بأخلاق أولاد القرية وألفاظهم البذيئة (١).

وعندما بدأ يميز فتح عينيه على بيت والده ، ليجده بؤرة للحياة الاجتماعية في القرية ومركزاً للنشاط السياسي فيها ، وعندما ناهز السادسة من عمره ألتحق بالمدرسة وقضى فيها السنة الأولى ، ثم إن الوزارة استغنت عن الشيخ الذي كان يدرس في كتَّاب القرية (٢)، وعينت مدرساً آخر مكانه ، فأطلق الإشاعات حول محاربة الوزارة للقرآن ، ودعا الآباء إلى إرسال أولادهم إلى الكتَّاب ، ومع قناعة والد سيد بالمدرسة إلا أنه أرسله إلى الكُتَّاب حياءً من الشيخ ، ولكن سيداً لم يقتنع من أول يوم بالدارسة في الكتّاب ومع تدخل مدير المدرسة ورفض أم سيد إرساله للكُتَّاب في اليوم الثاني عاد سيد إلى المدرسة ليواصل فيها تعليمه حتى عام ١٩١٨م (٣).

<u>* من ملامح هذه المرحلة :</u>

<u>١- حفظ سيد قطب للقرآن الكريم</u> : حيث أقبل سيد على حفظ القرآن الكريم ، وهو في السنة الثانية الابتدائية ، وعمره حوالي ٨ سنوات ، وكان يسهر إلى نصف الليل ليحفظ ، وجعل لنفسه برنامجاً يحفظ عشرة أجزاء

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ .

(٢) الكتّاب : غرف ملحقة بالمساجد يتم فيها تعليم الأطفال القرآن وأبجديات القراءة والحساب .

(٣) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص٢٢ وما بعدها ، وسيد قطب للخالدي ، ص٥٧ ، ٥٨.

كل سنة ، وبعد ثلاث سنوات ، أتم حفظ القرآن وعمره حوالي عشر سنوات ، مما يدل على همته وعصاميته في طفولته ، وكان خلال حفظه وقراءته يتلذذ بالتصويرات القرآنية ، وإن لم يفهم معانيها الحقيقية (١).

٢-نشأته على الشعور بالرجولة منذ الصغر : حيث كان يحب تقليد الكبار في المحافظة على الصلاة في المسجد وحضور حلقات الوعظ ، ومناقشة الواعظ أحياناً ، وتحديه لما كان يشاع من قصص العفاريت والخرافات (٢).

٣-حب المطالعة والتزود من المعرفة الثقافية : فقد كان حريصاً على المطالعة وقراءة الكتب وعمل على تكوين مكتبة صغيرة في بيته ، وإن كان أغلبها دواوين شعر وقصص أو كتب شعوذة ، لكنها ساهمت في صقل موهبته الشعرية وتوسيع مداركه الأدبية منذ الصغر (٣).

٤- تربيته على الفضيلة والأدب ووقوفه في وجه الطلاب الذين كانوا يتعرضون للطالبات بعد خروجهن من المدرسة .

٥- مشاركته في تثقيف أهل القرية أيام ثورة ١٩١٩م ضد الإنجليز، من خلال خطاباته في مجامع الناس والمسجد ،ونظم بعض القصائد .

وقد أنهى الدراسة الابتدائية عام ١٩١٨م ، ثم انقطع بعدها سنتين عن

---

(١) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص ٤١ ، والتصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ٧ - ١٠.

(٢) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص١٢١ ، وسيد قطب للخالدي ، ص٦٢ .

(٣) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص ١٢٩ وما بعدها .

الدراسة بسبب الثورة [1].

المرحلة الثانية : انتقاله إلى القاهرة وانقطاع كل صلة بينه وبين النشأة الأولى (١٩٢٠-١٩٢٥م)

رحل سيد من القرية إلى القاهرة لمواصلة تعليمه فيها عام ١٩٢٠ م،ونزل عند خاله ، وعن طريقه تعرف على الأديب عباس العقاد [2] ،الذي فتح له أبواب مكتبته الضخمة ،فاغترف سيد منها بنهم ، وتأثر بأفكار صاحبها وآرائه في الأدب ، وعن طريقه تعرف على حزب الوفد وانخرط في صفوفه ، ومن خلال صحيفة الحزب نشر مقالاته وقصائده وتحليلاته وآراءه ٠

وفي عام ١٩٢٢م التحق سيد بمدرسة المعلمين – إعدادية – وتخرج منها بعد ثلاث سنوات، عام ١٩٢٤م ، ليواصل دراسته الثانوية .

*** من ملامح هذه المرحلة :**

١- تعتبر هذه المرحلة نقطة تحول في حياة سيد قطب ، حيث انقطعت صلته بنشأته الأولى ، وتبخرت ثقافته الدينية، بسبب انقلاب موازين الحياة في المدينة وتأثره بالجو العام القائم على الانبهار بالثقافة الغربية ، وفساد القيم وصراع التيارات المختلفة التي كان في منأى عنها في

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص٧٣ .

(٢) هو :عباس محمود بن إبراهيم العقاد ،ولد في أسوان سنة ١٣٠٦هـ ،عمل في الأوقاف ثم معلما ثم انقطع للكتابة والتأليف ،كان احد أعضاء المجامع العربية الثلاثة وله دراية بالانجليزية والفرنسية ،توفي في القاهرة سنة ١٣٨٣هـ، انظر : الأعلام للزركلي ،٣ / ٢٦٦.

نشأته الأولى [1].

٢- كان للعقاد تأثير واضح في توجه سيد نحو الأدب بشكل خاص ، وانصرافه عن قضايا الفكر الإسلامي وعلومه .

٣- تأثر سيد بشخصية العقاد وأفكاره ، والذي كان يعاني من جفاف روحي كما يقول- سيد- عنه [2].

٤- تعتبر هذه المرحلة تمهيداً وتهيئة لمرحلة الضياع التي تلتها .

المرحلة الثالثة : مرحلة الضياع والارتياب في الحقائق الدينية (١٩٢٥-١٩٤٠م) :

يقصد بمرحلة الضياع في حياة سيد قطب – رحمه الله – تلك الفترة الزمنية التي عاشها وهو قلق حيران، جاهل بهدفه ورسالته ووظيفته في الحياة ، والتي ولَّدت لديه صراعاً بين التصورات الإسلامية التي نشأ عليها والتصورات المادية .

وقد استمرت مرحلة ضياعه حوالي خمسة عشر عاماً بين عام ١٩٢٥-١٩٤٠م، أي أنها بدأت معه في المدرسة الثانوية – تجهيزية دار العلوم – واستمرت أثناء دراسته في الكلية، وأثناء عمله مدرساً في القاهرة ودمياط وبني سويف وحلوان ست سنوات ، حتى انتقل عام ١٩٤٠م للعمل موظفاً في وزارة المعارف. ويمكن بيان أسباب ضياعه في هذه المرحلة

---

(١) سيد قطب الأديب الناقد . د/ عبد الله الخباص ، ص١٦٤ .

(٢) الصلة بين العقيدة الحاكمية عند سيد قطب . د/ عبد العزيز الوهيبي ، دار المسلم ، الرياض ، ط٢ ، عام ١٤٢٥هـ ، ص٣٢.

وملامحها فيما يأتي :

أولا : أسباب ضياع سيد قطب في هذه المرحلة (١٩٢٥-١٩٤٠م) :

١- إقبال سيد قطب على الثقافة الأدبية الأوروبية ، والتي تميزت في القرن ١٨م و ١٩م و ٢٠م بالسير نحو الفردية ، وتنمية الاستقلال الفكري ، والخروج على القيم السائدة ، وعدائها للقيم والتصورات الإسلامية ، وقد تشرب سيد هذه الثقافة فظهرت عليه أعراضها في آثاره الأدبية في تلك الفترة بنسب متفاوتةٍ ،حيث يبدو رجلاً بائساً قلقاً [(١)].

وقد اعترف سيد قطب بأن سبب ضياعه هو : " تلقيه من الثقافة الغربية المقررات والتصورات والمبادئ والأفكار مع عدم إدراكه – أو نسيانه – للمقررات والتصورات الإسلامية ، ومع ذلك فلم يكن نادماً على ذلك ، لأنه عرف الجاهلية على حقيقتها وانحرافها وضآلتها .. " [(٢)].

٢-تأثر سيد قطب بفكر العقاد وفلسفته ، والإعجاب بشخصيته ومواهبه النقدية ، وكان العقاد – كما يقول سيد – رجلاً فكرياً محضاً ، يعاني من جفاف روحي [(٣)] وقد وصل التأثر به إلى درجة التعصب له والذوبان في شخصيته فترة طويلة.

٣-حالة الضيق المادي التي عانى منها سيد قطب في هذه المرحلة ،

---

(١) سيد قطب . خلاصة حياته ومنهجه في الحركة . محمد توفيق بركات ، دار الدعوة ، بيروت ، ب . ت ، ص١٢.

(٢) معالم في الطريق – سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط١٥ ، عام ١٩٩٦م ، ص١٤٣، ١٤٤ ، بتصرف يسير .

(٣) مذكرات سائح . لأبي الحسن الندوي ، ص٩٦ .

خاصة بعد وفاة والده وانتقال الأسرة إلى القاهرة وتوليه رعايتها ، بالإضافة إلى نفسيته الحساسة والمرهفة (١).

ثانياً : ملامح هذه المرحلة : يمكن إجمال ملامح مرحلة الضياع التي عاشها سيد قطب فيما يأتي :

١- إعجاب سيد قطب بالثقافة المستوردة التي شاعت في تلك الفترة ، ويظهر ذلك من خلال عدم رضاه عن مناهج كلية دار العلوم ، وانتقاده لها ، لعدم اهتمامها باللغة الإنجليزية ، ومطالبته بتغييرها وهو لا يزال طالباً في الكلية (٢).

٢-اهتمامه في هذه المرحلة بالشعر ثم بالنقد الأدبي ، ونظرته في الصور والظلال والأحاسيس كتلميذ في مدرسة العقاد الأدبية ، مقلداً له متبنياً لآرائه وأفكاره ، مجادلاً لمخالفيها ، حيث دخل في معارك أدبية متعددة (٣)، وكان مهتماً بتصنيف المذاهب الفنية كمدارس ، ووضع السمات لكل مدرسة ، كما كان حريصاً على إثبات وجوده كناقد أدبي في الساحة ، كل ذلك جعل الأنظار تلتفت إليه ، وبدأ الإعجاب به ، حتى سُمح له بإلقاء المحاضرات النقدية على مدرج الكلية وهو ما يزال طالباً فيها . يقول عنه أستاذه (٤)وهو يقدم له في إحدى الندوات : " لو لم يكن لي

---

(١) سيد قطب ، محمد توفيق بركات ، ص ١٣ .

(٢) سيد قطب : د / صلاح الخالدي ، ص٧٦.

(٣) كان أبرز هذه المعارك مع أنصار الرافعي وكذا مع طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم ،انظر :سيد قطب للخالدي ،ص ١١٥ -١٣٣ .

(٤) هو: الأستاذ /محمد مهدي علاَّم، أستاذ الأدب بكلية دار العلوم حينها .

تلميذ سواه لكفاني بذلك سروراً، يعجبني فيه جرأته الحازمة الرشيدة، واستقلاله برأيه وإن خالفنا، وإنني أعد سيداً مفخرة من مفاخر دار العلوم " (١).

٣- زيادة نشاط سيد السياسي والاجتماعي في هذه الفترة ، نظراً لارتباطه بحزب الوفد ، وكتاباته في الصحف والمجلات في مختلف مجالات الكتابة من شعر ونثر ونقد ودعوة للإصلاح الاجتماعي ونقد لنظام الحكم والأوضاع السائدة في تلك الفترة .

٤- تعد كتابات سيد في هذه المرحلة وأشعاره تعبيراً صادقاً عن رحلة ضياعه ، وانعكاساً لما يعيشه من ترددٍ وحيرة وقلق وعذاب ، حيث غلب على نتاجه الأدبي التساؤل والشكوى والتمرد على الوضع حاول السير " إلى القمة " فغاصت منه " الأقدام في الرمال " ، واعتبر نفسه سائراً مرغماً فرداً في " قافلة الرقيق " عاجزاً عن معرفة " السر "(٢) .

ويعتبر ديوانه " الشاطئ المجهول " الذي نشر عام ١٩٣٥م سجلاً لمرحلة ضياعه، في عنوانه ومحتواه وكان سيد يقول عنه فيما بعد أنه من آثار جاهليته (٣).

---

(١) مهمة الشاعر في الحياة ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ب . ت ، ص١٠ بتصرف .

(٢) ما بين القوسين عناوين لأربع قصائد لسيد ، تترجم عن ضياعه ، انظر سيد قطب للخالدي ، ص٢٢٠.

(٣) ديوان (الشاطئ المجهول) لم يطبع إلا مرة واحدة ، وهو في حكم المفقود ، وكان سيد يتمنى في آخر حياته أن تصل يده إلى كل نسخة منه في أي بقعة في الأرض لتأتي

وبالإضافة إلى ديوانه " الشاطئ المجهول " فقد صدر له كتابان نقديان في هذه المرحلة هما : مهمة الشاعر في الحياة عام ١٩٣٣م ونقد كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) لطه حسين ،عام ١٩٣٨م ،
كما صدر له في هذه الفترة(٢٥-١٩٤٠م) قرابة مائة وتسع وعشرين مقالة وقصيدة في عدد من الدوريات والمجلات مختلفة التوجه [١].

٥- أن فترة ضياع سيد قطب هذه لم تكن على درجة واحدة ، فقد بدأت معه في المدرسة الثانوية ، وتفاعلت معه في كلية دار العلوم ، وبلغت أوجها في آخر سنتين من الجامعة وأول سنتين من عمله مدرساً أي ما بين عام (١٩٣٢- ١٩٣٥م) ثم بدأت تضعف تدريجياً حتى عام ١٩٤٠م [٢].

٦- أن ضياع سيد قطب في هذه المرحلة كان ضياعاً فكرياً نظرياً ، ولم يكن ضياعاً سلوكياً ، فلم يعهد عنه أنه شرب الخمر أو ارتكب فاحشة أو مارس شذوذاً ، ولو فعل ذلك لما شعر بالمعاناة والازدواجية ولما برزت الشكوى في نتاجه الأدبي ، يقول محمد قطب : " يختلف ضياع سيد عن ضياع باقي كبار الأدباء والشعراء والمثقفين المصريين في ذلك الوقت ، وبخاصة ضياع أستاذه العقاد ، لقد جمع أولئك المثقفون – ومنهم العقاد – بين النوعين من الضياع ضاعوا ضياعاً فكرياً ، وضاعوا ضياعاً سلوكياً ، وعاشوا حياة مليئة بانحرافٍ

عليها ، كما صرح بذلك الأستاذ / يوسف العظم . أنظر : رائد الفكر الإسلامي ، ليوسف العظم ، ص٣١٧. وسيد قطب للخالدي ، ص٢٢١.

(١) سيد قطب . لعبد الباقي حسين ، ص٤٠٢.

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص٢١٥.

وإثمٍ ومنكرٍ، أما سيد فلم يكن في ضياعه مثل هؤلاء ، ولهذا تمزق وتألم وتساءل واشتكى " [١].

وهذا يرد ما ذكره البعض من أن سيداً كان من دعاة المجتمع العاري، وأن له مقالاً في جريدة الأهرام حول ذلك [٢]. وقد ناقش د/ الخالدي هذه الدعوى وبين عدم صحتها لافتقارها للتوثيق فلم يذكروا عدد الجريدة أو تاريخها أو سنتها ، بالإضافة إلى أن سيداً كتب مقالات عديدة في هذه الفترة يحارب فيها الرذيلة ويدعو إلى الفضيلة ، ويهاجم بشدة المنحرفين والفاسدين، ويرفض مظاهر العري على الشواطئ وسعار الشهوة والجنس ويحذر من آثارها، وقد أورد الخالدي نماذج من مقالات سيد التي كتبها في الثلاثينات والأربعينات يحارب فيها الرذيلة ويرفض النظرة الغربية للحياة ، ويدعو إلى مخالفتها، مما يرجح بطلان تلك الرواية [٣].

٧- أن سيد قطب في ضياعه هذا لم يصل إلى حد الإلحاد ، وإن كان يعيش حالة من القلق والشك وربما كان لأستاذه العقاد أثر في الحيلولة بينه وبين الاشتراكية والإلحاد .

---

(١) من كلمة لمحمد قطب في مناقشته لرسالة د / صلاح الخالدي سيد قطب والتصوير الفني عام ١٩٨٠م انظر : سيد قطب للخالدي ، ص٢١٩.

(٢) ذكر تلك الرواية الأستاذ / محمود عبد الحليم في كتابه الإخوان المسلمون ، ١/١٩٠، وعبد الله الطنطاوي في مقدمته لكتاب الخالدي) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، ص ج .

(٣) سيد قطب . د / صلاح الخالدي ، ص٢٣٧ – ص٢٤٥ .

٨- اعترف سيد قطب – رحمه الله – بضياعه في هذه الفترة، وما كان عليه فيها من ضياع وتعب وقلق، وذلك في مرحلة توجهه الإسلامي وهو يتحدث عن أثر الإيمان فيقول : " ومن هذه المعرفة التي يقدمها الإيمان للمؤمن يستمد المؤمن الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله ولما يقع ، فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟ ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير، وعدم معرفة المطوي من الطريق، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه، ووراء رحلته في ذلك الطريق يختفي شعور كشعور الخيام [١] الذي يعبر عنه بما ترجمته :

لبست ثوب العمر لم أستشر　　وحِرْتُ فيه بين شتى الفِكَرْ

وسوف أنضو الثوب عني ولم　　أدرِ لماذا جئت ؟ أين المفرْ

ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا في ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم ، ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله ، فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائراً أين يمضي　　ولماذا ؟ وكيف – لو شاء – يمضي

عبث ضائع وجهد غبين　　ومصير مقنَّع ليس يرضي .

---

(١) هو:عمر بن إبراهيم الخيام النيسابوري ،شاعر وفيلسوف وفلكي ، اشتهر برباعيته التي نظمها بالفارسية وعربت، وهي مليئة بالشكوك ، كان على نهج ابن سيناء ،مات في نيسابور سنة ٥١٥هـ / انظر : الأعلام للزركلي ،٣٨/٥ . .

فأنا أعرف اليوم – ولله الحمد والمنة – أنه ليس هناك جهد غبين ، فكل جهد مجزيٌ ، وليس هناك تعب ضائع ، فكل تعب مثمر ، وأن المصير مُرضٍ ، وأنه بين يدي عادلٍ رحيم .

وأنا أشعر اليوم – ولله الحمد والمنة – أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً ، فروح الكون تؤمن بربها، وتتجه إليه، وتسبح بحمده، والكون يمضي وفق ناموسه، الذي اختاره الله له في طاعة وفي رضا وفي تسليم، وهذا كسب ضخم في عالم الشعور، وعالم التفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخم في مجال العمل والنشاط والتأثر والتأثير [١].

المرحلة الرابعة : الإقبال على مطالعة القرآن لدواعٍ أدبية ١٩٤٠-١٩٤٥م .

كان سيد قطب تلميذاً وعضواً فعالاً في مدرسة العقاد الأدبية والفكرية حتى نهاية الثلاثينات من القرن العشرين ، ثم بدأ يبتعد عنها لأسباب أدبية وفكرية وعلمية تدريجياً ، حتى خرج منها بعد أواسط الأربعينيات ، ليُكَوِن مدرسة خاصة في الأدب والنقد والفكر هو رائدها ، لكنه سرعان ما غير اهتماماته وأقبل على القرآن الكريم يدرسه دراسة أدبية ، ويتذوقه تذوقاً جمالياً ، وكانت بداية توجهه نحو القرآن بمقال على مجلة " المقتطف " بعنوان " التصوير الفني في القرآن " تحدث فيه عن ظاهرة بلاغية أسلوبية بيانية في التعبير القرآني ،هي ظاهرة " التصوير " وأعلن أن الموضوع

---

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب . دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، ط٣٠ ، عام ٢٠٠١م ، ٣٣٥٢/٦ ، ٣٣٥٣.

كبير ، ويحتاج إلى دراسة أوسع ، وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٤٥م حيث أصدر أول كتبه في هذه المرحلة وهو كتاب " التصوير الفني في القرآن " (١).

يقول سيد في مقدمة الكتاب : " ومرت السنوات ، وصور القرآن تُخايل لي ، وتتراءى فيها آثار الإعجاز الفني ، وكلما عدت إليها قوي في نفسي أن أتولى البحث الذي تركته فلم يحاوله أحد ، وأن أكمله وأتوسع فيه ، وظللت على القرآن بين الحين والحين أتملى سوره الفريدة، فتزداد فكرة البحث في نفسي رسوخاً ، ثم تشغلني عنه الشواغل ، فيرتد أمنية في الضمير ، ورغبة في الشعور ، إلى أن شاء الله أن أتوفر عليه بعد خمسة أعوام كاملة من نشر البحث الأول في مجلة المقتطف " (٢) . ويضيف : " وحين انتهيت من التحضير للبحث ، وجدتني أشهد في نفسي مولد القرآن الجديد ، لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً " (٣).

وبعد صدور هذا الكتاب أعلن سيد عن عزمه في إصدار " مكتبة القرآن الجديدة " ، وحدد هدفه من ذلك " أن يتوجه البحث في جمال التعبير القرآني كله هذا الاتجاه ، وأن ينظر إلى هذا الجمال الخالد من زاوية أخرى غير زاوية البلاغة المعهودة القائمة على أساس المعاني والألفاظ " (٤).

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص٢٦٩ بتصرف.

(٢) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص٩ .

(٣) التصوير الفني في القرآن ، ص١٠ .

(٤) من مقال لسيد قطب في مجلة الرسالة ، ج١ ، العدد ٦٥٣ ، سنة ١٩٤٦م ، نقلاً عن : سيد قطب للخالدي ، ص٢٧١ .

وقد أقبل بعد ذلك –سيد – على القرآن يدرسه دراسة فكرية ، وخرج بفكرته عن " العدالة الاجتماعية في الإسلام " ، وكانت بداية التحول عن الأدب والنقد والشعر إلى الفكر الإسلامي والعمل الإسلامي والدعوة إلى الإصلاح ومحاربة الفساد السياسي والاجتماعي [(١)].

المرحلة الخامسة : " حياة سيد قطب الإسلامية "

وهي المرحلة التي سماها سيد بمرحلة " تأثره بالقرآن وتدرجه في الإيمان " ، وكان سبب تحوله نحو الإسلام هو قراءته ومطالعته للقرآن لدواعٍ أدبية في أواسط الأربعينيات ونهايتها ، حيث " اكتشف سيدٌ الإسلامَ بمنظار النقد الأدبي " [(٢)].

ويمكن تقسيم حياة سيد قطب الإسلامية إلى ثلاث مراحل هي: [(٣)]

أ – مرحلة الإسلاميات الفنية (٤٥ – ١٩٤٧م).

ب– مرحلة الإسلاميات الفكرية (٤٧– ١٩٥٣م) .

ج – مرحلة الإسلاميات الحركية(٥٣– ١٩٦٦م).

وفيما يلي بيان كل مرحلة من المراحل الثلاث وملامحها :

أ – مرحلة الإسلاميات الفنية (٤٥ – ١٩٤٧م) :

وهي المرحلة تعتبر امتداداً للمرحلة الرابعة من مراحل حياته وهي

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن . د / صلاح الخالدي ، ص٢٤.

(٢) سيد قطب من القرية إلى المشنقة . عادل حمودة ، سيناء للنشر ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٩٨٧م ، ص٦٨ . .

(٣) رائد الفكر الإسلامي . ليوسف العظم ، ص ١٤٩.

دراسة القرآن لدواعٍ أدبية ، والتي توجت بتأليف كتاب " التصوير الفني في القرآن " ، حيث ألف في عام ١٩٤٧م كتابه الثاني في مشروع " مكتبة القرآن الجديدة " وهو كتاب " مشاهد القيامة في القرآن " ، وقد كرر سيد في أكثر من موضع أن هدفه من هذا المشروع هدفٌ فني بياني أدبيٌ جماليٌ ، وأنه ينظر في أسلوب القرآن وتعبيره بعين الناقد الأدبي ، ويتدبره بحاسته الأدبية النقدية الذوقية حيث يقول: " فهدفي هنا هدف فني خالص محض ، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الأدبي المستقل، فإذا التقت في النهاية قداسة الفن (١) بقداسة الدين فتلك نتيجة لم أقصد إليها " (٢) .

ثم أعلن عن نيته في إصدار مجموعة من الكتب ضمن مشروع " مكتبة القرآن الجديدة " هي :

- القصة بين التوراة والإنجيل .
- النماذج الإنسانية في القرآن .
- أساليب العرض الفني في القرآن .
- المنطق الوجداني في القرآن (٣) .

*** من ملامح هذه المرحلة :**

١- تخلي سيد قطب عن جميع الأحزاب السياسية في نهاية عام ١٩٤٥م،

---

(١) أرى أنه من الخطأ إطلاق لفظ القداسة على الفن ،ولا أدري هل قصد سيد المعنى اللغوي ؟ أم عبر عن ما يراه أصحاب الفن ؟ أم أنها من آثار مرحلة الضياع التي عاشها، وعموما فالأولى عدم إطلاق مثل هذا اللفظ دفعا للإيهام واللبس .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ص١٢ .

(٣) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ص٨ .

حيث أعلن خروجه منها وعدم انتمائه لأي حزب ، معتبراً إياها أقزاماً لا تستحق عناء الحماسة لها والعمل من أجلها [1] . ومع تركه للأحزاب فقد كان له جهود فردية ملحوظة في الدعوة إلى إصلاح الأوضاع ، واستمر في كتابة المقالات في المجلات ، كما أنشأ مجلتين لهذه الغاية هما : (مجلة العالم العربي) و (الفكر العربي) .

٢- استمرار سيد في عطائه الأدبي في هذه المرحلة ، حيث صدرت له مجموعة من الكتب الأدبية - سيأتي التعريف بها قريبا - وهي :

أ- الأطياف الأربعة بالاشتراك مع إخوانه محمد وأمينة وحميدة(١٩٤٥م)

ب- طفل من القرية (١٩٤٦م) .

ج - المدينة المسحورة (١٩٤٦م) .

د- كتب وشخصيات (١٩٤٦م) .

هـ- أشواك (رواية) (١٩٤٧م) .

و - روضة الطفل ، بالاشتراك مع أمينة السعيد (١٩٤٧م).

ز- القصص الديني للأطفال بالاشتراك مع عبد الحميد السحار (١٩٤٧م) .

ح-الجديد في اللغة، والجديد في المحفوظات ، بالاشتراك مع آخرين[2].

كما صدر له في هذه المدة "١٩٤٥- ١٩٤٧م" (١٠) عشر قصائد

---

(١) سيد قطب ،للخالدي ، ص٢٦٦.

(٢) من أعلام المسلمين (سيد قطب ، د / صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، عام ٢٠٠٠م ، ص٣٣٤-٣٣٥. سيد قطب للخباص ، ص٢٦١.

وأكثر من (٧٠) سبعين مقالاً في موضوعات شتى نشرت في كثير من المجلات والدوريات مختلفة الاتجاهات [١].

٣- تعتبر هذه المرحلة امتداداً للمرحلة السابقة ، وتمهيداً لمرحلة الإسلاميات الفكرية حيث يلاحظ أن سيد قطب بدأ يدرس القرآن دراسة أدبية فنية ، ثم ما لبث أن تعمقت صلته بالقرآن ، وصارت معاني القرآن وحقائقه تشغل تفكيره ، فوقف أمامها كثيراً يتدبرها ، ويتعرف عليها ، لتنقله إلى المرحلة التالية " الدراسات الفكرية " ، حتى أنه لم يكمل مشروعه الأدبي " مكتبة القرآن الجديدة" الذي بدأه بكتابيه " التصوير – ومشاهد القيامة ".

ب – مرحلة الإسلاميات الفكرية : (٤٨ –١٩٥٣م) :

وتبدأ هذه المرحلة من نهاية عام ١٩٤٧م ، بعد تأليف سيد كتابه " مشاهد القيامة في القرآن " وبداية تأثره الفكري بالقرآن الكريم ، ويعتبر كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام " أول كتاب فكري لسيد في هذه المرحلة ، والذي جاء في وقت نشط فيه الشيوعيون في الدعاية لمذهبهم ، في ظل فساد نظام الحكم الملكي الذي يحميه الاحتلال الإنجليزي، وقد أحدث الكتاب ضجة ، ولقي الحرب من الشيوعيين والغربيين والحكومة على حدٍ سواء. وفرح به شباب الحركة الإسلامية حينها وأقبلوا على قراءته وتداوله ، وقد وقع سيد فيه في بعض

---

(١) سيد قطب ، عبد الباقي حسين ، ص ٤٠٢ ، وسيد قطب للخباص ، ص٣٧٠ وما بعدها .

الأخطاء منها إساءته في حق عثمان [١]ومعاوية [٢]رضي الله عنهما حيث انتقده الشيخ / محمود شاكر [٣] – رحمه الله – وسيأتي الحديث عن ذلك –إن شاء الله –عند الكلام عن موقفه من الصحابة رضوان الله عليهم .

كما أصدر سيد عام ١٩٤٨م مجلة (الفكر الجديد) والتي أغلقت بعد ثلاثة أشهر بسبب تعرضها لمفاسد الحكم والقائمين عليه ، ولما لم يجد القصر الملكي حجة قانونية لاعتقال سيد قطب ونظراً لحسن علاقته مع رئيس الوزراء[٤]. فقد رتبت له الحكومة بعثة علمية إلى أمريكا . لهدفين :

١– التخلص منه ومن كتاباته النقدية ونشاطه الإصلاحي .

٢ – محاولة إفساده فكرياً وأخلاقياً في الغرب .

وقد مكث في أمريكا من ١٩٤٨/١١/١٣م إلى١٩٥٠/٨/٢٠م –

---

(١) هو:عثمان بن عفان بن أمية ،أمير المؤمنين ذو النورين أحد العشرة المبشرين بالجنة زوج ابنتي رسول الله وثالث الخلفاء، توفي شهيدا سنة ٣٥هـ ،انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت،طبعة عام ١٣٧٤هـ ،٨/١ .

(٢) هو:معاوية بن أبي سفيان بن حرب القرشي الأموي ، أمير المؤمنين، ولد قبل البعثة بخمس سنين، كان فصيحا وقورا، ولاه عمر الشام وبقي فيها حتى آلت إليه الخلافة سنة ٤١هـ ، وتوفي سنة ٦٠هـ ، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت ،طبعة ١٤٢١هـ ، ٤١٢/٣ .

(٣) هو : محمود بن محمد شاكر ، ولد في الإسكندرية ، عام ١٩٠٩م ، ونشأ في بيت متدين كان أبوه وكيلاً للأزهر ، كان أديبا وناقدا ، ساهم في إنشاء جمعية الشبان المسمين ، وله عدة مؤلفات ، كما قام بخدمة كثير من كتب التراث ، توفي ١٣ ربيع آخر سنة ١٤٢٨هـ ، أنظر : شيخ العربية : محمود شاكر لإبراهيم الرضواني ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ط١٤١٥ ،ص١٢-٣١ .

(٤) كان رئيس الوزراء آنذاك هو محمود النقراشي.

وسيأتي الحديث عنها في رحلاته-

وقد عاد من أمريكا بهمة عالية للإصلاح، وهدفٍ رفيع ورسالةٍ إسلامية ، فمارس دعوته الإصلاحية من خلال :

١ - الكتابة في الصحف والمجلات .

٢ - تأليف الكتب الفكرية .

٣- إلقاء المحاضرات والاشتراك في الندوات(١) .

يقول سيد عن هذه الفترة " واستغرقت عام ١٩٥١م في صراعٍ شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة ، والإقطاع والرأسمالية ، وأصدرت كتابين في الموضوع ، غير مئات المقالات في صحف الحزب الوطني والاشتراكي ومجلة الدعوة والرسالة وكل مجلة أو جريدة قبلت أن تنشر لي ، بلا انضمام لحزب أو جماعة معينة ، وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م "(٢) .

ملامح هذه المرحلة :

١-تحول سيد قطب في هذه المرحلة من الدراسات الأدبية إلى الفكر الإسلامي ، ومن أهم كتبه الفكرية في هذه الفترة :

أ - العدالة الاجتماعية في الإسلام (١٩٤٩م) .

ب- معركة الإسلام والرأسمالية (١٩٥١م) .

ج- السلام العالمي والإسلام (١٩٥١م) .

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص٢٤٧ وما بعدها بتصرف .

(٢) لماذا أعدموني – سيد قطب – بدون دار النشر ولا تاريخ ، ص١١ .

د – دراسات إسلامية (١٩٥٣م) .

هـ– في ظلال القرآن (حيث بدأ بإصداره منذ عام(١٩٥٢ م) . كما صدرت له مجموعة من المقالات بلغت مائة وخمسين مقالة (١٥٠) في عدد من الصحف والدوريات [١].

٢– تميزت كتابات سيد ومقالاته بمحاربة الأوضاع والأفكار الفاسدة مما أدى إلى توسع الخلاف مع القصر الملكي، وإيفاده إلى أمريكا .

٣–انطلاقه في كتاباته من منطلق الإسلام، ومحاربته للتوجه الشيوعي والعلماني على حدٍ سواء ، وإن كانت كتاباته لم تخلص تماماً من آثار الماضي بل فيها الغث والسمين ، وخير ما يمثلها هو كتابه (دراسات إسلامية) والتنبه لهذا الأمر ضروري لمن يدرس حياة سيد قطب ، حتى لا يقع في إشكالات محيرة .

٤– أن الله تعالى خيَّب ظن الماكرين الذين أرسلوه إلى أمريكا لإفساده ، فحصل العكس حيث زاد توجهه نحو الإسلام في رحلته إلى أمريكا ، وصار يحلِّل أمريكا وحضارتها ومناهجها ، ويكشف عوارها ، من منطلق إسلامي ، وبعد عودته منها كان أكثر تمسكاً بالإسلام ، وأعمق إيماناً بصلاحيته ، لقيادة البشرية [٢] .

٥– اشتراك سيد قطب في التخطيط لثورة (١٩٥٢م) بفاعلية ، وكان له تأثير في التمهيد لها ، وكان قادتها وعلى رأسهم "جمال عبد الناصر"

---

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص٤٠٢.

(٢) مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، دار عمار ، الأردن ، ط٢ ، عام١٤٢١هـ ، ص٢٤، وسيد قطب ، لمحمد توفيق بركات ، ص١٤ بتصرف .

يأتون إلى منزله في حلوان ، كما تتلمذ كثير من الضباط على فكره وكتبه ، وتأثروا بمقالاته ، وكان محل احترامهم وتقديرهم ومستشاراً لهم(١).

٦-زيادة صلته بقيادة الثورة بعد قيامها، فكان هو المدني الوحيد الذي يحضر جلسات مجلس قيادة الثورة ، وعرض عليه منصب وزير المعارف فاعتذر، وعمل سكرتيراً مساعداً لهيئة التحرير(٢) لعدة شهور (٣) .

وقد أقام رجال الثورة حفل تكريم لسيد قطب أُلقيت فيه الكلمات، والعجيب أنه بعد أن ألقى سيد كلمته وأشار فيها إلى أنه يتوقع أن يتعرض للسجن في العهد الجديد أكثر من عهد الملكية وقف عبد الناصر ليقول له: " أخي الكبير سيد ، والله لن يصلوا إليك إلا على أجسادنا جثثاً هامدة ، ونعاهدك باسم الله بل نجدد عهدنا لك ، أن نكون فداءك حتى الموت!!!" (٤) .

ويظهر من كلام سيد فراستهُ ونفاذ بصيرته ، واستشرافه للمستقبل ؟

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، ص٢٥ ، وسيد قطب ، لمحمد توفيق بركات ص ٢٩٥.

(٢) هي هيئة أنشاها عبد الناصر بعد قيام الثورة لتكون واجهة للثورة وحزبا يدافعا عنها، وفي حقيقة الأمر لتكون تنظيما يقف في وجه تنظيم الإخوان، وقد طلب من الإخوان حل تنظيمهم والانخراط فيها لكنهم رفضوا ، انظر : صفحات من التاريخ ، لصلاح شادي، دار الشعاع، الكويت، ط ١ ،عام ١٩٨١م ، ص٢٠٨- ٢١٨ ، والإخوان المسلمون ، لمحمود عبد الحليم ، ١٧٥/٣

(٣) مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، ص٢٥، وسيد قطب ، لمحمد توفيق بركات ، ص ٣٠٠ .

(٤) سيد قطب للخالدي ، ص٣٠٤ .

والعجيب أن تكون نهاية سيد على يد عبد الناصر بعد ١٤عاماً من كلمته هذه !!!.

٧- زيادة الشقة بين الإخوان وعبد الناصر ، وقيام سيد قطب بمحاولة الإصلاح كونه صديقاً للطرفين، لكن الأمر استفحل بسبب التدخلات الأجنبية والمؤامرة على الإخوان، وعندما تبين لسيد أن ما كان يرجوه في قيادة الثورة أصبح سراباً ، فاصلهم وترك إغراءاتهم بعد أن رأى فلسفة الثورة ونظام هيئة التحرير يسير على غير ما يريد ، فقرر الانحياز إلى صف الإخوان(١)، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته " الحركية " .

ج - مرحلة الإسلاميات الحركية : (١٩٥٣- ١٩٦٦م) :

ونقصد بالإسلاميات الحركية : الفهم الصحيح الشامل للإسلام كما هو في الكتاب والسنة ، وإدراك خصائصه ومقوماته ، ومعرفة طبيعته ومهمته والالتزام به في التصور والسلوك ، ومواجهة الجاهلية وأصحاب الباطل به .

وتبدأ هذه المرحلة بانضمام سيد قطب إلى جماعة الإخوان المسلمين في شهر مارس سنة ١٩٥٣م وتنتهي في ١٩٦٦/٨/٢٩م بإعدامه – رحمه الله –.

وتعتبر هذه المرحلة أفضل مراحل حياة سيد قطب وأكثرها عطاءً وفكراً وتربية (٢) ، حيث تمثل هذه المرحلة مرحلة النضج الفكري والحركي لسيد قطب ووصوله بالتدريج إلى كثير من الحقائق والتصورات العقدية والحركية

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص٢٧٩ .

، قدم فيها كثيراً من الكتب والأبحاث والدراسات الناضجة التي حوت خلاصة فهمه للإسلام ، وتصوره للعمل والحركة والجهاد ، وجعلت منه مفكراً إسلامياً حركياً. ولأهمية هذه المرحلة لا بد من الوقوف عندها ومعرفة خصائصها وملامحها وأطوارها منذ بدايتها عام ١٩٥٣م وحتى إعدامه عام ١٩٦٦م من خلال النقاط الآتية :

أولاً : انضمام سيد قطب إلى الإخوان

– يرى البعض أن سيداً التقى بالمرشد العام الإمام حسن البنا ، وسمع محاضرته فأعجب به، وأنه راجع له أصول كتابه (العدالة الاجتماعية) ، وطبعه له وهو في أمريكا ، وأنه أهدى لشباب الإخوان كتابه المذكور وهم في السجون والمعتقلات [١] .

– ويرى آخرون أنه انضم إلى الإخوان عام ١٩٥١م ، وعمل من حينها في مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين [٢] .

– والصحيح: أنه انضم إلى الإخوان في شهر مارس عام ١٩٥٣م بعد أن فاصل رجال الثورة حين تبين له انحرافهم عن ما كان يرجوه منهم، حيث صرح سيد قطب نفسه بذلك بقوله : " وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة ، انضمامي

---

(١) رائد الفكر الإسلامي ليوسف العظم ، ص١٥٥ ، وسيد قطب ، لعبد الباقي حسين، ص٣٠ ، وسيد قطب لمحمد توفيق بركات ، ص١٧ ، وسيد قطب ومنهجه في التفسير ، لإسماعيل الحاج أمين ، ص ٥٨.

(٢) العالم الرباني الشهيد سيد قطب ، لعشماوي أحمد سليمان ، ب. د ، طبعة عام ١٩٦٩م ،ص٣٥ . وسيد قطب للخباص ، ص١٠٥ ، وسيد قطب ، لعادل حمودة ، ص١٠٠ .

بالفعل سنة ١٩٥٣م إلى جماعة الإخوان المسلمين " (١).

وهذا التحديد من سيد نفسه يلغي ما أورده الباحثون من أقوال تخالفه (٢) .

ثانياً : أسباب انضمام سيد قطب إلى الإخوان المسلمين :

لم يكن انضمام سيد قطب إلى الإخوان بدون مقدمات، لكنه مر بخطوات متدرجة :

فقد كان منذ عام ١٩٤٧م بعد توجهه لدراسة القرآن الكريم دراسة أدبية وفنية يكتب ويحاضر ويؤلف ويدعو إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسي على أساس الإسلام من منطلق فردي ذاتي، بينما كان الإخوان المسلمون في هذه الفترة في أوج نشاطهم وقمة حركتهم ، ومع أنه كان بمصر إلا أنه لم يلتق بالبنا، ولم يكن على اطلاع على حقيقة حركة الإخوان المسلمين . يقول سيد : " ولم أكن أعرف إلا القليل عن الإخوان المسلمين إلى أن سافرت إلى أمريكا عام ١٩٤٨م " (٣) ، وعندما صدرت الطبعة الأولى من كتابه " العدالة الاجتماعية في الإسلام " بواسطة أخيه محمد قطب ، وهو في أمريكا فهم شباب الإخوان أنه يقصدهم بالإهداء بقوله : " إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدأ.. أولئك الفتية الذين لا أشك أن روح الإسلام القوية ستبعثهم من ماضي الأجيال

---

(١) لماذا أعدموني ، سيد قطب ص ١٢ .

(٢) ناقش الدكتور / صلاح الخالدي الأقوال السابقة وبين عدم صحتها : انظر : سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، ص٢٢٤-٢٢٨.

(٣) لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص ١٠ .

إلى مقبل الأجيال في يوم قريب .. جد قريب " (١) ولم يكن الأمر كذلك .

- بعد عودته من أمريكا انشغل بالدعوة إلى إصلاح الأوضاع والتهيئة للثورة ، والاشتراك في التخطيط لها ،وبعد قيامها اكتشف التوجهات القائمة عليها فانحاز إلى الإخوان .

الأسباب التي كانت وراء انضمام سيد قطب إلى الإخوان :

١- تحول سيد قطب في نهاية الأربعينيات إلى داعية للإصلاح المنبعث من عقيدة الإسلام وشريعته جعله قريباً نفسياً من الإخوان ، حيث مثَّل ذلك وحدة الهدف والمنطلق (٢) ، وقوي هذا الارتباط العاطفي بينه وبينهم منذ عودته من أمريكا عام ١٩٥٠م وحتى انضمامه إليهم عام ١٩٥٣م .

٢- ما رآه في أمريكا من مظاهر الفرح والابتهاج عند الغربيين جميعاً لاغتيال الإمام حسن البناء، واهتمام الصحف والمحللين بالحادث ، وكذا تحذير رجال المخابرات لسيد من حركة الإخوان وبيان عدائها للغرب والصهيونية ، كل ذلك لفت انتباهه إليها ووجد نفسه تقترب منها : يقول سيد قطب موضحاً ذلك : " وقد قتل الشهيد حسن البنا، وأنا هناك - في أمريكا- في عام ١٩٤٩م ، وقد لفت نظري بشدة ما أبدته الصحف الأمريكية وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا من اهتمام بالغ بالإخوان ، ومن شماتة وراحة واضحة في حل جماعتهم وضربها ، وفي قتل مرشدها ، ومن حديث عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب في

---

(١) لماذا أعدموني ، ص ١١ .

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص ٣١٨ .

المنطقة ، وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها ، وصدرت كتب بهذا المعنى سنة ١٩٥٠م ، اذكر منها كتاباً بعنوان: "التيارات السياسية والدينية في مصر الحديثة " (١)، كل هذا لفت نظري إلى أهمية هذه الجماعة عند الصهيونية والاستعمار الغربي"(٢).

٣- احترام شباب الإخوان له بعد عودته من أمريكا وإعجابهم بفكره ، وترددهم عليه وزياراتهم له ، كان له أثر في اقترابه من الإخوان، بالإضافة إلى زيادة وعيه الإسلامي وجهوده العملية في الإصلاح، يقول سيد : " فلما عدت نهاية عام ١٩٥٠م ، بدأ بعض شبابهم يزورني ويتحدث معي .. " (٣) .

٤- ما لاحظه بعد عودته من أمريكا من حرب عملاء أمريكا للإخوان ، واتفاقهم مع كل الأعداء في الداخل والخارج على الإيقاع بالجماعة ،وخاصة جمعية الفلاح التي أنشأتها أمريكا ، واستقطبت رجال الفكر والأدب والسياسة (٤) .

٥- انحراف قيادة الثورة عن السير في خط الإسلام ، جعل سيداً يفاصلهم وينحاز إلى حركة الإخوان باعتبارها في نظره حقلاً صالحاً للعمل للإسلام على نطاق واسع في المنطقة، يقول سيد : " واستغرقت في العمل مع رجال ثورة ٢٣ يوليو حتى فبراير سنة ١٩٥٣م ، عندما بدأ تفكيري وتفكيرهم

---

(١) وهو من تأليف: "جيمس هيوارث دن ".

(٢) لماذا أعدموني ، ص١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) سيد قطب للخالدي ، ص ٣٢١ .

يفترق حول هيئة التحرير ، ومنهج تكوينها ، وحول مسائل أخرى جارية في ذلك الحين .. وفي الوقت نفسه كانت علاقاتي بجماعة الإخوان تتوثق باعتبارها في نظري حقلاً صالحاً للعمل للإسلام على نطاق واسع في المنطقة كلها ، بحركة إحياء وبعث شاملة ، وهي الحركة التي ليس لها في نظري بديل يكافؤها للوقوف في وجه المخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية التي كنت قد عرفت عنها الكثير ، وبخاصة في فترة وجودي في أمريكا وكانت نتيجة هذه الظروف مجتمعة انضمامي بالفعل سنة ١٩٥٣م إلى جماعة الإخوان المسلمين " (١) .

٦- قناعته بضرورة وجود حركة إسلامية تواجه مخططات الصهيونية والصليبية في المنطقة والرامية إلى تدمير الحياة الإسلامية ، فرأى أن انضمامه إلى الإخوان سيعمل على إحياء حركة الإخوان الموقوفة ، يقول سيد : " .. وفي الوقت ذاته لا بد من محاولة الرد على تلك المخططات، بإعادة حياة ونشاط الحركة الإسلامية، حتى ولو كانت الدولة لسبب أو أكثر لا تريد .. هذه رؤيتي للموقف التي انطلق منها التصميم على ضرورة العمل لحركة إسلامية ، امتداداً لحركة الإخوان المسلمين المصادرة الموقوفة ، مع الانتفاع بالتجربة ، وبالتجارب التي سبقتها.." (٢).

ثالثاً : طبيعة انضمام سيد قطب إلى الإخوان وعمله معهم :

إن انضمام سيد قطب – رحمه الله– إلى الإخوان في هذا التوقيت

---

(١) لماذا أعدموني . سيد قطب ، ص ١١ ،١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥، ١٧ بتصرف .

عجيب جداً ؛ لأنه يعرف أنهم مقبلون على فترة حرجة ، ومحنة خطيرة ، وكان على إطلاع بما يخططه لهم عبد الناصر وزبانيته من مؤامرات للإيقاع بهم، تنفيذاً لمخططات وتوجيهات أعداء الإسلام من القوى الخارجية والداخلية ، فكان انضمامه دليلاً على صدق توجهه للعمل للإسلام ،حيث رفض البقاء مع رجال الثورة وترك إغراءاتهم له بالمناصب ، وذهب إلى الإخوان ، وهذا لا يتفق بحالٍ من الأحوال مع منطق المتاجرة بالأفكار والمبادئ ، بل يدل على نفسية سيد الصادقة والجريئة، ورغبته الجادة في خدمة الدين مهما كان الثمن .

وقد تولى سيد بعض الأعمال بعد انضمامه إلى الإخوان منها : (١)

١-الإشراف على جريدة " الإخوان المسلمون "

٢- إلقاء حديث الثلاثاء في المركز العام للجماعة.

٢- تمثيل الإخوان المسلمين في مؤتمر الدراسات الاجتماعية بدمشق في مارس عام١٩٥٣م .

٣- تمثيل الإخوان في المؤتمر الإسلامي في بيت المقدس في كانون أول عام ١٩٥٣م.

٤-الإشراف على الأمور الثقافية لقسم نشر الدعوة ، وكتابة بعض الرسائل الشهرية للثقافة الإسلامية.

يقول سيد:" ومع ترحيبهم-إجمالاً- بانضمامي إلى جماعتهم إلا أن مجال العمل بالنسبة لي في نظرهم كان في الأمور الثقافية لقسم نشر الدعوة، ودرس

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٣٣٤.

الثلاثاء، والجريدة التي عملت رئيساً لتحريرها، وكتابة بعض الرسائل الشهرية للثقافة الإسلامية أما الأعمال الحركية كلها فقد ظللت بعيداً عنها" [(١)]

هذه أعمال سيد منذ انضمامه للإخوان وحتى اعتقاله في ١٥ يناير عام ١٩٥٤م مع قيادات الإخوان، حيث مكث في السجن حتى مارس ١٩٥٤م ثم أفرج عنه ، ثم اعتقل ثانية في أكتوبر ١٩٥٤م بعد حادثة المنشية، وحوكم وحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة (١٥) مع الأشغال الشاقة ، قضى منها قرابة عشر سنوات وأفرج عنه في عام ١٩٦٤م بعفو صحي [(٢)]- وسيأتي تفصيل محنته قريباً. **رابعاً : تنظيم (٦٥) طبيعته وأهدافه :** [(٣)]

توقف تنظيم الإخوان المسلمين بعد محنة عام ١٩٥٤م بسبب حل الجماعة واعتقال قيادتها وآلاف الأعضاء منها ، وبينما كان سيد قطب – رحمه الله – يقضي فترة محكوميته في السجن قام بعض أفراد الإخوان بمحاولات لإحياء تنظيم الإخوان كان من أنجحها محاولة الشهيد عبد الفتاح

---

(١) لماذا أعدموني سيد قطب ، ص ١٢ .

(٢) سيد قطب – د / صلاح الخالدي ، سلسلة من أعلام المسلمين – ص ٢١٠ وما بعدها بتصرف .

(٣) ينظر تفاصل التنظيم في : الموتى يتكلمون ، لسامي جوهر ، المكتب المصري الحديث ،القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٧٧م ، ص ٤٩ وما بعدها ، وأيام من حياتي . لزينب الغزالي ، دار الشروق . ب . ت ، ص٣٠ وما بعدها ، ومذابح الإخوان في سجون ناصر ، لجابر رزق ، ص١٢٧ .

إسماعيل[١]الذي نشط في تجميع أفراد من الإخوان وترتيب أسرهم [٢]، وشكل قيادة خماسية للتنظيم، وقام بزيارة سيد قطب في سجنه في عام ١٩٦٢م وطلب منه أن يكون أباً روحياً لجماعة من الإخوان خارج السجن تريد من يصحح مفاهيمها حيث وافق سيد على ذلك ، وصارت كتاباته تأخذ طريقها إلى هذا التنظيم بواسطة عبد الفتاح إسماعيل وزينب الغزالي وأخته حميدة قطب، ووافق هذا الطلب قناعة في نفس سيد قطب الذي كان خلال فترة سجنه يفكر طويلاً في الأحداث ويرى ضرورة وجود حركة إسلامية كحركة الإخوان وعدم توقفها ، كما أعاد سيد قراءة للقرآن في ضوء الأحداث الجارية وحاول أن يقارن بين طبيعة الإسلام والجاهلية ويركز على منهج وطبيعة الصراع بينهما ، ويتكلم عن الجماعة المسلمة وتصوراتها لمواجهة الجاهلية ، وكذا موقف الشعوب المسلمة من الأنظمة الجاهلية ، مؤكداً على أن الحرب ضد الإسلام حرب شاملة في جميع ميادين الحياة ، ولذلك لا يمكن مواجهتها إلا من خلال تجمع حركي إسلامي ، مسترشداً بمواقف الصحابة وحركتهم بالقرآن .

وقد حدد سيد قطب – رحمه الله – منهج التنظيم الجديد وأهدافه في الآتي :

---

(١) هو: عبد الفتاح عبده إسماعيل ، ولد في دمياط عام ١٩٢٥م ، أحد المقربين للإمام البنا ، وأول من عمل على إحياء تنظيم الإخوان بعد النكبة ، وأحد قيادات تنظيم ٦٥م ، مشهود له بالعبادة والزهد والشجاعة ، اعتقل مع سيد قطب وعذب واعدم معه في ١٩٦٦/٨/٢٩م ، المصدر : موقع إخوان أون لاين ، على شبكة الانترنت .

(٢) وكان ذلك بإذن المرشد العام للجماعة : الأستاذ/ حسن الهضيبي.

١- وجوب البدء مع الشباب المسلم – ومع الناس الآخرين – بالعقيدة ، وبيان معنى الإيمان والإسلام والعبودية والتحاكم إلى الله .

٢-تربية الشباب المسلم الفاهم لدينه –على الأساس السابق (العقيدة) – على الأخلاق الإسلامية وتوعيتهم بما يجري حولهم في المعسكرات المحلية والخارجية المعادية للإسلام .

٣- عدم البدء بتنظيم الأفراد إلا بعد وصولهم إلى درجة عالية من فهم العقيدة ، ومن الخلق والسلوك ، ومن الوعي بكل ما يجري ويحدث .

٤-نقطة البدء في الحركة الإسلامية ليست هي المطالبة بإقامة النظام الإسلامية من خلال إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية ، وإنما بنقل المجتمعات – أو قطاعات مؤثرة فيها – إلى الإسلام وفق النقاط السابقة ، لتطالب هي – أي المجتمعات – بتطبيق الإسلام .

٥-عدم محاولة فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم من أعلى – الانقلابات – بل عن طريق تغيير تصورات المجتمع وقيمه وأخلاقه ، والتزامه بالإسلام – أي إيجاد القاعدة المسلمة في المجتمعات ، التي تعرف حقيقة الحكم الإسلامي وتريد أن تحكم به .

٦- حماية الحركة من الاعتداء عليها أو تدميرها ووقف نشاطها كما حدث للإخوان عام ٤٨، ٥٤ و ٥٧م ، وكما حدث للحركة الإسلامية في باكستان وغيرها ، وذلك عن طريق وجود مجموعات مدربة تدريباً فدائياً – بعد تمام تربيتها الإسلامية على قاعدة العقيدة ثم الخلق – تتدخل عند الاعتداء على الحركة فقط ، وفي الوقت نفسه يكون المضي في

البرنامج التربوي السابق [١] .

وعمل سيد على تربية أعضاء التنظيم الجديد على المنهج السابق من خلال طريقين:

أ – وصاياه لأفراد الإخوان الذين كانوا ينقلون من سجن القناطر إلى سجن طره بقراءة كتب معينة ومناقشة أفكار محددة ، وقد تكونت أول أسرة إخوانية تتبنى منهج سيد قطب في سجن القناطر عام ١٩٦٢م ، وبدأت تعمل في أوساط الإخوان في السجن حتى استطاعت خلال الأعوام ٦٢–١٩٦٤م تنظيم عدد (٢٥) فرداً وإقناع (٥٠) آخرين بالمنهج من إجمالي عدد (٩٨) فرداً في السجن ، مما أدى إلى حدوث انقسام في صفوف الإخوان وأثار انزعاج مكتب الإرشاد للجماعة حول أفكار سيد ومنهجه فأرسل أعضاء مكتب الإرشاد من يستوضح الأمر من سيد ، فشرح لهم الأمر فوافقوه [٢]

ب– إمداد أعضاء التنظيم الذين كانوا خارج السجن بكتاباته عن طريق أخته حميدة، وكانت عبارة عن فصولٍ من " معالم في الطريق " و " في ظلال القرآن " [٣].

وبعد أن أطلق سراحه عام ١٩٦٤م بعفو صحي ، قاد التنظيم من الناحية التربوية والفكرية وترك للقيادة الخماسية تسيير أمور التنظيم العملية

---

(١) لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص٤٢ ، ٤٣ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦، ٣٧ بتصرف .

(٣) البوابة السوداء ، لأحمد رائف ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط١ ، عام ٨٨م ، ص٢٤٣.

، وكان يجتمع بهم أسبوعياً أو كل شهر[١] نظراً لحالته الصحية ، وقد ركز اهتمامه في لقاءاته بهم على التربية العقدية ، وخلال هذه الفترة عكف على قراءة بعض الكتب الشرعية، وكتب بعض البحوث وأكمل تفسير الظلال ومقومات التصور الإسلامي.

وفي عام ١٩٦٥م اكتشفت الحكومة أمر التنظيم وقامت باعتقال آلاف الإخوان ومنهم سيد وأعضاء التنظيم لتبدأ محنة سيد الثانية والتي انتهت بمحاكمته وإعدامه عام ١٩٦٦م.

خامساً :علاقة سيد قطب بجماعة الإخوان المسلمين بعد إنشاء تنظيم ٦٥م:

تعتبر مسألة علاقة سيد قطب – رحمه الله – بالإخوان بعد إنشاء التنظيم الإخواني الجديد عام ١٩٦٥ م من المسائل التي دار حولها جدل كبير بين الباحثين والكتَّاب ، في أوساط جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم .

١– حيث يرى بعض كتاب الإخوان ومفكريهم : أن سيد قطب – رحمه الله – في بداية تحوله إلى الإسلام قبل سفره إلى أمريكا كان ينوي إقامة تنظيم إسلامي دعوي ، وأنه بدأ بتجميع بعض الشباب المسلم ثم صرف النظر في الموضوع بسبب سفره ، وفي أمريكا سمع – سيد قطب – كثيراً عن جماعة الإخوان ولفت انتباهه اهتمام الغرب بها فقرر التعرف عليها ، وبعد عودته إلى مصر اتصل بالإخوان وتعرف على جماعتهم ، ثم انتظم في صفوف الجماعة بعد مفاصلته

(١) لماذا أعدموني ، ص٤٧.

لقادة الثورة [١] ، وعاش سيد إخوانياً منذ انضمامه للجماعة عام ١٩٥٣م وحتى استشهاده ، ولم يختلف مع وجهات الإخوان ، بل كان فكره امتداداً لفكر البنا [٢]. حيث اتضحت المبادئ التي رسمها البنا بالمعالم التي حددها سيد قطب ، وتعمق خط الجماعة بأفكاره [٣] .

٢- يرى آخرون من كتّاب الإخوان وغيرهم : أن سيد قطب – رحمه الله – اختلف مع بعض قيادات الإخوان أثناء سجنه بسبب أفكاره التي رأوا أنها تخالف منهج الجماعة ، وبالتالي نتج عن هذا الاختلاف انقسام في أوساط الجماعة نفسها حول سيد قطب وأفكاره وعلاقته بالجماعة ، وتعمق الخلاف بإنشاء التنظيم الإخواني الجديد المعروف بتنظيم ٦٥م ، والذي يقوم على أفكار سيد، حيث ظهر كتاب" دعاة لا قضاة " للرد على بعض أفكار سيد والتنظيم الجديد[٤]، بالإضافة إلى التهوين من شأن سيد قطب بقصد حماية أفراد الجماعة من التأثر بأفكاره المخالفة لهم ،ومع ذلك ظل سيد قطب

---

(١) رائد الفكر الإسلامي ، ليوسف العظم ، ص٣٦ ، ٢٧، ٢٧٢ بتصرف .

(٢) فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ، الدار الشامية ، عمان ، ط١ ، عام ١٤٢٠هـ ، ص٧٦ ، ٧٧ .

(٣) الطريق نحو حكم إسلامي ، محمد علي ضناوي ، دار الإيمان ، طرابلس ، ب . ت ، ص٢٧٠ ، آفاق التعاليم . سعيد حوى ، ص١١. وفكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ، ص٧٦.

(٤) والكتاب عبارة عن مجموعة بحوث صدرت باسم المرشد العام :حسن الهضيبي ينسبها بعضهم إلى قيادات الإخوان ، وينسبها آخرون إلى المخابرات المصرية٠

واحداً من جماعة الإخوان المسلمين حتى مات(١) .

٣- يرى بعض الكتاب – وأغلبهم من خارج الإخوان – أن سيد قطب – رحمه الله- اختلف مع الإخوان في نهاية حياته وخرج عن جماعتهم ، وأنشأ تنظيماً جديداً مع بعض قياداتهم " حيث أفرزت الفترة من١٩٥٤-١٩٧٠م وما واكبها من قمع مباشر ومتلاحق للإخوان مدرسة فكرية جديدة ، هي مدرسة سيد قطب –رحمه الله – وما تفرع عنها من مدارس تشمل رؤىً وأفكاراً خرجت عن فكر مؤسس الجماعة حسن البنا" (٢) .

ونخلص من خلال دراسة حياة سيد قطب وعلاقته بالإخوان إلى الآتي:

١- أن سيد قطب – رحمه الله – لم يفكر في إنشاء تنظيم إسلامي قبل سفره إلى أمريكا ، بل كان في هذه المرحلة داعية للإصلاح الاجتماعي من خلال الكتابة واللقاءات والندوات ، دون أن يصل الأمر إلى الشروع في إنشاء تنظيم إسلامي (٣) .

٢- أن فكرة إنشاء تنظيم إسلامي وجدت عند سيد بعد قيام ثورة ١٩٥٢م، حيث أراد أن يجعل من "هيئة التحرير" تنظيماً إسلامياً دعوياً ،وكان الاتجاه في أول الأمر معه ، لكن سرعان ما تغلب العلمانيون على هيئة التحرير وحولوا مسارها عن خط الإسلام ، ففاصلهم سيد ورأى أن إنشاء تنظيم جديد في ذلك الوقت غير مناسب ، فقرر الانضمام إلى جماعة

---

(١) الحركة الإسلامية ، مجموعة من الباحثين ، تحرير د / عبد الله النفيسي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ب . ت ، ص١٧٣.

(٢) الحركة الإسلامية ، مجموعة من الباحثين ، ص ٢٣١ .

(٣) لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص ١١ .

الإخوان باعتبارهم الجماعة القائمة بهذا الواجب في تلك الفترة ، ولأنها في نظره تمثل حقلاً يمكن العمل للإسلام من خلاله والاستفادة منه(١).

٣- بعد انضمام سيد إلى الإخوان عام ١٩٥٣م عمل معهم في الجوانب الدعوية والثقافية ، وظل بعيداً عن العمل التنظيمي حتى اعتقل عام ١٩٥٤م ، وحكم عليه بالسجن ١٥ عاماً ، وأثناء وجوده في السجن بدأ يعيد النظر في حركة الإخوان المسلمين وأوضاعها ، ويقارن ذلك بأوضاع الجماعة الأولى " جيل الصحابة "، وانتهى به الأمر بعد سبع سنوات من التفكير إلى وضع تصور لمنهج عمل الحركة الإسلامية (٢) وفي هذه الأثناء حاول بعض قيادات الإخوان إحياء تنظيم الإخوان المسلمين ، فعرضوا الأمر على سيد في السجن فوافق على قيادة التنظيم الإخواني الجديد وإمداده بالتصور المنهجي للعمل الأمر الذي أحدث خلافاً وجدلاً في أوساط الإخوان حول سيد قطب وأفكاره وتصوره الحركي الإسلامي ، فناصره البعض والتحق بالتنظيم الجديد ، وخالفه آخرون وظهر كتاب " دعاة لا قضاة " للرد على أفكاره التي خالفهم فيها ، كما حاول المخالفون له التهوين من شأنه والطعن في قدرته التنظيمية نظراً لقصر المدة التي عاشها في الإخوان ، وكل ذلك خوفاً من تأثر أفراد الإخوان بسيد قطب – رحمه الله (٣).

---

(١) المصدر السابق ، ص٩٤ بتصرف

(٢) لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) كان ممن وافق سيد : مصطفى كامل وسيد عيد ورفعت الصياد وفوزي نجم ، وكان ممن عارضه: عبد الرحمن البنان وعبد العزيز جلال ومصطفى مشهور ،انظر : سيد قطب للخالدي ، ص٣٣٧ و٣٨٧.

٤- من خلال دراسة تنظيم ١٩٦٥م والمبادئ التي قام عليها ، نجد أن سيد – رحمه الله – حاول الاستفادة من تجربة الإخوان ، وكذا الاستفادة من قاعدتهم البشرية أيضاً ، لإيجاد حركة إسلامية دعوية تسير على البرنامج الحركي الذي وضعه وتصوره لمنهج عمل الحركة الإسلامية، يقول سيد : " وانطلق التصميم على ضرورة العمل لحركة إسلامية ، امتداداً لحركة الإخوان المسلمين المصادرة الموقوفة ، مع الانتفاع بالتجربة وبالتجارب السابقة " (١).

ويقول أيضاً بعد أن حدد منهج عمل الحركة الإسلامية :" وأصبحت هذه الصورة للحركة الإسلامية واضحة في حسي تماماً " وبقيت مهمة نقلها إلى أفراد ومجموعات أخرى من الإخوان بأية وسيلة لبدءِ حركة على أساسها " (٢).

٥- من خلال النظر في القواعد التي حددها سيد لمنهجه في التنظيم الجديد نجد أنه يختلف مع الإخوان في بعض المسائل ومنها :

أ- الاهتمام بالعقيدة ، وتربية الأفراد على التصور العقدي الصحيح الذي لا غبش فيه منذ البداية حيث يرى سيد قطب أن سبب فشل الحركة الإسلامية ينبع من عدم إدراك أفرادها لمدلول كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " بجميع جوانبها .

ب- تقديم التربية على التنظيم ، فكان شعاره التربية ثم التنظيم ولو طال الوقت.

---

(١) لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

ج- استبعاد الانشغال بالعمل السياسي وعدم الدخول في لعبة الأحزاب لأن ذلك في نظره إضاعة للوقت، وانشغالاً عن تربية القاعدة المسلمة في الأمة [1].

د- النظر إلى الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي والتي لا تطبق شرع الله على أنها أنظمة جاهلية يجب مفاصلتها والعمل على تغييرها بدلاً من ترقيعها ، وإعطائها شرعية من خلال المشاركة في هيئاتها .

ومن خلال تصريحات – سيد – السابقة ، وكذا النظر في طبيعة وأهداف تنظيم ٦٥م نستطيع القول : بأن سيد قطب – رحمه الله – عمل على تكوين حركة وتنظيم جديد ، من خلال انقلاب أو تطوير فكري داخلي، يحمل اسم الإخوان لكن بفكر متطور، وربما يكون هذا هو الموافق للواقع ٠

سادسًا : علاقة سيد قطب بالجماعة الإسلامية في الهند :

الجماعة الإسلامية : جماعة أنشأها في شبه القارة الهندية الإمام أبو الأعلى المودودي[2]، ويعتبر المودودي من أبرز مفكري الإسلام في العصر الحديث، وفي الهند على وجه الخصوص ، وقد مزج بين الفكر

---

(١) لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص ٢٨ .

(٢) هو:أبو الأعلى ابن أحمد بن حسن الهندي ،المودودي ،مؤسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية ،مؤرخ وأديب وسياسي وخطيب،له مؤلفات كثيرة ،كان مولعاً بابن تيمية ،وكان له ميول إلى الماتريدية بحكم البيئة ،انظر : من أعلام الحركة الإسلامية ،للمستشار عبد الله العقيل، دار التوزيع، القاهرة ، طبعة عام ٢٠٠٠م ، ص١٣٠ -١٣٥ .

والدعوة والعمل، وله مجموعة من الكتب والرسائل والأبحاث التي أوضح فيها الفكر الإسلامي وجوانبه ، و نقد الجاهلية المادية الغربية ، ومهاجمة أفكارها وقيمها .

وقد انتشرت كتبه ومؤلفاته في أوساط الشباب الإسلامي، وتركت آثارها واضحة لدى كثير من العاملين للإسلام ، حيث تُرجم الكثير منها إلى اللغة العربية ونُشر في مصر في أواسط القرن العشرين الميلادي بواسطة " لجنة الشباب المسلم " .

وقد تتلمذ سيد قطب – رحمه الله – على كتب المودودي ، واطلع على رسائله التي نشرت في مصر قبل محنته ، ومع أنهما لم يلتقيا ، إلا أن أفكار المودودي تركت بصماتها في فكر سيد قطب ، حيث تبنى كثيراً منها ، وأضاف إليها ، وكان يكثر من النقل عنها والإحالة إليها خاصة في الظلال ، وكان يثني على المودودي ويصفه " بالمسلم العظيم " ، وقد اعترف سيد قطب بانتفاعه بكتب المودودي ، وإعجابه بأفكاره ، وموافقته له في كثير منها ، وخاصة المصطلحات الأربعة (١) .

<u>سابعاً : ملامح المرحلة الأخيرة من حياة سيد قطب " الإسلاميات الحركية":</u>

١– تمثل هذه المرحلة نقلة نوعية في فكر سيد قطب وتوجهه الإسلامي، ونضوج آرائه ودراساته، وفيها كتب أهم كتبه الإسلامية الحركية وهي:

---

(١) في ظلال القرآن في الميزان ، د / صلاح الخالدي ، ص ١٤٨- ١٥٢ بتصرف .

- هذا الدين (١٩٦٠م) .
- المستقبل لهذا الدين (١٩٦٠م) .
- الإسلام ومشكلات الحضارة (١٩٦٢م) .
- خصائص التصور الإسلامي(١٩٦٢م) .
- في ظلال القرآن (كان قد بدأه عام ١٩٥٢م) .
- معالم في الطريق (١٩٦٤م) .
- مقومات التصور الإسلامي (كتب معظمه عام ١٩٦٥م على أوراق الإدعاء وطبع عام ١٩٨٦م) .

والكتب السابقة تشكل فكره في المرحلة الأخيرة ، ولكن ذلك لا يعني خلوها من بعض الأخطاء.

٢- تعرض سيد في هذه المرحلة للاعتقال والسجن مرتين خضع خلالهما لأنواع من التعذيب ، ومع ذلك لم يلن جانبه ، ولم يغير قناعاته ، ولم ينزو على نفسه في السجن ولم تشغله آلامه وأمراضه بل استعلى عليها وجعل من سجنه فرصة للتأمل والتفكير وقراءة الأحداث والربط بينها ، ويلاحظ أن أهم كتبه السابقة صدرت في السجن .

٣- بدأ سيد في نهاية المرحلة بعد خروجه من السجن عام ١٩٦٤م بمطالعة بعض الكتب القديمة والحديثة ككتب ابن القيم والمودودي وبعض التفاسير ، وكان لذلك أثر في تطوره الفكري .

٤- تحول سيد قطب من العمل الإسلامي العام إلى العمل التنظيمي الحركي القائم على المنهج التربوي والذي يؤكد على التربية على العقيدة وإحياء مفاهيمها في الأفراد ، وتربية القاعدة المسلمة في المجتمع

لتتولى المطالبة بالحكم الإسلامي وتطبيقه ٠ وتصور سيد قطب لمنهج الحركة الإسلامية يركز على أهمية الوضوح التصوري الفكري ، من خلال البدء بالعقيدة والبيان ، ويعيد اعتبار أهمية العامل التربوي الذي يقوم على المجاهدة والأخذ بالعزائم والالتزام بالسلوك والممارسة العملية وهو في تصوره هذا يستبعد الانشغال السياسي والنقابي والمهني ، توفيراً للوقت والجهد ، كما أنه – رحمه الله – يلغي اللجوء إلى العنف حتى لا تؤخذ الجماعة بالعنف ، فتطبيق النظام الإسلامي عنده لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات إلى الفهم الصحيح للإسلام ، والتربية عليه مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة (١).

(١) ينظر: لماذا أعدموني ، سيد قطب ، ص ٢٦ – ٢٩ .

المطلب الثاني

صفاته

يحسن بنا أن نعرض لملامح شخصية سيد قطب – رحمه الله – وصفاته الخَلقية والخُلُقية ، لنتعرف عليه عن كثب ، وذلك فيما يلي :

أولاً : صفاته الخَلْقية :

" كان سيد حنطي اللون، أسمر البشرة، أجعد الشعر، وقد عرف في لسانه لثغة محببة في الراء"(١).

وكان بعض الذي يطالعون مقالاته العنيفة ، وكتاباته القوية ، يظنونه رجلاً ضخم الجسم قوي البنية ، حاد الصوت ، لكن سرعان ما يزول ظنهم إذا قابلوا سيداً (٢).

ولم يكن سيد يتمتع بصحة جيدة منذ صغره ، فقد كان كثير المرض "يعاني من أمراض في معدته اضطرته إلى أن يحمل معه الدواء أينما ذهب " (٣)، وفي آخر حياته أصيب بالتهاب رئوي (الذبحة الصدرية)

---

(١) رائد الفكر الإسلامي ، ليوسف العظم ، ص٥٠ .

(٢) من هؤلاء محمد علي قطب والأستاذ علي الطنطاوي وأبو الحسن الندوي، ينظر كلامهم في : ثورة الفكر الإسلامي / لمحمد علي قطب ، ص١٧ ، ومذكرات سائح في الشرق للندوي ، ص٩٧، وسيد قطب للخالدي ، ص٥٠ .

(٣) مع سيد قطب في فكره السياسي والديني ، د / مهدي فضل الله . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٩٧٨م ، ص٤٤ .

[1]، وزادت أمراضه في السجن بعد اعتقاله وتعذيبه ، حتى أنه قضى قرابة تسع سنوات في مستشفى السجن ، أخرج بعدها بعفو صحي [2].

ثانياً : صفاته الخُلُقِية :

معلوم أن الأخلاق منها ما هو جبلي فطري، ومنها ما هو مكتسب والدارس لشخصية سيد قطب – رحمه الله– يلاحظ بعض الصفات التي تحلى بها سواءً قبل التزامه بالإسلام أو بعد التزامه، ويمكن عرض بعض الأخلاق التي تحلى بها فيما يأتي:

١– **الجدية والهمة العالية** : وتتضح لنا صفة الجدية والهمة عند سيد قطب من خلال قضايا كثيرة ومواقف عديدة في مراحل حياته ومن الأمثلة على ذلك :

أ – جديته وهمته في طفولته حيث قرر حفظ القرآن الكريم وعمره يقارب الثامنة، ووضع لنفسه برنامجاً يومياً حتى أتمه خلال ثلاث سنوات.

ب– همته في مواصلة دراساته وعدم الاكتفاء بالتعليم الأساسي رغم صعوبة وضعه المادي .

ج – جدية كتاباته النقدية والأدبية ومواجهته لمظاهر الفساد الاجتماعي والخلقي والسياسي في حين كان كثير من الكتّاب يتخذون من الكتابات الهازلة تجارة رابحة .

د – جديته في المرحلة الأخيرة في الالتزام بالإسلام والدعوة إليه ، والعمل

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٣٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٣ .

الحركي والتنظيمي لمواجهة الجاهلية والباطل دون كللٍ أو خوف .

هـ- عصاميته وعلو همته في فترة محنته وسجنه ، ومعلوم أن السجن وحياته أمر صعب ، خاصة لمن كان مسجوناً بظلم ، أو يلاقي فيه الإيذاء والتعذيب ، ولكن سيد قطب جعل من سجنه فرصة للتأمل والتفكير والبحث والتأليف مستعلياً على كل جراحه وآلامه .

٢- شجاعته وقوة شخصيته : عُرف سيد قطب – رحمه الله – بشجاعته وقوة شخصيته حتى في حياة ما قبل الالتزام ، ثم بعد التزامه بالإسلام أصبحت هذه الصفة أكثر من قبل وحتى تتضح هذه الصفة نسوق بعض الأمثلة والمواقف ومنها :

أ – رغم تدليل والديه له في طفولته إلا أنه كان يمتاز بالشجاعة وقوة الشخصية بخلاف الأطفال في هذه السن ، وقد ذكر عدة مواقف له في طفولته حول تحديه لبعض الخرافات والشائعات وقصص العفاريت التي كانت منتشرة في القرية (١).

ب- تتجلى شجاعته وقوة شخصيته في رحلة دراسته الجامعية من خلال نقاشاته الجريئة ومعاركه الأدبية والنقدية وهو لا يزال طالباً يقول عنه أستاذه : " يعجبني فيه جرأته الحازمة ، التي لم تَسْفُه فتصبح تهوراً ، ولم تذل فتغدو جبناً ، وإن هذه الجرأة الرشيدة التي دعته إلى الاستقلال برأيه في بحثه – حتى ولو خالفنا – لهي التي تجعله أحبَّ

---

(١) طفل من القرية – سيد قطب ، ص ١٢١ - ١٢٣

إلى قلوبنا " [١]. كما تظهر أيضاً في قوة طرحه وكتاباته الإصلاحية التي تنتقد مظاهر الفساد والانحلال في المجتمع والقائمين عليها .

ج – جرأته وشجاعته في المحاكمة وأثناء التحقيق، حيث كان يجيب على الأسئلة بمنتهى الشجاعة ودون تردد ، وتظهر شجاعته في خلعه لثيابه أمام المحكمة ليرى الحاضرون آثار التعذيب الرهيب وهو يعرف ما ينتظره بعد ذلك [٢]، وفي بيان هذه الصفة يقول سيد : " إن الخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً.. فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء ، والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد " [٣].

٣-**<u>عمق نظره وسعة أفقه</u>** : الذي يقرأ ما كتبه سيد قطب يجد أنه أحسن قراءة الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية ، فمن الماضي أحسن قراءة الدين والتاريخ والفلسفة ، ومن الحاضر تعلم السياسة والفكر ، وأما من المستقبل فقد استشرف الصراع بين الكفر والإسلام وطبيعة المعركة ووسائلها كما استشرف النصر للإسلام وانتشاره رغم كل المؤامرات التي تحاك ضده .

ويرجع عمق نظرته للأحداث وسعة أفقه إلى أمور منها:

أ – الإخلاص الذي نلمحه من خلال عباراته – والله حسيبه – فالإخلاص

---

(١) من مقدمة الأستاذ/ محمد مهدي علام لكتاب سيد(مهمة الشاعر في الحياة) نقلاً عن سيد قطب للخالدي ، ص ٨٠ .

(٢) مذابح الإخوان في سجون ناصر ، جابر رزق ، ص ١١٣ .

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٤٨٧ .

يورث الفراسة .

ب - إطّلاعه- رحمه الله-على المخطط العالمي لضرب الإسلام، ممثلاً بالحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، وتجلي ذلك له أثناء إقامته في أمريكا من خلال مناقشاته وحواراته مع العلماء والمختصين الغربيين ولقائه برجال من المخابرات ثم اتصاله برجال الثورة في مصر بعد ذلك (١).

ج- سعة ثقافته ، وإطلاعُه على الثقافات المختلفة : حيث أتاح له ذلك التعرف على ما يدور في العالم في أغلب مجالات الحياة : يقول سيد " إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها هو القراءة والإطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية ، ما هو من تخصصه ، وما هو من هواياته، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره ، فإذا هو يجد ما قرأه ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم – وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك – وما هو بنادمٍ على ما قضى فيه أربعين سنةً من عمره ، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها وضآلتها وقزامتها ، وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها وادعائها" (٢).

٤- **استعلاؤه بالإيمان** : بعد أن وضع سيد قطب – رحمه الله – قدمه على طريق الإيمان الحق في المرحلة الأخيرة من مراحل حياته ، تدرج في الرقي الإيماني ، فارتفع عن مطامع الدنيا وآثر العيش في ظلال القرآن الكريم

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ١٩٧ ، ٣٠٨ .

(٢) معالم في الطريق – سيد قطب ، ص ١٤٣ .

وتوجيهاته ، وقد عبر عن ما يجده في نفسه من حلاوة الإيمان في رسالتين له من سجنه لأحد إخوانه(١) يقول في الأولى:" أما أنا فأجدني خيراً من أي وقت مضى ، في عقيدتي وإيماني ، وفي وضوح هذه العقيدة وهذا الإيمان في نفسي ، وفي وضوح إدراكي وتصوري لهذا الأمر ومقتضياته .. ووضوح الهدف والوسيلة والطريق والغاية ، وكل هذا خير جزيل جميل ، يرجح كل ما أديته ثمناً له ، من راحتي وصحتي والحمد لله ".

ويقول في الثانية : " أهم من أن أشكرك – فيما اعتقد– أن أطمئنك عليَّ ، وأنا في وضعي الذي تعلمه .. لقد وجدت الله ، كما لم أجده من قبل قط .. لقد عرفت منهجه وطريقه كما لم أعرفه من قبل، ولقد اطمأننت إلى رعايته ، ووثقت بوعده للمؤمنين كما لم أطمئن من قبل قط .. وأنا بعد ذلك – على ما عهدتني – مرفوع الرأس لا أحنيه إلا لله ، والله يفعل ما يشاء ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (٢) .

ويقول في مقدمة الظلال: " لقد عشت في ظلال القرآن – هادئ النفس ، مطمئن السريرة ، قرير الضمير ، عشت أرى يد الله في كل حادث ، وفي كل أمر ، عشت في كنف الله ورعايته ، عشت استشعر ايجابية صفاته تعالى وفاعليتها " (٣) ،" لقد عشت في ظلال القرآن – أنظر من علو إلى

---

(١) هو: صديقه الأديب السعودي الأستاذ / أحمد عبد الغفور عطار ،صاحب مجلة (كلمة الحق التي أصدرها من مكة).

(٢) مجلة (كلمة الحق) السنة الأولى – العدد الثاني – مايو ١٩٦٧م ص ٤٠ ، نقلاً عن سيد قطب للخالدي ، ص ٣٦٥.

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ١٣ .

الجاهلية التي تموج في الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة ، أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال ، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال " (١).

ويبرز خلق الاستعلاء بالإيمان عند سيد قطب بوضوح في مواجهته للباطل وثباته أمام البلاء واعتزازه بدينه ، وترفعه على المساومات والإغراءات التي واجهها في حياته ، وكذا في مواجهته للطاغوت وقد طُلب إليه أن يعتذر أو يسترحم فيعفى عنه فقال : " لماذا استرحم ؟ إن كنت محكوماً بحق فأنا أقبل الحق ، وإن كنت محكوماً بباطل فأنا أكبر من أن استرحم الباطل " ،" إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً واحداً يقِّر به حكم طاغية " (٢).

هذه النصوص وغيرها كثير تبين لنا الحالة الإيمانية التي كان يعيشها سيد قطب – رحمه الله – في آخر حياته، رغم قسوة الحياة المحيطة به في السجن، وتذوقه لحلاوة الإيمان واضح فيها.

٥- __صدقه وثباته__ : من أبرز صفات سيد قطب – ولا نزكيه على الله تعالى– الصدق والثبات:

* أما صفة الصدق فتبدو في كتاباته حتى قبل التزامه، مما جعل تعامله مع الساسة يكاد يكون مستحيلاً ففي عهد الملكية كان الكُتَّاب يتزلفون

---

(١) المصدر السابق ، ١ / ١١ .

(٢) عملاق الفكر الإسلامي (سيد قطب ، للشهيد عبد الله عزام – رحمه الله – مركز شهيد عزام ، بيشاور ، ط١ ، ب. ت ، ص٦

للملك ويتقربون إليه ، أما- سيد - فرغم فقره فقد كان أبياً صادقاً فيما يطرح.

وبعد قيام الثورة لم يستطع أن يستمر مع قيادة الثورة إلا شهوراً معدودة ، حتى اكتشف نفاقهم وفساد طويتهم فتركهم وفاصلهم .

ويظهر صدقه في تدينه -أيضاً - في تركه للمناصب والإغراءات بعد قيام الثورة وخلافه مع رجالها وانضمامه للإخوان المسلمين في وقت حرج ، يعرف أنهم مقبلون فيه على محنةٍ وبلاء ، وحتى في محنته تجد سمة الصدق واضحة في محاكمته وفي كتاباته بعد ذلك في الظلال والمعالم والخصائص، سأله أحد تلاميذه: لماذا كنت صريحا كل الصراحة في المحكمة التي تملك عنقك ؟ فقال : " لأن التورية في العقيدة لا تجوز ، وليس للقائد أن يأخذ بالرخص " (١).

ويقول: " لن نتدسس إلى الناس بالإسلام تدسساً ، ولن نُربِّت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة ، سنكون معهم صرحاء غاية الصراحة ، هذه الجاهلية التي أنتم فيها نَجَسٌ والله يريد أن يطهركم " (٢).

* أما ثباته فأمر لا يخفى على كل من طالع مسيرة حياته، ويظهر ذلك من خلال:

أ - ثباته أمام الإغراءات التي تعرض لها في طريقه إلى أمريكا وفي أمريكا (٣).

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٤٧٣.

(٢) معالم في الطريق ، سيد قطب ، ص١٦٨.

(٣) ينظر في ذلك في رحلته إلى أمريكا في (الفصل القادم)

ب- ثباته أمام المحكمة والابتلاءات والتعذيب في السجن في محنته الأولى والثانية [(١)].

ج- ثباته على الحق وعدم الاستجابة لمطالب الطغاة رغم المساومات والتهديدات التي استمرت حتى آخر لحظة من حياته [(٢)].

٦- **عفته – رحمه الله –** : العفة هي: الكف عما لا يحل ولا يجمل [(٣)].

والذي ينظر في حياة سيد قطب – رحمه الله – يجد خلق العفة والاستعفاف واضحاً حتى في مراحل ما قبل التزامه، ويمكن بيان تلك الصفة من خلال الأحداث الآتية:

أ – عُرف سيد قطب في طفولته وصباه بالوقوف في وجه الأعمال الشائنة التي كان يقوم بها بعض
الطلاب في المدرسة نحو الفتيات، ويرجع ذلك إلى طبيعة البيئة ونوع التربية التي تلقاها من أبويه.

ب- نلمح في سيد خلق العفة وعدم الإسفاف حتى في مرحلة شبابه وضياعه الفكري ويتضح ذلك من قصة حبه للفتاة القاهرية والتي كان قد خطبها ثم تبين له أنها كانت على علاقة عاطفية مع شاب آخر فتركها " لأنه كان يريدها عذراء القلب والجسد " ويلحظ ذلك من إهدائه لقصة " أشواك " حيث جاء في مقدمتها : " إلى التي خاضت معي في الأشواك

---

(١) ينظر فقرة محنته ، من هذا الفصل .

(٢) سيد قطب ، للخالدي ،ص٤٧١-٤٧٣

(٣) لسان العرب ،لابن منظور ،دار إحياء التراث ، بيروت ،ط٢ ،١٩٩٢م، ٢٩٠/٩، و المفردات للراغب الأصفهاني ، دار القلم ، بيروت ،ط٢ ١٩٩٧م ، ص٥٧٣ .

، فدُميت ودَميت ، وشَقيتُ وشَقيَت ، ثم سارت في طريق وسرت في طريق ، جريحين بعد المعركة ، لا نفسها إلى قرار، ولا نفسي إلى استقرار " (١).

ج – ومن قصص العفة عنده أيضاً ما وقع له وهو على ظهر الباخرة مسافراً إلى أمريكا حيث يذكر سيداً : " أنه وقف في ليلة صافية مقمرة متأملاً فأحس بحالة إيمانية تغمره ، وراح يخاطب نفسه ، أأذهب إلى أمريكا وأسير فيها سير المبتعثين العاديين الذين يكتفون بالأكل والنوم ؟ أم لا بد من التميز بسمات معينة ؟ وهل غير الإسلام والتمسك بآدابه والالتزام بمنهجه في الحياة ، وسط المعمعان المترف المزود بكل وسائل الشهوة واللذة والحرام ؟ قال : " وأردت أن أكون الرجل الثاني – المسلم الملتزم – وأراد الله أن يمتحنني : هل أنا صادق فيما اتجهت إليه؟ أم هو مجرد خاطرة ؟ فما إن دخلتُ الغرفة حتى كان الباب يقرع ، وفتحت فإذا أنا بفتاة هيفاء جميلة ، فارعة الطول شبه عارية ، يبدو من مفاتن جسمها كل ما يغري ، وبدأتني بالإنجليزية : هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عليه هذه الليلة ؟ فاعتذرت بأن الغرفة معدة لسرير واحد، وكذا السرير لشخص واحد، فقالت: وكثيراً ما يتسع السرير الواحد لشخصين !! واضطررت أمام وقاحتها، ومحاولة الدخول عنوة لأن أدفع الباب في وجهها، لتصبح خارج الغرفة، وسمعت ارتطامها بالأرض

---

(١) مقدمة كتاب (أشواك) لسيد قطب ، نقلا عن : عبقري الإسلام سيد قطب ، للكشميري ، ص٧٦.

الخشبية في الممر ، فقد كانت مخمورة .." [١].

د – وفي أمريكا أطلعنا سيد قطب – رحمه الله – على محاولات عديدة لإغرائه وإغوائه من خلال ملاحقة إحدى الفتيات له من ولاية إلى أخرى، ومحاولة إحدى الممرضات إغراءه وهو في المستشفى، وعرض عامل الفندق تلبية طلباته الجنسية !! وغيرها [٢]. وكان في كل المحاولات يترفع ويعف نفسه ويستعلي بإيمانه – رحمه الله – .

٧– **<u>كرمه وزهده</u>** : تربى سيد منذ طفولته على خلق الكرم عملياً في بيت والده في القرية ، حيث كان والده رجلاً صالحاً كريماً يحب الإحسان إلى الناس وخاصة الغرباء الذين يفدون للعمل في القرية ، وقد كلفه ذلك أن يبيع بعض الأراضي التي كان يملكها .. وقد ذكر سيد بعض المواقف التي أثرت في نفسه من كرم والده مع الآخرين [٣]. وفي حياة سيد كثير من الوقائع التي تدل على كرمه حتى قبل التزامه ومنها :

أ –كان سيد قطب محاضراً في كلية دار العلوم ، وفي أول يوم للدراسة لاحظ أحد الطلاب ببدلته القديمة على غير المعهود في أترابه الطلبة ، وإذا بالأستاذ سيد قطب يستدعيه إلى مكتبه ،ويطلب منه أن يخلع بدلته

---

(١) أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب ، د/ صلاح الخالدي ،دار القلم ، دمشق ، ط٨، ١٤٢٣هـ ،ص ٢٧ .

(٢) ينظر تفاصيل ذلك في سيد قطب للخالدي ، ص ١٩٦ ، وأمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب للخالدي ، ص ٢٧ ، ٢٨.

(٣) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص١٩٢ وما بعدها ، نقلاً عن سيد قطب للخالدي ، ص٣٤ .

، وقام سيد بخلع بدلته وإعطائها له ، بينما أخذ بدلته القديمة ، ولم يسمح له بالخروج إلا بعد أن لبسها !! [١].

ب-كان الأستاذ / أحمد عبد الغفور عطار يزور سيد قطب في منزله في حلوان – في الأربعينيات – وكان أثاث غرفته متواضعاً بسبب حالته المادية ، ثم زاره بعد أيام فوجد عنده أثاثاً جميلاً وجديداً فَسُر بذلك ، وزاره مرة ثالثه فوجد أثاثاً قديماً ، فاستغرب وبعد إلحاحٍ منه أخبره –سيد –أنه باع الأثاث الجديد وقدم ثمنه مساعدة لأحد إخوانه ليتم مصروفات زواجه [٢].

ج – بعد التزامه وتعرضه للبلاء والمحنة ، تعامل في سجنه مع إخوانه وغيرهم بكرمٍ بالغ فعندما كان يزوره أهله ،عادة ما يحضرون له دجاجة أو إوزة مشوية ، فكان يتناولها كما هي مغلفة ويقف في شرفة الدور ، وينادي إخوانه في الطابق الأسفل ويعطيهم تلك الهدية يتقاسمونها فيما بينهم [٣].

د – كان معه في زنزانته زميل له [٤]، وكان مصاباً بانفصال غضروفي وكان علاجه يقتضي أن يبقى مستلقياً على ظهره ستة أشهر، فكان سيد – رحمه الله – يقوم بخدمته بنفسه ويطيب خاطره ويعتني به بكرم بالغ.

---

(١) مجلة المجتمع ، عدد ٨٣٢ بتاريخ ١/ ٩ / ١٩٨٧. نقلاً عن سيد قطب للخالدي ، ص ٤٩٤.

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص٤٩٤.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦٦.

(٤) هو : الأستاذ /مصطفى العالم .

وشمل كرمه في سجنه الحيوان أيضاً، فقد كان عنده في السجن قط عجوز، وكان سيد يطعمه ويعتني به، ولما سئل عن سر اهتمامه به وهو عجوز ؟ فقال: لا يليق بنا أن نأخذ شبابه، ثم لا نرحمه في شيخوخته (١).

وأما زهده وترفعه عن ما في أيدي الناس رغم حالته المادية وفقره ، فيحدثنا أحد أصدقائه(٢)بقوله : " أتصل بي سيد ذات يوم وطلب مني أن أحضر إليه ومعي بضعة عشر جنيهاً قرضاً ليشتري بها دواء ، وهو مريض لا يملك ثمنه ، فذهبت سريعاً ولما دخلت دهشت مما رأيت ، فقد كان معه في الغرفة موظف دبلوماسي في سفارة دولة عربية وأمامه حقيبة مليئة بالأوراق المالية ، تبلغ عدة آلاف من الجنيهات ، وهو يرجو سيداً بإلحاح أن يأخذها ، هدية من دولته ، ليستعين بها على تمويل مشروعاته !! ونظرت إلى سيد الذي كان جالساً مريضاً ، وهو حزين، بدأ عليه الغضب وهو يقول للرجل : إنني لا أبيع نفسي وفكري بأموال الدنيا ، فأعد أموالك إلى حقيبتك !! ، ثم التفت إليَّ وقال : هل أحضرت المبلغ ، فناولته وأنا في غاية الدهشة ، أما الرجل فقد أخذ حقيبته وخرج متعجباً مما رأى " (٣).

وأكبر من ذلك: زهده في دنيا الطواغيت ومناصبهم رغم عرضها عليه، وحتى اللحظة الأخيرة من حياته – رحمه الله – .

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٣٦٧.

(٢) هو الأستاذ/ أحمد عبد الغفور عطار.

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص ٤٩٥.

٧-**حبه الخير للناس :** يقول سيد قطب عن نفسه : " نفسي خيِّرة ، محبةٌ ، يغمر الحنان جوانبها .. تريد – لو استطاعت – أن تبسم لكل شيء، وأن يبسم لها كل شيء.. وهي تعشق الرضا والهدوء ، وتتلمسهما في كل ناحية.. وتود لو كانت الحياة منبسطة هادئة.. تصطدم هذه الطبيعة بالواقع، فتحار وتتألم وتشكو، وقد تغضب ، وقد تنفعل ، وقد تسخر وتهدد بالانتقام.. ولكنها مع ذلك تحتفظ بخيرها وحنانها في أشد ساعات الغضب والانفعال.. حتى إذا انتهى ذلك الموقف ، عاد إليها حنانها وعادت تبحث عن مظاهر الود والمحبة بحث اللاهث المستزيد .

عجبت لنفسي لا تراع من الأذى   ويقتلها خَطْبٌ ينيخ على غيري ويا
ربما أبكي لمن خِلت بائساً   على حين يقضي ليله باسم الثغر [١].

ويقول أيضاً : " عندما نعيش لذواتنا فحسب تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة .. وعندما نعيش لغيرنا .. فإن الحياة تبدو طويلة عميقة .. إننا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة حينما نعيش للآخرين، .. عندما تنمو في نفوسنا بذور الحب والعطف والخير نعفي أنفسنا من أعباء ومشقات كثيرة،.. ونمنح أنفسنا طمأنينة وسعادة ،حين نمنح الآخرين عطفنا وحبنا – إننا حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً ، أو أطيب منهم قلباً ، أو أرحب منهم نفساً ، أو أذكى منهم عقلاً لا نكون قد صنعنا شيئاً كبيراً .. إن العظمة الحقيقية أن نخالط الناس بروح السماحة والعطف على ضعفهم ..وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٨٧-٤٨٨ ، بتصرف ، (من مقال لسيد في مجلة الأسبوع ، العدد ٣٧ سنة ١٩٣٤م) .

بقدر ما نستطيع.. دون أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومثلنا السامية أو أن نتملق الناس ونثني على رذائلهم ... " [١].

كما يبدو حبه للناس من خلال عمله الدؤوب في الدعوة إلى إصلاح الأوضاع ورفع المظالم والمعاناة عن الناس حتى قبل التزامه ، وأما بعد الالتزام فيكفي أنه نذر وقته كله للعمل والدعوة ، وجاهد الطغاة بقلمه ومواقفه ، وفضح المؤامرات والأخطار المحدقة بالأمة نصحاً لها وتحذيراً ، وحرصاً منه على خير الناس وهدايتهم .

ثالثاً : محاولات زواجه : قدَّر الله لسيد قطب – رحمه الله – أن يعيش حياته على هذه الدنيا بدون زواج ! ولم يكن ذلك عزوفاً منه عن الزواج، أو إيثاراً للعزوبية رهبنةً أو عداوةً للمرأة ، وإنما لأنه لم يتمكن منه رغم بذله الأسباب ، حيث أحب سيد حباً صادقاً شريفاً مرتين ! وخطب مرتين ! ولكنه غادر الدنيا بدون زواج :

أ – تحدث سيد عن حبه الأول في القرية في بداية شبابه في كتابه " طفل من القرية " حيث ذكر أنه أحب فتاة تربطه بها صلة مصاهرة بعيدة – كانت ابنة عم زوجة عمه – وذكر صفاتها التي جعلته يعجب بها ، وأحس أنها تبادله نفس الشعور ، ولما ترك سيد قريته إلى القاهرة ظلت الفتاة عالقة بذاكرته ، وعاد بعد ثلاثة أعوام ليكون أول سؤال له عنها ! فعلم أنها قد تزوجت ، فاغرورقت عيناه بالدموع وانصرف [٢].

---

(١) أفراح الروح ، سيد قطب ،مركز الشرق العربي ، ب، ت ،ص ٣، ٥ .

(٢) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص ٥٥ ، نقلاً عن سيد قطب للخباص ، ص ٢٤٨.

ب – في أواخر الثلاثينات وبعدما تخرج من الكلية وعمل في الوزارة، تعرف على فتاة قاهرية وأحبها !! ثم تقدم لخطبتها من أهلها، وفي حفل الخطوبة رأى الدمع في عينيها فألح عليها لتخبره السبب . فاعترفت له بأنها كانت قبل أن تتعرف عليه تعيش قصة حب مع ابن جيرانها الضابط بالجيش، عندها تلاشت أحلامه، ليعيش سنوات من المعاناة والحيرة، فقرر فسخ الخطوبة لأنه يريد امرأة عذراء القلب والجسد(١). وقد جعل سيد من تجربته هذه مادة لنتاج أدبي نثراً وشعراً وجسَدها في رواية بعنوان : " أشواك " ، واستمر تأثره بالحادثة زمناً حيث انصرف بعدها إلى الأعمال الأدبية ، قبل توجهه إلى الفكر الإسلامي وانشغاله بحيث لم يجد فسحه من الوقت للتفكير في الزواج (٢). ثم سافر إلى أمريكا وأقام فيها لمدة سنتين وعاد منها ليبدأ التفكير في الزواج وشرع في البحث عن شريكة حياته لكن الأعمال والشواغل المتلاحقة لم تدع له فرصة ، حيث استغرقت أعمال سيد قبل الثورة وبعدها كل وقته (٣) .

ج – بعد انضمامه إلى الإخوان عام ١٩٥٣م خطب إحدى فتيات الإخوان، وكاد الزواج أن يتم إلا أن أحداث عام ١٩٥٤م حالت بينه وبين إتمام الزواج، فما كان منه إلا أن أعفى الفتاة من هذا الرباط (٤)، ليبقى في السجن عشر سنوات.

---

(١) المرجعين السابقين ، ص ١٠ ، ٧٤.

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٣.

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص ٢٥٣ .

(٤) سيد قطب ومنهجه في التفسير ، إسماعيل أمين الحاج ، ص ٦٩.

د – بعد الإفراج عنه عام ١٩٦٤م ، حاول سيد الزواج من فتاة أخرى ، فأقدم على خطبة فتاة من الأخوات المسلمات ، ولكن أحداث هذا العام وما تلاها حالت دون إتمام الزواج (١).

وقد ذكر شقيقه محمد قطب أن سيداً قام بأكثر من محاولة للخطبة والزواج ، ولكنه لم يوفق في جميعها إلى ما يريد (٢). ومما سبق يظهر أن محاولات زواج سيد كانت تفصل بينها فترات زمنية طويلة وذلك يعود إلى عدة أسباب منها:

١-تحمل سيد أعباء أسرته ورعايتها بعد وفاة والده ووالدته، مع ضيق ذات اليد، حيث وهب نفسه لرعاية إخوته وتعليمهم، كما ذكر لبعض رفاقه في السجن (٣).

٢-الهزة العميقة التي تعرض لها سيد حين خاض تجربة الحب المخفقة التي جسدتها رواية(أشواك) فكان إخفاقه عاملاً مهماً من عوامل عزوفه عن الزواج لفترة زمنية .

٣- انشغاله بالدعوة إلى إصلاح الأوضاع ومواجهة الظلم ثم سفره إلى أمريكا وانشغاله بعد عودته في الإعداد للثورة .

٤- المحنة التي تعرض لها في آخر حياته من اعتقال وتعذيب ومرضٍ وطول سجن وإعدام حالت دون إتمام محاولتين للزواج كما سبق(٤).

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٩ (من مقابلة مع زينب الغزالي) ، عام ١٩٧٩م .

(٢) سيد قطب للخباص ، ص ٩٧ . وحدثني هو بذلك عند لقائي به في منزله بمكة في رمضان عام ١٤٢٨هـ

(٣) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ٢٨ .

(٤) سيد قطب للخباص، ص ٩٨، وسيد قطب للخالدي ، ص ٢٥٤.

المبحث الثالث

أعماله ووفاته

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أعماله ووظائفه .

المطلب الثاني : محنته ووفاته .

المطلب الأول

أعمـاله ووظـائفه

أنهى سيد قطب دراسته الجامعية في كلية دار العلوم صيف عام ١٩٣٣م ، ودخل معترك العمل الوظيفي، وتولى عدداً من الأعمال والوظائف هي :

<u>١ – التدريس :</u>

أ – عين مدرساً بعد تخرجه في ٢ / ١٢ / ١٩٣٣م في (مدرسة الداودية) بالقاهرة .

ب– انتقل للتدريس في مدرسة دمياط الابتدائية في ١/ ١٩٣٥/٩م.

ج–انتقل للتدريس في مدرسة بني سويف في ١٩٣٥/١٢/١م نظراً لعدم مناسبة جو دمياط له لظروفه المرضية

د – انتقل للتدريس في مدرسة حلوان بتاريخ ١٩٣٦/١١/١م ، وبقي فيها ثلاث سنوات .

وقد قضى سيد قطب – رحمه الله– ست سنوات كمدرس في مدارس الوزارة، وهي المهنة التي أحبها لما فيها من صلة إنسانية كما يقول (١).

<u>٢ – موظفاً في وزارة المعارف :</u> وقد تولى سيد بعض الأعمال في الوزارة كالتالي :

أ – محرراً عربياً في مراقبة الثقافة العامة من تاريخ ١٩٤٠/٤/١٧م.

---

(١) سيد قطب للخباص ، ص ٩٤ ، وسيد قطب للخالدي ، ص ٨٥ .

ب- موظفاً في إدارة الترجمة والإحصاء من تاريخ ١/١٠/١٩٤٠م .

ج- مفتشاً في التعليم الابتدائي من تاريخ ١/٧/١٩٤٤م ، وكان سبب نقله إلى التفتيش خلافه مع الوزير بسبب نشاطه الأدبي والسياسي .

د - محرراً في إدارة الثقافة من تاريخ إبريل /١٩٤٥م:

وخلال عمله في الوزارة كان يكتب المقالات العنيفة، ناقداً الأوضاع الداخلية، وسياسة التعليم المتردية مما آثار المسئولين عليه، وصرح وزير المعارف بضرورة فصله من الوظيفة، وقد آثار ذلك "سيداً" فعزم الاستقالة من الوزارة، لكن د/ طه حسين(١) الذي كان صديقاً له بذل جهداً ليحول بينه وبين الاستقالة، وانتهى الأمر بترتيب بعثة علمية لسيد إلى أمريكا للتخصص في التربية وأصول المناهج -في الظاهر- وإن كان الهدف الأساسي هو التخلص منه ومن كتاباته ومحاولة إفساده فكرياً وخلقياً فسافر إلى أمريكا في ٣/١١/١٩٤٨م ، وبقي هناك حوالي سنتين، ثم عاد في ٢٣/١٠/١٩٥٠م.

هـ- عين بعد عودته من أمريكا بوظيفة " مراقب مساعد" بمكتب وزير المعارف ، ثم نقل إلى منطقة القاهرة الجنوبية التعليمية في ٢٢/١٠/١٩٥١م .

و - عين مراقباً مساعداً للبحوث الفنية والمشروعات بالوزارة في

---

(١) هو:طه بن حسين المصري ،كاتب علماني مشهور، درس في باريس وعاد إلى مصر ، وتولى عمادة كلية الآداب ووزارة التعليم ، ألف عددا من الكتب ،كان شغوفا بالحياة الغربية وداعية إليها ، مات في القاهرة سنة ١٣٩٣هـ ،انظر: الأعلام للزركلي ٢٣١/٣ .

١٩٥٢/٥/١٧م، ولكنه لم يبقَ في عمله هذا طويلاً بسبب الخلاف المتزايد مع المسئولين في الوزارة فاضطر لتقديم استقالته من الوزارة في ١٩٥٢/١٠/١٨م [١].

ولم يكن سيد قطب خلال فترة عمله في الوزارة مجرد موظف عادي، بل كان دائم التفكير في تحسين العملية العلمية والتربوية ، فأخذ يضع الخطط ، ويقدم الدراسات ويعد التقارير والمقترحات بكل جرأة وإن غضب المسئولون .

ومن المقترحات التي قدمها :

١-مقترح تعديل مناهج كلية دار العلوم .

٢-مقترح لإصلاح دروس النحو والبلاغة والصرف والإملاء .

٣-مقترح " مشروع الترجمة ".

٤-مقترح " مشروع مكتبات المدارس " .

٥-مقترح " مشروع خطة تغيير نظام دراسة التاريخ " .

٦-مقترح تحسين وإصلاح جهاز الوزارة – بعد عودته من أمريكا – .

كما شارك في تأليف بعض المناهج الدراسية ومنها :

١- الجديد في اللغة العربية ٢- الجديد في المحفوظات ٣- روضة الطفل[٢].

---

(١) سيد قطب للخباص ، ص ٩٥ ، وسيد قطب لعبد الباقي حسين ، ص٣٠ ، وسيد قطب للخالدي ، ص٨٦، ٨٧.

(٢) سيد قطب للخباص ، ص ٩٥ ، وسيد قطب للخالدي ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

عمله مع قيادة ثورة ٥٢م :

بعد استقالته من الوزارة ونظراً لصلته بقادة الثورة قبل قيامها، وتأثر كثير من ضباط الجيش الوطنيين بمقالات سيد ، فقد جعلوه بمثابة المستشار، وكانوا يترددون على منزله في " حلوان " ، وبعد نجاح الثورة قرر مجلس قيادتها أن يسند إلى سيد قطب منصب وزير المعارف فاعتذر ، وكذا عرض عليه منصب المدير العام للإذاعة فاعتذر ، ووافق أن يكون سكرتيراً عاماً لهيئة التحرير. ولما تبين له حقيقة أهدافها ، استقال منها بعد أقل من شهر من تعيينه (١).

أعماله بعد انضمامه إلى الإخوان المسلمين : بعد استقالة سيد من هيئة التحرير بسبب قناعته بأن أهدافها غير إسلامية انضم إلى الإخوان المسلمين في مارس عام ١٩٥٣م ، وقد تولى بعض الأعمال ذات الطابع الثقافي للجماعة ، وظل بعيداً عن العمل الحركي التنظيمي حتى دخل السجن عام ١٩٥٤م ، وقد سبق الإشارة إلى أعماله مع الإخوان والتي تمثلت في :

١- الإشراف على قسم نشر الدعوة .

٢- إلقاء درس الثلاثاء في المركز العام للجماعة .

٣- وكتابة بعض الرسائل الشهرية للثقافة الإسلامية .

٤- ورئاسة تحرير جريدة " الإخوان المسلمون " .

---

(١) سيد قطب ،للخالدي ،ص ٣٠٧ ٠

٥- وتمثيل الإخوان في بعض المؤتمرات الخارجية في دمشق والقدس [١].

وبعد دخوله السجن في محنته الأولى عام ١٩٥٤م انشغل بالكتابة والتأليف والإعداد في نهاية سجنه لتنظيم ٦٥م ، وبعد خروجه قاد التنظيم الإخواني الجديد فكرياً وتربوياً ، وعندما اكتشف أمر التنظيم اعتقل وحوكم ثم قتل في ١٩٦٦م ، بعد حياة حافلة بالعطاء الأدبي والفكري والحركي في كل مراحل حياته.

---

(١) رائد الفكر الإسلامي المعاصر ،ليوسف العظم ،ص ٣٨-٣٩ ٠

المطلب الثاني

محنته ووفاته

بعد خلاف سيد مع قيادة الثورة وانضمامه للإخوان عام ١٩٥٣م ، بدأت شقة الخلاف بين الإخوان والنظام تتوسع ،وفي ١٩٥٤/١/١٥م أصدر مجلس قيادة الثورة أمراً بحل جماعة الإخوان المسلمين ، واعتبارها كباقي الأحزاب السياسية الممنوعة ، معللاً ذلك بـ :" قيامها بأعمال خطيرة تهدد الأمن ، واتصالها بجهات خارجية ، والتآمر على الوطن " (١). وفي نفس اليوم تم اعتقال قادة الإخوان ومنهم سيد قطب – رحمه الله – ليبدأ مرحلة الابتلاء والتي تعرض فيها لمحنتين :

أ – المحنة الأولى : (٢)

*وتبدأ باعتقاله في ١٩٥٤/١/١٥م مع قيادة الإخوان بعد حل الجماعة على يد جمال عبد الناصر ، الذي عاهد سيداً قبل ١٤ عاماً أن يفديه بدمه !!! ، وقد نظم الإخوان مظاهرات حاشدة بعد إقالة عبد الناصر لمحمد نجيب من الرئاسة في ١٩٥٤/٢/٢٥م مما اضطره إلى إعادته ، والإفراج عن سيد قطب وقادة الإخوان بعد مضي شهرين من اعتقالهم .

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٣٤٥ .

(٢) ينظر تفاصيل " المحنة الأولى " في : سيد قطب للخالدي ، ص٣٤٥وما بعدها ، والإخوان المسلمون لمحمود عبد الحليم ، ٢٦٨/٣ وما بعدها ، ومذابح الإخوان في سجون ناصر ، لجابر رزق ، ص١١٣ وما بعدها .

*وبعد الإفراج ضاعف سيد قطب نشاطه الدعوي والإصلاحي ، حتى كانت حادثة " المنشية " في ١٩٥٤/١٠/٢٦م ، حيث أذيع نبأ محاولة اغتيال عبد الناصر على يد مجموعة من أفراد الإخوان في " تمثيلية مكشوفة " لتقوم بعدها الحكومة بحملة اعتقالات واسعة طالت عشرات الآلاف من الإخوان وفي مقدمتهم " سيد قطب " – رحمه الله – وهو في الثامنة والأربعين من عمره ، وفي السجن صُبَّ على – سيد قطب – وإخوانه صنوفٌ من العذاب الذي لا يوصف ، مما أدى إلى مضاعفة أمراضه السابقة وإصابته بأمراض جديدة ، بسبب تعرضه للضرب بالسياط والحرق والكي بالنار في أجزاء مختلفة من جسده أصيب على أثرها بنزيف رئوي حاد وتم نقله إلى المستشفى ، وقدم بعد ذلك إلى " محكمة الثورة " التي أنشأها عبد الناصر لمحاكمة الإخوان ، حيث قام سيد قطب أثناء محاكمته بنزع ثيابه في حركة جريئة ، ليرى الحاضرون آثار التعذيب الرهيب الذي تعرض له مع إخوانه ، فضجت القاعة من هول ما رأت واضطر رئيس المحكمة إلى رفع الجلسة فوراً ، وعاد سيد إلى السجن ليجد التنكيل جزاء ما قام به ، ثم عقدت جلسات المحاكمة سرية ، وحكم عليه في النهاية غيابياً – بالسجن خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة نظراً لعدم استطاعته حضور الجلسات بسبب المرض والتعذيب .

*وبعد صدور الحكم نقل إلى سجن " طره " وهو من أسوأ سجون مصر ، أعد لتحطيم نفسيات السجناء ودخل السجن مع حوالي ٤٠٠ فردٍ من الإخوان ، وفي السجن شهد سيد قطب مذبحة الإخوان في ١٩٥٧/٦/١م ، حيث أطلق الجنود النار على السجناء في العنابر

والزنازين ليحصدوا واحداً وعشرين شهيداً وثلاثة وعشرين جريحاً .

*وتدهورت صحة سيد قطب بعد خمس سنوات من سجنه إلى حدٍ كبير ، فاضطروا إلى نقله إلى مستشفى " المنيل " الجامعي . ليقضي فيه ستة أشهر ، ثم يعود إلى مستشفى سجن " ليمان طره " وبعد سنة تدهورت صحته من جديد ، فنقل إلى مستشفى " المنيل " لستة أشهر أخرى ، ثم أعيد إلى السجن .

*وفي عام ١٩٦٤م ، تعرض سيد لانهيار حادٍ بعد إصابته بالذبحة الصدرية مع أمراضٍ أخرى في الكلى والمعدة ، فرأت الحكومة الإفراج عنه بعفو صحي ، ووافق ذلك اتصال الإخوان في العراق بالرئيس العراقي عبد السلام عارف(١) ليتوسط عند عبد الناصر بإطلاقه ، فأطلق في شهر مايو عام ١٩٦٤م ، وكان عبد الناصر وزبانيته يظنون أن سيداً لم يعد قادراً على فعل شيء بعد عشر سنوات من السجن والتعذيب والمرض (٢).

*ومما تجدر الإشارة إليه : أن سيد قطب في سجنه كان موضع احترام الجميع ، حتى أطلق عليه لقب (قاضي السجن) (٣)، كما أنه جعل من سجنه فرصة للتأمل والبحث والتفكير في أمور الدعوة ، ولم تشغله همومه

---

(١) هو :عبد السلام عارف سياسي وعسكري عراقي ، ولد عام ١٩٢١م ببغداد ،شارك في حرب ٤٨م وفي ثورة ٥٨م ، وشغل منصب نائب رئيس الوزراء ، اعتقل عام ١٩٥٨م وحكم عليه بالإعدام ثم أطلق عام ١٩٦١م ، وتولى رئاسة العراق عام ١٩٦٣م ، انظر: الموسوعة السياسية ٧٨٦/٢ ـ٧٨٧ .

(٢) سيد قطب للخالدي ، ص ٣٧٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦٦.

وآلامه ، فأصدر مجموعة من الكتب الفكرية والحركية خلال هذه المحنة وقد أشار سيد إلى بعض المواقف التي حصلت له في سجنه والتي هي من نعمة الله وفضله عليه ومنها :

١- في ظلال قوله تعالى: { إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ } [سورة الأنفال:١١] . تحدث عن كون النعاس جندياً من جنود الله في معركة بدر ، ثم ذكر حادثة وقعت له في السجن فقال : " ولقد كنت أمر على هذه الآيات ، وأقرأ أخبار الناس ،فأدركه كحادث وقع ، يعلم الله سره ، ويحكي لنا خبره ، ثم إذا بي أقع في شدة ، وتمر عليَّ لحظات من الضيق المكتوم ، والتوجس القلق في ساعة غروب .. ثم تدركني سِنَةٌ من النوم ، لا تتعدى بضع دقائق ، واصحوا إنساناً جديداً غير الذي كان ، ساكن النفس ، مطمئن القلب ، مستغرقاً في الطمأنينة الواثقة العميقة ، كيف تم هذا ؟ كيف وقع هذا التحول المفاجئ ؟ لست أدري ! ولكني بعدها أُدرك قصة بدر وأحد" (١).

٢- في ظلال قوله تعالى:{ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [سورة فاطر آية ٢] . يقول سيد: " ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله ، على رحمةٍ منه خاصة ، عرفتها منه في هذه الآية ، لقد واجهتني في لحظة جفافٍ روحي ، وشقاءٍ نفسي ، وضيق بضائقة ، وعسرٍ من مشقة ، واجهتني ذات اللحظة ، ويسر الله لي أن أطلع منها

(١) في ظلال القرآن ، ١٤٨٤/٣.

على حقيقتها ، وأن تسكب حقيقتها في روحي ، كأنما هي رحيق أرشفة وأحس سريانه ودبيبه في كياني ، حقيقة أذوقها لا معنى أدركه فكانت رحمة بذاتها ، تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية ، التي تفتحت لي تفتحها هذا وقد قرأتها من قبل كثيراًَ ومررت بها من قبل كثيراً ، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها ، وتحقق معناها وتنزل بحقيقتها المجردة ، وتقول هأنذا ...نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها ، فانظر كيف تكون ! إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي ! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود ،كالحقيقة الكبرى التي تضمنتها هذه الآية ،نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ولكنه قلما يقدر على تصويرها ، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة ،وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها ، وتم هذا كله في اشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي وهأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق ،وأنا في مكاني !إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته ، آية من القران تفتح كوة من النور، وتفجر ينبوعا من الرحمة ، وتشق طريقا ممهدا إلى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين وفي نبضة قلب وفي خفقة جنان ، اللهم حمدا لك ، اللهم منزل هذا القران هدى ورحمة للمؤمنين " (١).

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٢٩٢٤.

ب – المحنـة الثانية : (١)

*فـي عـام ١٩٦٢م أي قبـل الإفـراج عنـه بسـنتين عـرض بعـض أفـراد الإخـوان ومنـهم عبـد الفتـاح إسـماعيل – رحمـه الله –علـى سيد فكـرة إعـادة إحياء تنظيم الإخوان وطلبوا منه قيادة التنظيم الجديد فوافق سيد على تولي مهمة الإشراف الفكري والتربـوي للأعضـاء مـن السجن ، وبدأ يصـحح لهم المفـاهيم ويحـدد لهم الخطـوات ، وبعـد خـروجه مـن السجـن عـام ١٩٦٤م التقى بأعضـاء قيادة التنظيم الجديد ، وأوكل إليهم أمور التنظيم الإداريـة ، واكتفـى بالقيـادة الفكريـة والتربويـة ، وكانـت هذه الفترة – بدايـة الستينات – قد شـهدت تسلط الشيوعيين علـى مختلف الوظـائف ، والذين قاموا بـإطلاق إشاعات ومنشورات ضد الإخوان ، وكذا بعض محاولات التفجيرات ونسبتها للإخـوان ، الأمـر الـذي أدى إلـى قيـام الحكومـة بحملـة اعتقـالات واسعـة للإخوان ، و كشف أمر التنظيم الجديد ، الذي يقوده سيد قطـب (٢) ، ليتم اعتقال سيد قطب مجدداً في ١٩٦٥/٨/٩م ، مع أعضاء التنظيم .

*وفـي ١٩٦٥/٨/٢٧م أعلن عبد الناصـر مـن موسكو اكتشـاف مؤامـرة لقلب نظام الحكم دبرها الإخوان بقيادة سيد قطب – لتبدأ محنـة سيد قطب

---

(١) ينظر تفاصيل المحنة الثانية في : سيد قطب للخالدي ، ص ٤١٣ وما بعدها ، وسيد قطب للخباص ، ص ١٠٨. وسيد قطب ، لعادل حمودة ، ص ١٣١وما بعدها ، ومذابح الإخوان ، لجابر رزق ، ص١١٤.

(٢) يرى كثير من الباحثين والمؤرخين أن كشف التنظيم كان عـن طـريق " على عشماوي " أحد أفراد القيادة الخماسية،بقرينة عدم تعرضه للتعذيب كبقية أعضاء التنظيم ، والإفراج عنه بعد ذلك وتيسير سفره وتامين إقامته في أمريكا .

الثانية ، حيث أصدر عبد الناصر قانوناً استثنائياً لمحاكمة الإخوان وفوض المحاكم العسكرية بالتحقيق في القضية ، ومكث سيد قطب منذ اعتقاله في ١٩٦٥/٨/٩م حبيس زنزانة انفرادية في السجن الحربي لمدة أربعة أشهر .

*وفي ١٩٦٥/١٢/٩م بدأت نيابة أمن الدولة في التحقيق مع سيد قطب حول طبيعة التنظيم وأهدافه ، وأعضائه ، وعلاقته بالإخوان ،وكذا آراء سيد في الحاكمية والقوانين والجاهلية والتكفير، ونظرته لجماعة الإخوان، ومنهج الحركة الإسلامية وغيرها [١]، واستمر التحقيق حتى ١٩٦٥/١٢/٢٠م ، وظل سيد أربعة أشهر بعد انتهاء التحقيق وقبل أن تبدأ محاكمته ،عاش فيها ألواناً من التعذيب هو وأعضاء التنظيم وأفراد أسرته (أخوه محمد) الذي عذب حتى أشيع أنه مات وكذا أخواته (نفيسة وأمينة وحميدة) وأبناء أخته نفيسة (عزمي بكر شافع) و(رفعت) الذي مات تحت التعذيب أمام خاله سيد .

* كان سيد قد بلغ الستين من عمره، وكان مصابا بالذبحة الصدرية ومرض الكلى والمعدة ، ومع هذا لم تشفع له سنه ولم يشفع له مرضه ، ومن صور تعذيبهم له أنهم ربطوه في كرسي لمدة أربعة أيام حرموه فيها من الطعام والشراب ، وكانوا يسكبون الماء أمامه، ومعروف أن مريض الكلى يحتاج إلى كميات كثيرة من الماء، حتى وصل الأمر بسيد أنه أوشك أن يفقد بصره " [٢].

---

(١) انظر محاضر التحقيق في : الموتى يتكلمون ، لسامي جوهر ، ص١١٢-١٤٦.

(٢) مذابح الإخوان – جابر رزق ، ص ١١٤.

ورغم توصية الطبيب بترك سيد يمشي على رجله عند الاستدعاء إلا أن الزبانية ، كانوا يضربونه بالسياط ويدفعونه مما جعله يصاب بأزمة قلبية ويسقط على الأرض ، وخوفاً من أن يموت قبل المحاكمة ، فقد جعلوه في زنزانة وعليها بطانية حتى يأتيه الهواء ، وذات مرة رفع الهواء البطانية وصادف ذلك مرور زينب الغزالي أمام الزنزانة ، فظنوا أنه رفعها عامداً ليتحدث معها ، فانهالوا عليه بالسياط وهو يشرح لهم ما حدث !!

*وفي ١٩٦٦/٤/١٢م بدأت محاكمة سيد قطب وإخوانه ، وعند خروجهم إلى المحكمة رأى سيد قطب مجموعة من إخوانه واقفون أمام مكتب التحقيق ينتظرون السيارات لنقلهم إلى المحكمة ، فأخذ يتفرس في وجوههم، وعندما رأى جلدهم وصبرهم بكى ورفع يديه إلى السماء يدعو لهم، وأخذ على عاتقه أن يتكلم عن التعذيب الذي تعرضوا له ، كيلا يضطر أحدهم للحديث فيتعرض للأذى (١).

وحاول كثير من المحامين العرب ومنظمة العفو الدولية السماح لهم بالحضور والدفاع عن المتهمين دون جدوى، وقد كان سيد شجاعاً خلال جلسات المحكمة، جريئاً في كلامه، حول التنظيم وأهدافه وطبيعته، وعلاقته بالأفراد، والإخوان في مصر وخارجها ، وقد استمرت محاكمته حوالي شهر حتى ١٩٦٦/٥/١٨م حيث أعلن حجز القضية للحكم ، وظل سيد في السجن أربعة أشهر ينتظر صدور الحكم – رغم أنه موقنٌ بأنه

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٥- ١١٧.

الإعدام – يروي أحد المعتقلين مع سيد(١) : أنه قابل سيداً في السجن وهما في طريقهما إلى المطبخ فسأله ، ماذا تنتظر ؟ فقال سيد : بابتسامة صادرة من صدر مطمئن : انتظر الوفود على ربي " (٢).

*ومما تجدر الإشارة إليه أن سيد قطب خلال فترة المحاكمة قدم تقريرين ، أحدهما مطولا حول القضايا التي اتهم بها ، وقد نشر هذا التقرير – بعد حذف ما لا يريده النظام – في كتيب باسم " لماذا أعدموني " أوضح فيه سيد كثيراً من القضايا التي دار حولها الجدل ، واثبت فيه : " أنه آن الأوان أن يقدم إنسان مسلم رأسه ثمناً لإعلان وجود حركة إسلامية .." (٣). ونقل عنه قوله " ولقد عرفت أن الحكومة تريد رأسي هذه المرة ، فلست نادماً لذلك ، ولا متأسفاً لوفاتي ، وإنما أنا سعيد للموت في سبيل دعوتي ، وسيقرر المؤرخون في المستقبل من كان على الحق .." (٤).

*وفي ١٩٦٦/٨/٢١م أصدرت المحكمة حكمها بإعدام سيد قطب وستة من إخوانه (٥)، وبالمؤبد على خمسة وعشرين منهم ، وبالسجن عشر سنوات على أحد عشر فرداً ، وتم استدعاء المتهمين لإسماعهم الأحكام .

---

(١) هو الأستاذ أحمد رائف .

(٢) البوابة السوداء لأحمد رائف ، ص ٢٢٣ .

(٣) لماذا أعدموني ، لسيد قطب ، ص ٧ .

(٤) الشهيد سيد قطب، إعداد جماعة أصدقاء الشهيد ، بدون ناشر أو تاريخ ،ص ٥٦ .

(٥) وهم: محمد هواش وعبد الفتاح إسماعيل واللذان أعدما معه ،وأحمد عبد المجيد وصبري عرفه ومجدي عبد العزيز ،وخفف الحكم عنهم إلى المؤبد ، وعلي عشماوي ، الشخصية المشبوهة حيث أفرج عنه وسهل سفره إلى أمريكا ليعيش هناك .انظر : سيد قطب للخالدي ، ص٤٦٧ .

ويذكر أن سيداً لما سمع النطق بالحكم قال:" الحمد لله لقد عملت خمسة عشر عاماً لنيل الشهادة " (١).

وفاته :

بعد صدور حكم الإعدام على سيد قطب – رحمه الله – حاول كثير من العلماء والملوك والساسة في العالمين العربي والإسلامي إنقاذ حياته ، عن طريق البرقيات التي أرسلوها إلى الحكومة المصرية ، فقامت الحكومة المصرية بعدة مساومات عرضت فيها على سيد أن يعلن تخليه عن دعوته ، ويكتب اعتذاراً للطاغية – مقابل الإفراج عنه وإعطائه من المناصب ما يريد ، واستمرت تلك المساومات حتى الليلة الأخيرة من حياته ، حيث استخدموا أخته المجاهدة (حميدة) والتي كانت تقضي محكومية السجن للتأثير عليه، لكنه رفض المساومة قائلاً : " لن اعتذر عن العمل مع الله " ، كما رد على طلبهم أن يعلن بأن التنظيم كان على صلة بجهة ما وتنتهي القضية بقوله : " والله لو كان هذا الكلام صحيحاً لقلته ، ولما استطاعت قوة في الأرض أن تمنعني من قوله ، ولكنه لم يحدث وأنا لا أقول كذباً أبداً " ، ثم قال لحميدة : " إنهم لا يستطيعون ضرراً ولا نفعاً ، وأن الأعمار بيد الله، وهم لا يستطيعون التحكم في حياتي ، ولا يستطيعون إطالة الأعمار ولا تقصيرها ، كل ذلك بيد الله ، والله من ورائهم محيط "(٢).

---

(١) مذابح الإخوان ، لجابر رزق ، ص١١٨ ، وسيد قطب للخالدي ، ص٢٦٧.

(٢) أيام من حياتي ، زينب الغزالي ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

وردَّ على طلبهم الاعتذار للطاغية بقوله : " إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ، ليرفض أن يكتب حرفاً يقرَّ به حكم طاغية" [١].

وكان ممن توسط لتخفيف الحكم عن – سيد قطب – الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود [٢]، حيث أرسل برقية يطلب عدم إعدام سيد ، فوصلت عبد الناصر ليلاً ، فأمر بإعدامه ورفاقه قبل الفجر وعَرْض البرقية عليه صباحاً ، ثم كتب اعتذارا للملك فيصل !!! [٣].

وقبل طلوع فجر يوم الاثنين ١٩٦٦/٨/٢٩م تم تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في سيد قطب ، واثنين من رفاقه[٤]، وبدون الإجراءات المعتادة ، وفي الساعة الرابعة والثلث صباحا نقلت الجثث بسيارة سوداء لدفنها بالمقابر في منطقة (الإمام الشافعي) بالقاهرة [٥].

وبذلك أسدل الستار على آخر صفحة من حياة سيد قطب– رحمه الله – حيث أحدث إعدامه ضجة في العالم الإسلامي وآلم قلوب المسلمين جميعاً ، وباستشهاده عاشت أفكاره وتحقق قوله: " إن أصحاب الأقلام

---

(١) المصدر السابق ، وسيد قطب للخالدي ، ص٤٧٤.

(٢) هو: فيصل بن عبد العزيز آل سعود ،ولد في الرياض عام ١٩٠٦م،وتربى في بيت جده لأمه الشيخ :عبد الله بن عبد الطيف آل الشيخ ، نظراً لوفاة أمه ، شارك والده في مهام الحكم ، وتولى المملكة عام ١٩٦٤م ، اغتيل عام ١٩٧٥م ، انظر: الموسوعة السياسية ٨٦٦/٣-٨٦٩ .

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص٤٦٨-٤٧٠.

(٤) هما عبد الفتاح اسماعيل ومحمد يوسف هواش رحمهما الله .

(٥) الموتى يتكلمون، لسامي جوهر ص١٩٩ .

يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً، ولكن بشرط واحد.. أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، وأن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم، أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق، ويقدموا دماءهم فداءً لكلمة الحق! إن أفكارنا و كلماتنا تظل جثثاً هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء ، انتفضت حية وعاشت بين الأحياء [١] .

(١) دراسات إسلامية ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط٨، عام ١٤١٢هـ ،ص١٣٩.

الفصل الثالـث

حيـــــاتـه العـــلميـــة

وفيه ثلاثـة مباحث:

المبحث الأول: تعليمـه ورحـلاتـه.

المبحث الثاني: ثقافته ومؤلفاتـه.

المبحث الثالث: جهوده في العمل الدعوي ومكانته العلمية.

المبحث الأول

تعليـــمــه ورحــلاتــه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعليمـــه.

المطلب الثاني: رحــلاتـه.

المطلب الأول

تعـلـيـمـه

من خلال دراسة حياة سيد قطب في مختلف مراحلها، نجد أنه تلقى العلم والمعرفة من طريقين:

الأول: الدراسة النظامية:

*حيث التحق بالمدرسة الابتدائية في القرية، ودرس فيها أربع سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم بجهد ذاتي وعمره عشر سنوات.

* ثم التحق بمدرسة عبد العزيز الأولية (الإعدادية)، ودرس فيها ثلاث سنوات.

* ثم التحق بتجهيزية دار العلوم، وهي مدرسة تقوم بتدريس مقدمات الموضوعات العامة التي يدرسها الطالب في كلية دار العلوم ومدة الدراسة فيها أربع سنوات تعادل الثانوية.

* ثم التحق بكلية دار العلوم، ودرس فيها أربع سنوات، وتخرج منها حاملاً الليسانس في الأدب (تخصص لغة عربية) مع دبلوم في التربية، ودرس في الكلية علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والأدب والنقد بالإضافة إلى بعض العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه، وعلوم الاجتماع والتاريخ والفلسفة واللغة الإنجليزية، واستفاد سيد من

خدمات الكتب التي كانت تقدمها الكلية لمن أراد أن يستزيد من المعرفة حيث كانت الكلية تصرف للراغبين بعض الكتب غير المقررة ومنها كتاب الأمالي، والعقد الفريد، والكامل، وفقه اللغة وغيرها [1].

الثاني: الدراسة غير النظامية:

لم يقتصر سيد قطب – رحمه الله – في تحصيل العلم والمعرفة على الدراسة النظامية في المدارس أو الجامعة بل استفاد من مصادر المعرفة الأخرى ومنها:

١- الكتب والأبحاث والدراسات العربية والمترجمة: والتي كانت تعتبر مصدراً ثقافياً لسيد وأمثاله، وكان سيد حريصاً على قراءة كل ما تقع عليه يده من الكتب والأبحاث والدراسات الغربية المترجمة في شتى فنون المعرفة، حيث بدأت معه رحلة القراءة وهو لا يزال في القرية، ثم تعمقت صلته بالكتب أثناء وجوده في القاهرة واستفادته كثيراً من مكتبة أستاذه العقاد الكبيرة.

٢- الصحافة التي كانت تعتبر مدرسة معبرة عن الحركة الثقافية في مصر، وخاصة الاتجاه الأدبي، وكان كثير من رواد الأدب يكتبون فيها [2]، وعلى صفحاتها دارت كثير من المعارك الأدبية

---

(١) سيد قطب ، للخباص ، ص ٨٧ ، وسيد قطب لعبد الباقي حسين ، ص٥١، وسيد قطب للخالدي ، ص٥٧، ٧٣.

(٢) كالرافعي والزيات والعقاد والمازني وغيرهم .

والفكرية بين مختلف الاتجاهات.

٣- الندوات العلمية والصالونات الأدبية التي سعى إليها -سيد- وحضرها وخاصة ندوة العقاد[١].

٤- رحلته إلى أمريكا في بعثة علمية مفتوحة لدراسة أصول التربية والمناهج واللغة الإنجليزية، حيث استفاد منها في تعلم اللغة الإنجليزية، وإجراء كثير من الدراسات والمناقشات مع المختصين [٢].

والملاحظ أن غالب تحصيله العلمي كان بجهدٍ ذاتي من خلال المطالعة والقراءة في مختلف الفنون، يقول عن نفسه أنه: " إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة، كان عمله الأول فيها هو القراءة والإطلاع في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، ما هو من تخصصه وما هو من هواياته، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم [٣].

"وكان يقضي عدة ساعات يومياً في البحث والإطلاع، بلغت عشر ساعات في اليوم كحد أدنى" [٤].

---

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ٥٦ .

(٢) أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب ، د / صلاح الخالدي ، ص٢٠.

(٣) معالم في الطريق ، ص ١٧٠.

(٤) الشهيد سيد قطب – جماعة أصدقاء الشهيد، ص ٢٧.

المطلب الثاني

رحـــلاتــه

كانت أول رحلة لسيد من قريته (موشا) إلى القاهرة للدراسة، حيث استقر بها بعد وفاة والده مع باقي أفراد الأسرة. وخلال فترة حياته رحل سيد خارج مصر ثلاث مرات لأهداف مختلفة نوجز الحديث عنها فيما يلي:

١- رحلته إلى أمريكا:

قررت وزارة المعارف في عام ١٩٤٨م ابتعاث سيد قطب الذي كان يعمل في ديوانها إلى أمريكا لدراسة أصول التربية والمناهج في بعثة مفتوحة الزمن غير محددة لميدان الدراسة.

ولكن ما سبب ابتعاثه؟ ولماذا إلى أمريكا؟

إن المتابع لحياة سيد قطب في الأربعينيات يلاحظ شدة تعامله مع القصر الملكي والحكومات ورؤساء الأحزاب في مقالاته الناقدة الجريئة، وكان هجومه يتركز على رجال الحاشية الملكية والإقطاع والأحزاب وعملاء الإنجليز، مما حدا بالقصر الملكي أن يوجه الحكومة باعتقال سيد إلا أن علاقته برئيس الوزراء حالت دون ذلك، ويضاف إلى ذلك حدته في رفض المظاهر السلبية في الوزارة، وعدم خضوعه للوزراء المتعاقبين ونقده الواضح لهم، وتقديم المقترحات والبرامج لإصلاح الوزارة، جعلهم يفكرون في

التخلص منه بإيفاده إلى الغرب (١).

* وقد ذكر بعض الباحثين وجود تنسيق بين الحكومة المصرية والأمريكية في هذه المسألة (٢). ويمكننا القول بأن إيفاده إلى أمريكا كان لأهداف منها:

١- التخلص منه ومن كتاباته النقدية للنظام.

٢- محاولة إفساده أخلاقياً في الغرب.

٣- محاولة إفساده فكرياً ليكون أحد العملاء الذين يعملون لخدمة الثقافة والفكر الغربي وعميلاً أمريكيا في مصر، كما تحول غيره من زملائه ليكونوا عملاء لفرنسا أو بريطانيا؟

وقد سافر سيد إلى أمريكا في ١٩٤٨/١١/٣م (٣). على ظهر سفينة مصرية عبر المحيط الأطلسي إلى نيويورك ومعه ١٢٠ راكباً ليس فيهم إلا ستة من المسلمين (٤).

وعلى ظهر السفينة جرت لسيد بعض الحوادث التي أشار إليها ومنها:

أ – وقوفه في ليلة صافية مقمرة على ظهر الباخرة متأملاً، مما زاد

---

(١) أمريكا من الداخل ، د / صلاح الخالدي ، ص١٦-١٨ بتصرف .

(٢) سيد قطب من القرية إلى المشنقة ، عادل حمودة ، ص ٨٤.

(٣) سيد قطب حياته وأدبه ، لعبد الباقي حسين ، ص٤٠ .

(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٧٨٦/٣.

في إيمانه وتعظيمه لله تعالى، وتذكر نعمة الله عليه وعلى الناس في تسخير البحر، وتقدير الفلك تجري فيه ورعاية الله المحيطة بهم في خضم الأمواج المتلاطمة، فراح يسأل نفسه عن هدفه وحاله في أمريكا، ومن ثم قرر في نفسه التميز بالإسلام ومنهجه في خضم الحياة البهيمية (١).

ب- بعد قراره بالتزام الإسلام منهجاً في أمريكا تعرض لفتنة على ظهر الباخرة بعد دخوله إلى غرفته حيث طرقت بابه فتاة شبه عارية تطلب منه السماح لها بالمبيت معه، وهنا أدرك أن الله أراد أن يختبر صدق توجهه ونيته، فاستعلى على الإغراء وأغلق الباب في وجهها (٢).

ج - بعد هذا النجاح والاستعلاء رأى نصرانياً يحاول نشر دعاية بين ركاب السفينة فاستيقظت مشاعر سيد الإيمانية، وذهب إلى قبطان السفينة ليسمح له بإقامة صلاة الجمعة، يقول سيد: " كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم.. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة والله يعلم أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر

---

(١) أمريكا من الداخل ، د / صلاح الخالدي ، ص٢١-٢٢ ،

(٢) المصدر السابق ، د / صلاح الخالدي ، ص٢٧ ، وانظر القصة كاملة فيما سبق عند الحديث عن صفة العفة عنده .

مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا!! وقد يسر لنا قائد السفينة – وكان إنجليزياً– أن نقيم صلاتنا، وسمح للبحارة المسلمين أن يصلوا معنا وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب متحلقون يرقبون صلاتنا، وبعد الصلاة جاءنا كثير منهم يهنئوننا على نجاح " القداس "!!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا، ولفت انتباهي سيدة نصرانية يوغسلافية كانت شديدة التأثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع، تسأل عن عبارات كانت ترد أثناء الخطبة والصلاة لها أثر خاص " تعني الآيات القرآنية " (١).

ويظهر لنا أن سيد قطب تحول نفسياً وعملياً إلى الإسلام باعتزامه تمثل الإسلام في أمريكا، واستعلائه على فتنة المرأة في السفينة، وحميته لدينه أمام محاولات المنصِّر، وإقامة صلاة الجمعة في الباخرة.

*ووصل سيد قطب إلى(نيويورك) ثم إلى (واشنطن) ثم إلى (جريلي)، حيث بقي هناك قرابة عام أنهى فيه مهمته الأولى في تعلم اللغة الإنجليزية، وإجراء المناقشات والدراسات في معهد المعلمين ملاحظاً ومنتقداً الانحراف الأخلاقي هناك، ثم واصل رحلته إلى مدينة (دنفر) ومنها إلى (

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٧٨٦/٣ بتصرف .

كاليفورنيا) حيث أقام طويلاً في (سان فرانسيسكو) [١]، وفيها هزه موقف عجيب لم يكن يتوقعه حيث أقيمت الاحتفالات والأفراح بمقتل الإمام حسن البناء- رحمه الله -[٢]، مما فتح عينه على الجماعة وعلاقتها بالغرب ومدى تخوف الغرب من الحركة الإسلامية، ثم انتقل إلى(سان ديجو) قبل عودته إلى مصر.

* ذكر سيد قطب عدة محاولات لإغرائه وإغوائه وإيقاعه في مستنقع الشهوات، وكيف أن الله أراد به الخير، وأعانه على الاستعلاء بإيمانه والثبات على إسلامه، ولم يقف الأمر عند ذلك بل تعرض لمحاولات احتوائه فكرياً وسياسياً بواسطة رجال المخابرات الأمريكية والبريطانية [٣].

ويمكن الإشارة إلى بعض فوائد هذه الرحلة ومنها:

١- تحول سيد قطب نحو الإسلام ودخوله أمريكا بشخصية المسلم الملتزم بدينه بعد الحوادث التي مر بها في رحلته على الباخرة كما سبق.

٢- الإطلاع على مناهج التربية وأساليب التدريس في الجامعات والمعاهد العلمية الأمريكية من خلال الرحلات العلمية التي قام بها في عدة ولايات أمريكية، وكذا جلسات النقاش مع المختصين

---

(١) سيد قطب ، للخالدي ، ص١٩٤ وما بعدها ، بتصرف .

(٢) لماذا أعدموني – سيد قطب ، ص ١٠

(٣) سيد قطب للخالدي ، ص ١٩٦- ١٩٨.

في ميادين علمية وتربوية مختلفة.

٣- التعرف المباشر على حقيقة الجاهلية وزيف الحضارة المادية الأمريكية والغربية لخلوها من القيم، وعدم وجود ما يستحق نقله منها للعالم الإسلامي [١].

٤- قناعة سيد قطب بالإسلام كمنهج للتغيير والإصلاح، واطلاعه على مدى ما يكنه الغرب للإسلام ودعاته من حقد، وما يقومون به من مخططات للقضاء عليه، كل ذلك جعله يرجع من أمريكا مسلماً واعياً صاحب اتجاه عملي للدعوة الإسلامية والجهاد، لإصلاح البلاد وإزالة ما فيها من فساد، فخيب الله ظنهم في بعثته وعاد مهاجماً لأمريكا، فاضحاً لمخازيها، محارباً لأعوانها كاشفاً لمخططاتها، مواجهاً لهم بالإسلام.

* وكان سيد – رحمه الله – قد كتب سيد كتاباً عن الحياة في أمريكا، حلَّل فيه مظاهر الحياة المختلفة بلغة المؤمن واستعلائه، ولكنه فقد ضمن ما فقد من كتبه [٢]. وقد جمع د/ صلاح الخالدي كل ما ذكره سيد قطب في كتبه عن أمريكا في كتاب باسم " أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب ".

٢- رحلته إلى دمشق:

---

(١) سيد قطب لعبد الباقي حسين ، ص ٤١ .

(٢) ذكر الشيخ / محمد قطب أن مسودة الكتاب وضعها سيد عند أحد معارفه أثناء اعتقاله عام ١٩٤٥م فقام بإحراقها خوفاً من المباحث ، وانظر أيضا : أمريكا من الداخل للخالدي ، ص ٩١ .

بعد انضمام سيد إلى جماعة الإخوان المسلمين، أوفد إلى دمشق في ١٩٥٣/٣/٢م ليحضر مؤتمر " الدراسات الاجتماعية " فيها، وقد شارك فيها ببحث بعنوان " التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق التكامل الاجتماعي [١]. والتقى بعد المؤتمر قيادات الإخوان المسلمين في سوريا، كما ألقى محاضرة في جامعة دمشق، وحاول زيارة الأردن لكن السلطات منعته من الدخول [٢].

٣-رحلته إلى القدس:

حيث انتدبه الإخوان ليشارك في المؤتمر الإسلامي الذي نظمه الإخوان المسلمون، ودعوا له قادة الرأي والفكر والعمل في العالم الإسلامي، والذي انعقد في بيت المقدس في شهر ديسمبر عام ١٩٥٣م برئاسة علامة العراق المجاهد / أمجد الزهاوي[٣] – رحمه الله – وقد التقى سيد في هذا المؤتمر قادة الرأي والعمل الإسلامي في العالم [٤]. وكان عضواً في لجنة المؤتمر السياسية [٥].

*وكان لسيد نية في زيارة الهند كما أخبر بذلك أبا الحسن الندوي

---

(١) نشره في كتابه ، دراسات إسلامية ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) رائد الفكر الإسلامي، ليوسف العظم ، ص ٣٨ .

(٣) هو: أمجد بن سعيد الزهاوي، ولد في بغداد سنة ١٣٠٠هـ ، درس في إسلامبول ، وتولى منصب القضاء وأسس مجموعة من الجمعيات الإسلامية في العراق ، توفي سنة ١٣٧٨هـ ، انظر : من أعلام الحركة الإسلامية ،للعقيل ، ص١٢٣ .

(٤) من القيادات التي ألتقاها سيد : الشيخ على الطنطاوي وعصام العطار وزهير الشاويش ، وأديب الصالح ، وعلال الفاسي وغيرهم .

(٥) رائد الفكر الإسلامي ، ليوسف العظم ، ص ٣٨ ، وسيد قطب للخالدي ، ص ٣٣٦ .

لكنه لم يتيسر له الأمر [1].

---

(١) مذكرات سائح للندوي ، ص ١٥٣.

المبحث الثاني

ثقافته ومؤلفاته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ثقافته وأدبه.

المطلب الثاني: مؤلفاته وكتبه.

المطلب الأول

ثقـــافـتـه وأدبـه

المتتبع لمسيرة سيد قطب الثقافية والأدبية يجد عدة مصادر كان لها أثر في تكوينه الثقافي منها [1]:

١- ثقافته في القريـة: حيث انتظم في المدرسة الأولية، وحفظ القرآن في سن مبكرة، كما ساعده جو المنزل على صقل شخصيته من خلال استماعه للأحاديث السياسية وإطلاعه على ما تنشره الجرائد، وكذلك علاقته مع المدرسين واستعارته لبعض الكتب منهم، وشراء البعض الآخر ليكّون بذلك مكتبة متواضعة في بيته، وهذه الأمور مجتمعة ساعدت على نضج شخصيته الثقافية مبكراً.

٢- دراســته فــي القــاهرة: سواءً في مدرسة المعلمين الأولية أو تجهيزية دار العلوم، أو كلية دار العلوم، حيث تلقى فيها كثيراً من المعارف، وشارك في كثير من النقاشات والندوات.

٣-صـلته بالعقــاد والأدبــاء: حيث أفاد سيد من مجالسته للعقاد ومشاركته في الندوات التي كانت تقام والمعارك الأدبية، كما أفاد من مكتبة

(١) سيد قطب الأديب الناقد ، للخباص ، ص١١٠ وما بعدها .

العقاد التي كانت تضم أعداداً كثيرة من الكتب في شتى حقول المعرفة(١).

٤- مطالعاته الخاصة: حيث عُرف سيد بحبه للمطالعة والقراءة منذ صغره، وقد أشار سيد إلى كثرة مطالعاته والتي شملت كل ما تقع عليه يده من الفنون والمعارف العلمية والأدبية في شتى العلوم بقوله: " إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش أربعين سنة كاملة، كان عمله الأول فيها هو القراءة والإطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية.. ما هو من تخصصه، وما هو من هواياته، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم.. "(٢).

وبعد عودته من أمريكا وتوجهه نحو الإسلام أقبل على الثقافة الإسلامية يقرأها بنهم حتى ذكر أنه بلغ مجموع ساعات مطالعاته في اليوم عشر ساعات كحد أدنى في البحث والمطالعة (٣). ويتضح ذلك من خلال إحالاته إلى الكتب والمراجع الإسلامية القديمة والحديثة في هوامش كتبه الإسلامية.

ويمكن بيان جهوده الأدبية والثقافية في الأربعة الميادين الآتية:

أولا: الشعر: بدأت تجربة سيد مع الشعر منذ وقت مبكر، حيث

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٦٤ ، ٧٥ ، ١٣٦ .

(٢) معالم في الطريق ، سيد قطب ، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) سيد قطب ، للخباص ، ص١١٤، والشهيد سيد قطب ، جماعة أصدقاء الشهيد ، ص ٢٧.

كان ينظم الأدبيات الشعرية في خطبه وكلماته ضد الاستعمار وأثناء ثورة ١٩١٩م، وإن كان أغلبها أبيات متهالكة [١]. ثم واصل طريقه في قول الشعر ودشن صدور أول ديوان له في يناير ١٩٣٥م بعنوان " الشاطئ المجهول " محتوياً على ٦٢ قصيدة فيها ١٠٧٤ بيتاً [٢]ويمثل الديوان مرحلة ضياعه وقد قام الباحث / عبد الباقي محمد حسين بجمع قصائد سيد قطب خارج ديوانه المذكور فبلغت ٦٧ قصيدة فيها ١٤٦٩ بيتاً [٣].

وتعتبر المدة من (١٩٣٥-١٩٤٠م) مدة ازدهار شاعرية سيد قطب وبلوغه أقصى حد في قرض الشعر وإنشائه، حيث بدأ يقل إنتاجه الشعري بعدها بسبب تحوله إلى النقد الأدبي والتأليف.

ويمكن تصنيف إنتاج سيد قطب الشعري حسب الأغراض الشعرية التي تناولها وذكر نماذج منها فيما يأتي:

١- التمرد على (الواقع – العزلة – النفس – الآمال): ومن الأمثلة على ذلك:

حدثيني أنت يا نفس فما ... أفهم العالم أو يفهمني

وله: إنني أنكرته اليوم كما ... أنه بالأمس قد أنكرني

---

(١) طفل من القرية ، سيد قطب ، ص١٥١ ، نقلاً عن سيد قطب للخالدي ، ص ٧٠.

(٢) سيد قطب لعبد الباقي حسين ، س ١١٨ ، ١٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٢ ، ١٣١ .

لم أجد في الكون إلا ألماً　　　إنما الوحدة أصلُ الشجنِ[1]

ضـقتَ بالقيـد فـانطلق　　　أيهـا الآبـق الشـرود

قوله: قـد تحـررت فاستبـق　　　للصـراعات مـن جـديد

أحيـاة تلـك أم نـار الجحـيم　　　بلظاهـا الهـائج المستعـر

قوله: لا. ففي نفسي من الشجو الأليم　　　من حياتي فوق ما في سقرِ[2]

٢- الشكوى من (الحياة والواقع – الضياع – مرور الزمن – الأقدار): ومن الأمثلة على ذلك:

قوله:

الأرض غير الأرض في دورانها　　　لتكـاد مـن فـرط السـآمة لا تـدور

والريح غير الريح في جولانها　　　لتكـاد تكـتم فـي جوانبهـا الزفيـر

والناس غير الناس في آمالها　　　ليكاد يجثو اليأس في تلك الصدور

وقوله :

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

دعني ولا تنفس علي مواهبي   خذها وخذ ألماً بها ومتاعبي
دعني فلست كما حسبت منعماً   بمواهب ملكت عليّ مذاهبي
دعني أعيش معذباً متألماً   بمواهبي يا شقوتي بمواهبي

وقوله :

غريبٌ أجل أنا في غربة   وإن حفّ بي الصحبُ والأقربون
غريب بنفسي وما تنطوي   عليه حنايا فؤادي الحنون
غريب فوا حاجتي للمعين   ووا لهف نفسي للمخلصين(١)

٣- الحنين إلى (الماضي- الريف- الروح- السعادة - مصر - الجمال): ومن الأمثلة على ذلك:

قوله :

إذا ما ذكرت زماناً تقضى   بديع الرسوم جميل الأثر
تراءى لنفسي عهد الصغر   فتشتاق نفسي لعهد الصغر
لعهد الرضاء وعهد الحبور   وعهد الصفاء القليل الكدر

وقوله:

يا دياراً نشأتُ فيها صبياً   وصحبتُ الشباب في العنفوانِ
لك مني تحية وسلام   أنت دار النعيم والرضوانِ

---

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١٤٩- ١٥١ .

فيك يا دار من صباي رسوم زاهيـــــات النفـــــوس والألــــــوانِ
هي عندي أعز من كل شيء وهـــي تبقـــى وكـــل مـــاعزَّ فـــانِ

وقوله:

مهبط الرجاء ومهبط الأحلام وطني عليك تحيتي وسلامي
يا ريف فيك من الخلود أثارة تنســاب فــي خلــدي وفــي أوهــامي
وترد إحساسي إليك إذا خلت نفســـي إلـــى الآمـــال والأحـــلامِ(١)

٤- التأمل في (الحياة – النفس):

مسألة التأمل في الشعر العربي قديمة منذ العصر الجاهلي، وتمثلت في الحكمة والشعر الفلسفي.

وقد ولج سيد قطب في قضية التأمل بفعل الحيرة والضياع الذي مُني به في مرحلة من مراحل حياته فظهر التأمل في شعره واضحاً في اتجاهين (٢):

الأول: تأمله للحياة التي وقف عاجزاً عن فهم سرها وطبيعتها، وتمثل هذا الأمر في شعره في مرحلة الحيرة والاضطراب الفكري، وقد صور ذلك بعدد من القصائد منها قصيدة " في الصحراء " على لسان نخلتين يدور بينهما حوار فكري هو في الحقيقة صدى لما يدور في نفسه

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨.

(٢) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١٦٥.

من حيرة في مرحلة الضياع:

النخلة الصغيرة:

ما لنا في ذلك القفر هنا ما برحنا منذ حين شاخصات؟

كل شيء صامت من حولنا وأرانا نحن أيضاً صامتات

النخلة الكبيرة:

أنا يا أختاه لا أدري الجواب ودفين السر لم يكشف لنا

منذ ما أطلعت في هذا الخراب وأنا أسأل: ما شأني هنا

الثاني: تأمله في نفسه وما يطرأ عليها من أحوال وتقلبات، ومن ذلك قوله:

تطيف بنفسي وهي وسنانة سكرى هواتف في الأعماق سارية تترى

هواتف قد حجبن يسرين خفية هوامس لم يكشفن في لحظة سترا

وفيهن من يوحين للنفس بالرضا وفيهن من يلهمنها السخط والنكرا

٥- الغزل: ومن النماذج:

هي أنت التي أطافت بنفسي   وتراءت في خاطري من بعيد
هي أنت التي تلاقيتِ روحاً   مع روحي فهامتا في الوجود
هي أنت التي تُحدث عنها   خطراتي في يقظتي وهجودي(١)

٦- الوصف لـ (الطبيعة – المشاهد الأخرى): كالربيع والنيل والصبح والليل ومشاهد الحياة:

يقول في وصف الوردة الذابلة:

قد تولت وذوت نضرتها   وبدت كالميت المحتضر
تفتح الأجفان أو تغمضها   فتحة الضعف وغمض الخور

ويصف النيل بقوله:

هازجٌ بالنشيد تلو النشيد   وهو يمضي إلى مداه البعيد
ذكريات القرون قد صاغها الـ   نيل نشيداً فيا له من نشيد
منذ فجر التاريخ لم يتبدل   لحنه العذب من قديم جديد(٢)

---

(١) ديوان سيد قطب ، جمع عبد الباقي حسين ص ١٦١،وسيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١٨٠.

(٢) ديوان سيد قطب ، ص ٢٤٤.

٧-الرثاء: يقول في رثاء أمه:

زودينـي مـن الرجـاء الأصـيل مشـرقاً فيـك فـي المحيـا الجميـل

زودينــــي لكــــاد ينفــــذ زادي فــي صــراع مــع الحيــاة طويــل

كنــت كالجـذوة المشـعة نـوراً وهــي اليــوم فــي طريــق الأفــول

فيــــك زادٌ يقوتنــــا ويقينــــا عثــرات الطريــق بــين التلــول

ويقول:

جف الرثاء بخاطري المفجوع وصــمت لا أفضــي بغيــر دمــوعي

إني ذهلت عن المصاب بوقعه حينــاً ذهــول الــواهم المخــدوع[١]

٨-الوطنيــات: وتمثلـت قصـائد سـيد فـي مـدح الثـورة، والقضـية الفلسطينية والدعوة إلى الجهاد ضد المستعمرين، ومن النماذج:

عهـداً علـى الأيـام ألا تهزمـوا فالنصــر ينبــت حيــث يهــراق الــدمُ

في حيث تعتبط الدماء فأيقنوا أن ســوف تحيــوا بالــدماء وتعظمــوا

تبغون الاستقلال؟ تلك طريقه ولقــــد أخــــذتم بــــالطريق فيممــــوا

وهـو الجهـاد حميـة جشـامة مــا إن تخــاف مــن الــردى أو تحجــم

إن الخلـود لمـن يطيـق ميسـر فلــيمض طــلاب الخلــود ويقــدموا

---

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١٩٢

ويقول أيضاً:

في أيما بلد نعيش؟ وأيما	عهد يمر على الكنانة مظلم
عهد نسام الخسف فيه ونبتلى	نقماً إذا قمنا نضج وننقم
وحشية كشف الزمان حجابها	لا بل أشد من الوحوش وأظلم
الوحش يفتك جائعاً ويعف عن	فتكاته إذ ما يعب ويطعم (١)

أما بعد توجهه الإسلامي فلم نجد له إلا قصيدتان نظمهما في سجنه وهما أشهر قصائده:

الأولى: بعنوان " أخي "، نظمها بعد أن لمح يداً تحييه من خلال قضبان السجن، فتأثر لذلك ونظم قصيدته، ومطلعها (٢):

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٢) سيد قطب ، للكشميري ، ص ٢١٥.

أخي أنت حر وراء السدود ... أخـــي أنــــت حــــر بتلــــك القيـــود
إذا كنت بالله مستعصماً ... فمــــاذا يضـــيرك كيـــد العبيـــد
أخي ستبيد جيوش الظلام ... ويشــرق فـــي الكــون فجــر جديــد
فأطلق لروحك أشواقها ... تـــرى الفجـــر يرمقنـــا مـــن بعيــد
أخي قد سرت من يديك الدماء ... أبت أن تشل بقيد الإماء
سترفع قربانها للسماء ... مخضــــــبة بوســــــام الخلــــــود
أخي هل تراك سئمت الكفاح ... وألقيـــت عـــن كاهليـــك الســـلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح ... ويرفـــع رايتهـــا مـــن جديـــد
أخي إنني اليوم صلب المراس ... أدكّ صخور ا لجبال الرواس
غدا سأشيح بفأس الخلاص ... رؤوس الأفـــاعي إلـــى أن تبيـــد
أخي إن ذرفتَ عليَّ الدموع ... وبللـــت قبـــري بهـــا فـــي خشـــوع
فأوقد لهم من رفاتي الشموع ... وســـيروا بهـــا نحـــو مجـــد تليـــد
أخي إن نَمُت نلقَ أحبابنا ... فروضــــات ربــــي أعــــدت لنـــا
وأطيارها رفرفت حولنا ... فطـــوبى لنـــا فـــي ديـــار الخلـــود
وإني على ثقة من طريقي ... إلى الله رب السّنا والشروق
فإن عافني السوق أو عقني ... فـــإني أمـــين لعهـــدي الوثيـــق
قد اختارنا الله في دعوته ... وإنا سنمضي على سنته
فمنا الذين قضوا نحبهم ... ومنـــا الحفـــيظ علـــى ذمتـــه
أخي فأمضِ لا تلتفت للوراء ... طريقـــك قـــد خضـــبته الـــدماء

ولا تلتفت ههنا أو هناك ... ولا تتطلـــــع لغيـــــر الســـــماء

فلسنا بطير مهيض الجناح ... ولن نستذل ولن نستباح

وإني لأسمع صوت الدماء ... قوياً ينادي الكفاح الكفاح

سأثأر ولكن لربّ ودين ... وأمضي على سنتي في يقين

فإما إلى النصر فوق الأنام ... وإما إلى الله في الخالدين

والقصيدة الثانية بعنوان: " هبل " ومنها:

هبــــل هبــــل.. هبــــل هبــــل   هبــــل هبــــل.. رمــــز السخافة

من بعدما اندثرت على أيدي   والــــــــــــــــدجل

الأبــــــــــــــاة   عــادت إلينـا اليـوم فـي ثـوب

تتنشق البخور تحرقه أساطير   الطغــــــــــــاة

النفــــــــــــاق   من قيدت بالأسر في قيد الخنا

وثن يقود جموعهم يا للخجل   والارتــــــــــــزاق

هبلٌ هبل.. هبلٌ هبل

هبــــلٌ هبــــل.. هبــــلٌ هبــــل   رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدجل

هتّافة التهريج ما ملوا الثناء   زعموا له ما ليس عند الأنبياء

ملك تجلبب بالضياء   وجــــاء مــــن كبــــد الســــماء

هو فاتح.. هو عبقري ملهم   هــــو مرســــل. هــــو عــــالم ومعلّــــم

ومــــن الجهالــــة مــــا قتــــل   هبلٌ هبل.. هبلٌ هبل (١)

(١) شعراء الدعوة الإسلامية ،لأحمد الجدع وحسني جرار ،مؤسسة الرسالة ،ط١ ، ١٩٧٨م ،٤ /٤١ ، وسيد قطب للكشميري ، ص ٢١٤

الجدير بالذكر: أن إنتاج سيد قطب الشعري غزير جداً، حيث يلاحظ كثرة إشاراته إلى دواوين شعرية عديدة له أثناء كتاباته ومقالاته، ولكن لم يجد الباحثون غير ديوانه الوحيد "الشاطئ المجهول "، والذي بدوره طبع مرة واحدة فقط ولعل مصير الدواوين الأخرى هو مصير كثير من كتبه التي حكم عليها بالحرق والإعدام من المكتبات ودور النشر أيام محنته [١].

ثانياً: القصة والرواية:

كانت بداية سيد قطب مع فن القصة في عام ١٩٣٠م حيث كتب أول قصة بعنوان (الصداقة)، ثم توالت كتاباته في القصة القصيرة التي تعالج الوضع الاجتماعي آنذاك، وخاصة قضايا التبذل والانحطاط الذي وصلت إليه المرأة المصرية ومن أشهر القصص التي كتبها سيد قصة (أشواك) وهي قصة حب حقيقية فاشلة خاضها سيد نفسه في منتصف الأربعينيات.

كما صدرت له مجموعة من القصص المستلهمة من التراث منها:

١- قصة المدينة المسحورة، وهي على غرار قصة ألف ليلة وليلة. ٢- قصة الخريف. ٣- قصة (أحياء وأموات). ٤- روضة الطفل. ٥-

---

(١) سيد قطب ، لعبد الباقي حسين ، ص ١١٤.

طفل من القرية (1).

ثالثاً: المقالة:. كانت بداية حياة سيد الأدبية كاتباً للمقالة الصحفية، حيث نشرت له أول مقالة عام ١٩٢٢م وعمره ١٦ عاماً (2)، واستمر في كتابة المقالات المختلفة حتى أصبح في الثلاثينات من كتّاب المقالة البارزين في مصر. وفي الأربعينات اتسمت مقالاته بالنقد الأدبي والفكري حيث استمر على ذلك إلى أن عاد من أمريكا حيث تحولت وجهة مقالاته إلى الناحية الدينية والسياسية المعاصرة، بسبب تحوله إلى الفكر الإسلامي في بداية الخمسينيات.

وقد جمع الباحثون في أدب سيد قطب مقالاته المختلفة فبلغت (٣١٤) مقالة تمثلت في أربعة ألوان من المقالات هي: ١- المقالة الأدبية ٢- المقالة الاجتماعية ٣- المقالة السياسية ٤- المقالة الدينية(3).

رابعا: النقد الأدبي:

ظهر سيد ناقداً أدبياً عام ١٩٣٢م ولا يزال طالباً في السنة الأخيرة من الجامعة حيث قدم محاضرة نقدية بعنوان (مهمة الشاعر في الحياة)، ثم بدأت معاركه النقدية بمهاجمة جماعة (أبولو) في مقالات نقدية على صفحات الجرائد، ثم دخل في معركة أخرى مع الرافعيين، ثم هاجم كتاب (

---

(١) سيد قطب ، للخباص ، ص ٢٧٧ وما بعدها ، وسيد قطب ،لعبد الباقي حسين ، ص ٣٥٧.

(٢) سيد قطب ، للخباص ، ص ٢٠٣ .

(٣) سيد قطب ، للخباص ، ص ٢٠٣ ، ٢١٢ ، وسيد قطب ،لعبد الباقي حسين ص ٣٧٢ ، ٣٩٨.

مستقبل الثقافة في مصر) لطه حسين، وفي عام ١٩٤٦م أصدر كتابه النقدي (كتب وشخصيات) وتوَّج أعماله النقدية بكتابه (النقد الأدبي – أصوله ومناهجه) عام ١٩٤٨م وأهداه إلى عبد القاهر الجرجاني[١] أول ناقدٍ عربي وقلت مقالاته النقدية الأدبية بعد توجهه الإسلامي ودخوله السجن ليتحول إلى معالجة القضايا الإسلامية والحركية في كتاباته [٢].

---

(١) هو:عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ،من أئمة اللغة وواضع علم البلاغة ،توفي سنة ٤٧١هـ ،من مؤلفاته أسرار البلاغة وغيرها ، انظر : الأعلام للزركلي ،٤٨/٤ ..

(٢) الشوكاني وسيد قطب ، الأبعاد الحضارية ، د / حسن ناصر سرار ، إصدار وزارة الثقافة ، صنعاء ، ط١ عام ٢٠٠٤م ، ص١٢٢.

المطلب الثانـي

مـؤلفـاته وكتبـه

من السمات التي تميز بها سيد قطب اهتمامه بالقراءة والبحث والمطالعة والدراسة منذ طفولته إلى شيخوخته، وقد ملأت المطالعة والبحث عليه وقته، واستوعبت جميع هواياته، وكان توجهه في أول حياته إلى الأدب والنقد والشعر عن طريق المقالة والقصيدة والقصة والمحاضرة، فكان نتاجه في هذه المرحلة نتاجاً أدبياً نقدياً أمتد حوالي عشرين عاماً من سنة ١٩٢٥م – ١٩٤٥م.

ومؤلفاته في هذه الفترة تمثل حياته قبل الالتزام بالإسلام، وما تعرض له في فترات مختلفة منها من غربة فكرية وقلق نفسي وتأثرٍ بالواقع المنحرف في تلك الفترة، ولذا نجد كتاباته في هذه المرحلة مليئة بالمخالفات والأخطاء العقدية والشرعية عموماً، حيث مثلت سجل اغترابه الفكري، وتبخر ثقافته الدينية والشرعية، ومن الخطأ تقييم سيد قطب من خلال كتاباته في هذه المرحلة ٠

وبعد توجهه الإسلامي بحث وطالع وكتب، فكان نتاجه في المرحلة الإسلامية من حياته مختلفاً تماماً عن مرحلة ما قبل التزامه، وإن لم تخل كتاباته ومؤلفاته الإسلامية من الأخطاء شأنه شأن البشر.

وقد استمر عطاؤه الإسلامي ما يقرب من عشرين عاماً، من عام

١٩٤٧-١٩٦٦، وتمثل نتاجه في كتب وأبحاث، وقليل منه كان مقالات نشرت في بعض الصحف.

وسنعرض في هذا المطلب لمؤلفاته عموماً في مراحل حياته مع تعريف موجز لكل مؤلف:

أولا: مؤلفاته الأدبية: [١] **(مرتبة حسب سنة الإصدار)**

١- " **مهمة الشاعر في الحياة، وشعر الجيل الحاضر** ": وأصل الكتاب محاضرة ألقاها سيد في كلية دار العلوم، وطبعها بعد ذلك عام ١٩٣٣م، ويحتوي الكتاب على بيان الخلاف بين فهم الشعراء الشباب والشعراء الشيوخ للشعر ومهمة الشاعر في الحياة مع نماذج من شعر الفريقين ٠

٢- **ديوان " الشاطئ المجهول "**: ويحتوي على أربعة فصول، و (٦٢) قصيدة تمثل سجلاً لحياة الضياع التي عاشها سيد بكل مآسيها وانحرافها، وقد طبع عام ١٩٣٥م، وهو في حكم المفقود حيث لم يطبع إلا مرة واحدة.

٣- **نقد كتاب " مستقبل الثقافة في مصر "**: حيث رد فيه على طه حسين دعوته إلى التغريب وقد طبع عام ١٩٣٨م، ويتضح من خلاله رفض سيد لدعوة التغريب والتبعية، حتى قبل توجهه الإسلامي.

---

(١) سيد قطب للخباص ،ص ١١٨ ، ١١٩ ، وسيد قطب للخالدي ، ص ٥٢٣ – ٥٣٧ .

٤- الأطياف الأربعة: وهو كتاب اشترك في تحريره مع إخوته (حميدة وأمينة ومحمد) ويحتوي على مجموعة من الخواطر والقصص والتأملات النفسية والقصائد، وصدر عام ١٩٤٥م.

٥- طفل من القرية: ويتحدث الكتاب عن نشأة سيد في القرية، ووضع أسرته وحياة الناس في جوانبها المختلفة وهو أقرب إلى السيرة الذاتية وطبع عام ١٩٤٦م.

٦- المدينة المسحورة: وهي رواية أسطورية خيالية، على نمط (ألف ليلة وليلة)، صدرت عام ١٩٤٦م.

٧- كتب وشخصيات: وهو مجموعة من المقالات النقدية التي نشرها سيد قطب في بعض الصحف والمجلات خلال الأعوام ٤٢-١٩٤٦م في النقد الأدبي، وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٤٦م ويتحدث عن أصول النقد الأدبي وطبيعته وعمل الناقد، كما يحتوي على نقد وتقييم أعمال مجموعة من الأدباء المعاصرين له[١]، ودراسة لشخصيات الأدباء، وقد وقع سيد قطب – رحمه الله – أثناء رده على بعض الكتَّاب في أخطاء في حق بعض الصحابة – رضي الله عنهم جميعا، وسيأتي بيان ذلك – إن شاء الله – عند الحديث عن موقفه من الصحابة.

٨- أشواك: والكتاب عبارة عن رواية تسجل قصة حب حقيقية

---

(١) ومنهم : طه حسين والمازني ومحفوظ وتيمور والسحار وغيرهم .

شخصية عاشها سيد قطب نفسه مع خطيبته القاهرية، والتي تركها بعد أن عرف منها أنها كانت تحب شخصاً قبله، وصدر عام ١٩٤٦م.

٩- روضة الطفل: وهو عبارة عن مجموعة من القصص المسلية للأطفال، اشترك في تأليفها معه أمينة السعيد ويوسف مراد، وصدر عام ١٩٤٧م.

١٠- القصص الديني للأطفال: ويشتمل على عدد من قصص الأنبياء في القرآن الكريم، اشترك في تأليفه مع عبد الحميد السحار[1]، وصدر عام ١٩٤٧م، وقد حاول السحار إعادة طبعه عام ١٩٦٥م، أثناء سجن سيد، فطُلب منه حذف اسم سيد فرفض وفاءً له.

١١- الجديد في اللغة العربية.

١٢- الجديد في المحفوظات: وهما كتابان منهجيان ألفهما سيد قطب مع آخرين من رجال المناهج بالوزارة في نهاية الأربعينيات، وكانا مقررين على طلبة المدارس حتى عام ١٩٦٥م، حيث قامت الوزارة بمصادرتهما وحرق جميع النسخ في المخازن!!!!.

١٣- النقد الأدبي أصوله ومناهجه: وهو آخر كتاب نقدي لسيد – حيث تحول بعده إلى الدراسات الإسلامية – ويتحدث الكتاب عن وظيفة النقد الأدبي وغايته وأصوله ومناهجه في القديم والحديث وصدر عام ١٩٤٨م.

---

(١) هو :عبد الحميد بن جودة السحار ، كاتب مصري ، له مجموعة مؤلفات قصصية ، توفي سنة ١٩٧٤م ،انظر : الأعلام للزركلي ،٣/٢٨٥ .

ثانياً: مؤلفاته في الدراسات الإسلامية:

ذكرنا في الحديث عن مراحل حياة سيد قطب أنه مر في مرحلته الإسلامية بثلاثة أطوار هي: الإسلاميات الفنية، ثم الإسلاميات الفكرية، ثم الإسلاميات الحركية، وفيما يلي استعراض لكتبه التي ألفها حسب الترتيب السابق:

١٤-(١) التصوير الفني في القرآن: وهو أول كتاب ألفه سيد في مرحلة الإسلاميات الفنية حيث بدأ يدرس القرآن لدواعٍ أدبية وفنية، وأصل الكتاب مقال صدر عام ١٩٣٩م بنفس العنوان، وبعد ٦ سنوات أي في عام ١٩٤٥م أصدر سيد كتاب " التصوير الفني في القرآن " تحدث فيه عن نظرية التصوير الفني في القرآن، وبين خصائصها، وعرض أمثلة عليها، ومما يؤخذ عليه في الكتاب كلامه عن موسى – عليه السلام – بألفاظ لا تليق، واستعماله لكثير من المصطلحات الفنية عند الحديث عن معاني الآيات، باعتباره في هذه المرحلة لم يكن قد تعمق في الدراسات الإسلامية، بل كان هدفه كما يقول في مقدمة كتابه(مشاهد القيامة) فنياً أدبياً محضاً لا علاقة له بالدراسات الإسلامية.

١٥-(٢) مشاهد القيامة في القرآن: وهو الكتاب الثاني في مشروع سيد الذي أعلن عنه في الأربعينيات بعنوان (مكتبة القرآن الجديدة)، ويتحدث الكتاب عن أفق من آفاق التصوير الفني في القرآن وهو (مشاهد القيامة) فهو مكمل لكتاب التصوير الفني، وصدر عام ١٩٤٧م.

ويعتبر هذان الكتابان حصيلة مرحلة الإسلاميات الفنية، حيث تحول سيد بعدهما إلى الكتابات الفكرية.

١٦-(٣) العدالة الاجتماعية في الإسلام: وهو أول كتاب فكري لسيد قطب، حيث وجد أثناء دراسته الأدبية للقرآن الكريم أنه يحتوي على قواعد الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وقد كتبه قبل سفره إلى أمريكا، وهي الفترة التي نشط فيها الشيوعيون في مصر، و الكتاب يتحدث عن علاقة الدين بالمجتمع مقارنة بين الإسلام والمسيحية. وكذا نظرة الإسلام إلى الحياة، وطبيعة العلاقة الاجتماعية في الإسلام، وعلاقتها بالتصور الإسلامي (العقيدة) وأساليب الإسلام في تحقيقها، موضحاً سياسة الحكم والمال في الإسلام ونماذج من الواقع التاريخي الإسلامي، وصدر الكتاب عام ١٩٤٩م أثناء وجود سيد في أمريكا.

ولما صدر الكتاب فرح الإخوان المسلمون حينها به وعملوا على نشره ودراسته – رغم أن سيد لم يكن بعد قد انضم إليهم – وذلك لأنه يؤيد توجههم الإسلامي في الإصلاح ويقف في وجه المشروع الشيوعي والغربي، بينما لقي الكتاب محاربة من الحكومة والشيوعيين معا

*ويؤخذ على سيد في هذا الكتاب كلامه عن عثمان ومعاوية – رضي الله عنهما – وعهد بني أمية حيث رد عليه العلامة محمود شاكر آنذاك، وقد حاول سيد تعديل بعض ما انتقد عليه في الطبعة السادسة عام ١٩٦٤م، ومع ذلك لا تزال فيه كلمات غير سائغة شرعاً.

١٧-(٤) معركة الإسلام والرأسمالية: ويتحدث الكتاب عن المعركة بين الإسلام والرأسمالية، وعداوة الرأسماليين والشيوعيين للإسلام، ويتهم المسئولين بالتسبب في ضياع الأمة، ويعرض علاج الإسلام للمشكلات الاجتماعية، ويرد على بعض الشبهات حول طبيعة الحكم الإسلامي وكذا بيان أسباب العداء للإسلام، وألفه سيد بعد عودته من أمريكا، حيث كانت الأوضاع تزداد سوءاً، وصدر الكتاب عام ١٩٥١م.

١٨-(٥) السلام العالمي والإسلام: صدر عام ١٩٥١م بعد ثمانية أشهر من الكتب السابقة وكانت تلك الفترة تشهد اضطراباً في الموازين والقوى بعد الحرب العالمية الثانية، والكتاب يتحدث عن طبيعة السلام في الإسلام وارتباطه بالعقيدة، وشموله لضمير الفرد ثم الأسرة ثم الجماعة ثم الدولة، كما يفضح الكتاب السياسة الاستعمارية الأمريكية في المنطقة.

١٩-(٦) دراسات إسلامية: وهو عبارة عن مجموعة مقالات نشرها سيد في أوقات متباعدة، قبل قيام الثورة وبعدها، ثم جمعها بعد عودته من أمريكا، وأصدرها في كتاب عام ١٩٥٣م، ويضم الكتاب(٣٥) مقالة مختلفة.

٢٠-(٧) هذا الدين: وهو أول كتاب يؤلفه سيد قطب – رحمه الله – في السجن، حيث حكم عليه عام ١٩٥٥م بالسجن خمسة عشر عاماً، وبعد استقراره في السجن أصدر الكتاب عام ١٩٦٠م، وسبب تأليفه: ما لاحظه سيد على وجوه بعض أفراد الإخوان بعد التعذيب من تزعزع الثقة

بالنفس أو الدعوة، فكان الكتاب إجابة للتساؤلات حول طبيعة هذا الدين ومنهجه في العمل والدعوة، ليطَّمئن الدعاة ويعرفوا ملامح دينهم، والواجب عليهم نحوه.

٢١-(٨) المستقبل لهذا الدين: وصدر بعد كتاب (هذا الدين) مباشرة في عام ١٩٦٠م، ويعتبر مكملاً ومتمماً للكتاب الأول في دوافعه وأهدافه ومهمته الحركية التربوية للدعاة، حيث تحدث الكتاب عن الإسلام كمنهج للحياة، وعلاقة العقيدة بالنظام الاجتماعي، ورد على دعوى فصل الدين عن الحياة ووضح آثارها في الواقع الغربي كنموذج، وبيَّن أن المخلص الوحيد هو هذا الدين.

٢٢-(٩) الإسلام ومشكلات الحضارة: وصدر عام ١٩٦٢م بعد الكتابين السابقين، ويعتبر مكملاً لكتاب (المستقبل لهذا الدين)، تحدث فيه عن الفساد الناتج من قيادة الجاهلية الغربية للمجتمعات، وعرض المشاكل والحلول التي يقدمها الغربيون وبين عدم جدواها، وقرر أنه لا حل لمشكلات الحضارة إلا بالإسلام، وقيام المجتمع الإسلامي في الواقع العملي.

٢٣-(١٠) خصائص التصور الإسلامي: وصدر عام ١٩٦٢م، وكان سيد قد أعلن عنه سابقاً بعنوان " فكرة الإسلام عن: الله والكون والحياة والإنسان" وهو الجزء الأول، ويتحدث عن التصور الإسلامي العام وأصول النظرة الإسلامية، وقد استغرق إعداد الكتاب أكثر من عشر سنوات

(١٩٥٠- ١٩٦٢م) وهو أعمق كتبه وأكثرها تأصيلاً ومنهجية وله جزء ثانٍ بعنوان "مقومات التصور الإسلامي".

٢٤-(١١) في ظلال القرآن: بدأ سيد يكتب الظلال على شكل مقالات في تفسير القرآن في مجلة (المسلمون) على حلقات متتابعة، وكانت أول حلقة في العدد (٣) / فبراير -١٩٥٢م / واستمر في إصدار سبع حلقات انتهت إلى الآية (١٠٣) من سورة البقرة، ثم بدا لسيد أن يصدر الظلال في كتاب مستقل، وليس حلقات في مجلة، فأعلن توقفه عن نشر حلقات الظلال في العدد العاشر / سبتمبر ١٩٥٢م/ وأنه سينشره في ثلاثين جزءاً على رأس كل شهرين جزءاً، ووفى سيد بتعهده للقراء فأصدر في الفترة من (أكتوبر ١٩٥٢م – يناير ١٩٥٤م) ستة عشر جزءاً.

وفي عام ١٩٥٤م أدخل السجن في محنته الأولى، وأوقف ثلاثة أشهر (يناير – مارس) فأصدر الجزأين السابع عشر والثامن عشر من السجن!! ثم أفرج عنه، ولكنه لم يلبث أن أعيد إلى السجن في نوفمبر ١٩٥٤م، بعد حادثة المنشية، ولم يصدر شيئاً في الفترة الأولى من سجنه بسبب تعرضه للتعذيب وزيادة المرض عليه، وبعد محاكمته حكم عليه بالسجن ١٥ عاماً، وتوقف التعذيب عنه وأراد الله له أن يكمل الظلال، ومع أن لوائح السجن تقضي بمنع دخول الورق والأقلام إلا أن الله يسر لسيد إكمال مشروعه، حيث كان قد تعاقد مع دار إحياء الكتب العربية على كتابة الظلال كتفسير للقرآن كله، فلما منع في السجن رفعت الدار شكوى

ضد الحكومة تطالبها بالتعويض (١٠. ٠٠٠) عشرة آلاف جنيه، فامتنعت الحكومة عن دفع التعويض، وسمحت لسيد بإكمال الظلال، والذي يظهر أن عمل الحكومة ليس سببه التهرب من دفع المبلغ، ولكنها أرادت إبطال ما يثيره الإخوان في الخارج ضدها بسبب سجن سيد، فكانت تدعي أن سيداً ليس معتقلاً بدليل صدور كتاباته المتتابعة شهرياً!!! وقد عينت الحكومة الشيخ / محمد الغزالي(١). رقيباً دينياً يعرض عليه ما يكتبه سيد قبل طبعه، وقد أكمل سيد الظلال في نهاية الخمسينات، وفي عام ١٩٦٠م بدأ سيد بمراجعة الظلال وتنقيحه، حيث راجع منه ١٣ جزءاً حتى عام ١٩٦٥م، ثم اعتقل وأعدم ولم يستطع إكمال تنقيح الكتاب (٢).

٢٥-(١٢) معالم في الطريق: وهو آخر كتاب صدر في حياة سيد قطب، وأصله فصول كتبها سيد من سجن ليمان طره - لأفراد التنظيم الإخواني الجديد - ويضم (١٣) فصلاً في فقه الدعوة والحركة ويرى كثيرون أن الأفكار التي شملها الكتاب كانت سبباً في إعدام سيد

٢٦-(١٣) مقومات التصور الإسلامي: وهو خاتمة كتب سيد قطب، أودع فيه عصارة تجربته الإيمانية وتصوره وفكره، وختم به حياته،

---

(١) هو:محمد الغزالي السقا ، ولد عام ١٩١٧ م ، في بلدة البحيرة بمصر ،وكان أبوه شديد الإعجاب بالإمام أبي حامد الغزالي متأثرا بنزعته الصوفية ، درس في الأزهر وعمل خطيبا فيه ،سجن عدة مرات ،وله عدة مؤلفات ،انظر : علماء ومفكرون عرفتهم ،للمجذوب ،٢٦٥/١ .

(٢) مدخل إلى ظلال القرآن د/ صلاح الخالدي ص ٤٢-٤٦ ،بتصرف ٠

حيث كتب معظمه في سجنه عام ١٩٦٥م أثناء التعذيب على ورق الإدعاء التي قدمت له، مما يدل على همته وعزيمته، ويمثل هذا الكتاب القسم الثاني لكتاب (خصائص التصور الإسلامي) ويتحدث عن مقومات التصور الإسلامي وحقيقة

الإلوهية والعبودية والكون والحياة والإنسان، وقد قام بإصداره أخوه محمد قطب عام ١٤٠٦-١٩٨٦م.

هذه مجموعة كتب سيد قطب التي طبعت في مراحل حياته أو بعد موته.

وهناك مجموعة من الكتيبات المطبوعة باسم سيد قطب، وهي في الحقيقة عبارة عن مقالات لسيد جمعها بعض الناشرين من الصحف والمجلات ونسقوا بينها، أو أجزاء استلت من كتبه السابقة وهي:

٢٧-(١٤) أفراح الروح: وهو عبارة عن مجموعة من الخواطر والأفكار التي سجلها سيد بين عامي (٤٨-١٩٥٠م) في رسائل خاصة لإخوانه أو أصدقائه، وقامت الدار العلمية ببيروت عام ١٩٧١م بإصدارها باسم (أفراح الروح).

٢٨-(١٥) نحو مجتمع إسلامي: والكتاب في الأصل مقالات نشرها سيد في مجلة (المسلمون) على حلقات باسم (نحو مجتمع إسلامي)، وقد أعلن سيد عن بحث يعده بنفس الاسم عام ١٩٦٢م، ويبدوا أن السلطات أتلفت أصول البحث، وبعد استشهاده أخذت مكتبة الأقصى بعمان مقالات سيد المنشورة في مجلة (المسلمون) وطبعتها بنفس العنوان فظن

الناس أنها هي البحث الذي أعلن عنه سيد وليس كذلك [١].

٢٩-(١٦) **في التاريخ فكرة ومنهاج:** وهو عبارة عن مقال نشر في حلقتين في (مجلة المسلمون) عام ١٩٥١م، وبعد استشهاد سيد طبعت الدار السعودية المقالتين وأضافت لهما مقالا آخر له بعنوان: التصور الإسلامي للأدب، ونشرتهما في كتيب بعنوان (في التاريخ.. فكرة ومنهاج).

٣٠-(١٧) **معركتنا مع اليهود:** وهو عبارة عن مقالات نشرها سيد في مجلة (الدعوة) وأعادت نشرها الدار السعودية باسم (معركتنا مع اليهود).

٣١-(١٨) لماذا أعدموني: وهو تقرير مفصل كتبه سيد بطلب من المحققين أثناء سجنه نهاية عام ١٩٦٥م ويعتبر إجابات لأسئلة محددة أو سؤال عام وجه إليه، ثم نشرته مجلة(المسلمون) في حلقتين وأشارت إلى أنه مر بأيدي المحققين والمخابرات وحذف منه الأشياء التي تتعلق بالتعذيب وما لا يريد النظام نشره، ويتحدث التقرير عن علاقة سيد بالإخوان وبيان ما حدث في السجون وكذا طبيعة تنظيم ٦٥م وعلاقة سيد بإخوان الخارج وغيرهم.

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٥٧٠.

ويضاف إلى ما سبق مجموعة من الكتيبات التي استلت من الظلال وطبعت مستقلة منها:

١- تفسير سورة الشورى: وهو كتيب صدر عن الدار السعودية للنشر، حيث قامت باجتزائه من الظلال وطبعه مستقلاً.

٢-تفسير آيات الربا: وفعلت الدار السعودية بهذا الكتاب ما فعلته بسابقه حيث استلت من الظلال تفسير سيد لآيات الربا في سورتي البقرة وآل عمران وطبعته في كتيب مستقل [١].

٣-قصة الدعوة

٤ - إسلام أو لا إسلام.

٥- إلى المتثاقلين عن الجهاد.

٦- رسالة الصلاة.

٧- استعلاء الإيمان [٢].

ثالثاً: بحوث وكتب لسيد قطب لم تنشر: " مفقودة "

لسيد قطب في الظلال وغيره إشارات إلى بحوث وكتب له تحت الإعداد، أو لديه نية في تأليفها، وعند جمع هذه الكتب والأبحاث التي أشار إليها وجدتها كثيرة ولم تر النور ويرجع ذلك إلى سببين:

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

الأول: أن سيد ربما أعلن عن بدء البحث في موضوع ثم تحول منه إلى غيره وتركه إما بعد البدء به أو قبله.

الثاني: إتلاف الطغاة لكثير من كتب سيد وبحوثه التي طبعت أو لم تطبع أثناء محنته الأولى والثانية، وفيما يأتي سرد عناوين البحوث والكتب المفقودة كما يلي:

أ - البحوث الأدبية (1) وهي:

١- مهمة الشاعر في الحياة: وهو بحث كان ينوي تأليفه، واعتبر الكتيب المطبوع مقدمة له.

٢- دراسة عن شوقي: وقد أعلن عنها في كتابه (مهمة الشاعر) المطبوع

٣- المراهقة (أخطارها وعلاجها): قال عنه: " أنا على وشك إخراج كتاب في التربية عن المراهقة: أخطارها وعلاجها " (2). مما يدل على أنه كان جاهزاً لديه.

٤-المرأة لغز بسيط: بحث أعده خلال عشر سنوات ونشرت خلاصة في مجلة الأسبوع عام ١٩٣٤م

٥-المرأة في قصص توفيق الحكيم: أعلن عنه في مجلة الأسبوع عام ١٩٣٤م.

٦- أصداء الزمن: ديوان شعري ثانٍ لسيد وعد بإصداره عام ١٩٣٧م ثم تراجع

---

(١) سيد قطب للخالدي ، ص ٥٧٥ ، ٥٧٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٧٦ .

عن إصداره.

٧- الكأس المسمومة: ديوان ثالث أعلن عنه ولم ينشره [١].

٨- قافلة الرقيق: ديوان رابع أعلن عنه ولم ينشره.

٩- حلم الفجر: ديوان خامس أعلن عنه ولم ينشره.

١٠- القطط الضالة: قصة مصورة، أعلن أنها تحت الطبع.

١١- من أعماق الوادي: قصة أخرى أعلن أنها قيد التحرير.

١٢- المذاهب الفنية المعاصرة: بحث نقدي أعلن أنه تحت الطبع.

١٣- الصور والظلال في الشعر العربي: بحث نقدي آخر.

١٤- القصة في الأدب العربي: بحث نقدي أيضاً أعلن أنه قيد البحث.

١٥- شعراء الشباب.

١٦- القصة الحديثة: بحث نقدي.

١٧- عرابي المفترى عليه: دراسة عن أحمد عرابي، وترجمة لحياته.

١٨- الشريف الرضي: دراسة عن الشريف وترجمة حياته.

ب) البحوث والدراسات الإسلامية:

١٩-(١) القصة بين التوراة والإنجيل.

٢٠-(٢) النماذج الإنسانية في القرآن.

٢١-(٣) المنطق الوجداني في القرآن.

٢٢-(٤) أساليب العرض الفني في القرآن [١].

---

(١) المصدر السابق ص٤٧٦ .

٢٣-(٥) لحظات مع الخالدين.

٢٤-(٦) أمريكا التي رأيت.

٢٥-(٧) معالم في الطريق – ا لجزء الثاني.

٢٦-(٨) في ظلال السيرة.

٢٧-(٩) في موكب الإيمان.

٢٨-(١٠) أوليات في هذا الدين.

٢٩-(١١) تصويبات في الفكر الإسلامي المعاصر.

٣٠-(١٢) نحو مجتمع إسلامي.

٣٠-(١٣) هذا القرآن [٢].

وهذه الكتب بعضها أعلن عن نيته في كتابتها ولم يكتبها، وبعضها كتبه و يظهر أن الطغاة أتلفوا أصول هذه البحوث ولم يبقَ منها شيء.

رابعاً: هل تخلى سيد عن بعض مؤلفاته:

اختلف الباحثون في قضية تخلي سيد قطب عن كتبه الأدبية أو بعضها في آخر حياته، كونها تحمل أفكاراً لم يعد يؤمن بها بعد توجهه

---

(١) أشار إلى هذه الكتب الأربعة في كتابه (مشاهد القيامة) ص ٧

(٢) أعلن سيد عن هذه الكتب في قائمة كتبه التي أثبتها في نهاية الجزء ١٣ من الظلال طبعة عام ١٩٦٤م ، انظر : سيد قطب للخالدي ،ص٥٨٠.

الإسلامي:

أ – نقل بعض المقربين من سيد أنه بيَّن أكثر من مرة في آخر حياته لمن حوله أن كتبه الأدبية تمثل مرحلة معينة أورد فيها بعض الآراء والأفكار التي لم يعد يؤمن بها أو يراها [١].

وذكر بعض الناشرين لكتبه أنه تخلى عن كثير من كتبه الأدبية، وأنه فقط راضٍ عن ستة كتب هي: (هذا الدين – المستقبل لهذا الدين – الإسلام ومشكلات الحضارة – خصائص التصور الإسلامي – الظلال في طبعته المنقحة – معالم في الطريق) [٢]. وقد أكد لي هذا الأمر أخوه الشيخ محمد قطب عند لقائي به في مكة.

ب– ينكر بعض الباحثين فكرة تخلي سيد قطب عن أي من كتبه المطبوعة لعدم وجود نص منه على ذلك [٣].

والذي يظهر لي من خلال قراءة جميع كتبه المؤلفة في آخر حياته، عدم إحالته في أي منها إلى كتبه الأدبية السابقة عدا كتابي (التصوير الفني في القرآن – ومشاهد القيامة) حيث أحال إليهما فقط من بين كتبه الأدبية، أما ما سواها من كتبه الأدبية فلم أجد أي إحالة عليها.

---

(١) سيد قطب للخالدي ،ص٥٠٩ .

(٢) ذكر ذلك المستشار عبد الله العقيل، في مجلة المجتمع الكويتية ،العدد:١١٢ ،تاريخ ١٩٧٢/٨/٨م ،ص ٢٢،وأكده لي الشيخ محمد قطب عند مقابلتي له بمكة .

(٣) ومنهم د/ صلاح الخالدي في كتابه : سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص ٥١٠ .

وعمومـاً: فالمثبـت مقـدم علـى النـافي، ومـع ذلـك فـلا يمنـع مـن الاستفادة من كتبه الأدبية السابقة على توجهه الإسلامي، فيما هو صواب، وترك ما فيها من خطأ أو انحراف، كونها كتب مرحلة فيها الغث والسمين، ولكن لا يجوز تقييمه من خلالها ٠

المبحث الثالث

جهوده في العمل الدعوي ومكانته العلمية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: جهوده في العمل الدعوي.

المطلب الثاني: مكانته العلمية.

المطلب الأول

جهوده في العمل الدعوي

تبين لنا فيما سبق المراحل التي قطعها سيد قطب – رحمه الله – في مسيرته الحياتية، منذ ولادته وحتى استشهاده ووقفنا على مشارف حياته الأدبية، وغربته الفكرية، وبعد أن عرف الجاهلية على حقيقتها وفقه الله إلى الالتزام بالإسلام، فأقبل عليه باحثاً وكاتباً ومفكراً وداعية، وعاش بقية حياته في ظلال القرآن، يتذوقه، ويخوض به معركته ضد الباطل والجاهلية.

والمتأمل في مسيرة سيد الإسلامية وتراثه الفكري، يجد أن له جهداً كبيراً في مجال الدعوة والحركة والفكر، ومواجهة الانحراف الفكري والسلوكي في المجتمع الإسلامي، حيث قدم عدداً من الكتب والأبحاث والدراسات، حوت خلاصة فهمه للإسلام وتدبره للقرآن، وتصوره للعمل والدعوة والتربية والحركة، وأراد أن يقود تياراً للتغيير في كل مجالات المجتمع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً بالمنهج الإسلامي الذي اقتنع به وثبت عليه.

ويمكن بيان بعض جهوده في مجال العمل الدعوي والجوانب التجديدية عنده فيما يأتي:

<u>١- الانتقال بالفكر الإسلامي من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم:</u>

يكاد يجمع الباحثون المنصفون على اعتبار سيد قطب – رحمه الله– رائد الفكر الإسلامي المعاصر، وأول مفكر انتقل من مرحلة " الدفاع

على استحياء " أمام الجاهلية المادية المعاصرة، إلى مرحلة " هجوم الواثق البصير" في حديثه عن الإسلام، وعرضه لحقائقه ومبادئه.

فقد كان كثير من الدعاة والمفكرين الإسلاميين في عصره يضعون "الإسلام في قفص الاتهام " [1] ويجعلون " الدين في موقف الدفاع "[2]. ويكتبون بأسلوب فيه كثير من الضعف والانهزامية.

أما سيد – رحمه الله – فقد خالف هؤلاء جميعا، ودعا إلى الانتقال بالفكر الإسلامي من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وكان ينصح الدعاة بمواجهة الأفكار الباطلة باستعلاء الإيمان، وتقديم الإسلام للناس بجرأة وشجاعة وحسن عرض وأسلوب، معللاً ذلك بأنه: " ليس في إسلامنا ما نخجل منه، وما نضطر للدفاع عنه، وليس فيه ما نتدسس به للناس، أو نتلعثم في الجهر به على حقيقته، وإذا كان هناك من يحتاج للدفاع والتبرير والاعتذار فليس هو الذي يقدم الإسلام للناس، وإنما هو ذاك الذي يحيا في الجاهلية المهلهلة المليئة بالمتناقضات وبالنقائص والعيوب.. وهؤلاء الذين يهاجمون الإسلام يُلجئون بعض محبيه الذين يجهلون حقيقته إلى الدفاع عنه كأنه متهم.. وكان بعضنا في أمريكا يتخذ موقف الدفاع والتبرير.. وكنت على العكس اتخذ موقف المهاجم للجاهلية الغربية، سواءً في معتقداتها الدينية المهلهلة.. أو في أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) عنوان كتاب لشوقي أبو خليل .

(٢) عنوان كتاب للدكتور / محمد فتحي عثمان .

والأخلاقية المؤذية، فهذه التصورات عن الأقانيم والخطيئة والفداء.. لا تستقيم في عقل ولا ضمير، وهذه الرأسمالية باحتكارها ورباها.. والفردية والأثرة والتصور المادي التافه الجاف للحياة.. وحرية البهائم (حرية الاختلاط)، وسوق الرقيق (حرية المرأة)، والسخف والحرج في نظام الزواج والطلاق، والتفريق العنصري الحاد الخبيث.. وهي حقائق كانت تخجل أصحابها حين تعرض في ضوء الإسلام.. ولكن ناساً – يدعون الإسلام – ينهزمون أمام ذلك النتن الذي تعيش فيه الجاهلية، حتى ليتلمسون للإسلام مشابهات في هذا الركام المضطرب البائس في الغرب، وفي تلك المادية البشعة في الشرق أيضاً! " (١).

ولعل اطلاع سيد الكبير على نتاج الجاهلية في مختلف فروعه وألوانه، أعانه على معرفته لها على حقيقتها، والوقوف على مقاتلها، ومن ثم توجيه السهام إليها .

يضاف إلى ذلك حياته في ظلال القرآن حيث جعلته يشعر باستعلاء الإيمان، فنظر إلى الجاهلية وتعامل معها من علو (٢).

٢– دخوله خندق المواجهة مع الجاهلية المعاصرة:

معلوم أن الصراع بين الحق والباطل سنة كونية لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة الدنيا، وقد شاء الله تعالى أن تكون الجولة المؤقتة في

---

(١) معالم في الطريق ، سيد قطب ، ص١٧٤–١٧٩ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : فصل (استعلاء الإيمان) من معالم في الطريق لسيد ، ص ١٧٨ وما بعدها .

العصر الحديث (للجاهلية الغربية) [١].

حيث وجهت ضربتها الكبرى للمسلمين، فأُلغيت الخلافة، وسقطت بلاد المسلمين فريسة للمحتلين وحُوربت العقيدة الإسلامية وأُقصيت الشريعة، فنشأ جيل من المسلمين على فكر الجاهلية المادية [٢].

ومما تميز به سيد قطب – رحمه الله – أنه عاش عصره بكل أوضاعه وملابساته، لذا نراه يناقش مشكلات عصره وقضايا واقعه، ويحرص على بحث ما يواجه الأمة من أخطار ويقدم الحلول الإسلامية لها. فدخل بذلك خندق المواجهة مع الباطل، وأخذ يكشف زيف الجاهلية المعاصرة، ويعري مواقفها ومبادءها وأخلاقها، ويفند تصوراتها وأفكارها، ويهاجم مناهجها، ويزنها بميزان الإسلام ويتعامل معها باستعلاء الإيمان .

كما حاول سيد جاهداً أن يجلي منهج القرآن في مواجهة الجاهلية، ويقف به في مواجهة الطغاة والظلمة، ويتكلم في مسائل حساسة، تهرَّب الكثير منها رغم الحاجة إليها، ربما لأنهم لا يقدرون على دفع تكاليف الكلام فيها.

---

(١) هذا هو الوصف الذي اختاره سيد (للحضارة الغربية) فهو يرى أن الحضارة هي الإسلام ، إما ما عليه الغرب اليوم فهو جاهلية وليس حضارة ، انظر: (معالم في الطريق) فصل : الإسلام هو الحضارة ، ص١١٦ .

(٢) مدخل إلى ظلال القرآن : د / صلاح الخالدي ، ص ٣٧١.

والمتأمل في كتابات سيد يجد له وقفات كثيرة ومتفرقة في وجه الهجمة الشرسة للجاهلية المعاصرة على العالم الإسلامي في كثير من كتبه ومواقفه العملية، لأنه نظر إليها من زاوية العقيدة والإيمان، بعكس المطبوعين بطابع بالجاهلية الغربية الذين ينظرون إليها من زاوية التقدم المادي فيصبحون أسرى لها، مهزومين نفسياً أمامها، غير قادرين على مواجهتها(١).

٣- تصويب وتصحيح كثير من المفاهيم في الفكرالإسلامي:

وقف سيد قطب على كثير من الانحرافات والأخطاء في مجال الدعوة والعمل الدعوي والحركي الإسلامي المعاصر. وكان ينوي إصدار دراسة خاصة بالفكر الإسلامي وتصويب الأخطاء والانحرافات فيه بعنوان "تصويبات في الفكر الإسلامي المعاصر" لكنها فقدت مع جملة ما فقد من أبحاثه ومؤلفاته أيام محنته.

ومن أبرز القضايا التي وقف سيد قطب- رحمه الله – عندها، وبين خطأها وحاول أن يوضح الصواب فيها ما يأتي:

أ – مفهوم الجهاد في سبيل الله وحقيقته وأهدافه ومقاصده (٢).

ب- مفهوم لا إله إلا لله (٣).

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، ص ١١٦.

(٢) في ظلال القرآن ، ٣ / ٩٠٤ ، ٣/١٤٣١- ١٤٢٥.

(٣) المصدر السابق ، ٢/ ١٠٠٥ – ١٠٢٠ ، ومعالم في الطريق ، ص ٩٢ .

ج – مفهوم العبادة وآفاقها [١].

د – مفهوم الحاكمية وعلاقتها بالعقيدة [٢].

هـ– مفهوم المصطلحات الأربعة (الله – الرب– العبادة – الدين) [٣].

و – مفهوم التميز والولاء والمفاصلة [٤].

ز – مفهوم الجاهلية في التصور الإسلامي [٥].

ح – مفهوم الحضارة [٦].

ط – مفهوم التغيير ووسائله ومراحله [٧].

كما بيَّن سيد –رحمه الله – خطأ وفساد بعض مناهج التلقي والبحث وما نتج عنها من انحرافات وخاصة في مجال العقيدة ومنها:

أ – قضية تطور العقيدة و مقارنة الأديان [٨].

ب – قضية تقديم العقل على النقل [١].

---

(١) المصدر السابق ، ٤ / ١٩٠٢.

(٢) المصدر السابق ، ٤ / ١٩٩٠.

(٣) المصدر السابق ، ٤ /٢٠٢٠– ٢٠٢٢.

(٤) المصدر السابق ، ١ / ٣٤٨ – ٣٥٠ .

(٥) المصدر السابق ، ٢ / ١٠٨٢– ١٠٨٥..

(٦) معالم في الطريق ، ص ١١٦

(٧) المصدر السابق ، ص ١٠–١٣ ، و هذا الدين لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط٧ ، عام ١٤٠٢هـ ، ص٩ –١٠ ، وفي ظلال القرآن ، ١٩٤٧/٤.

(٨) في ظلال القرآن ، ٤ / ١٨٨٥ .

جـ – قضية إنكار وتأويل الغيبيات [٢].

د– قضية علاقة الفلسفة وعلم الكلام بالعقيدة[٣]. وغيرها

٤– إيضاح معالم المنهج الإسلامي في البحث والمعرفة:

وجد سيد – رحمه الله – أن كثيراً من الباحثين والدعاة وحتى الأزهر، يقومون بدراسات لا علاقة لها بالتحديات المعاصرة التي يواجهها الإسلام اليوم، فدعا إلى أن توجه الدراسات والبحوث والأنشطة العلمية إلى تطبيق المنهج الإسلامي على جميع جوانب الحياة [٤].

كما دعا إلى دراسة التاريخ الإسلامي دراسة جديدة بعيداً عن دراسات المستشرقين التي يغلب عليها طابع المادية والعداء للإسلام [٥].

كما عمل من خلال كتاباته وبحوثه على إحياء وإيضاح معالم المنهج الإسلامي في البحث والمعرفة ومن أبرز تلك المعالم:

أ – الثقة المطلقة بالنص الشرعي والتسليم التام بمدلوله: وإخضاع الظواهر

---

(١) المصدر السابق ، ٣ / ١٦٣٧ و خصائص التصور الإسلامي ، لسيد قطب ، دار الشروق ، ط١٥– عام ٢٠٠٢، ص١٨ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن :١٥٣١/٣ و٣٧٣٠/٦–٣٧٣١ مع الهامش،و٣٤٧٧/٦–٣٤٧٨ ، وخصائص التصور الإسلامي ص٢٠ . و مقومات التصور الإسلامي ،سيد قطب ،دار الشروق ،بيروت ،ط ٥، ١٩٩٧م ،ص٤٥

(٣) في ظلال القرآن ، ١ / ١٠٦ وخصائص التصور الإسلامي ص١٠ وما بعدها.

(٤) مقال لسيد في مجلة الرسالة ، العدد ٩٣٧ – ١٩٥١م ، نقلا عن : سيد قطب للكشميري ، ص ١٥٩.

(٥) في التاريخ فكرة ومنهاج ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط ٨ ، عام ١٤٢٢هـ ، ص٣٧ وما بعدها .

المخالفة – في ظاهرها – له، وإزالة التعارض – المتوهم – بين مدلولات النص والواقع، وجعل النص هو الأساس وكل ما سواه تبع له(١).

ب- ربط النصوص بالواقع والتحرك بها في مواجهة الجاهلية: حيث حرص سيد على النظر إلى الواقع باستمرار مقوماً لانحرافاته، مطبقاً لنصوص القرآن عليه، داعياً العاملين للإسلام إلى التحرك به في الواقع، وخوض المعركة مع الجاهلية بالعقيدة، والتربية عليها، تأسياً بالجيل الفريد – الصحابة رضوان الله عليهم – الذين كانوا يتلقون النصوص في كل شؤون الحياة للعمل والتنفيذ، لا بقصد الثقافة، والإطلاع وتحصيل المعرفة – كما هو حالنا اليوم – فحولوا بذلك النصوص إلى فهم واقعي في الحياة(٢).

يقول سيد – رحمه الله –: " وأَلْفُ كتابٍ عن الإسلام، وأَلْفُ خطبةٍ في مسجد أو قاعة أو ميدان، وأَلْفُ فلمٍ في الدعاية للإسلام، وأَلْفُ بعثةٍ من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان... كل أولئك لا يغُني غناء مجتمع صغير في ركن من أركان الأرض يعيش منهج الإسلام، ويعيش لمنهج الإسلام وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج، وتتمثل فيه صورة الحياة في الإسلام " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥٣٣/١، ٢/ ٩٣٠-٩٦٠ .

(٢) انظر : فصل (جيل قراني فريد) من / معالم في الطريق لسيد قطب ، ص ١٤ وما بعدها .

(٣) الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط١٢ ، عام ١٤٢٢هـ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨.

ج – الإيمان بعالم الغيب: حسب ما تقرره النصوص، وعدم الخوض فيه، واحترام العقل ومعرفة حدوده ومجاله " فلندع الغيب لصاحبه، وحسبنا ما يقص لنا منه بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا.. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى "(١).

د – اعتماد المنهجية العلمية في البحث: والقائمة على رفض الأساطير والإسرائيليات والموضوعات، وعدم التوسع في الخلافيات المذهبية والفقهية، أو الانشغال بالمبهمات وما لا يفيد(٢) " فالمنهج الإسلامي منهج واقعي جاد، يواجه وقائع الحياة بالأحكام المشتقة لها من أصول شريعة الله مواجهة عملية واقعية " (٣).

هـ- تجاوز عصر الخلاف الكلامي والجدلي: واستبعاد منهج الجدل النظري باعتباره مخالفاً للمنهج الإسلامي في المعرفة والبحث (٤).

و- التأكيد على قضايا الدعوة والتربية على العقيدة: حيث ركز سيد – رحمه الله – على القضايا المتعلقة بالدعوة والتربية على العقيدة كثيراً في كتاباته، حتى أصبحت هذه القضية سمة من سمات تفسيره (الظلال)، كما دعا المربين والدعاة إلى الوقوف أمام منهج القرآن في التربية، وطريقة النبي ﷺ، والالتزام بذلك في تربيتهم لأنفسهم ولمن حولهم، حتى

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٥٩ بتصرف .

(٢) مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، ص ٤٢ .

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢/ ٩٨٧.

(٤) المصدر السابق ، ٢ / ٩٧٨.

يحققوا ما يهدفون إليه [1].

وقد كانت قضية العقيدة وبيان مدلول (لا إله إلا الله) باعتبارها منهج حياة، أهم مسألة استحوذت على تفكير سيد – رحمه الله – وعمله، منذ بداية سجنه عام ١٩٥٤م وحتى لقي ربه، حيث أسهب في الحديث عن قضايا العقيدة ومباحثها، وعرض حركتها الواقعية والإيجابية في التاريخ الإنساني من خلال رسالات الأنبياء، ومواقف الناس منها والصراع مع الجاهلية.

كما حرص على الربط بين العقيدة والشريعة والمناهج والنظم والتوجيهات، وبيَّن آثار العقيدة في حياة الفرد والمجتمع، وأهمية الربط بينهما وبين نظم الحياة لضمان الالتزام بتلك النظم.

ودعا المربين والدعاة إلى الاهتمام بالعقيدة، وأن تكون هي نقطة البدء في مناهج دعوتهم [2].

٥- **بيان المنهج الحركي في الإسلام:** ويقصد بالمنهج الحركي: " الطريقة التي يتبعها دعاة الإسلام للوصول إلى أهدافهم المتمثلة في انتصار الإسلام وتطبيقه في واقع الحياة جملة وتفصيلاً " [3]. ونظراً لاختلاف وجهات

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ٣٤٨٢/٦، في ظلال القرآن في الميزان ، د / صلاح الخالدي ، ص٣٦١،

(٢) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ، ٣٩/١ ، ٤٠ ، ٢٨٦ ، ٩/٢ – ١٠ ، ١٠١٥ ، ١٠٤٦ –١١٠٨ ، ١٧٨٨/٣ –١٧٩٤، ومعالم في الطريق، ص ١٩١ وما بعدها .

(٣) سيد قطب ، لمحمد توفيق بركات ، ص٢٨ .

النظر حول الطريقة التي يتبعها الدعاة في العمل للإسلام، فقد حاول سيد قطب – رحمه الله – أن يبين معالم المنهج الحركي نظرياً وعملياً.

*أما نظرياً: فقد تصدى لبيان معالم المنهج الحركي في كتابيه (معالم في الطريق) و (في ظلال القرآن) [1]. حيث وضح طرق التربية والدعوة، ومنهج العمل الإسلامي وخصائصه ومراحله وعقباته وقد قام بعض الباحثين بدراسة المنهج الحركي عند سيد قطب من خلال كتبه، وبيان خصائصه وخطواته [2].

*وأما عملياً: فيتمثل ذلك في التنظيم الذي أشرف عليه سيد (تنظيم ٦٥) ودفع حياته ثمناً لذلك، والذي حاول فيه تطبيق معالم المنهج الحركي الذي أصّله نظرياً في كتاباته [3].

٦- فضح حقيقة الجاهلية الغربية: وبيان حقيقة الأعداء ووسائلهم في حرب المسلمين حيث اطلع سيد على نتاج الجاهلية الغربية، وعرفها على حقيقتها فدفعه ذلك إلى كشف عوارها وبيان موقفها من الإسلام وفضح

---

(١) ينظر في ذلك : معالم في الطريق ، وفي ظلال القرآن ، ١٢٦/١ ، ٤٣٧ ، ٥٢٦ ،٩٠٧/٢ ، ١٠٨٢ ، ١١٠٥.

(٢) هو الباحث / محمد توفيق بركات في كتابه : سيد قطب : خلاصة حياته ومنهجه في الحركة ، من ص ٢٣-١٧٣ ، وهو بحث نفيس في بابه .

(٣) ينظر قصة تنظيم ٦٥م وأهدافه في ص ٥٩ من هذا البحث .

مؤامراتها ودسائسها ضده، [١].

كما عمل سيد – رحمه الله – بعد عودته من أمريكا على فضح سياسة الغربيين ومواقفهم، وبيان عدائهم للإسلام من خلال كتبه ومقالاته وأحاديثه وتحليلاته، فكتب كتابات عديدة عن الصهيونية، والصليبية، والشيوعية، والرأسمالية، والعلمانية، والديمقراطية، والاستعمار وأساليبه، وفضائح الحضارة الغربية، وغيرها مما سيأتي في بيانه كل في موضعه من هذا البحث –إن شاء الله –.

- هذه هي أهم الجوانب التجديدية عند سيد قطب وجهوده في الدعوة والعمل الإسلامي في الناحية النظرية والعملية.

---

(١) كان لسيد دراسة أعدها عن أمريكا في كتاب بعنوان " أمريكا التي رأيت " حلَّل فيه أوضاع المجتمع الغربي من جميع جوانبه ، لكنه فقد مع جملة ما فقد من كتبه وقد قام الدكتور / صلاح الخالدي ، بجمع مقالات سيد عن أمريكا في كتابه (أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب وهو كتاب نفيس في موضوعه .

المطلب الثانــي

مكانته العلمية وآراء العلماء فيه

الفرع الأول: مكانته العلمية:

يعد سيد قطب – رحمه الله – من أكثر الدعاة المعاصرين إنتاجاً أدبيـاً، حيـث كانـت لكتاباتـه ودراسـاته المنهجيـة والنقديـة أكبـر الأثـر فـي المدارس الأدبية وفي الاتجاهات الجديدة والعميقة في الأدب والنقد والحياة، ثم كان لدراساته الإسلامية المتنوعة وما رافقها من مواقف عملية تطبيقية أثر كبير في مسيرة الحركة الإسلامية المعاصرة، حيث يعد سيد قطب من أبـرز المفكرين والـدعاة المعاصـرين الـذين تركـوا تـأثيراً عميقـاً فـي أوسـاط الصحوة الإسلامية المعاصرة.

وتظهر مكانته العلمية من خلال الآتي:

أولاً: كثـرة مؤلفاتــه وكتبــه: وخاصـة الإسـلامية منهـا إذا مـا قورنـت بـالزمن الـذي عاشـه بعد التزامـه وتوجهـه الإسـلامي، حيـث بلـغ مجموع كتبـه المطبوعـة فـي الدراسـات الإسـلامية (١٧) مؤلفـاً بالإضـافة إلـى (١٣) مؤلفـاً فـي الدراسـات الإسـلامية فقدت ضمن ما فقد من تراثـه[١]. وهذا العدد يعد ضخماً إذا عرفنا أنه قام به خلال ما يقارب خمسة عشر عاماً من حياته

(١) ينظر : مطلب مؤلفاته وكتبه ، في المبحث الثاني ٠

الإسلامية، قضى قرابة ثلاثة عشر عاما منها في السجون.

ثانياً: الاهتمام بكتب سيد قطب ومؤلفاته: ويظهر ذلك الاهتمام من خلال الأتي (١):

أ – اعتمادها كمصادر للثقافة الإسلامية.

ب– اعتمادها كمصادر للمناهج الدعوية والتربوية عند كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة.

ج– نشرها واقتناؤها، رغم محاربة الأنظمة لها ومصادرتها في كثير من الأوقات.

د – ترجمتها إلى اللغات الأخرى، حيث تُرجم كثير من كتب سيد إلى أكثر من عشر لغات غربية وشرقية (٢).

ثالثاً: إعداد الدراسات حول سيد قطب وتراثه: حيث لقي تراث سيد قطب اهتماماً كبيراً في أوساط الباحثين والكتّاب، وأُعدت مجموعة من الأطروحات والبحوث العلمية حوله: أديباً، وناقداً، وشاعراً، ومفكراً وحركياً ومفسراً وداعية ومنها:

١– سيد قطب وتراثه الأدبي والفكري، إبراهيم البليهي، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٧١م (بحث تكميلي).

---

(١) سيد قطب ، للخباص ، ص ٥٤ .

(٢) رائد الفكر الإسلامي ، ليوسف العظم ، ص ٢٠١ .

٢- سيد قطب مع فكره السياسي والاجتماعي، مهدي فضل الله، جامعة السوربون، فرنسا، ١٩٧٦م، (دكتوراه).

٣- العلاقة المجازية في ظلال القران، صلاح محمود شحاتة، الأزهر، ١٩٧٧م، (دكتوراه).

٤- سيد قطب ومنهجه في التفسير، إسماعيل الحاج أمين، الأزهر، ١٩٧٩م، (ماجستير)

٥- سيد قطب، حياته وأدبه، عبد الباقي محمد حسين، دار العلوم، القاهرة، ١٩٨٠م، (ماجستير).

٦- سيد قطب والتصوير الفني، صلاح عبد الفتاح الخالدي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٠٠هـ، (ماجستير). وطبع في كتابين:

(سيد قطب الشهيد الحي) و (نظرية التصوير الفني عند سيد قطب).

٧- سيد قطب الأديب الناقد، احمد محمد البدوي، جامعة الخرطوم، ١٩٨١م، (دكتوراه)

٨- سيد قطب الناقد الأدبي، عبد العزيز بن عبد الله الغدير، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٤٠١هـ، (ماجستير).

٩- سيد قطب الأديب الناقد، عبد الله الخباص،، الجامعة الأردنية، ١٩٨٣م، (ماجستير).

١٠- ظهور داعية إسلامي: التطور الفكري عند سيد قطب، عدنان أيوب

مسلم، جامعة ميتشغان الأمريكية، ١٩٨٣م، (دكتوراه) باللغة الإنجليزية.

١١- عبقري الإسلام سيد قطب في ضوء آثاره وانجازاته الأدبية، سيد بشير كشميري، حيدر أباد، الهند، ١٩٨٧م، (دكتوراه).

١٢- المنهج الفني في النقد عند سيد قطب، محمد أديب إدريس، دار العلوم، القاهرة، ١٩٩٠م، (ماجستير).

١٣- منهج التغيير في فكر سيد قطب، عبد القادر تومي، جامعة الجزائر، ١٩٩٠م، (ماجستير).

١٤- الفكر الحركي عند سيد قطب، عبده عمر شوري، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ١٩٩٠م، (ماجستير).

١٥- في ظلال القران دراسة وتقويم، صلاح الخالدي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٤٠٥هـ، (دكتوراه). وطبع في ثلاثة كتب: (مدخل إلى ظلال القرآن)
و(المنهج الحركي في ظلال القرآن) و (في ظلال القرآن في الميزان).

١٦- سيد قطب من خلال معالم في الطريق، وائل محمد عبد الرحيم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٤٠٥ه، (ماجستير).

١٧- التيار الإسلامي في أدب سيد قطب، حسني علي رضوان، الأزهر، (دكتوراه).

١٨- موقف سيد قطب من العقل والفلسفة، محمد إبراهيم العساف،

الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م، (ماجستير).

١٩- منهج سيد قطب في فهم آيات الدعوة، خير الدين خوجة، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠٠م (ماجستير).

٢٠- منهج سيد قطب في الظلال، (تفسير) أسماء عمر فدعق، جامعة أم القرى، مكة، ١٤١٦هـ، (دكتوراه)

٢١- موارد سيد قطب في كتاب الظلال ومنهجه فيها، جمع ودراسة، حنان قاسم العنزي، جامعة الملك سعود، ١٤٢٤هـ، (ماجستير).

٢٢- سيد قطب فكره وأدبه، سميرة فياض، جامعة مانشستر، بريطانيا، (دكتوراه).

٢٣- الصلة بين العقيدة والحاكمية عند سيد قطب، محمد عبد العزيز الوهيبي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، (بحث تخرج).

٢٤- الشوكاني وسيد قطب والأبعاد الحضارية في حياتهما وتفسيرهما، حسن ناصر سرار، جامعة الخرطوم، ٢٠٠٢م، (دكتوراه).

<u>* كما ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات والكتيبات حول سيد قطب وأفكاره وآرائه منها:</u>

١-سيد قطب، خلاصة حياته ومنهجه في الحركة والنقد الموجه إليه، لمحمد توفيق بركات.

٢- سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي لمحمد علي قطب.

٣- العالم الرباني الشهيد سيد قطب لعشماوي احمد سليمان.

٤- الشهيد سيد قطب، لمجموعة من الكتاب.

٥- رائد الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، ليوسف العظم.

٦- سيد قطب بين العاطفة والموضوعية للمستشار سالم البهنساوي.

٧- أضواء على معالم في الطريق، للمستشار سالم البهنساوي.

٨- سيد قطب من القرية إلى المشنقة، لعادل حمودة.

٩- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، د/ صلاح الخالدي.

١٠- منهج سيد قطب في الدعوة لجمال الدين شبيب.

١١- في ظلال القران، دراسة استشراقية فرنسية، ل. اوليفييه كاريه، ترجمة: محمد عجاج.

١٢- فكر سيد قطب ومنهج التغيير عنده ودفع شبهات عنه، لمحمد أبو صعيليك.

١٣- منهج التغيير عند الشهيدين: حسن البناوسيد قطب، للدكتور/ محمد أبو فارس.

١٤- أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، د/صلاح الخالدي.

١٥- المنظور التاريخي في فكر سيد قطب، د/ عماد الدين خليل.

١٦- المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال، لعبد الله بن محمد الدويش.

١٧-أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، د/ ربيع المدخلي.

١٨- العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم، د/ ربيع المدخلي.

١٩- نظرات في كتاب التصوير الفني لسيد قطب،، د/ ربيع المدخلي

٢٠- فكر سيد قطب بين رأيين، لسعد الحصين.

٢١- حق كلمة الألباني في سيد قطب لعلي حسن عبد الحميد.

٢٢-النهج السوي في تكفير سيد قطب وتابعه فيصل المولوي، لعبد الله الحبشي، زعيم طائفة الأحباش في لبنان.

*** وهناك مجموعة من الكتب التي خدمت مؤلفات سيد قطب منها:**

٢٣- مفتاح كنوز في ظلال القرآن، لمحمد يوسف عباس.

٢٤- تخريج أحاديث (في ظلال القرآن) لعلوي السقاف.

٢٥- دستور الأسرة في ظلال القرآن، جمع: أحمد فائز.

٢٦- اليوم الأخر في ظلال القرآن، جمع: أحمد فائز.

٢٧- طريق الدعوة في ظلال القرآن، جمع: أحمد فائز.

٢٨- قصص الرحمن في ظلال القرآن جمع: أحمد فائز.

٢٩- ديوان سيد قطب، جمع عبد الباقي محمد حسين.

هذا ما اطلعت عليه من الدراسات والبحوث والكتب التي تناولت سيد قطب –رحمه الله – ومؤلفاته وأراءه وأفكاره، وهناك عدد كبير من المقالات والمباحث والفصول في بطون كثير من الكتب حول سيد قطب وتراثه يطول بنا الأمر لو استعرضناها بالإضافة إلى بعض المواد الإعلامية التي تم بثها في قنوات عدة وعلى شبكة الانترنت.

<u>**والملاحظ:**</u> أن أفكار سيد قطب وآراءه أثارت جدلاً واسعاً – ولا تزال – في الأوساط الإسلامية وغير الإسلامية رغم مرور أكثر من أربعين عاماً على استشهاده، وهذا مظهر من مظاهر قوة أفكاره وحيويتها لأنها لم تمت بموته، بل كان حالها كما قال هو: " انه ليس كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها، وتجمعها وتدفعها، إنها الكلمات التي تقطر دماء لأنها تقتات قلب إنسان حي، كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان، أما الكلمات التي ولدت في الأفواه، وقذفت بها الألسنة، ولم تتصل بذلك النبع الإلهي فقد ولدت ميتة، ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الأمام، إن أحداً لن يتبناها، لأنها ولدت ميتة والناس لا يتبنون الأموات، إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئا كثيراً، ولكن بشرطٍ واحدٍ: أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم، أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق، ويقدموا دماءهم فداءً لكلمة الحق، إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدةً، حتى إذا متنا في سبيلها أو غذيناها بالدماء، انتفضت حية، وعاشت بين الأحياء، فإلى الذين يجلسون إلى مكاتبهم، ويكدون قرائحهم لينتقوا اللفظ الأنيق، وينمقوا العبارة الرنانة، ويلفقوا الأخيلة البراقة، إلى هؤلاء أتوجه بالنصيحة: وفروا عليكم كل هذا العناء، فان ومضة الروح، وإشراق القلب، بالنار المقدسة، نار الإيمان بالفكرة.. هو وحده سبب الحياة، حياة الكلمات وحياة العبارات.... إنه لا بد من عقيدة، وقوة الكلمة إنما تنبع من أنها

ترجمان العقيدة، والعقيدة هي التي يغذيها الناس بحياتهم فتوهب لهم الحياة " (١).

الفرع الثاني: أقوال العلماء في سيد قطب:

تختلف وجهات نظر الناس عند تقييمهم لغيرهم بناءً على مواقفهم منهم ومن أفكارهم، بين مادحٍ وذامٍ، ومنصفٍ وغالٍ، وبالتالي فمهما بلغت منزلة الشخص فلا يبعد أن تجد فيه قولاً قادحاً صادراً عن بعض الناس بدافع الخصومة أو العصبية أو الحسد أو سوء الفهم أو التحامل وعدم الإنصاف أو غير ذلك.

لكن العبرة بالجمهور وبالمنصفين من أهل العلم والدعوة، الذين يحكمون على الأشخاص من خلال البحث والتدقيق في أحوالهم وسيرتهم وعلمهم وعملهم بعين مجردة عن الهوى أو التعصب.

وسيد قطب – رحمه الله – أحد الأشخاص الذين نجد أقوالاً طيبة في مدحه والثناء عليه مع نقد ما عنده من الخطأ من عدد كبير من العلماء والدعاة، كما نجد من ناحية أخرى بعض الأقوال في ذمه والطعن فيه، بل تبديعه وتفسيقه وتكفيره.!!

وقبل أن أعرض أقوال الفريقين في سيد قطب – رحمه الله – لا بد من التنبيه على أمور منها:

---

(١) دراسات إسلامية، سيد قطب ، ص ١٣٨-١٤٠.

الأول: عند الحديث عن العلماء أو الدعاة والحكم عليهم بالجرح أو التعديل لابد من مراعاة بعض القواعد ومنها: [١].

١- التجرد من الهوى والتحامل المجحف، والأحكام المسبقة ضده أو معه، وعدم محاكمته إلى صورة معينة في ذهن الناقد أو الباحث فإن ذلك مما ينافي الإنصاف والعدل.

٢- النظر إلى مجموع المراحل التي مر بها الشخص، والتفريق بين مراحل ما قبل الالتزام و مراحل ما بعد الالتزام، واعتماد ما كان عليه آخر حياته فالعبرة بالخواتيم، فمن الظلم كل الظلم أن نحكم على إنسانٍ من خلال حياته المنحرفة التي تاب منها، ونغض الطرف عما بعدها من التوبة والاستقامة والالتزام، وبالعكس فإن العبرة بالخواتيم.

٣- مراعاة الظروف والأجواء والملابسات المحيطة بحياة الشخص، وخاصة لحظة وقوعه في الخطأ فذلك يعيننا على فهم مراده وقصده مما أخطأ فيه، والدافع الذي حمله على الوقوع في ذلك الخطأ، وان كان هذا لا يمنع من تخطئته، إلا أنه يمنع من تكفيره وتفسيقه وتضليله.

٤- ردَّ الموهم من أقواله إلى الواضح والصريح منها، والحكم

---

(١) تنظر هذه القواعد في: سيد قطب ما له وما عليه لعبد المنعم مصطفى حليمة موقع (www.abubaseer.com) ، وسيد قطب ، د / صلاح الخالدي ، ص٥٧٤. (سلسلة من أعلام المسلمين).

على أفكاره من خلال كلامه الصريح الواضح وليس الموهم. فما من عالمٍ إلا وله عبارات موهمة حمّالة أوجهاً، لو أخذت بمفردها، وحوكم على أساسها لظلم وفهم خطأً وربما ضلل أو كُفر، ولكن عندما يجمع كلامه في الموضوع ويرد المبهم إلى الواضح فإن الصورة تتضح أكثر، ويكون الحكم أقرب إلى العدل والإنصاف.

٥- النظر إلى مجموع حسنات العالم ومواقفه وأحواله، وأيضاً مجموع سيئاته وأخطائه وبيان الغالب وكذا معرفة درجة الخطأ وحجمه، وذلك لأن الأخطاء التي يقع فيها الناس على ثلاثة أقسام [١]:

أ - خطأ في الباعث والمقصد: وهذا خطأ منهجي ينصب على أساس العمل العلمي والباعث عليه، وهذا النوع يلغي العمل ويقضي على ما فيه من صواب جزئي لأن الباحث سيء النية وخبيث المقصد، ويمثل هذا النوع أعمال المستشرقين والعلمانيين الذين يدرسون الإسلام، ويوجد في دراساتهم بعض الصواب وبجانبه ركام من التشويه والتحريف والباطل.

ب - خطأ في المنهج والخطة مع سلامة القصد والنية: حيث تكون النية حسنة، والمقصد هو خدمة الإسلام لكن يستعمل منهجاً خاطئاً فيؤدي ذلك إلى الوقوع في الأخطاء الجسيمة وينتج عنها ركام من الباطل والضلال، مع وجود صواب في بعض الجزئيات، ويمثل هذا

---

(١) سيد قطب ، د /الخالدي ، ص ٥٦٧- ٥٧٠ ، بتصرف .

النوع من الخطأ أعمال ودراسات رجال الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة كالمعتزلة والخوارج والمرجئة، حيث اتبعوا منهجاً خاطئاً فقادهم إلى الخطأ، فهولاء تترك نواياهم لله عز وجل، مع الحذر من الخطاء الذي وقعوا فيه لمخالفته منهج السلف.

ج - خطأ في بعض خطوات الطريق مع سلامة المقصد وصواب المنهج: و ذلك مثل كتابات العلماء الذين يتصفون بسلامة المقصد وحسن النية وخدمة الإسلام، وكان منهجهم صحيحاً فقادهم إلى الصواب في الغالب، ولكن لأنهم غير معصومين كان وقوع الخطأ منهم في بعض القضايا والآراء والعبارات أمراً طبيعياً، وخير ما يمثل هذا النوع من الخطأ أخطاء علماء أهل السنة والجماعة في سائر فنون العلم، وهي أخطاء تنتقد، ويرد عليهم فيها ولا يتابعون عليها، مع الاعتذار لهم والاستفادة من الحق الذي عندهم وهو كثير.

الثاني: عند الحكم على سيد قطب لا بد بناءً على ما سبق من مراعاة الآتي:

١- التجرد من الهوى وترك التعصب له أو عليه، والنظر في أقوال المحبين والمبغضين وأخذ ما نعتقد أنه حق و صواب، وبهذا يمكن أن نعرف الرجل على حقيقته، وأن ننتفع بما عنده من الصواب ونترك ما عنده من الخطأ.

٢- معرفة المراحل التي مر بها سيد قطب في حياته، والنظر

في ملامح كل مرحلة منها، فلو أراد الإنسان أن يحكم على سيد من خلال كتاباته في مرحلة ما قبل الالتزام التي أنهاها بكتابه (التصوير الفني في القرآن) لخرج بطامات لا يستهان بها، ولو أردنا الحكم عليه أيضاً من خلال كتاباته في مرحلة بداية التحول للإسلام والتي تجرأ فيها على الكتابة في مسائل لم يسبق إليها وقبل أن يتمكن من علوم الإسلام والتي يمثلها كتابه (العدالة الاجتماعية) لجانبنا الصواب، وخاصة أن سيداً كما نقل عنه تخلى عن كثير مما كتبه فيها، بل وعدَّل بعض الأخطاء التي روجع فيها.

والصواب أن ننظر في تلك المراحل مع ما لحقها من مرحلة النضج والالتزام والبلاء في الإسلام ونحكم عليه من خلال ما كتبه في حياته الجادة، والتي تعتبر ناسخة لما قبلها ويمثلها الظلال والمعالم والخصائص والمقومات وغيرها.

٣- النظر إلى جميع جوانب سيد قطب: الإبداعية العلمية والمواقف الدعوية والجهادية وما تعرض له من بلاء وتعذيب بسبب صدعه بالحق، وثباته على الدعوة حتى مات، وكان بإمكانه أن يريح نفسه من هذا العناء بكلمة اعتذار للطاغوت، لكنه أبى إلا أن يكون موقفه مصدقاً لدعوته وما سطرته يده من معالم للدعوة، في حين أن بعض الدعاة يكتبون كتابات جيدة ومنمقة، لكن لا يواكبها مواقف عملية ترقى بصاحبها إلى مستوى الكلمات التي خطها في كتبه، بل ربما كانت

مواقفهم العملية تكذبها!!.

٤- أن سيد قطب – رحمه الله – قبل أن يلتزم بالإسلام كان أديباً حاذقاً.. اشتغل بالأدب وفنونه، تأليفاً وتدريساً حتى فاق فحول الأدب والبلاغة في زمانه – وهذا مما لا شك فيه – قد أثر على أسلوبه عندما كتب عن الإسلام في مراحله المتأخرة، لذا يجد القارئ أحياناً بعض العبارات والإطلاقات المشكلة على الأفهام يغلب عليها الطابع الأدبي البياني، والتي ينبغي النظر إليها في ضوء العبارات الواضحة الصريحة في نفس المسألة.

٥- ضرورة جمع كلام سيد في المسألة من مواضعه المختلفة، والنظر فيه مجتمعاً للتعرف على حقيقة رأيه فيها، وذلك لأن أي كاتب ربما تكلم عن المسألة الواحدة في أكثر من كتاب أو موضع، وربما كان له رأيٌ متأخرٌ مخالفٌ للمتقدم، وربما صرح بتغيير موقفه وتراجع عن خطئه في مكان آخر، وهذا هو الإنصاف المطلوب علمياً.

فالباحث المنصف يفهم كلام الشخص بحسب ما تقتضيه نصوصه الأخرى، فيرد بعضها إلى بعض ويفسر بعضها ببعض، ولا يتمسك بكلمة يضع لها أقواساً ثم يعقد لها محكمة، وقد يخطئ المرء في اللفظ وهو يريد معنىً صحيحاً، كما وقع للذي قال: " اللهم أنت عبدي

وأنا ربك"(١). يريد أنت ربي وأنا عبدك، وما كفر بذلك ولا أثم بل لعله كان مأجوراً مثاباً (٢) .

ومع ذلك يجب الاعتراف بأن سيد قطب – رحمه الله – وقع في أخطاء في باب العقيدة وغيرها، ومع ندرتها فهذا طبع البشر المجبولين على الخطأ والكمال عزيز، ومع هذا لا بد من بيان وجه الخطأ فيها وبيان الصواب أيضاً، ولا يتابع فيما أخطأ فيه.

*** أقوال العلماء والدعاة في سيد قطب:**

حديثنا هنا عن أراء العلماء والدعاة أصحاب التوجهات الإسلامية، أما العلمانيون وأعداء الإسلام من القوميين والشيوعيين والمستشرقين والغربيين عموما، فهؤلاء لا حجة في كلامهم لأنهم تولوا مهاجمة فكر سيد قطب من منطلق مهاجمة الإسلام نفسه، ومحاربة جنوده ورجاله، وموقف هؤلاء لا يستغرب، لأن حربهم لهذا الدين دعتهم إلى حرب كل من يدعو إليه ويقارعهم ويفضح مخططاتهم العدائية، ويعتبر سيد أبرز من دعا إلى مواجهة الجاهلية المعاصرة وفضح مخططاتها، ويتركز نقد غير الإسلاميين لسيد حول: قضايا الحاكمية والعزلة والجهاد ودار الحرب،

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم ، في باب الحض على التوبة ، انظر : صحيح مسلم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٦هـ ، ٤/ ١٦٧٢ برقم ٢٧٤٧ .

(٢) من كلام الشيخ / سلمان العودة في فتوى له عن سيد قطب ، وستأتي.

ونظرته إلى الأنظمة والحضارة الغربية والتعامل معها ونحوها من القضايا (١)

وباستقراء أراء العلماء والدعاة الإسلاميين حول سيد قطب –رحمه الله– نجد أنهم فئتان:

الفئة الأولى: العلماء والدعاة المنصفون: وهم الذين تعاملوا مع فكر سيد وكتبه بمنهجية وموضوعية حيث بينوا المسائل التي اخطأ فيها ولم يوفق للصواب، وردوا عليها بموضوعية وتجرد، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الإنصاف والثناء عليه فيما أصاب فيه والاستفادة منه.

وهم على قسمين:

الأول: الذين قرأوا كتبه واطلعوا عليها فجاء كلامهم بناء على نظرة تكاملية وليست جزئية.

الثاني: الذين جاء كلامهم فيه بناءً على سؤال قدم لهم بطريقة معينة قُصِدَ منها استخراج حكمٍ معينٍ منهم في سيد، لهذا رأيت أن أعرض كلام العلماء حسب السياق الذي جاء به حتى تتضح الصور:

١– الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن باز – رحمه الله –:

(٢)، والشيخ لم يكن على اطلاع واسع على كتب سيد قطب – رحمه الله

---

(١) ويمثل هذا الاتجاه : د / نصر أبو زيد ، وحسن عشماوي و د / حسن حنفي ، ومحمد حسين هيكل، وغيرهم

(٢) هو : الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، أحد العلماء البارزين في هذا العصر ، كان فقيها ورعا ، ومحدثا زاهدا ، ولد سنة ١٣٣٠هـ ، في لرياض ، وحفظ القرآن قبل البلوغ ، وفقد بصره عام ١٣٥٠هـ

- وإنما جاء كلامه فيه بناءً على أسئلة محددة وجهت إليه عن بعض أخطاء سيد وهي:

أ - سئل رحمه الله - عن تفسير سيد قطب من ناحية العقيدة وخاصة سورة الإخلاص والمجادلة وبالذات قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)} [سورة المجادلة:٧]. فقال- رحمه الله -: " ما قرأت تفسير سيد قطب، بينما قرأت شيئاً منه، والتفسير عظيم مفيد، ولكنه لا يخلو من أخطاء ومن أغلاط، ولكني لا أذكر الآن شيئاً يتعلق بما سألت عنه يحتاج إلى مراجعة " (١).

ب - سئل- رحمه الله- عن قول سيد في الاستواء: " إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق" (٢). فقال: " هذا كلام فاسد، هذا معناه الهيمنة، ما أثبت الاستواء، معناه إنكار الاستواء المعروف وهو العلو على العرش، وهذا باطل

،وبرز في علوم الشريعة واللغة ، تولى القضاء ،ثم رئاسة الجامعة الإسلامية ثم رئاسة إدارة الإفتاء والدعوة والإرشاد، توفي عام ١٤٢٠ هـ ،انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع عبد الرحمن النجدي ،ط٦ ،عام ١٤١٩هـ ،٤٨٤/١٦ .

(١) موقع الإسلام الذهبي - أقوال العلماء في الجماعات .

(٢) في ظلال القرآن ، ٤ / ٢٣٢٨ ، ٦/ ٣٤٠٨.

يدل على أنه مسكين ضايع في التفسير" (١).

ج – قرئ عليه كلام سيد قطب – رحمه الله – في التصوير الفني عن سيدنا موسى عليه السلام فقال: " الاستهزاء بالأنبياء ردة مستقلة " (٢).

د – قرئ عليه كلام سيد في معاوية وعمرو بن العاص (٣). – رضي الله عنهما – من كتاب " كتب وشخصيات" فقال: " كلام قبيح، سبّ لمعاوية وسب لعمرو بن العاص، فالله يعفو عنهم. وقوله خطأ وغلط ولا يكون كفراً فإن سبه لبعض الصحابة أو واحد من الصحابة منكر وفسق يستحق أن يؤدب عليه، لكن إذا سب الأكثر أو فسَّقهم يرتد لأنهم حملة الشرع وسبهم قدح في الشرع، ثم سُئِل الشيخ – رحمه الله– ألا ينهى عن هذه الكتب التي فيها هذا الكلام. فقال: ينبغي أن تحرق. ثم سألهم الشيخ: في جريدة؟ قالوا: في كتاب. فقال: لمن؟ قالوا لسيد قطب، فقال الشيخ، هذا كلام قبيح " (٤).

٢– الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني – رحمه الله –: (٥).

---

(١) من شريط لسماحته ، درس في منزله عام ١٤١٣، تسجيلات منهاج السنة – الرياض .

(٢) المصدر السابق .

(٣) هو : عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، أمير مصر وفاتحها ،أسلم قبل الفتح وأمَّره الرسولﷺ والخلفاء من بعده وكان من الدواهي والعقلاء توفي سنة ٣٤ هـ أنظر : الإصابة لابن حجر ٣٠٢/٣ .

(٤) شريط لسماحته، درس في شرح رياض الصالحين بتاريخ ١٨/ ٧ / ١٤١٦هـ.

(٥) هو : الإمام محمد ناصر الدين بن نوح الألباني ، ولد في ألبانيا، وتعلم في اسلامبول، ورحل إلى دمشق، يعتبر احد أعلام المسلمين المعاصرين في الحديث، له مؤلفات كثيرة، توفي سنة ١٤٢١ هـ، انظر : علماء ومفكرون عرفتهم ، محمد المجذوب، ٢٨٧/١ .

ويعتبر الشيخ الألباني من أكثر العلماء الذين يستدل الطاعنون بكلامهم في سيد قطب، وعند تتبع كلام الشيخ الألباني-رحمه الله - في سيد نجد ما يلي:

أ - في بعض كتبه يثني على سيد قطب، ويستدل بكلامه على صيغة المدح والتأييد، ففي مقدمة كتابه " مختصر العلو " بعد أن انتقد موقف بعض الدعاة والجماعات في دعوتهم إلى جمع الناس دون اهتمام بأمر العقيدة وتصفيتها يقول: " فها هو الأستاذ الكبير - سيد قطب - رحمه الله - بعد أن قرر تحت عنوان: " جيل قراني فريد " أن هذه الدعوة أخرجت جيلاً مميزاً في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه، وأنها لم تعد تخرج من ذلك الطراز مرة أخرى، تساءل عن السبب مع أن قرآن هذه الدعوة لايزال، وحديث الرسول وهديه العملي وسيرته الكريمة كلها بين أيدينا.... ثم أشار إلى أسباب ذلك ومنها: اختلاف النبع الذي يتلقى منه... ثم نقل الشيخ الألباني كلام سيد حول الجاهلية المعاصرة وطريقة مواجهتها في ثلاث صفحات. " (١).

ب - مدحه لسيد في أثناء نقده بعض الأخطاء التي وقع فيها سيد - رحمه الله -:

١- سئل - رحمه الله -: " هل يُرَدّ على سيد قطب؟ فقال: نعم.

---

(١) مختصر العلو للعلي الغفار ، للشيخ الألباني ،المكتب الإسلامي ،بيروت ،ط١ ،عام ١٤٠١ هـ ،ص ٦٠-٦٤ .

يُرَدّ عليه ولكن بهدوء وليس بحماس، يُرَدّ عليه هذا واجب، ليس الرد على المخطئ محصوراً بشخص أو أشخاص..، لكن لا يعني هذا أن نعاديه، وننسى أن له شيئاً من الحسنات، يكفي أنه رجل مسلم، والرجل كاتب إسلامي على حسب مفهومه للإسلام.. وأنه قتل في سبيل دعوته للإسلام، والذين قتلوه هم أعداء الإسلام.. ثم ذكر الشيخ مقاطعة الإخوان المسلمين له عندما قال أن سيد قطب يقول بوحدة الوجود ثم قال: " لكن في الوقت نفسه أنا لا أنكر عليه أنه كان مسلماً، وأنه كان غيوراً على الإسلام وعلى الشباب المسلم وأنه يريد إقامة الإسلام ودولة الإسلام... لكن: أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل [(١)].

٢- سئل – رحمه الله – عن منهج سيد قطب وأنه يجّهل الأمة ويكفّرها في بعض كتاباته فقال: " رأينا فيه أنه رجل غير عالم وانتهى الأمر،.. إن كنت تطمع أن نكفره فلستُ من المكفرين.. يكفي المسلم المنصف المتجرد أن يعطي كل ذي حق حقه، قال تعالى: { وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾} [سورة هود:٨٥].{وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾} [سورة الشعراء:١٨٣]... الرجل كاتب ومتحمس

(١) الموقع الذهبي للإسلام على شبكة الانترنت ، مفرغ من شريط للشيخ الألباني . وقد يفهم البعض من قول الشيخ (..وان له شيئاً من الحسنات ويكفي أنه رجل مسلم) التحقير لسيد والتقليل من شأنه ومن جهوده في خدمة الإسلام .ونحن نكل النيات إلى الله .

للإسلام الذي يفهمه، وكتابه " العدالة الاجتماعية " هو من أوائل تأليفه... ولما ألفه كان محض أديب، وليس بعالم، لكن الحقيقة أنه في السجن تطور كثيرا، وكتب بعض الكتابات كأنها بقلم سلفي،.. لكن أنا اعتقد أن السجن يربي بعض النفوس، ويوقظ بعض الضمائر يكفي عنوانه الذي يقول" لا اله إلا الله منهج حياة " أما إذا كان لا يفرق بين توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية فهذا لا يعني أنه لا يفهم توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية

ج – سئل –رحمه الله – هل قلت بأن " معالم في الطريق" هو توحيد بأسلوب عصري؟

فأجاب: أنا أقول إن في هذا الكتاب فصل قيّم جداً: " لا اله إلا الله منهج حياة ".. والرجل ليس عالماً لكن له كلمات عليها نور، عليها علم [(١)] .

د – سأله رجل عن سيد قطب – رحمه الله – فقال: " دعك وسيد قطب، هذا رجل نحن نجله على جهاده، لكنه لا يزيد على كونه كاتباً أديباً.. أخذ يكتب في التوحيد وبعبارات قوية تحيي في قلوب المؤمنين الثقة بدينهم وبإيمانهم، فهو في هذه الناحية جدد دعوة الإسلام في قلوب الشباب، وإن كنا نلمس أن له بعض الكلمات تدل على أنه لم يساعده وقته ليحرر فكره من بعض المسائل التي كان يكتب حولها " [(٢)].

---

(١) شريط بعنوان : (رأي معتدل في سيد قطب ، للشيخ الألباني في ١٨/٩/١٩٩٣م).

(٢) شريط بعنوان : (المنهج الصحيح لاستئناف الحياة الإسلامية ، لشيخ الألباني في ١٤/١١/١٩٩٢م)

فالألباني– رحمه الله– يرى أنه: "لا ينبغي أن ندندن حول كلمات سيد كثيراً، لأن كثيراً من تعابيره إنشائية بلاغية، وليست علمية ولا نتردد باستنكار مثل هذه التعابير، وبنفس الوقت ينتقد الشيخ الذين يأخذون كلامه في نقد سيد فقط أو يأخذون كلامه في مدحه فقط، ويقول: هؤلاء أهل أهواء " [1].

---

(١) شريط بعنوان : (مفاهيم يجب أن تصحح ،للشيخ الألباني).

الشيخ / محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله –: [١]. وحال الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – مع سيد قطب كحال سابقيه الشيخ ابن باز والألباني، حيث كان كلامه عن سيد بناءً على أسئلة أعدت بطريقة معينة يظهر أن السائل كان يقصد من خلالها استخراج حكمٍ معينٍ، مع تصريح الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – في إجاباته بأنه ليس على إطلاع على كتب سيد، ومن أقواله:

أ- سأله شخص: " إننا نعلم الكثير من تجاوزات سيد قطب، لكن الشيء الوحيد الذي لم اسمعه عنه، وقد سمعته من أحد طلبة العلم مؤخراً ولم أقتنع بذلك، فقد قال: إن سيد قطب ممن يقولون بوحدة الوجود وطبعاً هذا كفر صريح، فهل كان سيد قطب ممن يقولون بوحدة الوجود؟

فأجاب – رحمه الله –: " مطالعتي لكتب سيد قطب قليلة، ولا أعلم عن حال الرجل، لكن قد كتب العلماء فيما يتعلق بمؤلفه في التفسير " في ظلال القرآن " ملاحظات مثل ما كتبه الشيخ /عبد الله الدويش [٢] – رحمه الله – وأخونا الشيخ / ربيع المدخلي[١] فمن أحب

---

(١) هو : محمد بن صالح بن عثيمين التميمي ، ولد في عنيزة سنة ١٣٤٧هـ ، وبرز في علوم كثيرة ، عمل مدرساً بالمعهد العلمي وكلية الشريعة بالقصيم ، وكان له نشاط كبير في الدعوة والتأليف ، توفي سنة ١٤٢١هـ ، انظر مقدمة مجموع فتاوى ابن عثيمين ، ص ٣٤ -٦٦ .

(٢) هو : عبد الله بن محمد الدويش ، ولد في الزلفي سنة ١٣٧٣هـ ، وتلقى العلم على يد مجموعة من المشايخ ، وعمل في التدريس ، وله أحد عشر كتابا مطبوعا ، توفي سنة ١٤٠٩هـ ، انظر : تكملة معجم المؤلفين ، لمحمد خير رمضان ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، عام ١٤١٨هـ ، ص٤٠١ .

أن يراجعها فليراجعها "[٢].

ب- سئل -رحمه الله - عن صاحب كتاب" في ظلال القرآن" ومنهجه في التفسير؟ فقال: " إنه كثر الحديث حول هذا الرجل وكتابه، وفي كتب التفسير الأخرى الغنى عن هذا الكتاب، وقد ذكر بعض أهل العلم كالدويش والألباني الملاحظات عليه.. ولم أطلع على هذا الكتاب بكامله، وإنما قرأت تفسيره لسورة الإخلاص، وقد قال قولاً عظيماً - حيث إن تفسيره لها يدل على أنه يقول بوحدة الوجود، وكذا تفسيره للاستواء بأنه الهيمنة والسيطرة، ويجب على طلاب العلم ألا يجعلوا هذا الرجل أو غيره سبباً للخلاف والشقاق بينهم، وأن يكون الولاء والبراء له أو عليه "[٣].

ج- ويقول أيضا: " ولسيد بعض المباحث الجيدة حسب ما نسمع من بعض الإخوان، وفي بعض الأشياء له أخطاء، وقد قال ابن رجب [٤]- رحمه الله -: " يأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه،

---

(١) هو: ربيع بن هادي بن محمد بن عمير المدخلي ، ولد في صامطة عام ١٣٥٩هـ ، ودرس في المعهد العلمي بها ، حصل على الدكتوراه عام ١٤٠٠هـ،يعمل أستاذاً في الجامعة الإسلامية بالمدينة، له عدة مؤلفات ، المصدر : موقع الدكتور المدخلي على شبكة الانترنت .

(٢) في شريط اللقاء المقترح الذي يتم بين الشيخ بن عثيمين وربيع المدخلي بجده .

(٣) مجلة الدعوة ، العدد ١٥٩١ ، بتاريخ ١٤١٨/١/٩هـ .

(٤) هو : عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ، الحنبلي ، فقيه ومحدث وحافظ ،ولد سنة ٧٣٦هـ ،رحل إلى دمشق ومكة ومصر، له عدة مؤلفات ، توفي سنة ٧٩٥هـ ، انظر : شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ب. ت ، ٣٣٩/٦ ، و البدر الطالع، للشوكاني ٢٢٨/١ .

والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه " [١]... وإذا صدر من عالم معروف بالنصح للأمة ما يوهم الحق وما يوهم الباطل، فأحمله على أحسن المحملين، وعندما قاطعه السائل: بأنها مسألة عقيدة!! قال: عقيدة أو غير عقيدة، فالعقيدة كغيرها من حيث أنه قد يقع فيها الخطأ، ثم ضرب أمثلة لاختلاف العلماء في أبدية النار، والصراط، والموزون يوم القيامة، ورؤية النبي ﷺ وعلاقة الروح بالبدن في القبر، ونحو ذلك " [٢].

ومما يلاحظ على كلام الشيخ ابن عثيمين والشيخين ابن باز والألباني قبله:

أ – أنهم جمعياً – رحمهم الله – لم يكونوا على إطلاع على كتب سيد قطب ومؤلفاته إلا نادراً.

ب– أن ما قرأوه عنه أو عرفوه إنما هو بعض مواطن الخطأ التي أُطلِعوا عليها وطلب منهم الحكم على سيد قطب من خلالها.

ج– الاكتفاء منهم بالإحالة إلى كُتب من كَتب عن سيد، دون تحقيق المسائل التي احتوتها هذه الكتب وبيان الصواب والخطأ مما انتقد فيه سيد، وهذا لا يعني أن كل ما ذكر في هذه الكتب صحيح، بل كثير مما ذكر فيها هو على غير حقيقته.

---

(١) القواعد الفقهية ، لابن رجب الحنبلي . دار المعرفة ،بيروت ، ب. ت، ص ٣ .

(٢) من شريط للشيخ بن عثيمين / موقع الإسلام الذهبي ، أقوال العلماء في الجماعات .

د- رغم انتقادهم لسيد في ما أخطأ فيه مما عرض عليهم، إلا أنهم كانوا يثنون عليه ويذكرون حسناته وجهاده في جانب خطئه.

٤- الشيخ / بكر بن عبد الله أبو زيد – رحمه الله -: [١].

جاء كلام الشيخ بكر عن- سيد قطب- في معرض رده على الدكتور/ ربيع المدخلي الذي أرسل له نسخة من كتابه " أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره" لتقريظه والذي أبدى فيه مجموعة من الملاحظات على الكتاب ومنها:

أ – عدم مطابقة عناوين الكتاب لموضوعه، وكونها عناوين استفزازية، جمعت في سيد قطب أصول الكفر والزندقة [٢].

ب – افتقاد الكتاب لأصول البحث العلمي: الحيدة العلمية، وأمانة النقل والعلم وعدم هضم الحق

ج – سوء فهم عبارات سيد الأدبية، وإلزامه بفهم الكاتب.

د – اختلاف خطوط صفحات الكتاب، ونزول أسلوبه مقارنة بأسلوب سيد.

هـ- طغيان أسلوب التهييج، وافتقاد الرد لأدب الحوار، والتهجم والتشنج في العبارات [٣].

---

(١) هو : بكر بن عبد الله أبو زيد القضاعي ، ولد سنة ١٣٦٥هـ وعمل مدرساً بالجامعة الإسلامية وإماماً بالمسجد النبوي وعضواً في هيئة كبار العلماء ولجنة الفتوى ، له قرابة سبعين مؤلفاً في علوم الشريعة ، توفي عام ١٤٢٩هـ ، انظر فتاوى اللجنة الدائمة ١/١٥

(٢) انظر : فهرس كتاب (أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره) ، د / ربيع بن هادي المدخلي ، مكتبة الفرقان ، عجمان ، ط٢ ، عام ٢٠٠١م ، ص٢٤٦.

(٣) الرسالة الذهبية للشيخ / بكر أبو زيد

وتحدث – رحمه الله– بأنه لم يكن له عناية بقراءة كتب سيد قطب، ولكن هول ما ذكره المدخلي دفعه إلى قراءات متعددة في عامة كتب سيد يقول: " لكن هول ما ذكرتم، دفعني إلى قراءات متعددة في عامة كتبه، فوجدت في كتبه خيراً كثيراً، وإيماناً مشرقاً، وحقاً أبلجاً، وتشريحاً فاضحاً لمخططات أعداء الإسلام، على عثرات في سياقاته، واسترسال بعباراته ليته لم يفه بها! وكثير منها ينقضها قوله الحق في مكان آخر، والكمال عزيز... والرجل كان أديباً نقّادة، ثم اتجه إلى خدمة الإسلام من خلال القرآن العظيم، والسنة المشرقة، وسخر قلمه ووقته ودمه في سبيلها، فشرق بها طغاة عصره! وأصر على موقفه في سبيل الله تعالى، وكشف عن سالفته!.. وطلب منه أن يسطر بقلمه كلمات اعتذار، وقال كلمته الإيمانية المشهورة: " إن إصبعاً أرفعه للشهادة، لن أكتب به كلمة تضارها، أو كلمة نحو ذلك! فالواجب على الجميع الدعاء له بالمغفرة! والاستفادة من علمه، وبيان ما تحققنا خطأه فيه، وإن خطأه لا يوجب حرماننا من علمه، ولا هجر كتبه " (١).

---

(١) المصدر السابق

٥- الشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين: [١]..

سئل الشيخ عن من يبدعون سيد قطب وينهون عن قراءة كتبه وكذا حسن البنا فأجاب:

" لا يجوز التبديع والتفسيق للمسلمين، لقول النبي ﷺ: " من قال لأخيه يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه " [٢].. ثم إن سيد قطب وحسن البنا من علماء المسلمين ومن أهل الدعوة، وقد نصر الله بهما وهدى بدعوتهما خلقاً كثيراً، ولهما جهود لا تنكر، ولأجل ذلك شفع الشيخ/عبد العزيز بن باز في سيد قطب عندما قرر عليه القتل وتلطف في الشفاعة فلم يقبل شفاعته الرئيس جمال – عليه من الله ما يستحق – ولما قتل كل منهما أطلق على كل واحد أنه شهيد لأنه قتل ظلماً، وشهد بذلك الخاص والعام ونشر ذلك في الصحف والكتب بدون إنكار، ثم تلقى العلماء كتبهما، ونفع الله بهما ولم يطعن أحد فيهما منذ أكثر من عشرين عاماً.. وقد قرأت ما كتبه الشيخ / ربيع المدخلي في الرد على سيد ورأيته جعل العناوين لما ليس بحقيقته، فرد عليه الشيخ / بكر أبو زيد – حفظه

---

(١) هو: عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين ، ولد في القويعية عام ١٣٥٢هـ ، وتلقى العلم على يد مجموعة من المشايخ ، حصل على الدكتوراه عام ١٤٠٧هـ ، عمل مدرساً وخطيباً وعضواً في الإفتاء ، انظر : موقع ابن جبرين على الانترنت .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم بلفظ (ومن دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه) انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان ١/ ٧٩ برقم ٦١ ، وأحمد ١٦٦/٥،برقم ٢١٤٦٥، انظر : مسند الإمام أحمد ، بتحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٢٠هـ ٣٥/ ٣٦٩ .

الله – وعـين الرضـا عـن كـل عيـب كليلـة ولكـن عـين السـخط تبـدي المساويا(١).

٦- الشيخ / عبد الله بن حسن بن قعود – رحمه الله –(٢):

نُقِل للشيخ أن أحد تلاميذه قال: " معالم في الطريق كتاب ملعون " فكتب إليه نصيحة يقول له: " نقل لي غير واحد عنك في اجتماع أخيار – نحسبهم كذلك – قولك في كتاب " معالم في الطريق ": " هذا كتاب ملعون ".. سبحان الله!! كتاب أخذ صاحبه ثمنه قتلاً –نحسبه في سبيل الله– بدافع من الروس الشيوعيين لجمال كما يعرف ذلك المعاصرون للقضية، وقامت بتوزيع هذا الكتاب جهات عديدة في المملكة، وخلال سنوات عديدة، وأهل هذه الجهات أهل علم ودعوة إلى الله وكثير منهم مشايخ لمشايخك، وما سمعنا حوله منهم ما يستوجب ما قلته، لكنك – والله أعلم – لم تمعن النظر فيه قبل أن تغضب، وخاصة الموضوعات: جيل قرآني فريد، الجهاد، لا إله إلا الله منهج حياة، جنسية المسلم عقيدته، الاستعلاء بالإيمان، هذا هو الطريق.. وغيرها مما تلتقي معانيه في الجملة مع ما ندين الله به، فكيف بك إذا وقفت بين يدي الله، وحاجك هذا الشخص الذي وصفته الإذاعة

---

(١) فتوى للشيخ / عبد الله بن جبرين ، الموقع الذهبي للإسلام على الانترنت ، أقوال العلماء في الجماعات ، بتصرف يسير .

(٢) هو: عبد الله بن حسن بن محمد آل قعود، ولد عام ١٣٤٣هـ ، تعلم على يد ابن باز وغيره ، تخرج من كلية الشريعة ، وعمل مدرسا بالمعاهد وعضوا في اللجنة الدائمة وهيئة كبار العلماء ، توفي سنة ١٤٢٦هـ ، انظر : فتاوى اللجنة الدائمة ١/٧-١١ .

السعودية، خلال سنوات متوالية بشهيد الإسلام، أو قال لك أحد تلامذتك أو زملائك: هذه الجملة " ملعون " إما إخبارية؟ أو دُعائية، فكيف تجيب من حملها على الإخبارية عن علم الغيب؟! " [١].

٧- الشيخ / حمود بن عقلاء الشعيبي – رحمه الله – [٢]:

يقول – رحمه الله –: ".. فإن المفكر الأديب سيد قطب له أعداء كثيرون، يختلفون في كيفية النقد وأهدافه والغايات منه، ويتفقون في مصالح مشتركة، وقبل أن أكشف بطلان مقالة الجراحين، والمطاعن الموجهة إلى سيد – رحمه الله – أبين أولاً لماذا يستهدف سيد قطب خاصة؟ ومن المستفيد من إسقاطه؟

إن سيد قطب – رحمه الله – يعد في عصره علماً من أعلام أصحاب منهج مقارعة الظالمين والكفر بهم، ومن أفذاذ الدعاة إلى تعبيد الناس لربهم، والدعوة إلى توحيد التحاكم إلى الله فلم يقض إلا مضاجع أعداء الله ورسوله كجمال عبد الناصر وأمثاله.. وما فرح أحد بقتله كما فرح

---

(١) مجموع رسائل ومقالات الشيخ عبد الله بن قعود ،جمع : عبد الله آل مهنا ، دار طيبة الخضراء ، مكة ، ط٢، عام ١٤٢٧ هـ ، ص ٢٦٥ .

(٢) هو: حمود بن عبد الله بن عقلاء الشعيبي الخالدي ، ولد في القصيم عام ١٣٤٦هـ وفقد بصره وعمره ست سنوات ، طلب العلم على مجموعة من المشايخ كابن باز والشنقيطي ، وتخرج من كلية الشريعة ،كان قوياً في قول كلمة الحق ، وله جهود كبيرة في الدعوة إلى الله ، والتأليف ، توفي يوم الجمعة ١٤٢٢/١١/١٤هـ، انظر : ترجمته في : موقع الشيخ العقلاء على الإنترنت .

أولئك، ولقد ضاق أولئك الأذناب بهذا البطل ذرعاً، فلما ظنوا أنهم قد قتلوه إذا بدمه يحيى منهجه ويشعل كلماته حماساً، فزاد قبوله بين المسلمين، وزاد انتشار كتبه، لأنه دلل بصدقه وإقدامه على قوة منهجه، فسعوا إلى إعادة الطعن فيه رغبة منهم لقتل منهجه أيضاً، وأنى لهم ذلك؟ فاستهداف سيد قطب – رحمه الله – لم يكن استهدافاً مجرداً لشخصه، فهو ليس الوحيد من العلماء الذي وجدت له العثرات، فعنده أخطاء لا ننكرها، ولكن الطعن فيه ليس لإسقاطه هو بذاته فقد قام إلى ربه ونسأل الله له الشهادة ولكن الذي لا زال يقلق أعداءه وأتباعهم هو منهجه الذي يخشون أن ينتشر بين الناس، وإني إذ أسمع الطعن في سيد قطب –رحمه الله– لا استغرب ذلك لقوله تعالى: چ ۋ ۋ ۍ ۍ ې چ (1). فكل من معه نور من النبوة أيضاً له أعداء من أهل الباطل بقدر ما معه من ميراث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فماذا يضير سيداً طعن الطاعنين، بل هو رفعة له، وزيادة في حسناته، ولكن الذي يثير الاستغراب هو فعل أولئك الذي يدعون إتباع الحق، ومع ذلك ينقصون الميزان، ولا يزنون بالقسطاس المستقيم، والله تعالى يقول: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾} [سورة المطففين:١–٣] ؛ فأولئك إذا أرادوا مدح أحد عليه من المآخذ ما يفوق سيداً بأضعاف، قالوا كلمتهم المشهورة " تغمس

(1) سورة الفرقان ، آية ٣١ .

أخطاؤه في بحر حسناته "، وقالوا: " إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث " [١]. وغير ذلك، وإذا أرادوا ذم آخر كسيد – رحمه الله – الذي يعد مجدداً في باب " إن الحكم إلا لله " سلكوا معه طريق الخوارج وكفروه بالمعاصي والزلات.

وسيد قطب – رحمه الله – لا ندعي له العصمة من الخطأ، بل نقول: إن لـه أخطـاء لـيس هـذا مجـال تفصـيلها ولكنهـا لا تخـل بأصـل دعوتـه ومنهجـه، كمـا أن عند غيره من الأخطاء التي لم تقدح في منزلتهم وعلى سـبيل المثـال: ابـن حجـر [٢] والنـووي [٣]، وابـن الجـوزي [٤]، وابـن حـزم

---

(١) رواه الترمذي في الطهارة ، انظر : سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب.ت ، ١/ ٩٧ برقم ٦٧ ، والنسائي في الطهارة ، انظر : سنن النسائي ، دار المعرفة ، بيروت ، ب. ت ٥٠/١ برقم ٥٢ ، وأبو داود برقم ٦٣ ، وصححه الألباني ، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني ، مكتبة المعارف الرياض ، ط٢ ، ١٤٢١هـ ، ٢٨/١ .

(٢) هو : الحافظ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، أبو الفضل، محدث وأديب ومؤرخ، ولد بمصر سنة٧٧٣هـ ، له مصنفات كثيرة منها : فتح الباري والإصابة وغيرها، توفي سنة ٨٥٢هـ ،انظر :الضوء اللامع للسخاوي ٣٦/١ والبدر الطالع للشوكاني ٨٧/١ ،والأعلام للزركلي ١٧٨/١٠ ومعجم المؤلفين ٢٠/٢ .

(٣) هو : الإمام يحي بن شرف بن مري النووي، أبو زكريا ،ولد بنوى من حوران سنة ٦٣١هـ ،وقدم إلى دمشق كان فقيها ومحدثا ولغويا ، من مؤلفاته : شرح مسلم وروضة الطالبين وغيرها ، توفي سنة ٦٧٦هـ :انظر شذرات الذهب ٣٥٤/٥ ، ومعجم المؤلفين ٢٠/٢ .

(٤) هو : عبد الرحمن بن علي بن محمد البغدادي ،أبو الفرج ،المعروف بابن الجوزي، محدث وحافظ ومفسر وفقيه وواعظ ،من مؤلفاته : المنتظم وجامع المسانيد وغيرها ، توفي سنة ٥٩٧هـ ، انظر : تذكرة الحفاظ ١٣١/٤ ومعجم المؤلفين ١٧٥/٥ .

فهؤلاء لهم أخطاء في العقيدة، إلا أن أخطاءهم لم تجعل أحداً من أبناء الأمة ولا أعلامها يمتنع من الاستفادة منهم أو يهضمهم حقهم، وينكر فضائلهم، فهم أئمة إلا فيما أخطأوا فيه، وكذا الحال مع سيد – رحمه الله – فأخطاؤه لم تقدح في أصل منهجه ودعوته لتوحيد الحاكمية، وتعبيد الناس لربهم.. فكل من حقق ما يجب تحقيقهُ من أصل الدين، ينظر بعد ذلك في سائر منهجه فإن كان خطؤه أكثر من صوابه، وشره يغلب نفعه، فإنه يهمل قوله وتطوى كتبه ولا تروى، وعلى ذلك فالقول الفصل في سيد – رحمه الله – أن أخطاءه مغمورة في جانب فضائله، ودفاعه عن " لا إله إلا الله " ولاسيما أنه حقق أصول المعتقد الصحيح، وإن كان عليه بعض المآخذ وعبارات أطلقها لا نوافقه عليها – رحمه الله –.

<u>وختاماً</u>: لا يسعني إلا أن أذكر أنني أحسب سيداً – والله حسيبه – يشمله قوله ﷺ: " سيد الشهداء حمزة ورجل قام عند سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله " [٢].. وأنقل كلمة له – رحمه الله– قبل إعدامه بقليل عندما

---

(١) هو : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، الفارسي القرطبي، كان فقيها حافظا متكلما ،من مؤلفاته : المحلى والفصل في الملل ، توفي سنة ٤٥٧هـ ، انظر: سير الأعلام ٨٤/١٨ وشذرات الذهب ٢٩٩/٣ .

(٢) أخرجه الحاكم ، وقال صحيح الإسناد ، انظر : المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت، ١٩٥/٣ ،برقم ٢٥١٠ ، والطبراني في الأوسط برقم ٤٢٢٧ ، وصححه الألباني سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ، دار المعارف ،الرياض ،ط ١ ، عام ١٤١٥هـ ، ٧١٦/١ .

أُعجب أحد الضباط بفرح سيد قطب وسعادته عند سماعه نبأ الحكم عليه بالإعدام"الشهادة " وتعجب لأنه لم يحزن ويكتئب وينهار ويحبط فسأله قائلاً: أنت تعتقد أنك ستكون شهيداً؟ فما معنى شهيد عندك؟ فأجاب – رحمه الله – قائلاً: " الشهيد هو الذي يقدم شهادة من روحه ودمه أن دين الله أغلى عنده من حياته، ولذلك يبذل روحه وحياته فداء لدين الله "، وله – رحمه الله – من المواقف والأقوال التي لا يشك عارف بالحق أنها صادرة عن قلب قد ملئ بحب الله ورسوله ﷺ وحب التضحية لدينه، نسأل الله أن يرحمنا ويعفو عنا وإياه (١).

٨- الشيخ /عبد العزيز آل الشيخ: (٢)

سئل – حفظه الله – عن الفرق بين أحدية الوجود في تفسير الظلال، وبين فكرة وحدة الوجود الضالة فأجاب: بأن تفسير سيد قطب – في ظلال القرآن – ليس كتاب تفسير، ولكنه قال: تحت ظلال القرآن، يعني كأنه يقول للمسلمين هذا القرآن نظام الأمة تعيش في ظلاله، استقوا من آدابه، وانهلوا من معينه الصافي، واقبلوا بقلوبكم على القرآن لتجدوا فيه علاج مشاكلكم، وحل قضاياكم، وتفريج همومكم إلى آخره، والكتاب له

---

(١) موقع الشيخ حمود العقلاء على الانترنت ٠ .

(٢) هو : عبد العزيز بن محمد آل الشيخ ، ولد في الرياض سنة ١٣٦٢هـ ، وفقد بصره في شبابه درس في كلية الشريعة ، وعمل مدرسا وعضوا في الإفتاء ، وهو الآن في منصب المفتي العام في السعودية، انظر : فتاوى اللجنة الدائمة ١٣/١ ٠

أسلوب عالٍ في السياق،.. هذا الأسلوب الذي كتب به السيد كتابه قد يظن بعض الناس بادئ بدء من بعض العبارات أن فيها شركاً، أو أن فيها قدحاً في الأنبياء... ولو أعاد النظر في العبارة لوجدها أسلوباً أدبياً راقياً عالياً، لكن لا يفهم هذا الأسلوب إلا من تمرس في قراءة كتابه، والكتاب لا يخلو من ملاحظات كغيره.. لكن في الجملة أن الكاتب كتبه من منطلق غيرة وحمية للإسلام، والرجل صاحب تربية وعلوم ثقافية عامة، وما حصل منه في هذا التفسير يعتبر شيئاً كثيراً.. فيؤخذ منه المقاطع النافعة والمواقف الجديدة، والأشياء التي أخطأ فيها.. عذره قلة العلم والعصمة لكتاب الله ولقول محمد ﷺ.

وبعد كلامه السابق سأله رجل: هل يعني كلامكم الدعوة إلى قراءته من قبل المبتدئين في طلب العلم؟ فأجاب: والله أنا أقول طالب العلم إن قرأ به يستفيد.. طالب العلم يميز... لكن ينبغي الإنصاف والاعتدال، وأن لا نحمل ألفاظه فوق ما تحتمله، ولا نسيء الظن، فالرجل له جهاد تعلمون أنه استشهد أو قتل شهيداً – رحمه الله – وله كتب كان فيها أخطاء فتراجع عنها لأنه ربما كتابة تفسير القرآن عدلت منهجه السابق، والقرآن لا شك أن من اعتنى به وأكثر من قراءته ينقله من حال إلى حال [1].

(١) من محاضرة للشيخ / عبد العزيز آل الشيخ بتاريخ ٢٤ / ٦ / ١٤٢٦هـ ، الموقع الذهبي للإسلام .

٩- الشيخ / سلمان بن فهد العودة – حفظه الله -: (١)

سئل عن صحة ما يقال عن سيد قطب ومنهجه فأجاب: " أما عن سيد قطب فقد قرأت معظم كتبه وإن شئت فقل: كل كتبه، كما قرأت كثيراً مما كتب عنه.. والملحوظ أن الناس في سيد وفي غيره يكون فيهم المتوسط المعتدل الذي ينظر بعين الإنصاف والتجرد والتحري.. ويكون فيهم المتطرف الذي يقع في التعصب والهوى، وسيان أن يكون التعصب ضد الشخص يحمل على رد الحق الذي معه وتصيد الأخطاء عليه، وتفسير كلامه على أسوأ الوجوه، وعدم الاعتبار بالمتقدم والمتأخر من كلامه.. أو أن يكون التعصب له مما يحمل على أخذ أقواله بدون تحفظ، والغفلة عن أخطائه وعثراته والدفاع عنه بغير بصيرة، بل وربما اعتقاد العصمة في المتبوع بلسان الحال أو بلسان المقال...

والذي أدين الله به أن الأستاذ / سيد قطب من أئمة الهدى والدين، ومن دعاة الإصلاح ومن رواد الفكر الإسلامي.. سخر فكره وقلمه في الدفاع عن الإسلام وشرح معانيه، ورد شبهات أعدائه، وتقرير عقائده وأحكامه، على وجه قل من يباريه أو يجاريه في هذا الزمان، وكان حديثه حديث المعايش

---

(١) هو : سلمان بن فهد بن عبد الله العودة ، ولد سنة ١٣٧٦هـ ، في بريده ، وتلقى العلم على يد مجموعة من المشايخ ، وحصل على الدكتوراه عام ١٤٢٤هـ ، احد الدعاة المعاصرين ، له مجموعة من المؤلفات والأبحاث ، وله نشاط دعوي عبر الدروس والقنوات والأشرطة والكتب ، سجن خمس سنوات بسبب موقفه من أحداث الخليج وغيرها ، يشرف على موقع (الإسلام اليوم) المصدر : موقع الإسلام اليوم .

الذي لابس هَمَّ الإسلام قلبَه، وملك عليه نفسه، قد شغله الحزن على الإسلام والغضب له حتى عن ذاته وهمومه الخاصة، وكتابه الظلال يعتبر إضافة كبيرة لدراسة التفسير، استطاع فيه أن يستوعب كثيراً مما كتبه المتقدمون، وأن يبنى عليه رؤيته الخاصة المتميزة، وفهمه الثاقب، ودرسه الغزير، وأن يقرن آي الكتاب بحياة الناس المعاصرة، حتى يشعر قارئه أن القرآن ليس كتاباً نزل لبيئة خاصة في المكان والزمان ولكن هداية للناس أجمعين،.. وقد استفاد سيد من تفسير ابن كثير فائدة غنية، كما انتفع بما كتبه الشيخ / محمد رشيد رضا في المنار... ولكن يبقى الظلال شيئاً آخر غير هذا وذاك.. ووقع في الظلال عثرات.. لكنها يسيرة إلى جنب ما فيه من الخير والعلم والإيمان، كاضطرابه في باب الاستواء.. وإطلاق توحيد الإلوهية على الربوبية.. مع أنه كان شديد الوضوح في إدراك هذه المعاني والحقائق وتقريرها.. وكتب فصولاً موسعة في موضوع الدعوة ومنهجها، والموقف من المجتمعات المعاصرة.. كتب ذلك بعاطفة مشبوبة، ولغة قوية، وغيرة على الدين وعلى المسلمين، حملها بعض قارئيها ما لا تحتمل من المعاني واللوازم.. والخلاصة: أن سيد قطب وغيره من أهل العلم يؤخذ من قولهم ويترك، ويصيبون ويخطئون، ويردون ويرد عليهم، وهم إن شاء الله بين أجرٍ وأجرين، ولئن حرموا أجر المصيب في عشر مسائل أو مائة مسألة فلعلهم – بإذن الله – ألا يحرموا أجر المجتهد" [١].

---

(١) من فتوى للشيخ / سلمان بن فهد العودة في سيد قطب ، في موقع الشهيد سيد قطب . بتصرف .

١٠-الشيخ / محمد حسان – حفظه الله – (١):

سئل عن سيد قطب فقال: " نسأل الله – عز وجل – أن يجعل الشيخ سيد قطب – رحمه الله – عنده من الشهداء، فهو الرجل الذي قدم دمه وفكره وعقله لدين الله – عز وجل – نسأل الله أن يتجاوز عنه بمنه وكرمه، وأن يغفر لنا وله، وأن يتقبل منا ومنه صالح الأعمال، وأنا أشهد الله أني أحب هذا الرجل في الله، مع علمي يقيناً أن له أخطاء، وأنا أقول لو عاملتم يا شباب شيوخ أهل الأرض بما تريدون أن تعاملوا به الشيخ سيد قطب فلن تجدوا لكم شيخاً على ظهر الأرض لتتلقوا العلم على يديه، لأن زمن العصمة قد انتهى بموت المعصوم ﷺ، وكل كتاب بعد القرآن معرض للخلل { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ } [سورة النساء: ٨٢]، ثم ذكر المنهج الواجب التعامل به مع أهل العلم في أخطائهم، وبيّن أن الخطأ حتى في مسائل العقيدة واقع لبعض الأئمة الأعلام من أهل السنة فضلاً عمن سواهم، وبالتالي لا بد من التفريق عند النقد وبيان الأخطاء بين المبتدع المخالف لمنهج أهل السنة وبين المخطئ

---

(١) هو: محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن حسان ، ولد في الدقهلية بمصر ، ونشأ في بيت علم ، عمل مدرساً في جامع الإمام بالقصيم وخطيباً ويعد أحد الدعاة المشهورين في هذا العصر ، له عدد كبير من الكتب والأشرطة والمواد الدعوية ، انظر :موقع الشيخ محمد حسان على الانترنت .

ممن هو على أصل منهجهم[١].

* كما أثنى على سيد – رحمه الله – مجموعة من العلماء والدعاة وكثير من الكتاب والباحثين المنصفين من مختلف الجماعات الإسلامية لا يسع المجال لذكرهم هنا [٢].

وهناك أيضاً مجموعة من العلماء والدعاة الذين نقدوا بعض أخطاء سيد – رحمه الله – وحذروا منها لسببٍ أو لآخر مع عدم غلوهم في ذمه وتضليله والتحذير منه، بل كان نقدهم في الغالب منصبا على بعض القضايا العقدية والفقهية التي رأوا أن سيداً أخطأ فيها كالحاكمية، والتكفير، ووسائل التغيير، وقضية الرق، ودار الحرب، والجهاد، وتأويل الصفات، ونحوها ويمثل ذلك كتابات الشيخ عبد الله بن محمد الدويش – رحمه الله – الذي كتب كتابه " المورد الزلال في أخطاء الظلال " أصاب فيه في مسائل وأخطأ في مسائل ولكنه لم يغلُ ولم يتحامل.

---

(١) من فتوى للشيخ / محمد حسان في سيد قطب ، بتصرف ، انظر : الموقع الذهبي للإسلام ، صفحة أقوال العلماء في الجماعات .

(٢) منهم :الشيخ : عمر التلمساني ، المرشد العام الثالث للإخوان ، و الشيخ / عبد الله عزام – رحمه الله – والشيخ / محمد قطب – حفظه ا لله – والشيخ / أبو بصير: عبد المنعم مصطفى حليمة ، والشيخ / أبو محمد المقدسي.وغيرهم كثير .

وكذلك الشيخ / صالح بن فوزان الفوزان [١]، حيث انتقد سيداً في مسألة الرق وغيرها، ولكن يعذره ومع ذلك فقد نقل عن سيد في بعض مؤلفاته ومنها التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية [٢].

بالإضافة إلى عدد من العلماء والدعاة الذين ردوا على سيد قطب أو ناقشوا ما جاء في كتبه من أفكار هي على خلاف ما عندهم، أو رأوا أن سيداً – رحمه الله – أخطأ فيها [٣].

*** الفئة الثانية: وهي التي انصب جهدها في تتبع زلات سيد وعثراته من جميع كتبه**، حتى ما كتبه قبل التزامه بالإسلام، وجعلوا من ذلك مادة للتحذير منه ورميه بالضلال والبدعة والانحراف وإفساد الدين، وحمّلوا ألفاظه ما لا تحتمل من المعاني واللوازم، وغضوا الطرف عن محاسنه وما أصاب فيه بل اعتمدوا على العبارات الموهمة، وطبقوا مفهوم المخالفة واللازم في كثير من الأحيان، ويمثل هذا الاتجاه الدكتور/ ربيع بن هادي

---

(١) هو: صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان، ولد سنة ١٣٥٤هـ ، عمل مدرسا في كلية الشريعة والمعهد العالي للقضاء وعضوا في اللجنة الدائمة للإفتاء ،له مجموعة من البحوث والمؤلفات ،انظر : فتاوى اللجنة الدائمة ، ١/٧-١١ .

(٢) انظر: التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية ، د/ صالح الفوزان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط٣ ،عام ١٤٠٧هـ ، ص ١٨ -٢٣

(٣) كأمثال : حسن الهضيبي ، وأبي الحسن الندوي ،و محمود شاكر ،وسالم البهنساوي ، ومحمد السيد الوكيل والمغراوي والقرضاوي وعبد الله أبو عزة و محمد عمارة ، وعبد الله النفيسي ، وفهمي هويدي ، وغيرهم ، انظر : فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ، ص ٦٢ وما بعدها .

مدخلي حيث انبرى يجمع هو وطائفة معه كل ما ظنه خطأ لسيد، سواءً من كتبه الأدبية القديمة أو الإسلامية، وأصدر مجموعة من الكتب في نقد سيد فيها الغث والسمين، وغالبها جانبه فيها الصواب.

والذي ظهر لي من خلال مطالعتي لما كتبه عن سيد أنه لم يقرأ كل ما كتبه سيد حول القضايا التي أثارها، ليكون حكمه مبنياً على نظرة كلية، بل حرص على جمع مواطن الخطأ وإن كان قد تراجع عنه، أو كان موهماً أوضحه سيد بصريح قوله في مكان آخر، أو كان يمثل مرحلة عاشها سيد قبل هدايته أو نقلاً من طبعات قبل تعديل سيد لها، وقد سبق ذكر ملاحظات الشيخ / بكر أبو زيد على كلامه، وسيأتي بيان الأخطاء في ما كتبه د/ ربيع المدخلي عن سيد في كثير من القضايا في مواطنها من هذا البحث وكل من غالى في الطعن في سيد فإنما ينقل عن المدخلي ويحتج به ويحيل على كتبه.

وختاماً:

يحسن أن نشير إلى الأسباب الحاملة على نقد سيد قطب أو الطعن فيه إجمالاً وهي:

١- الخلاف العلمي: وذلك كالنقد المتعلق ببعض القضايا العقدية أو الفقهية كموقفه من الصفات، وحديث الآحاد، والاجتهاد، والرق ونحوها، حيث وقف المنصفون عند النقد العلمي وتجاوز غيرهم إلى القدح والذم والتجريح.

٢- الخصومة الفكرية: ويتمثل ذلك في كتابات العلمانيين وأذيالهم في قضايا الحاكمية والعزلة والجهاد والأنظمة العلمانية ونحوها.

٣- الحسد والغيرة والهوى والتحامل: حيث رأى البعض أنه لا يستطيع أن يكون في مكانة سيد، فعمد إلى القدح والذم وبالتالي النظر إلى المؤلفات بهدف التقاط الأخطاء والزلات فقط وتصنيفها على غير درجاتها، و محاكمة سيد قطب إلى صورة معينة في ذهن الكاتب وتفسير كلامه تبعاً لها.

٤- الحزبية البغيضة: والمتمثلة في كتابات بعض كُتَّاب الإخوان الذين ينتمون إلى الفصيل المخالف لسيد قطب وتنظيمه الإخواني الجديد، والذي بدأت بتوترات في المعتقلات وتفجرت خلافاً في أوائل السبعينيات، وتمثلت في تحقير سيد والحط من شأنه ومكانته، ثم سرت هذه الروح إلى

كتابات بعض الذين أرخوا لتجربة الإخوان من أبنائها [1] أو بعض من خرجوا منها[2].

٥- التزلف إلى الحكام: وتجسيد العلاقات معهم من خلال نقدهم لمنهج سيد وأفكاره وموقفه من الأنظمة.

٦- مغالاة البعض في سيد: جعل آخرين يعمدون إلى القدح في سيد وإفراغ أفكاره من محتواها حتى لا يتأثر بها الشباب المسلم – كما زعموا –.

٧-عدم جمع كلام سيد قطب حول الموضوع، والاعتماد على العبارات الموهمة وتطبيق مفهوم المخالفة واللازم [3].

تنبيه: بعد انتهائي من كتابة البحث أرسل لي بعض الطلاب المتأثرين بالدكتور/ ربيع المدخلي بعض الأوراق بعنوان: (فتاوى العلماء في سيد قطب) مصورة من عدة كتب غالبها من كلام المدخلي وبعضها كلام عام لبعض العلماء في معرض ردهم على سؤال معين، مفرغ من بعض الأشرطة ومنه كلام الشيخ ابن باز والألباني والعثيمين وقد سبق ذكرها، بالإضافة لكلام بعض العلماء منهم:

---

(١) كأمثال الأستاذ / محمود عبد الحليم .

(٢) كأمثال د/ يوسف القرضاوي .

(٣) ينظر في ذلك : فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ، ص ٦٩ -٧٢ ، ومن أعلام المسلمين سيد قطب ، د / صلاح الخالدي ، ص٥٦٥ وما بعدها .

١- الشيخ صالح بن محمد اللحيدان [(١)]: حيث سئل: هل يوجد في ظلال القرآن شك أو ريب بالنسبة للعقيدة؟ وهل تنصح باقتنائه أم لا؟.

فأجاب: بل هو مليء بما يخالف العقيدة، فالرجل-رحمه الله – نسأل الله – أن يرحم جميع أموات المسلمين – ليس من أهل العلم، هو من أهل الدراسات المدنية وأهل الأدب، كان من الأدباء ثم شاء الله – جل وعلا – أن يتحول عما كان عليه، وكان في وقت نشط الناس في الكلام وإن قل العمل، وكان للكلام أثره فكان ما كان وكتب هذا الكتاب " في ظلال القرآن ".. وإن شاء الله له حسنات ولكن له أخطاء في العقيدة وفي حق الصحابة، أخطاء كثيرة، **وقد أفضى إلى ما قدم فنسأل الله أن يعفو عنا وعنه**" [(٢)].

٢- الشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان: [(٣)] قيل له: أن أحد الإخوان [(٤)] ينصح بقراءة الظلال والمعالم؟. فأجاب: أن الشباب ينصحون بعدم قراءتها ويقتصرون على دلالة القرآن والسنة وما كان عليه

---

(١) هو : صالح بن محمد اللحيدان ،ولد في القصيم سنة ١٣٥٠هـ ، درس في كلية الشريعة ، وعمل رئيسا للمحكمة الكبرى في الرياض ، وعضوا في هيئة كبار العلماء ، انظر : الدرر السنية ، ٤٨٩/١٦ .

(٢) من شريط لدرس بعد صلاة الفجر في المسجد النبوي يوم ٢٣/ ١٠ / ١٤١٨هـ للشيخ اللحيدان .

(٣) هو : عبد الله بن عبد الرحمن آل غديان ،ولد في الزلفي سنة ١٣٥٤هـ ، تخرج في كلية الشريعة ، وعمل رئيسا لمحكمة الخبر ، وعضوا في اللجنة الدائمة للإفتاء ، وهيئة كبار العلماء في السعودية ، انظر : فتاوى اللجنة الدائمة ،٤٠/١-٤٣ .

(٤) هو عدنان عرعور .

الخلفاء الأربعة والصحابة والتابعين!!. [١].

٣- الشيخ حماد بن محمد الأنصاري: [٢] سئل عن قول سيد" ولا بد للإسلام أن يحكم لأنه العقيدة الوحيدة الإيجابية الإنشائية التي تصوغ من المسيحية والشيوعية معا مزيجاً كاملاً يتضمن أهدافها جميعاً، ويزيد عليها التوازن والتناسق والاعتدال " [٣]. فقال: " إن كان القائل حياً فيجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتداً، وإن كان قد مات فيجب أن يبين أن هذا الكلام باطل، ولا نكفره لأننا لم نقم عليه الحجة " [٤].

---

(١) من شرط أقوال العلماء في إبطال قواعد ومقالات عدنان عرعور .

(٢) هو : حماد بن محمد الأنصاري ، ولد بجمهورية مالي ، ورحل إلى مكة ، واخذ عن علمائها ، له مجموعة من المؤلفات ، انظر: علماء ومفكرون ، للمجذوب ، ص ٦١ .

(٣) معركة الإسلام والرأسمالية ، لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت طبعة عام ١٤١٥ هـ ، ص ٦١ .

(٤) القول ذكره د/ ربيع المدخلي في كتاب العواصم ما في كتب سيد قطب من القواصم ، دار الفرقان، عجمان، ط٢، عام١٤٢١هـ، ص ٢٤ .

الباب الثاني

منهجـــه في تقرير مسائل العقيدة والإيمان

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: **منهجه في تقريـر العقيــدة**

الفصـــل الثـاني: **منهجه في الدعوة إلى العقيدة**

الفصـــل الثالث: **منهجه في تقرير مسائل الإيمـان**

الفصـــل الأول

منهجــه فـــي تقـــريـــر العقيـــدة

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب.

المبحث الثاني: منهجه في الاستدلال وتقرير مسائل العقيدة.

المبحث الثالث:: موقفه من الفلسفة وعلم الكلام.

المبحث الرابع: موقفه من قضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان

توطئـة:

في هذا الفصل عرض لمصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب، وكيفية الاستمداد منها، وما هي نظرته للمناهج المخالفة، وذلك من خلال صريح قوله، وواضح عباراته وطريقته في التأصيل والدعوة لما يعتقده، ومن خلال نظرته النقدية لمناهج المخالفين، جاعلاً عبارته تتحدث عن ذلك قدر المستطاع، وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول

مصادر تلقي العقيدة عند سيد قطب

تتمثل مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة لقضايا الاعتقاد في الوحي كتاباً وسنة، ويلحق بها الإجماع والعقل السليم والفطرة المستقيمة. وفي هذا المبحث نتعرف على موقف سيد قطب – رحمه الله – من هذه المصادر من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: القرآن الكريم.

المطلب الثاني: السنة النبوية.

المطلب الثالث: الفطرة.

المطلب الرابع: العقل.

المطلب الأول

القرآن الكريم

تعريف القرآن الكريم:

١- **القرآن في اللغة:** مصدر من قرأ، يقرأ، قراءةً وقرآناً، بمعني: تلا، وهو المأثور عن السلف، فقد فسر ابن عباس(١)- رضي الله عنهما- قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾} [سورة القيامة:١٧]. ، بمعنى أن تقرأه، أو قراءته، ورجحه الطبري(٢) - رحمه الله - فقال: "والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس من التلاوة والقراءة وأن

(١) هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، صحابي جليل ، حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، فضائله ومناقبه كثيرة ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات في الشعب ، وتوفي بالطائف سنة ٦٨هـ ، انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ ، عام ١٩٩٥م ، ٦٦/٣ ، والإصابة لابن حجر - ١٢١/٤ .

(٢) هو : هو :محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر، ولد في طبرستان سنة ٢٢٤هـ،واستوطن بغداد ،كان إماماً حافظاً وفقيهاً مفسراً ، له عدة مؤلفات من أشهرها تفسيره المسمى جامع البيان ، توفي سنة ٣١٠هـ ، انظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ والأعلام ، للزركلي ٦٩/٦.

يكون مصدراً من قول القائل: قرأت القران " (١).

وقيل: إنه مشتق من الجمع والضم، يقال: قرأت الشيء، فهو قرآن: أي جمعته وضممت بعضه إلى بعض. وسُمي القرآن قرآناً ؛لأنه يجمع السور فيضمها، أو لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد، والآيات والسور، بعضها إلى بعض (٢).

والأول أرجح.

٢- **القرآن في الاصطلاح:** " هو كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، للهداية والإعجاز " (٣).

---

(١) الأثر رواه البخاري في صحيحه ٦/١ ، انظر : صحيح الإمام البخاري ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط٥ عام ١٤١٤هـ،٦/١ ورجحه الإمام الطبري في تفسيره ٦٧/١ ، انظر : تفسير الطبري ، دار الكتب العلمية بيروت .ط١ عام ١٤١٢هـ ، وبه قال اللغوي اللحياني ، انظر : الإتقان في علوم القران، للسيوطي ، دار الكتب العلمية بيروت .ط١ عام ١٤٠٧هـ ١١٢/١ -١١٣

(٢) الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين- بيروت – ط٢ ،عام ١٣٩٩، ٦٥/١ ، ولسان العرب لابن منظور ، ٧٨-٧٩ . الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٦، ١٤٧

(٣) إرشاد الفحول ، للإمام الشوكاني، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، ط٤ ، ١٤١٤هـ ، ص ٦٢ .

ومناهل العرفان ، للزرقاني ، دار الفكر – بيروت ، ط عام ١٤٠٨هـ ،١٩/١،

حجية القرآن: القرآن الكريم عند جميع المسلمين حجة في جميع قضايا الدين الاعتقادية والعملية الإنشائية والخبرية، وهو الفرقان بين الحق والباطل، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١} [سورة الفرقان: ١].

أقام الله به الحجة على العالمين جميعاً فكل من بلغه هذا القرآن فقد أنذر به، وقامت عليه حجة الله [(١)].

وقد اعتمد سيد قطب – رحمه الله – على القرآن الكريم كمصدر رئيس في استمداد وبحث مسائل العقيدة والاستدلال عليها.

* حيث عاش حياته الإسلامية في ظلال القرآن وهي نعمة عظيمة ترفع العمر وتزكيه وتباركه، يقول – رحمه الله –: " لقد مَّن الله عليَّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق في حياتي.. لقد عشت أسمع الله يتحدث إليَّ بهذا القرآن.. وعشت – في ظلال القرآن – أنظر

ومباحث علوم القرآن، لمناع القطان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، عام ١٤١٣ هـ ، ص١٧

(١) مختصر الصواعق المرسلة . للموصلي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٥هـ ، ص ٧٥ .

من علوٍ إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الهزيلة.. عشت أتملى ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود وغاياته.. وأحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة الكون.. وأرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود.. وأرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.. وبالتالي عشت هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير، أرى يد الله في كل حادث، عشت في كنف الله وفي رعايته، عشت استشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها.. وانتهيت إلى يقين جازم حاسم أنه لا صلاح لهذه الأمة، ولا راحة لهذه البشرية إلا بالرجوع إلى الله ومنهجه الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم " (١).

*وبناءً على ذلك فقد وقف سيد قطب – رحمه الله – كثيراً في ظلال القرآن الكريم يتأمله، ويقف عند آياته، ويربط بينه وبين الواقع، فنراه كثيراً ما يتحدث عن القرآن الكريم وخصائصه وعن صفاته ووظيفته، وعن كيفية الانتفاع به في الحياة، ووجوه الإعجاز والجمال الفني في آياته، وطريقة القرآن في عرض العقيدة والأحداث عموماً.

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – ١ / ١١-١٥ بتصرف .

*لقد نظر سيد قطب – رحمه الله – إلى القرآن الكريم على أنه " كتاب هذه الدعوة وروحها وباعثها.. وقوامها وكيانها، وحارسها وراعيها وبيانها وترجمانها، وهو دستورها ومنهجها، وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة – كما يستمد منه الدعاة – وسائل العمل ومناهج الحركة، وزاد الطريق " (١).

" كما أنه كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، ومدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها... وهو الرائد الحي، الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ لقيادة هذه الأمة وتربيتها وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به كلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعهدها معه، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن، واستعزّت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية " (٢).

* **<u>الحكمة من إنزال القرآن:</u>** اعتنى سيد قطب – رحمه الله – كثيراً ببيان الحكمة من إنزال القرآن، والمتمثلة في: " كونه هداية عامة للناس، وإنذاراً للبشرية وتذكيراً " (٣)، " وبياناً وتفصيلاً لكل

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٨ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٦١
(٣) المصدر السابق ٣/١٢٥٤

شيء بحيث لا يحتاجون إلى مرجع آخر وراءه " [١]. " أنزله الله منهجاً واضحاً كاملاً، صالحاً لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة وفي كل زمان " [٢]، " وجعله فرقاناً بين الحق والباطل والهدى والضلال، بما فيه من تفرقة بين نهجٍ في الحياة ونهج وبين عهدٍ للبشرية وعهد " [٣].

ولما كان القرآن كذلك فقد تكفل الله بحفظه: " فهو باقٍ محفوظ لا يندثر ولا يتبدل. ولا يلتبس بالباطل، ولا يمسه التحريف.. ونحن ننظر اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانيته.. رغم حرص أعداء الإسلام على تحريفه ورغم ضعف أمة الإسلام في كثير من مراحل التاريخ "[٤].

وإذا كانت الحكمة من إنزال القرآن – كما سبق – هي الاهتداء به، فإن ذلك يتوقف على فهم معانيه، فما هو منهج سيد قطب – رحمه الله – في هذا الصدد؟.

<u>* منهج سيد قطب وطريقته في فهم القرآن الكريم:</u>

---

(١) المصدر السابق ١٢٣٨/٣

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٢٠٨

(٣) المصدر السابق ، ٢٥٤٧/٥

(٤) المصدر السابق ، ٢١٢٧/٤–٢١٢٨ بتصرف .

يرى سيد قطب- رحمه الله - أن فهم القرآن الكريم لا يتأتى إلا بعدة أمور منها:

١- وجوب الإنصات والاستماع للقرآن: وهذا الحكم عام في الصلاة وغيرها، حيثما قرئ، فذلك هو الأليق بجلال القرآن وجلال قائله، فإذا قال الله. أفلا يستمع الناس وينصتون.. والإنصات أرجى لأن تعي النفوس وتتأثر وتستجيب " (١).

٢- العكوف على القرآن بوعي وتدبر: لا مجرد تلاوة وترانيم، فتدبر القرآن يزيل الغشاوة ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمائر وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير" (٢).

" إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي، وينبغي أن يتدبر على أنه توجهات حية، تنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم ولتنير الطريق إلى المستقبل، لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود " (٣).

---

(١) المصدر السابق ، ١٤٢٥/٣ بتصرف
(٢) في ظلال القرآن ، ١٤٢٦/٣ ، ٦/ ٣٢٩٧
(٣) المصدر السابق ، ٢٦١/١

٣- استصحاب الأحوال والملابسات المصاحبة للنزول: وذلك لأن سمة " الواقعية الحركية " من أبرز سمات القرآن الكريم، فهي مفتاح التعامل مع القرآن وفهمه وإدراك مراميه وأهدافه.. لذا لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني.. لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده، وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات... وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية " [١].

٤- تلقي القرآن الكريم للتنفيذ والعمل والحركة به في الحياة:

يقول سيد: " فلن يُفهم القرآن إلا وهو يُدرَس في مجاله الحركي الهائل، ولن يفهمه إلا أناسيّ يتحركون به" [٢]، " والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون.. يدرسونه

(١) المصدر السابق ، ٤/٢١٢١-٢١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٣/١٧١٢ .

دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً " [١]، " إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح – روح المعرفة المنشئة للعمل – إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدبٍ وفن، ولا كتاب قصةٍ وتاريخ – وإن كان هذا كله من محتوياته – إنما جاء ليكون منهاج حياة " [٢].

ويقول ايضاً: " ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تقرأه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة، وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال

الساهي، سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض، وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق،.. وسنجد عندئذٍ في القرآن متاعاً وحياة " [٣].

" ومنهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل

---

(١) المصدر السابق ، ١٨٦٤/٤ .

(٢) معالم في الطريق – ص١٨ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٨.

(٣) في ظلال القرآن ، ٢٦١/١ بتصرف .

الأول... لذا لا بد أن نرجع إليه بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والمتاع، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون " [(١)].

٥- الإقبال على القرآن الكريم بدون مقررات سابقة:

يقول سيد: " فالمنهج الصحيح في استلهام القرآن ألاَّ نواجهه بمقررات سابقة، عقلية كانت أو شعورية، ونحاكم إليها نصوصه أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة، لقد جاء النص القرآني ابتداءً لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياتهم، فليست هناك إذاً مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله، إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداءً، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا وهذا وحده هو المنهج الصحيح في مواجهة القرآن الكريم، وفي استلهام خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " [(٢)]. " وهذه هي القاعدة المأمونة في مواجهة النصوص القرآنية وفهمها "[(٣)].

---

(١) معالم في الطريق ، ص١٩ ، ٢٠ بتصرف .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠، ٣٩٧٩ .

٦- **الحفاظ على جو النص القرآني:** وذلك من خلال " استبعاد المطولات والاستطرادات التي تحول دون فهم القرآن، وعدم الخوض في القضايا والأمور الخلافية سواءً في العقيدة أو في الفقه أو في التاريخ والقصص، لأنها تطمس معالم الجمال القرآني، وتُعَقِدُ فهمه " (١)، " فلابد أن تُردَّ إلى القرآن جِدَّتُه، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية "(٢).

٧- **ترك الإسرائيليات وعدم الاعتماد عليها في فهم النص القرآني:** تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبَدَّد في غير ما يفيد، وفي ألا يقفو المسلم ما ليس له به علم وثيق " (٣).

ويلحق بالإسرائيليات كتابات غير المسلمين عموماً حول قضايا الإسلام وعلومه، " فالإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقي من المسلمين في علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب أو الصناعة أو

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ٧

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ص ٨ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٤/٢٢٦٥ .

الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية وأمثالها، وذلك في الحالات التي لا يجد فيها مسلما تقياً يأخذ عنه في هذا كله.. لكنه لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره.. الخ من مصادر غير إسلامية، ولا أن يتلقى من غير مسلم يثق في دينه وتقواه في شيء من هذا كله " (١).

وهذا الموقف بناءً على تجربة سيد العلمية التي عاشها، حيث اطَّلَعَ على ما كتبه غير المسلمين حول الإسلام في معظم حقول المعرفة الإنسانية، وعرف الجاهلية على حقيقتها، وتبينت له أهداف اليهود والنصارى ومن والاهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين، ورغبتهم في إضلالهم، وقيام مناهجهم على هذا العداء، ومن ثم يقرر أن من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي وعلى نتائجه كذلك في الدراسات الإسلامية (٢).

---

(١) معالم في الطريق ، ص ١٤٣ والعدالة الاجتماعية – سيد قطب – دار الشروق ، بيروت ، طبعة عام ١٤١٥ هـ ص ٢٠٣ .

(٢) معالم في الطريق ، ص ١٤٣ – ١٤٨ بتصرف

٨- جمع نصوص القرآن الواردة في الموضوع الواحد: " للوصول إلى فهمٍ متكامل وإزالة ما قد يبدو من تعارض ظاهري بين النصوص، فالقرآن كله كلام الله، ولن يعارض بعضه بعضاً، فلا بد إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك" (١).

" فالجمع بين النصوص والتنسيق بين مدلالوتها هو طريق الخلاص مما آثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والفلاسفة من جدلٍ... فالتصور الإسلامي الصحيح هو الذي تنشئه النصوص القرآنية مجتمعة، وهو تصور لا يوجد عندما تؤخذ النصوص فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وعندما توضع بعضها في مواجهة بعضها الآخر على سبيل الاحتجاج والجدل " (٢).

وقد طبق سيد قطب – رحمه الله – هذا المنهج في فهم النصوص في كثير من القضايا في تفسيره، كقضية تعدد الزوجات، وقضية الانتفاع بالعمل في الآخرة، وموقف النصارى من المسلمين، وقضايا القدر والجبر والاختيار، وغيرها (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٧١٩/٢ الهامش .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٤٠٠/٣ بتصرف

(٣) ينظر تفاصيل ذلك في : في ظلال القرآن ٥٨٢/١ ، ٧١٩/٢ ، ٩٦٠، ١٠٦٥-١٨٢١/٣ ، ١٤٠٠-٦ / ٣٩٦٦ .

القرآن مصدر العقيدة الأساس:

يرى سيد قطب – رحمه الله – أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي في استمداد وبحث مسائل العقيدة والاستدلال عليها، وأن منهج القرآن في عرض وتقرير العقيدة خصوصاً، ومنهجه في كل شئون الحياة عموماً، هو المنهج الوحيد الذي ينبغي أن يلتزم به البشر باعتبار ذلك فرضاً لا خيار فيه " فالاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان.. أو فلا إيمان " (١).

ويقرر – رحمه الله – وجوب التلقي في أمور العقيدة وغيرها عن الوحي كمصدر وحيد في كثير من المواضع في كتاباته، مما جعل من الصعوبة نقل كلامه كله في هذا الباب، ونظراً لذلك فسأكتفي بإيراد مجموعة من النصوص على سبيل التمثيل:

١- يقول – رحمه الله – " تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي، متمثلة في تبليغ الرسول وعمله – على عهد النبوات – ومتمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلَّغه رسوله

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ، ١٥/١ .

على مدار الزمان بعد ذلك " (١).

٢- ويقول أيضاُ: " فإنه لا ينبغي لبشر أن يتلقى في أمر عقيدته إلا من الله،... فلا عقيدة إلا ما يتنزل من عند الله، وما يأتي بسلطان من عنده، وإلا فهو واهن ضعيف " (٢).

٣- ويقول أيضاً: " ومن ثم كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة الوجود الإنساني، ولغاية الوجود كله، ولغاية الوجود الإنساني، ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم.. مصدر واحد هو مصدر الرسالات، وما عداه ضلال وباطل " (٣).

٤- في ظلال قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾} [سورة البقرة: ١٧٠]. يقول سيد: " فالآية تندد بتلقي شيءٍ من أمر العقيدة عن غير الله " (٤).

---

(١) المصدر السابق – سيد قطب ، ٢٠٠٧/٤.

(٢) المصدر السابق ، ٥/ ٢٧٧١ .

(٣) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٨١ .

(٤) في ظلال القرآن ، ١٥٥/١

ويقول أيضا " وليس لمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد " (١). " إن أمر التلقي أكبر من أن يعتمد المسلم فيه على رأيٍ، إنما هو قول الله سبحانه، وقول نبيه ﷺ نُحكّمه في هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول " (٢).

عند تعليقه على قصة تحويل الكعبة والدروس المستفادة منها يقول: " ثم هو نهي عن التلقي من غير الله. ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحقيقه في الأرض، فينبغي لها أن تستمد تقاليدها كما تستمد عقيدتها من المصدر الذي اختارها للقيادة. " (٣).

٥- في ظلال قوله تعالى: {ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾} [سورة الأنعام: ٨٨].

يقول سيد: " وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر

---

(١) المصدر السابق ، ١٣٤/١

(٢) معالم في الطريق ، ص ١٤٤ .

(٣) في ظلال القرآن ، ١٢٨/١-١٢٩ ، بتصرف .

المستيقن منه والذي يجب إتباعه في هذا المصدر الوحيد " (١).

٦- في ظلال قوله تعالى: { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)} [سورة الأنعام: ١١٥].

يقول سيد: " لقد تمت كلمة الله سبحانه صدقاً – فيما قال وقرر– وعدلاً– فيما شرع وحكم – فلم يبقَ بعد ذلك قولٌ لقائلٍ في عقيدةٍ أو تصورٍ أو أصلٍ أو مبدأ أو قيمةٍ أو ميزان " (٢).

٧- عند حديثه عن خصائص التصور الإسلامي يقرر بأنه " تصور رباني أي مأخوذ من مصدر رباني هو القرآن الكريم والسنة الشريفة " (٣).

٨- عند حديثه عن نزول عيسى – عليه السلام – آخر الزمان قال: "وهو غيب من الغيب الذي حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء في هذين المصدرين الثابتين إلى يوم القيامة " (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/١١٤٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٥ .

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ٤٦ ، والعدالة الاجتماعية ص ٢٠٠ .

(٤) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣١٩٩ .

* أهمية حصر مصدر التلقي في الوحي:

تحدث سيد قطب كثيراً عن أهمية حصر مصدر التلقي في الوحي ويمكن إجمالها فيما يأتي:

١- **أنه من لوازم التوحيد ومدلولات الشهادتين:**

يقول سيد – رحمه الله –: " وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية لا عبودية إلا لله، ولا طاعة إلا لله، ولا تلقي إلا عن الله، فليس إلا لله تكون العبودية وليس إلا لله تكون الطاعة، وليس إلا عن الله يكون التلقي.. التلقي في التشريع، والتلقي في القيم والموازين، والتلقي في الآداب والأخلاق.. والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية.. وإلا فهو الشرك أو الكفر " (١).

ويقول أيضاً: " وكل من ينطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهاً، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله، فأخص خصائص الإلوهية التشريع للعباد، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله.. ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٤٠٦

ﷺ بما أنه رسول الله، ولا يعتمد على مصدر آخر للتلقي إلا هذا المصدر " (١).

٢- **<u>أنه سبب لصلاح الأرض وراحة البشرية</u>**

يقول – رحمه الله –: ".. إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله.. والرجوع إلى الله.. له صورة واحدة وطريق واحد.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها والتحاكم إليه وحده في شئونها وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله " (٢).

٣- **<u>أنه يبعد المسلم عن الهوى والوهم والخرافة:</u>**

يقول – رحمه الله –: " إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره وفي التصور الإسلامي وتكوينه، أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق.. وأن يبنى مقرراته حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود.... وهذا التصور هو الذي يميز

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤٨١/١- ٤٨٢

(٢) المصدر السابق ، ١٥/١ بتصرف يسير .

المسلم ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة، وبين الإدعاء والتطاول، ومصدره هو القرآن والسنة " [١].

٤- أنه سبب لوحدة المسلمين فكراً وسلوكاً:

يوضح سيد – رحمه الله- أن اقتصار الصحابة – رضوان الله عليهم – على القرآن وحده في التلقي – باعتبار أن حديث النبي ﷺ وهديه أثر من آثار القرآن – كان سبباً في وحدة ذلك الجيل وتفرده، حيث حرص الرسول ﷺ على أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل.. في فترة التكوين الأولى.. على كتاب الله وحده لتخلص نفوسهم له وحده، ويستقيم عودهم على منهجه وحده، ولم يكن ذلك عن فقرٍ في الحضارات والثقافات العالمية حوله، بل كان ذلك عن تصميم مرسوم ونهج مقصود، فكان ذلك الجيل الفريد الموحد فكراً وسلوكاً.

ولما اختلطت الينابيع بعد ذلك، ودخلت الفلسفة والمنطق والأساطير والإسرائيليات ورواسب الحضارات والثقافات، وعلم الكلام كان ذلك سبباً في الاختلاف والتفرق بعد جيل الصحابة [٢].

---

(١) المصدر السابق ، ٣٧٣١/٦ .

(٢) ملخص من فصل جيل قرآني فريد من كتاب – معالم في الطريق ، ص١٤-١٧ .

المطلب الثاني

السنة النبوية

السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة.

والسنة في اللغة: تعني الطريقة والسيرة، حسنة كانت أو سيئة [1].

أما السنة في اصطلاح العلماء: فيختلف معناها باختلاف نوع العلم الذي يشتغلون به:

١- **فالسنة عند المحدثين:** ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو عمل أو تقرير أو صفة خُلُقية أو خَلْقية أو سيرة، سواء كان ذلك قبل البعثة أم بعدها[2]، إذ غرضهم معرفة ما كان عليه النبي ﷺ في أحواله كلها، سواءً أفاد حكماً شرعياً أ م لم يفد [3].

---

(١) لسان العرب لأبن منظور ، ٣٩٩/٦ ، مختار الصحاح للرازي ، طبعة عام ١٩٨١م ،دار الفكر ، بيروت، ص٣١٧

(٢) السنة ومكانتها في التشريع، د/ مصطفى السباعي- المكتب الإسلامي – بيروت – ط٢ عام ١٣٩٨هـ ، ص ٤٧

(٣) أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ، دار المنارة ، جده ، ط٦، ١٤١٤هـ ، ص ٢٣ .

٢- **والسنة عند الفقهاء:** ما ثبت عنه ﷺ من حكم هو دون الفرض والواجب(١).

٣- **والسنة عند الأصوليين:** " ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير (٢). حيث إنهم عنوا بمصادر الشريعة، ومناهج استنباط الأحكام وأخذها من النصوص، فنظروا إلى السنة من جهة كونها مصدراً أو دليلاً، ولهذا يطلقون عليها اسم الدليل (٣)، وهذا هو المراد هنا. كما تطلق السنة في مقابل البدعة، ويراد بها ما هو مشروع دون ما هو مبتدع فتشمل كل ما ثبت بالدليل من كتاب أو سنة.

*** موقف سيد قطب من السنة** ومن خلال سبر مؤلفات سيد قطب، تبين لي أن له موقفين من السنة النبوية: الأول إيجابي، والآخر سلبي، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: موقف سيد قطب الإيجابي من السنة: ويتمثل

---

(١) العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء ، تحقيق د / أحمد المباركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ عام ١٤٠٠هـ ، ١٦٦/١ . وأصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ، ص ٢٣

(٢) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط٢ عام ١٤٠٢ ، ١٦٩/١، وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص٦٧

(٣) الإحكام للآمدي ١٦٩/١ .

ذلك في الآتي:

١- **اعتبار الكتاب والسنة مصدرا الدين الإسلامي:**

حيث يقرر سيد قطب – رحمه الله – أن الدين الإسلامي له مصدران هما الكتاب والسنة، خلافاً لمن يقول أن الإسلام هو القرآن وحده حيث يقول: " والناس لا يؤمنون ابتداءً إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله، ممثلاً في حياة الرسول ﷺ في أحكام الرسول، وباقياً بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة " (١).

ويقول: " كان النبع الذي استقى منه ذلك الجيل – الصحابة – هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع، فعندما سئلت عائشة – رضي الله عنها(٢)– عن خلق رسول الله ﷺ قالت: " كان خلقه القرآن " (٣). (١).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/٦٨٧

(٢) هي : عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، ولدت بعد البعثة بأربع سنين ، تزوجها الرسول ﷺ وهي بنت ست ودخل بها وهي بنت تسعٍ ، في السنة ٢ هـ وهي من أحب نسائه إليه وأفقههن ، روت كثيراً من السنة ، توفيت سنة ٥٨ هـ ودفنت في البقيع انظر :الإصابة لابن حجر ٤/٣٥٩– ٣٦١ .

(٣) رواه مسلم برقم ٧٤٦ ، والإمام أحمد في مسندة برقم ٢٥٣٠٥ ، وصححه الأرناؤوط ، انظر : سند الإمام أحمد بتحقيق الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة– بيروت ، ط١ عام ١٤٢١هـ ، ٤١/ ١٨٣ .

ويقول: " إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة.. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل.. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل، ثم يتبع إتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد، { مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ } [سورة الحشر: ٧].

ودين الله ليس غامضاً، ومنهجه للحياة ليس مائعاً، فهو محدد بشطر الشهادة الثاني–محمد رسول الله – فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص.. وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله " (٢).

ويقول أيضاً " الشريعة الإسلامية من صنع الله، ومصدرها القرآن والسنة ".

---

(١) معالم في الطريق ، ص ١٥ .

(٢) معالم في الطريق ، ص ١٠٤ – ١٠٥ بتصرف .

ويقول أيضاً: " ومصدرها – أي الشريعة – هو القرآن وسنة رسول الله وحدهما وما عدا هذين المصدرين فهو فقه إسلامي تختلف حجيته بقياس بعضه إلى بعض "(١).

وعند حديثه عن خصائص التصور الإسلامي يقول: " ونقصد بوصف التصور الإسلامي بأنه تصور رباني أنه مأخوذ من مصدر رباني وهو القرآن الكريم والسنة الشريفة " (٢).

٢- وجوب الوقوف عندما جاء في الكتاب والسنة: وعدم تجاوز ذلك وخاصة في قضايا الغيب وما أُبهم من النصوص. فعند حديثه عن آيات موسى –عليه السلام – التسع يقول: " فأما كيف وقعت هذه الآيات فليس لنا وراء النص القرآني شيء، ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ عنها شيء، ونحن على طريقتنا في هذه الظلال نقف عند حدود النص القرآني.... ولا سبيل لنا إلى شيء إلا من طريق الكتاب والسنة الصحيحة "(٣).

ويقول: " ونكتفي في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما

---

(١) نحو مجتمع إسلامي – سيد قطب – دار الشروق – بيروت طبعة عام ١٤١٥هـ، ص ٥٠، ٥١ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب ، ص ١٨ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/١٣٥٨ .

يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة " [١].

٣- وجوب طاعة الرسول ﷺ وتحكيم قوله:

يقول: " إنما هو قول الله سبحانه، وقول نبيه ﷺ نحكمه في هذا الشأن –التلقي – ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول، كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه " [٢].

ثانياً: موقف سيد قطب السلبي من السنة:

يتمثل موقف- سيد قطب- السلبي من السنة بموقفه من قضية الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة، وقبل عرض موقف سيد من حديث الآحاد في العقيدة وسببه لا بد من التعريف بحديث الآحاد وبيان سبب الاختلاف في حجيته عند الفرق بإيجاز:

١- المراد بحديث الآحاد:

يقسم علماء الحديث والأصول الأخبار الواردة عن النبي ﷺ إلى قسمين:

أ – متواتر: وهو" ما رواه جمع غفير يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب من أول الإسناد إلى منتهاه، وأن يكون مستند

---

(١) المصدر السابق ، ١٤٨٣/٣ .

(٢) معالم في الطريق ، ص ١٤٤

خبرهم الحس.

ب – آحاد: وهو ما فقد شرطاً من شروط التواتر السابقة " [١].

٢– هل خبر الواحد يفيد العلم أم الظن:

شغلت هذه المسألة العلماء قديماً وحديثاً، وصنفت فيها المصنفات، وعليها بنى بعضهم قبول خبر الآحاد عموماً، وبنى عليها آخرون عدم الاحتجاج به في العقائد.

وباستقراء آراء العلماء في ذلك نجد أن لهم في ذلك ثلاثة مذاهب:

الأول: أن خبر الواحد يفيد العلم مطلقاً: سواء احتفت به قرائن أم لا [٢].

الثاني: أنه يفيد الظن مطلقاً: سواءً احتفت به قرائن أم

---

(١) شرح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني مع حاشية بن قطلوبغا ، دار الوطن – الرياض – ط١ ، عام ١٤٢٠هـ ، ص ٢٦ ، ٣٧ . وشرح ألفية السيوطي ، لأحمد شاكر ، دار المعرفة –بيروت – ب . ت، ص ٤٦– ٤٧.

(٢) وهذا قول بن حزم والكرابيسي ،انظر: الإحكام للآمدي ٣٢/٢ ، وروضة الناظر لابن قدامه المقدسي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠١ه ، ص ٩١ . والإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ ، عام ١٤٠٥هـ ، ١١٥/١، ومختصر الصواعق للموصلي ، ٣٦٢/٢ . وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٢

لا، وهذا مذهب جمهور المتكلمين والأصوليين، وبعض المحدثين والفقهاء [1].

<u>الثالث</u>: أنه يفيد العلم إذا احتفت به قرينة أو أكثر: والقرينة قد تتعلق بالخبر، وقد تتعلق بالمخبر، وقد تتعلق بهما معاً. ويدخل في ذلك:

١- الاستفاضة: كالخبر الذي يرويه في أصله واحد ثم يستفيض ويشتهر.

٢- ما تلقته الأمة بالقبول.

٣- ما اتفق على تخريجه البخاري ومسلم أو رواه أحدهما.

٤- ما كان مسلسلاً بالأئمة الحفاظ ونحوها [2].

فهذا الخبر ونحوه يفيد العلم عند الجمهور، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: " وخبر الواحد المتلقى

---

(١) هذا القول مروي عن ابن عقيل، وابن الجوزي ، وأبي بكر الباقلاني، وغيرهم ، انظر : الإحكام للآمدي ، ٢٣/٢ وشرح الكوكب المنير ، لابن النجار ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ٣٥١/٢ . وفتح المغيث للسخاوي ، دار الكتب العلمية – بيروت – طبعة عام ١٤٢١هـ ، ٣١/١ . والمستصفى من

(٢) شرح نخبة الفكر ، ص ٣٩ – ٤٠ ، وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٢ ، وما بعدها .

بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء " [1]. ويقول أيضاً: " وأما القسم الثاني من الأخبار فهو ما لا يرويه إلا الواحد العدل ونحوه، ولم يتواتر لفظه ولا معناه، ولكنه تلقته الأمة بالقبول عملاً به أو تصديقاً له.. فهذا يفيد العلم اليقين، عند جماهير أمة محمد ﷺ من الأولين والآخرين، أما السلف فلم يكن بينهم في ذلك نزاع، وأما الخلف فهذا مذهب الفقهاء الكبار من أصحاب الأئمة الأربعة.. " [2].

الرابع: يفيد العلم في بعض الأخبار لا في الكل: واليه ذهب بعض أهل الحديث، وهي أخبار الغيب التي لا يجب فيها أكثر من الاعتقاد مثل الصراط والميزان ونحوها من أخبار يوم القيامة.

٣- حكم العمل بخبر الآحاد:

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن النجدي ، طبعة عامة ١٤١٨هـ ، ١٨/٤١ . ورفع الملام عن الأئمة الأعلام ، لابن تيمية ، دار البصيرة – الإسكندرية – ط١ ، عام ١٤٢٩هـ ، ص ٥٠

(٢) حكاه عنه ابن القيم في مختصر الصواعق ٢/٣٧٢، ٣٧٣ ، ونحوه في مجموع الفتاوى ١٨/ ٤٨-٧٠ ،

ونسب الشهاب هذا المذهب إلى فقهاء المذاهب الأربعة . انظر : المسودة في أصول الفقه لآل تيمية ، تحقيق د / أحمد الدوري ، دار الفضيلة ، الرياض ، طبعة ١٤٢٢هـ ، ١/٤٨١ .

جمهور أهل العلم على العمل بخبر الآحاد، وهو مذهب الصحابة وكافة التابعين وجماهير السلف والخلف.

قال ابن عبد البر [1] – رحمه الله –: " وأجمع أهل العلم من أهل الفقه والأثر في جميع الأمصار فيما علمت على قبول خبر الواحد العدل، وإيجاب العمل به إذا ثبت، ولم ينسخه غيره من أثر أو إجماع، على هذا جميع الفقهاء في كل عصر من لدن الصحابة إلى يومنا هذا إلا الخوارج وطوائف من أهل البدع " [2].

وقول الجمهوربالعمل بحديث الآحاد يشمل مسائل الدين جميعاً سواءً مسائل العقيدة أو غيرها، وإنما خالف بعض أهل الكلام ومن تبعهم [3]، فقالوا: إن أخبار الآحاد لا يصح الأخذ

---

(١) هو : يوسف بن عبد الله بن محمد النمري – أبو عمر – ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ ، كان فقيهاً حافظاً محدثاً كثير الشيوخ ،ولي القضاء فترة ، له مؤلفات جاوزت الأربعين ،منها : التمهيد والاستيعاب والاستذكار وغيرها ، توفي سنة ٤٦٣هـ، في شاطبة بالأندلس ، انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء ، ١٨/ ١٥٩ ، وتذكرة الحفاظ ، ٣/ ١١٣٠.

(٢) التمهيد ، لابن عبد البر ، تحقيق أسامة إبراهيم ، دار الفاروق ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٤٢٠ هـ، ١/٦ .

(٣) الإحكام للآمدي ، ٢/٦٤ ، وشرح نخبة الفكر ، لابن حجر ، ص ٣٧. وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٣ .

بها في العقائد، لأن مبنى العقائد على القطع، وأخبار الآحاد ظنية، فلا يؤخذ بها، فعندهم لا يقبل خبر الآحاد في الاعتقادات إلا إذا جاء موافقاً للعقل، فيستدل به تعضيداً لا احتجاجاً، وإلا ردَّ وحكم ببطلانه(١).

وبطلان القول بعدم الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة من وجوه عديدة منها:

١- أن التفريق بين المتواتر والآحاد في إفادة العلم، اصطلاح حادث لم يدل عليه كتاب ناطق ولا سنة ماضية، ولم يعرفه الصحابة ولا التابعون، فالرسول ﷺ صدقه المؤمنون فيما أخبر به دون حاجة منهم إلى تواتر المخبرين (٢)، وكذلك كان الرسول ﷺ يصدق أصحابه فيما يخبرونه به، وكذا الصحابة يصدق بعضهم بعضاً فيما يخبر به عن رسول الله ﷺ، ولم يقل

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي ، تحقيق د / عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة – القاهرة – ط١ عام ١٣٨٤هـ ، ص ٧٦٨ – ٧٧٠ ، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين الجو يني – مطبعة السعادة – مصر عام ١٩٥٠م ، ص ٣٥٩ ، وأساس التقديس ، لفخر الدين الرازي ، مطبعة كردستان العلمية ، عام ١٣٢٨ ،ص ٢٠٤ .

(٢) الرسالة ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر – المكتبة العلمية – بيروت – ب .ت . ص ٤٠١ ، ٤٣٦ وما بعدها

واحد منهم لمن حدثه: خبرك خبر واحد، لا يفيد العلم حتى يتواتر، وتوقف من توقف منهم حتى عضده آخر لا يدل على رد خبر الواحد، وإنما كانوا يستثبتون أحياناً، بدليل أنهم كانوا يتوقفون في تصديق الراوي في أمور فرعية لا علاقة لها بالعقيدة، وهكذا التابعون أخذوا عن الصحابة جماعات ووحداناً، كيفما اتفق دون طلب حصول التواتر (١). ولو كان هناك دليل قطعي على أن العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد كما يزعمون لصرح بذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم.

٢- أن التفريق بين العقائد والأحكام في الأخذ بخبر الواحد إنما بني على أساس أن العقيدة لا يقترن بها عمل، والأحكام العملية لا تقترن بها عقيدة، وكلا الأمرين باطل وهو من بدع أهل الكلام، فما من حكمٍ عملي في الإسلام إلا وهو مرتبط بأصل عقدي، وقد أستدل بعض أهل العلم على إفادة خبر الواحد العلم بأن العمل فرع عن العلم (٢).

وعملياً يصعب التفريق بين الأحكام العملية وأحكام

---

(١) مختصر الصواعق ، للموصلي ، ٢ / ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٢) انظر : شرح التلويح للتفتازاني ، دار الكتب العربية - مصر - ب . ت ٣/٢ ، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، لعثمان بن علي حسن ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط٤ - ١٤١٨هـ ، ١٢٩/١ .

العقيدة، فالعقيدة يقترن معها عمل، والعمل يقترن معه عقيدة، ورسول الله ﷺ عندما أرسل آحاداً من الصحابة إلى المدينة واليمن وغيرها طلب منهم أن يبلغوا العقيدة والعمل بدون تفريق بينهما، وكان خبر هذا الواحد قطعياً وليس ظنياً (1).

٣- ما ذكره غير واحد من أهل العلم من قيام الإجماع على قبول خبر الواحد إذا صح في جميع مسائل الدين العلمية والعملية دون تفريق، والقول بالتفريق فيه خرق صريح لإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم (2).

٤- أنه يلزم منه رد أكثر الأحاديث الثابتة المروية عن رسول الله ﷺ بمجرد تحكيم العقل، كما أنه لا يسلم لهم ضابط في التفريق بين أصول الدين وفروعه (3).

---

(١) وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة للشيخ / محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٢ ، عام ١٤٢٢هـ ، ص٢٥ وما بعدها ، ودراسات في السيرة لمحمد سرور زين العابدين ، دار الأرقم ، بريطانيا ، ط٥ ، عام ١٤١٤هـ ، ص٢٩٧.

(٢) مختصر الصواعق للموصلي ، ٣٦٢/٢ ، والأحكام لابن حزم ، ١١٦/١ وما بعدها وإرشاد الفحول للشوكاني ، ص ٩٤ .

(٣) مختصر الصواعق للموصلي ، ٣٦٢/٢ ، ٤١٨ ، والأحكام لابن حزم ، ١١٦/١ وما بعدها .و مذكرة في أصول الفقه للشيخ / محمد الأمين الشنقيطي ، دار القلم – بيروت – طبعة ١٣٩١هـ ، ص١٠٤ – ١٠٥.

يقول ابن القيم [1]- رحمه الله -: " إن هذه الأخبار لو لم تفد اليقين، فإن الظن الغالب حاصل فيها ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها، كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها، فما الفرق بين الطلب وباب الخبر، بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر، وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات كما تحتج بها في الطلبيات العمليات.. ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام" [2].

وعموماً فالأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد – سواءً قلنا أنها تفيد العلم أو الظن – هو الراجح، وأن التفريق في الأخذ بها بين العقائد وغيرها، أو بين ما يسمى بأصول الدين وفروعه

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ، شمس الدين أبو عبد الله ، اشتهر بابن قيم الجوزية ، فقيه حنبلي ،ولد عام ٦٩١هـ، بدمشق ، وتتلمذ على يد ابن تيمية وغيره ، أوذي وحبس عدة مرات ، كان إماماً حافظاً برع في علوم كثيرة ، توفي سنة ٧٥١هـ ، انظر ترجمته في : البداية والنهاية لابن كثير ، مكتبة المعارف بيروت ، ط٥ ، عام ٨٣م ، ٣٢٤/١٤ . وطبقات الحفاظ للسيوطي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٣هـ ، ص ٥٥٠ .

(٢) مختصر الصواعق ، للموصلي ، ٤١٢/٢ ، ودراسات في السيرة النبوية لمحمد سرور ، ص ٢٩٧ وما بعدها .

تفريق حادث، لا يشهد له كتاب ولا سنة، ولا أثر عن أحد من السلف وأئمة الهدى.

٤- حكم من رد خبر الآحاد:

تنازع العلماء في حكم من رد خبر الآحاد، فمنهم من كفره، ومنهم من فسقه ومنهم من لم يكفره ولم يفسقه [١].

والصواب في هذه المسائل - والله أعلم - أن ذلك يختلف باختلاف الأخبار وباختلاف أحوال الأشخاص الرادين للخبر:

- فأخبار الآحاد الصحيحة ليست على درجة واحدة من الصحة، كما أن الخبر المحتف بالقرائن يختلف عن ما لم تحتف به قرينة، وكذا الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول يختلف عن ما اختلفوا فيه.

- وكذلك يختلف الأمر باختلاف الأشخاص، فقد يكون الشخص مجتهداً، فيظن أن هذا الخبر الصحيح قد عارضه ما هو أقوى منه، أو أنه لم يصح عنده، أو نحو ذلك مما يعذر به،

---

(١) انظر الخلاف في ذلك في : المسودة لآل تيمية ، ١/ ٤٧٥ ، وشرح الكوكب المنير لابن النجار ، ٢/٣٥٢- ٣٥٣ ، ومختصر الصواعق للموصلي ، ٣٦٨/٢ .

كما ذكر ذلك شيخ الإسلام في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

– وقد يكون الشخص معانداً وصاحب هوى، قصده رد الأحاديث ومخالفة ما أجمع عليه السلف لشبهة عقلية تلقاها من أهل الكلام المذموم، أو لقصد إبطال العمل بالسنة النبوية.

– وقد يكون الشخص زنديقاً قصده الطعن في الإسلام.

يقول ابن القيم – رحمه الله –: " إن من رد الخبر الصحيح اعتقاداً لغلط الناقل أو كذبه أو لاعتقاد الراد أن المعصوم لا يقول هذا، أو لاعتقاد نسخه ونحوه، فرده اجتهاداً وحرصاً على نصر الحق، فإنه لا يكفر بذلك ولا يفسق، فقد رد غير واحد من الصحابة بعض أخبار الآحاد الصحيحة.. " (١).

وعليه: ينبغي مراعاة ما سبق عند الحكم على الشخص في رده للحديث، والنظر في الحامل له على ذلك.

ه‍– موقف سيد قطب من حديث الآحاد وسببه:

من خلال استقراء ما كتبه سيد قطب – رحمه الله – تبين لي:

أ – أن سيد قطب مع إجماع العلماء في الاعتداد

---

(١) مختصر الصواعق، للموصلي ، ٢/٣٧٠ .

بالأحاديث الصحيحة بقسميها في مسائل الدين العملية.

ب - أن سيد قطب مع إجماع العلماء في الاعتداد بالحديث المتواتر في باب العقائد.

ج - أن سيد قطب - رحمه الله - خالف ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة في مسألة الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة، حيث صرح في موضعين من كتاب (الظلال) بأن حديث الآحاد لا يؤخذ به في العقيدة، ونص كلامه في الموضعين كما يأتي:

الموضع الأول:

في سورة الأنفال عند حديثه عن كيفية تزيين الشيطان للكفار يوم بدر المذكور في قوله تعالى: { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾} [سورة الأنفال: ٤٨].

يقول سيد: " ولقد وردت في هذا الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار ليس من بينهما حديث عن رسول الله ﷺ - إلا

ما رواه مالك [١] في الموطأ بسنده – أن رسول الله ﷺ قال: " ما رئي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب، إلا ما رأى يوم بدر: قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: " أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة ".

وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، وهو ضعيف الحديث والخبر مرسل"[٢].

ثم أوردوا عدة آثار عن ابن عباس وغيره في بيان تمثل إبليس للمشركين في صورة

رجل من مدلج ثم قال: " ونحن – على منهجنا في هذه الظلال – لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر، فهي من أمور

---

(١) هو : الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، الحميري ، أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، أحد الأئمة الأربعة ، قال عنه الشافعي : (مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين) توفي سنة ١٧٩ هـ بالمدينة ، انظر ترجمته في: وفيات الأعيان لأبن خلكان – دار صادر – بيروت – ب . ت ، ١٣٥/٤ .

(٢) الحديث رواه مالك والبيهقي وغيرهما ، وضعفه الألباني ، انظر : مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ، تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ ، ٧٩٨/٢ برقم ٢٦٠٠ ، وضعيف الترغيب والترهيب ، للألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ عام ١٤٢١هـ ، ٣٦٧/١ .

الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته، **<u>ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض</u>**، فالنص القرآني يثبت أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم.. ولكننا لا نعلم الكيفية.. الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها، ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث.. " (١).

ثم حمل منكراً على مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير محاولتها تأويل كل أمر غيبي ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم (٢).

ويفهم من خلال كلام سيد السابق: أنه جعل من منهجه في الظلال عدم التعرض لتفاصيل الأمور الغيبية إلا ما ثبت تفصيله بنص قرآني أو حديث صحيح متواتر، لكنه في الوقت ذاته لا ينكر أو يرفض أو يأول النصوص الواردة في ذلك كما فعل المتكلمون.

<u>الموضع الثاني: في تفسير سورة الفلق عند حديثه عن</u>

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ١٥٣١/٣ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ، ١٥٣١/٣– ١٥٣٢ .

السحر وطبيعته: [(١)]، تعرض سيد لمسألة سحر- لبيد بن الأعصم اليهودي- للنبي ﷺ فقال: " وقد وردت روايات - بعضها صحيح لكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ - في المدينة، قيل أياماً، وقيل شهراً.. حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله ﷺ فلما استحضر السحر المقصود - كما أخبر في رؤياه - وقرأ السورتين انحلت العقد، وذهب عنه السوء" [(٢)].

وقد حاول سيد - رحمه الله - أن يبين سبب استبعاده لكون الروايات في حادث سحر النبي ﷺ هي سبب نزول السورتين بقوله: " ولكن هذه الروايات:

- تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ٠

---

(١) لسيد رحمه الله - رأي في حقيقة السحر - سيأتي بيانه - إن شاء الله - عند الحديث عن نواقض التوحيد .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٤٠٠٨ وقصة سحر النبي ﷺ رواها الإمام البخاري انظر : صحيح البخاري ،دار ابن كثير - بيروت - ط٥ ، عام ١٤١٤هـ ، كتاب الجزية ، باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر ١١٥٩/٣ ، برقم ٣٠٠٤ ، وأيضاً برقم ٣٠٩٥ ، ٥٤٣٠ ، ٥٤٣٢ ، ٥٧٢٦ ، ٦٠٢٨ .

- ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ﷺ وكل قول من أقواله سنة وتشريع.
- كما تصطدم بنفي القرآن عن رسول الله ﷺ أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك، ومن ثم تستبعد هذه الروايات.
- وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة، والمرجع هو القرآن، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد، وهذه الروايات ليست من المتواتر.
- فضلاً على أن نزولهما في مكة هو الراجح مما يوهن أساس الروايات الأخرى" (١).

ومن خلال كلام سيد السابق يتبين لنا ما يأتي:

أولاً : إنكار سيد قطب لحادثة سحر النبي ﷺ واستبعاده للأحاديث المثبتة لها في الصحيحين لكونها كما يقول تخالف أصل العصمة وتخالف نفي القرآن للسحر عن الرسول ﷺ. وهنا وقع سيد قطب – رحمه الله – في ثلاثة أخطاء:

***الخطأ الأول:** ظنه أن سحر النبي ﷺ الثابت في الحديث الصحيح يتعارض مع أصل العصمة، وهذا القول غير صحيح:

(١) في ظلال القرآن ، ٤٠٠٨/٦ .

" لأن الرسول ﷺ معصوم بالإجماع من كل ما يؤثر خللاً في التبليغ والتشريع، وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية كأنواع الأمراض والآلام، ونحو ذلك فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتريهم من ذلك ما يعتري البشر [١].

قال القاضي عياض[٢]– رحمه الله –: " فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على معتقده،.. فالسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته" [٣].

إن وقوع المرض له بسبب السحر لا يجر خللاً لمنصب النبوة، لأن المرض الذي لا نقص فيه في الدنيا يقع للأنبياء،

(١) ينظر : أضواء البيان ، للشنقيطيي ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٧ ، ٤٤/٣ . وعالم السحر والشعوذة ، د/ عمر الأشقر ، دار النفائس – الأردن ، ط٢ ، عام ١٤١٨هـ ، ص ١٨٣ .

(٢) هو : عياض بن موسى بن عمران ، اليحصبي ، أبو الفضل السبتي ، ولد في سبته سنة ٤٧٦هـ ، عالم المغرب وإمام الحديث في وقته ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم ، تولى قضاء سبته وغرناطة ، توفي مسموماً ، عام ٥٤٤هـ ، انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ، ٤٨٣/٣ .

(٣) الشفا في تعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض اليحصبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب .ت ، ١٨٢/٢.

ويزيد في درجاتهم في الآخرة – عليهم الصلاة والسلام– وحينئذٍ فإذا خيل له بسبب مرض السحر أنه يفعل شيئاً من أمور الدنيا وهو لم يفعله ثم زال ذلك عنه بالكلية بسبب إطلاع الله له على مكان السحر وإخراجه إياه من محله ودفنه، فلا نقص يلحق بالرسالة من هذا كله، لأنه مرض كسائر الأمراض لا تسلط له على عقله، بل هو خاص بظاهر جسده، حيث صار يخيل إليه تارة فعل الشيء من ملامسة بعض أزواجه وهو لم يفعله، وهذا في زمن المرض لا يضر، " (١).

*__الخطأ الثاني:__ ظنه أن حديث السحر يتعارض مع الآيات القرآنية التي تكذب مزاعم المشركين الذين زعموا أن الرسول ﷺ رجل مسحور.

" فهذا الحديث الصحيح الذي هو في أعلى درجات الصحة السبع لاتفاق الشيخين عليه وغيرهما، غير مصادم لنص القرآن الذي هو قوله تعالى إخباراً عن قول الكفرة ﭽ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﭼ (٢)، لأن القرآن دَّل صراحة على أن السحر قد يؤثر في الأنبياء فيما لا يتعلق بالتبليغ والشرع، كما ذكر في قصة

(١) دراسات في السيرة لمحمد سرور ،ص ٣١٨ .
(٢) سورة الإسراء ، آية ٤٧ .

موسى – عليه السلام – وقد علمنا فيما سبق أن تأثير السحر لا يمكن أن يصل إلى حد الإخلال في تلقي الوحي وتبليغه لأن النصوص دالة على عصمة الأنبياء في ذلك [١].

***الخطأ الثالث:** قوله بأن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة، وأن التواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد، وقد بينا خطأ هذا القول عند الحديث عن حكم العمل بخبر الآحاد.

والذي يظهر لي أن موقف سيد هذا من حديث الآحاد كان سببه تأثره بالمدرسة الإصلاحية وأفكارها رغم انتقاده لها – حيث وجدت أن كلامه ليس إلا تلخيصاً لكلام الشيخ محمد عبده [٢]، وكذا قوله بأن إثبات السحر يمس العصمة النبوية.

وقد حاول بعض المؤلفين أن يعتذر لسيد بأن كلامه هذا في تفسير سورة الفلق وهو لم يصل إليه عند مراجعته وتنقيحه للظلال ولو وصل إليه لغير رأيه [٣].

وهذا الكلام يدحضه وجود كلام سيد الأول في تفسير سورة الأنفال وهو في الجزء المنقح مما يدل على أن موقف سيد من خبر

---

(١) عالم السحر والشعوذة، للأشقر ، ص ١٨٨ .

(٢) ينظر كلامه في : تفسير جزء عم . لمحمد عبده ، مطبعة مجلة المنار القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٢٩هـ ، ص ١٨٣– ١٨٤ .

(٣) سيد قطب لمحمد توفيق بركات ، ص ٢٥٧ .

الآحاد ثابت لم يتغير [1].

ولعل مما يخفف من موقف سيد من خبر الآحاد، هو أنه لا يرد أخبار الآحاد على الإطلاق، ولا يقف منها موقف المنكر، كما قال صريحا: " ولكننا في الوقت ذاته لا نقف منه موقف الإنكار والرفض " [2].

(١) في ظلال القرآن في الميزان ، د / صلاح الخالدي ، ص ٩٢ .

(٢) في ظلال القرآن، ٣/١٥٣١ ..

المطلب الثالث

الفطرة

الفطرة في اللغة: من فطر الشيء يفطره، فطراً، وتأتي بمعنى الشق والابتداء والخلق [1].

وفي الاصطلاح: هي ما جبل الله عباده عليه من معرفته وتوحيده، وتفسر أيضاً: بالإسلام والدين الحق [2].

وجمهورأهل السنة والجماعة متفقون على أن الناس مفطورون على معرفة الله تعالى ومحبته ورجائه وعبادته، وأن هذه الفطرة لو خُليت وعدم المعارض لبقيت على حالتها من السلامة والاستقامة ولكنها يعرض لها ما يغيرها ويحولها إلى الكفر أو الشرك.

كما يرون أن مسائل الدين موافقة لفطر الناس – قبل التغيير والتحويل– فلا تجد مسألة منها إلا وفي الفطرة ما يشهد لها بالصحة والسلامة، سواءً المسائل المتعلقة بالربوبية أو

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، ٢٨٦/١٠ ، ٢٨٧ ، والصحاح للأزهري ، ٧٨١/٢

(٢) الفطرة ، حقيقتها ومذاهب الناس فيها ، علي بن عبد الله القرني ، دار المسلم ، الرياض ، ط١ عام ١٤١٤هـ ، ص١٥٠ وما بعدها

الإلوهية أو الأسماء والصفات أو الأحكام، فالإسلام بعقائده وشرائعه هو دين الفطرة فكل مسائله يوجد في الفطرة ما يؤيدها ويشهد لصحتها، إما صراحة، وذلك في الأصول الكبار، أو إحالة، بمعنى أن الفطرة لا تنفر من ذلك وهذا في تفاصيل تلك الأصول (١).

قال تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾} [سورة الروم: ٣٠].

وقد اعتمد سيد قطب – رحمه الله – على الفطرة في تقريره لمسائل الاعتقاد، واعتبرها دليلاً من أدلة التوحيد ومصدراً من مصادر الاعتقاد لكنه مصدر غير مستقل، فالفطرة سبب هداية مركوز بالنفوس يكمّل بالرسل والكتب (٢).

وقد قرر سيد – رحمه الله – أن: " قضية التوحيد تعرض

---

(١) ينظر في ذلك : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ١٦/ ٣٣٠-٣٣٢ ، وشفاء العليل ، لابن القيم ، دار الكتاب العربي – بيروت – ط١ ، عام ١٤٢٤هـ ، ص٤٤٥ وما بعدها .وإيثار الحق ، لابن الوزير ، دارا لكتب العلمية ، بيروت – ط٢ ، عام ١٤٠٧هـ ، ص ٢٤ وما بعدها ، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة ، لعثمان علي حسن ، ١/ ٢١٠ –٢١٨ بتصرف.

(٢) انظر : في ظلال القرآن ، ٣/١٣٩٤ وما بعدها .

في القرآن من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ عليهم الميثاق في ذات أنفسهم وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر، إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها الذاتي، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير.. إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى فلا حجة لهم في نقض الميثاق – حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم – ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، وألا يكلهم إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (١).

" فالفطرة عهد مركوز في طبيعة كل حي، يقوم على معرفة العبد خالقه، والاتجاه إليه بالعبادة وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن : ١٣٩١/٣ .

(٢) المصدر السابق : ٥١/١.

" وتفرد الله تعالى بالإلوهية والملك والدين، والنعمة والتوجه، أمور تشهد بها فطرة البشر وخاصة حين يصهرها الضر، وينفض عنها أوشاب الشرك " (١).

" فالفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد ما لم تفسد أو تنحرف" (٢)، " وهي مجذوبة إلى الذي فطرها تتجه إليه أول ما تتجه، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها، فالتوجه إلى الخالق هو الأولى وهو الأول " (٣).

وباستقراء كلام سيد قطب – رحمه الله – نجد:

١- أنه يرى أن الفطرة أحد مصادر العقيدة وأنها من دلائل التوحيد والإيمان- كما سيأتي-.

٢- أن الإيمان والتوحيد أمر فطري في العباد (٤).

٣- أن منهج القرآن يقوم على مخاطبة الفطرة وإحالة المخاطبين إلى فطرهم وغرائزهم.

٤- أن الفطرة قد تنحرف وتفسد نتيجة لعدة عوامل، وبالتالي فإن من رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب لاستنقاذ

---

(١) المصدر السابق : ٢١٧٦/٤ ، ٣٠٤١/٥ .
(٢) المصدر السابق ٢٦١٨/٥ .
(٣) المصدر السابق : ٢٩٦٣/٥ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٣٨ ، ١١٣٩ .

الفطرة من الانحراف، وأنه سبحانه لا يحاسبهم على عهد الفطرة حتى يرسل إليهم الرسل ويفصل لهم الآيات [١].

وبهذا نجده موافقاً لما عليه أهل السنة والجماعة في قضية الفطرة، ومخالفاً للمتكلمين الذين يقولون بأن المعرفة نظرية جدلية، وليست فطرية، فالله عندهم – أي المتكلمين – لا يعرف إلا بالنظر الجدلي وأن النظر والقصد إلى النظر هو أول واجب على المكلف [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٩٥ .

(٢) ينظر كلامهم في : التمهيد والأوائل . للباقلاني ، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – ط٣ ، عام ١٤١٤هـ ، ص ٤٣ . وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق / التركي والأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، ص ٢٣ .

المطلب الرابـع

العقــل

العقل في اللغة: مصدر من عقل، يعقل، عقلاً، فهو معقول وعاقل، وأصله: المنع، ويطلق العقل على معاني كثيرة منها: الحجر، والنهي، والدية، والملجأ، والحصن، والقلب (١). وكلها معانٍ تدور حول المنع.

وأما العقل في الاصطلاح: فقد أُختلف في تعريفه وتحديد ماهيته، وباستقراء كلام العلماء والفرق نجد أن العقل يستعمل في أربعة معانٍ:

الأول: الغريزة المدركة التي بها يعلم الإنسان ويعقل، وهي فيه كقوة البصر في العين، وهي شرط في المعقولات، ومناط التكليف، وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان (٢).

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، ٣٢٦/٩ وما بعدها، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٥ ، عام١٤١٦هـ ، ص ١٣٣٦ ،

(٢) ينظر : إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ب . ت ، ١٤٥/١ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ، ٢٨٧/٩ ، ٣٥٠ ، ١٦/ ٣٣٦ . ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض ،عام ١٣٩٩هـ ، ٨٩/١ .

الثاني: العلوم الضرورية التي تقع ابتداءً وتشمل جميع العقلاء، كالعلم بالممكنات والواجبات والممتنعات – وهذا تعريف الفلاسفة والمتكلمين للعقل(١).

الثالث: العلوم النظرية التي تحصل بالنظر والاستدلال، ويتفاوت الناس فيها.

الرابع: الأعمال التي تكون بموجب العلم، فلا عقل لمن لم يعمل بموجب ما هداه له عقله (٢). فالتعريف الأكمل للعقل يكون بذكر معانيه السابقة مجتمعه، يقول صاحب القاموس: " والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية " (٣)وفي كل معاني العقل المتقدمة لا يوصف بأنه جوهر قائم بنفسه خلافاً للفلاسفة ومن شايعهم من المتكلمين (٤). بل العقل صفه أو عرض – عند من يتكلم بالجوهر

---

(١) الحدود ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، مؤسسة الزغبي ، حمص ، ط١ ، عام ١٣٩٢هـ ، ص ٣١ .

(٢) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٢٨٦/٩ ، ومنهج الاستدلال لعثمان علي حسن ، ١/ ١٥٩ .

(٣) والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، ص ١٣٣٦ ،

(٤) ينظر : الحدود لابن سيناء ، تحقيق أميليه حواشن – منشورات المعهد الفرنسي –القاهرة ، ب . ت ، والتعريفات للجرجاني ص ٨١ .

والعرض – يقوم بالعاقل، وكونه صفة يمنع كونه أول المخلوقات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها [1].

ومما سبق يتضح لنا: أن العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، به يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك، إنه غريزة في النفس، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإذا اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار وإذا انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها [2].

ويتفاوت الناس في العقل، بل قد يحصل التفاوت في الشخص الواحد " فالإنسان وإن زعم في الأمر أنه أدركه وقتله علماً لا يأتي عليه زمان إلا وقد عقل ما لم يكن يعقل وأدرك ما لم يكن أدرك من قبل " [3].

وخالف في ذلك الفلاسفة والمتكلمون فقالوا: إن الناس متساوون في العقول، وذلك بناءً على أن العقل عندهم حجة عامة يرجع إليها الناس عند اختلافهم، ولو تفاوتت العقول لما

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ١٨/ ٣٣٨ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ١٣/ ٣٣٨ –٣٣٩ .

(٣) الاعتصام ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار الفكر – بيروت . ب. ت . ٣٢٢/٢ .

حصل ذلك، وهذا مبني على تعريفهم للعقل بأنه: " بعض العلوم الضرورية التي لا يختلف الناس عليها" والصواب ما تقدم [(١)].

<u>* مواقف الناس من العقل:</u>

جعل الله العقل دليلاً إلى الإيمان به، والتعرف عليه، ومميزاً بين الحق والباطل. إلا أن الناس صاروا في شأن العقل نحلاً شتى واختلفت مواقفهم منه ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي:

<u>الطائفة الأولى:</u> غَلت في العقل، وأعطته فوق قدره فجعلته حاكماً على الوحي، ورقيباً عليه بل جعلت العقل محور المعرفة، وسبيل الوصول إلى الحقائق وميزان التحسين والتقبيح، فالدليل العقلي عند هؤلاء قطعي والسمعي ظني، لذا قالوا بتقديم العقلي مطلقاً ويمثل هذه الطائفة المعتزلة والفلاسفة [(٢)].

<u>الطائفة الثانية:</u> على النقيض من الأولى، عطلوا العقل، وخضعوا للذوق والشهوات، بل ذموا العقل وعابوه، وادعوا أن كثيراً من القوانين العقلية يمكن أن يأتي عليها البطلان، لذا

---

(١) ينظر : شرح الكوكب المنير ، لابن النجار ، ص ٨١ . وأساس التقديس للفخر الرازي ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ٣٥٣/٧ وما بعدها .

(٢) ينظر : الإرشاد للجو يني ، ص ٣٥٩ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص ٨٨ .

تجدهم يقررون أموراً يعرف كذبها بصريح العقل، ويمدحون أحوالاً لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كالجنون والوله، ويمثل هذه الطائفة غلاة المتصوفة ومن شايعهم (١).

الطائفة الثالثة: وهم أهل السنة والجماعة، الذين أعطوا العقل قدره، فلم يغلوا فيه ولم يرغبوا عنه، بل أعملوه في فهم آيات الله الكونية والشرعية، وجعلوه دليلاً من أدلة المعرفة عامة والدينية خاصةً، تابعاً للوحي غير مستقل، ويرون أنه لا تعارض بين الشرع والعقل، فالوحي جاء بالأدلة العقلية صافية من كل كدر، وعرضَ مسائل الاعتقاد بأدلتها العقلية التي يجب على العقل النظر فيها وفهمها على وجهها.

* موقف سيد قطب – رحمه الله – من العقل:

من خلال استقراء كلامه– رحمه الله– يمكن بيان موقفه من العقل فيما يأتي:

١– يرى أن العقل هو أداة التمييز والمعرفة والهداية في الإنسان، وأن الناس يختلفون فيه، وأن العقل البشري يتأثر بالمؤثرات، لذا لا بد من ميزان ثابت ترجع إليه العقول جميعاً

---

(١) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ،٣/ ٣٣٨ ، ومنهج الاستدلال لعثمان علي حسن ، ١/ ١٦٧.

هو الشرع: يقول – رحمه الله –: " إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان.. لكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات.. ليس هناك ما يسمى " العقل البشري " كمدلول مطلق إنما هو عقلي وعقلك، وعقل فلان وعلان، وعقول هذه المجموعة من البشر، في مكان ما، وفي زمان ما.. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى، تميل بها من هنا وتميل بها من هناك ولا بد من ميزان ثابت، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة، فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها، ومدى الشطط والغلو، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات، وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان – الميزان الثابت الذي لا يميل مع الهوى، ولا يتأثر بشتى المؤثرات " (١).

ويقول أيضاً: " والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر، وعقله هو أداته للتمييز، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما غم عليه الأمر، وأحاطت به

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦٩٠/٢ .

الشبهات، وجذبته التيارات والشهوات، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحياناً من النقيض إلى النقيض، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه، وينزل على إرشاده ويرجع إلى الصواب على هداه، وهذا الميزان الثابت العادل هو: هدى الله وشريعة الله " (١).

ويقول: " العقل البشري لا يصلح وحده أن يكون ضابطاً موزوناً ما لم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة، فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين، ويفقد قدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة ما لم يضم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون " (٢).

٢- يقرر سيد قطب – رحمه الله – أن الإسلام دين العقل، حيث يقول: " إن الإسلام دين العقل نعم، بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان، ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر، ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات

---

(١) المصدر السابق ، ١٧٦٠/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٩٩٠/٢ .

الإيمان في الأنفس والآفاق، ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة، وركام الشهوات المضلة للعقل

والفطرة، ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه، فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن، أو عدم التسليم بها فهو كافر " [1].

ويقول أيضاً: " إن هذه الرسالة تخاطب العقل.. بمعنى أنها توقظه، وتوجهه، وتقيم له منهج النظر الصحيح " [2].

٣- يرى أن العقل الصريح لا يناقض الشرع الصحيح، حيث يقول: " وهذا لا يعني أن التصور الإسلامي مناقض أو مصادم للعقل البشري، فإن مقرراته -أي التصور الإسلامي- نوعان:

نوع الإدراك البشري قادر على تصوره عند تلقيه من المصدر الرباني، ونوع هو غير قادر على إدراكه، ولكن منطقه ذاته يسلم بأن طبيعته أكبر من حدود إدراكه، وأن " وجود " ما

---

(١) في ظلال القرآن ، ، ٢/ ٨٠٧

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٨٠٦

هو أكبر من حدود إدراكه داخل في قدرة الله، وأن إخبار الله عن وجوده هو بذاته برهان هذا الوجود، وبرهان صحة الإخبار.. ومن ثم لا يقع التناقض، أو التصادم أبداً متى استقام العقل البشري والتزم حدوده " (١).

ويقول أيضاً: " والقرآن هو الذي نستقي منه مقرراتنا العقلية، ومن ثم لا يصلح أن يقال: إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل.. " (٢).

٤- أما قيمة العقل البشري، ووظيفته، ومجاله ودوره في قضية الإيمان والهدى، وفي قضية منهج الحياة ونظامها عند سيد قطب – رحمه الله – فيمكننا تلخيصه في النقاط الآتية:

أ – دور العقل أن يتلقى عن الوحي ويفهم عنه ويزن الواقع بميزان الوحي، فالعقل لا يستقل بالمعارف الدينية، ولا يغني عن الوحي، يقول سيد –رحمه الله –: " ونقف من هذه اللفتة في قوله تعالى: { رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾} [سورة النساء: ١٦٥].

أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في أخطر قضايا "

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٤٦

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٧٩

الإنسان" قضية الإيمان بالله، التي تقوم عليها حياته في الأرض في جذورها بكل مقوماتها واتجاهاتها وواقعيتها وتصرفاته، كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي أكبر وأبقى لو كان الله – سبحانه – وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها، يعلم أن العقل البشري الذي وهبه للإنسان، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته في دنياه وآخرته لوكله إلى هذا العقل وحده، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والأفاق، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته،.. ولما أرسل إليه الرسل على مدى التاريخ، ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرسل إليهم وتبليغهم عن ربهم.. ولكن لما علم الله – سبحانه – أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدي بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط – وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة.. شاءت حكمته وشاءت رحمته[١] أن يبعث للناس بالرسل، وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرسالة والتبليغ

---

(١) الأولى أن يقال : شاء الله بحكمته ورحمته "فإن المشيئة من صفات الذات .(من إضافات الشيخ د/ عبد الوهاب الديلمي حفظه الله)

{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾} [سورة الإسراء: ١٥]...

وهذه تكاد تكون إحدى البدهيات التي تبرز من هذا النص القرآني أو إحدى مقتضياته الحتمية" (١).

ويقول أيضاً: " إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة" (٢).

ويقول أيضاً: " إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي، وإدراك مدلولاته، وهذه وظيفته.. ثم هذه هي فرصته في الفوز والهداية، وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٦ بتصرف يسير

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٨٠٦ .

الوحي، فإنه يتعرض حينئذٍ للضلال والانحراف وسوء الرؤية، ونقص الرؤية، وسوء التقدير، وسوء التدبير والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي – حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر – إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله... فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به. لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل وأن الفطرة وحدها تنحرف وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي وهو النور والبصيرة " (١).

ب – العقل البشري ليس نداً للوحي فضلاً عن أن يكون حاكماً عليه: وبالتالي فلا يجوز أن يكون العقل حاكماً على الوحي ومقرراته صحة وبطلاناً وليس له خيار في الأخذ بالنص أو تركه كما أنه لا يجوز للعقل معارضة الوحي بمقرراته.

يقول سيد في ذلك: " وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان والقبول أو

---

(١) المصدر السابق ، ٢ /١٠٩٧ – ١٠٩٨ بتصرف يسير ، وينظر كذلك مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٥، ٢٩٠ .

الرفض – بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله، وبعد أن يفهم المقصود بها: أي المدلولات اللغوية، والاصطلاحية للنص – ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها بعد إدراك مدلولها، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول! أو لا يريد أن يستجيب له – ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان، فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عقله المقصود بها، إن هذه الرسالة تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجهه وتقيم له منهج النظر الصحيح.. لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها، ومتى ثبت النص كان هو الحكم، وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه، سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه.. " (١).

إن دور العقل – في هذا الصدد – أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح، وعند هذا الحد ينتهي دوره.. إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل، فهذا النص من عند الله، والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة

---

(١) في ظلال القرآن ٢ /٨٠٦ .

أو البطلان وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله.

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير.. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة.. أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى، والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا.. من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها، وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شؤون الحياة كلها، فإذا أدرك مقرراتها – أي إذا فهم ماذا يعني النص – لم يعد أمامه إلا التصديق و الطاعة والتنفيذ، فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها، وهي كذلك لا تبيح له مناقشته مقرراتها – متى أدرك هذه المقررات وفق مفهوم نصوصها – ليقبلها أو يرفضها، ليحكم بصحتها أو خطئها، وقد علم أنها جاءته من عند الله الذي لا يقص إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير. والمنهج الصحيح في التلقي عن الله هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيح – بعد أن يدرك المقصود بها – بمقررات له سابقة عليها.. إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة ويكون منها مقرراته هو، فهي أصح من مقرراته الذاتية وأقوم...

إن العقل ليس إلهاً ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله.... وليس هو حكماً في صحتها أو بطلانها، وليس هو مأذوناً له في قبولها أو رفضها كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلهاً يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل، ويرفض منها ما يرفض، ويختار منها ما يشاء، ويترك منها ما يشاء"(١).

ويقول: " فإذا قرر الله سبحانه حقيقة في أمر الكون، أو أمر الإنسان، أو أمر الخلائق الأخرى.. أو إذا قرر أمراً في الفرائض، أو في النواهي.. فهذا الذي قرره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه، متى أدرك المدلول المراد منه.. وإذا قال سبحانه عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء – فالحق هو ما قال، وليس للعقل أن يقول – بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها – إنني لا أجد هذا في مقرراتي أو في علمي أو في تجاربي، فكل ما يبلغه العقل في هذا معرض للخطأ والصواب. وما قرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الحق والصواب، وإذا قال الله شيئاً في الحكم والربا والحجاب ومنهج الحياة البشرية، فالحق هو ما قاله –سبحانه – وليس

(١) في ظلال القرآن ، ٨٠٧/٢ بتصرف شديد .

للعقل أن يقول: ولكني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف عن أمر الله، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس، فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب وتدفع إليه الشهوات والنزوات، وما يقرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الصحة والصلاح، وكذلك ما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات، أو منهج الحياة ونظامها سواءً في موقف العقل إزاءه " (١).

ويقول: " وحقيقة أن الله جعل حجته على عباده في الرسل والنذارات ولم يجعلها في شهادة الفطرة ولا حكم العقل تجعل الذين يريدون أن يجعلوا من " العقل " حكما على " النص" وفيصلاً في" الشريعة ".. يطامنون من غلوائهم، فلا يتخذون من" العقل " إلهاً، فهو يخطئ ويصيب، ويضل ويهتدي، ويتأثر بشتى المؤثرات والضغوط، فلا بد أن يكون" النص" لا "العقل" هو الحكم، وأن يكون دور العقل هو تفهم النص والتقيد به، لا الحكم على مدلوله بالصحة أو عدم الصحة، أو الحكم بقبوله أو رفضه، أو تعديله، فإن هذا لله وحده وليس لأحد من خلقه والعقل البشري من خلقه " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٨٠٨/٢ بتصرف .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ٢٧٧-٢٧٨ .

ج – العقل البشري له طاقة محدودة، فيجب إعماله في حدود طاقته ومجاله:

يقول سيد قطب –رحمه الله–: " فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة المحدود بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول.. فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيراً، فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال، وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال.. ومتى سلّم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يُدرِك المطلق، لزمه – احتراماً لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل.. وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة... وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين " [1].

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب ، ١/٤٠ .

ويقول أيضاً: " وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعته الإنسانية هذه، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة.. فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله، وما أجدر أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ } [سورة الحجر: ٢٩].

يقول – رحمه الله –: " ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الباقي بالصلصال المخلوق الفاني، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي، بل عبث بالعقل ذاته، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم، وكل ما ثارمن الجدل حول هذا الموضوع، وكل ما يثور إن هو إلا الجهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده، وإقحام له في غير ميدانه، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية، وخطأ في المنهج من الأساس.. فالعقل حادث والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته ولا في خلقه.. وهذه البدهية تكفي لتكف العقل عن إنفاق طاقته

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٩٤ .

سفهاً في غير مجاله المأمون "(١).

وقد كثر نقد سيد قطب للمدرسة العقلية بسبب إعطائها العقل أكبر من حجمه، حيث جعلته حاكماً على النصوص، ومن ثم أوَّلت ما لا يتفق مع مقررات العقل كما زعموا، حيث يقول: " لا بد أن ننبه إلى منهج مدرسة الأستاذ الشيخ محمد عبده، المتأثرة بفلسفة غريبة عن الإسلام وهي فلسفة " ديكارت " (٢) مما جعلها تركز تركيزاً (٣) شديداً على العقل وتعطيه أكثر من مجاله في مسائل العقيدة " (٤).

د – العقل ليس وحده أداة التحسين والتقبيح:

يقول سيد – رحمه الله –: " إن العمل بشريعة الله يجب أن يقوم ابتداءً على العبودية والطاعة.. وبعد الطاعة يجوز للعقل البشري أن يتلمس حكمة الله – بقدر ما يستطيع – فيما

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٤٠ بتصرف .

(٢) هو :رينيه ديكارت ،فيلسوف ورياضي وفلكي فرنسي ، ولد عام ١٥٩٠م،خدم في الجيش وجال في أوروبا ثم استقر في هولندا ،صاحب طريقة الشك المنهجي في التفكير ، مات عام ١٦٥٠م ،انظر : المنجد في الأعلام ص٢٨١ .

(٣) الصواب: تعتمد اعتمادا (د/ الديلمي) .

(٤) المصدر السابق ١٥٨٨/٣ الهامش (١)وينظر في نقده لهذه المدرسة أيضاً ٣٩٧٨/٦ .وخصائص التصور الإسلامي ص ١٨-٢٠ .

أمر الله به أو نهى عنه – سواءً بينها الله أم لا، وسواءً أدركها العقل أم لا – فالحكم في استحسان شريعة الله في أمر من الأمور ليس هو الإنسان، إنما الحكم هو الله.. ومرد الأمر كله إلى الله، وهذا مقتضى أُلوهيته – سبحانه – واستحسان الإنسان أو استقباحه ليس هو الحكم في الأمر، وما يراه علة قد لا يكون هو العلة، والأدب مع الله يقتضي تلقي أحكامه بالقبول والتنفيذ سواءً عرفت حكمتها أو علتها أم ظلت خافية " (١).

ويذكر أيضاً عند حديثه عن الأخلاق: " أنها بجملتها في الإسلام ترتكن إلى ما يحبه الله ويرضاه، ولا ترتكن إلى مجرد اختيار العقل البشري واستحسانه – كما يقول الفلاسفة والمعتزلة " (٢).

تلك هي نظرة سيد قطب للعقل وموقفه منه وهي كما يقول ليس فيها انتقاص للعقل ولا لدوره في الحياة: " وليس في شيء من هذا الذي نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية فإن المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات المتجددة بعد أن ينضبط بمنهج النظر وموازينه

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٧٨ بتصرف .

(٢) مقومات التصور الإسلامي سيد قطب ، ص ٢٩٦

المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح والمدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته، وطبيعة الكائنات فيه والأحياء، والانتفاع بما سخر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء، وتنمية الحياة وتطويرها، وترقيتها – في حدود منهج الله، لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تضل العقل وتغطي الفطرة بالركام " (١)

" فالعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق، إنما يتحرك في مجال واسع جداً، يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا، كما يحتوي أغوار النفس ومجالي الأحداث ومجالات الحياة جميعا..، فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج، وسوء الرؤية، والتواء الأهواء والشهوات! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان.. العقل.. إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني.. فلا تضل إذاً ولا تطغى " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/٨٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٢/١٠٩٩ .

المبحث الثاني

منهجه في الاستدلال وتقرير مسائل العقيدة

يقوم منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال على مجموعة من القواعد هي بمثابة المعالم الرئيسة لمنهجهم في التعامل مع النصوص الشرعية، وهي التي تميزهم عن غيرهم من أهل الأهواء والبدع [(١)].

وفي هذا المبحث عرض لبعض تلك القواعد التي وجدت أن سيد قطب–رحمه الله – قد اتبعها في استدلاله بنصوص الشرع، ولا أزعم الحصر ولا القصر، ولكنه غاية ما وصل إليه تتبعي لكلامه واستنباطي:

١– **<u>عدم الخوض في الغيبيات والإيمان بظاهر النصوص الواردة فيها:</u>**

وهي قاعدة أساسية عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمتكلمين الذين يرفضون هذه القاعدة حتى قال بعضهم: إن التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين

---

(١) جمع الباحث : عثمان بن علي حسن هذه القواعد عند أهل السنة في رسالته : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ١/ ٢١٩ . فبلغت عشراً

العقلية والقواطع الشرعية كفر "[١]،

أما سيد قطب – رحمه الله – فقد قرر هذه القاعدة في مواضع متعددة:

* ففي ظلال قوله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①} [سورة الحديد: ١].

يقول: " هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتتح السورة، فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله، ويهيم كل شيء في السموات والأرض، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء، ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله، فالله يقول، ونحن لا نعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقول لنا الله عنه.. فـ {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ} تعني: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ} ولا تأويل ولا تعديل! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما في السموات والأرض له روح يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح، وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة، وتجارب بعض القلوب في لحظة صفائها " [٢]. ثم أورد بعض الأحاديث في تسليم الشجر على

---

(١) شرح الكبرى للسنوسي،المكتبة المصرية ، ب.ت،ص ٥٠٢ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٤٧٧- ٣٤٧٨ .

النبي وحنين الجذع ونحوها.

* ويقول أيضاً: " وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيءٍ في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها، وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه.. وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور " (١).

* وعند حديثه عن منع الشياطين من استراق السمع يقول: " فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره. فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات " (٢).

٢- الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة:

وهذه القاعدة تتضح لنا من خلال ما سبق بيانه في المبحث الأول عند الحديث عن مصادر التلقي عند سيد قطب حيث تبين لنا من جملة النصوص التي ذُكرت أن سيد قطب

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٣٤، وينظر في الموضوع أيضاً ١/٣٩٧، ٣/١٢٦١، ٦/٣٦٧٩.

(٢) المصدر السابق، ٣٧٣.

يعتمد على نصوص الكتاب والسنة وما يلحق بهما من مصادر كالعقل والفطرة في الاستدلال على الأحكام الشرعية والعقائد، وإن كان قد وقع في خطأ فيما يتعلق بموقفه من أحاديث الآحاد في العقيدة، لكنه كان مبايناً لمنهج الفلاسفة وعلماء الكلام والأديان المقارنة لمخالفتها لمنهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال.

يقول: " إنني لم أجد نفسي مرة واحدة في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية– في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن فيما عدا قول رسول الله ﷺ وهو من آثار هذا القرآن " (١).

٣– رفض التأويل:

وهي من قواعد أهل السنة في الاستدلال بالنصوص الشرعية، وقد رفض سيد – رحمه الله – التأويل وبين خطره في أكثر من موضع – وإن كان قد وقع في بعض التأويل أحياناً – كما يقول عن نفسه.

يقول سيد " إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره، وفي التصور الإسلامي وتكوينه أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو

---

(١) المصدر السابق ، ٣/ ١٤٢٣، وينظر أيضاً ٦٨٧/٢ ، ٣/ ١٣٥٨ ، ١٤٨٣.

عقلية أو شعورية سابقة، وإن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفي شيئاً يثبته القرآن ولا يؤوله! ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته..

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن.. وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود ".

ثم يقول معلقاً على هذا في الهامش " وما أبريء نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد أنسقت إلى شيء من هذا.. وأرجوا أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله وما أقرره هنا هو ما اعتقده الحق بهداية من الله " (١) وهذا الكلام ينبغي أن يكون قاعدة يرد إليه كل خطأ وقع فيه سيد – رحمه الله–.

ويقول أيضاً: " إن العقل البشري ليس هو الذي يصنع مقومات التصور الإسلامي.. إنما يتلقاها من مصدرها الرباني.. وهو متجرد من آية مقررات سابقة.. وعليه أن يتقيد فيما يتلقاه

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٣٠ –١٧٣١ مع الهامش .

من ذلك المصدر الصحيح بالمدلول اللغوي أو الاصطلاحي للنص الذي وردت فيه.. بدون تأويل – ما دام محكماً.. فليس له أن يرفض هذا المدلول أو يؤوله – متى كان متعيناً من النص – بحجة أنه غريب عليه، أو صعب التصور عنده، أو أن منطقه لا يقره.. ويستوي في هذه القاعدة العقيدة والشريعة "[١]

ويقول عند تفسير قوله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①}: " ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله.. {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} تعني: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} ولا تأويل ولا تعديل.. " ثم أورد مجموعة من الآيات والأحاديث التي تقرر هذه الحقيقة وعقب عليها بقوله: " ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من القرآن " [٢]. " ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير في محاولة تأويل كل أمر غيبي " [٣].

ويقول: " وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام لجزء "عمّ "بهذه

---

(١) مقومات التصور الإسلامي –سيد قطب – ص ٤٥ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦ /٣٤٧٧ – ٣٤٧٨ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ١٥٣١/٣ .

النظرة تأثرا واضحا، وتفسير تلاميذه [١].. حيث صرح بعضهم مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل! وهو مبدأ خطر.. وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة، فإننا ننتهي إلى فوضى " [٢].

كما أنكر على "محمد إقبال " [٣] منهجه في معالجة قضايا الفكر الإسلامي حيث كانت النتيجة جموحاً في إبراز الذاتية الإنسانية، اضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه طبيعتها، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي " [٤].

وكذلك ينكر سيد – رحمه الله – على الذين يؤولون النصوص الشرعية لتوافق المخترعات العلمية والنظريات، كما سيأتي بيانه عند موقفه من الإعجاز العلمي في القران الكريم " [٥].

---

(١) يقصد بهم : الشيخ رشيد رضا و الشيخ المغربي .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب – ص ٢٠ .

(٣) هو:محمد إقبال بن نور محمد ، شاعر ومفكر وفيلسوف وسياسي هندي ، ولد عام ١٨٧٧م في البنجاب ،وحصل على الدكتوراه من المانيا ورحل الى عدة دول ، عمل محاضراً ومحامياً وكان له دور في تأسيس دولة باكستان الاشلامية ، له قرابة عشرون كتاباً في السياسة والأدب والفكر ، توفي سنة ١٩٣٨م، انظر : معجم الفلاسفة ص٧٠ ومابعدها ، وموقع اسلام أون لاين على شبكة الانترنت .

(٤) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٠ – ٢١ .

(٥) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢ ، بتصرف –٣١ .

كما يرى – رحمه الله – " أن تأويل النصوص لتوافق أهواء معينة هو من صفات أهل الكتاب وهو آفة رجال الدين حين يفسدون في كل أمة، وأن هذه الآفة موجودة في بعض المنتسبين إلى الدين الإسلامي، فالتأويل ليس إلا تحريفا للنصوص عن مواضعها لتوافق الأهواء " (١)، وسيأتي بيان موقفه من التأويل عند الحديث عن توحيد الأسماء والصفات ومنهجه فيها ٠

٤- الرد عند التنازع إلى الكتاب والسنة:

وهذه القاعدة مما تميز به أهل السنة والجماعة عن أهل البدع، فالله تعالى يقول: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩} [سورة النساء: ٥٩]. " والرد إلى الله تعالى ردّ إلى كتابه، والرد إلى رسوله رد إلى سنته " (٢).

---

(١) المصدر السابق ٤١٩/١ .

(٢) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٥٠ ، شرح الطحاوية لابن أبي العز ،ص ١٥ ، ٧٧٧ .

وقد قرر سيد قطب – رحمه الله – هذه القاعدة قائلاً: " إن المرجع فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية.. إن المرجع هو الله ورسوله.. أي شريعة الله وسنة رسوله.. {فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... }، وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمناً على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك أبد الدهر في حياة الأمة المسلمة، وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي، الذي لا تكون مؤمنه إلا به، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه.. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك، ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله شرط الإيمان وحد الإسلام، شرطاً واضحاً ونصاً صريحاً {إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ} (١).

ويقول أيضاً: " فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ، أي: فردوه إلى أصول التصور الإسلامي الذي جاءكم من عند الله، وإلى أصول الشريعة الإلهية التي جاء بها رسول الله.. لا إلى أي أصل آخر.. ولا إلى أي ميزان آخر.. وفي هذه الحدود البينة يجيء دور الاجتهاد لاستنباط الأحكام الفرعية وتطبيقها على

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – ٢/ ٦٨٧ .

الأقضية المتجددة في واقع البشرية.. برد هذه الوقائع والأقضية التي لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة، إلى الله والرسول، أي إلى الأصول التي سنها الله للحياة وبلغها عنه رسول الله ﷺ " (١).

٥- درء التعارض بين العقل والنقل:

العقل الصريح لا يخالف النص الصحيح عند أهل السنة والجماعة وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه القاعدة في كتاب بهذا الاسم (درء تعارض العقل والنقل) وقد ذكرنا قبل – عند الحديث عن موقف سيد قطب من العقل – أنه يرى أن العقل الصريح لا يناقض الشرع الصحيح وأنه " لا يقع التناقض أو التصادم أبداً متى استقام العقل البشري والتزم حدوده " (٢).

" فنصوص القرآن الكريم ومدلولاته لا يصح أن يقال أنها تصطدم مع العقل " (٣).

٦- العمل بالحكم من النصوص والإيمان بالمتشابه:

اختلف العلماء في بيان معنى المحكم والمتشابه في القرآن

---

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٣٤- ٣٥ بتصرف ، وخصائص التصور ص ٤٣ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٤٦ .

(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – ٦/ ٣٩٧٩ بتصرف .

الكريم على أقوال عديدة [1]، والذي عليه أئمة السلف: أن الآيات المحكمات هي: الآيات واضحة الدلالة التي لا التباس فيها على أحد، والتي فيها حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الباطل، وأن الآيات المتشابهات هي: التي فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم والتي ابتلى الله بها العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، وأن الموقف الصحيح ما ذكره الله تعالى في قوله: { هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ } [سورة آل عمران: ٧].

فقوله تعالى: ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وقوله ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد.. فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكَّم محكمه

(١) ينظر كلامهم في : الإتقان في علوم القرآن – للإمام السيوطي ، ٣/٢ وما بعدها حيث ذكر أكثر من ثمانية أقوال .

على متشابه فقد اهتدى، ومن عكس انعكس[1].

وموقف سيد قطب – رحمه الله – من المحكم والمتشابه موافق لما ذكرنا عن السلف فهو يقول عند تفسيره الآية ".. يكشف الله – الذين في قلوبهم زيغ – الذين يتركون الحقائق القاطعة في آيات القرآن المحكمة، ويتبعون النصوص التي تحتمل التأويل، ليصوغوا حولها الشبهات، ويصور سمات المؤمنين حقاً، وإيمانهم الخالص وتسليمهم لله في كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال..

وكمثال للمحكم والمتشابه وموقف الناس منه، ذكر – سيد – رواية في سبب نزول الآية وهي أن نصارى نجران قالوا للنبي ﷺ: ألست تقول عن المسيح: إنه كلمة الله وروحه، يريدون أن يتخذوا من هذا التعبير أداة لتثبيت عقيدتهم في عيسى – عليه السلام – وأنه ليس بشراً، إنما هو روح الله – على ما يفهمون هم من هذا التعبير، بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التي تقرر وحدانية الله المطلقة، وتنفي عنه الشريك

---

(١) ينظر كلام السلف في : ١- تفسير الطبري ١٧١ وما بعدها .

٢- تفسير ابن كثير ، تحقيق د/ البناء ، دار بن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٩م، ٢/ ٦٧٩ وما بعدها .

والولد في كل صورة من الصور..

ثم يقول: " على أن نص الآية أعم من هذه المناسبة، فهي تصور موقف الناس على اختلافهم من هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه ﷺ متضمناً حقائق التصور الإيماني ومنهج الحياة الإسلامية ومتضمناً كذلك أموراً غيبيةً لا سبيل للعقل البشري أن يدركها، ولا أن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها.

فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهي مفهومة المدلولات قاطعة الدلالة مدركة المقاصد– وهي أصل هذا الكتاب – وأما السمعيات والغيبيات.. فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر (الحق) ويصعب إدراك ماهيتها وكيفياتها.. وهنا يختلف الناس حسب استقامة فطرتهم، أو زيفها في استقبال هذه الآيات وتلك، فأما الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملي للحياة ويجرون وراء المتشابه الذي يعول في تصديقه على الإيمان بصدق مصدره، والتسليم بأنه هو الذي يعلم(الحق) كله، بينما الإدراك البشري نسبي محدود المجال، كما يعول فيه على استقامة الفطرة التي تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا

الكتاب كله، وأنه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. يجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر في تأويله: {وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ} " (١).

وعند حديثه عن آيات السحر وبيانه لحقيقة السحر وتأثيره يقول: "والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات تغني عن السعي وراء المتشابه فيها " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/٣٦٩ -٣٧٠ ، بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٩٨ .

المبحــث الثالث

موقفه من الفلسفة وعلم الكـلام

قبل الحديث عن موقف سيد قطب من الفلسفة وعلم الكلام يحسن أن اذكر تعريفاً موجزاً بهذين المصطلحين كي يمكن تصور حقيقتهما ولو في الجملة وذلك كالأتي:

أولاً: تعريف الفلسفة: هي: كلمة يونانية مركبة من كلمتي (فيلا) بمعنى محبة، و (سوفيا) بمعنى الحكمة. والفيلسوف هو الحكيم، وقد أطلقت الفلسفة قديماً على دراسة المبادئ الأولى، وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً [1].

وكانت الغاية منها عند أصحابها: البحث عن الحقيقة من خلال النظر العقلي المتحرر من كل قيد أو سلطة، وقد مرت الفلسفة بعدة مراحل، ونشأت في ظلها عدة مدارس تقوم الكثير منها على جحد الإله الحق(الصانع) والقول بقدم العالم، وجحد النبوات والوحي والغيبيات[2]

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ ، ٢/١١١٨ وما بعدها . والمعجم الوسيط ، د / إبراهيم أنيس وآخرون ، دار الفكر –بيروت ، ط٢ ، ب . ت ، ٢ / ٧٠٠ .

(٢) الموسوعة الميسرة ، ٢ / ١١١٩–١١٢١ .

ثانيا: تعريف علم الكلام: هو: علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية [1] بإيراد الحجج العقلية ودفع شبه الخصوم عنه [2].

ويرجع الباحثون في علم الكلام سبب تسميته بهذا الاسم إلى أحد الأمور الآتية:

أ – لكون أهم مسألة وقع فيها الخلاف بين أهل القبلة هي مسألة كلام الله تعالى.

ب – لأنه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام بين الجانبين.

ج – لأنه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.

د – لأن أبوابه ومسائله عُنونت بقولهم " الكلام في كذا " [3].

هـ– لأن المتكلمين لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة

---

(١) يقول الشيخ الدكتور/عبد الوهاب الديلمي –حفظه الله– معلقاً على هذا :" هذا الوصف وإن كان ادّعاه أصحاب علم الكلام ليس على إطلاقه ، بل قد يؤدي أحياناً إلى الشك في حقائق الإيمان ، والدليل على ذلك أن أساطين هذا العلم ندموا في آخر حياتهم على أنهم أفنوا أوقاتهم فيما يوقع في الحيرة ، ولا يوصل إلى حقيقة" .

(٢) ينظر : شرح المقاصد للنفتازاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٢ ، عام ١٤١٩هـ، ١/ ١٦٦ ، دراسات في الفرق والعقائد ، د / عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠٤ هـ، ص ١٣٦ .

(٣) شرح المقاصد للنفتازاني ، ١/١٦٤ .

كلام لا يفيد.

و - لأن المتكلمين تكلموا حيث كان السلف الصالح يسكتون.[١]

ثالثاً: العلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام:

الباحث في تاريخ علم الكلام والفلسفة يجد أن أكثر المتكلمين وإن كانوا أرادوا الدفاع عن العقيدة في وجه الفلاسفة والملاحدة إلا أنهم تابعوا الفلاسفة في اعتمادهم على العقل والبراهين العقلية المجردة، وكانت الفلسفة مصدراً أساسياً عند المعتزلة كما يقول الشهرستاني[٢]، حيث ذكر أن مقالة نفي الصفات إنما شرعت فيها- أي المعتزلة - بعد مطالعة كتب الفلاسفة وبلغ الاعتماد على الفلاسفة عند أهل الكلام إلى أن نقلوا عنهم واستمدوا منهم مقولاتهم في الله وصفاته وأفعاله [٣].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٦ ، ٢٤٢ ، ودراسات في الفرق د / عرفان عبد الحميد ، ص ١٣٧ .

(٢) هو : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، أحد الأئمة الأشاعرة ولد عام ٤٧٩هـ، له تصانيف عديدة منها : الملل والنحل ، ونهاية الإقدام ، مات سنة ٥٤٨هـ ، انظر : وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٣ ، وسير أعلام النبلاء ، ٣٦٤/٢٢ . ومقدمة الملل والنحل ص ٣-٧

(٣) الملل والنحل ، للشهرستاني ، دار الفكر ، بيروت ، ب . ت ، ص ٤٦ وما بعدها ، حيث قارن بين المعتزلة وبين الفلاسفة عند استعراض أراء رجال المعتزلة

ويرى أبو الحسن الأشعري[1]، وهو الخبير بأهل الكلام أن النفاة للصفات أخذوا ذلك عن إخوانهم من المتفلسفة، وإن كانوا لم يستطيعوا أن يظهروا ما أظهره الفلاسفة فأظهروا معناه بسبب خوفهم من السيف لو أفصحوا [2].

ثالثا: موقف أهل السنة والجماعة من الفلسفة وعلم الكلام:

غني عن البيان موقف الإسلام من الفلسفة وخاصة الفلسفة الأرسطية الوثنية المنسوبة إلى المعلم الأول– حسب

في أكثر من موضع ، مما يدل على أنه يرى أن المعتزلة تأثرت كثيراً بالفلاسفة في مقولاتها ، وينظر في ذلك : منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، د / محمد السحيباني ، دار الوطن ، الرياض ، ط عام ١٤١٧هـ ، ص ٣٢٨ .

(١) هو :علي بن إسماعيل بن علي بن إسحاق الأشعري ، أبو الحسن من نسل الصحابي – أبي موسى الأشعري ﷺ ،يعتبر مؤسس مذهب الأشاعرة ،كان من الأئمة المجتهدين و المتكلمين ، ولد عام ٢٦٠ وقيل ٢٧٠، نافح عن منهج المعتزلة ثم رجع في نهاية حياته الى منهج السلف كما صرح بذلك في كتاب (الابانة) ، له عدة مؤلفات ، توفي سنة ٣٢٤هـ .انظر :سير أعلام النبلاء ٨٥/١٥ ، وتأريخ بغداد ٣٤٧/١١ .

(٢) مقالات الإسلاميين ، لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق / محمد محي الدين ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ ، ١٧٧/٢ .

زعم الفلاسفة- أرسطو[1]الذي كان يقول: " بقدم العالم، وإنكار البعث، ونفي علم الله بالجزئيات، وغيرها من المباحث، والذي فُتن به بعض المسلمين قديماً، وصار منهم من يقرر فلسفته ويدافع عنها، كابن سيناء [2] وغيره، وحاولوا أن يمزجوا(الشريعة) بـ (الحكمة) اليونانية، وكلام الأنبياء بكلام الفلاسفة!! إلا أن الفلسفة ما زالت في العقل الإسلامي خارجة عن العقيدة الربانية، مضادة لها، يصعب المزج والخلط بينهما لسبب بسيط، وهو أن مصدر العقيدة الإسلامية هو الوحي، ومصدر الفلسفة هو العقل الإغريقي الغارق في الوثنية، ولا يمكن الخلط بين الإلهي والوثني؟!

لهذا كان موقف أهل السنة والجماعة من الفلسفة موقف الرفض والذم لها، لمباينتها لمنهج الإسلام، وكان لهم جهود في

---

(١) هو : أرسطو طاليس بن نيقوماخوس ، من بلاد مقدونيا ، تتلمذ على أفلاطون ، ويسمى عند الفلاسفة المعلم الأول ، لأنه واضع التعاليم المنطقية ، انظر : الملل والنحل الشهرستاني ،ص٣٤٧

(٢) هو : الحسين بن عبد الله بن سيناء ، فيلسوف مشهور ، كان هو وأبوه من القرامطة الباطنية ، ولد في بخارى سنة ٣٧٠هـ ، وكان طبيباً وشاعراً له عدة مصنفات توفي بهمذان سنة ٤٢٨هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ، ١١/ ١١٨ ومعجم المؤلفين ٤/ ٢٠ .

مواجهتها ونقدها، وبيان فساد مقالات أهلها، والإفتاء بحرمتها، وحرمة نقلها ونشرها بين الناس. (١).

إلى أن جاء الشيخ مصطفى عبد الرازق (٢) في بداية القرن الماضي، فقرر مصطلح (الفلسفة الإسلامية) ودعا إليها، وأراد بذلك أن يرد على آراء بعض المستشرقين التي كانت تقول: بأنه لم يكن لعلماء المسلمين جهود في الفلسفة، وإنما كانوا مجرد نقلة وشارحين لتراث الإغريق، فأراد الشيخ أن يكشف أن للمسلمين جهوداً في علم الفلسفة و تطويرها، وهو يقصد بذلك تراث المتكلمين الذين كان بينهم وبين الفلاسفة معارك جدلية في القضايا الإلهية!! (٣).

ولكن الحقيقة أن المتكلمين لم ينطلقوا في نقدهم للفلسفة

---

(١) ينظر في ذلك : مجموع فتاوى ابن تيمية ،المجلد التاسع ، " المنطق ، وكذا ٤/ ٥٠ ، ٥٢ ، ٩٠ ، ١٠٦/٦ ، ١٦/ ١٣٠ ، ٤٥٢، ١٧/ ٢٣٦ ، ٢٨٦/ ٢٩٤ ، ٣٥٦/٢٣٦ ، والصفدية لابن تيمية وصون المنطق للسيوطي ، وشرح الطحاوية ٤٠٢ وما بعدها .

(٢) هو : مصطفى بن حسن بن أحمد عبد الرازق ،ولد في المنيا بمصر عام ١٨٨٥م، وتتلمذ على محمد عبده ، ثم درس في باريس وعاد فعمل أستاذا للفلسفة ثم وزيراً للأوقاف ثم شيخاً للأزهر ، توفي عام ١٩٤٦م ، انظر : الأعلام للزركلي ٢١٣/٧ . .

(٣) الموسوعة الميسرة ، ١١٢١/٢ .

من أصول المنهج الإسلامي الأصيل المستمد من الوحي ومن تراث السلف كما فعل أهل السنة والجماعة، وإنما انطلقوا من خلال أصولٍ عقلية، كامتناع تسلسل الحوادث، وأن ما لا يخلوا من الحوادث فهو حادث، وأن ما قامت به الأعراض فهو جسم.. ونحو ذلك من الأصول الكلامية، فهم وإن كانوا انتصروا لدين الإسلام في بعض الجوانب، إلا أنهم قد أدخلوا على المسلمين شراً عظيماً، بما انتحلوه من علوم كلامية ومنطقية ذات أصول فلسفية فأثارت الشبهات، وأفسدت الكثير من الفطر والفهوم.

ولذا نجد أساطين المتكلمين يعترفون في أواخر أعمارهم بالحيرة والاضطراب والخطأ في مناهجهم والفشل في جدالهم، والباحث في تراث السلف يجد من نفسه قناعة راسخة بأن موقف السلف الرافض للفلسفة والناقد لها لم يكن من فراغ، بل لأنهم وجدوا أن الفلسفة وما نتج عنها تراث أجنبي، إغريقي النسب، وثني المصدر، مباين لمنهج الإسلام في المعرفة والاستدلال والجدل، ليس له علاقة بعلوم الإسلام، ولم يعرفه المسلمون الأوائل، أو يؤثر عن النبي ﷺ أو الصحابة أو التابعين وأئمة الهدي منها شيء، وإنما تسربت هذه العلوم إلى الأمة الإسلامية من خلال احتكاكها بالحضارات المختلفة بعد

الفتوحات الإسلامية، ومن خلال حركة الترجمة غير المنضبطة وغير المقننة في عصر العباسيين.

ولذلك نجد علماء السلف يحذرون من علم الكلام باعتباره ناتجا من نواتج الفلسفة الإغريقية، وقد أورد شارح الطحاوية عدداً من النقول عن أهل العلم في ذمهم لعلم الكلام والتحذير منه، وبيان أن ما أرادوه من الدفاع عن العقيدة إنما زادت به الشكوك والشبه وكان حالهم كما قيل:

يحللون بزعم منهم عقداً   وبالذي وضعوه زادت العقد.

١- يقول أبو يوسف[١]- رحمه الله -: " من طلب الدين بالكلام تزندق " [٢]

٢- يقول الشافعي[٣] -رحمه الله-: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم القبائل والعشائر ويقال:

---

(١) هو : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، الكوفي ، أبو يوسف ، إمام مجتهد ، وعلامة محدث ، قاضي القضاة ،ولد سنة ١١٣هـ ، صاحب أبا حنيفة وتفقه عليه ، توفي سنة ١٨٢هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ، ٥٣٥/٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٧ ، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٧ .

(٣) هو : محمد بن إدريس بن العباس الشافعي – القرشي ، أحدا لأئمة الأربعة ، كان من أشعر الناس واعرفهم بالفقه والحديث ، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٢٠٤هـ ، انظر : وفيات الأعيان لأبن خلكان ،١٦٣/٤

هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام"(١).

٣- يقول أبو حامد الغزالي(٢)-رحمه الله-: وهو ممن بلغ النهاية في علم الكلام: " وأما منفعته- أي علم الكلام- فقد يُظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات، فليس في الكلام وفاءٌ بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر في الكشف والتعريف، اسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخرى تناسب علم الكلام كعلم المنطق والفلسفة والأصول واللغة، وتحقق أن الطريق إلى المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور" (٣).

كما أورد كلاماً لبعض علماء الكلام الذين تراجعوا عنه

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ، ١٠ / ٢٩ .

(٢) هو : محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي ، اشتغل بعلم الكلام والفلسفة ردحاً من الزمن ، ثم انتقل إلى التصوف ،وأقبل في آخر حياته على الحديث ، مات سنة ٥٠٥هـ ، انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ، ٢١٦/٤ ، وينظر شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٣٦- ٢٣٨

(٣) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ، ١/ ٩٧ ،

وندموا على الاشتغال به ومن ذلك: قول الفخر الرازي [1]– رحمه الله –: " لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥} [سورة طه:٥] ، واقرأ في النفي {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١} [سورة الشورى:١١] ، ثم قال: " ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي " [2].

١– يقول الشهرستاني:

لعمري قد طفت المعاهد كلها   وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر   على ذقن أو قارعاً سن نادم.

٢– ويقول الجويني[3]: " يا أصحابنا لا تشتغلوا

---

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسن التميمي ، فخر الدين الرازي ، ولد سنة ٥٤٤ هـ، كان فقيهاً أصولياً وفيلسوفاً متكلماً من رؤساء الأشاعرة ، توفي سنة ٦٠٦هـ ، انظر : شذرات الذهب ، ٥/ ٢١ ، والأعلام للزركلي ، ٦/٢١٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٤٤

(٣) هو : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ،أبو المعالي الجو يني ، إمام الحرمين أحد أئمة الأشاعرة ،، ولد سنة ٤١٩هـ ، له تصانيف كثيرة على مذهب المتكلمين ، وذكر أهل السير رجوعه إلى مذهب السلف، توفي سنة ٤٧٨هـ ، انظر: سير

بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به ". وقال عند موته: " لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجو يني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي " (١).

وأهل السنة والجماعة من السلف ومن بعدهم عندما يذكرون مثل هذه الأقوال وتلك المواقف للمتكلمين إنما يقصدون التحذير والتنفير من سلوك مناهج المتكلمين والفلاسفة وبيان ما يؤول إليه حال من سلكها.

رابعا: موقف سيد قطب – رحمه الله – من الفلسفة وعلم الكلام:

أصبحت حمى (الفلسفة الإسلامية) و (علم الكلام) منتشرة في أغلب الجامعات والكليات الشرعية في العالم الإسلامي، وخاصة منذ بداية القرن الماضي!!، حيث ابتليت أغلب مناهج العقيدة الإسلامية بمباحث الفلسفة وعلم الكلام.

أعلام النبلاء للإمام الذهبي مؤسسة الرسالة ب٠ت ط١ /١٤٠٧هـ ، ١٨/ ٤٦٨ وما بعدها ، وشذرات الذهب ٣٥٨/٣ .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٤٥.

وقد كان لسيد قطب – رحمه الله – من الفلسفة وعلم الكلام موقف تميز به عن كثير من الدعاة المعاصرين، حيث عمل على إبراز تميز العقيدة الإسلامية عن الفلسفة وعلم الكلام فألف كتابه الفذ " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " والذي كشف من خلاله الخصائص الكبرى للعقيدة الإسلامية وهي (الربانية، والثبات، والشمول، والتوازن، والإيجابية، والواقعية، والتوحيد) وبيّن أن هذه الخصائص هي التي جعلت العقيدة الإسلامية تتميز كثيراً عن الفلسفة ومباحث علم الكلام ليصبح بينهما فارق شاسع هائل لا يمكن معه الخلط ولا الجمع بينهما.

ويمكن بيان موقف سيد قطب من الفلسفة وعلم الكلام و منهجه في التعامل معهما من خلال المعالم الآتية:

١- قيام منهج الفلسفة والفكر الغربي عموماً على التصورات الجاهلية المعادية للدين الحق:

عاش سيد قطب – رحمه الله – ردحاً من حياته في دراسة كثيرٍ من العلوم والمعارف الإنسانية وخلص منها إلى نتيجة قررها بقوله: " إن اتجاهات الفلسفة بجملتها، واتجاهات (تفسير التاريخ الإنساني) بجملتها، ومباحث (الأخلاق) بجملتها،

واتجاهات دراسة (الأديان المقارنة) بجملتها، واتجاهات (التفسيرات والمذاهب الاجتماعية) بجملتها، كلها في الفكر الجاهلي – أي غير الإسلامي – قديماً وحديثاً – متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها – إن لم يكن كلها – يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه الخصوص " (١).

وبعد أن قرر أن مناهج الفلسفة والفكر الغربي عموماً تقوم على رواسب متمثلة في العداء لأهل التصور الديني جملة بسبب الملابسات النكدة، والحروب التي قامت في التاريخ الأوربي بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة، بيَّن أن تلك المناهج ونتاجها الفكري سيكون أشد عداءً للتصور الإسلامي، من خلال تمييع العقيدة والمفهومات الإسلامية، وتحطيم الأسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته، وتسميم الينبوع الإسلامي الصافي، وبالتالي تجب الحيطة والحذر أثناء دراسة العلوم البحتة من أيّة ظلال فلسفية تتعلق بها، كما يجب أن نستلهم مقرراتنا من القرآن الكريم ونرمي بكل رواسب

(١) معالم في الطريق ، ص ١٤٠ ، بتصرف يسير .

الثقافات الجاهلية قديمها وحديثها على السواء [١].

٢- ضلال الفلاسفة في تصوراتهم للإله والكون والوجود، وعلاقة الخالق بالمخلوقات:

بيَّن سيد قطب – رحمه الله – في مواطن كثيرة من كتبه ضلال الفلاسفة والمتكلمين في تصوراتهم للإله سبحانه، وكذا ضلالهم في تصورهم للكون والوجود، ولعلاقة الإله بالمخلوقات عموماً، ويعتبر كتابه " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " موضوعاً بالدرجة الأولى لبيان التصور الحق الذي جاء به الإسلام، مقارنة مع التصورات المنحرفة بما فيها تصورات الفلاسفة والمتكلمين.

يقول – رحمه الله –: " نقول: حيثما حاول العقل البشري أن يسلك طريقاً غير هذا الطريق- الوحي – جاء بالخبط والتخليط الذي لم يستقم في تاريخ الفكر البشري.. يستوي في ذلك الجاهليات الوثنية.. والجاهليات اللاهوتية... والجاهليات الفلسفية وحيثما نظر الإنسان في هذه التصورات طالعته بالمضحكات... وهذا المشهد يتجلى بوضوح كامل حين يراجع الإنسان ذلك الجهد الطويل للفلسفة في شتى عصورها وفي

---

(١) ينظر كلامه بتوسع في : معالم في الطريق ص ١٤٢ – ١٤٨ .

شتى مذاهبها، إن الإنسان ليتملى حقائق العقيدة الإسلامية في القرآن، ثم يحاول أن يتلمسها في الفلسفة، فكأنما يخرج من الروض النضير، الحي المكشوف، المتفتح الطليق، إلى القلعة الكئيبة من قلاع القرون الوسطى، المليئة بالمنعرجات والسراديب.. ذات الهواء الراكد المكتوم... حيث لا يصل أبداً إلى الحقيقة.

لقد عجزت الفلسفة دائماً – بجميع مذاهبها – عن الاهتداء إلى الإله الحق، و(واجبُ الوجودِ) أو (السببُ الأول) أو (الأحدُ) الذي اهتدت إليه الفلسفة لم يكن أبداً هو(الله) الحق الذي يهدي إليه (الإسلام) في جميع الرسالات التي جاء بها الرسل من عند الله إن الإله الذي تبحث عنه الفلسفة – حين تبحث عن الله – هو قانون العالم وهيكله، وحياته ومشيئته، فلو كان ثمة عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايره – في الفكر – مع الاحترام – فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضاً حتى تواجهه بغير خوف هذا هو إله الفلسفة، وهو لا يعنينا في شيء لأن بحث الفلسفة عنه على هذا النحو لم يقدها يوماً إلى (الحقيقة)!.

إن الإله الحق هو " الله " الذي هدى إليه الإسلام، وهو خالق

الكون، وليس هو " قانون العالم وحياته ومشيئته "، هو: { قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ } [سورة طه:٥٠] وهو الذي يدبر هذا العالم ويحركه بقدره، ولا يدري أحد كيف يتعلق قدره بهذا العالم لأن أحداً لم يزوَّد بمعرفة كيفيات فعل الله، إنما الإنسان مزود فقط بإدراك آثار فعل الله " (١).

" ولقد ضل كل من حاول من الفلاسفة والمتكلمين وصف كيفيات أفعاله سبحانه وخلطوا خلطاً شديداً " (٢).

" وكذلك عجزت الفلسفة عن الاهتداء إلى حقيقة العلاقة بين الله والعالم، وإلى كيفية تعلق مشيئته بما يجري في هذا العالم، لأنها حاولت أن تفسر هذه العلاقة، وأن تصور هذه الكيفية في حدود المألوف للعقل البشري في عالم الخلائق وكذلك جاء كل ما تصوره الفلسفة مختلاً، لأن القاعدة التي قام عليها مختلة، وبمثل هذا العجز عالجت حقيقة أفعال الإنسان والعلاقة بين الإنسان والكون، وضربت في التيه في قضية " الجبر والاختيار " كما ضربت في التيه في قضية "المعرفة " ووقفت بالعقل في مقابل الحس والغريزة، وبالحياة في مقابل

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٦ – ٤٧ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٩٣ .

المادة، وسارت بهذه القضايا في تلك الدروب المسدودة قرناً بعد قرون، ومدرسة بعد مدرسة.. وما تزال!!...

إن هناك ظاهرة لم تتخلف قط في تاريخ الفكر والاعتقاد، وهي أنه حيثما أخذت الفلسفة من العقيدة أفادت واهتدت إلى بعض جوانب الحقيقة، وحيثما أخذت العقيدة من الفلسفة خسرت وأصيبت بالتخليط والانحراف والتعقيد " (١).

وقد استعرض سيد قطب – رحمه الله – تصور الفلاسفة للإله وعلاقته بالكون، وأوضح سخافة أقوال الفلاسفة الكبار!! في كلامهم عن خلق الكون وعلاقته بالإله مقارناً ذلك بالتصور الإسلامي الواضح في هذه القضايا(٢).

ويخلص – رحمه الله – إلى وصف تصورات الفلاسفة بأنها أشبه بحركات الأطفال وخوضهم، فيقول: " إن سائر التصورات حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتزُ بهم تاريخ الفكر الإنساني – تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة، تلك الحقيقية التي تُعرض في القرآن

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٧ – ٤٨ بتصرف .

(٢) ينظر كلامه – رحمه الله – في : مقومات التصور الإسلامي ص٤٩–٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، وخصائص التصور الإسلامي ، ص ٩٨ ، ١٥١ ، ١٥٣٣ ، ١٦١، ١٧٢ ١٧٥ ، في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣١ .

عرضاً هادئاً ناصعاً قوياً بسيطاً عميقاً، يلتقي مع الفطرة التقاءً مباشراً دون كدٍ ولا جهد ولا تعقيد، لأنه يطالعها بالحقيقة الأصيلة العميقة فيها، ويفسر لها الوجود، وعلاقتها به، وعلاقة الوجود بخالقه تفسيراً يضاهي ما استقر فيها ويوافقه.

وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة، وأُلاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته، كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة، وأمامي التصور القرآني واضحاً ناصعاً هيناً ميسراً طبيعياً، لا عوج فيه ولا لف، ولا تعقيد ولا التواء، وهذا طبيعي، فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته.. أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله، والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة، إنه عبثٌ، وخلطٌ، وخوضٌ.. حين يقاس إلى الصورة التي يعرضها القرآن" (١).

بل يرى أن ما عند الفلاسفة عموماً ليس إلا أوهاماً وظنوناً وأساطير يقول –رحمه الله–: " وإذا كانت أوهام الجاهلية وأساطيرها عن "حقيقة الألوهية " ليست إلا ظناً بلا برهان عليه، فمثلها ولا شك

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ٣٣٩٤ – ٣٣٩٥٥ .

أوهام الفلاسفة الذين يخبطون في التيه بلا دليل! " [١].

<u>٣- مجافاة منهج الفلسفة وعلم الكلام للمنهج القرآني:</u>

أوضح سيد - رحمه الله - في مواضع كثيرة مجافاة منهج الفلسفة وعلم الكلام لمنهج القرآن الكريم سواءً في عرض التوحيد أوفي مخاطبة الفطرة ومن ذلك قوله - رحمه الله -: " لما كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية.. فقد بدت " الفلسفة الإسلامية "- كما سميت - نشازاً كاملاً في لحن العقيدة المتناسق! ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير، شاب صفاء التصور الإسلامي، وصغر مساحته، وأصابه بالسطحية، ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط مما جعل تلك " الفلسفة الإسلامية " ومعها مباحث "علم الكلام " غريبة غربة كاملة على الإسلام وطبيعته وحقيقته ومنهجه وأسلوبه! " [٢].

ويقرر سيد أيضاً: ظاهرة تاريخية لم تتخلف قط في تاريخ

---

(١) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ٢٩١ بتصرف.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١١-١٢.

الفكر والاعتقاد وهي أنه حيثما أخذت العقيدة من الفلسفة خسرت وأصيبت بالتخليط والانحراف والتعقيد وتبدو هذه الظاهرة واضحة في تلك الصورة الكابية المعقدة الكئيبة التي تسمى " الفلسفة الإسلامية " أو " علم الكلام " أو " علم التوحيد " – البعيدة عن طبيعة التصور الإسلامي وعن طبيعة المنهج الإسلامي ذلك عندما شاء ناسٌ من " المسلمين " أن يخلطوا التصور الإسلامي بمقولات الفلسفة!، وأن يعقدوا المنهج الإسلامي بمنهج الفلسفة.. "(١).

واستعرض سيد قطب في كتابه " مقومات التصور الإسلامي " المنهج القرآني في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون والإنسان، مبيناً طريقة القرآن في التعريف بالإله الحق سبحانه وبصفاته، ومقتضيات وجوده وآثار هذا الوجود في الكون، وفي مخاطبة الفطرة وتوجيهها (٢)، ثم قال: " وهذا هو الفارق الأصيل بين خطاب المنهج القرآني... وبين خطاب الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام للذهن بالتصورات التجريدية، أو

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤٨.

(٢) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ، فصل حقيقة الألوهية ص ١٨٩ وما بعدها و ٢٤٧ . وفي ظلال القرآن ٥/٢٧٢٩

بالجدل البارد الذي لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحيي للقلوب والعقول " [١].

وينتقد منهج المعتزلة والمتكلمين المتأثرين بالفلسفة فيقول: " وكذلك تصبح البراهين الذهنية التجريدية على وجود الله – سبحانه – وهي التي اتجه إليها علماء التوحيد بتأثير منطق "أرسطو" والتي تعتمد على المقولات العقلية وحدها بعيدة في منهجها، غريبة على المنهج الإسلامي، وهذا المنهج القرآني، لأنها أضعف أنواع البرهان في هذا المجال...

ولقد أبعد المعتزلة وهم ينفون الصفات عن الله سبحانه لئلا يتعدد القدماء، لأن هذه الصفات إن كانت قديمة كذات الله تعدد القدماء! فهذا قياس ذهني بحت لا يتعامل مع الواقع، ولا مع المنهج

القرآني – فالله سبحانه – قد وصف نفسه بصفات، ومن هذه الصفات ما يقرر وحدانيته وأزليته وأبديته وإحاطته – سبحانه – بكل شيء إلى آخر أسمائه الحسنى.. إنما تابع

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٠٦ .

المعتزلة منطق " أرسطو" الذهني، وتجريدات " أفلوطين " [١] المهومة، ولم يتابعوا المنهج القرآني، وهو المنهج الإسلامي الأصيل. وكذلك فعلوا فيما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بعنوان " فتنة خلق القرآن" لئلا يكون القرآن قديماً فيتعدد القدماء، والبحث على هذا النحو بجملته غريب على الفكر الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي، فالقرآن وحي الله وكلامه وكفى.. " [٢].

٤- رفض استعارة " القالب الفلسفي في عرض العقيدة ورفض مصطلح "الفلسفة الإسلامية "

دعا سيد قطب إلى إلغاء ما يسمى بمصطلح الفلسفة الإسلامية وعدم استعارة القالب الفلسفي في عرض العقيدة الإسلامية، وبين السبب بقوله: " إننا لا نحاول استعارة " القالب الفلسفي " في عرض حقائق "التصور الإسلامي" اقتناعاً منا بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين طبيعة " الموضوع " وطبيعة " القالب "،

---

(١) أفلوطين فيلسوف يوناني ،ولد سنة٢٠٥م ، تأثر بفلسفة أفلاطون ، وفسر كتب أرسطو في المنطق ،وأسس المدرسة الأفلاطونية الحديثة في الإسكندرية ،مات سنة ٢٧٠م ،انظر: الفهرست لابن النديم ،المكتبة التجارية القاهرة ،ب .ت ، ص٣٥٧ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٨ .

وأن الموضوع يتأثر بالقالب، وقد تتغير طبيعته ويلحقها التشويه إذا عُرض في قالبٍ في طبيعته وفي تاريخه عداءٌ وجفوةٌ وغربةٌ عن طبيعته! الأمر المتحقق في موضوع التصور الإسلامي والقالب الفلسفي، والذي يدركه من يتذوق هذا التصور كما هي معروضة في النص القرآني.

نحن نخالف " إقبال" في محاولته صياغة التصور الإسلامي في قالب فلسفي مستعار من القوالب المعروفة عند " العقليين المثاليين" (١) وعند " الوضعيين الحسيين" (٢).

إن العقيدة – إطلاقاً – والعقيدة الإسلامية – بوجه خاص – تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة، والإيحاء بالحقائق الكبيرة، التي لا تتمثل كلها في العبارة، ولكن توحي بها العبارة، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها، ولا يخاطب " الفكر " وحده في الكائن البشري.

أما الفلسفة فلها أسلوب آخر، إذ هي تحاول أن تحصر

---

(١) من أمثال " هيجل ".

(٢) من أمثال " أوجست كونت " .

الحقيقة في العبارة، ولما كان نوع الحقائق التي تتصدى لها يستحيل أن ينحصر في منطوق العبارة – فضلاً عن أن جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه " الفكر" البشري – فإن الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف، كلما حاولت أن تتناول مسائل العقيدة!.

ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر في الحياة البشرية العامة، ولم تدفع بالبشرية إلى الأمام شيئاُ مما دفعتها العقيدة، التي تقدمت البشرية على حدائها في تيه الزمن وظلام الطريق.

لا بد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفئ إشعاعها وإيحاءها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة، ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب عن طبيعتها، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها.

ولسنا حريصين على أن تكون هناك " فلسفة إسلامية "! لسنا حريصين على أن يوجد هذا الفصل في الفكر الإسلامي، ولا أن يوجد هذا القالب في قوالب الأداء الإسلامية! فهذا لا

ينقص الإسلام شيئاً في نظرنا، ولا ينقص " الفكر الإسلامي " بل يدل دلالة قوية على أصالته ونقائه وتميزه! " (١).

ويقول: " وأنا أعلم أن هذا الكلام سيقابَل بالدهشة – على الأقل– سواء من كثير من المشتغلين عندنا بما يسمى " الفلسفة الإسلامية " أو من المشتغلين بالمباحث الفلسفية بصفة عامة ولكني أقرره وأنا على يقينٍ جازمٍ بأن " التصور الإسلامي " لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ، إلا حين نُلقِي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم " الفلسفة الإسلامية " وبكل مباحث " علم الكلام " وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور أيضاً، ثم نعود إلى القرآن الكريم، نستمد منه مباشرة " مقومات التصور الإسلامي "، مع بيان "خصائصه " التي تفرده من بين سائر التصورات، ولا بأس من بعض الموازنات – التي توضح هذه الخصائص – مع التصورات الأخرى – أما مقومات هذا التصور فيجب أن تستقى من القرآن مباشرة وتصاغ صياغة مستقلة.. تماماً " (٢).

وبعد أن قرر سيد – رحمه الله – رفضه لما سمي

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ١٦ ، ٧٤

(٢) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٢ .

بالفلسفة الإسلامية ومباحث علم الكلام يوضح أن هذا الموقف نابع من ثلاث حقائق هامة هي بمثابة الأسباب وهي:

الحقيقة الأولى: أن ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاّهوت المسيحي وكان له أثر في توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية، منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً في لغة سقيمة، مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح.

الحقيقة الثانية: أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تتم عن سذاجةٍ كبيرة، وجهلٍ بطبيعة الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية العميقة، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد، وأساسٍ منهجي واحد، مما يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة.

فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسطٍ وثنيٍ مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير، ولم تخل من العناصر الوثنية الأسطورية قط، فمن السذاجة والعبث– كان – محاولة التوفيق بينهما وبين التصور الإسلامي القائم على أساس التوحيد المطلق العميق التجريد لكن المشتغلين بالفلسفة والجدل من المسلمين فهموا – خطأً –

تحت تأثير ما نقل إليهم من الشروح المتأخرة المتأثرة بالمسيحية أن "الحكماء " وهم فلاسفة الإغريق – لا يمكن أن يكونوا وثنيين، ولا يمكن أن يحيدوا عن التوحيد! ومن ثَمّ التزموا عملية توفيق متعسفة بين كلام " الحكماء " وبين العقيدة الإسلامية، ومن هذه المحاولة كان ما يسمى "الفلسفة الإسلامية ".

الحقيقة الثالثة: أن المشكلات الواقعية في العالم الإسلامي – تلك التي أثارت ذلك الجدل منذ مقتل عثمان – رضي الله عنه – قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية، وبالأفهام والمفهومات انحرافاً شديداً، فلما بدأت المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية. بحثاً مغرضاً في الغالب، ومن ثم لم تعد تلك المصادر – في ظل تلك الخلافات – تصلح أساساً للتفكير الإسلامي الخالص، الذي ينبغي أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت في جوٍ خالصٍ من عقابيل تلك الخلافات التاريخية.

ومن ثم يحسن عزل ذلك التراث جملة، عن مفهومنا الأصيل للإسلام، ودراسته دراسة تاريخية بحته، لبيان زوايا

الانحراف فيه، وأسباب هذه الانحراف. " [(١)]

٥- الأسباب التاريخية لنشوء علم الكلام وعلاقته بالفلسفة:

تحدث سيد قطب –رحمه الله – عن الأسباب التي كانت وراء ظهور علم الكلام في العالم الإسلامي وأيضاً العلاقة بينه وبين الفلسفة ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي:

أ – اتساع رقعة الدولة الإسلامية واستقرارها، وخلو حياة الناس من هموم الجهاد أدى إلى استسلامهم لموجات الرخاء والترف المادي والفكري.

ب- ظهور الخلافات الفكرية بسبب المشكلات السياسية، والتي حاول أصحابها أن يجدوا لها سنداً من القرآن أو السنة بتأويلات صحيحة أو متعسفة.

ج – قيام عدد من الخلفاء العباسيين بترجمة الكتب اليونانية الفلسفية، ومن أشهرهم الخليفة المأمون [(٢)] الذي كان يغدق الأموال الجزيلة على من يقوم بأعمال الترجمة، حتى

---

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ١٢- ١٣ .

(٢) هو : الخليفة عبد الله بن هارون الرشيد ، ولد سنة ١٧٠هـ ، قرأ العلم والأدب ، وأمر بتعريب كتب الأعاجم ، دعا إلى القول بخلق القرآن ، كان ذا هيبة وحزم ، غزا الروم وتوفي سنة ٢١٨هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٧٢ .

يروى أنه كان يجزي المترجم وزن كتابه ذهباً.

د - اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى كالنصارى والمجوس وتأثرهم بثقافاتها وعلومها التي تقوم على الأسس الفلسفية.

هـ-عامل الدفاع والرد والحجاج الذي دفع فريقاً من علماء المسلمين إلى الخوض في هذه المباحث والعلوم

و - افتتان بعض المفكرين المسلمين بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية، وظنهم أن الفكر الإسلامي لا يستكمل نضوجه إلا إذا ارتدى زي الفلسفة وكانت له فيه مؤلفات!! فحاولوا إنشاء " علم الكلام " على نسق المباحث اللاهوتية ومنطق أرسطو، وعملوا على استعارة القالب الفلسفي ليصبوا فيه التصور الإسلامي، كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية وحاولوا التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي (١).

وقد أجمل سيد قطب الأسباب التي كانت وراء ظهور علم الكلام بقوله: " ولقد وقع في طور التاريخ الإسلامي – أن احتكت الحياة الإسلامية الأصيلة، المنبثقة من التصور الإسلامي الصحيح، بألوان الحياة الأخرى التي وجدها الإسلام

---

(١) سيد قطب ، لمحمد توفيق بركات ، ص ٢٠٠ .

في البلاد المفتوحة، وفيما وراءها كذلك، ثم بالثقافات السائدة في تلك البلاد، واشتغل الناس في الرقعة الإسلامية – وقد خلت حياتهم من هموم الجهاد، واستسلموا لموجات الرخاء.. وجدَّت في الوقت ذاته في حياتهم من جراء الأحداث السياسية وغيرها مشكلات للتفكير والرأي والمذهبية... فاشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية، وبالمباحث اللاهوتية التي تجمعت حول المسيحية، والتي ترجمت إلى اللغة العربية – ونشأ عن هذا الاشتغال الذي لا يخلو من طابع الترف العقلي في عهد العباسيين وفي الأندلس أيضاً، انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامي الأصيل، التصور الذي جاء ابتداءً لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات، ومن مثل هذه الاتجاهات وردها إلى التصور الإسلامي الإيجابي الواقعي، الذي يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة، للبناء والتعمير، والارتفاع والتطهير، ويصون الطاقة أن تنفق في الثرثرة، كما يصون الإدراك البشري أن يطرح به في التيه بلا دليل.

ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لا بد من مواجهة آثار هذا الاحتكاك، وهذا الانحراف، بردود وإيضاحات وجدل حول ذات الله – سبحانه – وصفاته. وحول القضاء والقدر،

وحول عمل الإنسان وجزائه، وحول المعصية والتوبة، إلى آخر المباحث التي ثار حولها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي! ووجدت الفرق المختلفة خوارج وشيعة ومرجئة، قدرية وجبرية، سنية ومعتزلة.. إلى آخر هذه الأسماء.

وكذلك وجد بين المفكرين المسلمين من فتن بالفلسفة الإغريقية – وبخاصة شروح فلسفة أرسطو – أو المعلم الأول كما يسمونه– وبالمباحث اللاهوتية – وظنوا أن " الفكر الإسلامي " لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله أو مظاهر أُبَّهته وعظمته، إلا إذا ارتدى هذا الزي – زي التفلسف والفلسفة – وكانت له فيه مؤلفات! وكما يفتن منا اليوم ناسٌ بأزياء التفكير الغربية، فكذلك كانت فتنتهم بتلك الأزياء وقتها، فحاولوا إنشاء " فلسفة إسلامية " كالفلسفة الإغريقية –وحاولوا إنشاء "علم الكلام " على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو !.

وبدلاً من صياغة التصور الإسلامي، في قالبٍ ذاتيٍ مستقل، وفق طبيعته الكلية، التي تخاطب الكينونة البشرية جملة، بكل مقوماتها وطاقاتها، ولا تخاطب " الفكر البشري " وحده خطاباً بارداً مصبوباً في قالب المنطق الذهني.. بدلاً من

هذا فإنهم استعاروا " القالب " الفلسفي ليصبوا فيه " التصور الإسلامي " كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية ذاتها، وحاولوا أن يوفقوا بينهما وبين التصور الإسلامي، أما المصطلحات فقد كادت تكون كلها مستعارة. " (١).

وبالتالي يخلص سيد – رحمه الله – إلى: " أن الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين إنما هو آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية، وللعقلية الإسلامية الناصعة، وما كان لنا أن نقع اليوم في هذه الآفة، فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام "(٢).

بهذه المعالم يتضح لنا موقف سيد قطب الرافض لما سمي بـ "الفلسفة الإسلامية "و "علم الكلام " وأسباب هذا الموقف وهو في جملته موافق لموقف السلف في نظرتهم للفلسفة وعلم الكلام.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب – ص ١٠ –١١

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٥٣ .

المبحث الرابع

موقفه من قضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان

أولاً: المقصود بتطور العقيدة:

نظرية تطور العقيدة من النظريات الغربية، التي يقررها علماء مقارنة الأديان وتقوم هذه النظرية على " أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما هي عليه اليوم مرة واحدة، وإنما تطورت في فتراتٍ وقرونٍ متعاقبة شأنها شأن سائر العلوم والصناعات الإنسانية حيث عبد أول ما عبد الطوطم(١)، ثم ترقى إلى أن وصل في النهاية إلى معرفة الله ". (٢)

والذي أوقعهم في هذا الضلال أمور منها:

١- ظنهم أن الإنسان الأول خُلق خلقاً ناقصاً، غير مؤهلٍ

---

(١) الطوطم : نوع من المعبودات البدائية، قد يكون جماداً أوحيواناً أو نباتاً ، تتخذه العشيرة شعاراً ورمزاً لوحدتها أو قوتها ، وتعتقد أنه جدها الأعلى ومنه تناسلت ، فتقدسه بناء على ذلك ولا تسمح للنساء والغرباء بلمسه ،. انظر : الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، لعبد القادر شيبة الحمد ، مطبوعات الجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية ، ط١ ، ب. ت ، ص ١٢ .

(٢) انظر : كتاب " الله " لعباس العقاد ، دار الهلال ، القاهرة ، ب . ت ، ص ١٠ .

لتلقي الحقائق العظمى كاملة، فتصورهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

٢- ظنهم أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه دون معلمٍ أو مرشد، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد إذاً من أن يترقى في معرفة الله كما ترقى في العلوم والصناعات.

٣- اعتمادهم في بحثهم في تاريخ العقيدة على الأديان المحرفة والضالة، والتي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة، أو ضلاله في تفسير الوجود الإنساني [١].

- والعجيب أن بعض الكتّاب المسلمين تأثروا بهذه النظرية الغربية، وروجوا لها ومنهم الأستاذ عباس العقاد في كتابه الذي بعنوان: " الله ".

ثانياً: موقف الإسلام من نظرية تطور العقيدة:

المتأمل في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن التوحيد ودعوة الرسل والأنبياء يجد ضلال أصحاب القول بتطور العقائد، لأن الله سبحانه أخبر أنه خلق الإنسان منذ البداية خلقاً سوياً مكتملاً، لغايةٍ واحدةٍ هي عبادته وتوحيده، وجعله مؤهلاً

(١) الشرك بالله تعالى ، أنواعه وأحكامه ، ماجد محمد شباله ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ط١ ، عام ٢٠٠٥، ص ٤٩.

لذلك، وأنه عرّف الإنسان بنفسه منذ البداية، ولم يتركه يتعرف على ربه بطريق التأمل والتجريب – كما يقول علماء مقارنة الأديان!! – بل أرسل الرسل وأنزل الكتب على مدار التاريخ لتصحيح الانحراف الذي يقع على عقائد البشر وأحوالهم كلما انحرفوا عن التوحيد الحق.

كما يقرر أيضاً أن آدم عليه السلام أهبطَ إلى الأرض موحداً يعرف ربه، ونشأت من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص، وإنما حصل الانحراف عن التوحيد والوقوع في الشرك بعد موت آدم –عليه السلام– بنحو عشرة قرون، كما جاء عن ابن عباس –رضي الله عنه –: " كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام " (١).

وأن سبب هذا الانحراف هو تقديسهم للصور والتماثيل، فكانت رسالة نوحٍ –عليه السلام– لتصحيح الانحراف العقدي في البشرية، وهكذا كلما انحرف البشر عن التوحيد جاءت الرسل لإعادتهم إلى جادته، حتى خُتمت الرسالات برسالة محمد ﷺ.

---

(١) تفسير الطبري ، ١٩٤/١ ، والأثر رواه الحاكم في المستدرك ٥٤٦/٢ ، وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وله شاهد في حديث قتادة بسند صحيح.

كما يقرر القرآن أيضاً أن أصل دعوة الرسل جميعاً هو التوحيد والاستسلام لله – سبحانه – مما يدل دلالة واضحة على بطلان قول علماء الأديان المقارنة بتطور العقيدة، بل وضلالهم في ذلك لأن المتتبع لتاريخ العقيدة كما يذكره القرآن الكريم يجد أن الأصل في بني آدم تاريخاً وفطرة هو التوحيد وأن الشرك طارئ على البشرية (١).

ثالثاً: موقف سيد قطب من نظرية تطور العقيدة ومقارنة الأديان:

يمكن إجمال موقف سيد قطب من قضية تطور العقيدة وبحوث علماء مقارنة الأديان عموماً في النقاط الآتية:

١- يرى أن بحوث علماء الأديان المقارنة تقوم ابتداءً على العداء للدين، وتستخدم منهجاً خاطئاً وبالتالي تأتي النتائج خاطئة حيث يقول سيد قطب – رحمه الله – بعد تتبعه للخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية: " ومن هذا التتابع التاريخي – الذي يقصه الله سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن، وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه.

(١) الشرك بالله تعالى ، ماجد شباله ، ص ٤٩ وما بعدها .

خطأ المنهج: لأنه يتّبع خط الجاهليات التي عرفته البشرية ويهمل خط التوحيد الذي جاءت به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ - ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل، ولا يعرف هذا القليل إلا على سبيل الظن، والترجيح! - وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأساً في إحدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد اخناتون(١) مثلاً في الديانة المصرية القديمة، فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد - ولو على سبيل الاحتمال - وقد جاء اخناتون في مصر بعد عهد يوسف - عليه السلام - وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم...، وهم إنما يفعلون ذلك لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الديني، بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمي في كل صوره في فترة من فترات التاريخ، فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب

---

(١) اسمه أفينوفيس ، عاش في مصر في الفترة ١٣٧٠ -١٣٥٣ ق.م ،من آثاره معبد الأقصر ، انظر : المنجد في الأعلام ،ص٧١ .

مزاعم الكنيسة من أساسها، للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها ومن أجل هذا جاء منهجاً منحرفاً منذ البداية، لأنه يتعمد الوصول سلفاً إلى نتائج معينة، قبل البدء في البحث!.

وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والاقتصادية الغاشمة فإن هذا المنهج استمر في طريقه، لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه، والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس، حتى صارت من أصول المنهج!.

أما خطأ النتائج: فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه، هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع، على أنه أياً كان المنهج وأياً كانت النتائج التي يصل إليها، فإن تقريراته مخالِفة مخالَفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم، وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه في مسألة من المسائل، فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه "مسلم "أن يأخذ بتلك النتائج، ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية، وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري، وسبق التوحيد للتعدد والتثنية.. قاطعة، وغير قابلة للتأويل، فهي مما يقال عنه:

إنه معلوم من الدين بالضرورة، وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر، أن يختار بين قول الله سبحانه، وقول علماء الأديان، أو بتعبير آخر: أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام، لأن قول الله في هذه القضية منطوقٌ وصريحٌ وليس ضمنياً ولا مفهوماً " (١)

ويقول أيضاً: " وهذه الحقيقة– حقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونية والربوبية والقوامة لله وحده.. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة"وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوارٌ شتى من التعدد والتثنية للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح وتأليه الشموس والكواكب إلى آخر ما تخبط فيه هذه"البحوث"التي تقوم ابتداءً على منهجٍ موجهٍ بعوامل تاريخيةٍ ونفسيةٍ وسياسيةٍ معينة، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أن الأديان من صنع البشر، وأنها من ثم

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٤ بتصرف يسير

تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان"[١].

ويقول أيضاً ".. ولكنهم – أي علماء الدين المقارن – إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة في أوربا – حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون – ومن الرغبة الخفية – الواعية أو غير الواعية – في تحطيم المنهج الديني في التفكير، وإثبات أن الدين لم يكن قط وحياً من عند الله، إنما كان اجتهاداً من البشر ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواءً بسواء، ومن ذلك العداء القديم، ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن، ويسمى مع ذلك" علماً " ينخدع به الكثيرون"[٢]. " وهو في الأساس موجهٌ لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله وهي أنه وحي من الله، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور"[٣]

ومن الأخطاء المنهجية أيضاً أن علماء الأديان المقارنة يلتقطون ظواهر معينة في تاريخ البشرية ليبنوا عليها النتائج،

---

(١) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٨٢ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٠٠.

(٣) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٨٥.

ويضرب سيد مثلاً لهذا الخطأ عندهم وهو اعتبارهم السحر مرحلة من مراحل تطور العقيدة حيث يقول: " كانت أرض مصر تموج بالكهنة – الذين يزاولون أعمال السحر – ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان" فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة! ويقول الملحدون منهم: إن الدين سيبطل كما يبطل السحر! وأن العلم سينهي الدين كما أنهى عهد السحر!.. إلى آخر هذا الخبر الذي يسمونه "العلم " (١)

١- <u>مناقشة – سيد قطب – لنظرية تطور العقيدة والرد عليها:</u>

استعرض – سيد قطب –رحمه الله – نظرية تطور العقيدة ومراحلها كنموذج لمزالق وانحرافات بعض الكتّاب المسلمين الذين تأثروا بالنظريات الغربية المخالفة لمنهج وتقريرات القرآن الكريم من خلال ما كتبه أستاذه عباس العقاد حول تطور العقيدة.

يقول – سيد: " وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام

---

(١) المصدر السابق ، ٣/ ١٣٤٨ .

مدافعين، فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان- وفق ذلك المنهج الموجه! -من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم، ومع أننا هنا في ظلال القرآن الكريم، لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام لكننا نُلم بنموذجٍ واحد، نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القضية

كتب الأستاذ العقاد في كتابه " الله " في فصل أصل العقيدة قائلاً: " ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات.. فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة الأخرى... وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في

سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات.. فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن

محال، وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر، وطوراً بعد طور، وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية، أو بين أمم الحضارات العريقة، ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة، فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها، وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء، أو يبنون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين، فإن العالِم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال..

ثم كتب في فصل " أطوار العقيدة الإلهية " قائلاً: " يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوارٍ عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادهم بالآلهة والأرباب وهي: دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدانية.

– ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرةٍ كبيرةٍ ربٌ تعبده، أو تعويذه تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين.

– وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة، وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة.

– وفي الدور الثالث تتوحد الأمة، فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع... ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوارٍ من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت

سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقته بإرادة الله وحكمته العالية، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية.. " (١).

وبعد أن استعرض سيد كلام العقاد السابق حول تطور العقيدة ناقشه بقوله: " وواضحٌ سواءً من رأي الكتاب نفسه، أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم، ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية، وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال"، وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه وهي قوله: " موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية منذ أن اتخذ الإنسان رباً، إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد".

والذي لا شك فيه أن الله – سبحانه – يقرر في كتابه الكريم، تقريراً واضحاً جازماً شيئاً آخر غير ما يقرره صاحب

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٨٢– ١٨٨٤ بتصرف يسير .

كتاب " الله " متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة، وأن الذي يقرره الله – سبحانه – أن آدم – عليه السلام – وهو أول البشر عَرَف حقيقة التوحيد كاملة، وعَرَف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية، وعَرَف الدينونة لله وحده بإتباع ما يتلقى منه وحده، وأنه عَرَّف بنيه بهذه العقيدة فكانت هناك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً، وإلا التوحيد عقيدة.... وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد، ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد، ودانت لشتى الأرباب الزائفة حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد، وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون " نزاهة التوحيد " وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية، ولنا أن نجزم أن أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق، قبل أن يطول عليهم الأمد، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد.. وأنه هكذا كان شأن كل رسول: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾} [سورة الأنبياء: ٢٥].

" والذي لا شك فيه أن هذا شيءٌ، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب " الله " – أي العقاد – شيءٌ آخر، وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها.. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضاً، فهي ليست الكلمة النهاية حتى في مباحث البشر الفانين! " (١).

وقد تعرض سيد قطب –رحمه الله – في أكثر من موضع لقضية تطور العقيدة وبيان ضلالها، حيث نجده يستعرض تاريخ الأنبياء من لدن آدم –عليه السلام –ويقرر بأن آدم هبط إلى الأرض مسلماً لله متبعاً لهداه، وما من شك أنه علَّم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل، وأن الإسلام هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى، فإذا نحن رأينا قوم نوح – وهم من ذرية آدم

بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله – قد صاروا إلى هذه الجاهلية... فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً، وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ١٨٨٤– ١٨٨٥ .

على بني آدم، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية، تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدي الله، وإتباعه وحده، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيره ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار– هو مناط التكليف – وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه، كما يملك أن ينحرف – ولو قيد شعره – عن هدى الله إلى تعاليم غيره، فيجتاله الشيطان حتى يقذف به – بعد أشواط إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم – النبي المسلم – بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله " (١).

وفي كتاب " مقومات التصور الإسلامي" يعرض سيد قطب قصة التوحيد في الرسالات ويقرر: " أن آدم – عليه السلام – أبو البشر.. عرف إلهه الواحد.. الله رب العالمين، ودان له بالتوحيد، وعرف أنه مستخلف في الأرض عنه، وأنه مأمور باتباع هديه وحده، وشريعته وحدها هو وذريته من بعده... (٢)

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢ .

(٢) ينظر الآيات ١٠ – ٣٦ من سورة الأعراف

ونوح – عليه السلام – أبو البشر الثاني.. عرف إلهه الواحد، الهادي الرحيم، عالم الغيب والشهادة، القاهر فوق عباده، الذي إليه المرجع والمصير، وعرف أن توحيد الله هو الآصرة التي انقطعت بينه وبين ولده.. فلم يعد من أهله، وكانت قضية هذا التوحيد هي التي دارت عليها المعركة، وانتهت بالطوفان، فلم ينج بعدها إلا الموحدون.. (١).

وهود –عليه السلام – عرف إلهه الواحد، الفاطر الرازق، واهب القوة، القاهر الآخذ بناصية كل دابة، الذي يستخلف في أرضه من يشاء، وأرسله الله إلى قومه بهذا التوحيد، ودارت المعركة على هذه القضية، وعليها كان التحدي، وفيها كانت النهاية (٢).

وصالح – عليه السلام – كذلك عرف إلهه الواحد، الخالق المستخلف عباده في الأرض... وأُرسل إلى قومه بهذا التوحيد، وعلى هذه القضية دارت المعركة، وكانت النجاة للموحدين والدمار للمشركين(٣)

---

(١) ينظر الآيات ٢٥ – ٤٨ من سورة هود

(٢) ينظر الآيات ٥٠ –٦٠ من سورة هود

(٣) ينظر الآيات ٦١ – ٦٨ من سورة هود .

وشعيب – عليه السلام – عرف إلهه الواحد الرازق، الموفِق الرحيم.. وبهذا التوحيد أرسل إلى قومه الذين كانوا يعرفون مصائر عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ في الجزيرة العربية قريباً منهم.. لكنهم انحرفوا عن التوحيد وهلك من هلك ونجا من نجا... وعُرف التوحيدُ من جديدٍ " (١).

وإبراهيم – عليه السلام – أبو الأنبياء، وأبو الأمة الإسلامية، وأبو نبيها الكريم – عليه صلوات الله وسلامه – عرف الله الواحد، بصفاته التي عرفته بها الأمة المسلمة في آخر الزمان، وأقام لهذا التوحيد منارته الباقية – بيت الله العتيق – وعلَّم بنيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف هذا التوحيد (٢).

وبعقيدة التوحيد هذه أُرسل موسى –عليه السلام – في نسل يعقوب، وعليها دارت المعركة وأنجى الله الموحدين وأغرق أعداءهم (٣). ثم وقع الانحراف في بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام.

---

(١) ينظر الآيات : ٨٤– ٩٥ من سورة هود .

(٢) ينظر الآيات : ٦٩– ٨٩ من سورة الشعراء ، ١٢٤– ١٣٣ من سورة البقرة ، ٣–٤٠ من سورة يوسف .

(٣) ينظر الآيات : ٢٨– ٤٦ من سورة غافر ، والآيات ١٠ – ٦٨ من سورة الشعراء .

وبالتوحيد دان عيسى –عليه السلام – وكان آخر أنبياء بني إسرائيل(١) ثم وقع الشرك بعد رفعه وحُرِّف دينه، فلا عبرة إذن بالانحرافات والانتكاسات التي وقعت في عقائد النصارى من بعده، ولا علاقة لها بخط العقيدة في الرسالات السماوية.

وإلى هذا التوحيد أمر رسول الله ﷺ أن يدعوهم: {قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾} [سورة آل عمران: ٦٤]. (٢).

وهكذا تتجلى في المنهج القرآني قصة قضية التوحيد في تاريخ البشرية كله، وكيف كان التوحيد قاعدة دين الله كله في الرسالات كلها، على مدار العصور والقرون، فيتبين من هذا الخط الذي توسعنا عامدين في عرضه في القرآن الكريم:

أولا: أهمية هذا الأصل، باعتباره قاعدة التصور الإسلامي.

ثانيا: خطأ منهج علم الأديان المقارنة عن (تطور) عقيدة التوحيد، بدون استثناء الرسالات السماوية، بل بالإغفال

---

(١) ينظر الآيات : ٤٥–٩٥ من سورة آل عمران .

(٢) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ٨٥– ٩٧ بتصرف .

المتعمد لاستقلال هذه الرسالات عما صاغته عقول البشرية من ركام العقائد والتصورات، واعتبار ما جاءت به الرسالات مجرد تطور في المحاولات البشرية في مجال الاعتقاد.

ثالثاً: خطر هذا المنهج على العقيدة الصحيحة، لمناقضته للمنهج القرآني، ومخالفته عن قول الله في هذه القضية، وخطورة وقوع بعض الشارحين للإسلام أو المدافعين عنه في هذا المزلق الذي تحفره الداروينية والمناهج الأوربية الشاردة من الكنيسة، ثم قراءة الراغبين في الإسلام لمؤلفات هؤلاء المنزلقين، وهم يحسنون الظن بهم، لأنهم يرونهم متحمسين للإسلام، مدافعين عنه، فينزلقون وراءهم في منهج مناقض لمنهج القرآن... والأمر هنا أمر عقيدة.. فما يؤمن بالله من لا يصدق قوله في قضية العقيدة.. وما يؤمن بالقرآن من يتخذ منهجاً مناقضاً لمنهج القرآن!.

لقد كانت قضية توحيد الله – سبحانه –وإفراده بالألوهية، والعبودية له وحده بلا شريك، والدينونة له بلا منازع، هي قضية الاعتقاد الأولى والحقيقية، في جميع الرسالات، في جميع العصور.

لقد كانت عقيدة التوحيد هبةً خالصةً من الله للبشر،

عرَّفها لهم عن طريق الرسل، ولم تكن من صنع هؤلاء البشر، ولا هم تدرجوا في كشفها حتى كشفوها، كما تدرجوا في العلوم والصناعات حتى أتقنوها.. فقد جاءتهم في الرسالات السماوية منذ فجر التاريخ كاملة حاسمة.

وجائز أن يقال: إن البشرية تقبلت عقيدة التوحيد التي جاءت بها الرسالات تدريجياً. رسالة بعد رسالة، وكانت كل رسالة تترك في ضميرها استعداداً أكبر لقبول عقيدة التوحيد، وكان الترقي في هذا الاستعداد يتطور وينمو كلما تهيأ لها مزيدٌ من المعرفة والتجربة والنمو الاجتماعي والسياسي، وكان عدد أتباع الرسل يزداد، ومجال التوحيد يتسع، وآثاره في الحياة الواقعية للبشرية تنمو، كما تنمو آثاره في ضمائرها وأخلاقها..

جائز أن يقال هذا – بتحفظ وليس على إطلاقه – لأن الخط – كما قلنا من قبل – لم يكن مطرداً دائما ولا صاعداً دائماً، وكانت هنالك دائماً انتكاسات وارتكاسات وكان الخط صاعداً عند الرسالة هابطاً عندما يطول الأمد.. ودليلنا هذا الذي فيه خلائف الأمة المسلمة اليوم وصورة التوحيد في مجالاته كلها، بينها وبين صورته عند الجماعة المسلمة الأولى فرقٌ هائلٌ بعيدٌ، يجعل الأمة المسلمة على دين، وخلائفها هذه على

دين آخر، لا علاقة له بالإسلام إلا في الاسم فلكل منهما ملة، ولكل منهما دين! ولكن القول على ذلك النحو جائز، ولا مناقضة فيه للمنهج القرآني.

أما غير الجائز فهو أن يقال: إن عقيدة التوحيد لم تعرف إلا بعد أن قطعت إليها البشرية أشواطاً من " التطور ".. كأن عقيدة التوحيد كانت صناعة بشرية: – وهي هبةٌ إلهيةٌ – وكأن الرسل لم يكونوا إلا صورة للتطور البشري في العقائد التي جاءوا بها – متطورة – ولم يكن يوحى إليهم! أو كأن الله – سبحانه – كان يوحي إليهم بالاعتقاد في الأرواح والطواطم والآلهة المتعددة، ثم يوحي إلى المتأخرين منهم فقط بعقيدة الإله الواحد! وذلك وقت استعداد البشر في الأطوار المختلفة لإدراك صورة من صور الاعتقاد!.

وما كان الأمر كذلك أبداً.. إنما كانت عقيدةً واحدةً، وديناً واحداً، قاعدته هي هذه: توحيد الإلوهية وإفراد الله سبحانه بها، وتعبيد الناس لربهم الواحد بلا شريك، ثم تختلف الشرائع وتنمو حتى تكتمل في الرسالة الأخيرة.. أما أصل العقيدة فلا تغيير في جوهره، لأنه بدونه لا تكون عقيدة في الله ولا تستقيم.. " (١).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ،ص ٩٨– ١٠٠ .

وبعد تقريره لما سبق يقول: " وحقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده، تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم " علماء الأديان المقارنة " وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى أخر ما تخبط فيه هذه البحوث التي تقوم ابتداءً على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أن الأديان من صنع البشر، وأنها من ثَّم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان!.

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين، فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان – وفق ذلك المنهج الموجه – من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم حين يقرر أن آدم –عليه السلام – هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام، وأن نوحاً – عليه

السلام – واجه ذراري آدم الذين اجتالتهم الشياطين عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه.. القائم على التوحيد المطلق.. وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية وأن الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام.. القائم على التوحيد المطلق.. وأنه لم يكن قط تطور في أصل الاعتقاد – إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة– وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة، إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية – حتى بعد انحراف الأجيال عنها – ترقي عقائدهم الجاهلية ذاتها، حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني، أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية، إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه، فهي حق منذ اللحظة الأولى، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى..

هذا ما يقرره القرآن الكريم، ويقوم عليه التصور

الإسلامي، فلا مجال – إذن – لباحث مسلم – وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام! أن يَعْدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة.. النابعة من منهج موجه كما أسلفنا.. " (١).

"وما من شك أنه حين يقرر الله – سبحانه – أمراً ويبينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع، ويقرر غيره قولاً آخر فان قول الله يكون أولى بالإتباع، وخاصة ممن يدافعون عن الإسلام، فهذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية التي تقوم على أن التوحيد هو الأصل في تاريخ البشرية، كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة الذين يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله، وهي أنه وحي من الله، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور " (٢).

ومن خلال ماسبق يتبين لنا بوضوح موقف سيد قطب – رحمه الله – من قضية تطور العقيدة وبحوث علماء الأديان المقارنة من الغربيين أو من تأثر بهم من المسلمين والذي يقوم على:

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢ – ١٨٨٣.

(٢) المصدر السابق ، ٤/ ١٨٨٥ بتصرف .

١- بيانه لحقيقة عداء علماء الأديان المقارنة في بحوثهم وكتاباتهم للدين وحرصهم على تحطيم أسس العقيدة الإسلامية.

٢- بيانه لخطأ نظرية تطور العقيدة سواءً في المنهج التي قامت عليه، أو في النتائج التي توصلت إليها.

٣- تقريره لمنهج القرآن في عرض العقيدة وبيان مخالفة نتائج بحوث علماء الأديان المقارنة لما يقرره القرآن في قضية تاريخ العقيدة.

٤- نقده الشديد لبعض الكتَّاب المسلمين الذين تأثروا ببحوث علماء الأديان المقارنة الغربيين، ورده عليهم من خلال استعراض خط العقيدة التاريخي في القرآن الكريم، وجعل ما يقرره القرآن هو الفيصل في هذا الباب.

٥-تحذ يره من الأخذ عن غير المسلمين، وبيانه لمدى تغلغل مناهج الفكر الغربي في أوساط المفكرين المسلمين [١].

---

(١) للتوسع في معرفة موقف سيد من تطور العقيدة بنظر أيضا : في ظلال القرآن ١/ ٢١٥ ، ٢/ ١٠٩٦ ، ١١٤٤- ١١٤٧ ،

والخلاصة: من خلال ما سبق تبين لنا أن سيد قطب – رحمه الله – كان في الجملة موافقاً لمنهج السلف في طريقة تلقي وفهم وتقرير العقيدة والاستدلال عليها، حيث رفض مناهج المتكلمين والفلاسفة وعلماء مقارنة الأديان، وبيَّن مخالفتها لمنهج القرآن في تقرير العقيدة، وإن كان قد وقع في هذا الباب في خطأ جزئي فيما يتعلق بموقفه من حديث الآحاد.

٣/ ١٣٠٤–١٣٠٨ ، ١٣٣٠ ، ١٣٤٦ / ١٣٤٨ ، ١٣٩٠ ، ٤/ ١٨٨٢ ، ١٨٨٥ ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٨ ، ٢١٠٠ ، ٦ /٣٥٨٤ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٦ ، ٨٣ – ١٠٠ .

الفصــل الثانــي

منهجــه فــي الدعوة إلــى العقيــدة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحـــث الأول: أهمية العقيدة وخصائصها.

المبحث الثـــاني: منهجه في عرض مسائل العقيدة والدعوة إليها.

المبحث الثالث: موقفه من المخالفين.

المبحث الأول
أهمية العقيدة الإسلامية وخصائصها

"جاء الإسلام وفي العالم ركام هائل من العقائد والتصورات، والفلسفات والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، يختلط فيها الحق بالباطل والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة، والحياة الإنسانية – بتأثير هذا الركام الهائل – تتخبط في فسادٍ وانحلال، وفي ظلمٍ وذلٍ، وفي شقاءٍ وتعاسةٍ، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع الحيوان! "[(١)].

" ومراجعة ذلك الركام.. تكشف عن عظمة الدور الذي جاءت هذه العقيدة لتؤديه في تحرير الضمير البشري وإعتاقه، وفي تحرير الفكر البشري وإطلاقه، وفي تحرير الحياة، والحياة تقوم على أساس التصور الاعتقادي كيفما كان"[(٢)].

" ولقد جاء الإسلام لينشئ أمة، يسلمها قيادة البشرية، لتنأى بها عن التيه والركام، فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة، وتترك

---

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

منهج القيادة، وتلهث وراء الأمم الضاربة في التيه والركام " [١].

لذا كانت الحاجة إلى بيان العقيدة وخصائصها، ومن هذا المنطلق عمل سيد قطب– رحمه الله – على بيان أهمية العقيدة الإسلامية وبيان خصائصها التي تميزها عن ذلك الركام من التصورات الضالة، وبيان رسائل الأعداء في محاربتها، وبيان ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول

أهمية العقيدة الإسلامية

عمل سيد قطب – رحمه الله – جاهداً على بيان أهمية العقيدة الإسلامية في حياة البشر، وضبط علاقاتهم وانتظام أمورهم، ويمكن بيان أهمية العقيدة عنده من خلال النقاط الآتية:

١– العقيدة الإسلامية أساس الرابطة بين البشر:

" فالعقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام، حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة [٢] ولا جنسٍ

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢ بتصرف .

(٢) الأرومة:أي الأصل ٠ انظر لسان العرب ١٢٣/١ .

ولا أرض.. فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه، ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه، ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج، والولاية بين فرد وفرد، وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل، لا ترتكن إلى وشيجة أخرى غير وشيجة العقيدة، يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن، والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس، ويتجمعون أولياء – بالعقيدة وحدها – والله من ورائهم ولي الجميع {إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾} [سورة آل عمران: ٦٨]... وهذه الصورة هي ارقي صورة للتجمع الإنساني يليق بالكائن الإنساني، ويميزه عن القطيع، كما أنها الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود، لان القيد الوحيد فيها اختياري.. فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر، على حين لا يملك أن يغير جنسه أو قومه أو لونه أو طبقته إن كانت الرابطة هي الجنس أو القوم أو اللون أو الطبقة، ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أمام التجمع الإنساني ما لم ترد إلى رابطة العقيدة...

والبشرية إما أن تعيش – كما يريدها الإسلام أناسي تتجمع على العقيدة.. وإما أن تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية أو حدود الجنس واللون.. وكلها حدود مما يقام للماشية في المرعى حتى لا يختلط قطيع بقطيع!!! " (١).

" ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة – في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية هي آصرة التجمع، فعقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله، وهي جنسيته " (٢).

٢- العقيدة الإسلامية سبب انتظام الحياة وصلاحها:

" إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد، والعبودية لإله واحد، وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس.. وما صلحت الأرض قط، ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده،

---

(١) في ظلال القرآن ٤١٢/١-٤١٣ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٨٨٨/٤ . وينظر أيضاً الظلال ، ١٢/١، ١١٣، ١٣٤، ٤١٢، ٩١٤/٢، ١٥٤٨/٣، ١٧٢١، ٢٦٠٢/٥، ٣٥٤٥/٦ .، ومعالم في الطريق فصل " جنسية المسلم عقيدته" ص١٤٩ وما بعدها ، وهذا الدين ، ص ٨٨ .

عقيدة وعبادة وشريعة " (١).

" إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة، إلا بالرجوع إلى الله... عن طريق العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه... إنه أمر العقيدة من أساسها.. ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها "(٢).

" فالتوحيد حقيقة أولية يقوم عليها هذا الوجود كله.. وهو قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليه " (٣).

<u>٣- العقيدة الإسلامية تجعل الإنسان متناسقاً مع الكون والسنن الإلهية:</u>

" إن صاحب العقيدة، مدرك لسنن الله متعرف إلى مشيئة الله. مطمئن إلى قدرة الله، إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطئه لم يكن

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٣٤٥/٣ .

(٢) المصدر السابق ، ١٥/١، بتصرف ، وينظر أيضا الظلال ١٩٠٣/٤ و١٩٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ٥/ ٣٠١٠ ، بتصرف.

ليصيبه ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع، ولا يتلقى السراء بالزهو. " (١).

" إن العقيدة التي تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة، وهي توحي إليه أن له أجراً حين يرويها من العطش، هي عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة، عقيدة تسكب في روحه السلام، وتطلقه يعانق الوجود كله، ويعانق كل موجود، ويشيع من حوله الأمن والرفق والحب والسلام، وبالتالي يشعر بأنه يمضي على سنة الله مع هذا الكون كله، قانونه قانونه، ووجهته وجهته، فلا صدام ولا خصام، ولا تبديد للجهد، ولا بعثرة للطاقة، وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته، وتهتدي بالنور الذي يهتدي به، وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله " (٢).

" إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية،.. وتفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء" (٣). " فالإنسان – بفطرته – لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة مغلقة ضائعة، فلا بد له

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٤٩٨ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٨ ، بتصرف.

(٣) ينظر : فصل " العقيدة والحياة " في كتاب السلام العالمي والإسلام ص ٥ وما بعدها .

من رباط معين بهذا الكون يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه، فلا بد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهي ضرورة فطرية شعورية.. وكم كان شقاء الإنسان وحيرته وضلاله حين أخطأ حقيقة هذا الارتباط وهذا التفسير " (١).

٤- العقيدة الإسلامية أصل التشريعات:

" إن التشريعات والتوجيهات – في منهج الله – إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة، إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق الذي هو سمة هذه العقيدة، ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض... ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية.. ومن العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والإنسانية التي تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعالمية، والتي تؤثر في علاقات الناس بعضهم ببعض، في كل مجالي النشاط الإنساني في الأرض "(٢).

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦٥٩/٢، بتصرف .

" كما أن العقيدة هي المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعاً، وإلا فهي أنكاث، فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير "(١).

لهذا نجد القرآن" يربط بين العقيدة والشعائر، فهي منبثقة من العقيدة وقائمة عليها، والشعائر تعبير عن هذه العقيدة، ورمز لها " (٢) " فالإسلام عقيدة، تنبثق منها شريعة، يقوم على هذه الشريعة نظام، وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام " (٣).

<u>٥- العقيدة الإسلامية قاعدة الدعوة الإسلامية:</u>

كانت قضية العقيدة هي القضية الكبرى التي ظل النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة يقررها. واستمر كذلك بعد الهجرة يؤكدها ويربطها في كل التشريعات وتفصيلات الأحكام، ولقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة وأن يبدأ رسول الله

---

(١) المصدر السابق ، ٤/ ٢١٩٣.
(٢) المصدر السابق ، ٤/ ٢٤٢٣.
(٣) المصدر السابق ، ٥/ ٢٨٢٢ .

ﷺ أولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن يمضي في دعوته يعَّرف الناس بربهم الحق، ويعبدهم له دون سواه.. وأصحاب الدعوة إلى دين الله، وإقامة نظامه في الحياة، خليقون أن يقفوا طويلاً أمام هذه الظاهرة الكبيرة.. " (١).

" فالعقيدة إذا استقرت في النفوس، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه العقيدة في الواقع، فالانطلاق من العقيدة ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة وضماناً من ضمانات البقاء " (٢)

" لذلك يجب أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة، حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين!.. يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولاً إقرار عقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي... ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت أساس دعوتهم إلى

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/١٠٠٥ ، بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ٢/١٠٠٩ .

الإسلام أول مرة " [١].

٦- العقيدة الإسلامية أساس المعركة مع الأعداء:

"القرآن الكريم يربي وعي المسلم بحقيقة المعركة التي يخوضها مع أعدائه... إنها معركة العقيدة، فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه، وهم يعادونه لعقيدته ودينه، قبل أي شيء آخر "[٢]

" إنها معركة العقيدة، وليست معركة الأرض، ولا الغلة ولا المراكز العسكرية، ولا هذه الرايات المزيفة كلها، فهي معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها وإن لونوها بألوان شتى [٣].

٧- العقيدة الإسلامية مصدر العزة وسبب الثبات:

" العقيدة هي صخرة النجاة، وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة " [٤]. " والعقيدة هي السلاح الأول في المعركة، فالأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة "[٥]، " وهي الركيزة الثابتة في حياة

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٠١١/٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٩٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ١/ ١٠٨ ، بتصرف .

(٤) المصدر السابق ، ٤٣٨/١ .

(٥) المصدر السابق ، ١٨١٦/٣ .

المؤمن، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة، وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيثبت هو بالصخرة التي لا تتزعزع، وتتهاوى من حوله الأسناد، فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول، هذه هي قيمة العقيدة في حياة المؤمن، ومن ثم يجب أن يستوي عليها متمكناً منها، واثقاً بها، لا يتلجلج فيها ولا ينتظر عليها جزاءً، فهي في ذاتها جزاء، ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه، والسند الذي يستند عليه. أجل هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الزوابع، ويستبد بهم القلق بينما هو بعقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتصال" (١)

"والعقيدة هي النجم الهادي الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع، فلا يضل ولا يحيد،... وقد جاءت ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله، ويقودوا من وراءهم البشر في غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال. " (٢).

---

(١) المصدر السابق ، ٤/٢٤١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٥/ ٣١٤٩ .

المطلب الثانـي

خصائص العقيدة الإسلامية

للعقيدة الإسلامية خصائصها المميزة، التي تجعل لها طبيعتها الخاصة المتفردة عن ما سواها، وهذه الخصائص تتعدد وتتوزع، ولكنها تتجمع عند خاصية واحدة تنبثق منها وترجع إليها هي خاصية الربانية، فهي وحي من الله سبحانه، وهي العقيدة الوحيدة اليوم على ظهر الأرض الباقية على أصلها الرباني، وما حولها من عقائد في عالم اليوم ما هو إلا تصورات بشرية الأصل، أو سماوية دخلها التحريف والتبديل، وهذا ما يجعل للعقيدة الإسلامية قيمتها الفريدة اليوم.

وقد حاول سيد قطب – رحمه الله – أن يبيّن خصائص العقيدة ومقوماتها فألف كتابه " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " ورأى أن تحديد هذه الخصائص مسألة ضرورية لأسباب كثيرة منه:

١– أنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل معه على أساسه، ويبين له طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها

وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق.

٢- ليعرف المسلم حقيقة مركزه في هذا الوجود، وغاية وجوده، وبالتالي يعرف دوره في هذا الوجود.

٣- ليحدد المسلم منهج حياته ونظامه بناء على التفسير الشامل للوجود ومعرفة مركزه ودوره فيه.

٤- لأن الإسلام جاء لينشئ أمة ذات طابع متميز متفرد، لقيادة البشرية وتحقيق منهج الله في الأرض، وإنقاذ البشرية من القيادات والمناهج والتصورات الضالة، وإدراك المسلم لخصائص العقيدة الإسلامية ومقوماتها يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة المتميزة وقادراً على القيادة والإنقاذ [١].

ونظراً لبعد الناس عن تدبر القرآن وما فيه من حقائق ترتبط بالعقيدة، ولانتشار المناهج الفلسفية والكلامية التي شوهت جمال العقيدة الإسلامية والتأثر بالفكر الغربي، فقد حاول سيد قطب – رحمه الله – أن يقدم للناس حقائق " التصور الإسلامي " عن الله والكون والحياة والإنسان، من خلال النصوص القرآنية مصحوبة بالشرح والتجميع والتبويب، بهدف استجاشة المسلمين

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص ٥- ٦ بتصرف .

لتحقيق الحركة بالدين على ضوء هذا التصور [١].

ويمكننا استعراض خصائص العقيدة الإسلامية التي تحدث عنها سيد قطب – رحمه الله – بإيجاز في ما يأتي:

أولاً: الربانية:

الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية أنها " ربانية " أي صادرة من الله تعالى وليست نتاج فكر بشري، ولا بيئة معينة ولا فترة من الزمن خاصة، ولا عوامل أرضية على وجه العموم، إنما هي هدى موهوب للإنسان هبة خالصة من خالقه – سبحانه – رحمة به، وبهذه الصفة تتميز العقيدة الإسلامية عما سواها، وهي مفرق الطريق بين العقيدة الإسلامية والتصورات الأخرى، وثنية كانت أو فلسفية أو سماوية محرفة.

وهذا ما يعطيها قيمتها الكبرى، ويجعلها وحدها مناط الثقة مبرأة من النقص والجهل والهوى موافقة للفطرة الإنسانية مُلبيةً لحاجاتها في جميع جوانبها، ودور الإنسان هنا هو تلقي هذه العقيدة من مصدرها الرباني، وإدراكها وتطبيقها في واقع الحياة.

وهذه الخاصية تكشف لنا عن رحمة الله بهذا الإنسان،

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٧ وما بعدها.

حين لم يدعه يصنع تصوره الاعتقادي لنفسه، لجهل الإنسان بحقيقة نفسه وحقيقة الكون الذي يعيش فيه، وحقيقة الخالق جل وعلا. كما تكشف لنا عن حكمة الله ورعايته في حفظ أصول العقيدة الإسلامية بعيدة عن تحريف البشر لتبقى العقيدة الإسلامية ملاذاً للبشرية تفيء إليها فتجد فيها الهدى والسكينة والاطمئنان.

وحتى تتبين عظمة هذه الخاصية من خصائص العقيدة الإسلامية "الربانية" فقد استعرض سيد – رحمه الله – واقع التصورات البشرية التي حاولت قديماً وحديثاً تفسير الكون والحياة والإنسان وما نتج عنها من تيهٍ وشقاءٍ وتعاسةٍ نتيجةً لجهل الإنسان وتخبطه [1].. **ثانياً: الثبات:**

ويقصد به ثبات مقومات العقيدة الإسلامية، وقيمها الذاتية، فهي لا تتغير ولا تتطور حينما تتغير " ظواهر" الحياة الواقعية، و" أشكال " الأوضاع العلمية، وهذا الثبات لا يقتضي " تجميد " حركة الفكر والحياة، ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة لكن داخل هذا الإطار الثابت وحول هذا المحور الثابت.

---

(١) ينظر في بيان هذه الخاصية كلام سيد في خصائص التصور ، ص ٤٥- ٧٤
.

ومن نماذج المقومات والقيم الثابتة في العقيدة الإسلامية:

١- حقيقة الألوهية وما يتعلق بها.

٢- حقيقة الوجود الإلهي ووحدانيته وقدرته و تدبيره للخلق.

٣- حقيقة أن كل ما سوى الله مخلوق له لا يشاركه في شيء من خصائص الألوهية

٤- حقيقة عبودية الأشياء والأحياء لله تعالى عبودية مطلقة.

٥- حقيقة أن الإيمان بأركانه الستة شرط لصحة الأعمال وقبولها.

٦- حقيقة أن الله لا يقبل من الناس ديناً سوى الإسلام.

٧- حقيقة أن الإنسان بجنسه مخلوق مكرم مستخلف في الأرض مسخر له كل ما فيها.

٨- حقيقة أن أصل الناس واحد أن التفاضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح.

٩- حقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله، بمفهومها الشامل.

١٠-حقيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة والمنهج الإلهي فقط.

١١-حقيقة أن الدنيا دار البلاء وعمل، والآخرة دار حساب

وجزاء.

هذه وغيرها من المقومات والقيم كلها ثابتة، غير قابلة للتغيير ولا للتطور، وفي إطارها تتحرك ظواهر وأوضاع الحياة.

وهذا الثبات في مقومات العقيدة الإسلامية وقيمها مهم لضبط حركة البشر على الهدى لكونها تمثل الميزان الذي يرجعون إليه في كل ما يعرض لهم في الحياة، فلا يضلون ولا يتأرجحون، كما هو الحال عند الأمم التي لا تدين بالإسلام وعقيدته، أو عند من في عقيدته غبش.

وهو كذلك يقي الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من لوثه المادية والإلحاد، ويثبت الطمأنينة في المجتمع المسلم والضمير المسلم ويضمن تماسك الحياة الإسلامية. وبالتالي فإن من ينادي بزعزعة هذه الثوابت العقدية باسم التجديد أو الإصلاح هو عدوٌّ للبشرية جمعاء (١).

<u>ثالثاً: الشمول:</u>

والشمول من خصائص العقيدة الإسلامية، ويقابله النقص والخطأ والمحدودية في التصورات البشرية، ويتمثل الشمول في

---

(١) ينظر في بيان صفة الثبات . خصائص التصور الإسلامي ، ص ٧٥-٩٤ ، وفي ظلال القرآن ، ٣٠٠١/٥ .

صورٍ شتى:

١- الشمول في رد كل الوجود وما فيه إلى إله واحد.

٢- الشمول في تقرير ألوهية الله وحدة، وعبودية ما سواه له.

٣- الشمول في خطاب التصور الإسلامي للكيان الإنساني كله، روحاً وعقلاً وجسماً.

٤- الشمول في عرض حقائق الإسلام كلها، عبادات، ومعاملات، وتشريعات [١]

رابعاً: التوازن:

من مقومات العقيدة الإسلامية، وهو صمام الأمان في الحفاظ عليها من الإفراط والتفريط وللتوازن في العقيدة الإسلامية مظاهر عديدة منها:

١- التوازن بين ما لا يدركه العقل البشري من الغيبيات، وما يدركه من الماديات والمحسوسات

٢- التوازن بين المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية أو ما يسمى عند المتكلمين" الجبر والاختيار"

٣- التوازن بين عبودية الإنسان لله، وسيادته على الكون بأمر

---

(١) ينظر في بيان صفة الشمول ، خصائص التصور الإسلامي ، ص ٩٥-١١٨ ، وفي ظلال القرآن ،٤٧٣/١ ، ١٠٠٩/٢ .

الله.

٤– التوازن بين الخوف والرجاء.

٥– التوازن بين الوحي والعقل في المعرفة الإسلامية.

٦- التوازن بين فاعلية الإنسان في الكون، وفاعلية الكون في الإنسان (١).

خامساً : الإيجابية الفاعلة: " إن العقيدة الإسلامية تنشئ في القلب حياة بعد الموت، وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات، حياة يُعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء بحسٍ آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة، ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته في مجاله جديداً كما لم يبدو من قبل قط " (٢).

فالإسلام بعقيدته دين إيجابية ليس فيه سلبية ولا انعزالية كما هو الحال في النصرانية وغيرها.

---

(١) ينظر تفاصيل خاصة التوازن في خصائص التصور الإسلامي ، ص ١١٩-١٥٠

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٠٠ .

ومن مظاهر الإيجابية والفاعلية في العقيدة الإسلامية:

١- الإيجابية الفاعلة المؤثرة في صفات الله تعالى كما تعرضها العقيدة الإسلامية، بخلاف تصورات البشر لصفات الآلهة، والتي تقوم على السلبية والانفكاك عن حياة البشر، كما هو الحال في تصورات الفلاسفة والمجوس واليهود والنصارى وغيرها من عقائد البشر

٢- إيجابية المؤمن في الكون والحياة، ويتمثل ذلك في:

أ - إيجابية المؤمن في إيمانه، فالإيمان عقيدة وعمل وفق المنهج الإلهي.

ب- إيجابيته في العمل الصالح.

ج- إيجابيته في حركته العملية لإيجاد الإسلام في الواقع.

ولتحقيق الإيجابية في الواقع فإن الله - تعالى - أعان الإنسان بما وهبه من قوى واستعدادات، ومنهج مرسوم يسير عليه [١].

---

(١) ينظر خاصية الإيجابية في : خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٥١- ١٦٨ .

سادساً: الواقعية:

وهي تعني التحقق في عالم الواقع، فليست خيالية أو نظرية، بينما الواقعية عند الآخرين: تعني الرضا بالواقع والقبول به، وإن خالف ما عليه الإنسان من عقيدة والتخلي عما يخالف الواقع وإن كان حقاً، وهذا المعنى مرفوض في الإسلام.

* ومن مظاهر الواقعية في العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي:

١- التعامل الواقعي مع الوجود الحقيقي القائم وحقائقه الموضوعية القائمة: (الله - الكون -الإنسان) فالله موجود، موصوف بصفات الجمال والجلال والكمال، وصفاته لها آثار إيجابية فاعلة مؤثرة، والكون واقع قائم بذاته، مخلوق موجود محسوس، له بداية وله نهاية، والوجود الإنساني وجود واقعي قائم، نظَّمه الإسلام تنظيماً محدداً [١].

٢- الواقعية في تحقيق المنهج الإسلامي، فالتكاليف الإسلامية واقعية لأن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، والمؤمن باستطاعته أن ينفذها بعد أن يستعين بالله، " وحيثما سار

(١) ينظر خاصية الواقعية في: خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٦٩- ١٨٧ .

الإنسان مع هذه العقيدة، وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية والحالات المختلفة للإنسان، والظروف التي يصادفها في جميع البيئات والأحوال، العقيدة ذاتها سهلة التصور، إلهٌ واحدٌ ليس كمثله شيء، أبدع كل شيء، وهداه إلى غايته ووجوده، وأرسل رسلاً تذكر الناس بغاية وجودهم، وتردهم إلى الله الذي خلقهم، والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة، في تناسب مطلق لا عوج فيه ولا انحراف، وعلى الناس أن يأتوا منها بما في طوقهم بلا حرج ولا مشقة " (١).

" ثم هي العقيدة التي تعترف بالإنسان إنساناً، لا حيواناً، ولا حجراً، ولا ملكاً، ولا شيطاناً تعترف به كما هو، بما فيه من ضعف وقوة، وتأخذه وحده شاملة مؤلفة من جسدٍ ذي نوازع، وعقلٍ ذي تقدير، وروحٍ ذي أشواق، وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق، وتراعي التنسيق بين التكاليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات، وتلبي حاجات الجسد والعقل والروح في تناسب يمثل الفطرة. ثم تحمل الإنسان بعد ذلك تبعة اختياره للطريق الذي يختار " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣٨٩٢/٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣٤٤/١ ، وينظر أيضاً ، ١٠١٣/٢ .

سابعاً: التوحيد:

التوحيد هو الحقيقة الأساسية التي ترتكز عليها العقيدة الإسلامية وهو كذلك سمة من سماتها التي تنفرد بها من بين التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة في الأرض جميعاً.

والتوحيد هو الخاصية البارزة في كل دينٍ جاء به من عند الله رسول.. ولكن التحريفات والانحرافات التي وقعت في تاريخ البشرية وطغيان الجاهليات على الديانات السماوية لم تبقِ في الأرض كلها عقيدة صحيحة قائمة على التوحيد المطلق إلا عقيدة الإسلام.

وخاصية التوحيد تقوم على أن الوجود يقوم على " ألوهية وعبودية "، الله وحده هو الإله الخالق وكل ما سواه مخلوق عبد خاضع له سبحانه، وهما وجودان متمايزان منفصلان، لا كما يعتقده أصحاب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغيرهم من أصحاب العقائد المنحرفة، ومن مقتضيات التوحيد المطلق في العقيدة الإسلامية إفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية والربوبية، والتوجه إلى الله وحده في كل أعمال الإنسان وأحواله، وهو بذلك يثمر نتائج إيجابية في حياة المسلم منها:

- توحد حياة المسلم وانضباط حركته وتناسق أعماله وتصوراته

مع منهج التوحيد

- الاستقامة في العمل والتعامل، وعدم الانحراف أو الغلو.

- جمع قدرات وطاقات الشخصية المسلمة على هدف العبودية لله وحده.

- تحرير المؤمن من الخضوع أو العبودية لغير الله، وتربيته على الشعور بالعزة والكرامة (١).

وبالتالي: فالعقيدة الإسلامية: " منهج حياة متكامل، يميز الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم"(٢).

-"عقيدة تتميزبالوضوح والاستقامة والنصاعة، فلا شيء فيها يقوم على الظن أو الوهم" (٣).

- و" تقوم على العنصر الأخلاقي وتحميه في عالم الشعور والواقع، وفي علاقات الفرد والمجتمع" (٤). و" تمثل الجمال والتكامل والتناسق في كل مقوماتها وجوانبها" (٥).

---

(١) ينظر: خصائص التصور الإسلامي ،ص ١٨٩- ٢٠٧ ، وفي ظلال القرآن ، ٦٥٩/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٢٩/١ .

(٣) المصدر السابق ، ٣٢٢٧/٤ .

(٤) المصدر السابق ، ٣٦٥٧/٦ .

(٥) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤١ .

المطلب الثالث

وسائل الأعداء وأساليبهم في محاربة العقيدة الإسلامية

سبق معنا عند الحديث عن أهمية العقيدة الإسلامية القول: بأنها تمثل أساس المعركة بين الإسلام وأعدائه على مختلف أسمائهم، " وأن ملل الكفر قد تختلف مع بعضها، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين، وهي معركةُ عقيدةٍ في صميمها وحقيقتها ولكن الأعداء يلونونها بألوان شتى، ويرفعون عليها أعلاماً شتى، في خبثٍ ومكرٍ وتوريةٍ لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة، ومن ثم راحوا يغيرون أعلام المعركة، فلم يظهروها حربا باسم العقيدة على حقيقتها، خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها، إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية وما إليها، وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن قضية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها، ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين، ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها، بينما هم

في قرارة نفوسهم – الصهيونية العالمية والصليبية العالمية بالإضافة إلى الشيوعية العالمية – جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية – العقيدة الإسلامية – التي نطحوها كثيراً فأدمتهم جميعاً!! " (١).

ولقد اطلع سيد – رحمه الله – على عظم المؤامرة على الإسلام وعقيدته من خلال حياته الأولى التي عاشها بعيداً عن الإسلام، يقرأ ما تكتبه الجاهلية ودعاتها المعاصرون، وكذلك من خلال إطلاعه على جهود اليهود والنصارى والعلمانيين أثناء وجوده في أمريكا وبعد عودته منها الأمر الذي جعله يحذر من أساليبهم في محاربة العقيدة الإسلامية، ويفضح كثيراً من الرايات التي يرفعونها، في مواضع كثيرة من كتاباته بعد التزامه بالإسلام.

ويمكن بيان جهود سيد قطب – رحمه الله – في فضح وسائل أعداء الإسلام في حربهم للعقيدة الإسلامية والتحذير منها، وذلك كما يأتي:

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٠٨/١ ، بتصرف .

أولاً: إخفاؤهم العداء للعقيدة ورفع راية للمعركة غير راية العقيدة:

من الحقائق التي ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جبل حقيقة: أن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئاً آخراً على الإطلاق، وأن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة، إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ولا معركة عنصرية، ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها... إنها قضية عقيدة، ومعركة عقيدة،... وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم، فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة {وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾} [سورة البروج: ٨].. وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة، راية اقتصادية، أو سياسية، أو عنصرية كي يموهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة.. ويخدعوهم عن سلاح النصر الحقيقي... ونحن نشهد نموذجاً في تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة.. وأن تزور التاريخ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية

كانت شعاراً للاستعمار.. كلا.. إنما الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى" [1].

ثانياً: إثارة الشبهات لزعزعة العقيدة والتشكيك فيها:

" إن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب، ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب.. إنما كانوا يحاربونها، أولاً في عقيدتها، كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونثر الشبهات، وتدبير المؤامرات، كانوا يعمدون أولاً إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فيُعمِلون فيها معاول الهدم والتوهين، ذلك أنهم كانوا يدركون – كما يدركون اليوم – أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تَهُن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولن يغلبوها على الأرض إلا إذا غلبوها على العقيدة وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها، والتوهين من عراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة ولكن لنفس الغاية القديمة { وَدَّت

---

(١) معالم في الطريق ، ص ٢٠١ – ٢٠٢ ، بتصرف يسير .

طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾} [سورة آل عمران: ٦٩]. "[١].

" وتبرز هذه الوسيلة من وسائل حرب العقيدة في كتابات المستشرقين، الذين يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة – كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين – ولا لينصفوا هذا الدين وأهله، – كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحثٍ أو مستشرقٍ بجانبٍ طيبٍ في هذا الدين! – كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين، لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها، لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها، لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها " [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٥٤ و ٢٨٤٦/٥ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٠٦١/٢ .

ثالثاً: ربط الناس بمفاهيم وقيم وضعية مقام المفاهيم والقيم العقدية:

" إن أشق ما تعانيه حركات الإسلام الحقيقية اليوم هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب وبمدلول الشرك والجاهلية في الجانب الآخر واختلاط الشارات والعناوين... وقد عمل أعداء الإسلام على توسيع هذه الثغرة، وتمييع الحقائق العقدية وتلبيسها حتى أصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله ﷺ [١].

وأعداء الدين " يوجهون إليه جهوداً لا تكل وحملات لا تنقطع، ويستخدمون في تحريفه عن وجهته وفي تميع طبيعته كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب.. أنهم يضعون نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين، لتحل محل العقيدة الإسلامية بوصفها قديمة غير متطورة وغير مناسبة لواقع البشر اليوم " [٢].

" ولأنهم يعلمون أن قاعدة المجتمع المسلم التي يقوم

---

(١) المصدر السابق ، ١١٠٦/٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ١٤٠٣/٣ بتصرف .

عليها وتمثل نقطة القوة والحركة فيه هي العقيدة، فقد عملوا على توهين تلك القاعدة – العقيدة – وإقامة أصناماً تعبد من دون الله – اسمها تارة " الوطن " وتارة " القوم " وتارة " الجنس " وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم " الشعوبية " وتارة باسم " الجنسية الطورانية " وتارة باسم " القومية العربية " وتارة بأسماءٍ شتى تحملها جهات شتى، تتصارع فيما بينها داخل المجتمع الإسلامي.. إلى أن وهنت القاعدة الأساسية – العقيدة – تحت المطارق المتوالية والإيحاءات الخبيثة المسمومة،

فأصبحت تلك" الأصنام " مقدسات يعتبر المنكر لها خارجاً على دين قومه، أو خائناً لمصالح بلده!! "(١)

كما عمل الأعداء على زعزعة العقيدة الإسلامية والتشكيك فيها أيضاً، من خلال الدس والتشويه، فقد دسوا في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد قرون، ولبسوا الحق بالباطل فيه.. دسوا ولبسوا في التاريخ الإسلامي... وفي الحديث النبوي.. وفي التفسير القرآني.. وما يزالون من خلال المستشرقين وتلاميذهم الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/١٨٩١ ، ٦/٣٧١٦ .

اليوم " (١).

رابعاً: إيجاد المأجورين من المسلمين لتحريف الإسلام من الداخل:

" إن للقوى المناهضة للإسلام اليوم في أنحاء العالم جيشاً جراراً من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة، ودكاترة وباحثين وكتّاب وشعراء وفنانين وحرفيين، يحملون أسماء المسلمين، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة! وبعضهم من " علماء " المسلمين، هذا الجيش من العملاء موجه لـ:

أ- خلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة. ب- توهين قواعدها من الأساس.

ج- التهوين من شأن العقيدة والشريعة على سواء.

د- تأويلها- أي العقيدة - وتحمليها ما لا تطيق.

هـ-الدق المتصل على " رجعيتها "!.

و- والدعوة إلى التفلت منها، وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقاً عليها من الحياة أو إشفاقاً

على الحياة منها!.

---

(١) المصدر السابق ، ٤١٤/١ ، ٢١٢٨/٤ بتصرف.

ز- ابتداع تصورات وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها، وتزين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية.

ح- إطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التي تستوي عليها العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذي ينثرونه في الأرض نثراً.

ط- تشويه التاريخ كله وتحريفه، وكذا تحريف النصوص "[1].

خامساً: إشاعة ثقافة الإلحاد والعلمنة:

عمل أعداء الإسلام في العصر الحاضر على نشر وإشاعة ثقافة الإلحاد والشيوعية والعلمنة وكان وراء ذلك اليهود ومن والاهم، حيث عملوا على دعم المذاهب الإلحادية كالشيوعية والوجودية الداروينية وغيرها من المذاهب المادية الإلحادية لتدمير قاعدة الحياة البشرية، ولما لم يفلحوا في تحويل العالم الإسلامي إلى الإلحاد، وخاصة بعد فشل تجربة أتاتورك، وصعود نجم الصحوة الإسلامية التي تحمل مشاعل العقيدة الإسلامية من جديد في وجه الإلحاد، فقد تحول اهتمام وخطط

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤١٥/١ بتصرف .

أعداء الإسلام جميعاً إلى نشر ثقافة العلمنة، وتحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر، وطرده من واقع الحياة، وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله مع أن هناك أرباباً أخرى تشّرع لحياتهم من دون الله (١).

" والعلمانيون اليوم لا يستطيعوا أن يتبجحوا تبجح الشيوعيين الملحدين، فينفعون وجود الله جملة ويتنكروا للدين علانية، إنما يلجأون إلى أسلوب خبيث حيث يقولون. إنهم يحترمون الدين! ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين! ليخدروا العاطفة الدينية، وهو أسلوب ألأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين " (٢).

سادساً: محاربة حملة العقيدة الحقة: وذلك من خلال:

١- الدعاية الإعلامية وتشويه صورة حملة العقيدة:

" حيث عملوا على تشويه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها ﷺ بشتى الأساليب، كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد، فمنع الناس من الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر

---

(١) ينظر كلام سيد حول ذلك في :في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٣٢، ١٢٢٠/٣-١٢٢١.

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ١٢١٩-١٢٢٠ ، بتصرف ، ٢/ ١٤٠٣ .

من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها " [١].

٢- إغراء حملة العقيدة ومساومتهم لتركها أو بعضها:

وهو أسلوب قديم استعمله الكفار مع النبي ﷺ كثيراً يشير إليه قوله سبحانه: { وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾} [سورة الإسراء: ٧٣-٧٤].

فهي إذاً محاولات في صور شتى لم يفصلها النص هنا لكنها مفصلة في كتب السير، هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ﷺ هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً، محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط مقابل مغانم كثيرة، وهي تعديلات طفيفة في البداية لكنها تنتهي إلى الانحراف الكامل عن الطريق "[٢].

كما يشير إلى هذه المحاولة أيضاً قوله تعالى: {وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾} [سورة القلم: ٩]. فهي المساومة إذن، والالتقاء في منتصف الطريق، كما يفعلون في التجارة، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٧٨٤ ،

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٢٤٥/٤ ، بتصرف ، ٣٦٥٩/٦ ،

شيء منها، لأن الصغير منها كبير بل ليس في العقيدة صغير وكبير، إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء " (١).

<u>٣- الحرب الاقتصادية للتضييق على حملة العقيدة:</u>

ويظهر هذا الأسلوب واضحاً في قوله تعالى عن المنافقين: {هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾} [سورة المنافقون: ٧]. " وهي مقولة يتجلى فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة (٢)، خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان في حرب العقيدة ومناهضة الأديان.. هي خطة قريش عندما قاطعت الرسول ﷺ وبني هاشم في الشعب.. وهي خطة المنافقين في المدينة.. وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة،.. وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣٦٥٨/٦ و ٣٧٨٤ .

(٢) النحيزة : الطبيعة، ونحيزة الرجل طبيعته ، وجمعها نحائز ، انظر: لسان العرب ٧٠/١٤ .

أسباب العمل والارتزاق، وهكذا يتوافر على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان إلى هذا الزمان، ناسين قوله سبحانه: {هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧} (١).

٤- سحق حملة العقيدة وتصفيتهم:

وهذه الوسيلة لا يلجأون إليها إلا بعد فشل الوسائل السابقة في فتنة حملة العقيدة – غالباً – لأن من عرف حقيقة العقيدة وذاقها يصعب فتنته. (٢)

ولهذا نجد القرآن الكريم يعرض مشاهد شتى لفتنة حملة الدين والعقيدة على مر الزمان وما سحق طلائع البعث الإسلامي اليوم إلا حلقة في مسلسل حرب العقيدة وأصحابها (٣).

*** مواجهة أساليب الأعداء في حرب العقيدة:**

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٥٧٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/٣٧٨٤ ، بتصرف .

(٣) ينظر في ذلك المصدر السابق ، ١/٢٩٤ ، ٣/١٤٠٣ ، ١٥٩٣ ، ٦/٣٧٨٤ ، ومعالم في الطريق ، ص ١٨٩ .

أشار سيد قطب إلى المنهج القرآني في مواجهة أساليب الأعداء في حرب العقيدة الإسلامية حيث كان القرآن الكريم:

أولاً: يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه.

وثانياً: ينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب.

وثالثاً: يجلو لهم الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين الذي يحملونه.

ورابعاً: يقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية.

وخامساً: يحذرها من كيد الكائدين، ويكشف لها نواياهم ووسائلهم القذرة وأهدافهم الخطرة، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين.

وسادساً: يأخذها بتقرير حقيقة القوى، وموازينها في هذا الوجود، فيبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله، وضلالهم وكفرهم،.. كما يبين لها أن الله معها، وهو مالك الملك " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٥٤ ، بتصرف يسير .

المبحث الثانـي
منـهجـه في عرض العقيدة والدعوة إليـها

كان من قواعد منـهج سيد قطب في التفسير " بيان أهمية العقيدة وأثرها " من خلال استلهامها من القرآن الكريم، واستحضار الجو الذي تنزلت فيه الآيات – بقدر الإمكان – وتجاوز الخلاف الكلامي والجدل الذي ثار حول قضايا العقيدة الإسلامية.

وكان من قواعد منهجه أيضاً أن تعرض العقيدة كما هي في سياق القرآن الكريم، فهو قالبها الأصيل، رافضاً عرض العقيدة في قالب الفلسفة أو علم الكلام كما فعل رجال الفرق الكلامية (١)

وقد وقف سيد قطب من خلال تأمله لنصوص القرآن والحياة في ظلالها، على طريقة القرآن في عرض العقيدة، ومن ثم إدراك سر تفاعل الصحابة الكرام بحقائق العقيدة.. وقارن بين هذا وبين عرض المتأخرين للعقيدة، حتى أصبحت قضايا نظرية

---

(١) ينظر : المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٤٣٥ ، وما بعدها بتصرف .

فلسفية معقدة.

ونتيجة لذلك فقد كان سيد – رحمه الله – يركز كثيراً على منهج عرض العقيدة، والدعوة إليها وبيان خصائصها ومقوماتها ليعود لها صفاؤها ونقاؤها، ويعود لها دورها العملي ومهمتها الإيجابية في الحياة [(١)]

ويقوم منهج سيد قطب – رحمه الله – في عرض مسائل العقيدة والدعوة إليها على الآتي:

١- بيان عناية الإسلام الموجهة إلى تحرير أمر العقيدة: وتحديد التصور الصحيح الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته، وعلاقته بالخلائق، وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين، من خلال إرساء التوحيد الكامل الخالص.. الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا بعيد.. وهذا الجهد المتطاول تمثله النصوص القرآنية الكثيرة، والتي تكشف عن عظمة الدور الذي تقوم به العقيدة في تحرير الضمير البشري، وإطلاقه من التخبط بين شتى الأرباب وكل هذا يتجلى من خلال مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات، حيث تبدو

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٤٨ ، وما بعدها بتصرف .

العقيدة الإسلامية عندئذٍ رحمة بما فيها من جمال وبساطة ووضوح وتناسق، وتجاوب مع الفطرة [1].

٢- الاهتمام بتصحيح التصور الاعتقادي وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل، باعتبار العقيدة تمثل القاعدة والمحور لكل نشاط إنساني [2]، لذلك نجد أن المنهج القرآني لم يبدأ بعلاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها السلوكية، وإنما بدأ من عقدة النفس البشرية الأولى، عقدة العقيدة، بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره، وإقامة التصور الإسلامي الصحيح، وبين للناس فساد تصوراتهم، بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله، وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً، كانت الغاية فيها تعريف الناس بإلههم الحق، وتعبيدهم له حتى إذا خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله، عندئذ بدأت التكاليف، وتنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية، بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال [3].

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – ١/ ٢٣- ٢٤،بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٩٤٦/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٩٧٣/٢-٩٧٤ ، بتصرف .

*وأصحاب الدعوة إلى دين الله، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة، خليقون أن يقفوا طويلاً أمام هذه الظاهرة الكبيرة،.. ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما لتقرير هذه العقيدة، وعدم تجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها مع أن هناك طرقاً أخرى أيسر منها للوصول إلى قلوب العرب بدون هذا العناء، كطريق القومية، أو الثورة على الطبقات، أو الدعوى الإصلاحية الأخلاقية، ولكن الله سبحانه وتعالى – وهو العليم الحكيم – لم يوجه رسول الله ﷺ إلى مثل هذه الطرق التي لا تقوم على العقيدة. ولكن عندما تقررت العقيدة في النفوس بعد هذا الجهد الشاق، قام الدين في الأرض وتطهرت من كل الرذائل، فمنهج القرآن يجعل من بناء العقيدة وتمكينها وشمولها لشعاب النفس كلها ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضماناً لاستقرار النظام الذي يقوم عليها [(١)]، ويصبح تصحيح المخالفات القانونية أو الانحراف الأخلاقي أو السلوكي أو التعبدي بعيداً عن إصلاح القاعدة الأساسية " العقيدة " اشتغالاً

(١) المصدر السابق ، ٢/١٠٠٥-١٠٠٩ ، ١٠١٥بتصرف ، ومعالم في الطريق: " فصل طبيعة المنهج القرآني " ص ٢٤ وما بعدها .

بالفرع دون الأصل [1].

<u>٢- الوضوح والتميز في الدعوة إلى العقيدة وعدم التأثر بالواقع المنحرف:</u> وذلك لأن دين الله ليس رايةً ولا شعاراً ولا وراثة، إن دين الله حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء، تتمثل في عقيدة وشعائر ونظام يصرف الحياة، وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تمييع للعقيدة [2].

إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم [3]! إنها يجب أن تبلّغ كاملة فاصلة، وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء، وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل، فإن كلمة الحق في العقيدة لا تملق الأهواء، ولا تراعي مواقع الرغبات.. إن كلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكامن القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى.. وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التي لا استعداد فيها للإيمان وهي القلوب التي قد يطمع صاحب الدعوة في أن تستجيب له لو داهنها في بعض الحقيقة! [4].

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٢٣٠/٣ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ، ٩٤٠/٢ .

(٣) قال في القاموس : "والجمجمة أن لا يبين كلامه " .

(٤) في ظلال القرآن ، ٩٣٨/٢ .

وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق، وعن الفاصل الحاسم بين حقه وباطلهم.. حين يفعل ذلك مراعاة للظروف والملابسات، وحذراً من مواجهة واقع الناس.. فإنه يكون قد خدعهم وآذاهم، لأنه لم يعرفهم حقيقة المطلوب منهم كله [١].

إن محاولة بلورة العقيدة الإسلامية في صورة " نظرية مذهبية " على الورق كالنظرية الأرضية، دون مواجهة أوضاع الجاهلية المنحرفة في واقع الناس محاولة ذليلة.. وأذل منها محاولة من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى مما يروج عند الناس كالاشتراكية، والديمقراطية وما إليها، ظانين أنهم يخدمون الإسلام.. إن الإسلام هو الإسلام، والاشتراكية هي الاشتراكية، والديمقراطية هي الديمقراطية.. ولا ينبغي للداعية أن يستجيب لإغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشري [٢].

ينبغي آلا نتدسس للناس بالإسلام تدسساً، ولا نُربّت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة، بل نكون معهم صرحاء غاية

---

(١) المصدر السابق ، ٩٤١/٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ١٠٨٣/٢ بتصرف .

الصراحة[١]. والصراحة والقوة والحسم في إلقاء كلمة العقيدة لا تعني الخشونة والفظاظة، بل تعني عدم المداهنة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة وعدم اللقاء في منتصف الطريق في الحقيقة ذاتها، فالحقائق الاعتقادية ليس فيها أنصاف حلول فالتلطف في دعوة الناس إنما يكون في الأسلوب لا في الحقيقة [٢].

٣- بناء العقيدة والدعوة إليها من خلال الحركة بها في الواقع لا مجرد الدراسة النظرية

" إن المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة " نظرية " للدراسة، فهذا مجرد علم لا ينشئ في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً، ولا يعصم من الهوى، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئاً، ولا يدفع الشيطان، بل ربما ذلل له الطريق وعبدها " [٣].

" إن القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية.. مع الركام المعطل للفطرة، في نفوس آدمية حاضرة.. فشكل النظرية والجدل الذهني ليس هو الشكل المناسب... لقد كان القرآن وهو

---

(١) يراجع : فصل" نقله بعيدة" من كتاب معالم في الطريق ص : ١٦٢- ١٧٧ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٣٨/ ٩٤١ ، بتصرف ، وينظر أيضاً : مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٩ ، وما بعدها

(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٩٩ .

يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها، ومع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها.. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا في صورة نظرية، ولا في صورة لاهوت، ولا في صورة جدل كلامي، ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها، وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو.. ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي لم تكن مرحلة تلقي " النظرية " ودراستها، لكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معاً.. وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى. ومن هنا ندرك خطأ وخطر محاولة تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقعٍ تامٍ حيٍ متحرك إلى " نظرية " للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه " النظريات " البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية "(١).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/١٠١٢- ١٠١٤ و٣/ ١٥٥٧ بتصرف ، ومقومات التصور الإسلامي، ص١٧ ، ونحو مجتمع إسلامي ، ص ٣٤.

٥- الابتعاد عن المناهج الكلامية والفلسفية في عرض العقيدة والدعوة إليها:

" لم يلجأ المنهج القرآني إلى الأسلوب الجدلي الذي وجد فيما بعد عند المتكلمين والفلاسفة، لأن الله يعلم أن هذا الأسلوب لا يصل إلى القلوب ولا يتجاوز منطقة الذهن الباردة، التي لا تدفع إلى حركة ولا تؤدي إلى بناء حياة " (١).

لذا لا بد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفئ إشعاعها... لأن هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية، وتلك المحاولات المضطربة التي تضمنتها الفلسفة والمباحث اللاهوتية، حيث تبدوا " الفلسفة الإسلامية " – كما سميت – ومعها مباحث "علم الكلام " غريبة غربة كاملة على الإسلام وطبيعته ومنهجه وأسلوبه.. أدت إلى تخليطٍ كثيرٍ شابَ صفاء التصور الإسلامي وأصابه بالسطحية، ولن يخلص التصور الإسلامي من التشويه والانحراف والمسخ، إلا حين نلقي عن جملة بكل ما أطلق عليه اسم " الفلسفة الإسلامية "،

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٧٦٦.

وبكل مباحث " علم الكلام "، وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور، ونعود إلى القرآن نستمد منه عقيدتنا ونعرضها بمنهجه وأسلوبه (١).

٦- عرض العقيدة من خلال الحقائق الكونية ومخاطبة الفطرة بها:

" إن المنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي يتكئ على ما في السموات والأرض ويستلهم هذا الكون، ويوجه إليه النظر والسمع والقلب والعقل، ويجعل الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة للحواس والقلب، تبحث فيها عن آيات الله وترى دلائل وجوده ووحدانيته.

ومشاهد الكون حاضرة أبداً.. لكنها تفقد جِدتها في نفوس الناس بطول الأُلفة والتكرار ومع ذلك نجد القرآن يجعل من مألوفات البشر قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن حقيقة الألوهية، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة، ويجعل منها دلائل وبراهين تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر، ولا يتخذ طرائق

(١) خصائص التصور الإسلامي ، فصل: "كلمة في المنهج " ص ٥-٢٢ ، بتصرف ، و ينظر كذلك موقف سيد قطب من الفلسفة وعلم الكلام في الفصل الأول من هذا الباب .

الجدل الذهني البارد والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة، تلك التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلت غريبة عليه، وفي القرآن المثل والمنهج والطريق [١].

٧- عرض العقيدة من خلال الإقناع العقلي والجدل بالحسنى: باعتبار" أن نشر العقيدة بالإقناع والحجة هو قاعدة هذه الحركة "[٢].

" وقضية العقيدة – كما جاء بها هذا الدين – قضية اقتناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه.. ولقد جاء الدين ليخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقته، يخاطب العقل المفكر والبداهة الناطقة، والوجدان المنفعل، والفطرة المستكنة " [٣]. " ويقف البشر أمام مشاهدات الكون وأطواء النفس التي لا يملكون إنكارها، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير، ويعرض القرآن على الكفار مشاهد وأسئلة حول خلق السموات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات، وبسط الأرض وإجراء الأنهار وتثبيت الجبال وإجابة المضطر وهداية

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٨٢٢ ، ٣/ ٣٤٦٦ ، ٥/ ٢٧٢٩ ، بتصرف يسير ، وينظر ايضاً ، ٢٢٣٠/٣، ٢٥٨٥/٥، ٢٧٥١ ، ٣١٠٦ ، ٣٤٦٦/٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٥٨٨/٣ الهامش ٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٩١/١ .

الضال، وإرسال الرياح، وبدء الخلق وإعادته، وتيسير الرزق.. وغيرها مما يملأ صفحة هذا الوجود من حولهم، ويأخذهم بما هو مستقر في فطرهم مما لا يملكون معه إلا الإقرار بالله وحده، فوجود الكون بما فيه والإنسان لا يملك أحد إنكاره، ولا يملك الإدعاء بأنه وجد من دون موجد، أو أن الخلق هم الذين أوجدوه، وبالتالي لا بد من التسليم بوجود إله خالق قديرٍ واحد، حيث يردهم في النهاية إلى هذه الحقائق التي يغفلون عنها في تحد وإفحام: ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [(١)]. إذاً لا بد من أن نعرض العقيدة وندعوا إليها من خلال طريقة القرآن، فنستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس لإيقاظ الفطرة، واستجاشة المشاعر بما هو مركوز فيها، ونصل بهذا إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون، وأغوار النفس والتي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد والمسمى بـ " علم الكلام " [(٢)].

أما الجدل في دعوة المخالفين في العقيدة فينبغي أن يكون بالتي هي أحسن. ذلك أن الداعية لا يدعو لشخصه ولا

---

(١) سورة النمل ، آية ٦٤ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٦٥٤/٥ ، ٢٦٦٣ ، بتصرف .

لقومه، بل يدعو إلى سبيل الله،.. والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم وطريقة دعوته وتنوعها، من موعظةٍ حسنة، ورفقٍ وجدلٍ بالتي هي أحسن، تؤلف القلوب النافرة، وتجعل المدعو يحس باحترام الداعي له، ويعرف أن هدف الداعي كشف الحقيقة في ذاتها، ومنفعة المدعو، وليس الغلبة في الجدل [١].

٨- الدعوة إلى العقيدة من خلال القدوة:

إن المطابقة بين العقيدة التي ندعو إليها وبين السلوك أمر يجعل الناس يثقون بالداعية وما يدعو إليه " فالدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم، ولكن في الدعوات ذاتها، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدين بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين. إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من

(١) في ظلال القرآن ، ٤/٢٢٠١ – ٢٢٠٢ ، بتصرف .

قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذٍ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها، إنها تستحيل يومئذ دفعةُ حياة، لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هينا، ولا طريقاً معبداً، إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة، وإلى صلة بالله واستمداد منه، واستعانة بهديه، فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره، والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه، وقد يغالبها مرة ومرة ومرة، ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله، فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي، أقوى من كل قوي، قوي على شهوته وضعفه، قوي على ضروراته واضطرارا ته، قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه"(١)

---

(١) المصدر السابق ، ٦٨/١ بتصرف يسير .

٩- عرض العقيدة من خلال الترغيب والترهيب:

" وذلك لأن منهج القرآن منهج هداية قبل كل شيء، فهو يخاطب البشرية ويرغبها في التوبة إلى الله والرجوع إلى منهجه ويرهبهم من التولي وينذرهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة [١].

إن الذي يقرأ القرآن ويستحضر أحداث السيرة يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذي كان القرآن يواجه به النفوس ويروضها حتى تسلس قيادتها راغبة مختارة.. ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة! وتارة يواجهها بما يشبه الهراسة الساحقة، التي لا يثبت لها شيء مما هو راسخ في كيانها من التصورات والرواسب! وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة والمسارّة الودود، التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب، وتارة يواجهها بالهول المرعب والصرخة المفزعة التي تفتح الأعين على الحظر الداهم القريب، وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة لا تدع مجالا للتفلت عنها ولا الجدل فيها،

---

(١) المصدر السابق ، ١٥٩٩/٣ بتصرف ، و ٣٦٤٧/٦ .

وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الذي يهتف لها ويناجيها، وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها فترى ما يجري في داخلها رأي العين.. ومئات من اللمسات.. واللفتات.. والهتافات.. والمؤثرات، يطلع عليها قارئ القرآن وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية " (١).

<u>١٠- عرض العقيدة والدعوة إليها من خلال الثبات عليها والصبر على الأذى في سبيلها:</u>

" البلاء لا بد منه لتربية النفوس.. لا بد منه ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها، كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٦٩٢- ٣٦٩٣ ، بتصرف ،وينظر أيضاً : ٥/ ٢٧٢٨ .

أهلها بها وصبرهم على بلائها.. إنهم عندئذٍ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه، وعندئذٍ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها مندفعين إليها" (١).

" إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها في بوتقة الألم فيصفو عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقاً وقوة وحيوية، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها، وعندئذٍ يدخلون في دين الله أفواجاً كما وقع، وكما يقع في كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة أنحاز إليهم من كانوا يحاربونهم وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين.

وحتى لو لم يقع هذا فإنه يقع ما هو أعظم منه في حقيقته، أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها، وتنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة، والحياة نفسها في النهاية، وهذا كسب للبشرية كلها، يرجح جميع الآلام

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ١٤٥ .

وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون [1].

١١- الدعوة إلى العقيدة من خلال رد الشبهات عنها:

" إن أعداء الأمة المسلمة يحاربونها أولاً في عقيدتها بالدس والتشكيك، ونثر الشبهات، وتدبير المناورات، لإدراكهم أن الأمة لا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها وتترقى وسائل الكيد لهذه العقيدة والتوهين من عراها بترقي حياة البشر، وقد كان القرآن الكريم يدفع هذا السلاح المسموم – الشبهات – بأن يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه، وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها الأعداء، ويجلو الحقيقة التي يتضمنها هذا الدين ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية، كما كان يحذرها من كيد الكائدين، ويكشف لها نواياهم المستترة، ووسائلهم القذرة، وأهدافهم الخطرة، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين[2].

١٢- الدعوة إلى العقيدة من خلال إزاحة الطواغيت من

---

(١) المصدر السابق ، ٢١٩/١ ، بتصرف يسير ، وينظر كذلك ، ١٣١٨/٣، ٢٣٩٤/٤.

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٣٥٤ ، بتصرف يسير .

طريقها بالجهاد:

" لقد انتضى الإسلام السيف، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل، لا ليكره أحداً على الإسلام، ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد:

١- جاهد الإسلام أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة، ويكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، فالاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة، وإذ كان مأذونا للمؤمن أن يدفع عن حياته وماله فمن باب أولى هو مأذون له أن يدفع عن عقيدته، وكل الحروب على مدى تاريخ الصراع بين الإسلام والكفر كانت موجهة إلى العقيدة، لذا لا بد من الجهاد لحماية العقيدة.

٢- جاهد الإسلام ثانياً لتقرير حرية الدعوة – بعد تقرير حرية العقيدة – حيث جاء بأكمل تصور للوجود والحياة، وأرقى نظام للبشرية، ولا بد من إبلاغه للبشرية فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر،.. ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات عن طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة.. وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا، ومن هذه

الحواجز: النظم الطاغية التي تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين، فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية، ويقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان، وما يزال هذا الهدف قائماً، وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين! " (١)

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٩٤ ، بتصرف يسير. وينظر أيضاً ١/١٨٦ ، ١٩٠ ، ٣/١٤٣١ ، ١٤٤٣ .

المبحث الثالث
موقفه من المخالفين

توطئة:

من معالم منهج السلف الصالح في العقيدة قيامه على أمرين هما:

الأول: بيان العقيدة الإسلامية الصحيحة، والاهتمام بمصادرها، تأصيلاً واستدلالاً وفهماً.

الثاني: الرد على المناوئين لهذه العقيدة، والمخالفين لها من أهل الأديان الأخرى والفرق المنحرفة وسائر طوائف أهل البدع والأهواء، وتفنيد شبهاتهم وافتراءاتهم في العقيدة والشريعة.

وجهود علماء أهل السنة والجماعة في بيان هذين الأمرين كثيرة جداً ابتداءً من القرن الثالث الهجري، وإلى يومنا هذا، ففي كل عصر نجد من يقوم بالمنافحة عن العقيدة، والرد على الأباطيل المنتشرة في عصره، ويقف في وجه التيارات المنحرفة.

وسنقف في هذا المبحث على موقف سيد قطب – رحمه الله – من الديانات والفرق والحركات الموجودة في عصره ومنهجه في الرد على الانحرافات العقدية عند المخالفين. ومعلوم

أن سيد – رحمه الله – عاش في بداية القرن الثالث عشر الهجري – العشرين الميلادي– وهي فترة شهدت صراعاً بين الأديان والحضارات، وظهرت فيها كثير من الأفكار والحركات والجماعات مختلفة التوجه والأهداف، وزاد فيها خط الانحراف عن العقيدة الصحيحة.

وقد كان لسيد – رحمه الله – مواقف واضحة من المخالفين عقدياً، و في كتاباته الإسلامية كشف وفضح لحقيقة كثير من التوجهات والشعارات التي عاصرها.

كما ركز– كثيراً– على منهج القرآن في العقيدة والحركة بها، والذي يقوم على:

- بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين.
- بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الظالمين المجرمين، وذلك لسببين:

الأول: أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر

الثاني: لأن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق بأنه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي

يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل (١).

ومن هنا يرى سيد: " أنه يجب على كل حركة إسلامية أن تبدأ بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ووضع العنوان المميز لكلٍ منهما في عالم الواقع لا في عالم النظريات، فيعرف أصحاب الدعوة والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم، ومن هم المجرمون، بحيث لا يختلط

السبيلان، ولا يتشابه العنوانان ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين وهذا التميز بين الطريقين كان واضحاً في حياة المسلمين الأولى، بينما المشقة تكمن اليوم في الغموض والغبش الذي أحاط بمدلول الإسلام في جانب ومدلول الشرك والجاهلية في جانب آخر مما أدى إلى عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشارات والعناوين.. (٢).

وبناءً على ذلك يمكن أن نبين موقف سيد قطب من المخالفين في المطالب الآتية:

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٠٥ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٠٦ ، و ٢/ ٧٩٧ ، ٩١٥ ، ٩٥٢ ، بتصرف.

المطلب الأول

موقفه من أهل الكتاب

والمقصود بأهل الكتاب: اليهود والنصارى (١). وقد حكم الإسلام في أهل الكتاب بحكمين:

حكم علمي: في بيان حقيقة ما هم عليه من الاعتقادات والأعمال وتعيين مسمَّاهم في باب أسماء الدين والإيمان، وبيان جزائهم في باب وعيد الله.

حكم عملي: في وصف معاملتهم، وما يختصون به من أحكام دون سائر الناس.

والمتتبع لكلام سيد – رحمه الله – يجد أنه عمل على بيان هذين الحكمين من خلال بيان انحرافات أهل الكتاب، وتحريفاتهم والرد على كثير من ضلالاتهم العقدية وغيرها.

كما حاول من خلال كتاباته وخاصة في الظلال تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ما عليه أهل الكتاب من انحراف في تاريخهم القديم والمعاصر، وبيان معالم العلاقة التي ينبغي أن تحكم تعامل المسلمين مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار.

---

(١) تفسير الطبري، ٣/ ٣٠٢ .

أما ما يتعلق بالحكم الأول " العلمي " عند سيد قطب فيمكن بيانه من خلال المعالم الآتية:

١- كفر أهل الكتاب وبطلان ما هم عليه من الدين:

وقف سيد كثيراً في ظلال الآيات التي تتحدث عن كفر اليهود والنصارى، وبيّن ضلال عقائدهم ووثنيتها ومضاهاتها لعقائد المشركين، وبين أن وصف الكفر والضلال والوثنية ينطبق على حال أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ وعلى حالهم اليوم وغداً وفي كل حين، مهما تكن دعواهم في الإيمان بالله.. لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير محمد ﷺ، ولما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية [١]. وكذا وقوعهم في الشرك بصوره المتعددة من: شرك في الوحدانية بادعائهم أن عزيرابن الله، وأن المسيح ابن الله، ومن شرك في الحاكمية باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله [٢]، وكذا كفرهم باليوم الآخر، ومحاربتهم لدين الله الحق وقتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله كثيراً، وغيرها من مظاهر الكفر والشرك والوثنية

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٥٢ ، بتصرف وينظر أيضاً ، ٥٣٧/١ ، ٢/ ٦٧٩ .

(٢) ينظر في ذلك الظلال ، ٦٧٦/٢-٦٧٨ .

التي قررها القرآن الكريم عنهم [١].

٢- عداوتهم للإسلام وأهله وبيان أساليبهم في حربه:

تناول سيد في كتاباته وخاصة في الظلال الحديث عن أهل الكتاب وأعمالهم العدوانية المستمرة ضد الإسلام، موضحاً أن هذا الموقف هو من جبلتهم النكدة الشريرة التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نبي الإسلام، نظراً لأن هذه الأمة المسلمة تحمل الرسالة الموجهة إلى الجنس البشري وتحفظ العهد والميثاق الذي نقضه أهل الكتاب، لذلك فالصراع مستمر ودائم وقد تجلت أحقاد اليهود والصليبيين على الإسلام وأهله منذ مجيئه ولا تزال الحروب التي تشنها قوى الصليبية واليهودية مستمرة في صور متعددة [٢]:

- في صورة حروب صليبية.
- أو في صورة حملات تنصيرية أو استشراقية.

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٨١٥ ، ٩٤٣ ، ٩٥٢، ٩٦٢ ، ١٦٢١/٣ إلى ١٦٤٥، ، ٣١٤٢/٥ ، و ٣٩٤٨/٦ . ، ومقومات التصور الإسلامي ،ص ١١٠ وما بعدها ، خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٨ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ، ١٠٨/١ ، ٤١٤ ، وينظر في ظلال القرآن رؤية استشراقية فرنسية : تأليف أوليفيه كاريه ، ترجمة / محمد رضا عجاج ، دار الزهراوي ، القاهرة ، ط١، عام ١٤١٣هـ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

- أو في صورة غزو ثقافي وبلبلة فكرية.
- أو من خلال تجنيد العملاء من أبناء المسلمين.
- أو في صورة حرب اقتصادية.
- أو في تحالفات مع الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام.
- وفوق ذلك احتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض، وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال!..

وما سجله التاريخ إلى اليوم من مواقف اليهودية والصليبية ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغداً، فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة.. التي تخدر مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد.. وضرر هؤلاء المخدوعين لا يقل عن ضرر أعدى الأعداء(١).

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٦٢ و٩٦٥-٩٦٧ بتصرف ، وينظر أيضاً : ١/ ٦٣ ، ٨٤ ، ٩٦٥ ، ١٠٥ ، ١٣٤ ، ٤٤٣ ، ٢/ ٦٨١ ، ٩٢٤ ، ٩٥٢ ، ٩٦٦ ، ٩٦٠

- **أما سبب عداوتهم للإسلام وأهله فقد أخبر القرآن الكريم بأنه:** الحقد والحسد وكراهية الخير والهداية لهذه الأمة، قال سبحانه {يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩} [سورة البقرة: ٩] فمن هذا السبب انبعثت دسائسهم وتدابيرهم كلها في حرب الإسلام وأهله (١).

٣- فضح صفاتهم وطبيعتهم النفسية:

جاءت آيات كثيرة في القران الكريم تتحدث عن صفات أهل الكتاب وتبين خصائصهم ونفسياتهم، وقد وقف سيد في ظلال هذه الآيات، مقارنا بين ما ذكره الله تعالى عنهم في الماضي وبين ما هم عليه في الحاضر، ومن أبرز صفاتهم الحسد، والنفاق والخيانة، والمكر والخديعة، والمعصية والعدوان، والبخل والشح، والجبن، وقسوة القلوب، والذلة والمسكنة، والإفساد في الأرض، ونقض العهود، وغيرها (٢).

٤- مناقشة انحرافاتهم العقدية ودعاواهم الباطلة:

، ١٠٣٢ ، ١٥٩٣/٣ ، ١٦٢٨ . ومعركتنا مع اليهود سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط١ ،عام ١٤٢٠هـ ، ص ٢٠- ٣٨ .

(١) في ظلال القرآن ، ١٠٢/١ ، ٤١٣

(٢) المصدر السابق ، ٦٤/١، ٩٠ .

استعرض سيد – رحمه الله – عقائد أهل الكتاب ومقولاتهم ودعاواهم التي حكاها الله عنهم، وناقشها وبيّن ضلالها، ورد على مزاعمهم وافتراءاتهم في كثير من المواضع ومن أهم القضايا التي ناقشها سيد– رحمه الله–:

أ– دعواهم أن عزيرابن الله، وأن المسيح ابن الله (١).

ب– ألوهية المسيح عليه السلام (٢).

ج– الخطيئة والتوبة عند النصارى(٣).

د– التثليث وعلاقته بالعقائد الوثنية (٤).

هـ– الرهبانية (٥).

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ١٠٥ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٩٦ ، ٢/٨١٧– ٨١٩ / ٨٦٣ وما بعدها ، ٩٤٥–، ٤/٢٣٠٤ وما بعدها ، ٥/٢٦٦٤، ٣١٩٩.

(٣) المصدر السابق ١/ ٦١ ، ٣/ ١٢٧٤،والسلام العالمي في الإسلام،سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٢ ، عام ١٩٩٢م، ص ٥٢

(٤) المصدر السابق ، ٢/ ٨١٥، ٣/١٦٣٨– ١٦٤٠ ، والمستقبل لهذا الدين – سيد قطب –دارا لشروق ، القاهرة ، ط ١٦ ، عام ١٤٢٥هـ ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٥) المصدر السابق ، ٦/ ٣٤٩٥ .

و- زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة [١].

ح- شركهم في الحاكمية باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله [٢]. وبناءً على الحكم العقدي الواضح في كفر أهل الكتاب وفسقهم ووثنيتهم وضلالهم عن الدين الحق فقد جاءت أحكام الشرع الإسلامي بمعاملتهم في الجانب العملي معاملة تجمع بين التزام الحق ولزوم العدل، بين تميز أهل الإسلام بما يحملونه من الحق وبين منع الظلم والاستطالة بغير حق على من يعيش في كنف المسلمين ويستظل بولايتهم. فالأحكام العملية المتعلقة بأهل الكتاب، نوعان:

النوع الأول: أحكام مقصودة لحفظ الدين وتميز المسلمين، وتتمثل في وجوب كون الدين كله لله بإسلامهم أو إعطائهم الجزية أو قتالهم، وكذا تحريم موالاتهم ومحبتهم ومودتهم والتشبه بهم والحذر من كتبهم و مروياتهم وكتابتهم.

النوع الثاني: أحكام متعلقة بحفظ الحقوق وقيام العدل والإحسان، وتتمثل في عدم الإكراه على الدين والعدل في

---

(١) المصدر السابق ، ٢/ ٨٦٦ / ٨٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ٣/١٦٤١- ١٦٤٣ .

معاملتهم وحفظ ذمتهم والصدقة على فقرائهم وحل طعامهم ونسائهم والتعامل معهم بيعاً وشراءً وإجارة ونحوها[١] وخفاء الفارق بين هذين النوعين من الأحكام يؤدي إلى الوقوع في الإفراط أو التفريط

ومن خلال استقراء كلام سيد قطب– رحمه الله –في هذا الباب نجد أنه يميز بين هذين النوعين من الأحكام في كلامه عن أهل الكتاب فيقرر أن: " سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته والذين ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي بطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة، ناسين ما يقرره القرآن من أن أهل الكتاب

(١) ينظر في ذلك :دعوة التقريب بين الأديان ، د / أحمد القاضي ، دار بن الجوزي ، الدمام ، ط١ ، عام ١٤٢٢هـ ، ١/١٥٥وما بعدها

بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم، وأنهم مصرون على الحرب للإسلام.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم.. فطريقه في تمكين دينه لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب.. ومهما أبدى لهم من السماحة فلن يرضوا عنه... ومن السذاجة والغفلة أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين، فهم مع الكفار الملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين (١).

ويمكن بيان موقف سيد قطب من هذين النوعين من الأحكام المتعلقة بأهل الكتاب فيما يأتي:

أولا: الأحكام المتعلقة بحفظ الدين وتميز المسلمين، والتي تتمثل في:

١- كون الدين كله لله: حيث يقرر- سيد - أن الإسلام جاء ليكون إعلاناً عاماً لتحرير" الإنسان" في " الأرض" من العبودية لغير الله في كل صورها، ولا يتم ذلك إلا بقيام الجماعة

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٠٩ – ٩١٠ بتصرف.

المسلمة التي تبلغ هذا الدين وتجاهد في سبيل أن يكون الدين كله لله، إما بدخول الناس في الإسلام، وإما بإزاحة الحواجز المادية من الطواغيت والأوضاع لإفساح المجال أمام الناس لاختيار عقيدتهم بعيداً عن

الضغوط.. من خلال كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم، وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلاً.

والهدف من الجزية: أنهم يعلنون استسلامهم وعدم مقاومتهم للدعوة الإسلامية، والمساهمة في نفقات الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم التي يكفلها لهم الإسلام، وكذلك للمساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل بما في ذلك أهل الذمة، وبذلك يكون الدين كله لله [(١)].

٢- حرمة موالاتهم أو ائتمانهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين: حيث بين- سيد - أن الولاية التي نهى الله عنها هي ولاية التناصر والتحالف معهم، فضلاً عن إتباع شيء من دينهم فذلك محرم ابتداءً.. وفرق بين سماحة الإسلام معهم

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٤٣، ١٦٣٣ ، ١٧٣٨ بتصرف .

في بعض الأحكام العملية وبين اتخاذهم أولياء، فالولاء ارتباط وتناصر وتواد، وهذا لا يكون في قلب يؤمن بالله حقاً إلا للمؤمنين، فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى – وبعضهم أولياء بعض – ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا.. فهذا مفرق الطريق (١).

٣- حرمة محبتهم وموّدتهم في الدين: أما تحريم محبتهم ومودتهم فلأنه لا يجتمع في قلب واحد ودَّان، وِدٌ لله ورسوله، ووِدٌّ لأعداء الله ورسوله! فإما إيمان أولا إيمان، أما هما معاً فلا يجتمعان، فالمفاصلة العقيدية الشعورية بين المسلم وغير المسلم يجب أن تتم من اللحظة الأولى، أما المفاصلة العملية فقد تطول فترة الدعوة قبل تحققها... (٢).

٤- النهي عن التشبه بهم: والنهي عن التشبه بهم قائم على أساس تميز المسلم عن غيره، وهو الأمر الذي ينشئ الشعور بالتفرد، ومن هنا كان النهي عن التشبه بمن دون

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٧ ، ٤٥٢- ٢/ ٩٠٧ ، ٩٠٩ – ٩١١ بتصرف ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ٣٥١٤/٦ ، ١٩٤٧/٤ .

المسلمين في خصائصهم التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة، كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء، ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد شكليات، وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة، وهي التي تفرق قوماُ عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصوراً عن تصور وضميراً عن ضمير، وخلقاً عن خلق، واتجاهاً في الحياة كلها عن اتجاه، لذلك نهى النبي ﷺ عن التشبه بغير المسلمين في مظهرٍ أو لباسٍ، وعن التشبه في حركة أو سلوك، وعن التشبه في قول أو أدب – لأن وراء هذا كله الشعور الباطن الذي يميز تصور ومنهج وسمة الجماعة المسلمة عن غيرها (١).

<u>عدم التلقي عنهم والاغترار بكتاباتهم:</u> حذر سيد –رحمه الله – كثيرا من التلقي عن غير المسلمين عموما وأهل الكتاب خصوصا وكذا الاغترار بكتاباتهم والاعتماد عليها لافتقارها إلى الموضوعية والصواب، خاصة في أمر العقيدة والشريعة والمنهج، أما الانتفاع بالعلوم البحتة مع ربطها

---

(١) المصدر السابق ، ١٢٨/١ بتصرف .

بالإيمان فذلك لا ضير فيه [١]..

٦- **ثانياً: الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق وقيام العدل والإحسان**، وتتمثل في:

١- عدم الإكراه في الدين:

يقول سيد: " قضية العقيدة – كما جاء بها هذا الدين – قضية اقتناع بعد البيان والإدراك وليست قضية إكراه وغصب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة، يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه، في غير قهر بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلجاءً إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها، وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك، فإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط والإكراه بلا بيان ولا إقناع.. عكس المسيحية التي كانت قبله حيث فُرضت بالقوة في ظل الدولة الرومانية.. فلما جاء الإسلام أعلن

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٤٠ ،

هذا المبدأ العظيم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦] حيث يتجلى فيه تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله.. وهذه أخص خصائص التحرر الإنساني.. الذي تتكره المذاهب المعاصرة على الإنسان في عالم اليوم.. والتعبير هنا في صورة النفي المطلق ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾أي نفي جنس الإكراه، وليس مجرد نهي عن مزاولته.. ولا تناقض بين مبدأ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ ومبدأ (الجهاد) كما يزعم المغرضون من المستشرقين أو المهزومين من المسلمين، فالجهاد في الإسلام شرع لأهداف سامية منها:

أ- دفع الأذى والفتنة عن المؤمنين وحماية أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم.

ب- تقرير حرية الدعوة – بعد تقرير حرية العقيدة – لإيصال الإسلام لكل الناس وبيانه لهم فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولكن قبل ذلك لا بد من إزالة الحواجز والعقبات التي تمنع الناس من سماع الإسلام وفهمه..

من خلال جهاد الطواغيت والنظم الطاغية التي تحول بين الناس وبين معرفة الإسلام.

ج- إقامة النظام الإسلامي في الأرض وحمايته، وتحرير البشر من العبودية للبشر في جميع صورها، وبالتالي يكفل صيانة الحرمات حتى لمن لا يعتنقه ممن يعيش في ظله " (١).

ولابد هنا من التفريق بين ما ذكره سيد من عدم إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام وبين حكم الإسلام فيمن دخل الإسلام تم ارتد عنه، فلا يصح الاستدلال بالآية على جواز الارتداد عن الدين.

٢- الإحسان إليهم والعدل في معاملتهم وحفظ ذمتهم:

يقول سيد: " فالإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله أخوة متعارفين متحابين، وليس هناك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، فإذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة، وحتى في حالة الخصومة فإنه يستبقي أسباب الود في النفس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظاراً لليوم الذي يقتنع فيه خصومه

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/٢٩٠-٢٩٦ بتصرف .

بأن الخير أن ينضووا تحت لوائه الرفيع.. وإلى أن يتحقق ذلك رخص الله للمؤمنين في موادة من لم يقاتلوهم في الدين، ورفع عنهم الحرج في أن يبروهم، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئاً.. لكنه نهى أشد النهي عن الولاء لمن قاتلوهم في الدين.. وهذه القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين "(١). " حيث يأمرهم بإقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض "(٢).

٣- حل طعامهم ونسائهم وزيارة مريضهم:

يقول سيد: " فمن سماحة الإسلام مع غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي " دار الإسلام "، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد من أهل الكتاب، أنه لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية، ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مَجْفُوين معزولين – أو منبوذين – إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة والمجاملة والخلطة، فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك (٣) ليتم

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/٣٥٤٤ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٨٥٢ .

(٣) القول بحل نساء أهل الكتاب اليوم فيه نظر ، لاعتبارات جدَّت في عقائدهم وسلوكهم وقوانينهم ، ومع ذلك نجد سيد قطب يميل إلى الرأي القائل بتحريم نكاح

التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة، وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم – وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر – طيبات للمسلمين، وهي سماحة لم يشعر بها إلا اتباع الإسلام من بين سائر اتباع الديانات والنحل، فالكاثوليكي المسيحي يتحرج من نكاح الأرثوذكسية أو البروتستانتية أو المارونية المسيحية، ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة.. وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية في ظل المجتمع المسلم فيما يختص بالعشرة والسلوك، أما الولاء والنصرة فلها حكم آخر " (١).

الكتابية إذا كانت تعتقد بألوهية عيسى أو بنوته ، أو التثليث أو أن عزير ابن الله لكونها في هذه الحالة مشركة ، ويستدل بقول ابن عمر " لا أعلم أعظم شركاً من أن تقول ربها عيسى " وهو حديث أخرجه البخاري . ينظر في ظلال القرآن ، ١/ ٢٤٠-٢٤١ .

(١) في ظلال القرآن ، ٨٤٨/٢ بتصرف ، ومع ذلك نجد سيد يميل إلى الرأي القائل بتحريم نكاح الكتابية إذا كانت تعتقد بألوهية عيسى أو بنوته ، أو التثليث أو أن عزير ابن الله لكونها في هذه الحالة مشركة ، ويستدل بقول ابن عمر " لا

ولسيد –رحمه الله – نصوص أخرى في عدد من مؤلفاته (١) يتحدث فيها عن موقف الإسلام من أهل الكتاب فيما يتعلق بالعدل معهم والإحسان فيما يتعلق بالعشرة والسلوك، ربما يفهم منها من يقرأُها في معزل عن النصوص التي سبق بيانها في موقفه من أهل الكتاب أن سيد يميع قضية الولاء والبراء، ويدعو إلى موادة الكفار ! (٢).

أعلم أعظم شركاً من أن تقول ربها عيسى " وهو حديث أخرجه البخاري . ينظر في ظلال القرآن ، ١/ ٢٤٠-٢٤١ .

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٣٥٤٤/٦ – ٣٥٤٥ ، ونحو مجتمع إسلامي ، ص ١٠٠-١٠٦و١١٤ -١٣٥ ، والسلام العالمي ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) ينظر : أضواء على عقيدة سيد قطب وفكره ، د / ربيع المدخلي ،ص ٢٢٤-٢٤١ .

المطلب الثاني

موقفه من الأديان الوثنية والمذاهب المادية المعاصرة

الفرع الأول: موقفه من الوثنية:

يقول سيد – رحمه الله –: " إن الأساطير والتصورات الوثنية قد يبدو لنا اليوم أنها انتهت وانقضت، ولم تعد ذات موضوع يعالجه التصور الإسلامي الصحيح، ولكن الحقيقة غير ذلك، فما يزال مئات الملايين من البشر في الهند واليابان والتبت وسيلان والفلبين، ومساحات شاسعة في أفريقية، وقبائل متفرقة في استراليا وأمريكا.. ما تزال هذه المئات من الملايين البشرية غارقة في أساطير الوثنية وتصوراتها عن " حقيقة الألوهية " وعن " حقيقة الكون " تبعاً لذلك، وما يزال أمام التصور الإسلامي الصحيح لهذه الحقائق الأساسية مجال عمل مفتوح.

إن بعض العقائد الهندية تتصور.. أن هذا الكون يفنى ويتجدد في أدهار معلومة، وذلك بفعل " الكارما " أو" ما ينبغي أن يكون " وذلك مع اعتقادها بوجودٍ إلهي له حالات ثلاث لكل

حالة منها اسم " فشنو " و " سيفا" و" كرشنا ".

كما أن بعضها يرى أن هذا الكون المادي " عدم " لا وجود له، ولكن الوجود الإلهي وهو الوجود الحقيقي حين " يحل " في هذا العدم، فإنه يتجلى في الصورة المادية، ومن ثم فكل ما نرى في الكون إنما هو من أثر " حلول " الوجود الإلهي في هذا العدم! ولقد اختفت من السطح آلهة الإغريق الوثنية التي كانت تتوزع اختصاصاتها في النجوم والكواكب، والقوى الطبيعية، والظواهر الكونية، فإله للشمس، وربة للقمر، وربة للغدران والعيون، وإله للمرعى، وإله للحب، وآلهة للنسل... الخ، ولكن هذه الآلهة ما تزال كامنة في عقل الأوربيين والأمريكان ورثة الوثنية الإغريقية الرومانية، وما تزال تلوّن تصوراتهم الأدبية في شعرهم وقصصهم، ثم تلوّن نظرتهم إلى الكون وشعورهم تجاهه فاصطلاح " الانتصار على الطبيعة " هو اصطلاحٌ وثنيٌ ناشئٌ من تلك التصورات القديمة، وهو أعمق في مشاعرهم من التصورات المسيحية الطارئة عليهم، وبخاصة بعد عصر النهضة التي اعتمدت على التراث الإغريقي الروماني أكثر مما اعتمدت على المسيحية.

ومما يؤسف له أن هذه التصورات الوثنية تتسرب إلينا –

نحن المسلمين – مع الأدب الغربي ومع الفلسفة الغربية، وتندس في عقولنا، وتظهر في تعبيراتنا وآدابنا كما لو كانت أصيلة فينا، وإذا كان الأوربي معذوراً في هذا، لأنه وريث تلك الوثنية فهو على الأقل " أصيل " في ذلك التراث الوثني.. أما نحن.. فماذا!!.

كذلك ما يزال للوثنيات الشرقية جذورها الكامنة وراء الرسالات السماوية، بل إن بعض الحركات كحركة الحزب القومي السوري تقوم على أساسها، وتحاول استحياءها واستحياء تصوراتها، فالوثنية الفينيقية هي قاعدة تصورات هذا الحزب، وبها يتغنى في أدبه وفي خطته السياسية كذلك، إنه يتغنى " بعشتروت " و " آدونيس " وبقية الآلهة الوثنية القديمة.

وفي وقتٍ من الأوقات حاول بعضهم في مصر استحياء الوثنية الفرعونية، وكان سلامة موسى[١] على رأس هذه المحاولة لكنها أخفقت، لأنها حركة ضد الخط التاريخي! ولكنها تتخفى الآن لتظهر في صورة أخرى في حركة " الفولكلور "

---

(١) سلامة موسى ، كاتب مصري نصراني ،ولد سنة ١٨٨٧م، واشتهر بنزعته التغريبية وميوله النصرانية والمادية ، درس في لندن ، له عدد من المؤلفات .مات سنة ١٩٥٨م ، انظر: الأعلام للزركلي ،١٠٧/٣ .

واستحياء التصورات الشعبية القديمة المستندة إلى التصورات الفرعونية الوثنية، وأصلها حركة خبيثة للتغطية على الإسلام ونوره! فالوثنية لم تنتهِ ولم تنقضِ، ولم تصبح غير ذات موضوع في بقاع كثيرة " (١).

كما يرى – أيضاً – أن أسباب بقاء الوثنية هو عدم وصول الحق إلى البشرية، " لأنه لا مجال أمام القلب البشري إلا أن يستقيم على فطرته فيعرف إلهه الحق ويتخذه رباً، ويستسلم لشرعه ويرفض ربوبية ما عداه،... وإما أن يتيه في دروب الجاهلية والوثنية ومنعرجاتها تطلب إليه طواغيت الجاهلية والوثنية شتى الطقوس لعبادتها، وشتى التضحيات لإرضائها، ثم تعدد الطقوس في العبادات والتضحيات، حتى ينسى الوثني أصولها، ويؤديها وهو لا يعرف حكمتها والإسلام وحده هو دين التوحيد الذي جاء ليحرر الناس من العبودية بعضهم لبعض ومن عبوديتهم لشتى الآلهة والأرباب، ويحرر الضمير البشري من أوهام الوثنية في كل صورها وأشكالها، سواءً في أعماق الضمير أم في شعائر العبادات، أم في أوضاع

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

الحياة وشرائع الحكم والنظام (١).

ويقول أيضاً: " إننا اليوم نشهد – بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن – أنه حينما انفك رباط القلب البشري بالإله الواحد، تاه في منحنيات الوثنية التي لا عداد لها.. وذكر من الأمثلة للوثنية المنتشرة في العالم الإسلامي اليوم ما يحصل في صعيد مصر وريفها من مظاهر الوثنية والقرابين لغير الله (٢).

كما نبه على صنوف وألوان من الوثنية والشرك، عند من يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له ومن ذلك: أن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها " القوم " ويسمونها " الوطن " ويسمونها " الشعب " إلى آخر ما يسمون، وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون، إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة،.. إن شكل الأصنام والوثنية فقط هو الذي تغير، والشعائر اتخذت لها عنوانات جديدة.. أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي قائمة وراء الأشكال والشعائر المتغيرة، وما يجري اليوم في الأرض كلها أمثلة تكشف عن

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٨٨- ٩٨٩ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ٩٩٠/٢ ، ٣/ ١٤١٢ بتصرف .

حقيقة الوثنية السائدة والأصنام المعبودة المقامة اليوم بديلاً عن تلك الوثنية الصريحة والأصنام المتطورة، ويجب ألا تخدعنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة (١).

" والناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم من خلال الدينونة لله وحده والتلقي عنه وحده " (٢).

الفرع الثاني: موقفه من المشركين:

تركز كلام سيد قطب – رحمه الله – حول المشركين من خلال بيان الشرك والتحذير منه وبيان صفات أهله والموقف منهم.

أما بيان الشرك وحقيقته وأنواعه وآثاره فسيأتي الكلام عنها في الفصل الرابع من الباب الثالث عند حديثنا عن نواقض التوحيد – إن شاء الله –، ونقتصر هنا على بيان موقف سيد من المشركين، وذلك كما يأتي:

أ – من هم المشركون؟:

يعرف – سيد قطب – المشركين بأنهم: " الذين يشركون

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/١٤١٢– ١٤١٣ ، ٤/١٨٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ٤/١٨٩١.

بالله أحداً في خصائص الألوهية سواء في الاعتقاد بألوهية أحدٍ مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحدٍ مع الله، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحدٍ مع الله، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه [1].

وهذا يعني أن غير المسلمين سواءً كانوا أهل كتاب أو وثنيين أو غيرهم يطلق عليهم مصطلح " المشركون " ويدخل في المصطلح أيضاً بعض من ينتسبون إلى الإسلام ويقعون في الشرك على اختلاف درجات الشرك بين أكبر وأصغر.

ب- <u>صفات المشركين وخصائصهم:</u>

أشار سيد – رحمه الله – إلى بعض صفات المشركين التي ذكرها القرآن الكريم، ومنها:

١- غفلتهم وعدم استخدامهم للعقل والنظر [2].

٢- كبرياؤهم وعنادهم وإعراضهم عن الحق [3].

٣- كفرهم بالله وصدهم عن سبيله [4].

---

(١) المصدر السابق ، ١١٢٩/٢.

(٢) في ظلال القرآن ، ١٥٣/١ ، ٢٩٨٤/٥ .

(٣) المصدر السابق ، ١٠٣٦/٢ ، ١٠٣٩ ، ١٠٧٩ ، ١٥٠٥/٣ ، ١٨٥٥/٤، ٢٥٥٨/٥ ، ٢٦١٨ .

(٤) المصدر السابق ، ٣/ ١٥٠٦ .

٤- حقدهم على الإسلام وأهله ونجاسة نفوسهم [١].

٥- انحراف فطرهم عن الحق ونفورهم منه [٢].

٦- افتراؤهم وكذبهم على الله [٣].

٧- تفننهم في طلب الآيات مع التكذيب بها [٤].

ج- عداؤهم للإسلام وأهله:

بيّن سيد – رحمه الله –أن هناك وحدة هدفٍ – تجاه الإسلام والمسلمين – تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين. واستعرض الآيات القرآنية المختلفة التي تقرر ذلك بوضوحٍ وجزم، و تبين مدى العداء الذي يحملونه، وأن هذا العداء طبيعة دائمة وليس حالة مؤقتة، ويتبين ذلك بوضوح من خلال استعراض الواقع التاريخي لمواقف المشركين جميعاً من الإسلام وأهله [٥].

د- حدود التعامل مع المشركين:

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٦٠٥ ، ١٦١٨ . .

(٢) المصدر السابق ، ٢١٨٣/٤ ، ٢٢٣٢ ، ٥/ ٣٠٣٧ ، ٣٠٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، ٢١٧٩/٤ ، ٢١٩٤ ، ٢٤٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ١٠٧٩/٢ ، ٢٣٥٧/٤ ، ٢٧٤٦/٥ .

(٥) المصدر السابق ، ١٦٢٥/٣ وما بعدها ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ١١٣ –١١٤.

يرى – سيد– أن أهل الإسلام لا لقاء بينهم وبين أمم الشرك كلها، فهما أمتان مختلفتان وبالتالي فإن المفاصلة هي التي تحكم العلاقة بينهما، ولا بد أن تقوم العلاقة معهم على الأتي:

١- بغضهم وعداوتهم وعدم موالاتهم، باعتبار أن محبتهم وولايتهم من نواقض الإسلام [١].

٢- مفاصلتهم وعدم حضور مجالسهم إلا بقصد الدعوة والتذكير فقط [٢].

٣- تحريم مصاهرتهم وبيان العلة في ذلك [٣].

وبالإضافة لما سبق فقد عمل سيد قطب – رحمه الله – على إبراز منهج القرآن الكريم في الرد على مقولات المشركين وشبهاتهم الفاسدة، وبيّن بطلان عقائد الشرك كافة عند استعراضه للآيات المتعلقة بذلك [٤].

(١) في ظلال القرآن ، ٣٨٥/١ ، ٩٠٩/٢ ، ٩٢٢ ، ٣٤١١/٦ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ٣٨٠

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٩١٥ – ٩١٧ ، ١٠٤٨ ،١١٢٧ ، ١١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٣٩/١ ، وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ، ٢/ ١١٥٣ ، ١١٦٣ ، ٢١٦٦/٤ ، ٢١٧١/٥ ، ٢٥٥٥/٥ ، ٢٧٥٠ ، ٣٠٣٧ ، ٥٥٥ .

الفرع الثالث: موقفه من الإلحاد:

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، انتشاراً كبيراً لموجة الإلحاد وظهور كثير من النظريات والمذاهب المادية والإلحادية في العالم.

وقد عاصر سيد –رحمه الله– تلك المرحلة وتعرف من خلال قراءاته واطلاعه، وكذا من خلال حياته في الغرب على كثير من تلك المذاهب والنظريات، وبعد توجهه نحو الإسلام عمل على فضح حقيقة المذاهب الإلحادية ومناقشة أصحابها وتعرية اللافتات التي يرفعونها في المجتمع المسلم خصوصاً

ويمكن استعراض موقفه من الإلحاد ومذاهبه بإيجاز فيما يأتي:

<u>١– تعريف الإلحاد:</u>

الإلحاد هو: التظاهر بإنكار وجود الله ونبذ الاعتقاد والتدين إطلاقاً، وهو بهذا المفهوم لوثةٌ حديثةٌ عارضةٌ شاذةٌ، ليس لها في ضمير البشرية جذور وليس لها في الفطرة البشرية روافد، وليس لها في الكينونة البشرية ولا في الحياة البشرية عواملً بقاءٍ ولا امتداد [١].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٠٠ .

ذلك أن العرب في الجاهلية لم يكونوا ينكرون وجود الله وربوبيته، وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق – باستثناء قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق – [١].

فمسألة"وجود"إله لم تكن قط قضية جدية من قضايا الاعتقاد في تاريخ البشرية، إنما كانت القضية الجدية دائماً هي تصور حقيقة الألوهية وبخاصة ما يتعلق منها" بصفة التوحيد" فالمعركة كانت بين الاعتقاد الحق والاعتقادات الباطلة، ولم تكن بين" الإيمان"على إطلاقه، " والإلحاد " على إطلاقه [٢].

٢– <u>أسباب وجود الإلحاد وانتشاره:</u> يرجع سيد– رحمه الله–سبب وجود الإلحاد إلى:

أ– انحراف الفطرة وفسادها، بسبب ما يطرأ عليها من عوامل شتى تغطي على حقيقة اتجاهها إلى ربها ومعرفتها بوحدانيته.

ب– التاريخ الطويل من العذاب البشع، ومن الكبت والقمع ومن الصراع الوحشي مع الكنيسة.

ج– إنكار الكنيسة للدوافع الفطرية للناس، مع استغراقها

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٦٣ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٠٠، ١٠٣ .

هي في اللذائذ المحرمة.

د- جهود اليهود في استغلال الواقع التاريخي المنحرف للنصارى، ودفعهم بعيداً عن دينهم ليسلس لهم قيادهم، واستخدامهم كالحمير على حد تعبير "التلمود " و " بروتوكولات حكماء صهيون " وما كان لليهود أن يبلغوا ذلك إلا باستغلال التاريخ الأوربي النكد لدفع الناس إلى الإلحاد هرباً من الكنيسة.

هـ- الصدام بين الكنيسة بعقائدهم المحرفة، وبين النهضة العلمية في أوربا، واتجاه فلسفات عصر التنوير والمذاهب الوضعية المادية إلى الإلحاد.

و- استعمال القوة الرسمية في فرض الإلحاد ونشره في الشعوب بالحديد والنار، كما حصل إبان الثورة البلشفية في روسيا، وكذا ما حصل ممن سار في فلكها من الأنظمة التي حكمت كثيرا من شعوب العالم [1].

٣- مناقشة – سيد – لمقالات الملا حدة:

تعرض سيد – رحمه الله – لكثير من النظريات والمبادئ

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٣٢ ، ١٠٨٧ ، ١١٦٤ ، ٣/ ١٣٥٧ ن ١٤٠٦ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٠٠ وما بعدها ، بتصرف ، وفي التاريخ فكرة ومنهاج – سيد قطب – ص ٦٥ وما بعدها .

الإلحادية، وناقش أصحابها فيها مبيناً ضلالهم فيها من خلال استعراض المنهج القرآني، وكذا الاستشهاد بالأبحاث العلمية للعلماء الغربيين الذين وصلوا في نهاية دروبهم إلى الإقرار بالله [(١)]. ومن المقولات الإلحاديةالتي ناقشها – سيد – ورد عليها:

أ- نشأة الحياة وحقيقتها [(٢)].

ب- إنكار الغيبيات [(٣)].

ج- إنكار الخالق سبحانه [(٤)].

د- التفسير المادي للتاريخ [(٥)].

هـ- النظرة المادية للإنسان [(٦)]..

<u>٤- مصير الإلحاد وواجبنا نحوه:</u>

---

(١) ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٣٢ وما بعدها ، ومقومات التصور الإسلامي، ص ١٠١ .

(٢) ينظر في ذلك: في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٣٤- ١٠٣٥ ، ٣/ ١١٥٣ ، ١٢٧٠- ١٢٧٢ .

(٣) ينظر في ذلك: المصدر السابق ، ١/ ٤٠ ، ، ١١٥/٢ وما بعدها

(٤) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٦١ ، ١١٦٧ ، ٣/ ١٤٠٦ ، ٤/ ٢١٣٠ .

(٥) ينظر: المصدر السابق ، ٢/ ١٠٣٨ .

(٦) ينظر: المصدر السابق ، ٦٠/١ ، ١٨٠٠/٣ ، ٢١٤٢/٤ ، ٣٦٨٤/٦ ،وما بعدها ، ومقومات التصور الإسلامي، ص ٣٧ .

يرى سيد – رحمه الله – بما أن الإلحاد لوثة عارضة في تاريخ البشرية ليس لها جذور في الوجود والفطرة، وإنما بدأت كمناورة في وجه الكنيسة، ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية، فإن مصيرها حتماًُ إلى الفناء والاندثار من هذا الوجود، وينبغي ألا تأخذنا ضجة الإلحاد والملحدين، فنظن أنها موجة كاسحة، أو نظن أنهم كثيرون! فحتى البلاد التي تفرض الإلحاد بالحديد والنار والسجون والجواسيس، أحنت رأسها في ساعة العسرة للعقيدة والتجأ الشعب الروسي في وجه الهجوم الهتلري إلى الدين والكنيسة، ذلك لأن الدين حاجة فطرية في النفس البشرية كحاجة الطعام والشراب لحفظ الذات، وحاجة النسل لحفظ النوع سواء.. والكائن الذي لا ترتبط أجهزته الفطرية بالكون وبارئه هو مسخ لا تكتب له الحياة طويلاً ولا الامتداد (١).

<u>أما واجب المسلمين نحو الإلحاد:</u> " فهو الوقوف في وجه المد الإلحادي بالمنهج القرآني الفريد الذي يملك مقومات الخلاص للبشرية من بربرية الحضارة المادية ومصيدة الإلحاد

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ، ١/ ١٥١ ، ٢/ ١٠٣٢ ، ٥/ ٣١٣١ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ١٠٢ بتصرف .

والشيوعية، وعلى المسلم ألا ينخدع بكثرة وقوة أصحاب الإلحاد، وضعف المسلمين، فيستعظم الأمر، ويستكثر مواجهة هذه البشرية الضالة بكلمة الحق الفاصلة.. فالجاهلية وإن عمَّت الأرض جميعاً فواجب الداعية مواجهتها (١).

" وينبغي أن يواجه الإلحاد بالإسلام الصافي النقي، وألا ينخدع المسلم بالشعارات التي تنادي بالتعاون مع أهل الأديان المحرفة من أهل الكتاب للوقوف في وجه المد الإلحادي، ذلك لأن القرآن يقرر أن أهل الكتاب أعداء للدين الحق، وأنهم في حرب دائمة معه، وأنهم يقفون وراء النظريات المادية والإلحادية، فلا يعنيهم حرب المادية الإلحادية بقدر ما تعنيهم حرب الإسلام، ذلك لأن المادية الإلحادية من وجهة نظرهم عرضٌ طارئٌ وعدوٌ موقوت، بينما الإسلام أصلٌ ثابتٌ وعدوٌ مقيم، وبالتالي فالدعوة إلى تناصر الأديان وتعاونها في وجه الإلحاد إنما هي دعوة مموهة لتمييع اليقظة الإسلامية، والانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين، وليكون المسلمون وقوداً للمعركة مع الملحدين (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٤١ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٩٢٤ – ٩٢٥، ٩٤٠ .

الفرع الرابع: موقفه من النظريات الإلحادية والمادية:

أولاً: موقفه من الشيوعية " الاشتراكية ":

يعد سيد قطب – رحمه الله – في طليعة الكُتَّاب الإسلاميين الذين حاربوا الشيوعية والاشتراكية، والمطلع على كتبه يجد أنه عمل على بيان حقيقة الشيوعية الإلحادية ومجافاتها للفطرة، وعدائها للدين، وتحالفها ضد الإسلام والمسلمين، حيث يقرر في كتاباته:

١- " أن الشيوعية مؤسسة يهودية كالماسونية، وأنها إحدى ركائز الخطة اليهودية في تدمير العالم – غير اليهودي – عن طريق سلب الدين منه، وإبعاده عنه كونه المقوم الأساسي للحياة" (١).

٢- " أن الشيوعية من الوجهة النظرية تقوم على جهالة عميقة بالنفس البشرية وطبيعتها وتاريخها، فضلاً على الجهالة العميقة بالحقيقة الكونية وتفسير الكون والحياة، فهي:

– تصور جميع الدوافع الإنسانية قائمة على جوعة المعدة والصراع على لقمة الخبز.

– وتصور جميع الحركات التاريخية منبثقة من تغير

---

(١) العدالة الاجتماعية – سيد قطب – ص ١١ .

أدوات الإنتاج.

- وتلغي أهم مقومات الإنسان التي تفرق بين تاريخه وتاريخ البهيمة!.

- وتلغي أهم وظائف الإنسان وهي كونه العامل الإيجابي الأول في هذه الأرض وفي البشرية

- وتفترض أن الناس سيتحولون ملائكة خيرين، ينتج كل منهم أقصى ما في طوقه، ولا يأخذ إلا قدر ما يكفيه، وكل هذا بدون رقابة وبدون حكومة، وبدون عقيدة سماوية تطمعه في جنة أو تخيفه من نار، وبدون أي سبب معقول.. اللهم إلا ذلك الانقلاب الخرافي العجيب، الذي يتم في طبائع البشر، بمجرد تحطيم عناصر البرجوازية، وتسليم الأمر للبروليتاريا.. وحين يكون هذا الجهل العميق وهذه الخرافة الطاغية هما أساس التصور الماركسي، فإننا لا ننتظر أبداً أن يقوم على أساسه واقع عملي في الحياة التي يزاولها البشر، إلا أن يكون فيه من الاعتساف قدر ما في هذا التصور من رغبة جامحة في مجانبة حقائق الفطرة التي تصطدم اصطداماً عنيفاً بذلك التصور، ومن ثم اضطرت الماركسية –عند التطبيق العملي – أن تتخلى عن أهم مقدساتها الماركسية! وعللت هذا التخلي الذي يكاد يكون

كاملاً بأن الماركسية مذهب متطور، على حين أنه ليس هناك مذهب يحتشد بالحتميات احتشاد النظرية الماركسية " [(١)].

٣-" أن الشيوعية مذهب يعادي الدين والفطرة، ويضطهد المسلمين، ويحارب الإسلام بوسائل شتى ومن وسائل الشيوعيين في حربهم للإسلام أنهم في البداية كتموا خططهم وحقيقتهم من الدين، وحاولوا الظهور بمظهرٍ محبب للشعوب إلى حين تمكنهم من القوة، وعند ذلك عمدوا إلى استئصال شأفة الدين من خلال:

أ- القضاء على القضاة والمفتين والمدرسين والوعاظ والخطباء والأئمة والمؤذنين.

ب- احتلال المدارس والجوامع والمساجد، وتحويلها إلى مسارح واصطبلات خيول أو مخازن أو أندية وسينما.

ج- إلغاء المحاكم الشرعية وديار الإفتاء.

د- جمع نسخ القرآن وإحراقها، وكذا الكتب الدينية.

هـ- الاعتقال والتعذيب والنفي لمن بقي على دينه بوسائل وحشية وطرق دنيئة [(٢)].

---

(١) المستقبل لهذا الدين – سيد قطب – دار الشروق ، القاهرة ، ط١٦ ، عام ١٤٢٥هـ ، ص ٥٠- ٥١ .

(٢) دراسات إسلامية – سيد قطب –، ص ٢٠١ –٢٠٦ بتصرف ، وفي التاريخ فكرة ومنهاج – سيد قطب – ،ص٦٣- ٦٦

سبب انتشار الشيوعية في أوروبا وعلاقتها بالرأسمالية:

يرجع سيد قطب سبب انتشار الشيوعية في أوروبا إلى " عقم الحضارة الأوربية والأمريكية في أن تعطي الناس شيئاً جديداً في حقل الحرية الحقيقية والمساواة، والأخوة، وهي الشعارات التي رفعتها الثورة الفرنسية ثم ما لبثت أن سقطت، وتحول الغرب إلى الحقل المادي الصناعي وهنا برزت الفكرة الشيوعية أو التفسير المادي للتاريخ، لأنها تمثل في عالم المبادئ مساحة أوسع من المساحة التي انتهت إليها مبادئ الثورة الفرنسية في العالم الغربي، وتشغل الجماعات الإنسانية بهدف أكبر من الهدف الفردي، التي تمثله الوجودية في فرنسا والبرجماتية في أمريكا ومن هنا كان الاندفاع الأوربي إلى الشيوعية بسبب الخواء المطلق في الحضارة الغربية وانعدام الغذاء الفكري، ولم يكن أمامهم إلا فكرة الشيوعية لإشباعه.

أضف إلى ذلك أن الشيوعية هي الامتداد الطبيعي للفكرة المادية عن الحياة، وهي الفكرة التي اعتنقها العالم الغربي منذ قيام حضارته على أساس الحضارة الرومانية المادية..

والخلاف بين فكرة الشيوعية والأفكار السائدة في الغرب الآن ليس اختلافاً في طبيعة التفكير إنما هو اختلاف في مدى

التفكير، وطريقة التنظيم، فالفكرة المادية عن الحياة واحدة، والفرق هو بين حرية الاستثمار المطلق في الغرب، وبين ملكية الدولة لكل شيء في الشرق" (١).

علاقة الشيوعية بالإسلام:

يقرر سيد رحمه الله " أن الإسلام هو الإسلام، والاشتراكية هي الاشتراكية.. ذلك منهج الله وهذه وتلك من مناهج البشر ومن تجارب البشر.. وبالتالي فالخلط بينهما ووضع هذه الأقنعة على الإسلام ظناً أن في ذلك خدمة له، إنما هو في الحقيقة تمييع للإسلام وإضلال للناس " (٢).

" إن الاشتراكية قد تلتقي مع الإسلام في بعض النقاط في الجانب الاقتصادي، مثل محاولة ضمانُ حدٍ أدنى لائقٍ للأفراد من حيث العمل والمسكن والصحة، والتقريب بين مختلف طوائف المجتمع، ونحوها، ولعل هذا الالتقاء هو الذي أوجد شبهة عند الدعاة الإسلاميين الذين يتحدثون عن" الإسلام الاشتراكي" و" اشتراكية الإسلام " و" الاشتراكية الإسلامية" وما إليها ولكن الواقع:

---

(١) نحو مجتمع إسلامي – سيد قطب – ص : ٢٢- ٢٤ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٨٣ بتصرف .

أ - أن أسبقية النظام الإسلامي تمنع من إعطائه وصفاً لاحقاً، هذا من ناحية الشكل.

ب - أما من ناحية الموضوع:

١- فالإسلام نظام متكامل تجيء فيه هذه الاتجاهات مرتكنة إلى أصول ثابتة، ومعتمدة على فكرةٍ كليةٍ متناسقةِ الأجزاء متصلة بالعقيدة في الله. بينما الاشتراكية فكرة مادية عن الحياة لم تتناول غير الجانب الاقتصادي في حياة المجتمع.

٢- أن النظام الإسلامي كليٌ ودائمٌ، بينما الاشتراكية جزئيةٌ ووقتيةٌ، وبالتالي لا يجوز ربطه- أي الإسلام - بنظام ولدته ضرورة طارئة ومصيره إلى التحور أو الزوال.

٣- أن الإسلام هوالأصل الذي ينبغي أن تقرن الاشتراكية إليه فيقال: أن فيها ما يشبه الإسلام في كيت وكيت، ولا يجوز أن يقرن الإسلام إليها، وهو سابق عليها بـ(١٣)قرنا من الوجهة التاريخية

٤- هناك فارق موضوعي أصيل وهو أن الاشتراكية بسبب أنها مذهب مادي اقتصادي بحت مجرد من العناصر الأدبية التي تمازج النظام الاجتماعي في الإسلام، يمكن أن يقوم في ظلها استعمار، دونما حرج ولا تعارض مع صلب

النظام الاشتراكي، الأمر الذي لا يمكن أن يتم في ظل النظام الاجتماعي الإسلامي بسبب قيامه على العقيدة.

٥- أن النظام الاجتماعي في الإسلام نظام إنساني عالمي، أما النظام الاشتراكي فنظام قومي محلي، وهذا الفارق الأساسي في طبيعة النظامين تترتب عليه فروق كثيرة، تجعل المشابهات بينهما مجرد اتفاقات ظاهرية وجزئية

٦- أن النظام الشيوعي تصطدم فكرته بفكرة الإسلام من أساسها – وأن التقت معه في بعض المظاهر- فالمادية الجدلية التي تنفي كل مؤثر في الحياة تصطدم منذ الخطوة الأولى بالعقيدة في الله التي تقول أن هناك إرادة عليا في الكون تصرفه وفق ناموس ثابت، { سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾} [سورة الفتح: ٢٣].

والمادية التاريخية تصغر من قيمه الدور الإنساني في الحياة أو تنفيه، وتجعل الدور الأساسي لأداة الإنتاج، بينما الإسلام يَعُد الإنسان خليفة الله في الأرض، ويجعل له الدور الأساسي في كل ما ينشأ على وجهها من تغييرات وبالتالي فالنظرة التكريمة للإنسان تختلف اختلافاً جذرياً وتترك طابعها

في حياة الإنسان " (١).

" وهذا يعني أن النظرة الإسلامية إلى الإنسان تقدم على أساس تفرده بخصائصه الإنسانية، إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من مطالب التكوين العضوي – المتمثلة بالطعام والشراب والمسكن والجنس– فالعقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار، هي مطالب أساسية للإنسان كالطعام والشراب والمسكن والجنس.. بل هي أعلى منها في الاعتبار، لأنها مطالب زائدة في الإنسان على الحيوان، وإهدارها يعني إهدار آدميته، فالنظام الإسلامي لا يهدرها في سبيل الإنتاج كما تفعل الشيوعية (٢).

"إن الإسلام يقر مبدأ الملكية الفردية، ويخالف النظرة الشيوعية في هذا الاتجاه" (٣).

" وأخيراً فإننا نخرج بالحقيقة التي لا اعتساف فيها وهي: أن النظام الإسلامي ليس هو الرق، وليس هو الإقطاع، وليس هو الرأسمالية، وليس هو الاشتراكية، وليس هو الشيوعية، إن

---

(١) نحو مجتمع إسلامي ص٨٦-٩٠ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٤٤ بتصرف يسير .

(٣) معركة الإسلام والرأسمالية – سيد قطب – ص ٤٠ .

النظام الإسلامي هو فقط النظام الإسلامي " (١).

مصير الشيوعية في نظر سيد قطب:

بناء على الحقائق التي أوردها – سيد – عن طبيعة النظام الاشتراكي، ومجافاته للطبيعة والفطرة ومعاداته للدين، فإن مصيرها إلى الزوال.

وقد تنبأ سيد – رحمه الله – أن أقصى مدى يتصوره للمد الشيوعي لن يتجاوز الجيل الذي عاشه وبداية الجيل الذي بعده، أي مع نهاية القرن العشرين الميلادي حيث يقول:

" فأقصى مدى أتصوره للمد الشيوعي لن يتجاوز جيلنا هذا الذي نحن فيه، وأوائل الجيل القادم إذا سارت الأمور سيرتها الحالية، ولن يكتمل هذا القرن العشرين حتى تكون الشيوعية قد سيطرت على الحضارة الغربية.. وعندئذ ينتهي صراع الشيوعية والرأسمالية، اللتان هما خطوتان في فكرة واحدة هي الفكرة المادية، لا فكرتان مختلفتان كما تحاول كلتاهما أن تزعم في معرض الدعاية، وعندئذٍ.. يبدأ الصراع الحقيقي بين الفكرتين الرئيسيتين في العالم: الفكرة الإنسانية – ويمثلها الإسلام –، والفكرة المادية وتمثلها الشيوعية في آخر مراحلها، كما مثلها

---

(١) نحو مجتمع إسلامي – سيد قطب – ص ٨٦ –٩١ بتصرف يسير

الدولة الرومانية وأوربا وأمريكا بكافة النظم التي سادت فيها- وفي نهايتها هذا النظام الشيوعي.. ونحن لا نشك في النتيجة الأخيرة لهذا الصراع، ولا نرتاب لحظة في أن العاقبة للإسلام، بحكم أنه فكرةٌ تسمح للحياة بالنمو الدائم في ظلها، وبحكم أنه نظام يسمح لجميع قوى الإنسانية أن تعمل، ويمنح الزاد المناسب لكل جوعة من جوعاتها: فكرية أو روحية أو مادية، وبحكم أنه نظام عالمي يمكن للبشرية كلها أن تستظل بلوائه " (١).

" فالشيوعية في ذاتها فكرة صغيرة، لا تستحق الاحترام عند من يفكرون تفكيراً إنسانياً أعلى من الطعام والشراب، وعند من يعرفون أفكاراً أخرى عرفتها الإنسانية قبل الشيوعية، وهي أعدل وأرقى " (٢).

ثانياً: موقفه من الداروينية:

قبل الحديث عن موقف سيد قطب من نظرية " دارون"

---

(١) نحو مجتمع إسلامي ، ص ٣٩-٤٠ .

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية – سيد قطب - ، ص ٢١ .

(١) ينبغي أن نعرف أن سيد – رحمه الله – في تعامله مع النظريات الحديثة عموماً، يرى عدم الخلط بين الحقائق الثابتة التي يقررها القرآن وبين المحاولات التي تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتنفى غداً، كلما تقدمت وسائل البحث وطرقه [٢].

فهو يرى: " أن كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة – أو حتى بحقائق علمية ليست مطلق كما أسلفنا – يحتوي على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معانٍ ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم:

الأولى: الهزيمة النفسية الداخلية التي تخيل للبعض أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم....

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته...

والثالثة: التأويل المستمر مع التمحل والتكلف لنصوص

---

(١) هو:شارلس روبرت دارون، عالم أحياء انجليزي ، ولد عام ١٨٠٩م ،صاحب فلسفة إلحادية مادية ، قال بنظرية النشوء والارتقاء ، مات عام ١٨٨٢م، انظر :الموسوعة العربية الميسرة ،٧٧٤/١، والموسوعة الفلسفية للحنفي ،ص١٧٧ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٤٥٨/٤ .

القرآن لتوافق النظريات المتغيرة " [(١)].

<u>الداروينية</u>: " نظرية غربية ظهرت في القرن (١٩م) على يد " دارون" وهو عالم أحياء إنجليزي، وتقوم هذه النظرية على فرضية أن الحياة بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان، فالإنسان ليس إلا طوراً من أطوار الترقي الحيوانية "[(٢)].

وسبب انتشارها هو صبغها بصيغة " العلم " وظهورها في وقت الانسلاخ من كل المقررات الكنسية في أوربا، وكذلك تشجيع اليهود على نشرها لغرض في نفوسهم وغاية في مخططاتهم [(٣)].

وقد أثارت نظرية "دارون" دهشة العالم عند ظهورها، وتأثر بها بعض المفكرين المسلمين، وحاول بعضهم التوفيق بينها وبين النصوص القرآنية في قضية بدء الخلق " [(٤)].

---

(١) المصدر السابق ، ١٨٢/١ بتصرف وينظر : ٢٣٧٦/٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١/ ١٨٣ ، ٤/ ٢٤٥٩ ، الهامش (١ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٤٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص٢٥٢ .

(٤) منهج الشيخ / حسين الجسر في كتابه " الرسالة الحميدية " طبعة إدارة الطباعة المنبرية – سنة١٣٥٢هـ ، ص٢٢٠ ،

أما سيد قطب – رحمه الله – فكان موقفه من هذه النظرية هو موقف الرفض والإبطال والتعجب من الذين حاولوا التوفيق بينها وبين النصوص القرآنية.

ففي ظلال الآيات التي تتحدث عن بدء الخلق وعن خلق آدم وخلق الإنسان عموماً، تعرض سيد لنظرية دارون، مبيناً مصادمتها للنصوص القرآنية، ومستعرضاً أسباب بطلانها والتي يمكن إجمالها في الآتي:

١- أنها مجرد نظرية وليست نتائجها نهائية، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً.

٢- ظهور النقص فيها نظراً لقياسها على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوعٍ آخر [1].

٣- أن اعتماد نظرية النشوء والارتقاء على الحفريات، ووجود أطوار مترقية من الحيوانات هو مجرد نظرية " ظنية " وليست "

والشيخ محمد عبده وتلميذهما الشيخ رشيا رضا ، انظر : منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ، لتامر محمد متولي ، دار ماجد عسيري ، جدة ،ط١ ، عام ١٤٢٥هـ ، ص ٣٢٣ -٣٢٩ .

(١) في ظلال القرآن ، ١/١٨٣، والإسلام ومشكلات الحضارة – سيد قطب – ص ٤٦ وما بعدها .

يقينية " لأسباب منها:

أ- أن تقدير أعمال الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظناً! فهو مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها، وليس هناك ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها.

ب- على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور ليس هناك ما يمنع من وجود " أنواع " من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض، بفعل الظروف السائدة في الأرض، ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة في حياتها، ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة، ولكن هذا لا " يُحتّم " أن يكون بعضها " متطوراً " من بعض. وحفريات " دارون " وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا، وعندئذٍ تكرر نشأة النوع الإنساني مستقلة في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع، وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية في نشأة البشرية (١).

٤- أن تكوين الإنسان تكوين خاص متفرد، يزيد على

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٦٤ – ١٢٦٥ ، ٤/ ٢١٤٣ – ٢١٤٤ .

مجرد التركيب العضوي الحيوي الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء، وأيا كانت نشأة الحياة، ونشأة الأحياء فإن الإنسان ينفرد بخاصية الروح الإلهي المودع فيه، والتي تجعل منه إنساناً متفرداً عن الأحياء الأخرى، وهذه الروح لم تجيء للإنسان بعد مراحل أو أطوار.. فلم يجيء على الإنسان زمان كان فيه مجرد حي من الأحياء – بلا روح إنساني خاص – ثم دخلته هذه الروح.

وقد اضطرت الداروينية الحديثة على يد – جوليان هاكسلي (١) – أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة، وهي تقرر" تفرد الإنسان " من الناحية الحيوية والوظيفية، ومن ثم تفرده من الناحية العقلية، وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية.

فتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية الذي اضطر الداروينيين المحدثين – وفيهم الملحدون بالله كلية – للاعتراف به، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية وعدم تداخلها مع الأنواع في تطور عضوي،

(١) هو : أحد علماء الداروينية الحديثة، أبطل جذور نظرية دارون فيما يخص الإنسان ، انظر :معجم الفلاسفة ،ص٦٤٩ .

وبالتالي فالتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية، وهي قاعدة التطور المطلق، وتطور الإنسان عن الحيوان (١).

٥- أن هذه النظرية تصادم النصوص القرآنية وهذا من اظهر الأدلة على بطلانها، يقول سيد – رحمه الله –: " إن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية، ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها، وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية، ولم يكن ترقياً في " وجود " الإنسان من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان كما تقول الداروينية " (٢). " فالواقع المشهود يكذب هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والإنسان، ويقرر أن الحيوان لا يحمل هذه الخصائص فيقف دائماً عند حدود جنسه الحيواني لا يتعداه،.. ويبقى النوع الإنساني متميز بأنه يحمل خصائص تجعل منه

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٦٥ ، ٤/ ٢١٤٢- ٢١٤٣ بتصرف يسير ، والإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٢٤٦/٣ ، ٢١٤٢/٤

إنساناً، وهي ليست نتيجة تطور آلي، إنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية (١). "" وأقصى ما يقال: إن نظرية النشوء والارتقاء لا تعارض مفهوم قوله تعالى: چ ں ں ڻ ڻ ڈ ڈ چ ({ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾} [سورة الأنبياء: ٣٠] في أن الماء هو مصدر الحياة الأولى كما يقول" دارون " وما سوى ذلك فيصطدم بالنصوص القرآنية(٢).

وإضافة إلى ما سبق من بيان سيد لأدلة بطلان هذه النظرية، فإنه يرى أيضاً أن فيها تحقيراً للإنسان وتجريداً له من كل عنصر روحي، فإيحاءات الداروينية ومثلها الفرويدية والماركسية، هي أبشع ما تبتلي به الفطرة البشرية، حيث توحي إلى البشر بأن كل سفالةٍ وكل قذارةٍ، وكل حقارةٍ، هي أمر طبيعي متوقع، ليس فيه ما يستغرب، ومن ثم ليس فيه ما يخجل.. وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢٤٥٩/٤ الهامش .

(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٩٦٥/٦ ، وهذا الدين ، ص ٧٧ الهامش .

ثالثاً: موقفه من الوجودية:

الوجودية: اتجاه فلسفي إلحادي يغلو في قيمة الإنسان ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة ولا يحتاج إلى موجه، وتقوم الفلسفة الوجودية على أساس القول بالعدمية والتعطيل، فالعالم في نظرهم وجد بغير داعٍ ويمضي لغير غاية، والحياة كلها سخف لذا يتخلص بعضهم منها بالانتحار.

وقد ظهرت الوجودية في أوروبا كرد فعلٍ على تسلط الكنيسة وتحكمها بالإنسان بشكل متعسف باسم الدين والإله، وتأثرت بعد ذلك بالحركات الإلحادية الأخرى، كالعلمانية وغيرها (١).

ويرى سيد – رحمه الله –أن مأساة " الوجودية " الكبرى هي تصورها النكد والخبيث للوجود الكوني والبشري، حيث ترى أن الوجود الكوني، بل والوجود الجماعي للبشرية ذاتها معاكساً في طبيعته للوجود الفردي الإنساني، متجهاً بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنساني! هذا التصور البائس ينشئ حالة من

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط١ ، عام ١٤١٦هـ ، ٢/ ٨٢١ وما بعدها .

الانزواء والانكماش والعدمية! أو ينشئ حالة من الاستهتار والتمرد والفردية! وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضني! والبؤس النفسي والعقلي، والشرود والتيه، تيه التمرد أو تيه العدم، وهما سواء.

وهي ليست مأساة " الوجودية " وحدها من مذاهب الفكر الأوربي، إنها مأساة الفكر الأوربي كله – بكل مذاهبه واتجاهاته – بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها، المأساة التي يضع لها الإسلام حداً بعقيدته الشاملة، التي تنشئ في الإدراك البشري تصوراً صحيحاً لهذا الوجود، وما وراءه [١].

رابعاً: موقفه من العلمانية والديمقراطية:

العلمانية: مصطلح غربي ظهر مع الثورة الفرنسية، ويعني: إقصاء الدين عن الحياة، وإقامة الحياة في كل مجالاتها بعيداً عن توجيهات الدين والإله، ولها صورتان:

١-العلمانية غير الملحدة: وهي التي لا تنكر وجود الله، ولكنها تنكر أحقيته في الحكم والتشريع

٢-العلمانية الملحدة: وهي التي تنكر الدين كله، وتنكر

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٢٦٣/٣ بتصرف يسير .

الخالق، وتحارب من يدعوا إلى الإيمان [1].

وقد تعرض سيد قطب – رحمه الله – للعلمانية في كثير من كتبه، مبيناً أسباب نشأتها ودخولها إلى العالم الإسلامي، وكذا آثارها في الحياة، وحكم الإسلام فيها وفي أهلها،

ويمكن بيان ذلك في النقاط الآتية:

أ– أسباب نشوء العلمانية

ذكر سيد قطب أن نشأة العلمانية في أوروبا ترجع إلى عدة أسباب منها: –

١– طغيان الكنيسة في الغرب، الأمر الذي جعل الناس يهربون من الكنيسة الطاغية الباغية، ومن إلهها الذي تزعم أنها تنطق باسمه وتُحَرّم على الناس أن يتفكروا وأن يتدبروا، وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهضة، والاستبداد المنفر، وصكوك الغفران، وقرارات الحرمان، ومحاكم التفتيش، فلما همَّ الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها، لكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانه، ثم تخلصوا من كل دين يقودهم في حياتهم الأرضية

---

(١) العلمانية وثمارها الخبيثة ، محمد شاكر الشريف ، ص ١٠ .

بمنهج الله، وكانت الشقوة وكان البلاء [1].

٢- عجز الديانة المسيحية في أوروبا عن قيادة الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها، بسبب الانفصال بين القيم الروحية والقيم العملية، نتيجة لعدة ملابسات تاريخية من ناحية، ولكونها جاءت موقوتة لزمن ثم عاشت بعد زمنها من ناحية أخرى، ومن ناحية أخرى كان للعداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح -عليه السلام - وأتباع دينه أثر في الانفصال بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للتهذيب الأخلاقي والروحي، فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي، عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها! [2]

٣- الجفوة التي قامت في الغرب بين الدين والعلم، وبين الكنيسة والفكر، والفصام النكد بسبب سياسة تكميم الأفواه، وتعطيل الأفكار المتحررة من الجهل والخرافة، والتصادم بين النظريات العلمية الحديثة وبين مقررات الكنيسة المحرفة، كل

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٣٨ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٠٠ بتصرف .

ذلك جعل الناس يكرهون الكنيسة والدين ويعادونهما [١].

٤- التحالف غير الشريف بين أرباب الكنيسة وبين الملوك والحكام، والتقاء مصلحتيهما في تسخير الجماهير واستغلال الدهماء بعد عصور من النزاع بينهما، جعل الناس ينظرون إلى الدين على أنه مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين فكان لا بد من الخروج عليه [٢].

٥- تحول الكنيسة ورجالها إلى الإقطاع وانضمامها إلى معسكر رؤساء الأموال ضد الجماهير [٣]

ب- دخولها العالم الإسلامي: يقول سيد: " نظرية العلمنة استوردت من الغرب إلى العالم الإسلامي ذلك أن قصة العزلة بين الدين والدنيا لم تنبت في العالم الإسلامي، ولم يعرفها الإسلام، ولكنه التلقف لما عند الغربيين والمحاكاة دون التفتيش عن أصول هذه النظريات وأسباب نشأتها " [٤].

---

(١) العدالة الاجتماعية ، ص ١٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ ، والمستقبل لهذا الدين ، فصل "الفصام النكد "، ص ٢٤- ٤٦ .

(٤) العدالة الاجتماعية ، ص ٨ بتصرف يسير

ويلخص سيد قطب – رحمه الله – أسباب استيراد المسلمين لهذه النظرية بالآتي:

١- الجهل بحقيقة الدين الإسلامي.

٢- الجهل بطبيعة المجتمعات وقوانين الحياة.

٣- الكسل العقلي والنفسي عن مراجعة الرصيد الإسلامي من الأنظمة والتشريعات.

٤- التقليد المضحك للاتجاه الغربي أو الشرقي في فصل الدين عن الحياة، حيث اقتضت ذلك طبيعة نشأة الدين عندهم دون أن تقتضيها طبيعة نشأة الإسلام (١).

٥- جهود الصليبية والصهيونية العالمية في غرس الزعامات العلمانية في العالم الإسلامي ودعمها كما فعلوا مع " أتاتورك " الذي فرض العلمانية بقوة الحديد والنار.

٦- الاغترار بالدعاية الغربية التي تخدر مشاعر المسلمين، من خلال إظهار احترام الدين بقصره على بعض جزئياته، وإلباس الجاهلية ثوب الإسلام.

٧- ترويج المستشرقين للفكر العلماني والعمل على نشره والدعاية له (٢)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٢١ ، بتصرف .

٨- الاستعمار الصليبي للعالم الإسلامي وجهوده في زحزحة الشريعة الإسلامية، وفصلها عن الحياة [١].

ج- هل هناك مبرر للعلمانية في العالم الإسلامي:

بعد أن استعرض سيد - رحمه الله - أسباب نشأة العلمانية في الغرب بيّن أننا نحن المسلمين لا علاقة لنا بهذا كله، فظروفنا التاريخية وطبيعة الإسلام وظروفه ليست في شيء من ذلك، وبالتالي فلا مبرر للعلمانية في العالم الإسلامي للأسباب الآتية:

١- أن التشريع الإسلامي جاء شاملاً للدنيا والدين، متضمناً للقوانين والنظم التي توجه الفرد والمجتمع في جميع نواحي الحياة إلى قيام الساعة، وليس فيه الانفصال بين الدين والدنيا.

٢- أن الإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق، وباستطاعة كل مسلم في أي مكان من الأرض أن يتصل بربه بلا كاهن ولا قسيس، فليس في الإسلام " رجل دين " بالمعنى المفهوم في الغرب، حيث لا تصح مزاولة الشعائر التعبدية إلا بحضوره.

٣- أن الحاكم في الإسلام لا يستمد ولايته من " الحق الإلهي "

---

(١) المستقبل لهذا الدين ، ص ٧ .

ولا من الوساطة بين الله والناس، وإنما يستمدها من الجماعة الإسلامية – أي باختيار أهل الحل والعقد له– كما يستمد السلطة ذاتها من تنفيذ الشريعة التي يستوي في فهمها وتطبيقها والاحتكام إليها الناس جميعاً على السواء، فليس للحاكم إلا تنفيذ الشريعة، فلا صراع إذاً بين علماء الدين والسلطان على رقاب العباد ولا أموالهم، وليست هناك مصالح اقتصادية ولا معنوية يتنازعونها، وليست هناك سلطة روحية وأخرى زمنية في الإسلام كما كان الحال بين الأباطرة والباباوات.

٤– أن الإسلام لا يعادي العلم ولا يكره العلماء بل يجعل العلم المؤدي إلى معرفة الله–وكل علم صحيح يؤدي إلى هذه الغاية– فريضة مقدسة داخلة في الطاعات الدينية "طلب العلم فريضة على كل مسلم"(١)

٥– أن التاريخ الإسلامي لم يعرف تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر والعلم، كما عرفتها محاكم التفتيش، والمرات القليلة النادرة التي عوقب فيها رجال على أفكارهم تعد

---

(١) رواه ابن ماجة من كتاب العلم ، ينظر : سنن ابن ماجة للحافظ محمد بن يزيد القز ويني ، دار المعرفة بيروت ط١ عام ١٤١٩ هـ ،٩٧/١ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ، مكتبة المعارف – الرياض ط١ عام ١٤١٧هـ ٩٢/١

شاذة، فلا جفوة إذاً بين الدين والعلم الصحيح، في طبيعة الإسلام وتاريخه كما كان في أوربا.

٦- أن الإسلام لا يُقِّر ظلم الحكام، ولا يسمح للعلماء بالسكوت عنه، بل يجعل أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وقد حفظ التاريخ كثيرا من النماذج في مواجهة الطغاة من الحكام.

وبناءً على ما سبق فليس هناك سبب واحد لتنحية الإسلام عن المجتمع، لا من طبيعته الخاصة، ولا من ظروفه التاريخية كالأسباب التي لازمت المسيحية في أوربا فعزلت الدنيا عن الدين، وتركت للدين تهذيب الضمير وتطهير الوجدان، بينما تركت للقوانين الوضعية تنظيم المجتمع وتسيير الحياة " (١).

د- خطورة العلمانية وآثارها على البشرية:

إن الافتراق بين النشاط المادي وبين المنهج الرباني، وافتراق الدنيا والآخرة، والدين والحياة، ووجود الفصام بين منهج الله وحياة الناس لا يثمر في الحياة البشرية إلا آثاراً سيئة، وقلقاً وحيرةً وشقاءُ قلبٍ وبلبلة خاطر، عندما يحاول الناس الاحتفاظ بعقيدتهم في الله، ويحاولوا معها مزاولة الحياة في المجتمع الذي يقوم نظامه كله وأوضاعه وتصوراته ووسائل الكسب فيه على

---

(١) العدالة الاجتماعية ، ص ١١-١٦ بتصرف يسير .

غير منهج الله، فتتصادم فيه العقيدة والخلق والسلوك الديني مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين في المجتمع.

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة، في فترة موقوتة، عندما نرى أمماً لا تؤمن ولا تقيم منهج الله وهي موفورة الخيرات كثيرة الإنتاج، فهو رخاءٌ موقوت حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت، وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني، وقد ظهرت الآن بعض هذه الآثار في صور شتى منها:

١ - سوء توزيع الثروات في هذه الأمم، مما يجعل المجتمع حافلاً بالشقاء والأحقاد والمخاوف.

٢ - الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى تدمير الحياة المادية ذاتها.

٣ - القلق العصبي والأمراض المتنوعة التي تجتاح الأمم.

٤- الخوف الذي تعيشه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع [١].

هـ- الديمقراطية وعلاقتها بالعلمانية:

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٣٣- ٩٣٤ بتصرف .

الديمقراطية: مصطلح غربي يطلق على نظام الحكم الذي يقوم على حاكمية الشعب، وهي مركبة من كلمتين: "ديمو" و" كراتس" وتعني حكم الشعب أو سلطة الشعب، بمعنى أن الشعب يحكم نفسه بنفسه عن طريق المجالس النيابية وبنظام الأغلبية، حيث تمارس هذه المجالس حق التشريع المطلق وإصدار القوانين بناءً على رأي الأغلبية فيها، والديمقراطية وليدة للعلمانية، فعندما ثار الأوربيون على النظام الديني الذي كانت تمثله الكنيسة وأعلنوا إقصاءه وعزله عن الحياة في جوانبها العملية، لم يكن أمامهم إلا النظرية الديمقراطية القائمة على حاكمية الشعوب عن طريق المجالس النيابية [١].

ولسيد قطب – رحمه الله – موقف من النظام الديمقراطي يتمثل في الآتي:

١- الديمقراطية نظام وضعي بشري لا يجوز الخلط بينه وبين الإسلام:

يقول سيد: " لم استسغ حديث من يتحدثون عن " اشتراكية الإسلام " و " ديمقراطية الإسلام " وما إلى ذلك من الخلط بين نظام من صنع الله سبحانه وأنظمة من صنع البشر،

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب

تحمل طابع البشر وخصائصهم من النقص والكمال والخطأ والصواب، والضعف والقوة، بينما نظام الإسلام الرباني بريء من هذه الخصائص، كامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، " (١)

٢- الديمقراطية في الواقع هي حكم الأقلية للأكثرية:

يقول سيد: " والحقيقية أن حكاية الاختيار الحر من الشعب خرافة، والجماهير تحس في أعماقها بضخامة هذه الخرافة، لأن الناخب يدرك أنه غير حرٍ في إبداء إرادته الحقيقة، وعيشه ولقمة الخبز التي تحفظ حياته في يد صاحب رأس المال الذي ينتخبه، وعلى فرض المستحيل في استمتاع الناخب بحريته المطلقة وهو يختار الرجال للبرلمان، فهذا البرلمان بحكم تكوينه من طبقة معينة تقل فيها العناصر التي هي من الجماهير حقيقة لا دعاية، فسيكون ما يسنه من تشريعات في مصلحة رؤوس الأموال(٢). " بل ليس للديمقراطيات الشعبية من اسمها نصيب إلا كنصيب " العالم

---

(١) العدالة الاجتماعية ، ص ١٦٢ .

(٢) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٦٢ .

الحر " من اسمه، فالديمقراطيات التي تحكم حكما دكتاتوريا مباشرا، تحرسه الجاسوسية الرهيبة ولها أجهزتها وأقلامها وألسنتها، وهي تستحق منا المكافحة كما نكافح الاستعمار، ويكفينا راية الإسلام " (١).

ويقول أيضاً " لقد هربت أوروبا من الله وثارت عليه(٢) في أثناء هروبها من الكنيسة وثورتها عليها وظن الناس أنهم سيجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ومصالحهم في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية والأوضاع النيابية البرلمانية، والحريات الصحفية، والضمانات القضائية والتشريعية، وحكم الأغلبية المنتخبة... إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بتلك الأنظمة، ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان " الرأسمالية " ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات، وكل تلك التشكيلات، إلى مجرد لافتات، والى مجرد خيالات!، ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية

---

(١) دراسات إسلامية – سيد قطب – ص ١٦٣ بتصرف.

(٢) لا ينبغي استعمال مثل هذا التعبير في حق الله تعالى ، ويمكن أن يقال : تمردت على شرع الله (د/ الديلمي).

الطاغية، التي تملك رأس المال، فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، في معزل عن الله!!! " [١] بل ليس للديمقراطيات الشعبية من اسمها نصيب إلا كنصيب " العالم الحر " من اسمه فالديمقراطيات الشعبية هي الديمقراطيات التي تحكم حكماً ديكتاتورياً مباشراً، تحرسه الجاسوسية الرهيبة ولها أجهزتها وأقلامها وألسنتها، وهي تستحق هنا المكافحة كما نكافح الاستعمار ويكفينا راية الإسلام [٢].

و – حكم الإسلام في أنظمة الحكم غير الإسلامية:

(الاشتراكية والرأسمالية والعلمانية والديمقراطية)

قبل الحديث عن حكم الإسلام في أنظمة الحكم غير الإسلامية، نشير إلى بعض الحقائق التي قررها سيد – رحمه الله – فيما يتعلق بالعلاقة بين الإسلام وبين النظم والنظريات الأخرى، في مواضع كثيرة من كتبه، وهذه الحقائق هي:

الحقيقة الأولى: " أن حقيقة الدين الإسلامي لا تكمل إلا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٢ بتصرف يسير .

(٢) دراسات إسلامية ، ص ١٦٣ بتصرف .

بالاتباع الكامل لما جاء به النبي ﷺ عن ربه – جل وعلا – في كل شئون الحياة، فليس لهذا الدين صورة إلا هذه الصورة " (١).

<u>**الحقيقة الثانية:**</u> " أن طبيعة الدين الإسلامي تأبى أن ينفصل عن الدنيا، أو أن ينحصر في الأخلاقيات والشعائر التعبدية، أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية (٢)، وذلك لأن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة، فيقوم على هذه الشريعة نظام، ومن العقيدة والشريعة والنظام تتكون شجرة الإسلام كما تتكون كل شجرة من جذر وسابق وثمرة، فلا ساق ولا ثمار بلا جذور ضاربة في الأعماق، ولا قيمة لجذور لا تنبت ساقاً، ولا جدوى في ساق لا تعطي أكلها للحياة، لذلك حرص الإسلام على أن يكون الحكم لشريعته في الحياة قال تعالى: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾} [سورة المائدة: ٤٤].

وبذلك تختفي من الإسلام أسطورة فصل الدين عن الدولة لأنه لا دولة بلا دين، ولا دين بلا شريعة ونظام " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٨٠ ، ١٦٤٢ بتصرف .

(٢) المستقبل لهذا الدين ،ص ٢٤ .

(٣) دراسات إسلامية – سيد قطب – ص ٢٨ ، ومعركتنا مع اليهود – سيد قطب – ص ٤٤ ، وفي ظلال القرآن ، ١/ ٤٠٠ ، ٣/١٦٤٣ .

الحقيقة الثالثة: " أن ما سوى الإسلام من النظم فهي جاهلية، مهما تعددت أشكالها وبيئاتها وأزمانها، وهي تقوم على أساس عبادة العباد للعباد، وهو ما جاء الإسلام ليحرر البشرية منه ويوحد العبودية لله في الأرض"(١) "وبالتالي فلا يجوز الخلط بين الإسلام وغيره من النظم والمناهج، فالإسلام هو الإسلام والاشتراكية هي الاشتراكية، والديمقراطية هي الديمقراطية، ذلك منهج الله، وهذا وتلك من مناهج البشر وتجاربهم"(٢).

الحقيقة الرابعة: " أن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بهدي الإسلام وقيادته ومنهجه، لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية، ولا تصلح بالثيوقراطية، كما أنها لا تصلح بالدكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من مناهج العمي الذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون الله، فتضع هي مناهج الحكم والحياة، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله، وتعبدهم لما تشرع، فتجعل دينونتهم لغير الله، وآية هذا الذي نقوله هو هذا الفساد

---

(١) المستقبل لهذا الدين – سيد قطب – ، ص ١٠١٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٨٣ .

الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين وهذه الشقوة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية، وسواء في ذلك إشكال الدكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية، إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد وتحلل وشقاء وقلق لأنها كلها من مناهج العمي الذين لا يعلمون " [1].

الحقيقة الخامسة: " أن واجب الدعاة إلى هذا الدين في الأرض، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع والنظم الجاهلية المختلفة، وتعرية الجاهلية من ردائها الزائف وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً، دون تحرج – فالتحرج في غير موضعه يعوق انطلاقة الحركة الإسلامية في مسيرتها لتمكين الدين " [2].

وبناء على ما سبق: فإن سيد قطب – رحمه الله – يرى أن الأنظمة العلمانية على اختلاف مسمياتها تمثل أنظمة طاغوتية جاهلية، تتعارض مع شهادة لا إله إلا الله ".

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/٢٠٧٥ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٦٤٩ ، ١٦٤٣ ، بتصرف يسير .

بل يرى أن شرك العلمانيين اليوم أعظم من شرك الجاهليين، وأن الإيمان بالعلمانية هو تنصل من الدين وكفر وشرك يناقض أصل الإسلام، القائم على الاستسلام لله تعالى في شؤون الحياة فيقول – رحمه الله –: " وفي قصة شعيب تبدو القضية واضحة جادة، فقد كان مدار المعركة على التشريع للمعاملات الاقتصادية والسياسية، تبعاً لما دعاهم إليه من توحيد الله، فكانوا يستغربون الربط بين هذا وبين الإيمان بالله وحده والصلاة، فكانوا يقولوا مثلما يقول اليوم ناس – وبعضهم يزعمون أنهم مسلمون – ويحملون أسماء إسلامية، وقد يذهبون إلى المساجد فيصلون!: ما للدين ونظام المجتمع، وماله والتشريع لحياة الناس الاجتماعية والاقتصادية! وما لإدخال الدين في التشريع والسياسة والحياة الدنيا وهو مختص بالاعتقاد والعبادة والدار الآخرة؟ وإذا سمحوا للدين بالوجود فإنهم يسمحون له عقيدة تستكن في الضمير، وعبادة تؤدي بالشعائر، وهذه وذاك هما نصيب الله في الحياة عندهم، وحدود اختصاصهم، ثم يزعمون أنهم مسلمون!! وما هم بالمسلمين!! " (١).

–ويقول في ظلال قوله– تعالى–عن أهل الكتاب ـچ ڈ ڈ ڤ

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٣٦ .

ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ[1] معلقاً على إعراض أهل الكتاب عن الاحتكام إلى كتاب الله مع ادعائهم الإيمان: " ومثل أهل الكتاب من يزعمون اليوم أنهم مسلمون، ثم يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون، وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية.. ثم يزعمون أنهم مسلمون!.. وهو نفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب.. وهؤلاء وأولئك سواء في تنصلهم من أصل الدين وتملصهم من حقيقته التي يرضاها الله " [2].

ويقول أيضاً: " والجاهلية على شركهم لم يكونوا يتبجحون تبجح الجاهليات الحديثة التي تقول: ما للدين وشئون الحياة، وتزعم أنها صاحبة الحق في اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين.. من دون الله " [3].

" فالجاهلية اليوم ليست أفضل من جاهلية قوم شعيب فالشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله

(١) سورة آل عمران ، آية ٢٤ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ٣/ ١٢٨٠ .

البشرية بجملتها اليوم، من الفصل بين العقيدة والشعائر، والشريعة والتعامل... وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله، حيث يوجد بيننا اليوم من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، ويتساءلون في استنكار: ما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة؟ ما للإسلام والطاقة الجنسية؟ ما للإسلام والتدخل في الاقتصاد.. وما تستقيم عقيدة في القلب ثم تترك شريعة الله في السلوك، ولا يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد، والشرك ألوان منه هذا اللون الذي نعيش به الآن – العلمانية – وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان ومكان " (١).

<u>وعموما:</u> " فالمسلم بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق، يرفض كل منهج للحياة غير منهج الله، وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي كذلك، فمجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله... وفوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي، فهو في الوقت ذاته يسلم

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ١٩١٩-١٩٢٠ بتصرف .

الخلافة في هذه الأرض للعميان الذين ليس من ورائهم إلا الفساد " [١].

الفرع الخامس: موقفه من الاستشراق:

الاستشراق هو: تيار فكري يقوم على دراسة الشرق الإسلامي وحضارته، ويصوغ أصحابه التصورات الغربية عن العالم الإسلامي من منطلق الصراع الحضاري في الغالب [٢]

وهو مؤسسة من مؤسسات الغزو الفكري، وأداة من أدوات الاستعمار الصليبي الصهيوني.

وقد عمل سيد – رحمه الله –على بيان حقيقة المستشرقين وأهدافهم ووسائلهم في حرب الإسلام، وحذر كثيراً من التلقي عنهم والاعتماد على كتاباتهم، ويمكن إجمال ذلك في الآتي:

١- **حقيقة المستشرقين وأهدافهم:**

يرى – سيد قطب – " أن المستشرقين هم: الأداة الفكرية للاستعمار الصليبي الصهيوني " [٣]. " وأنهم طليعة الهجوم

---

(١) المصدر السابق: ٤/ ٢٠٧٦ بتصرف .

(٢) الموسوعة الميسرة ، الندوة العالمية – الرياض ، ط٣ ، ١٤١٨ هـ ٦٩٧/٢ . بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٢١ .

على هذا الدين وأهله " (١).

" إنهم جيلٌ بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة، وينقّبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها، ويبحثون بجدٍ: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجِهة في هذا الدين؟ كيف يُلقون بالريّب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يحرفون الكلم عن مواضعه؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان وتجعل الدين كله لله، إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدلٍ لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ؟ كيف يفرغون من مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة؟ كيف في النهاية يملئون فراغ العقيدة بتصورات ومفهومات واهتمامات أخرى ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة.

إنهم يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة – كما يتوهم السذج من أهل هذا

(١) المصدر السابق ، ١٣٧٩/٣ .

الدين – ولا لينصفوا هذا الدين وأهله – كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين! كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة:

أ- لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين!

ب- لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها!

ج- لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها!

د- لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها! وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! " (١).

" إن البحوث التي تكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع بلغة من اللغات الأجنبية... وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل مقاومته، وطرق إفساد توجيهه، ومعظمهم – بطبيعة الحال – لا

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٦١ .

يفصح عن نيته هذه، فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة فحركات المقاومة كانت تعتمد على الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية – واستمرار الهجوم على الإسلام ولو في صورة فكرية سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة، لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث، يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى ينوم المشاعر المتوفزة، ويخدر الحماسة المتحفزة، وينال ثقة القارئ واطمئنانه، ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة.. هذا الدين نعم عظيم. ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته وتنظيماته ليجاري الحضارة الإنسانية الحديثة! وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع، وفي أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق، وينبغي في النهاية أن يتمثل صورة عقيدة في القلوب، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة " الإنسانية " الحديثة! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من التجارب والأساليب.. وبذلك يظل ديناً عظيماً!!!

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين – وهي ظاهرياً تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر – يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب، لينبههم إلى خطورة هذا

الدين، وإلى أسرار قوت، ويسير أمام الأجهزة بهذا الضوء الكاشف ليسددوا ضرباتهم على الهدف! " (١).

" وبهذا نعلم أن المستشرقين يعملون جميعاً في حقل واحد في حرب الإسلام، وتحريف منهجه، وقتل إيحاءاته الموحية في حس المسلمين، كي يأمنوا انبعاث هذا الروح الذي لم يقفوا له مرة في ميدان " (٢).

٢- وسائل المستشرقين في حرب الإسلام:

يقول سيد: " إن عمل المستشرقين خلال القرون المتطاولة من الدس في التراث الإسلامي لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد قرون، فقد عمدوا إلى وسائل كثيرة، تحت أقنعة وشعارات كثيرة في حربهم لهذا الدين، ومن ذلك:

أ- **الدس والتلبيس:** وله صور كثيرة منها:

- الدس والتلبيس في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله
- الدس والتلبيس في الحديث النبوي، حتى قيض الله له رجاله الذين حققوه وحرروه إلا ما ند عن الجهد الإنساني المحدود.

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٦١ - ١٠٦٢ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٢٩٤ .

– الدس والتلبيس في التفسير القرآني، حتى تركوه تيها لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق.

– الدس والتلبيس في الرجال، فالمئات والألوف كان دسيسة على التراث الإسلامي وما يزالون، فتلاميذ المستشرقين هم الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في البلاد، والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين!.. في العالم الإسلامي اليوم جيش جرار من العملاء، في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين – وأحياناً كُتَّاباً وشعراء وفنانين وصحفيين – يحملون أسماء المسلمين، هذا الجيش من العملاء موجه لخلخة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة، وتوهين قواعد العقيدة، والتهوين من شأنها وشأن الشريعة، وتأويلها وتحمليها ما لا تطيق، والدق المتصل على " رجعيتها " والدعوة للتفلت منها، وأبعادها عن مجال الحياة إشفاقاً عليها من الحياة أو إشفاقاً على الحياة منها! وابتداع تصورات ومُثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومُثلها، وتزيين

التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات الإيمانية وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية، وتشويه التاريخ كله وتحريف النصوص(١).

ب- **تشويه الجهاد في الإسلام:**

" من خلال تصوير الإسلام على أنه حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة، والمستشرقين الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذا الطريقة " (٢). " بل يزعم بعض المستشرقين أن الفتوحات التي بدأت في عهد رسول الله ﷺ وسارت في طريقها في عهد الخليفتين الراشدين بعده مجرد عدوى من الروح الإمبراطورية السائدة في الأرض " (٣).

وقد وقف سيد – رحمه الله – طويلاً في عدة مواضع من كتبه حول مزاعم المستشرقين حول طبيعة الجهاد في الإسلام، وحقيقته وأهدافه وبواعثه (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٠/ ٤١٤- ٤١٥ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٤٣ .

(٣) المصدر السابق ، ٣/ ١٤٥٢ ، الهامش (٢ .

(٤) ينظر كلامه في : في ظلال القرآن ، ١/ ١٨٤- ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٦٤- ٢٧٠ ، ٢٨٩-٢٩٣، ٤٩٩ ، ٥٦٤، ٢/٧٤٠-٧٤١ ، ٣/١٤٣١-١٤٤٧،

كما حمل على بعض الباحثين المهزومين تحت ضغط الواقع، والذين حاولوا التماس الأعذار الدفاعية التي تقوم على نفي مزاعم المستشرقين بإدعاء أن الجهاد في الإسلام ليس إلا دفاعياً، وغفلوا عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في " تحرير الإنسان " ابتداءً، فالإسلام ليس نحلة قومٍ، ولا نظام وطنٍ، ولكنه منهج إلهٍ، ونظام عالمٍ.. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تقلل من حرية " الإنسان " في الاختيار، وحسبه أن لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة، المفسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار (١).

<u>ج- تشويه موقف الإسلام من أهل الكتاب</u>: حيث يزعم المستشرقون – اليهود والصليبيون – سواء أن محمداً ﷺ – لم يهاجم اليهود – بزعمهم بهذا القرآن إلا بعهد أن يئس في المدينة من استجابتهم له، أما في مكة وأول عهده بالمدينة فكان يحاسنهم طمعاً في إسلامهم.

١٦٥٢ ، ١٧٣٨ ، ٢٤٢٤/٤-٢٤٢٦ ، ٢٧٢٢/٥، ٣١٦٦ ، ٣٢٢١/٦، ٣٢٨٥، ٣٣٢٤، ٣٥٥٤ .

(١) في ظلال القرآن ، ١٤٤٣/٣ بتصرف ، ودراسات إسلامية ، ص ٣٧ وما بعدها .

وقد رد سيد قطب عليهم هذا الافتراء: بأن القرآن هاجم أهل الكتاب في سورة الأعراف وهي مكية وبيّن فيها الحق في شأنهم، مما يدمغ أولئك الزاعمين من المستشرقين بالافتراء على التاريخ بعد الافتراء على الله ورسوله [1].

د- زعمهم أن رسالة محمد ﷺ خاصة بالعرب:

يقول سيد -رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: {وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾} [سورة الأنعام: ٩٢].

وليس المقصود كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين أن تقتصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها، فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله، ليزعموا أن محمداً ﷺ ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها، وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه فتوسع في الجزيرة كلها، ثم همَّ أن يتخطاها.. لمصادفات لم يكن في أول الأمر

(١) المصدر السابق ٣/١٣٣٢ .

على علم بها! وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها!، وكذبوا ففي القرآن المكي وفي أوائل الدعوة قال سبحانه لرسوله ﷺ {وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧} [سورة الأنبياء: ١٠٧]{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨}[سورة سبأ: ٢٨]، ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء" (١).

<u>وبناءً على ما سبق</u>: يحذر سيد – رحمه الله – من الأخذ عن المستشرقين وتلقي المعارف منهم، لأنهم ليسوا منصفين في كتاباتهم، فيقول – رحمه الله –: " وليست البلية أن يكون المستشرقون الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله.. إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزورين على نبيهم ودينهم، المحاربين لهم ولعقيدتهم أساتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٤٨ .

لأنفسهم أنهم " مثقفون " [1].

الفرع السادس: موقفه من القومية:

ظهرت الدعوة إلى القومية العربية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تأثراً بموجة القوميات التي سادت أوروبا، وكرد فعلٍ أيضاً على الدعوة إلى القومية التركية التي ظهرت في نهاية الخلافة العثمانية، بالإضافة إلى الانحراف الفكري عند كثير من الكُتَّاب والمثقفين العرب المتأثرين بالثقافة الغربية.

وقد كتب سيد عدة مقالات في الرد على دعاة القومية، وكان يرى أنه لا مانع من أن يجتمع العرب تحت راية العروبة تجمعاً وقتياً يهدف إلى تجمع أكبر منه، باعتبار ذلك خطوة في طريق الوحدة الإسلامية أو كما يسميها " الكتلة الإسلامية "، على اعتبار أنه لا تعارض بين العروبة والإسلام بهذا المعنى، فأرض العرب كلها جزء من أرض الإسلام، فإذا نحن حررنا الأرض العربية فإننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الإسلامي، نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير، بشرط أن نحررها باسم الإسلام، ويكون الهدف " هو التمكين

(١) في ظلال القرآن، ١٣٧٩/٣ –١٣٨٠ .

لرسالتنا الإسلامية ".

أما دعوة القومية القائمة على أن " العروبة " شيء منفصل عن "الإسلام "، وأن الإسلام لبى حاجة العرب في زمان معين ومكان معين، وقد اختلف الزمان وتبدل المكان، فلا يجوز أن نحبس " الطاقة " العربية في عقائد وقيم ونظم كانت تلائم سكان الجزيرة قبل أكثر من عشرة قرون، وقبل أن يتقدم الناس فكراً وعلماً وحضارةً [١]، فيرى سيد " أنها تكشف عن جهل عميق بكل شيء، سواءً عن الإسلام أو عن العروبة، ومن العبث أن تناقش مثل هذه الجهالة، فمن الأوليات في الإسلام أو في العروبة: أن الأمة العربية ليست سوى بضعة من جسم الوطن الإسلامي، ولن تكون إلا كذلك " [٢].

وقد دعا سيد كثيراً إلى " الكتلة الإسلامية "، وهي تعني: تجمع العرب والمسلمين تحت راية الإسلام لمواجهة التكتلات الدولية [٣]، ويعتبر ذلك الطريق الوحيد، فالعالم بتكتلاته إنما يتنازع علينا نحن المسلمين، ولذلك مزقنا إلى دول صغيرة

---

(١) هذا الكلام لساطع الحصري ، أحد دعاة القومية العربية ، وقد ذكره سيد في دراسات إسلامية ورد عليه ، انظر دراسات إسلامية ، ص ١٦٦.

(٢) دراسات إسلامية ، ص١٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٤ و ٨١

وقوميات ليسهل عليه ابتلاعنا، والذين يدعون إلى القوميات إنما يحاولون تيسير عملية الالتهام والابتلاع على إحدى الكتلتين الشرقية أو الغربية، وهي في الحقيقة دعوات يقوم بها مأجورون لحساب الاستعمار الغربي أو الشرقي (١).

ويبرر دعوته إلى " الكتلة الإسلامية " بأننا لا يمكن أن نعيش فرادى داخل الحدود الهزيلة حدود القومية العربية الضيقة، وكذلك لا يمكن أن ننظم إلى إحدى الكتلتين اللتين تتنازعان علينا وعندئذٍ يتحتم الطريق الثالث، طريق واحد لا مفر من أن نسلكه مخلفين وراءنا دعاة القومية المحلية الهزيلة، ودعاة القومية العربية الضيقة، ينعمون بخيالات القرون الماضية (٢).

وفي معرض كلامه عن فساد دعوى القومية، وأنها لن تحمي شيئاً للعرب ولا لغيرهم، بيَّن سيد – رحمه الله – أن الإسلام وحده هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار والصليبيين على حد سواء، ولو انتصر التتار أو الصليبيون ما بقيت قومية عربية ولا جنس عربي ولا وطن

---

(١) دراسات إسلامية ، ص ٩٩ وما بعدها ، بتصرف .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣-١٠٤ بتصرف يسير .

عربي، والأندلس قديماً وفلسطين حديثاً كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض فإنه لا تبقى فيها لغة ولا قومية [١].

وذكر سيد أمثلة ونماذج لأنظمة وشخصيات حمت الوطن الإسلامي وليست من العرب، كالمماليك الذين صمدوا في وجه بني جنسهم التتار تحت راية الإسلام، وبقيادة روحية إسلامية من الإمام المسلم " ابن تيمية " الذي قاد التعبئة الروحية وقاتل في مقدمة الصفوف وغيرهم [٢]، والإسلام هو الذي كافح في الجزائر مائة وخمسين عاماً بعد أن تحطمت العروبة ومقوماتها، وهو الذي كافح الاستعمار في جنوب السودان وطرابلس ومراكش [٣].

الفرع السابع: موقفه من دعوى التقارب الديني:

الدعوة إلى التقارب الديني أو وحدة الأديان، دعوى كفرية تناقض أصول الإسلام، ويمكن بيان موقف سيد قطب منها في

---

(١) المستقبل لهذا الدين – سيد قطب – ،ص ٩٠ .

(٢) ذكر منهم سيد : صلاح الدين الأيوبي الذي حمى العروبة من الاندثار هو كردي لا عربي حفظها بالإسلام ، وكذلك فعل الظاهر بيبرس ، والمظفر قطز ، والملك الناصر

(٣) المستقبل لهذا الدين ، ص ٩٠-٩١ .

النقاط الآتية:

١- **المفهوم الإسلامي لوحدة الأديان:**

يرى سيد – رحمه الله – أن المفهوم الإسلامي لوحدة الأديان يعني: أن الديانات السماوية واحدة في مصدرها تحمل حقاً واحداً هدفه حياة البشرية، وأن دين الأنبياء واحد في أصوله قبل أن يطاله التحريف بعد موت الأنبياء [١]. وهذا هو ما يفهم من مصطلح وحدة الأديان بالمفهوم الإسلامي أي وحدة مصدرها وهدفها وأصولها.

٢- **بطلان كل الأديان بعد مجيء الإسلام:**

يقرر سيد: " أنه بعد بعثة النبي ﷺ بالإسلام لم يعد هناك دين له قيمة يصح التعبد به سواه، فقول الله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾} [سورة البقرة: ٦٢]. معناه أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم.. وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية، أما بعدها فقد تحدد شكل

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/٣٦٨ ، ٢/ ١١٤٧ ، ٣/ ١٣٠٨ ، ١٣٧٩ .

الإيمان الأخير " (١).

" فالدين هو الإسلام، وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام، لأن الله سبحانه يقول هذا، يقول{ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ } [سورة آل عمران: ١٩]. ويقول: { وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ } [سورة آل عمران: ٨٥]، وبعد رسالة محمد ﷺ لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا " الإسلام" في صورته التي جاء بها محمد ﷺ وما كان يقبل قبل بعثته لم يعد الآن يقبل"(٢).

" ولا يتم الإسلام إلا باقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم، الذي لا أرجحة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس – بعد رسالة محمد ﷺ – وبان منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد، لا نظير له بين سائر المناهج، ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر، ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر، ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه، ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا

(١) في ظلال القرآن ، ١/٥٧ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩١٥ .

المنهج بكل جوانبه الاعتقادية والاجتماعية.. ولم يقبل عن منهجه بديلاً ولا في جزء منه صغير، ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي، ولا في نظام اجتماعي، ولا في أحكام تشريعية، إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب " [١].

٣- وجوب مفاصلة غير المسلمين:

يرى سيد" وجوب المفاصلة الكاملة بين المسلم وبين كل من ينهج نهجاً غير منهج الإسلام، وكل من يرفع راية غير راية الإسلام "[٢] " فإتباع الإسلام وحده هو مفرق الطريق، فما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات، ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات، وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام.. إسلامي.. وشيء آخر..!! إن الإسلام إسلام فحسب،.. ووقفه المسلم أمام أي عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى " [٣].

---

(١) المصدر السابق ، ٩١٢/٢ .

(٢) المصدر السابق ،٢/ ٩١١ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٣٩ بتصرف يسير .

٤- ضلال من يدعون إلى التقارب بين الأديان أو التعاون بينها لمواجهة الإلحاد:

وذلك بناءً على أن ما سوى الإسلام فهو باطل، وبالتالي فالمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء.. ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب – بعد بعثة محمد ﷺ – هو دين يقبله الله، ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام! إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين، وأنه يدعوهم إلى الدين(١).

" فالذين يحاولون تمييع المفاصلة الحاسمة بين الإسلام وغيره باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية، يخطئون في فهم معنى الأديان، كما يخطئون في فهم معنى التسامح فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي " (٢).

" كما أن وجود أهل الكتاب – اليهود والنصارى – بعد

---

(١) المصدر السابق ٢/٩١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ٢/ ٩١٢ .

بعثة النبي ﷺ ليس معناه أن الله يقبل منهم ما هم عليه، أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي،.. ومن ثم فليس هناك جبهة تدَّين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد!. هناك " دين " هو الإسلام، وهناك " لا دين " هو غير الإسلام، ثم يكون هذا " اللادين" عقيدة أصلها سماوي ولكنها محرفة، أو أصلها وثني باقية على وثنيتها، أو إلحاد ينكر الأديان تختلف فيما بينها كلها، ولكنها تختلف كلها مع الإسلام، ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء" (١).

" وبعض الأغرار والسذج ممن ينتسبون إلى الإسلام يدعون إلى التعاون بين الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار الإلحاد، في الوقت الذي يقوم فيه أهل بقية الأديان بذبح من ينتسبون إلى الإسلام في كل مكان، ويشنون عليه حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، عن طريق الاستعمار المباشر، ودعم الحركات العلمانية والمذاهب المادية المنحرفة والمستشرقين، والذي يراجع فقط ما حكاه القرآن عن حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، والذي يراجع التاريخ بعد ذلك يدرك مدى الإصرار العنيد منهم على الوقوف لهذا

---

(١) المصدر السابق ، ٩١٥/٢ .

الدين وإرادة محوه من الوجود بكل الوسائل " [١].

فكيف يكون التقارب بين الإسلام وبين الأديان الأخرى في ظل ما سبق من حقائق؟؟.

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٣٧٨- ١٣٧٩ بتصرف .

المطلب الثالث

موقفه من بعض الفرق والجماعات الإسلامية

ينسب بعضهم سيد قطب – رحمه الله – إلى بعض الفرق [(١)]، وكثيراً ما كانت هذه النسبة بسبب عبارات موهمة أو قضايا جزئية، أو بسبب إشادته ببعض المظاهر السليمة عند بعض الفرق، ففهم بعضهم أنه يزكي هذه الفرق أو أن منهجه هو منهجها.

ومن خلال بحثي لم أجد سيداً ملتزماً بمنهج إحدى الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة في قضايا العقيدة، حتى يمكننا تصنيفه عليها كما فعل البعض من خلال جزئيات وافق بها هذه الفرقة أو تلك.

بل وجدت في كتاباته الإسلامية نقداً واضحاً لبعض الفرق التي اتهم أنه منها كالمعتزلة والصوفية وغيرها، سواءً نقده لمناهجها أو لبعض الأخطاء والانحرافات الموجودة عندها،

وفيما يأتي عرضٌ لكلامه في بعض الفرق والجماعات الإسلامية وموقفه منها:

---

(١) انظر : أضواء إسلامية على عقيدة يسد قطب ، د/ ربيع المدخلي ،ص١٣١ ،١٣٦، ١٤٧، ١٥١، ١٧٤، ١٨٠ ،والجماعات الإسلامية ، لسليم الهلالي.

الفرع الأول: موقفه من المعتزلة:.

سبق أن بيّنا موقف سيد قطب من علم الكلام والفلسفة، ورفضه لمنهج المتكلمين والفلاسفة جملة في تقرير العقيدة، ونقده لهذا المنهج وطريقة تعامله مع قضايا العقيدة.

ومن خلال استقراء كتب سيد قطب نجد أن حديثه انصب على الإنكار المجمل على الفرق الكلامية، سواءً في المنهج الذي اعتمدته أو في بعض القضايا التي ناقشتها كالتأويل ونفي الصفات وقضايا القدر ونحوها، وكان ذلك على سبيل التعميم، ما عدا تعرضه للمعتزلة في أكثر من موضع بالاسم والرد عليهم في بعض المسائل ويمكن بيان ذلك في الآتي:

أولاً : التعريف بالمعتزلة:

المعتزلة إحدى الفرق التي نشأت في الصدر الأول وتأثرت بالمنهج الكلامي الفلسفي وخالفت منهج أهل السنة والجماعة في كثير من القضايا العقدية، كنفي الصفات، والقول بخلق القرآن ومسألة الصلاح والأصلح واللطف الإلهي ونفي القدر، وكذا موقفهم من مرتكب الكبيرة والرؤية والشفاعة، والخروج على الحكام وغيرها من القضايا، واتخذت لنفسها منهجاً يقوم على خمسة أصول مشهورة هي:

١) التوحيد: يتضمن نفي الصفات خشية التشبيه والتجسيم وتعدد القدماء.

٢) العدل: ويقصد به أن الله لا يفعل القبيح ولا يريده، وبالتالي فهو لا يخلق أفعال العباد ثم يعذب عليها.

٣) الوعد والوعيد: ويقصد به وجوب نفاذ الوعد والوعيد الإلهي وعدم إخلافه.

٤) المنزلة من المنزلتين: ويقصد به أن مرتكب الكبيرة في الدنيا في منزلة بين الإيمان والكفر، وأما في الآخرة فيوافقون الخوارج. في أنه مخلد في النار.

٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ويقصد به الخروج على الحاكم حال ظلمه أو فسقه بأي وسيلة (١).

وقد وافقت المعتزلة بعض الفرق الأخرى كالجهمية والخوارج في بعض القضايا والآراء العقدية (٢).

ثانياً: موقف سيد قطب من المعتزلة:

قبل الحديث عن موقف سيد من المعتزلة يجب التنبيه

---

(١) ينظر في ذلك : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ،ص ٢٨ وما بعدها، والملل والنحل ، للشهرستاني ، ٤٥/١ ، ٥١

(٢) العقيدة بين السلف والمتكلمين ، أ .د : حسن محمد شبالة ، ص ١٦ وما بعدها .

إلى قضية مهمة، وهي أن البعض ينسب إلى سيد نفي الصفات والقول بمذهب المعتزلة والجهمية النفاة بناءً على بعض العبارات الموهمة في حديثه عن بعض الصفات الإلهية كما هو الحال عند حديثه عن الرؤية والقرآن وغيرها، أو لاضطراب كلامه حول بعض الصفات كالاستواء وتفسيره على خلاف ما فسره السلف في بعض المواضع، ويجعل من ذلك دليلاً على أن سيد ليس من السلف بل هو معتزلي جهمي (١).

والواقع أنه من خلال استعراض كلام سيد لآيات الصفات وجدته يثبت الصفات على المعنى اللائق بها خلافاً للفرق الكلامية، وما كان من كلام موهم في بعض الصفات فقد وجدت له كلاماً واضحاً في مكان آخر، كما وجدت اعترافاً منه بأنه وقع في التأويل لبعض الأمور وتصريحه بتراجعه إجمالا عن منهج التأويل ونقده له، وأنه سوف يأتي على ما كان أوله إن مُدَّ له في العمر – وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل إن شاء الله عند الحديث عن موقف سيد قطب من الأسماء والصفات في الباب الثالث –.

وعموماً يمكننا القول: بأن سيد – رحمه الله – لم يكن

---

(١) ينظر :كلام د / ربيع المدخلي في : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، مكتبة الفرقان ، عجمان ، ط٢ ، عام ١٤٢٢هـ ، ص ١٧٤-١٨١ .

في مسائل العقيدة ملتزماً لمنهج المعتزلة ولا غيرهم من الفرق المخالفة لأهل السنة، بل كان مخالفاً لهم في منهج الاستدلال كما سبق، وكذا في كثير من المسائل العقدية التي خالفوا فيها أهل السنة والجماعة.

وبالتالي لا يمكننا القول بأن سيد قطب كان معتزلياً أو خارجياً أو جهمياً في عقيدته لمجرد أنه وافق رأيه رأي أيَّ فرقة من هذه الفرق في مسألة من مسائل العقيدة، بل نجده كثيراً يدعو إلى تجاوز خلافات هذه الفرق والإقبال على أخذ العقيدة من مصدرها قبل نشوء الخلاف بين الفرق والمذاهب [١].

<u>أما موقفه من المعتزلة فيمكن بيانه في الآتي:</u>

١- لم أجد فيما كتبه سيد – رحمه الله – أنه تبنى منهج المعتزلة في تقرير مسائل العقيدة، ولا أصولهم المعروفة، وبالتالي لا يمكننا القول بأنه معتزلي.

٢- في كتاباته نقد كثير للمعتزلة في قضايا كثيرة خالفوا فيها منهج السلف ومن ذلك:

أ- رفضه لمنهج علماء الكلام عموماً في تقرير مسائل

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان ، د / صلاح الخالدي ،دار عمار – الأردن ط٢ عام ١٤٢١ هـ ص ٥٣ .

العقيدة – كما سبق بيانه – في موقفه من علم الكلام والفلسفة.

ب- نقده للمعتزلة خصوصاً في اعتمادهم على منهج علم الكلام وتأثرهم بالفلسفة الغربية في معالجة قضايا العقيدة وما نتج عن ذلك من نفيهم للصفات الإلهية.

يقول – رحمه الله – " وكذلك تصبح البراهين- الذهنية التجريدية على وجود الله سبحانه وهي التي اتجه إليها علماء التوحيد – بتأثير منطق أرسطو – والتي تعتمد على المقولات العقلية وحدها بعيدة في منهجها وغريبة على المنهج الإسلامي وهذا المنهج القرآني، لأنها أضعف أنواع البرهان في هذا المجال، وادعاها للجدل والمراء.

ولقد أبعد المعتزلة وهم ينفون الصفات عن الله – سبحانه – لئلا يتعدد القدماء، لأن هذه الصفات إن كانت قديمة كذات الله تعدد القدماء! فهذا قياس ذهني بحت لا يتعامل مع الواقع، ولا مع المنهج القرآني، فالله – سبحانه – قد وصف نفسه بصفاته، ومن هذه الصفات ما يقرر وحدانيته وأزليته وأبديته وإحاطته – سبحانه – بكل شيء... إلى آخر أسمائه الحسنى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣} [سورة الحديد: ١-٣]. {هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾} [سورة الحشر: ٢٢-٢٤].

إنما تابع المعتزلة منطق أرسطو الذهني، وتجريدات " أفلوطين " المهوَّمة! ولم يتابعوا المنهج القرآني، وهو المنهج الإسلامي الأصيل، وكذلك فعلوا فيما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بعنوان " فتنة خلق القرآن" والبحث على هذا النحو بجملته غريب على المنهج الإسلامي " (١).

ويقول: " إن الله سبحانه صفاته أو أسماءه الحسنى، ولكن البشر لا يملكون إدراك " كيفية " هذه الصفات فهو سبحانه سميع يسمع، بصير يرى، عليم يعلم، ولكن البشر لا يدركون كيفية شيء من ذلك بالقياس إليه سبحانه، فالله ليس كمثله شيء، فلا يمكن أن يدرك البشر إذن كيفيات صفاته، ولا كيفيات أفعاله، وليس لهم أن يقيموا شيئاً من ذلك كله على ما

(١) مقومات التصور الإسلامي –سيد قطب – ص ٢٧٨ ، بتصرف يسير .

يعرفونه من أنفسهم، أو من سواهم في خلق الله "[١].

ويتبين لنا من النص السابق أن سيداً – رحمه الله – يثبت الصفات بمعانيها اللائقة بها ويخالف النفاة المؤولين، وكلامه لا يحتاج إلى تعليق.

ج- مخالفته للمعتزلة في موقفهم من العقل: وقد مرَّ معنا عند الكلام عن مصادر التلقي الحديث عن دور العقل عند المعتزلة في قضايا العقيدة وأنه مقدم على الشرع، ورأينا كيف أن سيداً يخالفهم في ذلك ويقرر ما يقرره أهل السنة والجماعة من مسألة علاقة العقل بالنقل ودوره في الحياة [٢].

د- نقده لهم في مسألة العلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية، وكذا في أفعال العباد: حيث يرى أن للإنسان مشيئة وإرادة في حدود المشيئة الإلهية المطلقة، وأن الله خالق الإنسان وأفعاله، والإنسان كاسب لهذه الأفعال باختياره، خلافاً لمذهب المعتزلة في ذلك وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله عند الكلام عن القدر.

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٩ ، وينظر أيضاً : في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٨٦ ، ٥/ ٢٧٢٩ .

(٢) يراجع كلام سيد في المطلب الرابع من المبحث الأول من هذا الباب .

هـ- نقده لهم في تأويل النصوص مع اعترافه بأنه وقع في بعض التأويل وتراجعه عنه:

حيث ينتقد الذين يرون أن الملائكة والشياطين إنما هما تعبيران عن قوى الخير والشر، ولا يوجد خلق حقيقي لهما، بأنهم إنما جاءوا بهذه التصورات من مقررات ذهنية سابقة أخذوها من غير القرآن، ثم جاءوا ليحاكموا نصوص القرآن والحديث إليها! واضطروا مع هذا لتأويل النصوص لتوائم هذه المقررات الذهنية.

وفي الهامش يعلق سيد – رحمه الله – على موقف المؤولين بقوله: " وما أبرئ نفسي أني فيما سبق من مؤلفاتي، وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شيء من هذا، وأرجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله، وما أقرره هنا هو ما اعتقده الحق بهداية من الله " (١)

و- نقده للمعتزلة ولعموم المتكلمين في عدم جمعهم النصوص المتعلقة بالموضوعات التي ناقشوها حتى تتضح لهم الحقائق، حيث كانت الفرق الكلامية عموماً تتناول الآيات بطريقة تجزيئية فتأتي الأحكام قاصرة وخاطئة، وضرب لذلك أمثلة بمسائل " القضاء والقدر " و " الجبر والاختيار " و "

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٧٣٠- ٣٧٣١ بتصرف .

الإرادة والكسب " التي شغلت علماء الكلام عموماً.

يقول – رحمه الله – " ومن مراجعة النصوص – والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي آثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية... فالفهم الصحيح للآيات لا يكون إلا بجمعها والنظر فيها مجتمعة، وعدم أخذها فرادى وفق الأهواء أو وضع بعضها في مواجهة بعض على سبيل الجدل كما فعلت الفرق والنحل [١].

ز – مخالفته للمعتزلة في كثير من القضايا العقدية ومن أبرزها:

١- قضية الرؤية.
٢- قضية الشفاعة.
٣- قضية وجوب إرسال الرسل على الله.
٤- قضية خلق القرآن. وغيرها مما سيأتي بيانه كل في موضعه.

الفرع الثاني: موقفه من التصوف والصوفية

مرَّ معنا في الباب الأول أن ما كتبه سيد من مؤلفاته ينقسم إلى قسمين:

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٠٠ ، بتصرف يسير .

الأول: ما كتبه قبل التزامه بالإسلام، وهو يمثل في مجمله كتاباته الأدبية والنقدية ودواوينه الشعرية، ويمثل جزء منه سجلاً معبراً عن حالة ضياعه وانحرافه الفكري باعترافه هو، و في هذا القسم عدد من الأخطاء المنتقدة عليه.

والثاني: ما كتبه بعد التزام بالإسلام، وهو على نوعين أيضاً:

أ- ما كان في بداية توجهه نحو الإسلام، أي في مرحلة دراسته للإسلام دراسة أدبية، وفيه أيضاً عدد من الأخطاء المنتقدة عليه.

ب- ما كتبه بعد التزامه بالإسلام وخاصة ما كان في آخر حياته، وهو يمثل ما استقر عليه من آراء، ونسبة الأخطاء فيه قليلة.

وقد أخذ البعض كتابات سيد المختلفة في مراحلها السابقة، واستخرج منها أقوالاً استند إليها في نسبة سيد إلى التصوف والحلول والاتحاد.

ومن خلال إطلاعي على ما كتبه الناقدون لسيد في هذا الباب وجدت أنهم اعتمدوا في حكمهم عليه بالتصوف على ما يأتي:

١- إما عبارات وأقوال وأبيات شعرية قالها في فترة ما قبل التزامه بالإسلام، وخاصة في دواوين ضياعه وقصصه الأدبية.

٢- وإما عبارات موهمة حَلَّق فيها سيد بأسلوبه الأدبي بعيداً، جعلت من يقرأها دون أن يضم إليها صريح عباراته في هذا الباب يرى أنها هي عبارات أهل الحلول والاتحاد والتصوف.

٣- وإما استشهاد أو إشادة منه ببعض أقوال المتصوفة التي يرى أنها صحيحة في بابها كاستشهاده بأبيات رابعة العدوية(١) في حقيقة الحب ونحوها.

وبناءً على ما سبق يمكننا بيان موقف سيد من التصوف فيما يأتي:

أ- **تفريقه بين التصوف الصادق (الزهد) وبين التصوف المنحرف:**

يفهم من كلام سيد أنه يفرق بين التصوف المنحرف

---

(١) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير مولاة آل عتيك البصرية ، لها أخبار في العبادة والنسك ، توفيت بالقدس سنة ١٣٥هـ، انظر: وفيات الأعيان لأبي .... ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٩هـ ، ٢٣٨/٢ ، الأعلام ١٠/٣ .

وبين الزهد الذي كان عليه الرعيل الأول و الذي يسميه البعض بالتصوف الصادق، حيث يقول سيد مستشهداً على حقيقة الحب الصادق بين العبد وربه: "وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها إلا من ذاقها.. وهو أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره، إلا فلتات قليلة من كلام المحبين، وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين- وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل-" (١)

ويطلق لفظ العابد الصوفي على الفضيل بن عياض (٢) الزاهد فيقول: " وقد روي عن الفضيل العابد الصوفي أنه كان إذا قرأ هذه الآية {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾} [سورة محمد: ٣١] بكى وقال: اللهم لا تبلنا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا " (٣).

ب- نقده لعدد من معتقدات الصوفية وبدعها:

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩١٨ ، بتصرف يسير .

(٢) هو : الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي – الخرساني ، أبو علي ، ولد بسمرقند وارتحل في طلب العلم ، كان يقطع الطريق ثم تاب وجاور في الحرم ، وكان عابداً فاضلاً ورعاً . توفي سنة ١٨٧هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٤٢١/٨ وشذرات الذهب ٣٦١/١

(٣) في ظلال القرآن ٣٢٩٩/٦ .

حيث أشار سيد إلى عددٍ منها في مواطن مختلفة من كتبه منكراً عليهم فيها، ومن هذه البدع والشركيات التي تعرض لها ما يأتي:

١ – الاعتقاد بالخرافات وتقديس المقامات وتقديم القرابين والنذور للأولياء والمزارات:

يعتبر سيد " أن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة " (١)، " وإننا لنشهد اليوم – بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن بهذا البيان – (أي بيان أوهام الجاهليين في التقرب لغير الله وتقديس الأوثان) – أنه حيثما أنفك رباط القلب البشري بالإله الواحد، تاه في منحنيات ودروب لا عداد لها، وخضع لربوبيات شتى، وفقد حريته وكرامته ومقاومته.. ولقد شهدت في هذا الجانب الخرافي وحده في صعيد مصر وريفها عشرات من الأوهام تطلق لها بعض صنوف الحيوان، للأولياء والقديسين في ذات الصورة التي كانت تطلق بها للآلهة في الزمان القديم! " (٢).

*وفي ظلال قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾} [سورة النحل: ٥٦].

---

(١) المصدر السابق ، ١/٩٥ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/ ٩٩٠ .

يستعرض سيد أوهام المشركين في الجاهلية في تقربهم لغير الله ثم يقول: " وهكذا تبدو المفارقة في تصورهم وفي تصرفهم على السواء، الرزق كله من الله، والله يأمر إلا يُعبد سواه، فهم يخالفون عن أمره، فيتخذون الآلهة وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه! وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة! وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت، يجعلون نصيباً من رزق الله لهم موقوفاً على ما يشبه آلهة الجاهلية، ما يزال بعضهم يطلق عجلاً يسميه " عجل السيد البدوي " يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد، ولا ينتفع به أحد، حتى يذبح على اسم " السيد البدوي " لا على اسم الله! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله، ولا باسم الله، ولكن باسم ذلك الولي، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم الله، وهو حرامٌ نذره على هذا الوجه، حرامٌ لحمه، ولو سمي اسم الله عليه لأنه أُهَّل لغير الله به! " (١)

*وفي ظلال قوله تعالى: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾} [سورة الأنفال: ٣٥].

---

(١) في ظلال القرآن : ٤/ ٢١٧٧

يستعرض –سيد –حالة المشركين في عبادتهم، والتي كانت صفيراً بالأفواه وتصفيقاً بالأيدي، وهرجاً ومرجاً لا وقار فيه، ولا استشعار لحرمة البيت، ولا خشوع لهيبة الله، ويذكر أثر ابن عمر – رضي الله عنها – (١) " إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون ثم يقول: " وإن هذا ليخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين الممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد التي يسمونها " بلاد المسلمين "! (٢).

*كما يرى سيد – رحمه الله – أن بعثة محمد ﷺ كانت مهمتها تحطيم الطواغيت وعلى رأسها طاغوت الشرك بالله في عالم العقيدة، وهو طاغوت ضخم عميق الجذور في مسارب الشعور الإنساني، وما تزال البشرية تعاني منه بعد كل رسالات التوحيد السماوية وبعد كل كفاح الرسل وكلما انحرفت الجماهير عن الإدراك الصحيح لدين الله التقت بطاغوت الشرك في صوره الكثيرة، وما التمسح بأعتاب الأولياء والقديسين في صورته التي

---

(١) هو : عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي ، هاجر قبل أبيه ، وأول مشاهده الخندق ، كان من المكثرين من الرواية ، وكان يقتدي به في كل أمره ، توفي سنة ٧٤ هـ انظر : أسد الغابة ٢٢٧/٣ ، والأعلام ١٨٠/٤

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٥٠٦ .

يزاولها العوام، إلا صورة من صور ذلك الطاغوت، تتزيا بزي الدين ودين الله كله منها براء! [1].

٢- انحرافهم في مفهوم الولاية:

يقول سيد مبيناً حقيقة الأولياء: " وأولياء الله الذين يتحدث عنهم القرآن هم المؤمنون حق الإيمان، المتقون حق التقوى، والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، هكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله، لا كما يفهم العوام من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء! "[2].

٣- طريقة الذكر الصوفي والموالد:

ينتقد سيد طريقة الطرق الصوفية في الذكر، ويبين أن الذكر المأمور به " ليس الذكر بالشفة واللسان فقط، ولكن بالقلب والجنان، الذكر الذي يخفق به القلب، فلا يسلك صاحبه طريقاً يخجل أن يطلع عليه الله فيه،

---

(١) دراسات إسلامية –سيد قطب – ، ص ١٢ ، بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٨٠٤ .

ولا يأتي صغيره أو كبيرة إلا وحساب الله فيها، فهذا هو الذكر المأمور به، وإلا فما هو ذكرٌ لله إذا كان لا يؤدي إلى الطاعة والعمل والسلوك والإتباع " [1]، " وقد وجه الله عباده المؤمنين إلى طريقة الدعاء بقوله ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [2]، فهو توجيه إلى أنسب حالة نفسية صالحة، إلى الدعاء والإنابة تضرعاً وتذللاً، وخفية لا صياحاً وتصدية! فالتضرع الخفي أنسب وأليق بجلال الله وبقرب الصلة بين العبد ومولاه، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان مع أصحابه في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: " أيها الناس أربعوا (أي أرفقوا وهونوا) على أنفسكم، إنكم لستم تدعون أصمَ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم " [3].

فهذا الحس الإيماني بجلال الله وقربه معاً هو

---

(١) المصدر السابق ، ٣/ ١٤٢٧ بتصرف يسير

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٥

(٣) رواه البخاري في الجهاد ، باب ما يكره في رفع الصوت ٣/١٠٩١ برقم ٢٨٣٠ ، ومسلم في الذكر ٤/١٦٤٩ برقم ٢٧٠٤ .

الذي يؤكده المنهج القرآني هنا... ذلك أن الذي يستشعر جلاله – سبحانه – فعلاً يستحيي من الصياح في دعائه، والذي يستشعر قرب الله حقاً لا يجد ما يدعوا إلى هذا الصياح " (١).

" فذكر اسم الله ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان، على عدة المسبحة المئوية أو الألفية! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر" (٢).

كما يُعَّرض سيد بطريقة الذكر الصوفي بقوله: " والإسلام الذي يقي من الشيوعية ليس هو الأوراد والتسابيح والتراتيل، وليس هو الطقطقة بالمسابح والإنشاد في الأذكار، وليس هو صواريخ المولد ولا زفة المحمل، كلا ليس هذا الإسلام، وإن كان الاستعمار قد استخدم هذا النوع من الإسلام أعواماً طويلة في هذا الشرق على أيدي عملائه من مشايخ الطرق المعروفين " (٣).

٤– دعاء غير الله واتخاذ الواسطة:

القلوب في حالة الضيق تتوجه إلى الله تعالى لأنها

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٢٩٨ ، بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٧٤٦ .

(٣) معركتنا مع اليهود – سيد قطب – ، ص ٣٩، ٤٠ .

تشعر بالفطرة أن لا عاصم لها سواه، وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع فتضعف صلتها بالله، وتزيغ عنه ألواناً من الزيغ تبدو في الشرك به، وتبدو كذلك في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله!

ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها، فإذا بعضهم في ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله، ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله، أو بغير هذه الحجة في بعض الأحيان، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب فهؤلاء أشد انحرافاً من مشركي الجاهلية الذين رسم القرآن نموذجهم "[(١)].

" فالإسلام في نصاعته ووضوحه ينفي الوساطة بين الله وعباده حتى عن رسول الله ﷺ، فالرسول لا يملك من أمر الناس شيئاً، ومهمته البلاغ وليس له من مطمع في أجر أو عَرَض من أعراض الدنيا يناله ممن يهتدون إلى الإسلام، وليس هناك إتاوة ولا نذر ولا قربان يقدمه المسلم عند دخوله.. ليس في الإسلام كاهن يتقاضى ثمن كهانته، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته، ليس هناك " رسم دخول " ولا " ثمن لتناول سر ولا بركة ولا استقبال! " هذه هي بساطة هذا الدين وبراءته مما

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٧٧.

يحول بين القلب و الإيمان، ومن كل ما يقف بين العبد وربه من وسطاء وكهان " (١).

٥- السلبية في الحياة:

جاء الإسلام بمنهجٍ عظيمٍ في إصلاح النفوس البشرية وعمارة الحياة دون إفراط ولا تفريط، لكن الناظر في أحوال أصحاب الطرق الصوفية يجد أنهم لم يلتزموا منهج القرآن في التعامل مع الدنيا، بل ابتدعوا طرقاً ومناهج سلوكية لتربية النفوس – بزعمهم – كان من نتائجها السلبية في حياة الفرد والمجتمع بدعوى الزهد في الدنيا.

*وقد تكلم سيد – رحمه الله – كثيراً عن منهج القرآن في التعامل مع الحياة، وعن التصور الذي أنشأه الإسلام حول الدنيا وموقف المسلم منها، وهو: " تصور لا إهمال فيه للحياة الدنيا ولا سلبية فيه ولا انعزال، وما وقع من إهمالٍ وسلبيةٍ وانعزالٍ وخاصة في بعض حركات " التصوف " والزهد ليس نابعاً من التصور الإسلامي أصلاً، إنما هو عدوى من التصورات الكنيسة الرهبانية، ومن التصورات الفارسية، ومن بعض التصورات الإشراقية الإغريقية المعروفة بعد انتقالها

---

(١) المصدر السابق ، ٥/ ٢٥٧٤ ، ٢٦٢٠ بتصرف .

للمجتمع الإسلامي.

فالنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة، لم تكن سلبية ولا انعزالية فهذا جيل الصحابة كله، الذين قهروا الشيطان في نفوسهم، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض.. كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله، وهو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة من واقع الحياة، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة، وطاقة فائقة، في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة (١).

" فالإسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين،... وتمضية الوقت في التراتيل والدعوات بلا عملٍ منتجٍ ينمي الحياة أمر لا يعرفه الإسلام، ولا يُقِرُّ عليه تلك الألوف المؤلفة في مصر التي لا عمل لها إلا إقامة الصلوات في المساجد أو تلاوة الأدعية والأذكار في الموالد " (٢).

" ولن يتحقق الإسلام بمجرد أن يذهب الناس إلى المساجد ويحتفلوا بالمولد النبوي الشريف، ويلقوا الخطب في مدح سيد المرسلين! ولا بأن تعج الأرض بالمجاذيب والدراويش،

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٠٧٢/٢ .

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية– سيد قطب – ص ٥٢ .

يتلون الأدعية، ويقيمون الأذكار، ويحملون المسابح ويُتَمتِمون أو يهدرون!.. إنما يتحقق بأن يحكم الإسلام الحياة ويصرفها في كل جوانبها " (١).

" والإسلام يطارد الدجالين، الذين يجمعون حوله التراهات والخرافات، لأنه عقيدة بسيطة واضحة لا تعتمد على المعجزات والكرامات والشفاعات والدعوات... إنما تعتمد على العقيدة المستقيمة، والسلوك النظيف والعمل الصالح، والجد والإنتاج، ولو حكم الإسلام فسيكون أول عمل له أن يطارد المتبطلين الذين لا يعملون شيئاً ويعيشون باسم الدين، والدجالين الذين يُلبِّسون وضوح الإسلام بغموض الأساطير، ويستغفلون باسمه عقول الجماهير، والدراويش الذين لا يعرف لهم الإسلام مكاناً في ساحته ولا عملاً في دولته، وهم في مصر كثيرٌ جد كثير. " (٢).

٦- بناء المساجد على القبور:

يرى سيد أن بناء المساجد على القبور هو من طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء

(١) المصدر السابق ، ص ٥٩-٦٠ بتصرف .

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية ، ص ١٠٥-١٠٦ ، وينظر ذلك ص ٧٤- ٧٥ .

والقديسين، وما يصنعه من يصنعه من المسلمين اليوم إنما هو تقليد لهم، ومخالفة لهدي النبي ﷺ الذي يثبت عنه أنه قال: " لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " (١). " (٢).

٧- التصوف والاستعمار:

يرى سيد أن الإسلام بالمفهوم المنحرف الذي عليه بعض اطرق الصوفية والمتمثل في الأوراد والتسابيح والتراتيل، والطقطقة بالمسابح والإنشاد في الأذكار، ول صواريخ المولد وزفة المحمل، وغيرها، لا يقي من الاستعمار الشيوعي وغيره، بل إن الإسلام بهذا المفهوم قد استخدمه الاستعمار وحماه في الشرق الإسلامي أعواماً طويلة، على يد عملائه من مشايخ الطرق المعروفين (٣).

ويقرر أن هناك تعاوناً بين المستغلين من رجال الإقطاع ومشايخ الطرق، وبين الاستعمار، فيقول: " إن العهود

---

(١) رواه :البخاري في كتاب المساجد باب الصلاة في البيعة ١٦٨/١ برقم ٤٢٥ ، ومسلم في كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١ / ٣١٥ برقم ٥٢٩ واللفظ له ، والنسائي ٢/٤٠-٤١ ، وأحمد ٨٠/٦

(٢) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٦٤ .

(٣) معركتنا مع اليهود – سيد قطب – ، ص٣٩- ٤٠ .

الإقطاعية هي التي ترزق المشايخ المتبطلين، والدراويش المهبولين، وتخلع عليهم وتعترف بوجودهم، لأن هذه كلها أجهزة لتخدير الجماهير عما هي فيه من حرمانٍ وشقاء " (١).

" وقد ساعد الاستعمار على تشويه الفكرة الإسلامية كلها، من خلال أولئك الذين اصطلح الناس على أن يسموهم رجال دين من الأشياخ والدراويش، بينما هم يمثلون جمود الفكر، وضيق الأفق، أو يمثلون الخرافة والجهالة، ثم يصبغون ذلك كله بصبغة الدين فيظهرونه بشعاً شائهاً منفراً " (٢).

ويرى سيد أيضاً أن المستغلين والطغاة لا يستطيعون مواجهة الأمة بعدائهم للإسلام وعقيدته، وبالتالي فهم يعمدون إلى الخرافات والطرق لتخدير الشعوب ويكون الإسلام ستاراً وهمياً، وعندئذٍ لا ضير على الطغاة من الإسلام حين يكون تمتمة بالشفاه، وطقطقة بحبات المسابح، أو أدعية وتراتيل، أو محملاً يطاف به سبعاً، ويسلم مقود الجمل الذي يحمله رسمياً، أو مولداً تطلق فيه " السواريخ " أو مشيخة طرق، أو نقابة أشراف تُخلع فيها الخلع وتمنح فيها الألقاب.. إلى آخر أجهزة التخدير التي يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية – سيد قطب – ص ٧٥ .

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية ، ص ١٠٠ .

عن دينها الحق.. وحينئذٍ يخلو الاستعمار إلى الاستغلال، ويخلو الاستغلال إلى الاستعمار وتتلاقى مصلحتهما المشتركة في دفع خطر الإسلام الحق، الذي لو اندفع لأغرق هؤلاء وهؤلاء " (١).

هذا ما وجدته من كلام سيد -رحمه الله - حول المتصوفة وعقائدهم، وأما ما أُتهم به من القول بوحدة الوجود - فسيأتي الكلام عنه مفصلاً إن شاء الله -.

الفرع الثالث: موقفه من مدرسة الإمام محمد عبده " العصرانية "

قامت مدرسة الإمام محمد عبده وتلاميذه في مصر على منهج متأثر بفلسفة ديكارت الغربية التي تعطي العقل أكثر من مجال في مسائل العقيدة وبالتالي اضطرت إلى تأويل كثير من الغيبيات والنصوص.

ويمكن بيان موقف سيد قطب- رحمه الله - من هذه المدرسة في النقاط الآتية:

أولاً: بيان سيد لمنهجها ودوافعها:

بين سيد الدوافع التي كانت وراء نزعات هذه المدرسة فيما يأتي:

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٤ بتصرف .

أ – البيئة الفكرية الجامدة التي عاصرها الإمام محمد عبده، والتي أغلقت باب الاجتهاد، وأنكرت على " العقل " دوره في فهم شريعة الله، واستنباط الأحكام منها، واكتفت بالكتب التي ألفها المتأخرون في عصور الجمود العقلي.

ب – النزعة الخرافية الشائعة التي سيطرت على العقلية العامة في تلك الفترة وصبغت كتاباتها.

ت – كثرة الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية.

ث– وصول الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها، وخاصة بعد الفتوحات العلمية التي حصل فيها العلم على انتصارات عظيمة، وكذلك سيادة الفلسفة التي تؤله العقل وبخاصة فلسفة ديكارت.

ج– هجوم المستشرقين على التصور الإسلامي وعقيدة القضاء والقدر فيه، واتهامه بتعطيل العقل البشري والجهد البشري عن الإيجابية في الحياة بسبب هذه العقيدة.

ح – انتشار موجة الإلحاد، ووصول موجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها، حيث حاولت هذه المدرسة أن

ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل [1].

ويقول: " ومن ثم اجتهدت هذه المدرسة في تنقية الدين من الخرافات والأساطير، وحاولت أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية، وتدرك ثباتها واطرادها وترد إليها الحركات الإنسانية، كما ترد إليها الحركات الكونية في الإجرام والأجسام " [2].

" ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة، وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى، تركت آثارها في تلك المدرسة، من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله، فشاع في تفسير الإمام محمد عبده وتلاميذه الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه " المعقول "، وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات.

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٧٨ ، ٣/ ١٥٨٨ ، وخصائص التصور الإسلامي – لسيد قطب – ، ص ١٨ ، ١٩ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ١٩٧٨ .

الاتجاه، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل، وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها، سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف (١).

والملاحظ في كلام سيد في النص السابق: أنه كان دقيقاً في النقد، مهذباً في الأسلوب، منصفاً في العرض، فقد هدم منهجها بقوله: " وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل... مع وصفها بالمبالغة، لكنه ساقه بأسلوب الداعية، الذي يدغدغ عواطف الجماهير للتأثير فيهم وإصلاحهم، بدلاً من التشهير والهدم غير النافع في الدعوة. وسيأتي أيضاً إنصافه مع هذه المدرسة بعد نقده لبعض أخطائها.

ثانياً: نقده لبعض أخطاء هذه المدرسة: ومنها:

أ – مغالاتها في العقل وجعله نداً للوحي:

ويرجع سيد قطب هذا الانحراف في فكر المدرسة العقلية إلى عدة أسباب هي:

١ – تأثرها بالفلسفة الغربية وخاصة فلسفة ديكارت التي تغالي في العقل (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٣/ ١٥٨٨ هامش ١

٢ – رغبتها في مواجهة البيئة الجامدة، من خلال إثبات قيمة " العقل " تجاه "النص " وإحياء فكرة " الاجتهاد " ومحاربة الخرافة والجهل والعامية في " الفكر الإسلامي ".

٣ – الرد على هجوم الغربيين على الإسلام وعقيدته.

فلما أرادوا مواجهة الجمود العقلي في الشرق، والفتنة بالعقل في الغرب جعلوا " العقل البشري " نداً للوحي" في هداية الإنسان، ولم يقفوا به عند أن يكون جهازاً من أجهزة الكائن البشري يتلقى الوحي، ويدرك ما يدركه ويسلم بما هو فوق إدراكه، بما أنه غير كلي ولا مطلق، ومحدود بحدود الزمان والمكان، بينما الوحي يتناول حقائق مطلقه وليس على العقل إلا التسليم بها لأنه لا سبيل له إلى إدراكها" (١)، " والمغالاة في العقل عند هذه المدرسة جعلتها تضيق نطاق الخوارق والغيبيات، وتُأول النصوص لتوائم ما يسمونه " معقولاً " كما سيأتي (٢):

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٩ بتصرف يسير ، ويراجع فصل الربانية أيضاً من نفس الكتاب .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣٩٧٨/٦ .

ب –تأويل الغيبيات ورد الخوارق:

" وهذا الخطأ هو نتيجة للخطأ السابق المتمثل في تعظيم دور العقل وجعله نداً للوحي وحاكماً على النص، وسببه المبالغة في الاحتياط من الخرافة، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هي القاعدة الكلية لسنة الله، لهذا شاع في كتابات رواد هذه المدرسة رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه " المعقول " وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات " (١)، حتى صرح بعضهم بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل (٢)، وهو مبدأ خطر، فإطلاق كلمة " العقل " يرد الأمر إلى شيء غير واقعي! فهناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل علان، وليس هناك "عقل مطلق" لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل، يحاكم النص القرآني إلى " مقرراته "، وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة فإننا ننتهي إلى فوضى!

وقد نشأ هذا كله من الاستغراق في مواجهة انحراف

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣٩٧٨/٦

(٢) هو الشيخ / عبد القادر المغربي ، كما صرح بذلك سيد ، في: خصائص التصور الإسلامي ، ص٢٠

معين، ولو أُخذ الأمر في ذاته لعُرف للعقل مكانه ومجال عمله بدون غلو ولا إفراط، وبدون تقصير ولا تفريط كذلك، وعُرف للوحي مجاله، وحفظت النسبة بينهما في مكانها الصحيح " (١).

ومن القضايا التي أولتها هذه المدرسة ورد عليها سيد فيها ما يأتي:

١- تأويلهم لعالم الملائكة والشياطين:

" حيث يرون أن الملائكة والشياطين أو الجن لا يمكن أن يكون لهم وجود مجسم على هذا النحو أو أن تكون لها تحركات حسية وتأثيرات واقعية! ومن ثم يرون أن الملائكة تمثيل لقوة الخير والطاعة والشياطين تمثيل لقوة الشر والمعصية، والرجوم تمثيل للحفظ والصيانة.. الخ " (٢).

* وفي ظلال قوله تعالى: { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾} [سورة الأنفال: ٤٨]، تعرض سيد لم نهج المدرسة العقلية بالنقد وذلك لتأويلهم

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٠ ،بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/٣٧٣٠ .

للغيبيات بقوله: " في هذا الحادث يثبت النص القرآني أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم وشجعهم على الخروج.. ثم خذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، لكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، والتي قال لهم بها: لا غالب لكم اليوم والتي نكص بها كذلك، الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها، ذلك لأن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث.

فإلى هنا ينتهي اجتهادنا، ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم.... ثم ذكر سيد كلام الشيخ محمد عبده وميله إلى تفسير أفعال الملائكة والشياطين بأنها مجرد ملابسة أرواح المؤمنين أو المشركين، وقال: " وكل هذا مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية، ولا ضرورة لهذا التأويل، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها " (١).

٢- تأويلهم للطير الأبابيل:

ذكر سيد - رحمه الله - أنهم يفسرون الطير الأبابيل

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/١٥٣١-١٥٣٢ بتصرف يسير .

التي أرسلها الله على أصحاب الفيل بأنها ميكروبات الجدري، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير هو كل ما يطير، وتصريحهم بأن هذا التفسير هو ما يصح الاعتماد عليه، وما عداه لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته.

ثم ردّ عليهم سيد بأن هذا التفسير نابع من منهجهم في تضييق نطاق الخوارق والغيبيات وأن سنت الله ليست فقط هي ما يعرفه البشر وما عرفوه... وبالتالي لا يصح الوقوف أمام هذه الخارق مترددين، أو مؤولين لها – متى صحت الرواية –" (١).

٣-<u>حصرهم للجهاد بالدفاع، وقولهم بأن الأصل في التعامل مع الكفار هو السلم:</u>

صدرت كتابات كثيرة للمستشرقين وغيرهم من الصليبين والصهيونيين تتهم الإسلام بأنه دين العنف وأنه انتشر بحد السيف، ورغبة في الدفاع عن الإسلام قام بعض المفكرين في حماسة للدفاع عنه، لكنهم اسقطوا قيمة " الجهاد " وهم يدفعون عنه هذا الاتهام، معتذرين بأن الجهاد في الإسلام إنما هو " الدفاع " فقط، وأن الإسلام قام على الإقناع والحجة، وأن

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣٩٧٦/٦ – ٣٩٧٨ .

الأصل في العلاقة مع غير المسلمين هي المعاهدات السلمية ما لم يقع اعتداء على المسلمين في دارهم.

وقد أنكر سيد – رحمه الله – هذا القول وقرر أن الجهاد في الإسلام على نوعين:

الأول: جهاد الرد في حالة هجوم الأعداء على بلاد المسلمين.

الثاني: جهاد الطلب، وهو باقٍ إلى قيام الساعة، والهدف منه ليس إكراه الناس على اعتناق الإسلام بالسيف، وإنما إزاحة الطواغيت التي تستعبد البشر من دون الله، وتحول بينهم وبين معرفة الإسلام وفهمه، ثم بعد ذلك يترك لهم حرية الدخول في الإسلام، أو البقاء على مللهم في ظل عدل الإسلام ورايته.

وبيَّن – رحمه الله – أن هناك حقيقة واضحة يلمسها حتى أصحاب هذا القول وهي: عدم إمكانية التعايش بين الإسلام والأديان الأخرى بناء على المعاهدات السلمية إلا في فترات موقوتة لا تمثل قاعدة دائمة، وأن الأصل هو العداء والصراع بناءً على عدم إمكانية التعايش الدائم بين المعسكرين، بسبب الاختلاف الجذري بين طبيعة المنهج الإسلامي ومناهج العبيد في الأرض، وعدم التقائهما على شيء، وهذا هو السر

وراء نقض العهود والاعتداء من أعداء الإسلام عليه" (١).

٤- الإعجاب بالغربيين ومناهجهم ووصفهم بالأحرار:

يقول سيد: " يجب أن ينتبه إلى دلالة مثل هذه العبارات (الأحرار) في مدرسة الشيخ محمد عبده وتلاميذها، فقد كانت هذه المدرسة بجملتها متأثرة بمناهج تفكير وبأفكار غربية غريبة على منهج التفكير الإسلامي الخالص، وكان هذا التأثر يجعلها تنظر إلى كُتَّاب أوروبا المناهضين للكنيسة بوصفهم أحراراً، وكذلك الكُتَّاب الذين يكتبون عن الديمقراطية والحرية الغربية والأوضاع الأوربية نظرة استحسان، وكانت تدعو إلى الأخذ بما تسميه " الصالح من هذه الأفكار والأوضاع " بناءً على ذلك التأثر، وهذا مزلق خطير، كان يعطف عليه " لورد كرومر " وأمثاله من الصليبيين! والأمر في حاجة إلى نظرة أعمق وأوسع، وإلى استقلال، واستغناء بالمنهج الإسلامي " (٢).

٥-انتفاع الكافر بالحسنات يوم القيامة:

---

(١) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ، ١٥٨٨/٣، ١٥٨٩، وخصائص التصور الإسلامي ، ص ١٨ ، والسلام العالمي والإسلام ، ص ١٦٩، وما بعدها ، ومعالم في الطريق ، ص ٦٦- ٩٠ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٦٣٧/٣ .

يرى الشيخ محمد عبده أن قوله تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧} [سورة الزلزلة: ٧]. عام في المسلم والكافر، وينكر على من نقل الإجماع بأن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما، وأنه لا أصل له.

وقد عقب عليه سيد – رحمه الله – بأن المسألة لم تجيء من إجماع، ولكنها من نصوص قرآنية صريحة، هي أصل بذاتها على عدم انتفاع الإنسان بعمل بدون إيمان، مهما كان صالحاً " (١).

– إنصافه مع مدرسة محمد عبده:

مع هذا النقد الذي سبق من سيد لما عند أصحاب هذه المدرسة نجده يشيد بما عندهم من صواب فيقول: " ولست ابتغي أن أنقص من قدر تلك الجهود العظمية المثمرة في إحياء الفكر الإسلامي وإنهاضه التي بذلها الأستاذ الإمام وتلاميذه.. وإنما أريد فقط التنبيه إلى أن دفعة الحماسة لمقاومة انحراف معين قد تنشئ هي انحرافاً آخر وأن الأولى في منهج البحث الإسلامي هو عرض حقائق التصور الإسلامي في تكاملها الشامل، وفي تناسقها الهادي، ووفق طبيعتها الخاصة وأسلوبها الخاص"(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٦٧ بتصرف يسير .

(٢) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ، ص ٢١ ، ٢٢ .

*** موافقته لبعض آراء المدرسة العقلانية:**

بالرغم من موقف سيد قطب – رحمه الله – الرافض لمنهج المدرسة الإمام محمد عبده في التعامل مع النصوص إلا أنه قال ببعض الآراء الموافقة لما عند هذه المدرسة ومن ذلك:

١ – قوله بعدم الاحتجاج بحديث الآحاد في العقيدة، وقد سبق الكلام عنه في مصادر التشريع.

٢– إنكاره لمسألة سحر النبي ﷺ، مبرراً ذلك بنفس المبررات التي ذكرها الشيخ محمد عبده في المسألة (١).

٣– تأويله لبعض النصوص، وقد اعترف هو بذلك، وأخبر عن تراجعه عنها في الجملة وعزمه على تصحيحها إن مُدَّ في عمره (٢).

*** موقفه من المفكر الإسلامي محمد إقبال:**

كان لإقبال – رحمه الله – جهود في مواجهة بعض الانحرافات في الفكر الإسلامي في البيئة الشرقية، حيث كتب عدة بحوث في الرد عليها.

وقد تحدث سيد عن جهود" إقبال" ونبه إلى بعض الانحرافات عنده وأسبابها فقال: " لقد واجه " إقبال " في العالم

(١) ينظر : مبحث مصادر التشريع في هذا الباب .
(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٧٣١ .

الشرقي بيئة فكرية " تائهة " في غيبوبة " إشراقات " التصوف العجمي " كما يسميه، فراعه هذا " الفناء " الذي لا وجود فيه للذاتية الإنسانية، كما راعته، " السلبية " التي لا عمل معها للإنسان ولا أثر في الأرض–وليس هذا هو الإسلام بطبيعة الحال– كما واجه من ناحية أخرى التفكير الحسي في المذهب الوضعي، ومذهب التجريبيين في العالم الغربي، كذلك واجه ما أعلنه " نيتشه" (١) في كتاب" هكذا قال زرادشت " (٢) عن مولد الإنسان الأعلى " السوبرمان " وموت الإله! وذلك في تخبطات الصراع التي كتبها "نيتشه" وسماها بعضهم " فلسفة "!.

حيث أراد" إقبال" أن ينفض عن "الفكر الإسلامي" وعن "الحياة الإسلامية" ذلك الضياع والفناء والسلبية كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامي واقعية "التجربة" التي يعتمد عليها المذهب التجريبي ثم المذهب الوضعي!.

ولكن النتيجة كانت جموحاً في إبراز الذاتية الإنسانية، اضطر معها إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه

---

(١) هو: نيتشه فرويد نيس ١٨٤٤– ١٩٠٠م ، فيلسوف مثالي ألماني ، ولد عام ١٨٤١م،يعتبر رائد الأيدلوجية الألمانية الفاشية ، له عدة مؤلفات، انظر : المنجد في الأعلام ٥٢٨.

(٢) هو:مصلح ديني،ومتنبئ عند الفرس الأقدمين ،توفي نحو ٥٨٣ ق.م ، انظر : المنجد في الأعلام ص٢٧٨ .

طبيعتها، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي، لإثبات أن الموت ليس نهاية للتجربة، ولا حتى القيامة، فالتجربة والنمو في الذات الإنسانية مستمران أيضاً– عند إقبال – بعد الجنة والنار، مع أن التصور الإسلامي حاسم في أن الدنيا دار ابتلاء وعمل وأن الآخرة دار حساب وجزاء، وليست هناك فرصة للنفس البشرية للعمل إلا في هذه الدار، كما أنه لا مجال لعمل جديد في الدار الآخرة بعد الحساب والجزاء، ولكن هذا الغلو إنما جاء من الرغبة الجارفة في إثبات " وجود " الذاتية، واستمرارها، أو الـ " أنا " كما استعاره إقبال من اصطلاحات هيجل الفلسفية، ومن ناحية أخرى اضطر إلى إعطاء اصطلاح " التجربة " مدلولاً أوسع مما هو في " الفكر الغربي " وفي تاريخ هذا الفكر، لكي يمد مجاله إلى " التجربة الروحية " التي يزاولها المسلم ويتذوق بها الحقيقة الكبرى، " فالتجربة " بمعناها الاصطلاحي الفلسفي الغربي لا يمكن أن تشمل الجانب الروحي أصلاً لأنها نشأت ابتداءً لنبذ كل وسائل المعرفة التي لا تعتمد على التجربة الحسية.

ومحاولة استعارة الاصطلاح الغربي، هي التي قادت إلى هذه المحاولة التي يتضح فيها الشد والجذب والجفاف أيضاً، حتى مع شاعرية "إقبال" الحية المتحركة الرفافة! ولست

ابتغي أن انقص من قدر تلك الجهود العظيمة المثمرة في إحياء الفكر الإسلامي وإنهاضه التي بذلها... الشاعر" إقبال " – رحمه الله – وإنما أريد فقط التنبيه إلى أن دفعة الحماسة لمقاومة انحراف معين، قد تنشئ هي انحرافاً آخر، وأن الأولى في منهج البحث الإسلامي هو عرض حقائق التصور الإسلامي في تكاملها الشامل، وفي تناسقها الهادئ ووفق طبيعتها الخاصة وأسلوبها الخاص " (١).

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب ، ص ٢٠- ٢٢ .

الفصـــل الثالث

منهجه في تقرير مسائـل الإيمـان

تعـد مسـائل الإيمـان مـن أوائـل القضـايا التـي وقـع الخـلاف فـي مسـمياتها فـي هـذه الأمـة، وتعـددت فيهـا الأقـوال وتنوعـت، ابتـداءً بخـلاف الخـوارج للصـحابة فـي مسـألة عصـاة الموحـدين وإخـراجهم مـن الإسـلام واسـتحلال دمـائهم، ثـم خـلاف المعتزلـة لأهـل السـنة وقـولهم بالمنزلـة بـين المنـزلين، ثـم خـلاف المرجئـة وقـولهم: إن الفاسـق مـؤمن كامـل الإيمـان، ومـا تبـع ذلـك مـن تفريعـات حـول تعريـف الإيمـان وحقيقتـه وعلاقـة العمـل بـه، وزيادته ونقصانه، وغيرها من المسائل.

وسأذكر هنا أبرز قضايا الإيمان التي حصل الخلاف فيها بين الفرق، مبيناً رأي أهل السنة والجماعة وموقف سيد قطب من هذه القضايا وذلك في المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف الإيمان وبيان حقيقته.

المبحث الثاني: ثمرات الإيمان والتوحيد وآثاره في الحياة.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالإسلام.

المبحث الرابع: الكبائر وأحكام مرتكبيها.

المبحث الخامس: التكفير.

المبحث الأول

تعريف الإيمان وبيان حقيقته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الإيمان لغة وشرعاً.

المطلب الثاني: حقيقة الإيمان وعلاقته بالعمل عند سيد قطب.

المطلب الأول

تعريف الإيمان لغة وشرعاً

تمهيد:

عند البحث في المعاجم اللغوية عن معاني الحقائق الشرعية لا بد من التنبه إلى أمرٍ مهم جداً وهو أن المعاجم اللغوية وضعت لضبط الألفاظ لا لتحديد المعاني، وإذا حاولت تحديد المعنى فإنها لا تبالي بأن تعرف الشيء بنفسه أو بأنه غير ضده، أو ببعض معانيه كقولهم: الدواء ما يتداوى به، والحلال ضد الحرام، والدعاء: النداء، مع أنه ليس كل دعاء نداء ونحو ذلك.

وبالتالي فإن الاستدلال بالمعاني اللغوية على الحقائق الشرعية لا يكون بدلالة المطابقة (١)، لأن الحقائق الشرعية في الأعم الأغلب تكون أخص من الإطلاقات اللغوية، وذلك بإضافة القيود والشروط الشرعية إلى مدلولات الألفاظ اللغوية، وليس معنى هذا إهمال الدلالات اللغوية، وإنما لا بد من النظر

---

(١) دلالة المطابقة : هي دلالة اللفظ على تمام معناه . انظر : شرح المسلم ، للملوي ، بهامش حاشية الصبان . مطبعة مصطفى الحلبي – مصر – ط٢ – عام ١٣٥٧هـ ، ص ٥١، ٥٢ .

فـي مراد الشـارع وإطلاقاتـه، والمستمر المعهود من مراده بهذا اللفظ أو ذاك، فنفسر الحقائق الشرعية على ضوء مراد الشـارع ولا نقتصر على معنى من معاني اللفظ الذي قد انضم إليه في العرف الشرعي ما يخصصه ويقيده ويحكم عليه، ومن ذلك لفظ الإيمان.

أولا: الإيمان في اللغة:

تقول المعاجم اللغوية إن الإيمان هو: " التصديق " [(١)]، ولكن هل التصديق مطابق للفظ " الإيمان "؟ وهل كل تصديق إيمان؟ الحقيقة أن ثمة فروق بين " آمن " و " صدق " منها:

١- أن " آمن " يتعدى بالحرف، إما بالباء مثل قوله تعالى: {قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧}، أي: بمصدقٍ، وقوله تعالى: {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ

(١) تهذيب اللغة للأزهري ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ ، ٥١٣/١٥ ، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، ١٩٩/٤ ، ولسان العرب لابن منظور ٢٢٢/١ ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس – دار الجيل – بيروت ب٠ت ١٣٣/١ .

أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾} [سورة البقرة: ٢٨٥]، وإما باللام مثل قوله تعالى: { ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾} [سورة العنكبوت: ٢٦]؛ فيكون بمعنى التصديق.

أما إذا تعدى بنفسه فيكون معناه التأمين: أي إعطاء الأمان كقوله تعالى: { ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾} [سورة قريش: ٤]. فهو ضد أخافه، أما " صدَّق " فإنه يتعدى بنفسه دون حرف كقولنا " صدّقه ".

٢- من حيث الاشتقاق اللغوي نجد أن الإيمان مشتق من الأمن، الذي هو ضد الخوف (١)، فآمن أي: صار داخلاً في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة، كما قال إخوة يوسف {وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾} [سورة يوسف: ١٧]؛ أي: لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين، فالتصديق وحده لا يدل على ذلك (٢).

٣- أن الإيمان لا يقال إلا في الأمور الغيبية التي تعتمد

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص ٩٠- ٩١ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى ابن تيميه ، ٧/ ٢٩٢ .

على أمانة المخبر، أما المشاهد المحسوس فيقال فيه: صدوق.

٤- أن مقابل الإيمان الكفر، ومقابل التصديق: الكذب.

فالخلاصة إذن: أن الإيمان تصديق وزيادة، وهو إلى الإقرار أقرب منه إلى التصديق(١).

وهذا هو ما أكد عليه - سيد قطب - رحمه الله -، فإنه لم يذهب إلى أن الإيمان هو التصديق فقط، بل قرر أنه تصديق وإذعان، مع ثقة واطمئنان.

* يقول سيد: " والتعبير عن عدم التصديق والثقة والائتمان والاطمئنان بقوله تعالى: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴿٩٤﴾} [سورة التوبة: ٩٤] ذو دلالة خاصة، **فالإيمان تصديق وثقة وائتمان واطمئنان**، تصديق بالقول، وائتمان بالعقل، واطمئنان بالقلب وثقة من المؤمن بربه، وثقة متبادلة بينه وبين المؤمنين معه، وللتعبير القرآني دائماً دلالته وإيحاؤه " (٢).

---

(١) بسط القول في هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيميه في عدة مواضع منها مجموع الفتاوى ١٢٢/٧، والإيمان ، المكتب الإسلامي - بيروت - ط٣-١٤٠٨هـ ، ص ٢٧٦ ، وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ، ص ١٦٩٥ .

* ويقول أيضاً: " وفعل الإيمان حين يعدى باللام يعني الاطمئنان والثقة " (١)

* ويقول أيضاً: فقوله تعالى: { فَإِنْ حَآجُّوكَ} في التوحيد وفي الدين {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ} [سورة آل عمران: ٢٠]، والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا، فليس هو مجرد التصديق إنما هو الإتباع " (٢).

ويقول أيضاً: " فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور" (٣).

ثانياً: الإيمان في الشرع

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافاً كثيراً:

١ - جمهور أهل السنة والجماعة على أن الإيمان: " تصديق بالجنان، وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والأركان "

---

(١) المصدر السابق ، ٤١٥/١ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣٨٠/١.

(٣) المصدر السابق ، ٣٣٤٩/٦ .

[1] مع اختلاف عباراتهم في ذلك، كقول بعضهم " الإيمان قول وعمل " ويقصدون: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح [2].

٢ – المرجئة تقول: الإيمان هو تصديق بالجنان وقول

---

(١) وهذا القول مروي عن : ابن مسعود وحذيفة وعمر وعلى ومعاذ وابن عباس وأبي الدر داء من الصحابة ، والحسن وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ومجاهد من التابعين ، وعبد العزيز بن أبي سلمة والليث والأوزاعي والثوري ، وابن عيينة و الفضيل بن عياض من الفقهاء ، وهو قول الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد .

انظر : ١- شرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي دار طيبة – الرياض ، ط٦ عام ١٤٢٠ هـ ٩١١/٤

٢- التمهيد لابن عبد البر ، ٢٣٨/٩ .

٣- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، ص ٢٩٣ .

٤- شرح السنة للبغوي ، ٣٩/١ .

٥- مجموع فتاوى ابن تيميه ، ٣٠٩/٧ .

٦- فتح الباري لابن حجر ، دار الفكر – بيروت طبعة عام ١٤١١ ، ٤٧/١ .

٧- الإيمان لابن منده ، ٣٦٢/١ .

٨- الفصل لابن حزم ، ١٨٨/٣ .

٩- الشريعة للآجري ، ص ١١٨ .

١٠- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٤٥٩ .

(٢) انظر : الشريعة للآجري ، ص ١١٩ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للألكائي ، ٩١١/٤ ،

باللسان، وهذا مشهور عن بعض الفقهاء[1]، فالأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان.

٣ – بعض الماتريدية والأشاعرة يقولون: الإيمان هو: التصديق القلبي، وأما الإقرار باللسان فركن زائد [2].

٤ – الكرامية تقول: الإيمان هو الإقرار باللسان فقط [3].

٥– الجهمية تقول: الإيمان هو المعرفة بالقلب [4].

٦ – الخوارج والمعتزلة يقولون: الإيمان فعل الطاعات المفترضة كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح، فهم يوافقون أهل السنة والجماعة في التعريف فقط، ويخالفونهم في جعلهم الإيمان شيئاً واحداً إذا ذهب بعضه ذهب كله [5].

---

(١) انظر : أصول الدين للبغدادي ، ٢٤٨، والمواقف في علم الكلام للإيجي ص ٣٨٤ ، والإرشاد للجويني ص ٣٣٣ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٥٩ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) انظر : السنة للخلال ، ص ٢٦٥ ، ومقالات الإسلاميين للأشعري ، ص ١٤١ ، والشريعة للآجري ، ص ١٣١ ، والفرق بين الفرق ، للبغدادي ، ص ٢٢٣ ، ومجموع الفتاوى لابن تيميه ،٥٠٩/٧ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٠.

(٤) المصادر السابقة نفسها.

(٥) انظر : الإيمان لابن منده ، ٣٣١/١ ، والإرشاد للجو يني ، ص ٣٣٣ ، وفتاوى ابن تيميه ، ٥١٠/٧ ، والمواقف للإيجي ، ص ٣٨٥،

والـراجح مـن الأقـوال السـابقة هـو قـول أهـل السـنة والجماعـة مـن أن الإيمـان اعتقـادٌ وقـولٌ وعمـلٌ، للأدلـة الثابتـة مـن الكتـاب والسـنة والإجمـاع [١] والتـي تـدل علـى دخـول الأعمال في مسمى الإيمان.

---

(١) تنظر الأدلة في : الإيمان لأبي عبيد ، ص ١١ و شرح أصول الاعتقاد للألكائي ، ٤/٩١١ .

المطلب الثاني

حقيقة الإيمان وعلاقته بالعمل عند سيد قطب

أولاً: يقرر سيد قطب – رحمه الله – أن " مدلول الإيمان – في القرآن – واضح وجازم لا تميع فيه، ولا تفصيص [1]، ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد..

ويرى أن السبب في هذا الخلاف هو: وجود الفرق والمذاهب والتأويلات ودخول الناس في الجدل والفروق المنطقية الذهنية، وكذا بسبب الفرق المذهبية والسياسية ودخول الناس في الاتهامات ودفع الاتهامات، حيث صار النبز بالكفر، ودفع هذا النبز لا يقومان على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين، إنما يقومان على الغرض والهوى ومكايدة المنافسين والمخالفين! عندئذٍ وجد من ينبز مخالفيه بالكفر لأمور فرعية، ووجد من يدفع هذا الاتهام بالتشدد في التحرج والتغليظ على من ينبز غيره بهذه التهمة، وهذا وذلك غلوٌ سببه تلك الملابسات التاريخية، أما دين الله فواضح جازم لا تميع فيه ولا تفصيص ولا غلو " ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه

---

(١) من معاني التفصيص : الالتواء ، انظر : لسان العرب ٢٧٢/١٠ .

العمل "[1] وكل ما وراء ذلك فهو من صنع تلك الخلافات والتأويلات [2].

ثانياً: يوافق سيد قطب – جمهور أهل السنة والجماعة – في تعريف الإيمان وعلاقته بالعمل، حيث يرى أن الإيمان الحق مركب من الاعتقاد والقول والعمل، وقد أكد على هذا في مواضع متعددة من الظلال وغيره ويمكن عرض بعض أقواله فيما يأتي:

١- يقرر – سيد– في أكثر من موضع أن " الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " [3]، ففي ظلال قوله تعالى: {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١} [سورة الأنفال: ١] يقول: " فلابد للإيمان من صورة عملية واقعية، يتجلى فيها، ليثبت وجوده ويترجم عن حقيقته، وكما قال رسول الله ﷺ: " ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي ولكن

---

(١) الأثر رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣ / ٥٠٤ ، وغيره عن الحسن البصري ، وهو صحيح الإسناد . انظر أقوال التابعين في مسائل الإيمان والتوحيد . عبد العزيز المبدل . دار التوحيد – الرياض . ط١ عام ١٤٢٤ هـ /٣/ ١١٢٤ ، ١١٥٢ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٥٢٠ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ، ١/ ٣٤٣ ، ١٤٧٤/٣ ، ١٥٢٠ .

هو ما وقر في القلب وصدقه العمل " [١]، ومن ثم يرد مثل هذا التعقيب كثيراً في القرآن لتقرير هذا المعنى، الذي يقرره قول رسول الله ﷺ ولتعريف الإيمان وتحديده، وإخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان أو تمنياً لا واقعية له في عالم العمل والواقع" [٢].

٢- يقول: " والإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول.. يقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه " زاد المعاد في هدي خير العباد ": " ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة في شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمرٌ وراء ذلك، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً) [٣].

---

(١) لا يصح رفع الحديث إلى الرسول ﷺ وإنما هو من قول الحسن البصري كما سبق في الصفحة السابقة ، انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ، مكتبة المعارف – الرياض ، ط٥ ، ١٤٠٨ هـ ٢١٧/٣ برقم ١٠٩٨ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١٤٧٤/٣ .

(٣) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٧ .

٣- ويقول أيضاً: " والدين الذي يقبله الله من الناس ليس هو مجرد تصور في العقل، ولا مجرد تصديق في القلب - إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور - بتحكيم منهج الله في أمر العباد كله "، " وليس مجرد الاعتقاد بالقلب ولا الشهادة باللسان "، " فليس اعتقاداً أو شعوراً فحسب ولكن كذلك عملاً وطاعة وإتباعاً للمنهج العملي المتمثل في أحكام الكتاب.. " (١).

٤- ويقول أيضاً " والتوحيد ليس هو مجرد التصديق، إنما هو الإتباع،.. والتعبير بقوله تعالى: ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚﮛ} [سورة آل عمران: ٢٠]، ذو مغزى، فليس هو مجرد النطق باللسان، أو الاعتقاد بالجنان إنما هو كذلك الاستسلام، استسلام الطاعة والإتباع " (٢).

٥- يقول أيضاً: " وقد كانت العصبة المسلمة الأولى تعلم أن للإيمان حقيقة لا بد أن يجدها الإنسان في نفسه، وأنه ليس الإيمان دعوى، ولا كلمات لسان، ولا هو بالتمني، فقد

---

(١) المصدر السابق ، ١/٣٧٧- ٣٧٨ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ، ١/٣٨٠- ٣٨١ .

روى: " أن الحارث بن مالك الأنصاري [١] مرَّ برسول الله ﷺ، فقال له: " كيف أصبحت يا حارث؟ " قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: " انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ " قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: " يا حارث عرفت فألزم " ثلاثاً [٢]. فالإيمان مشاعر وراءها عمل وحركة، وليس كلمة تقال باللسان ومن ورائها واقع يشهد بعكس ما يقوله اللسان " [٣].

٦- ويقول أيضاً: " والإيمان الحق هو المستكن في الضمير، وإلى جواره العمل الظاهر في الحياة، فهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه " [٤].

---

(١) هو: هو الحارث بن مالك الأنصاري صحابي ، انظر ترجمته في : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، دار الفكر – بيروت ، طبعة عام ١٩٩٣ م ، ٤٧٠/١ .

(٢) رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان ١٦/٢٢ وسنده ضعيف . انظر : موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ، مجموع مؤلفين ، مكتبة المعارف – الرياض ،ط١ عام ١٤١٩ هـ ٣٦/٦

(٣) في ظلال القرآن ، ١٤٧٨/٣ بتصرف.

(٤) في ظلال القرآن ، ٣٢٨١/٦ بتصرف يسير .

٧- ويقول أيضاً: " فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح.. وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الإيمان" (١)، "ومن المبادئ الكلية في الإسلام أنه لا قيمة لقولٍ بلا عمل فالعمل هو المعتبر، أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة وهي مناط الحكم والتقدير"(٢).

٨- وعند تفسير آية الربا يقول: " والنص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا، فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد وإتباع لما أمر الله به، والنص القرآني لا يدعهم في شبهة من الأمر، ولا يدع إنساناً يتستر وراء كلمة الإيمان، بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله، ولا ينفذه في حياته، ولا يُحكِّمه في معاملاته، فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين مهما ادعوا الإيمان، وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون " (٣).

٩- ويقول أيضاً: " إن هذا الدين يعلن عن طبيعته

---

(١) المصدر السابق ، ٨٦/١ ، ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ٩١/١ .

(٣) المصدر السابق ، ٣٣٠/١ .

وعن حقيقته في كل مناسبة، إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير، كما أنه ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس، إنما هو الإتباع الكامل لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وفيما يشرعه ويَسُنه وفي قوله تعالى_{وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾} [سورة الأعراف: ١٥٨] بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله، لفتةٌ عظيمةٌ وهي: لو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى لكان في قوله {فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ} [سورة الأعراف: ١٥٨] الكفاية (١).

١٠- في ظلال قوله تعالى يقول: " وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة ومشاعر قلبية باطنة، ذلك أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان، التي لا بد من ظهورها للعيان لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان" (٢).

١٢- ويقول أيضاً: " ذلك أن المنهج الإسلامي

---

(١) المصدر السابق ، ١٣٨٠/٣ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٧٧ وما قبلها .

منهج عقيدة وعمل يصدق العقيدة، فمحك الصدق هو العمل الظاهر، يراه الله ورسوله والمؤمنون. " (١).

١٣- في ظلال قوله تعالى: { إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾} [سورة الإسراء: ٩] يقول: " وهذه قاعدته- أي القرآن -الأصيلة في العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لا ركيزة له، وبهما معاً تسير الحياة على التي هي أقوم، وبهما معاً تتحقق الهداية بهذا القرآن" (٢).

١٤- في ظلال قوله تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾} [سورة الأنبياء: ٩٤] يقول " هذا هو قانون العمل والجزاء، لا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته، ولا بد

---

(١) المصدر السابق ، ١٧٠٨/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٢١٥/٤ .

من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته، بل لتثبت للإيمان حقيقته "(١).

" إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلوها في الخارج، ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع... فالمؤمنون تصدق أفعالُهم أقوالَهم.. والإيمان تكيف في النفس وانطباع في القلب، وعمل في الواقع... " (٢).

١٥- ويقول " والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح، هذا هو الإيمان الإسلامي، لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن فإن لم يتحرك

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢٣٩٧/٤ ، وكذا ٢٤٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ٤/ ٢٥٢٥ بتصرف يسير وينظر أيضاً ، ٢٥٢٨/٤ ، ٢٧٨٥/٥ ، ٣٢٦/٦ ، ٣٩٨٤ .

هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلا فهو غير موجود! ومن هنا قيمة الإيمان، إنه حركة وعمل وبناء وتعمير يتجه إلى الله، إنه ليس انكماشاً وسلبية، وانزواء في مكنونات الضمير، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة "[1].

هذه النقولات وغيرها كثير تدل على أن سيد – رحمه الله– يقرر معتقد أهل السنة والجماعة في حقيقة الإيمان وعلاقته بالعمل، ويخالف ما عليه تيار الإرجاء الذي جعل الإيمان قولاً باللسان ورسماً بالخيال تكذبه الأعمال، فالإيمان الصحيح يقتضي العمل وهذا ما قرره الأئمة المحققون ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف.

---

(١) المصدر السابق ، ٣٩٦٧/٦ .

المبحث الثاني

ثمرات الإيمان والتوحيد وآثاره في الحياة

" الإيمان هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو مقطوع من شجرته، صائر إلى ذِبولٍ وجفافٍ، وإلا فهي ثمرة شيطانية ليس لها امتداد أو دوام، وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة، وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء، ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات، وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون وتتسلك في طريق واحد وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم" (١).

بهذه الكلمات التي سطرها سيد – رحمه الله – عن أثر الإيمان – أبدأ هذا المبحث، والذي أعرض فيه كلامه – رحمه الله – عن ثمرات الإيمان والتوحيد وآثاره في حياة البشرية في مختلف جوانبها، ونظراً لكثيرة النصوص في هذا الباب فسأحاول اختصار وجمع كلامه على هيئة نقاط ومنها:

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٦٦ .

١- الإيمـان هـو الصـلة الكبـرى بـين العبـد وربـه سبحانه:

يقول سيد: " وهذه الحقيقة الكبيرة تؤكدها نصوص القرآن دائماً، وهي من تفضل الكريم–سبحانه– على عباده المؤمنين، حيث يجعل صفهم صفه، وأمرهم أمره، وشأنهم شأنه، يضمهم– سبحانه– إليه، ويأخذهم في كنفه، ويجعل عدوهم عدوه، وما يوجه إليهم من مكر موجهاً إليه – سبحانه – وهذا هو التفضل العلوي الكريم، الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق، والذي يوحي بأن حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق، والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها، وهو يرى الله – جل شأنه – يجعل قضيته هي قضيته، ومعركته هي معركته، وعدوه هو عدوه، ويأخذه في صفه، ويرفعه إلى جواره الكريم، فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير! " (١).

٢- الإيمان يمنح القلب الطمأنينة والسلام والمشاعر النظيفة والاهتمامات الرفيعة:

يقول سيد: " فالإيمان هو المرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه.. فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان، وما

---

(١) المصدر السابق ، ٤٣/١ .

تمنحه للإدراك البشري من تصور ناصع واضح، وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام، وما تثيره في النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة، وما تحققه في المجتمع الإنساني من نظام سليم قويم دافع إلى تنمية الحياة وترقيتها، ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلا سفيه.. " (١).

" فالقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة، قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده، قيمة الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة،ويدرك أن الله منحه بالإيمان كل هذا الزاد.. ومن ثم يشفق من العود إلى الضلال.. وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة،وفي **طمأنينة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال!**" (٢).

"وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية والثقة

---

(١) في ظلال القرآن ، /٣٩٢ ، بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٣٧٠ –٣٧١ .

بالطريق، وعدم الحيرة، أوالتردد، أوالخوف أواليأس" [١].

٣-الإيمان نور يضيء للعبد دروب الحياة:

يقول سيد: " إن الإيمان نور، نور واحد في طبيعته وحقيقته، وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور، إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره، تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاَ، نور يكشف حقائق الأشياء، وحقائق القيم وحقائق التصورات، فيراها المؤمن واضحة بغير غبش، بيِّنة بغير لبس مستقرة في مواضعها بغير أرجحة، فيأخذ منها ما يأخذ ويدع ما منها ما يدع في هوادة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه، نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني فيطابق المؤمن بين حركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله، ويمضي في طريقه إلى الله هيناً ليناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات، ولا يخبط هنا وهناك، فالطريق في فطرته مكشوف معروف، وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد، فأما ضلال الكفر فظلمات شتى منوعة " [٢].

" والإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا

---

(١) المصدر السابق ، ٣١٦١/٥ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٩٣٠/١ .

الكيان البشري المركب من الطينة الغليظة ومن نفحة روح الله، فإذا ما خلا من إشراق هذه النفحة استحال طينة معتمة طينة من لحم ودم كالبهيمة.. والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق.. ترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار .

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة، فإذا الناس كلهم عباد متساوون، تربط بينهم آصرتهم في الله.. الإيمان بالله نور، نور العدل، ونور الحرية، ونور المعرفة، ونور الأُنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء، ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور في إدراك الحكمة من البلاء " (١).

" إن الإيمان نور، نور في القلب، ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسبٍ وأبعاد، فالمؤمن ينظر بهذا النور، نور الله فيرى تلك الحقائق ويتعامل معها، ولا يخبط في طريقه.

والإيمان بصر، يرى، يرى حقيقة صادقة غير مهزوزة

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢٠٨٥/٤ .

ولا مخلخلة، ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة واطمئنان.

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل!

والإيمان حياة، حياة في القلوب والمشاعر، حياة في القصد والاتجاه، كما أنه حركة بانية مثمرة قاصدة، لا خمود فيها ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع "(١).

" والإيمان تفتح ورؤية، وإدراك واستقامة، فهو نور بكل مقومات النور.. ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فتتكشف له حقائق هذا الدين، ومنهجه في العمل والحركة، تكشفاً عجيباً، يجد الإنسان به التناسق الشامل في طبيعة هذا الدين وحقائقه، والتكامل الجميل في منهجه وطريقته،.. يجد الإنسان في قلبه هذا النور فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وفي عالم الناس.. يجد الوضوح في كل شأنٍ وفي كل أمرٍ وحدث، يجد الوضوح في نفسه وفيما حوله، يجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه، يجد الراحة في باله وحاله ومآله، يجد الرفق واليسر في أموره.. " (٢).

---

(١) المصدر السابق ، ٢٩٣٩/٥ .

(٢) المصدر السابق، ١٢٠٠/٣- ١٢٠١ بتصرف .

٤-الإيمان نقطة تحول في حياة البشر:

يقول سيد: " إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات، إلى عبودية واحدة تتحرر بها النفس من كل عبودية، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد، ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار، وهو نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه، فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد، لا تعرف لها قصداً مستقيماً ولا غاية مطردة، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد ومساواة، كما يتجمع الوجود كله واضح النسب والارتباطات، والأهداف والعلاقات " (١).

٥-الإيمان هو سبب الثبات والاستعلاء والنصر:

يقول سيد: " لا بد من الإيمان ليملك الدعاة إلى الخير الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق، ويحتملوا تكاليفه وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها

(١) المصدر السابق ١/١٥٩ .

وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع، وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هي الإيمان، وسندهم هو الله، وكل زاد سوى الإيمان ينفذ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفَلّ، وكل سند غير سند الله ينهار! " (١).

ويظهر أثر الإيمان في الثبات والاستعلاء في نماذج كثيرة ذكرها القران الكريم، منها: قصة نوح عليه السلام عندما قال لقومه: {فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾} [سورة يونس: ٧١] حيث يظهر التحدي الصريح المثير الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئٌ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليُغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فماذا كان وراء نوحٍ –عليه السلام – من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً؟

كان معه الإيمان، القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير، وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان!.

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/٤٤٨ .

بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه، فليس هذا التحدي غروراً، وليس كذلك تهوراُ، وليس انتحاراً، إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوة الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان.

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله، وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض، وإن لهم أن يتوكلوا على الله حده في وجه الطاغوت أياً كان! " (١).

ومن النماذج التي يظهر فيها الاستعلاء بالإيمان: قصة سحرة فرعون وإجابتهم على تهديده لهم بالقتل والصلب والقطع، يقول سيد – رحمه الله – معلقاً على ذلك " ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض – ماذا ستدفع؟، ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق. إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع أو يخنع، الإيمان

---

(١) في ظلال القرآن ، ١٨١١/٣ .

الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره، ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان" (١).

كما يظهر أثر الإيمان الحقيقي في النصر " فمتى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين، وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة، ونظاماً للحكم، وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها.

وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان، إما في الشعور، وإما في العمل،.. وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين حين يعودون!.. وقد يكون الابتلاء لتُستكمل حقيقة الإيمان.. وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان، ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك.. غير أنه يجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان، ومظهر الإيمان، إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية

(١) في ظلال القرآن ١٣٥١/٣ ، وينظر أيضاً ، ٢٦٦/١ ، ٢٣٤٣/٤ ، ٢٥٩٧/٥ ، ٣٠٣٦ ، ٣٨٧٤/٦ .

ثابتة ثبوت النواميس الكونية، ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل، وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحددة أن تقهرها، ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر، فإن حقيقة الكفر تغلبه.. لأن "حقيقة" أي شيء أقوى من " مظهر " أي شيء " (١).

٦-الإيمان يفتح العقل ويذهب بلادة الأُلفة والغفلة:

يقول سيد: " فالقلب الذي ينوره الإيمان يستقبل مشاهد الكون بحسٍ متجددٍ، وتفتحٍ وحساسيةٍ، يقدر الجمل والتناسق والكمال، فالإيمان رؤية جديدة للكون، وإدراك جديد للجمال" (٢).

٧-الإيمان سبب لوحدة الكينونة الإنسانية وتناسقها مع الكون:

إن الإيمان والتوحيد الحق له أثر شامل في كيان الإنسان، يقول سيد: " يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد، تتلقى منه التصورات والمفاهيم والقيم والموازين والشرائع والقوانين، وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها، وهي تواجه الكون والحياة والإنسان، بكل ما يثيره كل منها من

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٤ .

(٢) المصدر السابق ١/١٥٢ بتصرف .

علامات الاستفهام، عندئذٍ تتجمع هذه الكينونة شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة في شأن العقيدة والمنهج، وشأن الاستمداد والتلقي، وشأن السعي والحركة، وشأن الدنيا والآخرة فلا تتفرق مزقاً، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق، وعندما تتجمع على هذا النحو تصبح في خير حالاتها " (١).

" وعن طريق الإيمان ينشأ إدراك حقيقة هذا الوجود،... وبه يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون، وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه، ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير، ولا ينحرف عن النواميس الكلية، فيسعد بهذا التناسق، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وإسلام " (٢).

٨-**تصحيح موازين القيم والعلاقات والوجود:**

يقول سيد: " إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة،.. ومن

---

(١) المصدر السابق ٤/١٩٣٨ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣١٦١ ، وينظر أيضاً الصفحات ٣٠٣٦ ، ٣٣٤٦ ، ٣٤٩٢ ، ومقومات التصور ص ٢٩٢ ، وخصائص التصور ص ٩٥ وما بعدها .

ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعلياً على واقع الأرض الصغير مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال، يتعامل مع القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتز لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة، وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها " (١).

فالإيمان ضروري في الحياة " ليضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر، فاصطلاح الناس لا يكفي، بل قد يعم بسببه الفساد وتضطرب الموازين... والإيمان هو الذي يقيم التصور الصحيح للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون، ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية في الحياة " (٢).

٩- الإيمان هو الذي يجعل للعمل وزناً عند الله:

يقول سيد: " فكل ما يعمل في الدنيا من الأعمال الصالحة إذا لم تقم على الإيمان فإنها هباء، فالإيمان هو الذي يجعل العمل الصالح منهجاً مرسوماً، وأصلاً قاصداً، لا خبط

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٩٢/٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٤٤٧/١ بتصرف يسير .

عشواء، ولا نزوة طارئة، ولا حركة مبتورة.. فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم، لأن الإيمان يصل الإنسان بربه فيجعل لعمله قيمة ووزناً، ويجعل له مكانه في حساب هذا الكون وبنائه، ولهذا تعدم أعمال المشركين قيمتها"(١).

" فالإيمان هو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون وتتسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم، ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج، والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة، فهي تهدر قيمة العمل ما لم يستند إلى الإيمان (٢).

وفي ظلال قوله تعالى { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾} [سورة النساء: ١٢٤] يقول سيد: " وهو نص صريح في اشتراط الإيمان لقبول العمل وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا

---

(١) المصدر السابق ٢٥٥٩/٥ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٦٦/٦ وما بعدها بتصرف .

يصدر عن الإيمان، ولا يصاحبه الإيمان، وذلك طبيعي ومنطقي لأن الإيمان بالله هو الذي يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم كما يجعله حركة طبيعية مطردة، لا استجابة لهوى شخصي، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة.

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده – رحمه الله – في تفسيره لجزء " عم " عند قوله تعالى {فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧} [سورة الزلزلة: ٧] إذ رأى أن النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم، بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفي هذا تماماً" (١).

<u>١٠- الإيمان يمنح الإنسان سعة التصور ومعنى الحياة ويقضي على الحيرة والقلق والشقاء:</u>

يقول سيد: " إن هناك حقيقة ضخمة يغفل عنها الكثيرون، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين وهي أن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عبدٍ من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد، وما

---

(١) في ظلال القرآن ٢٥٥٩/٥ .

يتعلق به من الآلاء.

فأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين تستقر حقيقته في قلبه، هو سعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطاته هو به، ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي، حتى يلقى الله، وأنسه بكل ما في الوجود حوله، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يُرضي عنه الله، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه.

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان.. إلى محيط الوجود كله فيشعر بكرامته ورفعته في الوجود،.. ويشعر أنه فرع من شجرة طيبة باسقة عميقة الجذور، وهذا الشعور يكفي ليجد للحياة طعماً آخر " (١).

---

(١) المصدر السابق ، ٦/ ٣٣٥١ .

المبحث الثالث

زيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالإسلام

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الثاني: العلاقة بين الإيمان والإسلام والإحسان.

المطلب الأول

زيادة الإيمان ونقصانه

قضية زيادة الإيمان ونقصانه مرتبطة بقضية علاقة العمل بالإيمان، فأهل السنة والجماعة الذين يرون دخول الأعمال في مسمى الإيمان يرون بالتالي أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، ويستدلون على هذا بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين، وكذا الاعتبار والنظر والواقع [(١)]، فإن العاصي لا يعصي إلا بعد ضعف وازع الدين في قلبه، والمتقي لله يتقيه ويؤمن به لقوة الوازع في قلبه، وهذا معنى زيادة الإيمان ونقصانه.

بينما يرى المخالفون لأهل السنة أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، بناءً على أن الإيمان عندهم هو التصديق، وأن الأعمال خارجة عن مسمى الإيمان، والتصديق شيء واحد لا يمكن أن يدخله زيادة، وأما إذا نقص فيكون شكاً وكفراً لأنه

---

(١) ينظر في ذلك : الشريعة للآجري ص ١١١ وما بعدها ، والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد ٣١٤/١ ، والإيمان لابي عبيد القاسم بن سلام ص ٧٢ ، والإيمان لابن أبي شيبه ص ٣٥ ، وكتاب الإيمان من صحيح البخاري ، ١١/١ والإيمان لابن تيمية ص١٤وما بعدها . وشرح أصول الاعتقاد للألكائي ٩٥٥/٥ وما بعده وفتح الباري ٦٧/١ وما بعده .

شيء واحد إذا ذهب بعضه ذهب كله.

وهؤلاء عندهم شبهات عقلية عارضوا بها النصوص الشرعية، ناقشها ورد عليها كثير من علماء أهل السنة قديماً وحديثاً [(١)].

وقبل ذكر موقف سيد قطب – رحمه الله – من زيادة الإيمان ونقصانه يحسن التنبيه إلى أن كل دليل على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصانه باللزوم، وذلك لأن الزيادة تستلزم النقص، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص، وهذا ما عليه أئمة العلم.

قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – [(٢)]: " إن كان قبل زيادته – أي الإيمان – تاماً، فكما يزيد كذا ينقص " [(٣)].

---

(١) ينظر في الرد عليهم : كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وشرح صحيح مسلم للنووي ١/١٤٨-١٤٩ ، والمنهاج في شعب الإيمان للحسن بن الحسين الحليمي ١/٥٥ ، ٦٢ ، والتمهيد لابن عبد البر ٩/٢٤٤ وما بعدها .

(٢) هو : الأمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني ، أبو عبد الله . الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً ، قال قتيبة أحمد إمامنا ومن لم يرضى فهو مبتدع ، ولد في بغداد سنة ١٦٤ هـ ، وطلب العلم على أكثر من ٢٨٠ شيخا، ثبت في فتنة خلق القرآن وحفظ الله به السنة ، توفي سنة ٢٤١ هـ . انظر : سير الأعلام ١١/١٧٧ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ عام ١٤٨ هـ ، ٩/١٧٣

(٣) رواه الخلال في السنة ٢/٦٨٨ .

وأورد البخاري [١] –رحمه الله – في صحيحه بعض الآيات التي تدل على زيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصانه مستدلاً بها على الزيادة والنقصان معاً.

وقال الحافظ بن حجر: " ثم شرع المصنف– أي البخاري– يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة، وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة " [٢].

موقف سيد قطب – رحمه الله – من زيادة الإيمان ونقصانه

يُتَهم سيد قطب بأنه يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ويُعتَمد في ذلك على كلامه في موضعين:

الموضع الأول: قوله: " إن الإيمان وحدة لا تتجزأ "

---

(١) هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم البخاري ، أبو عبد الله ، حبر الإسلام الحافظ الكبير ، ولد في بخار عام ١٩٤ هـ ،حفظ تصانيف بن المبارك وهو صبي ، نشأ يتيماً ، أكثر من الرحلة وطلب العلم وسمع من أكثر من ألف شيخ ، قال عن نفسه :أحفظ مائة ألف صحيح حديث ومأتي ألف حديث ضعيف . توفي سنة ٢٥٦هـ انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ١٥٥/٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤٧/٩ .

(٢) فتح الباري ٦٢/١ .

(١). حيث يقول الشيخ الدويّش: " الموضع السابع والعشرون: قال – أي سيد قطب – ٧٩٨/٢ على آية النساء " إن الذين يكفرون بالله ورسله.. " الآيات، إن الإيمان وحدة لا تتجزأ. أقول – أي الدويش –: هذا خلاف قول أهل السنة والجماعة لأن عندهم أن الإيمان ذو شعب كما في الحديث المتفق عليه " الإيمان بضع وسبعون شعبة" (٢)، والناس متفاضلون فيه، وأما من يقول: إن الإيمان شيء واحد فهم أهل البدع.. ثم ذكر نقولات عن بعض أهل العلم في ذلك "(٣).

وعند رجوعي إلى الظلال، وجدت الشيخ– رحمه الله– اجتزأ من كلام سيد قوله: " إن الإيمان وحدة لا تتجزأ " واستدل بها على أن سيد يقول بأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، ورحم الله الشيخ الدويّش لو أنه ذكر كلام سيد في سياقه كاملاً لتبين له وللقارئ أن مقصد سيد من اللفظ غير ما ذكره، فسيد تحدث في ظلال قوله تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ

(١) في ظلال القرآن ٧٩٨/٢ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان ١٣/١ برقم ٩ ،ومسلم في الإيمان باب عدد شعب الإيمان ٦٥/١-٦٦ برقم ٣٥

(٣) المورد العذب الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ، للشيخ / عبد الله بن محمد الدويش ، دار العليان ، بريده ، ط١ ، عام ١٤١١هـ ص٤٦

وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾} [سورة النساء: ١٥٠-١٥٢].

بقوله: " كان اليهود يدَّعون الإيمان بأنبيائهم وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد - عليهما السلام - كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى -عليه السلام - فضلاً عن تأليهه، وينكرون رسالة محمد ﷺ، وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسله، بدون تفريق بين الله ورسله، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً، فالتوحيد المطلق لله يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة،.. لذلك عبر السياق هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله، - بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل - وعمن يردون التفرقة بين الرسل - بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم - عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم - الذين يكفرون بالله

ورسله – وعد التفرقة بين الله ورسله، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض كفراً بالله وبرسله، إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته– سبحانه– ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس.. وتقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده – لا من عند أنفسهم ولا في معزل عن إرادته ووحيه – وحدة الموقف تجاههم جميعاً، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.. أما المسلمون فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً بلا تفرقة، فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام، وكل الديانات السماوية عندهم حق – ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذٍ من دين الله " (١).

ومن السياق يتبين أن سيد قطب – رحمه الله – لم يكن يقصد ما أشار إليه الشيخ الدويش من أن الإيمان لا يزيد ولا ينقض وإنما السياق يتحدث عن الوحدة والترابط بين الإيمان بالله والإيمان برسله دون تفريق بين الله ورسله أو بين الرسل بعضهم ببعض، فالإيمان بهذا المفهوم وحدة لا تتجزأ– كما قال سيد – وهو أمر حق لا يجادل فيه أحد، وحتى العبارة نفسها

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٩٨ .

بدون السياق لا تفيد مانسب إلى سيد.

الموضع الثاني: " قول سيد– رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢} [سورة الأنفال: ٢]: والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الاطمئنان، إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينهم وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان ". يقول في الهامش معلقاً: " هنا تعرض قضية " الإيمان يزيد وينقص " وهي قضية من قضايا الفرق، وقضايا علم الكلام في فترة الترف العقلي والفراغ من الاهتمامات العملية الجادة، فلا ندخل نحن الآن فيها!!! (١).

حيث أورد بعضهم كلام سيد الذي ذكره في الهامش ليستدل به على أن سيد قطب ينكر زيادة الإيمان ونقصانه (٢).

فهل كلام سيد قطب يدل على ذلك؟

الجواب: إن المنصف الذي يقرأ النص السابق يجد:

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٧٥ .

(٢) موقع سحاب على شبكة الانترنت .

أولاً: أن قول سيد بأن قضية الحديث عن زيادة الإيمان ونقصانه والاختلاف الذي حصل فيها إنما هو نتيجة للترف العقلي والجدل الكلامي الفارغ، هو حق، فالأصل أن لا يحصل خلاف في هذه القضية طالما نصوص الشرع تصرح بوضوح وجلاء بأن الإيمان يزيد وينقص، وطالما وفهم الصحابة – رضوان الله عليهم – لتلك النصوص وعباراتهم الصريحة تدل على هذه الحقيقة، فإن الاختلاف فيها إنما وقع بسبب المهاترات الكلامية بين الفرق التي انصرفت عن النصوص الشرعية وخاضت في قضايا مُسلَّمة، وبالتالي فعدم الدخول فيها الآن هو الأصوب والأسلم، وهذا ما أراده سيد من كلامه في الهامش بدليل أن سياق النص نفسه يدل على أن سيد يرى بأن الإيمان يزيد وينقص فهو يصرح في بداية النص " بأن المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً وما ينهي به إلى الاطمئنان " ويؤكد ذلك بقوله ".. ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان " ويضيف بعد ذلك قوله " وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيماناً، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً، لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾} [سورة العنكبوت: ٢٤]، ومن ذلك

قول أحد الصحابة – رضوان الله عليهم – كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن، ثم ذكر تذوق الصحابة للقرآن وتفاعلهم معه وضرورة قيام العصبة المؤمنة التي تتحرك بهذا القرآن فقال " وهذه العصبة المؤمنة التي تتحرك بهذا القرآن لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الناس هي التي تتذوق هذا القرآن، وتجد في تلاوته ما يزيد قلوبها إيماناً لأنها ابتداء مؤمنة وليس الإيمان عندها بالتمني، لكن ما وقر في القلب وصدقه العمل "[1].

ثانيا: أن سيد –رحمه الله– بالإضافة إلى تصريحه في النص السابق بزيادة الإيمان قد صرح في مواضع كثيرة بأن الإيمان يزيد – وبالتالي ما دام قابلاً للزيادة فهو قابل للنقصان أيضاً– ومن ذلك:

١– في ظلال قوله تعالى: {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾} [سورة التوبة: ١٢٤]، يقول: " فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً، وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً، وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال آياته عليهم فزادتهم إيماناً، وأما الذين في قلوبهم مرض ورجس من النفاق فزادتهم رجساً إلى رجسهم..

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٧٥– ١٤٧٦ بتصرف يسير .

وهو نبأ من الله صادق " (1).

٢- في ظلال قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾} [سورة آل عمران: ١٧٣]، يقول: " وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في تلك النفوس الكبيرة التي لا تعرف إلا الله وكيلاً، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيماناً به في ساعة الشدة " (2).

٣- في ظلال قوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾} [سورة الفتح: ٤].

يقول: " ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ولا لجاهلية فيهم، فقد تفضل عليهم بهذه السكينة ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم " (3).

٤- ويقول: " وما يبقى قلب على صفاء الإيمان

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٤٢/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٥٠/١.

(٣) في ظلال القرآن ٣٣١٧/٦ .

ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها، وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره " (١).

ثالثاً: أن سيد – رحمه الله – يقرر تفاوت درجات ومقامات الإيمان عند البشر ومن ذلك:

١ – عند تعليقه على قصة العسرة يقول: " ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت " العسرة "، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية، من اليقين الجاد عند طائفة، إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة، إلى القعود والتخلف – بغير ريبة – عند طائفة، إلى النفاق الناعم عند طائفة، إلى النفاق الفاجر عند طائفة، إلى النفاق المتآمر عند طائفة.. " (٢).

٢– في ظلال قوله تعالى: {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥}

---

(١) المصدر السابق ٣١٦٤/٦ .

(٢) المصدر السابق ١٧٢٧/٣ .

[سورة البقرة: ٢٨٥]. يشير إلى تفاوت مقامات الإيمان فيقول: " وإيمان الرسول بما أنزل إليه من ربه هو إيمان التلقي المباشر، تلقي قلبه النقي للوحي العلي.. وهي درجة من الإيمان لا مجال لوصفها، فلا يصفها إلا من ذاقها، ولا يدركها من الوصف – على حقيقتها – إلا من ذاقها كذلك، فهذا الإيمان إيمان الرسول ﷺ هو الذي يكرم الله عباده المؤمنين فيجمعهم في الوصف مع الرسول الكريم على فارق ما بين مذاقه في كيان الرسول ﷺ بطبيعة الحال، وكيان أيٍّ سواه ممن لم يتلقَ الحقيقة المباشرة من مولاه " (١).

والخلاصة أن سيد قطب يرى أن الإيمان يزيد و ينقص، ونسبة القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه إليه غير صحيحة لما سبق بيانه (٢) والله أعلم.

---

(١) في ظلال القرآن ١/٣٤٠ .

(٢) ينظر في ذلك أيضاً : في ظلال القرآن في الميزان للدكتور صلاح الخالدي ص ٧٤- ٧٦ .

المطلب الثاني

مراتب الدين والعلاقة بينهما

الدين الإسلامي يتضمن ثلاث مراتب هي: مرتبة الإسلام و الإيمان و الإحسان، وللعلماء في مسألة العلاقة بين هذه المراتب، وخاصة العلاقة بين الإسلام والإيمان أقوال هي:

١- **القول الأول:** أن الإسلام هو الكلمة – أي الشهادتين – والنطق بها، أما الإيمان فلا بد فيه من العمل مضافاً إلى النطق [١].

٢- **القول الثاني:** أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة ونحوها، أما الإيمان فهو المذكور في حديث جبريل المشهور من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره [٢].

---

(١) ينظر : السنة لأبي بكر الخلال ص ٦٠٢، ٦٠٧ ، وشرح مسلم للنووي ١٢٩/١، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٥٨/٧ .

(٢) ينظر : شرح السنة للبغوي ١٠/١ ، وشرح مسلم للنووي ١٣٠/١ ،والإيمان لابن تيمية ص٤٨١، وجامع العلوم والحكم لابن رجب تحقيق الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط٧ ،عام ٢٠٠٢م ،ص ٩٨ و١٠٢ وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٨٨ .

٣- **القول الثالث:** أنهما مترادفان، ولا فرق بينهما (١).

٤- **القول الرابع:** أنهما إذا اجتمعا افترقا بحيث يطلق الإسلام على الأعمال الظاهرة ويطلق الإيمان على الأعمال الباطنة، كما في حديث جبريل ويكون الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام مع تضمنه له، فهما غير مترادفين في حالة افتراقهما، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد اسم الإسلام فإنه يتضمن الإيمان (٢).

وهذا هو الذي عليه الجمهور، وهو الراجح للأدلة الصريحة من الكتاب والسنة.

أما الإحسان فالجميع متفقون على أنه أعلى مراتب الدين، وهو يتضمن مرتبة الإسلام والإيمان جميعاً.

أما سيد – رحمه الله – فإنه يرى:

١ – أن لفظ الدين يشمل المراتب الثلاث مجتمعة، فلا

---

(١) ينظر : صحيح البخاري كتاب الإيمان ١٢/١ ، ٢٩ ، وتعظيم قدر الصلاة لمجد بن نصر المروزي ، مكتبة الدار – المدينة – ط١ ، عام١٤٠٦هـ ، ٥٠٦/٢ .، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٨٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص٤٩٠ ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص١٠٥ وما بعدها.

يتحقق المدلول الشرعي للدين إلا بالإيمان الباطن والاستسلام الظاهر والإخلاص لله،

يقول – رحمه الله –: " الدين ليس كلمات تقال باللسان، إنما الدين منهج حياة، منهج يشمل العقيدة المستسرة في الضمير، والعبادة المتمثلة بالشعائر، والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج " (1).

٢- أن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما شمل مراتب الدين كلها باطنةً وظاهرةً، فالإسلام إذا أطلق شمل الاعتقاد والعمل الظاهر، " فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة، يقوم على هذه الشريعة نظام وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام " (2).

وكذلك لفظ الإيمان إذا أطلق شمل قضايا العقيدة والعمل، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: { إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا

---

(1) في ظلال القرآن ٩٣٩/٢ . وينظر في مفهوم الدين أيضاً : في ظلال القرآن ١٢١٦/٣ ، ١٢٤٢ ، ٢٠٢٠/٤ ، ٣٩٨٥/٦ ، ومقومات التصور الإسلامي ص٣٣ ، ١٣٢ ، ومعالم في الطريق ص ٧١ ، والمستقبل لهذا الدين ص ١٣ ، والعدالة الاجتماعية ص٧٨، ١٨٢.

(2) ينظر في ظلال القرآن ٣٥٧/١ ، ٢٨٢٢/٥ .

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾} [سورة الأنفال: ٢-٤]، يقول سيد معقباً على هذه الآيات: " تلك هي الصفات التي حدد الله بها – في هذا المقام – الإيمان وهي تشتمل الاعتقاد في وحدانية الله، والاستجابة الوجدانية لذكره، والتأثر القلبي بآياته، والتوكل عليه وحده، وإقامة الصلاة له، والإنفاق من بعض رزقه " (١).

٣- أن الإيمان مرتبة أعلى من مرتبة الإسلام، فهو وإن كان يطلق على العقيدة القلبية إلا أنه لا يتحقق مدلوله إلا بالأعمال الظاهرة في الواقع، وأن الإنسان قد يحكم له بالإسلام إذا نطق به، ولكن حقيقة الإيمان مرتبة فوق ذلك، ويشير إلى هذا قوله تعالى عن الأعراب: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾} [سورة الحجرات: ١٧]، فحقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب ولم تتذوق حلاوته عندما منَّت بإسلامها " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٧ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٠ وما بعدها .

وفي ظلال قوله تعالى: { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾} [سورة البقرة: ١١٢]، يقول: " أي اخلص ذاته كلها لله ووجه مشاعره كلها إليه، وخلص لله...، وهنا تبرز سمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه – والوجه رمز على الكل –ولفظ اسلم يعني الاستسلام المعنوي والتسليم العملي... ومع هذا لابد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام: " وهو محسن ". فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك، وبين العقيدة والعمل، وبين الإيمان القلبي والإحسان العملي "(١)

٤- أن الإحسان هو أعلى درجات الإيمان والإسلام، وهو كما قال ﷺ: " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (٢)، وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة، فإنها تفعل الطاعات كلها، وتنتهي عن المعاصي كلها، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة وفي السر والعلن على السواء " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٠٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل للنبي ﷺ ١/٢٧ برقم ٥٠ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٤٦-٤٩ برقم ٨،٩،١٠

(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٩٢ ، ٢/٧٦٢ ، ٩٦٣ .

وهذه المراتب الثلاث مترابطة متكاملة هي سمة هذا الدين هي الوحدة بين الشعور والسلوك بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي، بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها " (١)

---

(١) المصدر السابق ١/١٠٤ .

المبحث الرابع

الكبائـر وأحكـام مرتكبيهـا

أولاً: تعريف الكبائر:

أشارت نصوص الكتاب والسنة إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر منها: قوله تعالى: {**إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾**} **[سورة النساء: ٣١]**، وقوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ} [سورة النجم: ٣٢

وقوله تعالى: {**وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾**} **[سورة الكهف: ٤٩]**

ومن السنة قوله ﷺ: " اجتنبوا السبع الموبقات.. الحديث " (١)،

وقوله ﷺ: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله،.. الحديث" (٢).

---

(١) رواه البخاري : في كتاب : الوصايا ١٠١٧/٣ ، برقم ٢٦١٥ ، ومسلم في الإيمان باب بيان الكبائر ٨٨/١ برقم ٨٩ . .

(٢) رواه البخاري : في كتاب : الشهادات باب ما قيل في شهادة الزور ٢/ ٩٣٩ ،برقم ٢٥١١ ومسلم في الإيمان باب الكبائر ٨٨/١ برقم ٨٧ .

* وقد اختلف العلماء في ضابط الكبيرة وتعريفها، على أقوال عديدة، تزيد على عشرين قولاً، وأكثرها متقاربة، وبعضها ضعيف ((1)).

وأرجح تعاريف الكبيرة أنها " ما ترتب عليه حدُ في الدنيا، أو تُوعِّد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب " (2).

وهذا التعريف مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله فهو حدٌ متلقى من خطاب الشارع، ولأنه المأثور عن كثير من السلف بخلاف غيره من الأقوال، كما أنه يمكن به التفريق بين الصغائر والكبائر (3).

وبناءً على التعريف السابق فليس هناك حد معين لعدد الكبائر، وما قيل في حدها من أنها ثلاث أو سبع أو سبع عشرة أو سبعين أو سبعمائة فليس منضبطاً، لأن أنواع الكبائر

---

(1) انظر هذه الأقوال في : فتح الباري لابن حجر ٤١٠/١٠. وشرح مسلم للنووي ٨٥/٢– ٨٧ ، ومدارج السالكين لابن القيم دار الكتاب العربي ب.ت ط٣عام ١٤١٦هـ ٣٢١/١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٥ .

(2) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٥ .

(3) وهو قول بن عباس وبن جبير ومجاهد والحسن والضحاك ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية ،انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٥٤ ، وتفسير الطبري ٢٤٦/٨ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص٥٢٦ .

غير محصورة بعدد، وما ورد منها في بعض الأحاديث فليس المقصود منه حصرها أو عدها، بل يذكر منها ما يناسب الحال ويقتضيه المقام ٠

ثانياً: حكم مرتكب الكبيرة:

مسألة حكم مرتكب الكبيرة من مسائل الأسماء والأحكام (١)، والتي ظهرت في آخر عصر الصحابة – رضي الله عنهم– (٢) والناس فيها طرفان ووسط ويمكن بيان ذلك بإيجاز فيما يأتي:

أ – <u>حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة والجماعة:</u>

يعتقد أهل السنة والجماعة أن من ارتكب كبيرة – خلا الشرك بالله – ولم يستحلها، فإنه لا يكفر بل يسمى مؤمناً ناقص الإيمان، أو مؤمناً بإيمانه فاسقاً بكبيرته، وأن التوبة تجبها، وإن مات ولم يتب منها فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له ذنبه ابتداءً، وأدخله الجنة تفضلاً، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ثم يخرجه من النار، ويدخله الجنة، لأنه لا يخلد في

---

(١) المراد بالأسماء : أسماء الدين مثل : مؤمن ومسلم وكافر وفاسق ، والمراد بالأحكام : أحكام أصحاب هذه الأسماء في الدنيا والآخرة ، انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٨ .

(٢) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٠ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص٧ .

النار موحد، وهذا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة في مجموعها. (١)

ب – حكم مرتكب الكبيرة عند الخوارج والمعتزلة:

١– يرى الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر خارج عن الإيمان في الدنيا، ومخلد في النار في الآخرة.

٢– أما المعتزلة فترى أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان لكنه لا يدخل في الكفر، وهذه هي المنزلة بين المنزلتين عندهم هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد وافقوا الخوارج في الحكم عليه بالخلود في النار وإن كان عقابه دون عقاب الكفار. (٢)

ج – **حكم مرتكب الكبيرة عند المرجئة:**

ترى المرجئة أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وبالتالي فالكبائر لا تؤثر في إيمان مرتكبها، فمرتكب الكبيرة في الدنيا مؤمن كامل الإيمان ولا

---

(١) ينظر كلام أهل السنة وأدلتهم في : صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ١٣/١، والتمهيد لابن عبد البر ٤٩/٤، وتفسير الطبري ٤٥٠/٨ وشرح الطحاوية ص٤٤٢ ، وشرح الواسطية لهراس ص ٢٣٣، .

(٢) انظر في ذلك : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص ٧٠١– ٧١٢ .و مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، ٢٦٠/١– ٢٧٠ ، والملل والنحل للشهرستاني ١٨٥/١–١٣٢ ،

يدخل النار في الآخرة [(١)].

ثالثاً: موقف سيد قطب – رحمه الله – من الكبائر وأهلها:

١- <u>يرى سيد قطب أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر:</u>

ففي ظلال قوله تعالى: {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾} [سورة النساء: ٣١].

يقول– رحمه الله –: " في مقابل اجتناب الكبائر يعدهم الله برحمته وغفرانه، وتجاوزه عما عدا الكبائر، مراعاة لضعفهم الذي يعلمه – سبحانه – وتيسيراً عليهم، وتطميناً لقلوبهم وعوناً لهم على التحاجز عن النار باجتناب الفواحش الكبار... ألا ما أسمح هذا الدين! وما أيسر منهجه! على كل ما فيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر.. وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود، والأوامر والنواهي التي يراد بها إنشاء نفوس زكية طاهرة، وإنشاء مجتمع نظيف سليم، إن هذا الهتاف وهذه التكاليف، لا تغفل في

---

(١) ينظر كلامهم في : الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٣٩ ، والتمهيد لابن عبد البر ٢٤٢/٤، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، لأبي الفضل السكسكي ، مكتبة المنار ، ط١ ، عام ١٤٠٨ ، ص ٣٣. وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٤.

الوقت ذاته – ضعف الإنسان وقصوره – ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه، ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة، وبين الأشواق والضرورات، وبين الدوافع والكوابح، وبين الترغيب والترهيب، والتهديد والإطماع، فحسب هذا الدين من النفس البشرية أن يتم اتجاها لله، وأن تبذل غاية الجهد في طاعته ورضاه. فأما بعد ذلك فهناك رحمة الله... ترحم الضعيف، وتعطف على القصور، وتقبل التوبة وتكفر الذنب، وآية بذل الطاقة اجتناب كبائر ما نهى الله عنه، أما مقارفة هذه الكبائر – وهي واضحة ضخمة بارزة – فهي دليل على أن النفس لم تبذل المحاولة المطلوبة... وحتى هذه – أي الكبائر – فالتوبة منها في كل وقت مع الإخلاص مقبولة برحمة الله التي كتبها على نفسه، وقد قال فيها: { وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥} [سورة آل عمران: ١٣٥].

وعدهم من المتقين. إنما نحن بصدده هنا هو تكفير السيئات والذنوب مباشرة من الله، متى اجتنبت الكبائر وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين ". (١)

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٤٠- ٦٤١ بتصرف يسير .

ويقول أيضاً: " والله يعلم ضعف هـذا المخلوق البشري، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة والذي ينال معه ما عند الله، هو اجتاب كبائر الإثم والفواحش، لا صغائر الإثم والذنب، وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر لأنه أعلم بطاقته، وهذا فضل من الله، وسماحة ورحمة بهذا الإنسان، توجب الحياء من الله " (١).

(١) المصدر السابق ٢/٦٤٠- ٦٤١ بتصرف يسير

ويذكر سيد – رحمه الله – قصة عمر بن الخطاب [١] – رضي الله عنه – وهو المتحرج المتشدد الشديد الحساسية بالمعصية عندما قدم ناس من مصر، فقالوا لعمر – رضي الله عنه –: إنا نرى أشياءً في كتاب الله، أمر أن يعمل بها، فلا يعمل بها، فجمعهم عمر في بهوٍ [٢]، فأخذ أدناهم رجلاً، فقال: أنشدك الله، وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا – ولو قال: نعم، لخصمه –، قال: هل أحصيته في بصرك؟ هل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أثرك... ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: ثكلت عمر أمه! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات، وتلا قوله تعالى {إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾} [سورة النساء: ٣١]. " [٣].

---

(١) هو:الخليفة الراشد والإمام العادل عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ، ثاني الخلفاء الراشدينٍ ، شهد الوقائع كلها ،وهو أول من دون الدواوين واتخذ بيت المال وفتح الفتوحات ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام ٢٣هـ ،انظر:الإصابة لابن حجر ٧٤/٧ ،والأعلام للزركلي، ٤٦/٥ .

2 البهو : هو البيت المقدم أمام البيوت ، أو الواسع من الأرض الذي ليس فيه جبال ، أو مكان البقر ، انظر : لسان العرب ٥٢٨/١

(٣) في ظلال القرآن ٦٤١/٢ .

٢-<u>عدد الكبائر:</u>

يرى- سيد- أن الكبائر غير محصورة بعدد، وأنها تختلف عدداً ونوعاً بين بيئة وبيئة، يقول: " أما ما هي الكبائر؟ فقد وردت أحاديث تعدد أنواعاً منها – ولا تستقصيها – وذلك بدليل احتواء كل حديث على مجموعة تزيد أو تنقص، مما يدل على أن هذه الأحاديث كانت تعالج حالات واقعة، فتذكر من الكبائر – في كل حديث – ما يناسب الملابسة الحاضرة، والمسلم لا يعسر عليه أن يعلم " الكبائر " من الذنوب، وإن كانت تختلف عدداً ونوعاً بين بيئة وبيئة، وجيل وجيل! " (١).

٣- حكم مرتكب الكبيرة عند سيد قطب:

يرى سيد-رحمه الله- أن مرتكب الكبيرة – عدا الشرك – لا يخرج من الإسلام، وأنه في الآخرة تحت مشيئة الله إذا مات ولم يتب منها، ففي ظلال قوله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ } [سورة النساء: ٤٨]، يقول: " إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة، إذا خرجوا من

(١) المصدر السابق نفسه.

هذه الدنيا وهم مشركون.. أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر، والظلم العظيم الوقح الجاهر، أما ما وراء ذلك من الذنوب والكبائر فإن الله يغفره – لمن شاء – فهو داخل في حدود المغفرة – بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة – ما دام العبد يشعر بالله، ويرجو مغفرته ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له وأن عفوه لا يقصر عن ذنبه – وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفذ ولا تحد، والمغفرة التي لا يوصد لها باب، ولا يقف عليها بوَّاب!.

جاء في الصحيحين عن أبي ذر [(١)]– رضي الله عنه – قال: " خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده، وليس معه إنسان. قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني، فقال: " من هذا؟ " فقلت: أبو ذر – جعلني الله فداك – قال: " يا أبا ذر تعال " قال: فمشيت معه ساعة. فقال لي: " إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً، فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه،

---

(١) هو : جندب بن جنادة بن سفيان الغفاري ، صحابي جليل ، أول من حيا النبي بتحية الإسلام ، سكن دمشق واستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم سكن الربذة حتى مات سنة ٣٢ هـ انظر : سير أعلم النبلاء ٤٦/٢ والتهذيب ٩٠/١٢ .

وعمل فيه خيراً " قال: فمشيت معه ساعة، فقال لي: " اجلس ها هنا" فأجلسني في قاع حوله حجارة، فقال " أجلس ها هنا حتى أرجع إليك " قال: فانطلق في الحرة، حتى لا أراه، فلبث عني، حتى إذا طال اللبث.. ثم إني سمعته وهو مقبل يقول: " وإن زنى وإن سرق ". قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبي الله – جعلني الله فداك – من تكلمه في جانب الحرة؟ فإني سمعت أحداً يرجع إليك، قال: " ذلك جبريل، عرض لي جانب الحرة، فقال بشِّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت أيا جبريل، وإن سرق وإن زنى؟ " قال: "نعم". قلت: وإن سرق وإن زنى " قال نعم، وإن شرب الخمر " (١).

*وفي الحديث الآخر: قال رسول الله ﷺ: " ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئاً، إلا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها. إن الله لا يغفر أن يشرك به

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ٤١٧/١ برقم ١١٨٠ ومسلم في الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ٩٠/١-٩١ برقم ٩٤ وأحمد ١٥٢/٥ برقم ٢١٣٤٧ . واللفظ له .

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (١).

*وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: " كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس، وآكل مال اليتيم، وقاذف المحصنات، وشاهد الزور، حتى نزلت { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ }؛ فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة " (٢).

*وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: " قال الله عز وجل: من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئاً " (٣).

وفي هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة، فالمهم هو شعور القلب بالله على حقيقته – سبحانه – ومن وراء هذا الشعور الخير والرجاء والخوف والحياء، فإذا وقع الذنب فمن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم ٥٤٢٥/٣ وفي سنده ضعف أنظر : تفسير ابن كثير، تحقيق :مصطفى السيد وآخرون ، مكتبة أولاد الشيخ ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٤٢١ هـ ، ١٠٤/٤ .

(٢) رواه ابن أبي حاتم ٥٤٢٦/٣ ، وفي سنده الهيثم بن جماز ، وهو ضعيف ، المصدر السابق ١٠٨/٤ .

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس ٢٤٠/٩ برقم ١١٤٥٠ .

ورائه هذه اللمسات تؤهل للتقوى وتؤهل للمغفرة " (١).

ويقول أيضاً: " وقد وصم الله اليهود بالشرك، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله – وقبلوا منهم التحليل والتحريم.. فجُعلوا بذلك مشركين – الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه، حتى الكبائر – " وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر "، وداخل هذا النطاق– أي إفراد الله بالإلوهية – يبقى المسلم مسلماً والمؤمن مؤمناً، ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره، أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره الله أبداً... إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام (٢).

ويقول أيضاً: " ولا غفران لذنب الشرك – متى مات صاحبه عليه – بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه، عندما يشاء الله، والسبب في تعظيم جريمة الشرك وخروجها من دائرة المغفرة، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماماً، وتفسد كل فطرته، بحيث لا تصلح أبداً " (٣).

ومما سبق نقله من نصوص نجد أن سيد – رحمه الله – موافق لأهل السنة في مسألة الكبائر وأحكام أهلها، مخالف للمرجئة والخوارج والمعتزلة.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٨– ٦٧٩

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٨٨ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٦٠ .

المبحث الخامس

التكفير

توطئة:

من أبرز القضايا التي أثيرت حول سيد قطب – رحمه الله – قضية التكفير، حيث وجهت له تهمة تكفير أعيان المسلمين حكاماً ومحكومين دون ضوابط، بناءً على عبارات له في الظلال وغيره، كما سيأتي بيانه.

والسبب في ذلك يعود إلى أحد الأمور الآتية:

١- سوء فهمٍ لكلام سيد – رحمه الله –.

٢- الجهل بأصول التكفير عند أهل السنة والجماعة.

٣- العداء وسوء القصد والرغبة في تشويه فكر سيد قطب – رحمه الله – خوفاً من تأثيره،

٤- عدم جمع كلامه المتفرق حول الموضوع والاعتماد على العبارات الموهمة أو المقطوعة من سياقها، دون النظر في الضوابط التي وضعها – سيد – أثناء الكلام عن هذه القضية. وقد رأينا مجموعتين تخرجان بنتائج خاطئة من قراءة كلام سيد حول الموضوع:

الأولى: الجماعة التي ظهرت في مصر في السبعينات

باسم "الجماعة الإسلامية" واشتهرت باسم " جماعة التكفير والهجرة "، والتي توكأت على كلام سيد وراحت تبحث في كتبه عن عبارات موهمة أو مقطوعة من سياقها وتحملها ما لا تحتمل، وخرجت بتكفر المسلمين عموماً إلا من كان في جماعتهم [1].

الثانيــة: مجموعة من الذين قرأوا كلام سيد قراءة مبسترة، رافقها سوء الفهم أو التقصير في البحث، وربما سوء النية والقصد، فرفعت أصواتها بالشجب والاستنكار، وراحت تتهم سيد في عقيدته وفكره وتنسب إليه كل بلية وكل انحراف يحدث في الواقع المعاصر.

وانطلاقاً من أمانة البحث والموضوعية فلا بد من جمع ما تفرق من كلام سيد، والنظر في سياق النصوص لمعرفة الأسس التي بني عليها كلامه والضوابط الواردة فيها، وعرض ذلك على منهج أهل السنة والجماعة لمعرفة مدى الموافقة أو المخالفة وذلك من خلال المطالب الآتية:

(١) هذه الجماعة تزعمها شكري مصطفى . وانظر: في مناقشة آراء الجماعة والرد عليها : سيد قطب بين العاطفة الموضوعية ، للمستشار :سالم البهنساوي ، والحكم بما أنزل الله وأهل الغلو، لمحمد بن سرور زين العابدين .

المطلب الأول
التكفير عند أهل السنة ومخالفيهم

باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت فيه الفتنة، وكثر فيه الافتراق، وتشعبت فيه والآراء، والناس فيه على طرفين ووسط:

الطائفة الأولى: تكفر بكل ذنب، فمرتكب الذنوب والكبائر عندهم يخرج من الإيمان، ويدخل في الكفر كما تقول الخوارج، أو يكون في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة، وفي الآخرة أوجبوا له الخلود في النار.

الطائفة الثانية: لا تكفر أحداً من أهل القبلة بأي ذنب، فتنفي التكفير نفياً عاماً، وهم المرجئة، حيث يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

الطائفة الثالثة: وهم أهل السنة والجماعة، وهم وسط بين الطائفتين. حيث لا يكفرون بكل ذنب كما تفعل الخوارج، ولا ينفون التكفير كما تفعل المرجئة.

فمنهج التكفير عند أهل السنة والجماعة يقوم على أسس منها:

١- التحذير من التكفير بغير علم، كونه حكماً شرعياً مرجعه إلى ما جاء في الكتاب والسنة.

٢- التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين، فالأول هو تنزيل الحكم بالكفر على الفعل والقول دون الحكم على الفاعل، والثاني تنزيل الحكم على شخص الفاعل.

٣- لابد لتكفير المعين من توفر شروط في الفاعل هي: البلوغ والعقل والتعمد والاختيار، وفي الفعل أن يكون الفعل أو القول مما ثبت بالأدلة الشرعية أنه كفر مخرج من الملة.

كما يشترط انتفاء الموانع كالجهل والخطأ والتأول السائغ والإكراه، بالإضافة إلى قيام الحجة [١].

---

(١) تنظر هذه القواعد في : مجموع فتاوى ابن تيميه ٥/٥٤٥ ، ٣٧٢/١٠ ،وضوابط التكفير لراشد الراشد ،مكتبة الرشد ، الرياض ،ط ١ ،عام ١٤٢٧هـ ،ص ٤٣ وما بعدها ،وقواعد التكفير لعبد النعم حليمة أبو بصير ،دار البشير ،الأردن ،ط١ ،عام ١٤١٥هـ .

المطلب الثاني
سيد قطب وقضية التكفير

الذين يتهمون سيد قطب بتكفير المسلمين يعتمدون على مجموعة من النصوص الموجودة في كتبه، لذا كان لا بد من جمع هذه النصوص وتحليلها لتعطينا فكرة كاملة عن منهج الرجل في التكفير، وهذه النصوص على قسمين:

القسم الأول: نصوص تشرح آيات فيها أحكام بالكفر على بعض الأعمال.

القسم الثاني: نصوص تصف واقع المسلمين المعاصر وتقارن بينه وبين ما جاء في القرآن الكريم، بغرض إظهار مدى الانحراف الذي أصاب الأمة الإسلامية في دينها في كثير من القضايا المعاصرة، وفيها عبارات موهمة إذا لم تضم إلى غيرها أو قطعت من سياقها فهم منها القارئ التكفير.

لذا كان لا بد من عرض هذه النصوص في سياقها كاملة والتعقيب على كل نص بما يدل عليه في سياقه ثم استخلاص النتائج، وبيان ذلك في الفرعين الآتيين:

الفرع الأول: وقفات مع النصوص:

١- النص الأول:

يقول – رحمه الله – في تفسير سورة إبراهيم – عليه السلام –: " إن الغاية الأساسية من البلاغ والإنذار، هي أن يعلم الناس " أنما هو إله واحد" فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة، وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم... ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين، وقبل أن ندرك مدلولات " شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله " على المستوى الواسع البعيد، وقبل أن نفهم مدلول العبادة لله وحده ونحدده بأنه الدينونة لله وحده لا في لحظات الصلاة، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة.

ثم يقرر سيد – رحمه الله – أن عبادة الأصنام لا تتمثل في الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في الجاهلية، أو غيرهم في شتى الوثنيات، لأن هذه صورة من صور الشرك فقط، بينما الشرك بالله المخالف لشهادة " أن لا إله إلا الله " يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في

جوانب أخرى لغير الله حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته، وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته، إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء – مخالفة لشرع الله وأمره – إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " في أخص حقيقتها، وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان " (١).

ثم يوضح " أن الأصنام ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة، فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم

---

(١) في ظلال القرآن ٢١١٤/٤– ٢١١٥ بتصرف يسير .

له من خلالها، إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر، إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى، ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها!.

فإذا رفعت " القومية " شعاراً، أو رفع " الوطن " شعاراً، أو رفع " الشعب " شعاراً أو رفعت " الطبقة " شعاراً – ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته، مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها، نُحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونفذت إرادة تلك الشعارات – أو بالتعبير الصحيح الدقيق: إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات – كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله، فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة، ولقد يكون الصنم مذهباً أو شعاراً! إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة، من موكب الرسل الموصول، ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!.

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة، ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أو شركاً؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!.

والذين يظنون أنفسهم في " دين الله " لأنهم يقولون بأفواههم " نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله " ويدينون لله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث، بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله – وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله – ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم – أرادوا أم لم يريدوا – ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة، فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام.

الذين يظنون أنفسهم " مسلمين " وفي " دين الله " وهذا حالهم، عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!.

إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم " مسلمين " في مشارق الأرض ومغاربها، إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها، والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها – فضلاً على أصولها وكلياتها – هي دين الله، وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه، ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه.

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات! ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم؟ ولمن الدينونة الكاملة؟ ولمن الطاعة والإتباع والامتثال؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله، وإن كان لغير الله – معه أو من دونه – فهم في دين الطواغيت والأصنام.. والعياذ بالله. { هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾} [سورة إبراهيم: ٥٢] " [١].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤- ٢١١٦ .

<u>والمتأمل</u> في النص السابق يجد أن سيداً – رحمه الله – يشخّص واقعاً أليماً لبعض المسلمين في هذا العصر، يتمثل في سوء فهمهم لمدلول التوحيد والعبادة، ولمعنى ومقتضيات شهادة –أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله –وكذا سذاجة فهم البعض لمعنى الأصنام، ومعنى الشرك وحصره في صورته الحسية التي كان عليها المشركون من أصنام وآلهة، وكذا انحسار مفهوم الدين وقصره على بعض جوانبه الشعائرية دون النظر في الأوضاع التي تناقض أصل الدين في باقي جوانب الحياة الإنسانية.

ومن خلال هذا يضع سيد صفات محددة لمن يحكم عليه بالكفر والشرك منها:

أ – الدينونة لغير الله في مناهج الحياة والشرائع والقوانين.

ب– الخضوع – مع الرضى – للشرائع البشرية المخالفة صراحة لشريعة الله.

ج– بذل ما يملكون للأصنام المعنوية الجديدة.

هـ– تقديم مطالب الأصنام العصرية ونبذ أوامر الله إذا تعارضت مطالب الأصنام مع دين الله.

ولا شك أن من توفرت فيهم الصفات السابقة مجتمعة فإن أهل السنة والجماعة لا يقولون فيهم خلاف قول سيد " إنهم مشركون " (١).

٢-النص الثاني:

في ظلال قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾} [سورة الأنعام: ٥٥] يوضح سيد – رحمه الله – منهج القرآن في العقيدة والحركة بها والذي يقوم على بيان الحق وإظهاره، وكذا بيان الباطل وكشفه، وذلك لأن إنشاء اليقين الاعتقادي بالخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل ليوجد الاندفاع بالحق عند أصحابه.

ويقرر أنه لا بد أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ووضع العنوان المميز لكل منهما في عالم الواقع لا النظريات، بحيث لا يختلط السبيلان، ولا تلتبس ملامحهما.

ويؤكد سيد – رحمه الله – على أن هذا التحديد والوضوح كان كاملاً، في حياة الرعيل الأول من هذه الأمة، بفعل منهج القرآن في بيان سبيل المؤمنين وسبل المجرمين، ثم

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان . د/ صلاح الخالدي ، ص ٢١٠ .

يقارن ذلك بوضع المسلمين المعاصر في هذا الباب ويقول: " ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا، إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام، يسيطر عليها دين، وتحكم بشريعته، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسماً وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقاداً وواقعاً، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً! فالإسلام شهادة" أن لا إله إلا الله "، وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه، وأن الله – وحده – هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله، وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد، وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين، وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام، ولكن لا الأقوام

اليوم تشهد أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول، وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية اليوم في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول " لا إله إلا الله " ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين واختلاط الشارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!.

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير " المسلمين "، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله، ولا إلى قول رسول الله ﷺ!.

هذه هي المشقة الكبرى، وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل!.

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة، وألا تأخذهم فيه خشية ولا خوف، وألا تقعدهم عنها لومة لائم ولا صيحة صائح، انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون!

إن الإسلام بيِّنٌ والكفر بيِّن، الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول– فمن لم يشهدها على هذا النحو، ومن لم يفهمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين " (١).

* **<u>والمتأمل في هذا النص يجد:</u>** أن سيداً – رحمه الله – كان حريصاً على بيان حقيقة الإسلام وحقيقة الكفر والشرك وبيان طريق المسلمين وطريق المجرمين من خلال منهج القرآن الكريم، حيث شدد على ضرورة معرفة الدعاة والحركات لمدلول – لا إله إلا الله – الشامل، وتعريف الناس بهذا المدلول وكشف محاولات الأعداء في تمييع هذا المدلول حتى تبقى الجماهير مخدوعة في حقيقة ما هي عليه.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٥– ١١٠٧ بتصرف يسير .

ويوضح سيد أن مدلول – لا إله إلا الله – يعني إفراده سبحانه في اعتقاد ربوبيته وخلقه وتصرفه في الكون وإفراده سبحانه أيضاً في ألوهيته بتقديم الشعائر التعبدية وكل مناشط الحياة له وحده، وإفراده سبحانه في تلقي الشرائع والأوامر والخضوع لها " وهذا هو المفهوم الشامل بحيث أن أي فرد أو قوم أو أرض لا تحقق هذا المدلول في الواقع، فليست في دين الله.

فسيد – رحمه الله – يضع تعريفاً للمسلم، بحيث أن كل من لم ينطبق عليه هذا التعريف فهو كافر هذا التعريف تحدده الصفات التالية:

أ – الإيمان بالله تعالى خالقاً ومتصرفاً في الكون وحده لا شريك له.

ب– تقديم الشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله لله وحده لا شريك له.

ج – تلقي الشرائع من الله وحده والخضوع لحكمه سبحانه في شؤون الحياة كلها.

هذه الصفات هي معنى لا إله إلا الله، وبها يكون الإنسان مسلماً.

وبالتالي فسيد لا يكفر بإطلاق لكنه ينبه إلى نوع من الكفر لا ينتبه إليه الكثير، وهو ما يتعلق بالشرط الثالث أي تلقي الشرائع من غير الله والخضوع لغير حكمه سبحانه، أو ما يسميه سيد بـ " شرك الحاكمية "، وله – رحمه الله – أدلته في تكفير أصحاب هذا النوع من الشرك سيأتي بيان بعضها عند التعقب على النص التالي .

وما ذكره سيد هنا هو ما عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، في تكفير كل من لم يفرد الله سبحانه في ربوبيته وفي ألوهيته وحاكميته.

كما يظهر في النص أن سيداً – رحمه الله – ما كان حريصاً على إصدار أحكام الكفر على أفراد معنيين بقدر ما كان حريصاً على الصدع بحقيقة الإسلام وإزالة الغبش الذي ران على سبيل المسلمين وسبيل المجرمين ليشحذ همم الدعاة والحركات الإسلامية لبيان الحق في هذا الباب الذي ضل فيه كثير من الناس و التبس عليهم أمره.

* وفيه إشارة أيضاً إلى أن من يجهر بهذا الحق فإن الأعداء سيتهمونه بتهمة " تكفير المسلمين " حتى يحجزوا بينه وبين الناس، ومع ذلك فإن سيداً – يرى أن من الواجب على

الدعاة المضي في بيان الحق في هذا الباب دون خوف مما سيقال عنهم.

* ويقرر سيد أيضاً أن مرجع الحكم على الناس بالكفر ليس لأعراف الناس وأهوائهم وإنما لما يقرره الله تعالى ورسوله ﷺ، ويؤكد على أن مفهوم الإسلام بيِّن ومفهوم الكفر بيِّن، فمن لم يكن في الإسلام فهو الكفر.

٣- النص الثالث:

في ظلال قوله تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾} [سورة الأنعام: ١١٦] يقول سيد: " ولقد كان أكثر من في الأرض – كما هو الحال اليوم بالضبط – من أهل الجاهلية لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله، ولم يكونون يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله، ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه، ومن ثم كانوا – كما هو الحال اليوم – في ضلالة الجاهلية، لا يملكون أن يشيروا برأيٍ ولا بقولٍ ولا بحكمٍ يستند على الحق ويستمد منه، ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال، كانوا – كما هم اليوم – يتركون العلم المستيقن، ويتبعون الظن والحدس، والظن والحدس لا ينتهيان

إلا إلى الضلال، ولذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كي لا يضل عن سبيل الله.. هكذا على وجه الإجمال، وإن كانت المناسبة الحاضرة حينذاك هي مناسبة تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجيء في السياق .

فالذي يحكم على العباد بأن هذا مهتدٍ وهذا ضال هو الله وحده، الذي يعلم بحقيقة العباد وفق الميزان الإلهي، وليس وفق قيم المجتمع وأحكامه المتغيرة من مكان لآخر وزمان لآخر وبالتالي فالمجتمع الذي يخرج عن قيم وموازين الله هو مجتمع غير إسلامي، مجتمع جاهلي، مجتمع مشرك بالله، بغض النظر عن الصور والأشكال (١).

وفي ظلال قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾} [سورة الأنعام: ١٢١] يقول سيد: " وأمام هذا التقرير نقف لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والإتباع في هذا الدين.

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٥– ١١٩٦ بتصرف يسير .

شريعة الله، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية.. إن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله، إلى الشرك بالله.

وفي هذا يقول ابن كثير[1] –رحمه الله–: " وقوله تعالى {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾} [سورة الأنعام: ١٢١]، أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كقوله { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [سورة التوبة: ٣١]. الآية، وقد روى في تفسيرها عن عدي بن حاتم[2]– رضي الله عنه– أنه قال: يا

---

(١) هو: الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، قرشي النسب ، دمشقي الدار ، كان مفسراً ومؤرخاً وفقيهاً ، ولد سنة ٧٠١ هـ تتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وله مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٧٧٤ هـ ودفن مع ابن تيمية في مقبرة الصوفية بدمشق ، انظر : البدر الطالع للشوكاني ١/١٥٣ ومعجم المؤلفين ٢/٢٦٤

(٢) هو : عدي بن حاتم بن عبد الله بن حشرج الطائي ، أسلم سنة ٧هـ وثبت مع قومه يوم الردة ، شهد فتح المدائن ، توفي سنة ٦٨هـ ، انظر : الخلاصة للخز رجي ص٢٦٤

رسول الله ما عبدوهم. فقال: " بلى: إنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم " (١).

وعن السدي (٢) في تفسير قوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ }، قال: "استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: {وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ} [سورة التوبة: ٣١]؛ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ " (٣).

* فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير، وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح – مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك – أن من أطاع بشراً في شريعة من عند نفسه، ولو في جزئية صغيرة إنما هو مشرك، وإن كان في الأصل مسلماً ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك

---

(١) رواه :الترمذي في أبواب التعبير ٣٤١/٤ برقم ٥٠٩٣ ، وأحمد ٣٧٨/٤ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٦٦/١ ، وحسنه الألباني في غاية المرام ص٢٠

(٢) هو : إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، أبو محمد الحجازي ، ثقة ، تابعي انظر : سير أعلام النبلاء ٢٦٤/٥ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١٦٤٥/٤ .

أيضاً، مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه، بينما هو يتلقى من غير الله، ويطيع غير الله.

*وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإننا نرى الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية، ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً – إلا في حدود الإكراه) [1].

*** والمتأمل في هذا النص يجد:**

- أن سيداً – رحمه الله – يقرر إتباعاً للنص القرآني الصريح وللحديث النبوي الشريف ولكلام السلف وأهل العلم كالسدي وابن كثير، أن طاعة الشياطين – من الإنس والجن – والتحاكم إليهم واتباعهم، شرك وخروج عن الإسلام، وهذه أدلته في الحكم على أصحاب هذا النوع من الشرك بالكفر، فلا يمكن أن تجتمع دعوى الإسلام مع التلقي من غير الله وطاعة غير الله.

- كما نجده يقرر أن واقع الأرض اليوم – إلا من عصم الله – ينطبق عليه اسم الشرك والجاهلية في ضوء التقريرات الحاسمة في هذا الباب.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٧– ١١٩٨.

–وهنا لفتة مهمة: وهي أن سيداً – رحمه الله – يستثني من حكمه بالشرك والكفر من عصمه الله فأنكر على هذه الأرباب ما تدعيه من خصائص الألوهية ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً إلا في حدود الإكراه، وكلامه هنا هو ما تدل عليه الأدلة من النصوص الشرعية في استثناء المكره من أحكام الكفر.

٤– النص الرابع:

بعد أن بيَّن سيد – رحمه الله – ضلال أصحاب مقارنة الأديان في نتائجهم حول تطور العقيدة، ومخالفة ذلك لما قرره القرآن في هذا الباب، استعرض الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري، وحرص الشيطان على إخراج الناس من الإسلام إلى الجاهلية المتمثلة في الدينونة لغير الله، يقول: " هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم، وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك، إن البشرية اليوم – بجملتها – تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول – محمد ﷺ – وهي جاهلية تتمثل في صور شتى:

– بعضها يتمثل في إلحادٍ بالله سبحانه، وإنكارٍ لوجوده، فهي جاهلية اعتقاد وتصور كجاهلية الشيوعيين.

- وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه، وانحراف في الشعائر التعبدية، وفي الدينونة والإتباع والطاعة، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم، وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك.

- وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه، وأداءٍ للشعائر التعبدية، مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومع شرك كامل في الدينونة والإتباع والطاعة، وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم "مسلمين" ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين، ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد! وكلها جاهلية، وكلها كفر بالله كالأولين، أو شرك بالله كالآخرين.

- إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح، تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة، كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي

لطلائع البعث الإسلامي، والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية، ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة.

- إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرى والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها، على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده والدينونة والإتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده، وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ولا تحتسب للناس صفة المسلمين، ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك، وأنَّ تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعاً، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية، ويعمهم بالكفر أو بالشرك قطعاً.

- ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية، فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية، وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي، وهي تحسبه

مجتمعاً مسلماً وتفقد تحديد أهدافها الحقيقة، بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلاً، لا من حيث تزعم!! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع، بعيدة جداً " (١).

<u>* والتأمل في النص السابق يجد:</u>

أن سيداً – رحمه الله – يعرض صوراً للجاهلية المعاصرة متمثلة بالإلحاد والوثنية واليهودية والنصرانية، ويلحق بها صورة أخرى عند المسلمين وهي صورة الشرك في الدينونة الكاملة والإتباع والطاعة ويجعلها كلها شركاً وكفراً.

ويؤكد على أن الخروج من هذه الجاهليات السابقة كلها يكون بالعودة إلى الإسلام بمفهومه الصحيح الذي يشمل الاعتقاد والتعبد والدينونة والطاعة لله في كل أمور الحياة.

فإذا لم يحقق الناس الإسلام بهذا المفهوم فهم في الشرك، وإذا حققوا بعضه وتركوا بعضه فهم أيضاً في الشرك مهما زعموا الإسلام.

ويقرر أنه يجب على الدعاة إلى الإسلام اليوم فهم القضية بهذا الشمول، والانطلاق من هذا الوضوح حتى تكون الانطلاقة صحيحة.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٥– ١٩٤٦.

وهذه أمور لا خلاف فيها، والنص عام وليس فيه تكفير للأفراد بقدر ما فيه بيان الواقع ومدى مخالفته لما يجب أن يكون عليه المسلمون.

٥- النص الخامس:

تحدث سيد – رحمه الله – عن عظمة القرآن الكريم، وتأثيره في النفوس البشرية، وضرب مثالاً لجيل الصحابة – رضوان الله عليهم – وكذا موقف الجاهلية القديمة في جهالتها وإعراضها عن القرآن وطلب الخارقة المادية غير القرآن، مقارناً ذلك بإعراض الجاهلية المعاصرة عن القرآن بسبب غرورها بما فتحه الله عليها في عالم المادة.

ثم أستعرض جهود اليهود والصليبيون في صرف الأمة عن القرآن فقال: " كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرناً من الحقد اليهودي والصليبي، الذي لم يكف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم، وعن محاولة إلهاء أهله عنه، وإبعادهم عن توجيهه المباشر بعد ما علم اليهود والصليبيون من تجاربهم الطويلة أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب، عكوف الجيل الأول، لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته! وهو كيد مطردٌ مصرٌّ لئيمٌ خبيثٌ، ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي

يعيش فيها الناس الذي يسمون اليوم بالمسلمين وما هم بالمسلمين ما لم يحكموا في حياتهم شريعة هذا الدين " (١).

* **والتأمل في النص يجد:** أن كلام سيد في نهاية النص واضح، فهو يقرر أن من لم يحكِّم شريعة هذا الدين في حياته كلها فليس بمسلم وإن زعم أنه مسلم.

٦- النص السادس:

في ظلال قوله تعالى: { وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا } [سورة الأنعام: ٧٠] الآية. يقول سيد: " ولا نزال تجدنا في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الألوهية، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله، ومن باب أولى من يَدَّعون لأنفسهم واحدة من هذه، مهما تسموا بأسماء المسلمين، فلنكن من أمر ديننا على يقين " (٢).

ثم يوضح - رحمه الله - حكم مجالسة المشركين وأهل الفسق والبدع، وأنه لا يجوز إلا بقصد الموعظة والتذكير

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٩.

والدعوة، ويورد أقوالاً لبعض السلف في المنع من مجالسة أهل البدع ثم يقول: " فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله، وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية، ومن يقره على هذا الإدعاء، فليس هذا بدعة مبتدع، ولكنه كفر كافر، أو شرك مشرك، مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم، فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى، وهو يزعم الإسلام، ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام – إلا من عصم الله – وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان، فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه يمثل هذه الأحكام "(١).

والمتأمل في النص يجد: أن سيداً – رحمه الله – يقرر أنه يُحكَم على الإنسان بالشرك والكفر إذا أشرك مع الله أحداً في خصائص ألوهيته إما:

- بالشرك في اعتقاد ألوهية غير الله.
- أو بتقديم الشعائر التعبدية لغير الله.
- أو بقبول الحاكمية والتشريع من غيره سبحانه.
- ومن باب أولى: من يدعي لنفسه واحدة من هذه.

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٣٠.

-وعند حديثه عن أحوال المسلمين في تحاكمهم لغير شرع الله، يقرر كفر من:

- ادعى خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية.
- وكل من يقره على هذا الأمر.

وأن هذا النوع من الكفر أي كفر الحاكمية حدث بعد عصر السلف، وشمل اليوم أكثر الأرض إلا من عصم الله.

٧- النص السابع:

في ظلال قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾} [سورة النساء: ٤٩-٥٠]، يستعرض- سيد - دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار وأنهم لن تسمهم النار إلا أياماً معدودات وأنه لن يهتدي إلا من كان هوداً، واتخاذ أحبارهم أرباباً من دون الله يحلون ويحرمون، إلى غير ذلك من الأفعال التي تناقض الدعوى، ويقارن ذلك بحال بعض المسلمين اليوم فيقول: " وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم، ويحسبون أنهم من أمة محمد ﷺ وأن الله لا بد ناصرهم، ومخرجهم لهم اليهود من أرضهم. بينما هم ينسلخون انسلاخاً كاملاً من دين الله الذي هو منهجه للحياة،

فينبذونه من حياتهم، ولا يتحاكمون إلى كتاب الله في أقضيتهم ولا في اقتصادهم، ولا في اجتماعهم ولا في آدابهم ولا في تقاليدهم، وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين! وأنهم ولدوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! ويقيمون فيها دين الله، ويحكمون منهجه في الحياة.

والله يعجب رسوله ﷺ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم، وأمر "المسلمين" المعاصرين أعجب، وأشد إثارة للتعجب والعجب!!.. والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم – إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راضٍ عنهم – يفترون عليه الكذب، ويشنع بفعلتهم هذه، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها

وما أرى أننا – الذين ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون! بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة، ما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا، ونؤدي ضده شهادة منفرة منه! ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً، ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع الذي يعجب الله – سبحانه – منه رسوله ﷺ،

ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله وارتكاب هذا الإثم المبين، والعياذ بالله!.

إن دين الله منهج حياة، وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة، والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته فلننظر أين نحن من دينه ومنهجه، ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود الذين يعجب الله منه حالهم ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم! فالقاعدة هي القاعدة والحال هو الحال، وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة!! " (١).

***والمتأمل في النص يجد:** أن – سيداً – يتحدث عن واقع أمة على الإجمال، ويستعرض حال فئة منها في مجتمعات مختلفة انسلخت من الدين، ونبذته من حياتها وأصبحت تتحاكم في أقضيتها واقتصادها واجتماعها وآدابها وأخلاقها وتقاليدها إلى غير شريعة الله، ولا شك أن من كان هذا حاله فدعواه الإسلام كدعوى اليهود أنهم شعب الله المختار سواء بسواء.

ويلفت سيد النظر في نهاية النص إلى أن مقصده تنبيه المسلمين اليوم إلى أن يعرفوا معنى الإسلام المتمثل في طاعة الله وتحكيم منهجه في الحياة كلها، ويدعوهم إلى النظر

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٩– ٦٨٠ .

في واقعهم وعرضه على دين الله بمفهومه الشامل لينظروا أين هم، وماذا يعني انتماؤهم للإسلام؟

٨- **النص الثامن:**

في ظلال قوله تعالى: { يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾} [سورة البقرة: ٢٧٦]، يقول سيد: " وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يُصرون على التعامل الربوي – بعد تحريمه – من الكفار الآثمين، الذين لا يحبهم الله، وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فالإسلام ليس كلمة باللسان، إنما هو نظام حياة ومنهج عمل، وإنكار جزء منه كإنكار الكل، وليس في حرمة الربا شبهة، وليس في اعتباره حلالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم والعياذ بالله " (١).

والمتأمل في النص يجد: أن سيد قطب يستند إلى نص الآية الذي يعتبر المرابي المستحل للربا كافراً آثماً، فكلامه في المرابي المستحل، الذي ينكر حرمته ويصر على التعامل به

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٢٨ .

بدليل قوله: " يصرون على التعامل الربوي " و " يحلون ما حرم الله " و " إنكار جزء منه كإنكار الكل "

ولا شك أن كلام سيد هنا مواقف لرأي أهل السنة والجماعة الذين يكفرون من أنكر جزءاً من الإسلام أو استحل حراماً أو حلل حراماً!! (١).

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ص ٢٠٧ .

٩- النص التاسع:

في ظلال قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾} [سورة آل عمران: ١٠٠]، يبين سيد – رحمه الله – أن المسلم الحق في كل زمان ومكان يرى في هذا التحذير الإلهي سوطاً يلهب الضمير ويوقظه، ويفزعه أن يرى نفسه منتكساً إلى الكفر بعد الإيمان، وخاصة أن آيات القرآن وهدي النبي ﷺ باقٍ وفيهما العصمة، ويسوق بعض الأحاديث التي فيها النهي عن التلقي عن أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وخاصة ما يتعلق بأمور العقيدة وما يرتبط بها من تشريعات.

ويقول معقباً على ما سبق: " فأما التلقي عنهم – أي أهل الكتاب – في التصور الإيماني، وفي تفسير الوجود، وغاية الوجود الإنساني، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضاً، أما التلقي في شيء من هذا كله، فهو الذي تغير وجه رسول الله – لأيسر منه [(١)]، وهو

---

(١) يشير إلى حديث عمر – رضي الله عنه – عندما عرض صحفاً من التوراة على رسول الله ﷺ فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقال : والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى – عليه السلام – ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي

الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته، وهي الكفر الصراح، هذا هو توجيه الله سبحانه، وهذا هو هدي رسوله ﷺ فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ﷺ عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء، ومن الفلاسفة والمفكرين: الإغريق والرومان والأوربيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين، أي دين، ثم نزعم – والله – أننا مسلمون! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ، حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون – مثلنا – أنهم مسلمون!.. "[1].

<u>**والمتأمل في النص يجد:**</u> أن سيداً – رحمه الله – يبين فيه الواقع السيئ ومظاهر السوء فيه، من باب الدعوة إلى رفضه وتغييره، ولا شك أن الذين يتلقون المناهج والنظم

من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين " والحديث رواه أحمد ٣/٣٨٧ ، وحسنه الألباني والأرناؤوط ،انظر : مسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ٣٢/ ٣٤٩

(١) في ظلال القرآن ١/٤٤٠ وما قبلها .

والتشريعات والتصورات من الكفار، ويرضون بها لأنها أصلح وأحسن عندهم من مناهج وتشريعات وتصورات الإسلام فهؤلاء لا يشك أحد في كفرهم (١)، وهذا ما يفهم من كلام سيد السابق.

١٠- النص العاشر:

في تفسير قوله تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾} [سورة النساء: ٩٧].

يقول سيد: " والنص يتحدث عن فريق من القاعدين، أولئك الذين يظلون قاعدين في دار الكفر لا يهاجرون، تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق – وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية – أن يهاجروا، والآية تصور مصيرهم عند الموت.

وهذا النص كان يواجهه حالة واقعة في مكة وغيرها – بعد هجرة الرسول ﷺ وقيام الدولة المسلمة – حيث بقي

---

(١) ينظر في ذلك : تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وفتاوى رسائل الشيخ محمد بن إبراهيم طبعة الحكومة ، مكة المكرمة، ط١، عام ١٣٩٩ هـ ١٢/ ٢٥٦ – ٢٦٠ ، وحكم الجاهلية ، لأحمد شاكر ، مكتبة السنة – القاهرة ،ط١،عام ١٤١٢ هـ ، ص ٢٥ –٤٥ .

مسلمون لم يهاجروا إما بسبب أموالهم ومصالحهم، أو للعوز كالشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة، وقد فتن بعضهم عن دينه فعلاً، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية، ومشاركة المشركين عبادتهم، وكانت هذه القضية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها – متى استطاعوا – فأما بعد قيام الدولة، ووجود دار الإسلام، فإن الخضوع للفتنة، أو الالتجاء للتقية، وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام والحياة في دار الإسلام... أمر غير مقبول...

ثم يستثني من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ والضعفاء، والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته، بسبب عذرهم البيّن وعجزهم عن الفرار.

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان، متجاوزاً تلك الحالة الخاصة.. يمضي حكماً عاماً يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أي أرض، وتمسكه أمواله ومصالحه، أو قراباته وصداقاته، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها – متى كان هناك في الأرض في أي مكان – دار للإسلام يأمن فيها على

دينه، ويجهر فيها بعقيدته، ويؤدي فيها عباداته، ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله " [(١)].

*<u>**والمتأمل في النص يجد:**</u> أن – سيداً– يتحدث عن القاعد وسط الكفار، الذي فتن عن دينه وارتد فعلاً مع وجود مكان يهاجر إليه لدينه، ولا خلاف في كفر المرتد، أما من بقي معذوراً فإنه مستثنى من ذلك.

وهذا النص يفسر لنا كلام سيد في النص الآخر عن الهجرة بالدين حيث يقول: " ولقد ظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح مكة، حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته وانتظم الناس في مجتمعه، فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل، كما قال ﷺ. غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفاً ومائتي عام تقريباً، ولم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه، فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية وارتفع حكم الله سبحانه عن حياة الناس في الأرض وعادت الحاكمية إلى الطاغوت في الأرض كلها ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها.. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام، كالجولة الأولى – تأخذ – في التنظيم كل أحكامها المرحلية،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٤٣ – ٧٤٥ بتصرف .

حتى تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة، ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى – بإذن الله – فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل كما حدث في الجولة الأولى " (١).

١١- النص الحادي عشر:

في ظلال قوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾} [سورة الأنعام: ١٤] يقرر سيد – رحمه الله – أن قضية اتخاذ الله وحده ولياً، بكل معاني كلمة (الولي) أي اتخاذه وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده، ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحدها، واتخاذه وحده ناصراً يستنصر به، ويعتمد عليه ويتوجه إليه في الملمات، هي قضية العقيدة في صميمها، فإما إخلاص الولاء لله – بهذه المعاني كلها – فهو الإسلام، وإما إشراك غيره معه في شيء منها فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام!..

قضية واحدة محددة، لا تقبل لينا ولا تميعاً، إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/١٥٦٠ .

والاستعانة، والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور، ورفض إشراك غيره معه فيها، وولاء القلب والعمل في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك إما هذا كله فهو الإسلام، وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك! الذي لا يجتمع في قلب واحدٍ مع الإسلام.

قد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ليجعل لآلهتهم مكاناً في دينه مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين، وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاءً على مكانتهم وكبريائهم ومصالحهم، وأولها تقاليد التحريم والتحليل في مقابل أن يكفوا عن معارضته ويجعلوه رئيساً فيهم، ويجمعوا له من مالهم، ويزوجوه أجمل بناتهم وفي وجه هذه المحاولة المزدوجة أمر رسول الله ﷺ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف، وبهذا الحسم الصريح، وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالاً للتمييع (١).

فها هو ذا رسول الله ﷺ يؤمر من ربه هذا الأمر، ثم هاهو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله، ويدعونه أن

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٤ .

يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به! كأن ذلك يمكن أن يكون!! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه، والذي لا يزال يتصوره ناسٌ في هذا الزمان، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلماً لله، بينما هو يتلقى من غير الله في شؤون الحياة، وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله، ويتولى غيرا لله!.. هاهو ذا يواجه المشركين ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم، بين توحيده وشركهم، بين إسلامه وجاهليتهم.. انه لا موضع للقاء ولا المصالحة! " (١).

ثم يعود سيد ليعرض حقيقة التوحيد والولاء والمفاصلة باعتبارها قضية العقيدة الكبرى، وينبه الدعاة اليوم إلى أهمية وضوح هذه القضية لديهم فيقول: " قضية الولاء والتوحيد والمفاصلة هي قضية هذه العقيدة الكبرى وإن العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني وقفة طويلة، وهي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كما كانت تواجهها العصبة الأولى لتحدد على ضوئها موقفها، وترسم طريقها على هداها..

لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية، وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٥-١٠٥٦.

تنزل هذا القرآن على رسول الله ﷺ، ويوم جاء القرآن مبنياً على قاعدته الكبرى " شهادة أن لا إله إلا الله ".. بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر (١) قائد المسلمين إلى قائد الفرس وهو يسأله: " ما الذي جاء بكم؟ " فيقول: " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. وهو يعلم أنهم لا يعبدون كسرى بوصفه إلهاً خالقاً للكون، ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة، ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه، فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد فيها العباد، ويقرون لهم بخصائص الألوهية – وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع – (وهي الأديان).. إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام.

لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جوار الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن (لا إله إلا الله) دون أن يدرك مدلولها،

---

(١) هو: ربعي بن عامر ، أحد قادة الفتوحات في العراق ، له ذكر في معركة نهاوند ، ولي إمارة طبرستان ، انظر : الإصابة ،لابن حجر ، ٢٥٣/٣ .

ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية " الحاكمية " التي يدعيها العباد لأنفسهم – وهي مرادف الألوهية – سواء ادعوها كأفراد، أوكتشكيلات تشريعية، أو كشعوب، فالأفراد كالتشكيلات كالشعوب ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية، إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد الله، وتخلص له الولاء.

البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات (لا إله إلا الله) بلا مدلول ولا واقع، وهؤلاء أثقل إثماً وأشد عذاباً يوم القيامة، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد – من بعد ما تبين لهم الهدى – ومن بعد أن كانوا في دين الله.

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلاً أما هذه الآيات البينات، ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء { قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤) } [سورة الأنعام: ١٤]

ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله ولياً – بكل معاني " الولي " وهي: الخضوع والطاعة والاستنصار والاستعانة، يتعارض مع

الإسلام لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس، ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله في الضمير أو في الحياة، الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء، ولتعلم أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وأنها تواجه جاهلية كالتي واجهها رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة الأولى " (١).

* **والمتأمل في النص يجد:** أن كلام سيد يدور حول ردة البشرية إلى الجاهلية متمثلة في حاكمية غير الله الذي تزاوله البشرية كلها اليوم، وأنه لا ينفي عن البشرية اليوم وصف الجاهلية في هذا الباب وجود بعض شعائر الإسلام في المجتمعات المسلمة، لأن بعض هذه الشعائر تقام دون أن يدرك الناس مدلولها، أو دون أن يقصدوه، مثل ترديد " لا إله إلا الله " والتي تعني "رفض حاكمية غير الله ومنهجه في الحياة " بينما المجتمعات تحكم بغير شرع الله، وتقبل ولا ترفض، فمن كان ذلك حاله من المجتمعات فهو في ردة عن معنى لا إله إلا الله، وعن التوحيد الذي جاء به رسول الله ﷺ.

١٢- النص الثاني عشر:

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٧- ١٠٥٨ بتصرف يسير .

في تعليقه على الآيات التي تتحدث عن غزوة بدر في سورة الأنفال وفي ظلال قوله تعالى: {وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾} [سورة الأنفال: ١٩]، يقول سيد: " فإن معرفتهم – أي مشركو العرب – بالله سبحانه لم تكن قليلة ولا سطحية ولا غامضة، كما يتصور الناس اليوم من خلال تأثرهم ببعض التعميمات التاريخية ولم يكن شرك العرب متمثلاً في إنكار الله – سبحانه – ولا في عدم معرفتهم الحقيقة، إنما كان يتمثل أكثر ما يتمثل في عدم إخلاصهم العبودية له، وذلك بتلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غيره، وهو ما لم يكن متفقاً مع إقرارهم بألوهية الله (١)، ومعرفتهم لحقيقته.

ثم يذكر نصوصاً من السيرة تدل على معرفة المشركين بالله وعدم إنكارهم له أو لربوبيته، كقول الأخنس بن شريق لبني زهرة وهم مشركون: " قد نجى الله لكم أموالكم.. " ومثل استفتاح أبي جهل نفسه في بدر بقوله: " اللهم اقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة "، وكقوله لحكيم بن حزام: " كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ".

(١) يطلق سيد لفظ الألوهية ويقصد به معنى شاملا يشمل الربوبية والألوهية عند أهل السنة وسيأتي بيان ذلك في الباب القادم إن شاء الله .

ويقرر أنهم كانوا يستحضرون حقيقة الألوهية – أي الربوبية – وإنما كان شركهم الحقيقي يتمثل في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير الله، الذي يعرفونه ويعترفون به على هذا النحو، الأمر الذي يشاركهم فيه اليوم أقوام يظنون أنهم مسلمون – على دين محمد – كما كان المشركون يظنون أنهم مهتدون على دين أبيهم إبراهيم!..

أما تلك الأصنام التي عبدوها فما كان لاعتقادهم بألوهية لها كألوهية الله –سبحانه– فقد صرح القرآن الكريم بحقيقة تصورهم الاعتقادي فيها، وبسبب تقديمهم الشعائر لها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [سورة الزمر: ٣]، فهذا كان مبلغ تصورهم لها، مجرد شفعاء عند الله، وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة، ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلاً في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام، وإلا فإن الحنفاء، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا الشعائر لله وحده ما اعتبروا مسلمين [(١)]، إنما تمثل الإسلام في الاعتقاد والشعائر وإفراد الله سبحانه بالحاكمية، والذين لا يفردون الله سبحانه بالحاكمية – في أي

(١) كلام سيد هذا عن الحنفاء فيه نظر .

زمان ومكان – هم مشركون، لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله – مجرد اعتقاد – ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده، فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين – إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر إفراد الله سبحانه بالحاكمية ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده، وهذا وحده هو الإسلام، لأنه وحده مدلول شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء! ثم أن يجتمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية.

وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا " مسلمين " فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقاداً وتعبداً، فإن هذا وحده لا يجعل الناس " مسلمين " ما لم يتحقق لهم أنهم يفردون الله – سبحانه – بالحاكمية ويرفضون حاكمية العبيد، ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادته الجاهلية.

إن كثيراً من المخلصين الطيبين تخدعهم هذه الخدعة، وهم يريدون لأنفسهم الإسلام ولكنهم يخدعون عنه، فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية والوحيدة، وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم " المشركين " لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته – كما تبين – ويقدمون له شفعاء من الأصنام وكان شركهم الأساسي يتمثل – لا في الاعتقاد – ولكن في الحاكمية!...

إن العصبة المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق، ويجب ألا تتلجلج فيها أي تلجلج، ويجب أن تعرف الناس بها تعريفاً صريحاً واضحاً جازماً، فهذه هي نقطة البدء والانطلاق، فإذا انحرفت الحركة عنها – منذ البدء – أدنى انحراف ضلت طريقها كله، وبنت على غير أساس مهما توافر لها من الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضي في الطريق " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩١– ١٤٩٣ بتصرف يسير .

١٣- النص الثالث عشر:

في ظلال قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾} [سورة يونس: ٨٧]، يقول سيد: " وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، ولقد يستهين قوم بهذا التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً في ساعة الشدة، وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة، وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة،، وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

- اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها – ما أمكن في ذلك – وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة

على نفسها، لتطهرها، وتزكيها، وتدربها وتنظمها حتى يأتي وعد الله لها،

- اعتزال معابد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها، على نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور " (١).

هذا النص استنبط منه البعض أن سيداً – رحمه الله – يسمي المساجد اليوم معابد جاهلية ويدعوا إلى اعتزالها! وبالتالي فهذا دليل على أنه يقول بكفر المجتمعات الإسلامية وأفرادها (٢).

***والذي يتأمل النص السابق يجد:** أن سيداً – رحمه الله – لم يطلق قوله ويلقيه على عواهنه كما فهم البعض، بل بيّن– رحمه الله – المناسبة وهي قوله: " وقد يجد المسلمون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة " وهي الحالة التي كانت تعيشها العصبة المؤمنة من قوم موسى –

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٨١٦ .

(٢) ينظر في ذلك : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره . د/ ربيع المدخلي ، ص ٧٩ .

عليه السلام – على عهد فرعون، ففي هذه الحالة يرشدهم الله إلى اعتزال معابد الجاهلية، ولا شك أن الأمر إذا وصل بالمسلم إلى الحالة التي ذكرها سيد من ظهور الفتنة، واضطهاد من يغشون المساجد، وتعقبهم في أنفسهم بالاعتقال والحبس، وفي أموالهم بالمصادرة، وأعمالهم بالفصل، وأن يكون المجتمع قد نتن، وفسدت بيئته، مع تجبر الطاغوت كما كان الأمر في عهد فرعون، فهنا لا تثريب على الفئة المضطهدة أن تعتزل المساجد وتصلي في البيوت.

ويبقى أمر آخر، وهو هل يصح أن يطلق على المساجد أنها معابد جاهلية؟

والجواب: أنه يمكن أن توصف بعض المساجد بأنها معابد جاهلية، كما هو الحال بالنسبة لمعابد القاديانية (١) التي تزعم أن (الميرزا غلام أحمد) نبي مطبوع بطابع سيدنا محمد وتقام فيها العبادات المحرفة.

---

(١) القاديانية :حركة نشأت عام ١٩٠٠م ،بدعم من الاستعمار الانجليزي في الهند ، على يد ميرزا غلام أحمد ، أحد عملاء الاستعمار الانجليزي، الذي ادعى أنه المهدي ، ثم زعم أن روح المسيح حلت فيه ، ثم ادعى النبوة ونسخ الجهاد ، ثم ادعى الألوهية ،   انظر : الموسوعة الميسرة ، ص٣٧٨ .

وأيضاً يمكن أن يقبل وصف بعض المساجد بأنها معابد الجاهلية في الحالات التي تُمَارس فيها أعمالٌ جاهلية، كالصلاة إلى القبور الموجودة فيها والطواف حولها والتمسح بها ودعاء الأموات ونحو ذلك.

وكذلك أيضاً المساجد التي يتخذها بعض الحكام أداة لأعمال الجاهلية كالتصفيق له والهتاف له ولجاهليته.

وهذا مثل وصف الله مسجد المنافقين بمسجد الضرار في قوله تعالى: {وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾} [سورة التوبة: ١٠٧-١٠٨]، حيث نهى الله النبي ﷺ أن يصلي فيه؛ لأنه مسجد للضرار، كما أن الله تعالى قد وصف صلاة الجاهلية بقوله{ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾} [سورة الأنفال: ٣٥] " (١).

---

(١) سيد قطب بين العاطفة والموضوعية ، لسالم البهنساوي ، ص ٧٤ وما بعدها . بتصرف.

ولعل سيد يقصد اعتزال المساجد عندما تكون العبادة فيها على منهج غير صحيح كما تشير إليه عبارته " وتزاول فيها – أي البيوت – عبادتها على منهج صحيح " (١).

فإذا كان حال بعض المساجد ما ذكر فهي من معابد الجاهلية، أما إطلاق الوصف على المساجد عموماً فلا يصح، وإن صح اعتزال الصلاة فيها لسبب الخوف أو نحوه والله أعلم.

١٤- النص الرابع عشر:

في ظلال قوله تعالى{ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾} [سورة التوبة: ١٢٢]، يقرر سيد – رحمه الله – أن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به، وبالتالي فالفقه الإسلامي هو وليد للحركة بالإسلام، وليس العكس، قد وجدت الدينونة لله وحدة، ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده، والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه، ثم أخذ

(١) في ظلال القرآن ١٨١٦/٣ .

هذا المجتمع يزاول الحياة فعلاً وفق المبادئ الكلية في الشريعة – إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة، وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده واستحياء شريعته وحده تحقيقاً لهذه الدينونة، جدت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية في حياته، وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية، وبدأ نمو الفقه الإسلامي، فالحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه، والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه، ولم يكن قط فقهاً مستنبطاً من الأوراق الباردة، بعيداً عن حرارة الحياة الواقعة! من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين، يجيء فقههم للدين من تحركهم به، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حي، يعيش بهذا الدين، ويجاهد في سبيله، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة.

ثم يقول: " فأما اليوم.. "فماذا "؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته لله وحده والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد، والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته، والذي رفض بالفعل شرعية أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد؟ لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام، ويفقه منهجه وتاريخه، إلى محاولة تنمية الفقه

الإسلامي أو " تجديده " أو " تطويره " في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التي بها تعيش، ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده، وتقرير مبدأ أن لا حاكمية إلا لله، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمداً من شريعته وحدها تحقيقاً لتلك الدينونة "(١).

ويؤكد أيضاً في مقدمة تفسير سورة الحجر، على أن سمة هذا القرآن هي الواقعية والحركية، وأنه لا بد من أن استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية والعملية التي صاحبت نزول النص القرآني،.. وأنه لا يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلاً بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تواجهه الجاهلية في عصرها، وبالتالي فنحن اليوم في شبه الموقف لا في مثله وهذا الاختلاف يقتضي اجتهاداً " جديداً في " فقه الحركة " يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى، وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلاً أو كثيراً، هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامي الوليدة أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة، وشرائع المجتمع المنظم والمستقر، فهذا ليس أوانه، إنه

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٧٣٤- ١٧٣٦ بتصرف .

ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي!! هذا النوع من الفقه يأتي في حينه، وتفصل أحكامه على قدر المجتمع المسلم حين يوجد، ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك، إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا تستنبت بذوره في الهواء! " (١).

كما يقرر – رحمه الله – أن نقطة المتاهة تبدأ من افتراض أن المجتمعات القائمة اليوم هي المجتمعات الإسلامية، لأنها بتركيبها العضوي الحاضر، تعتبر بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغاً لا يمكن أن تطبق فيها أحكام النظام الإسلامي، لأنها قائمة أصلاً على قيم وموازين واعتبارات وأخلاق وتصورات مختلفة تماماً عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم،... ثم ضرب أمثلة لكثير من القضايا التي تبحث اليوم في ظل غياب الحكم الإسلامي كقضايا الإمارة واختيار الإمام وأهل الشورى، والبنوك وشركات التأمين، وتحديد النسل وغيرها من القضايا التي نتجت عن غياب حاكمية الشريعة واستبدالها بالقوانين الجاهلية، وبالتالي لا يمكن

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٢١٢١– ٢١٢٢ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً ٤/ ٢٠٠٧ – .

تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه على مجتمعات السيادة فيها لقوانين الجاهلية.

ويرى أنه لا بد من إيجاد المجتمع المسلم أولاً بتركيبه العضوي الطبيعي، ليكون وسطاً صالحاً لتطبيق الفقه الإسلامي، وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الإسلامي – إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل وغيرها وقد لا يحتاج.

ومن هنا تظهر محنة هؤلاء الباحثين عندما يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه! ولكن الأمر غير ذلك تماماً، إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه، وأن تحور من واقعها الجاهلي، وتغير حتى تتم هذه المطابقة، وهذا التحور يكون بتحقيق ألوهية الله في الأرض، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت، بتحكم شريعة الله وحدها في حياتهم...

وقد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية، وأن يقولوا للناس – وللذين يستفتونهم بوجه خاص – تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه، أو بعبارة أخرى تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده، وأشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها

الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به، وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء، وتقرير ربوبيته – أي حاكميته وسلطانه – وحده في حياة الناس بجملتها، وتنحية ربوبية العباد للعباد، بتنحية حاكمية العباد للعباد، وتشريع العباد للعباد، وحين يستجيب الناس – أو الجماعة منهم – لهذا القول، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود، وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً.

" وهذا لا يعني – بحال – أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية، ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه – بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائماً الآن فعلاً، ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقاً بقيام ذلك المجتمع.

وإدراك هذا الأمر بهذه الطريقة هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البنّاء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي، بعد أن انقطع هذا الوجود الحقيقي للإسلام منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين، وخلا وجه

الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام وإن بقيت المآذن والمساجد، والأدعية والشعائر، تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين، وتوهمهم أنه لا يزال بخير، وهو يمحى من الوجود محواً " (١).

والملاحظ في هذه النصوص التي نقلتها على طولها:

أن سيداً – رحمه الله – يبيّن وضع المجتمع المسلم الأول الذي نشأ على عهد رسول الله ﷺ، والذي كانت الدينونة فيه لله وحده في جميع شؤون الحياة، وفي ظل مزاولة المجتمع للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده نمى الفقه الإسلامي واستنبط الفقهاء الأحكام لما استجد في حياتهم الواقعية من خلال حركتهم بهذا الدين.

ويقارن بين ذلك المجتمع وبين المجتمعات الإسلامية اليوم في هذا الأمر! ويخلص من خلال استقراء وضع الأنظمة والمجتمعات القائمة اليوم إلى أنه لا يوجد فيها دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قرر أن تكون دينونته لله وحده في كل شئون حياته وأن تكون قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي، ويرفض فعلاً أي تشريع لا يجيء من شريعة الله

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٦– ٢٠١٣ بتصرف .

سبحانه، بسبب علمانية هذه المجتمعات وقيام الأنظمة التي تحكمها على إقصاء شريعة الله كلياً أو جزئياً وكلاهما سواءٌ.

وإذاً: فمحاولة تنمية الفقه الإسلامي وتطويره في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداءً بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة، يتنافى مع واقعية هذا الدين، فكثير من الاختلالات في الواقع سببها غياب الحكم الإسلامي واستبداله بقوانين الجاهلية. وبالتالي لا يمكن تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه على مجتمعات السيادة فيها لقوانين الجاهلية.

ومن هنا يرى سيد – رحمه الله – أن الواجب على الدعاة أن يستعلوا بالإسلام، وأن يجهروا للناس بحقيقة الأوضاع القائمة اليوم وبعدها عن شرع الله وأن يدعوا المجتمعات إلى العودة إلى الدين وتحكيم شريعة الله وحدها في الحياة، فهذا هو بداية الطريق للعمل الجاد للدين.

ويقرر أن هذا الكلام لا يعني أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية، ولكن يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له والذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائماً الآن فعلاً، بسبب إقصاء حاكمية الشريعة خلال القرنيين الماضيين من الوجود في المجتمعات الإسلامية أو أغلبها.

* **وكلامه هنا** عن عدم وجود الدولة المسلمة اليوم هو نفس كلامه في" المعالم " عن عدم وجود الأمة المسلمة اليوم حيث يقول في مقدمة المعالم: " والأمة المسلمة جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي، وهذه الأمة بهذه المواصفات قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً " (١).

فانقطاع وجود الأمة المسلمة عند سيد – من خلال كلامه في مواضع متفرقة– يعني: سيادة التشريعات العلمانية " اللادينية " على كافة مرافق البلاد الإسلامية، كلياً أو جزئياً بحيث يمكن القطع بأنه لا يوجد مجتمع الدينونة فيه لشريعة الله وحدها فقط في كل جوانب الحياة، بحيث تنبثق حياة المجتمع وتصوراته وأوضاعه وأنظمته وقيمه وموازينه من المنهج الإسلامي وحده.

---

(١) معالم في الطريق ، سيد قطب ص ٨ .

والقول بعدم وجود الأمة المسلمة بهذا المفهوم لا يعني أن أفراد الأمة المسلمة كفار كما فهم البعض من خلال كلام سيد السابق [1].

لأن كلام سيد عن الأمة كشخصية معنوية متمثلة في الدولة ومؤسساتها الدستورية من تشريعية وتنفيذية وقضائية، ولا يتعلق هذا الحكم بالأفراد ٠

ويوضح سيد نفسه هذا الأمر عندما سئل عن معنى قوله بانقطاع وجود الأمة المسلمة منذ مدة فقال: " لا بد من تفسير مدلول كلمة " الأمة المسلمة " التي أعنيها، فالأمة المسلمة هي التي تحكم في كل جوانب حياتها، الفردية والعامة، والسياسية والاجتماعية، والاقتصادية بشريعة الله ومنهجه، وهي بهذا الوصف غير قائمة الآن، وإن كان هذا لا يمنع من وجود الأفراد المسلمين، لأنه فيما يختص بالفرد الاحتكام يكون إلى عقيدته وخلقه، وفيما يختص بالأمة، الاحتكام إلى نظام حياتها كلها " [2].

---

(١) انظر : مجلة الشهاب اللبنانية العدد ٢١ ، صفر عام ١٣٩٣هـ . مقال كتبه: عبد الله أبو عزة ، نقلاً عن : أضواء على معالم في الطريق للمستشار سالم البهنساوي ص ٢٥.

(٢) جاء ذلك في محاضر تحقيقات نيابة أمن الدولة، القضية ١٩٦٥/١٢م ،انظر : الموتى يتكلمون ، لسامي جوهر ، ص ١٣٣ وكذلك: أضواء على معالم في

فمن أعلن الإسلام باللسان، ولم يظهر ما يوجب كفره، لا نستطيع الحكم عليه بالكفر، يقول سيد: " فالله أمر المسلمين إذا خرجوا غزاة ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا، وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان، إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان " (١).

١٥- النص الخامس عشر:

في فصل " لا إله إلا الله منهج حياة " من كتابه "معالم في الطريق"، يقرر سيد – رحمه الله – أن العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن التلقي عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية، هو شطرها الثاني، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله.

وأن "المسلم "هو الذي يتمثل هذه القاعدة بشطريها ويقوم بمقتضياتها المتمثلة ببقية أركان الإيمان وأركان الإسلام.

وأن "المجتمع المسلم "هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً، وبغير ذلك لا يكون مسلما.

الطريق ، للمستشار سالم البهنساوي ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ومعالم في الطريق ص ٨ .

(١) في ظلال القرآن، ٢/٧٣٧ .

ثم يخلص إلى أن ما سوى المجتمع المسلم بهذا المفهوم فهو جاهلي، ويحدد المجتمع الذي يلحقه وصف الجاهلية فيقول: " إن المجتمع الجاهلي هو: كل مجتمع غير المجتمع المسلم! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية، وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار " المجتمع الجاهلي " جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً!!.

*** تدخل فيه المجتمعات الشيوعية:**

أولاً: بإلحادها في الله – سبحانه – وبإنكار وجوده أصلاً ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى " المادة " أو " الطبيعة "..

ثانيا: بإقامة نظام العبودية فيه للحزب.. لا لله سبحانه، وما ترتب على ذلك التصور والنظام من إهدار لخصائص الإنسان، وتسويته بالآلة والحيوان..

* وتد**خل فيه المجتمعات الوثنية**، وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية:

أولاً: بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله – معه أو من دونه –.

وثانياً: بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها.

وثالثاً: بإقامة أنظمة وشرائع المرجع فيها لغير الله وشريعته، سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ، أو استمدت من هيئات "مدنية علمانية " تملك سلطة التشريع.. ولها الحاكمية العليا باسم الشعب أو باسم الحزب أو باسم كائن من كان..

*** وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً:**

أولاً: بتصورها الاعتقاد المحرَّف، الذي لا يفرد الله – سبحانه – بالألوهية، بل يجعل له شركاء في صورةٍ من صور الشرك، سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو بتصوير الله سبحانه على غير حقيقته، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها، كقولهم "عزيرابن الله " و " المسيح ابن الله " و " الله ثالث ثلاثة " و " يد الله مغلولة " و "نحن أبناء الله وأحباؤه " [(١)].

ثانيا: بشعائرها التعبدية، ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة.

---

(١) ينظر الآيات : ٣ من سورة التوبة و ٧٣ ، ٦٤ ، ١٨ من سورة المائدة .

<u>ثالثا</u>: بأنظمتها وشرائعها، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده بالإقرار له وحده بحق الحاكمية، بل تقيم هيئات من البشر لها حق الحاكمية العليا.. وقد وصمهم الله قديماً بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان وقبلوا ما يشرعونه(١).

فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحباراً ولا رهباناً.. وكلهم سواء.

<u>* وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها"مسلمة"!</u>

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد ألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً، ولكنها تدخل في هذا الإطار:

- لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فهي – وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله – <u>تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها، وقيمها وموازينها، وعاداتها وتقاليدها، وكل مقومات حياتها تقريباً</u>، والله يقوله عن الحاكمين:

(١) ينظر : الآية ٣١ من سورة التوبة

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾} [سورة المائدة: ٤٤].

عن المحكومين: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ}الى أن يقول: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾} [سورة النساء: ٦٠-٦٥]، كما أنه – سبحانه – قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم " مسلمون " لناس منهم!، وأعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء، فهذه كتلك – خروج من العبودية لله وحده، فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة " علمانيته " وعدم علاقته بالدين أصلاً، وبعضها يعلن أنه " يحترم الدين " ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً، ويقول أنه ينكر" الغيبية " ويقيم نظامه على " العلمية " باعتبار أن"

العلميـة" تنـاقض" الغيبيـة"! وهـو زعـم جاهـل لا يقـول بـه إلا الجُهّال (١).

وبعضـها يجعـل الحاكميـة الفعليـة لغيـر الله ويشـرع مـا يشـاء ثـم يقـول عمـا يشـرعه مـن عنـد نفسـه: هـذه شـريعة الله!.. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده، فإذا تعين هـذا، فـإن موقـف الإسـلام مـن هـذه المجتمعـات الجاهليـة كلهـا يتحـدد فـي عبـارة واحـدة: " أنـه يـرفض الاعتـراف بإسـلامية هـذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره " **والسبب** أن الإسلام لا ينظـر إلـى العنوانـات واللافتـات والشـارات التـي تحملهـا هـذه المجتمعـات علـى اختلافهـا، إنهـا كلهـا تلتقـي فـي حقيقـة واحـدة هـي: " أن الحيـاة فيهـا لا تقـوم علـى العبوديـة الكاملـة لله وحـده، وهي من ثم تلتقي – مع سائر المجتمعات الأخرى– في صفة واحدة صفة " الجاهلية " (٢).

هذا النص – الذي نقلته على طوله – يعالج فيه سيد – رحمه الله – فكرة أساسية وهي: متى يكون المجتمع مسلماً؟

---

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ في ظلال القرآن ٢/ ١١١٣ وما بعدها

(٢) معالم في الطريق ، فصل " لا إله إلا الله منهج حياة " ص ٩٢– ١٠٧ بتصرف .

حيث يقرر: أن المجتمع يكون مسلماً إذا كانت العبودية فيه خالصة لله وحده، في الجانب الاعتقادي وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية على حدٍ سواء. وما لم يكن كذلك من المجتمعات فهو مجتمع غير مسلم أو " جاهلي " والنتيجة التي أوضحها أنه يدخل في إطار المجتمع الجاهلي:

١- المجتمعات الشيوعية.

٢- المجتمعات الوثنية.

٣- المجتمعات اليهودية والنصرانية المعاصرة.

٤- المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة.

وهذه العبارة الأخيرة تمسك بها أناس وبنو عليها القول بأن سيد قطب يكفر المجتمعات المسلمة وعامة الناس بدون ضوابط (١).

<u>*والذي يقرأ النص كاملاً يجد:</u>

<u>أولاً:</u> أن سيداً – رحمه الله – ينطلق من فكرة أساسية عنده، في اعتبار هذه المجتمعات جاهلية وهي: " أن الجاهلية ليست إسماً لمرحلة تاريخية سابقة للإسلام وكفى، بل إنها تنطبق انطباقا حرفياً على كل وضع – بصرف النظر عن اعتبارات الزمان والمكان – إذا كان هذا الوضع مشابهاً لتلك

---

(١) ينظر : أضواء على عقيدة سيد قطب وفكره ، د / ربيع المدخلي ص ٧٤ ، وما بعدها .

المرحلة التاريخية السابقة للإسلام، فكل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله هو جاهلية، ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف " (١).

فهو يرى أن "الجاهلية " كما يصفها الله ويحددها قرآنه هي: حكم البشر للبشر، لأنها عبودية البشر للبشر، والخروج عن عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر، وبالعبودية لهم من دون الله، وبالتالي ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام.

والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أن يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعض منها –ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله، وإما أن يحكمون بشريعةٍ من صنع البشر – في أي صورة من الصور– ويقبلونها فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يُحكَمون بشريعته وليسوا بحال في دين الله، والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٨ و ١٢٥٦ ،

الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ويعيش في الجاهلية، وهذا هو مفرق الطريق " [1].

فالجاهليـة إذن عنـد سـيد مرتبطـة ارتباطـاً مباشـراً بالحاكمية، فإذا كانت الحاكمية في مجتمع ما ليست لله، فهذا المجتمع في جاهلية.

ثانيا: أن وصف سيد للمجتمعات بالجاهلية هو وصف قاصـر علـى المجتمـع ومناهجـه وقوانينـه كشخصـية معنويـة مستقلة عن شخصيات أفراده، ويتضح ذلك من خلال كلامه عن الجاهلية في مواضع مختلفة، حيث نجده أنه يفرق بين المجتمع كشخص اعتباري أو معنوي، يتمثل في المؤسسات الدستورية، وبين الأفراد الذين يعيشون فيه.

فـالمجتمع والأمـة يحكـم لهـا بالإسـلام إذا كـان نظـام حياتها في جميع جوانبها إسلامياً، أي قائماً على شريعة الله وحده، فإذا لم يكن المجتمع والأمة كذلك فلا تسمى إسلامية لعدم توفر مقومات هذا الوصف وتوصف بالجاهلية.

لكن هذا لا يمنع من وجود الأفراد والمسلمين، لأنه فيما يخص الفرد يكون الاحتكام إلى عقيدته وخلقه، وفيما يخص الأمة والمجتمع يكون الاحتكام إلى نظام حياتها.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤ .

وبالتالي فوصف المجتمع بالجاهلية أو الكفر لا يلحق كل الأفراد، إذا كانوا متمسكين بالإسلام كما أن وصف المجتمع بالإسلام لا يعني أن كل فرد فيه يكون مسلماً، فالمجتمعات والدول والأنظمة غير الأفراد فيمكن أن يكون المجتمع أي النظام والدولة كافراً وأكثر مواطنيها مسلمون، والعكس قد يكون المجتمع أي النظام والدولة مسلمة وفيها غير مسلمين، وهذا ما عناه سيد من كلامه عن عدم وجود الأمة المسلمة أو المجتمع المسلم اليوم [١]، فالذي يحدد الصفة العقائدية لمجتمع ما هو العلاقات التي تنظم شؤون الأفراد، لا مجموع صفة الأفراد [٢].

ثالثاً: إذا تقرر ما سبق نستطيع أن نفهم كلام سيد عن جاهلية المجتمعات هو جاهليتها في نظمها وأخلاقها وسائر شؤون حياتها، فوصفها بالجاهلية مرتبط بحاكمية العباد للعباد، ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد، وهذا الرفض لحاكمية الله المطلقة للعباد وهو كفر صريح، وقد وضح سيد حيثيات هذا بقوله: " وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة علمانيته " أي "لادينيته " وعدم علاقته بالدين أصلاً، وبعضها يعلن أنه يحترم

---

(١) الموتى يتكلمون ، لسامي جوهر ، ص ١٣٣

(٢) في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي . نقلاً عن مقال للشيخ / فيصل مولوي ، في مجلة الشهاب ، العدد ٣ سنة ١٣٩٣هـ.

الدين ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً.. وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله، ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه هذه شريعة الله، وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده، وإذا تعين هذا فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره، لأن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها.. لأنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة هي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده، فهي جميعاً تشترك في صفة " الجاهلية " [(١)].

فحكمه على المجتمعات الإسلامية اليوم بالجاهلية ليس بناءً على صفة أفرادها، وإنما على الأنظمة والمناهج والتشريعات والمبادئ والأعراف الموجودة اليوم وأغلبها قائمة على غير شريعة الله فهي إذن جاهلية. ولا بد من التفريق بين ثلاثة أمور في كلام سيد:

١) النظام الذي يحكم المجتمع.
٢) المجتمع والأفراد بصفتهم الجماعية.
٣) الأفراد بصفتهم الفردية. وبيان ذلك كما يلي:

---

(١) معالم في الطريق ،ص١٠٣ .

الأمر الأول: النظام الذي يحكم المجتمع والأمة، وهو مجموعة القوانين والتشريعات والمبادئ والنظم التي تصرف شؤون الناس، والنظم القائمة اليوم في المجتمعات نظم جاهلية قائمة على غير شريعة الله كما يقول سيد: لأن " بعضها يعلن صراحة علمانيته وعدم علاقته بالدين أصلاً وبعضها يقصر الدين على بعض جوانب الحياة فقط، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويعطي حق التشريع المطلق لغير الله سبحانه أفراداً أو هيئات.

الأمر الثاني: المجتمع والأفراد (بصفتهما الجماعية لا الفردية) ممن يعيشون في ظل الأنظمة وهؤلاء يحكم عليهم بالجاهلية والكفر إذا كانوا راضيين بحكم غير الله، ويقبلون التحاكم إلى غير الله، ويرفضون شريعة الله.

وهذه الضوابط في تكفير المجتمع بصفته الجماعية واضحة في كلام سيد السابق وغيره. حيث يقول في النص السابق: " والناس في أي زمان وفي أي مكان – إما أن يحكمون بشريعة الله – ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله، وإما أن يحكمون بشريعة من صنع البشر – في أي صورة من الصور – **ويقبلونها**، فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحالٍ في دين الله، والذي

لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ويعيش في الجاهلية وهذا هو مفرق الطريق" [(١)].

ويقول أيضاً: مبيناً أن شرط تكفير المجتمع هو رضاه بحكم غير الله وإرادته التحاكم إلى الطاغوت في ظلال قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾} [سورة النساء: ٦٠]: " ألم تر هذا العجب العاجب، قوم يزعمون الإيمان، ثم يهدمون هذا الزعم في آنٍ؟!، قوم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك.. ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك..؟ إنما **يريدون** أن يتحاكموا إلى شيء آخر، وإلى منهج آخر وإلى حكم آخر، **يريدون** أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك... وهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا عن ظن، إنما يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً أن هذا الطاغوت محرم التحاكم

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٠٤ .

إليه، " وقد أمروا أن يكفروا به " فليس في الأمر جهالة ولا ظن، **بل هو العمد والقصد..** " [1].

ويقول أيضاً: " وحين تنظر إلى وجه الأرض اليوم، فإننا نرى الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – **إلا من عصم الله، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً.. إلا في حدود الإكراه**" [2].

فسيد يشترط لإطلاق حكم الكفر على المجتمع إرادة التحاكم إلى الطاغوت، والرضى بغير حكم الله، وهذا هو ما اتفق عليه علماء المسلمين في جميع الأمصار والأعصار [3].

الأمر الثالث: الأفراد بصفتهم الفردية، وهؤلاء يكون الحكم عليهم –كما يقول سيد –من خلال عقيدة كل فرد وخلقه، فمن أعلن الإسلام باللسان، ولم يظهر ما يوجب كفره لا

---

(١) في ظلال القرآن ٦٩٤/٢ بتصرف يسير .. وينظر أيضاً ٨٩٥/٢ ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩، ١٨٠.

(٢) في ظلال القرآن ، ١١٩٨/٣.

(٣) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٢ من مقدمة محمد قطب للكتاب .

نستطيع أن نحكم عليه بالكفر إذا لم يكن هناك دليل يناقض قول اللسان (١).

* فهذه التفرقة بين الأمور الثلاثة واجبة لفهم فكر الرجل ومنهجه في التكفير على حدٍ سواء.

وبسبب عدم التفرقة بينها وقع من وقع في الخلط بين الحكم على الأفراد المعينين بالكفر وبين الحكم على النظام الذي يحكم بغير شريعة الله والمجتمع الذي يتقبل ويرضى غير شرع الله فادعى أن سيد يكفر المجتمعات المسلمة وأعيان الناس بدون ضوابط (٢).

الفرع الثاني: حقيقة نسبة تكفير المسلمين إلى سيد قطب

ينطلق القائلون بأن سيد قطب يكفر المسلمين عموماً بدون ضوابط من منطلقات هي:

---

(١) ينظر كلام سيد في : في ظلال القرآن ٢/ ٧٣٧ ، والموتى يتكلمون لسامي جوهر ، ص ١٠٣، نقلاً عن محاضر التحقيق

(٢) ينظر في الموضوع أيضاً : مجلة المنار الجديد العدد١٩ ذو الحجة ١٤٢٥هـ ، مقال بعنوان هوية الفرد وهوية المجتمع ، نظرات في فكر سيد قطب ، للدكتور طارق عبد الحليم ص ١١٣ .

أولاً: النصوص التي يصف فيها سيد المجتمعات الإسلامية بالجاهلية والردة، أو ينفي عنها صفة الإسلام.

ثانيا: أقوال تنسب فكرة التكفير إلى كتابات سيد، سواءً أقوال جماعات التكفير التي اتخذت من بعض الألفاظ والنصوص عند سيد متكئاً لها، أو بعض الشخصيات التي نسبت التكفير إلى كتابات سيد.

ويمكن بيان حقيقة الأمرين فيما يلي:

أولاً: أما النصوص التي يستند إليها القائلون بأن سيد قطب يكفر المسلمين بدون ضوابط، فقد تبين لنا من خلال استعراض النصوص السابقة وعددها خمسة عشر نصاً، والوقفات التي تلت كل نص ما يأتي:

١- أن كلام سيد كان منصباً في أغلبها على وصف واقع المسلمين الأليم المتمثل في الجهل بحقيقة " لا إله إلا الله " وهي حقيقة يجدها كل من قرأ بتجرد، ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً كل من عرفه وعاصره ومنهم أخوه محمد قطب حيث يقول: " إن كتابات سيد قطب قد تركزت حول موضوع معين، هو بيان المعنى الحقيقي لـ " لا إله إلا الله " شعوراً منه بأن كثيراً من الناس لا يدركون هذا المعنى على حقيقته، وبيان المواصفات

الحقيقية للإيمان كما وردت في الكتاب والسنة، شعوراً منه بأن كثيراً من هذه المواصفات قد أهمل أو غفل عنه الناس، ولكنه مع ذلك حرص حرصاً شديداً على أن يبين أن كلامه هذا ليس مقصوداً به إصدار أحكام على الناس، وإنما المقصود به تعريفهم بما غفلوا عنه من هذه الحقيقة، ليتبينوا لأنفسهم: إن كانوا مستقيمين على طريق الله كما ينبغي، أم أنهم بعيدون عن هذا الطريق، فينبغي عليهم أن يعودوا إليه.

ولقد سمعته بنفسي أكثر من مرة يقول: " نحن دعاة ولسنا قضاة " إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس، ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله، لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي، وهو التحاكم إلى شريعة الله.

كما سمعته أكثر من مرة يقول: " إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لا تقبل الشك وهذا أمر ليس في أيدينا، ولذلك فنحن لا نتعرض لقضية الحكم على الناس، فضلاً عن كوننا دعوة ولسنا دولة، دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس، لا إصدار الأحكام عليهم " [1].

---

(١) رسالة من محمد قطب إلى صهره كمال السنانيري حول فكر الشهيد ، نشرت في مجلة المجتمع الكويتية العدد ٢٧١شوال ، ١٣٩٥هـ ، ونص الرسالة في كتاب "

وذكرت زينب الغزالي أيضاً بعد حوارٍ لها مع سيد، استغرابه من فهم البعض لكلامه على أنه تكفير للأفراد بأعيانهم، وأن هذا فهم خاطئ سيوضحه في الجزء الثاني من المعالم [١]، وأن كلامه كان لبيان حقيقة أن المجتمعات ابتعدت عن الإسلام إلى درجة جعلتها تفقد هذه الصفة [٢].

وقد جاء في محاضر التحقيق عن سيد قوله: " وقد قلت له [٣]ـــ إننا لم نكفر الناس، وهذا نقل مشوه، إنما نحن نقول: إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة وعدم تصور مدلولها الصحيح والبعد عن الحياة الإسلامية، إلى حالٍ تشبه حال المجتمعات الجاهلية، وإنه من أجل هذا، لا تكون نقطة البدء في الحركة هي قضية إقامة النظام الإسلامي، ولكن

الحكم وقضية تكفير المسلم ، لسالم البهنساوي ، ص ٢٧٤. وقد ذكر لي هذا بنصه عند مقابلتي له بمكة ٠

(١) أعدمت أصول هذا الكتاب قبل نشره ، انظر سيد قطب (من أعلام المسلمين) ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٣٢٢

(٢) من حوار مع زينب الغزالي ، في مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٦٥٦ لعام ١٤٠٢، ص٢١ ، وينظر في ظلال القرآن في الميزان ، د/صلاح الخالدي ص ٢٢٧.

(٣) أي عبدالرؤوف أبو الوفاء مندوب الإخوان إليه بعد البلبلة التي حصلت في أوساط الأخوان حول فكر سيد.

تكون: إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية، فالمسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس" [١].

٢- في بعض النصوص: كان الحديث عن تكفير من فعل بعض الأعمال الكفرية على سبيل العموم استناداً إلى النص القرآني الذي يتحدث عن الموضوع، كما في حديث سيد عن تكفير مستحل الربا وكذا الحاكم بغير ما أنزل الله، والمحكوم بغير ما أنزل الله إذا كان مريداً راضياً بذلك رافضاً لحكم الله، حيث يجد القارئ في كلام سيد ضوابط عند إطلاقه لفظ الكفر والشرك تبين مراده، كما سبق [٢].

٣- بالنسبة لتكفير أعيان الناس وأفرادهم في المجتمع المسلم، فالظاهر من النصوص السابقة أن سيداً – رحمه الله- قيد ذلك بأمور منها:

أ – **بلوغ الحجة للمعين وفهمها:** حيث يقول: " فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها ويحصل منها

(١) لماذا أعدموني ص ٣٦ ،٣٧ .

(٢) ينظر النصوص السابقة .

محتواه، فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب إن كذب بعد البلاغ ". [1]

ب- إرادة الكفر والرضا به وعدم الإكراه: حيث يقول: " وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء التقريرات الحاسمة – فإننا نرى الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية، ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً... إلا في حدود الإكراه " [2].

ويقول أيضاً: " على أنه بالرجوع إلى أصل القضية، وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم، هي أولى خصائص الألوهية، التي لا يدعيها لنفسه مؤمن ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك، وأن الذي يدعي حق الحاكمية، وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه، إنما يدعي حق الألوهية، وأن الذي يقره على هذا الادعاء أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند نفسه – إلا مكرهاً، كارهاً، منكراً باليد أو اللسان أو القلب – فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية، وأن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة، إنما يرفض

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٦.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٨ .

الاعتراف بألوهية الله سبحانه ولو في جانب من جوانب هذا الكون، وهو حياة البشرية – وأنه من يقره على هذا الرفض فإنما يشترك معه في رفض ألوهية الله سبحانه في هذا الجانب – وأن الذي يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه إنه مسلم لله – مما يزعم ذلك بلسانه – طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت وعدم التحاكم إلى شريعة الله، ومن باب أولى الحكم بالطاغوت، وعدم الحكم بما أنزل الله... وأن الحكم بما أنزل الله لا يتحقق إلا بالحكم بنص شريعة الله، والرجوع فيما يختلف فيه مما ليس فيه نص إلى الله والرسول لا إلا أي مصدر آخر سواه.. " (١).

والمتأمل في النص يجد: أن سيداً وضع قيوداً وضوابط للحكم بكفر الشخص منها:

١- الرضاء والإقرار بالكفر.

٢- إرادة التحاكم إلى غير الله.

٣- رفض حكم الله.

٤- وقبول حكم غير الله من غير إكراه، وأنه يستثنى الكاره والمكره، والمنكر بيده أو بلسانه أو بقلبه من هذا الحكم،

(١) مقومات التصور الإسلامي سيد قطب ، ص ١٧٩- ١٨٠ .

وهو ما عليه أهل السنة والجماعة من اعتبار مسألة الرضا وانعدام الإكراه سبباً في التكفير لمن فعل مكفراً.

وقد سبق معنا أن سيد – رحمه الله – يفرق بين تكفير المجتمع بصفته الجماعية كنظام ومؤسسات وقوانين وشرائع، وبين أفراد هذا المجتمع، حيث يرى أن الفرد المسلم يحكم له بالإسلام إذا نطق بالشهادتين ولم يعمل ما يناقضها، والحكم على الفرد بناءً على عقيدته وعمله (١).

ثانيا: شهادة بعض الأفراد على سيد بتكفير المسلمين:

باستقراء ما كُتب حول سيد نجد أن بعضهم ينسب إليه تكفير عموم المسلمين وأعيانهم بدون ضوابط، مستدلاً بأقوالٍ لأفراد على أنها شهادات على سيد تثبت ما نسب إليه، وأصحاب هذا الأقوال مشارب شتى:

١- إما كتاب من التيار العلماني أو الاشتراكي الذي يحمل العداء لكل ما هو إسلامي.

٢- وإما جماعات التكفير والهجرة بناء على فهمهم لنصوص من كلام سيد قطب.

(١) انظر : الملاحظات على النص الخامس عشر

٣- وإما بعض رموز وأفراد حركة الإخوان المسلمين [١]، أو بعض المندسين فيها [٢].

٤- وإما بعض المنتمين إلى التيار السلفي [٣].

وكلام هؤلاء كلهم في شهاداتهم على سيد بالتكفير ليس فيها نص واحد يدل على أن أحداً منهم سمع سيداً – رحمه الله – يقول " إن أفراد المسلمين اليوم كفاراً بالتعيين "، وإنما جميعهم ينسبون هذا الأمر إلى سيد بناءً على فهمهم للنصوص التي سبق ذكرها، والتي يطلق فيها سيد وصف الجاهلية على المجتمعات الإسلامية أو ينفي صفة الإسلام عنها أو عن بعض الأفراد، كما سبق بيانه من خلال استعراض تلك النصوص.

---

(١) منهم: فريد عبد الخالق ،في كتاب " الإخوان المسلمون في ميزان الحق "ص ١١٥ . ود/ يوسف القرضاوي ، في أولويات الحركة الإسلامية ص١١٠ .ومصطفى مشهور.

(٢) ومنهم : على عشماوي ، في كتابه التاريخ السري للإخوان المسلمين ص ٨٠ ، ١١٢.

(٣) كأبي عزة وكان من قيادة الإخوان سابقاً ، و الدكتور/ربيع المدخلي وغيره ، ينظر: مجلة الشهاب اللبنانية ، عدد٢١ بتاريخ ١٦/ ٢ / ١٣٩٣هـ ، وأضواء على عقيدة سيد قطب ، ربيع المدخلي ص ٧٤ وما بعدها.

وفَهْمُ هؤلاء ليس حجة كافية لإثبات التهمة، بل إن المتأمل في كلامهم جميعاً يجد أن وراء ذلك:

- إما العداء الديني كما هو حال العلمانيين .

- أو الخلاف التنظيمي أو الفكري مع سيد كما هو حال بعض من تكلم فيه من الإخوان أو السلفيين.

- أو عدم فهم مقصود كلامه وضوابطه لعدم جمعه للنصوص المتفرقة، أو غير ذلك من الأسباب.

وإذا كان هؤلاء يستندون إلى شهادة بعض الأفراد في نسبة التكفير لسيد بناءً على فهمهم لعباراته، فإن هناك أيضاً عدداً من العلماء المعاصرين له نفوا هذا التهمة استناداً إلى صريح كلامه لا إلى مفهوم كلامه ومنهم:

١- أخوه الشيخ محمد قطب – حيث يقول عن سيد: " ولقد سمعته بنفسي أكثر من مرة يقول: نحن دعاة ولسنا قضاة، إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس، ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله، لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي وهو التحاكم إلى شريعة الله ".

كما سمعته أكثر من مرة يقول: " إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرنية قاطعة لا تقبل الشك وهذا أمر ليس في أيدينا، لذلك نحن لا نتعرض لقضية الحكم على الناس

فضلاً عن كوننا دعوة ولسنا دولة، دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس، لا إصدار الأحكام عليهم" (١).

٢- الحاجة زينب الغزالي – رحمها الله –: " سئلت هل كان فكر سيد هو تكفير المجتمع – أي أفراده – قالت: " هذا وهمٌ توهمه بعض تلاميذ سيد، لقد جلست معه عندما سمعت بتلك الشائعة، وقلت له: إن منزلتي عند السيدات المسلمات تجعلهم يحترمنني احتراماً عظيماً، ولكنهم مستعدون أن ينسفوا كل هذا الاحترام، إذا علموا أنني أقول عنهم أو عن أحد من أقاربهم: إنهم كفار، واستغرب نفسه هذا القول، وتبين أن هذا فهم خاطئ لما كتبه، وبين أنه سيوضح هذا في الجزء الثاني من المعالم. **إن سيداً لم يكن يكفر الأفراد**، بل كان يرى أن المجتمعات ابتعدت عن الإسلام إلى درجة جعلتها تفقد هذه الصفة " (٢).

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٢٧١ عام ١٣٩٥هـ ، نقلاً عن كتاب الحكم وقضية تكفير المسلم ، لسالم البهنساوي ص٢٧٤.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٥٦٥، جماد آخر ١٤٠٢هـ ، ص ٢١، وكذلك فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ص٨٨.

٣- المرشد العام الثالث للإخوان المسلمين – عمر التلمساني [١]- رحمه الله – حيث يقول: " وتمتاز مؤلفاته – أي سيد- بالنقمة على الظلم في كل مظاهره، والحرص على رفع المعاناة عن كل الطبقات وما أراد الشهيد الأستاذ سيد قطب في يوم من الأيام أن يكفر مسلماً،.. وكثرة ترداده " للمجتمع الجاهلي " لم يقصد بها تكفير المجتمع، ولكن تشديد النكير على الظلمة والطغاة والمستغلين... وهو أسلوب تعرفه اللغة العربية، والذين يعرفون الشهيد سيد قطب، ودماثة خلقه، وحجم أدبه، وتواضعه ورقة مشاعره يعرفون أنه لا يكفر أحداً [٢].

٣- الأستاذ / عبد العليم خفاجي، حيث يقول: " لم يستطع فريق من الشباب أن يروا صلة بين طاعة قلوب هذه الوحوش الضارية وبين صحة انتسابها إلى الإسلام في إنسانيته المشرقة بالنور، فجرت من بعضهم أحكام تصف هؤلاء الظلمة من الحكام بالكفر، هم والمشاركين والساكتين عن الحق من

---

(١) هو:عمر بن عبد الفتاح التلمساني ،ولد في القاهرة سنة ١٣٢٢هـ ،تخرج من كلية الحقوق وعمل محاميا،عرف بالزهد والتواضع والجرأة في قول الحق ، تولى منصب المرشد العام للإخوان بعد الهضيبي ، توفي سنة ١٤٠٦هـ ، انظر : من أعلام الحركة الإسلامية للعقيل ،ص٥-١٠ ..

(٢) ذكريات لا مذكرات ، عمر التلمساني ، دار الطباعة الإسلامية ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٨٥م، ص ٢٨١ ، وسيد قطب للخالدي ص ٣٩٠.

مجموع هذه الأمة، واخذوا يسيئون فهم ما ورد في كتب الشهيد سيد قطب لتدعيم موقفهم، وحملنا الأخ إبراهيم الطناني المرحل إلى سجن طرة للعلاج رسائل للأستاذ سيد قطب بتفاصيل تفكير وسلوك هؤلاء الأخوة فأرسل منكرا عليهم ذلك قائلا: إنهم قد فهموني خطأ، وفي مرة ثانية قال غاضباً: لقد وضعت حملي على حمارٍ أعرج " (١).

٤- الدكتور عمر الأشقر(٢)، حيث يقول: " ولم يتفق الإخوان على أن سيداً كان يصرح في لقاءاته وجلساته وأحاديثه بتكفير المجتمع، ولكن كثيراً من كتاباته قد يُستنتج منها تكفير المجتمعات والأفراد، وتلك الاستنتاجات أمر طبيعي لتفاوت الأفهام أحياناً، ولتعمق المؤلف في معنى معين للتأكيد على

---

(١) حين غابت الشمس ، لعبد المنعم خفاجي ، دار الوفاء ، القاهرة ،ب .ت ،ص٤٥٤ ، وفكر سيد قطب لمحمد أبو صعيليك ص ٨٨ .

(٢) هو :عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر، من علماء أهل السنة المعاصرين ، ولد في نابلس بفلسطين سنة ١٩٤٠م ، درس في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ، وحصل على الدكتوراه من الأزهر ،له أكثر من ثلاثة عشر مؤلفاً في علوم الشريعة ، يعمل أستاذاً في الجامعة الأردنية . المصدر : موقع الشيخ الأشقر على الانترنت .

فكـرة مـا... كمـا أن سـيدا نفـى هـذا الـرأي عـن ن فسـه أثنـاء التحقيق.. " (١).

(١) مجلة المجتمع الكويتية عدد ٥٦٥ ، جماد آخر ١٤٠٢ – ص ٤٢، ٤٣، وفكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ص ٩٠.

الباب الثالث

وفيه تمهيد وأربعة فصول:

التمهيد: تعريف التوحيد وأقسامه.

الفصل الأول: منهجه في توحيد الربوبية.

الفصل الثاني: منهجه في توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الثالث: منهجه في توحيد الإلوهية.

الفصل الرابع: نواقض التوحيد والإيمان.

التمهيـد:

تعريف التوحيد وأقسـامه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف التوحيد وأقسامه.

المطلب الثاني: مفهوم التوحيد.

المطلب الأول: تعريف التوحيد وأقسامه

الفرع الأول: تعريف التوحيد لغة واصطلاحاً:

أولاً: التوحيد في اللغة:

مصدر وحَّد، يوحِّد، توحيداً، ومعناه: "إما جَعَلَه واحداً، أو اعتقده واحداً ". فمادة (وَحَدَ) في معاجم اللغة تدور حول انفراد الشيء بذاته أو صفاته أو أفعاله، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه. (١)

فالتوحيد لغة له معنيان:

الأول: جعل المتعدد واحداً، فمن جمع بين أقطار متفرقة يقال له: وحَّدها.

الثاني: اعتقاد الشيء واحداً، وهذا بمعنى النسبة إلى الوحدانية، ولا يتحقق إلا بنفي الحكم عما سوى الموحَّد، وإثباته له.

ثانياً: التوحيد اصطلاحاً:

تنوعت عبارات العلماء في تعريفهم للتوحيد والذي عليه أهل السنة والجماعة أن التوحيد هو: " إفراد الله بالعبادة مع الجزم بانفراده

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٦/٩٠، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ص ٤١٤، والتعريفات للجرجاني دار الريان – القاهرة ص ٩٦

في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.. " [١].

فالتوحيد في الاصطلاح يتضمن ثلاثة أمور: توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء، وتوحيد الإلهية وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له، والكلام في الصفات [٢].

الفرع الثاني: أقسام التوحيد وأنواعه عند أهل السنة ومخالفيهم:

أولاً: أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة:

لأهل السنة والجماعة طريقتان في بيان أقسام التوحيد وأنواعه:

الأولى: تقسيم التوحيد إلى قسمين هما:

١ – توحيد المعرفة والإثبات: ويسميه البعض التوحيد" العلمي" أو "الاعتقادي الخبري" ويقصد به ما يجب على المكلف اعتقاده في حق الله تعالى ذاتاَ ً وأفعالاً وصفاتاً، وهو توحيد الله تعالى بأفعاله وصفاته.

٢– توحيد الطلب والقصد والإرادة: ويسميه البعض بالتوحيد "

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصفهاني تحقيق محمد ربيع المدخلي، دار الاية، الرياض، ط٢ عام ١٤١٩ هـ ١/ ٣٣١– ٣٣٢، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨/ ٢٤٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٤.

العملي " ويقصد به: توحيد الله بأفعال العباد (١).

<u>الثانية:</u> تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع هي:

١- توحيد الربوبية: وهي انفراد الله بالخلق والتصريف.

٢- توحيد الأسماء والصفات: وهو إثبات أسماء الله تعالى وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه.

٣- توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بأفعال العباد (٢).

<u>ويحسن هنا التنبيه على أمورهي:</u>

<u>الأول:</u> أنه لا تعارض بين التقسيمين السابقين عند أهل السنة فمن جعل التوحيد قسمين فقد جمع الربوبية والأسماء والصفات في نوع واحد باعتبار مايجب لله في ذاته، وجعل الألوهية نوعاً آخر. ومن جعله ثلاثة أقسام فقد فصل في التقسيم.

<u>الثاني:</u> أن هذا التقسيم نابع من استقراء النصوص الواردة في الكتاب والسنة والتي تحدثت عن كل نوع من أنواع التوحيد.

---

(١) ينظر في ذلك: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٦٧/١، ومدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٤٤٩- ٤٥٠، ومعتقد أهل السنة والجماعة، لمحمد بن خليفة التميمي، دار الحريري – القاهرة، ١ / ٤٦.

(٢) ينظر في ذلك: شرح الطحاوية ص ٢٤، وفتح المنان للألوسي ص ٥٢١، وشرح الواسطية لابن عثيمين، دار ابن الجوزي – الرياض – ط٤، عام ١٤٢٤ هـ ص ٢١ – ٣٥

يقول ابن القيم – رحمه الله –: "..كل سورة في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن الكريم فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن:

- إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري – الربوبية والأسماء والصفات –.
- وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي – الألوهية –. [١].

فدليل التقسيم عند أهل السنة هو: الاستقراء، وهو دليل معتبر في شتى العلوم والمعارف.

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم ٣/ ٤٤٩– ٤٥٠.

الثالث: أن تقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة إلى أقسام لا يعني استقلال كل قسم عن الآخر بل هو تقسيم اصطلاحي، فأقسام التوحيد متلازمة يكمل بعضها بعضاً، ولا يمكن الاستغناء بأحدها عن الآخر، بل لا ينفع أحدها بدون الآخر (١).

الرابع: أن السبب في تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد هو انحسار المفاهيم الشرعية الصحيحة عند كثير من المسلمين للألفاظ والنصوص، وخاصة بعد حركة الترجمة لعلوم المنطق والفلسفة، واختلاط المسلمين بثقافات الشعوب المفتوحة، وكذلك ظهور المفاهيم الضالة في باب التوحيد عند كثير من الفرق المنتسبة للإسلام كالفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة، وقصرهم للتوحيد على بعض جوانبه دون بعض (٢).

مما حدا بأهل السنة إلى إبراز المفهوم الصحيح للتوحيد من خلال بيان ما يشتمل عليه من أنواع.

---

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩/ ٣٤٤، ومنهاج السنة لابن تيمية، تحقيق/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض، ط١، عام ١٤٠٦هـ، ٣/ ٢٨٩، وشرح الطحاوية، ص ٣٢، ودعوة التوحيد لهراس ٦٩-٧١، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، عام ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر: الشرك بالله أنواعه وأحكامه، ماجد شبالة ص ٣٢٥ وما بعدها.

ثانياً: أقسام التوحيد عند المخالفين لأهل السنة والجماعة:

١- أقسام التوحيد عند المتكلمين:

يقتصر أغلب [١] علماء الكلام في تعريفاتهم للتوحيد على إثبات الذات والصفات ونفي التعدد دون التعرض لتوحيد الألوهية مع ما رافق ذلك من نفي أوتأويل للصفات أو بعضها، " فالله واحد في ذاته لا شبيه له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له "[٢].

ويلاحظ: أن كلامهم يقتصر على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، ولعل ذلك يرجع إلى دخولهم معترك الرد على الفلاسفة والملاحدة، فكان جل كلامهم في إثبات وجود الله وربوبيته.

---

(١) هناك من المتكلمين من يذكر الألوهية في مفهوم التوحيد، كالباجوري في تحفة المريد ص ٥٩، وشرح العقائد النسفية، ص ٣٩، وضوء المعاني في شرح بدء المعالي، للملأ علي القاري، دار السعادة، تركيا، ص ١٣.

(٢) اشرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ١٢٨، ولملل والنحل للشهرستاني، ٤٢/١.

٢- الصوفية: ذهبت طوائف من المنتسبين إلى التصوف إلى تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هي:

أ - توحيد العامة: وهو توحيد الجمهور من غير الصوفية، الذي يعرفونه بالسمع وبالظواهر.

ب - توحيد الخاصة: وهو الذي يثبت بالمكاشفات.

ج - توحيد خاصة الخاصة: وهو التوحيد القائم بالقدم [١]، وهو ما انتهى اليه القائلون بالحلول والاتحاد والفناء.

بل يرى بعضهم أن التوحيد أمر غامض لا يمكن التعبير عنه كما يقول الشبلي[٢]: "ما شم روائح التوحيد، من تصور عنده التوحيد" [٣].

ولا شك أن تقسيم غلاة الصوفية للتوحيد مخالف لما دلت عليه

---

(١) ينظر في تقسيم الصوفية للتوحيد: منازل السائرين، لأبي إسماعيل الهروي، مطبعة البابي الحلبي، مصر -ط٢- ب. ت، ص٤٧، وروضة التعريف بالحب الشريف، للسان الدين الخطيب، دار الفكر، ب. ت ص ٤٩٧، بيروت، وقوانين حكم الإشراق للشاذلي، الكليات الأزهرية - القاهرة - ١٣٨٠هـ - ص ١٣.

(٢) هو: أبوبكر دلف بن جحدر، وقيل ابن جعفر، خرساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، من كبار الصوفية صحب الجنيد وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٧.

(٣) الرسالة القشيرية، لأبى القاسم القشيري، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ب. ت - ٢/ ٥٨٦، وروضة التعريف للخطيب، ص٤٩٩، وقوانين حكم الإشراق للشاذلي ص ١٠.

النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، حيث جعلوا " توحيد العامة " وهو ما جاءت به الرسل أدنى مراتب التوحيد، وكأن توحيد بعض القوم أكمل من توحيد الرسلوأدق، كما أن قولهم يفضي إلى القول بالحلول والاتحاد وإسقاط الشرائع [١].

---

(١) ينظر في ذلك: شرح العقيدة الطحاوية ص٥٣-٥٦، والشرك بالله أنواعه وأحكامه، ماجد شبالة، ٣٢٤ وما بعدها.

المطلب الثاني

مفهوم التوحيد

الفرع الأول: مفهوم التوحيد عند سيد قطب

ركز سيد قطب – رحمه الله – كثيراً على بيان مفهوم التوحيد الذي جاء به الإسلام، سواءً في وقفاته في ظلال كثير من الآيات أو في كتابه خصائص التصور الإسلامي ومقوماته والذي ألفه لبيان مفهوم التصور الإسلامي " العقيدة " كما جاءت في نصوص القرآن الكريم والسنة.

ومن خلال ما كتبه في هذا الباب نجد أن مفهوم التوحيد عنده يعني: إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وإفراده بالربوبية والألوهية، وإثبات تفرده في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك (١).

وسأورد بعض المقتطفات من كلامه لتعذر إيراد جميع النصوص في هذا الباب:

١- يقول – رحمه الله –: " إن الإسلام لما كان بصدد تقرير العقيدة الصحيحة، قرر أن عقيدة الإسلام القائمة على

---

(١) ينظر في حقيقة التوحيد عند سيد: كتاب مقومات التصور الإسلامي جملة، وخاصة فصل حقيقة الألوهية.

توحيد الله – سبحانه – وإفراده بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، بالاعتقاد في ألوهيته وحده، والتقدم إليه بالشعائر التعبدية وحده، والاعتراف بالحاكمية له وحده، والحكم بشريعته وحدها، والتحاكم إلى هذه الشريعة دون سواها، جعل هذا كله هو الدين، الذي لا يقبل الله من الناس غيره، وأن كل ما عداه باطل، وشرك أو كفر " (١).

٢- ويقول: " والمنهج القرآني يركز ابتداءً على التوحيد.. فالله سبحانه ذات واحدة لا تتعدد ولا تتبعض ولا تندمج معها ذوات أخرى، ولا تتلبس بها في صورة من صور الاندماج أو التلبس، هذه الذات الواحدة متصفة بصفات تتفرد بها كذلك فلا يشاركها فيها أحد، ومن وحدانية الذات وتفردها بهذه الصفات تتضح وحدانية الفاعلية والتأثير في الكون وما فيه ومن فيه: وحدانية الخلق والإنشاء، ووحدانية الملك والرزق والقوامة والتدبيروحدانية الهيمنة والسلطان في الدنيا وفي الآخرة سواء" (٢) . " وما دام الله تعالى هو المتفرد بالخلق والتدبير والقوامة...

(١) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب ص ١١٢- ١١٦، ١٤٨ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٣.

الخ، فيجب إذن أن يكون هو (الإله) المتفرد بالألوهية، الذي يتوجه إليه عباده وحده بالطاعة والاتباع لحكمه وشرعه (١).

٣- ويقول أيضاً " إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة، إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل.. " (٢).

ويقرر – رحمه الله – أن الاختلاف على حقيقة التوحيد كفر، بناءً على أن التوحيد هو دين الله الذي اختاره لعباده وهو الإسلام بمفهومه الشامل (٣).

ويتضح من خلال النصوص السابقة أن سيداً – رحمه الله – يفهم التوحيد على أنه إفراد الله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله وأفعال العباد أيضاً، وهذا أمر واضح في غالب كتاباته.

ومع ذلك فله رأي في مفهوم الألوهية والربوبية يخالف ما درج عليه أهل السنة والجماعة ويمكن بيان ذلك في الفرع الثاني .

---

(١) مقومات التصور الإسلامي، ص ٢٤٨و ٢٨٢.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٣.

(٣) المصدر السابق، ٣٨٠.

الفرع الثاني: مفهوم الألوهية والربوبية بين السلف وسيد قطب

يثير البعض قضية " عدم وضوح الربوبية والألوهية عند سيد قطب وفي ذهنه " [1]. ويدلل على ذلك ببعض النصوص التي يتحدث فيها سيد عن الألوهية والربوبية وموقف المشركين منهما، **ومن خلال جمع كلام سيد حول الربوبية والألوهية تبين لي:** أن سيد قطب لم يكن يجهل الفرق بين الربوبية والألوهية كما قيل عنه، ولم يكن عنده غبش في الرؤية لحقيقية الألوهية والربوبية، بل كانت الرؤية عنده لحقيقة التوحيد واضحة كما سبق ولكن الأمر يتعلق بقضية أخرى وهي: أنه- رحمه الله – كان له رأي في مفهوم الألوهية والربوبية، مخالف لما تعارف عليه كثير من أهل السنة، ولذلك التبس على من لم يجمع كلامه الأمر فظن أنه يجهل الفرق بينهما.

وحتى يتضح الأمر يمكن بيان مفهوم الألوهية والربوبية عند أهل السنة والجماعة، وعند سيد، وحقيقة الخلاف وسببه فيما يأتي:

أولاً: مفهوم الربوبية والألوهية عند السلف:

---

(١) عنوان لفصل في كتاب أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب " للدكتور / ربيع المدخلي ص ٦٩.

يرى جمهور السلف أن الربوبية تعني: " إفراد الله سبحانه وتعالى بأفعاله، أي الاعتراف بأنه سبحانه رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه وأن له وحده التدبير وتصريف الأمور كلها، وأن الألوهية تعني: " إفراد الله تعالى بالعبادة واستحقاقه سبحانه لذلك دون سواه" (١).

ويرون أيضاً أن العلاقة بين الربوبية والألوهية علاقة تضمن واستلزام، فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، فهو منه كالمقدمة من النتيجة، فإن العبد إذا علم أن الله سبحانه هو ربه الذي لا شريك له في ربوبيته، كانت العبادة حقا لا ينبغي إلا لله، فلا يصح أن يعبد إلا من كان رباً خالقاً، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، لكون الأخير داخل ضمن الأول، فإنه لا يعبد الله إلا من يعتقد ربوبيته، وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين السابقين، فهو يقوم على إفراد الله بالأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومنها كونه واحداً في ربوبيته وألوهيته وفي الجملة فالأنواع

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٩٢، وشرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٢-٤٣، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص١٧ .

الثلاثة متلازمة متكاملة يكمل بعضها بعضاً، ولا ينفع أحدها بدون الآخر (١).

ويرون أن الإقرار بربوبية الله لا يكفي لإسلام صاحبه ما لم يخلص لله عبادته، لأن الله سبحانه أخبر أن المشركين كانوا يقرون بربوبية الله ووجوده، ومع ذلك لم يدخلهم ذلك في الإسلام لأنهم كانوا ينازعون في الألوهية، فيشركون معه غيره.

وبناءً على المفهوم السابق للألوهية والربوبية والعلاقة بينهما قرر علماء السلف:

- أن المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية (٢).

- وأن المشركين كانوا يسلمون بالربوبية وينازعون في الألوهية، حيث أخبر الله عنهم أنهم يقرون بأن الله هو الخالق والرازق وحده، كما في قوله تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (٣)، ولكنهم لا يفردونه بالعبادة وحده، بل يجعلون له شركاء وأنداداً (٤).

(١) ينظر في ذلك: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ٣٤٤/٩ ومنهاج السنة له أيضا، ٣١٣/٣ وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٦ و٣٧ و ٤١

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٩.

(٣) سورة لقمان: الآية ٢٥، وسورة الزمر الآية ٣٨.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٩، ٣٦.

والخلاصـــة: أن توحيـد المعرفـة والإثبـات الـذي حقيقتـه الإيمان بذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله مستلزم لتوحيد الطلب والقصد الذي حقيقته إفراد الله بأنواع العبادات كلها، وأن أنواع التوحيد متلازمة لا ينفع أحدها دون الآخر، ولا ينفك أحدها عن الآخر، وأن التقسيم اصطلاحي لبيان حقيقة التوحيد ومفهومه الشامل كما جاء في نصوص الشرع.

ثانيا: مفهوم الربوبية والألوهية عند سيد قطب – رحمه الله –: لسيد قطب – رحمه الله – في معنى الربوبية والألوهية رأي مخالف ما عليه السلف ويتلخص تعريفه لهما كما يلي:

أ– مفهوم الألوهية عند سيد قطب:

يرى سيد أن مصطلح الألوهية مصطلحٌ واسعٌ وشامل، له خصائص ومظاهر ومجالات متعددة، فالألوهية تمثل الحقيقة الكبرى في الحياة ويندرج تحتها الربوبية والحاكمية والقوامة والتشريع وغيرها.

ففي ظلال قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [سورة آل عمران ٢٦] الآية، يوضح سيد أن للألوهية مظهرين: مظهر في تدبير الكون، ومظهر في حياة البشر، فيقول: " يلقن الله رسوله ﷺ وكل مؤمن أن يتجه إلى الله، مقرراً حقيقة الألوهية الواحدة،

وحقيقة القوامة الواحدة في حياة البشر وفي تدبير الكون، فهذه وتلك كلتاهما مظهر للألوهية وللحاكمية التي لا شريك فيها ولا شبيه.. وفي جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة حقيقة الألوهية الواحدة القوَّامة على الكون والناس " (١).

ومظهر الألوهية في الكون وفي حياة البشر يندرج تحته كل خصائص ومقومات العقيدة عند سيد قطب ومنها:

١- **الربوبية بكل مظاهرها عند السلف:** من الخلق والرزق والملك، والقدرة والقهر، والسلطان المتمثل في ربوبية الله لكل شيء، واستخلافه للعباد في ملكه، وعلم الغيوب والأسرار، وتقليب الأبصار والليل والنهار، وحشر الخلائق، والحكمة والخبرة، والإحسان والرحمة، فكل هذه المظاهر هي من خصائص الألوهية عند سيد حيث يقرر – رحمه الله – أن الألوهية تعني – في جملة ما تعنيه – الاعتراف

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٣، ٤٨٤ بتصرف يسير.

بأن الله – سبحانه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء [(١)].

٢- **التشريع للبشر:** يقول سيد: " وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية: تعبيد العبيد، والتشريع لهم في حياتهم، وإقامة الموازين لهم، فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية وأقام نفسه للناس إلهاً من دون الله "[(٢)].

٣- **التحليل والتحريم:** " فالتحليل والتحريم هو شأن الله وحده، لأنهما أخص خصائص الألوهية " [(٣)].

٤- **إفراد الله بالحاكمية والطاعة** [(٤)].

٥- **التوجه إلى الله بالعبودية والدينونة له في كل أمر في حياة المسلم** [(٥)].

---

(١) ينظر في ذلك: في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٧، ١١٣٣، ١١٦٣، ٣/ ١٢٣٧، ١٧٦٣، ٤/ ٢٨٠٣، ٣٤٧٦/٦. ومقومات التصور الإسلامي ص ٦٩ وما بعدها، وص ١٤٧ وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٠٦ و ينظر أيضا: ١/ ٤٠٧، ٤٨٢، ٤٩٢، ٢/ ٩٦٩، ٩٧٠، ومقومات التصور ص ١٣٢.

(٣) في ظلال القرآن، ١/ ٦١٠.

(٤) ينظر المصدر السابق، ٢ / ٦٩٦، ٨٤١، ١٠٠٥، ١١٣٠، ٣/ ١٤٤٣، ١٤٩٧.

(٥) المصدر السابق ٨٤٠.

<u>ب- مفهوم الربوبية عند سيد قطب:</u>

يرى سيد – رحمه الله – أن الربوبية مظهر من مظاهر الألوهية الشاملة، وهي تعني عنده: الحاكمية والتشريع والقوامة والسلطان في حياة البشر، والدينونة لله وحده.

ففي ظلال قوله تعالى: {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [سورة الأنعام:١٠٢] ، يقول سيد: " إن تفرد الله سبحانه بالخلق، يفرده سبحانه بالملك، والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق، فهو خالق خلقه ومالكهم وهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه.. فإذا تقررت هذه الحقائق – الخلق والملك والرزق، تقرر معها – ضرورة وحتماً– أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية، وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يخضع له ويطاع، والنظام الذي يتجمع عليه العباد، وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام.. " (١).

ويقول – رحمه الله –: " إن فرعون لم يدعِ الألوهية بمعنى أنه خالق هذا الكون ومدبره، أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية، إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذل!

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ١١٦٣.

بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته وأمره تمضي الشئون وتُقضى الأمور – وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه وتمضي الشئون وتقضى الأمور بإرادته – وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي " (١).

ويقول: " والربوبية تتمثل في الدينونة له وحده، فلا يتقدمون بالشعائر إلا له ولا يحكمون في أمرهم كله غيره، وهذا معنى قوله: {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ} [سورة الأنعام:١٠٢] . فالعبادة هي العبودية، وهي الدينونة، وهي الإتباع والطاعة، مع إفراد الله سبحانه بهذه الخصائص (٢).

فالألوهية أعم من الربوبية، والربوبية مظهر من مظاهرها، فالألوهية لها مجالان:

الأول: الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتقدير والتدبير، وتسيير أمور الكون والتحكم بنواميسه وسننه.

والثاني: الحاكمية والقوامة والسلطان والتشريع في حياة الناس، وتوجيه حياتهم وإخضاعهم، ودينونتهم، وتعبدهم لله، وهذه يطلق عليها سيد مصطلح الربوبية.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٣، وينظر أيضاً ٤/ ١٨٥٣، ٢١١٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٦٣، وينظر أيضاً ٣/ ١٨٥٢، ١٩٤٤، ١٩٦٣، ٤/ ٢١١١.

يقول سيد: " إن الأمر في دين الله كله هو: لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس؟ وعلى الإجابة على هذا السؤال في صيغتيه هاتين، يترتب كل شيء في أمر الناس أجمعين: لمن الألوهية؟ ولمن الربوبية؟ " (١).

ج- العلاقة بين الألوهية والربوبية عند سيد قطب:

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الصلة بين الألوهية وبين الربوبية عند سيد قطب هي صلة الأصل بالفرع والكل بالجزء، " فالربوبية إحدى خصائص الألوهية الحقة " (٢)، " والربوبية من مقتضيات الألوهية (٣) " فمن مستلزمات الإقرار بتفرد الله بالألوهية والقوامة، الإقرار بالعبودية له وحده وتحكيمه في شأن العبيد كله، واستسلام العبيد لإلههم، وطاعتهم للقيوم عليهم، وإتباعهم لكتابه ولرسوله ﷺ "(٤).

" إن الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار، فمتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود، فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الرب، وسلطانه

(١) المصدر السابق، ١/ ٥٩٥.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٧٥٣.
(٣) المصدر السابق، ٣/١٨٢٣ .
(٤) المصدر السابق، ١ / ٣٧٧.

القاهر في حياة الناس، وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد، وأنه القاهر، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ويتخذوا بذلك من دون الله رباً، إن الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر هذا الكون ويسيره، ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله رباً للناس يقهرهم بحكمه، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره "(١).

فالدين والإيمان والإسلام بمفهومه الشامل يقوم على الألوهية والربوبية بمفهومهما الشامل أيضاً حيث يقول سيد: " لمن الألوهية؟ ولمن الربوبية؟ لله وحده – بلا شريك من خلقه – فهو الإيمان إذن، وهو الإسلام، وهو الدين، لشركاء من خلقه معه، أو لشركاء من خلقه دونه، فهو الشرك إذن أو الكفر المبين... فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس، أهي إخلاص الألوهية والربوبية لله – بكل خصائصها – أو إشراك أحد من خلقه معه، أو استقلال خلقه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض" (٢).

ويقول أيضا: " إن الإسلام يعني توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر، وتوحيد

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ١٩٨٩.

(٢) المصدر السابق ١/ ٥٩٥، ٥٩٦ بتصرف يسير.

الربوبية من ناحية الدينونة والإتباع والطاعة والخضوع: أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع " (١).

ويقول أيضاً: " إن دين الله منهج للحياة، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله وهذا هو معنى عبادة الله وحده ومعنى ألا يكون للناس إله غيره، والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره، كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره، وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية وقيامها على شريعته وأمره، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده، كلها حزمة واحدة غير قابلة للتجزئة، وإلا فهو الشرك وهو عبادة غير الله معه، أو من دونه " (٢).

د- موقف المشركين والجاهليين من الألوهية والربوبية:

بناءً على تعريف سيد للألوهية بأنها مصطلح يشمل تدبير أمر الكون والبشر، وتعريفه للربوبية بأنها الحاكمية والقوامة والسلطان على البشر يرى:

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٩٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٠٨.

- أن المشركين المعاصرين لنزول القرآن الكريم كانوا يعترفون بالألوهية - كما عرفها هو - ويقرون بها، فلم تكن هي موضع الإنكار منهم، ولا موضع الجدل مع الرسول ﷺ، ويقصد بالألوهية التي كانوا يسلمون بها: تدبير الله لأمور الكون ونواميسه، وتفرد الله بالخلق والرزق في حياة الناس، وهو ما يسمى عند أهل السنة بالربوبية.

- أما الأمر الذي كانوا ينكرونه فهو " الربوبية " - كما عرفها سيد - بمعنى ربوبية الله للناس وكونه وحده هو الحاكم المشرع المطاع، وأن يفردوه بالحاكمية والقوامة والسلطان، حيث كانوا يرفضون هذا، ويمنحون هذه الصلاحيات لرؤسائهم وكبرائهم وزعمائهم، أو أعرافهم وتقاليدهم وموروثاتهم (١). وسأورد مجموعة من النصوص المتعلقة بالموضوع لزيادة الإيضاح:

١- في ظلال قوله تعالى {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [سورة يونس:٣]، يقول سيد - رحمه الله -: " وقد قلنا: إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين، فقد كانوا يعترفون بأن الله - سبحانه - هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء، ولكن هذا

---

(١) في ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص ١٦٤.

الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته، فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بألوهية الله على هذا المستوى أن تكون الربوبية له وحده في حياتهم، والربوبية تتمثل في: الدينونة له وحده فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلا له، ولا يحكمون في أمرهم كله غيره، وهذا معنى قوله تعالى: {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ} فالعبادة هي العبودية، وهي الدينونة، وهي الإتباع والطاعة، مع إفراد الله سبحانه بهذه الخصائص كلها، لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية، وفي الجاهليات كلها ينحسر مجال الألوهية، ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية في ذاته هو الإيمان، وأنه متى اعترف الناس بأن الله إلههم فقد بلغوا الغاية، دون أن يرتبوا على الألوهية مقتضاها وهو الربوبية، أي الدينونة لله وحده، ليكون هو ربهم الذي لا رب غيره، وحاكمهم الذي لا سلطان لأحد إلا بسلطانه"(١).

٢- وفي ظلال قوله تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ } [سورة العنكبوت الآيات ٦١- ٦٣] يقول: " وهذه الآيات ترسم صورة لعقيدة العرب آنذاك، وتوحي بأنه كان لها أصل من التوحيد، ثم

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٧٦٣.

وقـع فيهـا الانحـراف... كـانوا إذا سـئلوا عـن خـالق السـماوات والأرض، ومسـخر الشـمس والقمـر، ومنـزل المـاء مـن السـماء، ومحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء يقرون أن صانع هذا كله هو الله، ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم، أو يعبدون الجن، أو يعبـدون الملائكـة ويجعلـونهم شـركاء لله فـي العبـادة، وإن لـم يجعلوهم شركاء في الخلق فهو تناقض عجيب، تناقض يعجِّب الله منه في هذه الآيات ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ " (١).

٣- ويقول أيضاً: " ولم يكن العرب في جاهليتهم ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون، وخالق الناس ورازقهم كذلك من ملكه الذي ليس وراءه ملك تقتات منه العباد!.. لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة – مع الله – على سبيل الزلفى والقربى من الله!. وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس " (٢).

٤- ويقول أيضاً: " إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول، فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية: " لا إله إلا الله محمد رسول الله " قضية إفراد الله –

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣.

سبحانه – بالألوهية، والأخذ في هذا بما بلغه محمد ﷺ وحده، والبشرية في تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة، ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى، أحياناً قليلة في الاعتقاد والعبادة وأحياناً كثيرة في الحاكمية والسلطان – وهذا هو غالب الشرك ومعظمه – ومن ثم كانت القضية الأولى لهذه الدين ليست هي حمل الناس على الاعتقاد بألوهية الله، ولكن حملهم على إفراده – سبحانه بالألوهية – وشهادة أن لا إله إلا الله، أي إفراده بالحاكمية في حياتهم الأرضية – كما أنهم مقرون بحاكميته في نظام الكون – تحقيقاً لقول الله تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ} [سورة الزخرف:٨٤] ، كذلك كانت هي حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله، ومن ثم الالتزام بكل ما يبلغهم إياه " (١).

٥- ويقول أيضاً " فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم، وللوسطاء عند الله من خلقه! وللملوك والرؤساء والحكام الذي يغتصبون أخص خصائص

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٧.

الألوهية – وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية – فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة..

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام، ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت على ألوهية الله – سبحانه – للكون، وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس الذي يحكمهم بشرعه، ويصرفهم بأمره، ويدينهم بطاعته؟.

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس،.. وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائماً لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي" (١).

٦- ويقول أيضاً: " ويكرر إبراهيم – عليه السلام – في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب كلمة " ربنا " أو " رب ". فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى، إنه لا يذكر الله – سبحانه – بصفة الألوهية، إنما يذكره بصفة الربوبية، فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٢ بتصرف يسير.

الجاهليات – وبخاصة في الجاهلية العربية – إنما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية، فقضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية، وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الناس، والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية، وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع.. والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء " (١).

٧- ويقول في المقومات: " لقد كانت معركة العقيدة الأصلية الطويلة على " السلطان " على " الحاكمية " على تعبيد البشرية وكانت في صميمها تدور حول الإجابة على هذا السؤال: لمن تكون الألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية في نظام الأرض وفي حياة الناس؟ لله وحده، أم لشتى الآلهة والأرباب؟. لقد كان الجاهليون في كل زمان ومكان – بما في ذلك هذا الذي نحن فيه – على استعداد – في معظم الأوقات –

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢١١١ بتصرف يسير، وينظر أيضاً كلامه في المواضع الآتية من الظلال ٢/ ٩٩٠، ١٠٠٥، ١٠٣١، ١١٦٣، ٣/١٥٠٢، ١٨٠٢، ٤/ ١٨٤٦، ١٩١٠، ١٩٤٤، وخصائص التصور الإسلامي ص ٣٨، ومقومات التصور الإسلامي، ص١٣٣.

للاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه في نظام الكون، وفي عالم الآخرة، وحتى الماركسيون اللينينيون الملحدون قد تركوا للناس – في شدة الحرب الثانية – أن يعتقدوا في الله كما يحبون وأن يذهبوا إليه في الكنائس!

ولكن المعركة الحقيقية مع الجاهليين قديماً وحديثاً إنما كانت وتكون حول ألوهية الله – سبحانه– وربوبيته وقوامته وسلطانه هنا في أنظمة الأرض، وفي حياة الناس كانت حول حق الحاكمية لمن هو؟ حول تحديد السلطة العليا التي يرجع إليها الناس في حياتهم الدنيا، وفي نظام مجتمعهم، وفي شكل حكمهم، ولمن تكون؟.

ونالت هذه القضية – من أجل أنها القضية الكبرى والقضية الحقيقية في معركة العقيدة – عناية ملحوظة في القرآن الكريم – سواءً وهو يقص قصة الصراع حولها في الرسالات السابقة، أم وهو يقررها في حياة الأمة المسلمة بشتى وسائل التقرير، ويعرضها بشتى طرق العرض، ويتتبع مساربها في دروب النفس البشرية، وفي دروب الواقع البشري على السواء.

ومن ثم لم يكن التصور الإسلامي مجرد تصور اعتقادي، أو شعائر تعبدية ثم ينتهي الأمر ويتم الدين! إنما كان مسألة واقعية حركية، كان هذا السؤال دائماً معروضاً " لمن

الملك في الأرض؟ ولمن الحكم في حياة البشر؟ ولمن السلطة التي تتعبد الناس؟ وحول هذا السؤال والإجابة عليه كانت المعركة أولاً في عالم الضمير، وثانياً في واقع الحياة.

فأما الذين قالوا: إن الملك لله وحده في الأرض كما أن له الملك وحده في نظام الكون وعالم الأسباب وأن الحكم لله وحده في حياة البشر، وأن السلطة التي تتعبد الناس لله وحده، وأن كتاب الله وحده وشريعته وحدها هي القانون، فقد كانوا هم "المسلمين" في كل زمان ذلك أن هذا مناط الإسلام لله، والمدلول المباشر لشهادة أن لا إله إلا الله.

وأما الذي قالوا: إن ذلك كله – أو بعضه – للبشر لا لله، وأن لله مملكة السماء ومملكة الآخرة وأن ليس لله ولا لدينه أن يهيمن على أنظمة الأرض، وفي حياة الناس وأوضاع المجتمع، وأن لنا أن نتولى بأنفسنا أو بتشكيلاتنا البشرية هذا كله – أو بعضه – غير متقيدين بنص ما شرعه الله، وغير محتكمين إلى كتابه – فقد كانوا هم " الكافرين"، ذلك أن هذا يتضمن رفض ألوهية الله – سبحانه – وربوبيته وقوامته وسلطانه في الأرض، حتى ولو اعترفوا بوجوده وإشرافه على نظام الكون وحياة الآخرة – فشهادة أن لا إله إلا الله: معناها: أنه سبحانه في السموات وفي الأرض إله، والإله هو وحده الذي له الربوبية والقوامة

والسلطان في نظام الأرض وفي حياة الناس، كما أن له هذا كله في نظام الكون وفي الدار الآخرة " [١].

<u>هـ - مستند سيد قطب في تفسيره للألوهية والربوبية:</u>

يظهر من خلال كلام سيد عن الألوهية والربوبية، بأنه استند في تفسيره لهما إلى ما يلي:

<u>١- اللغة:</u> اعتمد سيد قطب في تفسيره للألوهية والربوبية على معاني الرب والإله في اللغة، والتي نقلها أيضاً عن أبي الأعلى المودودي - رحمه الله -[٢]، وبالعودة إلى كتب اللغة نجد:

أ- أن لفظ " الإله " في اللغة يدل على عدة معاني منها: أَلِه إلاَهَة، وأُلوهة وألوهية: أي (عَبدَ). وألِهَ ألَهاً: أي (تحير)، وألِه إليهَ: أي (لجأ)، وأَلِه عليه: أي (اشتد جزعه)، وآلِهَ بالمكان: أي(أقام)، وتأَله: أي(تنسك وتعبد)، وتأله: أي (أدعى الألوهية)، والتأليه: (**<u>القول بوجود إله مدبر لكون</u>**) [٣].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي، ص ١٣٣- ١٣٤.

(٢) ينظر: المصطلحات الأربعة لأبي الأعلى المودودي، دار الفكر، الكويت، ط١، عام ١٤٠١هـ، ص ١٥.

(٣) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، دار الفكر، بيروت، عام ١٤٠١هـ، ص ٢٢-٢٣، والمعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية طبعة المكتبة الإسلامية، تركيا، د. ت، ص ٢٤/١.

وأما كون مصطلح الألوهية يتضمن الخلق والرزق والتدبير فقد جاء في لسان العرب: "ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً، وعليه مقتدراً، فمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عُبد ظلماً، بل هو مخلوق ومتعبد " (١).

وقد اعتمد سيد قطب ومن قبله المودودي – رحمهما الله – على المعنى اللغوي في جعل تدبير الكون من مضامين الألوهية، كما سبق.

ب – أن لفظ الرب في اللغة يطلق ويراد به عدة معانٍ منها: المالك، والسيد المطاع، والمربي، والقيم والمنعم، والمصلح للشيء، يقال: ربيت القوم: أي سستهم، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنه: لأن يربني بنو عمي أحب إلي من أن يربني غيرهم، أي يكونون عليَّ أمراء وسادة متقدمين (٢).

وهذه المعاني للرب في اللغة – أوردها سيد قطب ومن قبله المودودي حيث يقول سيد: " الرب: هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح والتربية

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٤١٨.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٩٩- ٤٠١ بتصرف.

والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين – أي جميع الخلائق " (١).

فسيد هنا يستند إلى اللغة في تفسير الربوبية بالحاكمية والسلطان والأمر والتشريع والإخضاع.

٢- استعمالات القرآن الكريم:

استند – سيد – أيضاً إلى بعض الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر الربوبية بمعنى الحاكمية والسلطان ومنها: قوله تعالى عن يوسف: {وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ} [سورة يوسف:٤٢]، يقول سيد: " أي اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربك، فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع، وفي هذا توكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي، ومما يلاحظ أن ملوك الرعاة لم يكونوا يدعون الربوبية قولاً كالفراعنة، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة، ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهي نص في معنى الربوبية " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٢.

يرى سيد أن ربوبية فرعون التي ادعاها والتي عبر عنها مرة بقوله: { أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ} [سورة النازعات:٢٤] ، ومرة بقوله: {مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي } [سورة القصص:٣٨] إنما كانت بمعنى حاكميته لهم وسلطانه فيهم حيث يقول: " أما قول فرعون لقومه: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ فيفسره قوله الذي حكاه القرآن عنه: {وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ } [سورة الزخرف الآيات ٥١- ٥٣] . وظاهرٌ أنه كان يوازن بين ما هو فيه من ملك ومن أسورة الذهب الذي يحلى بها الملوك، وبين ما فيه موسى من تجرد من السلطان والزينة، وما قصد بقوله: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ إلا أنه الحاكم المسيطر الذي يسيرهم كما يشاء، والذي يتبعونه بلا معارض، والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي، وهي في الواقع ألوهية، فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم، سواء قالها أو لم يقلها " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٤.

ويستدل سيد أيضاً بحديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه –، عندما دخل على النبي ﷺ فوجده يقرأ قوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [سورة التوبة:٣١] قال فقلت: يا رسول الله: إنهم لم يعبدوهم. فقال: " بلى: إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فتلك عبادتهم إياهم " (١)، (٢).

حقيقة الخلاف: مما سبق يتبين لنا ما يأتي:

أولاً: أن جمهور السلف يرون أن مصطلح الألوهية خاص بالعبادة والتوجه إلى الله وإفراده بذلك، وأن مفهوم الربوبية خاص بتدبير وتسيير الكون وما فيه، وتدبير أمور الخلق في مجالات الخلق والرزق والضر والنفع وغير ذلك.

أما سيد قطب فيرى أن الألوهية مصطلح عام يشمل تدبير وتسيير أمور الكون، وتدبير وتسيير أمور الناس في مجالات الخلق والرزق والإماتة والإحياء وغير ذلك، ويرى أن الربوبية من مضامين الألوهية وهي تعني في جملة ما تعنيه: إفراد الله وحده بالحاكمية والقوامة والتشريع والتوجيه والدينونة والسلطان.

---

(١) سبق تخريجه ص

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٥.

ثانياً: أن العلاقة بين الألوهية والربوبية عند الجميع علاقة ترابط وتلازم وتضمن، وأنهما بمجموعهما يمثلان التوحيد والإيمان المطلوب الذي لا يقبل الله من أحد سواه.

ثالثاً: أن جمهور السلف وكذا سيد – وإن اختلفا في تحديد مصطلح الألوهية والربوبية إلا أنهم متفقون على أن الذي كان يجحده المشركون وينكرونه هو الدينونة لله والتقرب إليه وحده بلا شريك وهو ما يسميه علماء السلف (ألوهية)، ويسميه سيد قطب (ربوبية)، أما مسألة الخلق والرزق وتدبير أمور الكون ووجود الله قبل هذا فلم يكن أحد من المشركين يخالف فيه.

وبالتالي فالجميع متفقون على حقيقة الأمر الذي كان يجحده وينكره المشركون وإن اختلفوا في تسميته هل هو ألوهية أم ربوبية.

رابعاً: أن مفهوم جمهور السلف للألوهية والربوبية أوضح وأضبط، وإن كان سيد قد اعتمد في بيان مفهومهما على اللغة وبعض النصوص الشرعية كما سبق.

خامسا: أن سيداً – رحمه الله – كان أكثر تركيزاً على مفهوم الحاكمية والطاعة والتشريع، وربطها تارة بالربوبية

وأخرى بالألوهية باعتبار الربوبية من مجالات الألوهية، والسبب في ذلك أن كثيراً من السلف لم يكن قد ظهر في عصرهم ما عايشه سيد – رحمه الله – من إقصاءٍ لحاكمية الشريعة، واستبدالها كلياً أو جزئياً بالقوانين البشرية فكان كلامه في هذا أكثر وأعمق.

وبناءً على سبق: نرى أنه وإن كان ما ذكره السلف أضبط في مفهوم الألوهية والربوبية إلا أنه لا يوجد خلاف حقيقي بينه وبين ما ذكره سيد من حيث حقيقة التوحيد التي تشتمل على الأمرين – الألوهية والربوبية – والعلاقة بينهما، وحقيقة ما كان ينكره المشركون منهما وإن اختلفا في تسميته، بالإضافة إلى أن سيداً بنى رأيه على مدلول اللغة وبعض النصوص الشرعية، وتأثر أيضاً بكتابات الإمام أبي الأعلى المودودي –رحمه الله – والذي كان على نفس الرأي.

الفصــل الأول

منهجه في توحيد الربوبيــة

يتضمن توحيد الربوبية عند جمهور أهل السنة والجماعة إثبات وجود الرب سبحانه، ووحدانيته وانفراده بالخلق والرزق والتدبير وسائر أفعاله سبحانه.

وفي هذا الفصل سأعرض للقضايا المتعلقة بهذا النوع من أنواع التوحيد، وموقف سيد قطب – رحمه الله – منها مقارنة بمنهج السلف من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: وجود الله ووحدانيته.

المبحث الثاني: موقفه من القول بقدم العالم.

المبحث الثالث: موقفه من وحدة الوجود.

المبحث الرابع: منهجه في الإيمان بالقدر.

المبحث الأول

وجود الله ووحدانيتـه

مسألة وجود الله تعالى لم تكن موضع استدلال في القرآن الكريم، بل كانت هي نفسها دليلاً – في الكتاب العزيز – استدل به على ألوهية الله واستحقاقه للعبادة.

فهي مسألة بدهية فطرية حتى عند ذوي العقول المنحرفة من المشركين، كما قال الله تعالى عنهم: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [سورة لقمان:٢٥] . وظلت المسألة بدهية في عصر النبوة والقرون المفضلة كذلك، حتى كانت الفلسفة اليونانية ودخولها إلى العالم الإسلامي فنشأت مباحث لم تكن من قبل، ومنها مسألة النقاش والاستدلال على وجود الله تعالى، وكان "المتكلمون" المسلمون هم الطرف الإسلامي في هذا النقاش.

" وأما في هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة، يتوكؤون على مسائل من العلوم العصرية، وحدثت للناس آراء ومذاهب منها ما يفضي إلى فساد الحياة " (١).

---

(١) منهج محمد رشيد رضا في العقيدة، د. تامر محمود متولي ص٢٦٩.

ومع أنهم – أي الملاحدة – لا يقدرون على تقديم أدلة على إلحادهم وكل ما يقدمونه شبهٌ واهية، فإن العلماء والدعاة في هذا العصر كانوا مضطرين للخوص في مسألة إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وبيان شبهات وأفكار الملاحدة الجاحدين ولسان حالهم: " لو لا كثرة الضعفاء، مع كثرة الدخلاء فينا، الذين نطقوا بألسنتنا، واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا، لما تكلفنا كشف الظاهر، وإظهار البارز " (١).

ومن هؤلاء الدعاة والمفكرين سيد قطب – رحمه الله – والذي تعرض في كتاباته لشبهات الملحدين وبين في ظلال كثير من الآيات الدلائل القرآنية على وجود الله – سبحانه – ووحدانيته. وهذا ما نعرض إليه في المطالب الآتية:

المطلب الأول

مناهج الاستدلال على وجود الله وموقف سيد قطب منها

اختلفت مناهج الفرق في طرق الاستدلال على وجود الله تعالى ويمكننا إيجاز مسالكهم فيما يأتي:

أولاً: منهج المتكلمين:

---

(١) دلائل التوحيد، لمحمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٥، ص ٧٥.

سلك المتكلمون في إثبات وجود الله تعالى طرقاً متعددة وكان عمدتهم في ذلك "حدوث العالم " ذهاباً منهم إلى أن الحدوث هو العلة المحوجة إلى مؤثر، وأنه إذا ثبت أن العالم حادث، كان لا بد له من محدث يخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود وقد بين ذلك الإيجي[1] بقوله: " قد علمت أن العالم إما جوهر أو عرض، وقد يستدل على إثبات الصانع بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه، فهذه وجوه أربعة " [2].

وقد ذكر ابن رشد [3] هذا المسلك على أنه للأشاعرة، إلا أنه أشار إلى موافقة المعتزلة لهم فيه بقوله: " وأما المعتزلة فإنه لم يصل إلينا في هذه الجزيرة من كتبهم شيء نقف منه على طرقهم التي سلكوها في هذا المعنى ويشبه أن تكون طرقهم من

---

(١) هو: عبدالرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الإيجي، ولد بإيج من أعمال فارس بعد السبعمائة، وكان إماما في فنون متعددة، له عدة مؤلفات، سجن ومات في السجن بكرمان، عام ٧٥٦هـ، انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ٣٢٢/٢، والأعلام، ٢٩٥/٣.

(٢) المواقف في علم الكلام، للإيجي، دار عالم الكتب- بيروت، ب. ت، ص ٥.

(٣) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد – الحفيد – أبو الوليد، فيلسوف وفقيه مالكي شهير، ولد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ، له عدة مؤلفات، توفي سنة ٥٩٥هـ، انظر: الديباج المذهب، لابن فرحون، ٢٥٧/٢.

جنس طرق الأشاعرة " [١]. والأمر كما قال [٢].

ثانياً: منهج الفلاسفة:

سلك الفلاسفة في إثبات وجود الله تعالى طريق الوجوب والإمكان، وقسموا الموجودات إلى واجب وممكن بدلاً من قديم وحادث، وذلك لأنهم لا يقولون بحدوث العالم، فاستدلوا بالإمكان بدل الحدوث، وقد لخص الإيجي مسلكهم بقوله: " المسلك الثاني للحكماء وهو أن– في الواقع – موجوداً، فإن كان واجباً فذاك، وإن كان ممكناً احتاج إلى مؤثر، ولا بد من الانتهاء إلى الواجب وإلا لزم الدور والتسلسل " [٣] وهذا محال.

وخلاصة كلام الفلاسفة: أن الممكن لا يوجد إلا لعلة تغايره، وذلك أن الممكن إما أن يحتاج إلى غيره ليكون موجوداً أو لا يحتاج، والثاني باطل، فإذا تقرر احتياج الممكن إلى الغير، فإن الغير إما أن يكون واجباً وإما ممكناً، والكلام في الممكن الثاني كالكلام في الممكن الأول. فإما أن ينتهي الأمر

---

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة، لابن رشد، تحقيق د/ محمد قاسم، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب. ت، ص ١٥١.

(٢) انظر كلام المعتزلة في: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص٩٢.

(٣) ينظر: المواقف في علم الكلام، للإيجي ص ٨، وكذا الإشارات والتنبيهات، لابن سيناء ٣/٢٠.

إلى واجب؟ أو يدور أو يتسلسل إلى غير نهاية.

وهذه الطريقة كما هو ظاهر طريقة عقلية نظرية جدلية، مبنية على مقدمات منطقية أعقد وأطول من مقدمات المتكلمين في مسألة " حدوث العالم " وهي مع ذلك أشد فساداً منها وأسوأ لازماً [1].

ثالثاً: موقف سيد قطب من منهج المتكلمين والفلاسفة في إثبات وجود الله:

سبق الحديث عن موقف سيد - رحمه الله – من الفلسفة وعلم الكلام [2]، وتبين لنا أنه يرفض منهج المتكلمين والفلاسفة في عرض قضايا العقيدة عموماً، ويرى أنها مناهج بينها وبين منهج القرآن في عرض العقيدة جفوة، وبناءً على ذلك لا يصح استعارة القالب الفلسفي في عرض حقائق العقيدة لأن ذلك يقتلها ويطفئ إشعاعها " وبالتالي تصبح البراهين الذهنية التجريدية على وجود الله – سبحانه – وهي التي أتجه إليها علماء التوحيد – بتأثير منطق أرسطو – والتي تعتمد على المقولات العقلية

---

(١) ينظر في نقد منهج الفلاسفة: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨/١ وما بعدها، والنبوات لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ١٩٨٢م، ص٧٣-٨٤، ومنهاج السنة ١٤٨/١، وما بعدها.

(٢) ينظر: المبحث الثالث – الفصل الأول – الباب الثاني.

وحدها، بعيدة في منهجها، وغريبة على المنهج الإسلامي وهذا المنهج القرآني، لأنها أضعف أنواع البرهان في هذا المجال، وأدعاها للجدل والمراء " (١).

فسيد – رحمه الله – يرى أن المنهج القرآني وحده هو المنهج الحق، وأن طريقة القرآن في عرض قضايا العقيدة وحدها هي الطريقة الصحيحة، ويقرر بيقين جازم أن " التصور الإسلامي " لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ إلا حين نلقي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم " الفلسفة الإسلامية " وبكل مباحث " علم الكلام " وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة ثم نعود إلى القرآن الكريم، ومنهجه في عرض العقيدة (٢).

ومن خلال تتبع ما ذكره سيد – رحمه الله – من استدلال على قضية وجود الله سبحانه نجد أنه يركز على الأدلة الشرعية الواردة في القرآن الكريم، ويؤكد أن منهج القرآن في إثبات الوجود الإلهي هو المنهج الحق، القائم على أن معرفة الله والإقرار بوجوده أمر فطري في النفوس.

---

(١) ينظر كلام سيد في: خصائص التصور الإسلامي ص ١٠–٢٢، ومقومات التصور الإسلامي ص٢٧٨.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ص ١٢.

كما نجده يتعرض بالنقد لمناهج المتكلمين والفلاسفة في إثبات الوجود الإلهي كونها مناهج تجريدية تقوم على أن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر والاستدلال حسب مقدماتهم في ذلك.

ولذلك عمل على عرض حقائق العقيدة من خلال المنهج القرآني وحده، رافضاً كل التصورات التي جاءت بها الفلسفات أو التي يتمحلها بعض الملحدين باسم " العلم" (١).

يقول – رحمه الله –: " فالمنهج القرآني لا يجعل " وجود الله " – سبحانه – قضية يجادل عنها فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري – من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء – بحيث لا يبقى هنالك مجال للجدل حوله، إنما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود في الكون كله، وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك في الضمير البشري وفي الحياة البشرية " (٢). " وهذا هو الفارق الأصيل بين خطاب المنهج القرآني للكينونة البشرية.. وبين خطاب الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام للذهن بالتصورات التجريدية أو بالجدل البارد الذي لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحيي للقلوب والعقول " (٣).

---

(١) ينظر كلام سيد في هذا الشأن في: مقومات التصور الإسلامي ص ٢٠٠ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠١ – ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦ بتصرف يسير.

المطلب الثاني

منهج سيد قطب في تقرير وجود الله ووحدانيته والاستدلال عليه

في هذا المطلب نقف على منهج سيد قطب – رحمه الله – في الاستدلال على وجود الله تعالى ووحدانيته، والطرق التي سلكها في هذا الباب والتي تتمثل في:

١- الاستدلال بالفطرة.
٢- الاستدلال بالآيات الكونية في الآفاق والأنفس.
٣- الاستدلال بالأدلة العقلية.
٤– الاستدلال بالمعجزة. وذلك في الفروع الآتية:

الفرع الأول: الاستدلال بالفطرة

يرى – سيد قطب – أن الإقرار بوجود الله ووحدانيته وربوبيته للخلق أمر فطري مركوز في النفس البشرية، فما من مولود إلا ويولد على هذه الفطرة، وبالتالي يجعل من الفطرة دليلاً أصيلاً على وجود الله ومعرفته.

١- يقول– رحمه الله –: " إن الفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد، ما لم تفسد وتتحرف" (١)، وذلك " لأن

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦١٨.

الفطرة مجذوبة إلى الذي فطرها، تتجه إليه أول ما تتجه، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها، ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها، والتوجه إلى الخالق هو الأَوْلى، وهو الأول، وهو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري " [1]، " وما يملك الإنسان حين يستفتي فطرته، ويعود إلى ضميره أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة " [2].

٢- كما يقرر أن " فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر، ويسقط عنها الركام، وتزول عنها الحجب، وتتكشف عنها الأوهام، فتتجه إلى ربها، وتنيب إليه وحده، وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره، وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء"[3]، " فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأً إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصرة وأسباب الخلاص في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ

---

(١) المصدر السابق ٥/٢٩٦٣.

(٢) المصدر السابق ٥/٢٧٩٤.

(٣) المصدر السابق ٥/٣٠٤١.

إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء... " (١).

وبناءً على ما سبق " فإن القرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضيته، لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة – أي الإلحاد – إنما القضية هي قضية توحيد الله، وتقرير سلطانه في حياة العباد " (٢).

٣- ثم يقرر أن الفطرة ترفض وتبطل دعوى الإلحاد وإنكار وجود الله فيقول: " فمسألة "وجود " إله لم تكن قط قضية جدية من قضايا الاعتقاد في تاريخ البشرية، إنما كانت القضية الجدية دائماً هي تصور حقيقة الألوهية، وبخاصة ما يتعلق منها "بصفة التوحيد " الذي جاء به دين الله كله.. إن لوثه إنكار وجود الله أصلاً ونبذ الاعتقاد والتدين إطلاقاً، لوثة حديثه عارضة شاذة، ليس لها في ضمير البشرية جذور، وليس لها في الفطرة البشرية روافد، وليس لها في الكينونة البشرية ولا في الحياة البشرية عوامل بقاء ولا امتداد، إنها لوثة نبعت ابتداءً من تحريف النصرانية في أوربا، حتى لم تعد تحتوي على عنصر الحق الذي تعرفه الفطرة في دين الله، ثم بعد ذلك من الصدام

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٥٨.

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٣٥.

الذي وقع بين الكنيسة بعقائدها المحرفة وسلوكها الشائن وبين النهضة العلمية في أوربا، وامتدت موجتها في فلسفات عصر " التنوير" ثم في المذاهب " الوضعية المادية " وفي "الداروينية" القديمة والحديثة، كما امتدت إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بعد نشأة " القوميات " في أوربا.. ثم انتهت هذه العوامل مجتمعة متداخلة متفاعلة إلى هذه اللوثة التي تبدو أعراضها في هذا الإلحاد المطلق، الذي طنينه أكبر من حجمه، وضجته أكبر من حقيقته، وهي لوثة طارئة عارضة، وشاذة منافية للفطرة البشرية، ولم يكد القرن العشرين يستهل حتى بدأت موجة جديدة في أوربا ذاتها، تبحث عن الله، بل تواجه الله – سبحانه – في نهاية كل درب تسلكه وهي في هروبها من الله! " (١).

ويقول: " والملحدون هم أمساخ شائهو الفطرة، ينكرون الفطرة، ويعاندون ما يجدونه في أنفسهم من إلحاحها، وعندما صعد أحدهم إلى الفضاء الجوي، ورأى ذلك المشهد الباهر للأرض ككرة معلقة، هتفت فطرته: ما الذي يمسكها هكذا في الفضاء؟ " (٢).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٠ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٦ بتصرف يسير.

" فالإلحاد تقاومه الفطرة، والفطرة أغلب " (١). " والفطرة البشرية بها حاجة ذاتية إلى التدين، وإلى الاعتقاد بإله، بل إنها حين تصح وتستقيم تجد في أعماقها اتجاهاً إلى إله واحد، وإحساساً قوياً بوجود هذا الإله الواحد... وبالتالي كانت وظيفة العقيدة الصحيحة ليست هي إنشاء هذا الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه فهذا مركوز في الفطرة، ولكن وظيفتها هي تصحيح تصور الإنسان لإلهه، وتعريفه بالإله الحق الذي لا إله غيره، تعريفه بحقيقته وصفاته، لا تعريفه بوجوده وإثباته ثم تعريفه بمقتضيات وجود الله في حياته، والشك في حقيقة الوجود الإلهي أو إنكاره، هو بذاته دليل قاطع على اختلالٍ بيِّن في الكينونة البشرية، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيها، وهذا التعطل لا يعالج – إذن – بالجدل، وليس هذا هو طريق العلاج، إنما يعالج باستحياء أجهزة الاستقبال واستجاشة كوامن الفطرة، لتعود إلى حياتها وعملها " (٢).

٤– يربط سيد قطب – رحمه الله – بين الفطرة وبين العهد الإلهي أو الميثاق الأول، الذي أخذه الله تعالى على بني آدم بربوبيته تعالى لهم وإقرارهم بذلك. فعند قوله تعالى: { ٱلَّذِينَ

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٣.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٠٢– ٢٠٤ بتصرف.

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ} [سورة البقرة:٢٧] ، يقول: " وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة: إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي، أن يعرف خالقه وأن يتجه إليه بالعبادة، وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله، ولكنها تضل وتتحرف فتتخذ من دون الله أنداداً أو شركاء وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم – عليه السلام – بقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [سورة البقرة الآيات ٣٨-٣٩] ، وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكموا في حياتهم منهجه وشريعته " (١).

ويوضح الارتباط بين الفطرة والميثاق أكثر في ظلال قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ} [سورة الأعراف الآيات

---

(١) في ظلال القرآن ١/٥١-٥٢.

١٧٢- ١٧٣] ، بقوله: "وهنا تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة، وزاوية عميقة تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر!.

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير.

إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق - حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم - ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (١).

" وهنا تعرض قضية الفطرة والعقيدة في صورة مشهد - على طريقة القرآن الغالبة - وإنه لمشهد فريد، مشهد الذرية

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٩١.

المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها " ألست بربكم؟ " فتعترف له – سبحانه – بالربوبية، وتقرر له – سبحانه – بالعبودية، وتشهد له – سبحانه – بالوحدانية، وهي منثورة كالذر، مجموعة في قبضة الخالق العظيم!

إنه مشهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى، وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطب خطاب العقلاء – بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع – وهي تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقر وتشهد، ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب!.

وإن الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتجلى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد، وهو يتمثل الذر السابح، وفي كل خلية حياة، وفي كل خلية استعداد كامن، وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات، ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم!.

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود.

عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن الإنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة، فإذا " العلم " يقرر أن "الناسلات "، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل " الإنسان " وتكمن فيها خصائص البشر وهم بعد خلايا في الأصلاب، إن هذه "الناسلات" تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر وتكمن فيها خصائصهم كلهم، ولا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة، كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال! وصدق الله العظيم { سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ } [سورة فصلت:٥٣] .

روي عن ابن عباس– رضي الله عنهما – قال: " مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم: " ألست بربكم قالوا بلى "،

وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس، قال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت (١).

فأما كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم " ألست بربكم " وكيف أجابوا " بلى شهدنا "؟ فالجواب عليه: أن كيفيات فعل الله – سبحانه – غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله.. إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية، وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالى: { ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ } [سورة فصلت:١١] ، {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ } (٢)، {يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ } [سورة الرعد ٣٩] ، { وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ } [سورة الزمر ٦٧] ، { وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [سورة الفجر ٢٢] ، {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ } [سورة المجادلة ٧] ، إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله. لا مناص من

---

(١) رواه: أحمد ٢٧٢/١، والحاكم في المستدرك، ٥٤٤/٢، ورجاله ثقات، وصححه الأرناؤوط في مسند أحمد، ٢٦٧/٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤، ويونس ٣، والرعد ٢، والفرقان ٥٩، والسجدة ٤، والحديد ٤..

التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك الكيفية، إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا، والله ليس كمثله شيء، فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله، إذ أنه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء ما دام ليس كمثله شيء، وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه، هي محاولة مضللة، لاختلاف ماهيته – سبحانه – عن ماهيات خلقه وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه، وكذلك جهل وضل كل من حاول من الفلاسفة والمتكلمين – وصف كيفيات أفعال الله وخلطوا خلطاً شديداً.

على أن هناك تفسيراً لهذا النص: بأن العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ويميل بها عن فطرتها " (١).

ثم ذكر كلام ابن كثير –رحمه الله – في أن بعض السلف والخلف يرون أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، واستعرض ما ذكروه من مرجحات لهذا القول، وقال

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٩٣.

سيد بعد ذلك: " ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا } على وجهه لا على سبيل الحال لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه، وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه، ولكنا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير، والله أعلم أي ذلك كان.

وفي أي من الحالين يخلص لنا أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود فلا يميل عنها إلا أن يُفْسِد فطرته عامل خارجي عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال، وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف (١).

خلاصة ما ذكره سيد في باب استدلاله بالفطرة على وجود الله وربوبيته هي:

١- أن الإقرار بوجود الله وربوبيته ووحدانيته أمر فطري مركوز في فطرة البشر.

---

(١) الصدر السابق ٣/١٣٩٣- ١٣٩٤ بتصرف.

٢- أن الفطرة قد تتحرف بسبب عوامل عدة، لكنها تبرز عارية وقت الشدة ويظهر فيها الإقرار الفطري بربها.

٣- أن منطق الإلحاد شاذ في التاريخ والفطرة، وأن الفطرة تأباه وترفضه.

٤- أن الفطرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالميثاق الإلهي الذي أخذه الله على البشر سواء كان الميثاق بلسان الحال " الفطرة " أو بلسان المقال " الإشهاد في عالم الذر ".

وهذه هو الذي عليه جمهور السلف في باب الاستدلال بالفطرة.

<u>الفرع الثاني: الاستدلال بالآيات الكونية:</u>

إن هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف، وما حواه من مخلوقات بديعة على اختلاف أنواعها، وتعدد أشكالها، وتباين أوصافها، ليشهد أن لهذا الكون خالقاً أوجده، ومدبراً أحكم أمره وتسييره.

والمتأمل في القرآن الكريم يجده غنياً بالآيات الكونية، وحافلاً بالدلائل القطعية الداعية إلى التفكر والتدبر، فيما هو محسوس ومشاهد في الآفاق والأنفس، حيث تشكل دلائل الآفاق والأنفس في القرآن الكريم الأساس العقلي في تقرير وجود الله ووحدانيته، وعظمته سبحانه، قال تعالى: { أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ } [سورة الأعراف:١٨٥] ، وقال سبحانه: { سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ } [سورة فصلت:٥٣] ، وقال سبحانه: { وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [سورة الذاريات الآيات ٢٠-٢١] .

ودلائل الآفاق والأنفس تتفرع إلى أربعة أنواع من الأدلة هي:

١-دليل الخلق.

٢-دليل التسوية.

٣-دليل التقدير.

٤-دليل الهداية.

وقد جمعت في قوله سبحانه وتعالى { ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ } [سورة الأعلى الآيات ١-٣] ،(١).

وهي أدلة عقلية تدركها العقول بداهة وبأدنى تأمل – تقرر وجود الله ووحدانيته.

وسأعرض في هذا الفرع دلائل الآفاق والأنفس من خلال أدلة الخلق والتسوية والتقدير والهداية، مورداً نماذج من كلام سيد حول هذه الأدلة لصعوبة إيراد كل النصوص المتعلقة بها، ولأن الهدف هو بيان منهجه في تقرير وجود الله ووحدانيته وربوبيته من خلال آيات الله في الآفاق والأنفس.

(١) شفاء العليل، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ص١٢١.

أولاً: دليل الخلق:

ورد ذكر الخلق ومشتقاته في القرآن الكريم في ما يزيد عن مائتي آية [1] تتحدث عن مظاهر الخلق في الآفاق والأنفس، ويطلق الخلق في هذه الآيات على معنيين:

الأول: إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا احتذاء، كخلق السموات والأرض وما فيهما.

الثاني: إيجاد الشيء من الشيء، كخلق الإنسان من تراب، ومن ماء [2].

ويعتبر دليل الخلق في القرآن من أقوى البراهين والأدلة على وجود الله ووحدانيته لذا لا غرابة أن تكون أول آية تنزل على الرسول ﷺ هي قوله تعالى: {ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ} [سورة العلق الآيات ١- ٢] ، حيث نبهت الآيات إلى مظاهر الخلق في الآفاق والأنفس.

يقول الفخر الرازي: " إن الله سبحانه أطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق، ثم عين خلق الإنسان فكان كل ما يُعلم

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) انظر: الدلالة العقلية في القرآن ومكانها في تقرير العقيدة. د/ عبد الكريم عبيدات، دار النفائس. الأردن. ط١، ١٤٢٠، ص٢٦٩.

حدوثه داخلاً في قوله " الذي خلق " (١).

ودليل الخلق فطري وظاهر للعقول، ومن ثم فالاستدلال به على وجود الله ووحدانيته متيسر لكل ذي عقل، لا يدفعه إلا مكابر أو جاحد، " وقد أجمع أهل الملل الدينية وسائر الفرق الإسلامية على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى واضح، والآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وصفاته أكثر من أن تحصى... ومن أصدق من الله قيلاً فيما هدى الناس إليه من الاعتبار بخلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وما بينهن " (٢).

وسأكتفي ببعض النماذج من أدلة الخلق وهي:

أ) أدلة الخلق في الآفاق على وجود الله ووحدانيته:

إن صفحة الكون زاخرة بالشواهد العديدة الدالة على الخلق، بل كل مخلوق في الكون دالٌ بذاته على وجود الله

---

(١) التفسير الكبير (المسمى: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤١١هـ، ١٦/٣٢/١٦.

(٢) الدين الخالص، لمحمد صديق خان، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، عام ١٤٢٨هـ، ٣٨/١.

ووحدانيته وقدرته كما قال أبو العتاهية (١):

فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة	وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد(٢)

ومن ثم جاءت الدعوة في القرآن الكريم للعقل إلى التدبر والتفكر والتذكر، وغيرها من الألفاظ التي تدعوه إلى الوقوف على آثار قدرة الله وبديع صنعه الماثلة للعيان في السموات والأرض.

ويرى سيد أن القرآن يخاطب العقل البشري بدليل الخلق ودليل الحياة، ممثلين في الآفاق والأنفس، خطاباً موحياً موقضاً للفطرة، لا خطاباً جدلياً لاهوتياً أو فلسفياً! حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء وحركة التدبير والهيمنة، في صورة التقرير لا في

---

(١) هو: إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي، ولد قرب الكوفة سنة ١٣٠هـ، وتوفي ٢١٣هـ. شاعر معروف، كان أكثر شعره في الزهد، وكان على مذهب الزيدية، انظر: الأعلام ١٦٧/٦.

(٢) الجامع لشعب الإيمان للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الدار السلفية، الهند، ط١، عام ١٤٠٦هـ، ٣٤٣/١، ونسبها لأبي العتاهية، وهي في ديوانه ص١٢٢.

صورة الجدل(١).

ويمكن استعراض نماذج من كلامه في ظلال بعض الآيات على سبيل التمثيل كما يأتي:

١- في ظلال قول الله تعالى: { قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ } [سورة يونس:١٠١] ، يقول سيد: " وسواءٌ كان عقب الآية استفهامٌ أو تقريرٌ فمؤداه واحد، فإن ما في السموات والأرض حافل بالآيات، ولكن لا يستفيد منها إلا المؤمنون، والمخاطبون بهذا القرآن أول مرة لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السماوات والأرض إلا القليل – ولكن الحقيقية – أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون – حين تتفتح وتستيقظ – وتسمع منه الكثير! – والمنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي في الإدراك البشري يتكئ على ما في السموات والأرض، ويستلهم هذا الكون، ويوجه النظر والسمع والقلب والعقل، والنظر إلى السموات والأرض يمد القلب والعقل بزادٍ من المشاعر والتأملات، والاستجابات والمؤثرات وسعة الشعور بالوجود

(١) في ظلال القرآن، ١١٥٣/٢.

والتعاطف معه، وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية، الموحية بوجود الله، وبجلال الله، وبتدبير الله، وبسلطان الله، وبحكمة الله، وعلم الله " [1].

٢- وفي ظلال قوله تعالى: { إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [سورة الجاثية:٣])، يقول سيد: " والآيات المبثوثة في السماوات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء، ولا حال دون حال، فحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب.. وأي شيء ليس آية؟ هذه السماوات بأجرامها الضخمة وأفلاكها الهائلة،.. وهذه الأرض الواسعة العريضة.. وما أودعه الله فيها من خصائص.. وكل شيء في هذه الأرض وكل حي.. آية.. وكل جزء من كل شيء ومن كل حي في هذه الأرض.. آية.. والصغير الدقيق كالضخم الكبير.. الورقة الصغيرة في الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية.. آية في شكلها وحجمها ولونها وملمسها وفي تركيبها ووظيفتها، والشعرة في جسم الحيوان أو الإنسان آية، في خصائصها ولونها وحجمها.. والريشة في جناح الطائر.. آية.. وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تزاحمت الآيات وتراكبت،

(١) في ظلال القرآن ٣/١٨٢٢.

وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره.. وكلها تشير إلى اليد الصانعة المبدعة، التي لا يقدر على فعل شيء من ذلك أحد من خلق الله " (١).

٣- في ظلال قوله تعالى: { وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ } [سورة الشورى:٢٩] ، يقول سيد: " وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلاً ولا ريبة، فهي قاطعة في دلالتها، تخاطب الفطرة بلغتها، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد، إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان، ولا غيره من خلق الله، ولا مفر من الاعتراف بمنشئٍ مدبر، فإن ضخامتها الهائلة، وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواميسها الثابتة، كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها، أما الفطرة فهي تتلقى منطق هذا الكون تلقياً مباشراً، وتدركه وتطمئن إليه قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها!.

وتنطوي آية السماوات والأرض على آية أخرى في ثناياها " وما بث فيهما من دابة " والحياة في هذه الأرض وحدها – ودع عنك ما في السماوات والأرض من حيوات أخرى

(١) في ظلال القرآن ٣٢٢٢/٥ بتصرف وأيضاً ٣٣٧٨/٦.

لا ندركها – آية أخرى " (١).

ويستعرض- سيد – دلالة الخلق في الآفاق الكونية عند كثير من الآيات ومن النماذج أيضاً:

١- الليل والنهار وهما من أعجب آيات الله وبدائع صنعه، وفيهما دلالة على ربوبية الله وحكمته (٢).

٢- البحار والمحيطات، وما أودع الله فيها من عجائب مخلوقاته (٣).

٣- الرياح والمطر والسحاب والبرق (٤).

٤- الزرع والنبات والشجر (٥).

٥- الشمس والقمر (٦).

٦-الجبال والأنهار (٧).

وفيما سبق كفاية لبيان استدلال سيد بدليل الخلق في الكون على وجود الله ووحدانيته وربوبيته.

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٥٨/٥ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ١٥٢/١، ١١٥٧/٢، ٢٠٤٦/٤، ٣١٢٤/٥، ٣٠٣٨/٦، ٣٠٩٣.

(٣) في ظلال القرآن ١٥٢/١، ٢١٦٣/٤.

(٤) المصدر السابق ١٥٣/١، ٢٠٥٠/٤، ٢١٦٢، ٣١٢٥/٥.

(٥) المصدر السابق ٢٠٤٦/٤.

(٦) المصدر السابق ٢٠٣٢/٤، ٢٠٤٥، ٣٠٣٨/٦.

(٧) المصدر السابق ٢١٦٣/٤.

ب – أدلة الخلق في الأنفس على وحدانية الله:

وهذه الأدلة تمثل الجانب الثاني من آيات الله الدالة على وحدانيته، وقد ورد الحديث عنها في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقف سيد – رحمه الله – عندها كثيراً. ومن ذلك:

١- في ظلال قوله تعالى: { وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ } [سورة الروم:٢٠] .

يقول سيد: " والتراب ميت ساكن، ومنه نشأ الإنسان، وفي موضع آخر في القرآن جاء: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ } [سورة المؤمنون:١٢] ، فالطين هو الأصل البعيد للإنسان، ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر متحركين منتشرين، للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك... وهذه المعجزة الخارقة من آيات القدرة... والنقلة ضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر، نقلة تثير التأمل في صنع الله، وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله " (١).

٢- في ظلال قوله تعالى: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٦٣.

أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ } [سورة الزمر:٦] . يقول سيد: " بعد أن لفت الله أنظار العباد في الآيات قبلها إلى أفاق الكون الكبير، ينتقل إلى لمسة في أنفس العباد، ويشير إلى الحياة القريبة منهم في أنفسهم.. وحين يتأمل الإنسان في نفسه – نفسه التي لم يخلقها – والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصه الله عليه... يجد وحدة التصميم.. وحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها.. والإشارة إلى مراحل خلق الأجنة من النطفة إلى المضغة إلى العظام إلى الخلق الواضح في ظلمات الكيس والرحم والبطن، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة خلقاً من بعد خلق، وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن، البعيدة الآماد وتأمل التغيرات والأطوار، وتدبر تلك الخصائص العجيبة التي تقود خطى هذه الخلية الضعيفة في رحلتها العجيبة في تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره، هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشري إلى رؤية يد الخالق المبدع، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر في طريقة الخلق والنشأة " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠٣٩-٣٠٤٠ بتصرف.

٣- في ظلال قوله تعالى: { نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ } [سورة الواقعة:٥٦ –٥٨] . يقول سيد: " وأمر النشأة الأولى ونهايتها وأمر الخلق والموت، أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس، فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه..

ودور البشر في أمر الخلق لا يزيد عن أن يودع الرجل ما يُمني في رحم المرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين، في خلقه وتنميته، وبناء هيكله ونفخ الروح فيه، وفي كل لحظة تتم المعجزة، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله.. وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها، ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمنى، إلى أن تصير خلقاً، قصة أغرب من الخيال، قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلاً ويشهد وقوعها كل إنسان.

خلية واحدة، تتكاثر إلى ملايين الخلايا، كل مجموعة منها ذات خصائص مختلفة، تنشئ كل مجموعة جانباً في

الإنسان، هذه عظام، وتلك عضلات، وأخرى جلد، وهذه أعصاب، ثم هذه خلايا لعمل عين، وهذه لعمل لسان، وهذه لعمل أذن وهذه لعمل غدد، وهي أكثر تخصصاً من سابقتها وكل منها تعرف مكان عملها، فلا تخطئ خلايا العين مثلاً فتطلع في البطن أو القدم وهكذا.. " (١).

" فخلق الإنسان عجيبة كبرى، في تكوينه الجسماني، والروحي، وتوالده وتوارثه ومراحل حياته وعمل أجهزته، فكل جزئية فيه خارقة من الخوارق الإلهية الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته وربوبيته (٢).

ولسيد وقفات كثير مع دليل الخلق في الأنفس في ظلال كثير من الآيات(٣).

دليل الخلق ونفي والمصادفة:

إن القرآن الكريم وهو يعرض دلائل الخلق في الآفاق والأنفس – كما سبق – يقرر بطلان المصادفة في خلق الكون وما فيه، وفي ذلك يقول تعالى: { أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤٦٧– ٣٤٦٨ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٦/٣٣٧٩ وما بعدها.

(٣) **منها: سورة آل عمران الآية (٦)، و الروم الآيات (٨، ٤٠)، و غافر الآية (٦٧) و فصلت الآية (٥٠٣)، و الذاريات الآيات (٢٠–١) وسورة الملك (٣)).**

ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ } [سورة الطور الآيات ٣٥- ٣٦] . والاستدلال بهذه الآيات على ربوبية الله ووحدانيته وبطلان المصادفة قائم على أن لكل مخلوق خالق، وأن الخالق غير المخلوق ويستحيل أن يكون الشيء هو خالقاً ومخلوقاً في نفس الوقت وبالتالي:

- فالإنسان إما أن يكون خلق من غير خالق وهذا محال لتعارضه مع مبدأ السببية، فمستحيل أن يوجد أثر بلا مؤثر.

- وأما أن يكون الإنسان هو خالق نفسه وهذا محال " لأن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة – ساعة واحدة- كيف يكون خالقاً لنفسه"(١).

- وإذا بطل الاحتمالان تعين أن يكون للإنسان خالقاً خلقه، وهو الإله الحق.

* وأما ما يتعلق بالسماوات والأرض فإما:

- أن تكون خلقتا من غير شيء، وهذا محال لتعارضه مع مبدأ السببية.

- وإما أن تكونا خلقت نفسها، وهذا محال أيضاً.

- وإما أن تكون من خلق الإنسان، وهذا محال عقلاً وواقعاً.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٧٢/١.

فإذا بطل ما سبق لم يبقى إلا أن تكون السماوات والأرض من خلق خالقٍ هو الله عز وجل [1].

وفي ذلك يقول سيد – رحمه الله –: " ووجودهم – أي الناس – هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثير أو قليل.

أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدَّعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن، وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء، كذلك يواجههم بوجود السماء والأرض حيالهم، فهل هم خالقوها؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم " أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ". وهم – ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة – لا يقولون: إن السماوات والأرض خلقت نفسها أو خُلقت من غير خالق، وهم كذلك لا يدعون أنهم خلقوها، وهي قائمة حيالهم سؤالاً حياً يتطلب جواباً على وجوده! " [2].

---

(١) الدلالة العقلية في القرآن، د/ عبد الكريم عبيدات ص ٢٨٥ وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٣٩٩- ٣٤٠٠ وينظر أيضاً ٥/٢٦٥٦.

ويقول أيضاً بعد أن رد على تصورات الفلاسفة ومقولاتهم في قضية خلق الوجود: " إن المادة من خلق الله سبحانه، والصورة التي تظهر فيها من خلق الله كذلك، وهذه كتلك طوع إرادته، يتحقق وجودها بقدره كما أرادها وشاءها...

وخلق كل شيء وكل حي عن إرادة وقصد، وتحقق خلقه ووجوده بقدر من الله خاص، فلا مكان للمصادفة العمياء في هذا الكون، كما أنه لا مكان للحتمية الآلية على السواء.

لا مكان للمصادفة لأن كل حادث يحدث إنما يتم بقدر من الله خاص { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [سورة القمر:٤٩] ، { مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [سورة الحديد:٢٢] وغيرها. وتسقط بذلك كل المقولات " الفلسفية " أو " العلمية " التي تزعم مثلاً أن الأرض وجدت مصادفة، وأن الحياة وجدت مصادفة،.. وكذلك تسقط كل التصورات التي تنسب الآثار للمصادفات في حياة البشر " (١).

ثانيا: دليل التسوية:

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٥٦- ٢٥٧ بتصرف يسير.

ويقصد بالتسوية إحسان الخلق، وإكمال الصنعة، بحيث يكون المخلوق مهيئاً لأداء وظيفته وبلوغ كماله المقدر له، وجعله مستوياً معتدلاً متناسب الأجزاء، بحيث لا يحصل تفاوت يخل بالمقصود منه (١).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتضمن دليل التسوية في الآفاق وفي الأنفس ومظاهرها.

أ) **أما مظاهر التسوية في الآفاق:**

ففي ظلال قوله تعالى: { ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ } [سورة السجدة:٧] ، يقول سيد–رحمه الله –: ".. اللهم إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة، وتراه العين، ويراه القلب، ويراه العقل الحق المتمثل في أشكال الأشياء، ووظائفها، وفي طبيعتها منفردة، وفي تناسقها مجتمعة وفي هيئاتها أحوالها ونشاطها وحركاتها، وفي كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد، سبحانه! هذه صنعته في كل شيء، هذه يده ظاهرة الآثار في الخلائق.. يتجلى في كل شيء الإحسان والإتقان، فلا تجاوز ولا قصور، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص، ولا إفراط ولا تفريط في حجم أو شكل أو

---

(١) الدلالة العقلية في القرآن، د/ عبد الكريم عبيدات ص٢٩٠.

صنعة أو وظيفة،.. كل شيء وكل خلق مصنوع ليؤدي دوره في الوجود، معد لأداء هذا الدور إعداداً دقيقاً مزوداً بالاستعدادات والخصائص التي تؤهله لذلك.. إن هذا الوجود جميل، وإن جماله لا ينفذ، والجمال مقصود فيه (١).

وقد وقف سيد – رحمه الله – عند كثير من مظاهر التسوية في الآفاق مستدلاً بها ومنها:

١- **السماء:** ففي ظلال قوله تعالى: {ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ } [سورة الملك الآيات ٣- ٤] . يقول –سيد– " والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله، في السماوات بصفة خاصة وفي كل ما خلق بصفة عامة..، وهو يتحدى بكماله كمالاً يرد البصر عاجزاً كليلاً مبهوراً مدهوشاً.. فليس في خلق الرحمن – خلل ولا نقص ولا اضطراب.. وأسلوب التحدي يثير الاهتمام والجد في النظر ليذهب عنه بلادة الإلف..

والجمال في تصميم الكون مقصود كالكمال، بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة، فالكمال يبلغ درجة الجمال، ومن ثم

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٨٠٨ – ٢٨٠٩بتصرف، وينظر أيضاً ٥/٢٦٦٩.

يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجهه إلى كمالها، فمشهد النجوم في السماء جميل جمالاً يأخذ بالقلوب، وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، وكله جمال، يأخذ بالألباب.. والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء والكون كله، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حينئذٍ يتهيأ فيها للحياة الخالدة.. وإن أسعد لحظات القلب البشري هي التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه " (١).

وفي ظلال قوله تعالى {ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا } [سورة النازعات الآيات ٢٧- ٢٨] ، يقول: " وسمك كل شيء قامته وارتفاعه، والسماء مرفوعة في تناسق وتماسك وهذه هي التسوية، والنظرة المجردة، والملاحظة العادية، تشهد بهذا التناسق المطلق، والمعرفة بحقيقة القوانين التي تمسك هذه الحقيقة الهائلة التي لم يدرك الناس بعلومهم إلا طرفاً منها وقفوا تجاهها مبهورين، تغمرهم الدهشة، وتأخذهم الروعة، ويعجزون

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٣- ٣٦٣٤ بتصرف.

عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مطلقة، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقاً!! (١).

٢- **الأرض:** يقول سيد- رحمه الله – في ظلال قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا } [سورة النازعات الآيات ٣٠-٣٢] : " ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكوين تربة صالحة للإنبات، وإرساء الجبال وإخراج الماء والنبات لتعيش الأحياء فيها وتستقر "(٢).

والخلاصة: أن كل شيء في الوجود مسوىً في صنعته، كامل في خلقته، معد لأداء وظيفته، وهو دال على وجود الله وربوبيته.

ب) مظاهر التسوية في الأنفس:

وتبدو جلية في كل عضو من أعضاء الإنسان، فقد أحسن الله خلقه، كما قال سبحانه {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [سورة التين:٢] ، وقال: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} [سورة الانفطار ٧- ٨] .

(١) في ظلال القرآن ٣٨١٦/٦ وأيضاً ٤/ ٢١٣٢- ٢١٣١.

(٢) في ظلال القرآن ٣٨١٦/٦- ٣٨١٧ بتصرف، وأيضاً ٢١٣٣/٤- ٢١٣٤.

يقول سيد: " إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم... الذي اختار له هذه الصورة السوية.. إذ الإنسان مخلوق جميل التكوين، سوي الخلقة معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله، وإن هذا الجمال والسواء والاعتدال، لتبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي، وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء ".. ثم يستشهد على ذلك بما ذكره العلماء من عظمة خلق الإنسان والأجهزة التي عنده، في كمالها وتناسقها وجمالها، كل واحد منها عجيبة، لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشاً أمامها " (١).

ولو ذهبنا نتأمل مظاهر التسوية في الإنسان لأصابنا التعب كما أصابنا من التأمل في الوجود من حولنا، وكلها دليل على عظمة الله ووحدانيته وقدرته وربوبيته.

<u>ثالثاً: دليل التقدير:</u>

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨٤٩/٦ وما بعدها بتصرف، وينظر أيضاً ٢٤٥٩/٤ وما بعدها.

يقصد بالتقدير: جعل الأشياء على مقدار مخصوص بدون زيادة أو نقصان، حسبما اقتضت الحكمة الإلهية [1]، بحيث لو افترضنا خلاف ذلك تطرق الفساد إلى كل مخلوق.

والتقدير في مخلوقات الله على ضربين:

١- ضرب أوجده بالفعل، بأن أوجده كاملاً دفعة لا تعتريه الزيادة والنقصان إلى أن يشاء الله أن يفنيه أو يبدِّله، كالسماوات وما فيها.

٢- ضرب جعل أصوله موجودة بالفعل، وأجزاءه بالقوة، وقدَّره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدَّره فيه، كتقديره في النواة أن ينبت منها النخيل دون التفاح، وتقدير منيِّ الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات [2].

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم التقدير في عدة مواضع يمكن الإشارة إلى أمثلة منها في مجالي الكون والإنسان:

أ – مظاهر التقدير في الكون:

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٥.

ظاهرة التقدير تبدو في كل ما خلق الله -عز وجل- في الأرض وفي السماء، فقد نظَّم الله أجزاء هذا الوجود على أحسن نظام وأدلِّة على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وحكمته ولطفه (١).

ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قوله تعالى{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [سورة الفرقان:٢] . حيث وقف سيد طويلاً في ظلال هذه الآية قائلاً: " كل شيء.. كل صغير وكل كبير كل ناطق، وكل صامت، كل متحرك وكل ساكن، كل ماضٍ وكل حاضر، كل معلوم وكل مجهول، كل شيء خلقناه بقدر.

قدر يحدد حقيقته.. ويحدد صفته، ويحدد مقداره، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه، ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء، وتأثيره في كيان هذا الوجود.

إن هذا النص القرآني القصير اليسير، ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة، مصداقها هذا الوجود كله، حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود، ويتجاوب معه، ويتلقى عنه، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقاً دقيقاً، كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار ابن عفان، الرياض، ط١، عام ١٤١٦هـ، ٣١/٢، وما بعدها، وشفاء العليل لابن القيم، ص١٢٢.

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهيئه هذه الوسائل ويطيقه العقل البشري، ويملك معرفته عن هذا الطريق، ووراء هذا القدر يبقى دائماً ما هو أعظم وأكمل، تدركه الفطرة، وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر.

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له، ووصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد، لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها، فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها، ثم يتحقق هذا الذي فرضوه، ويدل تحققه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام، في هذا الفضاء الهائل، بهذه النسب المقدرة التي لا يتناولها خلل أو اضطراب!.

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدرها الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أي اختلال في أي نسبة من نسبها

يودي بهذه الحياة كلها، أولا يسمح أصلاً بقيامها، فحجم الأرض وكتلتها وبعدها عن الشمس، وكتلة هذه الشمس، ودرجة حرارتها – وميل الأرض على محورها بهذا القدر وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس، وبعد القمر عن الأرض، وحجمه وكتلته، وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض،.. إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديراً، لو وقع الاختلال في أي منها لتبدل كل شيء ولكانت هذه النهاية المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض!.

ووصل في إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة، وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها، وبين بعضها البعض.. إلى حد يعطي فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التي تشير إليها الآية.

فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء، وعوامل الموت والفناء، في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائماً بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها، وفي الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكفي الظروف المهيأة للأحياء في وقت ما لإعالتهم وإعاشتهم! " (١).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤٣٦- ٣٤٣٧.

كما أشار سيد- رحمه الله- إلى شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء لبعض وفي تناسق بناء الكون وفي ظروف الأرض، ناقلاً عن علماء الأحياء والطبيعة والفلك كثيراً من مظاهر التناسق والتقدير في أجزاء الكون، وما فيه من أحياء وأشياء [1]، ويخلص إلى: " أن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه لمما يدعو إلى الدهشة حقاً، وينفي فكرة المصادفة نفياً باتاً، ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير، وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته، اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا }، " [2].

ب – مظاهر التقدير في الأنفس:

مظاهر التقدير في الإنسان تبدو في كل عضو من أعضائه، وكل خلية من خلاياه، وكل جهاز من أجهزة جسده،

(١) ينظر في ذلك: المصدر السابق ٢١٣٤/٤، ٢٥٤٨/٥-٢٥٥٠، ٢٩٦٨، ٣٤٣٧/٦- ٣٤٤١،.

(٢) في ظلال القرآن ٢٥٤٨/٥.

وقد نبه العلماء قديماً وحديثاً على مظاهر التقدير في خلق الإنسان (1).

وقد ذكر سيد – رحمه الله – أمثلة من التقدير الإلهي في خلق الإنسان، وأشار إلى عجائب من كمال التكوين الإنساني ودقته وإحكامه، ويظهر ذلك في الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي، الجهاز العظمى، والعضلي، والجلدي، والهضمي، والدموي، والتنفسي، والتناسلي واللمفاوي، والعصبي والبولي، وأجهزة الذوق، والشم، والسمع، والبصر، كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس "(2).

ثم نقل معلومات عن بعض الكتب العلمية تبين تقدير الله في عمل بعض أجهزة الإنسان وأعضائه كاليد والعين واللسان والأعصاب والمعدة وأجهزة الهضم والعقل والمخ، وغيرها، مستدلاً بذلك على وجود الله وقدرته وعظمته وحكمته (3).

---

(1) ينظر في ذلك: الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبر للجاحظ ص ٤١وما بعدها، و الحكمة في مخلوقات الله للغزالي ص٦١ وما بعدها، و العلم يدعوا للإيمان، لكريسي موريسون ص ١٦٢ وما بعدها.

(2) في ظلال القرآن ٣٨٤٨/٦.

(3) المصدر السابق ٣٨٤٨/٦– ٣٨٥٠.

رابعاً: دليل الهداية:

يقصد بالهداية: إعطاء كل مخلوق من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، وإرشاده إلى ما يصلح في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه [1]، وكما أن التسوية من تمام الخلق، فإن الهداية من تمام التقدير، وإذا كان الخلق هو إعطاء الوجود العيني الخارجي للمخلوقات، فإن الهداية إرشاد هذه المخلوقات ودلالتها لما خلقت له، مما يحفظ بقاءها ويقيها في حياتها[2].

والذي يظهر أن الهداية تختص بكل ما فيه روح، لأن الإلهام الفطري، الذي أودعه الله المخلوقات يستلزم ممارسةً عمليةً من طعامٍ وشرابٍ ودفاعٍ عن النفس وغير ذلك مما يُصلح المخلوق في معيشته، ويؤيد هذا ما ذكره ابن القيم في تفسير قوله تعالى { قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ } [سورة طه:٥٠] ، حيث قال: " والآية شاملة لهداية الحيوان كله، ناطقه وبهيمه، طيره ودوابه، فصيحه وأعجمه " [3].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم، ١٢٢ بتصرف.

(٢) شفاء العليل لابن القيم ٦٦، ٧٩.

(٣) شفاء العليل لابن القيم، ص٦٦.

وأكثر ما ينبه العلماء على مظاهر الهداية في عالم الحيوان لأن الدلالة فيها أعظم، وقد وقف سيد قطب عند هذه الدلالة، وأشار إليها في مواضع متعددة.

يقول سيد- رحمه الله - في ظلال الآية السابقة " ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها، ثم هدى كل شيءٍ إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها، " وثم " هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته، إنما التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته، فهداية كل شيء إلى وظيفته أعلى مرتبة من خلقه غفلاً [١].. وهذا الوصف يلخص أكمل آثار الأُلوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود، هبة الوجود - وهبة خلقه على الصورة التي خلق عليها - وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها، وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل

---

(١) الغفل: الذي لم يجرب الأمور، انظر: لسان العرب، ٩٦/١٠، وشفاء العليل لابن القيم ص١٦٨.

كائن صغير أو كبير "[١]. ويذكر سيد نماذج لهداية المخلوقات لا يسع المجال لعرضها [٢].

وهكذا رأينا أن سيداً – رحمه الله – ركز كثيراً على الآيات الكونية في الآفاق والأنفس في مجال الخلق والتسوية والتقدير والهداية، وأشار إلى أنها من أدَّل الدلائل على وجود الخالق سبحانه ووحدانيته وإتقان صنعه وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، والتأمل فيها يملأ القلوب بالإيمان بالله، واستشعار قدرته، ولتكون ثمرة هذا التأمل والنظر عبودية خالصة لله قائمة على براهين وحجج تشهد بها آياته في الآفاق والأنفس[٣].

الفرع الثالث: الاستدلال بالأدلة العقلية " انتظام الكون وعدم فساده "

من الأدلة على وجود الله وربوبيته أيضاً: الأدلة العقلية، وهي نوع من الأدلة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، والتي تقوم على ضرب الأمثلة والمقاييس العقلية المفيدة بناءً على المقدمات المعلومة بخلاف طريقة أهل الكلام في هذا الباب [٤].

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٣٨ بتصرف يسير.

(٢) ينظر على سبيل المثال: في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٣٧- ٣٤٤٠.

(٣) ينظر: مقومات التصور الإسلامي، ص ٣٢٣ – ٣٥٩.

(٤) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص ٣٨.

ومن هذه الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله وربوبيته: " دليل انتظام الكون وعدم تطرق الفساد إليه ".

يقول ابن القيم- رحمه الله-: " وانتظام أمر العالم: العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، أدل دليل على أن مدبِّره واحد، لا إله غيره " (١).

وقد نبه القرآن على ذلك في مواضع منها:

١- في ظلال قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [سورة الأنبياء ٢٢] ، يقول سيد: " وهذا الدليل الكوني مستمدٌّ من واقع الوجود.. فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً، وينسق بينها وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم، هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات، ولتعددت النواميس تبعاً لها – فالإرادة مظهر الذات المريدة، والناموس مظهر الإرادة النافذة – ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق، هذا

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق، د. علي الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣ عام ١٤١٨هـ، ٢/٤٦٤.

التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس.

وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس، ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره " فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ". " (١).

وكلام سيد هنا موافق لما ذكره علماء أهل السنة والجماعة (٢) من الاستدلال بوحدة الكون وتناسقه على وجود الله ووحدانيته وربوبيته، لأنه لو كان هناك إله مع الله لكان له إرادة وخلق، وبالتالي تتعدد الإرادات والنواميس التي تظهر فيها تلك الإرادات، وعندئذٍ يحصل الخلاف والتضارب والتصادم بين هذه النواميس والإرادات فيفسد الكون، فانعدام ذلك وصلاح الكون وانتظام أمره دليل على وجود إله واحد في هذا الكون.

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٣٧٣.

(٢) ينظر كلامهم في: منهاج السنة لابن تيمية ٣/ ٣٠٦ وما بعدها، ودرء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٥٤ وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨. وتفسير الطبري ٩/١٥.

٢- في ظلال قوله تعالى: { مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [سورة المؤمنون:٩١] ، يوضح سيد – رحمه الله – أن الله– سبحانه – يستدل على وحدانيته وربوبيته في هذه الآية بأنه لو كان مع الله إله آخر ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾، أي: يستقل بما خلقه، يصرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكل جزء من الكون، أو فريق من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع، " وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ " بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتدبير واحد.

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره، وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب فـ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ " (١).

ووجه الاستدلال في هذه الآية على وجود الله ووحدانيته:

- أن وجود العالم دليل على وجود خالق له.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٨ بتصرف يسير.

- وأن هذا الخالق لو كان معه إله آخر لكان لكل منهما نصيب فيه.

- ولو كان لكل منهما نصيب لكان كل منهما محتاج إلى الآخر وبالتالي لا يكون كل منهما إلهاً مستقلاً كاملاً.

- وعند ذلك سيحاول كل منهما مغالبة الآخر والانفراد، وعندئذٍ سيعتزل كل إله بما خلق من أشياء وينفرد بها، وبذلك يفسد أمر الكون والمخلوقات، ولما كان أمر الكون منتظماً لا خلل فيه ولا اضطراب ولا فساد كان ذلك دليلاً على وحدانية الله ووجوده وتفرده بالخلق والتدبير (١).

٣- قوله تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ } [سورة الطور ٣٥- ٣٦]، ويسمى هذا الدليل بدليل " السبر والتقسيم " **فالسبر:** اختبار الفروض للتعرف على الفاسد منها والصحيح، **والتقسيم:** الحصر لها بحيث لا يبقى مزيدٌ قطعاً أو ظناً، والفروض الممكنة هنا ثلاثة:

الأول: أن يكونوا خلقوا من العدم: وهو ممتنع ضرورة، إذ العدم نقيض الوجود، فلا يكون العدم سبباً للوجود.

---

(١) ينظر كلام العلماء في ذلك في: منهاج السنة لابن تيمية ٣ / ٣٢٣، وتفسير الطبري ٩/ ٢٤٠.

الثاني: أن يكونوا هم الخالقين: وهو مبني على الجمع بين النقيضين، إذ هو مبني على فرض وجودهم في حال عدمهم وهو ممتنع ضرورة إذ العدم نقيض الوجود.

الثالث: أن يكون الخالق غيرهم: وهو الله سبحان وتعالى وهو المطلوب إثباته(١).

يقول سيد – رحمه الله –: " ووجودهم – أي الناس – هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ولا يحتاج إلى جدلٍ كثير أو قليل، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدَّعيه مخلوق.

وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن وهي: أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء " (٢).

والخلاصة: أن دليل انتظام الكون وعدم فساده دليل عقلي قوي على وحدانية الله ووجوده وربوبيته، لا تملك العقول إلا التسليم به.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، د. ت، ص١٧، والمدخل لدراسة العقيدة، د. إبراهيم البريكان، دار ابن عفان، الرياض، ط٥، عام ١٤١٨هـ، ص١٠٢-١٠٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩- ٣٤٠٠، وكذلك ٥/ ٢٦٥٦.

الفرع الرابع: الاستدلال بالمعجزات وخوارق العادات

الاستدلال بالمعجزات على وجود الله ووحدانيته وربوبيته أمر متفق عليه بين أهل السنة والجماعة والمتكلمين، وذلك بالاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة على إثبات وجود الله تعالى وربوبيته. حيث يستدل بها على إثبات صدق النبوة، وإذا ثبت صدق النبي أو الرسول وجب تصديقه فيما أخبر به، وأهم ذلك وجود الخالق ووحدانيته وربوبيته.

وأيضاً فالمعجزة بذاتها أمر خارق للعادة فهي أخص في دلالتها من الحوادث المعتادة [١].

فالاستدل بالمعجزات من الطرق الشرعية السليمة التي أشار إليها القرآن الكريم.

وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى هذا الدليل، أثناء حديثه عن قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون الذي أنكر ربوبية الله بقوله: " وما رب العالمين " فعرض عليه موسى عليه السلام معجزة واضحة تدل على صدق ما أدعاه من وجود الله الذي أرسله إلى فرعون وقومه ليؤمنوا به، لأنه هو وحده القادر على كل شيء، إذ دلت المعجزة على وجوده وكمال قدرته على

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١١/٣٧٨-٣٧٩.

جميع خلقه بمن فيهم فرعون الذي تكبر وادعى الربوبية والألوهية حتى بعد مشاهدته المعجزة استكباراً وعناداً.

ففي ظلال قوله تعالى: { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) } [سورة الشعراء الآيات / ٢٣ - ٣٣] . يقول سيد - رحمه الله -: " إنه - أي فرعون قبحه الله - يسأل: أيُّ شيءٍ يكون رب العالمين الذي تقول: إنك من عنده رسول؟ سؤال المتنكر للقول من أساسه، والمستغرب للمسألة حتى ليراها غير ممكنة التصور.

فيجيبه موسى عليه السلام - بالصفة المشتملة على ربوبيته - تعالى- للكون المنظور كله وما فيه ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾، وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه - إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه

سلطانك – يا فرعون ولا علمك... وفيه توجيه نظره إلى الكون والتفكير فيمن يكون ربه.

ثم بعد استغراب فرعون لجواب موسى وتعجيبه لقومه منه، يهجم عليه موسى بصفة أخرى ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهي أشد مساساً بفرعون ودعواه وأوضاعه.. لذا نجده " يتهم موسى بالجنون حتى يبعد القلوب عن التأثر بكلامه وتصديقه – شأن الطغاة – ولكن هذا التهكم والاتهام لا يفت في عضد موسى – عليه السلام – فيمضي معرفاً بربه بقوله: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، حيث يلفت الأنظار إلى هذين الحدثين العظيمين وهما يتكرران كل يوم– الشروق والغروب– حيث لا يجرؤ فرعون ولا غيره أن يدعي تصريفهما، فمن يصرفهما إذن؟ سؤال هز العقول[1]، وهنا خشي فرعون من يقظة القلوب فأخذ يهدد بالبطش والسجن، وهي حجة الطغاة وعلامة العجز أمام دلائل الحق، وكأن فرعون أراد إغلاق صفحة الحوار، فإذا بموسى يفتحها من جديد ببرهان جديد: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ، أي ببرهان واضح

(١) وهذه وما قبلها من الدلائل الكونية على وجود الله وحدانيته كما سبق بيانه في الفرع الثاني من هذا المبحث.

علـى صـدق رسـالتي! وفـي هـذا إحـراج لفرعـون، فلـو رفـض الإصغاء لبرهانـه المبين لدل علـى خوفـه، لذا قـال: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في أن لديك شيئاً مبيناً.

هنـا كشـف موسـى عـن معجزتيـه المـاديتين، وقـد أخرهمـا حتى بلغ التحدي من فرعون أقصـاه ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾. ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر، معجزة تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا يلقـون لهـا بـالاً لطـول الألفـة والتكـرار، أو لأنهـم لا يشـهدون التحـول علـى سبيل التحـدي، فأمـا فـي مثـل هـذا المشـهد فـالأمر يزلزل ويرهب " (١).

ومـا ذكره سيد هنـا هو نفسـه مـا أشار إليـه شيخ الإسـلام ابن تيمية حيث يقول بعد سوقه للآيات سالفة الذكر: " فهنا قد عرض عليه موسى – عليه السلام – الحجة البينـة، التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن لـه إلهاً غيـر فرعـون يتخـذه... فبـيَّن أن المعجـزة تـدل علـى الوحدانيـة والرسـالة، وذلـك لأن المعجزة – التـي هـي فعلٌ خـارقٌ للعـادة – تدل بنفسها على ثبوت الصـانع كسائر الحوادث، بل هي أخص

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٩٢ – ٢٥٩٤ بتصرف.

من الحوادث المعتادة في الدلالة، ولهذا يسبح الرب عندها ويعظم... وتدل بظهورهاعلى الرسول، وإذا تبين أنه رسول تقرر بها الربوبية والرسالة " (١).

المبحث الثاني

موقف سيد قطب من القول بـ " قدم العالم "

القول بقدم العالم مشهور عن بعض الفلاسفة، وأول من قال به منهم هو "أرسطو" وتبعه ابن سيناء وغيره، حيث اتفقوا على عدم الحدوث الزماني، بمعنى أن يكون لوجود العالم بدء زماني مسبوق بزمن سابق وعدم مستمر، فصورة العالم ومادته عند هؤلاء الفلاسفة قديمة أزلية، وإن لم تظهر إلا بعد فترة من الزمان (٢).

أي أن العالم كان في حالة " ممكن الوجود " ثم تحرك بشوق منه نحو " واجب الوجود " – وهو الله – فانتقل من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود.

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٧٨ بتصرف، وينظر كلام العلماء في ذلك في: الاعتقاد والهداية للإمام البيهقي ص ١٠، والصواعق المرسلة لابن القيم ٣/ ١١٩٦.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨ / ٢٨٦.

وقد ناقش سيد – رحمه الله – مسألة " قدم العالم " عند الفلاسفة، وبين فسادها، وأكتفي هنا بنقل نص واحد حول المسألة لتعذر نقل كل ما يتعلق بالموضوع:

يقول – رحمه الله –: " والله سبحانه خلق هذا الكون مريداً أن يخلقه على الصورة التي أنشأه عيها وليس الأمر كما يقول أرسطو: إن الله لم يرد إيجاد هذا الكون، لأنه مستغن بذاته، فلا حاجة به إلى خلق ما لا حاجه به إلى خلقه، لأن خلقه لا يزيد في كماله، وإلا لكان كمال الله ناقصاً قبل خلق الكون كما أنه إذا لم يكن خلقه يكمل هذا الكمال فإن يكون عبثاً! وإنما هذا الكون كان ممكن الوجود، فتحرك بشوق منه نحو واجب الوجود – وهو الله – فانتقل من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود!.

إن هذا الذي يقوله أرسطو – أكبر الفلاسفة – ليس إلا تصورات ذهن بشري لا يرتكن إلى أي أساس صحيح، وهو يقيس الله – سبحانه – وتصرفه إلى البشر وتصرفاتهم، وخلق الله للكون لا يقتضي حتماً أن يكون لنقص في كماله سبحانه، حتى ينفيه عنه أرسطو، كما أنه لا يمكن أن يكون عبثاً إنما الله هو الذي يقدر حكمة خلقه.

كما أنه يقال لأرسطو: إذا كان هذا الكون – قبل وجوده بالفعل – ليس موجوداً، فكيف تحرك من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود الفعلي؟ ما الذي تحرك فيه وهو ليس بشيء؟ وهذا الشوق الذي حركه نحو واجب الوجود أين كان مقره في شيء لا وجود له؟ ثم من الذي أودع شوقاً في شيء لا وجود له؟ إنها تصورات واهنة يعجب الإنسان كيف تصدر عن ذهن أكبر الفلاسفة لولا أن يتذكر أن الذهن البشري حين يقحم نفسه في غير مجاله على نحو ما تصنع الفلسفة بجملتها، وهي تتحدث عن ذات الله وصفاته وأفعاله من عند نفسها، لا يمكن أن يأتي بغير هذه التصورات الواهنة! " (١).

كما أن قولهم بأن الحياة حالة أو خاصية ملازمة لمادة الكون أو كامنة فيها بطبيعتها، زعم بغير دليل يقبله العقل، إذ كيف يمكن لخاصية في مادة الكون أن تظل كامنة ما لا يحصى من ملايين السنين – على اعتبار أن الكون قديم موجود بذاته كما يقولون – فلا تتحرك لتظهر إلا منذ كذا مليون سنة فيما يقدرون؟ دون أن تكون هناك إرادة قاصدة في كمونها أو في ظهورها؟ إن العقل البشري بمنطقه الذاتي يرفض هذا التصور " (٢).

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٢٥٢.

(٢) مقومات التصور الاسلامي، ص ٢٥٢ بتصرف يسير.

وبعد أن استعرض سيد قطب عدداً من النصوص القرآنية الدالة على أن الله خلق الكون وما فيه بعد أن لم يكن وأنه أوجد جميع المخلوقات من عدم، قال – رحمه الله –: " إن الله سبحانه – كما تقرر هذه النصوص – خلق الكون وما فيه ومن فيه، خلقه خلقاً، وأنشأه إنشاءً – سواءً في ذلك مادته أو صورته " (١).

ومما سبق نجد: أن سيداً – رحمه الله – يرفض فكرة " قدم العالم " سواءً في صورته أو مادته كما يقول الفلاسفة، ويقرر بأن العالم حادثٌ مخلوقٌ بعد أن لم يكن، ويجعل من حدوث العالم وخلقه دليلا على وجود الخالق سبحانه كما سبق عند الحديث عن الاستدلال بالخلق على الربوبية.

(١) المصدر السابق ص ٢٥١.

المبحث الثالث

موقفه من وحدة الوجود

من أبرز القضايا التي أثيرت حول عقيدة سيد قطب – رحمه الله – قضية اتهامه بالقول "بوحدة الوجود" وفي هذا المبحث نعرض لهذه القضية من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: معنى وحدة الوجود عند القائلين بها.

المطلب الثاني: سبب اتهام سيد قطب بالقول بوحدة الوجود ومناقشته.

المطلب الثالث: سيد قطب ونقض وحدة الوجود.

المطلب الأول

معنى " وحدة الوجود " عند القائلين بها

وحدة الوجود: مذهب فلسفي لا ديني، يقول بأن الله والطبيعة والكون حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود المطلق، ويقوم هذا الاعتقاد على أن العالم بما فيه إنما هو التجلي الإلهي الدائم الذي كان ولا يزال، فالموجود واحد هو الله، وهو

عين المخلوقات، فكل شيء هو الله واختلاف الموجودات هو اختلاف في الصور والصفات مع توحد الذات" [(١)].

ويوضح ابن القيم – رحمه الله – هذه العقيدة بقوله: " وقول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود، وأنه ما ثم وجود قديم خالق، ووجود حادث مخلوق، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله، وهو حقيقة وجود هذا العالم – فليس عند القوم رب وعبد، ولا ملك ومملوك، ولا راحم ومرحوم، ولا عابد ومعبود... بل الرب هو نفس العبد وحقيقته، والمالك هو عين المملوك، والراحم هو عين المرحوم، والعابد هو نفس المعبود، وإنما التغاير أمر اعتباري بحسب مظاهر الذات وتجلياتها [(٢)].

وهذه العقيدة وجدت عند بعض غلاة الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، ولها وجود أيضاً اليوم في بعض الاتجاهات الغربية كالوجودية وغيرها، وكلها متفقة على أنه ليس الوجود إلا الله، وما في الكون من ظواهر فإنما هي مظاهر لحقيقة واحدة، هي الحقيقة الإلهية– تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – [(٣)].

---

(١) الموسوعة الميسرة، ٢/ ٧٩٣.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم، ١/ ٦٠- ٦١.

(٣) ينظر كلام أصحاب وحدة الوجود في:

١- فصوص الحكم لابن عربي، تحقيق د / أبي العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ب، ت، ص ٩٧، ١١٣، ٢١٧، ٤٤٠.

المطلب الثاني

سبب اتهام سيد قطب بالقول بوحدة الوجود

عند النظر في كلام الذين نسبوا القول بوحدة الوجود إلى سيد – رحمه الله – نجد أنهم اعتمدوا في ذلك على أمرين:

الأمر الأول: نصوص شعرية ونثرية – لسيد قطب – رحمه الله – في كتابين أدبيين له في فترة ضياعه وانحرافه الفكري هما: " ديوان الشاطئ المجهول "، وقصة " سندباد عصري " (١).

الأمر الثاني: كلام أدبي موهم في تفسير سورتي الحديد والإخلاص (٢)، وهذان الأمران هما اللذان اعتمد عليهما د /

٢- جواهر المعاني في فيض أبي العباس التيجاني، لعلي بن حرازم الفارسي، دار الجيل، بيروت، طبعة عام ١٤٠٨هـ ١/ ١٤٨٣ .

٣-الإنسان الكامل، لعبد الكريم الجيلي، مطبعة الحلبي، مصر، ط ٤، ب. ت، ١/ ٢٣.

٤- الموسوعة الميسرة، ٢ / ٧٩٤، وما بعدها.

(١) ينظر في ذلك كلام د / ربيع المدخلي في كتابه: الحد الفاصل: ص٦٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: المصدر السابق ص ٧٢، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب، د/ ربيع المدخلي ص١٥٠ وما بعدها، والمورد الزلال، للدويش، ص ٣١٢.

ربيع المدخلي حيث يقول تحت عنوان: " أطوار سيد قطب في وحدة الوجود ":

أولاً: نعق بها وهو في سن الكهولة في حدود عام (١٩٥٣م – ١٣٥٥هـ) في ديوانه الشعري في قصيدته إلى الشاطئ المجهول.. ثم ذكر المدخلي ستة أبيات حول الموضوع، وأتبعها بشرح لها من مقدمة سيد لديوانه المذكور، واستعرض مجموعة أبيات أخرى من الديوان.

ثانياً: وفي شيخوخته في حدود سنة ١٩٤٦م – تحمس للدفاع عن عقيدة النيرفانا(١)، فمدحها وذب عنها وعن أهلها وهي تتضمن عقائد وثنية مثل وحدة الوجود والتناسخ،...

ثم استشهد ببعض نصوص من كلام سيد في نقده لكتاب" سندباد عصري "(٢)، على أن سيداً يمدح النيرفانا وأهلها.

ثالثاً: في حدود سنة ١٩٥١م تظاهر سيد بنفي القول بوحدة الوجود في أول تفسير سورة البقرة بأسلوب بارد!!..

---

(١) عقيدة النيرفانا تعني: نجاة الروح وصلاحها بعد دورة التناسخ، حيث لم تعد في حاجة إلى تناسخ جديد، فتنجو من الجولان وتتحد بالخالق الذي صدرت عنه وتفنى، وهي أسمى أهداف الحياة عند الهندوس والبوذيين، الموسوعة الميسرة. ٢/١١٧٠-١١٧١.

(٢) هو كتاب للدكتور /حسين فوزي.

رابعاً: في نهاية الخمسينات عاد سيد إلى تقرير عقيدة وحدة الوجود والقول بالحلول والجبر (!!!) في تفسيره سورتي الحديد والإخلاص "[1].

أما كلام سيد في تفسير سورتي الحديد والاخلاص فقد اعتمد عليه الشيخ الألباني – رحمه الله –وغيره في نسبة القول بالحلول والاتحاد إلى سيد، حيث يقول في لقاء لمجلة المجتمع الكويتية معه عن عبارات سيد قطب في تفسير سورتي الحديد والإخلاص: " ظاهر كلامه " أنه لا وجود إلا وجود الحق وهذا هو عين قول القائلين بوحدة الوجود.. كل ما تراه بعينك فهو الله، وهذه المخلوقات التي يسميها أهل الظاهر مخلوقات ليست شيئاً غير الله... وعلى هذا تأتي بعض الروايات التي تفصل هذه الضلالات الكبرى، بما يرى من بعض الصوفيين القدماء من كان يقول: " سبحاني ما أعظم شأني " وآخر يقول " ما الجبة إلا الله " وهذا الكلام كله في هذين الموطنين من التفسير " [2].

---

(١) انظر: الحد الفاصل، د / ربيع المدخلي ص ٦٥- ٧٣ بتصرف.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٥٢٠، ص٢٣، نقلاً عن: في ظلال القرآن في الميزان، د / صلاح الخالدي، ص ٧٧- ٧٨.

وحتى نعرف حقيقة الأمر لا بد من الوقوف عند السببين السابقين لنرى مدى دلالتهما على ثبوت التهمة من عدمها وذلك من خلال الفرعين الآتيين:

الفرع الأول: مناقشة السبب الأول: " الاعتماد على كلام سيد في كتبه السابقة لإلتزامه"

سبق الحديث عن مرحلة " الضياع والانحراف الفكري" التي مر بها سيد قطب والتي استمرت قرابة خمسة عشر عاماً من حياته، وألف فيها مجموعة من الكتب الأدبية المتنوعة شعراً ونثراً، ومنها ديوانه المعروف باسم " الشاطئ المجهول " وقصة " سندباد عصري "، وعنهما نقل الدكتور/ ربيع المدخلي الأبيات والكلام الذي استشهد به على أن سيداً يقول بوحدة الوجود .

وهذه المرحلة في حياة سيد لا يصح تقييمه من خلال ما كتبه فيها، لأنها مرحلة تمثل ضياعه وجاهليته كما يقول عن نفسه، والديوان المذكور أثر من آثار تلك المرحلة الجاهلية في حياته، يؤكد هذا اعتراف سيد نفسه بوضعه في هذه المرحلة فعند حديثه عن أثر الإيمان بعد التزامه بالإسلام يقول: " ومن هذه المعرفة التي يقدمها الإيمان للمؤمن يستمد المؤمن الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله ولما يقع، فهو يعرف من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ وماذا هو

واجد هناك؟.. ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير، وعدم معرفة المطوي من الطريق، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه، ووراء رحلته في ذلك الطريق،... يختفي شعور كشعور الخيّام الذي عبر عنه بما ترجمته:

لبست ثوب العمر لم أستشر وحِرتُ فيه بين شتى الفِكروسوف أنضو الثوب عني ولم أدرِ لماذا جئت؟ أين المفر

ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق، قبل أن أحيا في ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم، ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله، فعبرت عنه أقول:

وقف الكون حائراً أين يمضي

ولماذا؟ كيف – لو شاء – يمضي

عبثٌ ضائعٌ وجهدٌ غبينٌ

ومصيرٌ مقنعٌ ليس يُرضي

فأنا أعرف اليوم – ولله الحمد والمنة – أنه ليس هناك جهد غبين فكل جهد مجزي، وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر، وأن المصير مرضٍ، وأنه بين يدي عادلٍ رحيم، وأنا أشعر اليوم – ولله الحمد والمنة – أن الكون لا يقف تلك الوقفة

البائسة أبداً، فروح الكون تؤمن بربها وتتجه إليه وتسبح بحمده، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له، في طاعة، وفي رضىً وفي تسليم " (١).

ويؤكد ذلك أيضاً: ما نقله معاصروه عنه، ومن ذلك قول الأستاذ / يوسف العظم عن سيد: " غير أن أستاذنا في أخريات عهدنا به، كان يصرح بأن الديوان " أثر من آثار جاهليته، وكم كان يحب أن تصل يده إلى كل ما جاء فيه في كل نسخة وصلت أي بقعة في الأرض حتى يأتي عليه " (٢).

فكيف يصح محاكمة الشخص إلى كلام قاله في مرحلة يرى هو نفسه أنها تمثل حالة الجاهلية عنده، وإلى ديوان كان يتمنى بعد التزامه أن تصل يده إليه في أي مكان من الأرض لتمزقه، مما يدل على أنه تخلى عمّا كان في هذه المرحلة – والتوبة تجب ما قبلها.

أما ما يتعلق بمدح سيد لعقيدة النيرفانا – كما يقول المدخلي – فبيان ذلك كالآتي:

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٢، ٣٣٥٣.

(٢) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، د / صلاح الخالدي ص ٢٢١.

<u>أولاً:</u> أن هذا الكلام الذي ذكره سيد كان في أحد كتبه الأدبية السابقة لمرحلة التزامه بالإسلام، وهي مرحلة لا يجوز محاكمته إلى ما فيها، خاصة إذا كان له ما ينقضها بعد التزامه.

<u>ثانياً:</u> أن سيداً – رحمه الله – بعد التزامه بالإسلام، تعرض لعقيدة النيرفانا وما فيها من حلول وتثليث بالنقد في آخر كتبه (خصائص ومقومات التصور الإسلامي) مما يدل على أن كلامه السابق كان في مرحلة معينة، وجاء من خلال نقده الأدبي وتصويره لواقع ما يعيشه أهل تلك الديانة.

يقول سيد: " كان التوحيد هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها، ويكررها في قصة كل رسول، كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين...

ولكن هذا التوحيد الذي جاء به الرسل جميعاً، حُرِّفَ، ودخلت فيه الأساطير في شتى المعتقدات، سواء في الديانات التي تنسب إلى السماء، أو في الوثنيات التي اختلطت فيها بقايا الديانات السماوية بالأساطير في شتى الأزمان...

ثم ذكر نماذج للانحراف عن التوحيد ومنها: الهندوكية التي اعترفت بواحد هو وحده " الموجود " وهو " براهما " وجعلت من صفاته: التفرد بالكمال بالخير والدوام والأزلية،

وجعلت ما عدا هذا الواحد الموجود " عدما " لا وجود له، فهذه الأكوان وما فيها عدم، لكنها من جانب آخر جعلت " الوجود " الذي هو الخير والكمال يحل في " العدم " الذي هو الشر والنقص، فـ (براهما) حالٌّ في كل جزء من أجزاء هذا العالم – الذي هو عدم – فكل جزء من أجزاء هذا العالم – بما في ذلك الإنسان – مؤلفٌ إذن من وجودٍ وعدمٍ، من خيرٍ وشرٍ، من كمالٍ ونقصٍ، من بقاء وفناءٍ!.

ومهمة الهندوكي إذن هي المحاولة المستمرة لتخليص الوجود والخير والكمال والبقاء الذي في كيانه من العدم والشر والنقص والفناء، " ليصير " براهما.. ومن هنا حرصه على إفناء جسمه الذي هو العدم لينطلق " الوجود " الحال فيه، ويصبح طليقاً " وهذه هي درجة " النيرفانا " وهي تمثل الخلاص والعودة " براهما "!.

ومع ذلك فقد شاب هذا التوحيد – على ما به من حلول – شائبة من" التثليث" إذ اعتبروا " براهما " صورة من صورٍ ثلاث للإله الواحد، الإله " براهما " في صورة الخالق، والإله " فشنو " في صورة الحافظ، والإله " سيفا " في صورة الهادم، ثم جعلوا " الكارما " هي " القدر" الغالب على الآلهة وعلى الأفلاك، وهو الذي يكرر على العالم دورات الخلق والفناء، فلم

تسلم عقيدة التوحيد حتى في صورتها تلك المليئة بالإحالات " (١).

ويقول أيضاً " أما الأساطير والتصورات الوثنية فقد يبدو لنا اليوم أنها انتهت وانقضت، ولم تعد ذات موضوع يعالجه التصور الإسلامي الصحيح، ولكن الحقيقة غير ذلك، فما يزال مئات الملايين من البشر في الهند واليابان والتبت وسيلان والفلبين... وغيرها غارقة في أساطير الوثنية وتصوراتها عن " حقيقة الألوهية " وعن " حقيقة الكون" تبعاً لذلك، وما يزال أمام التصور الإسلامي الصحيح لهذه الحقائق الأساسية مجال عمل مفتوح.

إن بعض العقائد الهندية – تتصور – كما أسلفنا – أن هذا الكون يفنى ويتجدد في أدهار معلومة، وذلك بفعل " الكارما " أو " ما ينبغي أن يكون" وذلك مع اعتقادها بوجود إلهي له حالات ثلاث، كما أن بعضها يرى أن هذا الكون المادي" عدم لا وجود له، ولكن الوجود الإلهي وهو الوجود الحقيقي حين " يحل " في هذا العدم، فإنه يتجلى في الصورة المادية ومن ثم

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ص ١٩١– ١٩٣ بتصرفٍ يسير.

فكل ما نرى في الكون إنما هو من أثر" حلول " الوجود الإلهي في هذا العدم: ثم ذكر أمثلة للوثنيات عند مختلف الأمم" (١).

ومن هذين النصيين نجد أن سيداً ينتقد عقيدة النيرفانا، ويجعلها مع أصلها وهو الديانة الهندوكية ديانة وثنية قائمة على أساطير وخرافات وتناقضات كفكرة الحلول والتثليث وغيرها، وأنها تمثل الانحراف عن التوحيد، وهذان النصان في آخر ما كتبه سيد، مما يدل على أن ما ذكره الدكتور/ المدخلي واستدل به كان في فترة من فترات الضياع الفكري لسيد كما أسلفنا، وأنه بعد أن التزم بالإسلام عمل على توضيح التصور الإسلامي ونقد ما سواه بما في ذلك عقيدة النيرفانا.

الفرع الثاني: مناقشة السبب الثاني: " الاعتماد على كلام أدبي موهم في الظلال"

يحسن بنا هنا أن نستعرض عبارات سيد قطب التي أشار إليها ناقدوه وجعلوها مادة اتهام له بالقول بوحدة الوجود في سياقها، ثم نقف معها وقفات تحليلية، لتتضح لنا حقيقة الأمر، وذلك كما يأتي:

النص الأول: " في تفسير سورة الحديد "

---

(١) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ص ٣٥٦ وما بعدها.

ابتدأ- سيد- بتقديمٍ للسورة ومحاورها، ثم ذكر أن مدارها يقوم على تحقيق "حقيقة الإيمان" في القلب، وما ينبثق عنها من خشوع وتقوى وخلوص وتجرد وتضحية، حيث واجهت القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه فيها تعريف به، مع الإيحاء الآسر بالخلوص له، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة، وسيطرتها المطلقة على الوجود ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب والصدور، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح.

وفي مطلعها حشدت خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة، المحيطة بكل شيء والمهيمنة عليه، العليمة بكل شيء، وهي تشرف من عَلٍ على الوجود وما فيه ومن فيه، حيث تهز القلوب وتجول بها في الوجود كله، فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تحس بغير الله، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه ولا مرجعاً إلا إليه، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم.

وينطلق النص في مفتتح السورة بالتسبيح لله، فتجاوب معه أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله، ويهينم كل شيء في السماوات والأرض، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء.

ويقرر: أنه لا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله، فهو يدل على أن كل ما في السماوات والأرض له روح يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح، كما تدل على ذلك كثير من النصوص والآثار الصحيحة في الكتاب والسنة [1].

ثم بعد هذه المقدمة للسورة يقول: " – وما يكاد يفيق – أي القلب البشري – من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى لعلها أضخم وأقوى، حقيقةُ أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده –سبحانه – ومن ثم فهي محيطة بكل شيء – عليمة بكل شيء " هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". الأول، فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء.

الأول والأخر مستغرقاً كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان وهما مطلقتان، ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله، وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه، حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمداً من وجود الله، فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٦– ٣٤٧٨ بتصرف.

الذي يستمد منه كل شيء وجوده، وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقة، وليس وراءها حقيقة ذاتية، ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود " وهو بكل شيء عليم " علم الحقيقة الكاملة فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها، فهي مستغرقة إذن بعلم الله اللدني بها، العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء!.

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله، وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود – في ذلك القلب ذاته – إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيء وهمٌ ذاهب، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء؟.

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلبٍ ليحيله قطعة من هذه الحقيقة، فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش في تدبرها وتصور مدلولها، ومحاولة الوصول إلى هذه المدلول الواحد وكفى!.

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى، وهاموا بها وفيها وسلكوا إليها مسالك شتى، بعضهم قال: إنه يرى الله في كل شيء في الوجود، وبعضهم قال: إنه رأى الله من وراء

كل شيء في الوجود، وبعضهم قال: إنه رأى الله فلم ير شيئاً غيره في الوجود، وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال، إلا أن ما يؤخذ عليهم – على وجه الإجمال – هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور، والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة، ويعيش بها ولها، بينما هو يقوم بالخلافة في الأرض بكل مقتضيات الخلافة، من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله في الأرض، باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصوراً متزناً، متناسقاً مع فطرة الإسلام وفطرة الكون كما خلقها الله " (١).

النص الثاني: " في تفسير سورة الإخلاص ":

بيَّن سيد في مقدمة السورة، " أن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها {قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الاخلاص:١] هي عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة.. ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو لفظ أدق من لفظ " واحد " لأنه يضيف إلى معنى " واحد " أن لا شيء غيره معه، وأنه ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٨- ٣٤٨٠.

وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي – من ثم – أحدية الفاعلية، فليس سواه فاعلاً لشيء أو فاعلاً في شيء، في هذا الوجود أصلاً، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً.

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية، خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود – إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً – فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية، فعلام يتعلق بالقلب بما لا حقيقة لوجوده ولا فاعليته!.

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة، فعندئذٍ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهاق، يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي اصل قيود كثيرة، وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟.

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، مستصحبة رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها – وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب، ورد كل شيء، وكل حدث، وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت، وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني، ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله، {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ} [سورة الأنفال:١٧]، {وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ} [سورة لأنفال:١٠]، {وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ} [سورة الإنسان:٣٠] وغيرها.

وبتنحية الأسباب الظاهرة، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، وينفي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!.

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله، وأن لا وجود إلا وجوده، وأن لا فاعلية إلا فاعليته، ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق " (١).

ثم يقرر سيد بعد هذا أنه من هذا التصور لأحدية الله ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات، منهج لعبادة الله وحده، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته.

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة، في السراء والضراء، في النعماء والبأساء وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟.

ومنهج للتلقي عن الله وحده، في كل شؤون الحياة، ومنهج للتحرك والعمل لله وحده، ومنهج يربط بين القلب البشري

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٢- ٤٠٠٣.

وما حوله من الموجودات، وكل ذلك لتحقيق الخلافة في الأرض والقيادة بكل أعبائها.

ثم يقول: " ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد، وأنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والتوضيح ".

" الله الصمد " ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بأذنه، والله – سبحانه – هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد، وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات، وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه، وهذه الصفة متحققة ابتداءً من كونه الفرد الأحد، و" لم يكن له كفواً أحد " أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ، لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقية الفاعلية ولا في أي صفة من الصفات الذاتية، وهذا كذلك يتحقق لأنه " أحَد " ولكن للتوكيد والتفصيل.. " [١].

ب) وقفه تحليلية مع النصين السابقين:

إن المتأمل في النصين السابقين والسياق الذي وردا فيه يجد ما يأتي:

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٣ – ٤٠٠٤ بتصرف.

أولاً: أنـه لا يوجـد فيهمـا تصـريح مـن سـيد بـالقول بوحـدة الوجود.

ثانيـاً: أن كـلام سيد فـي الـنص الأول كـان حـديثاً عـن " الحقيقـة الإلهيـة " وأن الله الخـالق لهـذا الكـون ومـا فيـه، والعـالم بكـل شـيء والمحـيط بـه، والفاعـل الحقيقـي فيـه، وكـل مـا فـي الوجـود خاضـع لله عـز وجـل، لا يخـرج عنـه أمـره، وأن الله فـي عـلاه يشـرف علـى الوجـود ومـا فيـه ومـن فيـه، وأن كـل مـا فـي الوجود يسبح خالقه حقيقة. وتصور هذه الحقيقة على هذا النحو يجعل المسلم يحيا في ظلالها، ويتلمس آثارها في حياته وعند ذلك لا يلتفت إلى شيء غير الله، ولا يحفل بشيء سواه، لأنه وحده هو الحق.

ثالثـاً: أن كـلام سيد قطـب فـي الـنص الثـاني كـان عـن " أحدية الوجود " التي لا تكون إلا لله، وليس عن " وحدة الوجود " بـالمفهوم المنحـرف، فهو يتحـدث عـن أحديـة الوجـود التـي ينـتج عنهـا " أحديـة الفاعليـة " التـي ينـتج عنهـا نفـي فاعليـة الأسـباب الظـاهرة كلهـا، ورد كـل شـيء وكـل حـدث وكـل حركـة فـي هـذا الكـون إلــى الله وحــده – ســبحانه – وينــتج عــن ذلــك تنحيــة الأسـباب الظـاهرة عـن التـأثير فـي هـذا الكـون، والانتبـاه إلــى المسبب الذي خلق هذه الأسباب ووجهها كيف شاء.

رابعاً: أن كلام سيد السابق في الموضعين هو دعوة للمسلم والداعية على وجه الخصوص أن يعيش هذه الحقائق الإعتقادية ويحيا بها، ويتلمس آثارها التربوية والعملية والحركية على نفسه، وفي شعوره وكيانه وحياته وحركاته، بحيث لا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا من الله، لأنه لا فاعلية حقيقة في الوجود إلا لله، وهذا له أثر عظيم في حياة الداعية، حيث يجعله يتحرك بدينه، ويؤدي خلافته ويسعى جاهداً لتحقيق منهج الله في الأرض.

إذاً: فهدف سيد من كلامه السابق في النصين هو تقرير " حقيقة الألوهية " لهدف اعتقادي تربوي عملي حركي، فهو يخاطب الدعاة بذلك ليكونوا عقيدتهم ويعيشوا بها، ويتحركوا بدينهم، ويتوجهوا بقلوبهم وكيانهم كله إلى خالقهم، الأحد في وجوده وفاعليته، فتمتلئ قلوبهم طمأنينة ويقيناً وثباتاً وجهاداً وعقيدة وتوحيداً، وتوكلاً واستعانة (١).

وهذه هي إيجابية العقيدة الصحيحة، لذا نجد سيد – رحمه الله – في كلامه ينتقد المتصوفة ويأخذ عليهم سلبياتهم وانعزاليتهم التي قادتهم إلى القول بوحدة الوجود أو التي كانت نتيجة لعقيدة وحدة الوجود عندهم.

---

(١) في ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص ٨١ وما بعدها بتصرف.

خامساً: أن العبارات التي وردت في كلام سيد حول نفيه " للوجود المخلوق " أو " الكينونة المخلوقة " أو نحوها من العبارات، لا يعني نفي الوجود الفعلي لذلك، وإنما يمكن حملها على نفي وجود الفاعلية والتأثير، ووجود البقاء الذاتي، والاستقلال الذاتي، لأن الله وحده هو المتفرد بكل مقومات الوجود الحق الفاعل المؤثر، وما سواه سبحانه فإنما يستمد وجوده وفاعليته من إيجاد الله له.

فنفي سيد للوجود الآخر لغير الله، لا يعني بالضرورة نفي الوجود الفعلي الواقعي – فهذا قائم مسلم – بل قد يكون مقصده نفي التأثير والفاعلية عنه، فيكون المعنى أن ما سوى الله موجود وقائم له مكان وحيز لا ينكر، ولكنه لا فاعلية له ولا تأثير، ولا يملك حركة ولا ضراً ولا نفعاً، وعندما يدعو– سيد – كل داعية إلى أن يعيش هذه الحقيقية، ويتعمق فيها، حتى لا يرى إلا يد الله، ولا يرى شيئاً في الكون إلا الله، فإنه لا يقصد بذلك الرؤية العينية البصرية، وإنما يقصد بذلك الرؤيا القلبية الشعورية، رؤيا المشاعر والأحاسيس، فالعين ترى الموجودات القائمة في الوجود، لكن القلب والمشاعر ينفيان عنها الفاعلية والتأثير [١].

---

(١) المصدر السابق، د/ صلاح الخالدي ص ٨٣ بتصرف.

سادساً: أن عبارات – سيد قطب – في نفي الوجود والرؤية والتي سبق بيان مقصده منها يوجد في كلام كثير من أهل السنة والجماعة مثلها أو أقوى منها، ومقصد سيد من هذه للألفاظ قد يكون هو مقصدهم منها، ومن الأمثلة على ذلك:

١- تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن النوع الثاني من أنواع الفناء في الله وعبادته وهو ما سماه " الفناء عن شهود السوى " فقال: " فإذا قوي على صاحب هذا الفناء، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن – وهي المخلوقات العبد فما سواه – ويبقى من لم يزل، وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤها عن أن يدركها أو يشهدها " [1].

ويقول في موضع أخر: " إذا قال أحد المشايخ: ما أرى غير الله، أولا أنظر إلى غير الله ونحو ذلك فمرادهم بذلك: ما أرى رباً غيره، ولا خالقاً ولا مدبراً غيره، ولا إلهاً لي غيره، ولا أنظر إلى غيره محبة له، أو خوفاً منه أو رجاءً له " [2].

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الفضيلة، الرياض، ط١، عام ١٤٢٠هـ، ص ١٤٦، وما بعدها.

(٢) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية١٥٢.

٢- يقول ابن القيم – رحمه الله – " والجحد في الشهود لا في الوجود، أي يجحده أن يكون مشهودا فيجحد وجوده الشهودي العلمي، لا وجوده العيني الخارجي، فهو أولاً: يغيب عن وجوده الشهودي العلمي، ثم ينكر ثانياً: وجوده في علمه، وهو اضمحلاله جحداً، ثم يرتقي من هذه الدرجة إلى درجة أخرى أبلغ منها، وهي اضمحلاله في الحقيقة، وأنه لا وجود له البتة، وإنما وجوده قائم بوجود الحق، فلولا وجود الحق لم يكن هو موجوداً، ففي الحقيقة: الموجود إنما هو الحق وحده، والكائنات من أثر وجوده، فهذا معنى قولهم: إنها لا وجود لها ولا أثر لها، وأنها معدومة وفانية ومضمحلة " (١).

٣- يقول الإمام أبو إسماعيل الهروي (٢) عن الفناء: " هو اضمحلال ما دون الحق علماً، ثم جحداً ثم حقاً، وهو على ثلاث درجات:

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم ١/١٦٨، وما بعدها.

(٢) هو: عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي أبو إسماعيل، ولد بقندهار سنة ٣٩٦هـ، محدث ومؤرخ ومتكلم، له عدة مؤلفات، توفي سنة ٤٨١هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١١/٢٦٣، ومعجم المؤلفين ٦/١٣٣.

الدرجة الأولى: فناء المعرفة في المعروف، وهو الفناء علماً، وفناء العيان في المعاين وهو الفناء جحداً، وفناء الطلب في الوجود وهو الفناء حقاً.

والدرجة الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها، وفناء شهود العيان لإسقاطه.

والدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء، وهو الفناء حقاً " (١).

ولا شك أن كلام أبي إسماعيل الهروي هنا أكثر تصريحا من كلام سيد السابق ولذا اتهم – أي الهروي – بالقول بوحدة الوجود، بناء على ما سبق من كلام له في النص، ولكن ابن القيم – رحمه الله – دافع عن الهروي في كلامه السابق بقوله: " وحاشا شيخ الإسلام – الهروي – من إلحاد أهل الإلحاد، وإن كانت عبارته موهمة، بل مفهمة ذلك " (٢).

ويرد أيضاً على من يتهم الهروي بالقول بوحدة الوجود فيقول: " وهذا كذب على شيخ الإسلام وليس مراده: فناء شهود العيان، فيفنى عن مشاهدة المعاينة، ويغيب بمعاينةٍ عن معاينته، وليس مراده: انتفاء الشهود والتغاير بين المعايِن والمعايَن، وإنما مراده: انتفاء الحاجب عن درجة الشهود، لا عن

---

(١) منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي، ص١٢٧.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٧٠.

حقيقة الوجود، وفرق بين إسقاط الشيء عن درجة الوجود العلمي الشهودي، وإسقاطه عن رتبة الوجود العيني الخارجي، فشيخ الإسلام – بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء – هذا مرادهم " (١). " وليس مرادهم فناء موجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤها عن شهودهم وحسهم، فحقيقة: غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته عن شهوده نفسه " (٢).

سابعاً: أن في كلام – سيد– في النصين المذكورين عبارات واضحة يفرق فيها بين الخالق والمخلوق، والإله والعبد، فيثبت المغايرة بينهما، حيث يثبت " متوجِهاً ومتوجَهاً إليه" و" ومسبِحاً ومسبَحاً بحمده " و" ومستمِداً ومستَمَداً منه" و" طالِباً ومطلوباً منه " و" راهباً ومرهوباً منه، و" وقاصداً ومقصوداً " و" سائلاً ومسؤلاً مجيباً " و" إلهاً وعبيداً " ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في كلام سيد وهي كلها تثبت المغايرة وتبطل دعوى "وحدة الوجود " عنده.

ويؤكد ذلك أيضاً أن سيداً – رحمه الله – جعل فائدة استشعار هذه الحقيقة – حقيقة الألوهية – كما أوضحها هي الإقبال على عبادة الله وإفراده سبحانه بها وتحقيق منهجه في

---

(١) المصدر السابق ١/١٧٢.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٧٥.

الأرض، بينما القائلون بوحدة الوجود يرون أنه لا داعي لعبادته وحده، فكل ما عبد في الأرض فهو معبود بحق لأنه ليس في الوجود إلا الله، أو أنه لا داعي للعبادة أصلاً فالعبد هو الله " [1].

وقد يصر البعض بعد ما سبق بيانه على أن يفهم من كلام سيد في الموضعين السابقين، قوله بوحدة الوجود، وقد نسمح له بذلك، إذا لم نجد لسيد قطب كلاماً صريحاً قاطعاً في نقض " وحدة الوجود "، فهل يوجد لسيد كلامٌ صريحٌ في ذلك؟

الجواب: نعم وهو ما سنعرضه في المطلب الآتي:

---

(١) ينظر كلامهم في: فصوص الحكم لابن عربي ص ٤٤٠، والإنسان الكامل للجيلي ١/٢٣، و الموسوعة الميسرة ٢/ ٧٩٦.

المطلب الثالث

سيد قطب ونقض " وحدة الوجود "

من خلال قراءة ما كتبه سيد في كتبه الإسلامية وخاصة الأخيرة منها كالظلال في طبعته المنقحة والخصائص والمقومات نجد أن له – رحمه الله – كلاماً كثيراً في نقد لفكرة " وحدة الوجود " وإبطالها بل واعتبارها كفراً لا يقول به مسلم.

ويمكن تصنيف النصوص الواردة في هذا الموضوع إلى الآتي:

أولاً: نصوص تقرر أن أعلى مقامٍ يمكن أن يرتفع إليه العباد هو مقام العبودية:

١- ففي ظلال قوله تعالى: { وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [سورة البقرة:٢٣] . يقول سيد – رحمه الله –: "ويبدأ هذا التحدي بلفتةٍ لها قيمتها في هذا المجال، يصف الرسول ﷺبالعبودية لله، ولهذا الوصف في هذا الموضوع دلالات منوعة متكاملة فهو: أولاً: تشريف للنبي ﷺ وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى، دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك، وثانياً: تقرير لمعنى العبودية في مقام دعوة

الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده، واطراح الأنداد كلها من دونه، فها هو ذا النبي ﷺ في مقام الوحي – وهو أعلى مقام – يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام (١).

٢- وفي ظلال قوله: {وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ } [سورة البقرة:٢٥٥] ، يقول – رحمه الله –: " وهذه الصفات تقرر حقيقةً وتوحي للنفس بها وتفرد الله سبحانه بالعلو، وتفرده سبحانه بالعظمة على سبيل القصر والحصر، فلم يقل " وَهُوَ عَلِيٌّ عَظِيمُ "، ليثبت الصفة مجرد إثبات، ولكنه قال: " ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ " ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك!.

إنه المتفرد بالعلو، والعظمة، وما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا ويرده الله إلى الخفض والهون، والعذاب في الآخرة.. ويعلو الإنسان ما يعلو، ويعظم ما يعظم، فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلي العظيم، وعندما تستقر هذه الحقيقة في نفس الإنسان فإنها تثوب إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه، وترده إلى مخافة الله ومهابته والشعور بجلاله وعظمته، والأدب في حقه " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٨.

(٢) في ظلال القرآن، ١/ ٢٩٠ بتصرف.

٣- وفي ظلال قوله تعالى: { لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ } [سورة النساء:١٧٢] ' يقول سيد: " فالمسيح ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله، لأنه – عليه السلام – وهو نبي الله ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان وهو خير من يعرف أنه من خلق الله، فلا يكون خلق الله كالله، أو بعضاً من الله، وهو خير من يعرف أن العبودية لله – فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة – لا تنقص من قدره، فالعبودية لله مرتبةٌ لا يأباها إلا كافرٌ بنعمة الخلق والإنشاء، وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده، وكذلك الملائكة المقربون وفيهم روح القدس جبريل عليه السلام " (١).

٤- ويقول – رحمه الله – بعد أن بين قيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء: " إن هذه الحقيقة ليست أهميتها في تصحيح التصور الإيماني، وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٠.

درجات الكمال والتناسق، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حيت تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها – صغر أم كبر– جزءاً من هذه العبادة، أو كل العبادة، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه، وهو إفراد الله سبحانه بالألوهية، والإقرار له وحده بالعبودية.. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه، وهو المقام الذي بلغه رسول الله ﷺ في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها، مقام تلقي الوحي من الله، ومقام الإسراء أيضاً " (١).

٥- ويقول أيضاً: " وفي موضوع التكريم لرسول الله ﷺ وفي مقام التعظيم يصفه بالعبودية، كما في مقام الإسراء والمعراج، ومقام الدعاء والمناجاة، وكذلك مقام تنزيل الفرقان عليه... والوصف بالعبودية في هذه المواضع له دلالته على رفعة هذا المقام، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بني الإنسان، كما أن فيه تذكيراً خفياً بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله، ويبقى مقام الألوهية متفرداً بالجلالة، متجرداً من كل شبهة شرك أو مشابهة، ذلك أن مثل مقام الإسراء والمعراج، أو مقام الدعاء والمناجاة، أو مقام الوحي والتلقي كان مزلةً لبعض أتباع الرسل من قبل، منها نشأت

---

(١) المصدر السابق ١٩٣٩/٤.

أساطير البنوة لله، أو الصلة القائمة على غير الألوهية والعبودية، ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية في هذا المقام، بوصفها أعلى أفق يرتفع إليه المختارون من بني الإنسان " (١).

٦- وفي ظلال قوله تعالى: {قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ } [سورة الزمر:١١] ، يقول – رحمه الله –: " وهذا الإعلان من النبي ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده، ويخلص له الدين وحده، وأن يكون بهذا أول المسلمين وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه.. هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء به الإسلام، فالنبي ﷺ في هذا المقام هو عبد الله، هذا مقامه لا يتعداه، وفي مقام العبودية يقف العبيد كلهم صفاً، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد، وهذا هو المراد، وعند ذلك يقر معنى الألوهية، ومعنى العبودية، ويتميزان فلا يختلطان ولا يشتبهان وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه.. " (٢).

٧- ويقول – رحمه الله – أيضاً: " وفي مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله ونفي الصاحبة والولد، وإثبات الجزاء في

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٤٧- ٢٥٤٨بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٤.

الآخرة وأن أحداً من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته، وتتكرر هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول ﷺ من الخطاب {قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا} [سورة الجن:٢٠]، فهذه الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده، وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر " (١).

واكتفى بهذه النصوص في هذا الجانب في تقرير سيد لحقيقة الألوهية وأن العباد لا يمكن أن يرتفعوا عن مقام العبودية أبداً.

ثانيا: نصوص تنكر الخلط بين مقام العبودية والألوهية بأي صورة من الصور:

ونظراً لكثرة النصوص في هذا الجانب فسأكتفي بإيراد مجموعة منها على سبيل التمثيل ومنها:

١- في ظلال قوله تعالى: {مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ} [سورة البقرة:٢٥٥]. يقول سيد: " وهذه صفة أخرى من صفات الله، توضح مقام الألوهية، ومقام العبودية، فالعبيد جميعاً يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية، لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع، لذا لا يقدم

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٢٣/٦ بتصرف.

بين يدي ربه، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده، إلا بعد أن يؤذن له فيخضع للإذن ويشفع في حدوده، وهم يتفاضلون فيما بينهم، ويتفاضلون في ميزان الله، ولكنهم يقفون عن الحد الذي لا يتجاوزه عبد،

وفي ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جاءوا من بعد الرسل فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فزعموا لله سبحانه خليطاً يمازجه أو يشاركه بالبنوة أو بغيرها من الصور في أي شكل وفي أي تصور، أو زعموا له سبحانه أنداداً يشفعون عنده فيستجيب لهم حتماً، في ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعدة، لا تخطر على الذهن، ولا تجول في الخاطر، ولا تلوح بظلها في خيال، وهذه النصاعة التي يتميز بها التصور الإسلامي، فلا تدع مجالاً لتلبيسٍ أو وهمٍ أو اهتزازٍ في الرؤية، الألوهية ألوهية، والعبودية عبودية، ولا مجال لالتقاء طبيعتهما أدنى التقاء، والرب رب، والعبد عبد، ولا مجال لمشاركة في طبيعتهما ولا التقاء، فأما صلة العبد بالرب ورحمة الرب للعبد والقربى والود والمدد، فالإسلام يقررها دون ما حاجة إلى خلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، ودون حاجة إلى الغبش والركام والزغللة

والاضطراب الذي لا تتبين فيه صورة واحدة واضحة ولا ناصعة ولا محددة " (١).

٢- ويقول أيضاً: " وعقب الإيضاح الحاسم بإعلان الوحدانية المطلقة لذات لله وصفاته.. يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التي تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات.. وهي الله سبحانه.. وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية " (٢).

٣- في مقدمته لسورة النساء ذكر أن السورة تعالج بناء التصور الإسلامي الصحيح، وتواجه العقائد المنحرفة ثم قال: " وفي ثنايا هذا التصحيح يتقرر التصور الإسلامي الصحيح، ويتمخض الأمر كله في أن يكون: ألوهية وعبودية، ألوهية الله وحده، وعبودية كل من عداه، وهي القاعدة الكبرى في العقيدة الإسلامية " (٣). " والله – سبحانه – تعالى عن الشركة وعن المشابهة، ومقتضى كونه خالقاً يستتبع.. بذاته أن يكون غير الخلق، وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٢٨٨ بتصرف يسير.
(٢) المصدر السابق ٢/٧٩٣.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٩٣.

والخلق والمالك والملك " [١]، " ويمضي السياق في البيان لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح، وهي حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق، وأن هناك فقط: ألوهية وعبودية، ألوهية واحدة وعبودية تشمل كل شيء، وكل أحد في هذا الوجود،... لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله – سبحانه – وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور، وعني بتقرير أن الله ليس كمثله شيء، فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية، كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله – سبحانه – وكل شيء – بما في ذلك كل حي – وهي أنها صلة ألوهية وعبودية، ألوهية الله، وعبودية كل شيء لله.. ألوهية وعبودية، ولا شيء غير هذه الحقيقة، ولا قاعدة إلا هذه القاعدة، ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية، وصلة العبودية بالألوهية، ولا تستقيم تصورات الناس وحياتهم إلا بتمحيص هذه الحقيقة من كل غبش وشبهة وضلال.. ويستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم، هو إله لهم وهم عبيده، هو خالق لهم وهم مخاليق، هو مالك لهم وهم مماليك، وهم كلهم سواء في هذه الصلة لا بنوة

---

(١) المصدر السابق، ٢/٨١٦.

لأحد، ولا امتزاج بأحد، ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه: التقوى والعمل الصالح " (١).

" وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته وألوهية روح القدس، وفي كل أسطورة،... فعيسى- عليه السلام – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان " (٢).

" ومن ثم تتوارد النصوص.. في تقرير الألوهية الواحدة ونفي كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله – سبحانه – وبين غيره، أو بين خصائص الألوهية وخصائص العبودية على الإطلاق"(٣).

" وهو – سبحانه – مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق، وكل شيء مخلوق، وبذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات، وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين، بلا غبش ولا

---

(١) في ظلال القرآن ٨١٨/٢- ٨١٩ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ٨٢٠/٢.

(٣) المصدر السابق ٨٢٦/٢.

شبهة ولا غموض" (١). وبهذا يبقى " التميز المطلق بين الذات الإلهية، وذوات الحوادث " (٢).

٤- ويقول أيضا: " والوصف بالعبودية في هذه المواضع – الإسراء والمعراج والدعاء والمناجاة والوحي والتلقي – له دلالته على رفعة هذا المقام، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بني الإنسان، كما أن فيه تذكيراً خفياً بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله ويبقى مقام الألوهية متفرداً بالجلالة، متجرداً من كل شبهة شرك أو مشابهة " (٣).

" وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد، وهذا هو المراد، وعند ذلك يقر معنى الألوهية ومعنى العبودية، ويتميزان، فلا يختلطان ولا يشتبهان وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه " (٤). " ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا وساطة في الطريق " (٥).

---

(١) المصدر السابق ٨٦٦/٢ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٢٢٥٧/٤.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٤٨.

٢ المصدر السابق، ٥/ ٣٠٤٤، وينظر أيضاً ٦/ ٣٦٤٦.

(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٩٦٥.

هذه بعض النصوص الواردة في الظلال، وهناك غيرها كثيرة يمكن الرجوع إليها [١].

وبالإضافة إلى ما سبق فإن هناك أيضاً نصوص في كتاب " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " وهو آخر كتب سيد – رحمه الله – يوضح فيها تميز الحقيقة الإلهية عن سواها، وينكر أي خلط بينها وبين غيرها في أي صورة من الصور ومن هذه النصوص:

٥- **يقول في الخصائص:** " إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلاً تاماً كاملاً بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية، وبين خصائص الألوهية، وخصائص العبودية، بحيث لا تقوم شبهة، أو غبش حول هذا الفصل الحاسم الجازم، الله ليس كمثله شيء، فلا يشاركه أحد في ماهية أو حقيقة، والله هو الأول والأخر والظاهر والباطن، فلا يشاركه أحد في وجود، وكل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فلا يشاركه أحد في بقاء " [٢].

---

(١) ينظر: في ظلال القران، ١/ ٣٦٨، ٢/١١١٠، ٣/١٤١٠، ١٧٤٥، ١٧٥٣، ١٧٧٢، ٤/٢٢١١.

(٢) خصائص التصور الإسلامي، ص ١٣٥.

" ويقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك – ألوهية وعبودية، ألوهية يتفرد بها الله سبحانه – وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه، وكما يتفرد الله – سبحانه – بالألوهية كذلك " يتفرد" تبعاً لهذا بكل خصائص الألوهية، وكما يشترك كل حي وكل شيء – بعد ذلك – في العبودية، كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية، فهناك إذن وجودان متميزان، وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله، والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد، وهذه هي القاعدة الأولى في التصور الإسلامي، ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى "(١).

٦- **يقول في المقومات:** " إن حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في التصور الإسلامي تقوم على أساس أن هناك ألوهية واحدة لهذا الوجود، ذات خصائص غير قابلة للشركة، وعبودية شاملة تتمثل في جميع الخلائق من أشياء وأحياء،.. عن مشيئة الله الواحد سبحانه صدرت كل هذه الخلائق، وبقدر الله تقوم وتتحرك لا شرك في هذه الألوهية" (٢). " إن التصور

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص ١٩٠، وينظر أيضاً: ص ٧٧، ١٠٤، ١٥٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٤.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٤٣.

الإسلامي يفصل فصلاً تاماً بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية، وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية، فهما لا تتماثلان ولا تتداخلان، كذلك يبين التصور الإسلامي بياناً حاسماً: من هو " الله" صاحب الألوهية، ومن هم " العبيد " الذين تتمثل فيهم العبودية.

إن الألوهية واحدة لا تتعدد، هي ألوهية الله سبحانه، والعبودية تتمثل في كل ما وراء ذلك، وكل ما وراء ذلك فهو من خلق الله، لم يوجد بذاته، كما أنه لا يقوم بذاته، إنما هو مخلوق أوجده الله، وهو مكفول يكفله الله، وهو متأثر يتحرك ويتغير بقدر الله " (١).

" إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة، قاعدة هذا التصور، ونقطة الاستقرار الثابتة فيه، والسمة المميزة له، ومفرق الطريق بينه وبين كل تصور آخر... هذه العبودية الشاملة يتعلق وجودها ابتداء، ويتعلق تدبيرها وكفالتها بالألوهية المتفردة، والعلاقة بين الألوهية المتفردة والعبودية الشاملة هي علاقة الخلق والملك والرزق والهيمنة والقوامة بكل معانيها ووظائفها ومقتضياتها" (٢).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٨١.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٠ بتصرف يسير.

" والتركيز في المنهج القرآني ابتداءً على " التوحيد " لا على الوجود، توحيد الذات الإلهية، فالله سبحانه ذات واحدة لا تتعدد، ولا تتبعض، ولا تندمج معها ذوات أخرى، ولا تتلبس بها كذلك فلا يشاركها فيها أحد، ومن وحدانية الذات وتفردها بهذه الصفات تتضح وحدانية الفاعلية والتأثير في الكون وما فيه ومن فيه، وحدانية الخلق والإنشاء، ووحدانية الملك والرزق والقوامة والتدبير، ووحدانية الهيمنة والسلطان في الدنيا والآخرة " (١).

ثالثاً: كلام صريح لسيد قطب في نقد فكرة "وحدة الوجود" واعتبارها كفراً:

في ظلال قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [سورة البقرة الآيات ١١٦-١١٧] يقول سيد: " وهنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه عن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعها...

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٣، وينظر أيضاً: ص ١١٦ - ١٢٦.

والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة " وحدة الوجود " على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح، أي بمعنى: - أن الوجود وخالقه وحدة واحدة.

- أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق.

- أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده، أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس

فالوجود وحدة في نظر المسلم على معنى أخر: وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع " (١).

هذه النقولات الكثيرة وغيرها تدل دلالة واضحة على أن سيداً - رحمه الله - كان موقفه من قضية وحدة الوجود، هو موقف المنكر لها الرافض، وأن كلامه الموهم لا يدل على أنه يقول بها، لأن عباراته واضحة في التفريق بين مقام الألوهية ومقام العبودية، وكذا إنكار أي خلط بينهما في أي صورة من الصور - كما سبق - بالإضافة إلى كلامه الصريح في نقضها واعتبارها مصطلحاً لا يقول به مسلم.

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٠٦

وإذاً: فلا يصح الانطلاق من كلامه الأدبي الموهم لتقرير موقفه من هذه المسألة ما دام أن له كلاماً واضحاً بيناً كثيراً، وخاصة في الطبعة المنقحة من الظلال وفي آخر كتبه "خصائص ومقومات التصور الإسلامي "، ومن باب أولى لا يصح الاعتماد على كلامه في أشعاره أو قصصه السابقة لالتزامه بالإسلام.

تنبيه:

أورد الدكتور / ربيع المدخلي في كلامه عن وحدة الوجود عند سيد قطب أن– سيداً– قررها في بداية حياته ثم نفاها أول الظلال ثم عاد يقررها في آخر الظلال في سورة الحديد والإخلاص، وقرر أن كلام سيد قطب في سورتي الحديد والإخلاص هو ما استقر عليه في النهاية، وحاول أن يستدل لهذا القول بأن سيداً – كتب الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الظلال بعد أن استقر على المنهج الحركي في فهم القرآن والحركة به وبالتالي فكلامه في سورة الحديد والإخلاص هو المعتمد " (١).

ولي مع كلام الدكتور المدخلي وقفات:

الأولى: أن المدخلي يناقض نفسه بنفسه في كتبه، ففي كتاب أضواء على عقيدة سيد قطب، يستعرض كلام سيد في

---

(١) أضواء على عقيدة سيد قطب، د / ربيع المدخلي ص ١٦٦.

سورة البقرة ويقول: " هذا الكلام الجيد القوي الذي هاجم فيه وحدة الوجود مهاجمة من يعرف أنها كفر وضلال، وأنها عقيدة غير المسلمين، ومهاجمة دارس يعرف أصنافها وأشكالها وتفاصيلها " [(١)].

ولكنه في رده على الشيخ / بكر أبو زيد في كتاب الحد الفاصل يقول في كلام سيد نفسه في سورة البقرة: " وفي حدود سنة ١٩٥١م تظاهر بنفي القول بوحدة الوجود في أول تفسير سورة البقرة بأسلوب بارد لا ندري ما باعثه! " [(٢)]، فما الذي تغير !!!

__الثانية:__ يقرر أن كلام سيد في تفسير سورة الحديد والإخلاص ينقض ما قاله في تفسير سورة البقرة بناءً على أنه ثبت واستقر على تفسير الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الظلال لأنه انطلق منها بمنهجه الفكري والدعوي والحركي [(٣)].

__أقول:__ هذا الاستدلال غير موفق، فصحيح أن سيداً كتب الأجزاء الستة والعشرين من الظلال بطريقة معينة، ثم تحول إلى منهج جديد في الكتابة بعد ذلك، فأكمل به الظلال، لكنه أيضاً،

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الحد الفاصل، د / ربيع المدخلي ص ٧٢، ٧٥ الهامش.

(٣) المصدر السابق، د / ربيع المدخلي، ص ٧٥.

عاد بالمنهج الجديد ليعيد النظر في تفسيره من أوله بناءً على إدراكه الجديد وراجع ونقح منه ثلاثة عشر جزءاً من أول الظلال، فيكون ما قرره في تفسير سورة البقرة هو الحق لأنه كان بعد تفسير سورة الحديد والإخلاص وهذا ما ذكره الخالدي نفسه [١]، ولا أدري لماذا رجح الدكتور / ربيع العكس رغم أنه اعتمد على كلام الخالدي وهو واضح.

الثالثة: نقل الدكتور / المدخلي كلام الخالدي في مراحل تأليف الظلال، ولما وصل إلى المكان الذي ذكر فيه الخالدي أن - سيداً - كتب الأجزاء العشرة الأولى من الطبعة الثالثة المنقحة بتركيز شديد، وعلى منهج جديد فكان يقف عند الآيات طويلاً.. إلى آخر كلام الخالدي حول منهج سيد فيها، وكذلك كلام الخالدي في أن سيداً راجع الأجزاء ١١- ١٣ من الظلال بعد خروجه من السجن عام ١٩٦٤م وحتى منتصف ١٩٦٥م.

أقول: لما وصل إلى هذه النقطة المهمة أسقطها كلها وهي أكثر من نصف صفحة ونقل ما بعدها والفقرة التي أسقطها الدكتور ربيع من كلام الخالدي هي قوله: " كتب سيد قطب الأجزاء العشرة الأولى من الطبعة الثالثة المنقحة بتركيز شديد،

(١) مدخل إلى ظلال القرآن، د / صلاح الخالدي، ص ٤٨- ٥٠، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص ٥٤٧، ٥٤٨

وعلى منهج جديد، وبطريقة جديدة، فكان يقف عند الآيات طويلا، ويسجل خواطره حولها، ويتعرض للحديث عما توحي به من قضايا في العقيدة والحركة، أو الفقه والتشريع، أو السياسة والاقتصاد، أو التاريخ والاجتماع، أو غير ذلك، وكانت أطول وقفاته وأعمقها وأنضجها تلك التي تتعلق بالعقيدة والحركة، والألوهية والعبودية والحاكمية والتشريع.

وكان الجزء السابع هو أكثر الأجزاء تركيزا، وأنضجها فكرا، إذ توسع في الحديث عن العقيدة ومباحثها، وفي مقدمته الطويلة لسورة الأنعام وأثناء تفسيره لها.

وفي الأجزاء الثلاثة الباقية من الطبعة المنقحة – الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر – لم يقف طويلا عند الآيات، لأنه قال معظم ما يريد قوله في الأجزاء السابقة وصار يعقب على الدروس والسور! وقد كتب هذه الأجزاء الثلاثة في الفترة التي أطلق سراحه فيها، من نهاية عام ١٩٦٤م وحتى منتصف ١٩٦٥. "

ثم عاد لينقل كلام الخالدي ابتداءً من قوله: كان سيد قطب يريد أن يعيد كتابة أجزاء الظلال من الرابع عشر حتى السابع والعشرين، وأن يفسرها على أساس منهجه الحركي

الجديد، أما الأجزاء الأخيرة فسيتركها على ما هي عليه لأنه ألفها على أساس ذلك المنهج"(١).

والذي يظهر – والله اعلم – أن إسقاط هذا الجزء من كلام الخالدي ليسلم الاستدلال على أن سيداً إنما اهتم بالمنهج الحركي فقط في الطبعة المنقحة، بدليل أنه نقل بعدها كلام الخالدي في أن – سيداً – لن يعدل شيئاً في الأجزاء الثلاثة الأخيرة، فالهدف إثبات أن كلام سيد في سورتي الحديد والإخلاص ناسخ لكلامه في سورة البقرة، وهي مغالطة مكشوفة، لأن كلام الخالدي يقرر أن ما في سورة البقرة كان بعد ما في سورتي الحديد والإخلاص، وأما قول الخالدي: بأن سيداً لن يغير شيئا في الأجزاء الأخيرة وهوما بنى عليه المدخلي كلامه فهو مجرد رأي، لأنه لا يوجد ما يدل على أن سيداً لن يغير شيئا في الأجزاء الأخيرة إذا وصل إليها!

وعموما كان الأحرى بالدكتور ربيع أن يقول ما قاله الشيخ الدويش – رحمه الله – حيث استعرض كلام سيد في سورة الإخلاص ونقده، ثم قال " ولعله – أي سيد – لم يقصد ما يفهم من قول الاتحادية، ونحن إنما قصدنا التنبيه على كلامه

(١) مدخل إلى ظلال القرآن، د / صلاح الخالدي، ص ٥٠، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص ٥٤٧، ٥٤٨.

لئلا يغتر به من لا يفهمه، وأما هو – أي سيد – فله كلام صريح في الرد على الاتحادية كما قال في كتابه خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٥٥- ١٥٦، " إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلاً تاماً كاملاً بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية... " ثم نقل كلام سيد كاملاً " (١).

وحتى لو لم يكن لسيد كلام صريح في نقض وحدة الوجود فإن كلامه في سورتي الحديد والإخلاص موهم محتمل، وبالتالي فلا يصح الجزم باتهامه، فما بالك وله كلام صريح حاول بعضهم بطريقة أو بأخرى إبطال دلالته بمنهج ينافي الأمانة العلمية كما سبق.

---

(١) المورد الزلال، للدويش ص ٣١٤- ٣١٥.

المبحث الرابع

منهجه في الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر داخل في توحيد الربوبية، لأن الأصل فيه هو الإيمان بربوبية الله التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن بأنه قادر على تلك الأشياء(١). ولهذا ورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: " القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه " (٢)، كما أن للقدر تعلق أيضاً بتوحيد الأسماء والصفات، لأنه من صفات كمال الله.

وموضوع الإيمان بالقدر وما يرتبط به، من الموضوعات التي تكلم فيها سيد قطب – رحمه الله – في مواضع متفرقة من كتبه، ومجموع كلامه في هذه المواضع شامل لأغلب المسائل التي يتكلم عنها علماء العقيدة في باب القدر.

وسوف أعرض منهجه في مسائل القدر من خلال المطالب الآتية:

---

(١) ينظر في ذلك: شرح الطحاوية ص ١١٧، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٣٣.

(٢) الأثر رواه الإمام أبو القاسم اللالكائي في شرح أهل اعتقاد أهل السنة ٦٨٩/٤، وفي سنده ضعف.

المطلب الأول: تعريف القدر ومكانة الإيمان به في الدين.

المطلب الثاني: منهجه في إثبات القدر وموقفه من الفرق المخالفة.

المطلب الثالث: أفعال العباد والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية.

المطلب الرابع: قضايا متعلقة بالقدر.

المطلب الأول

تعريف القدر ومكانة الإيمان به في الدين

أ – في اللغة: القَدَر والقَدْر – بفتح الدال وإسكانها – لغتان بمعنى: مبلغ الشيء وكنهه ونهايته [1].

وقَدَرتُ الشيء – بتخفيف الدال وفتحها – قَدْراً وقَدَرَا إذا أحطت بمقداره، ويأتي أيضاً بمعنى القضاء [2].

ب – في الاصطلاح: القدر يعني: " تقدير الله للأشياء في القدم وعلمه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦٢/٥، ولسان العرب لابن منظور ٧٤/٥.

(٢) فتح الباري ١٦٢/١.

مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها " (١).

قال ابن القيم – رحمه الله –: " والإيمان بالقدر يعني: الإيمان بعلم الله تعالى السابق، وكتابته وإرادته ومشيئته وخلقه لأفعال عباده مع إثبات قدرتهم المؤثرة في هذه الأفعال " (٢).

ج – **علاقة القدر بالقضاء:** القضاء في اللغة وفي الشرع يأتي على عدة معانٍ منها: الأمر، والحكم، والخلق، والصنع، والوفاء، والفراغ من الشيء، والإتمام، والقتل، والإحصاء، والتقدير، والإعلام (٣).

وقد ذكر العلماء أقوالاً كثيرة في علاقة القدر بالقضاء منها (٤):

١ – أنهما مترادفان.

---

(١) انظر: لوامع الأنوار للسفاريني، مؤسسة الخافقين، دمشق ط٢ عام ١٤٠٢هـ، ١/ ٣٤٨.

(٢) شفاء العليل لابن القيم، ص٦٥. وفتح الباري، لابن حجر، ١/ ١١٨.

(٣) هدي الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر، دار الفكر، بيروت، ط عام ١٤١١هـ، ص ١٧٤.

(٤) ينظر الأقوال في: المفردات للراغب للأصفهاني ص ٦٧٢، ولوامع الأنوار للسفاريني ١/٣٤٥، والتعريفات للجرجاني ص ١٥١، ١٥٢، وفتح الباري ٣١٢/١٣.

٢ – أن القضاء يعني: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر يعني: الحكم بوقوع الجزئيات لتلك الكليات على سبيل التفصيل.

وهناك أقوال أخرى أوصلها بعضهم إلى سبعة [١]، وكلها مبنية على اجتهادات وليس هناك دليل
واضح يفصل في القضية [٢].

وعموماً فالقضاء والقدر – بحسب معناهما في اللغة والشرع – بينهما رابط قوي فكل منهما يأتي بمعنى الآخر، ومعاني القضاء ترجع إلى إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه، كما أن معاني القدر ترجع إلى التقدير [٣].

" فهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء " [٤].

---

(١) انظر: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، د / عبد الرحمن المحمود، الدار الدولي – الرياض– ط١، ١٤١٤هـ، ص ٣٠، ٣٢.

(٢) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ص ٣٣، وقد ذكر أنه لا فرق بينهما ولا فائدة من هذا الخلاف.

القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ص ٢٩.

(٤) معالم السنن للخطابي ٤/٣٢٣.

د - مكانة الإيمان بالقدر في الدين ودرجاته: الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، لا يصح الإيمان إلا به، قال تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ } [سورة القمر:٤٩] ، وقال تعالى: { وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا } [سورة الأحزاب:٣٨] ، وقال ﷺ في حديث جبريل: " الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١).

والإيمان بالقدر عند أهل السنة والجماعة على درجتين تشتمل على أربع مراتب أو أركان هي:

الدرجة الأولى:

وفيها مرتبتان هما: العلم والكتابة:

وتعني: أن الله علم كل شيء جملة وتفصيلاً، ما كان وما يكون، علماً أزلياً قبل أن يخلق الخلق، وأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما جاء في الحديث الصحيح قال ﷺ: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة " (٢).

الدرجة الثانية:

---

(١) سبق تخريجه ص

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر ٤٧٩٧، باب حجاج آدم وموسى، ١/١٦٢٣، برقم: ٢٦٥٣. والترمذي في كتاب القدر، ٤/٣٩٩.

وتشتمل على مرتبتين هما: الإرادة والمشيئة، والخلق والتكوين:

وتعني: أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه على كل شيء قدير، وما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا والله خالقه، بما في ذلك العباد وأفعالهم، قال سبحانه {وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ} [سورة التكوير:٢٩] .

وقال تعالى: {ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ} [سورة الزمر:٦٢] ، وقال سبحانه: {وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ} [سورة الصافات:٩٦] ، وعلى هذا الاعتقاد كان إجماع السلف

و- موقف الفرق من القدر:

الدرجة الأولى من الإيمان بالقدر – العلم والكتابة – كان ينكرها غلاة القدرية قديماً، حيث قالوا: إن الأمر أنف، أي: مستأنف، ويقصدون بذلك أن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم أزلاً من يطيعه ممن يعصيه، ويعلمه عند حدوثه.

---

(١) ينظر في ذلك: السنة لابن أبي عاصم، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣ عام١٤١٣هـ، ص١/٥٥، والسنة للإمام عبد الله بن أحمد ٢/٣٨٥، وشرح أصول أهل السنة للألكائي ٣/٥٨٩، والإيمان لابن منده ١/١٣٦، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٦٦، ٧٨، ٣/١١٢، وشفاء العليل لابن القيم ص ١١١.

وقد اندثرت هذه الطائفة، وصار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم والكتابة، وانحصر الخلاف في مسألة عموم المشيئة والخلق – وهي الدرجة الثانية في الإيمان بالقدر – وهي التي ينكرها القدرية، واشتهرت بمسألة " خلق أفعال العباد " [1]، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً.

---

(١) ينظر: الإيمان لإبن تيمية، ص٣٦٤-٣٦٩ بتصرف.

المطلب الثاني

منهجه في إثبات القدر وموقفه من الفرق المخالفة

باستقراء كلام– سيد قطب – في باب القدر نجد أنه تناول قضية " القضاء والقدر " في ضوء المنهج القرآني مستلهماً النصوص القرآنية الواضحة الجازمة في شأنها، مؤكداً على عدم مواجهة النصوص بمقررات سابقة – عقلية أو شعورية – أو محاكمة النصوص القرآنية إليها، باعتبار أن النصوص القرآنية جاءت ابتداءً لتنشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها عقيدة البشر وتصوراتهم وحياتهم (١).

وفيما يلي بيان لمنهج سيد قطب – رحمه الله – في تقريره لقضايا القدر:

أولاً: أسباب ضلال الفرق في باب القدر:

بيّن سيد–رحمه الله – أساس خطأ الفرق الكلامية والفلاسفة في تناولهم لقضايا القدر وأن منشأ انحرافهم وضلالهم فيها يعود إلى عدة أسباب منها:

١- تقليدهم لمنهج الفلسفة الإغريقية في تناول الموضوع، وتأثرهم به أكثر من تأثرهم بالمنهج القرآني في علاج

---

(١) خصائص التصور الإسلامية ص ١٥.

هذه القضية، ولذلك ظهر في مباحثهم التعقيد والجفاف والنقص والانحراف [1].

٢- أنهم تعاملوا معها بالمنطق الذهني، دون استصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة والتجربة الواقعية في التعامل معها. " فتصور قضايا القدر يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني – وهي المنطقة الوحيدة التي استخدمتها الفرق الكلامية كلها في تاريخ الفكر الإسلامي، فلم توفق إلى فهمها [2].

٣- قياسهم لأقدار الله وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة، وإعمالهم للعقل فيما وراء حدوده [3].

٤- مواجهتهم للنصوص الشرعية بمقررات عقلية سابقة، ثم محاكمتهم النصوص إلى مقرراتهم [4].

٥- عدم جمعهم للنصوص الشرعية المتعلقة بقضايا القدر والتنسيق بين مدلولاتها بل أخذوها فرادى وفق أهواء كل

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٤.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٧١، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٦، ٦/ ٣٧٣٠، ٣٩٧٩، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٢٨.

فرقة، ووضعوا بعضها في مواجهة البعض الآخر على سبيل الاحتجاج والجدل [1].

ونتيجة لذلك فقد ضربت هذه الفرق في التيه في هذه القضية، ولم تعد إلا بالحيرة والتخليط.

ولسيد قطب إشارات متفرقة وتصويبات لآراء الفرق المختلفة في هذا الباب، ومن ذلك قوله: " والذين أثاروا قضايا القضاء، والقدر، والجبر، والاختيار، وإرادة العبد وكسبه، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها التقديرية البسيطة " [2].

وبناءً على ذلك فقد حاول – رحمه الله – تجنب أخطاء الفرق في معالجة قضية القضاء والقدر، حيث لم يعرضها في الصورة التي عرضتها فيها الفرق الكلامية، وإنما عرضها كما هي في سياق النصوص القرآنية مجتمعة، فكانت كما يقول: " قضية سهلة ميسرة، لم تلتوِ عليه " [3].

ثانياً: مراتب القدر وموقف سيد منها:

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٠٠، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٢٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٦٦.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٨٢١ مع الهامش.

ذكرنا في التمهيد أن الإيمان بالقدر يشمل على درجتين تشتمل على أربع مراتب هي: العلم، والكتابة، والإرادة والمشيئة، والخلق.

وبالنظر إلى ما قرره سيد في هذا الباب نجد أنه يثبت مراتب القدر السابقة، ويقرر عموم التقدير لكل شيء موافقاً في ذلك لأهل السنة والجماعة وبيان ذلك فيما يلي:

أ- الدرجة الأولى" درجة العلم والكتابة ":

أثبت سيد- رحمه الله-علم الله السابق والمحيط وقرر: " أن الله يعلم كل ما يكون قبل أن يكون" (١).

" وأن علم الله أزليٌ، ومكشوفٌ له ما الخلائق صائرون إليه، دون أن يحتاج ذلك إلى بروز العمل منهم، لأن علم الله شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث " (٢).

يوضح سيد أن في قول الله تعالى: {وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ } [سورة الأنعام:٥٩] ، صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في

---

(١) المصدر السابق ١/١٣٢.

(٢) المصدر السابق ١٤٠١/٣ بتصرف يسير.

الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو، من حي وميت، ويابس ورطب.

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص يرتاد أفاق المعلوم والمجهول وعالم الغيب وعالم الشهادة، ومفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو" (١).

" وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شيء في السماء والأرض، ولا يتأثر بالمؤثرات التي تُنْسِي وتمحو، فهو كتاب يضم علم كل شيء ويحتويه " (٢).

ويرد – سيد– على الجبرية في احتجاجهم بالعلم على الجبر فيقول: " وعلم الله – الأزلي الذي لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث – ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم، إنما هم كما تنص الآية: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ} [سورة الأعراف:١٧٩] ،

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١١١ وما بعدها بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٢.

فهم لم يفتحوا قلوبهم ليفقهوا، ولم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتكررة، فعطلوا هذه الأجهزة، ومن ثم عاشوا أضل من الأنعام، فلا عجب أن يجري فيهم قدر الله وفق مشيئته، فكانوا – كما هم في علم الله القديم – حصب جهنم منذ كانوا " (١).

وفي ظلال قوله تعالى {يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ } [سورة الرعد:٣٩] ، " يقول سيد: " فما انقضت حكمته يمحوه، وما هو نافع يثبته وعنده أصل الكتاب، المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه، فعنه صدر الكتاب كله، وهو المتصرف فيه حسبما تقتضي حكمته، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض " (٢).

ويقول أيضاً: " فكل شيء عند الله بمقدار، وكل أمر مرهون بوقته المرسوم، إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه، وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٠١/٣ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٥.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٩٧١.

ب- الدرجة الثانية " درجة المشيئة والخلق ":

يقرر سيد-رحمه الله- أن كل ما سوى الله فإنه مخلوق بمشيئته وقدره سبحانه، وأنه لا مكان للصدفة ولا يوجد في الكون ما يخالف مشيئة الله سبحانه، ومن النصوص في هذا الباب ما يلي:

١- في ظلال قوله تعالى: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [سورة القمر:٤٩] يقول: " وهنا يتجه البيان إلى الناس كافة.. ليقر في قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره.. فكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر، مصرفة بقصد، مدبرة بحكمة، لا شيء جُزاف، ولا شيء عبث، ولا شيء مصادفة، ولا شيء ارتجال، { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } كل شيءٍ، كل صغيرٍ وكل كبيرٍ، كل ناطقٍ وكل صامتٍ، كل متحركٍ وكل ساكنٍ، كل ماضٍ وكل حاضرٍ، كل معلومٍ وكل مجهولٍ، كل شيءٍ خلقناه بقدر.. قدر يحدد حقيقته، ويحدد صفته، ويحدد مقداره، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء، وتأثيره في كيان هذا الوجود " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٣٤٣٦، وينظر أيضاً ٣/١٢٧٠.

٢- وفي ظلال قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ } [سورة آل عمران:١٦٥] . يقرر: " أن مقتضى قدرته أن تنفذ سننه، وأن يحكم ناموسه، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته.. وقدر الله دائماً من وراء كل أمر يحدث، ومن وراء كل حركة وكل نأمة، وكل انبثاقه في هذا الكون،.. كل حركة محسوبٌ حسابها في تصميم هذا الكون، ومقدرٌ لها علتها ونتائجها... هناك ناموس ثابت وسنن حتمية.. ومن وراءها إرادة فاعلة ومشيئة طليقة، ووراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمةٌ مدبرةٌ يجري كل شيء في نطاقها... وكل هذا يقع موافقاً لقدر الله ومشيئته، ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره " (١). " فكل ما يجري في الأرض إنما يجري بمشيئة الله، ويتحقق بقدر الله " (٢).

" فما يمكن أن يقع في هذا الكون ما يخالف مشيئته سبحانه، فهي مشيئة مطلقة، ومعها القدرة الفاعلة " (٣). " فالتصور الإسلامي يقوم على اعتقاد أن كل حدث يجري في الكون – ولو أنه يجري وفق الناموس الذي قدره الله – إنما يقع

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥١٤ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ١١٨٨/٣.

(٣) المصدر السابق ٢٨٤/١، وينظر أيضاً ١٢٧١/٣.

ويتحقق بقدر خاص ينشئه ويبرزه في عالم الواقع، وأن الأمر القديم بجريان السنة، لا يتعارض مع تعلق قدر الله بكل حادث فردي من الأحداث التي تجري وفق هذه السنة.. إن التصور الإسلامي في هذا الجانب ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون ابتداءً من نشأته وبروزه إلى كل حركة فيه، وكل تغيير وكل تعديل، كما ينفي الجبرية الآلية التي تتصور الكون كأنه آلة فرغ صانعها منها وأودعها القوانين التي تتحرك بها ثم تركها تتحرك حركة آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين التي تصبح بذلك عمياء!! إنه يثبت الخلق بمشيئة وقدر، ثم يثبت الناموس والسنة الجارية ويجعل معها القدر المصاحب لكل حركة من حركات الناموس ولكل مرة تتحقق فيها السنة، القدر الذي ينشئ الحركة، ويحقق السنة وفق المشيئة الطليقة من وراء السنن والنواميس الثابتة.. " (١).

٣- ويقول في المعالم: " إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، وأودعه الله – سبحانه – قوانينه التي يتحرك بها، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تتناسق بها

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٩٩/٣ بتصرف يسير.

حركته الكلية سواء، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل:٤٠] ، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا} [سورة الفرقان:٢] .

إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره، وقدراً يحركه، وناموساً ينسقه إلى ما شاء الله، كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره، والقدر الذي يحركه والناموس الذي ينسقه، بحيث لا يخطر له لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة، أو أن يتنكر للقدر، أو أن يخالف الناموس"(١).

" ومشيئة الله وخلقه شاملة لكل ما في الوجود بما في ذلك الإنسان وأفعاله، والذي يقرأ القرآن يجد في نصوصه سعة مفهوم القدر في التصور الإسلامي، وبيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط.

في التصور الإسلامي ليست هناك مشكلة في الحقيقة حيث يواجه الأمر، بمفهوم هذا التصور وإيحائه، إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء، وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيِّفها، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله، كل شيء فيه

---

(١) معالم في الطريق سيد قطب، ص ١٠٨- ١٠٩ بتصرف يسير.

مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدثون فيها من تغييرات.. وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية الطليقة، لا يبطل هذا ولا يعطله "(١).

وسيأتي مزيد بيان لعلاقة المشيئة الإلهية بالمشيئة البشرية عند الحديث عن أفعال العباد.

ثالثاً: ثمرة الإيمان بالقدر:

بناءً على ما سبق من علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه لكل ما في الكون، يقرر سيد: " أن على المؤمن أن يرجع الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير" (٢).

ويوضح الفارق بين صاحب العقيدة وغيره: بـ " أن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله، متعرفٌ إلى مشيئة الله، مطمئن إلى قدر الله، إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع، ولا يتلقى السراء بالزهو ولا

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب ص ١٢٨ بتصرف يسر، وينظر أيضاً في ظلال القرآن ١/ ٢٥.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٥٩.

تطير نفسه لهذه أو تلك، ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا، أو ليستجلب كذا، بعد وقوع الأمر وانتهائه!

فمجال التقدير والتدبير والرأي والمشورة، كله قبل الإقدام والحركة، فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير – في حدود علمه، وفي حدود أمر الله ونهيه – فكل ما يقع من النتائج، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتسليم، موقناً أنه وقع وفقاً لقدر الله وتدبيره وحكمته، وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع، ولو أنه هو قدم أسبابه بفعله.. فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه الصورة المستقيمة فهو أبداً مستطارٌ، أبداً في قلق! أبداً في " لو " و" لولا " و" يا ليت " و" وأسفاه "! " (١).

" وفائدة التصور الإسلامي الصحيح للقدر: أنه ينفي عن القلب البلادة، بلادة الآلية والجبرية، ويدعه أبداً في يقظة ورقابة، كلما حدث حدثٌ وفق سنة الله، وكلما تمت حركة وفق ناموس الله، انتفض هذا القلب، يرى قدر الله المنفذ، ويرى يد الله الفاعلة، ويسبح لله ويذكره ويراقبه، ولا يغفل عنه بالآلية الجبرية ولا ينساه، وهذا تصور يستحيي القلوب، ويستجيش العقول، ويعلقها جميعاً بفاعلية الخالق المتجددة، وبتسبيح البارئ

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٩٨.

الحاضر في كل لحظة، وفي كل حركة، وفي كل حدث آناء الليل وأطراف النهار "[1].

المطلب الثالث

أفعال العباد والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية

اختلفت أقوال الفرق في قضية أفعال العباد ومدى العلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية ويمكن عرض الخلاف وسببه باختصار، ومن ثم النظر في موقف سيد قطب- رحمه الله – من هذه القضية وذلك في الفروع الآتية:

الفرع الأول: سبب الخلاف وأقوال الفرق في مسألة أفعال العباد

أولاً: سبب خلاف الفرق في مسألة أفعال العباد:

سبب خلاف الفرق في مسألة أفعال العباد هو: أنه يوجد مسألتان متعارضتان في الظاهر:

الأولى: ما دلت عليه أدلة الشرع وأيدته البداهة، من أن الإنسان يقدم على ما يفعله مختاراً غير مكره، ولذلك فإنه سيحاسب عليه كما قال سبحانه: {لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١] .

---

(١) المصدر السابق ١٢٩٩/٣.

والثانية: هي ما دل عليه الدليل من أن إرادة الله ومشيئته وخلقه وراء عمل الإنسان كما قال سبحانه: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٩] .

وقد جمعت هاتين المسألتين آيةٌ واحدة وهي قوله تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النحل:٩٣] . حيث ذهب كل فريق إلى ترجيح إحدى المسألتين على الأخرى والأخذ ببعض الأدلة في سبيل دعواه.

ثانياً: أقوال الفرق في مسألة أفعال العباد:

أ – المعتزلة: ذهبت المعتزلة إلى أن إرادة الإنسان هي المتصرفة وحدها في أفعاله، وأنه الخالق لها، لذا فهو المسؤول عنها والمحاسب عليها، وأنها خارجة عن إرادة الله وخلقه، ولا تدخل تحت قدرته، فالله لا يهدي ضالاً، ولا يضل مهتدياً، ويريد ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يريد، وقالوا بأن العلم الأزلي غير ملزم بل هو صفة كشف عن العلوم، ولم تنكر المعتزلة أن القدرة التي يخلق بها العبد فعله هي من الله، ولكنها قدرة قبل الفعل صالحة للضدين (١).

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص ٣٣٢.

وأدلة الكتاب والسنة متواترة على بطلان هذا المذهب [١].

ب – الجبرية: وقد وقفوا بالطرف المقابل للمعتزلة، فقالوا: أن إرادة الله تعالى هي المتصرفة وحدها وهو الخالق لأفعال العباد، وهم لا إرادة لهم ولا اختيار، بل هم مجبورون عليها، وتنسب إليهم مجازاً وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً جبر [٢].

ولا شك أن الجبرية أحق بالذم من المعتزلة، ومذهبهم أشد فساداً وأسوأ لازماً من مذهب المعتزلة لأن فيه إبطال للشرائع، وإسقاط للأمر والنهي [٣].

ج - الأشاعرة: حاول الأشاعرة التوسط بين المعتزلة والجبرية في هذا الباب ومذهبهم في القدر ليس واحداً، وقد تطور المذهب من أبي الحسن الأشعري ومروراً بالباقلاني [٤] ثم

---

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، ٣٣٨/١، والملل والنحل للشهرستاني، ١١٢/١، والفرق بين الفرق للبغدادي، ص ٢١١، وشفاء العليل، لابن القيم، ص ١٠٠.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠٣/٨- ١٠٥.

(٤) هو: محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ، من كبار علماء الكلام، انتهت اليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣هـ، انظر: شذرات الذهب ١٦٨/٣ والأعلام للزركلي ١٧٦/٦.

الجويني، والذي استقر عليه مذهبهم – بعد إثبات علم الله تعالى وكتابته وقدرته وإرادته وخلقه – أن العباد لهم قدرة وإرادة في الفعل، لكنها غير مؤثرة فيه، بل الله تعالى هو الخالق لها وقدرته هي المؤثرة وحدها [1].

والملاحظ على كلامهم: أنه إذا كانت قدرة الإنسان غير مؤثرة بحال، فحقيقة مذهبهم هو مذهب الجبرية، هذا وقد سمى الأشعرية مذهبهم هذا بمذهب الجبر المتوسط [2].

د) الماتريدية: وقد حاولوا أيضاً التوسط إلا أنهم مالوا إلى المعتزلة، فالبرغم من إقرار الماتريدية بعلم الله وإرادته وخلقه لأفعال العباد [3]، إلا أنهم قالوا بوجود إرادة جزئية للعبد يوجه بها فعله المترجح بالإرادة الكلية نحو جانب معين، وهذه هي نقطة الفرق بينهم وبين الأشعرية، فالإرادة عند الماتريدية تنقسم إلى إرادة كلية هي مخلوقة لله تعالى وهي اسم لصفة الإرادة التي من شأنها ترجيح أحد المقدورين على الآخر، وإلى إرادة

---

(١) انظر: التمهيد للباقلاني ص ٣١٧- ٣٤٧، وأصول الدين للبغدادي ص ١٣٣- ١٣٤، والملل والنحل للشهرستاني ص ٨٤- ٨٥.

(٢) انظر: موقف البشر تحت سلطان القدر، لمصطفى صبري، المطبعة السلفية – القاهرة – ط١ – ١٣٥٢هـ، ص٥٠، ٥٦.

(٣) انظر: التمهيد لقواعد التوحيد، لمحمود بن زيد اللامشي الماتريدي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ص ٩٧.

جزئية غير مخلوقة لله – وهي كما فسروها – تعلق تلك الصفة – الإرادة الكلية – بجانبٍ معين، فالجزئية تأتيها من تعينها بتعين متعلقها [(١)].

وهذه الإرادة الجزئية هي من قبيل الحال المتوسط بين الموجود والمعدوم، وقد أقر متأخروا الماتريدية بأن مذهبهم هو مذهب المعتزلة [(٢)].

ه- موقف أهل السنة والجماعة من أفعال العباد:

يرى أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق كل شيء ومليكه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والعبد مأمور بطاعة الله، منهي عن معصيته، وكل ذلك بقدر الله تعالى، ولا حجة لأحد على الله.

وحاصل كلامهم: " أن أفعال العباد هي أفعال لهم حقيقة، ومفعولة ومخلوقة للرب فالعبد فعلها حقيقة، والله خالقه وخالق ما فعل من القدرة والإرادة وخالق فاعليته " [(٣)].

---

(١) مواقف البشر، لمصطفى صبري ص ٥٦- ٥٧.

(٢) صرح بذلك زاهد الكوثري، وهو ماتريدي. انظر: موقف العقل والعلم من رب العالمين. لمصطفى صبري، دار إحياء التراث – بيروت، د. ت، ٣/ ٣٩٢.

(٣) ينظر في ذلك: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٨/ ٤٠٦، ٣٨٦، وكذا ٨/ ١١٧، وشفاء العليل، لابن القيم، ص ٢٤٦، وشرح العقيدة الطحاوية، ص٦٤٠.

وأثر قدرة العبد في أفعاله يوضحه ابن القيم بقوله: " الفعل وقع بقدرة الرب خلقاً وتكويناً، كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه، وبقدرة العبد سبباً ومباشرةً، والله خلق الفعل، والعبد فعله وباشره، والقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته " (١).

لهذا نجد أن أهل السنة والجماعة يأخذون كل دليل صحيح عند القدرية والجبرية، فـ " كل دليل صحيح يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته بمنزلة حركة المرتعش والأشجار، وكل دليل صحيح يقيمه القدري، فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

---

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم، ص ٢٧٣، وينظر كذلك: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٨٩/٨، ولوامع الأنوار للسفاريني، ١/ ٣١٢، وشرح العقيدة الطحاوية ص٦٤٠-٦٤١.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى، فإنما يدل على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون، من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدق بعضه بعضاً، ويستفاد من أدلة كل فريق بطلان قول الآخر " [١].

الفرع الثاني: موقف سيد قطب من قضية أفعال العباد

لسيد قطب – رحمه الله – كلام كثير ومتناثر حول قضية أفعال العباد والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية ومن خلال جمع كلامه نستطيع تصور موقفه من هذه القضية، وذلك كما يأتي:

أولاً: طلاقة المشيئة الإلهية وعمومها لكل شيء:

يقرر– سيد– طلاقة المشيئة الإلهية وعمومها لكل شيء بما في ذلك مشيئة البشر، وأن للإنسان إرادة ومشيئة لكنها داخله في عموم المشيئة الإلهية:

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٤٠-٦٤١. ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٨.

١ – يقول: " إن وراء السنن الإرادة المدبرة والمشيئة الطليقة، والله يخلق ما يشاء ويختار" [(١)]." وقوة الإنسان والطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته، ومخلوقتان بإرادته ومشيئته " [(٢)]. " فما يمكن أن يقع في هذا الكون ما يخالف مشيئته – سبحانه – ومن مشيئته سبحانه أن يكون هذا الكائن البشري كما هو – بتكوينه هذا واستعداداته للهدى وللضلال، وأن يكون موكولاً إلى نفسه في اختيار طريقه إلى الهدى وإلى الضلال، ومن ثم فكل ما ينشأ عن هذا التكوين واتجاهاته داخل في إطار المشيئة، وواقع وفق هذه المشيئة " [(٣)].

٢– ويقول أيضاً: " وقدر الله دائماً من وراء كل أمر يحدث، ومن وراء كل حركة وكل نأمة وكل انبثاقة في هذا الكون كله،.. لم يقع مصادفة ولا جزافاً، ولم يقع عبثاً ولا سدى، فكل حركة محسوب حسابها في تصميم هذا الكون، ومقدر لها علتها ونتائجها...

إن التصور الإسلامي يبلغ من الشمول والتوازن في هذه القضية ما لا يبلغه أي تصور آخر في تاريخ البشرية، هناك

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٣.

(٢) المصدر السابق ١/٢٥، وينظر أيضاً ٢/ ٨٣٧.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٨٤، وينظر أيضاً ٦/ ٣٧٨٧.

ناموس ثابت وسنن حتمية، وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة، وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة فريدة يجري كل شيء في نطاقها، والناموس يتحكم والسنن تجري في كل شيء – ومن بينها الإنسان – والإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الإرادية المختارة، وبفعله الذي ينشئه حسب تفكيره وتدبيره، فتنطبق عليه وتؤثر فيه، ولكن هذا كله يقع موافقاً لقدر الله ومشيئته، ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره.. وإرادة الإنسان وتفكيره وحركته وفاعليته هي جزء من سنن الله وناموسه يفعل بها ما يفعل، ويحقق بها ما يحقق في نطاق قدره وتدبيره، فليس شيء منها خارجاً على السنن والناموس ولا مقابلاً لها ومناهضاً لفعلها – فالإنسان ليس نداً لله، ولا عدواً له، والله – سبحانه- حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض، لم يجعل شيئاً من هذا كله متعارضاً مع سننه – سبحانه – ولا مناهضاً لمشيئته، ولا خارجاً كذلك عن الحكمة الأخيرة وراء قدره في هذا الكون الكبير، ولكن جعل من سننه وقدره أن يقدر الإنسان ويدبر، وأن يتحرك ويؤثر، وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه، وأن يلقى جزاء هذا التعرض كاملاً من لذة وألم، وراحة

وتعـب، وسـعادة وشـقاوة، وأن يتحقـق مـن وراء هـذا التعـرض ونتيجته، قدر الله المحيط بكل شيء في تناسق وتوازن " (١).

٣) فـي ظـلال قولـه تعـالى: {إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ } [سورة النساء:٣٥] ، يقول سيد: " فهما يريدان الإصلاح، والله يستجيب لهما ويوفق، وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم، ومشيئته الله وقدره، إن قدر الله هو الذي يحقق ما يقع فـي حياة النـاس، ولكن النـاس يملكون أن يتجهوا وأن يحـاولوا، وبقدر الله – بعد ذلك – يكون ما يكون " (٢).

" فإرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة، وقدره الفاعل، والله بكل شيء محيط، وإرادة الإنسان وحركته – في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل – يتعاملان مع الوجود كله، ويتأثران ويؤثران فيه "، " وقد قضت مشيئة الله، وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناءً على تعرضهم لهذه السنة

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥١٤، بتصرف يسير، وينظر أيضاً ١/٥٠٣، ٣/١٥٣٥-١٥٣٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٦٥٦، ٦٥٧.

بسلوكهم، والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل – {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ } [سورة الرعد:١١] ، (١).

٤) في ظلال قوله تعالى: {وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ } [سورة التكوير:٢٩] ، يقول سيد: "وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى، التي يرجع إليها كل أمر، فإعطاؤهم حرية الاختيار، ويُسر الاهتداء، إنما يرجع إلى تلك المشيئة المحيطة بكل شيء كان أو يكون، وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق، يراد بها تصحيح التصور الإيماني، وشموله للحقيقة الكبيرة: حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله، وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير، شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون، فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان.

لا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين، ليدركوا ما هو الحق لذاته، وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها

---

(١) في ظلال القرآن، ١٣٣٦/٣، ٢٠٤٩/٤.

العون والتوفيق، ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق " [١].

ثانياً: التوازن بين مجال المشيئة الإلهية ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة:

يقول سيد: " والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية هي القضية المشهورة في تاريخ الجدل في العالم كله، وفي المعتقدات كلها، وفي الفلسفات والوثنيات كذلك باسم قضية " القضاء والقدر " أو " الجبر والاختيار "، والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة – كما أسلفنا – ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها ولا معها، وفي الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية، ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها، وهو دور ضخم يعطي للإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير، ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية، وتفردها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة، وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداءً وإرادته وعمله وحركته ونشاطه داخل في

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٣– ٣٨٤٤.

نطاق المشيئة الطليقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه...

- ويقرأ الإنسان في القرآن الكريم: {مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ } [سورة الحديد:٢٢] ، { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ } [سورة التوبة:٥١] ، {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } (١)...

- ويقرأ كذلك في الجانب الآخر: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ } [سورة الرعد:١١] ، { بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ} [سورة القيامة ١٤ ١٥] ، {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا } [سورة الشمس الآيات ٧- ١٠] ..

- ثم يقرأ بعد هذا وذاك: { كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ } [سورة

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٨، وينظر أيضاً الآية ١٥٤ آل عمران.

المــدثر الآيــات ٥٤- ٥٦] ، {إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ } [سورة الإنسان الآيات ٢٩-٣٠] ، {أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ } [سورة آل عمران:١٦٥- ١٦٦] .

- يقرأ الإنسان أمثال هذه المجموعات المنوعة الثلاثة، فيدرك منها سعة مفهوم " القدر" في التصور الإسلامي، مع بيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط.

- لقد ضربت الفلسفات والعقائد المحرفة في التيه – في هذه القضية – ولم تعد إلا بالحيرة والتخليط، بما في ذلك من خاضوا في هذه القضية من متكلمي المسلمين أنفسهم، ذلك أنهم قلدوا منهج الفلسفة الإغريقية، أكثر مما تأثروا بالمنهج الإسلامي في علاج هذه القضية.

في التصور الإسلامي ليست هناك " مشكلة " في الحقيقة، حين يواجه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه – إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ، وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء، وهو الذي يصرف حياة

الناس ويكيفها، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله، كل شيء فيه مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، لكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدثون فيها من تغييرات " إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ " وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة، لا يبطل هذا ولا يعطله، فالأمران يجيئان مجتمعين أحياناً في النص القرآني الواحد، كما رأينا في المجموعة الثالثة في هذه النماذج، ونحن إنما نفترض التعارض والتناقض، حين ننظر إلى القضية بتصور معين نصوغه من عند أنفسنا عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى، وحركة الإنسان في نطاقها، إلا أن المنهج الصحيح هو ألا نستمد تصوراتنا في هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة بل نستمدها من نصوص القرآن.. فالذي قال: {فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا }، هو الذي قال: { وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ }، وهو قال: { بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ }، وهو قال: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ } [سورة الأنعام:١٢٥]، وهو قال في الوقت نفسه: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ } [سورة فصلت:٤٦] .

ولا بد إذن – وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه، وشمول مشيئته وقدره – من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث " (١).

ثالثاً: حقيقة أفعال العباد:

ينتقد سيد قطب – رحمه الله – أولاً: الذين خاضوا في قضايا القدر ومنها أفعال العباد بعيداً عن المنهج القرآني فيقول: " والذين أثاروا قضايا القضاء القدر، والجبر والاختيار، وإرادة العبد وكسبه، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه الحقيقة في صورتها الواقعية التقديرية البسيطة، التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله، وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلق الله عليها، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه، وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في

---

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب، ص ١٢٦ – ١٢٩، بتصرف يسير، وينظر أيضاً مقومات التصور ص٤٨، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٨.

الدنيا والآخر يجري بها قدر الله أيضاً قدرالله فتكون، وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله، ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به، وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء! " (١).

أما نظرة – سيد– إلى قضية أفعال العباد فأسوق هنا نصاً من كلامه يبين ذلك:

ففي ظلال قوله تعالى: {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا} [سورة النساء الآيات ٧٨– ٧٩] ، يقول – رحمه الله –: " إن القضية التي تتناولها هذه الآيات، هي جانب من قضية كبيرة، القضية المعروفة في تاريخ الجدل والفلسفة في العالم كله باسم " قضية القضاء والقدر " أو " الجبر والاختيار " وقدر وردت في أثناء حكاية قول ذلك الفريق من الناس، ثم في الرد عليهم وتصحيح تصورهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٦٦، وينظر أيضاً: خصائص التصور ص ١٢٨.

والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض فلنعرضها كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم: {قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } [سورة النساء:٧٨] .

إن الله هو الفاعل الأول والفاعل الواحد، لكل ما يقع في الكون، وما يقع للناس، وما يقع من الناس، فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا– ولكن تحقق الفعل– أي فعل– لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر.

فنسبة إنشاء الحسنة وإنشاء السيئة وإيقاعها بهم للرسول ﷺ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم – نسبة غير حقيقة – تدل على عدم فقههم لشيء ما في هذا الموضوع.

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير، بالوسائل التي أرشد الله إلى أنها تحقق الخير، ولكن تحقق الخير فعلاً يتم بإرادة الله وقدره، لأنه ليست هناك قدرة – غير قدرة الله – تنشئ الأشياء والأحداث، وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع وإذن يكون تحقق الخير – بوسائله التي اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده – عملاً من أعمال القدرة الإلهية. وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء، أو يفعل ما من شأنه إيقاع السوء، ولكن وقوع السوء فعلاً، ووجوده أصلاً لا يتم إلا بقدرة الله وقدر الله، لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث في هذا

الكون غير قدرة الله. وفي الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند الله، وهذا ما تقرره الآية الأولى.

أما الآية الثانية: {مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} فإنها تقرر حقيقة أخرى، ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى، إنها في وادٍ آخر، والنظرة فيها في زاوية أخرى:

إن الله – سبحانه – قد سنَّ منهجاً وشرع طريقاً، ودل على الخير وحذر من الشر، فحين يتبع الإنسان هذا المنهج، ويسير في هذا الطريق، ويحاول الخير، ويحذر الشر، فإن الله يعينه على الهدى كما قال سبحانه: { وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا } [سورة العنكبوت:٦٩] ، ويظفر الإنسان بالحسنة، ولا يهم أن تكون من الظواهر التي يحسبها الناس من الخارج كسباً، إنما هي الحسنة فعلاً في ميزان الله تعالى، وتكون من عند الله، لأن الله هو الذي سن المنهج وشرح الطريق ودل على الخير، وحذر من الشر.

وحين لا يتبع الإنسان منهج الله الذي سنه، ولا يسلك طريقه الذي شرعه، ولا يحاول الخير الذي دل عليه، ولا يحذر من الشر الذي حذره منه، حينئذ تصيبه السيئة، السيئة الحقيقة،

سواء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، ويكون هذا من عند نفسه لأنه هو الذي لم يتبع منهج الله وطريقه.

وهذا معنى غير المعنى الأول، ومجال غير المجال الأول، كما هو واضح فيما نحسب، ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئاً، وهي أن تحقق الحسنة، وتحقق السيئة وقوعهما لا يتم إلا بقدرة الله وقدره، لأنه المنشئ لكل ما ينشأ، المحدث لكل ما يحدث، الخالق لكل ما يكون، أياً كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم في هذا الذي يحدث وهذا الذي يكون " [١]. " والقضية التي تمثل هذه النصوص جانباً منها، أو التي تذكر بها، وهي قضية " الجبر والاختيار " وإلى أي حد تعمل إرادة الإنسان فيما يحدث منه أو يحدث له؟ وكيف تكون له إرادة يقوم عليها الحساب والجزاء، بينما إرادة الله هي المنشئة لكل ما يحدث، ومنه إرادة الإنسان نفسه واتجاهه وعمله.. إلى آخر هذه القضية.

فالنصوص القرآنية تقول: إن كل ما يحدث بإرادة الله وقدره، وتقول في الوقت ذاته، إن الإنسان يريد ويعمل ويحاسب على إرادته وعمله، والقرآن كله كلام الله ولن يعارض بعضه بعضاً، فلا بد إذن أن يكون هناك مجال لإرادة الإنسان وعمله يكفي لحسابه عليه وجزائه: دون أن يتعارض هذا مع مجال

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٨- ٧١٩.

الإرادة الربانية والقدر الإلهي، كيف؟ هذا ما لا سبيل لبيانه، لأن العقل البشري غير كفء لإدراك عمل الله! " (١).

المطلب الرابع

قضايا متعلقة بالقدر

الفرع الأول: الهدى والضلال

وهذه المسألة هي قلب أبواب القدر ومسائله، وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم على أن الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن الهدى والضلال بيده لا بيد العباد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه (٢).

- وأهل السنة والجماعة على أن الهداية مراتب:

أولها: الهداية العامة: وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيم حياتها، وهذه أعم المراتب ويشير إليها قوله تعالى: {وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ} [سورة الأعلى:٣] .

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٧١٩ الهامش (١)، وينظر أيضاً: خصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩.

(٢) شفاء العليل لابن القيم، ص ١١٧.

والثانية: هداية البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذه أخص من الأولى لأنها تتعلق بالمكلفين، ويشير إليها قوله تعالى: { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } [سورة فصلت:١٧] .

الثالثة: وهي هداية التوفيق، وهي المستلزمة للاهتداء، ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى (١) وإليها يشير قوله تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ } [سورة الكهف:١٧] ، وقوله {مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [سورة الأنعام:٣٩] ، والأخيرة هي التي حصل فيها الخلاف، وأنكرها المعتزلة (٢).

أما سيد قطب – رحمه الله – فيقرر ما قرره أهل السنة والجماعة في هذه المسألة بناءً على ما جاء في نصوص الشرع من أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويمكن بيان موقفه من مسألة الهدى والضلال فيما يأتي:

---

(١) شفاء العليل لابن القيم، ص ١١٧.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص٣٥٧. وشفاء العليل لابن القيم، ص١٤١.

أولاً: قرر سيد قطب – رحمه الله – مجموعة من الحقائق الأساسية في باب الهدي والضلال يرتكز عليها فهم المسألة وهي:

١- " أن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله – ولو كان هو رسول الله ﷺ إنه من أمر الله وحده، فهذه القلوب من صنعه، ولا يحكمها غيره، ولا يصرفها سواه، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله، وما على الرسول إلا البلاغ، فأما الهدى فهو بيد الله، يعطيه من يشاء"، " وأن الهدى والضلال كلاهما إنما يتم بقدر الله، وأن هؤلاء وهؤلاء في قبضته وسلطانه وفي إطار مشيئته وقدره " (١).

٢- " أن الله –عز وجل– خلق الإنسان باستعداد مزدوج للهدى والضلال، عن اختيار وحكمة، لا عن اقتضاء ولزوم، وأنه سبحانه أودع في الإنسان الفطرة، وأعطاه العقل المميز للهدى والضلال ثم أرسل الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل " (٢).

٣- أن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى أو اتجاهه إلى الضلال، كلاهما ينشأ من خلقته التي فطره الله عليها بمشيئته، فهذا

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣١٤، ٣/ ١١٨٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٨١، ٣/١٤٠٠، ١٨٢١، ٦/ ٣٧٥٩.

الاتجاه وذاك مخلوق ابتداءً بمشيئة الله، والنتائج التي تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك، فالمشيئة فاعلة ومطلقة، و" كل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة... فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا لاستعداد المزدوج، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك في حدود المشيئة الطليقة، ووفق حكمة الله المكنونة " (١).

٤- " أن قدر الله يجري بهداية من يجاهد للهدى " (٢)، " فالهدى بيد الله، يعطيه من يشاء ممن يعلم – سبحانه – أنه يستحق الهدى ويسعى إليه " (٣)، " وقد تكفل الله بهداية من يجتهد، ويرغب بجدٍ في الهدى " " فإذا أحسن استخدم مواهبه اللدنِّية من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات بينات فإنه يؤمن ويهتدي" (٤)،

---

(١) المصدر السابق ١٠٨١/٢، ٣٧٥٩/٦.

(٢) المصدر السابق ١٤٠٠/٣.

(٣) المصدر السابق ٣١٤/١

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٨٢١.

" كما تكفل سبحانه بألا يُضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقونه قال سبحانه: { وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ } [سورة العنكبوت:٦٩] ، وقال: { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ } [سورة التوبة:١١٥] وليس وراء ذلك عدل، وليس بعد ذلك رحمة في معاملة العبيد " (١).

" وأن قدر الله يجري أيضاً بإضلال من أعرض عن دلائل الهدى وآياته " (٢) " فإذا عطل الإنسان مواهبه، وأغلق مداركه وسترها عن دلائل الإيمان، فإنه يقسو قلبه، ويستغلق عقله، وينتهي بذلك إلى التكذيب والجحود، وإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء " (٣)، " ويستوي في ذلك الجزاء الدنيوي كالطبع على القلوب بسبب استهتارهم بالإنذار " (٤)، " أو فسقهم وزيادة ضلالهم "(٥) " أو العذاب الأخروي " فالله تعالى جعل للهدى والضلال سنناً، وترك الناس لهذه السنن

---

(١) مقومات التصور الإسلامي، ص ٢٧٧.

(٢) في ظلال القرآن، ٢٢٥١/٤.

(٣) المصدر السابق ١٨٢١/٣.

(٤) المصدر السابق ٤٢/١.

(٥) المصدر السابق ٥١/١ / ٧٣١.

يسيرون، ويتعرضون لعواقبها، من هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى والضلال، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال.

فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله، وهذا هو المهتدي حقاً لأنه اتبع هدى الله، والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله، " فلن تجد لهم أولياء من دونه " ويحشرهم يوم القيامة في صوره مهينة مزعجة " على وجوههم " يتكفأون " عمياً وبكماً وصماً " مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام. جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك دلائل الهدى، و" مأواهم جهنم" في النهاية، لا تبرد ولا تفتر " (١).

٥- في ظلال قوله تعالى: { مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ } [سورة الأعراف:١٧٨] ، يقول سيد: " والله يهدي من يجاهد ليهتدي، كما قال سبحانه: { وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ } [سورة العنكبوت:٦٩] .

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢٥١.

وكما قال: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} [سورة الرعد:١١]، وكما قال: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا} [سورة الشمس:٧-١٠].

كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه، ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها، وذلك كما جاء في الآية التالية في السياق: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ} [سورة الأعراف:١٧٩]، وقوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا} [سورة البقرة:١٠]، وقوله: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا} [سورة النساء:١٦٨-١٦٩].

ومن مراجعة مجموعة النصوص الذي تذكر الهدى والضلال والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والذي آثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً.

إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها، ومع إعطائه العقل المميز للهدى والضلال، ومع إرسال الرسل بالبيان لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل، ولكن يبقى بعد ذلك كله الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره.

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى، وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية بالهدى.

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقوة سواه، وما كان الأمر ليكون إلا أن الله شاءه هكذا، وما كان لشيء ليقع إلا أن يوقعه، قدر الله، فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا قدر الله لينشئ الأحداث، وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى

والضلال أيضاً. وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج والجدل.

وفي هذا النص الذي يواجهنا هنا: { مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ } يقرر أن من يهديه الله – وفق سنته التي صورناها في الفقرة السابقة– فهو المهتدي حقاً، الواصل يقيناً الذي يعرف الطريق ويسيرعلى الصراط، ويصل إلى الفلاح في الآخرة، وأن الذي يضله الله– وفق سنته تلك – فهو الخاسر الذي خسر كل شيء، ولم يربح شيئاً مهما ملك، ومهما أخذ، فكل ذلك هباءً..

ويؤيد ما ذهبنا إليه في فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ }، إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم، وهم مهيأون لها! فما بالهم كذلك؟ هناك اعتباران:

الاعتبار الأول: أنه مكشوف لعلم الله الأزلي أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم، وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذي يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلي لهم، فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث.

الاعتبار الثاني: أن هذا العلم الأزلي- الذي لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث – ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم، إنما هم كما تنص الآية: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ} فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا.. ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود، وهي الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة – وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة، لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبوها ولم يستخدموها، لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون.. ثم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية، ثم هم يكونون من ذرء جهنم! يجري بهم قدر الله إليها، وفق مشيئته حين

فطرهم باستعداداتهم تلك، وجعل قانون جزائهم هذا، فكانوا – كما هم في علم الله القديم – حصب جهنم منذ كانوا! " (١).

٦- وفي ظلال قوله تعالى: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ } [سورة الأنعام:١٢٥] ، يقول سيد أيضاً: " من يقدر الله له الهداية وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء" يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ " فيتسع له، ويستقبله في يسر ورغبة، ويتفاعل معه، ويطمئن إليه، ويستروح به ويستريح له، ومن يقدر له الضلال وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى، ويغلق فطرته عنه{ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ } فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله...

وتصور الحقيقة التي يقرر هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم في النصوص التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله – سبحانه – واتجاهات البشر، وما يصيبهم من الهدى والضلال، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء أو ثواب وعقاب، إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني!.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٠- ١٤٠١.

وكل ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء في تاريخ الفكر الإسلامي، وبخاصة بين المعتزلة وأهل السنة والمرجئة – أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة – وكل القضايا والتعبيرات عنها، موسوعة بطابع المنطق الذهني.

إن قصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني، وكذلك يقتضي التعامل مع " الواقع الفعلي " لا مع " القضايا الذهنية " فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقع، وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره، وبين إرادة الإنسان وعمله في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله.

فإذا قيل: إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعاً إلى الهدى أو الضلال [١]، لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية.

وإذا قيل: إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله [٢]، لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية.

---

(١) وهذا قول الجبرية.

(٢) وهذا قول المعتزلة.

إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة – وغيبية كذلك – بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم...

كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تذوق كامل في تجربة روحية وعقلية، إن الذي تتجه فطرته إلى الإسلام يجد في صدره انشراحاً له، هو من صنع الله قطعاً، فالانشراح حدثٌ لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه، والذي تتجه فطرته إلى الضلال يجد في صدره ضيقاً وتقبضاً وعسراً، هو من صنع الله قطعاً، لأنه حدثٌ لا يتم وقوعه الفعلي إلا بقدر من الله يخلقه ويجري به كذلك، وكلاهما من إرادة الله بالعبد، ولكنها ليست إرادة القهر، إنما هي الإرادة التي أنشأت السنة الجارية النافذة من أن يبتلي هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة، وأن يجري قدر الله بإنشاء ما يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة في الاتجاه للهدى والضلال...

وحين توضع قضية ذهنية في مواجهة قضية ذهنية، وحين يتعامل معها بدون استصحاب الملامسة الباطنية الحقيقية والتجربة الواقعية، فلا يمكن أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة. وهذا ما وقع

في الجدل الإسلامي وفي غيره كذلك " [١].

ويقول سيد: "وقد جرينا على هذه القاعدة في تفسير آيات المشيئة، فلم تلتوِ علينا حتى الآن وعلى الله التوفيق" [٢].

ومن خلال هذه النصوص التي ذكرناها عن سيد في مسألة الهدى والضلال يتبين لنا خلاصة رأيه في المسألة، وهو في هذه القضية موافق لما عليه أهل السنة والجماعة.

الفرع الثاني: القدر والأسباب

إن الإيمان بالقضاء والقدر يشمل اعتقاد أن الأمور جميعها تسير وفق ما سبق فيه القضاء وجرت به المقادير، ولكن هذا لا يعني أن يترك العبد العمل والأخذ بالأسباب فقد قضت حكمة الله ومشيئته تعلق الأسباب بمسبباتها، وارتباطها لها، وبقائها عليها، والأسباب نفسها مما قضي وقدر.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعضهم قوله: " الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب في الكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا توجب حصول المسبب، فنزول المطر لا يكفي لحصول النبات، بل لا بد من ريح مربية

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٣، ١٢٠٥ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٣/١٨٢١ الهامش١.

بإذن الله، ولا بد من صرف الانتفاء عنه، فلا بد من تمام الشروط وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك الولد، لا يوجد بمجرد الإنزال في الفرج بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر ما يتم به خلق من الشروط وزوال الموانع"[١].

والعبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيئ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية بل فطر على ذلك سائر الحيوان"[٢]، وهكذا تفهم العلاقة بين القدر والأسباب

– **موقف سيد – رحمه الله – من مسألة العلاقة بين القدر والأسباب:**

يربط سيد قطب-رحمه الله- بين القدر والأسباب ربطاً قوياً، حتى جعل الأسباب أو السنن داخلة في مفهوم القدر – الواسع – ويقرر أن قدر الله ومشيئته عامة وهي وراء الأسباب، وأن الأسباب التي تعارف الناس عليها ليست هي التي تنشئ النتائج، إنما قدر الله ومشيئته وراء ذلك كله، ١- يقول: " وفي

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧٠/٨.

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٥١ – ٥٢ بتصرف يسير.

ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [سورة القمر ٤٩] .. وكل أمر لحكمة ولكنها قد تغيب عن النظرة الإنسانية.. والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج، كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا} [سورة الطلاق:١] ، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٩] ، والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها" (١).

٢- في ظلال قوله تعالى: {وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة البقرة:١٠٢] . يقول سيد: " فبأذن الله تفعل الأسباب فعلها، وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها، وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها، في ضمير المؤمن تماماً، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام. أنك إذا عرضت

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٣. وينظر أيضاً: خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب ص ٩٩.

يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله، فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق، وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، كما وقع لإبراهيم – عليه السلام –.

وكذلك السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ينشئ هذا الأثر بإذن الله، وهو قار على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، وهكذا بقية ما تتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار، كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين شاء " [١]. "إن إرادة الله جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته،.. وإرادة الله هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب " [٢].

" والله يرد الأمر كله إليه، ويصحح عقيدة المسلم وتصوره، فاستجابة الله لاستغاثة المؤمنين في بدر وإمدادهم لهم

---

(١) في ظلال القرآن، ٩٦/١، وينظر: مقومات التصور الإسلامي ص ٦٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢٢١٨/٤ بتصرف.

بالملائكة، كل ذلك ليس إلا بشرى لتطمئن به القلوب، أما النصر فلم يكن إلا من عند الله، ليفهم المسلمون أنه ليس هناك سبب ينشئ نتيجة، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً " (١).

" وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي، وعلى تنقيتها من كل شائبة، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات أن تكون هي الفاعلة، لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط.. وبمثل هذه التوجهات استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين على نحو بديع هادئ عميق مستنير.

عرفوا أن الله هو الفاعل – وحده – وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب وبذل الجهد، والوفاء بالتكاليف، فاستيقنوا الحقيقة وأطاعوا الأمر، في توازن شعوري وحركي عجيب " (٢).

٣- ويقول أيضاً: " فالأمر له – سبحانه – من قبل ومن بعد.. لا مقيد لمشيئته، والمشيئة التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تيسر الأسباب، فلا تعارض بين تعليق الشيء بالمشيئة، ووجود

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٨٣ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٠.

الأسباب والنواميس التي تصرف هذا الوجود كله صادره عن المشيئة الطليقة، وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تختلف، وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات،.. والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الطليقة.

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال، فهي ترد الأمر كله إلى الله، ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع، أما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله، وقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله ﷺ ودخل يصلي قائلاً: " توكلت على الله " فقال له الرسول ﷺ: " اعقلها وتوكل" [1]، " فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله" [2].

---

(١) الحديث رواه الترمذي في صفة القيامة ٥٧٦/٤، والبيهقي في شعب الإيمان ٨٠/٢، والحاكم ٦٢٣/٣، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢٤٢/١برقم: ١٠٦١، صحيح سنن الترمذي٦١٠/٢.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥٨ بتصرف يسير.

٥- وفي مقومات التصور الإسلامي يقول سيد: " والناس يتعاملون مع النواميس الثابتة – في جملتها – وقد شاء الله أن يجعلهم قادرين على إدراك بعض هذه النواميس، والتعامل معها.. وفي تصور المسلم لا يقوم " السبب " ولا العادة، ولا المألوف من النواميس، حاجزاً بين العبد وإرادة الله به، وبالوجود كله من حوله، في كل حالة وفي كل لحظة، فالمشيئة الإلهية في تصوره – كما هي في الحقيقة – طليقة من وراء تلك النواميس، ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة، ويأخذ بالأسباب التي تتلاءم مع هذه النواميس لأنه مأمور أن يأخذ بها – وأخذه بها عبادة وطاعة – ويتعامل مع سنة الله، وهو يعلم أن لا تبديل لسنة الله، لا بسبب حتميتها على الله، ولا بسبب جبرية آلية فيها هي ذاتها، ولكن الله أراد ألا يبدلها، وجرى قدره باطرادها – إلا أن يشاء ذلك – مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه، وفي هذا يختلف التصور الإسلامي تماماً ويتميز عن كل تصور آخر... فهو لا ينتهي إلى إهمال الأسباب، أو إقامة النشاط بلا قواعد، ولا إلى جهل النواميس وإهمال التعامل معها، كما أنه لا ينتهي إلى إغلاق الأبواب دون مشيئة الله الطليقة، وقدره الجديد، أمام واقع الأسباب والنواميس، ولا يختنق

بالجبريات الآلية والحتميات الطبيعية والتاريخية " [1]، " وبذلك تسقط كل المقولات التي تنسب الآثار نسبة مباشرة إلى غير مشيئة الله وقدره " [2]، " فالمسلم يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها، ويعمل وفق السنة، لأنه مأمور بمراعاتها، لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي المنشئة للمسببات والنتائج، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب، بعد أداء واجبه من الحركة والسعي والعمل واتخاذ الأسباب، طاعةً لأمر الله " [3].

الفرع الثالث: الاحتجاج بالقدر

إذا كان الإيمان بالقدر واجباً وركناً من أركان الإيمان، فإنه لا يجوز الاحتجاج بالقدرعلى ترك العمل المشروع، أو على عمل الممنوع.

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالقدر ولا يحتجون به. وأول من احتج بالقدر إبليس[4]، ومن بعده المشركون كما أخبر الله عنهم، حيث تشبثوا بالقدر والمشيئة دفعاً لما هم عليه من

---

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٦٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٧.

(٣) خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ص ١٢٥.

(٤) انظر: سورة الحجر، الآية ٣٩.

الشرك والكفر، ظناً أن ذلك ينجيهم من عذاب الله، فأبطل الله زعمهم.

ثم جاء بعدهم الجبرية ومن نهج نهجهم من الجهمية، فاحتجوا بالقدر على المعاصي وفتحوا باب شرٍ مستطير للدعوة إلى الفسوق والفجور مستدلين ببعض الآيات والأحاديث، التي أساءوا فهمها [(١)].

موقف سيد قطب – رحمه الله – من الاحتجاج بالقدر:

وقف سيد قطب عند هذه المسألة وقرر ما قرره القرآن الكريم وما عليه أهل السنة والجماعة من أن للعبد مشيئته وقدرته، وأنها خاضعة لمشيئة الله وقدرته، وأنه لا يجوز الاحتجاج بالقدرعلى المعاصي.

يقول – رحمه الله –: " والذين يحيلون ضلالهم وشركهم وخطاياهم على إرادة الله بهم، وعلى قضائه فيهم، إنما يغالطون في هذه الإحالة، والله سبحانه يجبههم بالحق، وهو يحكي أقوالهم في هذا الشأن ويسفهها {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) لبيان مذهبهم الفاسد ينظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢١١، والملل والنحل للشهرستاني ٨٧/١، ومجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ٢/ ٩٩– ١٠٣، وشفاء الغليل لابن القيم ص ٢٨. وفتح الباري لابن حجر ١١/ ٥٠٩– ٥١٢.

فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ } [سورة النحل:٣٥] ، فدل هذا على إنكار الله عليهم قولهم وعلى أن الضلالة إنما حققت عليهم– بعد النذارة – بفعلهم " (١).

وعند الآيات التي ذكرت احتجاج المشركين بالقدرعلى ضلالهم، بين– رحمه الله – الموقف الحق في ذلك، ويمكننا استعراض كلامه على الآيات فيما يأتي:

١- في ظلال قوله تعالى: {سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٖ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ } [سورة الأنعام الآيات ١٤٨-١٤٩] ، يقول سيد: " وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضيق الخناق عليهم، وسد الذرائع في وجوههم يواجه مهربهم الأخير الذي يحيلون عليهم شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم، إنهم يقولون: إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال، فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء... وقضية الجبر والاختيار كثر

(١) في ظلال القرآن، ١٠٦٦/٢.

فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة.. وتدخلت الفلسفة الإغريقية، والمنطق الإغريقي، واللاهوت المسيحي في هذا الجدل، فتعقد تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية، ولو أُخذ بمنهج القرآن المباشر الميسرالجاد، ما اشتد هذا الجدل، وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه.

ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه، فنجد قضية واضحة بسيطة محددة: { سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ }، فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل، يحيلون هذا كله إلى مشيئة الله بهم، فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة؟.

لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله، وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد { كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا }، وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر، وتوقظ من الغفلة، وتوجه إلى العبرة.

واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر، إن الله أمرهم بأوامر، ونهاهم عن محظورات، وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً، فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه، فكيف يعلمونه؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه: {قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} إن لله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية، ليمضوا وراء الحدس والخرص في وادٍ لا يعلمونه؟.

هذا هو فصل القول في هذه القضية.. إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه، إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه، ليكيفوا أنفسهم على حسبها، وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه، ويشرح صدورهم للإسلام، وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذٍ – في واقعها العملي – يسيرة واضحة، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته.

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداءً بطبيعة لا تعرف إلا الهدى، أو يقهرهم على الهدى، أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر، ولكنه – سبحانه – شاء غير هذا: شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال، ليعين

من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته، وجرت سنته بما شاء. { قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ }، قضية واضحة، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري، فأما المعاظلة فيها والمجادلة فيها غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي، ولم ينتهِ الجدل فيها في أي فلسفة أو أي لاهوتٍ إلى نتيجة مريحة، لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها.

إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها كذلك، الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعامل، والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن، والحقيقة التي وراء هذا المدى لا بد أن تتناول بمنهج آخر هو منهج التذوق الفعلي لهذه الحقيقة في مجالها الفعلي، ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التي عولجت بها في كل ما جرى حولها من الجدل قديماً وحديثاً.

ولقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً، تحدده أوامر ونواهٍ واضحة، فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة، يرتادها العقل بغير دليل، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل

الإيجابي الواقعي المشهود " (١). " فعلم الله الأزلي ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال " (٢).

٢- في ظلال قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ} [سورة النحل الآيات ٣٥- ٣٦]، يقول سيد: " إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم، وأوهام الوثنية التي يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة.. إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته، فلو شاء الله – في زعمهم – ألا يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٦- ١٢٢٧.

(٢) المصدر السابق ٣/١٤٠١.

وهذا وهمٌ وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية، وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التي وهبها له الله لاستخدامها في الحياة..

فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ وحده، فقاموا به وأدوه " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ " فهذا أمره وهذه إرادته لعباده.

والله تعالى لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خِلقةً من القدرة عليه، أو دفعهم قسراً إلى مخالفته، وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين { فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ }.

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال، وأن يدع مشيئتهم، حرة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين، بعد ما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت أناء الليل وأطراف النهار، فوضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت به رسله، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر، ليتأكد من صواب تقديره

أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصف به الأهواء، ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان، ففريق استجاب {فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ} وفريق شرد في طريق الضلال {وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ}.

وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج عن مشيئة الله، وكلاهما لم يقسره الله قسراً على هدى أو ضلال، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه بعدما زودته بمعالم الطريق في نفسه وفي الآفاق.

وكذلك ينفي القرآن الكريم بهذا النص، وَهْمَ الإجبار الذي لوح به المشركون، والذي يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين.

والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة في هذه النقطة، فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر، ويعاقب المذنبين أحياناً في الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم، فلا مجال بعد هذا لأن يقال: إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم، وهذه هي إرادة الله، وكل ما يصدر عنهم من

خيرٍ أو شرٍ من هدىً أو ضلالٍ، يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذي فصلناه " [1].

٣- وفي ظلال قوله تعالى: { وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [سورة الزخرف: ٢٠] ، يقول سيد: " إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة، فيحيلون على مشيئة الله، يزعمون أن الله راضٍ عن عبادتهم الملائكة، ولو لم يكن راضياً ما مكنهم من عبادتهم، ولمنعهم من ذلك منعاً!

وهذا القول احتيالٌ على الحقيقة، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله، هذا حق، ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى واختيار الضلال، وكلفه اختيار الهدى ورضيه له، ولم يرض له الكفر والضلال، وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلاً للهدى أو الضلال.

وحين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطاً، فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة – ومن أين يأتيهم اليقين؟ – {مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} ويتبعون

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٧٠- ٢١٧١.

الأوهام والظنون { أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ } يستندون إليه في دعواهم.. ويرتكنون إلى ما عندهم فيه من دليل!!.

وهكذا يأخذ عليهم الطريق من هذه الناحية، ويوحي إليهم كذلك أن العقائد لا يخبط فيها خبط عشواء ولا يرتكن فيها إلى ظنٍ أو وهمٍ، إنما تستقي من كتاب من عند الله يستمسك به من يؤتاه " (١).

الفرع الرابع: التكليف بما لا يطاق

مسألة التكليف بما لا يطاق من المسائل المتفرعة عن الاستطاعة، لأن الطاقة هي الاستطاعة (٢)، وهي مسألة وقع فيها الخلاف بين المتكلمين أنفسهم من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فمذهب الجهمية جواز تكليف ما لا يطاق، كأمر الأعمى أن يبصر، وأمر الزَمِن أن يسير إلى مكة(٣)، ومذهب

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٨١- ٣١٨٢.

(٢) قال الجرجاني: " الاستطاعة، هي عرض يخلفه الله تعالى في الحيوان، يَفعل أو يُفعل به الأفعال الاختيارية، والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع، والطاقة متقاربة في المعنى في اللغة.

أما في عرف المتكلمين فهي: عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك، انظر التعريفات للجرجاني ص ٣٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٢٩٧.

المعتزلة منع تكليف ما لا يطاق، قالوا: لأنه قبيح، والله منزه عن فعل القبيح، فلا يجوز صدوره منه، وهذا تابع لقولهم بالتحسين والتقبيح العقليين (١).

أما الأشاعرة فلم يتفقوا في هذه المسألة حيث أطلق بعضهم جواز تكليف ما لا يطاق، وفصل بعضهم فيه (٢).

وأما السلف فلم يؤثر عنهم كلام في هذه المسألة، ولذلك قال شيخ الإسلام بعد أن حكى نزاع المتكلمين: " وإذا عُرف هذا فإطلاق القول بتكليف ما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام كإطلاق القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم،.. وليس في السلف والأئمة من أطلق القول بتكليف ما لا يطاق، كما أنه ليس فيهم من أطلق القول بالجبر، وإطلاق القول بأنه يجبر العباد كإطلاق القول بأنه يكلفهم ما لا يطيقون، هذا سلب قدرتهم على ما أمروا به، وذلك سلب كونهم فاعلين قادرين " (٣).

ويظهر لنا من كلام شيخ الإسلام الصلة بين القول بالجبر، والقول بجواز تكليف ما لا يطاق.

---

(١) انظر: الحكمة والتعليل في أفعال الله ص ١٢٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٨/ ٤٦٩- ٤٧١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٦٥٣، وفتح الباري لابن حجر ٤/ ١٣٥، ١١/ ٤٩٠، ١٣/ ٤٢٩، ٤٢٨.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/٦٥، ومجموع الفتاوى ٨/٤٦٩.

موقف سيد قطب من مسالة التكليف بما لا يطاق:

قرر- سيد- مذهب أهل السنة والجماعة في أن تكاليف الشرع كلها داخلة في طاقة الإنسان واستطاعته، وليس فيها ما هو فوق طاقتهم:

١- في ظلال قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة البقرة:١٤٣] ' يقول: أي " أنه يعرف طاقتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقتهم " (١) " فالتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة، لا تتجاوز الطاقة، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه،.. ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه، يحمل منها ما يطيق حمله، ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام " (٢)، " لأن العقيدة الإسلامية تعترف بالإنسان إنساناً، لا حيواناً ولا حجراً، ولا ملكاً ولا شيطاناً، تعترف به كما هو، بما فيه من ضعف وما فيه من قوة، وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسدٍ ذي نوازع وعقلٍ ذي تقدير، وروحٍ ذي أشواق، وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق، وتراعي التنسيق بين التكاليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات.. {لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}.

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٣/١.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٠٨- ٢٠٩.

وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف التي يفرضها عليه في خلافته للأرض، وفي ابتلائه وجزائه على عمله في النهاية فلا يتبرم بتكاليفه، ولا يستثقلها.

وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه، وهذا التصور يسكب في القلب الراحة والأنس، ويستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكليفه، لأنه يحس أنها داخلة في طوقه، ولو لم تكن داخلة في طوقه ما كتبها الله عليه " (١).

٢- في ظلال قوله تعالى: {وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ } [سورة الحج ٧٨] ، يقول سيد: " وهو تكليف محفوف برحمة الله،.. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته " (٢)، " وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها " (٣).

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٤٤ بتصرف يسير، وينظر أيضاً ٢/ ١٢٩١، ٦/ ٣٣٠٢.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٦.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٦١٦.

٣- في ظلال قوله تعالى {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [سورة المؤمنون:٦٢] . يقول سيد: " لقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة، لا يظلمون بتحميلهم ما لا يطيقون، ولا يبخسهم شيئاً مما يعملون.. والعلة في عدم طاعتهم ليست هي تكليفهم بما هو فوق الطاقة، إنما العلة أن في قلوبهم غمرة لا ترى الحق " (١).

٤- في ظلال قوله تعالى: {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ} [سورة التغابن:١٦] ، يقول- سيد-: " وهذا هتاف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة، وفي القيد " ما استطعتم " يتجلى لطف الله بعباده وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته، وقد قال رسول الله ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " (٢)، " فالطاعة في الأمر ليس لها حدود، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع، أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان" (٣)، " فالتصور

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٣ بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٦٥٨/٦ رقم ٦٨٥٨، ومسلم في الحج ٧٩٥/٢رقم ١٣٣٧.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٧٥٩٠.

الإسلامي يُعلِّم المسلم أن الله فرض عليه تكاليف واضحة، ونهاه عن أمور كذلك واضحة، وهذه وتلك محددة لا شبهة فيها ولا غبش، معلومة للإنسان، ويحاسب عليها بعد ذلك – وطريق المسلم أن ينهض بالتكاليف الواضحة – ما استطاع – وأن يجتنب النواهي المحددة كما نُهي، وما كان الله – سبحانه – ليكلفه شيئاً يعلم أن لا طاقه له به، أو أنه ممنوع بمانع قهري عن النهوض به، أو أنه مدفوع بدافع قهري لا يقاوم لإتيانه... وما يؤمن بالله من لا يؤمن بأن الله لا يكلفه بشيء فوق طاقته، ولا ينهاه عن شيء ليس في مقدوره الانتهاء عنه وفي هذه الكفاية " (١).

الفرع الخامس: الحكمة والتعليل في أفعال الله

وهذه المسألة من المسائل المتعلقة بأفعال الله، وما يحكم به في عباده قدراً أو شرعاً، وقد حصل حولها خلاف بين أهل السنة وبين بعض الفرق.

وهذه المسألة كما يقول ابن القيم – رحمه الله –: " من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر بالشرع والقدر" (٢).

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص ١٣٤– ١٣٥ بتصرف يسير، وينظر أيضاً: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ٥٤.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٤٢.

والمراد بالحكمة والتعليل في أفعال الله: هل أفعال الله وأوامره معلّلة بالحكم والغايات؟

وقبل ذكر موقف سيد قطب – رحمه الله – منها يمكن استعراض آراء الفرق بإيجاز كالآتي:

١- **أهل السنة والجماعة:** يرون أن لله تعالى فيما يقضيه حكماً وأسراراً قد تكون معلومة للعباد، وقد تكون خفية عنهم، وأن أفعال الله سبحانه تعلل بالحكم والغايات الحميدة التي تعود على الخلق بالمصالح والمنافع، ويعود إلى الله تعالى حبه ورضاه لتلك الحكم، وهذه الحكم مقصودة، ويفعل لأجل حصولها، كما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة " (١).

٢- **المعتزلة:** يثبتون الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، لكنهم يوجبون على الله بمقتضى الحكمة أموراً، ويمنعون عليه أموراً لمخالفتها مقتضى الحكمة في زعمهم وبمحض عقولهم (٢).

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر ١/ ٢٢١، ١٣/ ٤٥٠، ومنهاج السنة لابن تيمية ١/١٤١، والقضاء والقدر للمحمود ص٢٤٦، والحكمة والتعليل في أفعال الله د / محمد ربيع، ص ٤١.

(٢) المغني في أبواب العدل والتوحيد، القاضي: عبد الجبارأحمد الهمذاني، تحقيق: النجار، طبعة القاهرة عام ١٣٨٥هـ، كتاب التكليف ٩١/٨ وما بعدها، والقضاء

٣- **<u>الأشاعرة:</u>** يرون أن أفعال الله لا تتوقف على الحِكَم، بل الحِكَمُ مترتبة على الأفعال وحاصلة عقيبها فهي ليست مقصودة ومطلوبة بالفعل [١].

٤- **<u>الفلاسفة والجهمية</u>**: ينفون الحكمة والتعليل في أفعال الله، ويقولون: إن الله تعالى خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لداعٍ ولا باعث، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة[٢]

<u>موقف سيد قطب من الحكمة والتعليل في أفعال الله:</u>

يرى سيد قطب -رحمه الله- أن الله تعالى فاعلٌ مختار، وأن فعله عن علمٍ وحكمةٍ، وأن حكمته موافقةٌ لمشيئته سبحانه، وأن الحكمة منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي، وأن الواجب

والقدر للمحمود ص ٢٤٣، ٢٤٤، والحكمة والتعليل في أفعال الله، د / محمد ربيع ص ٥٢.

(١) انظر: المحصول للرازي، تحقيق د/ جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، عام ١٤١١هـ، ٥/١٩٢، ونهاية الأقدام للشهرستاني ص ٣٩٧، وشرح المواقف للإيجي ص٢٣٥، والإرشاد للجويني ص٢٦٨وما بعدها، والحكمة والتعليل د / محمد ربيع ص٥٢.

(٢) الإشارات لابن سيناء، ٣/ ١٥٠، وشرح الإشارات للطوسي ٣/ ١٥١، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٤٤، والقضاء والقدر د / عبد الرحمن المحمود ص٢٤٣.

التسليم سواءً عرفنا الحكمة أو لم نعرفها، كما أنه من الأدب في حق الله تعالى عدم السؤال عن الحكم والغايات الخفية وعدم الجزم بشيء لم يُنص عليه أنه حكمة وعلة.

ويمكن بيان موقفه هذا من خلال النقاط الآتية:

١- يقرر سيد أن وراء كل حدثٍ وكل حُكمٍ علة وحكمة لله سبحانه، وليس من الضروري إدراكها حتى نؤمن بها فيقول: " وكل شيء عند الله بمقدار، وكل أمرٍ مرهونٌ بوقته المرسوم، وإنما تقع في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه، وكل حدث في إبانه "[١]

ويقول عند حديثه عن الحكمة من الإفطار في السفر والمرض بعد أن قرر أن العلة هي إرادة اليسر بالناس: " ونحن لا ندري حكمة الله كلها في تعليقه – أي الفطر – بمطلق المرض والسفر إطلاقاً فقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله، ويجهلها البشر.. وما دام الله لم يكشف عن علة الحكم فنحن لا نتأولها، ولكن نطيع النصوص ولو خفيت علينا حكمتها، فوراءها قطعاً حكمة، وليس من الضروري أن نكون نحن ندركها..

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧١

والأولى على كل حال أن نأخذ الأمور بالصورة التي أرادها الله في هذا الدين فهو أحكم منا وأعلم بما وراء رخصه وعزائمه من مصالح قريبة وبعيدة، وهذا هو جماع القول في هذا المجال" (١).

وينتقد بعض المفكرين الإسلاميين – قديماً وحديثاً – الذين يجعلون للعقل سلطة الحكم النهائي في قضايا الدين، ويقرر أن الدين من عند الله ثم يقول: " وبالتالي متى أصبحت هذه القاعدة الكبرى مسلماً بها، أصبح من منطق الإدراك البشري أن يسلم بعد ذلك تلقائياً بكل ما ورد في هذا، ولا يهم عندئذٍ أن يرى "المصلحة " متحققة فيه في اللحظة الحاضرة، فالمصلحة متحققة حتماً ما دام من عند الله " (٢). " فحكمة الخالق قد تدرك بعد مراميها وقد لا تدرك، دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها " (٣).

٢- أنه ليس من الأدب مع الله الإغراق في البحث عن الحكم – أو قصرها على حكمة معينة بناءً على تصور العقل البشري، والجزم بأنها هي العلة دون أن يكون عليها نص

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٦٨– ١٦٩ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٢٣.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٨١ و ١/ ٥٢٥.

صريح. يقول – رحمه الله –: " إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية، يندفعون أحياناً في تعليل هذه الأحكام، بصورة توحي بأنهم استقصوا هذه الحكمة، فلم يعد وراء ما استقصوه شيء، وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية، ما لم يكن قد نص على حكمتها نصٌ، وأولى أن نقول دائماً: إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحُكْمِ، وأنه قد تكون دائماً هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها! وبذلك نضع عقلنا البشري – في مكانه – أمام النصوص والأحكام الإلهية، بدون إفراط ولا تفريط.

أقول هذا – لأن بعضنا – ومنهم المخلصون – يحبون أن يقدموا النصوص والأحكام الإسلامية للناس، ومعها حكمة محددة، مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم، أو مما كشف عنه " العلم الحديث " وهذا حسن – ولكن في حدود – ما أشرنا إليه "(١).

وعند حديثه عن عدم فرض الجهاد في مكة، يقول: " أما حكمة هذا – أي عدم فرض الجهاد في مكة – فلسنا في حلٍ من الجزم بها، لأننا حينئذٍ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسباباً وعللاً، قد لا تكون هي

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٦٩.

الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم – سبحانه– أن فيها الخير والمصلحة.

وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم في شريعة الله – لم يبين الله سببه محدداً جازماً حاسماً – فهمها خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف، أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم، أو طريقة أداء ذلك التكليف، مما يدركه عقله ويحسن فيه، فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال، ولا يجزم – مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله – بأن ما رآه هو حكمةً، هو الحكمةُ التي أرادها الله – نصاً وليس وراءها شيء، وليس من دونها شيء.

فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله، ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة، بهذا الأدب نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب، على أنه مجرد احتمال، وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره أسباباً وعللاً لا يعلمها إلا هو، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح. " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٣– ٧١٤ بتصرف يسير.

وعند الحديث عن تحريم الخمر يقول: "ولا نريد أن ندخل في الجدل الذي آثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس، هل هو ناشئ عن أمر الشارع – سبحانه – بتحريمها، أم أنه ناشئ عن صفة ملازمة للخمر في ذاتها، وهل المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها، أم أن هذه الصفة تلزمها من التحريم، فهو جدل عقيم في نظرنا وغريب على الحس الإسلامي.

والله حين يحرم شيئاً – يعلم – سبحانه – لم حرمه، سواءً ذكر سبب التحريم أو لم يذكر، وسواء كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم، أو لعلةٍ تتعلق بمن تناوله من ناحية ذاته أو من ناحية مصلحة الجماعة.

فالله سبحانه هو الذي يعلم الأمر كله، ولا يقولن أحد: إذا كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم فكيف أبيح إذن قبل تحريمه!! فلا بد أن لله – سبحانه – حكمة في تركه فترة بلا تحريم، ومرد الأمر كله إلى الله، وهذا مقتضى ألوهيته –سبحانه –.

واستحسان الإنسان واستفتاحه ليس هو الحكم في الأمر، وما يراه علة قد لا يكون هو العلة، والأدب مع الله يقتضي تلقي

أحكامه بالقبول والتنفيذ، سواء عُرِفَت حكمتُها أو علتها أم ظلت خافية والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (١).

٣- للمؤمن أن يقف عند الحِكَم والعلل التي جاءت صريحة في بعض الأحكام والنصوص، وأن يستشرف بعض الحكم مما ليس منصوصاً عليه صراحة لكن في ظل الضوابط السابقة.

ومن أمثلة تعامل سيد مع النوعين السابقين ما يأتي:

أ – الإيمان والتسليم بالحكم المنصوص عليها: ومن الأمثلة:

الأول: قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات:٥٦] ، حيث يقول سيد: " وهذا النص الصغير يحتوي على حقيقة ضخمة هائلة.. ذات جوانب متعددة أول هذه الجوانب: أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفةٍ من قام بها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجودة.. وهي العبادة " (٢).

الثاني: قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ } [سورة البقرة:١٤٣] . حيث يقول سيد: " لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٨.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ١٣٨٧.

الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها الآية، فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة،.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية.. وليطهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاءٍ آخر، إتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرةٍ جاهلية. حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ، وفي ذات الوقت بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام،.. فتوجه المسلمين فترة إلى المسجد الأقصى كان لحكمة خاصة كما سبق وتحويلهم إلى المسجد الحرام كان لحكمة التميز عن اليهود والنصارى أيضاً " (١).

ب – <u>الأمور التي لا تبدو لنا حكمتها نصاً هي على نوعين:</u>

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٢٦– ١٢٧.

١ – **أمور لا يمكن إدراك العلة والحكمة فيها:** وفي هذه الحالة يجب على المؤمن التسليم بها دون خوض أو سؤال عن العلة، وقد ذكر سيد – رحمه الله – من أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (١)، يقول سيد: " فأما المؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه، فلم يعد يماري في خبره وقوله، وأما المشركون فتلففوا هذا العدد بقلوبٍ خاويةٍ من الإيمان والتوقير لله.. وراحوا يتهكمون عليه ويسخرون منه.. عند ذلك نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله من ذكر هذا الجانب الغيبي وذكر هذا العدد {وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ }.. فهم لا يعرفوا مواضع التسليم ومواضع الجدل، وما دام هذا الأمر غيبياً، فلا مجال للجدل فيه..

أما لماذا كانوا تسعة عشر " أياً كان مدلول هذا العدد " فهو أمر يعلمه الله، الذي خلق كل شيء بقدر، وهذا العدد كغيره من الأعداد، والذي يبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض، لماذا كانت السماوات سبعاً، لماذا كان خلق الإنسان من صلصال، وخلق الجان من مارج من نار؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة

---

(١) سورة المدثر، الآية ٣٠.

أشهر؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ والجواب: لأن صاحب الخلق والأمر يريد، ويفعل ما يريد هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور " (١). فالله لا يسأل عما يفعل.

ب- ما يمكن إدراك بعض حكمه: وهنا يقف المؤمن عندها لكن دون جزم بأنها هي وحدها ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: { وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا } [سورة النساء:٢٢] ، يقول سيد: " ويبدو لنا في حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات، وإن كنا نحن البشر لا نحيط بكل حكمة التشريع، ولا يتوقف خضوعنا له وتسليمنا به، ورضاؤنا إياه على إدراكنا أو عدم إدراكنا لهذه الحكمة، فحسبنا أن الله قد شرعه لنستيقن أن وراءه حكمة وأن فيه مصلحة.

نقول: يبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات:

الأول: أن امرأة الأب في مكان الأم.

الثاني: ألا يخلف الابن أباه، فيصبح في خياله نداً، وكثيراً ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعاً، فيكره أباه ويمقته.

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٥٨/٦ بتصرف، وينظر أيضاً ٢٣٧٤/٤.

الثالث: ألا تكون شبهة الإرث لزوجة الأب، الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية، وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء.

لهذه الاعتبارات الظاهرة – ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا – جعل هذا العمل شنيعاً.. وفاحشة ومقتاً " [1].

وينظر أيضاً كلام سيد عن الحكمة من تأخير العذاب للمشركين وغيرها [2].

الفرع السادس: الأجل والتقدير

تواترت الأدلة من الكتاب والسنة على أن الآجال مقدرة معلومة، وأنها لا تُغيَّر ولا تُبدَّل، ولا يُزاد فيها ولا يُنقص، قال تعالى {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [سورة يونس:٤٩] ، وقال تعالى: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [سورة الرعد:٣٨] ، وغيرها.

وفي الحديث أن أم حبيبة [3] –رضي الله عنها – قالت: " اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبى سفيان [1] وبأخي

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦٠٧.

(٢) المصدر السابق ٥/٢٧٤٧.

(٣) هي: رمله بنت أبي سفيان بن صخر، ولدت قبل البعثة ب ١٧ سنة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم ارتد وتنصر وثبتت هي فأبدلها الله خيراً منه رسول الله ﷺ،

معاويـة، فقـال النبـي ﷺ: قـد سـألت الله لآجـالٍ مضـروبة وأيـام معدودة، وأرزاق مقسومة، لـن يعجل شيئاً قبل حله ولـن يؤخر شيئاً عن حلـه، ولـو كنـت سـألت الله أن يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيراً وأفضل " (٢).

فالله قدر وقضى أن هذا يموت بالمرض وهذا بالقتل وهذا بغيره من الأسباب، فالمقتول ميت بأجله كغيره من الأسباب.

وخالف المعتزلة فقالوا: المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، فكأن له أجلان، وهذا باطل لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أو يجعل أجله، أحد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب(٣).

موقف سيد قطب من قضية الآجل والتقدير:

توفيت سنة٤٤هـ انظر: الاستيعاب ٤/٢٩٦ والإصابة ٤/٢٩٨ وسير أعلام النبلاء ٢١٨-٢٢٣ .

(١) هو: صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان القرشي الأموي، ولد قبل النبي ﷺ بعشرين سنة، أسلم عام الفتح، وتزوج الرسول ﷺ ابنته أم حبيبة قبل أن يسلم، توفي سنة ٣٤ هـ انظر: الإصابة لابن حجر ٢/ ١٧٨-١٨٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر، ٤/١٦٢٧رقم ٢٦٦٣، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٧ – ١٢٨.

قرر سيد قطب – رحمه الله – في هذه المسألة ما قررته النصوص الشرعية، وما عليه أهل السنة والجماعة حيث يقول: " إن كل أمرٍ مرهونٌ بوقته الموسوم، وإن الأمور تقع في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية، التي تضع كل شيء في مكانه وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين " (١).

ويقول أيضاً: " إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم، ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم، فالخوف والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً، والشجاعة والثبات والإقدام لا تقصر عمراً، والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد.. فكلٌ يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب " (٢).

"وإذا حلَّ الأجل سعى صاحبه بقدميه إليه " (٣).

" والنهاية واحدة: موت أو قتل في الموعد المحتوم والأجل المقسوم " (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧١.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٧.

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٩٧.

(٤) المصدر السابق ١/ ٤٩٨.

" فالموت حتمٌ في موعده المقدر، ولا علاقة له بالحرب والسلم، أو حصانة المكان التي يحتمي به الفرد أو قلتها، أو بالتعرض للناس في الجهاد.. إنما العلاقة بين الموت والأجل، بين الموعد المقدر وحلول ذلك الموعد " (١)، " وا لناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل " (٢).

(١) المصدر السابق ٢/ ٧١٦.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٤٢، وينظر أيضاً ٢/٧٤٥.

الـفـصـل الـثـانـي

منهجه في توحيد الأسماء والصفـات

ويحتوي على أربعة مباحث:

المبحث الأول: توحيد الأسماء والصفات بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم.

المبحث الثاني: منهج سيد قطب في تقرير توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثالث: منهج سيد قطب في إثبات الأسماء الحسنى.

المبحث الرابع: منهج سيد قطب في إثبات الصفات.

المبحث الأول

توحيد الأسماء والصفات بين أهل السنة ومخالفيهم

المطلب الأول

المقصود بتوحيد الأسماء والصفات ومنهج أهل السنة فيه

أولاً: تعريفه:

التوحيد: جعل الشيء واحداً، **والأسماء: جمع اسم**، وهو: العلم على الذات والصفات.

والصفات: جمع صفة، وهي ما تقوم بالذات [(١)].

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، التي أثبتها لنفسه، أو أثبتها له الرسول ﷺ، على الوجه الذي يليق به سبحانه، ونفي ما نفاه عن نفسه سبحانه أو نفاه عنه رسول الله ﷺ [(٢)].

منهج أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات: " هوأن يثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه، أو أثبته له

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٢٤ ، وفتاوى اللجنة الدائمة، ١١٦/٣ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٤٠٣ ، ومدارج السالكين لابن القيم ٤٨/١ .. وفتح الباري لابن حجر ٥٢/١ . وأعلام السنة للحكمي مكتبة الرشد الرياض ط٤ عام ١٤١٦هـ ص ٥٧ .

رسوله ﷺ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ، إثباتاً من غير تمثيل، وتنزيهاً من غير تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ {سورة الشورى ، الآية ١١}

" فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله، نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد عُلم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات من غير تكييف [١] ولا تمثيل [٢]، ومن غير تحريف [٣]، ولا تعطيل [٤].

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل، فقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ } رد للإلحاد

(١) التكييف : هو حكاية كيفية الصفة ، وأنها على هيئة كذا وكذا ، أو السؤال عنها بكيف .

(٢) التمثيل : هو إثبات مثيل للشيء ، والفرق بينه وبين التشبيه ، أن التشبيه يقتضي المشابهة أو المساواة في أكثر الصفات ، والتمثيل يقتضي المماثلة أو المساواة من كل وجه ، وقد يطلق أحدهما على الآخر .

(٣) التحريف ، التغيير ، ويقصد به ، تغيير النص لفظاً أو معنى .

(٤) التعطيل : نفي الصفات الإلهية أو إنكار قيامها بالذات ، وهو مأخوذ من العطل الذي هو الفراغ والترك ، وهذه التعريفات مستقاة من : شرح الواسطية لهراس ص ٢٠- ٢١، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن تيمية ص ٥٤- ٥٥ .

والتعطيل [1].

المطلب الثاني

المخالفون لمنهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات

المخالفون لأهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات طوائف عديدة، خلاصة أقوالهم كما يأتي [2]:

١- **الجهمية:** وهم طائفتان:

الأولى: الغلاة منهم- ومعهم الباطنية والقرامطة-: وهم الذين يصفون الله بالسلوب المحضة، فيسلبون عنه النقيضين، فيقولون لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت... وهكذا.

الثانية: الذين يثبتون ذاتاً مجردة عن الصفات، أي يثبتون وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق، فينفون الأسماء والصفات، ويصفونه بالسلوب.

---

(١) الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٧١٦، وشرح الواسطية لهراس ص ٢٠- ٢١ ، وأعلام السنة للحكمي ص ٥٧- ٥٨.

(٢) ينظر في ذلك : مقالات الإسلاميين للأشعري (٢٠٧- ٢١٠- ٢٣٧- ٣١٢ والفرق بين الفرق للبغدادي ١٩٩ ، والملل والنحل للشهرستاني ي ١/ ٤٣- ٢٤- ٨٧- ٥٩- ٩٦- ١٠٤- ١٠٥ . ومجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ١١٣- ١١٧، وشرح الطحاوية ص ٥٧ وما بعدها ، والأسماء والصفات للأشقر ص ١٥٦ .

٢- **المعتزلة:** وهم قسمان:

الأول: من ينفون الصفات ويثبتون الأسماء على أنها أعلام محضة تدل على الذات.

الثاني: من ينفون الصفات، ويثبتون الأسماء على أنها بمعنى متعلقاتها، فالسمع بمعنى المسموع والبصر بمعنى المبصر.. الخ.

وحاصل مذهبهم نفي الصفات، أما الأسماء فهي عندهم مترادفة لا تدل على صفة وإنما تدل على الذات فقط.

٣- **الأشاعرة:** وهم يثبتون الأسماء، أما الصفات فلهم فيها قولان:

الأول: إثبات سبع صفات – وهي التي يسمونها العقلية – وهي العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والحياة، ويسمونها أيضاً صفات المعاني.

الثاني: التفويض، وهو التصريح بعدم معرفة معناها وكيفياتها، فهي مجهولة المعنى مجهولة الكيف.

٤- المشبهة الممثلة: وهم الذين غلوا في جانب الإثبات، فمثلوا صفات الله بصفات خلقه فقالوا: لله يدان كأيدي المخلوقين، وسمع كسمع المخلوقين... الخ، وهؤلاء جماعة من الشيعة الغالية [١]، ويلحق بهم الكرامية [٢]" [٣].

والملاحظ عند الفرق السابقة أنها قسمان:

قسم غلا في التنزيه حتى وقع في النفي والتعطيل، وقسم غلا في الإثبات حتى وقع في التشبيه والتمثيل. فالنفاة أحسنوا في التنزيه، وأساءوا في نفي المعاني الثابتة لله، والمشبهة أحسنوا في الإثبات، وأساءوا في التشبيه [٤].

أما أهل السنة فقد أخذوا الحسنين عن الفريقين وتركوا السيئتين فأثبتوا ونزهوا.

---

(١) وهم: الحكمية: أصحاب هشام بن الحكم. والجواليقية: أتباع هشام بن سالم الجواليقي الرافضي ، واليونسية: أتباع يونس القمي والشيطانية : أتباع شيطان الطاق .

(٢) : أتباع محمد بن كرام السجستاني .

(٣) الرسالة الصفدية لابن تيمية ص ٧١٦، وشرح الواسطية لهراس ص ٢٠- ٢١ ، وأعلام السنة للحكمي ص ٥٧- ٥٨.

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٤ .

المبحث الثاني

منهج سيد قطب في تقرير توحيد الأسماء والصفات

توطئة:

قبل بيان منهج سيد قطب في تقرير الأسماء والصفات يجدر الإشارة إلى أن البعض أتهم سيداً بمخالفة منهج السلف في باب الأسماء والصفات، وأنه تبنى منهج الخلف القائم على نفي أو تأويل الصفات (١)، بل صرح بعضهم أن سيداً غلا في نفي الصفات كالجهمية (٢)، وأدخله بعضهم في المعتزلة والأشاعرة (٣).

وكلهم يعتمدون على كلام عام أو خطأ جزيء في تفسيره لبعض الصفات خلافاً لما هو عند أهل السنة والجماعة، ثم يطلقون الحكم في نسبته تارة إلى المعتزلة وتارة إلى الجهمية وتارة إلى الأشاعرة!!.

والقضايا التي استدلوا بها على نسبة سيد إلى غير منهج

---

(١) الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة ، تأليف / سليم الهلالي ، دار البصيرة الإسكندرية ، ب . ت ، ص ٢٠٨ .

(٢) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، د / ربيع المدخلي ، ص ١٧٤ .

(٣) المفسرون بين التأويل والإثبات للشيخ / محمد بن عبد الرحمن المغراوي ، مؤسسة الرسالة – بيروت– ط١ –١٤٢٠هـ ، ١٣٦٧/٣ وما بعدها .

أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات سيأتي بيانها كل في موضعها من هذا البحث

لكن الخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من خلال استقراء منهج سيد في هذا الباب هي: أن سيداً – رحمه الله – لم يتبنى منهج أي فرقة من الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة سواءً الجهمية أو الأشاعرة أو المعتزلة أو غيرهم، وكونه وافق هذه الفرقة أو تلك في مسألة من المسائل لا يعني بالضرورة أنه ينتمي لهذه الفرقة، أوأنه يتبنى منهجها في العقيدة.

بالإضافة إلى أن سيداً – رحمه الله – نقد جميع الفرق الكلامية في منهج تعاملها مع الأسماء والصفات سواءً النفاة أو المؤولة أو المشبهة، وسواءً كانوا من متكلمي المسلمين أو من الفلاسفة على حدٍ سواء – كما سيأتي – وعمل على بيان منهج القرآن في تقرير الأسماء والصفات، وتميزه عن مناهج المتكلمين والفلاسفة وغيرهم.

ومع هذا فسيد قطب – رحمه الله – بشر يخطئ ويصيب، والعصمة لمن عصم الله من أنبيائه لهذا نجد لسيد أخطاء ومخالفة لما عليه أهل السنة في تفسير بعض الصفات، وهذا أمر بدهي عنده وعند غيره.

وفيما يأتي بيان وتجلية لمنهج سيد قطب في باب الأسماء والصفات.

المطلب الأول

بيان عناية الإسلام في تحديد التصور في الله وصفاته

ركز سيد قطب – رحمه الله – في كتاباته كثيراً على بيان عناية الإسلام بأمر العقيدة عموماً، واهتم بتحديد التصور في الله تعالى وصفاته – سبحانه – وكذا بيان منهج القرآن في عرض الأسماء والصفات ومميزات هذا المنهج عن غيره من المناهج، ويمكننا بيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: بيان عناية الإسلام بتحديد التصور في الله وصفاته:

يقول سيد: " لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات.. يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة.. والضمير الإنساني تحت هذا الركام يتخبط في ظلمات وظنون.

وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور، هو ذلك الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها، وصفاته وعلاقته بخلائقه، ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص، ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا

الكون، وفي أمر نفسه، وفي منهج حياته، قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته... ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته، وعلاقته بالخلائق، وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين.

ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل، الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام وظل يجلوها في الضمير، ويتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد، حتى يخلصها من كل غبش...

كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله، وبخاصةٍ ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة، فقد كان معظم ذلك الركام في ذلك التيه، متعلقاً بهذا الأمر، وبذلك ندرك ذلك الجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقدير كلمة الفصل في ذات الله، وصفاته، وعلاقته بمخلوقاته، من خلال النصوص القرآنية الكثيرة " (١)، " وندرك الأهمية البالغة لوضوح، صفة الله – سبحانه – في الضمير الإنساني لإنقاذه من ذلك الركام

(١) في ظلال القرآن ١/٢٣ بتصرف يسير .

والضلال والتخبط [١].

ثانياً: بيان أساليب المنهج الإسلامي في عرض توحيد الأسماء والصفات:

يقول سيد: " إن التصور الإسلامي يقوم ابتداءً على تعريف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً يعرفهم بذاته سبحانه، ويعرفهم بصفاته، ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفردة، وآثارها في الكون وفي الناس، ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جداً في القرآن الكريم " [٢].

ويتم ذلك من خلال مجموعة من الأساليب القرآنية منها:

١ – **التعريف بالله تعالى من خلال نبذ كل تصور ليس من عند الله:**

يقول سيد: " يبدأ المنهج القرآني في التعريف بالله تعالى من نبذ كل ما تصوره" الفكر البشري " أو يتصوره – من عند نفسه – عن ذات الله – سبحانه – وخصائصه، وصفاته وأفعاله، وكيفيات أفعاله، وكيفيات تعلق مشيئته بالحوادث..

إن معرفة الله – سبحانه – في التصور الإسلامي تبدأ من نبذ كل الصور التي انبثقت ابتداءً من تصورات البشر

---

(١) المصدر السابق ٢٨٦/١ ، وينظر أيضاً ٣/ ١٨٠٧ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ص ١٠١ بتصرف يسير .

وأوهامهم عن ذات الله – سبحانه – وصفاته لتستقى مباشرة من تعريف الله لعباده بذاته وصفاته وخصائصه وأفعاله وكيفيات أفعاله، وهي تتلقى من هذا المصدر وحده، ولا تتلقى من مصدر آخر غيره، ذلك أنه ليس لدى البشر مما يعرفونه شيء مثله – سبحانه – يعرفونه على مثاله، أو يقيسون عليه، ويقيسون أفعاله بأفعاله أو كيفيات أفعاله بكيفيات أفعاله، والله – سبحانه – ليس كمثله شيء مما خلق على الإطلاق، ولا يملك الخيال البشري – مهما اجتهد – أن يعثر على شبيه له في صورة أو حال **{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ}** [سورة الشورى ١١] ، **{وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ}** [سورة النحل:٦٠] ، **{فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ}** [سورة النحل:٧٤] ، وبتحكيم هذه النصوص تسقط كل التصورات الوثنية أو الفلسفية أو غيرها[(١)].

٢ – **تعريف الله نفسه لعباده بصفاته ذات الأثر في حياتهم ووجودهم**: حيث يلمس بها مشاعرهم وقلوبهم، فيثير رجاءهم وطمعهم، وخوفهم وخشيتهم ومن ذلك:

قوله تعالى: {حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٩٩- ٢٠٠ بتصرف .

إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ } [سورة غافر الآيات ١- ٣] "[(١)]، وقوله تعالى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ } [سورة الحديد الآيات ١- ٦] ، حيث يواجهه القلب البشري بهذه المجموعة من صفات الله – سبحانه – فيها تعريف به، مع الإيحاء الأسر بالخلوص له نتيجة الشعور بحقيقة الألوهية المتفردة " [(٢)].

وعموما " فالمنهج القرآني يزحم الشعور الإنساني بحقيقة الألوهية، ويأخذ على النفس أقطارها جميعاً بهذه الحقيقة، وهو يتحدث عن ذات الله – سبحانه – وصفاته، وآثار قدرته وإبداعه " [(٣)].

٣- **تقرير صفات الله وأسمائه الحسنى من خلال بناء**

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦- ٣٤٧٦ .

(٣) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ١٩٠ .

<u>التصور الإيماني الكوني:</u> أي من خلال عرض آثار أسماء الله وصفاته الحسنى في الكون والحياة، إيجاداً ورعاية وتدبيراً وإحاطة (١).

" وهكذا يمضي المنهج القرآني في توحيد الذات الإلهية، وفي تفردها بصفاتها كذلك، والقرآن كله معرض لهذا التوحيد والتفرد، ولا نملك المضي في الاستشهاد به على كل صفة من صفات الله لكن نقتصر على مواضع التركيز في هذا المنهج.

حيث ركز المنهج القرآني على خصائص بعينها أراد الله سبحانه أن يبرزها، وهو يعرف عباده بذاته وصفاته ومن هذه الخصائص: خصائص الخلق والإحياء، والرزق والكفالة، والتدبير والقوامة والعلم والإحاطة والهيمنة، والسلطان، والبعث والجزاء.. " (٢).

<u>٤ – بيان عجز البشر عن إدراك ذات الله سبحانه أو إدراك كيفيات أفعاله:</u>

" يقرر المنهج القرآني عجز البشر عن إدراك ذات الله سبحانه أو إدراك كيفيات أفعاله في الكون وفيهم، ومع ذلك يقرر أيضاً أن الله سبحانه قريب منهم، سميع لهم، مجيب رحيم ودود،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٨٣ وما بعدها .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٤٧ .

فعجزهم ذلك لا يحرمهم الصلة بربهم، فهم يجدون في فطرتهم، ويرون آثار قدرته في الكون وفيهم " (١).

ثالثاً: مميزات وخصائص التصور الإسلامي عن ذات الله وأسمائه وصفاته:

أهتم سيد قطب كثيراً بإبراز خصائص ومميزات المنهج الإسلامي المستقى من القرآن الكريم، فيما يتعلق بذات الله– سبحانه– وأسمائه وأفعاله، مقارناً ذلك بما في المناهج الأخرى التي لم تستمد من القرآن الكريم، ومن أهم خصائص المنهج القرآني التي ذكرها – سيد – ما يأتي:

١) **الكمال والصدق:** يقول سيد: " والتصور الإسلامي لله، هو أكمل تصور، وأصدقه، لأنه وصف الله – سبحانه – لنفسه " (٢).

٢) **الدقة والوسع:** يقول سيد: " إن التصور الإسلامي عن الذات الإلهية، وصفاتها العلوية وآثار هذه الصفات في الكون وفي الحياة الإنسانية، هو أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق في الديانات الإلهية، وهذا يتفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة، ومع الرشد البشري الذي جاءت هذه الرسالة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٩/١ .

لتخاطبه وتوجهه، وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره " [1].

٣) **الجمال والتناسق:** يقول سيد: " إن التصور الإسلامي لذات الله – سبحانه – وصفاته وعلاقته بالخلق وعلاقة الخلق به.. إن هذا التصور بكل مقوماته. جميل جمالاً أخَّاذاً، سواءً في التعبير القرآني عن الحقائق التي يقوم عليها، أو في المشهد الفريد الذي يرسمه هذا التعبير لهذه المقومات في تناسقها الرائع.

إن جمال هذا التصور يتمثل – أول ما يتمثل – في كماله، في تكامله وتناسقه، إنه ليس مجموعة قضايا منفصلة، ولا مجموعة حقائق منعزلة، إن كل حقيقة وكل مقوم فيها يؤدي دوره في " الكل " المتكامل " المتناسق " [2].

٤) **الشمول في مقوماته وفي خطابه للكينونة البشرية:**

يقول سيد: " والمنهج القرآني يزحم الشعور الإنساني بحقيقة الألوهية، ويأخذ على النفس أقطارها جميعاً لهذه الحقيقة، وهو يتحدث عن ذات الله – سبحانه – وصفاته، وآثار قدرته وإبداعه، فتتمثل في الضمير البشري تلك الحقيقة، حقيقة الذات

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٨٤ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٤١ .

الخالقة لكل شيء، المالكة لكل شيء، المحيطة بكل شيء، المهيمنة على كل شيء، المدبرة لكل شيء، المؤثرة في كل شيء، وتشغل مشاعر الإنسان وحسه، وضميره وعقله، وكيانه كله، بهذه الحقيقة وخصائصها، وقدرتها وقوتها، ورحمتها ورعايتها، وجلالها ومهابتها، وأنسها وقربها وإحاطتها بالكون والناس في كل وضع وفي كل حال...

وهذا هو الشعور الذي يخرج به الإنسان من قراءة القرآن الكريم، الشعور بوجود الله – سبحانه – الذي لا يماثله وجود آخر وحضوره الذي لا يزايل الإنسان لحظةً من ليلٍ أو نهارٍ في أي وضعٍ وفي أي حال.

كما أنه – أي المنهج القرآني– يوقع على أوتار النفس البشرية جميعاً، ويدخل عليها من منافذها كلها، يوقع على أوتار الخوف والحذر، والرجاء والطمأنينة، والمهابة والجلال والأُنس والود... والقهر والجبروت، والرأفة والرحمة، وعلى أوتار النغمة والغراب، والنعمة والعطاء وعلى أوتار المغايرة الكاملة بين الألوهية والعبودية مع الأُنس والقرب بين الله وعباده، ويخاطب وجدان الجمال بما في الكون والنفس من ألوان وأطياف، كما يخاطب وجدان المجهول بالغيب وما وراء الأستار من قدر الله.

ويكفل بهذا التنوع الشامل الفريد أن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها.. خطاباً متفرداً يشهد بذاته على أن هذا المنهج من صنع الله لا يقدر على فعله سواه.

ويشعر المتدبر لهذا القرآن أن هذا موضوعه، وأن هذه هي غايته، وكل آية فيه، وكل فقرة، وكل توجيه فيه وكل تعليم – هو في الحقيقة – جانب من جوانب التعريف بالله، تعريف الناس بحقيقة ذاته – سبحانه – وحقيقة صفاته على قدر ما يعلم سبحانه أنهم يدركون منها ويطيقون " (١).

٥) **<u>الإيجابية والفاعلية:</u>** يقول سيد: " يقوم تصور الإله عند الفلاسفة على أنه لا يفكر في شيء من مخلوقاته لأنه تعالى أن يفكر في غير ذاته، ويحسبون أن هذا تنزيهاً لله وتعظيماً له، بينما هو قطع للصلة بينه وبين الوجود الذي خلقه.

أما التصور الإسلامي فهو تصور إيجابي لا سلبي، يقوم على أساس أن الله سبحانه قائم على كل شيء، وأن كل شيء قائم في وجوده على إرادة الله وتدبيره،.. ومن ثم يظل ضمير المسلم، وحياته ووجوده، ووجود كل شيء من حوله مرتبطاً بالله الواحد، الذي يصرف الأمور وفق حكمةٍ وتدبير " (٢)، "

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ١٩٠ – ١٩٢ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ١/٢٨٧بتصرف يسير .

فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله، وإنما هو توحيد إيجابي، توحيد الفاعلية والتأثير في الكون، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً، ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الأرض، وأنه بكل شيء محيط، لا يند شيء عن علمه ولا عن سلطانه، كان هذا باعثها القوي إلى أفراد الله سبحانه بالألوهية والعبادة، ومحاولة إرضائه باتباع منهجه، وطاعة أمره.

بخلاف الفلسفات التي تقرر وحدانية الله ولكنها تنفي عن الإرادة أو العلم أو السلطان أو الملك، إلى آخر ذلك الركام المسمى " فلسفات "، ومن ثم كان التصور الفلسفي سلبياً لا فاعلية له في حياة الناس، ولا أثر له في سلوكهم وأخلاقهم، ولا قيمة له في مشاعرهم وواقعهم " (١).

رابعاً: أثر استشعار المسلم لصفات الله تعالى من خلال المنهج القرآني:

أشار سيد – رحمه الله – عند استعراضه لبعض الآيات التي فيها ذكرٌ لبعض أسماء الله وصفاته إلى أثر تلك الأسماء والصفات في حياة المسلم، وإلى أهمية استشعار إيجابية وفاعلية

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٦٤ بتصرف.

ومعاني الأسماء والصفات الإلهية وآثارها في الكون والحياة.

ومن هذه الآثار:

١ - أن استشعار إيجابية صفات الله تعالى وفاعليتها يجعل الإنسان يعيش هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير، يرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر(١).

٢- أن صحة تصور الإنسان لإلهه يفيض على القلب السلام، فيعيش الإنسان في ثقة واطمئنان ورضى واستقرار، يعيش سلاماً مع النفس والضمير، ومع العقل والمنطق، ومع الناس والوجود، فلا حيرة ولا قلق ولا شرود ولا ضلال (٢).

٣ - أن استشعار صفات الله تعالى كما جاءت في التصور الإسلامي تجعل القلب البشري يعيش في حساسية مرهفة، وتوفز دائم، وخشية وارتقاب، وطمع ورجاء، ويمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله، شاعراً بقدرته وهيمنته، شاعراً بعلمه ورقابته، شاعراً بقهره وجبروته، شاعراً برحمته وفضله، شاعراً بقربه منه في كل حال(٣).

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٣ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٧ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ٦ / ٣٥٨٤ .

٤ – أن تـذكير القـرآن للنـاس كثيـراً بصـفات الله تعـالى الغـرض منـه أن يتـأدبوا منهـا بمـا يطيقـون [١]. ويتطلعـون للاستمداد منها بقـدر طـاقتهم كـي يحققـوا إنسـانيتهم العليـا، ويصبحوا أهـلاً لتكريم الله وللخلافـة فـي الأرض، وكـي يتـأهلوا للحياة الرفيعة { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } [٢].

٥– أن استشـعار معـاني كـل اسم وكـل صـفة علـى حـدة يزرع في نفس المسلم أثراً.

وقد ذكر سيد – رحمه الله – أمثلة للآثار التي تنتج من استشعار معاني أسماء الله – تعالى – وصفاته ومن ذلك:

أ – استشـعار" وحدانيـة الله " يجعـل المسـلم يتجـه وجهـة واحـدة يسـتقر عليهـا قلبـه، فـلا تتفرق بـه السبل، ولا تتعـدد بـه القبل، ولا يطارده إلهٌ من هنا وإلهٌ من هنا – كما كان في الوثنية والجاهلية.. إنما هو إلهٌ واحدٌ يتجه إليه في ثقة وطمأنينة.

ويتقـرر فـي ضـمير المؤمن وحدانيـة الاعتقـاد، ووحدانيـة العبـادة، ووحدانيـة الاتجـاه، ووحدانيـة الفاعليـة، مـن مبـدأ الخلـق إلـى منتهـاه، ويقوم علـى هذه الوحدانيـة منـهج كامل فـي التفكير والشعور والسلوك على أساس وحدانية الإله.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٦٥٧ .

ب - استشعار " قوة الله وقدرته وعزته وقهره " يجعل المؤمن في أمن من كل قوة زائفة، لا يخاف أحداً أو شيئاً غير الله، لأنه يعبد الله القوي القادر العزيز القاهر.

ج - استشعار " عدل الله وحكمته " يجعل المؤمن يأوي إلى ركن شديدٍ، ينال فيه العدل والرعاية والأمان.

د - استشعار أنه سبحانه " ربٌ رحيمٌ ودودٌ، منعمٌ وهابٌ، غافرٌ للذنب، وقابلٌ للتوب، مجيبٌ للدعاء كاشفٌ للسوء.. يجعل المسلم يعيش في كنفه سبحانه آمنٌ آنسٌ، سالمٌ غانمٌ مرحومٌ إذا ضعف، مغفورٌ له متى تاب " [(١)].

هـ - شعور المؤمن بأن الله وحده هو " المالك لما في السموات وما في الأرض " كفيلٌ بأن يطامن من حدة الشره والطمع، وحدة الشح والحرص، وحدة التكالب المسعور، ويسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق، والسماحة والجود بالموجود، وأن يفيض على القلب الطمأنينة والقرار، في الوجدان والحرمان سواء، فلا تذهب النفس حسرات على فائتٍ أو ضائع، ولا يتحرق القلب سعاراً على المرموق المطلوب[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٠٧ ، ٦/ ٣٥٣٢ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٨٨ ، ٣٥٣٣/٦ .

و- وشعور المؤمن بأن الله " يعلم ما بين يديه وما خلفه "، شعوره بعلم الله الشامل والمحيط من شأنه أن يحدث في النفس رجة وهزة، وتقف النفس عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين يديها وما خلفها، يعلم ما تضمر علمه بما تجهر، ويعلم ما تعلم علمه بما تجهل، ويعلم ما يحيط بها من ماضٍ وآتٍ مما لا تعلمه هي ولا تدريه.. شعور النفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزةَ الذي يقف عرياناً بكل ما في سريرته أمام الديان، كما أنه خليق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه، وبالتالي تستيقظ مراقبة الله في السر والعلن في ضمير المؤمن [١].

ز - شعور المؤمن بأن الله " رحمن رحيم " ينشئ في حسه وفي حياته وفي خلقه آثاراً عميقة يصعب تقصيها ومنها:

- أن الشعور بحقيقة الرحمة الإلهية يسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء التي تزيغ فيها القلوب والأبصار، فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة وفي كل حالة وكل وضع، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه أو طرده من رحمته، فإن الله لا

(١) المصدر السابق ١/٢٨٩ ، ٦/ ٣٥٣٢ .

يطرد من رحمته أحداً يرجوها، إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله، ويرفضون رحمته ويبعدون عنها!

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة، فهو في كنفٍ ودودٍ، يستروح ظلاله.

– والشعور بهذه الحقيقة يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله، فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرئ على المعصية – كما يتوهم البعض – إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم، والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية، لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم، أو المغفرة، أو الرحمة، إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية!.

– وكذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيراً قوياً في خلق المؤمن وهو يعلم أنه مأمورٌ أن يتخلق بأخلاق الله – سبحانه – وهو يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه فيعلمه ذلك كله كيف يرحم، وكيف يعفو وكيف يغفر". (١)

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٢ ، ٦/ ٣٥٣٣ .

- " وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام، فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه وما يطمئن روحه، وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام.. " [1].

(١) المصدر السابق ١/ ٢٠٧ ، وينظر أيضا في أثر الإيمان بالأسماء والصفات ٥/ ٣١٦٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ٢٩٢ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٤٠ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .

المطلب الثاني

أسس توحيد الأسماء والصفات وموقف سيد قطب منها

أولاً: أسس توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة:

يقوم توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة على ثلاثة أسس، من جاء بها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ والسلف الصالح، ومن خالفها فقد ضل، وهذه الأسس هي:

١ - تنزيه الله – عز وجل – عن مشابهة الخلق:

وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ} [سورة الشورى:١١] ، وقوله سبحانه وتعالى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ} [سورة الإخلاص:٤] ، وقوله {فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ} [سورة النحل:٧٤] .

٢ - الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة وعدم التعرض لنفيها:

ويدل على هذا الأصل قوله تعالى: {وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ}، بعد قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ}.

٣ - **قطع الطمع عن إدراك الكيفية:**

ويدل على هذا الأصل قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا} [سورة طه:١١٠] ، أي: لا تحيط علومهم بذاته ولا صفاته ولا بعلمه، وذلك لأن معرفة كيفية الصفات متوقف على إدراك كيفية الذات، وإدراك كيفية ذات الله مستحيلة، وبالتالي فالواجب عدم التعرض للكيفيات سواء كيفيات ذات الله أو صفاته أو أفعاله وعدم الخوض فيها، والوقوف عند حدود الشرع في هذا الباب [١].

ثانياً: موقف سيد قطب من أسس ومقومات توحيد الأسماء والصفات:

يمكن بيان موقف سيد قطب من أسس ومقومات توحيد الأسماء والصفات في ما يأتي:

الأساس الأول: تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن مشابهة الخلق:

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ، المكتبة العلمية – بيروت – ط عام ١٤١٥هـ ، ٣/ ٤٨١ ، و " منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، طبعة الجامعة الإسلامية عام ١٤٠١هـ ، ص ٣ وما بعدها بتصرف .

هناك العديد من النصوص لسيد قطب في تقرير هذا الأصل – تنزيه الله عز وجل عن مشابهة الخلق– منها:

١– في معرض نقاشه لفكرة التثليث عند النصارى يقول: " والله – سبحانه– تعالى عن الشركة وتعالى عن المشابهة، ومقتضى كونه خالقاً يستتبع.. بذاته.. أن يكون غير الخلق، وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخلق.. وإلى هذا يشير النص القرآني {إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ} [سورة النساء ١٧١] " [(١)]، " ويشهد بهذا وحدة الناموس، ووحدة الخلق، ووحدة الطريقة، ويشهد بذلك العقل البشري ذاته، فالقضية في حدود إدراكه، فالعقل البشري لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته " [(٢)]، " ولهذا عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه، وحدانية لا تتلبس بشبهةِ شركٍ أو مشابهةٍ في صورة من الصور، عني بتقرير أن الله – سبحانه – ليس كمثله شيء، فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية " [(٣)].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨١٦ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨١٧ .
(٣) المصدر السابق ٢/٨١٨ .

٢- ويقول أيضاً: " وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه – عليه صلوات الله وسلامه " [(١)]، " وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله – سبحانه – وخصائصه عن ذوات العبيد " [(٢)].

٣- ويقول أيضاً " ثم تفرد هو – سبحانه – دون خلقه جميعاً، فليس هناك من شيء يماثله – سبحانه وتعالى –: { لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ }، والفطرة تؤمن بهذا بداهة، فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه " [(٣)]، " فالله تعالى ليس كمثله شيء، ومن ثم يرتفع كل شبهٍ من الخصائص التي تتميز بها حياة الأشياء " [(٤)].

٤- ويقول في ظلال قوله تعالى: { وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ } [سورة الإخلاص:٤] ، " أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ

---

(١) المصدر السابق ٣/١٤١٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/١١١١.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٤٦ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٢٨٧ .

لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أي صفة من الصفات الذاتية، وهذا يتحقق بأنه " أحد ". " (١).

٥- ويقول: " إن الله سبحانه ذات واحدة، متفردة الصفات لا نظير لها ولا شبيه:

{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ} [سورة الإخلاص الآيات ١- ٤] .

{لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [سورة النحل:٦٠] .

{فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٧٤] .

{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [سورة الشورى:١١] .

{رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا} [سورة مريم:٦٥] . (٢)"

" وهكذا يمضي المنهج القرآني في توحيد الذات الإلهية، وفي تفردها بصفاتها كذلك، والقرآن كله معرض لهذا التوحيد

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٤ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص٢٤٤ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٩٥ .

والتفرد، فلا نملك نحن المضي في الاستشهاد به على كل صفة من صفات الله سبحانه " [١]. فسيد– رحمه الله – يؤكد فيما سبق على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين

وهناك نصوص أخرى أيضاً في تنزيه الله عمَّا لا يليق به سبحانه من الصفات والأحوال مثل:

تنزهه سبحانه عن الولد والصاحبة [٢]، وتنزهه عن السِنَةِ والنوم [٣]، وتنزهه سبحانه عما لا يليق بألوهية عموماً حيث يقول سيد – رحمه الله –: " فنحن على هُدَىً من الله ونور، نعرف طريقنا جيداً، ونسير فيها على بصرٍ وإدراكٍ ومعرفة، لا نخبط ولا نتحسس ولا نحدس، فهو اليقين البصير المستنير، ننزه الله – سبحانه – عما لا يليق بألوهيته، وننفصل وننعزل ونتميز عن الذين يشركون به " [٤].

الأساس الثاني: الإيمان بالصفات الثابتة وعدم التعرض لنفيها أو تأويلها

(١) مقومات التصور ص ٢٤٧ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٦٠ ، ٣/ ١٨٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ١/ ٢٨٧ ، ٦/ ٣٦٦٥ .

(٤) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٠٣٤.

وهذا هو الأصل الثاني عند أهل السنة والجماعة بعد التنزيه المطلق لله سبحانه، حيث يؤمنون بما ورد من أسماء الله وصفاته في الكتاب والسنة، ويثبتونها على الوجه اللائق به – سبحانه – دون التعرض لنفيها. وقد مر معنا أن النفي على مراتب وأقسام:

– منها نفي الأسماء والصفات وتعطيل الذات عنها، كما فعل غلاة الجهمية.

– ومنها نفي الصفات مع إثبات الأسماء على أنها أعلام محصنة تدل على الذات، كقول غلاة المعتزلة.

– ومنها نفي معاني الصفات وتأويل حقيقتها التي يدل عليها لفظ الصفة كقول المعتزلة سميع بلا سمع

– ومنها نفي بعض الصفات وإثبات البعض الآخر كما هو الحال عند بعض الأشاعرة.

ومن خلال استقراء كلام سيد – رحمه الله – في هذا الباب نجد أنه يثبت الأسماء والصفات لله سبحانه وتعالى.. وإن كان له كلام موهم أو تفسير لبعض الصفات خلافاً لتفسير أهل السنة والجماعة لها.. كما سيأتي إيضاحه – عند استعراض موقفه من كل صفة، إلا أنه من حيث الأصل يثبت ما ورد به الشرع من الصفات الإلهية على وجهها دون التعرض لنفيها،

ويمكن بيان موقفه من الإيمان بالصفات وإثباتها ونقده للنفاة وأهل التأويل فيما يأتي:

أولاً: موقف سيد قطب من إثبات الصفات وعدم التعرض لها بالنفي:

١ – يقررسيد – رحمه الله – أن الصفات الإلهية متعلقة بالذات، وأنها قديمة قدم الذات فيقول: " إن الله يمنح العباد من رعايته، ويفيض عليهم من رحمته، ويغمرهم بسابغ فضلة... لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته، لا لحاجته إليهم " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: { لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ } [سورة الأنبياء:١٧] ، يقول: " ولن يكون لأن الله لم يرده ابتداءً.. إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة، هي أن كل ما يتعلق بذات الله – سبحانه – قديمٌ لا حادث، وباقٍ غيرُ فانٍ... لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية " (٢).

٢ – يثبت – رحمه الله – الصفات بمعانيها الدالة عليها وما تتضمنه: فيقرر أن الله تعالى سميعٌ يسمع القول، بصيرٌ

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٩٣٧ بتصرف . .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧١- ٢٣٧٢ .

يرى، عليمٌ يعلم ما في القلوب والأفئدة، رحيمٌ استغرقت رحمته كل شيء.. وهكذا، خلافاً لمن نفى الصفة أو معناها من المخالفين لأهل السنة.

يقول – رحمه الله –: " ومع أنه ليس كمثله شيء، فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل، فهو يسمع ويبصر وهو السميع البصير، ثم يحكم حكم السميع البصير " (1). ويقول أيضاً: " إن لله سبحانه صفاته أو أسماءه الحسنى، ولكن البشر لا يملكون إدراك " كيفية " هذه الصفات، فهو سبحانه سميع يسمع، بصير يرى، عليم يعلم، ولكن البشر لا يدركون كيفية شيء من ذلك بالقياس إليه – سبحانه –، فالله ليس كمثله شيء " (2).

ويقول أيضاً مقدمة سورة الإسراء: " والسياق ينتقل في آية الافتتاح من صيغة التسبيح لله " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً " إلى صيغة التقرير من الله " لنريه من آياتنا " إلى صيغة الوصف لله " إنه هو السميع البصير "، وفقاً لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس، فالتسبيح يرتفع موجهاً إلى ذات الله سبحانه، وتقرير القصد من الإسراء يجيء منه تعالى نصاً،

---

(1) المصدر السابق ٤/ ٣١٤٦ .

(2) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٧٩ .

والوصف بالسمع والبصر يجيء في صورة الخبر الثابت ذاته الإلهية، وتجتمع هذه الصيغ المختلفة في الآية الواحدة لتؤدي دلالاتها بدقة كاملة ". " إنه هو السميع البصير " يسمع ويرى كل ما لطف ودق وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار " (١).

ويقول أيضاً: " إن هناك فارقاً بين الإنسان الذي يرى أن إلهه هو " الطبيعة " الخرساء الصماء... والإنسان الذي يعرف أن إلهه " الله " الحي الذي لا يموت، الصمد المقصود في الحاجات الرقيب الذي لا يغفل، الحسيب الذي لا ينسى العادل الذي لا يظلم، الرحيم الذي لا يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، إلى آخر صفات الله وأسمائه الحسنى " (٢).

وينقل عن أبي الحسن الندوي كلاماً حول أثر الإسلام في تغيير حياة العرب ذلك التغيير، ويرجع ذلك إلى أنهم: " آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢ ، وينظر أيضاً : ١/ ٢٦٥ ، ٢٩٢ ، ٤٦٨ ، ٣٥٠٦/٦ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٥٧

البـارئ، المصـور، العزيـز، الحكـيم، الغفـور، الـودود، الـرؤوف، الـرحيم، لـه الخلـق والأمـر، بيـده ملكـوت كـل شـيء، يجيـر ولا يجارعليه، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه " (١).

٣ – ينتقد منهج المعتزلة في نفيهم للصفات: بناءً على ما توهموه من أن إثبات الصفات يؤدي إلى إثبات قديمين، فيقول: " ولقد أبعد المعتزلة وهم ينفون الصفات عن الله – سبحانه – لئلا يتعدد القدماء لأن هذه الصفات إن كانت قديمة كذات الله تعدد القدماء!

فهذا قياس ذهني بحث لا يتعامل مع الواقع، ولا مع المنهج القرآني، فالله سبحانه قد وصف نفسه بصفاته، ومن هذه الصفات ما يقرر وحدانيته، وأزليته وأبديته وإحاطته – سبحانه – بكل شيء إلى آخر أسمائه الحسنى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد ١– ٣] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٦٣ : وكلامه الندوي ي كتاب " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار القلم الكويت – ط٢ عام ١٤٠٠، ص ٧١ ، وينظر أيضاً في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٦٨ .

{ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [سورة الحشر ٢٢- ٢٤] .

إنما تابع المعتزلة منطق " أرسطو "الذهني وتجريدات " أفلوطين " المهوّمة، ولم يتابعوا المنهج الإسلامي الأصيل، وكذلك فعلوا فيما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بعنوان " فتنة خلق القرآن " لئلا يكون القرآن قديماً فيتعدد القدماء، والبحث على هذا النحو بجملته غريب على الفكر الإسلامي، وعلى المنهج الإسلامي، فالقرآن وحي الله وكلامه وكفى.. " (١).

٤ - وأخيراً يقرر - رحمه الله - " أن الإيمان بما وصف الله به نفسه من الثوابت في العقيدة الإسلامية والتي لا يصح الإيمان إلا بها فيقول: " وكل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية وهي قاعدة التصور الإسلامي ثابت الحقيقة، وثابت المفهوم أيضاً.. حقيقة وجود الله، وسرمديته، ووحدانيته بكل إشعاعاتها - وقدرته

---

(١) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ٢٧٨ .

وهيمنته، وتدبيره لأمر الخلق، وطلاقة مشيئته، إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون والحياة والناس.

- وحقيقة أن الكون كله – أشياءه وأحياءه – من خلق الله وإبداعه.
- وحقيقة العبودية لله، عبودية الأشياء والأحياء..
- وحقيقة أن الإيمان بالله – بصفته التي وصف بها نفسه – وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره شرط لصحة الأعمال وقبولها وإلا فهي باطلة من الأساس " [١].

ففي هذه النصوص وغيرها كثير يثبت سيد قطب الصفات ومعانيها التي تتضمنه وأثرها في الحياة، وينتقد كل من تعرض لنفي الصفات سواءً من المتكلمين أو الفلاسفه.

ثانياً: موقف سيد قطب من التأويل:

١- **التأويل في اللغة:** مصدرمن آل يؤول أوْلاً، ومادته تدورعلى معانٍ منها: العودة والرجوع والتفسير، والعاقبة، والإصلاح، والخثور [١].

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص ٧٧ بتصرف ، وينظر أيضاً مقومات التصور الإسلامي ص ٢٦٠ .

وقد تكرر لفظ التأويل في القرآن الكريم ست عشرة مرة (١٦) في سبع (٧) سورٍ من القرآن الكريم[٢]، ومدلول التأويل في ما ورد من القرآن دائرٌ بين معنيين:

الأول: التفسير والبيان.

والثاني: العاقبة والمرجع والمصير.

وعلى هذين المعنيين سار المتقدمون من السلف ومن تبعهم في بيان معنى التأويل معتمدين على المعنى اللغوي والشرعي [٣].

١- **أما معنى التأويل في اصطلاح المتأخرين** فيعني: " هو رد الظاهر إلى ما إليه مآله في دعوى المؤول" [٤]، أو" هو

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ، دار العلم للملايين – بيروت- ط(٢ ، عام ١٩٨٧م ، ٤٨٢/٣ ، وتهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ٤٣٧. والصحاح للجوهري ٦٢٧/٤، والتعريفات ،للجرجاني ص ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ٧ ، والنساء ٥٩ ، والأعراف٥٣ ، ويونس ٣٩ ، ويوسف ٦ ، ٢١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ،٤٥ ، ١٠٠، ١٠١، والإسراء ٣٥ ، والكهف٧٨ ، ٨٢.

(٣) ينظر : تفسير الطبري ١٢٢/٣ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ، ٥٥/٣، ٥٦و ٣٥/٥ و ١٣/ ٢٨٨، وفتح الباري لابن حجر ٦٠٦/٨ ، والصواعق المرسلة لابن القيم ١٨/١ ، ١٨٣،

(٤) البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني دار الوفاء المنصورة ط٣ عام ١٤٢٠هـ ٣٣٦/١ .

عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي دل عليه الظاهر" (١).

وقيل هو: " صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى معنى آخر مرجوح أو غير مراد " (٢).

ومستندهم في تعيين ذلك المخالف للظاهر قد يكون المجاز، أو الاشتراك، أو غير ذلك مما يذكرونه في قوانين التأويل.

وهذا المعنى الذي اصطلح عليه المتأخرون لم يرد في لغة المتقدمين، ولا في نصوص القرآن أوالسنة، وبالتالي فهو يحتاج إلى عرضه على القرآن والسنة وعرف السلف الصالح، فما كان عليه دليل شرعي صحيح فهو تأويل صحيح يلحق بما سبق، وما خالف ذلك كان تأويلاً فاسداً.

يقول السبكي- رحمه الله -: " التأويل هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل لدليل فصحيحٌ، أو ما يظن دليلاً ففاسدٌ، أو لا لشيءٍ فعبثٌ لا تأويل " (٣).

---

(١) المستصفى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي دار الأرقم الكويت ط٣ عام ١٤٢٠هـ ٧١٣/١ وما بعدها ، وينظر : الإحكام للآمدي ٥٩٩/٣ .

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم ٧٩/١ .

(٣) جمع الجوامع ، للسبكي ، مطبعة الحلبي – القاهرة – ط٢ – ب . ت – ٥٣/٢ .

٣- تفسير سيد قطب لمعنى " التأويل " الوارد في الآيات القرآنية:

فسَّرسيد قطب لفظ التأويل الوارد في الآيات القرآنية بما لا يخرج عن المعنيين الذين ذكرهما أئمة التفسير قبله.

- فلفظ التأويل في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ} [سورة آل عمران:٧] ، وفي قوله تعالى: {ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [سورة النساء:٥٩] ، وفي قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ} [سورة الأعراف:٥٣]) وقوله تعالى: {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ} [سورة يونس:٣٩] ، وفي قوله تعالى: {هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ} [سورة يوسف:١٠٠] ، وفي قوله تعالى {ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [سورة الإسراء:٣٥] ، يعني عند سيد: " معرفة حقيقة الأمر ، وعاقبته ومآله الذي يصير إليه ويقع في النهاية " (١).

- ولفظ " التأويل " في قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ} [سورة يوسف:٦] . وقوله: {ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٦٩ ، ٦٩٢/٢، ١٢٩٤/٣ ، ١٧٩٤، ٢٠٢٩/٤، ٢٢٢٦ .

الكهف:٨٢] . يعني عند سيد: التفسير وبيان المعنى[١] ، وهو بهذا موافق لجمهور المفسرين من السلف [٢].

٤- موقف سيد - رحمه الله - من معنى التأويل في اصطلاح المتكلمين:

التأويل عند المتأخرين كما سبق هو: " صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى معنى مرجوح أو غير مراد "، وقد بنى المتكلمون هذا القانون على قاعدة تعارض العلوم الضرورية، وبالتالي وجوب تقديم العقلي منها على السمعي، يقول الرازي: " إن الظواهر النقلية إذا عارضت الدلائل العقلية لم يمكن تصديقهما ولا تكذيبهما، لامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما، ولا تصديق النقل وتكذيب العقل، لأن العقل أصل النقل، فتكذيبه - أي العقل - لتصديقه - أي النقل - يوجب تكذيبهما، فتعين تصديق العقل، وتفويض علم النقل إلى الله، أو الاشتغال بتأويل الظواهر " [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩٦٢، ١٩٧١ ، ٢٢٨١، وكذا استخدام لفظ التأويل بمعنى التفسير ٢/١٠٦٤ .

(٢) ينظر : تفسير الطبري ٦/٢٠٥ ، ١٢/ ٩٢ ، ١٥/٩٣، ١٨١ ، وتفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٩٠ ، ٢١٨٤ . ، وتفسير السعدي ، ١/٣٥٨ ، وأضواء البيان للشنقيطي ١/ ٢٣٦ ،وغيرها .

(٣) أساس التقديس للرازي ص ١٧٢ ، والمحصول للغزالي ص ٣١ .

وهذا القانون قد جعله المتكلمون فيما يستدل به من كلام الله ورسله، وردوا به نصوص الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، وأصبح العقل هو الأصل فيما يثبت من الصفات وما لا يثبت [١].

وقد انتقد سيد – رحمه الله – منهج المتكلمين والفلاسفة في تأويلهم للنصوص الشرعية، والأخبار والحقائق الغيبية بناءً على قانون تقديم العقل على النقل، ووضح في مواطن متفرقة خطأ ما هم عليه، ومن ذلك:

أ – <u>تقرير أن الأصل في بناء التصور الإسلامي هو الاستمداد من القرآن بدون تأويل للنصوص:</u>

حيث يقول: " إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره، وفي التصور الإسلامي وتكوينه، أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، <u>ولا ينفي شيئاً مما يثبته القرآن ولا يؤوله،</u> ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن ويبطله، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته، نقول هذا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/٥ .

بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن، وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم، وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود "(١).

ويقول: " وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها، وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه، وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور...

ويضرب أمثلة لذلك بقول الله تعالى: { إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ } [سورة الملك:٧ ٨] ، " فالتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم، ولكنه – فيما نحس – يقرر حقيقة، فكل خليقة من خلائق الله ذات روح من نوعها تعرف ربها، وتسبح بحمده، قال سبحانه: { تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ } [سورة الإسراء ٤٤] ، وقوله: { يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ } [سورة سبأ:١٠] ، وهي تعبيرات صريحة لا مجال فيها للتأويل.

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٧٣٠ – ٣٧٣١ .

وكــذلك جــواب الســماوات والأرض: {قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ } [سورة فصلت:١١] . يحتمـل أن يقـال فيـه أنــه مجـاز تصـويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لنـاموس الله، ولكن هذا التأويل لا ضرورة له، بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح " [١].

ب- نقده لمدرسة الشيخ محمد عبده ومن على منهجها في تأويلهم لبعض الأمور:

يقول سيد: " وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام لجزء (عمَّ) بهذه النظرة – تقدم العقل وتأويل النص تبعاً لما يدل عليه – تأثراً واضحاً، وتفسير تلميذه المرحوم الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربي لجزء " تبارك " حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل، وهو مبدأ خطر.. فليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني إلى " مقرراته " وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة فإننا ننتهي إلى فوضى ".

ويقول: " وما دام النص محكماً فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم، وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص " [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٦٣٤ – ٣٦٣٥ بتصرف .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ص ٢٠ .

ويقول ناقداً لكلامهم عن بعض الغيبيات كالملائكة والجن: " فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل، وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره، فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن، ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل، ومن ثم يرون الملائكة تمثيلاً لقوة الخير والطاعة، والشياطين تمثيلاً لقوة الشر والمعصية، والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة.. الخ، لأن في مقرراتهم السابقة – قبل أن يواجهوا القرآن – أن هذه المسميات: الملائكة والشياطين أو الجن، لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو، وأن تكون لها هذه الحركات الحسية، والتأثيرات الواقعية، من أين جاءوا بهذا؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث؟ " [(١)].

ويقول ناقداً لإقبال: " وكذلك واجه – إقبال – التصوف العجمي في البيئة الشرقية، وأراد أن ينفض عن الفكر الإسلامي الفناء والسلبية، لكن النتيجة كانت جموحاً في إبراز الذاتية

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠.

أضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه طبيعتها، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي " (١).

ومع ما سبق من نقد سيد قطب لمنهج المتكلمين في تقديم الدليل العقلي، وتأويلهم للنصوص القرآنية، إلا أن سيداً – رحمه الله – يعترف أنه وقع في بعض كتبه في التأويل لبعض النصوص حيث يقول بعد أن انتقد منهج المؤولة: " وما أبرئ نفسي أني فيما سبق من مؤلفاتي، وفي الأجزاء الأولى من هذه الضلال، قد انسقت إلى شيء من هذا – أي التأويل – وأرجو أن أتداركه في الطبعة الثانية إذا وفق الله، **وما أقرره هنا هو ما اعتقده الحق بهداية من الله** " (٢).

ثالثاً: تأويل الصفات الإلهية وموقف سيد قطب منه:

اتهم البعض سيداً بأنه مؤول لآيات الصفات، وبالتالي فهو: أشعري– جهمي– معتزلي– معطل(٣).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠ – ٢١ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣١ . هامش (١ .

(٣) ينظر :أضواء إسلامية للمدخلي ص١٧٤ والجماعات الإسلامية لسليم الهلالي ص ٢٠٨ والمفسرون للمغراوي ١٣٦٧/٣ .

وحتى يتبين لنا موقفه من الصفات الإلهية كان لا بد من جمع كلامه المتفرق حول الموضوع والخروج من ذلك بما يدل على موقفه من هذه المسألة، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١ - تبين لنا فيما سبق أن سيد قطب -رحمه الله- يرفض منهج المتكلمين في تأويل النصوص الشرعية وصرفها عن معناها الظاهر.

٢ - يظهر من خلال النصوص السابقة التي ينتقد فيها سيد منهج المؤولين أنه يرى أن الأصل عنده هو عدم تأويل النصوص وصرفها عن ظاهرها، فالأصل حمل النصوص على ظاهرها، ويشمل هذا نصوص الصفات وغيرها، وأن التأويل عنده إنما هو خلاف الأصل، ومن ذلك قوله: " وهي تعبيرات صريحة لا مجال فيها للتأويل " (١).

٣ - يظهر أيضاً من كلامه السابق أنه يفرق بين التأويل الصحيح والتأويل الفاسد فالتأويل الصحيح ما كان عن ضرورة تدعو إليه من أجل تنزيه الله سبحانه عن معنى لا يليق به في حال الأخذ بظاهر النص، ويكون التأويل إلى معنى قريب تحتمله اللغة وسياق النص، فعند كلامه عن جواب السماوات

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٤- ٣٦٣٥ .

والأرض {قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ} يرفض تأويله بمعنى الخضوع ويقول: " ولكن هذا التأويل لا ضرورة له، بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح " (١). أي القول الحقيقي.

ومن الأمثلة للتأويل السائغ في باب الصفات تفسيره لبعض الصفات بما يخالف المعنى الظاهر في سياق بعض الآيات مع إثبات الصفة في آيات أخرى في سياق آخر ومن ذلك:

أ – تفسيره للمعية في قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ} [سورة المجادلة:٧] ، بأنها معية العلم والمراقبة والإحاطة (٢). وهو نفسه المعنى الذي ذكره الإمام ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما (٣).

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٦٣٥ .

(٢) في ظلال القرآن٦/٣٥٠٨ .

(٣) انظر تفسير الطبري ١١/ ٥٥٣ ، وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٥٤

ب – تفسيره للأعين في قوله تعالى عن سفينة نوح: {تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا} [1]، بقوله " تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه "، وهو ما ذكره الإمام الطبري وابن كثير عن كثير من السلف[2].

ج – تفسيره لليد في قوله تعالى: {وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ }بأنهم أرادوا وصفه سبحانه بالبخل، فرد الله عليهم بأن {بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ} أي بالفضل والعطاء [3]، وهو أيضاً ما ذكره الإمام الطبري وابن كثير– رحمهما الله – [4].

فهو وإن فسر اليد بالعطاء إلا أنه لم ينكر صفة اليد الإلهية أو يؤولها سواءً في هذا السياق أو في غيره من الآيات، بدليل أنه قال في السياق نفسه " شاهدة باليد المبسوطة " فهو بيَّن معنى بسط اليد ولم يؤول الصفة [5]، وسيأتي مزيد بيان لموقف سيد من هذه الصفات وغيرها، بعد قليل.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٠ .

(٢) تفسير الطبري٤/٦٣٩ ، وتفسير ابن كثير ٨/٣٤٥٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩٢٩ .

(٤) تفسير الطبري ٤/ ٦٣٩– ٦٤٠ ، وتفسير ابن كثير٣/١٢٠١.

(٥) ينظر : في ظلال القرآن في الميزان ، د / صلاح الخالدي ص ١٢١– ١٢٥ .

٤- المواضع التي أوَّل فيها بعض الصفات كصفة الاستواء، لا نبرئه من التأويل الذي وقع فيه، لأنه قد اعترف بنفسه أنه قد أول في بعض المواضع من مؤلفاته ومن الظلال خصوصاً.

واعترافه بذلك وتقريره أن ما يعتقده هو عدم التأويل، وأنه سوف يتداركه في الطبعات الثانية إذا مدَّ الله في عمره، كافٍ في معرفة ما استقر عليه- سيد- في النهاية في مسألة تأويل الصفات، وأن كان الله لم يمد في عمره فيتدارك ويصحح ما أخطأ فيه – كما تمنى- فبقي الخطأ موجود كما هو بالإضافة إلى أن له كلاماً عاماً موهماً عن بعض الصفات حمله بعضهم على أن مقصده هو نفي تلك الصفات أو تأويلها، بينما له كلام آخر أكثر وضوحاً في إثبات تلك الصفات ومن ذلك كلامه حول اليد والرؤية غيرها مما سيأتي بيانه قريباً.

وبالتالي لا يصح إطلاق القول بأن سيداً ينفي الصفات ويؤولها بناءً على ما سبق بيانه.

<u>الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله:</u>

وهو الأساس الثالث من أسس توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة [1].

ذلك لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، فالله عز وجل لم يعرفنا ذلك، ولا عقولنا قادرة على الوصول إليها، وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا} [سورة طه: ١١٠] ، أي أنه لا تحيط علومهم بذاته ولا صفاته ولا بعلمه، فلا بد من اليأس من إدراك الكيفية، وبالتالي فلا يسأل عنها، والواجب الذي كلفنا باعتقاده هو الالتزام بما جاءت به النصوص الشرعية، وعدم تجاوز ذلك أو الخوض فيما لا علم لنا به ولا يمكننا إدراكه.

موقف سيد قطب – رحمه الله – من هذا الأصل:

باستقراء ما كتبه سيد حول هذا الأمر – قطع الطمع عن إدراك كيفيات ذات الله وصفاته وأفعاله – نجد أنه يقرر ما قرره أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وله نصوص كثيرة يصعب ذكرها هنا، منها:

١– يقول – رحمه الله –: " إن لله – سبحانه – صفاته، أو أسماءه الحسنى، ولكن البشر لا يملكون إدراك " كيفية

(١) الإتقان للسيوطي ٦/٢ وفتح القدير للشوكاني ، ٣/ ٤٨١ ، ومنهج ودراسات لآيات الصفات الشنقيطي ص ٣ .

" هذه الصفات، فهو سبحانه سميع يسمع، بصير يرى، عليم يعلم، ولكن البشر لا يدركون كيفية شيء من ذلك بالقياس إليه سبحانه، فالله ليس كمثله شيء، فلا يمكن أن يدرك البشر إذن كيفيات صفاته، ولا كيفيات أفعاله، وليس لهم أن يقيموا شيئاً من ذلك كله على ما يعرفونه من أنفسهم، أو من سواهم من خلق الله.

ولذلك كان الجواب الإلهي على كل من سأل عن كيفية فعله هو: { كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ }، ولم يكن بياناً لهذه الكيفية، لأنه سبحانه يعلم أن البشر بتكوينهم الذي فطرهم عليه لا يملكون إدراك هذه الكيفية " (١).

ثم استعرض سيد – رحمه الله – مجموعة من الآيات التي كان الجواب الإلهي فيها لمن سأل عن الكيفية هو { كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ } ومنها:

– قوله عن زكريا عليه السلام { قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ } [سورة آل عمران: ٤٠] .

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٩ .

- قوله تعالى عن مريم: {قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } [سورة آل عمران:٤٧] .

- قوله تعالى في قصة الذي مرَّعلى القرية وهي خاوية على عروشها: {قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ } [سورة البقرة:٢٥٩] .

- قوله عن إبراهيم عليه السلام: {وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ } [سورة البقرة:٢٦٠] .

وواضح أنه لا إبراهيم – عليه السلام – ولا الذي مَّرعلى القرية، قد أدرك " كيفية " فعل الله في الإحياء، إنما هو رأى مثلاً بارزاً على عملية الإحياء دون أن يعرف " كيف " وقع هذا – لأنه وهو بشر لا يملك أن يدرك هذه " الكيفية " على الإطلاق.

ومن ثم فإن كل محاولة لتصوير كيفيات فعل الله بقياسها إلى كيفيات أفعال الخلق، أو بالتصورات الذهنية باءت بالفشل، واضطر أصحابها إلى الخبط في التيه بلا دليل.

وقد حسم المنهج القرآني المسألة بقوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل:٤٠] " (١).

كما يقرر سيد – رحمه الله – في مواضع كثيرة، عدم الخوض في كيفيات صفاته وأفعاله سبحانه، والوقوف عند مدلولاتها، ومن ذلك:

- "عدم الخوض في كيفية اتصال الإرادة الإلهية بالكائن المراد صدوره عنها " (٢)، وفي " كيفية إحياء الله للألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت بعد إماتتهم وإحياء قتيل بني إسرائيل وإحياء طير إبراهيم " (٣)، وفي " كيفية النفخة الإلهية (٤)، وفي " كيفية الوزن وطبيعة الميزان " (٥).

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٩- ٢٨٠ .
(٢) انظر في ظلال القرآن ١/ ١٠٦- ١٠٧ .
(٣) المصدر السابق ١/٢٦٤ ، ٨٠ ، ٣٠٢ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٩٧ .
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٢٦١ .

وفي " كيفية أخذ الميثاق في عالم الذر " (١)، وفي " كيفية فعل الملائكة في بدر" (٢)، وفي " كيفية كلام الله لموسى " (٣)، وغيرها، حيث يقرر أن مثل هذه الأمور التي أخبر الله عنها يجب الإيمان والتسليم بها دون الخوض في محاولة معرفة كنهها وكيفيتها.

لماذا يجب قطع الطمع عن إدراك الكيفية؟

يجيب سيد قطب عن ذلك بقوله: " لأن إدراك الماهية والكيفية سر من أسرارالألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانيين وإن يكن في طرق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ به " (٤).

" وهذا السر لم يكشف للإدراك البشري – لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه.. لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها، وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى، ولقد ضربت

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٩٣/٣ .

(٢) المصدر السابق ١٤٨٢/٣– ١٤٨٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٣٣٠/٤ .

(٤) المصدر السابق ٨٠/١ .

الفلسفات في تيهٍ لا منارة فيه وهي تحاول كشف هذه الأسرار، وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتياد، فتجئ هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها إلى حدٍ يحير الإنسان وما ذلك إلا أن أصحابها حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوز به نطاق المقدور له، فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه، بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله.

وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل.. ولما حاول بعض المتأثرين بالفلسفة الإغريقية أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى باءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته، وهذا هو المصير المحتوم للعقل البشري وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه " " فالكيفية غير معلومة للإدراك البشري، لأنها فوق طاقته، فمن العبث إنفاق الطاقة في إكتناه هذا السر، والخبط فيه بلا دليل " [1].

(١) المصدر السابق ١/ ١٠٦– ١٠٧ بتصرف يسير، وينظر أيضاً ١/ ٣٦٩، ١٢٦١/٣ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ٤٩.

ويقول أيضاً: " فميزة هذا التصور – أي التصور الإسلامي – المنبثقة من خاصية الربانية أنه يلبي الكينونة الإنسانية بجملتها، ويدخل كذلك في دائرة إدراكها، والذي لا تدركه منه إدراك ماهيةٍ وحقيقةٍ، أو إدراك عِلِيَّةٍ وكيفيةٍ، لا يتعذر عليها التسليم به في طمأنينة، لأنه داخل في مفهوم منطقها المعقول، منطقها الذي يسلم بالحقيقة البسيطة: حقيقة أن المجال الذي يتناوله هذا التصور، بما فيه من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها، وفي تعلق إرادة الله بالخلق وكيفيته أكبر وأوسع من الكينونة الإنسانية بجملتها، وبالتالي فلا قدرة للكينونة البشرية بجملتها على العمل خارج حدودها" (١).

ويقول أيضاً: " إن عقيدة التوحيد الإسلامية لا تدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، ومن ثم لا مجال للتصور البشري لينشئ صورة عن ذات الله، فكل التصورات البشري إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء، فإذا كان الله سبحانه – ليس كمثله شيء – توقف التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى،

---

(١) خصائص التصور ٤٨- ٤٩ بتصرف ، وينظر أيضاً ص ١٢٠، ١٢٩ ، ومقومات التصور ص ٢٧٢ .

ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعاً، ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار الأفعال في الوجود من حوله وهذا هو مجاله، ومن ثم تصبح أسئلة كهذه: كيف خلق الله السماوات والأرض؟ كيف استوى على العرش، كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه؟ تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغواً يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي، أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداءً.

ولقد خاضت الطوائف – مع الأسف – في هذه المسائل خوضاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية " (١)، " وكل من أراد من البشر بيان الكيفية تخبط وخلط، لأنه قاسها على كيفيات عمل الإنسان– وشتان شتان" (٢).

" فإذا تقرر ذلك: فإن الجدل في الله تعالى سواء في وجوده أو وحدانيته أو في قدرته أو في علمه أو في صفة ما من صفاته، يبدو عجيباً من ذي عقلٍ وقلب،.. وما كان الجدل

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٩٦/٣ ، وينظر أيضاً ٣/ ١٣٩٣ ، وخصائص التصور ص ١٤٧ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ص ٥٠ .

الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين حول ذلك إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى عند مخالطتها للعقلية الإسلامية الناصعة.

وما كان لنا نحن اليوم أن نقع في هذه الآفة، فنفسد جمال العقيدة، وجمال القرآن بقضايا علم الكلام [(١)].

(١) ينظر : في ظلال القرآن ١/ ٥٣ ، ٤/ ٢٤٠٨ بتصرف .

المبحث الثالث

منهجه في إثبات الأسماء الحسنى

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

الأسماء الحسنى وموقف الناس منها

من الإيمان بالله تعالى الإيمان بأسمائه الحسنى، حيث لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم ولا صفحة من صفحاته من ذكر اسمٍ أو أكثر من أسمائه تعالى، وقد جاء إثبات الأسماء الحسنى لله في القرآن الكريم مجملاً ومفصلاً، فالمجمل كقوله تعالى {وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا} [سورة الأعراف:١٨٠] ، وقوله {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ} [سورة طه:٨] ، والمفصل كقوله: {هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [سورة الحشر الآيات ٢٢ – ٢٤] .

بل إن كثيراً من الآيات القرآنية تختم بأسمائه الحسنى كقوله: {وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [سورة البقرة:٢٦٣] ، وقوله {فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة المائدة:٣٤] ونحوها.

وفي السنة الشريفة مثل ما في القرآن الكريم من ذكر أسماء الله تعالى ونسبتها إليه، ومع ذلك فقد اختلفت الطوائف في أسماء الله تعالى بين مثبتٍ ونافٍ وملحدٍ فيها وفي معانيها.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى وما دل عليه من معانٍ وأحكامٍ (١).

(١) ينظر في ذلك :شرح الأسماء الحسنى ،لمحمد بن عمر الرازي ،مكتبة الكليات الأزهرية ،طبعة عام ١٩٧٦ ،ص٢٩ و رد الدارمي على بشر المريسي، طبعة باكستان ،عام ١٤٠٢ هـ، تحقيق :الفقي ص ٧ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص ٢٠٠ ومقالات الإسلاميين للأشعري ٢٦١/١ والأسماء والصفات للبيهقي ٢٥/١ ، والتوحيد لابن منده ١٤/٢ . وشأن الدعاء للخطابي ص ١١١ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١٧٠/١ .

المطلب الثاني

منهج سيد قطب في الأسماء الحسنى

كان سيد قطب – رحمه الله – في هذا الباب متبعاً لمنهج أهل السنة والجماعة، حيث يثبت لله الأسماء الحسنى، وما دلت عليه من معانٍ وأحكام وبيان ذلك في الفروع الآتية:

الفرع الأول: إثبات الأسماء الحسنى وما دلت عليه من معانٍ:

يقول سيد: " إن لله سبحانه صفاته، أو أسماءه الحسنى، ولكن البشر لا يملكون إدراك كيفية هذه الصفات فهو سبحانه سميع يسمع، بصير يرى، عليم يعلم " (١).

ويبين أن سِرَّ عظمة الرعيل الأول يكمن في " أنهم آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، العزيز، الحكيم، الغفور، الودود، الرؤوف، الرحيم.. " (٢).

وفي ظلال قوله تعالى: { هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ } [سورة الحشر ٢٢] ، يقول: "

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٧٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣١٦٣ .

وهذه الأسماء واضحة الآثار في صميم هذا الوجود وفي حركته وظواهره.. ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر في هذا الكون ملحوظ، وأثر في حياة البشر ملموس، فهي توحي إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات، فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء، وليست هي صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود " (١).

ويستعرض سيد كثيراً من الأسماء موضحاً معانيها، وأثر هذه المعاني التي يجب استحضارها في الحياة والإيمان بها وتدبرها، والعمل وفق إيحاءاتها في مواضع متفرقة (٢).

الفرع الثاني: أسماء الله توقيفية:

مذهب أهل السنة والجماعة أن أسماء الله تعالى توقيفية لا يتجاوز فيها التوقف، ولا يستعمل فيها القياس" (٣)، مع ملاحظة أن باب الإخبار عن الله ليس توقيفياً، فيجوز الإخبار عنه بأنه قديمٌ، وشيءٌ، وموجودٌ، ونحو ذلك، لأن باب الإخبار عن الله أوسع من باب الصفات، أي أننا نخبر عن الله بأخبار

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٣٢ .

(٢) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٦/ ٣٠٦٨ ، ٣٥٣٢ ، ٣٥٣٣ ، ٤٠٠٤ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٩٣.

(٣) شأن الدعاء للإمام الخطابي ص ١٠١ .

لا نشتق منها صفات: كالشيء والموجود ونحوها، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، فليس كل ما صح صفةً صح اسماً، كالنازل والضاحك ونحوها مع أنها صفات وُصِفَ الربُ بها [١].

وخالف بعض المعتزلة فقالوا: بإثبات الأسماء بالقياس وما دل عليه العقل ولو لم يرد به نص " [٢].

ويقرر سيد – رحمه الله – هذا الأمر موضحاً أن أسماء الله وصفاته وما يتعلق به سبحانه لا يستقي إلا من مصدر الوحي وأنه لا يسمى سبحانه إلا بما سمى به نفسه، ففي معرض رده على أحد العلماء الغربيين[٣] عندما وصف الله سبحانه بأنه: " العقل اللانهائي " الذي " استطاع أن يدرك ببالغ حكمته "، يقول سيد – رحمه الله –: " هذا التعبير " العقل النهائي " راسبٌ من رواسب الفلسفة، يستخدمه الرجل لأنه من

---

(١) التوحيد لابن منده ٤/٢، والأسماء والصفات للبيهقي ٢٥/٩، وبدائع الفوائد لابن القيم ، ١/ ١٦٠– ١٦٢، وشرح الأصفهانية لابن تيمية ص ٢٩ .

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري ٢/ ٢٠٦ – ٢٠٧ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٣٧، وشرح الأسماء للرازي ص ٣٦.

(٣) وهو " فرانك آلن " أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا .

رواسب ثقافته، والمسلم لا يعبر عن الله – سبحانه – إلا بما سمى به نفسه من أسمائه الحسنى " (١).

ويقول أيضاً: " إن معرفة الله – سبحانه – في التصور الإسلامي تبدأ من نبذ كل الصور التي انبثقت ابتداءً من تصورات البشر وأوهامهم عن ذات الله – سبحانه وصفاته، لتستقي مباشرة من تعريف الله لعباده بذاته وصفاته، وخصائصه وأفعاله، وهي تُتلقى من هذا المصدر وحده ولا تتلقى من مصدر آخر غيره" (٢)، " وهذا مما يتميز به التصور الإسلامي عن غيره فهو تصور رباني، ليس لبشر أياً كان فيه عمل، وحتى رسل الله جميعاً عملهم تلقي هذا التصور ونقله النقل الدقيق والتبليغ الأمين إلى البشر " (٣).

تنبيه: من المآخذ التي ذكرها الشيخ الدويش – رحمه الله – على سيد أنه سمى الله بما لم يسم به نفسه حيث سماه " الحقيقة الكبرى" (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٥٥ . الهامش ٣ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٢٠٠ – ١٠١ .

(٣) خصائص التصور الإسلامي ص ٤٦ بعد ذلك .

(٤) المورد الزلال للدويش ٢٣٤ .

والـذي يظهـر لـي مـن خـلال قـراءة سـياق الكـلام: أنـه يتحدث عن منهج القرآن في غرس الحقائق الاعتقادية، حيث ذكـر– سـيد – حقيقـة طلاقـة المشـيئة الإلهيـة، وحقيقـة الوجـود الحقيقي، وحقيقة العلم المحيط، ثم يقرر أن استقرار هذه الحقائق فـي القلـب يجعلـه، لا يحتفل بشـيء فـي الكـون غيـر الله، فكل شـيء لا حقيقـة لـه، ولا وجـود إلا مـا يسـتمده مـن تلـك الحقيقـة الكبرى، أي حقيقة الوجود الإلهي، بدليل أنـه قال بعدها " وكل شـيءٍ وهمٌ ذاهب " حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله المتفرد بكل مقومات الكينونة والبناء " (١).

الفرع الثالث: أسماء الله كلها حسنى.

أخبـر الله سـبحانه أن أسـماءه كلهـا حسـنى فقـال: {وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا } [سـورة الأعـراف:١٨٠] ، وقـال: {لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ} [سورة الحشر:٢٤] ، " والحسـنى تأنيث الأحسـن، أي: التـي هـي أحسـن الأسـماء لـدلالتها علـى أحسـن مسـمى

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٩ بتصرف .

وأشرف مدلول " [1]، فـ" لله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات " [2].

ويقرر سيد قطب هذا الأصل في ظلال قوله تعالى: {لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ }، فيقول: " الحسنى في ذاتها، بلا حاجة إلى استحسان من الخلق، ولا توقف على استحسانهم،

والحسنى: التي توحي بالحسن للقلوب وتفيضه عليها، وهي الأسماء التي يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها إذ يعلم أن الله يُحب له أن يتصف بها، وأن يتدرج في مراقيه وهو يتطلع إليها " [3].

الفرع الرابع: الإلحاد في أسماء الله:

يقول سيد – رحمه الله – في ظلال قوله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ } [سورة الأعراف:١٨٠] : " والإلحاد: هو الانحراف أو التحريف، وقد حرَّف المشركون في الجزيرة أسماء الله

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٢٣ .

(٢) تفسير المنار ، لرشيد رضا ٣٧٦/١ دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١ عام ١٤٢٣هـ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٣٣– ٣٥٣٤ .

الحسنى، فسموا بها آلهتهم المدَّعاة، حرفوا اسم " الله " فسموا به " اللات " واسم " العزيز " فسموا به " العزى ".. فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنى لله وحده، وتأمر أن يدعوه المؤمنون وحده بها، دون تحريف ولا ميل، وأن يَدَعُوا المحرفين المنحرفين، فلا يحفلوهم ولا يأبهوا لما هم فيه من الإلحاد، فأمْرُهم موكولٌ إلى الله، وهم ملاقون جزاءهم الذي ينتظرهم منه، وياله من وعيد!

وهذا الأمر بإهمال شأن الذين يلحدون في أسماء الله، لا يقتصر على تلك المناسبة التاريخية، ولا على الإلحاد في أسماء الله بتحريفها اللفظي إلى الآلهة المدعاة، إنما هو ينسحب على كل ألوان الإلحاد في شتى صوره! ينسحب على الذين يُلْحِدون – أي يحرفون أو ينحرفون – في تصورهم لحقيقة الألوهية على الإطلاق، كالذين يدَّعون له الولد، وكالذين يدَّعون له كيفيات أعمالٍ تشبه كيفيات أعمال البشر، وهو سبحانه ليس كمثله شيء.

وكذلك من يدَّعون أنه سبحانه إلهٌ في السماء، وفي تصريف نظام الكون وفي حساب الناس في الآخرة، ولكنه ليس إلهاً في الأرض، ولا في حياة الناس – فليس له – في زعمهم – أن يشرِّع لحياة الناس، إنما الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم

بعقولهم، وتجاربهم ومصالحهم – كما يرونها هم – فالناس – في هذا – هم آلهةُ أنفسهم، أو بعضهم آلهةُ بعض!.

وكله إلحاد في الله وصفاته وخصائص ألوهيته، والمسلمون مأمورون بالإعراض عن هذا كله وإهماله، والملحدون موعودون بجزاء الله لهم على ما كانوا يعملون " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣/ ١٤٠٢ .

المبحث الرابع

منهجه في إثبات الصفات تفصيلاً

توطئة:

سبق معنا في المبحث الثاني من هذا الفصل أن سيداً – رحمه الله – يقرر الأسس التي قررها أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات وهي: تنزيه الله عن مشابهة الخلق، وإثبات الأسماء والصفات الواردة في النصوص الشرعية، وقطع الطمع عن إدراك الكيفية.

وعرفنا موقفه من نفي الصفات وتأويلها، حيث نقد نفاة الصفات والمؤولين أيضاً، واعترف أنه وقع في التأويل، ولكنه في نهاية الأمر رجع إلى رفض التأويل، وقرر أن هذا هو ما يعتقده، وأوضح رغبته في أن يمد له في العمر فيأتي على ما أوَّله ويصلحه.

عند النظر في اتهام البعض لسيد قطب – رحمه الله – بأنه من نفاة الصفات والمؤولين نجد أن كلامهم في ذلك يقوم على أحد أمور ثلاثة:

١- إما كلام لسيد – رحمه الله – ذو طابع أدبي موهم، فهم منه البعض نفي الصفة أو تأويلها، مع أن له كلاماً آخر حول نفس الصفة صريحاً وواضحاً في إثباتها على منهج

أهل السنة، ومن أمثلة ذلك كلامه حول الرؤية واليد – وسيأتي بيانه –.

٢- تأويله لبعض الصفات في سياق معين يقتضيه تنزيه الله عز وجل وقد قال به علماء من أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً، مثل تأويل المعية من معية ذات إلى معية علمٍ، وتأويل العين في قوله تعالى {تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا}، بالرعاية والحفظ والملاحظة، ونحو ذلك مما سيأتي الحديث عنه مفصلاً.

٣- تفسيره لبعض الصفات بمعنى مخالف لما فسرها به السلف، مما جاء في اللغة، كتفسيره للاستواء بالهيمنة والاستعلاء، وهذا يندرج تحت القسم الذي اعترف هو أنه " وقع في تأويله " ولم يقر له البقاء حتى يصححه كما تمنى.

وسأعرض في هذا المبحث موقف سيد قطب ومنهجه في إثبات الصفات تفصيلاً حتى تتضح الرؤية لمنهجه في هذا الباب وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

أقسام الصفات الإلهية

الصفات الإلهية التي وردت في الكتاب والسنة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: صفات ذاتية: وهي الصفات المتعلقة بذاته سبحانه وتعالى، التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، ولا تنفك عنه سبحانه، بل هي لازمة لذاته أزلاً وأبداً، ولا تتعلق بها مشيئته وقدرته وهي من حيث ثبوتها قسمان:

١- **عقلية:** وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي والدليل العقلي والفطرة، كصفة الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والملك، والعظمة، والسمع، والبصر، ونحوها.

٢- **خبرية:** وهي التي تثبت بطريقة السمع والخبر، ولا سبيل للعقل على انفراده بإثباتها، كصفة الوجه واليدين والعين.

القسم الثاني: صفات فعلية: وهي الصفات المتعلقة بمشيئته سبحانه وقدرته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وهي من حيث ثبوتها قسمان:

١- عقليــة: كالخلق والرزق، والإحياء، والإماتة وأنواع التدبير المختلفة.

٢- خبريـة: كالاستواء والمجيء والنزول والرضا والمحبة والبغض ونحوها.

ومن الصفات ما هو ذاتي فعلي باعتبارين كصفة الكلام، فإنه باعتبار أصل الصفة، صفة ذاتية، لأنه تعالى لم يزل ولا يزال متصفاً بصفة الكلام، وباعتبار أحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام متعلق بمشيئته تعالى فيتكلم بما شاء متى شاء " (١).

وفي المطالب الأتية بيان للصفات التي تكلم عنها سيد قطب – رحمه الله –:

المطلب الثاني

الصفات الذاتية العقلية

في هذا المطلب بيان لحقيقة الصفات الذاتية العقلية وموقف الفرق منها، وكذا موقف سيد قطب – رحمه الله – وذلك في الفروع الآتية:

---

(١) ينظر تقسيم الصفات في : الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ١٨٨ ، وشرح الواسطية لهراس ص ٨٩ ، ٩٩ .

الفرع الأول: صفة الحياة:

صفة الحياة من الصفات الذاتية التي يثبتها أهل السنة والجماعة لله تعالى، وهي حياة حقيقية لائقة بكماله وجلاله سبحانه، تباين المخلوقين من كل وجه، وهي مستلزمة لجميع صفات الكمال [(١)]. وقد ورد وصف الله تعالى بها في كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

أما المخالفون لأهل السنة والجماعة، فإنهم ينفون هذه الصفة أو يؤولونها.

- فالجهمية: لا يصفون الله تعالى بأنه حي، لأن ذلك – كما زعموا – تشبيه له بالأحياء[(٢)].
- والمعتزلة: يجعلونها صفة غير زائدة عن الذات، فهو حي بحياةٍ وحياته ذاته، كما أنه عندهم عالم وعلمه ذاته [(٣)].

* صفة الحياة عند سيد قطب:

أما سيد قطب – رحمه الله – فقد وقف في ظلال الآيات التي جاء فيها ذكر صفة الحياة لله مقرراً ما عليه أهل السنة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٩٠ .

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري ١/ ٣٣٨ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢١١-٢١٢ .

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٨٢ .

والجماعة من إثباتٍ لهذه الصفة الذاتية على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته.

١ – في ظلال قوله تعالى: { ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ } [سورة البقرة:٢٥٥] ، يقول سيد: " والحياة التي يوصف بها الإله الواحد هي: الحياة الذاتية التي لم تأتِ من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله – سبحانه – بالحياة على هذا المعنى، كما أنها الحياة الأزلية الأبدية، التي لا تبدأ من مبدأ، ولا تنتهي إلى نهاية.

فهي متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية، ومن ثم يتفرد الله – سبحانه – كذلك بالحياة على هذا المعنى.

ثم إنها هي الحياة المطلقة من الخصائص التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة، فالله – سبحانه – ليس كمثله شيء، ومن ثم يرتفع كل شبهٍ من الخصائص التي تتميز بها حياة الأشياء، وتثبت لله صفة الحياة مطلقة من كل خصيصة تحدد معنى الحياة في مفهوم البشر، وتنتفي بهذا جميع المفهومات الأسطورية التي جالت في خيال البشر " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٧.

٢ - في ظلال قوله تعالى: { ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ } [سورة آل عمران:٢] ، يقول سيد: " الحي الذي يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كل قيد، فلا شبيه له في صفته " [(١)].

٣ - في ظلال قوله تعالى: {هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [سورة غافر:٦٥] ، يقول سيد: " أجل هو وحده الحي، الحي حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة، وغير مبتدئة ولا منتهية، وغير حائلة ولا زائلة، وغير متقلبة ولا متغيرة، وما من شيء له هذه الصفة من الحياة، سبحانه هو المتفرد بالحياة " [(٢)]، " وهو وحده الحي الذي لا يدركه سبحانه فناء ولا عدم " [(٣)].

وما ذكره سيد في النصوص السابقة هو ما عليه أهل السنة والجماعة في هذا الباب.

الفرع الثاني: صفة القيومية:

صفة القيومية عند السلف تدل على معنى الأزلية والأبدية، وعلى كونه موجوداً بنفسه، وعلى إقامته لغيره مع كمال غناه وقدرته [(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٩٤ ، وينظر أيضاً ٥/ ٢٥٧٥.

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٤٥ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٥٧ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٨٩- ٩٢ .

صفة القيومية عند سيد قطب: يثبت سيد قطب هذه الصفة بمعناها عند السلف فيقول: " وأما صفة القيوم فتعني قيامه – سبحانه – على كل موجود، كما تعني قيام كل موجود به، فلا قيام لشيء إلا مرتكزاً إلى وجوده وتدبيره، لا كما كان أكبر الفلاسفة الإغريق – أرسطو– يتصور أن الله لا يفكر في شيء من مخلوقاته، لأنه تعالى أن يفكر في غير ذاته!! ويحسب أن هذا التصور تنزيهاً لله وتعظيماً، وهو يقطع الصلة بينه وبين هذا الوجود الذي خلقه، فالتصور الإسلامي تصور إيجابي لا سلبي، يقوم على أساس أن الله – سبحانه – قائم على كل شيء، وأن كل شيء قائم في وجوده على إرادة الله وتدبيره، ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شيء من حوله مرتبطاً بالله الواحد، الذي يصرف أمره، وأمر كل شيء حوله، وفق حكمةٍ وتدبير، وقوله تعالى بعد ذكر صفة القيومية: {لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ }توكيد لقيامه – سبحانه – على كل شيء وقيام كل شيء به، ولكنه في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم، في الوقت الذي تعبر فيه، عن مخالفة الله سبحانه لكل شيء {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ }وهي

تتضـمن نفـي السِـنَةِ الخفيفـة، أو النـوم المسـتغرق، وتنزهـه – سبحانه – عنها إطلاقاً " (١).

ويقول أيضاً: " { ٱلْقَيُّومُ } الذي به تقوم كل حياة، وبه يقوم كل وجود، والذي يقوم كذلك على كل حياة، وعلى كل وجود، فلا قيامٌ لحياة في هذا الكون ولا وجودٌ إلا به سبحانه " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٥

الفرع الثالث: صفة العلم:

صفة " العلم " من الصفات الذاتية التي يثبتها أهل السنة والجماعة لله عز وجل – بناءً على ما جاء من نصوص شرعية في القرآن والسنة، وهي صفة بها أحاط الله بجميع المعلومات على ما هي عليه، فلا يخفى عليه شيءٌ من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلى، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك، كما قال سبحانه: {لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق:١٢] . (١).

<u>أما المخالفون لأهل السنة طائفتان:</u>

<u>١) النفاة:</u> وهم قسمان:

أ – الجهمية: الذين أنكروا الصفات عموماً (٢).

ب– المعتزلة: الذين أثبتوا الاسم ونفوا الصفة كمذهبهم في سائر الصفات الإلهية لأن إثباتها عندهم يوجب – بزعمهم – تعدد القدماء متأثرين في ذلك

---

(١) ينظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٢٤ –١٢٦ ، والتوحيد لابن خزيمة، ص ٩ ، والرد على الجهمية للدارمي ص ٢٠٨ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شباله ، ص ٦٢٨ .

(٢) ينظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢١١ ، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ٧٣ .

بالفلاسفة فقالوا: إن الله عالم قادر حي بنفسه، لا بعلمٍ وقدرهٍ وحياةٍ " (١).

٢) الغلاة: ومن أشهر طوائفهم الرافضة (٢)، والباطنية (٣)، وغلاة الصوفية القبورية (٤)، الذين وقعوا في الشرك بإثبات صفة العلم المحيط والمطلق لغير الله تعالى، حيث تطفح كتبهم في وصف الأئمة والأولياء بصفة العلم المطلق الذي لا يكون إلا الله سبحانه.

- **صفة العلم عند سيد قطب**: يثبت سيد قطب– رحمه الله – صفة العلم المحيط المطلق لله وحده، مستنداً في إثباتها إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وبيان ذلك فيما يأتي:

---

(١) ينظر :شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٦٢ – ١٦٣ ، والمقالات للأشعري ١/ ٢٤٤ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٥، والحيدة ، لعبد العزيز المكي ص ٥٥ .

(٢) ينظر : أصول الكافي للكليني تحقيق محمد جواد الفقية ، دار الأضواء بيروت ط١ عام ١٩٩٦م : ١/ ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ودلائل الإمامة لأبى جعفر الطبري الشيعي المطبعة الحيدرية النجف طبعة عام ١٣٦٩هـ ص ٦٧.

(٣) ينظر : تأويل الدعائم للقاضي نعمان بن محمد الإسماعيلي ١٤٥/١ ، والمجالس المؤيدية للشيرازي ص٤٤١ .

(٤) ينظر : شرح المواهب للزرقاني ٨/ ٣٠٥،والإنسان الكامل للجيلي ٣/ ٩٧، والطبقات الكبرى للشعراني ١٥٠/٢ .

١- إيجاد المخلوقات يستلزم اتصافه سبحانه بالعلم، فيستحيل إيجاد المخلوقات مع الجهل:

يقول سيد- رحمه الله -: " إن هذا الوجود من الدقة والتقدير، بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه، محسوب حسابه في كيانه، لا مكان فيه للمصادفة، ولا شيء فيه جزاف وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقدور. وفي علم الله لا شيء ماضٍ ولا شيء حاضر ولا شيء قادم، فتلك الفواصل الزمنية إنما هي معالم لنا.. نرى بها حدود الأشياء... فأما الله سبحانه فهو الحقيقة المطلقة التي تطلع جملة على هذا الوجود، بلا حدود ولا قيود، وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة بلا حدود فيه ولا فواصل من زمان أو مكان، ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله " (١).

٢- " أنه لا بد من العلم المحيط لإقامة ميزان الحق في الحياة: فما دام أن الاختلاف قائم في الحياة فلا بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون، وحكم عادل يرجع إليه

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٩ ، ١/ ٢١٧ بتصرف يسير.

المختصمون، وقول فصل ينتهي عنده الجدل، وهو ما بعث الله به النبيين وأنزل به الكتب...

وإقامة ذلك الميزان الثابت تقتضي علماً غير محدود، علم ما كان وما هو كائن وما سيكون، علمه كله لا مقيداً بقيود الزمان التي تفصل الوجود الواحد إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، وإلى مستيقن ومظنون ومجهول، وإلى حاضر مشهود ومغيب مخبوء، ولا مقيداً بقيود المكان التي تفصل الوجود الواحد إلى قريب وبعيد، ومنظور ومحجوب، ومحسوس وغير محسوس، في حاجة إلى إله يعلم ما خلق، ويعلم من خلق، ويعلم ما يَصْلُح وما يُصْلِح حال الجميع " [(١)].

٣- أن علم الله محيط وشامل لكل شيء: " فالله يعلم ما يكون قبل أن يكون " [(٢)]، " ويعلم ما يكون علمه بما هو كائن" [(٣)] وهو سبحانه " يسمع القول ويعلم ما وراءه، كما يعلم مكنون القلوب " [(٤)].

" فإثبات صفة العلم المطلق لله سبحانه وتعالى يتفق مع وحدانية الله – سبحانه – وقوامته " [(١)] يقول سبحانه {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢١٦-٢١٧ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٣٢ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٣ .

(٤) المصدر السابق ٢٦٥/١ ، ٢٩٢ .

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ } [سورة البقرة:٢٥٥] ، وهذه الحقيقة بطرفيها تساهم في تعريف المسلم بإلهه، وفي تحديد مقامه هو من إلهه، فالله يعلم ما يبن أيدي الناس وما خلفهم، وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصي لكل ما حولهم، فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم، ويشمل غيبهم الذي كان ومضى، والذي سيكون وهو عنهم محجوب، ويشمل ما يعلمونه من الأمور وما يجهلونه في كل وقت، فهو تعبير يفيد شمول العلم وتقصيه، أما هم فلا يعلمون شيئاً إلا ما يأذن لهم الله أن يعلموه، وحقيقة علم الله الشامل من شأنه أن يحدث في النفس رجة وهزة، ويقفها عارية في كل لحظة أمام بارئها... إنه – سبحانه – هو الذي يعلم وحده كل شيء علماً مطلقاً شاملاً لدنيّاً " (٢)، " يشمل من في السموات والأرض من ملائكة ورسل وإنس وجن وكائنات لا يعلم إلا الله ما هي" (٣).

" ويرسم القرآن صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان في الأرض ولا في

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٣٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٩ ، ٢/٩٨٠، ٢/١١٠٨، ١١٣٥، ١٤٠١، ١٣٦٠، ١٨٤٨، ٢٣٢٨.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٤ .

السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو من حي وميت، ويابس ورطب بقوله سبحانه { وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ } [سورة الأنعام:٥٩] " (١). " إنه تصوير إلهي، للعلم الإلهي، في مطارح وآماد لا يتجه إليها خيال البشر إذا خطر لهم أن يصوروا شمول العلم الإلهي " (٢)، " إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود، وأن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد في كل فجٍ وواد، وهو يرتاد – أو يحاول أن يرتاد – أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل.. مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر، وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من الأشجار لا يحصيها عدٌ، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل

---

(١) في ظلال القرآن ، ١١١١/٢.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ .

حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب ويابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط.. إنها جولة تدير الرؤوس تذهل العقول، جولة في آماد من الزمان وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول... والفكر البشري لا يخطر له هذا الشمول والتتبع لمظاهر علم الله المحيط الشامل ولا يتأتى له.. ومن صور شمول العلم الإلهي قوله تعالى: { يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا } [سورة سبأ:٢] " (١).

وصورة أخرى لعلم الله الشامل المرهوب يمثلها قوله تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ } [سورة هود:٦] ، فهذه الدواب – وكل ما يتحرك على الأرض فهو دابة – من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة، ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة، وتكمن في باطنها، وتخفى في دروبها ومساربها، ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم

---

(١) في ظلال القرآن٢/ ١١١٢، ١١١٣٠، بتصرف و٣/ ١٧٩٠ – ١٧٩١ ، ٤/ ٢٢٩٧، ومقومات التصور الإسلامي ص٣٠٩.

بها إحصاء، إلا وعند الله علمها، وعليه رزقها، وهو يعلم أين تستقر، وأين تكمن، من أين تجيء، وأين تذهب، وكل فرد من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق، إنها صورة مفصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق" (١) " {وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة يونس:٦١] ، ويسبح الخيال مع الذرات السابحة في الأرض، أو في السماء، ومعها علم الله وما هوأصغر وأكبرمحصور في علم الله "(٢).

<u>٤- اختصاص الله وحده بالعلم المحيط والشامل ويعلم الغيب المطلق:</u> " فمفاتيح الغيب بيده سبحانه لا يعلمها إلا هو، وعند عتبة الغيب يقف الخلق كلهم، بما في ذلك النبي ﷺ، فهو سبحانه وحده المختص بالغيب دون العالمين " وما يطلع الله عليه رسله من الغيب فهو في حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس (٣)، " وأما البشر فلا يعلمون شيئاً إلا ما

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٨٠٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٧ – ٣٧٣٨ . مقومات التصور الإسلامي ص ٣٠٩ .

يأذن الله أن يعلمون " [١]. " والجن كذلك محجوبون عن الغيب القريب، فكيف يطلب بعض الناس عندهم الغيب البعيد " [٢].

الفرع الرابع: صفة القدرة المطلقة:

صفة القدرة المطلقة من الصفات الجامعة الثابتة لله وحده، وقد وصف الله نفسه في آيات كثيرة بأنه قادر على كل شيء.

وأهل السنة والجماعة يثبتون لله صفة القدرة المطلقة فالله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا، وأما المحال لذاته فهو لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئاً باتفاق العقلاء، ومن ذلك خلقه سبحانه مثل نفسه، وإعدام نفسه، وأمثال ذلك من المحال.

والأصل في إثبات صفة القدرة هو الإيمان بربوبية الله التامة، فلا يؤمن بتمام الربوبية وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٩، ٤/ ٢١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٠٠ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١١٧ ، وينظر الأسماء والصفات للبيهقي ٢٠٨/١، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢١/٣،

وقد حرفت المعتزلة مفهوم القدرة فقالوا: إنه قادرٌ على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدرها عليهم، وتنازعوا هل يقدر على مثلها أم لا؟ فسلبوا صفة كمال القدرة على كل شيء، ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالم بكل ما يعلمه.. ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها [١].

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٧ .

صفة القدرة المطلقة عند سيد قطب:

أما سيد قطب – رحمه الله – فيثبت صفة القدرة المطلقة لله سبحانه، وكلامه في ذلك كثير جداً في ظلال الآيات التي ورد لفظ القدرة حيث يقرر:

١– أن الله قديرٌ على كل شيء، فلا يعجزه أمرٌ ولا يفوته شيء، فهو قادر على كل شيءٍ لا يعجزه أحد، ولا يمتنع عليه أحد " (١).

٢– أن قدرة الله كاملة لا تتأثر بالزمن، مطلقة لا تقيد بحد ولا قيد، شاملة لكل شيءٍ كان أو يكون لا تنحصر في حدودٍ، وأنه يفعل ما يشاء بلا معقب. (٢).

فمدلول قوله تعالى {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} واسع وشامل بحيث لا تبقى وراءه صورة لا يتناولها مدلوله (٣)، بما في ذلك أفعال العباد، فكل شيءٍ داخل في عموم قوله تعالى: {وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٠٢، ١٣٦، ٥٤٢ ، ٢/ ٨٦٧ ، ٣/ ١٦٥٦ ، ١٨٥٥، ٤/٢٤١١ ، ٥/٢٧٣٠ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ، ١/ ٣٣٨ ، ٣٨٤ ، ٢/ ١٠٠٢ ، ٣/ ٢٧٣٠، ٤/ ٢١٨٢، ٥/ ٣١٤٥ ، ٣٢٧٥، ٣٤٧٨، ٣١٤ ، ٣٥٤٤، ٣٥٨٤

(٣) المصدر السابق ، ٥/ ٢٩٢١ ، وينظر ايضاً ٦/ ٣٦٠٦، ٣٦٣١، ٢٩٥٠

الفرع الخامس: صفة الإرادة:

صفة الإرادة من الصفات الثابتة لله سبحانه وتعالى في كثير من نصوص الكتاب والسنة، وهي عند أهل السنة والجماعة على نوعين:

١ - قدرية كونية خلقية، وهي شاملة لجميع الحوادث، وهي المذكورة في قولهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٢ - دينية أمرية شرعية: وهي المتضمنة للمحبة والرضى، المتعلقة بأمره سبحانه، فالله تعالى وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها (١).

وخالف في ذلك القدرية المعتزلة: فزعموا أن الله لا يريد المعاصي بمعنى لا يقدرها، وأنه سبحانه أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر!. وقولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح (٢).

صفة الإرادة عند سيد قطب: يثبت سيد قطب - رحمه الله - الإرادة صفةً لله سبحانه وتعالى، ويقرر أنها إرادة مطلقة شاملة لكل شيء، حيث يقول في ظلال قوله تعالى: {فَعَّالٌ لِّمَا

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ .

يُرِيدُ } [سورة البروج:١٦] : " وهذه صفته الكثيرة التحقق الدائبة العمل، فعال لما يريد، فهو مطلق الإرادة، يختار ما يشاء، ويفعل ما يريده ويختاره، دائماً أبداً فتلك صفته.

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون في هذه الأرض لحكمة يريدها، ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة، وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها، يريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض، ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك في قدره المرسوم.

فهذا طرف من فعله لما يريد.. وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة، والقدرة المطلقة وراء الأحداث، ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود " (١).

ويقول: " فإرادته مطلقة غير مقيدة، فإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، سواء أراد بالخلق سوءاً، أم أراد بهم رحمة فمشيئته طليقة، وإرادته حاكمة، وهو سبحانه متفرد بالحكم وفق ما يريد، ليس هناك من يريد معه، أو يحكم بعده، أو يرد ما حكم به " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٥ .

(٢) ينظر :في ظلال القرآن ٢/ ٨٣٧ ، ٨٦٦ ، ٥/٢٨٣٩ ، ٢٩٧٨ ، ٣٠٣٧.

كما يقررسيد الفرق بين الإرادة والمشيئة الشرعية الأمرية التي تتضمن المحبة والرضى، وبين الإرادة القدرية الكونية الشاملة المتعلقة بالخلق والإيجاد لكل شيء، خيراً أو شراً لحكمة، فيقول: " فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله من الطيبات وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة رسله.. وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره أخذه المكذبين.. إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعدادٍ للهدى والضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم العقل يرجحون به، وأنزل لهم شرائع يزنُ وفقها العقل الأمور، ثم هم فريقان بعد ذلك، فريق استجاب للهدى، وفريق ضل، وكلاهما لم يخرج عن مشيئة الله، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه بعدما زودته بمعالم الطريق " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٠ – ٢١٧١ بتصرف .

الفرع السادس: صفتا السمع والبصر:

صفتا السمع والبصر من الصفات الإلهية التي جاءت بها الأدلة الشرعية في الكتاب والسنة، ودلَّ عليها العقل أيضاً [(١)].

وأهل السنة والجماعة يثبتونهما لله سبحانه وتعالى، بناءً على ما ورد فيهما من نصوص، ونفت المعتزلة هاتين الصفتين، وأرجع بعضهم معناها إلى الحياة، وبعضهم إلى العلم[(٢)].

<u>**صفتا السمع والبصر عند سيد قطب:**</u> يثبت سيد قطب – رحمه الله – صفتا السمع والبصر لله تعالى– في ظلال كل آية ورد فيها وصف الله بالسمع والبصر ومن ذلك:

١- في ظلال قوله تعالى {سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [سورة الإسراء:١] . يقول: "

---

(١) انظر : التوحيد لابن خزيمة ص ٤٦– ٤٧ ، وشرح الأصفهانية لابن تيمية ص ١٠٣ – ١١٩ ،والإبانة للأشعري ص ٢٢ ، والرد على الجهمية للدارمي ص ٢ ، والأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٩٣. .

(٢) انظر : أصول الدين للبغدادي ص ٩٦، والملل والنحل للشهرستاني ٤٩/١، ومقالات الإسلاميين للأشعري ٢٥٥/١.

والسياق ينتقل في الآية من صيغة التسبيح لله،.. إلى صيغة الوصف لله {إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ } وفقاً لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس، فالتسبيح يرتفع موجهاً إلى ذات الله سبحانه،.. والوصف بالسمع والبصر يجيء في صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية " (١).

٢- يقرر في أكثر من موضع: أن الله سميعٌ بصيرٌ، سميعٌ يسمع القول وما وراءه بصيرٌ يرى، مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة الخلق، حيث يقول في ظلال قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢): " ثم تفرد هو دون خلقه جميعاً، فليس هناك من شيء يماثله – سبحانه –.. والفطرة تؤمن بهذا بداهة، فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه، ومع أنه – سبحانه – {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ }فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليس منقطعة لهذا الاختلاف الكامل، فهو يسمع ويبصر، ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ثم يحكم حكم السميع البصير" (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ١١ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤٦ ، وينظر أيضاً ، ١٦٧/١ ، ٢/ ٦٨٩ .

٣- يقرر أيضاً: أن سمع الله محيط بكل شيء، فقوله تعالى: {وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ} [سورة الأنعام:١٣] ، تقرير لملكية الله للخلائق كلها.. والتعقيب بصفتي السمع والعلم، يفيد الإحاطة بهذه الخلائق، ففيها تقرير بوجوب توحيد الله، بما أنه المالك المتفرد بملكية كل شيء، في كل زمان ومكان، الذي يحيط سمعه وعلمه بكل شيء، وبكل ما يقال عن كل شيء كذلك " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: {قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ} [سورة المجادلة:١] .

يقول سيد: " وقد سمع الله سبحانه المرأة، وهي تحاور رسول الله ﷺ.. ولم تكد تسمعها عائشة وهي قريب منها، وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته" (٢). " فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله ﷺ والمرأة التي جاءت تجادله فيه.. فإذا الله حاضر هذا الشأن الفردي لامرأة من عامة المسلمين، لا يشغله من سماعه تدبيره، لملكوت السموات والأرض..

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٠٤ .

تقول عائشة – رضي الله عنها: – الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ في جانب البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: {قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا } (١).. وهو مطلع ذو إيقاع عجيب، إنكما لم تكونا وحدكما، لقد كان الله معكما – وكان يسمع لكما، لقد سمع الله قول المرأة.. إن الله سميع بصير يسمع ويرى" (٢).

تنبيه: ذكر الشيخ الدويش – رحمه الله – قول سيد في قصة المجادلة في النص السابق: " وقد سمع الله للمرأة وهي تحاور رسول الله ﷺ فيهما، ولم تكد تسمعها عائشة وهي قريبة منها، وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته "، ثم علق عليها بقوله: " كلامه – أي سيد – تأويلٌ لصفة السمع، وصرف لها عن ظاهرها، وهذا قول أهل البدع، وأما أهل السنة والجماعة فيثبتون له تعالى صفة السمع على ما يليق

---

(١) رواه : النسائي في الظهار ٣/٤٨٠ برقم ٣٤٦٠، وابن ماجه في الظهار ١/٦٥٨ برقم ٢٠٦٣ ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ٢/٤٨٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٠٥، ٣٥٠٦، بتصرف ، وينظر أيضاً : ١/ ١١٤ ، ١٦٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٤، ٢٩٢، ٣٩٤، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٢/ ٧٩٦، ٩٤٦ ، ٣/ ١١٩٥، ١٤١٩، ١٤٩٠ ، ١٥٢٦، ١٧٠١، ١٧٠٨، ٤/ ١٩٨٥، ٢٣١٨، ٢٤٤٥، ٥/ ٢٧٢٢، ٣٠٧٤، ٣٠٩٠، ٦/ ٣٣٣٨ .

بجلاله وعظمته.. وأما ما ذكره فهو من لوازم هذه الصفة وليس هو معناها " (١).

ويظهر أن الشيخ – رحمه الله – لو قرأ كلام سيد كاملاً– وهو في ثلاث صفحات في الظلال – لتبين له أن سيد يثبت الصفة بمعناها، كما هو واضح في النص الذي نقلته عنه قبل قليل.

ولكن سيداً – رحمه الله – كطريقته يربط بين النص القرآني، وبين ما ينبغي فهمه واستشعاره من مدلول النص، وهو ما أشار إليه في الفقرة السابقة.

وعموماً فالنصوص السابقة كافية وصريحة في إثبات سيد صفتي السمع والبصر لله– تعالى– مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة الخلق، وبأن الله يسمع ويرى، الأمر الذي يشعر الإنسان بقرب الله ومعيته وحضور أمره كله.

الفرع السابع: صفة الكلام:

صفة الكلام الإلهي من الصفات التي كثر الجدل حولها بين الفرق الإسلامية، وعظمت بسببها الفتنة لاتصالها بمسألة خطيرة تبنى الجهمية والمعتزلة ترويجها ونشرها بشتى الأساليب

---

(١) المورد الزلال ، للشيخ عبد الله الدويش ص ٢٣٨ .

وهي مسألة " القول بخلق القرآن "، مما جعل الناس يتنازعون فيها نزاعاً كبيراً، وينقسمون إلى طوائف مختلفة، حتى قيل إن علم الكلام إنما سمي كذلك أخذاً من الكلام في هذه الصفة، وقد ذكر شارح الطحاوية – رحمه الله – أن الخلاف في هذه المسألة ينحصر في تسعة أقوال ذكرها ونسبها إلى أصحابها (١)، إلا أن أشهر تلك الأقوال في نظري ثلاثة قال بها ست فرق غير قول أهل السنة والجماعة وهي:

١ – **الفلاسفة:** يرون أن الكلام هو ما يفيض على النفوس، من العقل الفعال أو من غيره، ويزعمون أن الله إنما كلم موسى من سماء عقله، أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج (٢).

وهذا القول بلا شك أبعد الأقوال عن روح الإسلام لكونه مناقضاً للنصوص الصريحة المثبتة للوحي وللكلام الإلهي حقيقة وليس خيالاً.

٢ – **المعتزلة والجهمية:** ينفون صفة الكلام الإلهي، ويزعمون أن معنى كونه تعالى متكلماً أنه خالقٌ للكلام في

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٣ ، ومجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ٣/ ٣٨ .

غيره، وليس الكلام صفة قائمة به [1]. وبالتالي فالقرآن عندهم مخلوق

٣ - الكلابية والأشعرية: يرون أن الله تعالى متكلمٌ بكلام قائمٍ بذاته أزلاً وأبداً، ولا يتعلق بمشيئته وقدرته، أي أن الكلامَ نفسيٌ، وأنه قديم أزلي وليس بحرف ولا صوت، وأن الذي نقرأه عبارة عن كلام الله القديم، والمعنى فيه واحد هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عُبَر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عُبر عنه بالعبرية كان توراة " [2].

٤ - أما أهل السنة والجماعة: فيرون أن الكلام صفة من صفات الله الذاتية والفعلية، فالله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت وحرف يُسمع، وأن نوع الكلام قديم، ولا يبحثون في كيفية تكلمه تعالى به، وأن القرآن الكريم جميعه حروفه ومعانيه كلام الله منزل غير مخلوق.

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٥٢٨ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٣ .

(٢) شرح المقاصد للنفتازاني ٢/ ٩٩ ، وأصول الدين للبغدادي ص ١٠٦ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٣ .

ويستدلون على إثبات صفة الكلام وعلى أن القرآن كلام الله حقيقة بأدلة كثيرة ومتنوعة من الكتاب والسنة والعقل والإجماع، ردًّوا بها على أدلة المخالفين من الجهمية المعتزلة والأشاعرة، وغيرهم ممن خالف في هذا الباب (١).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – طرقاً عديدة في إثبات كون الله تعالى متكلماً، منها:

١-إثبات الكلام لله تعالى كقوله تعالى: {وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا} [سورة النساء:١٦٤] ، وقوله {وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ} [سورة الأعراف:١٤٣] .

٢-إضافة القول إلى الله سبحانه كقوله تعالى: {قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ} [سورة المائدة:١١٥] ، وقوله تعالى: {وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ} [سورة الأحزاب:٤] .

(١) ينظر : خلق أفعال العباد للبخاري الدار السلفية الكويت ط عام ١٤٠٥هـ ص ١٣٦ ، والرد على الجهمية للدارمي الدار السلفية الكويت، ط١ عام ١٤٠٥هـ ص ٢٢٤ وما بعدها ، وشرح الأصفهانية لابن تيمية ، والإبانة للأشعري ص ٣١- ٣٨ ، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني تحقيق د/ الجديع دار العاصمة الرياض ط ٢عام ١٤١٩هـ ١/ ١٠٧ ومختصر الصواعق لابن القيم ٢/ ٢٩٣، ولوامع الأنوار للسفاريني ١٣٣/١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٤، ١٨٥، والتمهيد لابن عبد البر ٧/ ٦١ .

٣-ما ذكره القرآن من كلمته سبحانه وكلماته كقوله تعالى: { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ } [سورة يونس:١٩] ، وقوله: { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } [سورة الأنعام:١١٥] .

٤-ما ذُكر في القرآن من مناداته سبحانه ومناجاته، كقوله تعالى: {وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ} [سورة مريم:٥٢])وقوله { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ } [سورة القصص:٦٢] .

٥-ما في القرآن من ذكر إنبائه وقصصه كقوله تعالى: {قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ } [سورة التوبة:٩٤] ، وقوله { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ } [سورة يوسف:٣] .

٦-ما ذُكر في القرآن من إضافة الحديث إلى الله كقوله تعالى: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا } [سورة النساء:٨٧] ، وقوله: {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ } [سورة الزمر:٢٣] .

٧-ما ورد في القرآن من وصف للقرآن نفسه بأنه كلام الله تعالى كقوله: {فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [سورة التوبة:٦] ، وغير ذلك من الأدلة التي تدل على اتصافه سبحانه بصفة الكلام (١).

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٦٦ .

٨-ما ذكره القرآن من أن كلمات الله تعالى لا نهاية لها، كما في قوله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا} [سورة الكهف:١٠٩] .

يقول ابن القيم - رحمه الله -: "وقد ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر، يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام، فيفنى المداد والأقلام ولا تنفد كلماته، أفهذا صفة من لا يتكلم، ولا يقوم به كلام؟ فإذا كان كلامه، وتكليمه، وخطابه، ونداؤه، وقوله، وأمره، ونهيه، ووصيته، وعهده، وإذنه وحكمه، وإنباؤه وإخباره، وشهادته، كل ذلك مجاز لا حقيقة له، بطلت الحقائق كلها، فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينه {وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ} [سورة يونس:٨٢] . فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله " [١].

صفة الكلام عند سيد قطب:

بما أن صفة الكلام مرتبطة بقضية خلق القرآن وبما أن البعض يتهم سيداً بأنه يقول بخلق القرآن فسأعرض هنا موقف سيد من إثبات صفة الكلام الإلهي أولاً، ومن ثم موقفه من قضية خلق القرآن وذلك فيما يأتي:

(١) مختصر الصواعق لابن القيم ، ٢/ ٢٨٦ .

أولاً: موقف سيد قطب من إثبات صفة الكلام الإلهي:

يثبت سيد قطب – رحمه الله – لله تعالى صفة الكلام كصفة من صفات سبحانه، لا تشبه صفات المخلوقين، وإن كان بحرف وصوت وهو كلام يسمع، وينسب إلى الله تعالى حقيقة لا مجازاً.

وبالنظر فيما ذكره شيخ الإسلام – رحمه الله – وغيره من طرق إثبات كلام الله تعالى المتنوعة الأساليب، وبعرض كلام سيد – رحمه الله – حول الموضوع، على كلام السلف في طرق إثبات الكلام الإلهي، نجد أنه يوافقهم في ذلك، وبيان ذلك كما يأتي:

١ – يثبت سيد قطب صفة الكلام لله تعالى في مواطن متفرقة وأنه كلام يسمع ومن ذلك:

أ – في ظلال قوله تعالى في قصة آدم: {وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ} [سورة الأعراف:٢٢] ،

يقول: " وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية، وعلى إغفال النصيحة، أما كيف كان النداء، وكيف سمعاه، فهو كما خاطبهما أول مرة، وكما خاطب الملائكة، وكما

خاطب إبليس، كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع، وأن الله يفعل ما يريد "[1].

كما يثبت كلام الله لأهل الجنة وتسليمه عليهم [2]، وكذا حواره - سبحانه - مع أهل النار ومنعهم من الكلام معه سبحانه [3]، وغيره ذلك.

ب - يثبت كلام الله لموسى عليه السلام في مواطن كثيرة منها:

- في ظلال قوله تعالى { وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ } [سورة الأعراف:١٤٣] ، يقول: " وهذا المشهد الفذ الذي اختص الله به نبيه موسى - عليه السلام، مشهد الخطاب المباشر بين الجليل - سبحانه - وعبدٍ من عباده، المشهد الذي تتصل فيه الذرة المحدودة الفانية، بالوجود الأزلي الأبدي بلا وساطة، ويطيق الكائن البشري أن يتلقى عن الخالق الأبدي،.. ولا ندري نحن كيف.. لا ندري كيف كان كلام الله - سبحانه - لعبده موسى.. ولا نحاول أن نفسده بسؤالنا عن الكيفية.. إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٦٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٣ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٤٨١ .

ربه، وروحه تتشوق وتشتاق إلى ما يشوق! فينسى من هو ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى" (١).

- وفي ظلال قوله تعالى: {قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى} [سورة الأعراف:١٤٤] ، يقول: " نفهم من قوله الله سبحانه لموسى- عليه السلام - أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه - فالرسل كانوا قبل موسى وبعده، فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة، أما الكلام فهو الذي تفرد به موسى - عليه السلام - " (٢).

ويقرر أيضاً أن الله تعالى كلَّم موسى تكليماً، وأن هذا الكلام نوع من أنواع الوحي إلى الرسل فيقول: " وموكب الأنبياء واحد في تاريخ البشرية.. كلهم تلقى الوحي من الله.. وإذا كان الله قد كلم موسى تكليماً فهو لون من الوحي لا يعرف أحد كيف كان يتم.. فلا نعلم إلا أنه كان كلاماً " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦٨ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦٩- ١٣٧٠ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٠٥ بتصرف يسير .

" وحين يذكر تكليم الله لأحدٍ من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى – عليه السلام – " (١).

– ويقول أيضاً " كل ذلك وموسى – عليه السلام – بين يدي ربه في مناجاة وكلام " (٢).

ج – في ظلال قوله تعالى {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ} [سورة الحاقة:٣٠] ... خذوه كلمة تصدر من العلي الأعلى، فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل، ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب. كما جاء في الأثر " إذا قال الله تعالى: خذوه ابتدره سبعون ألف ملك.. " (٣)، " (٤).

هـ – وفي ظلال قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم:٤] . يقول سيد: " ودلالة هذه الكلمة تبرز من نواحٍ شتى – من كونها كلمة من الله الكبير المتعال.. وفي إطاقة محمد ﷺ لتلقيها، وهو يعلم من ربه هذا قائل هذه الكلمة ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟.. ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها أعظم بصدورها عن العلي الكبير.. أعظم بتلقي محمد لها..

---

(١) المصدر السابق ١/ ٠٢٨٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٤ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣٦١٣/٨ ، ونسبه إلى الفضيل بن عياض

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٢ .

وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً.. وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير " (١).

فهذه نماذج من كلام سيد في إثبات الكلام لله تعالى، وهناك نصوص أخرى في مواطن متعددة (٢).

٢ – يقرر سيد قطب أن كلمات الله متجددة لا تنفد:

لأن علمه سبحانه لا يحد، وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير ما نهاية، ومشيئته المطلقة التي لا نهاية لما تريد.

ففي ظلال قوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [سورة لقمان:٢٧] ، يقول: " إن البشر يكتبون علمهم ويسجلون قولهم ويمضون أوامرهم، عن طريق كتابتها بأقلام... يمدونها بمداد من الحبر ونحوه، ولا يزيد هذا الحبر ونحوه على ملء دواة أو ملء زجاجة.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٥٦ بتصرف يسير .

(٢) ينظر ذلك في : ظلال القرآن ١/ ٣٣، ٥٠ ، ٨٤ ، ١١٨، ٣٧٠، ٥٢١، ٧٢١، ٢/ ٦٨٦، ٩٢٤، ١٠٤٩، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ٣/١٢٢٨، ١٣٦٧، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٤٨٣، ١٦٥١، ١٧١٦، ١٧٨٦، ٤/١٨١٥، ١٨٥٥، ١٨٦١، ٥/٢٧٤٤، ٣١٨٧، ٦/٣٣٠١، ٣٧٣٥، ٣٧٦٧، ٣٨١٢، ٣٨٢٥، ٣٩٣٧، ٣٩٦١. وغيرها .

فها هو ذا يمثل لهم أن جميع ما في الأرض من شجرٍ تحول أقلاماً، وجميع ما في الأرض من بحر تحول مداداً، بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك، وجلس الكُتَّاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه، المعبرة على مشيئته، فماذا؟ لقد نفدت الأقلام والمداد، نفدت الأشجار ونفدت البحار، وكلمات الله باقية، لم تنفد ولم تأت لها نهاية،... إن كلمات الله لا تنفد لأن علمه لا يحد، ولأن إرادته لا تكف ولأن مشيئته – سبحانه – ماضيةٌ ليس لها حدود ولا قيود " (١).

٣ – <u>يقرر سيد قطب أن الله تعالى "يتحدث" وأنه "يخاطب"الخلق، وهي من مرادفات الكلام:</u>

فيقول في مقدمة الظلال: " لقد عشت أسمع الله – سبحانه – يتحدث إليّ بهذا القرآن" (٢). وفي ظلال قوله تعالى: { كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ } [سورة البقرة:١٥١] ، يقول: " فما يتلو عليكم هو الحق، والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل في أن <u>يخاطب الله العبيد بكلامه</u>، يتلوه عليهم رسولهم –، وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه..

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٥ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ١١/١ .

فمن هم هؤلاء الناس.. حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته، ويتحدث إليهم بقوله، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة " (١).

" وهذا القرآن هو القرآن، كلام الله إلينا وخطاب الله لهذا الإنسان الذي لا يتغير"(٢)، " وتتجلى منةُ الله في تكريمه للناس بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل،.. فلو تأمل الإنسان أن الله الجليل، سبحانه – يتكرم عليه، فيخاطبه بكلماته، يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته... ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو –الإنسان– وعن حياته.. يخاطبه ليدعوه إلى ما يحيه ويصلح قلبه وحاله " (٣).

ويقول: " لقد كان الله سبحانه يخاطب بهذا الكلام – أي القرآن – أمة مؤمنة به " (٤)، "وهذا حديث الله سبحانه ووعده، ومن أصدق من الله حديثاً " (٥).

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٨/١ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٧ وينظر أيضاً ٤٣٩/١ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٥٠٧ بتصرف .

(٤) المصدر السابق ، ٢/ ٦٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ٢/ ٧٢٩ .

ويقول أيضاً " ويظهر التعبير العلاقة بين المخَاطَب – وهو الرسول ﷺ – والقائل وهو الله عزَّ وجلَّ– وهو يقول له: { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [سورة البروج:١٢] ، (١).

وفي ظلال قوله تعالى: {ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ } [سورة آل عمران:٥٨] ، يقول: " فهو وحي من الله، يتلوه الله على نبيه ﷺ وفي التعبير معنى التكريم والقرب والود، فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه " (٢).

٤– إثبات صفة النداء والمناداة والمناجاة لله– تعالى– وهي من مرادفات الكلام: ومن ذلك:

أ – قوله: " والآيات تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ {هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ} [سورة النازعات:١٥] .. ثم تأخذ في عرض الحديث – كما تسمى القصة – وهو إيحاء بواقعيتها فهي حديثٌ جرى، فتبدأ بمشهد المناداة والمناجاة، {إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى } [سورة النازعات:١٦] ... ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة، وهي لحظة كذلك عجيبة، ونداء الله بذاته – سبحانه –

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٥ .

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٠٤ . ينظر أيضاً المواضع الآتية: ، ٢/ ٧٩٣ ، ٣/ ١٣٦٨، ١٤٠٧ ، ٦/ ٣٨ .

لعبد من عباده أمر هائل، أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر، وهي سر من أسرار الألوهية العظيمة، كما هي سر من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن، وهيأه بها لتلقي ذلك النداء، وهذا أقصى ما نملك أن نقوله في هذا المقام... وفي مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه في هذا الموقف... ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾. والطغيان أمر كريهٌ، شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبداً من عباده ليذهب إلى الطاغية " (١).

ب – في ظلال قوله تعالى: { فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا } [سورة النمل:٨] ' يقول سيد: " نودي " بهذا البناء للمجهول – وهو معلوم – ولكنه التوقير والإجلال والتنظيم للمنادي العظيم {وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ } [سورة النمل ٨ ٩] ، نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته، وكشف لعبده أن الذي يناديه هو لله العزيز الحكيم.. وكان النداء للاصطفاء.. ولم يذكر هنا ذلك النجاء الطويل الذي في سورة طه لأن العبرة المطلوبة هي النداء والتكليف " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٨١٤

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٢٩ بتصرف يسير وينظر أيضاً ٥/ ٢٦٨٩، ٢٦٩٢ ، ٢٦٩٣ ، ٤٨٩/١ .

٥ – إضافة النطق والقول لله سبحانه وتعالى:

وذلك في مواضع كثيرة جداً منها:

١ – في ظلال قوله تعالى: { وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ } [سورة الأعراف:٥٠] ، يقول سيد: " ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى، لينطق رب العزة والجلالة وصاحب الملك والحكم: { فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ } [سورة الأعراف:٥١] [١].

١– في ظلال قوله تعالى: {تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ } [سورة الملك:١] ، يقول سيد: " هذه التسبيحة توحي بزيادة بركة الله ومضاعفتها وتمجيد هذه البركة.. وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود، ويعمر بها قلب كل موجود، وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم، من الكتاب المكنون إلى الكون المعلوم " [٢].

٢– أما إضافة القول ومشتقاته مما يدل على الكلام كقال، ويقول، وقوله، ونحوها فكثير جداً في كلام سيد في

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣١ .

تفسيره للآيات ووقفاته معها، يصعب سردها هنا اكتفى بأمثلها منها:

– قوله –رحمه الله –: " كما قال الله في التعبير القرآني البليغ الدقيق {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} (١).

– وقوله: " وحين يقول الله في القرآن". " فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له حيثما قرئ هو الأليق بجلال هذا القول، وبجلال قائله سبحانه، وإذا قال الله، أفلا يستمع الناس وينصتوا؟ " (٢).

ثانياً: موقف سيد قطب من قضية خلق القرآن:

قضية القول بخلق القرآن من أشهر القضايا في تاريخ علم الكلام والفرق الإسلامية، وقد ظهر هذا القول في أوائل

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٦٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٢٨٨ ، ٣/ ١٤٢٥ وينظر أيضاً المواضع الآتية : ١/ ١٣٧ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ،٢/ ٦٧٦ ، ٩٤٦ ، ١٠٦٥ ، ١٠٧٧، ٣/ ١٢٠٨ ، ١٢١٦ ، ١٤٢٥، ١٤٣٧ ، ١٥٦٨ ، ١٦٩٢ ، ١٧١٩، ١٧٤٥، ٤/ ١٩٤٥، ٥/ ٣٠٢٠، ٣١١٧، ٦/ ٣٣٢٥، ٣٣٣٨، ٣٤٧٨، ٣٧٥٩، ٣٨٧٦ ، ومقومات التصورات ص ٨٥، ٣١٤، وخصائص التصور ٨/ ٩ .

المائة الثانية للهجرة، على يد الجعد بن درهم [1]، ولعله أخذه عن المشركين الصائبة [2]، ثم أخذه عن الجعد بعد ذلك تلميذه الجهم بن صفوان[3]، وأظهره وناظر عليه حتى قتل، ثم انتقل ذلك القول إلى المعتزلة وأظهروه في خلافة المأمون، وأمتحن به أئمة الإسلام مدةً من الزمن [4]..

والقول بخلق القرآن كان نتيجة لمغالاة القائلين به في التنزيه حتى وقعوا في تعطيل الصفات ونفيها خوفاً من أن الإثبات يؤدي إلى التشبيه أو القول بتعدد القدماء. وهو الأمر الذي جعلهم ينفون الصفات الإلهية عن الله، ومنها صفة الكلام – لئلا يتعدد القدماء – في زعمهم – لأن هذه الصفات إن

(١) هو : الجعد بن درهم من الموالي ، كان مؤدباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وكان أول من نفى صفة الكلام ، وانتهى أمره إلى الصلب سنة ١٢٤هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٣٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٣٥٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٦، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للألكائي ٣/ ٤٢٥- ٤٢٨.

(٣) هو : الجهم بن صفوان ولد بسمرقند ، أول من قال بالجبر وخلق القرآن ، ونفي الأسماء والصفات وعدمها ، توفى سنة ٢١٨هـ انظر ترجمته في الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٨٦ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٥- ٣٩٦ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٢١- ٢٢ .

كانت قديمة كذات الله تعدد القدماء!! بناءً على أن الصفات غير الذات.

وقد تمسك المعتزلة بشبهات اعتقدوا أنها تدل على صحة مذهبهم، وقد أورد شارح الطحاوية عدداً منها وردَّ عليها [١].

والذي يهمنا هنا هو بيان موقف –سيد قطب – من قضية " خلق القرآن " حيث يتهمه البعض بأنه يقول بخلق القرآن [٢]، فما صحة هذا القول؟ والجواب عن ذلك يحتاج إلى تفصيل وبسط وإيضاح وهو ما سنعرضه في النقاط الآتية:

١– سبب اتهام سيد قطب بالقول بخلق القرآن:

السبب الذي جعل بعضهم يتهم سيداً بالقول بخلق القرآن هو الاستناد إلى عبارات لسيد في تفسيره لبعض الآيات في الظلال، حيث فهموا منها أنه يقول بخلق القرآن.

وسأعرض هنا بعض الأدلة التي أوردها الدكتور/ ربيع المدخلي، مستدلاً بها على أن سيد قطب يقول بخلق القرآن، وأقف معها وقفات تحليلية في ضوء ما وجدت من كلام لسيدٍ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٥ – ١٨٩ .

(٢) أضواء على عقيدة سيد قطب للمدخلي ص ١٤٢، والحد الفاصل د/ربيع المدخلي مكتبة الفرقان عجمان ، ط٣ عام ١٤٢٢هـ ص ١٠٨ ، والمورد الزلال للدويش ص ١٧٩.

في كتبه حول الموضوع حتى تتبين لنا حقيقة الأمر، والله نسأل أن يهدينا إلى سواء الصراط.

والأدلة التي ذكرها الدكتور/المدخلي هي:

الدليل الأول: أن سيد قطب يطلق على القرآن أنه " صنع الله " أو " صنعة الله "، والصنع يعنى "الخلق"، فكون القرآن " مصنوع " أي أنه " مخلوق" [1].

ومن النصوص التي استدل بها ما يأتي:

١- قول سيد - رحمه الله -: " ومثل هذه الأحرف - أي " ألف. لام. ميم " - يجيء في مقدمة بعض السور القرآنية.. وهي إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب، ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله، الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جواباً!.

(*) والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعاً، وهو مثل صنع الله في كل شيء، وصنع الناس، إن هذه

---

(١) أضواء على عقيدة سيد قطب – ربيع المدخلي ص ١٤٤ ، والحد الفاصل له أيضاً ص ١١٠.

التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه فيها لبنة أو آجرة أو آنية أو أسطوانة أو هيكلا أو جهازاً كائناً في دقته ما يكون ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة، حياة نابضة خافقة، تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز، سر الحياة، ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سره بشر (*).

وهكذا القرآن حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً، ويجعل منها الله قرآناً وفرقاناً والفرق بين صنع البشر وصنع الله في هذه الحروف والكلمات هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض وهو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة " (١).

٢ – قول سيد قطب في تفسير أول سورة العنكبوت: " ألف. لام. ميم، الحروف المقطعة التي اخترنا في تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن مادة الكتاب الذي أنزله الله على رسوله ﷺ مؤلفاً من مثل هذه الحروف المألوفة للقوم، الميسرة لهم ليؤلفوا منها

---

*) من هنا بدأ الدكتور المدخلي استدلاله ، ولم يذكر الفقرة السابقة ! .

*) إلى هنا اكتفى الدكتور المدخلي بالنقل ولم ينقل العبارات اللاحقة ، انظر : أضواء على عقيدة سيد قطب ، ص ١٤٣.

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٨ .

بما يشاءون من القول [١]). ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب، لأنه من صنع الله لا من صنع إنسان " [٢].

٣ – قول سيد في تفسير سورة (ص): " هذا الحرف "صاد " يقسم به الله سبحانه، كما يقسم بالقرآن ذي الذكر، وهذا الحرف من صنعة الله تعالى، فهو موجده، موجده صوتاً في حناجر البشر، وموجده حرفاً من حروف الهجاء التي يتألف من جنسها التعبير القرآني، وهي في متناول البشر، ولكن القرن ليس في متناولهم لأنه من عند الله وهو متضمن صنعة الله التي لا يملك البشر الإتيان بمثلها، لا في القرآن ولا في غيره، هذا الصوت " صاد " الذي تخرجه حنجرة الإنسان إنما يخرج هكذا من هذه الحنجرة بقدرة الخالق المبدع، الذي صنع الحنجرة وما تخرجه من أصوات، وما يملك البشر أن يصنعوا مثل هذه الحنجرة الحية التي تخرج هذه الأصوات، وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة في كل جزئية من جزئيات

---

(١) من هنا بدأ الدكتور ربيع بالنقل ولم يذكر ما قبله . انظر : أضواء على عقيدة سيد قطب ص ١٤٤ –١٤٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٩ .

كيانهم القريب [1])، ولو عقلوها ما دهشوا لوحي يوحيه الله لبشر يختاره منهم، فالوحي ليس أكثر غرابة من إيداع تكوينهم هذه الخصائص المعجزات " [2].

٤ – قول سيد أيضاً: " وكما أن الروح من الأسرار التي أختص الله بها، فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته، ولا يملك الإنس والجن – وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي – أن يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة، { قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا } [سورة الإسراء:٨٨] .

فهذا القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصفوه، وهو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره [3]) إن

---

(١) إلى هنا اكتفى الدكتور ربيع بالنقل ولم يكمل بقية العبارة . انظر : أضواء على عقيدة سيد قطب ص ١٤٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٦ – ٣٠٠٧ .

(٣) إلى هنا اكتفى الدكتور ربيع بالنقل ولم يكمل بقية العبارة . انظر : أضواء على عقيدة سيد قطب ص ١٤٤ .

إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه، يحيط بما يحيط به " (١).

وقفة مع الدليل الأول: من خلال النظر في النصوص السابقة التي أوردها الدكتور/ المدخلي للاستدلال بها على أن سيد قطب يقول بخلق القرآن كالمعتزلة يظهر لنا الآتي:

١- أن النصوص السابقة ليس فيها كما يقول الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله – حرفاً واحداً يصرح فيه سيد بأن القرآن مخلوق، وإنما هو كلامٌ أدبيٌ، وتمدد في الأسلوب كقوله: " ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا يصوغوا – من تلك الأحرف مثله، لأنه من صنع الله لا من صنع البشر" وهي عبارة لا نشك في خطئها، لكن لا نستطيع أن نحكم من خلالها على سيد بهذه المقولة الكفرية " خلق القرآن " (٢).

وحتى الدكتور المدخلي نفسه يصرح في أثناء رده على الدكتور بكر أبو زيد – بأنه وقف على كلام سيد هذا الذي يطلق فيه سيد على القرآن أنه من صنع الله قبل أكثر من عشرين سنة، ولم يقدم على اتهامه لسيد بخلق القرآن بناءً عليه

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٩ ، ٢٢٥٠ .

(٢) النصيحة الذهبية ، للشيخ الدكتور بكر أبو زيد ، ص ٢- ٣ .

حتى انضمت على هذا أدلة أخرى كما يقول – وسيأتي عرضها – فكلامه هذا يدل على أن عبارات –سيد –هذه ليس صريحة في الدلالة على أنه يقول بخلق القرآن [1]، وإنما هو كلام محتمل لأكثر من وجه وبالتالي فلا يصح حمله وقصره على وجه واحد [2]، خاصة وأن أهل اللغة والأدب يستعملون لفظ الصنع للدلالة على صياغة الكلام وتركيب الألفاظ والجمل فللنثر صناعة عند العرب وللشعر صناعة وهكذا، والعرب لا يقصدون خلق الشعر أو الكلام إنما يقصدون بالصنعة تركيب الكلام، فالكلام صفة وتركيبه وصياغته صنعه [3].

٢- أن سيداً- رحمه الله – يقارن في النصوص السابقة بين إعجاز القرآن الذي تشير إليه الأحرف المقطعة ويتضح من خلال صياغة الله لهذا القرآن المعجز البليغ في نظمه وتركيبه، وبين عجز البشر على أن يصوغوا مثل القرآن مع أن الأحرف التي يتكون منها القرآن – كلام الله – في متناول يد البشر، ومع ذلك فإنهم عجزوا عن التحدي الإلهي

---

(١) الحد الفاصل د / ربيع المدخلي ص ١١٠ .

(٢) فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ص ١٢٧ .

(٣) ينظر في ذلك : المزهر في اللغة للسيوطي ، ١/ ١٧١ ، وما بعدها ، البلاغة للزمخشري ص ٣٦ ،و التعريفات للجرجاني ص ١٧٦، والخصائص لابن جني ٢/ ٥٨ .

لهم في أن يأتوا بمثله، وهذا ما يشير إليه كلام سيد في بداية النص الأول من النصوص السابق ذكرها ولم ينقلها الدكتور المدخلي والذي يذكر فيه سيد أن القرآن مؤلف من جنس الأحرف المقطعة، وهي في متناول العرب، ومع ذلك عجزوا أن يصوغوا منها مثله، لأن الصياغة هنا في الكلام الإلهي تحمل طابع الإعجاز، وهو الشأن في كل ما ينسب إلى الله، وحاول سيد أن يوضح ذلك بمثالٍ وهو المقارنة بين إعجاز القرآن والإعجاز في خلق الإنسان.

فالمادة في الحالتين واحدة، ولكن النتيجة مختلفة فالتراب قصارى ما يصوغ منه الناس لبنة أو آجرة أو نحو ذلك مما يحمل الطابع البشري، بينما الله تعالى يجعل منه شيئاً معجزاً.

والقرآن في الأصل مكون من حروف وكلمات، يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً تحمل الطابع البشر، بينما يصوغ منها الله كلاماً معجزاً لا يقدرون على محاكاته.

فهو في ضربه للمثل بالإنسان والقرآن لم يشر إلى تساويهما في كون كل منهما مخلوق وإنما الإشارة إلى الفارق في الإعجاز بين ما ينسب إلى الله وما ينسب إلى غيره

فالإنسان خلقه معجز لأنه خلق الله، والقرآن صياغته معجزة لأنه كلام الله [١].

وكذلك الحال في بقية النصوص السابقة حيث نجد في المقاطع التي لم يذكرها الدكتور المدخلي في بداية النص أو نهايته ما يوضح المراد من لفظ " الصنع " الوارد في كلام سيد بأنه صياغة وتأليف الكلام المكون من حروف وكلمات، ووصف القرآن بأنه وحي معجز وأن الإعجاز هو شان ما ينسب إلى الله.

وفي بعض المواضع كان سيد يتحدث عن المنهج الذي أنزله للبشر ويصفه بأنه من صنع الله ففهم البعض بأنه يقصد القرآن [٢]، بينما المنهج المراد به المسلك والطريق والصراط الذي أراد الله منهم السير عليه، ولم يقصد سيد في هذا الموضع القرآن، وهذه الملاحظة ذكرت في تقرير الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في السعودية، عن كتاب المورد الزلال للدويش عند الإذن بطبعه [٣].

---

(١) ينظر في ذلك : المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي دار عمان الأردن ط٢ عام ١٤٢١هـ ، ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ، وفكر سيد قطب لمحمد أبو صعيليك ص ١٢٨.

(٢) المورد الزلال للدويش ص ٤٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

٣- أن سيداً -رحمه الله- فرق في مواضع متعددة من كلامه عن القرآن وغيره، بين الخلق والإنزال، فهو يتحدث عن المخلوقات بلفظ " خلق " وعن القرآن بلفظ " أنزل" ومن أمثلة ذلك:

أ- قوله: " فالذي نزل القرآن من الملأ الأعلى هو الذي خلق الأرض والسماوات العلى" [١].

ب- قوله: " ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمن، في لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب.. " [٢].

ج – قوله: " فتبارك الله خالق القلوب، ومنزل هذا القرآن شفاء لما في الصدور " [٣].

د – قوله: " والله خالق القلوب، ومنزل هذا القرآن.. يشير إلى آيات الله المبثوثة في الكون ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقضها.. وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب، وخالق هذا الكون العظيم " [٤].

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٥/ ٢٧٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ٥/ ٢٨٠٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢١ .

هـ- قوله: ".. إنها طريقة الله، مبدع الكون، وخالق الإنسان، ومنزل القرآن " (١).

و- قوله: ".. والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول: { لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ } [سورة الحشر: ٢١] " (٢).

فلو كان سيد ممن يقول بخلق القرآن لصرح بلفظ الخلق في المواضع السابقة وما الداعي للتفريق بين المخلوقات والقرآن قول الله المنزل.

٤- أن سيداً – رحمه الله – يثبت بأن القرآن كلام الله تعالى، وخطابه وحديثه، وقوله، وأنه حروف وأصوات، ومن ذلك:

أ – قوله في كلامه عن قضية الجبر والاختيار " فالنصوص القرآنية تقول: إن كل ما يحدث بإرادة الله وقدره، وتقول في الوقت ذاته، إن الإنسان يريد ويعمل ويحاسب على إرادته وعمله، والقرآن كله كلام الله، ولن يعارض بعضه بعضاً، فلا بد إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك " (٣).

---

(١) المصدر السابق ، ٦/ ٣٤٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٣٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٩ ، الهامش (١ .

ب – في تفسير قوله تعالى: {وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [سورة التوبة:٦] ' يبين أن الإسلام حريص على هداية القلوب البشرية.. وأن المشركون الذين يطلبون الجوار والأمان في دار الإسلام يجب أن يعطوا ذلك.. ففي إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين لعلهم أن يهتدوا " (١). فهو يفسر كلام الله المقصود بالآية بالقرآن الكريم.

ج – قوله: " والقرآن هو كلام الله الباقي، وخطاب الله لهذا الإنسان الذي لا يتغير " (٢).

د – في ظلال قوله تعالى {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا} [سورة البقرة:٢٦] .

يقول: " وقد وجد أعداء الإسلام في هذه الآية منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا لا يصدر عن الله، وأنه سبحانه لا يذكر الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه.. فجاءت الآيات دفعاً لهذا وبياناً للحكمة... وأوضحت حال المؤمنين الذين يتلقون كل ما يصدر

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٠٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٠٧.

عن ربهم– سبحانه– بما يليق بجلاله – وفي كل قول يجيئهم من عند الله " (١).

هـ– قوله ايضاً: " ونقف عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة: { صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ } [سورة البقرة:١٣٨] ، فصدر الآية من كلام الله التقريري، أما باقيها فهو من كلام المؤمنين يحلقه السياق – بلا فاصل – بكلام البارئ– سبحانه– في السياق، وكله قرآن منزل " (٢). وهناك كثير من النصوص في هذا الباب (٣).

٥– يقرر سيد قطب أن الكتب السابقة هي كلام الله تعالى المنزل على الرسل، ومن ذلك:

– قوله: " والفريق المشار إليه هنا.. هم الأحبار والربانيون الذين يسمعون كلام الله، المنزل على نبيهم موسى في التوراة ثم يحرفونه عن مواضعه " (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٠ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ١١٨ .

(٣) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ٣٧٠ ، ٥٢١، ٨٠٥، ٢/ ٦٨٥ ، ٦٨٦، ٧٢١، ٩٢٥، ٩٤٠ ، ١٠٤٩، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٢٢٨/٣، ١٣٦٧، ١٣٧٥ ، ١٤٨٣، ١٧٩٠، وغيرها .

(٤) في ظلال القرآن ، ١/ ٨٤ .

– وقوله عنهم أيضاً: " وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه " [1].

– وقوله " وهذه الألواح – أي التوراة – التي كانت تحمل كلمات ربه، وهو–أي موسى عليه السلام – لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه " [2].

– وقوله: " والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله، وبما ينزله عليهم من كلماته " [3].

–وقوله: " إن هذا الكتاب – أي القرآن – منزل من الله، وهو مؤلف من أحرف وكلمات شأنه شأن الكتب السابقة " [4].

فهذه النصوص تبين أن سيد قطب يرى أن كل الكتب السابقة المنزلة على الأنبياء ومنها التوراة، هي كلام الله سبحانه أيضاً كالقرآن الكريم " إنها عبارات وكلمات مصوغة ومؤلفة من أحرف... ومع ذلك لا يستطيع البشر أن يصوغوا مثلها " [5].

الدليل الثاني: أن سيد قطب معطل للصفات:

---

(١) المصدر السابق ، ١/ ٣٣ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٦٩ .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٤ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٣٦٤ .

(٥) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ٣٨ ، ٣٦٤ ، ٣/ ١٧٥٩ ، ٢٠٤٣ ، ٢٣٠١، ٤/ ٢٨٠٤/ ٢٨٠٥ ، ٥/ ٣١٣٩ ، ٣١٧٠ .

يستدل د / المدخلي على أن سيد يقول بخلق القرآن، بأن سيد قطب من معطلة الصفات فيقول: ومن الأدلة على أن سيداً يقول بخلق القرآن أنه من معطلة الصفات، صفات الله جلا وعلا، ولا يمت إلى أهل السنة المثبتين بأي صلة في هذا الباب، فقد عطل صفة استواء الله على عرشه، وصفة مجيئه يوم القيامة، وصفة اليدين، وينكر عرش الله وكرسيه أو شك فيهما، ويعطل صفتي القبض والبسط ورفع عيسى إلى السماء... " (١).

<u>وقفة مع الدليل الثاني</u>: كلام الدكتور ربيع هنا يحمل طابع المبالغة، وما ذكره من أن سيد قطب من المعطلة لصفات الله غير صحيح، فقد سبق معنا بيان موقف سيد من صفات الله تعالى وأنه يثبتها في الجملة على منهج أهل السنة عدا أخطاء في تفسير بعض الصفات وهو أمرٌ لم يسلم منه بعض العلماء من أهل السنة.

أما ما ذكره من أمثلة فاغلبها لا تصح نسبتها إلى سيد، فهو وإن كان يفسر الاستواء في بعض المواطن بغير ما فسره السلف إلا أنه لم يعطل صفة المجيء واليدين ولم ينكر العرش والكرسي ونحوه مما ذكره المدخلي، وسيأتي بيان موقف سيد من

---

(١) الحد الفاصل ، د / ربيع المدخلي ص ١١٠ وما بعدها .

هذه الصفات التي ذكر الدكتور ربيع أنه يعطلها في ثنايا هذا المبحث، وبناءً على ما سبق بيانه من موقف سيد من الصفات وما سيأتي بيانه أيضاً عند الحديث عن موقف سيد من بقية الصفات- لا نسلم للدكتور/ المدخلي بما أدعاه من أن سيد قطب من معطلة الصفات وبالتالي لا يصح هذا دليلاً على أنه يقول بخلق القرآن.

الدليل الثالث: استعمال سيد للعبارات المطاطة:

يستدل د / المدخلي أيضاً على أن سيد يقول بخلق القرآن، بأن سيداً يستعمل العبارات المطاطة التي لا يدركها كثير من الناس حذراً من أن توجه إليه سهام النقد وخاصة في القضايا التي يرى نفسه أنه مخالف فيها لأهل السنة، ويذكر من أمثلة ذلك أن سيد قطب كان يؤمن بالاشتراكية ولكنه تجنباً للنقد ألف كتاباً أسماه " العدالة الاجتماعية " يقرر فيه الاشتراكية ولم يصرح باسمها حتى لا ينتقده العلماء " (١).

وقفة مع الدليل الثالث: يرى د/ المدخلي في النص السابق أن سيد قطب كان متعمداً مخالفة ما عليه أهل السنة، وأنه كان يستعمل الألفاظ المطاطة حذراً من النقد، أقول هذا

---

(١) الحد الفاصل ، د/ ربيع المدخلي ص ١١١ .

طعن في النيات، وعلمها عند ربي، فليس لنا أن نحكم بأن نيته كانت كذا أو كذا، لنا الظاهر والله يتولى السرائر.

الدليل الرابع: تجاهل سيد لفتنة خلق القرآن التي حصلت بين أهل السنة والمعتزلة:

ذكر د / المدخلي أن سيد تجاهل فتنة خلق القرآن، وأنه لا يتصور أن سيد في حياته لم يسمع قط بها [١].

وقفة مع الدليل الرابع:: ما ذكر من تجاهل سيد لفتنة خلق القرآن غير صحيح، فسيد يعرف تماماً هذه القضية وما هو سببها، وقد ذكرها سيد في آخر كتبه " مقومات التصور الإسلامي " في سياق رده على مناهج المتكلمين الذين تأثروا بمنهج الفلاسفة، فنفوا صفات الله تعالى، وفيما يلي نص سيد، عن فتنة خلق القرآن وسببها وموقفه منها:

يقول سيد: " وكذلك تصبح البراهين الذهنية التجريدية على وجود الله – سبحانه – وهي التي اتجه إليها علماء التوحيد – بتأثير منطق أرسطو – والتي تعتمد على المقولات العقلية وحدها، بعيدة في منهجها وغريبة على المنهج الإسلامي وهذا

---

(١) الحد الفاصل ، د/ ربيع المدخلي ص ١١٢ .

المنهج القرآني، لأنها أضعف أنواع البرهان في هذا المجال، وأدعاها للجدل والمراء.

ولقد أبعد المعتزلة وهم ينفون الصفات عن الله – سبحانه – لئلا يتعدد القدماء لأن هذه الصفات إن كنت قديمة كذات الله تعدد القدماء! فهذا قياس ذهنيٌ بحت لا يتعامل مع الواقع، ولا مع المنهج القرآني، فالله سبحانه قد وصف نفسه بصفاته، ومن هذه الصفات ما يقرر وحدانيته وأزليته وأبديته وإحاطته – سبحانه – بكل شيء إلى آخر أسمائه الحسنى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد الآيات ١ –٣] ، { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [سورة الحشر ٢٢ – ٢٤] .

إنما تابع المعتزلة منطق أرسطو، وتجريدات " أفلوطين " المهوَّمة! ولم يتابعوا المنهج القرآني، وهو المنهج الإسلامي

الأصيل، **وكذا فعلوا فيما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بعنوان " فتنة خلق القرآن " لئلا يكون القرآن قديماً فيتعدد القدماء! والبحث على هذا النحو بجملته غريب على الفكر الإسلامي، وعلى المنهج الإسلامي، فالقرآن وحي الله وكلامه وكفى...** ولله سبحانه صفاته وأسماءه الحسنى، ولكن البشر لا يملكون إدراك كيفية هذه الصفات، فهو سبحانه سميع يسمع، وبصير يرى، وعليم يعلم " (١).

وواضح من كلام سيد – رحمه الله – أنه يعرف تماماً فتنة خلق القرآن، وأن سببها هو تأثر المعتزلة بمنهج الفلسفة الغربية في التعامل مع النصوص، وأن المعتزلة رأوا أن الصفات غير الذات وبالتالي فإن إثبات الصفات لله تعالى لا يخلوا من حالتين:

١- إما أن تكون الصفات حادثة لله بعد أن لم تكن، وهذا يعني أن الله سبحانه محلاً للحوادث وهذا مستحيل.

٢- وإما أن تكون قديمة كالذات، فهذا يعني إثبات قديمين وهذا غير ممكن أيضاً، فلم يكن أمامهم في هذه الحالة إلا أن ينفوا صفات الله تعالى خوفاً من تعدد القدماء! وهذا هو أساس قولهم بخلق القرآن، فما داموا نفوا صفات الله بما فيها الكلام لزم أن يقولوا

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٧٨- ٢٧٩ .

بأن القرآن ليس من صفات الله وليس كلام بل هو مخلوق، فأبعدوا بهذا عن المنهج الإسلامي في هذا الباب كما يقول سيد، لأن المنهج الإسلامي يقرر أن القرآن وحي الله وكلامه، وأن لله أسماءه وصفاته الحقيقية، فهو سميع يسمع، وبصير يرى إلى آخر تلك الأسماء والصفات.

وبهذا يتضح لنا أن سيد قطب ينقد المعتزلة في تعاملهم مع الصفات وفي قولهم بخلق القرآن كذلك ويثبت صفات الله التي نفاها المعتزلة، كالسمع والبصر والعلم، بمعانيها الدالة عليها خلافاً للمعتزلة.

الدليل الخامس: أن سيد قطب ينكر صفة الكلام الإلهي ويرى أنه مجرد توجه الإرادة:

يقول د / المدخلي: " وقد وجدت لسيد قطب أقوالاً في الظلال، وغيره ينكر فيها أن الله يتكلم، ويرى أن كلام الله هو مجرد الإرادة كقوله: " عن إرادة هذا الإله الواحد يصدر الكون بطريق واحد {إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } [سورة يس:٨٢] ، فلا واسطة بين الإرادة الموجدة والكون المخلوق، ولا تعدد في الطريقة التي يصدر بها هذا الكون كله عن الخالق الواحد، إنها مجرد الإرادة التي يعبر عنها القرآن بكلمة " كن "

وتوجه هذه الإرادة كاف وحده لصدور الكون عنها " [1]، ويقول أيضاً: " فقوله تعالى إرادة، وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد " [2]، فهذا تعطيل لصفة كلام الله التي صرح بها القرآن ودان بها السلف " [3].

ويستدل أيضاً بقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: { فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ } [سورة طه ١١ ١٢] : " نودي بهذا البناء للمجهول فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه ولا تعيين صورته، ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه، نودي بطريقة ما، فتلقى بطريقة ما، فذلك من أمر الله نؤمن بوقوعه ولا نسأل عن كيفيته، لأن كيفيته وراء مدارك البشر وتصورات البشر " [4].

قائلاً: " فهذه النصوص من سيد واضحة قاطعة بأن الرجل مغرق في إنكار أن الله يتكلم، مغرق بالقول بخلق القرآن " [5].

---

(١) السلام العالمي والإسلام ص ١٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٤٠ .

(٣) الحد الفاصل ، د / ربيع المدخلي ص ١١٢- ١١٣ .

(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٠، ٢٣٣١ .

(٥) الحد الفاصل للمدخلي ، ص ١١٢- ١١٤ . وأضواء إسلامية ص١٤٥-١٤٧ . .

<u>وقفة مع الدليل الخامس:</u> قول الدكتور/المدخلي: بأن هذه النصوص لسيد ناطقة بأن الله لا يتكلم ولا يخلق بالقول غير مسلَّم به لأسباب:

١- أنه لا يوجد فيها عبارة صريحة ينفي فيها سيد قطب عن الله صفة الكلام وأنه لا يخلق بالقول.

٢- أن سيد قطب- رحمه الله – كما سبق – يثبت صفة الكلام لله حقيقة، وقد أوضحنا ذلك في بداية الحديث عن موقفه من صفة الكلام الإلهي، وأوردنا نصوصاً كثيرة يثبت فيها سيد أن الله يتكلم ويتحدث ويخاطب وينادي وغير ذلك من المرادفات لصفة الكلام [(١)].

٣- أما قوله بأن سيد قطب يقول: بأن الخلق لا يتم بالقول وإنما يتم بتوجه الإرادة، وإن كان مفهوماً من النص الذي ذكره د / المدخلي، إلا أنه أحد الاحتمالات التي ذكرها سيد لمعنى كن، كما يقول في قصة خلق عيسى: " هذه النفخة هي الكلمة؟ آلكلمة هي توجه الإرادة؟ آلكلمة: " كن " التي قد تكون حقيقة، وقد تكون كناية عن توجه الإرادة؟ والكلمة هي عيسى أو هي التي منها كينونته؟ كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا

---

(١) انظر : الفرع السابع من هذا المطلب .

الشبهات " [1].بالإضافة إلى أن لسيد عبارات أخرى يصرح فيها بأن الخلق يكون بالكلمة وأن الكلمة هي القول ومن ذلك قوله: " الذي يقول كن فيكون قوله الحق، سواءً في القول الذي يكون به الخلق ﴿كن فيكون﴾ أو القول الذي يأمر به بالاستسلام له وحده، أو القول الذي يشرع به للناس أو القول الذي يخبر به عن الماضي والحاضر والمستقبل.. قوله الحق في هذا كله " [2].

وقوله: " إنه الله القاهر فوق عباده، إنه موجد الأكوان والحيوان والأفراد والأشياء بقوله: كن ولا زيادة، " [3].

ويذكر في نصوص أخرى أن الخلق ينبثق من كلمة كن، ولا شك أن كلام الله متعلق بإرادته فهو يتكلم متى شاء "

٤- أما استدلال الدكتور المدخلي على أن سيداً ينكر صفة الكلام بقول سيد: " نودي بهذا البناء للمجهول فما يمكن تحديد مصدر النداء، ولا اتجاهه ولا صورته، ولا كيف سمعه موسى.. الخ" فاستدلال غير موفق لما يأتي:

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٨.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٣٣٧ .

أ- أن قول سيد - رحمه الله -: " نودي، بصيغة البناء للمجهول.. "الخ. لا يقصد به أن المنادي مجهول غير معلوم، بل جاءت الصيغة هكذا للتعظيم، والتوقير للمنادي، حيث يقول - سيد - في ظلال الآية الأخرى: { فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ } [سورة النمل:٨] : " فلما جاءها نودي " **بهذا البناء للمجهول - وهو معلوم، ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم...** وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء { يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ } نزه الله ذاته، وأعلن ربوبيته للعالمين، **وكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم..** " (١).

وفي تفسير سورة القصص يقرر- سيد- أيضاً أن المنادي هو الله وأن الله كلمَّ موسى فيقول: " إنه - أي موسى - عائد ليتلقى ما لم يخطر له على بال، **ليناديه ربه ويكلمه.** " (٢).

ب- أن النص نفسه يدل على أن سيداً لا ينكر صفة الكلام، فهو يقول في النص: " نودي بطريقة ما ونؤمن بوقوعه،

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٢٦٢٩.

(٢) المصدر السابق ، ٥/ ٢٦٨٩ ، وينظر أيضاً ، ٥/ ٢٦٩١- ٢٦٩٢ .

ولا نسأل عن كيفيته "، وهذا لا شك هو الصواب في مسألة الصفات الإلهية كلها، نؤمن بها دون أن نسأل عن كيفيتها.

وكلام سيد حول عدم معرفة كيف تلقى موسى لكلام الله وكيف سمعه فيه نظر، فموسى سمعه بأذنيه ووعاه بقلبه كالبشر، ولعل سيداً – رحمه الله – يقصد كيف قوي موسى وأطاق بتكوينه البشري تلقي كلمات الله وندائه المباشر، كما يدل عليه قوله في موضع آخر: " وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلي الأبدي " (١). وفي هذا تعظيم لشأن الوحي والتلقي عن الله.

ج – أن لسيد – رحمه الله – كلاماً صريحاً يثبت فيه أن الله يكلم الأنبياء ومنهم موسى عليه السلام حقيقة، ففي ظلال قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [سورة الشورى:٥١]، يقول: " ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة، وقد روي عن عائشة – رضي الله

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣١٧٠ .

عنها –: " من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية "[1]. إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث:

- " وحياً " يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله.
- " أو من وراء حجاب " كما كلم الله موسى – عليه السلام – وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم يطلق تجلي الله على الجبل...
- " أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً " وهو الملك " فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ "، بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ ".... ثم ذكر صور الوحي نقلاً عن زاد المعاد لابن القيم ثم قال: " هذه صور الوحي وطرق الاتصال {إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} يوحي من علوٍ، ويوحي بحكمة إلى من يختار.. وما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث.. إلا أحسست له رجفة في أوصالي.. كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيز في المكان والزمان" [2].

---

(١) رواه : البخاري في كتاب بدء الخلق ١١٨١/٣برقم ٣٠٦٢ ، ومسلم في الإيمان باب هل رأى النبي ﷺ ربه ١٣٩/١ برقم ١٧٧.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٦٩ – ٣١٧٠ بتصرف يسير .

فهذه مجموعة من النصوص لـ – سيد قطب – يتبين من خلالها أنه لم يكن ينكر صفة الكلام الإلهي، وتكليم الله لموسى–عليه السلام– كما ذكر الدكتور المدخلي.

والخلاصة في هذه المسألة: أن نسبة القول بخلق القرآن إلى سيد قطب غير صحيحة لما يأتي:

١- أن الأدلة التي ساقها الدكتور المدخلي لا تدل على أن سيد قطب يقول بخلق القرآن كما رأينا.

٢- أن سيد قطب ينتقد نفاة الصفات ويثبت الصفات الإلهية عموماً وإن أخطأ في تفسير بعضها، لكن إطلاق القول بأنه معطل للصفات كغلاة الجهمية غير صحيح.

٣- أنه يقرر ما عليه السلف من إثبات الصفات ومنها صفة الكلام الإلهي كما سبق.

٤- أنه في تفسيره للآيات التي استدل بها المعتزلة على خلق القرآن لم يقرر ما قرروه، وإنما فسرها بما فسرها به السلف (١).

٥- إثبات سيد قطب أن القرآن والكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله كالتوراة وغيرها، هي كلام الله تعالى أوحى به إلى عباده المختارين.

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٦٩٣ ، ٣١٢٨، ٣١٧٦ ..

٦- أن سيداً ينتقد المعتزلة في قولهم بخلق القرآن بكلام صريح ويذكر فيه " أنهم أبعدوا في نفي الصفات خوفاً من تعدد القدماء، وأن هذا المنهج جعلهم يقولون بخلق القرآن، وأن كلامهم غريب على الفكر الإسلامي، حيث يقول " إنما تابع المعتزلة منطق " أرسطو " وتجريدات " أفلوطين " ولم يتابعوا المنهج القرآني، وهو المنهج الإسلامي الأصيل، وكذلك فعلوا فيما عرف في تاريخ الفكر الإسلامي بعنوان " فتنة خلق القرآن " لئلا يكون القرآن قديماً فيتعدد القدماء، والبحث في هذا النحو بجملته غريب على الفكر الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي **فالقرآن وحي الله وكلامه وكفى** " [(١)]، فهذا النص كافٍ وحده لأبطال التهمة والله أعلم.

الفرع الثامن: صفات العزة والعظمة والكبرياء والجلال ونحوها:

وهذه الصفات ثابتة لله عز وجل في نصوص الكتاب والسنة ويدل عليها العقل أيضاً فهي من لوازم الألوهية الحقة، وسيد – رحمه الله – في ظلال الآيات التي ذكرت هذه الصفات يثبتها لله وحده وينبه إلى المعاني التي ينبغي استشعارها من هذه الصفات:

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٨ .

١ – يقرر – رحمه الله – انفراد الله – سبحانه – بصفة العزة، واختصاصه بها دون سواه، " وأنه سبحانه قد استأثر بالعزة، فلا يجدها إلا من يتولاه، ويطلبها عندها، ويركن إلى حماه " (١).

" فالعزة كلها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه، فمن كان يريد العزة، فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره، ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك، وليس بواجدها عند أحد، ولا في كنف أحد، ولا بأي سبب " فلله العزة جميعاً ".. وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول.. ليأخذ من الأصل الذي يملك وحده كل العزة.. " (٢).

والسياق " يفرد الله بالعزة هنا، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين – كما في الموضع الآخر – لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه، فيفرده بالعزة جمعياً – وهي أصلاً لله وحده – والرسول والمؤمنون يستمدونها منه– ليجرد منها الناس جميعاً. " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٠ ، ٥/ ٣٠٠٣ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٣٠ .

(٣) المصدر السابق ٥٣ ١٨٠٤ وينظر أيضاً المواضع الآتية : ٢/ ٨٣٧، ٨٦٦ ، ٥/ ٢٨٣٩، ٢٩٧٨، ٣٠٣٧، ٦/ ٣٥٨٠. .

٢ – ويقرر سيد رحمه الله – أيضاً – تفرد الله سبحانه بالكبرياء والعظمة، فيقول: " فالكبرياء صفة الله وحده، لا يقبل فيها شريكاً، وحيثما تكبر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق " [١]. " وينطلق صوت التمجيد، يعلن الكبرياء المطلقة لله في هذا الوجود، حيث يتصاغر كل كبير، وينحني كل جبار، ويستسلم كل متمرد، للكبرياء المطلقة في هذا الوجود، ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة.. " [٢].

الفرع التاسع: صفة العلو:

العلو صفة من صفات الله تعالى الذاتية، التي لا تنفك عنه – سبحانه –، والعلو: مصدر مشتق من اسم العلي، وقد دل عليها الكتاب والسنة والعقل والفطرة، والكتب القديمة، وأجمع على ذلك السلف من الصحابة ومن بعدهم. [٣].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٧١ ، وينظر أيضاً ٥/ ٢٩٠٤ ، ٣٠٧٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٣٤ وينظر أيضاً المواضع الآتية ٤/ ٢٠٤٩، ٥/ ٢٧٩٦ . .

(٣) ينظر في ذلك : الرد على الجهمية للدارمي ص ١٣ ، ٢٦ ، والشريعة للآجري ص ٢٨٨، والتوحيد لابن منده ٣/ ١٨٥، والعرش لابن أبي شيبه ص ٢٨٤، ومختصر الصواعق لابن القيم ص ٣٥٨،و اجتماع الجيوش لابن القيم ص ٩٦، والعلو للإمام الذهبي ص ٩٢ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥ وما بعدها ، ومعارج القبول لحافظ الحكمي ١/١٤٤ .

وعلو الله تعالى مطلق من كل الوجوه ويشمل:

١- علو القدر والشأن، ٢- علو القهر، ٣ -علو الفوقية والذات [١].

وأهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى العلو المطلق المتضمن لما سبق، ويرون أن من أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص.

أما المخالفون لأهل السنة فإنهم يثبتون لله علو الشأن والقهر، وينكرون أو يؤولون علو الفوقية والذات، فينكرون أن يكون سبحانه في السماء ويزعمون أنه في كل مكان ولا تحده الجهات [٢].

صفة العلو عند سيد قطب: يمكن بيان موقف سيد قطب – رحمه الله – من صفة العلو المطلق فيما يأتي:

١-**موقفه من علو الشأن:** والمقصود به تفرده سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وبالمثلى الأعلى في السموات والأرض، وكونه سبحانه {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ} في ذاته وصفاته وأفعاله.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٨ .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ص ٢٩ ، وأصول الدين للبغدادي ص ٧٩ ، وأساس التقديس للرازي ص ١٤٩.

وقد مر معنا [1]- أن سيد ينزه الله سبحانه عن مشابهة الخلق، ويقرر تفرده سبحانه بصفات الكمال والجلال دون سواه، فلا يشاركه فيها أحد، وليس كمثله شيء إنما هو الفرد الصمد[2].

١-موقفه من علو القهر:

يقرر - رحمه الله - " أن الله هو القاهر فوق عباده، فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه " [3]، " وأنه سبحانه صاحب السلطان القاهر وهم - أي الخلق - تحت سيطرت وقهره، ضعاف في قبضة هذا السلطان، لا قوة لهم ولا ناصر، هم عباد والقهر فوقهم، وهم خاضعون مقهورون، وهذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة، وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس - مها ترك لهم من الحرية ليتصرفوا، ومن العلم ليعرفوا، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة - إن كل نَفَسٍ من أنفاسهم بقدر، وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه وإن كان هذا الناموس

---

(١) ينظر : المطلب الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٨ .

يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة "[1]، " فالله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، فهي الوحدانية في الخلق، وهي الوحدانية في القهر– أقصى درجات السلطان– وهو قهر يخضع له كل شيء في الأرض أو في السماء "[2].

٢–**موقفه من علو الذات " الفوقية ":** والمقصود بعلو الذات كونه سبحانه وتعالى في السماء بائنٌ من خلقه مستوٍ على عرشه.

وباستقراء كلام سيد حول صفة العلو نجد أن له عبارات صريحة في إثبات علو الله على خلقه، وأنه فوق العرش والخلق تحته، وله عبارات أخرى توهم نفي العلو، وهي التي استدل بها من قال بأن سيد – رحمه الله – ينفي صفة العلو، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: إثبات – سيد – صفة العلو لله سبحانه وتعالى:

يثبت سيد – رحمه الله – صفة العلو المطلق لله سبحانه وتعالى، وأنه في السماء فوق العرش ويدل على ذلك ما يأتي:

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٥٣ وينظر أيضاً المواضع الآتية : ٤/ ١٩٨٩ ، ٢١١٣ ، ٣٠٢٥ ، ٣٠٣٨ .

١ - تصريحه بإثبات العلو المطلق لله سبحانه دون سواه: وهناك نصوص كثيرة منها:

أ - في ظلال قوله تعالى: {وَلَا يَئُودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ} [سورة البقرة:٢٥٥] ، يقول: " وهذه خاتمة الصفات في الآية، تقرر حقيقة، وتوحي للنفس بهذه الحقيقة، وتفرد الله سبحانه بالعلو، وتفرده بالعظمة، فالتعبير على هذا النحو يتضمن معنى القصر والحصر، فلم يقل وهو عليٌّ عظيم، ليثبت الصفة مجرد إثبات، ولكنه قال: ﴿ العلي العظيم ﴾، ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك. إنه المتفرد بالعلو، المتفرد بالعظمة، وما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام لا ويرده إلى الله الخفض والهون. ويعلو الإنسان ما يعلو، ويعظم ما يعظم، فلا يتجاوزون مقام العبودية لله العلي العظيم " (١).

ب- في ظلال قوله تعالى: { لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ } [سورة الشورى:٤] ، يقول: " فليس هو الملك فحسب، ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك، العلو

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٠ .

الذي كل شيء بالقياس إليه سُفول " " العلي الكبير، الذي ليس غيره " عليٌ " ولا " كبيرٌ ". "(١).

ج – في ظلال قوله تعالى: {وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٣]، يقول سيد: " وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال في عليائه، بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام... {وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ} وصفٌ في المقام الذي يتمثل فيه العلو والكبر بالإدراك من قريب " (٢).

٢ – **<u>تصريحه بأن الله فوق عباده وفوق السموات وفوق العرش وأن المخلوقات تحت عرشه:</u>**

أ – يقول: " ويستوقف النظر تفضل الخالق المالك ذي السلطان، <u>القاهر فوق عباده</u>، تفضله سبحانه بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة مكتوبة عليه، كتبها على نفسه، وجعلها عهداً منه لعباده. " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٦ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٩ بتصرف يسر .

ب –ويقول أيضاً: " إن الله هو خالق السموات والأرض، القاهر فوق السموات والأرض، وهو صاحب هذه الدعوة التي يحملها الرسل ويتولاها الدعاة.. " [1].

ج –ويقول في تفسير أول سورة الحديد: " وهذا المطلع.. وما حشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء، المحيطة بكل شيء المهيمنة على كل شيء، العليمة بكل شيء وما تعرضه من إبداع اليد القادرة، وهي تجول في محيط السموات والأرض، وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب، وتشرف من علٍ على الوجود وما فيه ومن فيه... " [2].

" هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم" الأول فليس قبله شيء، والأخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، الأول والآخر، مستغرقاً كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان وهما مطلقتان " [3].

د– ويقول أيضاً: "... ثم يأخذ في عرض حقيقة الألوهية، وتعريف الناس بربهم، فيعرف الناس بهذه الحقيقة متمثلة في

---

(١) المصدر السابق ٣٠٤٥/٥

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٤٧٧ بتصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٩.

آثارها المتجلية في الكون وفي سلطان الله المتمثل في الهيمنة على الوجود من فوق عرشه الأعلى... " (١).

هـ- في ظلال قوله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا } [سورة الإسراء:٤٢] ، يقول: وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة مع الله، وهي تحت عرشه وليست معه، ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه " سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ".

ثم رسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهداً فريداً تحت عرش الله، يتوجه كله إلى الله، يسبح له، ويجد الوسيلة إليه، { تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [سورة الإسراء:٤٤] ، وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح لله، فإذا الكون كل حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحه واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.. كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه " (٢).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ٧١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٠ – ٢٢٣١ بتصرف يسير .

و- يقول في قصة المجادلة " فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله ﷺ والمرأة التي جاءت تجادل فيه، وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سموات، ليعطي هذه المرأة حقها، ويريح بالها وزوجها...

وهذا هو الشأن الذي تفتتح له سورة من سور القرآن، كتاب الله الخالد الذي تتجاوب جنبات الوجود لكل كلمة من كلماته، وهي تتنزل من الملأ الأعلى " [1].

ز - ويقول أيضاً: " ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من تحتها الأنهار، فالله هو الذي يدخلهم، وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع، وهم ينالونه من بين يدي الله في علاه جزاء على الإيمان والصلاح.. " [2].

ح - في ظلال قوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [سورة الأحزاب:٣٣] ، يقول: " وفي العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته، تلطف يشي بأن الله - سبحانه - يشعرهم بأنه - بذاته العلية - يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، وهي رعاية علوية مباشرة "

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٠٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٦٢ .

ط- عند حديثه عن المعراج يقرر أن محمداً ﷺ انتهى في عروجه مع جبريل إلى سدرة المنتهى وهي السدرة التي ينتهي إليها المطاف، فجنة المأوى عندها، أو التي انتهت إليها صحبة جبريل - عليه السلام - لرسول الله ﷺ حيث وقف هو وصعد محمد ﷺ، درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى " (١).

٣- تصريحه بأن الوحي والكتب السماوية والملائكة تتنزل من عند الله في علاه: ومن ذلك:

أ - في ظلال قوله تعالى: {رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ} [سورة غافر:١٥] ، يقول: " فهو - سبحانه - وحده صاحب الرفعة والمقام العالي، وهو صاحب العرش، المسيطر المستعلي، وهو الذي يلقي أمره المحيي للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده، وهذا كناية عن الوحي بالرسالة، ولكن التعبير عنه في هذه الصيغة يبين: **أولاً:** حقيقة هذا الوحي،

ويبين **ثانياً:** أنه يتنزل من علوٍ على المختارين من العباد، وكلها ظلال متناسقة مع صفة الله {ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ} " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٠٧.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٣ .

ب –عند كلامه عن وحي الله تعالى لأنبيائه يقرر بأنه يتم من علوٍ، ويصف ذات الله بالعلو، " فقوله تعالى: {إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} يوحي من علوٍ، ويوحي بحكمة إلى من يختار".. إن النبوة أمر عظيم حقاً، وإن لحظة التلقي عظيمة حقاً، تلقي الذات الإنسانية لوحي من الذات العلية.. " (١).

" إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل عليهم الكتب، وهذا الكتاب الجديد الذي ينكرون " تنزيله، هو كتاب مبارك – باركه الله وهو ينزله من عنده.. " (٢).

٤ – تصريحه بأن الأعمال والملائكة تصعد إلى الله في علاه: ومن ذلك:

أ – في ظلال قوله تعالى: { يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [سورة السجدة:٥] ، يقول: " ثم يرتفع كل تدبير، وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه، يرتفع إليه سبحانه في علاه، في اليوم الذي قدره، لعرض مآلات الأعمال والأقوال، والأشياء والأحياء يرتفع

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٧٠ ،

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٧ بتصرف ، وينظر أيضاً : كلامه عن إنزال الوحي والكتب والقرآن المواضع الآتية من الظلال : ٣/ ٢١٩٤، ٢٥٤٧/٥ .

فكل شيء وكل أمر وكل تدبير وكل مآل هو دون مقام الله ذي الجلال، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء " (١).

ب – في ظلال قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سورة فاطر:١٠] ، يقول: " القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه، والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع، ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء " (٢).

ت– تصريحه – كما سبق – بعروج النبي ﷺ مع جبريل إلى سدرة المنتهى، ووقوفه تحت عرش الله سبحانه (٣).

فهذه النصوص جمعياً تبين أن سيداً – رحمه الله – يثبت لله سبحانه صفة العلو المطلق وأنه سبحانه في السماء، فوق العرش، منه ينزل الوحي والكتب على الرسل وإليه تصعد الأعمال والأقوال الطيبة والملائكة، وهي واضحة الدلالة على ذلك.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٠٧ – ٢٨٠٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣٠ .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٤٠٧ .

والذين قالوا بأن سيداً – رحمه الله – ينكر صفة العلو، اعتمدوا على كلام موهم أو عبارات عامة قالها في سياق ما، ويمكن بيان ذلك في الفقرة الآتية:

ثانيا: أدلة القائلين بأن سيد قطب ينفي صفة العلو ومناقشتها:

يستدل القائلون بأن سيداً – رحمه الله – ينفي أو ينكر صفة العلو بنصوص من كلام سيد، وسوف أورد تلك النصوص في سياقها ثم ننظر مدى دلالتها على المراد وهي:

١– تفسير سيد لصفة الاستواء بالاستعلاء والهيمنة:

حيث فهم بعضهم من تفسير سيد للاستواء على العرش بأنه كتابة عن السيطرة والهيمنة، أن سيداً ينفي صفة العلو، وسيأتي الحديث عن موقف سيد من صفة الاستواء مفصلاً، والذي يعنينا هنا مدى صحة الاستدلال بتفسير سيد للاستواء بالاستعلاء على نفي صفة العلو؟

يظهر من خلال جمع ومراجعة كلام سيد في مسألة العلو وفي مسألة الاستواء على العرش الأتي:

أ – أن سيد قطب– رحمه الله – يثبت صفة العلو لله تعالى – كما سبق في الفقرة السابقة – ويقرر أن الله في السماء وأنه فوق العرش، وأن المخلوقات كلها تحت عرشه، وأنه نزل

الوحي والكتب من عنده من السماء، وأن الأعمال تصعد إليه، مما يدلنا على أنه يؤمن بصفة العلو وأن الله في السماء.

ب- أن كلام سيد حول الاستواء كفعلٍ، بمعنى: هل كان الله غير مستوٍ على العرش ثم استوى عليه؟ فهو يرى أن الله تعالى لا تتغير عليه الأحوال ولا يكون في حالٍ أو وضعٍ – سبحانه – ثم يكون في وضعٍ أو حالٍ تالٍ، فـ " ثُمَّ " في قوله تعالى {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ} ليست عند سيد للترتيب الزمني، بمعنى أن الله كان في حالة عدم استواء ثم أصبح في حالة استواء، وإنما هي عنده للترتيب المعنوي، فالاستواء عند سيد قطب رمزٌ للسيطرة على الخلق، ولفظ " ثُمَّ " يعني استعلاؤه سبحانه وسيطرته وتدبيره للمخلوقات بعد خلق السماوات والأرض " (١).

فسيد قطب فسرالاستواء بلازم الاستواء وهو الانفراد بالملك والسلطان والتدبير ولم يفسره بمعنى الفعل، وإن كان له كلام آخر في تفسير الاستواء سيأتي عند الحديث عن صفة الاستواء.

(١) ينظر كلام سيد في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٠٧ ، ٦/ ٣٤٨٠ .

والخلاصة هنا أن سيداً وإن خالف تفسير السلف للاستواء في بعض النصوص إلا أنه لم ينكر صفة العلو، بل كان حديثه حول الاستواء على العرش كفعل لله مع إثبات أن الله فوق العرش وفي السماء.

<u>٢- الاستدلال بعبارات سيد قطب التي تصف الله بعدم التحيز في مكان:</u>

ذكر سيد في بعض المواضع أن الله سبحانه وتعالى لا يتحيز في مكان وعباراته في ذلك هي:

- في ظلال قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ } [سورة البقرة:١٤٣]) يقول: " وقد علم الله أن الرغبة الفطرية في اتخاذ أشكال ظاهرة للقوى المضمرة هي التي حادت بالمنحرفين عن الطريق السليم، حيث اتخذوا للقوى الكبرى رموز محسوسة مجسمة من حجر وشجر وغيرها. فجاء الإسلام يلبي دواعي الفطرة بتلك الأشكال المعنية بشعائر العبادة، مع تجريد الذات الإلهية عن كل تصور حسي وكل تحيز لجهة، فيتوجه الفرد إلى قبلة حين يتوجه إلى الله بكليته، بقلبه وحواسه وجوارحه، فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان في <u>التوجه إلى الله</u>

الذي لا يتحيز في مكان، وإن كان الإنسان يتخذ له قبلة من مكان " (١).

- في ظلال قول الله تعالى إبليس: {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } (٢)، يقول أيضاً " إنه –أي الشيطان – سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم، يصد كل من يهم باجتيازه – والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حساً، فالله سبحانه جل عن التحيز، فهو إذن طريق الطاعات المؤدي إلى رضى الله، وأنه سيأتي البشر من كل جهة للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة " (٣). حيث فهم بعضهم (٤) من كلام سيد السابق أنه ينفي صفة العلو كالجهمية وأهل البدع.

- ونحن نقول: إن قول سيد عن الله " لا يتحيز في مكان " و" وجل عن التحيز " من الألفاظ الحادثة التي لم تأتِ في الكتاب ولا في السنة ولا في كلام السلف عن الله، وهي تحمل حقاً وباطلاً، وبالتالي لا نستطيع الحكم على قائلها إلا إذا

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٢٨ بتصرف .

(٢) سورة الأعراف ، الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٦٧ بتصرف يسير وينظر أيضاً ٥/ ٣١٧٠ .

(٤) انظر : المورد الزلال للدويش ص ١٥ ، ٦٨ ، ٢٠٩ .

عرفنا مقصوده، فأهل البدع لما كان مقصودهم منها نفي الصفات، لم يوافقهم أهل السنة على إطلاقها على الله، وأهل السنة يرون عدم استعمال هذه الألفاظ في الكلام عن الله نفياً أو إثباتاً لعدم ورودها في الشرع، ولكنهم يقولون: إن كان المقصود منها أن الله سبحانه منزه عن الحدود وأنه لا تحده الجهات ولا تحويه المخلوقات فهذا المعنى صحيحاً، وإن كان المقصود منها أن الله ليس مبايناً لخلقه ولا منفصلاً عنهم وأنه ليس فوق السماوات ولا على العرش ونحو ذلك مما قاله أهل البدع كالجهمية وغيرهم فهذا باطل (١).

٣- الاستدلال بكلام سيد عن فوقية القهر والسيطرة:

في تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ } [سورة الأنعام:١٨] ، يقول سيد: " فهو صاحب السلطان القاهر وهم تحت سيطرته وقهره، وهم ضعاف في قبضة هذا السلطان لا قوة ولا ناصر، هم عباد والقهر فوقهم وهم خاضعون، ومقهورون " (٢).

حيث علق الشيخ الدويش – رحمه الله – على كلام سيد السابق بأن مذهب أهل السنة والجماعة إثبات العلو لله على ما

---

(١) ينظر كلام أهل السنة في ذلك في : منهاج السنة لابن تيمية ٢/ ٣٤٨ ، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٤٣/١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٠- ٢٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٢ .

يليق بجلاله علو الذات وعلو القهر وعلو القدرة، أما أهل البدع فإنهم لا يثبتون علو الذات، وهذا ظاهر من كلامه – أي سيد – لأنه ما قرر إلا فوقية القهر والسيطرة، ولم يذكر علو الذات، والآية صريحة في إثبات ذلك.. " (١).

وأقول: إن الاستدلال بعدم ذكر سيد هنا لعلو الذات على نفيه له غير صحيح، لأن سيداً وإن كان اقتصر هنا على ذكر علو القهر والسلطان لأن سياق الآية يدل عليه، فقد ذكر علو الذات في مواضع أخرى كما سبق بيانه.

٤ – الاستدلال بكلام سيد في تفسير قوله تعالى: {تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ} [سورة المعارج:٤] ، وهو قوله: " ولم نكلف أن ندري طبيعة هذه المهام وكيف يصعد الملائكة ولا إلى أين يصعدون " (٢).

حيث يقول الدويش – رحمه الله – بعد ذكره المقطع السابق من كلام سيد: " قوله ولا إلى أين يصعدون ليس كما قال، بل هو معلوم وهو أنهم يصعدون إلى الله تعالى، وقد استدل العلماء بهذه الآية وما شابهها على علو الله على خلقه،

(١) المورد الزلال للدويش ص ٦٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٩٦ .

ثم ذكر كلام الإمام الطبري في تفسيرها، ثم قال، وهذا واضح ولكن هذا شأن أهل البدع المعطلين لعلو الله على خلقه.. " [1].

وأقول: إن الاستدلال بالمقطع السابق على أن سيداً من أهل البدع الذين ينفون صفة العلو عن الله غير مسلم به للآتي:

أ - أن الشيخ الدويش لم يذكر كلام سيد قطب كاملاً في السياق ليتبين له عدم صحة استدلاله، فإن بداية السياق صريحة في ذكر علو الله وصعود الملائكة إليه يوم القيامة.

وإليك نص كلام سيد: " والأرجح أن اليوم المشار إليه هذا هو يوم القيامة لأن السياق يكاد يعين هذا المعنى، وفي هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله، والروح الأرجح أنه جبريل -عليه السلام - كما سمي بهذا الاسم في مواضع أخرى، وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لما له من شأن خاص، وعروج الملائكة في هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر إيحاءً بأهميته في هذا اليوم وخصوصيته، وهم يعرجون في شئون هذا اليوم ومهامه... ولا ندري نحن - ولم نكلف أن ندري - طبيعة هذه المهام، ولا كيف يصعد الملائكة، وإلى أين يصعدون، فهذه كلها تفصيلات من شأن الغيب لا تزيد شيئاً من حكمة النص، وليس لنا إليها

---

(١) المورد الزلال للدويش ص ٢٨٦ .

من سبيل، وليس لنا عليها من دليل فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ".

فسيد – رحمه الله – ينفي في النص معرفة كيفية تلك الأمور الغيبية، لاسيما أنها تتعلق بيوم القيامة، والسموات والارض تبدل يومئذ وتطوى، ولم يرد نص يبين أين يعرجون الى الله.

ويقررأننا لم نكلف أن نبحث عنها وعن غيرها من تفصيلات الأمور الغيبية، لأنها لا تزيد شيئاً في حكمة النص عند المؤمن وليس إليها سبيل، فالأفضل استشعار ما تدل عليه دون الخوض في تفصيلات وكيفيات الأمور الغيبية.

ومما سبق يتبين لنا:

١-أن سيد قطب- رحمه الله – يثبت صفة العلو المطلق لله سبحانه وتعالى بأنواعه علو الشأن وعلو القهر وعلو الفوقية.

٢-أن الاستدلالات التي ذكرها بعضهم على أن سيد قطب ينفي صفة العلو عن الله لا تدل على ما ذهبوا إليه.

المطلب الثالث

الصفات الذاتية الخبرية

وهي الصفات التي لا سبيل للعقل على انفراده بإثباتها، وإنما تثبت بطريق السمع والخبر عن الله تعالى: كصفة الوجه واليدين والعين ونحوها (١).

وموقف أهل السنة والجماعة من هذه الصفات هو إثباتها لله – سبحانه وتعالى– على الوجه الذي يليق بجلاله من غير تأويل ولا تعطيل ولا تكييف، كما هو شأنهم في بقية الصفات.

وأما المتكلمين فالمعتزلة ينفونها جميعاً، والأشاعرة منهم من ينفيها كإمام الحرمين الجويني في أول أمره في كتابه "الارشاد "، ومنهم من يثبت أكثرها كالباقلاني وغيره، والسبب في نفيها عندهم، أنها من سمات الأجسام، فيقتضي إثباتها التشبيه والتجسيم (٢).

---

(١) الصفات الإلهية، لمحمد أمان الجامي ، طبعة الجامعة الإسلامية – بالمدينة النبوية – ط١ ، عام ١٤٠٨ ، ص٢٧.

(٢) ينظر في ذلك : أساس التقديس للرازي ص ٢ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، وأصول الدين للبغدادي ص ٩٠ ، والإبانة لأبي الحسن الأشعري ص ٢٠– ٢٢ .

وفيما يلي بيان لموقف سيد قطب من صفات الذات الخبرية:

الفرع الأول: صفة الوجه:

صفة الوجه من صفات الذات الإلهية، التي ثبتت بالكتاب والسنة في قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [سورة القصص:٨٨] ، وقوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [سورة الرحمن:٢٧] ، وقوله ﷺ: ".. لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره.. " (١). وغير ذلك.

وبناءً على تلك الأدلة أثبت أهل السنة والجماعة هذه الصفة (٢)، ولم يختلف السلف في شيء من الآيات التي ورد فيها ذكر الوجه إلا في قوله تعالى: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [سورة البقرة:١١٥] ، حيث فسرها البعض بقبلة الله (٣). وخلافهم في هذه الآية لا يعني إنكارهم للصفة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١/ ١٤١ برقم ١٧٩ .

(٢) ينظر في ذلك : السنة لابن أبي عاصم ١/ ٢٢٨، والتوحيد لابن خزيمة ص ١٠، والأسماء والصفات للبيهقي ص ٣٠١، وما بعدها .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١/١٥٠ ومختصر الصواعق لابن القيم ص ٣٣٩ .

صفة الوجه عند سيد قطب: باستعراض كلام سيد قطب حول صفة الوجه، نجد أنه يثبت صفة الوجه في نصوص كثيرة من كلامه وبيان ذلك فيما يأتي:

١ – في ظلال كثير من الآيات التي تذكر ابتغاء وجه الله عند القيام بالأعمال، يجريها سيد على ظاهرها في إثبات صفة الوجه، ومن ذلك كلامه في تفسير قوله تعالى: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ} [سورة البقرة:٢٧٢] ، وقوله تعالى: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ} (١)، وقوله تعالى: {وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [سورة الرعد:٢٢] ، وقوله تعالى: {ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ} [سورة الروم:٣٨] ، وقوله تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ} [سورة الإنسان:٩] .

حيث يقرر أن أصحاب هذه الأعمال المذكورون في الآيات إنما يقومون بها تجرداً لله وابتغاء وجهه ومرضاته سبحانه، وليس لهم هدف غير ابتغاء وجهه سبحانه (٢).

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٥٢ ، والكهف ،ا لآية ٢٨ .

(٢) ينظر :في ظلال القرآن: ١/ ٣١٥ ، ٢/ ١٠٩٩ ، ١١٠٠، ٤/ ٢٠٥٧، ٢٢٦٨، ٢٧٧٢/٥، ٧٣٨١/٦، ٧٣٨٢.

٢ – يُثبت صفة الوجه في نصوص صريحة من كلامه ومن ذلك ما يلي:

– قوله في ظلال قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ} [سورة البقرة:١١٥] : " فهي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم أن صلاة المسلمين إلى بيت المقدس كانت باطلة..! والآية ترد عليهم هذا الزعم، وهي تقرر أن كل اتجاه قبلة، فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد، وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة، لا أن وجه الله – سبحانه – في جهة دون جهة والله لا يضيق على عباده، ولا ينقصهم ثوابهم، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاههم، وفي الأمر سعة " (١).

– في ظلال قول تعالى: {كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ} [سورة القصص:٨٨] يقول: " فكل شيء زائل وكل شيء ذاهب، المال والجاه، والسلطان والقوة، والحياة والمتاع، وهذه الأرض ومن عليها، وتلك السماوات وما فيها ومن فيها، وهذا الكون كله ما

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٠٥ .

نعلمه منه وما نجهله كله، كله هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي متفرداً بالبقاء " (١).

- في ظلال قوله تعالى: { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [سورة الرحمن ٢٦ ٢٧] ، يقول: " وتطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً، ويفرغ المجال من كل حي ويتجلى وجه الكريم الباقي متفرداً بالبقاء، متفرداً بالجلال، وتستقر في الحس حقيقة البقاء، وهو يشهد ظلال الفناء،..

وفي ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس، وتخشع الأصوات، وتسكن الجوارح، ظل الفناء يشمل كل حي، ويطوي كل حركة، ويغمر آفاق السماوات والأرض، وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح والزمان والمكان، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار....

ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب، فيعد استقرار هذه الحقيقة- حقيقة الفناء لكل من عليها، وبقاء الوجه الكريم وحده، نعمة يواجه بها الجن والإنس في معرض

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧١٦/٥.

الآلاء.. وختام السورة تسبيحاً باسم الجليل الكريم، الذي يفنى كل حي، ويبقى وجهه الكريم " (١).

– في ظلال قوله تعالى: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير:١٤] ، يقول: " وقد تغير كل شيء، وتبدل كل شيء ولم يبق إلا وجه الله الكريم، الذي لا يتحول ولا يتبدل، فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم فتجده – سبحانه – عندما يتحول الكون كله ويتبدل! " (٢).

– في ظلال قوله تعالى: {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ} [سورة الليل:١٩ ٢٠] ، يقول: " ثم ماذا ينتظر هذا الأتقى، الذي يؤتي ماله تطهراً، وابتغاء وجه ربه الأعلى؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب ومفاجئ، وعلى غير المألوف " (٣).

– في ظلال قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (٤)، يقول: " ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول"(١).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥٤، ٣٤٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤١..

(٣) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٩٢٣ .

(٤) سورة القيامة ، الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

" وهذا التطلع ذاته نعمة، لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم (٢).

الفرع الثاني: صفة النفس:

ذكر الله تعالى في غير ما آية في كتابه الكريم أن له نفساً كقوله – سبحانه –: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ } [سورة الأنعام:٥٤] ، وقوله لموسى عليه السلام {وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى } [سورة طه:٤١] ، وقوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ } [سورة آل عمران:٣٠] ، وغيرها، وجاء في السنة أيضاً ذكر ذلك كقوله ﷺ: " سبحانه الله العظيم وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه " (٣).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن لفظ النفس الذي ورد في بعض النصوص إطلاقه على الله تعالى يراد به – عند جمهور العلماء – الله نفسه التي هي ذاته، المتصفة بصفاته، وليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات.. وذكر أن طائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٦٧ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧٧١.

(٣) رواه مسلم في كتاب الذكر باب التسبيح أول النهار ٤/ ١٦٦٠ رقم ٢٧٢٦ .

كما يظن طائفة أنها الذات مجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ "[1].

وجاء عن الإمام ابن خزيمة – رحمه الله – قوله: " فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا –جل وعلا– في كتابنا هذا: ذكر نفسه، جلَّ ربنا عن أن تكون نفسه كنفس خلقه، وعزَّ أن يكون عدماً لا نفس له " [2]. ثم ذكر بعض النصوص في ذلك

وعقد الإمام البخاري باباً في كتاب التوحيد من صحيحة في إثبات النفس لله، ساق فيه بعض الآيات والأحاديث [3].

وخالفت الجهمية فزعمت أن نفسه سبحانه هي غيره، وأن الله إضافها إليه، على معنى إضافة الخلق إليه، وهذا باطل، لأنه لا يصح أن نقول: كتب ربكم على غيره الرحمة؟ واصطنعتك لغيري ويحذركم الله غيره!!..

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ١٩٦– ١٩٧ ، ٢٩٢/٩– ٢٩٣ ، وينظر أيضاً فتح الباري ١٣/ ٣٩٦، وأساس التقديس للرازي ص ٩٣ ، والأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ١١ .

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة.تحقيق د / عبد العزيز الشهوان دار الرشد ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، ١٠/ ١١

(٣) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى : " ويحذركم الله نفسه " ٦/٢٢٩٣– ٢٦٩٤ برقم ٦٩٦٨–٩٦٧٠ .

صفـة النفـس عنـد سيـد قطب: يثبت سيد قطب – رحمـه الله – صـفة الـنفس الإلهيـة، ويجـري الآيـات التـي وردت فيها صفة النفس على ظاهرها ومن ذلك:

١- في ظلال قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ} [1]، يقول: " ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكاً للضمائر، ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقا: {وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ}... ثم يتابع السياق الحملة على القلب البشري، فيكرر تحذير الله للناس من نفسه سبحانه {وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ} [2].

٢- وفي ظلال قوله تعالى: {كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ} [سورة الأنعام:١٢]، يقول: " فهو سبحانه المالك، لا ينازعه منازع ولكنه فضلاً منه ومنةً – كتب على نفسه الرحمة، كتبها بإرادته ومشيئته، لا يوجبها عليه موجب،... وقد تكرر ورود ذلك في السورة فقال في موضع آخر {كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ} [سورة الأنعام:٥٤] والذي يستوقف النظر.. هو

---

(١) انظر : التوحيد لابن خزيمة ، ص ٥-٦ ، والسنة لابن أبي عاصم ١/ ٢٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٦.

التفضل الإلهي من الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة، مكتوبة عليه، كتبها هو على نفسه.. " [(١)].

٣- في ظلال قوله تعالى لموسى: {وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي } [سورة طه:٤١] ' يقول: " -أي - خالصاً مستخلصاً لي ولرسالتي ودعوتي،... إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها، فما لك في نفسك شيء، ولا لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء " [(٢)]. "وربه معه، قد اصطنعه لنفسه، واستخلصه واصطفاه ". [(٣)].

الفرع الثالث: صفة اليد والأصابع:

ورد لفظ " اليد " في القرآن والسنة وكلام الصحابة في أكثر من مائة موضع، متنوعاً متصرفاً فيه مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقية كالطي والقبض والخلق باليدين، والإمساك

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٨- ١٠٤٩ ، ١١٠١، بتصرف يسير ، وينظر أيضاً ٦/ ٣٩٢٢- ٣٩٢٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥- ٢٣٣٦ بتصرف يسير

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤.

والغرس وغير ذلك واطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوعه وتصريفه يمنع المجاز [1].

وكذلك ورد لفظ الأصابع في كثير من الأحاديث الصحيحة أيضاً [2].

وبناءً على ذلك أثبت أهل السنة والجماعة صفة اليد لله تعالى على ما يليق به سبحانه [3].

وأولها بعض المتكلمين بالقدرة أو القوة أو النعمة [4].

صفة اليد والأصابع عند سيد قطب: من خلال استقراء كلامه على الآيات التي ورد فيها لفظ اليد نجد أن له نصوصاً صريحة في إثبات صفة اليد والأصابع لله تعالى، ونصوصاً أخرى موهمة. فهم منها البعض أنه يؤولها، ونصوص

---

(١) مختصر الصواعق لابن القيم ص ٣٢٣ ، ٣٣٤ .

(٢) ينظر في ذلك : الأسماء والصفات للبيهقي ص ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، وصحيح مسلم كتاب القدر ، ومنهج الإمام الخطابي في العقيدة للحسن بن عبد الرحمن العلوي ، دار الوطن – الرياض – ط(١ – ١٤١٨هـ ، ص١٦٣، ١٦٤ .

(٣) ينظر في ذلك : التوحيد لابن خزيمة ص ٦٧ ، والشريعة للآجري ص ٣٢٠ ، والأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٤٣، والإبانة للأشعري ص ٢٢ .

(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٢٢٨ ، وأساس التقديس للرازي ص ١٢٥ .

فسر لفظ اليد فيها خلافاً لما فسره السلف، ويمكن بيان ذلك مما يأتي:

أ – نصوص صريحة في إثبات صفة اليد والأصابع:

ومن ذلك:

١- في ظلال قول الله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [سورة الفتح:١٠] ، يقول: " وقد جاء- ﷺ - ليصلهم بالله، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله - ﷺ - فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً، فإنما يبايع عن الله: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ، والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده أن يد الله فوق أيديهم، فالله حاضر البيعة، والله صاحبها، والله آخذها – فالله حاضر لا يغيب، والله آخذ في هذه البيعة ومعطٍ، وهو عليها رقيب " (١).

٢-في ظلال قول الله تعالى: { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ } [سورة آل عمران:٨] يقول: " فهم بوحي إيمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٠ .

بفضل الله ورحمته وأنهم لا يملكون قلوبهم، فهي في يد الله فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة.

عن عائشة رضي الله عنها قال – كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء، فقال: ليس من قلب من القلوب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه " (١).

ومتى أستشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله... وإن يتشبث بحماه.. وأن يتجه إليه يناشده رحمته وفضله.. " (٢).

٤ –في ظلال قول الله تعالى { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } [سورة البقرة:١٢٨] ، يقول: " إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام، والشعور بأن قلبيهما بين

---

(١) رواه : الترمذي في القدر ما جاء أن القلوب بين اصبعي الرحمن ٣٩٠/٤ برقم ٢١٤٠ ، والحاكم في المستدرك ٢٨٨/٢ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٤٤٣/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧١ .وينظر أيضاً ١/ ٢٦٩ ؟

إصبعين من أصابع الرحمن، وأن الهدى هداه، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا به، فيتجهان إليه ويرغبان والله المستعان " [(١)].

٥- في ظلال قوله تعالى: {فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً } [سورة النساء:٣] ، يقول: " فالقلوب ليست ملكاً لأصحابها، إنما هي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وقد كان رسول الله ﷺ يعرف دينه ويعرف قلبه يقول: " اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " [(٢)]. [(٣)].

٦- في تعليقه على قصة السحرة وإيمانهم وحوارهم مع فرعون يقول: " ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر... فهم لطول ما استبعدوا لناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب، وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.. " [(٤)].

ويقول في موضع آخر " ولكن أني للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟: وهم قد

---

(١) في ظلال القرآن ١/١١٤ .

(٢) رواه : أبوداود في النكاح ٦٠١/٢ برقم ٢١٣٤ ، والترمذي في النكاح ٤٤٦/٣ برقم ١١٤٠ وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود ص ١٦٥ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٨٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٠ .

نسوا أن الله هو مقلب القلوب.. {ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ}، قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون.. وقد لمس الإيمان قلوبهم – أن يدفعوه عنها، والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء " (١).

٧- في ظلال قوله تعالى: {فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ} [سورة فاطر:٨] ، يقول: " إن هذا الشأن شأن الهدى والضلال، ليس من أمر البشر، ولو كان رسول الله ﷺ، إنما هو من أمر الله، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، هو مقلب القلوب والأبصار، والله سبحانه يعزي رسوله ويسليه بتقرير هذه الحقيقة له " (٢).

ويقول أيضاً في موضع آخر: " فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها إصبع الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراق، والله يعلم حقيقة القلوب وما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال" (٣).

٨- يثبت لفظ اليد على ظاهره في بعض النصوص، كقوله تعالى {تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ} [سورة الملك:١] ، وقوله: { قُلۡ

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٢٤٢- ٢٣٤٣ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً ٦/ ٣٧٦٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٢٧ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٠٤٨ ، وينظر أيضاً ، ٥/ ٢٧٤٤ .

مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ } [سورة المؤمنون:٨٨] وغيرها. حيث يشير إلى أن القرآن الكريم في هذه الآيات ونحوها يلفت نظر الناس إلى ما حولهم و" يطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون، وأغوار النفس، وطباق الجو وخفايا الغيوب فترى يد الله المبدعة " (١)،

ب) نصوص فهم منها البعض أن سيد يؤول صفة اليد ومنها:

١ – في ظلال قول الله تعالى: {وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ } [سورة المائدة:٦٤] ، يقول سيد: " وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه، فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، عندما سئلوا النفقة!. وقالوا: يد الله مغلولة، يعللون بذلك بخلهم، فالله – بزعمهم – لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل، فكيف ينفقون؟!.

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر، فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا: يد الله مغلولة؟

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢٩ . وينظر أيضاً :٤/ ٢٤٧٨، ٦/ ٣٤٩٦ .

ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم: {غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ }وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بمالٍ! ثم يصح هذا التصورالفاسد السقيم ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب، {بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ }. وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان، شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل.. " [(١)].

حيث فهم البعض [(٢)]. من النص السابق أن سيد يؤول صفة اليد لأنه فسر بسط اليد بالعطاء والفضل والنعم، والذي يظهر من التأمل في النص السابق أن سيد لم ينفِ اليد بدليل قوله " شاهدة باليد المبسوطة " ولكنه بين معنى بسطها، بالعطاء والفضل.

وكلام سيد في تفسير الآية هو نفسه ما فسرها به كثير من أعلام السلف، كالإمام الطبري وابن كثير وابن عباس – رضي الله عنه –، حيث فسروا البسط بالفضل الواسع والعطاء

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٢٩ .

(٢) ينظر : المفسرون بين الإثبات والتأويل للمغراوي ٣/ ١٣٨٥ ، وأضواء على عقيدة سيد قطب للمدخلي ص ١٧٦ .

الجزيل، وأن الله سبحانه عبر ببسط اليد عن هذا المعنى، لأن العطاء والبذل يكون غالباً باليد.. وهو من إضافة صفة الموصوف إلى يديه " (١).

٢- في ظلال قوله تعالى: { وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [سورة الزمر:٦٧] ، يقول سيد: " نعم ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به بعض خلقه، وهم لا يعبدونه حق عبادته، وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته، وهم لا يستشعرون جلاله وقوته.

ثم يكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته، على طريقة التصوير القرآنية، التي تقرب للبشر الحقائق الكلية في صورة جزئية، يتصورها إدراكهم المحدود.. وكل ما يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد، إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصورنها، ومنه هذا التصوير لجانب من

---

(١) ينظر في ذلك : تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٠، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، وتفسير ابن كثير ٧٥/٢ . وفي ظلال القرآن في الميزان د/ صلاح الخالدي ص ١٢٣ .

حقيقة القدرة التي لا تتقيد بشكل ولا تتحيز في حز، ولا تتحدد بحدود " [١].

٣- في ظلال قوله تعالى { قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ } [سورة ص:٧٥] ، يقول: " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ والله خالق كل شيء، فلا بد أن يكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه، هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن، وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية " [٢].

حيث استدل بهذه النصوص وبكلام قريب منها في كتاب التصوير الفني [٣] من قال بأن سيد قطب يؤول الصفات ومنها صفة اليد [٤].

<u>وأقول:</u> أما كلامه في التصوير الفني حول طريقة القرآن في تصوير الحقائق، ومنها ما يتعلق بأفعال الله فهو كلام خاطئ، لكن سيد في كتبه الأخيرة كالظلال والمقومات أثبت

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٦١- ٣٠٦٢ ، وينظر أيضاً : التصوير الفني في القرآن وسيد قطب ص ٧٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٨ .

(٣) ينظر : التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – ص ٧٣ .

(٤) انظر : المفسرون بين الإثبات والنفي للمغراوي ص ١٣٨٦ ، والمورد الزلال للدويش ص ١٨٦، ١٨٩ ، وأضواء على عقيدة سيد قطب للمدخلي ص ١٧٥ .

بعض الصفات التي جاء في كلامه في التصوير الفني تأويلاً لها، مما يعني أن كلامه السابق لا يصح كدليل على أنه ينفي الصفات بإطلاق.

وأما كلامه في النصوص السابقة فلا شك أنه مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة في تفسير تلك الآيات، والتي تثبت لله صفة اليدين والقبض والطي، وأن آدم خلقه الله بيده.

ومع قولنا بخطأ سيد في هذين الموضعين إلا أن الاستدلال بها على أنه يؤول صفه اليد غير قاطع الدلالة، لأن له نصوصاً كثيرة سبق إيراد بعضها يثبت فيها صفة اليد والأصابع لله سبحانه وتعالى.

أما قول الله تعالى: { وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَـٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [سورة الذاريات:٤٧] . فقد فسرها بالقوة تبعاً لجمهور المفسرين من السلف [(١)]. لأنها عند الجميع ليست من آيات الصفات.

الفرع الرابع: صفة العين الإلهية:

صفة العين من الصفات التي ورد إثباتها الله –تعالى– في آيات قرآنية متعددة من ذلك: قوله تعالى: { وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا

(١) انظر : في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٥ ، وتفسير الطبري ٤٧٢/١١، وتفسير بن كثير ٧/ ٣٣١٠.

} [سورة هود ٣٧] وقوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [سورة القمر:١٤] ، وقوله تعالى: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [سورة الطور:٤٨] وغيرها.

وكذلك جاء في السنة النبوية الصحيحة إثبات صفة العين الإلهية في أحاديث كثيرة ومنها حديث الدجال، وقوله ﷺ: " إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه " (١).

وبناءً على ذلك، فقد أثبت أهل السنة والجماعة صفة العين لله تعالى، كما يليق به سبحانه (٢). وتأولها الجهمية والمعتزلة (٣).

صفة العين الإلهية عند سيد قطب: باستقراء كلام سيد عن الآيات التي ورد فيها ذكر العين الإلهية نجد أنه يثبت صفة العين وما يلزم منها من لوازم كالحفظ والعناية والرعاية والملاحظة ونحو ذلك ومن النصوص في ذلك:

١ – في ظلال قوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ} [سورة القمر ١٤] ، يقول سيد: " وهي تجري في رعاية الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله الله ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ ،٢٦٩٥/٦ برقم ٦٩٧٣ .

(٢) التوحيد لابن خزيمة ص ٤٢ ، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٤٠١ ، والأسماء والصفات للبيهقي ٤٢/٢ .

(٣) أساس التقديس للرازي ص ٨ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ١٢٧ .

بملاحظة أعينه " (١)، وقوله في ظلال قوله تعالى: { فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [سورة المؤمنون:٢٧] : " فدفع به إلى الأخذ بالأسباب مع رعاية الله له " (٢) وفي ظلال قوله تعالى: { وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [سورة هود:٣٧] ، يقول سيد: "برعايتنا وتعليمنا " (٣).

وتفسير العين بالرعاية والملاحظة هو من تفسير الشيء بلازمة، ولا بأس به إذا كان مع إثبات العين، بخلاف تفسير العين بالرعاية والرؤية مع إنكار حقيقة العين" (٤). ٢ – في ظلال قوله تعالى لموسى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ} [سورة طه:٣٩] ، يقول سيد: " فربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد، وأنه لم يُرسل إلا بعد التهيئة والإعداد، وأنه صنع على عين الله منذ زمان،... (٥)، {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ} وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق، الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب، {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ} وكيف

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٧٦ .
(٤) شرح الواسطية ، للشيخ ابن عثيمين ص ٢٤ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٤ .

يصف لسان بشري خلقاً يصنع على عين الله؟ إن قصارى أي بشر أن يتأمله ويتملاه.

أنها منزلة، وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعاً على عين الله؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه.

ولتصنع على عيني تحت عين فرعون– عدوك وعدوي – وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع، ولكن عينه لا تمتد إليك بالشر، لأني ألقيت عليك محبة مني، ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عيني" [(١)]. "إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها " [(٢)].

٣ – في ظلال قوله تعالى: { وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا } [سورة مريم:٩٥] يقول: " فعين الله على كل فرد" [(٣)].

٤ – في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ﴾ [(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢١ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٥٩ .

يقول: " إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير، يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح... مفاتحها كلها عند الله.. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض... " [1].

٥ - في ظلال قوله تعالى: { وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا } [سورة الطور:٤٨] يقول سيد: " ويا له من تعبير: ويا له من تصوير! ويا له من تقدير! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان، هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله، حتى بين التعبيرات المشابهة.

لقد قيل لموسى -عليه السلام-: " وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي "، وقيل له: {وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ}، وقيل له: {وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي } وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قيل لمحمد ﷺ: {فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا }، وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص، وهو يلقي ظلاً فريداً أرق وأشف من كل ظل، ولا

---

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١١٢ .

يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذا الظلال " [١].

بالإضافة إلى ما سبق من كلام لسيد عند صفة السمع والبصر وتقريره أن الله سميع يسمع، وبصير يرى، وأنه بكل شيء بصير يبصره ويراه، مما يدل على إثباته لصفة العين الإلهية [٢].

الفرع الخامس: صفة الساق:

ورد ذكر الساق في القرآن الكريم مرة واحدة، منكرة غير مضافة، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله سبحانه، لأنه لم يضف الساق إليه، وإنما ثبتت هذه الصفة بالسنة.

وذهب بعض أهل العلم إلى إثباتها بالآية مستدلاً أيضاً بالسنة ومنها حديث الشفاعة وفيه: " فيكشف عن ساقه " [٣]، وفي

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٤٠٢ .

(٢) وينظر أيضاً : المصدر السابق ٦/ ٣٦٤٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوه تعالى " وجوه يومئذ ناظرة " ٦/٢٧٠٦ برقم ٧٠٠١ .

رواية " فيكشف عن ساق " [1]. وهو الموافق للفظ الآية: {يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ} [سورة القلم:٤٢] .

وتفسير الآية بالحديث، والاستدلال بها على الصفة هو ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة [2].

بينما يرى البعض أن هذه الآية ليست من آيات الصفات، وأن المقصود بالساق الذي يكشف عنه يوم القيامة هو: الأمر العظيم أو شدة الأمر وجده، كما هو مروي عن غير واحد من الصحابة والتابعين[3].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميه وغيره أن ما روى عن ابن عباس وغيره من المفسرين من تفسيرهم للساق بشده الأمر وعظمته، ليس من باب تأويلات المتكلمين المبتدعة "، " وإنما هو من التفسير الجلي لا من التأويل الخفي بالمعني الأصولي.. " [4].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه – رحمه الله –: " والصحابة قد تنازعوا في تفسير الآية، هل المراد به الكشف عن الشدة، أو

---

(١) رواه مسلم في الإيمان باب معرفة طرق الرؤية ١/١٤٥-١٤٦ برقم ١٨٣ .

(٢) انظر : الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ١٣٣، وتفسير بن كثير ٤/ ٣٥٩٧.

(٣) انظر : تفسير الطبري ، وتفسير ابن كثير ٣٥٩٦/٨-٣٥٩٧، والأسماء والصفات للبيهقي ص ٤٣٧، وفتح الباري ٦٦٤/٨ .

(٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٩/ ١٤٥ ، ومجموع فتاوى بن تيمية ٦/ ٣٩٤-٣٩٥ .

المراد به أنه يكشف الرب عن ساقه، ولم تتنازع الصحابة والتابعون فيما ذكر من آيات الصفات إلا في هذه الآية، وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله تعالى، لأنه قال: { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ } ولم يقل: عن ساق الله ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقاً نكرة غير معرفة ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على أنها ساق الله والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسر للقرآن الذي قال فيه: " فيكشف الرب عن ساقه " وقد يقال إن ظاهر القرآن يدل على ذلك من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود والسجود لا يصلح إلا الله، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه " (١).

ثم ذكر – رحمه الله – عدم صحة حمل الساق على الشدة، لأن المستعمل في اللغة أن يقال كشف الشدة: أي أزالها، وفي الآية يراد بالكشف الإظهار والإنابة، كما أنه في يوم القيامة تحدث الشدة لا يزيلها " (٢).

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٦/ ٣٩٤– ٣٩٥ ، وينظر أيضاً الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ٢٥٢ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٣٩٥ .

ومن خلال ما سبق نرى أن تفسير الآية على أنها من آيات الصفات هو الراجح لما ثبت من الأحاديث الصحيحة المفسرة لما في القرآن.

وأن القول بأنها ليست من آيات الصفات قول مرجوح وليس براجح.

أما سيد قطب – رحمه الله – فقد فسر الآية بالقول المرجوح وليس بالقول الراجح الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة.

ويظهر أنها ليست عنده من آيات الصفات حيث فسرها تبعاً لدلالة اللغة فيقول: " والكشف عن الساق كناية – في تعبيرات اللغة العربية المأثورة – عن الشدة والكرب، فهو يوم القيامة الذي يشمر فيه عن الساعد، ويكشف فيه عن الساق، ويشتد الكرب والضيق، ويدعي هؤلاء المتكبرون إلى السجود، فلا يملكون السجود، إما لأن وقته قد فات، وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة، وعلى أية حال فهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتحدي المخيف.. " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٦٧– ٣٦٦٨، وينظر أيضاً : مشاهد القيامة ص ٥٨ .

الفرع السادس: صفة النور:

في ظلال قوله تعالى: {ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ.. الآية} [سورة النور:٣٥] ، يقول سيد: " وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادئ الوضيء فيغمر الكون كله، ويفيض على المشاعر والجوارح، وينسكب في الحنايا والجوانح، وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر، وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر، وحتى تنزاح الحجب، وتشف القلوب، وترف الأرواح، ويسبح كل شيء في الفيض الغامر، ويتطهر كل شيء في بحر النور، ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله فإذا هو انطلاق ورفرفة، ولقاء ومعرفة، وامتزاج وأُلفة، وفرح وحبور، وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود، تتصل فيه السماوات بالأرض، والأحياء بالجماد، والبعيد بالقريب، وتلتقي فيه الشعاب والدروب، والطوايا والظواهر، والحواس والقلوب {ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ }.

النور الذي منه قوامها ومنه نظامها، فهو الذي يهبها جوهر وجودها، ويودعها ناموسها، ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى، عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة – بعد تحطيم الذرة – على إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور! ولا مادة لها إلا النور!

فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون، فكان يدركها كلما شفَّ ورفَّ، وانطلق إلى آفاق النور.

ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله ﷺ ففاض بها وهو عائد من الطائف نافضٌ كفيه من الناس، عائذ بوجه ربه يقول: " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة " (١)، وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج فلما سألته عائشة –رضي الله عنها– هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنى أراه " (٢).

ولكن الكيان البشري لا يقوى طويلاً على تلقي ذلك الفيض الغامر، ولا يستشرف طويلاً ذلك الأفق البعيد، فبعد أن جلا النص هذا الأفق المترامي، عاد يقرب مداه، ويقربه إلى الإدراك البشري المحدود، في مثل قريب محسوس.

---

(١) أخرجه بن منده في كتاب التوحيد لابن منده ، تحقيق د/ علي الفقيهي مكتبة العلوم والحكم – المدينة ط١ عام ١٤٢٣هـ ٣/ ٣٨ برقم ٣٩٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ ، وابن هشام ، انظر السيرة النبوية لابن هشام دار التراث العربي القاهرة ٢٦٥/٢ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان باب قوله " نور أني اراه " ١/ ١٤١ برقم ١٧٨ .والترمذي في التفسير ٥/ ٦٩ / ٣٢٨٢ . وفي لفظ لمسلم " رأيت نوراً "

{مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ} [سورة النور:٣٥] .

– وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود، ويرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس حين يقصر عن تملي الأصل، وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير... {نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ} وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف! إنه نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السموات والأرض، النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه، إنما هي محاولة لوصل القلب به، والتطلع إلى رؤياه {يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ}ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه...

– إنما المثل الذي ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك، وهو العليم بطاقة البشر {وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ} ذلك النور الطليق، الشائع في السماوات والأرض، الفائض في السماوات والأرض، يتجلى ويتبلور في بيوت الله، التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة " (١).

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٨ – ٢٥٢٠ بتصرف يسير .

الفرع السابع: صفة الأول والآخر والظاهر والباطن:

في ظلال قوله تعالى: {هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد:٣] يقول: " الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، الأول والآخر مستغرقاً كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان، وهما مطلقتان، ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيءٍ إلا اله، وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه، حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمداً من وجود الله، فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده، وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته، وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود" [١]، ولابن القيم – رحمه الله –كلام قريب من هذا في إحاطة هذه الأسماء الأربعة بالزمان والمكان [٢].

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٤٧٩.

(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم المطبعة السلفية القاهرة طبعة عام ١٣٧٥هـ ص ٢٤ .

المطلب الرابع

الصفات الفعلية " العقلية السمعية "

ذكرنا سابقاً أن المقصود بالصفات الفعلية: الصفات التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعل، ولذا يعبر عنها بالأفعال الاختيارية (1).

والصفات الفعلية عند أهل السنة والجماعة قائمة بذات الله تعالى، فهي من حيث قيامها بالذات تسمى صفات ذات لأن الذات متصفة بها، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى صفات أفعال (2).

وعلى هذا فالصفات الفعلية – في اعتقاد أهل السنة والجماعة – قديمة النوع، حادثة الآحاد، بمعنى أن نوعها قديم لم يزل الله تعالى موصوفاً بها أزلاً وأبداً، فلم تحدث له صفة بعد أن لم يكن متصفاً، وأما آحاد هذه الصفات وأفرادها فهي حادثة، بمعنى أنها تقع شيئاً فشيئاً، تبعاً لقدرة الله تعالى وإرادته وحكمته (3).

---

(1) انظر : بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٨٠ ، والقواعد المثلى لابن عثيمين ص ٤٣ .

(2) انظر : شرح القصيدة النونية لهراس ٢/ ١١٧ .

(3) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢/ ١٤٧- ١٤٨ ، وشرح الواسطية لهراس ص ١٦٠ .

وهذا النوع من الصفات – أي الفعلية – ينقسم إلى قسمين:

الأول: صفات الفعل العقلية السمعية، وهي التي يشترك في إثباتها الدليل السمعي (النقلي) والدليل العقلي، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها.

والثاني: صفات الفعل الخبرية، وهي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ، كالاستواء والنزول والمجيء والغضب ونحوها [(١)].

وعموماً فصفات الفعل العقلية السمعية من الصفات الثابتة لله سبحانه وتعالى، وهي دالة على ربوبيته سبحانه.

وليس حولها خلاف بين الفرق، لأنها من لوازم ربوبيته سبحانه والإقرار بربوبيته سبحانه أمر فطري لم ينكره إلا شواذ الخلق، فحتى المشركون لم يكونوا يجادلون في صفات الربوبية كالخلق والرزق ونحوها كما سبق، ولم يحصل خلاف في هذه الصفات بين الفرق إلا في صفة الكلام باعتبارها صفة فعل وذات وقد سبق الحديث عنها في المطلب السابق.

---

(١) انظر : فتح الباري ١٣/ ٣٧٥ ، والصفات الإلهية للدكتور / محمد أمان الجامي ص ٢٠٧ – ٢٠٨ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٧٨– ٨٠ .

وسيد – رحمه الله – يثبت صفات الفعل العقلية السمعية في ظلال الآيات التي جاء فيها ذكر صفات الخلق والرزق والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، والضر والنفع.. إلى آخر صفات ربوبيته سبحانه (١).

ومن الأمثلة لكلام سيد في بيان هذه الصفات وتفرد الله بها قوله: " إن كل ما ادعاه البشر في جاهلياتهم آلهة، لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا ينفعون أو يضرون، ولا ينصرون عبادهم من الله ولا أنفسهم ينصرون، ولا يحيون ولا يميتون، ولا يبعثون ولا ينشرون، ولا يحاسبون، ولا يجزون وإذن فليسوا آلهة لأن الإله هو الذي يخلق ويرزق ويضر وينفع ويحيى ويميت ويبعث ويجزي " (٢).

---

(١) ينظر أمثلة من كلام سيد حول صفات التدبير: في ظلال القرآن ١/ ٥٢، ٥٣ ، ٤/ ١٨٥٦، ٥/ ٢٧٥٠، ٢٧٧٢، ٢٨٠٦، ٦/ ٢٣٨ . ومقومات التصور الإسلامي ، فصل حقيقة الألوهية كاملاً ص ١٨٩ – ٣٢٢ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٨٥ .

المطلب الخامس

الصفات الفعلية " الخبرية "

وهذه ا لصفات هي التي حصل حولها خلاف بين الفرق الإسلامية، ويمكن بيانها وموقف سيد قطب منها في الفروع الآتية:

الفرع الأول: صفة الاستواء:

وهي من أشهر الصفات التي وقع فيها النزاع بين السلف والمتكلمين، وبالتالي تحتاج إلى إيضاح وتفصيل كما يأتي:

أولاً: المقصود بالاستواء وعلاقته بالعلو:

لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان:

الأول: مطلق: وهو ما لم يوصل معناه بحرف " أي مجرد " مثل قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ} [سورة القصص:١٤] وهذا معناه كَمُلَ، وتَمَّ.

الثاني: مقيد: وهو على ثلاث أضرب:

١- مقيد بـ " **إلى** " كقوله تعالى: { ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ } (١)
وهذا له معنيان: إما العلو والارتفاع،
وإما القصد والإقبال.

٢- مقيد بـ " **على** " كقوله تعالى: { لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ } [سورة الزخرف:١٣] ، وقوله: {وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ } [سورة هود:٤٤] وقوله: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ } [سورة الحديد:٤] ، وله عدة معانٍ منها: العلو ، والارتفاع، والاستقرار ، والصعود (٢).

٣- المقرون بالواو: أي واو (مع) التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو " استوى الماء والخشبة " بمعنى ساواها (٣).

---

(١) ينظر أمثلة من كلام سيد حول صفات التدبير: في ظلال القرآن ١/ ٥٢، ٥٣ ، ٤/ ١٨٥٦، ٥/ ٢٧٥٠، ٢٧٧٢، ٢٨٠٦، ٦/ ٢٣٨ . ومقومات التصور الإسلامي ، فصل حقيقة الألوهية كاملاً ص ١٨٩ – ٣٢٢ .

(٢) شرح القصيدة النونية ، لهراس ١/ ٢٤١ .

(٣) ينظر في ذلك : مختصر الصواعق لابن القيم ٢/ ٣٠٦ ، وفتح الباري ١٣/ ٤٠٦، والإتقان للسيوطي ٢/ ٦ ، ٧ ، وتفسير السعدي ١/ ٤٩ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٣٨٤– ٣٨٥، ولسان العرب ١٤/ ٤١٤.

العلاقة بين العلو والاستواء:

الاستواء علوٌ خاص بالعرش، وأما العلو فهو علوٌ عام على جميع المخلوقات. فالاستواء على العرش أخص من مطلق العلو، فعلوه سبحانه وتعالى ثابت له أزلاً وأبداً، لم يزل عالياً على كل شيء قبل أن يخلق العرش، ولا يلزم من عدم استوائه على العرش عدم علوه، بل هو عالٍ ثم بعد خلق السماوات والأرض علا علواً خاصاً على العرش.

ولهذا تجد أن الذين ينفون علو الله العام على جميع خلقه ينفون كذلك علوه الخاص على العرش، لكن العلو – كما سبق من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل عند أئمة المثبتة، وأما الاستواء على العرش فمن الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل (١)، وهي الصفات الخبرية (٢).

ثانياً: مواقف الفرق من استواء الله عز وجل:

ويمكن بيان موقف الناس من استواء الله عز وجل فيما يأتي:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٢٢٧ .

(٢) انظر : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لابن عثيمين ص ١٠٣، ١١٦ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ص ٣٨٥.

١ - الاستواء المقرون بـ" إلى ": وقد جاء في موضعين من القرآن الكريم هما قوله تعالى في سورة البقرة {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ} [سورة البقرة:٢٩] ، وقوله تعالى في سورة فصلت: {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا} [سورة فصلت ١١ ١٢] .

والمفسرون في بيان معنى الاستواء في هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: أن معنى استوى علا وارتفع إليها، فهي والمعداة بـ" على" سواء في المعنى وعلى هذا جماعة من أهل العلم، يقول ابن جرير والطبري– رحمه الله –: " وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ}: " علا عليهن وارتفع فدبرهن بقدرته وخلقهن سبع سموات " (١).

ويقول ابن القيم – رحمه الله –: " والمقيد بـ " إلى " كقوله تعالى {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ} واستوى فلان إلى السطح، وإلى الغرفة، بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف " (٢).

---

(١) تفسير الطبري ٢٢٢/١، ٩٢/١١ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ٢/ ٣٠٦ بتصرف يسير .

القول الثاني: أن معنى استوى هنا: قصد، والمعنى " قصد إليها قصداً كاملاً، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم، يقول ابن كثير – رحمه الله –: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ} أي قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا مضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عدي بـ "إلى" [(1)]، ويقول الإمام السعدي [(2)] – رحمه الله –: " استوى ترد في القرآن على ثلاثة معاني:

والثالث: تكون بمعنى " قصد " كما إذا عديت بـ " إلى " كما في قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ} أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات فسواهن سبع سموات فخلقها وأحكمها وأتقنها " [(3)].

وقد ذكر القولين الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – عند كلامه على معنى الاستواء فقال: " والمعداة بـ " إلى " مثل قوله تعالى {

---

(1) تفسير ابن كثير ١/٢٢٤ وينظر تفسير الطبري ١/٢٢٧-٢٢٨ .

(2) هو : عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي من كبار علماء نجد المعاصرين ولد بعنيزه عام ١٣٠٧هـ اشتغل بالتدريس والدفاع عن عقيدة السلف له مؤلفات عديدة ، توفى عام ١٣٦٧هـ انظر علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الرحمن البسام مكتبة مكة ط١ عام ١٣٩٨ ، ٢/٤٢٢ الأعلام ٣/٣٤٠

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي دار الذخائر الرياض طبعة عام ١٩٩٤هـ ١/ ٤٩.

ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ}فهل معناها كالأولى المعداة بـ" على"؟ فيها خلاف بين المفسرين:

- منهم من قال: إن معناهما واحد، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير - رحمه الله - فمعنى {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ}أي: ارتفع إليها.

- ومنهم من قال: بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل، فمعنى استوى إليها أي: قصد إليها قصداً كاملاً، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنها عديت بما يدل على هذا المعنى وهو "إلى" وإلى هذا ذهب ابن كثير - رحمه الله -، ثم ذكر كلام ابن كثير السابق " (١).

٢) الاستواء المقرون بـ" على": جاء الاستواء المقرون بـ" على " المضاف إلى الله تعالى في القرآن الكريم في سبعة مواضع هي:

١- قوله تعالى: {خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ} [سورة الأعراف:٥٤] .

٢- قوله تعالى {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ} [سورة يونس:٣] .

٣- قوله تعالى: {ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ} [سورة الرعد:٢] .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ١/ ٣٨٤- ٣٨٥ مطبعة دار المدني - جدة - طبعة عام ١٤٠٨هـ .

٤- قوله تعالى: {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ} [سورة طه:٥] .

٥- قولــه تعــالى {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا} [سورة الفرقان:٥٩]

٦- قولـــه تعـــالى: {ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة السجدة:٤] .

٧- قولـــه تعـــالى: {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة الحديد:٤] .

ففي هذه السبعة المواضع جاء التصريح باستوائه سبحانه على العرش، بعد خلق السموات والأرض.

وقد اختلفت آراء الفرق في معنى الاستواء في هذه الآيات السبع على أقوال هي:

القول الأول: إثبات صفة الاستواء لله تعالى على الوجه الذي يليق به سبحانه وهذا هو قول جمهور أهل السنة والجماعة حيث يفسرون الاستواء على العرش بالعلو والارتفاع، فيقولون: {ٱسۡتَوَىٰ} أي: علا وارتفع وصعد واستقر [1].

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٩٨، وتفسير الطبري ١/ ٢٢٨ – ٢٣٠ ، والتمهيد لابن عبد البر ٧/ ١٣١ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٥١٨ ، وشرح نونية ابن القيم لهراس ١/ ٢٤١ ، ولسان العرب ١٤/ ٤١٤ .

فالاستواء صفة فعلية ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به سبحانه دون الخوض في كيفية الاستواء، كما قال الإمام مالك – رحمه الله – عندما سئل عن الاستواء فقال: " الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة " وفي رواية عنه " الاستواء غير مجهول " (١).

وقد اشتهرت هذه المقولة عنه وإن كانت محفوظة عن غيره أيضاً، وغدت قاعدة محكمة تنطبق على جميع نصوص الصفات عند أهل السنة والجماعة.

<u>**القول الثاني:**</u> تأويل الاستواء بالاستيلاء، كما يقول غلاة الجهمية والمعتزلة وبعض الأشاعرة، حيث يفسرون الاستواء بالاستيلاء، ويستدلون لتحريفهم هذا بدليلٍ موجَب ودليلٍ سالب، أما الموجب فقول الشاعر:

قد استوى بِشْرٌ على العراق   من غير سيف أو دمٍ مهراق

وأما السلبي فقالوا: لو أثبتنا أن الله جل وعلا مستوٍ على عرشه بمعنى العلو والاستقرار، للزم من ذلك لوازم منها: أن

---

(١) انظر : الرد على الجهمية للدرامي ص ٢٨٠ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للألكائي ٣/ ٣٩٨، والحلية لأبي نعيم ٦/ ٣٢٥ ، والأسماء والصفات للبيهقي ص ٥١٥ ، والتمهيد لابن عبد البر ٧/ ١٣٨، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ١٠٠، والحموية لابن تيمية ص ٢٤ ، والعلو للذهبي ص ١٠٣ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٩٦ .

يكون محتاجاً إلى العرش، وأن يكون محدوداً، وأن يكون جسماً وهذه أمور مستحيلة على الرب [١].

وهذا تأويل بعيد لأنه لم يرد في كلام العرب تفسير الاستواء بالاستيلاء، وإنما حملهم على ذلك أنهم ينكرون علو الله تعالى على خلقه، وأنه ليس في السماء، ولا على العرش، فكان تفسيرهم له بالاستيلاء ليتوافق مع تعطيلهم.

وقد رد هذا القول شيخ الإسلام ابن تيميه وأبطله من أثنى عشر وجهاً، وأبطله الإمام ابن القيم من اثنين وأربعين وجهاً، وكذا ابن عبد البر وغيرهم[٢].

القول الثالث: التفويض: وهو قول كثير من الأشاعرة المتقدمين وبعض المتأخرين، بحجة أنه أسلم في زعمهم، حيث

---

(١) انظر : الفصل لابن حزم ٢/ ٢٨٩ ، وتفسير الرازي ٤/ ١٠٦، وأصول الدين للبغدادي ص ١١٣ ، ومقالات الإسلاميين للأشعري ص ١٥٧، والكشاف للزمخشري دار إحياء التراث بيروت، ط١، عام ١٤١٧هـ ٦١/١ ، شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص ٢٢٦ ، والإرشاد للجويني ص ٤٠ وشرح الواسطية لابن عثيمين ص ٣٧٥- ٣٧٦ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ١٤٤- ١٤٩، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/ ٣٠٦- ٣٢٢ ، والتمهيد لابن عبد البر ٧/ ١٣٧ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ص ٣٧٥ وما بعدها .

يجعلونه من المتشابه الذي يفوض علمه إلى الله تعالى وممن قال به أيضاً الإمام ابن حجر، والشاطبي[1]، وغيرهما [2].

وهذا القول مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة حيث أن أهل السنة يقولون: الاستواء معلوم في لغة العرب – كما سبق – وإنما المجهول للبشر هو كيفية استواء الله تعالى، ولذلك أثبت أهل السنة الاستواء بمعناه المعلوم في اللغة، وفوضوا الكيفية على حد القول المأثور عن الإمام مالك وغيره: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه " [3].

وقد بسط القول في الرد على أهل التفويض جماعة من أهل السنة [4].

---

(١) هو : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ، فقيه وأصولي ومفسر من أئمة المالكية له مصنفات عديدة ، توفى سنة ٧٩٠هـ انظر الأعلام الزركلي ١/٧٥ .

(٢) انظر : فتح الباري ١٣/ ٤١٦، وهدى الساري مقدمة فتح الباري ص ١٣٦، والموافقات للإمام الشاطبي دار الكتب العلمية بيروت ب.ت ٣/ ٣٤٤، وتفسير الرازي ١٤/ ١٢١، وأصول الدين للبغدادي ص ١١٢ ، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ٩٢.

(٣) سبق تخريجه الصفحة السابقة .

(٤) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ١٤– ١٦، ومجموع الفتاوى ٤/ ٦٧– ٦٨ ، ٥/ ٣٤–٣٦ ، ومختصر الصواعق لابن القيم ١/ ٥٤– ٥٥ .

القول الرابع: تفسير الاستواء بمعنى الاستعلاء والسيطرة والملك والسلطان والقدرة: [1].

وهذا وإن كان مخالفاً لما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، إلا أن له وجهاً من لغة العرب، بخلاف القول الثاني - تفسيره بالاستيلاء - لأنه لم يرد في كلام العرب ذلك.

ثالثاً: موقف سيد قطب من تفسير الاستواء:

حدث جدل طويل حول موقف سيد قطب من صفة الاستواء، حيث اتهمه بعضهم بأنه جهميٌّ معطل، وأشعري معتزلي مؤول [2]، ودافع عنه آخرون، وحتى تتبين لنا حقيقة موقف سيد قطب من صفة الاستواء لا بد من عرض كلامه كاملاً، ثم الحكم عليه وذلك على النحو الآتي:

١ - تفسير - سيد - للاستواء المقيد بـ" إلى":

مر معنا أن لفظ الاستواء أضيف إلى الله تعالى مقروناً بـ " إلى " في موضعين من القرآن الكريم، وأن أهل العلم اختلفوا في تفسيره على قولين:

---

(١) انظر : فتح الباري ١٣/ ٤٠٥- ٤٠٦ ، والتحف في مذاهب السلف للإمام الشوكاني ص ١٥ ، وقاموس القرآن للدامغاني ص٢٥٥.

(٢) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب للمدخلي ص ١٧٤ ،و الجماعات الإسلامية للهلالي ص ٢١٤ .

الأول: أنه بمعنى العلو والارتفاع، والثاني: أنه بمعنى القصد والإقبال [١].

أما سيد قطب – رحمه الله – فقد فسرها في هذين الموضعين بالمعنى الثاني – أي القصد والإقبال– تبعاً لابن كثير وغيره من أئمة التفسير الذين قالوا بهذا الرأي. وإليك كلام سيد في الموضعين:

أ – في ظلال قوله تعالى: { هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٞ } [سورة البقرة:٢٩] يقول: " ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء، ويتحدثون عن القبلية والبعدية، ويتحدثون عن الاستواء والتسوية، وينسون أن " قبل وبعد " اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى، وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان إلى التصور البشري المحدود صورة غير المحدود ولا يزيدان، وما كان الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات القرآنية إلا آفةً من آفات الفلسفات الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى، عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية والعقلية الإسلامية الناصعة، وما كان لنا أن نقع في

---

(١) انظر : شرح العقيد الواسطية لابن عثيمين ص ٣٨٤ ، وص من هذا البحث .

هـذه الآفـة، فنفسـد جمـال العقيـدة وجمـال القـرآن بقضـايا علـم الكــلام {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} ولا مجـال للخـوص فـي معنـى الاسـتواء إلا بأنـه رمـز السـيطرة، والقصد بإرادة الخلق والتكوين " (١).

ب – في ظلال قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} [سورة فصلت:١١] يقول سيد: " والاستواء هنا القصد، والقصد من جانب الله تعالى هو توجه الإرادة، و" ثـم " قـد لا تكـون للترتيـب الزمنـي، ولكـن للارتقـاء المعنوي" (٢).

ويظهـر مـن كـلام سـيد السـابق، أنـه فسـر الاسـتواء إلـى السـماء بالقصـد إليهـا وتوجـه إرادتـه لخلقهـا، وهـو قـول قـال بـه بعض أهل السنة وله أصل في لغة العرب (٣)، ونسبة سيد بنـاءً علـى تفسـيره هذا إلـى المعتزلـة (٤)، لمجـرد أن الزمخشـري قـال

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٤ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١/ ٤٢٨ ، وتفسير ابن كثير ٢٢٤/١ ، وتفسير السعدي ، ٤٩/١ .

(٤) الجماعات الإسلامية لسليم الهلالي ص ٢١٤ ، وينظر أيضاً : في ظلال القرآن في الميزان د / صلاح الخالدي ص ١٢٩– ١١٣.

بهذا الرأي غير صحيح، لأنه قد قال به جماعة من أهل السنة والجماعة أيضاً.

٢ – تفسيره للاستواء المقيد بـ " على ":

الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن الاستواء على العرش معناه: العلو والارتفاع، كما يليق بجلاله سبحانه، دون السؤال عن كيفيته كما سبق، وأما المخالفون لأهل السنة من الجهمية والمعتزلة وبعض الأشاعرة ففسروه بالاستيلاء، وبعضهم فسره بالاستعلاء، وآخرون توقفوا وفوضوا المعنى والكيفية وجعلوه من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

أما سيد قطب – رحمه الله – فقد كان كلامه عن الاستواء في الطبعة المنقحة مختلف عنه في الطبعة الأولى، والسبب في ذلك: " أن سيداً – رحمه الله – كتب من أول الظلال إلى الجزء السادس عشر قبل دخوله السجن، ثم في السجن أتم إلى الجزء السابع والعشرين، ثم كتب الأجزاء الثلاثة الأخيرة مركزاً فيها على المنهج الحركي، وبعد أن أكمل الظلال، عاد من أوله ينقحه ويفسره تبعاً للمنهج الحركي عنده، فكتب العشرة الأجزاء الأولى من القرآن بتركيز شديد، وعلى منهج جديد، وبطريقة جديدة، فكان يقف عند الآيات طويلاً، ويسجل كل خواطره حولها ويتعرض للحديث عما توحي له من قضايا

في العقيدة والحركة وغير ذلك.. والأجزاء من الحادي عشر إلى الثالث عشر لم يقف طويلاً عند آياتها، لأنه قال معظم ما يريد قوله في الأجزاء السابقة، وكان يريد إكمال الأجزاء الباقية لكن الطغاة عاجلوه بالإعدام فلم يتمكن من ذلك " (١).

وهذا يعني أننا بحاجة إلى أن نقف على كلام سيد قطب في الطبعة الأولى، وكذا في الطبعة المنقحة لنعرف هل كان واحداً أم مختلفاً، ثم نحكم بعد ذلك على ما استقرعليه، وذلك كما يلي:

أ - **تفسير سيد للاستواء في الطبعة الأولى:**

من خلال تتبع كلام سيد قطب حول الاستواء في السبعة المواضع من الطبعة الأولى، نجد أنه كان يميل إلى تأويل الاستواء بأنه رمز للسيطرة، وإليك كلامه فيها مرتباً على النحو التالي:

١- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة الأعراف:٥٤] في سورة الأعراف قال: " مستعلياً على هذا الكون الهائل يدبره بأمره ويصرفه وفق الناموس الذي اختاره " (٢).

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن . د/ صلاح الخالدي ص ٥٠- ٥٢ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ، الطبعة الأولى ، ٨/ ٧٩، نقلا عن : في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ص ١٣٢.

٢- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة يونس:٣] في يونس قال " ثم استوى على العرش عرش الكون، كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة، باللغة التي يفهمها البشر، ويتمثلون بها المعاني على طريقة القرآن في التصوير، وتجسيم المعاني المجردة في صورة حسية تخييلية " (١).

٣- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة الرعد:٢] في سورة الرعد، يقول: " وهو الاستعلاء المطلق يرسخه في صورة، على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة" (٢).

٤- في تفسير قوله تعالى {ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ} [سورة طه:٥] في سورة طه يقول: " وهو المهيمن على الكون كله، " على العرش استوى " والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء فأمر الناس إذن إليه.. " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ، الطبعة الأولى ١١/ ٥٦ ، نقلاً عن الخالدي ص ١٣٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، الطبعة الأولى ١١/ ٤٥ ، نقلاً عن الخالدي ص ١٣٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٣٢٨ .

٥- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة الفرقان:٥٩] في سورة الفرقان يقول: " أما الاستواء على العرش فهو الاستعلاء والسيطرة " (١)

٦- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة السجدة:٤] في سورة السجدة يقول: " والاستواء على العرش، رمز لاستعلائه على الخلق كله، وأما العرش ذاته، فلا سبيل إلى قول شيء عنه، ولا بد من الوقوف عند لفظه، وليس كذلك الاستواء فظاهر أنه كناية عن الاستعلاء، ولفظ " ثم " لا يمكن قطعاً أن يكون للترتيب الزمني، لأن الله سبحانه – لا تتغير عليه الأحوال، ولا يكون في حال أو وضع – سبحانه – ثم يكون في حالٍ أو وضع تالٍ، إنما هو الترتيب المعنوي، فالاستعلاء درجة فوق الخلق يعبر عنها هذا التعبير.. وهو سبحانه المسيطر على العرش والسماوات والأرض وما بينها " (٢)

٨- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ} [سورة الحديد:٤] في سورة الحديد يقول: "وكذلك العرش فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته، أما الاستواء على العرش فنملك أن

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٠٧

نقول: إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق، استناداً إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله – سبحانه – لا تتغير عليه الأحوال، فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش، ثم تتبعها حالة الاستواء.

والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى: {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ} والأولى أن نقول: إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا.

والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفاً، لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا، إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته، وإلى التصور الذي يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته "(١).

ونخلص مما سبق عرضه من كلام سيد قطب عن الاستواء في الطبعة الأولى وفي الأجزاء غير المنقحة من الظلال إلى الآتي:

أولاً: أن سيد قطب – رحمه الله – في جميع المواضع يفسر الاستواء بأنه رمز وكناية عن الاستعلاء والسيطرة والهيمنة على الخلق.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٠.

ثانياً: أنه اعترف بأنه أول الاستواء إلى معنى الاستعلاء، وبيَّن أن الذي دفعه إلى هذا التأويل هو لفظ " ثم " في الآيات حيث يرى أنه لا يجوز أن تكون للترتيب الزمني لأن الله سبحانه منزه عن الحدوث، ولا تتغير عليه الأحوال، فلا يكون في حالة عدم استواء ثم يصبح في حالة استواء.

لذلك فهو يرى أن " ثم " للترتيب المعنوي وليس الزمني.

ثالثاً: يرى أن قول السلف " نؤمن بالاستواء ولا ندك كيفيته " لا يفسر الاستواء، فلا بد عنده من أن يكون الاستواء كناية عن الهيمنة، ويقرر أنه في تأويله هذا متبع لطريقة القرآن في التعبير عن الغيبيات بصورة تقريبها للإدراك البشري.

ب – تفسيره للاستواء على العرش في الطبعة المنقحة:

كان أول موضع ذكر فيه الاستواء في الطبعة المنقحة هو سورة الأعراف، وقد سبق معنا في الفقرة السابقة أن سيداً فسر الاستواء في سورة الأعراف من الطبعة الأولى، بأنه: " الاستعلاء على الكون وتدبير أمره وفق الناموس الذي اختاره "

وبالنظر في الطبعة المحققة نجد أن تفسيره للاستواء اختلف تماماً حيث يقول في ظلال قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا } [سورة الأعراف:٥٤] : " إن عقيدة التوحيد الإسلامية،

لا تدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه، ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، ومن ثم لا مجال للتصور البشري لينشئ صورة عن ذات الله، فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء، فإذا كان الله – سبحانه– ليس كمثله شيء، توقف التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى، ومتى توقف عن إنشاء صورة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعاً، ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله، وهذا هو مجاله.

ومن ثم تصبح أسئلة كهذه: كيف خلق السماوات والأرض؟ **كيف استوى على العرش**؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه سبحانه؟! تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغواً يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي، أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداءً، ولقد خاضت الطوائف – مع الأسف – في هذه المسائل خوضاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية! " [(١)].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩٦.

ويقول أيضاً في تفسيره سورة الأعراف في موضع آخر بعد هذا عند حديثه عن الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم: " فأما كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }وكيف أجابوا {بَلَىٰ شَهِدْنَآ}؟ فالجواب عليه: أن كيفيات فعل الله – سبحانه – غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشر أن يدرك كيفيات أفعال الله، ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله، إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية، وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا، كقوله تعالى: {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ }، {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ} {يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ }، {وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ }، {وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}، {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ.. } إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله – سبحانه – **لا مناص من التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك كيفيته،** إذ أنه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء. ما دام أنه ليس كمثله شيء، وكل محاولة لتصوير كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه، هي محاولة مضللة، لاختلاف ماهيته – سبحانه– عن ماهيات خلقه، وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه، وكذلك جهل وضل كل من

حاولوا – من الفلاسفة والمتكلمين – وصف كيفيات أفعال الله، وخلطوا خلطاً شديداً " [١].

ويقول أيضاً في مقومات التصور الإسلامي وهو آخر ما كتبه: ".. وكذلك الاستواء على العرش، فكل كلام عن العرش ما هو، وكل كلام عن المقصود بالاستواء على العرش، هو دخول في متاهة لا دليل فيها، فلا بد من الاكتفاء باللفظ القرآني، وما يوحيه من الهيمنة والتسلط والسلطان والقهر والعلم، والإحاطة بشئون السماوات والأرض، وهذا أسلم منهج في مواجهة هذه الكيفيات التي لم يوهب الإدراك البشري علمها، ولو علم الله أن في إدراكها خيراً للإنسان لأقدره عليه ولوهبه له.. " [٢].

ومما سبق عرضه نخلص إلى:

١- أن كلام سيد – رحمه الله – عن الاستواء في الطبعة المنقحة وفي المقومات اختلف عن كلامه في الطبعة الأولى من الظلال، حيث فسر الاستواء بالطبعة الأولى في كل المواضع بالاستعلاء والهيمنة، واعترف بذلك وبين سببه والحامل له على هذا التأويل.

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٩٣.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ٣١٩.

أما في الطبعة المنقحة فقد رأينا في كلامنا في النص الأول: أنه يثبت أن الاستواء فعل لله، وأن أفعال الله تعالى لا يمكننا إدراك كيفياتها، وأن الواجب هو تدبر آثارها في الوجود دون الخوض في كيفياتها، وأن الخوض في كيفيات أفعال الله لغواً وافداً من الفلسفة الإغريقية.

وفي النص الثاني: يستعرض بعض أفعال الله سبحانه " كالاستواء إلى السماء " أو " الاستواء على العرش " " وطي السماوات بيمينه " و" مجيء الله يوم القيامة " ونحوها. ويقرر أنه " لا مناص من التسليم بوقوعها دون محاولة إدراك كيفياتها "

وفي النص الثالث في المقومات: يقرر عدم الدخول في متاهة البحث عن الكيفيات، والاكتفاء بما يوحيه اللفظ القرآني من معاني تربوية يدل عليها، ويرى أن ذلك هو المنهج الأسلم في مواجهة الكيفيات الغيبية.

٢ – يؤكد ما قلناه من أن سيد – رحمه الله – في الطبعة المنقحة أثبت الاستواء كفعل لله سبحانه غير معلوم الكيفية، أنه في الجزء التاسع والعشرين من الظلال – أي بعد تأويله للاستواء في المواضع السبعة في الطبعة الأولى، بأنه كناية ورمزاً للسيطرة والاستعلاء– ردَّ على الذين يرون في الغيبيات أنها مجرد تمثيل وتصوير، كالذين يرون أن الملائكة تمثيلاً لقوة

الخير والطاقة، والشياطين تمثيلاً لقوة الشر ، والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة.. الخ، بأنهم يجيئون إلى نصوص القرآن بمقررات عقلية سابقة ويحاكمون إليها القرآن، وأن الواجب على المسلم أن يلتزم بمنهج التصور الإسلامي الذي يقوم على التسليم للنصوص القرآنية، وعدم محاكمة القرآن والحديث لغير القرآن، وأن لا ينفي شيئاً يثبته القرآن **ولا يؤوله،** ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن، أو يبطله، وأن هذا الكلام موجه لمن يؤمنون بالقرآن وهم مع **ذلك يؤولون نصوصه لتوائم** مقررات سابقة في عقولهم " (١).

واعترف بعد ذلك بأنه وقع في مؤلفاته السابقة وفي الأجزاء الأولى من الظلال في شيء من التأويل، وأنه هنا يتراجع عن تأويل النصوص ويبدي رغبة في تصحيحها إذا مد له في العمر فيقول: " وما أُبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي، وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شيء من هذا، وارجوا أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله، وما أقرره هنا هو ما اعتقده الحق بهداية من الله " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠ – ٣٧٣١ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣١ ، هامش ١ .

وبناءً على ما سبق لا نكون مخطئين إن قلنا إن كلام سيد في الطبعة المنقحة في سورة الأعراف عن الاستواء وإثباته فعلاً لله غير مدرك الكيفية، هو تحقيقاً لما وعد به في نهاية الطبعة غير المحققة من تدارك ما أوله فيها.

وكذلك كلامه عن سائر أفعال الله كالطي والمجيء ونحو ذلك – مما سيأتي بيانه في مواضعه – كان تصحيحاً وتداركاً لكلامه في " التصوير الفني " سابقاً حيث جعل هذه الأفعال وغيرها من باب التصوير التخييلي والتجسيم للمعاني المجردة (١).

بالإضافة إلى أن تأويل سيد للاستواء في الطبعة الأولى لم يكن كتأويل وغيره من النفاة، لأنهم ينفون علو الله على خلقه ابتداءً وبالتالي أولوا الاستواء حتى يسلم له نفي العلو، أما سيد فقد سبق معنا أنه يثبت صفة العلو لله، ويقرر أن الله في السماء وأنه فوق العرش، وإنما حصل الخلل عنده في الاستواء كفعل، بناءً على المبررات التي ذكرها، وإن كنا لا نوافقه عليها إلا أنه لا يصح جعل تأويله كتأويل الجهمية والمعتزلة الذين أنكروا العلو مطلقاً.

بالإضافة إلى انه لا يصح الاعتماد على كلامه في التصوير الفني أو في المواضع غير المنقحة من الظلال للحكم

(١) انظر نص كلامه السابق في " التصوير الفني في القرآن ، ص ٧٣ .

عليه بالتأويل للاستواء، ما دام أنه في نهاية الأجزاء غير المنقحة من الظلال اعترف بخطئه فيما سبق له تأويله في الكتب السابقة والأجزاء الأولى، وأنه فعلاً تدارك ذلك في أول موضع ذكر فيه الاستواء على العرش من الطبعة المنقحة في سورة الأعراف كما رأينا في نصين واضحين، والله أعلم.

رابعاً: العرش والكرسي: ومما له صلة بموضوع الاستواء مسالة العرش والكرسي.

***والعرش في اللغة:** يطلق على سرير الملك وكرسيه الرسمي في مجلس الحكم والتدبير [(١)].

وشرعا: هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو سقف المخلوقات [(٢)].

فأهل السنة والجماعة يثبتون العرش والكرسي بناءً على النصوص الشرعية الصحيحة الواردة في إثباتهما.

وذهبت طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وربما سموه الفلك الأطلس، أو التاسع..

---

(١) تهذيب اللغة ٤١٣/١ ، والصحاح ص ٧٢٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٦ .

ومنهم من فسره بالملك، وكلاهما ليس بصحيح، لأنه قد ثبت أنه مخلوق وله قوائم وتحمله الملائكة وكان على الماء قبل خلق المخلوقات وهي أمور تنافي تفسيرهم السابق (١).

وأما الكرسي:

فهو موضع القدمين بين يدي العرش كالمرقاة كما يقول ابن عباس– رضي الله عنه– ولا يقدر قدره إلا الله.

وقال بعضهم بأنه العرش، والصحيح أنه غيره،

وفسره آخرون بالعلم، والأول الصحيح (٢).

وقد ذكر السلف أن الله مستغن عن العرش وما دونه، وأن خلقه للعرش واستواءه عليه ليس لحاجته إليه، بل في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم منه أن يكون السافل حاوياً له ومحيطاً به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، وضربوا لذلك مثالاً بحال السماء مع الأرض... فالرب تعالى أعظم شأناً وأجلُّ من أن يلزم من علوه ذلك.. (٣).

موقف سيد قطب من العرش والكرسي:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٣٦٦، ٣٦٨ بتصرف .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٦٨– ٣٧١ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٢ .

أما سيد قطب- رحمه الله – فقد تحدث عن العرش في ظلال الآيات التي ورد فيها ذكر العرش، ومن خلال استقراء كلامه تبين لي ما يأتي:

أولاً: أنه يفسر العرش في اللغة بأنه السرير الذي يجلس عليه الملك، ويعبر به أيضاً عن الملك والسلطان [1].

ثانياً: أنه في بعض المواضع يثبت وجود العرش دون التعرض له بأي تفصيل، ومن ذلك ذكره لبعض الأحاديث وكذا بعض الأحداث والمشاهد التي فيها ذكر العرش دون التعرض لها مثل:

١- حديث: " إن أرواح الشهداء تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش.. " [2].

٢- حديث: "لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي"[3].

٣-حديث الحارث بن مالك الأنصاري وفيه.. " كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً... " [1]، وعلق عليه سيد – رحمه الله –

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن : ٣/ ١٣٥٠ ، ٢٠٢٩/٤ ، ٥/ ٢٦٣٨، ٢٦٣٩ .

(٢) رواه :مسلم في كتاب الإمارة ، باب أرواح الشهداء في الجنة ١١٩٤/٣ برقم ١٨٨٧ ، وانظر: في ظلال القرآن : ١/ ١٤١ .

(٣) رواه : البخاري في كتاب التوحيد ،باب قوله تعالى " ويحذركم الله نفسه"٢٦٩٤/٦ برقم ٦٩٦٩و٣٠٢٢، وانظر في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٠

بقوله: " ولقد ذكر هذا الصحابي الذي استحق شهادة رسول الله - ﷺ - له بالمعرفة من حال نفسه، ما يصور مشاعره ويشي بما وراءها من عمل وحركة، فالذي كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزاً، وينظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتضاغون فيها إنما هو يعيش ويعمل ويتحرك في ظل هذه المشاعر.. إلى جانب ما أسهر ليله وأظمأ نهاره، وكأنما هو ناظر إلى عرش ربه بارزاً "(٢).

٤- قوله في أثناء حديثه عن المعراج.. " فأما أنها سدرة المنتهى، فقد يعني هذا أنها التي ينتهي إليها المطاف، فجنة المأوى عندها، أو التي انتهت إليها رحلة المعراج، أو التي انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ حيث وقف هو وصعد محمد ﷺ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى، وكله غيب من غيب الله، أطلع عليه عبده المصطفى، ولم يرد إلينا عنه إلا هذا وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته.. " (٣).

٥- قوله: " وإنه لأمر عصيب أن يقف الإنسان عريان الجسد والنفس والمشاعر، والتاريخ والعمل ما ظهر منه وما

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٨٤ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣/ ١٤٧٨ .

(٣) المصدر السابق : ٦/ ٣٤٠٧ .

استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع" [1].

٦- قوله في ظلال قوله تعالى: {قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا } [سورة الإسراء:٤٢] ".. وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة " مع الله " وهي تحت عرشه وليست معه، ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه " سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا " ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهداً فريداً، تحت عرش الله، يتوجه كله إلى الله، يسبح له ويجد الوسيلة إليه... فإذا الوجود كله تسبيحه واحدة شجية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال "[2].

ثالثاً: بعض المواضع يقرر سيد قطب الإيمان بالعرش ويفوض معناه وكيفيته:

ومن ذلك:

١- قوله: " وكذلك العرش، فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته.. " [3].

---

(١) المصدر السابق : ٦/ ٣٦٨٠ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن : ٤/ ٢٢٣٠ بتصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن: ٣٤٨٠/٦ .

٢- وقوله أيضاً: " ونحن لا نعرف ما هو العرش؟ ولا نملك صورة له، ولا نعرف كيف يحمله حملته، ولا كيف يكون من حوله حوله، ولا جدوى من الجري وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله أحداً من المتجادلين عليها "(١).

٣-قوله: " أما العرش ذاته فلا سبيل إلى قول شيء عنه، ولا بد من الوقوف عند لفظه"(٢).

٤- ويقول أيضا: في ظلال قوله تعالى: { وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [سورة هود:٧] ، "وجملة " وكان عرشه على الماء " تفيد أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي انتهيا إليه كان هناك الماء، وكان عرش الله سبحانه على الماء..

أما كيف كان هذا الماء، وأين كان، وفي أية حالة من حالاته كان، وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء.. فزيادات لم يتعرض لها النص، وليس لمفسرٍ يدرك حدوده أن يزيد شيئاً

---

(١) المصدر السابق: ٥/ ٣٠٧٠ وينظر أيضا: ٢/ ١٠٤٢.

(٢) المصدر السابق : ٥/ ٢٨٠٧ .

على مدلول النص، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده. "(١).

٥- ويقول: " وعقيدة التوحيد الإسلامية، لا تدع مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه، ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شيء... ومن ثم تصبح أسئلة كهذه: كيف خلق الله السماوات والأرض؟ كيف استوى على العرش؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه؟! تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغواً يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي، أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد.. وقد خاضت الطوائف – مع الأسف – في هذه المسائل خوضاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية"(٢).

أما الكرسي: فقد قال سيد – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ } [□ سورة البقرة:٢٥٥] " وقد جاء التعبير في هذه الصورة الحسية في موضع التجريد المطلق، على طريقة القرآن في التعبير التصويري، لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقاً وثباتاً، فالكرسي

---

(١) في ظلال القرآن : ٤/ ١٨٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ٣/ ١٢٩٦ .

يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية.

ولكن الصورة التي ترتسم في الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن، وكذلك التعبير بقوله: " ولا يؤدوه حفظهما " فهو كناية عن القدرة الكاملة، ولكنه يجيء في هذه الصورة المحسوسة صورة انعدام الجهد والكلال، لأن التعبير القرآني يتجه إلى رسم صور للمعاني تجسمها للحس، فتكون فيه أوقع وأعمق وأحس.

ولا حاجة بنا إلى كل ما ثار من الجدل حول مثل هذه التعبيرات في القرآن، إذا نحن فقهنا طريقة القرآن التعبيرية، ولم نستعر من تلك الفلسفات الأجنبية الغريبة التي أفسدت علينا كثيراً من بساطة القرآن ووضوحه.

ويحسن أن أضيف هنا أنني لم أعثر على أحاديث صحيحة في شأن الكرسي والعرش تفسر وتحدد المراد مما ورد منها في القرآن، ومن ثم أوثر أن لا أخوض في شأنها بأكثر من هذا البيان" (١).

<u>**والخلاصة**</u>: أن كلام سيد – رحمه الله – حول العرش والكرسي وتفويضه لمعناه وحقيقتها في بعض المواضع، مخالف

---

(١) في ظلال القرآن : ١/ ٢٩٠ .

لما عليه السلف من إثبات العرش وأنه مخلوق ذو قوائم تحمله الملائكة وأنه كالسقف للعوالم وأن الله مستوٍ عليه من غير حاجة إليه، ومن أن الكرسي هو كالمرقاة بين يدي العرش وقد جاءت أحاديث وآثار حول العرش والكرسي، تبين المراد مما ورد فيها في القرآن الكريم، وليس كما قال سيد – رحمه الله – "(١).

الفرع الثاني: صفة المجيء والإتيان:

الإتيان والمجيء صفتان فعليتان ثابتتان لله عز وجل على الوجه اللائق به، ومن أدلتهما في القرآن قوله تعالى: {هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ} [سورة البقرة:٢١٠] ، وقوله تعالى: {وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا} [سورة الفجر:٢٢] وفي السنة حديث النبي ﷺ في بيان أحوال الناس يوم القيامة وفيه: ".. فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون.. " (٢).

---

(١)ينظر : المورد الزلال للدويش : ص ٣٣-٣٤ ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، د / ربيع المدخلي : ص ١٣٩- ١٤٠ ، وينظر الأحاديث والآثار :

(٢) رواه البخاري ٦٥٧٣ .

والذي عليه أهل السنة والجماعة، الإيمان بذلك على حقيقته، والابتعاد عن التأويل والتعطيل (١).

وأما المخالفون لأهل السنة والجماعة فهم:

١- المؤولة: الذين أولوا صفة المجيء والإتيان بأنها عبارة عن رؤيتهم إياه، فعبر عن الرؤية بالإتيان مجازاً، أو إتيان أمره، أو إتيان بعض ملائكته " (٢).

٢- المفوضة: الذين يقولون بتفويض معاني هذه الصفات وإدعاء أنها غير معلومة، وأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه (٣).

صفة المجيء والإتيان عند سيد قطب: حتى يتضح موقف سيد قطب من صفة الإتيان والمجيء لابد من استعراض

---

(١) ينظر :الرد على المريسي للإمام الدارمي ص ١٤٨- ١٥٠ ، والإبانة للأشعري ص ١٣٠ ، مختصر الصواعق لابن القيم ص٢٩٠ – ٣٩١ ، وشرح الواسطية لهراس ص ١١٢، وشرح الواسطية لابن عثيمين ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٢) ينظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ص ٢٨٧ ، والفصل لابن حزم ٢/ ٣٥٠ ، والأسماء والصفات للبيهقي ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩. وفتح الباري لابن حجر ١١/ ٤٥٠ . الإرشاد للجويني ١٤٩

(٣) ينظر : الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٩٢ ، وأصول الدين للبغدادي ، والموافقات للشاطبي ٩٤/٣، ومعالم السنن للخطابي ٤/ ٣٣١.

كلامه في تفسير الآيات التي ورد فيها لفظ الإتيان والمجيء، وذلك فيما يأتي:

١- في ظلال قوله تعالى: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ } [سورة البقرة:٢١٠] . يقول: " وهو سؤال استنكاري عن علة انتظار المترددين المتلكئين، الذين لا يدخلون في السلم كافة ما الذي يقعد بهم عن الاستجابة؟ ماذا ينتظرون؟ وماذا يرتقبون؟ تراهم سيظلون هكذا في موقفهم حتى يأتيهم الله سبحانه في ظللٍ من الغمام، وتأتيهم الملائكة؟ وبتعبير آخر: هل ينتظرون ويتلكئون حتى يأتيهم اليوم الرعيب الموعود الذي قال الله سبحانه: إنه سيأتي فيه في ظل من الغمام، ويأتي الملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من إذن له الرحمن وقال صواباً؟

وفجأة - وبينما نحن أمام السؤال الاستنكاري الذي يحمل طابع التهديد الرعيب - نجد أن اليوم قد جاء، وأن كل شيء قد انتهى، وأن القوم أمام المفاجأة التي كان يلوح لهم بها ويخوفهم إياها: " وقضي الأمر "، وطوي الزمان، وأفلتت الفرصة، وعزت النجاة، ووقفوا وجهاً لوجه أمام الله الذي ترجع إليه الأمور وحده..

فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الدخول في السلم، وهذا الفزع الأكبر ينتظرهم؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم! والسلم منهم

قريب، السلم في الدنيا والسلم في الآخرة، يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً [١]. يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، يوم يقضى الأمر.. وقد قضي! " وإلى الله ترجع الأمور.. " [٢].

٢ – في ظلال قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ } [سورة الأنعام:١٥٨] نجد أن سيد لم يتعرض فيها لمسألة مجيء الله تعالى، وإنما تحدث عن إتيان بعض الآيات [٣].

٣ – في ظلال قوله تعالى: {كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [سورة الفجر:٢١– ٢٢] . يقول: " ودك الأرض وتحطيم معالمها وتسويتها وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة فأما مجيء ربك والملائكة صفاً صفاً، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض،

---

(١) سيد ذكر تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة في سياق الحديث عن مجيء الله يوم القيامة ، وهي وإن لم تكن صريحة في ذلك في هذا الموضع ، إلا أن أهل السنة والجماعة يذكرون هذه الآية ضمن الآيات التي تدل على مجيئه سبحانه ، انظر: شرح الواسطية لابن عثيمين ص ٢٧٨– ٢٧٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٢١٢/١

(٣) في ظلال القرآن ١٢٣٨– ١٢٣٩ .

ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول، كذلك مجيء جهنم نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى، فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله المكنون ليومه المعلوم.

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم (١) الشديدة الأسر، مشهد ترجف له القلوب، وتخشع له الأبصار، والأرض تدك دكاً دكاً، والجبار المتكبر يتجلى، ويتولى الحكم والفصل، ويقف الملائكة صفاً صفاً، يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى " (٢).

وبعد أن ذكر تفسير بقية الآيات في السورة، وقف في نهايتها قائلاً: "ثم تمضي الآيات تباعاً تغمر الجو كله بالأمن والرضى

---

(١) يقصد بالموسيقى هنا كما يقول سيد نفسه " الإيقاع الموسيقى في القرآن يتألف من عناصر شتى من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة ، ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة ، ومن اتجاهات المد في الكلمة ، ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات ، ومن حروف الفاصلة المطردة في الآيات ، ومن حروف الفاصلة ذاته وجميع العناصر التي يتألف منها الإيقاع في هذه السورة واحدة ، ما عدا اتجاهات المد وحروف الفاصلة قي القسم الأول منها حتى آية ٥ ،فمد الفاصلة وحرفها " يؤمنون – توقنون – يتفكرون – يفعلون – خالدون " وبقية السورة " العقاب ، هاد ، بمقدار ... " انظر : في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٣٩ الهامش .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٦ .

والطمأنينة.. ألا أنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية تطل من خلال هذه الآيات وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية "[١].

" إنه الجلال، يغمر الجو كله ويغشاه في حضرة الرحمن " [٢].

وأما قول بعضهم بأن سيد قطب يعطل الصفات كما هو شأن الجهمية ومنها صفة النزول والمجيء [٣] بناءً على أنه يؤول الاستواء، وكذلك بناءً على كلام له في " التصوير الفني"، من أن ما يحكيه القرآن من أفعالٍ منسوبة لله تعالى، إنما هو مجرد تخييل وتجسيم للمعاني المجردة في صورة حسية [٤]ومنها قوله تعالى: { وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [٥]. فبيانه كالأتي:

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٩٠٧

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٣٥٣.

(٣) انظر : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب للمدخلي ص ١٧٤ وما بعدها ، والمورد الزلال للدويش ص ٣٠٥.

(٤) التجسيم التخييل لا يقصد به سيد ما عند المتكلمين، وإنما ما يبعثه التعبير من تأملات تستفز الخيال فتجعله يتملى فيما وراء المعنى المعبر عنه بالالفاظ ، وهو عامل من عوامل التأثير بالقرآن،فعبارات القرآن الكريم تجعل السامع وكأنه يشاهد الخبر واقعة حدثت ، مجسمة أمامه ، فيسرح خياله في التأمل فيما وراء ذلك ليخشع قلبه بعدها وينيب.(من إضافات: أ. د /خليل الكبيسي –حفظه الله – المناقش الخارجي للرسالة) .

(٥) انظر : التصوير الفني في القرآن – سيد قطب ، ص ٧٣ .

أولاً: أن كلامه هذا في كتاب التصوير الفني وهو أول ما كتب من الإسلاميات قبل التزامه بالإسلام – كما سبق– وكان الهدف من تأليفه هدف فني بحت، وليس هدفاً دينياً يناقش قضايا الاعتقاد وغيرها باعترافه (١).

ثانياً: ان الأفعال نفسها التي ذكر في " التصوير الفني " تأويلها بأنها مجرد تخييل وتجسيم للمعاني المجردة في صورة حسية، لسيد نص صريح حولها يصرح فيه بإثبات هذه الأفعال لله حقيقة، والتسليم بوقوعها دون محاولة إدراك كيفيتها، وهذا النص في الطبعة المنقحة من الظلال وهو قوله: ".. إن كيفيات أفعال الله –سبحانه – غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله، ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله،.. وكل فعل ينسب إلى الله مثل الذي يحكيه هنا – أخذ الميثاق والإشهاد عليه – وكقوله تعالى: {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ}، {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ}، {وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ}، {وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}.. إلى آخر ما تحكيه النصوص

(١) المصدر السابق ص ٩ ، ومشاهد القيامة في القرآن ص ١٢ .

الصحيحة عن فعل الله – سبحانه – **لا مناص من التسلم بوقوعه، دون محاولة إدراك كيفيته.. "** [1].

وبالتالي فإنا نعتمد على هذا النص في بيان موقف سيد من صفة المجيء والإتيان، وخاصة أنه جاء بعد اعترافه بتأويل بعض الأمور وتراجعه عن التأويل إجمالاً وإبداء رغبته في تدارك ما كان منه في كتبه السابقة، ومن بينها " التصوير الفني " وفي الأجزاء التي لم تصل إليها يده لتصححها، وهذا كافٍ في نفي التهمة عنه.

ثالثاً: أن لسيد قطب كلاماً واضحاً وصريحاً في إثبات مجيء الله يوم القيامة وتجليه للحكم بين العباد، وهو في الأجزاء المنقحة من الظلال – كما سبق قبل قليل–.

الفرع الثالث: صفات المحبة والرضى والود والخلة:

صفات المحبة والرضى والود والخلة، من صفات الله تعالى الفعلية الاختيارية، التي تتعلق بمشيئته – تعالى–، والنصوص الواردة في الكتاب والسنة في إثباتها أكثر من أن تحصر – وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات هذه الصفات لله تعالى وما يترتب عليها من أثارٍ على الوجه الذي

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٣.

يليق بجلاله، وهي لا تماثل ما سمي باسمها من صفات البشر، كما أن ذاته سبحانه ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق [1].

– أما المتكلمون ومن تأثر بهم فقد تأولوها بلوازمها من الإثابة والإحسان، فراراً من تشبيه الخالق بعبيده الذين تعد هذه الصفات انفعالات نفسية لهم يتنزه الله عنها [2].

صفات المحبة والرضى والود والخلة عند سيد قطب: أما سيد قطب – رحمه الله – فيثبت هذه الصفات لله سبحانه وتعالى على الوجه الذي يليق به ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: صفة المحبة: من خلال استقراء كلام سيد – رحمه الله – في ظلال الآيات التي جاء فيها التصريح بحب الله سواءً لأعمال أو أشخاص أو صفات نجد:

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٥٤، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للإمام الصابوني ص ٢٨ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٤، ١٦٧ ، وشرح الواسطية لهراس ص ١٤٣ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٢٢٤وما بعدها .

(٢) انظر : أساس التقديس للرازي ص ٢، والتمهيد للباقلاني ص ٢٩٩ ، وأصول الدين للبغدادي ص ٧٩– ٧١ ، وفتح الباري لابن حجر ١/ ١٠٢، ١٠/ ٤٦٢، ١٣/ ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٦/ ٣٨٩، ١١/ ٢٠٨، ٧/ ٢٢.

١ – في مواضع نجد أنه يمرها على ظاهر دون الخوض فيها، ومن ذلك حب الله للمحسنين وللمقسطين وللمتقين وللمجاهدين وللشكر والصبر ونحو ذلك [١].

٢ – في مواضع يثبت صفة المحبة لله سبحانه دون تأويل ومن النصوص في ذلك:

أ – في ظلال قوله تعالى: {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران:١٣٤] . يقول: " والله " يحب " المحسنين، والحب هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير، الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم.

ومن حب الله للإحسان والمحسنين، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه، وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب، فليس هو مجرد التعبير الموحي، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير!

والجماعة التي يحبها الله، وتحب الله.. هي جماعة متضامنة.. متآخية. قوية" [٢]. " والمتقون لهم المغفرة من ربهم، والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله " [٣].

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١/ ١٩٢ ، ٥٠٣، ٢/٨٩٣ ، ٣/١٦٠١، ٥/٣٠٤٠، ٦/٣٥٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن ١/٤٧٥ .

(٣) المصدر السابق ١/٤٧٧ .

ب - في ظلال قوله: {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٦] يقول: " والتعبير بالحب من الله للصابرين له وقعه وله إيحاؤه، فهو الحب الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرح، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير... " (١).

" {فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ}وشهد لهم سبحانه بالإحسان فقد أحسنوا الأدب، وأحسنوا الجهاد، وأعلن حبه لهم، وهو أكبر من النعمة، وأكبر من الثواب، {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ} " (٢).

ج- في ظلال قوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ} [سورة المائدة:٥٤] يقول: " فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم.. الحب.. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش.. هو الذي يربط القوم بربهم الودود..

وحب الله لعبد من عبيده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله – سبحانه – بصفته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته

---

(١) في ظلال القرآن ٤٨٨/١ .

(٢) المصدر السابق ٤٨٩/١ .

كلها، أجل لا يقدِّر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي، الذي يعرف من هو الله.. من هو صانع هذا الكون الهائل، وصانع الإنسان.. من هو في عظمته، ومن هو في قدرته، ومن هو في تفرده، ومن هو في ملكوته، من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب، والعبد من صنع يديه – سبحانه – وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر، والظاهر والباطن.

–وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد، لا يدركها كذلك إلا من ذاقها، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً، وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه.. هو إنعام هائل عظيم.. وفضل غامر جزيل..

–وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره، إلا فلتات قليلة من كلام المحبين، وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين.. وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في

سجلهم الطويل – ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد وهي تقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد، والحب من العبد للمنعم المتفضل، يشيع في هذا الوجود ويسرى في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب والمحبوب.

–والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب، وليست مرة واحدة، ولا فلتة عابرة، إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا}، {وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ}، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ}، {قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ}وغيرها كثيرة.

وعجباً لقوم يمرون على هذا كله، ليقولوا: إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف، يصور العلاقة بين الله والإنسان

علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وانقطاع.. لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله، فيربط بين الله والناس في هذا الازدواج!.

إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لا تجفف ذلك الندى الحبيب، بين الله والعبيد، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه، إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين " (١).

وهذا النص الذي نقلته مع طوله يعبر تعبيراً واضحاً وجلياً عن موقف سيد من إثبات صفة المحبة لله سبحانه وتعالى.

ثانياً: صفة الرضى: وموقف – سيد – من هذه الصفة هو موقفه من صفة المحبة، حيث يثبتها لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله، ومن النصوص في ذلك:

أ – في ظلال قوله تعالى: {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ} [سورة التوبة:١٠٠] يقول: " ورضى الله عنهم هو الرضى الذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩١٨– ٩١٩ .

الاطمئنان إليه سبحانه، والثقة بقدره، وحسن الظن بقضائه، والشكر على نعمائه، والصبر على ابتلائه.

ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده يرفع من شأن هذه الصفوة – من البشر – حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون، وهو حالٌ وشأنٌ وجوٌ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يُتنسم ويُستشرف ويُستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول.

ذلك حالهم الدائم مع ربهم {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ} وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى {أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ}، وأي فوز بعد هذا وذلك عظيم؟؟؟ " (١).

ب – في ظلال قوله تعالى: {لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ} يقول: " وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن استشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله، ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم، إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين، أحاول أن استشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٠٥- ١٧٠٦.

جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة في هذا الوجود.. وأحاول أن استشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم، أنهم هم، بأشخاصهم وأعيانهم يقول الله عنهم: لقد رضي الله عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى: {إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ} يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق على لسان ربه العظيم الجليل..

يا لله! كيف تلقوا – أولئك السعداء – تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه، ويقول له: أنت. أنت بذاتك، يبلغك الله، لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة، وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك.

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع {ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟} فيسعد، يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع {إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} فيسعد يقول في نفسه:، ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع {إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} فيطمئن يقول في نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال، يسمعون ويبلغون، واحداً واحداً، أن الله يقصده بعينه وبذاته ويبلغه: لقد

رضى عنه! وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه! يا لله! إنه أمر مهول! " [1].

ج - في ظلال قوله تعالى: {رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ} [سورة المجادلة:٢٢] . يقول: " وهذه صورة وضيئة مطمئنة، ترسم حالة المؤمنين هؤلاء في مقام عالٍ رفيعٍ، وفي جوٍ راضٍ وديع، ربهم راضٍ عنهم، وهم راضون عن ربهم، انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به، فتقبلهم في كنفه، وأفسح لهم جنابه، وأشعرهم برضاه، فرضوا، رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه.. " [2].

د- في ظلال قوله تعالى: {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ} [سورة البينة:٨] ، يقول: " هذا الرضى من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم، الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٥- ٣٣٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥١٥ .

إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته، {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ} حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال! " (١).

وهناك نصوص آخر لا يسع المجال لها هنا، يثبت فيها سيد – رحمه الله – صفة الرضا لله سبحانه وتعالى على الوجه الذي يليق به سبحانه (٢).

ثالثاً: صفة الود:

يثبت – سيد – صفة الود لله سبحانه وتعالى، ومن النصوص في ذلك:

أ – في ظلال قول الله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا} [سورة مريم:٩٦] . يقول: " وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب، ورَوح رضى يلمس النفوس، وهو ودٌ يشيع في الملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض والناس، فيمتلئ به الكون كله ويفيض جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: " إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٥ .

(٢) ينظر :في ظلال القرآن ١/ ٤١٨ ، ٥٠٦ ، ٢/ ٨٤٢ ، ١٠٠٢ .

جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فابغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض " (١) " (٢).

ب - في ظلال قوله تعالى: {وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ} [سورة البروج:١٤] ، يقول: " والمغفرة تتصل بقوله من قبل {ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ} فهي من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود، وهي الباب المفتوح الذي لا يغلق في وجه عائد تائب، ولو عظم الذنب وكبرت المعصية..

أما الود.. فيتصل بموقف المؤمنين، الذين اختاروا ربهم على كل شيء، وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم.. حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها.

مرتبة الصداقة.. الصداقة بين الرب والعبد.. ودرجة الود من الله لأودائه وأحبابه المقربين.. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت؟

---

(١) رواه : البخاري في بدء الوحي باب ذكر الملائكة ١١٧٥/٣ برقم ٣٠٣٧ ، ومسلم في البر والصلة ١٦١١/٤برقم ٢٦٣٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢١ .

ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو؟ وإلى جانب لمحة من هذه الإيناس الحبيب؟.

إن عبيداً من رقيق هذه الأرض، عبيد الواحد من البشر، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه، أو لمحة رضا تبدو في وجهه، وهو عبد وهم عبيد.. فكيف بعباد الله. الذين يؤنسهم الله بوده لكريم الجليل، الله {ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ} العالي المهيمن الماجد الكريم؟ آلا هانت الحياة، وهان الألم، وهان العذاب، وهان كل غال عزيز، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد " [(١)].

رابعاً: صفة الخلة:

وهي كمال المحبة المستغرقة للمحب، وهي أخص من مطلق المحبة [(٢)]. قال الله تعالى: {وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا} [سورة النساء:١٢٥] وقال ﷺ: " إن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً " [(٣)]، ففي هذين النصين إثبات الخلة لله تعالى، وخلته – سبحانه – كمحبته من صفاته الفعلية المتعلقة

---

(١) في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٨٧٥ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٣٩٦.

(٣) رواه : مسلم ١٤٧٩/٤ برقم ٢٣٨٣ ، وأبي شيبة في المصنف ٤٧٣/١١ واللفظ له .

بمشيئته، وهو موصوف بها على الوجه الذي يليق به من غير تكييف ولا تشبيه، كما هو منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب (١).

وقد أنكرها الجهمية، وتأولها المتكلمون بالنصرة والمعاونة ونحوها (٢).

أما سيد – رحمه الله – فيقف في ظلال الآية السابقة: { وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا }. قائلاً: " جاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل، والعمل وحده، ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد، هو إسلام الوجه لله – مع الإحسان – واتباع ملة إبراهيم وهي الإسلام – إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً " (٣).

فهو يجريها على ظاهرها، مقرراً أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً.

الفرع الرابع: صفات الكره والغضب والسخط والمقت:

وهذه الصفات الأربع أيضاً من صفات الله الفعلية الثابتة بنصوص الكتاب والسنة الصحيحة. وهي عند أهل السنة

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٦ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٢٣٨.

(٢) انظر: أساس التقديس للرازي ، وأصول الدين للبغدادي ص ٨١/٧٩

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٢.

والجماعة صفات حقيقية على ما يليق به، لا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق [1].

وتأولها المخالفون بأنها إرادة إيصال العذاب والعقوبة لمن عصاه [2].

صفات الكره والسخط والمقت والغضب عند سيد قطب: وموقف سيد قطب – رحمه الله – من هذه الصفات أنه يقرها على ظاهرها في ظلال الآيات التي جاء فيها ذكر الكره والغضب والسخط والمقت، ويصرح في مواطن عديدة بأن الله يكره من يستحق الكره،

– ففي ظلال قول الله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [سورة النساء:١٠٧] يقول: " حيث يكرههم الله ويعاقبهم بما أثموا "، " وقد كرههم الله للإثم والخيانة "، " وهم يزورون من القول وما لا يرضاه.. " [3]..

– ويقول أيضاً: " لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء.. "، " ويربط الأمر في النهاية بالله، بعد ما

---

(١) انظر : عقيدة السلف أصحاب الحديث للإمام الصابوني ص ٢٨ ، وشرح الواسطية لهراس ص ١٤٢ .

(٢) انظر : أساس التقديس للرازي ص ٨ ، وأصول الدين للبغدادي ص ٧٩– ٨١ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٤ .

ربطه في البداية بحب الله وكرهه " [1]، " من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة " [2]، " ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم" [3]، " وأنه يكره المعتدين " [4]. " إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين، وكراهيته سبحانه للكافرين " [5].

" ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتاباً شديداً على أمر حدث من طائفة منهم، أمر يكرهه الله أشد الكره، ويمقته أكبر المقت، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص، {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ} " [6].

- **<u>ويقول أيضاً في صفة السخط:</u>** " وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له، بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه " [7] " التعامل أولاً هو تعامل مع الله، يلحظ فيه جناب الله، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه " [8].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٩٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥٤٢.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٦٧

(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٤٢٥

(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٧٧٣ .

(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٥٥١

(٧) المصدر السابق ٦/ ٣٢٩٨ .

(٨) المصدر السابق ١/ ٤١٨ وينظر أيضاً ١/ ٥٠٦ .

- **ويقول في صفة المقت**: و- صفة الخيلاء- حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق، وهي تعبير عن شعورٍ مريض بالذات، يتنفس في مشية الخيلاء" وأن الله لا يحب كل مختال فخور " [1].

- وفي ظلال قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} [سورة غافر: ١٠] يقول: " والمقت: أشد الكره، وهم ينادون من كل جانب، إن مقت الله لكم يوم كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون أشد من مقتكم لأنفسكم، وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتكم إليه من شر ونكر.. " [2].

- **وعن صفة الغضب** يقرر هذه الصفة لله سبحانه، في ظلال الآيات التي وردت صفة الغضب فيها ومن ذلك

- يقول سيد: "غير المغضوب عليهم: أي الذين غضب الله عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه"[3]. " فعادوا – أي اليهود في هذا الظلم بغضب على غضب " [4]، " ورجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب " [5].

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٧٩٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٢ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٦ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ١/ ٤٤٩.

" وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم " [1].

ويقول: " ومن أعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب: غضبٍ من الله، ومأواه في جهنم " [2]، " إنه العذاب الذي لا دافع له، وغضب الله المصاحب له " [3].

وفي مواضع كثيرة من القرآن يذكر الله تعالى أنه لا يحب أصنافاً من الناس وأعمالاً، وسيد يمرها على ظاهر، من ذلك إخباره بأنه سبحانه: {لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ }، {وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ }، {وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ }، {لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ }، {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ }، {وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ } ونحو ذلك [4].

ويقول: " والتعبير القرآني يقول: إن الله " لا يحب" هؤلاء، والله سبحانه لا ينفعل انفعال الكره، والحب، إنما المقصود ما

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٩٢٦ ، وينظر أيضاً المواضع الآتية ١/ ٧٥ ، ٣/ ١٣٧٥، ٤/ ٢٣٤٧ .

(٢) المصدر السابق ١٤٨٧/٣ ، وينظر أيضاً ٢١٩٦ .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٣١١ .

(٤) المصدر السابق ١ / ١٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣٢٨، ٣٧٨، ٤٠٤، ٤٨٢ ، ٢/ ٧٥٤، ٩٦٩، ٣/ ١٢٢٣، ١٦٩٧ ، ٢٧١١/٥، ٣٠٤٠

يصاحب هذا الانفعال في مألوف البشر من الطرد والأذى وسوء الجزاء "؟؟ (١).

الفرع الخامس: صفة المعية والقرب:

ورد في الكتاب والسنة وصف الله تعالى بأنه مع عباده عموماً، ومع بعضهم خصوصاً وقريب منهم، وبناءً على تلك النصوص فقد قسم السلف المعية إلى معيتن:

١ – **معية عامة:** وهي لكل الخلق، تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، وتستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقدرة، وسمعاً، وبصراً وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته سبحانه، ودليلها قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [سورة الحديد:٤] ، وقوله: {وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ} [سورة النساء:١٠٨] وقوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [سورة المجادلة:٧] .

وصفة المعية العامة من صفات الذات، لأن الله لم يزل ولا يزال محيطاً بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وغير ذلك من معاني الربوبية (٢).

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٦١ .

(٢) شرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٤٠٣ .

٢ - معية خاصة: وهي قسمان:

أ - مقيدة بشخص معين: كقوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا } [سورة التوبة ٤٠] وقوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ } [سورة طه:٤٦] .

ب - مقيدة بوصف: كقوله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } [سورة النحل:١٢٨] ونحوها والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم ما تستلزمه المعية العامة من الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وغير ذلك، وتستلزم مع ذلك أيضاً النصر والتأييد.

وهي من الصفات الفعلية لأنها تابعة لمشيئته سبحانه وكل صفة مقرونة بسبب فهي من الصفات الفعلية (١).

وأما صفة القرب فلم تثبت إلا خاصةً، بخلاف المعية فإنها تكون عامة وخاصة كما سبق (٢).

موقف الفرق من صفة المعية والقرب:

١- **الجهمية** ومن وافقهم من الحلولية يقولون: بأن الله تعالى ليس على عرشه في السماء بل هو في كل مكان بذاته، مستدلين بآية المعية (١).

---

(١) شرح الواسطية لابن عثيمين ١/٤٠٣ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٤٩٤ .

٢- أما أهل السنة والجماعة فهم فريقان:

الفريق الأول: يفسر المعية بلازمها، فيقول أنها كناية عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك [٢].

الفريق الثاني: يقولون هي على حقيقتها لكنها معية تليق بالله خاصة به، فليست كميعة الإنسان للإنسان، فمعية الله ثابتة له وهو في علوه، ويضربون لذلك مثلاً بالقمر، فهو في السماء وهو مع المسافر وغيره أينما كانوا بظهوره واتصال نوره، فإذا جاز هذا للقمر وهو من أصغر المخلوقات، أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذي أحاط بعباده علماً وقدرة.

وقولهم بأن معية الله حق على حقيقتها، لا يقتضي الممازجة ولا المخالطة، فإن الله تعالى بائن من مخلوقاته، وهم بائنون منه، وعلوه –عزَّ وجلَّ –لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق، ولذلك جمع بينهما في آية واحدة فقال: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ

---

(١) انظر : الرد على الجهمية للدارمي ص ١٤- ١٦ ،والشريعة للآجري ص ٢٨٥ – ٢٨٨ .

(٢) انظر : شرح أصول أهل السنة للألكائي ٣/ ٤٤٥- ٤٤٦، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٥٠٠، وتفسير الطبري ١/ ٦٧٠، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٢٨ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٤٠٢،

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [سورة الحديد:٤] والله من أسمائه: الظاهر والباطن، وهما اسمان لعلوه وقربه، وقد جمع النبي ﷺ بين كون الله صاحباً في السفر وخليفة في الأهل في قوله ﷺ: " اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل " (١)، فمعيته– سبحانه – وقربه لا ينافي علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو علي في دنوه، قريب في علوه (٢).

صفة المعية والقرب عند سيد قطب:

من خلال استقراء كلام سيد حول الآيات التي جاء فيها ذكر المعية والقرب نجد أنه يثبت هذه الصفة على حقيقتها ويثبت لوازمها أيضاً من العلم والإحاطة والنصر والتأييد ونحوها، وفيما يلي مجموعة من النصوص:

١- في ظلال قوله تعالى: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا} [سورة آل عمران:١٢٢] ، يقول: " والنص يتضمن حقائق: أولها حقيقة حضور الله – سبحانه –

(١) رواه مسلم في كتاب الحج ، باب ما يقول إذا ركب في سفر الحج ٧٩٨/٢، برقم ١٣٤٢ .

(٢) ينظر في ذلك : كتاب التوحيد لابن منده ٣/ ١٢٥ برقم ١٢٨ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ١٤٣ ، ٥/ ٤٦٦، ٥١٠، ومختصر الصواعق للموصلي ص ٣٧٥، ٣٩٧، ، وتفسير المنار ٢/ ١٦٨ ، ١٦٩ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ٤٠٤/١، وما بعدها ، وشرح الواسطية ، لهراس ص٢٢٩،٢٢٨.

معهم، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم، وهي الحقيقة التي تحرص التربية القرآنية على استحضارها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها في التصور الإسلامي، وهي الحقيقة الأساسية الكبيرة التي أقام عليها الإسلام منهجه التربوي..

ويا له من مشهد الله حاضره، ويا له من موقف الله شاهده، ويا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به وتخالط كل ما دار فيه من تشاور، والسرائر مكشوفة فيه لله، وهو يسمع ما تقوله الألسن ويعلم ما تهمس به الضمائر...

ويكشف الله المخبوء.. لاستعادة الأحداث ولتصوير خلجات النفوس، وإشعار أهلها حضور الله معهم، وعلمه بمكنونات ضمائرهم كما قال لهم: {وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} لتوكيد هذه الحقيقة وتعميقها في حسهم.. " (١).

٢- في ظلال قوله تعالى: {وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي} [سورة المائدة:١٢] يقول: {إِنِّي مَعَكُمۡ} وهو وعدٌ عظيم، فمن كان الله معه فلا شيء إذن ضده، ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء، لا وجود – في الحقيقة – له ولا أثر، ومن

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٤٦٧- ٤٦٨ بتصرف يسير .

كان الله معه فلن يضل طريقه فإن معية الله – سبحانه – تهديه كما أنها تكفيه، ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما له من زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم. ولكن الله – سبحانه – لم يجعل معيته لهم جزافاً ولا محاباة ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده، إنما هو عقد.. فيه شرط وجزاء.. (١).

٣–في ظلال قوله تعالى: {إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} [سورة الأنفال:١٢] . يقول: " إنه الأمر الهائل – إنها معية الله سبحانه للملائكة في المعركة.. هذا الأمر لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث: كيف اشتركت الملائكة؟ ولا كم قتيلاً قتلت؟.. إن حركة العصبة المسلمة في الأرض بهذا الدين أمر هائل عظيم، أمر يستحق معية الله لملائكته في المعركة " (٢).

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٥٧ .

(٢) في ظلال القرآن ١٤٨٥/٣ .

ثم بين أننا نؤمن بالملائكة ووجودهم وأعمالهم كما أخبر الله، ولكن لا نملك إدراك كيفية أعمالهم المذكورة، وأن البحث في تلك الكيفيات ليس من الجد الذي هو طابع العقيدة ولكنه من مباحث الفرق وعلم الكلام في العصور المتأخرة عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية، ويقرر: " أن وقفه أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لهي أنفع وأجدى " (١).

٤-في تقديمه لسورة يونس يستعرض موضوع آياتها ومنها الآيات التي: " تصور حضور الله سبحانه وشهوده لكل ما يهم به البشر، وكل ما يزاولون من نية وعمل، مما يملأ الحس البشري بالرهبة والروعة، كما يملؤه بالحذر واليقظة.. وذلك في مثل قوله تعالى: { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } [سورة يونس:٦١] . (٢).

" إن الشعور بالله على النحو الذي تصوره الآية.. شعور مطمئن ومخيف معاً، مؤنس ومرهب معاً، وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه، شاهدٌ

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٨٩ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٤٧ . .

أمره وحاضرٌ شأنه، الله بكل عظمته، وبكل هيبته، وبكل جبروته، وبكل قوته، الله خالق هذا الكون وهو عليه هينٌ، ومدبر هذا الكون ما جلَّ منه وما هان... الله مع هذا المخلوق البشري الذرة التائهة في الفضاء لولا عناية الله تمسك بها وترعاها! إنه شعور رهيب، ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن، إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية إن الله معها " (١).

٥-في ظلال قوله تعالى: { أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ } [سورة هود:٥] يقول: " من المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه، وإطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور، بينما هم غارُّون لا يستشعرون حضوره سبحانه، ولا علمه المحيط، ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعاً " (٢).

" ويصور القرآن هذا المعنى – في صورة مرهوبة – وهم في وضعٍ خفي دقيق من أوضاعهم، حيث يأوون إلى فراشهم، ويخلون إلى أنفسهم، والليل لهم ساتر، وأغطيتهم لهم ساترة، ومع

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٠٣ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٤٨ .

ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر، يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون... "(١).

٦-في ظلال قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٢). يقول " إنني معكما.. إنه القوي الجبار الكبير المتعال، إنه الله القاهر فوق عباده، إنه موجد الأكوان والحيوان والأفراد والأشياء بقوله: كن، ولا زيادة، إنه معهما، وكان هذا الإجمال يكفي ولكنه يزيدهما طمأنينة، ولمساً بالحس للمعونة " أسمع وأرى " فما يكون فرعون، وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى؟ والله معهما يسمع ويرى؟ " (٣).

٧-في ظلال قوله تعالى لموسى وهارون أيضاً: { قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ } [سورة الشعراء:١٥] ، يقول: " اذهبا " {إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ} فأية قوة؟ وأي سلطان؟ وأي حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان، ولكن الصحبة

(١) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٥- ١٨٥٦ .

(٢) سورة طه ، الآية ٤٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٧ .

المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد فهو يرسمها في صورة الاستماع الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه، وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة، وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير " (١).

٨-في ظلال قوله تعالى: {يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ} [سورة الحديد:٤] ، يقول: "وهم معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير " وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز. فالله – سبحانه وتعالى – مع كل أحد، ومع كل شيء، في كل وقت، وفي كل مكان، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد، وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب، حقيقة مذهلة من جانب، ومؤنسة من جانب، مذهلة بروعة الجلال، ومؤنسة بظلال القربى، وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره، وتدعه مشغولاً بها عن أعراض الأرض، كما تدعه في حذر دائم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٠ .

وخشية دائمة مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف " [1].

٩-في ظلال قوله تعالى: { فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ } [سورة محمد:٣٥] يقول: " والله معكم، فلستم وحدكم إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القاهر وهو لكم نصير حاضر معكم، يدافع عنكم فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم.. "[2].

١٠- في تعليقه على قصة المجادلة يقول:.. وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات.. { قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا } [سورة المجادلة:١] ، فإذا الله حاضر هذا الشأن الفردي لامرأة من عامة المسلمين لا يشغله عن سماعه تدبير ملكوت السموات والأرض.. وإنه لأمر.. أن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها، حاضر شؤونها، جليلها وصغيرها.. وهو الله الكبير المتعال، العظيم الجليل، القهار المتكبر، الذي له ملك السماوات والأرض وهو الغني الحميد.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨١

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٣٠٢ .

وهو مطلع ذو إيقاع عجيب.. إنكما لم تكونا وحدكما، لقد كان الله معكما، وكان يسمع لكما إن الله سميع بصير، يسمع ويرى، هذا شأنه وهذه صورة منه في الحادث الذي كان الله ثالثكما فيه، وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب.. " (١)، " وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته " (٢).

١١- وفي ظلال قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [سورة المجادلة:٧] ، يقول: " وتلتقي صورة الرعاية والعناية بصورة الحرب والنكاية في علم الله وإطلاعه، وشعوره وحضوره، فهو شاهد حاضر للعون والرعاية، وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية، فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون، ويحذر من حضوره وشهوده الكافرون.

ويستطرد السياق... إلى رسم صورة حية من هذا الشهود تمس أوتار القلوب.. تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما في السماوات وما في الأرض على إطلاقه.. ثم تتدرج وتزحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهي تهز القلوب {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥٠٥- ٣٥٠٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٥٠٤.

رَابِعُهُمۡ }وهي حقيقة في ذاتها، ولكنها تخرج في صورة لفظية عميقة التأثير، تترك القلوب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة، وهي مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس حيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم، وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم، وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك، وحيثما كانوا أكثر فالله هناك، إنها حالة لا يثبت لها قلب، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز وهو محضر مأنوس نعم، ولكنه كذلك جليل رهيب، محضر الله " وهو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة " وهذه لمسة أخرى تُرجف وتُزلزل، إن مجرد حضور الله وسماعه أمر هائل، فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع ما بعده من حساب وعقاب؟ " (١).

١٢- في ظلال قوله تعالى: { إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ } [سورة التوبة:٤٠] .

يقول: " إذ هما في الغار " والقوم على إثرهما يتعقبون، والصديق – رضي الله عنه- يجزع – لا على نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٠٨ بتصرف .

له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا – والرسول ﷺ – وقد أنزل الله سكينته على قلبه يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما " [١]. [٢].

فهذه النصوص فيها الكفاية لبيان موقفه من إثبات صفة المعية والقرب لله تعالى، وهناك نصوص أخرى في ظلال الآيات التي أخبر سبحانه فيها أنه مع الصابرين والمتقين والمحسنين، يقرر فيها سيد – رحمه الله – معية الله لهم وتأييده وتثبيته، ويبين ما تلقيه تلك الآيات من ظلال وأنس فمن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال، وما يضره كيد من يكيدون ومن يمكرون، وهذا هو الضمان كل الضمان [٣].

الفرع السادس: صفة الرحمة:

الرحمة صفة من صفات الله تعالى فهو {غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة يوسف:٥٣] ، وهي من صفات الذات، ويدل عليها اسم الرحمن، ومن صفات الفعل إذ يتجدد أفرادها، فالله يرحم من يشاء من

---

(١) رواه : البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين ١٣٣٧/٣ برقم ٣٤٥٢ ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر ١٤٧٨/٤ برقم ٢٣٨١

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٦.

(٣) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ١٤٢، ١٩١ ، ٢٦٩، ١٥٤٩/٣ ، ١٦٥٣، ٢٢٠٣/٤.

عباده، ويعذب من يشاء، فتتعلق بها مشيئته وقدرته، ويدل عليها بهذا الاعتبار اسم " الرحيم " [1]، فالله سبحانه وتعالى هو {ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ } [سورة الفاتحة:٣] وهذه الصفة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، والنصوص الواردة في إثباتها لا تكاد تحصى، " وكرر الله التمدح بالرحمة أكثر من خمسمائة مرة في القرآن الكريم، منها أكثر من مائة وستين باسم الرحمن، وأكثر من مائتين مرة باسم الرحيم، وجمعهما للتأكيد مائة وست عشرة مرة "[2].

قال تعالى {كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ } [سورة الأنعام:١٢] ، وقال{ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ } [سورة الأنعام:١٣٣] وغيرها.

ومن السنة قوله ﷺ: " إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي " [3].

وبناءً على هذه الأدلة وغيرها أثبت السلف هذه الصفة [4].

---

(١) انظر :شرح الواسطية لهراس ص ٨٠ ، ١٣٩ .

(٢) مقتبس من إيثار الحق على الخلق ، لابن الوزير ، ص١٢٥.

(٣) رواه : البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى " ويحذركم الله نفسه ٢٦٩٤/٦ برقم ٦٩٦٩ وفي لفظ له (سبقت) برقم ٣٠٢٢ .

(٤) انظر : السنة لابن أبي عاصم ٢٧٠/١، وصحيح البخاري ٢٦٩٤/٦، والتوحيد لابن منده ٤٧/٢، وشرح الواسطية لهراس ص ١٣٨، ومختصر الصواعق لابن القيم ص ٢٩٦وما بعدها ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ٢٤٨/١

على الوجه الذي يليق كسائر صفاته وأنكرها المتكلمون وأولوها بلوازمها، لأن الرحمة – كما يقولون – رقة تعتري القلب والله منزه عنها (1).

والرحمة قسمان:

رحمة عامة: تشمل جميع المخلوقات حتى الكفار، لأن الله قرن الرحمة مع العلم، في قوله تعالى:

{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا} [سورة غافر:٧] ولكن رحمة الله للكافر رحمة جسدية دنيوية لا تقارن برحمة المؤمن.

ورحمة خاصة: بالمؤمنين وهي رحمة إيمانية دينية دنيوية أيضاً، كقوله سبحانه {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [سورة الأحزاب:٤٣] .

صفة الرحمة عند سيد قطب: أما سيد قطب – رحمه الله – فقد وقف وقفات طويلة مع صفة الرحمة، استعرض فيها حقيقتها ومجالاتها ومظاهرها وآثارها في الحياة عموماً.

١ – في ظلال سورة الفاتحة يقول– رحمه الله –: " ووصفه – سبحانه – في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن، فمن الجائز

---

(1) انظر : أساس التقديس للرازي ص ٢ ، ومختصر الصواعق لابن القيم ص ٢٩٦، وفتح الباري لابن حجر ٨/ ١٥٥، ١٠ / ٤٣٢، ١٣/ ٣٥٨ .

أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم، ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن، ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان، ومهما يختلف في معنى الصفتين: أيتهما تدل على مدى أوسع من الرحمة، فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا تقصيه في هذه الظلال، إنما تخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها " (١).

" فصفة " الرحمن الرحيم " تستغرق كل معاني الرحمة، وحالاتها ومجالاتها، تتكرر في صلب السورة في آية مستقلة، لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه، والخالق ومخلوقاته، إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالود، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية.. (٢).

٢ - وفي ظلال قوله تعالى: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [سورة الأنعام:١٤٧] يقول: " فقل ربكم ذو رحمة واسعة بناء، وبمن كان مؤمنا من

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤ .

عباده، وبغيرهم من خلقه، فرحمته – سبحانه – تسع المحسن والمسيء، وهو لا يعجل على من استحق العقاب، حلماً منه ورحمة، فإن بعضهم قد يتوب إلى الله، ولكن بأسه لا يرده عن المجرمين إلا حلمه، وهذا القول فيه من الأطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس.. " (١).

٣ – في ظلال قوله تعالى: {كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ } [سورة الأنعام:١٢] يقول " وهو سبحانه المالك.. ولكنه فضلاً منه ومنةً كتب على نفسه الرحمة، كتبها بإرادته ومشيئته، لا يوجبها عليه موجب...

والرحمة قاعدة قضائه في خلقه، ومعاملته لهم في الدنيا والآخرة، والاعتقاد بها يدخل في مقومات التصور الإسلامي، فرحمة الله بعباده هي الأصل، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء ليعد طائفة منهم لحمل أمانته، بعد الخلوص والتجرد والاستعداد.. وليميز الخبيث من الطيب في الصف.. ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَ عن بينة، والرحمة في هذا كله ظاهرة.

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال، فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة،

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٦ .

إنما ذكرنا الرحمة في الابتلاء بالضراء، لأن هذه هي التي قد تزيغ فيها القلوب والأبصار، ولن نحاول نحن أن نتقصى مواضع الرحمة الإلهية أو مظاهرها، بل سنشير إشارة مجملة إلى شيء من ذلك.

ولكن قبل ذلك يستوقف النظر في هذا النص وأمثاله تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده – سبحانه – بأن جعل رحمته بعباده في هذه الصورة، مكتوبة عليه، كتبها هو على نفسه، وجعلها عهداً منه لعباده.. وهي حقيقة هائلة..

وتفضله – سبحانه – أيضاً، بإخبار عباده بما كتبه – سبحانه – على نفسه من رحمته، إن تدبر هذه الحقيقة – يدع القلب في عجب ودهش، وفي أنس وروْح، لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه.. فليس ذلك موكولاً إلى التعبير البشري، وإن كان القلب مهيأً لتذوقه، لا لتعريفه!

وتَمَثُّل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي يوضح جانباً من تصور حقيقة الألوهية وعلاقة العباد بها وهو تصور جميل مطمئن ودود لطيف.. ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً، وتسعهم جميعاً وبها يقوم وجودهم، وتقوم حياتهم، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود، أو لحظات الحياة للكائنات،

فأما حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها، ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة.

- إنها تتجلى ابتداءً في وجود البشر ذاته، ونشأتهم من حيث لا يعلمون، وإعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم، بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من العالمين.

- وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للإنسان من قوى الكون وطاقاته، وفي الرزق أيضاً..

- وتتجلى في تعليم الله للإنسان بإعطائه الاستعداد للمعرفة، وتقدير التوافق بين استعداداته وإيحاءات الكون ومعطياته.

- وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض، بإرسال الرسل بالهدى كلما نسي أو ضل وحلم الله عليه كلما لج في الضلال، وهو على الله هين، لكن رحمة الله هي التي تمهله.

- وتتجلى في تجاوز الله - سبحانه - عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب، وبكتابة الرحمن على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم تاب.

- وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها، وعلى الحسنة بعشر أمثالها، والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء ومحو السيئة

بالحسنة.. فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته حتى رسول الله ﷺ كما قال عنه نفسه (١).

والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعَّي عنها هو أجدر وأولى، وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً:

إن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن، فيتصل به ويعرفه، ويطمئن إليه – سبحانه –ويأمن في كنفه، ويستروح في ظله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها، فضلاً على وصفها والتعبير عنها.

فلننظر كيف مثل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاُ ما:

– قال ﷺ: لما قضى الله الخلق – وفي رواية: لما خلق الله الخلق – كتب في كتابٍ فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي (٢).

---

(١) رواه: البخاري في الرقاق باب القصد والمداومة ٥/٢٣٧٣ برقم ٦٠٩٨ ، ٦٠٩٩، ومسلم في صفات المنافقين باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٤/١٧٢٠ برقم ٢٨١٦، ٢٨١٧، ٢٨١٨ واللفظ له .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٩٧ .

- وقال ﷺ: " جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " (١).

- وقال ﷺ: "إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة"(٢).

وهذا التمثيل النبوي الموحي، يقرب للإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى، ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية، ويتملاها ويتعجب لها، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة، والضعف والمرض، وبرحمة الطير والوحش بعضها ببعض - ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب - ثم يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه.

وكان رسول الله ﷺ لا يني يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الولد ٥/٢٢٣٥ برقم ٥٦٣٥ ، ومسلم في التوبة باب سعة رحمة الله ٤/١٦٧٥ برقم ٢٧٥٢ واللفظ له .

(٢) رواه : البخاري في الأدب باب رحمة الولد ٥/٢٢٣٥ برقم ٥٦٥٣ ، ومسلم في التوبة ٤/١٦٧٦ برقم ٢٧٥٤ .

- ففي الحديث: أنه قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلَّب ثديها، إذ وجدت صبياً في السبي، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال ﷺ: " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: " لا والله وهي تقدر ألا تطرحه، قال ﷺ: " فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها " (١) وكيف لا، وهذه المرأة إنما ترحم ولدها، من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة؟.

- ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية، بهذا الأسلوب الموحي، كان ينتقل بهم خطوة أخرى، ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته، ليتراحموا فيما بينهم، وليرحموا الأحياء جميعاً، ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل ومن الأحاديث في ذلك:

- " الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " (٢).

---

(١) رواه : البخاري في الجنائز باب الدعاء ٤٣٢/١ برقم ١٢٢٤ ، ومسلم في الجنائز باب البكاء على الميت ٣٠/٢ برقم ٩٢٣ .

(٢) رواه : البخاري في التوحيد ٢٦٨٦/٦ برقم ٢٩٤١ واللفظ له ، ومسلم في الأدب ١٤٤٣/٤ برقم ٢٣١٩ .

- " لا يرحم الله من لا يرحم الناس " [١].
- " لا تنزع الرحمة إلا من شقي " [٢].
- " من لا يرحم لا يرحم " [٣]، قاله للأعرابي الذي رآه يقبل الحسن رضي الله عنه فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم.

ولم يقف الرسول ﷺ في تعليمه لأصحابه – رضوان الله عليهم– عند حد الرحمة بالناس، وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء، وأن المؤمنين مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقاً بخلق الله سبحانه، ومن ذلك قصة الرجل الذي سقى الكلب فغفر الله له[٤].

---

(١) رواه الترمذي في البر و الصلة ٢٨٥/٤ برم ١٩٢٣، وأبو داود في الأدب ٢٣٢/٥ برقم ١٩٤٢، وسنن أبي داود ، دار الحديث حمص ط١ عام ١٣٩٤ وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣٥٠/٢ .

(٢) رواه البخاري في الأدب باب رحمة البهائم ٢٢٣٩/٥ برقم ٢٦٦٧ ، ومسلم في الفضائل ١٤٤٣/٤ برقم ٢٣١٨ .

(٣) البخاري في الأدب ، باب رحمة البهائم ٢٢٣٩/٥ برقم ٢٦٦٧ ، ومسلم في الفضائل ١٤٤٣/٤ برقم ٢٣١٨ .

(٤) البخاري في الأدب ٢٢٣٨/٥ ،برقم ٥٦٦٣، ومسلم في السلام باب فضل سقي البهائم ١٤٠٥/٤ برقم ٢٢٤٤ .

- قصة المرأة البغي التي سقت الكلب فغفر لها [1].

- نهيه ﷺ عن إحراق قرية النمل[2].

وهكذا علَّم رسول الله ﷺ أصحابه هدي القرآن ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة، أليس إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة " [3].

واستقرار هذه الحقيقة على هذا النحو يسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه – حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار – فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة، وكل حالة، وكل وضع، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه، أو طرده من رحمته فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها، إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمن حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها!.

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر وبالرجاء والأهل وبالهدوء والراحة فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله، ما دام لا يُبعد عنه في الشرود!

---

(١) البخاري في الأنبياء ١٢٧٩/٣ برقم ٣٢٨٠ ، ومسلم في السلام باب فضل سقي البهائم ١٤٠٥/٤ برقم ٢٢٤٥ .

(٢) البخاري في الجهاد ١٠٩٩/٣ برقم ٢٨٥٦ ، ومسلم في السلام باب النهي عن قتل النمل ١٤٠٣/٤ برقم ٢٢٤١ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٨– ١٠٥٢ بتصرف .

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله، فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرئ على المعصية – إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم، والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم، أو المغفرة أو الرحمة، إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية!.

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيراً قوياً في خلق المؤمن، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله – سبحانه – وهو يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطأه فيعلمه ذلك كيف يرحم، وكيف يعفو، وكيف يغفر، كما رأينا في تعليم الرسول ﷺ لأصحابه " [1].

٤- في ظلال قوله تعالى { مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [سورة فاطر:٢] يقول: " حين تستقر هذه الصورة في قلبٍ بشري – فإنها تيأسهُ من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض، وتصله برحمة الله، وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض، وتفتح أمامه باب الله...

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٢ .

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوح، ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان، يجدها في نفسه، وفي مشاعره، وفيما حوله وحيثما كان، وكيفما كان، ولو فقد كل شيء مما يَعُد الناسُ فقده هو الحرمان، ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع وفي كل حالٍ وفي كل مكان، ولو وجد كل شيء مما يَعُده الناس علامة الوجدان والرضوان!.

- وما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب هي بذاته نقمة.

- وما من محنه - تحفها رحمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعمة.

- ينام الإنسان على الشوك - مع رحمة الله - فإذا هو مهاد، وينام على الحرير -وقد أمسكت عنه-

فإذا هو شوك القتاد.

- يعالج أعسر الأمور - برحمة الله - فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور- وقد تخلت رحمة الله - فإذا هي مشقة وعسر.

- يخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة بوار.

- ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه، لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السحن أو في جحيم العذاب، أو في شعاب الهلاك، ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي واقع الرخاء.

- فمن داخل النفس برحمة الله تتفجر ينابيع السعادة والرضى والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكدر والمعاناة.

- هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب.. فلا عليك هو الفرج والفسحة واليسر والرخاء وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب.. فما هو بنافع، وهو الضيق والكرب والشدة والقلق.

- هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق.. والسكن.. والعيش.. وتخشن الحياة، ويشوك المضجع فلا عيك، فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة.

وهذا الفيض يمسك، ثم يفيض الرزق، ويقبل كل شيء فلا جدوى، إنما هو الضنك والحرج والشقاوة.

- المال والولد والصحة والقوة والجاه والسلطان، تصبح مصادر قلق وتعب ونكد إذا أمسكت عنها رحمة الله، فإذا فتح الله أبواب رحمته، كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان.

- يبسط الله الرزق - مع رحمته - فإذا هو متاع طيب ورخاء، ورغد في الدنيا وزاد في الآخرة، ويمسك رحمته فإذا هو مثار قلق وخوف، وحسد وبغض.. وقد يكون معه التلف بإفراط واستهتار.

- يمنح الله الذرية - مع رحمته - فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله، ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء..

- يهب الله الصحة والقوة - مع رحمته - فإذا هي نعمة وحياة طيبة ويمسك نعمته فإذا هي بلاء.

- يعطي الله السلطان والجاه - مع رحمته - فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، وادخار الطيب من العمل، ويمسك الله رحمته فإذا بهما مصدر قلق وطغيان وبغي ومثار حقد، ورصيد من النار..

– العلم الغزير والعمر الطويل والمقام الطيب، كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال مع الإمساك ومع الإرسال.. والجماعات كالآحاد، والأمم كالأفراد، في كل أمر.. ووضع.. وحال..

– ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها.. وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة.

– والعذاب هو: العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها، وهو عذاب لا يصبّه الله على مؤمن أبداً.

– رحمة الله لا تعزُّ على طالبٍ في أي مكان ولا في أي حال.

– وجدها إبراهيم – عليه السلام – في النار – ووجدها يوسف –عليه السلام –في الجب والسجن – ووجدها يونس – عليه السلام – في بطن الحوت في ظلمات ثلاث.

– ووجدها موسى – عليه السلام – في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة وحراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به يبحث عنه.

- وجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض {فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ}.

- ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار.

- ووجدها كل من آوى إليه يأساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة من قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

- ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها. ومن ثم فلا مخافة من أحد ولا رجاء في أحد، ولا مخافة من شيء ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة ولا رجاء مع الوسيلة.

أي طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير؟!..

وهكذا أنشأ القرآن بمثل هذه الآية وهذه الصورة تلك الفئة العجيبة من البشر في صدر الإسلام.. التي تبدو لنا اليوم كالأحلام.. لأنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ القرآن ومعانيه فقط بل كانت تتعامل مع الحقيقة التي تمثلها آيات القرآن وتعيش في واقعها بها ولها.

وما يزال هذا القرآن – قادراً على أن ينشئ بآياته تلك أفراداً وفئات تمحو وتثبت في الأرض – بإذن الله – ما يشاء الله.

– ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية:

لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد وضيق ومشقة واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي، وضيق بضائقة، وعسر من مشقة، واجهتني في ذات اللحظة، ويسر الله لي، أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكب حقيقتها في روحي، كأنما هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه في كياني، حقيقة أذوقها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها، تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا، وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت من قبل بها كثيراً، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هاأنذا.. نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون!

– إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية نعمة

يتذوقها الإنسان ويعيشها، ولكنه قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي وهاأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق وأنا في مكاني! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته، آية من القرآن تفتح كوة من النور، وتفجر ينبوعاً من الرحمة، وتشق طريقاً ممهداً إلى الرضى والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين وفي نبضة قلب وفي خفقت جنان، اللهم حمداً لك. الله منزل هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين " (١).

وبهذه الكلمات الرائعة والموقف الفريد اختم هذا الفصل الذي استعرضت فيه موقف سيد - رحمه الله - من توحيد الأسماء والصفات. راجياً لنا وله ولعموم المسلمين ا لرحمة في الدنيا والآخرة.. إنه سميع مجيب.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٢١- ٢٩٢٤ بتصرف يسير .

الـفصـل الثـالـث

منهجه في توحيد الألوهية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين.

المبحث الثاني: منهجه في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك.

المبحث الثالث: خصائص الألوهية ومجالاتها.

المبحث الأول

تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين

سبق معنا عند الحديث عن أنواع التوحيد وموقف سيد قطب منها: بيان مفهوم توحيد الألوهية والربوبية والعلاقة بينهما عند جمهور السلف وعند سيد قطب، وحقيقة الخلاف بينهما وسببه. ويمكننا هنا أن نشير إلى مفهوم الألوهية عند سيد قطب رحمه الله – كما يأتي:

أولاً: تعريف توحيد الألوهية عند جمهور السلف:

يقصد بتوحيد الألوهية عند جمهور أهل السنة والجماعة: توحيد الله – سبحانه وتعالى– بأفعال العباد، بمعنى الإقرار بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة دون سواه وهو معنى " لا إله إلا الله " أي لا معبود بحق إلا الله..

وهذا النوع من التوحيد – توحيد الألوهية – هو الذي كان ينكره المشركون مع إقرارهم بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق، والرب والمالك والمدبر كما حكى القرآن ذلك عنهم كثيراً [1].

ثانياً: تعريف توحيد الألوهية عند سيد قطب:

يرى سيد – تبعاً للمودودي: أن الألوهية مصطلح عام وشامل يندرج تحته مجالان:

المجال الأول: تدبير الله للكون وما فيه ومن فيه، وتصريف الحياة فيه، وضبط النواميس والسنن التي تسيره – وهذا ما يسميه أهل السنة بالربوبية –

المجال الثاني: مجال الحكم والتشريع للناس وتدبير أمورهم وإخضاعهم وتعبيدهم لله سبحانه وتعالى

وهذا ما يسميه أهل السنة بالألوهية ويطلق عليه سيد قطب اسم " الربوبية " ويجعله مظهراً ومجالاً من مجالات الألوهية العامة.

---

(١) ينظر في ذلك : شرح الطحاوية ١/ ٢٤ ، وفتح المنان للألوسي ص ٥٢١ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ص٢٠

ويرى سيد أن المشركين كانوا منكرين لهذا النوع من التوحيد وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالحاكمية والتشريع والطاعة، ويظهر من خلال ما سبق

١ أن سيداً – رحمه الله – يتفق مع جمهور أهل السنة والجماعة على حقيقة التوحيد، حيث يرى الجميع أن التوحيد مصطلح يشمل الإقرار بوجود الله ووحدانيته وأفعاله وصفاته، والتوجه إلى إليه وحده بالعبادة والطاعة في كل أمور الحياة، وإن اختلف معهم في تسمية أقسام هذا التوحيد وأنواعه، لكن النتيجة العامة عند الجميع واحدة في حقيقتها.

٢- أن الجميع يقررون تلازم أنواع التوحيد وترابطها، وأنه لابد من وجودها جميعاً حتى يكون مقبولاً عند الله تعالى، وأنه لا يقبل جزء دون أخر.

٣ أن الجميع متفقون على أن توحيد الألوهية هو الأساس والغاية، والنتيجة والثمرة الذي لا يقبل الله إيمان أحد ولا عمله إلا أن يقرَّ به، ويقصره على الله وحده لا شريك له سواء عند أهل السنة الذين يسمونه بتوحيد الألوهية، أو عند سيد الذي يسميه بالربوبية ويجعله مظهراً من مظاهر الألوهية العامة.

٤ أن سيد قطب وقبله المودودي أيضا في بيانهم لمفهوم الألوهية والربوبية اعتمدا على بعض ما ورد في اللغة العربية من استعمال لمصطلح الربوبية في الملك والحاكمية والطاعة والسلطان والتشريع ونحوها. واستعمال الألوهية في التدبير والحاكمية والسلطان، والطاعة والعبادة (١)، وكذا اعتمدا على بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الألوهية والربوبية بهذه المعاني (٢).

ثالثاً مكانة توحيد الألوهية في الدين

توحيد الألوهية عند أهل السنة والجماعة هو الغاية العظمى، والمقصد الأساسي الذي من أجله خلق الله الخلق وأوجدهم في هذه الأرض، كما قال سبحانه وتعالى { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات ٥٦] .

---

(١) انظر: لسان العرب (٢٢/١ ، (٤٦٨/١٣ ، وفي ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص ١٦٨-١٧٠.

(٢) المصطلحات الأربعة للمودودي ص ١٥ وما بعدها ، وفي ظلال القرآن ، سيد قطب : ١/ ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٨٢ ، ٤٩٢ ، ٢/ ١٠٦٣ ، ٣/ ١٣٤٦ ، ١٣٥٣ ، ١٧٦٣ ، ٤/ ١٩١٠، ١٩١٢، وفي ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص١٥٥ وما بعدها .

وهو أيضاً الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب، فإن الله لم يبعث رسله وينزل كتبه إلا لتعريف خلقه به سبحانه وإخلاص توحيده وإفراده في العبادة قال سبحانه وتعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ } [سورة النحل ٣٦] .

كما أن توحيد الألوهية من أعظم الأصول التي قررها القرآن الكريم، وأكملها وأفضلها، وألزمها لصلاح الإنسانية، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به، أو بحق من حقوقه أو نهى عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو الفرق بينهم وبين المشركين.

كما أنه أول واجب على المكلف وآخر ما يخرج به الإنسان من هذه الدنيا [١].

أما مكانة توحيد الألوهية والعبادة وأثاره في حياة البشرية عند سيد قطب فيمكن بيانه فيما يأتي

(١) ينظر ذلك : شرح العقيدة الطحاوية ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٣ ، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني دار الكتب العلمية ب٠ت ، ص ٣٠، ٣١ ، ومعارج القبول للحكمي دار ابن القيم – الدمام ط٣ عام ١٤١٥هـ ٢/ ٤٠٢ وما بعدها ،

١ **نزول القرآن الكريم لتقريره** يقول سيد " إن القضية التي نزل الكتاب – القرآن الكريم – لتقريرها وتوكيدها، هي قضية توحيد الله، وإفراده بالعبادة، وإخلاص الدين له، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره، والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع " (١).

٢ **كونه الغاية التي بعث من اجلها النبي ﷺ** يقول سيد " إن منهج النبي ﷺ الذي يدعو إليه الناس كافة هو عبادة الله وحده وإخلاص الدين له، وقيام الحياة على أساس هذا التوحيد. وتوحيد الله وإخلاص الدين له ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو منهاج حياة كاملة، يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير، وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة " (٢).

٣ **كونه مفرق الطريق بين الإسلام وما سواه** يقول سيد "وهذا التوحيد الخالص الناصع وهو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد، سواء عقائد الملحدين والمشركين، أو عقائد أهل الكتاب المنحرفين، يهوداً أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً، كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٣٦/٥ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٣٦/٥ .

وحياة سائر أهل العقائد في الأرض، فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديداً كاملاً دقيقاً " [١]، وبالتالي ركز عليها القرآن الكريم كثيراً.

٤ **كونه قاعدة الإيمان** يقول سيد " إن وحدة الألوهية هي القاعدة الكبيرة التي يقوم عليها التصور الإيماني فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله تختلف التصورات حول ذاته وصفاته وحول علاقاته بالخلق ولكنها لا تنفي وجوده، – ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة، حقيقة وجود إله، إلا في هذه الأيام الأخيرة، حيث نبتت نابتة منقطعة عن أصل الحياة، منقطعة عن أصل الفطرة، تنكر وجود الله، وهي نابتة شاذة لا جذور لها في أصل هذا الوجود، ومن ثم فمصيرها حتماً إلى الفناء والاندثار عن هذا الوجود، والذي لا يطيق تكوينه ولا فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق مقطوعة الجذور!

ولذلك اتجه السياق القرآني دائماً إلى الحديث عن وحدة الألوهية، بوصفها التصحيح الضروري للتصور، والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور.. ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية

(١) المصدر السابق ١/٣٦٥-٣٦٧، ٣٩٠ .

والنظم الاجتماعية المنبثقة من هذا التصور، تصور وحده الألوهية في هذا الوجود {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}.

ومن وحدانية الألوهية التي يؤكدها هذا التأكيد، بشتى أساليب التوكيد، يتوحد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة، وتتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك، ويتوحد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين، ويتوحد المنهج الذي يصرف حياة الخلق في كل طريق " (١).

٥ **كونه الأصل الذي ينبثق منه منهج الإسلام للحياة** يقول سيد " فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة – بعد الرسل – كعقيدة التثليث عند النصارى.. والأساطير عند الوثنيين.. هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليه التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، فمن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة، فلا يكون إنساناً عبداً إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله، وما يأمره به من الطاعات، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٥١–١٥٢ بتصرف

الحاكمية لله وحده، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة الله، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله، هكذا إلى أخر ما ينبثق عن الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء " (١).

٦ **<u>كونه أساس صلاح واستقامة الحياة البشرية عموماً وسبب للاستعلاء بالإيمان</u>**

يقول سيد " إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة، إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وان تبذل في سبيله كل هذا الجهود، وان تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه وتعالى في حاجة إليه، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ . بتصرف

لائقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذي لا حد له لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء "

وقيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء نبينها إجمالاً فيما يأتي

ننظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد – على هذا النحو الشامل – في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي، وحاجته الفطرية، وتركيبة الإنساني، وأثرها في تصوره، وأثر هذا التصور في كيانه.. إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل – لكل معاني الشمول – يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها، وبكل اتجاهاتها، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، جهة تطلب عندها كل شيء، وتتوجه إليها بكل شيء، جهة واحدة ترجوها وتخشاها، وتتقي غضبها، وتبتغي رضاها، جهة واحدة تملك لها كل شيء، لأنها خالقة كل شيء، ومالكة كل شيء، ومدبرة كل شيء.

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها، وتجد

عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام.

عندئذ تتجمع هذه الكينونة.. تتجمع شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة، في شأن العقيدة والمنهج وشأن الاستمداد والتلقي، وشأن الحياة والموت، وشأن السعي والحركة، وشأن الصحة والرزق، وشأن الدنيا والآخرة، فلا تتفرق مزقاً، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق.

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو، تصبح في خير حالاتها، لأنها تكون حينئذ في حالة " الوحدة " التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها.. فالوحدة هي حقيقة الخالق سبحانه وتعالى الوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال، والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء على تنوع الأنواع والأجناس، والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات، والوحدة هي غاية الوجود الإنساني وهي العبادة على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها، وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود.

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني، وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم

عليها بناء الحياة كلها، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق.

فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءاً من هذه العبادة، أو كل العبادة، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه، وهو إفراد الله – سبحانه بالألوهية والإقرار له وحده بالعبودية.. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه، وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها، مقام تلقي الوحي من الله، ومقام الإسراء.

وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة، بمعنى الدينونة لله وحده، وآثارها في الحياة الإنسانية إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية، اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية، في صورة من صورها الكثيرة.. سواءً عبودية الاعتقاد، أوعبودية الشعائر، أوعبودية الشرائع، فكلها عبودية، وبعضها

مثل بعض، تُخضع الرقاب لغير الله، بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متدينين! لا بد للناس من دينونة، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله، في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة {وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} [سورة محمد ١٢]

ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته، ويندرج في عالم البهيمة، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة...

وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد، في صورة من صور الدينونة. سواء في صورة حاكمية التشريع، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد، أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور.

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي، والتي

تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صوراً منها، وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها، وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأموال وأحيانا من الأولاد تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف! ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب، ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت، ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار، ومن.. ومن.. من الأوهام التي ما يزال الناس في رعب منها، وفي خوف وتقرب ورجاء، حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء...

وأخيراً تجيء تكاليف العبودية لحاكمية البشرية، وما من أضحية يقدمها عابدُ اللهِ لله إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة، من الأموال والأنفس والأعراض...

وأخيراً فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض، وترقيتها، وترقية الحياة فيها "[1]

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٨ -١٩٤٣ بتصرف ، وينظر أيضاً : ٣٩٢/١ ، ١٩٠١/٤ ، ٣٠٣٦/٥ .

" فالقلب الذي يوحد الله، يدين لله وحده، ولا يحني هامته لأحد سواه، ولا يطلب شيئاً من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه، فالله وحده هو القوي عنده، وهو القاهر فوق عباده، والعباد كلهم ضعاف مهازيل، لا يملكون له نفعاً ولا ضراً، فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منهم، وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.. فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء...

وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر، كما تبدو في السلوك والتصرفات، وترسم للحياة كلها منهاجاً كاملاً واضحاً متميزاً، ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان، من ثم كانت تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله، وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد، في كل عصر، وفي كل بيئة، فالتوحيد بمعناه ذلك عنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك. " (١)

ومن خلال ما سبق نجد أن سيد قطب – رحمه الله – يبين أهمية توحيد الألوهية العبادة في أمور عديدة منها

---

(١) المصدر السابق ٣٠٣٦/٥ بتصرف يسير .

١- تجميع الكينونة الإنسانية شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة، واستمداداً وتلقيناً، في

كل شؤون الحياة، فلا تتفرق بها السبل.

٢-حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق.

٣-تحرير البشر من الدينونة لغير الله في أي صورة من صور الدينونة، وبذلك يتحقق للإنسان كرامته وحريته الحقيقية التي لا يمكن أن توجد في غير صورة التوحيد الناصعة.

٤- صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، والتي تذهب كلها في ظل الدينونة لغير الله

٥-حماية الإنسان من الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي.

٦-صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تألية الأرباب الزائفة، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض وترقيتها.

٧-تحقيق العزة والغنى للبشر، فلا يذل الموحد ولا يحني هامته لغير الله سبحانه وتعالى.

المبحث الثاني

منهجه في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك.

سلك سيد قطب – رحمه الله – في تقريره لتوحيد الألوهية العبادة وإبطال الشرك، مسلك أهل السنة والجماعة المتلقى من القرآن الكريم. (١)

وباستقراء كلامه حول هذا الموضوع نجد أنه ركز كثيراً على بيان طريقة القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية العبادة وإبطال الشرك بكل صورة وأشكاله، ويمكن بيان طرق وأساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية التي أشار إليها سيد – رحمه الله – فيما يأتي

أولا الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك

وهذا الأسلوب أحد أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية العبادة والدعوة إليه وإبطال ما سواه، وقد جاء في كثير من الآيات القرآنية.

---

(١) ينظر : كلام أهل السنة في تقرير توحيد الألوهية في : دعوة التوحيد لهراس ص ٣٩–٤٥ ، والإرشاد للفوزان ص ٢٧–٣٠، وفقه التوحيد للشيخ خالد العك ص ٥٥ .

وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى هذا الأسلوب القرآني في ظلال عدد من الآيات ومن ذلك

١ قوله رحمه الله – " إن الحقيقة الأولى البارزة التي تعرض في القرآن الكريم، هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره، وتقرير أن هذا هو الدين كله...

ويبقى هنا أن نجلي طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة، وقيمة هذه الطريقة

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا

{يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ} [سورة المؤمنون ٢٣] .

{أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ} [سورة هود ٢] .

وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي، فهل مدلولهما واحد؟

إن مدلول الصيغة الأولى الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه، ومدلول الصيغة الثانية النهي عن عبادة غير الله... وهو مقتضى المدلول الأول ومفهومه، ولكن الأول " منطوق " والأخر " مفهوم " ولقد اقتضت حكمة الله في بيان هذه الحقيقة الكبيرة، عدم الاكتفاء بالمفهوم في النهي عن عبادة غير الله، وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل، وإن كان مفهوماً ومتضمناً في الأمر الأول.

إن هذا يعطينا إيحاءً عميقاً بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة، ووزنها في ميزان الله سبحانه، بحيث تستحق ألاّ توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه، وأن يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن! ولا بالمقتضى اللازم!

كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها، عبادة الله وعدم عبادة سواه أن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء، وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وحده، ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ولا يتركون عبادته، ولكنهم مع هذا يعبدون معه غيره، فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون! ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهي معاً، بحيث يؤكد أحدهما الأخر، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة.

وقد تكرر مثل هذا التعبير القرآني في مواضع شتى، هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها

{ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ } [سورة هود ١ ٢] .

{ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ } [سورة هود ٢٥ ٢٦] .

{ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ } [سورة هود ٥٠] .

{ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ } [سورة النحل ٥١] .

{ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ } [سورة آل عمران ٦٧] .

{ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ } [سورة الأنعام ٧٩] .

وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد، له دلالته من غير شك، سواء في تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة، وإنما يُنص نصاً منطوقاً على كل جانب فيها.

أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله سبحانه بطبيعة الكائن الإنساني، وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو، الذي يتجلى فيه القصد والعمد. ولله الحكمة البالغة، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير. " (١)

١- في ظلال قوله تعالى { لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ } [سورة الإسراء ٢٢ ٢٣] ، يقول سيد "إنه النهي عن الشرك والتحذير من عاقبته، والأمر عام، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به.. ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك، أمرٌ في صورة قضاء، فهو أمرٌ حتمي حتمية القضاء، ولفظة " قضى " تخلع على الأمر معنى التوكيد إلى جانب القصر الذي يفيده النفي والاستثناء" ألا تعبدوا إلا إياه"فتبدو في جو التعبير ظلال التوكيد والتشديد" (٢)

٢- في ظلال قوله تعالى {وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا } [سورة النساء ٣٦] ، يقول سيد " الأمر الأول بعبادة الله،

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٣٥/٤ -١٩٣٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٢٠/٤-٢٢٢١ .

والنهي الثاني لتحريم عبادة أحد معه سواه، نهياً باتاً شاملاً، لكل أنواع المعبودات التي عرفتها البشرية ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ شيئاً كائناً ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان، فكلها مما يدخل في مدلول كلمة شيء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال " [1].

٣- في ظلال قوله تعالى { وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾} [سورة يونس ١٠٥]

يقول سيد " زيادة في توكيد المعنى – عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان " [2].

والآيات في هذا الباب كثيرة يصعب استقصاء كلام سيد حولها، نكتفي بالنماذج السابقة [3].

ثانياً الاستدلال بآيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والرعاية وغيرها

حيث يقرر القرآن الكريم توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، ولا متصرف في الكون إلا هو سبحانه وتعالى

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٥٩-٦٦٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٨٢٥ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ٢/١١٠٩ ، ٤/٢٢٠٠، ٢٤٢١ .

ويجعل ذلك دليلاً على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، ويلزم المقرين بالربوبية الإقرار بالألوهية. (١)

ويقف سيد – رحمه الله – كثيراً في ظلال الآيات التي تتحدث عن الخلق والتدبير، ويعرض منهج القرآن الكريم في مواجهة المشركين باعترافهم لله بالخلق والتدبير ليجعل من ذلك دليلاً ملزماً لوجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والتوجه، ويمكن عرض بعض النصوص ومنها

١ في ظلال قوله تعالى { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾} [سورة البقرة ٢١ ٢٢] ، يقول سيد " إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم، ربهم **الذي تفرد بالخلق، فوجب أن يتفرد بالعبادة**، والقرآن يقررأن من حق الربوبية الخالصة عبادة الخالق وحده، ويذكرهم بجعل الأرض فراشاً والسماء بناءً، وإنزال الماء

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦-٣٧ .

وإخراج الثمرات... في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق وحده، وينبههم إلى إنهم يعلمون هذا جيداً، بالتالي فالشرك بعد هذا العلم تصرف لا يليق " [١].

ويقول أيضاً " إن تفرد الله – سبحانه وتعالى – بالخالق يفرده سبحانه بالملك، والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق، فهو خالق خلقه ومالكهم، وهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه، فإذا تقررت هذه الحقائق.. الخلق والملك والرزق، تقرر معها ضرورةً وحتماً أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع، والنظام الذي يتجمع عليه العباد وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام " [٢].

"و المنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذي يختص الله بمنحه للناس، ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة الناس.. " [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٤٦/١-٤٧ بتصرف

(٢) المصدر السابق ١١٦٣/٢-١١٦٤ ، وينظر أيضاً : ١٧٦٢/٣ .

(٣) المصدر السابق ١٢٢٣/٣ ، وينظر أيضاً :٣/ ١٢٢٨،١٢٢٩ ، ١٢٩٧ .

٢- وفي مقدمته لسورة الأنعام يقول " تبدأ السورة بمواجهة المشركين الذين يتخذون مع الله آلهةً أخرى، بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم، تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله، وتشمل وجودهم كله، تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع، { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } [سورة الأنعام ١ ٣] .

ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى، وتذرع الوجود الإنساني كله في الآية الثانية ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة. أي إعجاز! وأي روعة! وأي شمول! وأي إحاطة!

وأمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق، والوجود الإنساني الشاهد بتدبيره، والألوهية الحاكمة في السماوات

والأرض العالمة بالسر والجهر والكسب يبدو شرك المشركين وافتراء المفترين، عجباً منكراً لا مكان له في نظام الكون، ولا في فطرة النفس ولا سند له في القلب والعقل"[١].

" وعرض حقيقة الألوهية فيما سبق، ليس لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية، من إسلامها بجملتها لله وحده، لا تعدل به أحداً.. والاستسلام لحاكمية الله وحده في كل شؤونها..

والآيات من (١٢ ١٩). تستهدف أيضاً إبراز حقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية، وفي الرزق والكفالة، وفي القدرة والقهر، وفي النفع والضر.. كل ذلك لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية " [٢].

" وبما أن المشركين لم يكونوا ينكرون وجود الله، ولا أنه الخالق، والرازق، والمدبر، إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى، أو يعتقدون أن لهم قدرة مع قدرة الله، فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم، ليصحح لهم عن طريق إيقاظ الوعي والفطرة، ذلك الخلط

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٢٢-١٠٢٣ ، بتصرف بسير و٢/ ١٠٣٠-١٠٣٢ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٤٦-١٠٤٧ بتصرف و ٢/ ١٠٥٣.

والضلال، فيخاطبهم بقوله تعالى { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ } [سورة يونس ٣١ ٣٢] .

فهذه مقومات الحق والإيمان قائمة في اعتقادهم يعترفون بها، ولكنهم ينكرون نتائجها اللازمة، ولا يقومون بمقتضياتها الواجبة، أي عبادة الله وحده.. " (١)

٣ يقول أيضاً " وفي ختام سورة النمل... يقفهم السياق أمام مشاهد في صفحة الكون وفي أطواء النفس لا يملكون إنكار وجودها، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بجود الخالق الواحد المدبر القدير، ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة، تأخذ عليهم أقطار الحجة، وأقطار المشاعر، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة من خلق السموات والأرض، من أنزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل له رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء؟ ويجعلكم خلفاء

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٧٨١-١٧٨٣ بتصرف و ٥/٣٠٩٤ ، ٣١٧٧ ، ٣١٨٠ .

الأرض؟ ومن يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ ومن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يقرعهم أإله مع الله؟

وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى، لا يملكون أن يقولوا أن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله!.... وهي جولة في الآفاق وفي أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفي الشريك "[1].

ثالثاً الاستدلال بشهادة الله لنفسه بهذا التوحيد وشهادة الملائكة وأولي العلم.

من الأدلة على توحيد الألوهية شهادة الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهادة ملائكته وأنبيائه ورسله له، قال تعالى { شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ } [سورة آل عمران ١٨] ، حيث تضمنت هذه الآية إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجلَّ شهادة وأعدلها وأصدقها، من أجلِّ شاهد، بأجلِّ مشهود به، كما تضمنت الأمر والإلزام بما دلت عليه من التوحيد، ووجه استلزام

---

(١) المصدر السابق ٥/٢٦٥٤ – ٢٦٥٥.و ٢٦٦١ و ينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٤٢ ، ١٥٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٩ وما بعدها

شهادته سبحانه وتعالى بذلك – أي الأمر والإلزام – انه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وان إلهية ما سواه باطله فلا يستحق العبادة، وهذا يفهمه المخاطب من النفي والإثبات [1].

وقد أشار سيد إلى هذه الدليل على الألوهية في ظلال الآية السابقة حيث يقول " هذه هي الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام، حقيقة التوحيد توحيد الألوهية، وهي الحقيقة التي بدأت بها السورة ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾، وهي تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة، وجلاء الشبهات.. من جهة أخرى.

وشهادة الله سبحانه أنه لا إله إلا هو.. هي حسب كل من يؤمن بالله.. وقد يقال إنه لا يكتفي بشهادة الله إلا من يؤمن بالله وأن من يؤمن بالله، ليس في حاجة إلى هذه الشهادة، ولكن واقع الأمر أن أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم في نفس الوقت يجعلون له ابناً وشريكاً، بل إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد والأبناء والبنات! فإذا قرر لهؤلاء وهؤلاء أن الله

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣ –٤٨ بتصرف .

سبحانه شهد أنه لا إله إلا هو، فهذا مؤثر قوي في تصحيح تصوراتهم.

على أن الأمر كما يبدو من متابعة السياق أعمق من هذا وأدق، فإن شهادة الله سبحانه بأنه لا إله إلا هو، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام لا اعتقاداً وشعوراً فحسب ولكن كذلك عملاً وطاعة وإتباعا للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمانٍ يقولون إنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله، ولا تستقيم مع شهادة الله – سبحانه وتعالى بأنه لا إله إلا هو.

وأما شهادة الملائكة وشهادة أولي العلم، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها، والتلقي عن الله وحده، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال، متى ثبت لهم أنها من عنده، وقد سبق في السورة بيان حال أولي العلم هؤلاء في

قوله {وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧} [سورة آل عمران ٧] ، فهذه شهادة أولي العلم وشهادة الملائكة تصديق وطاعة، وإتباع، واستسلام.... ويرتب على هذه الحقيقة التي عاد لتوكيدها مرتين في الآية الواحدة، نتيجتها الطبيعية، ألوهية واحدة، فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة " (١)، " وشهادة الله تعالى أكبر شهادة، فهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين.. هو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله، فإذا قال فقد انتهى القول، وقد قضي الأمر... وشهادة الله سبحانه تضمنها هذا القرآن، الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ لينذرهم به، فهو حجة على من يبلغه، لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية، التي تقوم عليها الدنيا والآخرة، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمناً " (٢).

رابعاً الاستدلال بدليل التمانع والنظر العقلي

المشهور عن المتكلمين أن دليل التمانع من أدلة تقرير توحيد الربوبية (٣)، إلا أن بعض علماء أهل السنة يسوقون هذا

(١) في ظلال القرآن ٣٧٨/١ –٣٧٩ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١٠٥٦/٢ بتصرف يسير .

(٣) ينظر : الإرشاد للجويني ص ٤٩ ، ونهاية الإقدام للشهرستاني ص ٩١–٩٧ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨.

الدليل لتقرير الألوهية أيضا، وهو ظاهر الآية الكريمة لمن تدبرها، فالله يقول { أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ } [سورة الأنبياء ٢١ ٢٢] .

وقد أشار شارح الطحاوية إلى ظن بعض الطوائف أن دليل التمانع خاص بالربوبية، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه لو كان فيهما إله غيره ولم يقل أرباب، وأن الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون إلا إله واحد، هو الله سبحانه وتعالى، لأن وجود أكثر من إله يستلزم فسادهما.. فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية. (١)

ويقف سيد رحمه الله – عند هذه الآية وأمثالها ليقرر وجوب توحيد الله في العبادة والتوجه له بلا شريك

١ ففي ظلال قوله تعالى { أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩-٤٠ بتصرف

يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾} [سورة الأنبياء الآيات ٢١ ٢٢] ، يقول سيد يجيء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم في الإلهة، ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد..

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم، وَوَصفُ هؤلاء الآلهة بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الإلهة، لكونها فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله، خلق الحياة وإعادتها... ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض، وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾، فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً، وينسق بينها وبين حركاتها وحركة المجموع.

هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات والنواميس تبعاً لها، ولانعدمت الوحدة والتناسق الكوني كله، ولوقع الاضطراب والفساد، والفطرة السليمة تشهد بوحدة الناموس والإرادة التي أوجدته، ووحده الخالق المدبر لهذا الكون الذي لا فساد في تكوينه وفي سيره ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، وهم يصفونه بأن له شركاء، تنزه

الله عما يقولون، والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم...

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة، منذ أن بعث الله الرسل للناس، لا تبديل فيها ولا تحويل، توحيد الإله وتوحيد المعبود، فلا انفصال بين الألوهية والربوبية، ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة، قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية.. " (١).

٢- في ظلال قوله تعالى { مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ } [سورة المؤمنون ٩١ ٩٢] ، يقرر سيد " أن مشركي العرب كانوا مضطربي العقيدة، لا ينكرون الله ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض ومدبرهما المسيطر عليهما، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة، يقولون إنهم يعبدونها لتقربهم من الله، وينسبون له البنات سبحانه وتعالى عما يصفون.

فأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٧٣- ١٣٧٤ بتصرف .

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، بعد ذلك الجدل، يجيء هذا التقرير في أساليب شتى

بالإضراب عن الجدل معهم، وتقرير كذبهم الأكيد {بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

ثم يُفصِّل فيما هم كاذبون ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾.

ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾مستقلاً بما خلقه، يصرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكل جزء من الكون، أو لكل فريق من المخلوقات ناموس خاص. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ بغلبةِ سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف وتدبير واحد.

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحده تكوينه بوحدة خالقه. فَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ . " (١).

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٤٧٨ – ٢٤٧٩ بتصرف .

٣- في ظلال قوله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾} [سورة الإسراء ٤٢ ٤٣] .

يقرر سيد قطب رحمه الله- أن القرآن الكريم جاء بالتوحيد، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقاً شتى، وأساليب متنوعة، ووسائل متعددة " ليذكروا ".

فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها، وإلى الآيات الكونية ودلائلها ولكنهم يزيدون نفوراً، كلما سمعوا القرآن نفروا من العقيدة، ومن القرآن ذاته خوفاً من أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة، عقائد الشرك والوهم.

وكما جاراهم في ادعاءاتهم في حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت، فهو يجاريهم في حكاية الآلهة المدعاة، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلاً ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (١).

ولو كما يقول النحاة حرف امتناع لامتناع، فالقضية كلها ممتنعة، وليس هنالك آلهة مع الله كما يقولون والآلهة التي يدعونها

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٢.

إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجماً أو كوكباً، إنساناً أو حيواناً، نباتاً أو جماداً، وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها، وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه ﴿ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾، وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة مع الله ، وهي تحت عرشه وليست معه، ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا " (١)

٤-ومن الأدلة العقلية أيضاً قوله سبحانه وتعالى { أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ } [سورة الطور ٣٥] ، يقول سيد رحمه الله- " والاستفهام عن حقيقة وجودهم هم أنفسهم، وهي حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها، من أن لهم خالقاً أوجدهم...

فوجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثيرٍ أو قليل. أما أن يكونوا هم

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٣٠ بتصرف .

الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق، وإذا كان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء، فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة، وهو منطق واضح بسيط " (١).

خامساً: بيان بطلان ألوهية غير الله.

أوضح القرآن الكريم بطلان ألوهية ما عبد من دون الله تعالى من المعبودات، سواء عُبدت بدعوى أنها أبناء أو بنات الله، أو أن بينها وبينه نسباً وقرابة، أو أنها تقربهم إلى الله زلفى، مبيناً عجز ما سوى الله، من خلال ضرب الأمثال، وطلب الموازنة بين هذه المعبودات وبين الحق سبحانه وتعالى، ومن ذلك

١ إبطال ألوهية ما عبد من دون الله تعالى، وتشمل

أ إبطال ألوهية الملائكة بدعوى البنوة لله سبحانه وتعالى علواً كبيراً يقول سبحانه { وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٩٩-٣٤٠٠ بتصرف يسير .

عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾} [سورة الأنبياء ٢٦ ٢٩] .

يقول سيد " ودعوى البنوة لله– سبحانه اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة، فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله، وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزيز لله، وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله، وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور.

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة، وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة، فهم ليسوا بنات لله كما يزعمون – بل عباد مكرمون عند الله، يعملون بأمره ولا يناقشون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، خائفون مشفقون من خشيته، لا يدعون الألوهية، ولو ادعوها جدلاً لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائناً من كان وهو جهنم، وبهذا تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة " (١).

(١) في ظلال القرآن ٢٣٧٤/٤– ٢٣٧٥ بتصرف يسير

وفي سورة الزخرف يستعرض منهج القرآن في معالجة أسطورة اتخاذ الملائكة آلهة بزعم أنها بنات الله، حيث يحاصرهم ويواجه هذه الأسطورة من كل جانب ولا يبقي ثغره مفتوحةإلا وأخذها عليهم " (١).

وفي سورة النجم يستعرض سيد- الآيات التي ترد على المشركين في دعواهم ألوهية الملائكة وأنها بنات الله وتبين تناقضهم، حيث كانوا يكرهون ولادة البنات، ومع ذلك لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثاً وهم لا يعلمون عنهم شيئاً، وان ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله (٢).

ب إبطال ألوهية المسيح عليه السلام حيث قررالقرآن الكريم في آيات كثيرة عدم ألوهية المسيح وغيره من البشر، بأدلة عقلية يجابه بها المشركين منها قوله تعالى {مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾} [سورة المائدة ٧٥] .

---

(١) المصدر السابق ٥/٣١٨٠- ٣١٨١ .

(٢) المصدر السابق ٦ / ٣٤٠٨ - ٣٤٠٩ ، وانظر أيضاً : ٤/٢٤٧٨ .

يقول سيد – رحمه الله– " وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح عليه السلام وأمه الصديقة وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله حي بذاته، قائم بذاته، باق بذاته، لا يحتاج، ولا يدخل إلى ذاته سبحانه أو يخرج منها شيء حادث كالطعام. (١).

ج إبطال ألوهية الكواكب والنجوم وقد جاء ذلك في مثل قوله تعالى {وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾} [سورة النجم ١] .

يقول سيد " والمقصود بالنجم هنا نجم الشعرى، وهو أحد النجوم التي كان لها شأن عند الفرس والعرب وقدماء المصريين على السواء وكان بعضهم يعبدها، فأشار الله إلى بطلان أُلوهيتها بقوله ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، حيث يوحي بأن النجم مهما كان عظيما فانه يهوي ويتغير مقامه، فلا يليق أن يكون معبوداً، فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٠٦/٦ .

ويصور القرآن بطلان ألوهية الكواكب أيضا في قصة إبراهيم علية السلام، ونظره إلى الكواكب وبيان زيف أُلوهيتها لأنها تغيب وتأفل [1].

ومن الآيات الجامعة في باب إبطال أُلوهية غير الله سبحانه، قوله تعالى { أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ } [سورة الإسراء ٥٦ ٥٧] .

يقول سيد " وينتهي هذا الدرس الذي بدأ بنفي فكرة الأبناء والشركاء، واستطرد إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد، ينتهي بتحدي الذين يزعمون الشركاء، يكشفوا عنهم الضر أو يحولوا عنهم العذاب.

ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الأنس، إن هم إلا خلق من خلق الله، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه، ويخافون عذابه.

وقد كان بعضهم يدعو عزيراً ابن الله ويعبده، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده، وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم، وبعضهم يدعو غير هؤلاء، فبين الله لهم أن هؤلاء

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٤٠- ١١٤١ .

جميعاً يتقربون إلى الله بالعبادة ويخشون عذابه، فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله، كما يتوجهون. وهكذا يختم ببيان تهافت عقائد الشرك في كل صورها، وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه. [1]

٢- بيان عبودية الكون وما فيه ومن فيه لله وحده

يقرر القرآن الكريم في كثير من الآيات " أن الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس، وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف! " [2].

" والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه، والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله، والإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزاً، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة، فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كله! " [3].

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٣٥ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٤ .

(٣) المصدر السابق ،١٣٠٧/٣ وينظر : ٢٥٤٨/٥ .

وفي "مقومات التصور الإسلامي " يقرر سيد رحمه الله – حقيقة وحده الألوهية، ويبين منهج القرآن الكريم في عرض التوحيد وإبطال الشرك في عقائد مشركي العرب والوثنيات كلها وعقائد أهل الكتاب المحرفة [(١)]. ثم يعرض منهج القرآن الكريم في بيان عبودية الكون وما فيه ومن فيه لله سبحانه وتعالى، وان العبودية لله تشمل كل شيء وكل حي، فلا يخرج عن العبودية لله سبحانه وتعالى شيء ولا حي في هذا الوجود. إنما يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية الواحدة، ويقف الكل من الألوهية الواحدة المتفردة موقف العبيد .

إنها عبودية الكون المادي ممثلاً في أجرامه الفلكية الكبيرة { ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ } [سورة فصلت ١١] .

وهي عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء في هذا الوجود المغيب منه والمشهود { أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٨ وما بعدها .

يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)} [سورة النحل ٤٨ ٤٩] .

وهي عبودية الخلائق العاقلة المكلفة بالكون { إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا } [سورة مريم ٩٣] ، عبودية الملائكة {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } [سورة الأنبياء ٢٦] ، وعبودية الجن والأنس عامة { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات ٥٦] ، وعبودية الرسل والأنبياء خاصة { وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } [سورة ص ٤٥] ، عبودية الطائعين {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) } [سورة الزمر ١٧ ١٨] ، عبودية العصاة {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [سورة الزمر ٥٣] .

كما أنها عبودية هذه الآلهة المدعاة، فكل ما يزعمون أنه إله فهو عبد لله، وهو يرجو لنفسه من الله النجاة، وهو يبرأ من إدعاء الألوهية، ويتبرأ من تعبيد الناس له ومن عبادتهم إياه

{ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا } [سورة الإسراء ٥٧] . {وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ } [سورة سبأ ٤٠ ٤١] .

{وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ } [سورة المائدة ١١٦] .

{ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ } [سورة إبراهيم ٢٢] .

إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة، مفرق الطريق، ومن ثم تنال هذه العناية الكبرى.. وفي مواجهة هذا البيان الشامل، الكاشف، المنير تبدو عبادة الشركاء مع الله سبحانه وتعالى، وتقديم القرابين لها، وإشراكها في الأموال والأبناء أياً كان هؤلاء الشركاء من البشر أو من الجن، أو من

الأحياء والأشياء – سخفاً لا يملك الدفاع عنه اشد المتحمسين له " (١).

٤- بيان عجز ما يُعبد من دون الله

من أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك بيان عجز ما يتخذه الناس من آلهة سواء كانت ملائكة أو أنبياء أو جماداً، فالكل عاجزون لأنهم مخلوقون مربوبون، والآيات في هذا كثيرة جداً، وقد وقف سيد رحمه الله عند هذا الأسلوب كثيراً من خلال أربعة محاور وهي

الأول بيان عجز ما سوى الله سبحانه وتعالى ومن ذلك

قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ } [سورة المائدة ٧٦] يقول سيد – رحمه الله – " ويختار التعبير بكلمة " **ما** " بدل كلمة " **من** " في هذا الموضع قصداً، ليدرج " المخلوقات " التي تُعبد كلها بما فيها من العقلاء في سلك واحد لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة، البعيدة عن حقيقة الألوهية، فيدخل عيسى، ويدخل روح القدس، وتدخل مريم، كلهم في " ما " لأنهم بماهيتهم من خلق الله، ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص (١٢-١٣٠ بتصرف ، ص ٣١٧ .

المقام فيبعد أن يكون أحداً مستحق للعبادة وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً " (١).

وقوله تعالى { أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ } [سورة الأعراف ١٩١ ١٩٢] ، يقول سيد " فهذه " الواو " و" النون " تشير إلى أن مِن بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من " العقلاء " الذين يُعبر عنهم بضمير " العاقل "، والعرب في وثنيتهم لم يكونوا يشركون بآلهة من البشر في تقديم الشعائر التعبدية لهم، إنما كان شركهم بتلقي الشعائر والأحكام، وهذا شركٌ يسوي القران الكريم بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء... والمقصود تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القران أول مرة إلى سخف ما هم عليه من الشرك واتخاذ تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً بل تُخلق، ولا تنصر عبادها بل لا تملك نصراً، سواء كانت من البشر أو من غيرهم فهي كلها لا تخلق ولا تنصر..

ثم يواجههم ويبين سخف وثنيتهم في ميزان العقل ويبين سخف ما يزاولون من الشرك بالآلهة التي ليس لها أرجل تمشي بها ولا أيدي تبطش بها ولا أعين تبصر بها ولا آذان تسمع بها،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٤٦ .

فهذه جوارح تتوافر لهم فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الهامدة؟.

فأما ما يرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حيناً، ومن الآباء والأجداد حيناً، فهم عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم لا يخلقون شيء وهم يخلقون، ولا يملكون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون" (١).

" وكما أن ما يعبد من دون الله عاجز عن الخلق والضر والنفع فإنهم عاجزون أيضاً عن إجابة دعاء من يدعونهم من دون الله "(٢)، " وهو عاجزون عن رزقهم أيضا" (٣).

وقوله تعالى {وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾} [سورة الفرقان ٣] ' يقول سيد " وهكذا يجرد آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية، فهم لا يخلقون شيئاً، والله خالق كل شيء.. ولا يملكون لأنفسهم فضلاً عن أن يملكوا

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٤١٤-١٤١٥ بتصرف ، وينظر أيضاً ١٨٢٥/٣ .

(٢) المصدر السابق ٢٠٥١/٣، ٣٢٥٥/٥

(٣) المصدر السابق ٢١٨٣/٣، ٢٣٨٠، ٢٧٢٨/٥، ٢٧٧٢

لعبادهم ضراً ولا نفعاً، والذي لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر، ولكن حتى هذا لا يملكونه.

ثم يرتقي إلى الخصائص التي لا يقدر عليها إلا الله " وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً "، فلا إماتة حيٍ ولا إنشاء حياةٍ ولا إعادتها داخل مقدورهم، فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية وما شبهة أولئك المشركين في اتخاذهم آلهة " (١).

" ولم ينفِ عن آلهتهم المدعاة أن تكون قادرة على عزهم ونصرهم ونفعهم وضرهم في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن عرض لهم حياة الآخرة، وجريرة هذه الآلهة عليهم فيها، فضلاً على أنها لن تقدم لهم عوناً! سواء كانت هذه الآلهة مما اتخذوه للعبادة والتأله، أو ممن اتخذوهم أربابا من البشر يتلقون منهم الشرائع والأحكام والتقاليد والأوضاع من الأحياء منهم ومن الموتى الذين يتبعون ما سنوه لهم.

وكذلك يتكرر في القران الكريم الأمر بتحدي المشركين عن نصيب آلهتهم المدعاة في الخلق أو في الرزق أو في التأثير في نواميس الكون وفي حياة البشر في أيَّة صورة من الصور، ذلك أنه إذا انتفى أن يكون لأحد من هذه العباد دور

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٥٠ بتصرف يسير .

في الخلق أو في الرزق أو التأثير في نواميس الكون أو حياة البشر على الإطلاق، بعد ما انتفى أن يكون لها عند الله شفاعة أو قبول في الدنيا أو في الآخرة فقد ظهر السخف وتجلت الحماقة في اتخاذهم أربابا سواء بتقديم الشعائر والقرابين، أو في الشرائع والقوانين " (١).

الثاني انتفاء صفات الكمال عن ما سوى الله

فمن الأدلة التي ساقها القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك بالله تعالى، الاستدلال بانفراده – عز وجل – بصفات الكمال التي مدح بها نفسه وتعرف بها إلى عباده ليعرفوا كماله وعظمته، وكثيراً ما يذكرها عند ذكر آلهة المشركين، التي عبدوها من دون الله، وجعلوها شركاء له فيذكر سبحانه وتعالى من صفات كماله وعلوه على عرشه، وتكلمه وتكليمه، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وقدرته المطلقة، وتدبيره، ما هو منتفٍ عن آلهتهم فيكون ذلك من أول الدليل على بطلان إلاهتها، وفساد عبادتها من دون الله، والآيات في هذا الباب كثيرة جداً.

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص١٢٢- ١٢٤ بتصرف ، وينظر أيضاً :في ظلال القرآن ١٩٨٩/٤، ٥/ ٢٩٣٥ ، ٣٠٥٣ ، ٢٣٧٣ .

يقول سيد " ثم لما عرَّف الناس بصفات الله الحق الذي يستحق أن يكون رباً للعالمين وكشف لهم عن تجرد آلهتهم كلها من هذه الصفات – في عالم الواقع والحقيقة – أصبح مفهوماً أن الله سبحانه هو المتفرد بخصائص الألوهية، وأن كل شيء وكل حي داخل في نطاق العبودية له سبحانه بلا شريك ونطاق الدينونة له سبحانه بلا منازع، وقد جعل القران ينص على هذا نصاً فعن وحدانية الله سبحانه وتعالى ذاته وصفاته وخصائصه وسلطانه، وتجرد الشركاء منها جميعا، ترد أمثال هذه النصوص الصريحة

{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ } [سورة الإخلاص].

{ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ } [سورة القصص ٨٨].

{فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ } [سورة غافر ١٤ ١٦] " (١).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٦ بتصرف يسير

والقران كثيرا ما يقرر تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق[1]، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد [2]، وتفرده بالسلطان والقهر[3]، وتفرده بالحياة والوحدانية [4]، ونحوها من صفات الكمال.

ومن أجمع الآيات في هذا الباب قوله سبحانه وتعالى {رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥} [سورة مريم ٦٥] ، يقول سيد " فلا ربوبية لغيره، ولا شريك معه في هذا الكون الكبير، فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود والذي تتجه إليه الفطرة والقلوب هل تعلم له سمياً؟ هل تعرف له نظيراً؟ تعالى الله عن السمي والنظير" [5].

الثالث طلب الموازنة بين الله عز وجل وبين ما يعبد من دونه

ومن الأساليب التي جاءت أيضاً في القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية، وإبطال الشرك وبيان قبحه، وضلال وسفه من

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٥٢ ، ٥/٢٥٥٠ ، ٣٠٩٤.

(٢) المصدر السابق ٤/٢٢٣٥ .

(٣) المصدر السابق ٤/١٩٨٩ .

(٤) المصدر السابق ٥/٣٠٩٤ .

(٥) في ظلال القرآن ٤/٢٣١٥ .

يقع فيه، ما ذكره الله تعالى من التشنيع بحال المشركين ورميهم بالضلال والسفه حيث رضوا لأنفسهم عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولفت انتباه المشركين إلى ما وصلوا إليه من السفه والضلال من خلال طلب الموازنة بينه سبحانه وبين ما يعبدون من دونه، في آيات كثيرة منها

قوله تعالى { قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ } [سورة النمل ٥٩] .

يقول سيد " يبتدئ سبحانه بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة " آلله خيرٌ أما يشركون"، وما يشركون أصنام وأوثان، أو ملائكة وجن، أو خلق من خلق الله على أية حال لا يرتقي أن يكون شبيها بالله سبحانه فضلاً على أن يكون خيراً منه، ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنه أو موازنة. ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض، وتوبيخ صرف، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد، أو أن يطلب عنه جواب، ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال أخر، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ومن مشاهده التي يرونها بأعينهم

{أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ } [سورة النمل ٦٠] " (١).

قوله تعالى {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ } [سورة يونس ٣٤ ٣٥] .

يقول سيد " وهذه الأمور المسئول عنها من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق، ليست من مسلمات اعتقادهم كالأولى يقصد بذلك ما جاء في سياق الآيات التي قبلها من سؤال الله للمشركين عمّن يرزقهم ويحيي ويدبر الأمر وإجابتهم بأنه الله لكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكانا على مسلماتهم فهي من مقتضياتها بشيءٍ من التفكر والتدبر، ثم لا يطلب إليهم الجواب، إنما يقرره لهم اعتماداً على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات....

---

(١) في ظلال القران ٢٦٥٥/٥.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾؟ والجـــواب مقرر فالذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالإتباع، ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا إن يهديه غيره، وهذا ينطبق على الكل، سواء كان المعبودون حجارة أو أشجارا أو كواكب، أو كانوا من البشر، بما في ذلك عيسى عليه السلام، ومن عدا عيسى عليه السلام أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾، ثم يقرر أن شركهم بالله إنما يقوم على الظن، وأنه لا يستند إلى يقين أبدا "(١).

الرابع ضرب الأمثال

وأسلوب ضرب الأمثال من الأساليب التي جاءت في القران الكريم لبيان الحقائق والمعاني الخفية وإيضاحها، وكذا لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، واستثارة العقل نحو التفكير الصحيح والقياس السليم، وقد ذكر علماء البلاغة للأمثال فوائد كثيرة (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٣٨ – ١٧٨٤ .بتصرف ، وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٢٣، ١٤٢ .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة الاستقامة ،القاهرة ، ب.ت ، ص ١٢٨-١٣٠ .

وقد أشادت آيات القران الكريم بهذا الأسلوب وبينت الحكمة منه، قال سبحانه {وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [سورة إبراهيم ٢٥] . وقال تعالى { وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ } [سورة العنكبوت ٤٣] .

وجاءت أمثله كثيرة في القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية وبطلان الشرك بالله، والرد على المشركين في تسويتهم للمخلوق بالخالق بالعبادة والطاعة، وبيان ضعف وعجز ما سواه سبحانه، وبالتالي بطلان ألوهيةٍ ما سواه سبحانه، وقد وقف سيد رحمه الله عند كثير من الأمثلة القرآنية في هذا الباب منها

قوله تعالى {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾} [سورة الحج ٧٣ ٧٤] .

يقول سيد رحمه الله – " إعلاناً مدوياً عاماً للناس جميعاً، يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة، الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله، ومن بينها تلك الآلهة التي يستنصر

بها أولئك الظالمون، ويركن إليها أولئك الغاشمون، يعلن عن هذا الضعف في صورة مثلٍ معروض للأسماع والأبصار، مصور في مشهد شاخص متحرك، تتأمله العيون والقلوب، مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل، إنه النداء العام، " يا أيها الناس ".. فإذا تجمع الناس على النداء أعلن لهم أنهم أمام مثل عام يضرب، لا حالة خاصة، " ضرب مثل فاستمعوا له ".. هذا المثل يضع قاعدة، ويقرر حقيقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة، من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه.. كلهم " لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا به ".. والذباب صغير حقير، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ولو اجتمعوا وتساندوا على خلق هذا الذباب الصغير الحقير!

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة. فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس

ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير، وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب!

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري " وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه "، والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده، وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير، وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس يسلب العيون والجوارح، وقد يسلب الحياة والأرواح.. إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد.. ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير!، ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب " ضعف الطالب والمطلوب " ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب وفي أنسب الظروف، والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله " ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز". ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به تلك

الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق ذباباً ولو تجمعت له، بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه!، ما قدروا الله حق قدره وهم يرون آثار قدرته وبدائع مخلوقاته، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير!، ما قدروا الله حق قدره، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب، ويَدَعُون الله القوي العزيز " [(١)].

قوله تعالى { ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ } [سورة الروم ٢٨] .

يقول سيد رحمه الله – " ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه، جناً أو ملائكة أو أصناماً وأشجاراً، وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال، ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الإعتبار، فيبدو أمرهم عجباً، يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده، ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من

(١) في ظلال القرآن ٢٤٤٣/٤–٢٤٤٤ بتصرف يسير .

عبيدهم شركاء في مالهم. ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله، وهو تناقض عجيب في التصور والتقدير، وإذا لم يكن شيء من هذا يقع فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى؟ " (١).

قوله تعالى {حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١} [سورة الحج ٣١] ، يقول سيد " إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله، وأن يجتنبوا الزور كله، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد، فيهوي إلى درك الشرك، فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً، إنه مشهد الهوي من شاهق ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ ﴾، أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار ﴿ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ في هوة ليس لها قرار! وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء

---

(١) في ظلال القران ٥/٢٧٦٦ بتصرف يسير

والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد " (١).

قوله تعالى {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾} [سورة النحل ٧٥ ٧٦] .

يقول سيد " وإنه لعجيب أن تتحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً وما هو بقادر في يوم من الأيام، ولا في حال من الأحوال. ويدعون الله الخالق الرازق، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال! ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق، وللمملوك العاجز الذي لا يملك ولا يكسب. لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها حقيقة أن ليس لله مثال، وما يجوز أن يسووا في العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٤٢١ بتصرف يسير .

والمثل الأول مأخوذ من واقعهم، فقد كان لهم عبيد مملوكون، لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على شيء، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق، وكل مخلوقاته له عبيد؟

والمثل الثاني يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري ولا يعود بخير، والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل، العامل المستقيم على طريق الخير. ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف، الهادي إلى الصراط المستقيم؟ " (١).

قوله تعالى { ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ } [سورة الزمر ٢٩] ، يقول سيد رحمه الله – " يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم

(١) في ظلال القرآن ٢١٨٣/٤– ٢١٨٤ بتصرف يسير .

على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح، إنهما لا يستويان. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال " (١).

قوله تعالى { قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ } [سورة الأنعام ٧١] .

يقول سيد " هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها، وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى، وبمشهد الذي يرجع القهقرى مرتداً عن دين الله، وحيرته في التيه بلا اتجاه، وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى... وأنما عليه المشركون من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً، سواء كان ما يدعونه وثناً أو صنماً، حجراً أو شجراً، روحاً أم

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٤٩/٥بتصرف يسير .

ملكاً، شيطاناً أم إنساناً... هو سخف يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض عليه في النور، ذلك لأنهم كلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئاً ولا يضرون، فهم أعجز من النفع والضر، فدعوتهم من دون الله، وعبادتهم والاستعانة بهم، والخضوع لهم سخف يرفضه العقل البشري، ولكن القرآن الكريم يعرضه في مشهد شاخص متحرك يرسم الضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد، والآلهة المتعددة من العبيد! " (١)

قوله تعالى { مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾} [سورة العنكبوت ٤١ ٤٣] .

يقول سيد " إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله، وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن، من تعلق به أو احتمى فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية فهي وما تحتمي به سواء إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات، وتختل

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١١٣١-١٣٣٢ بتصرف .

في أيديهم جميع الموازين، ولا يعرفون إلى أين يتوجهون، ماذا يأخذون وماذا يدعون؟ " (١).

فهذه الأمثلة وغيرها جاءت في معرض تقرير أُلوهية الله وإبطال إشراك غيره معه، وتصوير ضعف وعجز ما سواه، وحال من يشرك به سبحانه، وكل ذلك في معرض إبطال أُلوهية ما سوى الله سبحانه وتعالى.

سادساً الاستدلال بالفطرة إن التوحيد هو الأصل في البشر فطرة وتاريخاً، فكل مولود يولد مفطوراً على الإيمان بالله والاستعداد لقبول العقائد الصحيحة، ولو ترك من غير مؤثر خارجي لما كان إلا موحدا مستسلماً لله، وهذا من لوازم الفطرة، بحيث أصبح قبح الشرك معلوما في الفطرة السليمة، ولو لم يرد به شرع، فكيف وقد جاء الشرع لتقرير الفطرة، وبهذا تكون الفطرة من أهم الحجج التي أقامها الله على المشركين لإبطال ما هم عليه من الشرك، من خلال محاجتهم بما هو مستقر في فطرهم كما في قوله تعالى {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) في ظلال القرآن ٢٧٣٦/٥- ٢٧٣٧ بتصرف وينظر : أيضا ٢٠٥١/٤

وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى } [سورة إبراهيم ١٠] .

يقول سيد رحمه الله – " لما كان الذي يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده، فإن الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة وتدل عليها آيات الله المبثوثة في ظاهر الكون المتجلية في صفحاته، يبدو مستنكراً قبيحاً، وقد استنكر الرسل هذا الشك، والسماوات والأرض شاهدان " (١).

ولما كانت الفطرة الإنسانية تشعر بحاجتها وفقرها إلى ربها سبحانه، وذلك نابع من إقرارها بوجوده ووحدانيته وقدرته دون سواه، فإنا نرى العنصر البشري عامة، مؤمنا بالله كان أو جاحداً إذا ألمَّ به خطبٌ عظيم، واجتمعت عليه الأحداث وشعر بالعجز سرعان ما يتوجه إلى الله وحده، وان كان يشرك معه غيرة، وهذا دليل على بطلان الشرك بالخالق سبحانه وتعالى.

لهذا نجد الله سبحانه يستدل به على المشركين في أكثر من أيه في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى { قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم

(١) في ظلال القرآن ٢٠٩٠/٤ وينظر : ١٣٠٧/٣، ١٤٩٩ ، ١٧٦٦ ، ٤/ ١٩٨٩ ، ٣٠٣٧/٥ .

مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٣) قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ (٦٤)}
[سورة الأنعام ٦٣ ٦٤] .

يقول سيد – رحمه الله – " يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية، وتلتجئ إلى إلهها الحق في ساعة الشدة، ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب، وكيف يخالفون عنها في السر والرخاء، إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق، وظلمات البر والبحر كثيرة.. فالمتاهة ظلام، والخطر ظلام، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب، وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين، إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها، حقيقة الألوهية الواحدة، وتتجه إلى الله الحق بلا شريك، لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك! ويبذل المكذبون الوعود، ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ والله سبحانه يقول لرسوله ﷺ ليذكرهم بحقيقة الأمر ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ﴾، فليس هنالك

غيره يستجيب ويقدر على دفع الكروب، ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾. " (١).

قوله تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾} [سورة النحل ٥١ ٥٥] .

يقول سيد " لقد أمر الله إلا يتخذ الناس إلهين اثنين، إنما هو إله واحد لا ثاني له، ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر أخر " فإياي فارهبون " دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير، ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض، إنما هو إله واحد، وإنما هو كذلك مالك واحد " وله ما في السماوات والأرض "، ودائن واحد " وله الدين واصبا "

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١١٢٣-١١٢٤ بتصرف يسير

أي وأصلاً منذ ما وجد الدين، فلا دين إلا دينه، ومنعم واحد " وما بكم من نعمة فمن الله" وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق، وتنتفي عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك " ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه، وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه، وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم، وبالهدى الذي آتاهم "فتمتعوا فسوف تعلمون " هذا النموذج، نموذج متكرر في البشرية، ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه، وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع، فتضعف صلتها بالله، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو في الشرك به، وتبدو في صور شتى من تأليه قيمٍ وأوضاعٍ ولو لم تدع باسم الإله " (١)

" إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر، ويسقط عنها الركام، وتزول عنها الحجب، وتتكشف عنها الأوهام،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٦-٢١٧٧ بتصرف يسير .

فتتجه إلى ربها، وتنيب إليه وحده، وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره. وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء، أما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء، ويخوله الله نعمة منه، ويرفع عنه البلاء، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام وينسى تضرعه وتوحيده لربه وتطلعه إليه في محنته وحده حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته، ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أنداداً، إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته الأولى، وإما قيماً وأشخاصاً وأوضاعاً يجعل لها في نفسه شركة مع الله، كما يفعل في جاهلياته الكثيرة! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة، ويحبها كما يحب الله أو أشد حباً! والشرك ألوان، فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركاً، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك في الصميم" (١).

سابعاً بيان نهاية الشرك وخاتمة أهله وما عبد من دون الله سبحانه وتعالى

(١) في ظلال القرآن ٣٠٤١/٥ ، وينظر أيضا : ١٧٦٦/٣، ١٧٧٣ ، ٢٢٤٠/٤ .

من الأدلة أيضاً التي جاءت في القرآن الكريم لتقرير توحيد الألوهية "العبادة " وبطلان الشرك بالله سبحانه، الاستدلال ببيان عاقبة الشرك والواقعين فيه في الدنيا والآخرة،

أما في الدنيا فقد ذكر الله تعالى قصة الصراع بين التوحيد والشرك ممثلاً بالصراع بين الرسل وأقوامهم، واخبر في نهاية كل قصة عن نهاية المشركين والمعاندين وسوء مصيرهم بسبب إشراكهم بالله، جاعلاً من ذلك دليلاً على بطلان الشرك وقبحه (١).

وأما في الآخرة فقد ذكر الله في كثير من الآيات عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله وصَّور ما يكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين، وتتصل المعبودين من جناية العابدين ومن ذلك

قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ } [سورة الأنبياء ٩٨ ٩٩] .

يقول سيد " وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة، وكأنما هم يُقذفون فيها قذفاً بلا رفق ولا أناة، وكأنما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنواة! وعندئذ

---

(١) المصدر السابق (٢٤٢٩/٤ وما بعدها .

يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة.. من هذا الواقع المشهود " لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها " [(١)].

قوله تعالى { وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾} [سورة النحل ٨٦ ٨٧] .

يقول سيد " ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله، فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون! ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾، ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد "﴿ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب [(٢)]

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢١٧٨- ٢١٨٨ بتصرف

ويذكر القرآن مواقف متعددة تظهر حال المشركين يوم القيامة مع شركائهم تبدأ من تنصلهم من عبادتهم إياهم وتنتهي بتنصل الشيطان منهم في النار. [1]

(١) ينظر :في ظلال القرآن ١٥٤/١ و ١٠٠٠/٢ – ١٠٠٢ و١٢٨٩/٣ ، ١٧٨٠ و٢٠٩٥/٤-٢٠٩٨ و٢٩٠٨/٥-٢٩١١

المبحث الثالث

خصائص الألوهية ومجالاتها

يرى سيد قطب رحمه الله أن الألوهية تتضمن ثلاثة مجالات يطلق عليها اسم خصائص الألوهية – غالباً – وهي تشكل بمجموعها حقيقة الدين الإسلامي، ومعنى شهادة " لا إله إلا الله محمد رسول الله "، وهذه المجالات أو الخصائص مترابطة ينشأ بعضها عن بعض، ولا يقبل واحد منها إلا منضماً إليه غير في وحده غير قابلة للفصل أو التجزئة، وهذه المجالات أو الركائز هي

<u>الأول مجال الاعتقاد</u> ويعني الاعتراف والإقرار لله بأنه وحده لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته على حد سواء، وعدم الإشراك به أحداً لا في الربوبية ولا في الألوهية.

يقول سيد " القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات.. التي يجب أن تقوم أولاً.. هي أنه يجب ابتداءً أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم، لا يشركون معه أحداً في أُلوهيته، ولا يشركون معه

أحداً في ربوبيته كذلك، يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء " (١).

ويقول أيضاً " الله لا إله إلا هو هذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحرافٍ أو لبسٍ مما طرأ على الديانات السابقة بعد الرسل ولا لأي غبشٍ مما كان يرين على العقائد الوثنية التي تميل إلى التوحيد ولكنها تُلَبسه بالأساطير، هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، ينشأ عنه الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة، والحاكمية لله وحده... فتوحيد الله هو إفراده – سبحانه – بالألوهية، وبخصائصها بحيث لا يكون له فيها شريك " (٢).

الثاني مجال العبادة والتوجه إلى الله وحده بالعبودية، فلا يكون الإنسان عبداً إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله، ولا يلتزم

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢٢٩ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ١/٢٨٦ ، ٢/٨٣٢ بتصرف يسير .

إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات، وهذه الخاصية من خصائص الألوهية ناشئة عن الخاصية السابقة وهي الاعتقاد بوحدانية الله دون شريك له في ربوبيته وألوهيته[1].

الثالث مجال الحاكمية والتشريع ويعني اعتقاد تفرد الله وحده بالحاكمية والتشريع، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة الله، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله، وهكذا إلى أخر ما ينبثق عن معنى الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء[2].

" فأخص خصائص الألوهية، هو الحاكمية والتشريع للبشر، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطهم " [3].

وقد ركز سيد قطب كثيراً على بيان هذه الثلاث الخصائص وإيضاح مدى الارتباط بينها، وأنها مجتمعه تمثل

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ .

(٣) المصدر السابق ٦١٩/٢ .

حقيقة الدين والتوحيد والألوهية، فلا يكون الدين صحيحاً إلا بوجودها مجتمعة.

ومن ذلك قوله رحمه الله– " وهكذا يتبين أن الاعتراف بالربوبية (١) لله وحده، والعبادة لله وحده والدينونة لله وحده، تعني في مجموعها إفراد الله بالألوهية، أو تعني بالمدلول الاصطلاحي " شهادة أن لا إله إلا الله "، وأن الاعتقاد بألوهيته سبحانه وربوبيته هي كالتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية، كالاعتراف بحاكميته وحده والتحاكم إلى شريعته وحدها، كلها سواء في تكوين مدلول " لا إله إلا الله " فالذي يعترف بحاكمية غير الله وشرعه ونظامه، إنما يعترف لهذا الغير بالربوبية وبالعبادة والدين، وهذا هو الأصل العام – المعلوم من الدين بالضرورة – الذي يقوم عليه الحكم بكفر من لا يفرد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية مجتمعة – لا ببعضها دون بعض – وهي الاعتقاد القلبي بإلوهية الله وحده، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده، والدينونة له بالحاكمية وحده ممثلة في التحاكم إلى شريعته وحدها " (٢)

---

(١) يستخدم سيد لفظ الربوبية بمعنى : السلطان والحاكمية والدينونة ، وينظر :التمهيد في أول هذا الباب .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٥١ .

ويقول " إن "الألوهية " و" الربوبية " و" العبادة " و" الدين " تذكر في القرآن في معرض " الاعتقاد " وفي معرض " الشعائر " وفي معرض " الحاكمية " على السواء..

وتوحيد الله وبالتعبير الاصطلاحي الفقهي –" شهادة أن لا إله إلا الله " وهي التي يدخل به الإنسان في الإسلام، ويكسب بها هذه الصفة، ويعصم بها دمه وماله في الإسلام، تعني هذه المعاني والمدلولات كلها مجتمعه، ولا توجد شرعاً إلا بعد توافر هذه المعاني والمدلولات مجتمعه تعني إفراد الله سبحانه– بالألوهية، وذلك بالاعتقاد في ألوهيته وحده، وبالتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده، وبالاعتراف له بحق الحاكمية في تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده " (١).

وقد قرر سيد – رحمه الله – هذا الأمر في مواضع كثيرة (٢)، وبين أن هذا ليس " رأياً " له أو " رأياً " لغيره من البشر، بل

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧-١٤٨ .

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٢٦٨/١ ، ٤٨١ ، ٤٩٠ – ٦١٠/٢ ،٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٩٦ ، ٧٣٢ ، ٨٣٢ ، ٨٩٠ ، ٩٧٠ ، ١١٧٥ – ١٤٤٣/٣ ، ١٧٦٣-١٨٥٢/٤ ، ١٨٦٦ ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٣ ، ١٩٩٠ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥١، ١٨١– ١٨٤ ، ومعالم في الطريق ص ١٣٥ ، وهذا الدين ص ١٧ وما بعدها .

أنه ليس موضعاً لرأي عالمٍ أو مفسرٍ أو مجتهدٍ من الفقهاء، إنما هو النص الذي لا مجال فيه للتأويل، والحكم المعلوم من الدين بالضرورة، الذي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، فلا رأي مع النص وإنما هو بيان لأصل هذا الحكم في العقيدة الإسلامية والمنهج القرآني، وموضعه في النصوص التي وردت به (١).

وفي هذا المبحث بيان لخصائص ومجالات الألوهية عند سيد – رحمه الله – وذلك في المطالب الثلاثة الآتية

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص (١٤٧ بتصرف .

المطلب الأول

" لا إله إلا الله " معناها، ومقتضياتها

ذهب كثير من المتكلمين إلى أن كلمة " إله " تعني القادر على الاختراع والخلق [1]، وذلك لأنهم فهموا من معنى " إله " إنها بمعنى " آلِهٌ " – أي خالق ، وليست بمعنى " مألوه " أي معبود [2].

أما جمهور أهل السنة والجماعة فيقولون أن كلمة " لا إله إلا الله " تدل على توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته، وأنه من الخطأ قصرها على توحيد الربوبية، وإخراج توحيد الألوهية من مدلولها فمن جعل غاية معناها " لا خالق إلا الله " فقد جهل كثيراً من معناها، واخطأ في فهم مدلولها.

فالألوهية أمر زائد على الربوبية، فغالب الأمم كانت مقرة بالربوبية كما أخبر القرآن عنهم، وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الألوهية والعبادة وعدم الشرك بالله سبحانه وتعالى، وكلام جمهور أهل السنة والجماعة في بيان معنى " لا إله إلا الله "

---

(١) انظر : أصول الدين، للبغدادي ص ١٢٣ ، وشرح أسماء الله الحسنى ، للرازي ص ١٢٤ ، واللمع ، للجويني ص٨٦ .

(٢) انظر : منهاج السنة لابن تيمية ٢/٦٥ ، ومجموع الفتاوى ٨/١٠١ .

قائم على أنها تعني " لا معبود بحق إلا الله " وهذا الإقرار يتضمن الاعتراف بالربوبية كما تقدم، خلافاً للمتكلمين (١).

ولا يفهم من هذا الكلام أن المتكلمين مشركون في الألوهية، بل كثير منهم يوجب عبادة الله وحده لا شريك له ويمنع عبادة غير الله لاسيما المتقدمون منهم، ولكنهم لا يجعلون ذلك من معاني التوحيد المدلول عليه بكلمة " لا إله إلا الله " وإنما يوجبونه بأدلة أخرى من الكتاب والسنة.

معنى " لا إله إلا الله " ومقتضياتها عند سيد قطب

وقف سيد رحمه الله في الظلال وفي كتبه الأخيرة خاصةً في المعالم والمقومات كثيراً عند كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " وراءه ما وصل إليه حال كثير من المسلمين في الأرض من فهم لمعنى " لا إله إلا الله " على أنها كلمة تقال باللسان وأداء لبعض الشعائر التعبدية، وليست منهجاً للحياة في كل مجالاتها.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٢٦/١ ، ومجموع الفتاوى ١٠١/٨ ، وشرح العقيدة الطحاوية ٢٨-٣٦ ، ٧٢ ، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٧٥ – ٧٦ .

ومن ثم كان كلامه خاصة في المعالم والمقومات مركزاً حول بيان المدلول الحقيقي لهذه الكلمة الذي نزلت به من عند الله، والذي صنع الله به ما صنع في الأرض من إخراج الأمة المثالية، التي انطلقت تحطم الطواغيت في الأرض، وتقيم مكانتها حكم الله وشريعته ومنهجه، وتجعل الدين كله لله، وبيان أن " لا إله إلا الله " التي يدخل بها الناس الجنة في الآخرة، وتزول بها الجاهلية من الأرض وتقام بها دولة الحق في الدنيا، ليست هي كلمة التي تنطق باللسان دون أن يكون لها رصيد من يقين القلب وواقع السلوك، إنما هي تلك التي تُنْطَق باللسان، ويملأ اليقين بها القلب وتتمثل في سلوك واقعي يقيم المنهج الرباني والشريعة الربانية، ويجاهد الأنظمة الجاهلية ولا يرضى بها ولا يرضى عنها، وإلا فهي كلمة بلا رصيد، لا يقبلها الله في الآخرة، ولا تغير شيئاً في واقع الأرض، لأنها لم تبرأ من الشرك المتمثل في إقرار حاكمية البشر بدلاً من حاكمية الله، والبراءة من الشرك وهي شرط لقبول " لا إله إلا الله " في الآخرة، وشرط للتمكين في الأرض في الدنيا.

وكان أعداء الإسلام حين جاسوا خلال الديار الإسلامية، قد نحَّوا شريعة الله عن الحكم وحكموا بدلاً منها شرائع البشر، ثم

قالوا للناس لا بأس عليكم فأنتم مسلمون ما دمتم تُصَلّون وتصومون وتقدمون بشرائع العبادة! ثم سلطوا عليهم من الأفكار والمعتقدات والأنظمة وأنماط الحياة الواقعية ما يصرفهم عن الصلاة والصوم والعبادة، ثم قالوا لهم لا بأس عليكم! فأنتم مسلمون ما دمتم تقولون " لا إله إلا الله " "! فجاءت كتابات سيد رحمه الله تقول للناس إنها ليست هذه هي" لا إله إلا الله " التي تعطي الناس صفة الإسلام، إنما هي تلك التي ينطقها الناس بلسانهم، وتستيقن بها قلوبهم، ويعملون بمقتضياتها في واقع حياتهم..

عند ذلك لم يطق أعداء الإسلام من سيد رحمه الله أن يفسد عليهم بكتاباته جهد قرن كامل من الزمان ظلوا فيه يبعدون الناس عن حقيقة " لا إله إلا الله " ويوهمونهم أنهم ما زالوا مسلمين، فكان ما كان (١).

ويمكن بيان معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها ومقتضياتها عند سيد قطب رحمه الله فيما يأتي

أولا معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها

(١) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٥- ٦ بتصرف .

يرى سيد رحمه الله أن معنى الشهادة ومدلولها هو توحيد الله تعالى حيث يقول " والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة " لا إله إلا الله " أي إفراد الله سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.

إفراد الله بها اعتقاد في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة، فشهادة " أن لا إله إلا الله " لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً، إلا في هذه الصورة المتكاملة، التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم.

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله، ولا يقضون هم في أي شأن من شؤونها، ولا في أي جانب من جوانبها، من عند أنفسهم، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه، وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه وهو رسول الله ﷺ وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام " شهادة أن محمداً رسول الله "

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها، وهي تنشئ منهجاً كاملاً للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الإسلام وخارجها، وفي علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى " (١).

ويقول أيضاً تحت عنوان " لا إله إلا الله " منهج حياة العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله، والتلقي عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية – هو شطرها الثاني المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله.

والقلب المؤمن المسلم الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدها من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها... ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها.. فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة

---

(١) معالم في الطريق – سيد قطب ص ٥٤-٥٥

أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية عنها {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف ٤٠] " (١).

" إن السمة الأولى المميزة لطبيعة" المجتمع المسلم " هي أنه يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله، هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله "، وتتمثل هذه العبودية في التصور الإعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء.

فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه وتعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)} [سورة النحل ٥١ ٥٢] .

وليس عبداً لله من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله – معه أو دونه – {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)} [سورة الأنعام ١٦٢ ١٦٣] .

---

(١) معالم في الطريق ص ٩٢-٩٣ .

وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله، عن الطريق الذي بَلَّغَنَا الله به وهو رسول الله ﷺ { أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ } [سورة الشورى ٢١] ، {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ } [سورة الحشر ٧] .

هذا هو المجتمع المسلم، المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وشعائرهم وعبادتهم، ونظامهم الجماعي وتشريعاتهم.. وأيُّما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود، لتخلف ركنه الأول وهو" شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. " (١).

ويقول أيضاً " وما كانت الجاهلية العربية التي واجهها الإسلام أول مرة في الجزيرة العربية تنكر الله البتة، وما كانت تجهل أن الله هو الخالق، الرازق، القوي، الذي يجير لا يجار عليه..، ولم يدعها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاعتقاد بوجود الله، ولكنه دعاها إلى توحيد الله، دعاها إلى الاعتقاد بأن الله هو الإله والرب والقيم، ودعاها إلى عبادة الله وحده والتقدم إليه

---

(١) معالم في الطريق : ص ٩٤-٩٥ بتصرف يسير .

بالشعائر، ودعاها إلى التحاكم إلى شريعة الله وحده والدينونة له بالعبودية، وكانت هذه الدعوة بمضموناتها هذه كاملة، هي معنى " شهادة أن لا إله إلا الله " التي هي الإسلام " [1].

والنصوص في بيان معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها كثيرة جداً فيما كتبه سيد رحمه الله وكلها تقرر أن " لا إله إلا الله " تعني توحيد الله سبحانه وتعالى، وإفراده بإلوهيته، وبالاعتقاد بأنه هو الإله والرب والقيم الحق، والتقرب إليه بالعبادات والشعائر دون شريك، وتحكيم شرعه الذي جاء به رسوله محمد ﷺ في كل شؤون الحياة ومجالاتها.

وتقرر أن هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وأن قصره على بعض الجوانب السابقة دون بعض يفرغها من معناها، ويجعلها غير ذي فائدة في الدنيا والآخرة.

وأن هذا المعنى هو الذي آمن من آمن به عن علم، وكفر به ورفضه من رفضه من المشركين عن علم أيضاً، فالذي قبلها قبلها على أنها منهج حياة متكامل اعتقادا وسلوكاً وانقياداً،

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٧ .

والذي رفضها، رفضها لأنها منهج حياة أيضا يتعارض مع مصالحه وأهدافه في الحياة.

ويلاحظ أن سيداً رحمه الله ركز كثيراً عند حديثه عن معنى ومدلول " لا إله إلا الله " على ربطها بقضية الحاكمية والتشريع والطاعة، حتى جعل في بعض النصوص معنى "لا إله إلا الله " أي لا حاكمية ولا سلطان إلا الله، وذلك لأن الناس لم يكن انحرافهم في الاعتقاد بوجود الله وفي التقرب إليه بالشعائر والعبادات هو الغالب، إنما كان انحرافهم ولا يزال في مسألة التحاكم إلى غير شريعة الله والحكم بغير ما أنزل الله، وطاعة المشركين فيما يخالف شرع الله، لهذا السبب كان تركيزه كثيراً على بيان دلالة " لا إله إلا الله " على هذا المعنى، وأنها بدونه تكون قد فقدت ركناً ومقوماً من مقوماتها التي لا تنفع بدونها مجتمعه كما سبق. (١)

---

(١) ينظر في بيان معنى " لا إله إلا الله " عند سيد – رحمه الله – :
– في ظلال القرآن ٢/ ٨٣٢ ، ١٠٠٥ ، ١٠٥٧ ، ١٠٦ ، ٣/ ١٢٣٠ ، ١٥٠٢-١٥٠٣ ، ٤/٢١١٤ ، ٦/٣٢٦٠ .
– معالم في الطريق ٥٢-٦١ .
– مقومات التصور الإسلامي ١٨ وما بعدها ،الصفحات: ١٠٧-١١٠ ، ١٣٢-١٣٤ ، ١٤٧ – ١٥٧ .

فشهادة " أن لا إلـه إلا الله " ليست عبارة ولكنها منهج، فإذا ظلت مجرد عبارة فليس هي " ركن " الإسلام المطلوب المعدود في أركان الإسلام.

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقة لمثل هذه الشهادة التي ينطق بها الملايين اليوم، ولكنها لا تتعدى شفاههم، ولا يترتب عليها أثر في حياتهم وهم يحيون على منهج جاهلي شبه وثني، بينما شفاههم تنطق بمثل هذه العبارة...

إن " لا إلـه إلا الله " أو " ربنا الله " منهج حياة.. هذا ما ينبغي أن يستقر في الضمائر والأخلاد، كيما تبحث عن المنهج الكامل الذي تشير إليه مثل هذه العبارة وتتحراه " (١)

ثانياً مكانة " لا إله إلا الله " في الدين

من خلال كلام سيد رحمه الله حول توحيد الألوهية الذي هو معنى " لا إلـه إلا الله " تظهر لنا المكانة الرفيعة لهذا التوحيد ولهذه الشهادة، ويمكن أن نوجز ذلك في النقاط التالية

١ أنها التي يدخل الإنسان بها في الإسلام، ويعصم بها دمه وماله.

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٢٦٠ .

يقول سيد رحمه الله – " وتوحيد الله، وبالتعبيرالاصطلاحي الفقهي" شهادة أن لا إله إلا الله" وهي التي يدخل بها الإنسان في الإسلام، ويكتسب بها هذه الصفة، ويعصم بها دمه وماله في الإسلام تعني هذه المعاني والمدلولات كلها مجتمعه، إفراد الله سبحانه بالألوهية باعتقاد ألوهيته وحده، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية، والاعتراف له بحق الحاكمية في تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده " (١).

٢ أنها قاعدة التصور الإسلامي الذي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها

في ظلال قوله تعالى { ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ } [سورة البقرة ٢٥٥] ، يقول سيد رحمه الله " فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبسٍ مما طرأ على الديانات السابقة بعد الرسل، ولا لأي غبشٍ مما كان يرين على العقائد الوثنية... هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤٨ ، ١٦٩ .

وحده بالعبودية والعبادة، فلا يكون الإنسان عبداً إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله، ولا يلتزم بطاعةٍ إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده.، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة الله، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله " (١).

٣ أنها مفرق الطريق في التصور والاعتقاد، ومفرق الطريق في الحياة والسلوك

يقول سيد رحمه الله " الله لا إله إلا هُوَ، هذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين يهوداً أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً، كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة أهل

---

(١) في ظلال القرآن ٢٨٦/١ بتصرف يسير

العقائد في الأرض، فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديداً كاملاً دقيقاً " (١).

٤ أنها أساس الدعوة إلى الله ومنطلقها

يقول سيد " فالمنهج الإسلامي لم يبدأ من علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها، إنما بدأ من العقيدة بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله، وطالت فترة إنشاء "لا إله إلا الله" هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه، حتى إذا خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله، عندئذٍ بدأت التكاليف بما فيها الشعائر التعبدية وعندئذٍ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية" (٢).

٥ أنها أول ما يجب معرفته والعلم به قبل العمل

يقول سيد في ظلال قوله تعالى{ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ } [سورة محمد ١٩] هذا توجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي ﷺ

(١) المصدر السابق ١/٣٦٥، ٣٦٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/٩٧٣- ٩٧٤ بتصرف يسير

ومن معه ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى " (١).

٦ أنها أصل دين الله الثابت وحقيقته في كل زمان

ففي ظلال قوله تعالى { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ } [سورة النساء ٦٤] ، يقول سيد رحمه الله " وهذه حقيقة لها وزنها، إن الرسول ليس مجرد " واعظ " يلقي كلمته ويمضي، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين، أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول " الدين ".

إن الدين منهج حياة، منهج حياة واقعية، بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وعباداتها وشعائرها كذلك، وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج، ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان دعوة وبلاغاً، ونظاماً وحكماً، وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ﷺ تقوم بقوة الشريعة والنظام، على تنفيذ الشريعة والنظام لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول، وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول.. وهذه هي صورة الإسلام أو الدين... ويبقى أصل الدين الثابت وحقيقته التي لا يوجد بغيرها.. إفراد لله سبحانه بالألوهية "

(١) في ظلال القرآن ٣٢٩٥/٦ .

شهادة أن لا إله إلا الله " ومن ثم إفراده بالحاكمية والرجوع إلى الله والرسول ". (١)

" ومن أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة... جاء شريعة وعقيدة وشعائر تعبدية، وكانت هذه الثلاث هي قوام دين الله وهي مقومات لا إله إلا الله كما سبق " (٢).

"إن الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة، هي دعوة التوحيد والعبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول {فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾} [سورة المؤمنون ٢٣] "

ثالثاً مقتضيات شهادة " أن لا إله إلا الله "

ركز سيد رحمه الله كثيراً عند حديثه عن كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " على بيان مقتضياتها ومستلزماتها، فهي تعني عنده – كما سبق – منهج حياة، وبالتالي فلا يكفي أن تكون اعتقاداً، أو نطقاً باللسان بل لابد أن يتبعها عمل وطاعة في الواقع، ومقتضياتها عند سيد قطب هي

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٩٥، ٦٩٦ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٢/٨٦٩ يتصرف يسر وينظر أيضا : ٢/٨٢٦-٨٢٨

١ الاستسلام الكامل لله – تعالى اعتقاداً وشعوراً وعملاً واتباعاً في كل شؤون الحياة

يقول سيد رحمه الله– " فشهادة الله سبحانه بأنه لا إله إلا هو، مسوقة لبيان ما هو من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام لا اعتقاداً وشعوراً فحسب ولكن كذلك عملاً وطاعة وإتباعا للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب. ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون إنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره. فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله ولا تستقيم مع شهادة الله سبحانه بأنه لا إله إلا هو" (١)

إنها " ألوهية واحدة، وإذن فدينونة واحدة، واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجاً عن سلطان الله. "(٢)

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٨/١ ، وينظر : ٣٦٤/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٧٩/١ ،وينظر أيضا ٣٨٠/١-٣٨١، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٥٦٢ .

٢ **التوجه إليه سبحانه وحده بالعبادة والعمل**

يقول سيد " فالوحدانية التي هي قاعدة التصور الإسلامي ينشأ عنها الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية، والعبادة، فلا يكون الإنسان عبداً إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله، ولا يلتزم بطاعة إلا لله وما يأمره الله به من الطاعات " (١).

ويقول " إن شهادة لا إله إلا الله محمداً رسول الله هي قاعدة العبودية الحقة وما بعدها من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها، فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلَّغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه... ومن ثم تصبح شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها " (٢).

٣ **التلقي عن الله وحده في كل شؤون الحياة ومجالاتها**

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦٨/١ بتصرف يسير .

(٢) معالم في الطريق ص ٩٢ بتصرف يسير .

يقول سيد رحمه الله– " وكل من ينطق بالشهادتين " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهاً ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله، فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد؛ وأخص خصائص العبودية التلقي من الله، ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد ﷺ بما أنه رسول الله ﷺ، ولا يعتمد مصدراً أخر للتلقي إلا هذا المصدر " [١].

ويقول أيضا " ولا يُقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج، وتحت تصرفه وتوجيهه،... لا يقبل من الفرد المسلم، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر منهجاً للحياة الشخصية وللشعائر والعبادات والأخلاق والآداب مستمداً من كتاب الله، ومنهجاً للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية مستمداً من كتابِ أحدٍ أخر، أو من تفكيرٍ بشريٍ على الإطلاق!.

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٨١-٤٨٢ .

إن مهمـة التفكيـر البشـري أن تسـتنبط مـن كتـاب الله ومنهجـه أحكامـاً تفصـيلية تطبيقيـة لأحـداث الحيـاة المتجـددة، وقضيتها المتطورة بالطريقة التي رسمها ولا شيء وراء ذلك، وإلا فلا إيمان أصـلاً ولا إسـلام، لا إيمان ابتداءً ولا إسـلام، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام، وفي أولها "شهادة أن لا إله إلا الله " التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله "[1].

<u>٤ الحكم بما أنزل الله وتحكيم شريعته والتحاكم إليها دون ما سواها</u>

يقول سيد رحمه الله – " إن الحكم بما أنزل الله دون سواه هو مظهر سلطان الله، وحاكميته ومظهر" أن لا إله إلا الله "[2]، وأن " شهادة لا إله إلا الله" ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله وأن لا مشرع إلا الله "[3]، " ومن الشهادة لله بالوحدانية تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده، فيكون هو وحده المشرِّع للعباد، ومنه تستمد القيم في الحياة كلها "[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٧٠٥/٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٢٨ .

(٣) المصدر السابق ٧٠٥/٢ .

(٤) المصدر السابق ٢٨٦/١ بتصرف وينظر أيضا : ١٤٩٢/٣ .

" فالإسلام هو قبل كل شيء " نظام ". نظام للحياة البشرية ذو خصائص حميدة، يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها – كما هي مبينه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ – في أوضاع الحياة كلها وهذا التحكيم هو المقتضى الأول لشهادة " أن لا إله إلا الله " بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة، والمدلول الذي لا يتحقق لهذه الشهادة بدون وجود في ضمير الإنسان ولا في حياته سواء..

إن أولى خصائص الألوهية هي حق تعبيد الناس وتطويعهم للشرائع والأوامر، وحق أقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع، والقوانين والموازين، وحمل الناس على إتباعها... فالإقرار بإلوهية الله سبحانه– وربوبيته لا يقوم إلا حين تقر النفوس بألوهيته وربوبيته في السماء والأرض في الحياة الآخرة، وفي ضمائر الناس وشعائرهم وفي حياتهم وواقعهم سواء، بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية –في الدنيا والآخرة – عن سلطان الله إلى سلطان سواه وهذا هو مدلول قوله تعالى {وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ } [سورة الزخرف ٨٤] .

إن هناك في جميع أنحاء الأرض في جميع الأزمنة والعصور قاعدتين اثنتين لتصور الحياة ونظامها

أ- قاعدة تفرد الله سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وعليها يقوم نظام للحياة بتجرد فيه البشر من خصائص الألوهية.. ويعترفون بالله وحده، فيتلقون منه التصور الاعتقادي، والقيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية، والمناهج الأساسية للحياة الواقعية، والشرائع والقوانين التي تحكم هذه الحياة، ولا يتلقونها من أحد سواه وبذلك يشهدون" أن لا إله إلا الله ".

ب- وقاعدة ترفض ألوهية الله سبحانه- وربوبيته وقوامته وسلطانه، إما في الوجود كله – بإنكار وجوده – وإما في شؤون الأرض وحياة الناس ونظام المجتمع وشرائعه وقوانينه، فتدعى لأحد من البشر فراداً أو جماعةً أو هيئةً أو طبقةً – أن يزاول من دون الله أو مع الله – خصائص الألوهية في حياة الناس، وبذلك لا يكون الناس الذين تقوم حياتهم على هذه القاعدة قد شهدوا " أن لا إله إلا الله ". "(١).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨-٢١ بتصرف يسير .

" فمن مقتضيات " لا إله إلا الله " رد السلطان كله إلى الله، السلطان على الضمائر، وعلى الشعائر، وعلى واقع الحياة، وعلى المال والقضاء، والأرواح والأبدان، والثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب خصائص الألوهية، لأن الحاكمية العليا لله وحده " (١).

" ألوهية واحدة، وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها وفي تطويعهم لأمرها، وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها، وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم بإتباعها، وفي إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها.. وهذه هي مقتضيات التوحيد " (٢)

٥ التجمع عليها والتميز عن الجاهلية

يقول سيد رحمه الله " إنما يعتبر الناس مسلمين حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر، إفراد الله سبحانه بالحاكمية، ورفضهم الاعتراف بشرعية كل ما لم يصدر عن الله، وهذا وحده هو الإسلام لأنه مدلول شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمداً

---

(١) معالم في الطريق ٢٦ص

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٩/١ ، وينظر أيضا : ٣٨٢/١ ، ٦٩٤/٢- ٦٩٦ ، ٤/ ٢١١٥ ، وهذا الدين ص ١٧ وما بعدها ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٠٩ .

رسول الله" كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء!، ثم يتجمع هؤلاء الذين يشهدون" أن لا إله إلا الله " على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادةٍ مسلمةٍ، وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية "(١).

٦ الجهاد في سبيل تحقيق ألوهية الله في الأرض

يقول سيد رحمه الله " ومقتضى هذه الشهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض كما بلغها محمد ﷺ فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد ﷺ هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرِّف حياة الناس كلها بلا استثناء.. فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله فهو إذن شهيد، أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها، واتخذه الله شهيداً، ورزقه هذا المقام، وهذا فقه قوله تعالى {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ} [سورة آل عمران ١٤٠] ، وهو مدلول شهادة" أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله "

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٩٢/٣ بتصرف يسير ، معالم في الطريق ص ٩٦-٩٧ ، ١٦٠ .

ومقتضاها لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع! "[1]. وهذا من أهم أهداف الجهاد في سبيل الله كما فهمة الرعيل الأول والذي عبروا عنه بقولهم " ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " [2].

فهذه جمله من مقتضياتها ومستلزمات كلمة التوحيد، عند سيد قطب رحمه الله والتي لابد من توافرها حتى تكون الشهادة صحيحة مقبولة نافعة في الدنيا والآخرة.

رابعاً الانحراف عن مفهوم " لا إله إلا الله " وواجب الدعاة اليوم نحو ذلك

ركز سيد رحمه الله كثيراً على مسألة الغبش والغموض الذي أحاط بمفهوم " لا إله إلا الله " في الواقع الإسلامي المعاصر، وبيّن واجب الدعاة والحركات الإسلامية نحو ذلك.

ففي ظلال قوله تعالى {وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ } [سورة الأنعام ٥٥] ، تحدث سيد عن منهج

(١) في ظلال القرآن ٤٨٢/١

(٢) المصدر السابق ١٠٥٧/٢ ، وينظر أيضا : فصل" الجهاد في سبيل الله "من كتاب معالم في الطريق ص ٦٢ وما بعدها .

القرآن في العقيدة والحركة بها، وأنه يقوم على بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين، وبيان الباطل وكشفه أيضاً حتى تستبين سبيل المجرمين، وأن ذلك ضروري لإنشاء اليقين الاعتقادي بالحق، وتقوية الاندفاع به، وبيَّن أن هذا التحديد كان قائماً وواضحا في حياة الرعيل الأول الذين واجهوا الشرك والجاهلية في أول الإسلام..

ثم قال " ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا – أي عدم وضوح الشرك والوثنية والإلحاد وديانات أهل الكتاب المحرفة إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطانٍ كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام، يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة وتعلنه اسماً، وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقاداً وواقعاً، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً! فالإسلام شهادة "أن لا إله إلا الله ". وشهادة " أن لا إله إلا الله" تتمثل في الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون المتصرف فيه، وأن الله وحده هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله وحده هو الذي يتلقى منه العباد

الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله، وأيما فرد لم يشهد" أن لا إله إلا الله " بهذا المدلول فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيُّما أرضٍ لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله بهذا المدلول فهي أرض لم تدن بدين الله ولم تدخل في الإسلام بعد.

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين، وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد "أن لا إله إلا الله " بذلك المدلول ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول.

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول" لا إله إلا الله "، ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الأخر.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط

الشعارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!.

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً. حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير " المسلمين "!!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله ﷺ!.

هذه هي المشقة الكبرى والعقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف، وألا تقعدهم عنها لومه لائم، ولا صيحة صائح انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بَيِّنٌ والكفر بَيِّنٌ، الإسلام شهادة " أن لا إله إلا الله " بذلك المدلول فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في

الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين " (١).

ومن كلام – سيد في هذا النص وغيره أيضا – نلمح أنه رحمه الله – هاله وضع كلمة التوحيد في واقع المسلمين اليوم، واللبس والغبش والغموض والتميع الذي أصاب مدلولها وقصرها على جوانب من مدلولها، ولذلك نجده ينبه كثيراً على جهود الأعداء في صرف الناس عن المدلول الحقيقي لشهادة التوحيد بأساليب متنوعة، وينبه الدعاة والحركات الإسلامية إلى أن تعي واقع المسلمين المعاصر وتنطلق لإحياء المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد " لا إله إلا الله " مهتدية بمنهج القرآن، وبفعل النبي ﷺ حيث بدأ بالتوحيد وبغرس مفهوم كلمة التوحيد الحقيقي في نفوس الناس فترة طويلة من الزمن، وكان بإمكانه أن يسلك طريقاً آخراً قد يبدو أنه أيسر من هذا الطريق، وكان بإمكانه – ﷺ – أن يعلنها دعوة قومية عربية أو ثورة اقتصادية، أو راية للإصلاح الاجتماعي والخلقي أو غير ذلك، وكان سيجد من يعينه ويناصره، لكنه أعلنها عقيدة تقوم على تقرير " لا إله

---

(١) في ظلال القرآن ١١٠٥/٣- ١١٠٧ يتصرف ، وينظر أيضا ١٠٥٧/٢ ، ١٠٨٣ .

إلا الله " بمفهومها الشامل وهذا ما يجب على الدعاة الانتباه إليه اليوم " (١).

خامساً وقفات مع دعوى " شذوذ سيد قطب في تفسير " لا إله إلا الله "

ذكر الدكتور/ ربيع المدخلي تحت عنوان" شذوذ سيد في تفسير" لا إله إلا الله " عن أهل العلم " (٢) أن سيداً خالف علماء التوحيد والفقه واللغة المعتبرين، وتابع المودودي في تفسيره لمعناها، ثم ذكر نصوصاً من كلام سيد وهي

١ قول سيد رحمه الله في كتاب" العدالة الاجتماعية " " إن الأمر المستيقن في الدين أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير عقيدة، ولا في واقع الحياة ديناً، إلا أن يشهد الناس أن " لا إله إلا الله " أي لا حاكمية إلا لله، تتمثل في قضائه وقدره، كما تتمثل في شرعه وأمره " (٣).

---

(١) ينظر :" طبيعة المنهج القرآني" من معالم في الطريق ٢٤-٥٢ ، و في ظلال القرآن مقدمة سورة الأنعام ٢/١٠٠٤ – ١٠١٥

(٢) انظر : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب – د. ربيع المدخلي ص ٦٣ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٦٣ ، والعدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ١٨٢ .

وعلَّق الدكتور/المدخلي على النص بقوله " فقد فسر " لا إله إلا الله " بالحاكمية، وفسر الحاكمية بالقدر والشرع، فأين توحيد العبادة الذي جاء به جميع الأنبياء، الذي هو المعنى الحقيق الخاص بـ" لا إله إلا الله "؟! لقد أضاعه سيد قطب" (١).

١- قول سيد " لقد كان العرب يعرفون من لغتهم معنى إله، ومعنى " لا إله إلا الله "، كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا.. فلا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله ولا سلطان لأحدٍ على أحدٍ لأن السلطان كله لله " (٢).

ولنا مع كلام الدكتور المدخلي السابق وقفات

الوقفة الأولى النص الأول الذي ذكره د/ المدخلي عن سيد في العدالة الاجتماعية هو من كلام طويل لسيد يتحدث في سياقه عن الدعوة إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع مسلم، تحكمه العقيدة الإسلامية كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي، ويبين فيه أن المجتمع بهذا الوصف السابق قد توقف وجوده منذ فترة، وبالتالي فلابد من الدعوة إلى استئنافه، والجهر بهذه الدعوة على الرغم مما قد يحدث من صدمة وذعر

(١) أضواء إسلامية للمدخلي ص ٦٤ .

(٢)المصدر السابق ص ٦٦ و في ظلال القرآن ٢/١٠٠٥- ١٠٠٦ بتصرف .

للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا " مسلمين "، ويقررأن ذلك ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام اليوم.

ثم يقول سيد رحمه الله بعد ذلك " إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن تقوم في الضمير" عقيدة " ولا في واقع الحياة " ديناً " إلا أن يشهد الناس أن " لا إله إلا الله "، أي لا حاكمية إلا لله، حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعة وأمره، وهذه كلها سواء في كونها أساساً للعقيدة لا تقوم ابتداءً في الضمير إلا به، كذلك لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة ديناً إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة... فتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلاً، ويبرأ الحاكم والمحكوم من ادعاء حق " الألوهية " عن طريق ادعاء حق " الحاكمية " ومزاولة التشريع فعلاً بما لم يأذن به الله..

ونحن لا نحدد مدلول " الدين " ولا مفهوم " الإسلام " على هذا النحو من عند أنفسنا... إنما الذي يحدد مدلول " الدين " ومفهوم " الإسلام " هو الله سبحانه- إله هذا الدين، ورب هذا الإسلام، وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها...

{إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ} [سورة يوسف ٤٠] .

{ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ } [سورة المائدة ٤٩] .

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ } [سورة المائدة ٤٥] .

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا } [سورة النساء ٦٥] .

وكلها تقرر حقيقة واحدة أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده، والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع – مما لم يرد فيه نص والحكم بما أنزل الله – دون سواه – في كل شؤون الحياة، والرضى بهذا الحكم قلبياً بعد الاستسلام له عملياً، هذا هو " الدين القيم "، و" الإسلام الذي أراده الله من الناس " (١)

أما النص الثاني فقد جاء في سياق كلام سيد رحمه الله– عن اهتمام القرآن والنبي ﷺ في بداية الدعوة بالعقيدة والتربية عليها، وبيان أن سبب رفض العرب لهذه الكلمة هو أنهم عرفوا أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه وتعالى بها معناه نزع

(١) العدالة الاجتماعية : ص (١٨٢-١٨٣ بتصرف يسير

السلطان الذي يزاوله الكهان والحكام ورده إلى الله، والسلطان على الضمائر والشعائر والواقع في جميع جوانب الحياة، والثورة على من يغتصب أولى خصائص الألوهية وبسبب معرفتهم بأثر هذه الكلمة على أوضاعهم وسلطانهم استقبلوها بذلك العنف والحرب " (١).

والملاحظ في النص الأول أن سيداً فسر " لا إله إلا الله " بإحدى خصائصها وهي الحاكمية العامة قضاءً وقدراً وشرعاً وأمراً، ومن أمر الله ألا يعبد إلا إياه، كما يفهم من سياق الآيات المتعلقة بهذا الأمر، وكذلك في النص الثاني بيَّن سبب رفض قريش لهذه الكلمة لأنهم يعرفون أنها منهج حياة تقوم على حاكمية الله في كل شؤون الحياة، ففسرها بإحدى خصائصها وهي الحاكمية.

٢ قول سيد – رحمه الله– في تفسير قوله تعالى { وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ } [سورة القصص ٧٠] ' " أي فلا شريك له في الخلق والاختيار " (٢)، يقول د/ المدخلي " فهذا معنى من معاني الربوبية ضيع به المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، ثم ذكر معنى

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٠٤ – ١٠٠٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٧٠٧ .

هذه الكلمة عن ابن جرير وابن كثير، وأن المقصود بها المعبود المتفرد بالألوهية" (١).

الوقفة الثانية بالرجوع إلى كلام سيد في الظلال نجد أنه جاء في سياق كلامه عن قصة الشرك والشركاء، وما يكون بينهم يوم القيامة من خصام وتبرؤ، مستدلاً بذلك على بطلان الشرك بالله سبحانه وتعالى، بعد حكاية الله لقول المشركين للنبي ﷺ { وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ } [سورة القصص ٥٧] حيث جاء التقرير من الله في الآية بأنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم، فالله وحده الذي له الخلق والاختيار.

وقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة، والله وحده هو الخالق المختار ولا شريك له في خلقه ولا في اختياره {سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ }.

ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك {لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ } على اختياره ونعمائه وحكمه وتدبيره وهو وحده المختص بالحمد والثناء {وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ } فيقضي بينكم بحكمه.. هكذا يطوقهم

---

(١) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، للمدخلي ص ٦٤ .

بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في الوجود واطلاعه عليهم ورجعتهم إليه فكيف يشركون بعد هذا وهم في قبضته.. (١).

فحديث سيد – رحمه الله – عن رد الله على المشركين في امتناعهم عن التوحيد وإتباع النبي ﷺ بسبب خوفهم من أن يتخطفهم الناس، فرد الله عليهم بأنه هو صاحب الخلق والاختيار سبحانه، وبالتالي فلا يصح أن يشرك معه أحد، فسياق الحديث عن تبرير المشركين لشركهم ورد الله عليهم

٢- قول سيد رحمه الله في تفسير قوله تعالى { إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ } [سورة الناس ٣] ، "والإله هو المستعلي المستولي المتسلط " (٢)، ويعلق الدكتور المدخلي قائلاً " من قال بهذا التفسير من الصحابة ومن علماء الأمة المعتبرين؟! ثم يبين معنى الربوبية والألوهية عند السلف، ويخلص إلى أن سيد يخلط بين معاني الألوهية والربوبية فيضيع بذلك توحيد الألوهية (٣).

<u>الوقفة الثالثة</u> وبالرجوع إلى النص في تفسير سورة الناس نجد سيداً – رحمه الله – يبين أن " الاستعاذة بالرب، الملك،

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧٠٧/٥ بتصرف يسير .

(٢) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب د. المدخلي ص ٦٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٥-٦٦ .

الإله، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة، وشر الوسواس الخناس خاصة.

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي، والملك هو المالك الحاكم المتصرف، والإله هو المستعلي المستولي المتسلط.. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور...

والله رب كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء. " (١)

وكلام سيد رحمه الله – هنا بناء على مفهوم الألوهية عنده وأنها مصطلح شامل للدين كله يدخل فيها الربوبية والأسماء والصفات والعبادة عند السلف، وقد سبق بيان ذلك في أول هذا الفصل، فليس خلطاً بين الألوهية والربوبية وإنما استناداً إلى مفهوم الألوهية الشامل عنده كما سبق.

والخلاصة أن سيداً –رحمه الله – يرى أن الألوهية التي هي معنى " لا إله إلا الله " مصطلح شامل عام يقوم على ثلاث خصائص كما سبق – هي (الاعتقاد، والعبادة،

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٤٠١٠ بتصرف يسير .

والحاكمية)، وقد ركز على بيان هذه الثلاث المقومات لمعنى " لا إله إلا الله " وأنها لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا بوجودها مجتمعه، وهناك نصوص أخرى غير ما ذكره الدكتور / ربيع، أشار فيها سيد رحمه الله إلى أن معنى " لا إله إلا الله " يعنى لا حاكمية إلا لله بالمعنى العام للحاكمية كما سيأتي وربما فسرها أحيانا ببعض خصائص الربوبية بناء على مفهوم الألوهية الشامل للجميع.

وأخيراً إذا كان سيد رحمه الله –قد فسر الألوهية في النصوص التي ذكرها المدخلي بالحاكمية أو بعض صفات الربوبية، فإنه قد فسرها أيضا بالعبادة والعبودية والإتباع في نصوص أخرى كثيرة سبق ذكرها عند الحديث عن معنى " لا اله إلا الله " عند سيد قطب.

فالعبادة عنده تعني " الدينونة الشاملة لله وحده في كل شؤون الحياة والإتباع، وما الشعائر التعبدية إلا صورة من صور الدينونة لله التي يعنيها توحيد " العبادة " (١).

---

(١) في ظلال القرآن (١٩٠٢/٤ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

العبـادة

الفرع الأول مفهوم العبادة لغة واصطلاحاً

العبادة في اللغة الخضوع والتذلل(١).

أما في الاصطلاح فقد تنوعت أقوال السلف في تعريف العبادة، وأشملها قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله– " العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا

(١) المفردات للراغب ص ٥٤٢ ومختار الصحاح للرازي ص١٧٢ .

بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة "[١].

الفرع الثاني مفهوم العبادة عند سيد قطب

تعرض سيد – رحمه الله – كثيراً لبيان معنى العبادة في اللغة والاصطلاح وأهميتها في حياة البشر، وعلاقتها بالعقيدة والحاكمية ونحوها ما يتعلق بمفهوم العبادة في الإسلام، وبيان ذلك فيما يأتي

أولاً العبادة في اللغة

يوضح سيد رحمه الله– معنى العبادة في اللغة فيقول " إن معنى " عَبَدَ " في اللغة دان، وخضع، وذل [٢]، وطريق معبَّد طريق مذلل ممهد، وعبَّده جعله عبداً، أي خاضعاً مذللاً [٣].

وبالتالي فالعبادة تعني " الدينونة الشاملة " لله وحده في كل شؤون الدنيا والآخرة، ذلك أن هذا المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي... ولم يكن معناه في الاصطلاح

(١) العبودية لابن تيمية ص ٣٨ وينظر أيضاً : تجريد التوحيد للمقريزي ص ٢٢ وفتح المجيد ص ١٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/١٩٠٢ .

(٣) المصدر السابق ٤/١٩٩١ ، وينظر : ٣/ ١٧٦٣ .

الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر، إنما كان هو معناه اللغوي نفسه، لأنه لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه، إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي، كان المقصود به هو الدينونة لله وحده، والخضوع له وحده، وإتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية، أو تعلق بتوجيه أخلاقي، أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه... " (١)

ثانياً العبادة في الاصطلاح

إذا كان معنى العبادة في اللغة هو " الخضوع والتذلل "، فإنها في الشرع يضاف إليها عنصراً أخر هو" الدينونة والإتباع " الناشئ من التعظيم لله سبحانه وتعالى والشعور بأنه وحده صاحب السلطان والحكم.

ولهذا نجد سيداً رحمه الله – يقرر أن مصطلح العبادة في الإسلام يقوم على إفراد الله سبحانه وتعالى بالطاعة والخضوع والاستسلام والدينونة والإتباع في كل شؤون الحياة،

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٩١/٤ بتصرف يسير ، وينظر : ١٧٦٣/٣ .

وما الشعائر التعبدية إلا مظهر من مظاهر الدينونة والعبادة لله وحده لا شريك له.

حيث تشتمل العبادة في الإسلام على كل نشاط يتوجه به الفرد إلى ربه سبحانه وتعالى أيّاً كان هذا النشاط وفيما يلي بعض النصوص لسيد – رحمه الله في بيان مفهوم العبادة

١ يقول سيد " إن العبادة هي الإتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم... وإنما حكم الله عليهم بالكفر لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها" (١).

٢ ويقول أيضاً " وإذا كان الله هو وحده المتفرد بالخلق والملك والرزق تقرر ضرورة وحتماً أن تكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام" (٢)، " ذلك أن العبادة هي العبودية وهي الدينونة وهي الإتباع والطاعة مع

---

(١) المصدر السابق ١٦٤٢/٣ وينظر أيضا: مقومات التصور الإسلامي ص ١٤١ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١١٦٣/٢ بتصرف .

إفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الخصائص كلها لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية " [1].

٣ ويقول أيضاً " إن قضية " العبادة " ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة وإتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة.. ولذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني واستحقت كل هذه الرسل والرسالات، واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات. [2]، "ومدلول العبادة هو الدينونة لله وحده، لا في لحظات الصلاة، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة "[3].

٤ ويقول " والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر، إنما هي كل نشاط، كل حركة، كل خالجة كل نية، كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه، مشقة تحتاج إلى الاصطبار، ليتوجه القلب في كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء، خالصاً من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة.

---

(١) ٣/١٧٦٣ .وينظر ٤/١٨٥٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧-١٥١

(٢) المصدر السابق ٤/١٩٤٣ وينظر : ١٩٦٠-١٩٦٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢١١٤ . بتصرف

إنه منهج حياة كامل، يعيش الإنسان وفقه، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله، فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء " (١).

٥ ويقول " والعبادة أشمل من الصلاة، فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله، فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله، حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات، وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات" (٢)، "ولم يتحول في طبيعتها شيء، ولكن تحول القصد منها والاتجاه! " (٣)، " فالعبادة يدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله " (٤).

و" البشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣١٥ .

(٢) المصدر السابق ٤/٢٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ٤/٢٤٤٥ .

(٤) المصدر السابق ١/١٨٩ .

فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله، ولو كانت متاعاً ذاتياً بطيبات الحياة! " (١)

ثالثاً: خصائص العبادة في الإسلام

أشار سيد رحمه الله – إلى بعض خصائص العبادة في الإسلام ومنها

١ **ارتباطها بالعقيدة** وذلك لأن الدين الإسلامي ليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات، ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية، إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل، وهو توحيد الله، والتلقي منه وحده في هذا النشاط كله دون سواه، توحيده إلهاً معبوداً، وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضا، لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك في الإسلام وفي دين الله الصحيح على الإطلاق...

إن التشريعات والتوجيهات في منهج الله إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة، إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة،

---

(١) المصدر السابق ٢٣٧٣/٤ .

ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير، ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير وافٍ بتحقيق صفة الإسلام، وثمار المنهج الإسلامي في الحياة "(١).

" فقضية العبادة قضية عقيدة وإيمان وإسلام، وليست فقه أو سياسة أو نظام.. ثم هي بعد ذلك قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام " (٢)، " إن العبادة تعبير عن العقيدة فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة " (٣).

٢ **__الشمول__** من خصائص العبادة في السلام الشمول وله مظاهر عديدة منها

أ **__شمولها لكل ما سوى الله__** فكل ماسوى الله هو عبد الله سبحانه وتعالى، وذلك أنه ليس في الوجود إلا ألوهية وعبودية، ألوهية الله سبحانه، وعبودية ما سواه له سبحانه، وقد ركز المنهج القرآني كثيراً على تقرير هذه الحقيقة بأساليب متنوعة،

---

(١) في ظلال القرآن ٦٥٩/٢ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١٩٤٣/٤ وينظر : ٤٠٠/١، ٦٦٠/٢ ، ٣٧١١/٦، ٣٩٥٢.

(٣) المصدر السابق ١٦١٤/٣ .

باعتبار أن العبودية والدينونة شاملتان للجود كله، غير مقصورتين على الكائن الإنساني " (١).

" فالعبودية لله تشمل كل شيءٍ وكل حيٍ، فلا يخرج عنها شيءٌ ولا حيٌ في هذا الوجود، إنما يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية، ويقف موقف العبيد، إنها عبودية الكون المادي ممثلا في أجرامه الفلكية الكبيرة، عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء في عالم الغيب والشهادة، عبودية الخلائق العاقلة المكلفة، عبودية الملائكة والجن والأنس عبودية الأنبياء والرسل خاصة، عبودية الطائعين والعصاة أيضاً، إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة.. " (٢)

ب **شمولها لكل شأن من شؤون الحياة** (٣)

في ظلال قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات ٥٦] يقول سيد رحمه الله– " وهذا النص الصغير يحتوي حقيقة ضخمة هائلة، لا تستقيم حياة البشر

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٨١-٨٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ –١٣٠ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٢٢١١/٤ ، ٣٣٨٧/٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٢١١٤/٤ ، وينظر أيضا : ١٧٦٣/٣ ، ٢٣٧٣/٤، ٢٣١٥، ٢٤٤٥ .

بدونها... أول جانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والأنس، تتمثل في وظيفةٍ هي العبادة أو العبودية لله، أن يكون هناك عبد ورب، عبد يَعبد، ورب يُعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

والجانب الأخر لتلك الحقيقة أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا. وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن من قول الله تعالى {وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ} [سورة البقرة ٣٠] ، فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي...

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو وظيفة الإنسان الأولى أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً، وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين

الأول استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً، عبداً يَعبد، ورباًّ يُعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء...

الثاني التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعورٍ آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله، وبذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله، كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى... العبودية.. " [(١)]

ج **شمولها لأوجه نشاط الإنسان جميعاً**

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٢٢٦٨-٣٣٨٧ بتصرف ، وينظر ٣٧١١ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ .

يقول سيد " عبادة الله وحده منهج كامل للحياة، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس، ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور " (١).

" فالعبادة غاية الوجود الإنساني، يدخل في نطاقها كل نشاطٍ خيرٍ يتجه به صاحبه إلى الله تعالى " (٢)، " فالإنسان عندما يتجر ويعمل ويطلب الرزق... هو في حالة عبادة " (٣).

" إنها العبادة، عبادة الله في الزواج، وعبادته في المباشرة والإنسال، وعبادته في الطلاق والانفصال، وعبادته في العدة والرجعة، وعبادته في النفقة والمتعة، وعبادته في الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان، وعبادته في الافتداء والتعويض، وعبادته في الرضاع والفصال، عبادة الله في كل حركة وفي كل خطرة – ومن أجل ذلك يجيء الحديث عن الصلاة بين هذه الأحكام تندمج عبادة الصلاة في عبادات الحياة، الاندماج

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢٦٨/٦-٣٣٨٧ بتصرف ، وينظر ٣٧١١ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ .٣٧١١/٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١٨٩/١ .

(٣) المصدر السابق ١٨٩/١ .

الذي ينبثق من طبيعة الإسلام، ومن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي، ويبدو السياق موحياً هذا الإيحاء اللطيف، إن هذه عبادات، وطاعة الله فيها من جنس طاعته في الصلاة، والحياة وحدة والطاعات فيها جملة، والأمر كله من الله، وهو منهج الله للحياة... " [١].

ويبين سيد " أن إطلاق مصطلح " **العبادات** " على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل، في مقابل إطلاق مصطلح " **المعاملات** " على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل جاء متأخراً عن عصر نزول القرآن الكريم، ولم يكن هذا التقسيم معروفاً في العهد الأول.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى " **عبادات** " و" **معاملات** " مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة " الفقه "، ومع أنه كان المقصود به في أول الأمر مجرد التقسيم " الفني " الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه مع الأسف أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور، تبعها بعد فترة آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها، إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة "

---

(١) المصدر السابق ٢٣٨/١،وينظر أيضا : ٢٨٣/١ ، ٦٥٨/٢، ١٩٤٣/٤،١٩٠٢ .

العبادة " إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط، الذي يتناوله " فقه العبادات "، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله فقه " المعاملات " وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي.

ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى " العبادة " أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة، أولاً وأخيراً.

وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، وتشريعات الأسرة. وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج، ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى " العبادة " في حياة الإنسان، والنشاط الإنساني لا يكون متصفاً بهذا الوصف، محققاً لهذه الغاية التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفراد الله – سبحانه بالألوهية، والاعتراف له وحده بالعبودية، وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عن العبودية،

أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله، أي خروج عن دين الله!

وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم " العبادات " حين تراجع في مواضعها في القرآن، يتبين أنها لم تجيء مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم " المعاملات " إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني، باعتبار هذه كتلك شطراً من منهج " العبادة " التي هي غاية الوجود الإنساني، وتحقيقاً لمعنى العبودية، ومعنى إفراد الله سبحانه بالألوهية.

إن ذلك التقسيم مع مرور الزمن جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا " مسلمين " إذا هم أدوا نشاط " العبادات " وفق أحكام الإسلام بينما يزاولون كل نشاط " المعاملات " وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله!

وهذا وهمٌ كبيرٌ، فالإسلام وحدةً لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين على هذا النحو فإنما يخرج من هذه الوحدة، ويخرج من هذا الدين، وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي

يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه، وغاية وجوده الإنساني " (١).

٣ **قيامها على الإخلاص لله والمتابعة لرسوله** ﷺ فالعبادة في الإسلام تقوم على ركيزتين أساسيتين هما الإخلاص والتجرد الكامل لله سبحانه وتعالى والانقياد له وحده، بحيث لا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى، وجاء به الرسول ﷺ (٢).

٤ **غنى الله عن عبادة الخلق له، وإنما أوجبها عليهم لحكمة**

" فالله سبحانه وتعالى غنى عن عبادة الخلق، وعباداتهم لا تزيد في ملكة شيئاً، كما أن تركهم عبادته لا تنقص من ملكه شيئاً فالله هو الغني الحميد" (٣)

وإنما اوجب الله العبادة على الخلق لحكم ومعانٍ جليلةٍ فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة، والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متدينين! لا بد للناس من دينونة، والذين لا يدينون لله وحده

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٣٦/٤– ١٩٣٧بتصرف و خصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩ –١٣٠ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ١٢٤٠/٣ ، ١٣٢٠ ، ١٦٤٢ ، ٣٣٨٧/٦ ، ٣٩٥٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٩٣٧/٥ وينظر : ٨٢٠/٢ ، ١٨٥٢/٤ .

يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله، في كل جانب من جوانب الحياة!.

ففي العبودية لله وحده تحريراً للعباد من عبودية العباد، وتحقيقاً لكرامتهم عندما لا يذلون لأحد من الخلق " [1].

" وبذلك استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، والجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان... لا لأن الله في حاجه إليها، فهو الغني سبحانه وتعالى عن العالمين ولكن لأن حياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا بها " [2].

٥ **واقعيتها ومراعاتها للفطرة والطاقة الإنسانية**

يقول سيد " فهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته، ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة، وإطلاق هذه الطاقة، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء.. " [3].

---

(١) المصدر السابق ١٩٤٠/٤-١٩٤٣ بتصرف ، وينظر ٨٢١/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٠٣/٤ ، ١٩٣٦ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ٢٤٤٦/٤ .

رابعاً :أهميـة العبـادة ومكانتهـا فـي الـدين والحياة

بين سيد في مواضع متفرقة مكانة العبادة في الإسلام وأهمتها في حياة البشرية ومن ذلك

١ **أنها غاية الوجود الإنساني**

يقول سيد – رحمه الله – " فغاية الوجود الإنساني هي العبادة، ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله " (١)، " إن غاية الحياة الإنسانية كما يقررها الله سبحانه هي عبادة الله { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات ٥٦] ، هذه العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني تتمثل في وظيفته التي خلق لها وهي الخلافة عن الله في هذه الأرض بهدى الله " (٢).

٢ **أنها مقتضى الألوهية**

يقول سيد " إن مقتضى الاعتراف بألوهية الله وحده، الدينونة له وحده والاستسلام لهذه الألوهية بحيث لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله

---

(١) المصدر السابق ١٨٩/١ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٧٩ ، في ظلال القرآن ٣٣٨٧/٦ .

"[1]. " فالعبادة لله ناشئه عن الاعتقاد بألوهيته سبحانه، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله " [2].

٣ **أنها ترفع قيمة الحياة الإنسانية وتحقق الصلاح والخير للبشرية**

يقول سيد " إن توحيد العبادة لله سبحانه– يجمع الكينونة الإنسانية ويردها إلى مصدر واحد، يجمعها شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة، في كل شؤون الحياة، فلا تتفرق ولا تتمزق، بل تعيش في تناسق مع الكون والوجود، وتكمن أهمية هذه الحقيقة في تصحيح التصور الإيماني، وفي حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءاً من هذه العبادة، أو كل العبادة، وفي هذا المقام يتحقق الكمال الإنساني المنشود " [3].

"وحين يرتفع الإنسان إلى هذه الأفق، أفق العبادة أو أفق العبودية ويستقر عليه، فان نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة.. لأن الوسيلة الخسيسة تحطم

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٩/١ بتصرف

(٢) المصدر السابق ٢٥/١ بتصرف

(٣) في ظلال القرآن ١٩٣٨/٤ –١٩٣٩ بتصرف .

معنى العبادة النظيف الكريم... ومن ثم يستمتع العبد العابد براحه الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال في جميع الأحوال"(١)

" ومتى استقامت الأمة المسلمة على العبادة، استقام ضميرها، واستقامت حياتها، ونهضت بالتبعة الشاقة " (٢).

٤ **أنها مفرق الطريق بين تحرير البشرية وعبوديتها لغير الله**

" أن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم، ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك، فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه، تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم، وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم، وتحرروا من العبودية للعبيد... " (٣)

" فالحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده، وأن يخلعوا من

---

(١) المصدر السابق ٣٣٨٨/٦-٣٣٨٩ بتصرف

(٢) المصدر السابق ٢٤٤٥/٣

(٣) المصدر السابق ١٣٣٧/٣ بتصرف

رقابهم نير الدينونة لغير الله، ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان! " (١)

" إن العبودية لله وحده تطلق الناس أحراراً كراماً شرفاء أعلياء، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية " (٢)

٥- **أنها تحفظ الإنسان من الشيطان** " فمتى اتصل القلب بالله، واتجه إليه بالعبادة، متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، متى أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت، فلا سلطان حينئذٍ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله... فالشيطان يستذل عبيده، لكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن، فما له عليهم من سلطان " (٣).

خامساً : أضرار العبودية لغير الله

تحدث سيد رحمه الله كثيراً عن أضرار وأثار العبودية لغير الله في أي صورة من صور العبودية، وأوضح " أنه لابد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٣ .

(٢) المصدر السابق ١٩٤٣/٤ وينظر : ٨٢٠/٢ ، ١٩٣٩/٤ –١٩٤٠ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٣٩/٤ .

من عبودية! فإن لم تكن لله وحده تكن لغير الله، والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا، كرما، شرفاء، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية "(١).

" والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله، في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط، ومن ثم يفقدون خاصيتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة {إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ} [سورة محمد ١٢] ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته، ويندرج في عالم البهيمة، ثم هم يقعون فرائس لألوانٍ من العبودية للعبيد، يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم، سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم، أو في طبقة حاكمة، أو في جنس حاكم...

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٤٣/٤ .

إن الدينونة لغير الله توقع الإنسان في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تقدم فيها النذور والأموال وأحيانا الأولاد أضاحي لغير الله... ويعيش معها الناس في رعب من الأرباب الوهمية والسحرة والمشايخ والقديسين والجن.. حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء!

وتجيء أخيراً تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية، وما من أضحية يقدمها عابدُ اللهِ لله، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض، وتقام أصنام من " الوطن " ومن " القوم " ومن " الجنس " ومن " الطبقة " ومن " الإنتاج "... ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب..

وتدق عليها الطبول، وتنصب لها الرايات، ويُدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد، وإلا فالتردد هو الخيانة، وهو العار، وحتى حين يتعارض العِرض، مع متطلبات هذه الأصنام يضحى بالعرض والشرف...

والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد في سبيل الله وعبادته وحده عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في

الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار!.. "(١).

" إن عبودية الناس لغير الله سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة، وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل، وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية والطبل حولها والزمر والنفخ فيها دائماً لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي... فيظل عبَّادها المساكين في نصبٍ دائم " (٢).

" إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده مهما عظمت وشقت أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد والإنسان عبد للإنسان، وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟!.. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان أخر به، ورضاه

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩٤٠ – ١٩٤٣ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤/١٨٦٧ .

أو غضبه عليه؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما يشاء إنسان؟!

على أن الأمر لا يقف عند هذا، بل إنه يهبط حتى يكلف الناس في حكم الطواغيت أموالهم التي لا يحميها شرع، كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من تصورات وأفكار وأخلاق وعادات... ويكلفهم في النهاية أعراضهم، حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة غصب مباشر، أو في صورة تنشئتهن على مفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً.. أو غير ذلك، والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت إنما يعيش في وهمٍ أو يفقد الإحساس بالواقع!

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال.. ومهما تكن تكاليف العبودية لله، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة، فضلاً على وزنها في ميزان الله. " (١)

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣١٩-١٣٢٠ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٥٢١ .

سادساً انحراف مفهوم العبادة اليوم

مدلول العبادة عند سيد قطب – رحمه الله يعني الدينونة الكاملة لله في كل شأن، ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن، وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة، والذي نص عليه رسول الله ﷺ نصاً، وهو يفسر قوله تعالى { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [سورة التوبة ٣١] ، و" الشعائر التعبدية " أطلق عليها لفظ " العبادة " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من شؤون الحياة، صورة لا تستغرق مدلول " العبادة " بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة!.

ولكن الناس اليوم بهت مدلول " الدين " ومدلول " العبادة " في أنفسهم فصاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح " مسلماً " لا يجوز تكفيره! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله... إلى أخر حقوق المسلم على المسلم!.

وهذا وهمٌ باطل، وانحسار وانكماش، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ " العبادة " التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه، وهذا المدلول كما سبق هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن " [1].

(١) في ظلال القرآن ١٩٠٢/٤-١٩٠٣ بتصرف يسير ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٤ وما بعدها .

المطلب الثالث

الحاكمية

تعتبر قضية " الحاكمية " من القضايا التي شغلت حيزاً كبيراً في الفكر الإسلامي المعاصر، نظراً لكونها أخطر القضايا التي تواجه الأمة المسلمة منذ سقوط الخلافة الإسلامية، وقد أثارت هذه القضية جدلاً معرفياً وفكرياً واسعاً، بين الإسلاميين الذين ينادون بتبني الإسلام عقيدة وشريعة والعودة إلى تعاليمه وتحكيمها في كل جوانب الحياة البشرية، وبين خصومهم العلمانيين والملاحدة وغيرهم ممن يتبنى فكرة فصل الدين عن الحياة، واتباع ما عليه غير المسلمين من نظمٍ وقوانين لتسيير حياة الشعوب، كما أثارت جدلاً بين اتجاهات الحركة الإسلامية المعاصرة ذاتها من جهة أخرى أيضاً.

ولكون سيد قطب رحمه الله – من أبرز الدعاة الذين تكلموا عن " الحاكمية " كثيرا، حيث شكلت هذه القضية منعطفاً حاسماً في فكره وآراءه وأحكامه، وركز كثيرا في كتابته على تحديد أبعاد هذا المصطلح، وبلورة مفهومه في إطار المفاهيم العقدية الخالصة المرتبطة بقضايا التوحيد والإيمان والكفر،

بحيث يلاحظ القارئ لكتب سيد رحمه الله – شيئا اسمه " توحيد الحاكمية ".

وبناءً على ذلك فقد وُجِهَ إلى سيد قطب رحمه الله – كثيرٌ من النقد في موضوع – الحاكمية – سواءً من خصوم الإسلام – العلمانيين – وغيرهم، أو من بعض المنتمين إلى الحركات الإسلامية المعاصرة.

وفيما يأتي بيان لقضية الحاكمية وموقف سيد قطب منها، وذلك من خلال الفروع الآتية

الفرع الأول تعريف الحاكمية لغة واصطلاحاً :

أولاً الحاكمية في اللغة

الحاكميـة لغـة علـى وزن فاعليـة، وهـو مـن المصـادر الصناعية، ويقصد بالمصادر الصناعية كل لفظ زيد في آخره ياء النسب المشددة، ثم تاء التأنيث المربوطة، وتسمى تاء النقل، لأن الاسم قبل اتصالها به كان له حكم المشتق من أجل ياء النسب، ثم لما اتصلت به نقلته إلى الاسمية المحضة، فصار يدل على معنى مجرد لم يكن يدل عليه من قبل الزيادة، وهذا المعنى المجرد هو مجموعة الصفات أو الأحكام أو القواعد الخاصة بذلك اللفظ [(١)]، ويعد المصدر الصناعي من المولد المقيس على كلام العرب.

ولفهم دلالة هذا المصطلح في اللغة واصطلاح الشرع يرجع إلى جذره (ح. ك. م)

- حيث جاء في اللغة بعدة معان هي

---

(١) مثل كلمة " إنسان " فان معناها الأصلي للحيوان الناطق ، فان زيدت في آخره ياء مشدده وتاء التأنيث المربوطة " إنسانية " تغيرت دلالة اللفظ فأصبحت تشمل مجموعة من الصفات المختلفة التي يختص بها الإنسان ، انظر : النحو الوافي ، لعباس حسن : دار المعارف – مصر – ط ٤ ب.ت ،١٨١/٣ وما بعدها

١- القضاء، يقال حكم بينهم إذا قضى.

٢- المنع، يقال حكمت عليه بكذا إذا منعته من خلافه.

٣- الفصل، يقال حكمت بين القوم أي فصلت بينهم.

٤- الرد والرجوع يقال حكم فلأن عن الأمر إذا رجع.

٥- الإتقان، يقال أحكمه، إذا أتقنه.

٦- التفويض، يقال حكَّمتُ الرجل بالتشديد، إذا فوضت الحكم إليه.

٧- المحاكمة، أي المخاصمة إلى الحاكم.

٨- الفعل حسب المراد يقال تحكم فلأن في كذا، إذا فعل ما رآه.

٩- الحِكْمَة، وتأتي لعدة معان منها العلم، والنبوة، والفقه، والقرآن، والفهم، وغيرها (١).

ومما سبق تظهر غزارة مادة الجذر اللغوي للحاكمية (ح. ك. م) في لغة العرب، حيث يستعمل لعدة معان، وهذه المعاني لها أهمية في التأصيل لمفهوم الحاكمية باعتبار أن هناك علاقة ومناسبة بين المصطلح وبين المعنى اللغوي، فالمعاني اللغوية

---

(١) ينظر المصادر الآتية : – القاموس المحيط للفيروز آبادي ٩٨/٤ وما بعدها .

– لسان العرب لابن منظور ١٤٠/١٢، ١٤٥.

- المفردات للراغب الأصفهاني ص١٢٦.

- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مطبعة أنصار السنة باكستان ب.ت ٤١٩/١

تتأسس عليه الدلالات الشرعية في الأصول " القرآن والسنة " وتقوم عليه اصطلاحات أصحاب العلوم والفنون المختلفة (١).

ثانياً الحاكمية في الأصول الشرعية " القرآن والسنة "

أما القرآن الكريم فقد ورد جذر الحاكمية (ح. ك. م) فيه دالاً على عدة معاني هي

١- القضاء والفصل في الخصومات والاختلاف بين الناس ومنه قوله تعالى ﴿{ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ } (٢).

٢- الإحكام والإتقان ومنه قوله تعالى {الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [سورة هود ١] .

٣- الفهم والفقه والعقل والعلم ومنه قوله تعالى {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا } [سورة القصص ١٤] ، وقوله تعالى {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ } (٣).

---

(١) انظر : الحاكمية في الفكر الإسلامي ،د. حسن لحساسنه ، كتاب الأمة ، قطر ، العدد ١٢٨، سنة ١٤٢٨هـ ،ص ٣١ وما بعدها .

(٢) سورة غافر: الآية ٤٨، وينظر: سورة البقرة: الآية ١١٣ والمائدة: الآية ٥٠ والنور: ٤٨ والزمر: الآية ٣٠، ٤٦.

(٣) سورة الأنعام : الآية ٨٩ ، وينظر:سورة البقرة : الآية ٢٦٩ وسورة مريم : الآية ١٢١ .

٤- الوضوح والإبانة ومنه قوله تعالى { هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ }(١).

٥- النبوة والرسالة ومنه قوله تعالى { رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ } [سورة الشعراء ٨٣]،

وقوله تعالى {وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ... } [سورة البقرة ٢٥١] .

٦- القران الكريم ومنه قوله تعالى {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا } [سورة الرعد ٣٧] .

٧- السنة النبوية ومنه قوله تعالى { وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ} [سورة الأحزاب ٣٤] .

٨- العظة والعبرة ومنه قوله تعالى {حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ} [سورة القمر ٥].

٩- القضاء والقدر ومنه قوله تعالى {وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ } [سورة الرعد ٤١].

١٠- التحليل والتحريم ومنه قوله تعالى {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ } [سورة يوسف ٤٠].

١١- الحكم بالمفهوم السياسي ومن ذلك

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧ وينظر: سورة محمد: الآية ٢٠.

أ- التحاكم إلى غير شرع الله كقوله تعالى {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ} [سورة النساء ٦٠] وقوله تعالى {وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ} [سورة المائدة ٤٤] ، والحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه يقتضي وجود سلطه بيدها الأمر والإلزام.

ب- ولاة الأمور ومنه قوله تعالى{ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ} [سورة البقرة ١٨٨] ويقصد بالحكام من بيدهم السلطة السياسية أو القضائية وهي سلطات سياسية.

ج – الشريعة ومنه قوله تعالى { وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ} [سورة المائدة ٤٣] ' أي شريعته (١).

---

(١) ينظر في معاني الحكم في القران :

– إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني ، دار العلم ، بيروت ، ط١٩٨٥م ، ص ١٤٢ .

– المفردات للراغب ص ١٢٦ وما بعدها .

– معجم ألفاظ القران – مجمع اللغة العربية – القاهرة طبعة ١٤٠٩ ،٣١١/١ وما بعدها .

– الحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ص (٣٧ وما بعدها .

أما في السنة الشريفة فقد ورد لفظ الحكم ومشتقاته في عدد من الأحاديث منها

١- قوله ﷺ" إن الله هو الحكم وإليه الحكم " (١).

٢- قوله ﷺ" ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " (٢).

٣- قوله ﷺفي دعائه من الليل " وبك خاصمت، واليك حاكمت " (٣).

٤- قوله ﷺ لسعد رضي الله عنه " لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل من فوق سبع سماوات " (٤)، وغيرها من الأحاديث وهي في الجملة لا تخرج عن المعاني التي جاءت في القران الكريم.

---

(١) رواة : أبو داود ٢٨٩/٤ برقم ٤٩٥٥ والنسائي ٢٢٦/٨ والبيهقي ١٤٥/١ وصححه الألباني في الجامع برقم ١٨٤١ وأوراد الغليل ٢٣٧/٨

(٢) رواة : البخاري ، في العلم باب الإغتباط في العلم ٤٠/١ برقم ٧٣ ، ومسلم في صلاة المسافرين ٤٦٨/١ برقم ٨١٦

(٣) رواة : البخاري في التهجد ٣٧٧/١ برقم ١٠٦٩ ، ومسلم ٤٤٨/١ برقم ٧٦٩

(٤) رواة : البخاري في الجهاد باب إذا نزل العدو على حكم رجل ١١٠٧/٣برقم ٢٨٧٨ ،ومسلم في الجهاد باب جواز قتل من نقض العهد ١١١٣/٣ برقم ١٧٦٨ .

أما في اصطلاحات أصحاب الفنون والعلوم فان للفظ دلالاته الخاصة

أ- **عند الفقهاء يستعمل الحكم على عدة أوجه**

١- الحكم بمعنى الأثر الذي يقتضيه خطاب الشرع كالوجوب والحرمة والإباحة...

٢- الحكم بمعنى الوصف المترتب على الأثر كالصحة والفساد واللزوم ونحوها [١].

ب- **عند الأصوليين يقسم الأصوليون الحكم إلى أربعة أقسام** :

١– الحكم وهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع.

٢– المحكوم فيه وهو فعل المكلف.

٣- المحكوم عليه وهو المكلف.

٤– الحاكم وهو الله تعالى أو الشرع بعد البعثة وبلوغ الدعوة. [٢]

---

(١) نظرية الإباحة عند الأصوليين لمحمد سلام مدكور، ص ٣٦ .

(٢) انظر : إرشاد الفحول للشوكاني : دار الفكر – بيروت – ب ت ص ٦ ، ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي ص ٧ ،والحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ص ٥٧– ٥٨ .

ج عند المناطقه يطلق الحكم على شيئين

١ – إدراك أن النسبة واقعة أو ليست واقعة، وهذا ما يرادف التصديق.

٢ – إثبات شيءٍ بشيءٍ أو نفيه عنه [١].

د عند السياسيين:

يقصد بالحكم والحكومة الهيئة الحاكمة التي تتولى تنظيم شؤون الدولة وتمثل السلطة المهيمنة فيها [٢].

ومما سبق عرضه يظهر لنا أنه بالنظر إلى جذر مصطلح الحاكمية (ح. ك. م) في اللغة والشرع والاصطلاح، نجد أن لهذا اللفظ دلالاته الكثيرة في اللغة وهي الأصل في معرفة معناه، وان استخدام الشرع لهذا المصطلح أضاف إليها معاني جديدة مؤسسة على المعنى اللغوي، وكذلك اصطلاح أصحاب الفنون المختلفة لم يخرج في جملته عن المعنى اللغوي والشرعي مما يدل على غزارة معاني هذا اللفظ وتنوع استعمالاته حسب ما يضاف إليه

---

(١) الحاكمية في الفكر الإسلامي د . حسن لحساسنه ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ .

والبحث في مصطلح " الحاكمية "في الفكر الإسلامي اليوم ينطلق من ثلاثة مداخل هي

١ المدخل العقدي " فالحاكم في الإسلام هو الله " (١)

وبحث مفهوم الحاكمية في هذا المدخل ينبغي أن يكون عقدياً من خلال النصوص الشرعية باعتبار أن الحاكمية من خصائص الألوهية.

٢ المدخل السياسي من خلال بحث نظرية السيادة والتي تتعلق بالقوانين واللوائح والسلطات التي لها السيادة والحاكمية على غيرها والتي تضبط وتنظم العلاقات في الدولة.

٣ المدخل الفكري وذلك من خلال النظر إلى دور العقل ووظيفته وعلاقته بالنقل ومجالات استعمال العقل، بمعنى هل الحاكمية للنقل أم للعقل؟ (٢)

وبناء على ما سبق يمكن أن نحدد المقصود بمصطلح الحاكمية في بحثنا هذا بأنه " **قضية الحكم والتشريع وما يتعلق بها من مسائل وأبحاث** ".

---

(١) أصول الفقه الإسلامي : محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة – ب. ت – ص ٦٣ .

(٢) الحاكمية في الفكر الإسلامي د . حسن لحساسنه ص ٧٠-٧٢ بتصرف .

ثالثاً: الحاكمية في الفكر الإسلامي بين الخوارج والمرجئة وأهل السنة

١- **الخوارج وفكرة الحاكمية** يرى بعض الباحثين أن مصطلح " الحاكمية " ظهر في عهد الخوارج وأنهم أول من تكلم به، وذلك أنه لما قَبِلَ عليٌّ – رضي الله عنه – بتحكيم الحكمين في "صفين" قال الخوارج " أتحكمون في دين الله الرجال؟ لا حكم إلا لله، فسموا " المحكمية "، وما ترتب على ذلك عندهم من تكفير لعلي ومعاوية – رضي الله عنهما – ولمن معهما (١). وكان مستندهم في ذلك قوله تعالى {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ } [سورة يوسف ٤٠] .

ومع أن هذه الآية إحدى النصوص الشرعية التي تقوم عليها فكرة الحاكمية في الفكر الإسلامي، إلا أن تفسير الخوارج وتأويلهم لها كان خاطئاً، حيث قصدوا منها نفي سلطان البشر في تسيير الأمور الدنيوية ونفي أن يكون للناس أمير، ولهذا

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير دار المؤيد – الرياض ، ط٢ ،عام ١٤١٧ هـ ، ٢٩٤/٧ وما بعدها ، والملل والنحل للشهرستاني ص ١١٤ – ١١٥، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٥- ٤٦ .

قال علي – رضي الله عنه – " كلمة حق أريد بها باطل " [١]، وبالتالي أساء الخوارج فهم مصطلح " الحاكمية " وأساؤا أيضا توظيفه في الواقع مما نتج عنها كثير من المخالفات التي شوهت حقيقة هذا المصطلح [٢].

٢ **المرجئة وفكرة الحاكمية :**

المرجئة اسم أطلق على من يرجئ – يؤخر – العمل عن الإيمان، حيث يرون أن الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان، وأما العمل فلا يدخل في مسمى الإيمان، لذا فإنه لا يكفر عندهم من نطق بالشهادتين مهما عمل وبالتالي فلا يرون كفر من حكم بغير ما أنزل الله، بل يجعلونه من الكفر الأصغر على اعتبار أن الكفر العملي هو كفر اصغر [٣]، وقولهم هذا يقود إلى الاستخفاف بالأمر والنهي والتحلل من الشرع، وقد رد عليهم أهل السنة والجماعة بردود مفصلة، ليس هذا مجال سردها [٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج ٧٤٩/٢ برقم ١٠٦٦ .

(٢) الحاكمية في الفقه الإسلامي د. حسن لحساسنه ص٩٩ وما بعدها .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٤٣ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٧/١ ، والشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه – ماجد شبالة ص ٨٨٦

(٤) ينظر : درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ،١ /٤٣ –٤٥ .

٣ أهل السنة والجماعة وفكرة الحاكمية :

إن مصطلح " الحاكمية " أو " توحيد الحاكمية " وان كان من المصطلحات الحادثة، إلا أنه لا محذور من استعماله إذا لم يتضمن معنى فاسداً، فإذا تضمن ذلك كان اللفظ صحيحاً والقصد فاسداً وذلك لأن العبرة بالمعاني لا بالمباني، والأمور بمقاصدها، والسلف لم يذموا المصطلحات الحادثة عند أهل الكلام وغيرهم لأنها حادثة، بل لما اشتملت من الباطل، أما ما كان معناه موافقاً لما في الكتاب والسنة فلا محذور في استخدامه وإن كان حادثاً (١).

ولذلك فإن أمير المؤمنين علي– رضي الله عنه – لما قال له الخوارج " لا حكم إلا لله " وكان قصدهم فاسداً، قال مقولته المشهورة " كلمة حق أريد بها باطل ". ومعنى ذلك أن الكلمة أصلها صدق {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ }، لكنهم أرادوا بها الإنكار عليه– رضي الله عنه – في تحكيمه (٢).

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ،١ /٤٣ –٤٥ . ١/٤٣ ، ٤٥ .

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي دار المعرفة – بيروت ، ط٣ عام ١٤١٧ هـ ٧/ ١٧٣ .

وبناء على ما سبق فإذا كان المراد بمصطلح الحاكمية هو إفراد الله سبحانه وتعالى – بالحكم القدري والشرعي، بأن يعتقد العبد أن الحكم لله وحده لا شريك له بقسميه الحكم الكوني المتمثل بالخلق والإيجاد والتدبير، والحكم الشرعي المتمثل بانفراده – سبحانه – بحق الأمر والنهي والتشريع والتحليل والتحريم ووضع التشريعات، وما يترتب على ذلك من وجوب الانقياد لحكم الله وشرعه وطاعته، والتحاكم إليه والكفر بما سواه مما يخالفه، واعتبار شريعة الله هي المرجعية العليا، ولها السيادة المطلقة في كل شؤون الحياة البشرية، والاستمداد منها، والتحاكم إليها والرد عند التنازع إليها، والرضى والتسليم بها. فلا شك ولا ريب أنه عين ما جاءت به النصوص الشرعية في الكتاب والسنة وقام عليه إجماع الأمة **وذلك** لأن أهل السنة والجماعة يرون أن الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه فرضٌ أوجبه الله على العباد وجعله الغاية من تنزيل الكتاب، قال سبحانه وتعالى { إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ } [سورة النساء ١٠٥] .

ويرون اختصاصه سبحانه– وتفرده بالحكم لقوله تعالى {إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ } [سورة الأنعام ٥٧] ،

وقوله {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ } [سورة يوسف ٤٠] ، وقوله تعالى { وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ } [سورة الشورى ١٠] ، وغيرها.

ويرون أن الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه من صفات المؤمنين، وأن التحاكم إلى غير ما أنزل الله والحكم به من صفات المنافقين وهو حكم الطاغوت والجاهلية لقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا } [سورة النساء ٦٠ ٦١] .

ويرون أن " توحيد الحاكمية " له تعلق بأقسام التوحيد وبأصل الإيمان وحقيقة الإسلام.

ويرون وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه..

ويحذرون من مفاسد الحكم بغير ما أنزل الله وضرره على الأمة في الدنيا والآخرة، وهم كما رأينا يستندون في كل ما سبق على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً الحاكمية في فكر سيد قطب– رحمه الله –

يعتبر سيد– رحمه الله– أبرز من تكلم عن مفهوم الحاكمية في العصر الحديث هو وأبو الأعلى المودودي–رحمه الله حيث طرح المودودي فكرة الحاكمية في إطار مشروع تأسيس دولة باكستان الإسلامية وصياغة دستورها وإعطاء البدائل السياسية والقانونية والدستورية للنظريات الغربية التي كانت سائدة في البلاد ومهيمنة على الحكومات، بينما طرح سيد قطب – رحمه الله – فكرة الحاكمية في إطار ما سماه بمواجهة " الجاهلية المعاصرة ".

حيث يرى أن قضية الحكم من أهم قضايا العقيدة والإيمان، فإما إسلام وإما جاهلية لا وسط في هذا الأمر، وعلى هذا الأساس اعتبر سيد – رحمه الله – أن الحاكمية صفة ملازمة لمبدأ الألوهية، فمن ادعاها فقد نازع الله في ألوهيته، واغتصب سلطانه، وبناءً على هذا فقد دعا بقوة إلى رد الحاكمية لله والتمرد على حاكمية الطواغيت المختلفة.

وفكرة الحاكمية عند سيد قطب رحمة الله من القضايا التي أُسيء فهمها كثيراً وأثيرت حواها الشبهات، وحُمِّلت أكثر مما أراد منها –سيد فهماً وتطبيقاً،

لهذا كان لابد من عرض قضية الحاكمية في فكر سيد قطب من خلال فهمه وكتاباته، والنظر بعد ذلك في مدى صحة أو خطاء ما أثير حولها، وذلك فيا يأتي

١ **مفهوم الحاكمية عند سيد قطب**

أكثر سيد قطب من إيراد مصطلح "الحاكمية" في كتبه الإسلامية، حيث تناولها في كتاب" السلام العالمي والإسلام" (١) و"الإسلام ومشكلات الحضارة" (٢) و" ودراسات إسلاميه" (٣) و" هذا الدين" (٤).و"المستقبل لهذا الدين"(٥) و"خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"(٦)و" نحو مجتمع إسلامي " (٧) وكذا في كتاب "الظلال" أثناء حديثه عن الألوهية والربوبية،

(١) انظر: السلام العالمي والإسلام سيد قطب ،ص١٣. ٣٨ومواضع أخرى من الكتاب

(٢) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة ،سيد قطب ، ص٢٥.٣٤و١٨٧.١٩٩

(٣) انظر: دراسات إسلامية، سيد قطب، ص١٦.١٨ و٣٩.٤٣و٨١.٩٢.

(٤) انظر: هذا الدين ، سيد قطب، ص١٧. ٢٨ و٣٤ –٣٥ .

(٥) المستقبل لهذا الدين، سيد قطب ، ص٧.٢٣و٧٦ وما بعدها.

(٦) خصائص التصور الإسلامي، ص ٧٩و٨٨،١١٤،١٩٠، ٢٠٧، ومقومات التصور الإسلامي ، ص١٥ – ٤٠ ، ١٠٩ – ١٨٨ ، ٢٨٢ – ٢٩٤ .

(٧) نحو مجتمع إسلامي، ص١٥٠ومابعدها

والعقيدة الإسلامية، والحكم والسلطة والأنظمة والمناهج، وأثناء تفسيره للآيات التي تتحدث عن تلك الموضوعات.

وهو في حديثه عن الحاكمية لا يعالجها من فراغ، ولا من جهل بالإسلام أو حتى بالتيارات المخالفة، أو عن رأي له، فالأمر كما يقول " أكبر من أن يُفتى فيه بالرأي " (١). ويشير أيضا إلى معرفته بالجاهلية على حقيقتها وانحرافها من خلال اطلاعه على معظم حقول المعرفة الإنسانية خلال ٤٠عاماً من حياته. (٢)

ومن خلال جمع كلامه عن الحاكمية من مواطنه المتعددة نستطيع القول بأن مصطلح الحاكمية عند سيد قطب يعني إفراد الله وحده بالحكم والتشريع والقوامة والسلطان، واستمداد كل التشريعات والمناهج والنظم منه – سبحانه وحده، وتطبيق شريعته على كافة مناحي الحياة.

٢ **جوانب الحاكمية عند سيد قطب** للحاكمية عند سيد قطب جانبان هما **الأول الحاكمية التكوينية** وتتمثل في دينونة

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ، ص١٤٧، ومعالم في الطريق ، ص١٤٤

(٢) معالم في الطريق ص١٤٣

العباد لربهم في الجانب القدري القهري من حياتهم، فالله وحده له الحكم القدري الكوني خلقا وتقديرا.

<u>الثاني الحاكمية التشريعية</u> وتمثل في دينونة العباد لربهم في الجانب الإرادي من حياتهم، فالله وحده صاحب الحق التشريعي، فهو الحاكم المشرع المنفرد بإنشاء الأمر والنهي والأحكام، المختص بالتحليل والتحريم ووضع القيم والتصورات عن الإله والكون والحياة والإنسان، وما يتبع ذلك من وجوب الانقياد لله تعالى والطاعة لشرعه وأحكامه في كل جوانب الحياة (١).

وفيما يأتي بعض النصوص من كلام سيد عن جوانب الحاكمية في الإسلام

<u>أ – يقول –رحمه الله</u> " وفي السورة أي سورة يوسف ـ تعريف بخصائص الألوهية، وفي مقدمتها "الحكم"، وهو يرد مرة على لسان يوسف عليه السلام . بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية، ويأتي مرة على لسان يعقوب عليه السلام بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله

---

(١) في ظلال القران في الميزان ، د/صلاح ألخالدي ، ص ١٧٣والحاكمية في الفكر الإسلامي د/ حسن لحساسنه ص٧٤ وما بعدها.

في صورتها القهرية القدرية، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفواً ولا مصادفةً أبداً.

يقول يوسف عليه السلام في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر وبيان مخالفتها لوحدانية الألوهية { يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ } [سورة يوسف ٣٩، ٤٠] .

ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض { وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ } [سورة يوسف ٦٧] .

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم، كالدينونة القهرية له سبحانه– في القدر، فكلاهما من العقيدة، وليست الدينونة في القدر

القاهر وحدها الداخلة في نطاق الاعتقاد، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد " (١).

ب يقول أيضا " إن الحكم إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من أخص خصائص الألوهية ومن ادعاها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته ٠٠ويكون ذلك بتنحية شريعة الله عن الحاكمية واستمداد القوانين من مصدر أخر، وتقرير أن الجهة التي تملك الحكم أي التي تكون هي مصدر السلطات جهة أخرى غير الله سبحانه، فالعبادة أي الدنيوية لا تقوم إذا كان الحكم لغير الله سبحانه، وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياه الناس وفي نظام الوجود، وحكمه الشرعي الإرادي في حياه الناس خاصة، فكله حكم تتحقق به الدينونة " (٢).

ج –ويقول أيضاً " إن الألوهية تعني الحاكمية العليا وتوحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها وهذا معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده إلى الله، السلطان في المال والسلطان في القضاء، والسلطان في الأرواح

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٦٧/٤-١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق ١٩٩٠/٤، ١٩٩١بتصرف

والأبدان، إن " لا إله إلا الله " ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله... "[١].

٣ علاقة الحاكمية بالعقيدة عند سيد قطب

يرى سيد – رحمه الله أن قضية الحاكمية من أخص خصائص الألوهية والربوبية، ومن أهم قضايا التوحيد والإيمان، ولذا نجده كثيراً ما يربط بين العقيدة والحاكمية، بحيث شغلت عملية إعادة الربط بين العقيدة والحاكمية جانباً كبيراً من اهتماماته وتفكيره وكتاباته، وخاصة في الأجزاء المنقحة من الظلال وكتبه الأخيرة ومن ذلك

قوله – رحمه الله " إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل.. وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن.. إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة.. وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي

---

(١) معالم في الطريق ص ٢٦ بتصرف .وينظر : في ظلال القران :٣١٩/١، ٣٧٩، و ٢/ ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٦ ، ٧٧١، ٨٢٦، ٨٢٨، و ١١٧٩/٣ ١٢٢٩ و٢١١٤/٤ ومقومات التصور الإسلامي ص١٤٧ .

قضية عقيدة. كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة. فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواءً بسواء.. [(١)].

ويقول في تعليقه على آيات سورة المائدة " يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية، والمنهج الإسلامي، ونظام الحكم والحياة في الإسلام.. وهي القضية التي عولجت في سورتي آل عمران والنساء من قبل.. ولكنها هنا في هذه السورة تتخذ شكلاً محدداً مؤكداً، يدل عليها النص بألفاظه وعباراته، لا بمفهومه وإيحائه، إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي ومِنْ ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان ، والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى، وكتبها على الرسل، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم؟ أم يكون ذلك كله للأهواء...؟

---

(١) في ظلال القرآن ٢١١٤/٤ .

وبتعبير آخر أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله؟..

والله سبحانه يقول إنه لا هوادة في هذا الأمر ولا ترخص في شيء منه.. لأن المسألة في هذا كله مسألة إيمان وكفر، أو إسلام وجاهلية، وشرع أوهوى.. وهي مفرق الطريق بين ذلك كله، وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله لا يخرمون منه حرفاً ولا يبدلون منه شيئاً، والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله" (١)

ويقول أيضاً " والعبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الأول لركن الإسلام الأول، فهي المدلول المطابق لشهادة " أن لا إله إلا الله "، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو الشطر الثاني لهذا الركن، فهو المدلول المطابق لشهادة " أن محمداً رسول الله "، والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده إلهاً، عقيدة وعبادة وشريعة، فلا يعتقد المسلم أن الألوهية تكون لأحد غير الله – سبحانه – ولا يعتقد أن العبادة

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٨٧-٨٨٩ بتصرف .

تكون لغيره من خلقه، ولا يعتقد أن الحاكمية تكون لأحد من عباده " (١). وهناك نصوص كثيرة في مواضع متفرقة. (٢).

وقد بين سيد – رحمه الله – السبب الذي جعله يتعرض كثيراً لمسالة الحاكمية وربطها بالعقيدة بقوله " ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر، لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية، قد آتت ثمارها مع الأسف فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام، يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية، أو لاستنكار انحلال أخلاقي، أو لمخالفة من المخالفات القانونية، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية، وموقعها من العقيدة الإسلامية! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية، ولا يستنكرون المنكر الأكبر، وهو قيام الحياة في غير التوحيد، أي على غير إفراد الله سبحانه

---

(١) معالم في الطريق : فصل " لا اله إلا الله " منهج حياة ص ٩٢ وما بعدها بتصرف .

(٢) ينظر كلام سيد حول الربط بين الحاكمية والعقيدة في ظلال القرآن : ٢١٧/١ ، ٢٨٣/٢ ، ٢٩٧ ، ٣٣١ ، ٦١٩/٢ ، ١٠٣٣ ، ١١٠٦ ، ١١٨٤/٣ ، ١٢١٦ ، ١٢٣٠ ، ٢١١٤/٤ ، ٢١٤٥، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧ ، ١٨٨، معالم في الطريق ص ٢٦-٥١

بالحاكمية.. إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية، أوصاهم ألا يشركوا به شيئاً.. " (١)

" إن هذا الدين شريعته كعقيدته، إذ هي الترجمة الواقعية لها، كما يتجلى ذلك من خلال النصوص القرآنية.. وهذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم " الدين " في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة، بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة، حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلون به أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة! ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة، إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة، قروناً طويلة، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة، حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك، ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك، إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٣٠/٣ وينظر أيضاً : ١٩٤٥/٤ ، ٢١١٤-٢١١٦ .

طبيعة هذا الدين فليقرأوا القرآن كما أنزله الله، وليأخذوا قول الله بجد {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [سورة الأنعام ١٢١]

هؤلاء... يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون، بل يطعنونه بمثل هذه الاهتمامات الجانبية، إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية، ويؤدون شهادة بأن هذا الدين قائم فيها، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات، بينما الدين كله متوقف عن الوجود أصلا، ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد.

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين، وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد... وهي القضية التي كان يواجهها القرآن الكريم ويربطها بقضية الألوهية والعبودية، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر، وميزان الجاهلية أو الإسلام.. " (١)

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢١٦-١٢١٧ بتصرف .

" وما يزال أهل الكتاب يحاربون هذا الدين حرباً لا تهدأ، وأشد هذه الحرب وأنكأها، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب، إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر وجعل غير الله حكماً "[1]. ويوضح سيد العلاقة بين الحاكمية وبين أنواع التوحيد والإيمان، فيقرر ارتباطها الوثيق بأنواع التوحيد وبقضية الإيمان والدين، ويعتبرها القضية التي يُبني عليها معقد التفرقة بين الإيمان والكفر وبين التوحيد والشرك.

فلا يتحقق توحيد الربوبية إلا بإفراد الله – عز وجل – بالخلق والأمر بقسيمة الكوني والشرعي، وإفراده بالأمر الشرعي يقتضي الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، فالمنازعة في الأمر الشرعي كالمنازعة في الأمر الكوني ولا فرق، فأدنى درجات الرضى بالله ربا، والتي ينجو بها المرء من الشرك تشمل الإقرار لله تعالى بالتفرد بالخلق والأمر، واعتقاد تفرد الله بالحاكمية والتحليل والتحريم والتشريع المطلق كما قال – سبحانه – {أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ} [سورة الأعراف ٥٤] .

(١) المصدر السابق ٣/١١٩٤ .

وللحاكمية صلتها أيضا بتوحيد الألوهية – العبادة – فإن إفراد الله بالعبادة يقتضي الطاعة والخضوع له سبحانه – فيما أمر به وما نهى عنه، ومعلوم أن التحاكم إلى ما أنزل الله والتزام ما فصل لعبادة من الحلال والحرام وسائر الشرائع صورة من صور العبادة، لا يجوز أن تصرف إلى غير الله سبحانه – لقوله تعالى {إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ } [سورة يوسف ٤٠] .

فتوحيد الحاكمية شعبه من شعب توحيد الألوهية.

وللحاكمية صلتها بالأسماء والصفات فان من أسماء الله – عز وجل – التي ذكرها في القرآن الكريم " الحكم، والحاكم، والحكيم " فلا يتم الإيمان بها إلا بإثباتها له وإفراده بها وذلك بالإيمان أن له وحده الحكم الشرعي والقدري والجزائي في الدنيا والآخرة دون سواه.

وللحاكمية صلة بتوحيد المتابعة للنبي ﷺ، فتحكيم شرع الله من مقتضى الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة، فلا يتم الإيمان إلا بتحكيم الشرع الذي جاء به النبي ﷺ في كل شؤون الحياة، مع الرضا والتسليم.

وللحاكمية صلتها بالإيمان، فمن لم يسلم لله بحق الحاكمية فهو مناقض لأصل الإيمان، ومن أعطاها لغيره – سبحانه– فقد وقع في الشرك والكفر والنفاق.

وفيما يلي بعض النصوص لبيان علاقة الحاكمية بالتوحيد والإيمان عند سيد – رحمه الله

١ يقول– رحمه الله– " إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية، والحق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم، فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء، وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم، فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه، والخارج على هذا المبدأ البديهي معتدٍ لا شك! " [١]

٢ يقول رحمه الله – " إن أخص خصائص الألوهية هي الحاكمية، والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها، فهم عبيده لا عبيد الله، وهم في دينه لا في دين الله... ". [٢] " فالألوهية من خصائصها

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٧٠.

(٢) في ظلال القرآن ٢/٨٩٠ .

ومقتضاها الحاكمية التشريعية، ومن يحكم بغير ما أنزل الله يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب أخر.. وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟ " (١)، " فالحاكمية في الأرض كما هي في الكون كله لله وحده، والناس حاكمهم ومحكومهم إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه، وليس لهم في جملتهم أن يخرجوا عنها " (٢).

٣ ويقول " فحقيقة التوحيد تستلزم مصداقاً لها في واقع الحياة البشرية، ومن ثم يقرر القرآن الحقيقة الأولى التوحيد ليرتب عليها آثارها الملازمة لها، فيبدأ بشهادة الله سبحانه – " أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ" وشهادة الملائكة وأولي العلم بهذه الحقيقة، ويقرر معها صفة الله المتعلقة بالقوامة وهي قيامه بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون.

وما دام الله متفرداً بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهذه الحقيقة هو الإقرار بالعبودية لله وحده وتحكيمه في شأن العبيد كله، واستسلام العبيد لإلههم، وطاعتهم للقيوم

---

(١) المصدر السابق ٨٩٨/٢ ، وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٢ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣١٩.

عليهم، وإتباعهم لكتابه ولرسوله ﷺ ويُضِّمن هذه الحقيقة قوله تعالى { إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ } [سورة آل عمران ١٩] . فهو لا يقبل ديناً سواه من أحد، والإسلام الذي هو الاستسلام والطاعة والإتباع ليس مجرد تصور في العقل، ولا تصديق في القلب، إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور، هو تحكيم منهج الله في أمر العباد كله، وطاعتهم لما يحكم به، وإتباعهم لرسوله ﷺ في منهجه. " (١).

٤ ويقول " إن ردَّ الربوبية كلها لله سبحانه– معناه رد الحاكمية كلها له، فالحا كمية هي مظهر ربوبية الله للناس، وهي تتجلى في العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده، فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده، وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية، أو بتعبير أخر لهذه الحاكمية، وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره لا يحكمهم بشرعة.. " (٢)

٥ ويقول " وشهادة " أن لا إله إلا الله " ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر، كما أن له الحاكمية

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٦/١–٣٧٧ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ١٣٣٠/٣ .

العليا في نظام الكون سواء، فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته، وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً في خلق الكون وتدبيره وتصريفه، ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلاّ لله وحده، ولا يتلقى الشرائع والقوانين، والقيم والموازين، والعقائد والتصورات إلا من الله، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله " (١).

" ويحفل المنهج القرآن بالواقعيات العملية، وبالجزيئات التطبيقية في الحياة البشرية، وانطباقها على شريعة الله، وعلى تقرير الأصل الذي يجب أن تستند إليه، وهو حاكمية الله.. أو بتعبير أخر ربوبية الله، فلماذا يحفل المنهج القرآني هكذا بهذه القضية؟ يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية " العقيدة " في الإسلام، كما تلخص قضية " الدين " فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة " أن لا إله إلا الله "، وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله، ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله، والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢٥٥-١٢٥٦ .

كالتشريع للكبيرة، فهو من ثَمَّ مزاولة لحق الألوهية يأباه المسلم إلا لله، والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي كما هو الأمر في العقيدة القلبية لألوهية واحدة هي ألوهية الله، ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين، والتشريع هو مزاولة للألوهية، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية، ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده، ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين!

من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله بتقرير هذه الأصول ألاعتقاديه ومنها الحاكمية " [١].

ومنهج القران الكريم يقرر " أنه لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج وتحت تصرفه وتوجيهه، وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر.. مستمدةً من غيره، وإلا فلا إيمان ولا إسلام، لأن ذلك يعارض شهادة "لا إله إلا الله " التي ينشأ منها "أن لا حاكم إلا الله، وان لا مشرع إلا الله " [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢١١-١٢١٢ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٢/٧٠٥ بتصرف .

" والسياق القرآني يستند في تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو " الإسلام " وأن ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو " الدين " إلى أن الله هو " الإله الواحد " لا شريك له في ألوهيته، والى أن الله هو " الخالق الواحد " لا شريك له في خلقة، وإلى أن الله هو " المالك الواحد " لا شريك له في ملكه، ومن ثم يبدو حتمياً ومنطقياً إلا يقضي بشيء إلا بشرعه وإذنه، فالخالق لكل شيء المالك لكل شيء هو صاحب الحق وصاحب السلطان في تقدير المنهج الذي يرتضيه لملكه وخلقة، وهو الذي يشرع فيما يملك، وهو الذي يطاع شرعه، وينفذ حكمه، إلا فهو الخروج والمعصية والكفر.

إنه هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب، كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواءً بسواء، والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التي يقررها، ويتبعون النظام الذي يرضيه، هذه كتلك سواءً بسواء، وهم يعبدونه بإقامة الشعائر ويعبدونه بإتباع الشرائع بلا تفرقه بين الشعيرة والشريعة فكلتاهما من عند الله الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه، بما أنه هو الإله

الواحد، المالك الواحد... ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبي، لأنه هو دين الله لا دين سواه " (١).

" وهكذا تتبين القضية إله واحد، وخالق واحد، ومالك واحد، وحاكم واحد، ومشرع واحد ومتصرف واحد، وإذن فشريعة واحدة، ومنهج واحد، وقانون واحد، وإذن فطاعة وإتباع وحكم بما أنزل الله فهو إيمان وإسلام، أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله فهو كفر وظلم وفسوق وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه، وكما جاءت به كل الرسل من عند هـ..، ولم يكن بد أن يكون " دين الله " هو الحكم بما أنزل الله دون سواه، فهذا هو مظهر سلطان الله، مظهر حاكمية الله، مظهر" أن لا إله إلا الله "، وهذه الحتمية حتمية التلازم بين " دين الله " و" الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع، فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية، وليس الأول ولا الرئيسي، إنما السبب الأول والرئيسي والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله، ونفي

---

(١) في ظلال القرآن ٨٢٦/٢ وينظر : ٦٩٦/٢ ، ٧٧١ ، ٨٢٨ ، ٩٧٢ ، ١١٧٩ ، ١١٩٣ ، ١٢٢٩ ، ١٣٠٧ .

لهذه الألوهية وخصائصها عمن سواه، وهذا هو " الإسلام " بمعناه اللغوي " الاستسلام "، وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان.

الإسلام لله، والتجرد عن ادعاء الألوهية معه، وادعاء اخص خصائص الألوهية وهي السلطان والحاكمية، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون...

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ –ٱلظَّـٰلِمُونَ –ٱلْفَـٰسِقُونَ } (١).

فالذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله بعملهم وواقعهم، وان لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم، فلغة العمل أقوى من لغة الفم " (٢).

"إن قبول شريعة الله والرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بألوهيته وربوبيته وقوامته، ورفضها والتولي عنها، هو مظهر رفض هذا الإقرار " (٣).

و" إن المقتضى البديهي للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل،

---

(١) الآيات ٤٤ و٤٥ و٤٧ من سورة المائدة . .

(٢) في ظلال القرآن ٢/٨٢٨-٨٢٩ بتصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن ٢/٨٩٥ .

وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية ويكشف عن النفاق وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان!

وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله سبحانه أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدوداً! " (١).

" فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله، أوعدم الرضى بحكم هذه الشريعة، والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم " مؤمنون " ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم، أولا يرضون حكمها إذا طبق عليهم، إنما يدعون دعوى كاذبة ويصطدمون بهذا النص القاطع " وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ "(٢).

" فالله سبحانه يقسم بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ في أمره كله. ثم يمضي راضياً بحكمه

---

(١) المصدر السابق ٦٩٤/٢ وينظر: ٦٨٧/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٨٩٥/٢ وينظر : ٨٩٨/٢-٩٠١ ، ٩٧٠ ، ١١٨٤.

مسلماً بقضائه، ليس في صدره حرج منه، ولا في نفسه تلجلج في قبوله { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [سورة النساء ٦٥] " فهذا شرط الإيمان وحدّ الإسلام، يقرره الله سبحانه بنفسه ويقسم عليه بذاته فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويل لمؤول، اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام، وتحكيم رسول الله ﷺ هو تحكيم شريعته ومنهجه... فالتحاكم إلى شريعة الله وحكم رسوله والرضى والقبول والتسليم هو الإسلام والإيمان. فلتنظر نفسه أين هي، قبل ادعاء الإسلام والإيمان.. " (١)، ذلك أن " من لم يحكم يما أنزل الله كافر، ومن لم يرضى حكم الله لم يدخل في الإيمان، لأن حكم الله هو دينه، وهو منهجه الذي ارتضاه للحياة، وهو " الإسلام " الذي لا يقبل الله من الناس دينا سواه.. " (٢).

رابعاً وقفات مع الانتقادات الموجهة لسيد قطب حول قضية الحاكمية

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٩٦-٦٩٧ بتصرف ، وينظر ٢/٦٨٧.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٤.

وجهت إلى سيد كثير من الانتقادات حول مسالة الحاكمية سواء من العلمانيين أو من بعض الإسلاميين ويمكن استعراض هذه الانتقادات وبيانها فيما يأتي

١ **أن مصطلح الحاكمية مصطلح مخترع لم يرد في الشرع**

يردد البعض أن " الحاكمية " مصطلح حادث لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، فضلا عن إضافة هذا اللفظ إلى المولى–عزَّ وجلَّ وأن أول من نادى بها واخترعها هو المودودي وتابعه سيد قطب " (١).

والواقع أنه من خلال استعراضنا فيما سبق لمعنى الحاكمية في اللغة والشرع واصطلاح أهل الفنون، ومن بيان حقيقة الحاكمية التي نادى بها المودودي وسيد قطب، ظهر لنا أنهم يقصدون الحاكمية التشريعية بان يكون الله وحده هو المشرع لخلقه الذي يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم، وهذا المعنى ليس من ابتكار المودودي ولا سيد قطب، بل أمر مقرر عند المسلمين جميعاً ومعلوم من الدين بالضرورة (٢)،

---

(١) ينظر في ذلك : دعاة لا قضاة، للهضيبي ، ص ٩١ وما بعدها .

(٢) ينظر : بداية هذا المطلب ،النقاط :أولا وثانيا وثالثا .

ولهذا حين قال الخوارج لعلي– رضي الله عنه " لا حكم إلا لله" لم يعترض – رضي الله عنه – على المبدأ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود وراء الكلمة فقال" كلمة حق أريد بها باطل ".

والباحث في كتب الأصول والتفسير وغيرها يجد علماء الإسلام يتحدثون عن الحكم الشرعي والحاكم والمحكوم عليه، ويقررون في بحثهم " أن لا حكم إلا لله، وأنه لا حكم للرسول ولا للسيد على العبد ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله – تعالى – ووضعه لا حكم لغيره.. وان استحقاق نفوذ الحكم ليس إلا لمن له الخلق والأمر، أما غيره سبحانه– فإنما تجب طاعته بإيجاب الله " (١).

وقد مر معنا أن الحاكمية التي نادى بها سيد هي ما تدل عليه النصوص الشرعية وكلام أهل السنة من وجوب إفراد الله بالحكم القدري والشرعي والطاعة المطلقة لله ولرسوله، وبالتالي لا مشاحّة في الاصطلاح مادام مضمون هذا المصطلح موافق لما جاء به الشرع وما عليه أهل العلم في هذا الباب.

---

(١) المستصفى من علم الأصول، للإمام أبي حامد الغزالي ص ٢٨٥ وما بعدها بتصرف .

والقول بان فكرة " الحاكمية " من اختراع المودودي وسيد قول جانبه الصواب كما سبق.

٢ أن سيد في مناداته بالحاكمية متابع للخوارج

فالخوارج أول من رفع شعار " لا حكم إلا لله " [١]، ومن خلال النظر في معنى هذه الكلمة " لا حكم إلا لله " عند الخوارج ثم عند سيد قطب، يتبين لنا مدى الاختلاف الجذري بينهما ؛ فالخوارج رفعوا شعار " لا حكم إلا لله " عند واقعة التحكيم بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما – وكان أهل الشام عندما رأوا أنهم سيهزمون قد رفعوا المصاحف على الرماح، فأشار الخوارج على علي رضي الله عنه بقبول التحكيم وضغطوا عليه حتى قبل، ثم لما تم التحكيم أعلنوا شعار " لا حكم إلا لله " وطلبوا التراجع عن التحكيم والقتال، فلما أبى جعلوا من ذلك سبباً لتكفيره هو ومعاوية والحكمين رضي الله عنهم ومن معهم جميعاً [٢]، وكان مقصدهم من رفع هذا الشعار، نفي أن يكون للناس أمير [٣].

(١) انظر : الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية لهشام احمد عوض ص ٧٧ .

(٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٣٠٤/٧ وفتح الباري ٣١٠/١٥ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٦–٤٨ .

(٣) الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية لهشام عوض ص ٧٧ .

أما سيد – رحمه الله – فعندما نادى " بالحاكمية " ورفع شعار " لا حكم إلا لله " كان مقصده من ذلك إفراد الله سبحانه بالحكم القدري المتمثل بالخلق والإيجاد والتدبير، وبالحكم الشرعي المتمثل بإفراده سبحانه – بحق الأمر والنهي والتحليل والتحريم والتشريع للبشر والانقياد لحكم الله وشرعه والتحاكم إليه في كل شؤون الحياة والرد إليه عند التنازع مع الرضى والتسليم، وهذا يقتضي أن يكون للناس أمراء وحكاماً، لكن مهمتهم ليست التشريع والتحليل والتحريم، إنما سلطانهم مستمد من طاعتهم الله وتنفيذهم لشرع الله " [1].

وبهذا ندرك الفرق بين شعار الخوارج " لا حكم إلا لله " وبين الشعار الذي رفعه سيد – رحمه الله– "لا حكم إلا لله ".

٣ **أن فكرة الحاكمية عند سيد قطب هي نفس فكرة الدولة الثيوقراطية** [2]

زعم بعض خصوم الحكم الإسلامي من العلمانيين أن مفهوم الحاكمية عند سيد – رحمه الله – يعني الدعوة إلى شريعة

---

(١) ينظر : معالم في الطريق ص ٢٦ ،٣٠، ٥٢ ، ٦٧ .

(٢) الثيوقراطية : مصطلح يوناني مكون من كلمتين هما " ثيو " ومعناه: إلهي و " كرا تيس " ومعناه : حكم ، وهي تعني :" الحكم الديني والإلهي " أو " الحكم المقدس " .

كونيـــة، وهـــي تماثـــل الحكومـــة الدينيـــة فـــي أوربـــا المعروفـــة بالثيوقراطيـة، والتـي تعنـي الحكـم القـائم علـى أسـاس التفـويض الإلهي، فالحاكم لا يختاره الناس بل يختاره الله ويحكم باسم الله ".

والرد على هذا الادعاء يتلخص في الآتي

أ أن " الحاكمية " التي قال بها سيد وجعلها لله وحده، لا تعنـي أن الله تعالى هو الذي يولي العلماء والأمراء يحكمـون باسـمه، بـل المقصـود بهـا الحاكميـة التشـريعية التـي تفـرد الله بالأمر والنهي والتشريع وتستمد طاعتها من قيامها بشريعة الله، أمـا تعيـين الأمـراء والـولاة فهـو حـق للأمـة المسـلمة فـي ظـل الضوابط الشرعية، فالأمة هي التي تختـار حكامها وهـي التـي تحاسـبهم أو تعـزلهم، وبهـذا يظهـر الفـرق الكبيـر بـين المفهـوم الثيوقراطي للحكم وبين " الحاكمية " التي نادى بها سيد قطب.

ب أن سيد نفسه يحارب فكرة الحكم الثيوقراطي في كتابة " معالم في الطريق " حيث قرر أن " الحاكمية " حق لله وحده باعتبـاره الـذي يخلـق ويـرزق، وأن ديـن الله مـنهج حيـاة محـدد بشهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله "، وهو الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه.

وبالتالي ليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله، إلا أن تكون " الحاكمية " العليا لله معلنة، وان يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه–، لا " الشعب " ولا " الحزب " ولا أي من البشر، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لمعرفة ما يريده الله.

ولا يكون هذه لكل من يريد أن يدعي سلطانا باسم الله، كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم المقدس " فليس شيء من هذا في الإسلام، وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ﷺ، وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله " (١).

ويقول أيضاً " ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجالٌ بأعيانهم – هم رجال الدين – كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يعرف باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم الإلهي المقدس "!!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي

---

(١)معالم في الطريق ص ١٠٤–١٠٥ بتصرف يسير .

الحاكمة.. وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة " (١).

وبهذا يظهر لنا أن " الحاكمية " التي دعا إليها سيد رحمه الله لا تعني "الحكم الثيوقراطي " كما زعم العلمانيون، لأن الحكم الثيوقراطي المقدس الذي ساد أوربا خلال فترة سيطرة الكنيسة، يقوم على أن البابا وهو يحكم في أمور الدنيا ينطق باسم الله، فما يحله البابا في الأرض يحله الله في السماء وما يحرمه الباباوات في الأرض يحرمه الله في السماء، فالحكم الثيوقراطي قائم على أساس التفويض الإلهي، فالحاكم لا يختاره الناس بل يختاره الله، وبالتالي يحكم باسم الله، وما يقوله أو يصدر عنه إنما يصدر عن الله الذي فوضه، ولذلك كان الحاكم الديني في أوربا يملك صكوك الغفران والحرمان بتفويض من الله.

بينما الحاكمية التي دعا إليها سيد قطب– رحمه الله – تعنى حاكمية الشريعة، فالحكم في الإسلام محدد فيما بلغه الرسول ﷺ عن ربه من قرآن وسنة، وأنه لا اجتهاد مع النص،

(١) المصدر السابق ص ٦٨ .

وأنه يرجع فيما لا نص فيه إلى الأصول المقررة والقواعد العامة ليستنبط منها الحكم.

كما أن الحاكم في الإسلام لا يختاره الله، بل يختاره الناس طبقا لشروط القران الكريم والسنة، وبالتالي ليس مفوضاً من الله أن يحكم باسمه ويحلل ويحرم ويشرع من عنده، بل يستمد سلطانه وطاعته من طاعته هو لله وتنفيذ لأوامر الله وأحكامه (١).

والفرق جلي وواضح بين مفهوم الحاكمية التي دعا إليها سيد – ر حمه الله – وبين مفهوم الحكم الثيوقراطي.

---

(١) معالم في الطريق ص ١٠٥ ، وأضواء على معالم في الطريق، للمستشار سالم البهنساوي ص ١٦٣-١٦٤ .

الفصل الرابع

منهجه في نواقض التوحيد والإيمان

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمـهيـد: تعريف النواقض وأقسامها.

المبحث الأول: الشـــرك.

المبحث الثاني: الكفـــر.

المبحث الثالث: النفـــاق.

التمهيد

تعريف النواقض وأقسامها

أولاً: معنى النواقض في اللغة:

النواقض لغة: جمع ناقض، والناقض: اسم فاعل من النقض، ويطلق على: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، فهو بمعنى نكث الشيء، وانتثار العقد، وحل وإبطال المبرم، وهدم وإزالة الشيء [١]

ثانياً: معنى النواقض في الاصطلاح:

من خلال ما سبق عرضه من معاني النقض في اللغة نستطيع أن نقول أن النواقض هي:

" الأمور التي تزيل الشيء وتقطعه وترفع حكمه وتبطله ".

ونواقض الإيمان هي: " اعتقادات أو أقوال أو أفعال تزيل الإيمان وتقطعه " [٢].

بناء على أن الإيمان حقيقة مركبة من اعتقاد وقول وعمل.

ويطلق على نواقض الإيمان عدة أسماء منها:

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٤٧٠- ٤٧١ ، ولسان العرب لابن منظور ٢٤٢/٧ وتاج العروس للزبيدي ٩٣/٥ والمصباح المنير للفيومي ص ٧٦٢

(٢) انظر نواقض الإيمان القولية والعملية ،د.عبد العزيز العبد اللطيف- دار الوطن – الرياض ط ٣عام ١٤٢٧هـ ص ٤٩ .

١. نواقض الإيمان.
٢. نواقض الإسلام.
٣. نواقض التوحيد.
٤. الردة.
٥. المكفرات.

فهذه الأسماء تطلق على الأمور التي تنقض أصل الإيمان والتوحيد ويرتد بها صاحبها إلى الكفر والشرك، ويخرج بها من الملة.

أما المعاصي التي لا تنقض أصل الإيمان وإنما تنقصه فلا تسمى نواقض وإنما تسمى"نواقص".

ثالثاً: أقسام النواقض:

اختلفت عبارات العلماء في تقسيم النواقض في الظاهر، ولكنها ترجع في حقيقة الأمر إلى حقيقة واحدة متفق عليها عند الجميع، وهي كل ما يناقض أصل الإيمان والتوحيد ويبطله.

وأشهر التقسيمات هي:

١- يقسمها البعض إلى: نواقض اعتقادية ونواقض قولية ونواقض عملية.

٢- ويقسمها آخرون إلى: الشرك – الكفر – النفاق.

٣- ويطلق عليها بعضهم اسماً واحداً هو: الردة.

وعند التحقيق في حقيقة الأقوال السابقة نجد أنها ترجع إلى شيء واحد هو: ما يخرج صاحبه من الإسلام سواء كان اعتقاداً أو قولاً أو عملاً، شركاً كان أو كفراً أو نفاقاً، فالخلاف بينها لفظي فقط.

وبناءً على ما سبق سوف نعرض لمنهج سيد – رحمه الله – في باب نواقض التوحيد والإيمان معتمدين التقسيم الثاني للنواقض وهو: الشرك، والكفر، والنفاق.

وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول

الشـــــرك

المطلب الأول

تعريف الشرك وبيان حقيقته

أولا: معنى الشرك في اللغة: يطلق الشرك في اللغة على عدة معانٍ منها:

الاقتران وعدم الإنفراد، والاشتراك في الشيء بين اثنين وصاعداً، وتسوية الشيء بغيره، والحصة والنصيب، والكفر وغيرها. (١)

ثانيا: معنى الشرك في الاصطلاح: تنوعت عبارات العلماء في تعريفهم للشرك إلى أكثر من عشرين تعريفاً ، بعضها متقارب وبعضها متداخل وبعضها يكمل بعضاً، ومن خلال استقرائها يمكن أن نعرف الشرك بأنه:

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٢٦٥ ، لسان العرب لابن منظور ٧/٩٩ ، والمفردات للراغب، ص ٢٥٩ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة، ص ٣١-٣٥ .

" أن يجعل لله – تعالى– نداً أو شريكاً في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، بحيث يصرف ما هو من خصوصياته – سبحانه– لغيره على وجه الاشتراك أو التفرد " (١)

إذا: فحقيقة الشرك تتمثل في تشبيه المخلوق بالخالق – تعالى وتقدس – في خصائصه، أو العكس، أو إثبات شيء من خصائص الله – تعالى– لغيره، أو التقرب إلى غيره – سبحانه – بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه.

ولا يشترط في كون ذلك شركاً المساواة المطلقة بين الله وبين غيره، بل المقصود مطلق الشراكة سواء كان الله – تعالى– مماثلاً فيها لغيره، أو زائداً عليه، فالكل يتحقق به معنى الشرك على السواء (٢).

المطلب الثاني

منهج سيد قطب في بيان الشرك وأنواعه

يمكن بيان منهج سيد – رحمه الله– فيما يتعلق بمسألة الشرك بالله فيما يأتي:

---

(١) الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق ، نفسه .

الفرع الأول: معنى الشرك وحقيقته:

يرى سيد – رحمه الله– أن حقيقة الشرك ومعناه يتمثل في اتخاذ آلهة مع الله – سبحانه – أو تقديم الشعائر لغير الله، أو صرف شيءٍ من خصائص الألوهية لغيره – سبحانه– وعدم إفراده بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والحاكمية والتشريع والشعائر والشرائع، ومن أقوال – سيد – في بيان حقيقة الشرك ما يلي:

١– يقول– رحمه الله–: " يقوم الشرك ابتداءً على إعطاء غير الله – سبحانه– شيئاً ما من خصائص الألوهية ومظاهرها، وفي مقدمتها حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها، وحق وضع القيم التي يتحاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم، وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم، ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه وواحدة منها ". (١)

٢– ويقول أيضاً: " والشرك بالله... يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية، والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص،

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٩٢ .

كإشراك اليهود والنصارى الذي حكاه القرآن من أنهم: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [سورة التوبة:٣١] ' ولم يكونوا عبدوهم مع الله، ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله، فحرموا عليهم وأحلوا لهم، فاتبعوهم في هذا... فحق عليهم وصف الشرك "(١)." إن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته، ولا تقديم الشعائر التعبدية له.. " (٢)

٣- ويقول: " فاتخاذ غير الله ولياً - بأي معنى - هو الشرك، قضية واحدة محددة، لا تقبل ليناً ولا تميعاً، إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة، والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمرٍ من هذه الأمور، ورفض إشراك غيره معه فيها، وولاء القلب والعمل، في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك، إما هذا كله فهو الإسلام، وإما إشراك أحدٍ من عباده معه في شيءٍ من هذا كله فهو الشرك، الذي لا يجتمع في قلبٍ واحد مع الإسلام. " (٣)

---

(١) في ظلال القرآن ٧٥٩/٢-٧٦٠ ، وينظر أيضا ٦٧٨/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٦٤٢/٣ .

(٣) في ظلال القرآن ١٠٥٤/٢ .

٤- ويقول أيضاً: " ولا نزال في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الألوهية، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه مهما تسمَّوا بأسماء المسلمين!، فلنكن من أمر ديننا على يقين " (١).

٥- ويقول أيضاً: " إن الشرك بالله المخالف لشهادة "أن لا إله إلا الله " يتمثل في كل وضعٍ وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته، إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند

---

(١) في ظلال القرآن ١١٢٩/٢ ، وينظر أيضا ١٩٤٤/٤.

غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره، إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" في أخص حقيقتها، وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان " (١)

(١) المصدر السابق ٤/٢١١٤-٢١١٥ .

الفرع الثاني: نشأة الشرك وأسبابه:

أولاً: نشأة الشرك في البشرية: إن المتتبع لتاريخ العقيدة كما يذكره القرآن الكريم والسنة الصحيحة يجد أن الأصل في بني آدم فطرة وتاريخاً هو التوحيد، وأن الشرك إنما هو انحراف وشذوذ عن الأصل، أما كونه الأصل فطرة: فقد دلت الأدلة على أن الله – سبحانه وتعالى – خلق الإنسان مفطوراً على التوحيد قال سبحانه وتعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ } [سورة الروم:٣٠] ، وقوله –وتعالى–: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ } [سورة الأعراف:١٧٢] .

ويقول ﷺ: " كل مولود يولد على الفطرة.... الحديث " (١).

وفي الحديث القدسي " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم.... الحديث " (٢)

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ،باب إذا أسلم الصبي فمات ، ٤٥٦/١ برقم ١٢٩٢ ومسلم، في كتاب القدر، ١٦٢٤/٤ برقم ٢٦٥٨ .

(٢) رواه مسلم ، في كتاب الجنة ، ١٧٤١/٤، برقم ٢٨٦٥ .

وأما كون التوحيد هو الأصل تاريخياً فيتضح ذلك من خلال النصوص الشرعية التي تثبت أن الناس في تاريخهم الطويل من آدم إلى نوح –عليهما السلام – كانوا على التوحيد الخالص، حتى حدث ما حدث في قوم نوح. قال تعالى: { كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً } [سورة البقرة:٢١٣] أي: على التوحيد والدين الحق (١) فاختلفوا { فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ }. فآدم –عليه السلام– كان أول الموحدين باعتباره نبيناً مكلماً كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ (٢).

وبهذا يظهر خطأ القول بتطور العقيدة وعدم صحة نسبة الشرك إلى آدم وحواء عليهما السلام (٣).

أما سيد – رحمه الله – فيقرر أن التوحيد هو الأصل في البشرية فطرة، وأن الشرك انحراف طارئ عن الفطرة وشذوذ عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٩/٢

(٢) رواه أحمد ، ٢٦٥/٥ ، وابن حبان في صحيحة ، انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، للفارسي ، مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ١– ١٩٩١م ، ٦٩/١٤ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢٦٢/٢ ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، انظر مشكاة المصابيح للتبريزي – تحقيق الشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ،ط ٣ ،١٤٠٥ ، ١٥٩٩/٣.

(٣) انظر تفاصيل أوفى لما سبق في : الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ص ٤٦–٥٩ .

الأصل، ففي ظلال قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } [سورة الأعراف:٢١٣] ، يقول: " تعرض هنا قضية التوحيد من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم وهم في عالم الذر، إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق –حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل– ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، ولا إلى عقولهم فقد تضل وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"(١).

وبعد أن استعرض سيد –رحمه الله– أقوال العلماء في معنى الميثاق المأخوذ على بني آدم نقل مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي أوردها الإمام إبن كثير في تقرير أن

(١) في ظلال القرآن ١٣٩١/٣ بتصرف يسير .

التوحيد هو الأصل في فطرة بني آدم، وأن الشرك انحراف عن الفطرة [١].

أما كون التوحيد هو الأصل في تاريخ البشرية فيقول سيد – رحمه الله–: " إن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يد آدم –عليه السلام –أبي البشر الأول، ثم على يد نوح – عليه السلام– أبي البشر الثاني، ثم بعد ذلك على يدي كل رسول.. وأن الجاهلية.. كانت تطرأ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل– عليهم الصلاة والسلام. "[٢]، " فالإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض، فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض، إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية، فتأتيهم الدعوة فتردهم إلى الإسلام، وهكذا إلى يومنا هذا " [٣] " وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه، وما من شكٍ أنه علَّم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى! فإذا نحن

---

(١) المصدر السابق ١٣٩٢/٣– ١٣٩٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٤٣/٤–١٩٤٤ .

(٣) المصدر السابق ١٩٠٣/٤ وينظر أيضا ٣٨٤/١ .

رأينا قوم نوح وهم من ذرية آدم بعد أجيال قد صاروا إلى هذه الجاهلية فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً وأنها انحرفت عن الإسلام إليها " [١].

ولسيد نصوص كثيرة في تقرير هذه الحقيقة نخلص منها إلى الآتي:

١- أن سيد - رحمه الله- يقرر ما قررته النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنة من أن التوحيد هو الأصل في بني آدم فطرةً وتاريخاً، وأن الشرك انحراف وشذوذ عن ذلك الأصل.

٢- أنه يرفض ما قرره علماء الأديان من الغربيين من القول بتطور العقيدة وقد سبق معنا بيان موقفة من هذه القضية بالتفصيل في الباب الثاني [٢].

٣- أنه يرفض ما جاء في بعض الآثار من نسبة الشرك إلى آدم وحواء [١]، وذلك في تفسير قوله تعالى: { هُوَ ٱلَّذِى

---

(١) المصدر السابق ١٨٨٢/٤ ، وينظر ٣٧١٠/٦ .

(٢) ينظر: المبحث الرابع – الفصل الأول – الباب الثاني ، و أيضا : في ظلال القرآن ١٨٨٢/٤-١٨٨٥ ، ١٩٦٣ .

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [سورة الأعراف:١٨٩-١٩٠] ' حيث يقول: " إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء، إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين، فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها « عبد الحارث »، والحارث اسم لإبليس، ليولد صحيحاً ويعيش، ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهرٌ ما في هذه الرواية من طابعٍ إسرائيلي، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - المحرف - هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء، وهو مخالف تماماً للتصور الإسلامي الصحيح.

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني، فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية، ولقد كان المشركون على عهد رسول الله - ﷺ - وقبله، ينذرون

---

(١) انظر في ذلك : تفسير الطبري ١٤١/٦ - ١٤٢ ، وتفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، دار طيبة - الرياض ط٣ ١٩٩٥م . ٣١٣/٣ ، وتفسير ابن كثير ١٥٢٨/٤ .

بعض أبنائهم للآلهة، أو لخدمة معابد الآلهة! تقرباً وزلفى إلى الله!، ومع توجههم في أول الأمر إلى الله فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيباً في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس، أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك، مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد، ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة، والناس هم الناس {فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ } (١)

" فالحديث في الآية عن قصة الانحراف في النفس – متمثلاً في قصة الزوجين – هو حديث كل شرك! والمقصود به هو تنبيه المشركين إلى سخف ما هم عليه، ولذلك ينتقل السياق من أسلوب القصة والحكاية إلى مواجهة المشركين بالخطاب المباشر كأنه امتداد للحديث السابق (٢)

---

(١) في ظلال القرآن ١٤١٢/٣ – ١٤١٣.

(٢) المصدر السابق ١٤١٥/٣بتصرف يسير .

وهذا ما قرره كثير من المحققين وأهل العلم، وهو ما يتفق مع النصوص الشرعية. (١)

ثانياً: أسباب الشرك ودوافعه:

إذا كان التوحيد هو الأصل في البشرية فطرة وتاريخاً، والشرك انحراف وشذوذ عن هذا الأصل، فما هي الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذا الانحراف عن خط التوحيد والوقوع في الشرك؟

أشار سيد – رحمه الله– إلى بعض أسباب ودوافع الشرك منها:

١- **الشيطان ومكائده:**

أشار سيد – رحمه الله– إلى أن آدم – عليه السلام –هبط إلى الأرض مسلماً لله متبعاً لهداه، وأنه علم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل، وأن الجاهلية التي حدثت في قوم نوح طارئة على البشرية، وأن البشرية انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية، التي ينفذ منها الشيطان، كلما تراخوا عن الاستمساك

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٧٢/١٥ الكشاف للزمخشري ١٠٩/٢وتفسير ابن كثير ١٥٢٨/٤وروضة المحبين لابن القيم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط١٤١٤،١هـ، ص ٢٩٦، والشرك أنواعه وأحكامه للباحث ص ٥١– ٥٩ .

بهدى الله وإتباعه وحده، فإذا انحرف الإنسان عن هدي الله اجتاله الشيطان حتى يقذف به –بعد أشواط – إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم – النبي المسلم – بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله. (١) " فالشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين المزدوج للإنسان، فيجتالهم عن الإسلام إلى الجاهلية "(٢)

" والشيطان وراء العدول عن شرع الله ودينه، إلى شرع الشركاء ودينهم، وهو العدو المبين الذي يقود خطى المشركين إلى الخسران والتدمير. (٣)

وفي ظلال قوله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) في ظلال القرآن ١٨٨٢/٤ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١٩٤٥/٤ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ١١٨٤/٣ .

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا } [سورة النساء:١١٦ -١١٩] ، بين سيد – رحمه الله– تلاعب الشيطان بالمشركين فيقول: " لقد كان العرب – في جاهليتهم – يزعمون أن الملائكة بنات الله، ثم يتخذون لها تماثيل يسمونها أسماء الإناث: " اللات والعزى ومناه " يعبدونها بوصفها تماثيل لبنات الله في أول الأمر، ثم ينسون أصل الأسطورة ويعبدون الأصنام ذاتها، بل يعبدون جنس الحجر.. وبعضهم كان يعبد الشيطان نصاً، فقد كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن.

ويوضح سيد – رحمه الله– أن النص هنا أوسع مدلولاً، فالمشركون في شركهم كله إنما يدعون الشيطان، ويستمدون منه، هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم، الذي لعنه الله بسبب معصيته وعدائه للبشر، والذي بلغ من حقده بعد طرده ولعنته أن يأخذ من الله – سبحانه – إذناً بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله...

فالمشركون يدعون الشيطان– عدوهم القديم– ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال، وشعور الإنسان بأن الشيطان – عدوه القديم– هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر

الوثنية يثير في النفس الحذر منه ومن استهوائه الذي يصرف الفطرة من التوحيد إلى الشرك " (١).

لذلك جاء التحذير الإلهي في القرآن الكريم من الشيطان ومكائده، حتى لا يوقع البشر في الشرك والضلال بعد أن هداهم الله إلى التوحيد.

٢- **اتخاذ الرمز " الميل إلى الإيمان بالمحسوس ":-**

بيَّن سيد – رحمه الله– أن حدوث أول شرك في البشرية في قوم نوح كان بإغواء الشيطان لهم من خلال اتخاذهم الأصنام في بادئ الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها غيبية أو مشهودة، ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام، وأشهرها تلك الخمسة التي ورد ذكرها في – سورة نوح – وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا " (٢)

وكذلك كان حال المشركين في الجاهلية أيضاً، من اتخاذ الأصنام رمزاً للملائكة حيناً، وللآباء والأجداد حينا آخر، فالازدواج في عقائد المشركين بين الأصنام الظاهرة، والرموز الباطنة هو – فيما نحسب – سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه

---

(١) في ظلال القرآن ١/٧٦٠– ٧٦١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧١ .

(٢)في ظلال القرآن ٦/٣٧١٠ .

الآلهة: مرة بضمير العاقل ملحوظاً فيها ما وراء الأصنام من الرمز، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها " (١)

٣- **التقليد:** وهو من الأسباب والعوامل التي أدت إلى انتشار المظاهر الشركية في تاريخ البشر واستمرارها أيضاً، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك منها قوله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ } [سورة الزخرف:٢٣] ، وقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ } [سورة البقرة:١٧٠] وغيرها

وقد أشار سيد – رحمه الله- في ظلال هذه الآيات وغيرها إلى أنها تندد بالتقليد في العقيدة وتلقي شيء من أمر العقيدة من غير الله، وتصور المشركين في تقليدهم لآبائهم في الشرك بالبهائم(٢)، وأن مقولتهم تلك تدعو إلى السخرية فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه

(١) المصدر السابق ١٤١١٥/٣ بتصرف يسير

(٢) في ظلال القرآن ١٥٥/١ بتصرف .

صورة القطيع يمضي حيث هو منساق ولا يسأل: إلى أين نمضي؟ ولا يعرف معالم الطريق.

٤- الغلو في الصالحين وتقديسهم:

فالمبالغة في الإعجاب قد يصل إلى الغلو والتقديس، ثم إلى الشرك ومن هذا اللون من الانحراف نشأت كثير من صور الشرك في البشرية، كشرك قوم نوح وشرك أهل الكتاب بسبب تعظيمهم لـ" عزير" و" للمسيح "، حتى غلوا فيهما ونسبوهما أبناء لله- تعالى وتقدس – وكذا تقديسهم لأحبارهم ورهبانهم حتى أطاعوهم فيما أحلوا وحرموا خلافا لأمر الله، وكشرك الجاهلين في تعظيمهم للملائكة والجن وتقديسهم على اعتبار أنهم أبناءٌ لله وبنات، وكشرك الوثنيين الذين قدسوا الكواكب والأجرام السماوية باعتبارها رموزاً لقوى غيبيه وكان تحريف مله إبراهيم –عليه السلام – في نهاية الأمر بسبب تعظيم العرب لعمر بن لحي الخزاعي وإعجابهم به وطاعته في ما أبتدعه لهم من مظاهر الشرك [١].

وقد أشار سيد إلى هذا السبب كثيراً ومن ذلك قوله: " ولعل أول خطوة في الانحراف عن التوحيد كانت هي تعظيم ذكرى

(١) ينظر: الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه . للباحث ص٧٦ وما بعدها .

الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح، ثم تطور هذا التعظيم جيلاً بعد جيل، فإذا أرواحهم مقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات، وإذا وراءها كهنه وسدنه يُعبِّدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة في صورة من صور الجاهلية الكثيرة، ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله، ولا يدين بالعبودية إلا لله وحده الانحراف خطوة واحدة لابد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله "[1].

٥-: الأوهام والظنون والحكايات والأساطير التي لا تستند إلى العقل:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يلاحظ أن الله -تعالى- يخبر في كثير منها أن من أسباب وجود الشرك في البشرية هو انحرافهم عن منهج التفكير السليم، واعتمادهم على الأوهام والظنون والأساطير، والتي تتحول إلى حقائق وعقائد عند المشركين وليس لها من الحقيقة نصيب.. [2] ومن أوهامهم في

(١) في ظلال القرآن ٤/٨٩٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/٧٦٠ ، ٣/١٨٠٤ ، ٥/٣٠٣٧ .

تبرير الشرك إحالتهم ما يفعلونه من الشرك على المشيئة الإلهية خبطاً، واعتماداً على الأوهام والظنون. (١)

٦- **الكبر والطغيان والخوف على المصالح والشهوات:**

من أسباب وجود الشرك واستمراره ووجود الطغاة الذين يتكبرون على الحق ويُعبِدون الناس لشهواتهم من خلال وضع التشريعات والنظم التي تخالف أمر الله، ويأمرون بالشرك فيطاعون خوفاً من البطش، كما قال سبحانه وتعالى: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ } [سورة سبأ:٣٣] ، فالكبر والخوف على المصالح حمل المشركين على الاستمرار بالشرك وعدم الدخول في الإسلام (٢)، والشهوات والأهواء والتظليل والخداع هو الذي يوقع البشر في الشرك. (٣)

٧- **انحسار مفهوم التوحيد والعبادة:**

" إن انحسار معنى الألوهية والعبادة، يؤدي بالناس إلى الشرك وهم يحسبون أنهم في دين الله، كما هو الحال اليوم في

---

(١) المصدر السابق ٣ /١١٨٤ ، ٣١٨٢/٥، ٣٢٥٥/٦ ،ومقومات التصور الإسلامي ص١٦٤ -١٦٥ . .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ١٤١٤/٤، ١٨١٤ ، ٢٩٧٦/٥ ، ٦/ ٣٧١٦- ٣٧١٧ .

(٣) المصدر السابق ١٤١٤ .

كل بلاد الأرض، بما فيها البلاد التي يتسمى أهلها بأسماء المسلمين، ويؤدون الشعائر لله، بينما أربابهم غير الله لأن ربهم هو الذي يحكمهم بسلطانه وشريعته وهو الذي يدينون له ويخضعون لأمره ونهيه، ويتبعون ما يشرعه لهم. (١) " ولما بهت مدلول "الدين" ومدلول "العبادة " في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عباده غيرا لله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، كتقديمها للأصنام والأوثان، ومتى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح "مسلما" لا يجوز تكفيره... وهذا وهم باطل، وانحسار وانكماش، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ (العبادة). (٢)

الفرع الثالث: أقسام الشرك وصوره بين القديم والحديث:

" القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة.. تقوم قبل كل شيء على أنه يجب أن يعترف الناس ابتداء بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم فلا يشركون معه أحدا في ألوهيته وربوبيته، ويعترفون له وحده بأنه

---

(١) المصدر السابق ٣/١٧٦٣- ١٧٦٤.

(٢) المصدر السابق ٣/١٩٠٢- ١٩٠٣ بتصرف يسير،وينظر أيضا ٣/١٩٤٥ ، ٥/٢٩٧٦، ٣٠٢٧.

المتصرف في شؤون الكون في عالم الأسباب والأقدار، والمتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين، والمتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد [١].

وهذا الاعتراف يقوم على مدلول الإسلام الأساسي وهو يشمل ثلاثة أمور: - الاعتقاد بألوهية الله وحده، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده، والدينونة والإتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده، فبدونها لا يكون إسلاماً، وتخلف أحدها كتخلفها جميعا يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ويصفهم بالكفر أو الشرك قطعا [٢].

وهذا الأمر أصل من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة، [٣] ومن هذا المنطلق كان حديث سيد- رحمه الله- عن صور الشرك وأقسامه في القديم والحديث في أكثر من موضع ومناسبة، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي: - **أولاً: أقسام**

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٢٩/٣بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١٩٤٦/٤ بتصرف يسير .

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص١٥١.

الشرك وصوره: تحدث سيد – رحمه الله– عن أقسام الشرك وصوره من عدة نواحي:

أ– من حيث ظهوره وخفائه: حيث يقسم الشرك من هذه الناحية إلى شرك ظاهر وخفي. فالشرك الظاهر: هو اتخاذ آلهة غير الله سبحانه وتعالى بتقرب إليها بذاتها أو جعلها وسائط تقرب إلى الله كما كان الحال في شرك الجاهلية وكذا الدنيوية لغير الله والتلقي من غير الله سبحانه وتعالى أما الشرك الخفي: فهو ما يلحظ فيه غير الله، وقد لا يتنبه إليه كثير من الناس وفي بيان هاتين الصورتين من صور الشرك يقول– سيد –: ".. بعضهم يشرك الشرك الظاهر الغليظ الساذج، كشرك الجاهلية الأولى، وبعضهم يشرك الشرك الخفي المستتر المعقد، فيثقل في حسه سلطان العبيد على سلطان الله، ويخشى الناس على حياته ورزقه ومكانته ومصالحه، والله أحق أن يخشاه "[1]

ويقول: " والقرآن يندد بما كان عليه الجاهليون الذين يتخذون الأصنام آلهة، إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة، وبعضهم يتخذ الأشجار، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان... ويصفهم بالضلال، ومع ذلك فالشرك

---

[1] الإسلامي التصور مقومات ص٣١١.

ليس مقصوراً على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان، أو ذوي جاه، أو ذوي مال ويرجون فيهم ويتوجهون إليهم بالدعاء، وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ودعاؤهم شرك، والرجاء فيهم شرك، والخوف منهم شرك، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون "(١)

وفي ظلال قوله تعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ } [سورة يوسف:١٠٦]

يقول: "مشركون قيمة من قيم الأرض في تقديرهم للأحداث والأشياء والأشخاص

– مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء.

– مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه.

– مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق. – مشركون تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس. – مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٢٥٥– ٣٢٥٦ بتصرف .

لغير الله. – مشركون عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله.
لذلك يقول رسول الله –ﷺ – "الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل "(١) وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي:

١– قال – ﷺ –: "من حلف بغير الله فقد أشرك "(٢).

٢– وقال– ﷺ–: " إن الرقى والتمائم شرك " (٣).

٣– وقال– ﷺ –: " من علق تميمة فقد أشرك " (٤).

٤- وقال– ﷺ –: " يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " (٥).

٥– وقال– ﷺ–: " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من أشرك في عمل عمله لله، فليطلب

---

(١) رواه الحاكم ٢٩٠/٢ وأبو نعيم في الحلية ٣٦٨/٨ ،وصححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة ٢٣١/٨ برقم ٣٧٥٥ .

(٢) رواه الترمذي ٢٩/٤ برقم ١٥٣٥ وقال حديث حسن ، وصححه الألباني ، في السلسلة الصحيحة ، ٥/ ٦٩ برقم ٢٠٤٢ .

(٣) رواه أحمد ٩٨١/١ وأبو داود في الطب ١٢١/٤ برقم ٣٨٨٣ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٤٦٧/٢ رقم ٣٣١

(٤) رواه أحمد١٥٦/٤ والحاكم ٢١٩/٤ وحسنه الأرناؤط في تحقيق مسند أحمد ٦٣٧/٢٨

(٥) رواه مسلم في الزهد باب من أشرك في عمله غير الله ١٨١٠/٤ برقم ٢٩٨٥

ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك " (١).

٦- " قال -ﷺ-: " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: "الرياء" يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء " (٢)

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان، وهناك الشرك الواضح الظاهر، وهو الدينونة لغير الله في شأنٍ من شؤون الحياة، الدينونة في شرع يتحاكم إليه – وهو نص في الشرك لا يجادل عليه –.. " (٣).

ب- من حيث ماهيته وتعلقه بالتوحيد:

حقيقة وماهية التوحيد عند سيد – رحمه الله- تقوم على إفراد الله – سبحانه – بالاعتقاد، والتقدم إليه وحده بالشعائر

---

(١) رواه الترمذي في التفسير . ٢٩٤/٥ برقم ٣١٥٤ وابن ماجه ٦٩٨/٤ برقم ٤٢٠٣ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٢٠/١ برقم ٣٣ ، مكتبة المعارف – الرياض ط١ عام ١٤٢١ هـ

(٢) رواه أحمد٤٢٨/٥ وحسنه الأرناؤط ٣٩/٣٩

(٣) في ظلال القرآن ٢٠٣٢/٤-٢٠٣٣ بتصرف يسير ، وينظر : ١٢٢٨/٣ .

التعبدية، والتلقي منه وتحكيم وطاعة شريعته وحده، والشرك نقيض ذلك (١).

فالشرك إذاً من حيث ماهيته وتعلقه بالتوحيد ينقسم إلى:

١- شرك في الاعتقاد بغير الله.

٢- شرك في التقرب إلى غير الله بالشعائر التعبدية.

٣- وشرك في الحاكمية وتلقي الشرائع من غيره - سبحانه- وهذه الصور والأنواع الموجودة في البشر قديماً وحديثا.

" ولم يكن الناس فيما عدا أفراد معدودة في فترات قصيرة ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة، إنما كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى. -"إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والإتباع، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد، ويرتدون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى، إما في الاعتقاد والعبادة،

---

(١) المصدر السابق ١٤٩٢/٣ .

وإما في الإتباع والحاكمية، وإما فيها جميعاً " [١] " إن جاهلية العرب لم تكن تجحد الله البتة، ولم تكن تجعل معه إلهاً آخر يساويه، ولكنها كانت تجعل معه آلهة – من دونه – شفعاء يقربونهم إلى الله.. وكان من شركهم أن يبتدعوا من عند أنفسهم – بواسطة كهانهم ومشايخهم – شرائع وتقاليد في حياتهم، ثم يزعمون أن الله شرعها لهم وأمرهم بها، ولم يكونوا من التبجح في الشرك بحيث ينسبون هذه الشرائع لأنفسهم، ويدعون أن لهم سلطة الحاكمية العليا التي يصدرون بها الشرائع مستقلين عن سلطان الله! كما يتبجح به مشركو هذا الزمان... " [٢]" لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة –مع الله– على سبيل الزلفى والقربى من الله! – وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس... وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية، وكل الجاهليات أيضاً! " [٣] .

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٥٥/٣ ومعالم في الطريق ص٥٢ ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ١١٨٣/٣ بتصرف يسير ، ٣٩٩٠/٦ .

(٣) المصدر السابق ١١٦٣/٢ وينظر ١٤١٤/٣ .

ويلخص سيد – رحمه الله– أقسام الشرك وصورة المندرجة تحتها فيقول: " وسواءٌ أن يعتقد الإنسان في ضميره أن ليس هناك إله، أو أن هناك آلهة مع الله، أن لله أبناءً وأصهاراً، أو أن الإله هو هذا الحجر أو هذا القمر... سواءٌ أن يعتقد الإنسان في ضميره شيئا من هذا كله، وأن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله – معه أو من دونه – وأن يحكم بغير شريعة الله، وأن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله – معه أو من دونه – وأن يتحاكم إلى غير شرع الله – إلا هو منكر لا يملك غير إنكار القلب واللسان– فكل هذه سواء في أنها تنفي عن صاحبها صفة الإيمان، وتخرجه من الإسلام وبالنصوص المحكمة والأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين " (١). وعموماً فسيد – رحمه الله– يقرر أن الشرك ألوان وأنماط كثيرة، والمشركون منهم من يشركون الجن، ومنهم من يشركون الملائكة، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم، ومنهم من يشركون النار، ومنهم من يشركون الليل والنهار، ومنهم من

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧.

يشركون القيم الزائفة والرغبات والأطماع،... لا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله " (١) .

ثانياً: صور الشرك بين القديم والحديث: -

وعن وجود هذه الصور والأنواع من الشرك في هذا العصر يقرر سيد - رحمه الله- أن هناك تشابهاً كبيراً بين ما كان يزاوله المشركون في الجاهلية وبين ما يزاوله بعض الناس اليوم من صور الشرك، بل توسعت صور الشرك ومظاهره في هذا العصر كثيرا.

- فأهل الجاهلية كانوا يعترفون - بمقتضى الفطرة - أن الله هو الخالق الرازق وحده، لكنهم كانوا يخالفون منطق الفطرة في إفراد الخالق بالعبادة وفي إخلاص الدين لله بلا شريك، ويبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه، ثم يصوغون لها تماثيل يعبدونها مثل: اللات والعزى ومناة، بزعم أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده،...

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام، وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٦٨ .

الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقرباً إلى الله بزعمهم وطلباً لشفاعتهم عنده "(١). " فيقعون في الشرك – بعبادتهم مع الله– غيره– وهم يحسبون أنهم مسلمون! ماداموا لم يجحدوا وجوده ولم يتركوا عبادته " (٢).

" ومن ذلك أيضا: أن الجاهليين مع اعترافهم بوجود الله – سبحانه– وأنه الخالق الرازق، كانوا مع هذا الاعتراف يزاولون التحريم والتحليل لأنفسهم فيما رزقهم الله – كما يزاول ذلك اليوم ناس يسمون أنفسهم " المسلمين! " – وهذا القرآن يواجههم بهذا التناقض بين ما يعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق الرازق، وما يزاولونه في حياتهم من ربوبية لغير الله تتمثل في التشريع الذي يزاوله نفر منهم! وهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك، كما يدمغ كل من يزاول هذا التناقض اليوم وغداً وإلى آخر الزمان مهما اختلفت الأسماء واللافتات، فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان! "(٣).

" ويوجد من الناس من يتخذ مع الله أو من دونه آلهة أخرى، كانت في الماضي أصناماً وأوثاناً أو شجراً أو نجوماً أو

---

(١) في ظلال القرآن ٢٠٣٧/٥ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١٩٣٥/٤.

(٣) المصدر السابق ٣ /١٨٠٢.

ملائكةً أو جناً، والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض.

ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد، وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله، وفي اعتمادهم على إسناد أخرى غير الله، والشرك ألوانٌ، تختلف باختلاف الزمان والمكان.

لقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر، بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير.

غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل، فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم لا يبعدون كثيراً عن عُبَّاد تلك الأصنام والأوثان، فهم جند محضرون للطغاة. وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم، ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين!

إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها، وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أيَّ اضطراب جاءت الوثنية، وكان الشرك، وكانت الجاهلية! "[١]

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٧٦ بتصرف يسير .

ويشير-سيد - رحمه الله- إلى قضية الأصنام وحقيقتها قديما وحديثا كصورة من صور الشرك فيقرر: أن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم -عليه السلام- ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها، لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم، أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار أو أشجار، أو حيوان أو طير، أو نجم أو نار، أو أرواح أو أشباح..

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله، والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها، ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة!

ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها، كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام، وتَمَثُّل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة!

إن الشرك بالله المخالف لشهادة "أن لا إله إلا الله" يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله

حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة.

والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته.

- إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات، من صنع غير الله، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره.

إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف عن شهادة" أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " في أخص حقيقتها.. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخصٍ وتميعٍ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان!

- والأصنام.. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة.. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت،

يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها.

- إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر.. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها، يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى.. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها!

- فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال، فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها!

-إذا رفعت " القومية " شعاراً، أو رفع " الوطن " شعاراً، أو رفع " الشعب " شعاراً، أو رفعت " الطبقة " شعاراً.. ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونفذت إرادة تلك الشعارات- أو بالتعبير الصحيح الدقيق: إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات- كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله.

- فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة، ولقد يكون الصنم مذهباً أو شعاراً!

إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة، من موكب الرسل الموصول، ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة، ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!

والذين يظنون أنفسهم في " دين الله " لأنهم يقولون بأفواههم " نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " ويدينون لله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث.. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله - وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله- ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم

وأعراضهم وأخلاقهم - أرادوا أم لم يريدوا - ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة.

فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام..

الذين يظنون أنفسهم " مسلمين " وفي " دين الله " وهذا حالهم، عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!

إن دين الله ليس بهذا الهزال إنه منهج شامل للحياة، ودينونة لله وحده في كل جزئيات الحياة.

وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه، ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه، وعبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات!

ولينظر الناس في كل بلدٍ لمن المقام الأعلى في حياتهم؟ ولمن الدينونة الكاملة؟ ولمن الطاعة والإتباع والامتثال؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله، وإن كان لغير الله- معه أو من دونه - فهم في دين الطواغيت والأصنام.. والعياذ بالله.! { هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ

وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ } [سورة إبراهيم:٥٢] (١).

ثالثاَ: آثار الشرك ومفاسده وأضراره:

يرى سيد قطب– رحمه الله– "أن الشر كله في الأرض وأن الفساد كله في حياة الناس، إنما ينبثقان من الانحراف – في شتى الصور– عن إفراد الله –سبحانه– بالألوهية بكل خصائصها، وعن السماح لأي من العبيد – في شتى الصور – بادعاء شيءٍ منها " (٢).

وقد أشار سيد قطب – رحمه الله– إلى بعض مفاسد الشرك وأضراره ومنها إجمالاً:

١– إفساد الفطرة الإنسانية. (٣)

٢– تمزيق وحدة النفس البشرية. (٤)

٣– إحباط العمل. (٥)

٤– تسويغ الخرافات والأوهام. (١)

---

(١) في ظلال القرآن ٢١١٤/٤–٢١١٦ بتصرف يسير.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص١٨٤ وينظر في ظلال القرآن ٢٧٧٣/٥.

(٣) في ظلال القرآن ٦٧٨،٧٦٠/٢.

(٤) المصدر السابق ٢٧٧٠/٥، ٣٠٤٩.

(٥) المصدر السابق ٢٩٥٣/٦ وينظر أيضا ٣٠٦١/٥ .

٥- الذلة والمهانة لغير الله. (٢)

٦- إغلاق أبواب الرحمة ومنع الغفران. (٣)

٧- الخوف والضلال. (٤)

٨- تحريم دخول الجنة، وإيجاب دخول النار والعذاب فيها. (٥)

رابعاً: حكم الشرك وموقف الإسلام منه:

وقف سيد – رحمه الله- كثيراً عند الآيات التي تتحدث عن حكم الشرك، وبين – رحمه الله- أن الشرك بالله تعالى هو أصل المحرمات، كما قال تعالى: { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا } [سورة الأنعام:١٥١] .

فالاعتراف بألوهية الله وحده، وعدم إشراك أحد معه يعتبر القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة، ولا يغني غناءها شيء أخر.

إن الشرك – في كل صوره – هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم، وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كله

---

(١) المصدر السابق ١٩٤١/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٩٤٠/٤، ١٩٤٣ ، ٢٢٢٠.

(٣) المصدر السابق ٦٧٨/٢ ، ٧٦٠.

(٤) المصدر السابق ١١٤٢/٢.

(٥) المصدر السابق ١٤٦/١ ، ٧٦٠/٢ ، ٢٨٨٥/٥ .

له، حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، ولا رب لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله، كماأنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله، من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة " (١).

فالشرك أعظم ما نهى الله عنه، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به، ولهذا كانت دعوة الرسل – عليهم السلام – كلهم إلى توحيد الله ونفي الشرك عنه، يقول – سيد –: " والظلم كثيراً ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك، بوصفه أظلم الظلم وأقبحه، { إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [سورة لقمان:١٣] ، وفي الصحيحين " عن ابن مسعود(٢)– رضي الله عنه –أنه قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك "(٣)." (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٢٩/٣–١٢٣٠ بتصرف .

(٢) هو :عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أبو عبد الرحمن الكوفي ، أحد السابقين إلى الإسلام وصاحب النعلين شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ، وكان يشبهه في هديه وسمته ، تلقن من النبي ﷺ سبعين سورة ، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ ، انظر الخلاصة للخزرجي ص٢٤.

(٣) رواة: البخاري في التفسير ٦٢٦/٤ برقم ٤٢٠٧ ، ومسلم في الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ٨٧/١ برقم ٨٦ .

(٤) في ظلال القرآن ٤٨٢/١ ، ٢٧٨٨/٥ .

" إنه – أي الشرك – الانحراف المطلق.. وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شيء، ومدبر أمره ومقدر كل شيء، هل أقبح من ادعاء إنسان إن لله شركاء "(١).

" ولذلك حكم الله بأنه لا غفران لذنب الشرك – متى مات صاحبه عليه – بينما الغفران مفتوح لكل ذنب سواه، عندما يشاء الله، والسبب في تعظيم جريمة الشرك وخروجها من دائرة الغفران، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماماً، وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبداً {وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا} [سورة النساء:١١٦] . ولو بقي خيط واحد من خيوط الفطرة لشده الشعور بوحدانية ربه، ولو قبل الموت بساعة، فأما وقد غرغر – وهو مشرك – فقد انتهى أمره وحق عليه القول " (٢).

" وفي مجيء الآيات القرآنية الكثيرة في تقرير حقيقة التوحيد والنهي عن الشرك في صور شتى، والتي يؤكد بعضها بعضاً بحيث لا يبقى مع ذلك ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من

---

(١) المصدر السابق ٢٥٥٠/٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٧٦٠/٢ .

صوره الكثيرة " [1] " ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره، ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه، ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة، سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى مقاليد الحياة، فالحياة وحدةٌ ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلاً لا يتجزأ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعا، ويتجه بها إلى الله خالصةً واضحةً ناصعة " [2]

وقد عالج القرآن الكريم قضية الشرك بأساليب ومؤثرات شتى، سبق الحديث عنها في منهج الإسلام في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك[3]، ونزيد هنا نصاً واحداً فقط لسيد – رحمه الله– يشير فيه إلى منهج القرآن في معالجة الشرك في النفوس البشرية وبيان بطلانه حيث يقول: " وعالج القرآن الكريم هذا كله بشتى الأساليب وشتى المؤثرات منها:

– قص عليهم قصص الرسل من قبلهم، وما أرسلهم الله به من التوحيد الخالص، وموقف الجاهليات من هذه الرسالات، وسنة الله في أخذ المكذبين.

---

(١) المصدر السابق ١٩٣٦/٤ بتصرف

(٢) المصدر السابق ٣٩٨٨/٦ .

(٣) ينظر : المبحث الثاني من هذا الفصل

– وعالج ظنهم أن هذه الآلهة تقربهم من الله زلفى وتشفع لهم عنده وتملك لهم – عن هذا الطريق – العز والنصر والنفع والضر، بنفي هذا الظن وبيان صفة الله الحق وطبيعة الألوهية المتفردة التي يستحيل معها أن تكون هذه آلهة.

– وبتوجيه القلب والعقل إلى كتاب الله المفتوح – وهو شاهد بصفة الله الواحد.

– وبلمس الفطرة وتذكيرها بموقفها في ساعة الشدة ودعوة الله وحده عندها.

– وبالتحذير من النار والإطماع في النجاة.. (١).

خامساً: أنواع الشرك التي تحدث عنها سيد قطب: –

تناول سيد– رحمه الله– أنواعاً ومظاهر من الشرك في القديم والحديث وقارن بينها، ودعا إلى نبذها والعودة إلى التوحيد الخالص باعتباره أساس صلاح الحياة البشرية، وإن كان –رحمه الله– قد ركز كثيراً في كتبه الأخيرة وفي الأجزاء المحققة من الظلال على بيان شرك الحاكمية وصوره، وجعله الشرك الذي تتفرع عنه أنواع كثيرة من الشرك والكفر في المجتمع إلا أنه لم تخل كتاباته من الإشارة إلى أنواع الشرك

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٨ وما بعدها.

الأخرى المتمثلة في شرك الاعتقاد والعمل عموماً حيث يرى أن تحقق النصر للمؤمنين لا يتم إلا عندما توجد حقيقة الإيمان في قلوبهم، وحقيقة الإيمان لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله، بما فيه أشكال الشرك الخفية (١). " وأن القضية الأساسية في القرآن الكريم هي قضية توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين له وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره، وقيام الحياة كلها على هذا الأساس". (٢)

وفيما يلي استعراض لأنواع من الشرك التي تحدث عنها سيد–رحمه الله–:

النوع الأول: الشرك المتعلق بالاعتقاد:

وهذا النوع من الشرك له مظاهر وصور عديدة منها:

١– **اعتقاد ألوهية غير الله معه أو من دونه:** ومن ذلك تأليه اليهود لعزير، وتأليه النصارى للمسيح –عليه السلام –أو لروح القدس، وتاليه المشركين للكواكب والنجوم والأصنام، إما لذاتها أو لأنها ترمز لغيرها، ومن ذلك أيضا تأليه المجوس للنور والظلمة (٣). " فإذا اعتقد الإنسان في ضميره أنه ليس

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٨٦/٥ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٣٠٣٦/٥ بتصرف يسير .

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤١، ١٦٦، ١٦٨، ٢٨٢ – ٢٨٣

هناك إله، أو أن الله الإله هو هذا الحجر، أو هذا القمر.. كل ذلك ينفي عن صاحبه الإيمان ويخرجه من الإسلام " (١).

<u>٢- نسبة الولد لله واعتقاد أن له أصهاراً أو قرابة:</u> وهذا الاعتقاد كسابقه من أنواع الشرك بنص القرآن الكريم والسنة، فإن الله- سبحانه- أخبر أن من نسب إليه الولد كالنصارى القائلين ببنوة عيسى-عليه السلام- أو كاليهود القائلين ببنوة عزير، أو كالمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله - سبحانه- تعالى عن ذلك علواً كبيراً أو اعتقادهم أن بينه - سبحانه - وبين الجِنة نسباً، كل ذلك مما حكم الله على أصحابه بالشرك والكفر" (٢).

" فالنص القرآني يلهم أن قول اليهود"عزيرابن الله " هو كقول النصارى" المسيح ابن الله " كلاهما مقصود به ما يضاهي قول الذين كفروا من قبل فهو من إسناد البنوة التي تخرج قائلها من دين الحق، وتلحقه بالكافرين المشركين " (٣).

<u>٣- اعتقاد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود:</u>

---

(١) المصدر السابق ص ١١٧ بتصرف يسير

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧، ١٤٢ ، ١٦٨ وفي ظلال القرآن ٣٩٩٠/٦ .

(٣) في ظلال القرآن ١٦٣٧/٣ هامش رقم ٢ . و ١٦٤٧ وما بعدها. و ٨١٨/٢ .

سبق الحديث عن موقف سيد – رحمه الله– من قضية الحلول والاتحاد ووحدة الوجود عند الحديث عن الربوبية، وبينّا عدم صحة نسبة القول بها لسيد – رحمه الله– بناءً على كلام له في دواوينه قبل التزامه بالإسلام أو بناءً على كلامه الأدبي الموهم في الظلال، ونقلنا موقفه الصريح من هذه القضية في الأجزاء المحققة من الظلال حيث ذكر أن هذه العقيدة لا يقول بها مسلم، وأكتفي هنا بنقل كلامه من تفسيره لسورة البقرة في ظلال قوله تعالى: { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [سورة البقرة:الآيات ١١٦– ١١٧].

يقول سيد: " وهنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه، عن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعها...

والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة " **وحدة الوجود** " على ما يفهمه **غير المسلم** من هذا الاصطلاح: أي بمعنى – أن الوجود وخالقه وحدة واحدة.

- أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق.

- أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده.

أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس، فالوجود وحدة في نظر المسلم على معنى أخر: وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع " (١).

٤- شرك الواسطة والشفاعة:

" إن ميزة الإسلام أنه ليس هناك كاهن يتقاضى ثمن كهانته، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته، ليس هناك " رسم دخول " ولا ثمن لـ " تناول سر ولا بركة ولا استقبال " (٢)، " وإنما يقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين لله، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره، والاتجاه إليه - سبحانه- مباشرة بلا وسيط ولا شفيع " (٣)، " فالأمر كله له، والحكم كله إليه، وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة، وفقاً لتدبيره وتقديره، واستحقاق

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٠٦

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٥٧٥ .

(٣) المصدر السابق ٥/٣٠٣٦ .

الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح، لا بمجرد التوسل بالشفعاء، كما كان يعتقد المشركون " (١).

" ولهذا أبطل الله اعتقاد المشركين الذين اتخذوا آلهة من دونه لتقربهم بزعمهم إليه، وأخبر أن شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه، يتخذونهم أولياء {وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ} [سورة الزمر:٣] فهذا هو الشرك " (٢).

ويقارن سيد – رحمه الله– بين المشركين الذين كانوا يتخذون من دونه أولياء في الجاهلية ليقربوهم إليه زلفى وبين الذين يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده فيقول: " فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده، ولكنهم – ويا للنكر والشناعة! – يستشفعون لله – سبحانه – عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم!!

(١) المصدر السابق ١٧٦٣/٣ ، وينظر أيضا : ٨١٩/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١٠٨٣/٢، ٣٩٩٠/٦، ومقومات التصور الإسلامي ص ١١٧.

فالذين يحاولون أن يضعوا على الإسلام أقنعة أخرى، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات كالاشتراكية.. والديمقراطية.. وما إليها.. ظانين أنهم بهذه التقدمة الذليلة يخدمون الإسلام!..

هؤلاء يستشفعون لمنهج الله – سبحانه– عند البشر بوصفه بصفةٍ من أعمال البشر؟ فلينظروا أين يقفوا من الإسلام " (١).

ويقول سيد– رحمه الله–: " إن الوسيلة المأمور بها في قوله تعالى: { وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ } [سورة المائدة:٣٥] ليست ما يفهمه البعض ممن انحرفت عقيدته بأنها الأولياء الذين يتقرب بهم إلى الله ويستشفع بهم عنده، وإنما المقصود به " أن يلتمس الناس ما يصلهم بالله من الأسباب، قال ابن عباس– رضي الله عنه –: ابتغوا إليه الوسيلة، أي ابتغوا إليه الحاجة. والبشر حين يشعرون بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون في الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية، وكلا التفسيرين يصلح للعبارة، ويؤدي إلى صلاح القلب، وحياة الضمير" (٢).

٥– التطير والتشاؤم:

(١) في ظلال القرآن ١٠٨٣/٢ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٨١٩/٢ ، ٨٨١ .

يقول – سيد –: " والتطير والتشاؤم، مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلية التي تجري وراء الخرافات والأوهام، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان، فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطارداً، فإن مرَّ سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر، وإن مرَّ بارحاً عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر! وما تدري الطير الغيب، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول، ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه، فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب، وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات... وحتى هذه اللحظة ترى اللذين يهربون من الإيمان بالله، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، تراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم (١٣)، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم... إلى آخر هذه الخرافات الساذجة "[١]

" إن الإسلام قد أبطل ما كان عليه الجاهليين من وثنيتهم وشركهم وبعدهم عن إدراك سنن الله وقدره، وما كانوا عليه من التفكير الخرافي، وأحل محله التفكير العلمي الصحيح، القائم

---

(١) المصدر السابق ٥ /٢٦٤٤-٢٦٤٥ .

على معرفة السنن الإلهية الثابتة في الوجود ومن ورائها قدره النافذ المحيط " [١]

النوع الثاني: الشرك المتعلق بأعمال القلوب:

يقصد بأعمال القلوب: ما يقوم بالقلب من العبادات والطاعات كالإخلاص والحب والخوف والرجاء والتوكل والولاية ونحوها[٢]. وهي تابعة لتصديق القلب ومعرفته وملازمة له، بل هي أصل أعمال الجوارح [٣].

وبناء على ذلك فان إيمان العبد لا يقوم أصلا إلا بمعرفة الله وإخلاص الأعمال له وحده لا شريك له انقياداً وتعظيماً، " فلا توجد حقيقة الإيمان في القلب إلا حين يخلو من الشرك في كل صوره وأشكاله... وحين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدرة عليه، ويتلقى تصريف الله له بالطمأنينة والرضى والقبول " [٤].

وقصد غير وجه الله، أو توجه القلب لغير الله معه – أو من دونه – من الشرك الذي حرمه الله ونهى عنه، ومن مظاهر

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٥٧ بتصرف يسير .

(٢) الإيمان لابن منده ٣٦٢/٢، ومجموع فتاوى ابن تيميه ١٨٦/٧

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٢٢٤/٣

(٤) في ظلال القران ٣٠٨٦/٥ بتصرف يسير

الشرك المتعلقة بأعمال القلوب التي أشار إليها سيد قطب ما يأتي:

١- شرك المحبة:

أصل الحب قوة في القلب تحرك إرادة الإنسان لتحصيل المحبوبات أصلاً ودفع المكروهات تبعاً فتميل النفس إلى الشيء إذا كان محبوبا وتنفر عنه إن كان مكروها (١). ومحبه الله تعالى تعني: ميل القلب إلى ربه -جل وعلا- ميلاً ينجلي منه إيثاره على كل ما سواه، ويتجه لتحصيل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فهي أصل كل عمل من أعمال الدين، فأصل الإيمان الحب في الله والبغض في الله، والعبادة تتضمن غاية الحب مع غاية الذل، وجمع القرآن الأمر بمحبه الله ولوازمها والنهي عما بضادها (٢). وإذا كان الأمر كذلك فان الإشراك في المحبة مع الله غيره أصل كل شرك عملي، فأصل شرك المشركين هو اتخاذهم أندادا يحبونهم كحب الله. (٣)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه ١٩٢/١٠ .

(٢) قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيميه ص١١.٧ بتصرف . ومد ارج السالكين لابن القيم ٢٧/٣

(٣) قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيميه ص٦٩، ومد ارج السالكين لابن القيم ٣٦٨/١.

ففي ظلال قوله تعالى: { وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ } [سورة البقرة:١٦٥] . يقول سيد – رحمه الله –: " من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً، كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجاراً أو أشجاراً، أو نجوماً وكواكب، أو ملائكةً وشياطيناً، وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص، أو إشارات واعتبارات.. وكلها شرك خفي أو ظاهر إذا ذكرت إلى جانب اسم الله، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله، فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله؟ إن المؤمنين لا يحبون شيئا حبهم لله، لا أنفسهم ولا سواهم، لا أشخاصاً ولا اعتباراتٍ ولا إشاراتٍ، ولا قيماً من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس { وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ } أشد حباً لله، حباً مطلقاً من كل موازنة، ومن كل قيد، أشد حباً لله من كل حب يتجهون به إلى سواه، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله –سبحانه وتعالى– هي صلة الحب، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي صله

المودة والقربى، صله الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود " (١).

٢- شرك الخوف والرجاء:

يقصد بالخوف: توقع حلول مكروهٍ، أو فوات محبوبٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة. (٢) وهو أنواع منها:

* الخوف الذي ليس له سبب: ويسمى"الجبن"، وهو ما أدى إلى ترك القيام ببعض الواجبات كالجهاد ونحوه، وهذا مذموم.

* والخوف الطبيعي: كالخوف من أسدٍ أوعدوٍ، وهذا جبلي في البشر.

* وخوف التأله: وهو الخوف من الله – سبحانه . أن يصيبه بما يشاء متى شاء، وهذا النوع أحد العبادات القلبية التي يجب إخلاصها لله كما قال سبحانه وتعالى: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (٣) وهو الذي مدح الله أصحابه ووعدهم بالجزاء في الجنة فقال سبحانه وتعالى: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ } (٤).

---

(١) في ظلال القرآن١/١٥٣،١٥٤.وينظر أيضا ٢/٩١٨.

(٢) التعريفات للجرجاني ص١٣٧ ، والإرشاد للفوزان ص٥٣

(٣) سوره أل عمران: الآية ١٧٥

(٤) سوره الرحمن :الآية ٤٦

* والخوف الشركي: هو خوف التأله لغير الله- سبحانه وتعالى . بحيث يخاف الإنسان من أن يصيبه غير الله بما شاء ومتى شاء من موتٍ أو مرضٍ أو فقرٍ أو نحوه، وهذا من أعظم الشرك لأنه يقوم على اعتقاد أن غير الله -جل وعلا- كائناً من كان يملك الضر والنفع وخصائص الألوهية [(١)]. "فلا بد من التجرد لله ولابد من التخلص من كل ظل للشرك في الشعور أو السلوك، وخشية أحدٍ غير الله لونٌ من الشرك الخفي، ينبه إليه القرآن ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله " [(٢)].

أما الرجاء: فيأتي بمعنى: الأمل، والتوقع، وطلب الشيء، ويأتي بمعنى الخوف إذا كان معه حرف نفي كما في قوله تعالى: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [(٣)]. أي: لا تخافون لله عظمة[(٤)]. وهو مرادف للرغبة وقد جمع -سبحانه- في الأمر لعباده بين

(١) ينظر: الإرشاد للفوزان ص٥٨ وتيسير العزيز الحميد ص٤٨٥ والقول السديد للسعدي ص١١٦.

(٢) في ظلا القران ١٦١٤/٣ بتصرف يسير .

(٣) سوره نوح : الآية ١٣

(٤) فتح القدير للشوكاني ٣١٨/٣

عبادتي الخوف والرجاء بقوله: {وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ } [(١)].

وإذا تبين ما سبق كان صرف الرجاء ومثله الخوف لغير الله شركاً، نهى الإسلام عنه يقول سيد: " ولو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده، فإنما هو خوفٌ واحدٌ ورهبةٌ واحدةٌ، ولا يجتمع في قلبٍ خوفٌ من الله وخوفٌ من شي سواه، فالعزة لله جميعاً، وكل قوى الكون خاضعة لأمره "ما من دابة إلا هو اخذ بناصيتها"فمم يخاف إذن الذي يخاف الله؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله "ذلك بأنهم قوم لا يفقهون"[(٢)] ويقول "والقرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة.. والنص أوسع مدلولا وأطول أمداً.. والشرك ليس مقصورا على صوره التي كان عليها المشركون القدامى، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطانٍ أو جاهٍ أو مالٍ ويرجون فيهم... وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ودعاؤهم شرك والرجاء فيهم

---

(١) سوره الأعراف : الآية ٥٦

(٢) في ظلال القران ٣٥٢٨/٦.

شرك، والخوف منهم شرك، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون.

ويقول: " والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون، فقد تكون الأنداد في صورة أخرى خفية، قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة، وفي الاعتقاد بنفعٍ أو ضرٍ في غير الله في أي صورة "[1].

"والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله طمعاً في نفعٍ، أو دفعاً لضِر، لا يناله إلا القلق والحيرة وقلة الاستقرار والطمأنينة، وهذا هو الرهق في أسوأ صوره، فكل شيء سوى الله وكل أحد متقلب غير ثابت، ذاهب غير دائم، فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه، والله وحده هو الباقي الذي لا يزول الحي الذي لا يموت"[2] .

---

(١) المصدر السابق ٤٨/١ وينظر أيضا ٥٢١/١

(٢) المصدر السابق ٣٧٢٨/٦.

٣- شرك التوكل:

التوكل يعني: اعتماد القلب على الله سبحانه وحده، وتفويض الأمر إليه والثقة به، والتوكل عبادة من العبادات القلبية المأمور بها، قال تعالى: { وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ } [سورة آل عمران:١٢٢] ، وغيرها من الآيات [١]. وهو شروط في الإيمان ينتفي الإيمان بانتفائه، ويضعف بضعفه " [٢]. والتوكل لا يتم إلا بالأخذ بالأسباب المشروعة، فالأخذ بها لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره. [٣] وبناء على ذلك فان التوكل الشركي هو: الاعتماد بالقلب على غير الله -جل وعلا . في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله من جلب نفع أو دفع ضر، كالتوكل على الأموات والغائبين والطواغيت ونحوهم.

يقول سيد رحمه الله: "ولتقرير حقيقة التوكل على الله وإقامتها على أصولها الثابتة، يقرر القرآن أن القوة الفاعلة.. هي قوة الله، إليها يكون التوجه وعليها يكون التوكل، بعد اتخاذ العدة ونفض الأيدي من العواقب، وتعليقها بقدر الله... حيث لا قوة إلا

---

(١) ينظر : سورة المائدة الآية ٢٣وسورة الفرقان الآية ٥٨ وسورة آل عمران الآية ١٧٣وسورة الأنفال الآية ٢.

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٦٤.

(٣) ينظر: نيل الأوطار للشوكاني ، دار الجيل ، طبعه عام ١٩٧٣، ٩٢/١٠.

قوة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا مشيئة إلا مشيئته، وعنها تصدر الأشياء والأحداث، وهذا لا يعفي المسلمين من إتباع المنهج وطاعة التوجيه والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد والتوكل بعد هذا كله على الله، بذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير لله، ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود، فينفض يده من كل الأشباح الزائفة، والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء، ويتوكل على الله وحده، ويقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنانٍ أيّاً كان " (١).

فالتوكل يقوم على" الاعتماد على الله وحده دون سواه" (٢) و"على وجه القصر والحصر"(٣).

"وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله، وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض، وأن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيا كان " (٤). " فالمؤمنون لا

---

(١) في ظلال القران ٥٠٤،٥٠٣/١ بتصرف .وينظر أيضا: ٥٢٠/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٢٢،٢٨٢٣/٥ بتصرف .وينظر: ١٧٤٣/٣، ٦ /٣٦٠١.

(٣) المصدر السابق ٤٦٨/١.

(٤) في ظلال القران ١٨١١/٣ .

يتوكلون إلا على الله فليس وراء ذلك توكل، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون"[1].

٤- شرك الولاية:

المقصود بالولاء: المحبة والمودة والقرب، وضده البراء [2]، والولاء لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، لقوله تعالى: { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } [سورة المائدة:٥٥] .

فهو من العبادات القلبية التي تظهر مقتضياتها على الجوارح.

والولاء الشركي: هو أن يحب الإنسان ويوادَّ الذين يحادون الله ورسوله المحبة والمودة التامة، لقوله تعالى {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } [سورة المائدة:٥١] .

وقد أشار سيد – رحمه الله إلى أن الولاية تكون لله وحده ولرسوله بالتبعية، وذلك يستلزم المفاصلة الكاملة بين المؤمن وبين من يحاد الله تعالى، وأن قاعدة الإيمان في ذاتها تقوم

---

(١) المصدر السابق ٣٥١٠/٦.

(٢) لسان العرب ٤٠١/١٥ .

على الولاية لله ولرسوله والمؤمنين، وولاء غيرهم خروجاً وارتداداً عن الإسلام [(١)]جاء التحذير منه كثيراً في القرآن الكريم.

ففي ظلال قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ } [سورة التوبة:٢٣] · يقول سيد – رحمه الله–: " إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكاً، فإما تجرد لها، وإما انسلاخ منها، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عما حوله ولا أن يترهبن، إنما المطلوب أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي المحركة والدافعة...

فإذا انقطعت آصرة العقيدة تقطعت أواصر الدم والنسب، وبطلت ولاية القرابة، فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك { وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ } ويعني بالظالمين هنا: المشركين.

فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع الإيمان" [(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن ٩٢١/٢ بتصرف ، ٣٧٧/١ ، ٩١٧/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١٦١٥/٣ بتصرف يسير .

" فالولاء لغير الله هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام، باعتباره مناقضاً لحقيقة الإسلام " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: { لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ } [سورة آل عمران:٢٨] .

يقول سيد – رحمه الله–: " ما دام أن الأمر كله لله، والقوة كلها لله، والتدبير كله لله، والرزق كله بيد الله.. فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله؟ أنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه.. ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة، سواء كانت الموالاة بمودة القلب، أو بنصره أو باستنصاره سواء، فمن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، هكذا، ليس من الله في شيء لا في صلة ولا نسبة، ولا دين ولا عقيدة، ولا رابطة ولا ولاية، فهو بعيد عن الله، منقطع عنه...

---

(١) المصدر السابق ١٠٥٣/٢ بتصرف يسير .

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات، ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل، قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: " ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ". فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية، فما يجوز هذا الخداع على الله! " (١).

ويشير سيد – رحمه الله– " إلى وجوب التفرقة بين الولاء للكفار والمشركين والذي هو بمعني المحبة والمودة والنصرة، فهذا كفر وشرك مخرج من الملة، وبين التسامح مع غير المسلمين في المجتمع المسلم، فهذا شيء وهذا شيء آخر. " (٢)

<u>النوع الثالث: الشرك المتعلق بعمل اللسان " شرك الأقوال</u> "

ويندرج تحت هذا النوع من الشرك مظاهر كثيرة يجمعها نوعان:

<u>الأول:</u> شرك الدعاء.

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨٥/١-٣٨٦ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤٤٨/٢ وينظر أيضا: موقف سيد قطب من أهل الكتاب في الباب الثاني – فصل الثاني– المبحث الثالث– من هذا البحث.

الثاني: شرك التسوية في الألفاظ بين الله –سبحانه– وبين غيره. وبيان ذلك فيما يأتي:

١- شرك الدعاء:

الدعاء من أجَّل العبادات وأعظمها، فقد ذكره الله في القرآن الكريم في نحو ثلاثمائة موضع [١]، وقد سماه الله عبادة، وتوعد من تركه استكبارا بالنار، وأخبر النبي ﷺ أن: " الدعاء هو العبادة " [٢].

والدعاء يجمع أنواعاً كثيرة من العبادات منها: إسلام الوجه لمن يدعوه، والرغبة إليه، والاعتماد عليه، والخضوع له، والتذلل بين يديه وقصد طلب الحوائج منه وحده، فمن أسلم وجهه لغير الله فهو مشرك شاء أم أبى.

كما أن الدعاء يطلق على معاني عديدة منها: السؤال، والطلب، والاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، وغيرها. [٣]

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٤١٨/٩.

(٢) رواة احمد ٢٦٧/٤ ، وأبو داود ١٦١/٢ برقم ١٤٧٩ ، والترمذي ٤٢٦/٥ برقم ٣٣٧٢ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣٨٤/٣ ، وصحيح أبي داود ٤٠٧/١ .

(٣) الشرك بالله أنواعه وأحكامه . ماجد شبالة ص ٥٤٣ وما بعدها .

فإذا تقرر ذلك فانه يجب إفراد الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء بكل أنواعه، من سؤال واستغاثة واستعانة واستعاذة، فمن دعا غير الله، أو استغاث أو استعان أو استعاذ بغيره أيَّاً كان فقد وقع في الشرك.

يقول سيد – رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: { وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا } [سورة الجن:١٨] :" ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره، وقد يكون بالالتجاء إلى سواه، وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله." (١)

وفي ظلال قوله تعالى: { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ } [سورة الأحقاف:٥] . يقول: " والقرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة، والنص أوسع مدلولاً وأطول أمداً، فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً في أي زمان وفي أي مكان؟ وكل أحد – كائنا من كان – لا يستجيب بشيء لمن يدعوه، ولا يملك أن يستجيب، وليس هناك إلا الله فعال لما يريد، إن الشرك ليس مقصوراً على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى، فكم من مشركين يشركون مع

(١) في ظلال القرآن ٣٧٣٥/٦ .

الله ذوي سلطان، أو ذوي جاهٍ أو مال، ويرجون فيهم، ويتوجهون إليهم بالدعاء، وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية، وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ودعاؤهم شرك، والرجاء فيهم شرك، والخوف منهم شرك، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون، وهم لا يشعرون. " (١)

وفي ظلال قوله تعالى: { وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ } [سورة يونس:١٠٦] ، يقول سيد – رحمه الله–: " لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر، فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين! فميزان الله لا يحابي وعدله لا يلين " (٢).

" وإذا كان رسول ﷺ متوعداً بالعذاب مع المعذبين لو دعا مع الله إلهاً آخر، وهذا محال ولكنه فرض للتقريب، فكيف يكون غيره؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين؟!.. " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٢٥٦/٦ بتصرف يسير .

(٢)في ظلال القرآن ٣ /١٨٢٥ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٦١٩/٥، ٢٧١٦ .

٢- شرك التسوية في الألفاظ بين الله سبحانه وبين غيره:

يقصد بهذا النوع من الشرك التسوية بين الله وبين أحد من مخلوقاته في الألفاظ، كان يقول: ما شاء الله وشئت، أو لولا الله وفلان، أو الحلف بغير الله ونحوهما.

وقد ذكر سيد - رحمه الله- في تفسيره لمعنى الأنداد التي شدد القرآن الكريم في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد، أنها قد تكون في صور متعددة، ظاهرة كالذي كان يتخذه المشركون، أو خفية ثم أورد قول ابن عباس- رضي الله عنه-: " الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت! وقول الرجل: لولا الله وفلان.. هذا كله به شرك "(١). وفي الحديث " أن رجلاً قال لرسول الله - ﷺ - ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله نداً؟! " (٢). ثم يعقب سيد - رحمه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢١٠/١

(٢) رواه أحمد ٢١٤/١ ،والنسائي في الكبرى ١٤٥/٦ برقم ١٠٨٢٤ ، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٦٦/١ برقم ١٣٩

الله– على كلام ابن عباس – رضي الله عنه – بقوله: " هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفي والأنداد مع الله، فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة!!! " (١).

النوع الرابع: الشرك المتعلق بعمل الجوارح:

ويقصد به شرك التقرب والنسك، وهو على نوعين:

الأول: شرك التقرب إلى غير الله بالصلاة وما هو من جنسها كالسجود والطواف ونحوه.

الثاني: شرك التقرب إلى غير الله بالنسك، كالذبح والنذر والحلف ونحوها. وبيان ذلك كما يلي:

١– شرك التقرب إلى الله بالصلاة وما هو من جنسها:

صرف الصلاة لغير الله من الأمور النادرة، ولكن صرف أجزاء منها كالركوع والسجود والطواف بغير البيت الحرام . باعتباره صلاه هي من الأمور التي يصرفها البعض لغير الله.

أما السجود والركوع: فهما عبادتان لا يجوز صرفهما لغير الله، ومن صرفهما لغيره فقد أشرك، وقد وجه الله المشركين الذين كانوا يتقربون إلى الشمس والقمر بالسجود بقوله: { لَا تَسۡجُدُواْ

(١) في ظلال القرآن ٤٨/١ .

لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [سورة فصلت ٣٧] ، أي إن كنتم تعبدون الله حقاً فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن، فالخالق هو الواحد الذي يستحق أن يعبدوه"(١).

ويبين سيد –رحمه الله –أيضاً" أن السجود ومواضعه لا ينبغي أن تكون إلا لله وحده، فقول سبحانه وتعالى: { وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا } [سورة الجن ١٨] ، يوحي بأن السجود . أو مواضع السجود وهي المساجد . لا تكون إلا لله فهناك يكون التوحيد الخالص، ويتوارى كل ظل لكل أحد ولكل اعتبار، وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله "(٢).

ومن مظاهر السجود لغير الله التي أشار إليها –سيد– أيضاً: التمرغ ووضع الخدود على الأعتاب والمقامات، حيث يقول: " ويخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين الممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات في كثير من البلاد

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٢٤/٥

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٣٥/٦

التي يسمونها "بلاد المسلمين"أنها الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة "(١).

" والله يوجه رسوله - ﷺ - إلى الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله، بقوله: { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ } [سورة الكوثر:٢] غير ملقٍ بالاً إلى شرك المشركين، وغير مشارك لهم في عبادتهم" (٢).

٢- شرك التقرب لغير الله بالنسك وما يلحق به:

النسك هو العبادة والقربة (٣)، ويطلق لفظ النسك على الذبح والنحر الذي يقصد به التوجه والتقرب لله - سبحانه وتعالى -، وقد فرض الله على المؤمنين إخلاص التوجه لله بهذه العبادات فقال: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ } [سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

يقول - سيد-: " فهو التجرد الكامل لله، بكل خالجة في القلب، وبكل حركة في الحياة بالصلاة والاعتكاف وبالمحيا

(١) المصدر السابق ٣/١٥٠٦

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٨ .

(٣) المفردات للراغب ص ٧٤٧ ، ولسان العرب ١/٤٩٨ .

والممات، والشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية، وبالممات وما وراءه " [١]. " التجرد لله في العبادة والاتجاه في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله "[٢].

ومن مظاهر وصور هذا الشرك ما يلي:

أ- الذبح والنحر لغير الله:

والذبح لغير الله على نوعين:

الأول: ما ذبح تقرباً لغير الله، كالذبح تقرباً للجن أو الملائكة أو الأموات وغيرهم، مع ذكر اسم غير الله على المذبوح، وهذا من أعظم أنواع الكفر والشرك بالله- سبحانه وتعالى – لما يحمله من تعظيم غير الله، ولأنه ينشأ غالباً من الاعتقاد في المتقرب إليه غير الله بأنه يملك الضر والنفع

يقول سيد – رحمه الله-: " وأما ما أُهل لغير الله به، فهو محرم لمناقضته ابتداءً للإيمان، فالإيمان يوحد الله ويفرده – سبحانه – بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته، وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل، وأن يهل باسمه – وحده – في كل عمل وكل حركة، وأن تصدر باسمه- وحده- كل حركة وكل عمل، فما أُهل لغير الله

(١) في ظلال القرآن ١٢٤٠/٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٨٨/٦ .

به، وما يسمى عليه بغير اسم الله – وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد – حرام، لأنه ينقض الإيمان من أساسه، ولا يصدر ابتداءً عن إيمان، فهو خبيث من هذه الناحية " (١).

ويقول أيضاً: " أما ما أهل به لغير الله، أي ما توجه به صاحبه لغير الله، فهو محرم، لا لعلة فيه ولكن للتوجه به لغير الله، محرم لعلة روحية تنافي صحة التصور، وسلامة القلب، وطهارة الروح، وخلوص الضمير، ووحدة المتجه، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذا المعنى المشترك للنجاسة، وهو ألصق بالعقيدة من سائر المحرمات قبله، وقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده بلا شريك " (٢).

فلابد إذ أن يكون التوجه بالذبح والنحر والنسك لله وحده وأن يذكر اسمه وحده عليه: " فالقرآن الكريم يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح، لأن المقصود في النحر هو التقرب إلى الله، ومن ثم فان أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة، وكأنما هو الهدف المقصود من النحر ذاته " (٣). وذلك: " لأن الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات،

---

(١) المصدر السابق ٨٤٠/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١ /١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٤٢٠/٤ .

ويتوجه بها كلها إلى الله، ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل، والنشاط والعبادة، والحركة والعادة، إلى تلك الوجهة الواحدة، وبذلك تصبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة.

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أُهل لغير الله به، وحتَّم ذكر اسم الله عليها، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله. { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } [سورة الحج:٤٣] ، وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر، فالشعائر منبثقة عن العقيدة وقائمة عليها ومعبرة عنها " (١).

الثاني: ما ذبح عند الأنصاب والأوثان وإن ذكر اسم الله عليه:

فما ذبح عند الأوثان والنصب والمقامات فهو من الشرك الذي حرمه الله تعالى بقوله: { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ } [سورة المائدة:٣] . (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٤٢٣/٤ .

(٢) ينظر كلام أهل العلم في: تفسير ابن كثير ١٠٩٩/٣ ، الدرر المضيئة للشوكاني ص ٢٠، تطهير الاعتقاد للصنعاني تحقيق حلاق ،دار الصحوة – صنعاء ، طبعة عام ١٤١١هـ ص ٣٣ .

يقول سيد – رحمه الله–: " وأما ما ذبح على النصب – وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية، ومثلها غيرها في أي مكان – فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام – حتى لو ذكر اسم الله عليه، لما فيه من معنى الشرك بالله. " [(1)]

ب– النذر وتقديم القرابين لغير الله:

يقصد بالنذر شرعاً: ما أوجبه المكلف على نفسه مما يظهر فيه وجه القربة تعظيماً لله تعالى"[(2)].

وهو نوعان:

الأول: نذر مجازاة: بأن يلتزم الشخص قربة في مقابل حدوث نعمة أو اندفاع بلية، كان يقول: إن شفاني الله أو رزقني ولداً فله عليَّ صوم كذا أو صدقة أو نحو ذلك، وهذا يجب الوفاء به إذا حصل ما علق به.

والثاني: نذر ابتداء: وهو ما يلتزمه الإنسان من غير تعليق على شرط تقربا لله، وهذا أيضاً يجب الوفاء به[(3)].

---

(١) في ظلال القرآن ٨٤٠/٢ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٣٠٨ ، وفتح القدير للشوكاني ص ٣٤٧ .

(٣) الفقه الميسر لأحمد عاشور : دار اليوسف – بيروت – ب.ت – ص٣١٥ ، وتيسير العزيز الحميد ص ٢٠٣ .

والنذر من العبادات التي أمر الله بالوفاء بها، ومدح الله الموفين بها، وبالتالي فلا يجوز التقرب به إلا لله – سبحانه – شأنه شأن بقية العبادات.

ويكون النذر لغير الله – جل وعلا – شركاً به في العبادة، وذلك كالنذور الواقعة من عُبَّاد القبور للأموات تقرباً إليهم ليقضوا حاجاتهم وليشفعوا لهم، لأنها تقوم على اعتقاد في المنذور له أنه يملك الضر والنفع مع الله أو من دونه " (١).

يقول سيد – رحمه الله–: " والنذر نوع من أنواع النفقة يوجبه المنفق على نفسه مقدّراً بقدر معلوم والنذر لا يكون لغير الله ولوجهه وفي سبيله، فالنذر لفلانٍ من عباده نوع من الشرك، كالذبائح التي كان يقدمها المشركون لآلهتهم وأوثانهم في شتى عصور الجاهلية " (٢).

ويبين سيد – رحمه الله– أن السدنة والكهنة والرؤساء قديماً وحديثا ومعهم شياطين الجن يزينون للناس التقرب إلى الأوثان ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم من جهة، وليحصلوا هم على المصالح المادية التي تأتيهم من النذور والقرابين من جهة أخرى، فيقول: " فأما مصلحة شياطين الإنس – من الكهنة

---

(١) تطهير الاعتقاد للصنعاني ص ٣٣ ، وأدب الطلب للشوكاني ص ٢٠٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١/٣١٣.

والسدنة والرؤساء – فهي متمثلة **أولاً:** في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة! ومتمثلة .

ثانياً: في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس، وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة! وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجاح الإغواء والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم، ويفسدوا عليهم دينهم، ويقودوهم ذللاً إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة!

وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب، وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى، للإغريق والفرس والرومان، والتي ما تزال تقع في الهند وإفريقية وآسيا..

" وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد، أو قتل بعض الأبناء في النذر للآلهة كالذي روي عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه! " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ١٢١٨/٣ بتصرف يسير .

" ومن ذلك أيضا ما كان عليه المشركون على عهد رسول الله - ﷺ - وقبله، ينذرون بعض أبنائهم للآلهة، أو لخدمة معابد الآلهة! تقرباً وزلفى إلى الله! ومع توجههم في أول الأمر لله، فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيباً في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس، أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك، مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد، ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة، والناس هم الناس!

على أننا نرى في زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك، ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التي ترسمها نصوص القرآن الكريم.

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها " القوم " ويسمونها " الوطن "، ويسمونها " الشعب ".. إلى آخر ما يسمون، وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون، ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - في خلقه، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة

القديمة! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاقٍ واسع! " [(١)].

" وإننا لنشهد اليوم – بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن بهذا البيان –أنه حيثما انفك رباط القلب البشري بالإله الواحد تاه في منحنيات ودروب لا عداد لها، وخضع لربوبيات شتى، وفقد حريته وكرامته ومقاومته، ولقد شهدت في هذا الجانب الخرافي وحده في صعيد مصر وريفها عشرات من الأوهام تطلق لها بعض صنوف الحيوان، للأولياء والقديسين، في ذات الصورة التي كانت تطلق بها للآلهة في الزمان القديم! " [(٢)]

ج- الحلق لغير الله: حلق الرأس ثلاثة أنواع:

الأول: نسك وقربة، كالحلق في الحج والعمرة.

الثاني: حاجة ودواء وعادة، يمارسه الإنسان كلما زاد شعره أو احتاج إلى إزالته.

الثالث: بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله، كما يفعله المريدون لشيوخهم [(٣)]

---

(١)المصدر السابق ٣ /١٤١٢-١٤١٣ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٢/٩٩٠ .

(٣) زاد المعاد لابن القيم ٤/١٤٦ بتصرف .

وقد أشار سيد – رحمه الله– أن حلق الرأس تقربا لغير الله من الشرك، ومن صور ذلك استبقاء شعر الغلام حتى يحلق على ضريح ولي أو قديس، حيث يقول "... كما يجعل الناس اليوم نصيباً في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس... " (١)

النوع الخامس: شرك الحاكمية والتشريع والطاعة:

الحاكمية –كما سبق – مصطلح يدل على قضية " الحكم بما أنزل الله " وما يستلزمه ذلك من التشريع والطاعة والإتباع، وهي قضية عقدية يبنى عليها معقد التفرقة بين الإيمان والكفر، وبين التوحيد الخالص والشرك، باعتبار صلتها الأصيلة بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، حيث لا يتحقق التوحيد إلا بإفراد الله بالخلق والأمر بقسمة الكوني والشرعي، وما يتبع ذلك من الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق والطاعة له وحده فيما يأمر به وينهى عنه.

وفيما يأتي بيان لما يتعلق بالشرك في الحاكمية عند سيد – رحمه الله–:

أولاً: مظاهر شرك الحاكمية:

---

(١) في ظلال القرآن ١٤١٢/٣.

لشرك الحاكمية والتشريع والطاعة مظاهر عديدة أشار إليها سيد – رحمه الله– ومنها: –

١– تشريع ما لم يأذن به الله:

بين القرآن الكريم في أكثر من موضع قضية إنفراد الله – سبحانه – بالأمر والحكم والتحليل والتحريم غاية البيان، وإلى جانب الآيات التي تثبت تفرد الله – سبحانه – بالحكم شرعاً وقدراً، هناك آيات أخرى تبين الأسباب التي من أجلها استحق الله – سبحانه – هذا التفرد، والصفات التي من أجلها كانت الحاكمية من خصائص الألوهية.

وقد وقف سيد – رحمه الله– كثيراً في ظلال الآيات المتعلقة بقضية التشريع، وبين انفراد الله وحده بهذا الحق وتوافي الديانات على إقرار هذا الحق لله –سبحانه – دون شريك (١).

كما بيَّن الأسباب التي من أجلها استحق الله وحده حق التشريع، ويمكن استعراض نماذج من كلام – سيد – حول ذلك فيما يأتي:

أ– من يملك حق التشريع للبشر:

(١) المصدر السابق ٨٨٨/٢ وما بعدها .

يقرر سيد – رحمه الله- في مواضع كثيرة أن الذي يملك حق الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم، هو الله -سبحانه – وليس لأي جهة غير الله شيئا من ذلك الحق فيقول: " والإقرار بوحدة الألوهية وقصر العبودية عليها يتضمن وحدة الجهة التي تصرِّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين، فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداءً فهو مشرك به أو كافر بألوهيته... "(١). " وقد كانت المعركة على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام، على من يكون هو رب الناس، الذي يحكمهم بشرعه، ويصرفهم بأمره، ويدينهم بطاعته؟ وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائماً لانتزاع هذا الحق من الطواغيت لترده إلى صاحبه الشرعي.. الله سبحانه.. "(٢) {إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ} [سورة يوسف:٤٠] " فالحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم أُلوهيته إذ الحاكمية من خصائص الألوهية "(٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٨٨٨/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١٨٥٢/٤ بتصرف ، وينظر أيضا ٢٠٢١/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ١٩٩٠/٤ .

" وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك، وقضاءه الإلهي الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً. حيث يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار، وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره، وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضي منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي، وهذا كذلك لا يكون إلا لله، شأنه شأن حكمه القدري باختلاف واحد: هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه، ولكنهم لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلاً راضين "(١).

" إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده لأنهما أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله، فالله – وحده– هو الذي يحل للناس ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وليس لأحدٍ أن يدعي هذا الحق، لأن هذا مرادف تماماً لدعوى الألوهية! ومن ثم فأي تحليلٍ أو تحريمٍ، يصدر عن غير الله – سبحانه – فهو باطل بطلاناً أصلياً، غير قابل للتصحيح، لأنه لا وجود له منذ الابتداء،

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٠١٨ بتصرف ، وينظر أيضا ٤/٢١١٤ .

والأمور التي أحلها الإسلام وكانت في الجاهلية حلالاً أو حرمها الإسلام وكانت في الجاهلية حراماً، فليس ذلك اعتماداً على أحكام الجاهلية، لأنها باطلة أصلاً بصدورها عن جهة لا تملك حق الحاكمية، وإنما هو ينشئ هذه الأحكام ابتداءً، وهذه النظرية الإسلامية في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية ولا يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة، إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم في نكاح ولا في طعام ولا في شراب ولا في لباس ولا في حركة ولا في عمل ولا في عقد ولا في تعامل ولا في ارتباط ولا في عرف ولا في وضع، إلا أن يستمد سلطانه من الله حسب شريعة الله.

وكل جهة أخرى تحرم أو تحلل شيئاً في حياة البشر – كبر أم صغر – تصدر أحكامها باطلة بطلاناً أصلياً غير قابل للتصحيح المستأنف، فالإسلام أنشأ أحكامه في الحل والحرمة مستنداً إلى المصدر الذي يملك إنشاء الأحكام " سلطانه الخاص " ولهذا عني القرآن بتقرير هذه النظرية وكرر الجدل مع الجاهليين حولها، مقرراً المبدأ الأساسي، وهو أن الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده، وليس ذلك لأحد من البشر، لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين إلا بسلطان من الله وفق شريعة الله، والتحليل والتحريم – أي الحظر والإباحة – هو

الشريعة وهو الدين، فالذي يحلل ويحرم هو صاحب الدين، فإذا كان هو الله فالناس في دينه وإذا كان غير الله فالناس في دين غير الله لا في دين الله، والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها، وهي مسألة الدين ومفهومه، وهي مسألة الإيمان وحدوده، فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر؟ أين هم من الدين وأين هم من الإسلام " (١).

" إن النصوص القرآنية تجعل التحريم والتحليل – والتشريع كله – حقاً خالصاً لله، وتجعل مزاولته من البشر – بغير ما أذن الله – كفراً، بل زيادة في الكفر، وتعتبر قصر التشريع على الله وحده أصلاً من أصول العقيدة الإسلامية، وتربط ذلك بالحق الأصيل في بناء الكون.. فتشريع الله للناس إنما هو فرع عن تشريعه للكون "(٢)

ب– أسباب انفراد الله – سبحانه– بحق التشريع والحاكمية:

يعلل سيد قطب – رحمه الله– وجوب إفراد الله وحده بحق الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم بأمور منها:

---

(١) في ظلال القرآن ٦١٠/١–٦١١ بتصرف ، وينظر: ٢٨٦/١، ٣١٦، ٦٢٣/٢، ٨٣٢، ٩٩٠، ١٩١٩/٤، ١٩٦٣ .

(٢) المصدر السابق ١٦٥١/٣ بتصرف .

١- كون الله – سبحانه- هو صاحب الربوبية والتصرف المطلق في الخلق:

يقول سيد: " فالله هو الخالق، وهو الرازق، وهوالمالك، وهو صاحب القدرة والقهر والسلطان وهو العليم بالغيوب والأسرار، وهو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار، وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد، وألا يكون لغيره نهي ولا أمر، ولا شرع ولا حكم ولا تحليل ولا تحريم، فهذا كله من خصائص الألوهية ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة " (١).

" فالكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله إلا أن يكون هناك إلهٌ واحدٌ يدبر أمره، و{ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا } وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية، تعبيد العبيد، والتشريع لهم في حياتهم، وإقامة الموازين لهم، فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا، فقد ادعى لنفسه الألوهية، وأقام نفسه إلهاً من

---

(١) في ظلال القرآن ١٠١٧/٢ بتصرف يسير، وينظر: ١١٦٣/٢ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٦٣.

دون الله، وبذلك يقع الفساد في الأرض بتعدد الآلهة التي تدعي حق التشريع وإقامة الموازين" (١).

<u>٢- أن حكم الله أحسن من حكم غيره: -</u>

فالله - سبحانه- يستنكر على الذين يريدون حكم الجاهلية ويسألهم قائلاً: { أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [سورة المائدة:٥٠] .

يقول سيد - رحمه الله-: " ومعنى الجاهلية في هذا النص هي حكم البشر للبشر، وهي أمرٌ وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فمن لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، ومن يرفض شريعته الله يقبل بشريعة الجاهلية، وهذا مفرق الطريق.

والسؤال هنا لتقرير أفضلية حكم الله، فمن أحس من الله حكما؟

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم، خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟

---

(١) المصدر السابق ٤٠٦/١-٤٠٧ و٨٨٩/٢ بتصرف ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٦-١٤٧ ، ١٦٣ .

أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟

أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟

أيستطيع أن يقول: إن الله – سبحانه– وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير، ويجعل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد،

كان – سبحانه – يجهل أن أحوالاً ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوى شعبٍ من الشعوب، أو هوى جيلٍ من أجيال البشر، فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟!! "(١).

" واعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس، أشار الله إليه بقوله: { وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ }، فالاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله، في كل طور من أطوار الجماعة، وفي كل حالة من حالاتها، داخل في

---

(١) في ظلال القرآن ٩٠٤/٢–٩٠٥ بتصرف .

قضية الكفر والإيمان، فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحدٍ من البشر، تفضل أو تماثل شريعة الله، في أي حالة أو طور.. ثم يدعي – بعد ذلك –أنه مؤمن بالله، وأنه من المسلمين...

أما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها، فإن حكمة شرائع الله لا تتكشف كلها للناس في جيل من الأجيال، ويمكن الإشارة هنا إلى بعضٍ منها:

* أن شريعة الله تمثل منهجاً شاملاً متكاملاً للحياة البشرية، يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية، في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها.

* أن هذا المنهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الإنسان وحاجاته، وحقيقة الكون وطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الإنسان وبالتالي يحصل التوازن والتوافق وينتفي التصادم وهذا ما لا يتوفر في أي منهج من صنع البشر.

* أن هذا المنهج قائم على العدل المطلق، لأن الله وحده يعلم بما يتحقق العدل، ولأنه – سبحانه – رب الناس جميعاً، فمنهجه مبرأ من الهوى والميل والضعف، ومن الجهل والقصور والغلو والتفريط، الأمر الذي لا يمكن توفره في أي منهج من صنع البشر.

* أنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان – المتمثل في طاعة مناهج البشر والدينونة لها "(١).

وبناء على ذلك يقرر سيد – رحمه الله– أن قضية التشريع هي قضية إسلام أو جاهلية، فالجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام، وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته، ويستوي أن تكون هذه الأهواء – أهواء فردٍ أو طبقة، أوأمةٍ أو جيل – فكلها مادامت لا ترجع إلى شريعة الله... أهواء.

– يشرع فرد لجماعة فإذا هي الجاهلية، لأن هواه ورأيه هو القانون– لا فرق إلا في العبارات.

– وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية، لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون – أو رأي الأغلبية هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات!

– ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية، لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً منها وجهلهم هو القانون– فلا فرق إلا في العبارات!

---

(١) المصدر السابق ٨٨٩/٢–٨٩٠ بتصرف يسير وينظر ٢٩٥/١ .

– وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية، لأن أهدافها القومية، أو رأي المجامع الدولية هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات!

– ويشرع خالق الأفراد، وخالق الجماعات، وخالق الأمم والأجيال، للجميع فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحدٍ على حساب أحد، لا لفردٍ ولا لجماعةٍ ولا لدولةٍ، ولا لجيلٍ، لأن الله رب الجميع، ويعلم حقيقة ومصلحة الجميع، فلا يفوته – سبحانه – شيء من ذلك...

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان، وفي نظام الكون كله: { وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان، بنص القرآن الكريم " (١).

" إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، وكل خلقه أمامه سواء، فلا يظلم أحداً منهم لمصلحة أحد، وكل حكم غير حكمه هو

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٩١ بتصرف يسير .

مظنة الحيف فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم، أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة " [١].

ج- حكم من ادعى حق التشريع لنفسه أو غيره:

يقول سيد – رحمه الله-: " إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه- سبحانه- بحكم إلوهيته إذ الحاكمية من خصائص الألوهية من ادعى الحق فيها فقد نازع الله- سبحانه – أولى خصائص إلوهيته، سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة...

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص إلوهيته سبحانه، فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول: أنا ربكم الأعلى، كما قالها فرعون جهرة.

---

(١) المصدر السابق ٢٥٢٦/٤ .

ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات جهة أخرى غير الله سبحانه، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية... "(١)

ويقول أيضا: " والمشركون هم: الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الألوهية، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه " (٢).

" فأيما إنسان زعم لنفسه أنه أعلم من الله بمصلحة عباده، أو زعم أن هذا المنهج الرباني لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض، أو زعم أنه يملك ابتداع منهجٍ أمثلَ من المنهج الذي أراده الله، أيما إنسان زعم واحدة من هذه الدعاوى أو زعمها جميعاً فقد كفر كفراً صراحاً لا مراء فيه " (٣).

---

(١) المصدر السابق ١٩٩٠/٤ .

(٢) في ظلال القرآن ١١٢٩/٢.

(٣) المصدر السابق ٢٨٣/١ وينظر مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧- ١١٨، ١٥١

وبعد أن استعرض سيد – رحمه الله– كلام بعض السلف في أهل البدع قال: " فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله، وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ومن يقره على هذا الادعاء، فليس هذا بدعة مبتدع، ولكنه كفر كافر، أو شرك مشرك مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم، فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى، وهو يزعم الإسلام، ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام – إلا من عصم الله –، وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام " [١].

" وبالرجوع إلى أصل القضية، وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم هي أولى خصائص الألوهية التي لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك، وأن الذي يدعي حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه إنما يدعي حق الألوهية، وأن الذي يقره على هذا الادعاء أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند

---

(١) في ظلال القرآن ١١٣٠/٢ .

نفسه – إلا مكرهاً كارهاً منكراً باليد أو باللسان أو القلب – إنما يقره على ادعاء صفة الألوهية " [١].

٢- الحكم بغير ما أنزل الله وتحكيم غير شريعته في الناس والتحاكم إليها:

" الحكم بما أنزل الله وتحكيم شرعه والتحاكم إليه، هو مقتضى شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" حيث لا يقبل من العباد إلا العبودية الخالصة لله، متمثلة في الاستسلام اعتقاداً وشعوراً وعملاً وطاعةً وإتباعاً للمنهج العملي المتمثل في أحكام الشرع، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يشركون معه غيره، حيث يتحاكمون إلى غير شريعته، ويطيعون غير أمره ويتلقون من غيره- سبحانه- وهذه كلها تناقض الإيمان ولا تستقيم مع شهادة الحق " [٢].

وقد حسم القرآن الكريم قضية الحكم بغير ما أنزل الله في كثر من الآيات، ودمغ من يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق، فقال سبحانه: { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ } [سورة المائدة:٤٤] بهذا الحسم الصارم

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٨/١ بتصرف .

الجازم، وبهذا التعميم الذي تحمله "من " الشرطية وجملة الجواب، بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان، وينطبق حكماً عاماً، على كل من لم يحكم بما أنزل الله، في أي جيل، ومن أي قبيل.

والعلة هي: أن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنما يرفض ألوهية الله، فالألوهية من خصائصها ومقتضياتها الحاكمية التشريعية، ومن يحكم بغير ما أنزل الله، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر، وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان، والعمل – وهو أقوى تعبيراً من الكلام – ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟!

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة، والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه، وليس لهذه المماحكة من قيمةٍ ولا أثرٍ في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد " [١].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٩٨ .

" وفي قوله تعالى: { وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ } [سورة المائدة:٤٥] ، وصف جديد عام لمن لم يحكم بما أنزل الله وهو" الظلم " ولا يعني هذا الوصف الجديد أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر، وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله، فهو " كافر" باعتباره رافضاً لألوهية الله–سبحانه–واختصاصه بالتشريع لعباده، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس، وهو" ظالم " بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم الصالحة المصلحة لأحوالهم، فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة، وتعريضها لعقاب الكفر، وبتعريض حياة الناس – وهو معهم – للفساد.

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط: {وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ } فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول، ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو " من " المطلق العام؟!!

وقوله تعالى: { وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ }، نص على عمومه وإطلاقه وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل، وليست تعني قوماً جدداً ولا

حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى، إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل، ومن أي قبيل.

" الكفر" برفض ألوهية الله ممثلاً هذا في رفض شريعته.

و" الظلم " بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم.

و" الفسق " بالخروج عن منهج الله وإتباع غير طريقه، فهي صفات يتضمنها الفعل الأول، وتنطبق جميعها على الفاعل، ويبوء بها جميعاً دون تفريق "(١).

ويمثل الوضوح والحسم في بيان كفر من حكم بغير ما أنزل الله، جاء حكم من يتحاكم إلى غير ما أنزل الله حيث يقول سبحانه: { أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا } [سورة النساء:٦٠] .

فإرادة التحاكم إلى الطاغوت – وهو " كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٠١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٨ .

عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً، أو وثناً أو كائناً ما كان من شيء " [1]، تناقض دعوى الإيمان، فالطاغوت يقابل شرع الله، فكل ما لم يشرعه الله فهو طاغوت يجب الكفر به وعدم التحاكم إليه، فلا إيمان مع الاتجاه إلى التحاكم إلى غير شريعة الله، والبعد عن تحكيم شريعة الله "[2].

ويلخص سيد - رحمه الله- القضية بقوله: " على أنه بالرجوع إلى أصل القضية وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم هي أولى خصائص الألوهية، التي لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك، وأن الذي يدعي حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه - إلا مكروهاً كارهاً منكراً باليد أو اللسان أو القلب - فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية، وأن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله - سبحانه- ولو في جانب من جوانب هذا الكون هو الحياة البشرية - وأنه من يقره على هذا الرفض فإنما يشترك معه في رفض ألوهية الله - سبحانه - في هذا الجانب، وأن الذي يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه أنه مسلم لله -مهما

---

(١) تفسير الطبري . ١٣٦/٤

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٨-١٧٢ بتصرف .

زعم ذلك بلسانه – طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت، وعدم التحاكم إلى شريعة الله، ومن باب أولي الحكم بالطاغوت وعدم الحكم بما أنزل الله، فالحكم بما أنزل الله لا يتحقق إلا بالحكم بنص شريعة الله والرجوع فيما يختلف فيه، مما ليس فيه نص إلى الله ورسوله، لا إلى مصدر سواه.

نقول بالرجوع إلى هذه الأصول التي تقررها نصوص القرآن الكريم الصريحة لا مفهوما ته المستنبطة، لا تبقى حاجة إلى بيان جديد، ولا يبقى مجال للجدل الجاد، وإنما هو المراء الذي لا يستحق الاحترام {قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ } (١).

والخلاصة: " أن الإيمان والإسلام ينتفيان عمن لا يحكم بما أنزل الله، ولا عبرة بما يقوله اللسان إذا صاحب هذا القول عدم الحكم بما أنزل الله، فهذا من الكفر البواح، الذي عند المسلمين فيه سلطان من الله " (٢).

٣- الإعراض عن حكم الشرع وعدم الرضى به:

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩-١٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥ . بتصرف يسير

يقول سيد: " الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى الإيمان بالله على الإطلاق " (١). " فالتشريعات كلها منوطة بالإيمان، وتنفيذها كما هي هو الإيمان، أو هو دليل الإيمان فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان، ويستره ويغطيه ويجحده " (٢).

ويرى سيد – رحمه الله– أن قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ } [سورة آل عمران:٢٣] " عامٌ في اليهود والنصارى والمسلمين، فهو سؤال التعجب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب.. فهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون جميعاً لهذه الدعوة، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته، الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله، فالله يعجب من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم – لا كلهم – عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦٤/١ .

(٢) المصدر السابق ٨٤٨/٢ .

الحياة، فكيف بمن يقولون: أنهم مسلمون، ثم يُخْرِجُون شريعة الله من حياتهم كلها، ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون! أنه مَثَلٌ يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجب الله وتشهيره بهم، فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله، فكيف يكون الاستنكار إذا كان " المسلمون " هم الذين يعرضون هذا الإعراض، إنه العجب الذي لا ينقضي، والبلاء الذي لا يقدر، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله! والعياذ بالله! "(١).

ذلك أنه " لا يجتمع في قلبٍ واحدٍ الخوف من الآخرة والحياء من الله، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة.. ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون، ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون، وفيهم من يتبجحون ويتوقحون، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨٢/١ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٨٣/١

" إن عدم الرضى بحكم شريعة الله وقانونه، والإعراض عنها من علامات النفاق، فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله "(١). ولهذا جاء النص واضحاً وحاسماً حيث يقسم الله – سبحانه– بذاته العلية، أنه لا يؤمنُ مؤمنٌ حتى يحكم رسول الله ﷺ في أمره كله، ثم يمضي راضياً بحكمه، مسلماً بقضائه ليس في صدره حرج منه، ولا في نفسه تلجلج في قبوله: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا } [سورة النساء:٦٥] " شرط الإيمان وحدّ الإسلام، يقرره الله –سبحانه – بنفسه، ويقسم عليه بذاته، فلا يبقى بعد ذلك قولٌ لقائلٍ في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويلٌ لمؤولٍ، اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام، وهي أن هذا القول مرهون بزمان، وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئاً، ولا يفقه من التعبير القرآني قليلاً ولا كثيراً، فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام، جاءت في صورة قسم مؤكد، مطلقة من كل قيد، وليس هناك مجالٌ للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله – ﷺ – هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم

---

(١) المصدر السابق ٢٥٢٦/٤. بتصرف .

شريعته ومنهجه، وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته – ﷺ – وذلك قول أشد المرتدين ارتداداً على عهد أبي بكر – رضي الله عنه – وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين، بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير، وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله في حكم الزكاة، وعدم قبول حكم رسول الله – ﷺ – فيها، بعد الوفاة!

وإذا كان يكفي لإثبات " الإسلام " أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله، فإنه لا يكفي في " الإيمان " هذا، ما لم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب والجنان، في اطمئنان! هذا هو الإسلام، وهذا هو الإيمان. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام، وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! " [١].

٤- إقصاء شريعة الله أو بعضها عن الحكم:

يقول سيد: " لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين، ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر، ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٩٦ – ٦٧٠ وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٥ .

وقد علم الله حين رضيه للناس، أنه يسع الناس جميعاً، وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً، وأنه يسع حياة الناس جميعاً إلى يوم الدين، وأي تعديلٍ في هذا المنهج – ودعك من العدول عنه – هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من هذا الدين، ولو قال باللسان ألف مرة: أنه من المسلمين! " (١).

" فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئاً إلا الفساد في الأرض، والانحراف عن المنهج الوحيد القويم، والتساهل في شيء من شريعة الله لأي سبب أمرٌ لا يجوز أن يفكر فيه مسلم، فالناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أن يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعض منها – ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر– في أي صورة من الصور– فليسوا بحالٍ في دين الله، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية، وهذا مفرق الطريق " (٢). " إن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله، وليس له من

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٠٢ .

(٢) المصدر السابق ٢/٩٠٣،٩٠٤بتصرف .

وصف غير الشرك والكفر" [1] " لأنه بذلك ينازع الله في خصائص ألوهيته حين ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر أخر ولو كان هو الأمة بمجموعها "[2].

" إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته، إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره، إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٠ ، وفي ظلال القرآن ١٠٤٨/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٩٠/٤ بتصرف .

عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " في أخص حقيقتها، وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان! " (١)

ويعقب سيد – رحمه الله– على قصة قوم شعيب واستنكارهم الربط بين العقيدة والشعائر، وبين الشرائع والمعاملات بقوله: " وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة، وارتباطهما معاً بالمعاملات عند أهل مدين قبل ألوف السنين، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب، وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يقولون: أنهم يهود أو نصارى أو مسلمون فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر، والشريعة والتعامل، فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ووفق أمره، وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله، إن بيننا اليوم ممن يقولون: إنهم مسلمون! من يستنكر وجود صلة بين

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢١١٤-٢١١٥ .

العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية. وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم، يتساءلون أولاً في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله " المتحضرون "؟!.. فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين: {أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ }..

وهم يتساءلون ثانياً. بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد، فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده، وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية –النظرية الأخلاقية مثلاً– ويعدونها تخليطاً من أيام زمان!، فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية " (١).

---

(١) المصدر السابق /١٩١٩–١٩٢٠ بتصرف وينظر أيضا ٣٨٢/١ .

" إذن فلا يتم الإسلام إلا بإتباع شريعة الله كلها وعدم إشراك أحد معه في الحاكمية، وأخذ جانب من غير الشريعة هو الشرك " (١).

٥- **شرك الطاعة والانقياد:**

تبين -فيما سبق- أن الذين يشرعون شرعاً يخالف شرع الله – جل وعلا – ويحكمونه في الناس يجعلون من أنفسهم أنداداً وشركاء لله تعالى بتعديهم على حق الله – سبحانه – الذي لم يمنحه لأحد من خلقة لا فرداً ولا حزباً ولا هيئةً من الهيئات، وهنا نعرض لأمرٍ مرتبط بقضية شرك التشريع وهو طاعة المشرعين من دون الله – سبحانه- فيما يخالف شرع الله، وعلاقة ذلك بالشرك بالله تعالى.

فالطاعة: هي موافقة الأمر بفعل المأمورات ولو ندباً، وترك المنهيات ولو كراهةً (٢).

فهي إذن تعني: الإتباع والانقياد للغير، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي الصادرة عنه، مع الرضى والموافقة، وهي بهذا مرادفة للعبادة (٣).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٧ .

(٢) الكليات للكفوي ص ٥٨٣ ، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٥ .

(٣) تعظيم قدر الصلاة ، لمحمد بن نصر المروزي ٣٤٦/١ ، وفتح القدير للشوكاني ٤٣٣/٤ .

فإذا تقرر هذا فلا يمكن أن تكون إلا لله – سبحانه– كونه هو الذي يستحق الطاعة المطلقة والخضوع والذل دون غيره، وقد جاءت آيات كثيرة بالأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته ومخالفة أمره، وتسمية الإعراض والتولي عن طاعته كفراً، قال تعالى: { قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ } [سورة آل عمران:٣٢] ، وبناءً على ذلك فان شرك الطاعة والانقياد يقصد به طاعة غير الله فيما يشرعونه من أحكام مخالفة لشرع الله، سواءً في باب التحليل أو التحريم، أو الجزاء عليهما.

وقد تكلم سيد – رحمه الله– كثيراً عن شرك الطاعة والانقياد، موضحاً: " أن الإسلام منهج للحياة كلها، من اتبعه كله فهو مؤمن وفي دين الله، ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله، وخرج من دين الله مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم، فإتباعه شريعةً غير شريعة الله يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله " (١).

وعلل ذلك بقوله: " الإسلام هو طاعة الله والرسول، والطريق إلى الله هو طريق الإتباع للرسول وليس مجرد اعتقاد القلب، ولا شهادة اللسان: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

(١) في ظلال القرآن ٩٧٢/٢ .

ٱللَّهُ } [سورة آل عمران:٣١] ، { قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ } [سورة آل عمران:٣٢] . فإما طاعة وإتباع يحبه الله، وإما كفر يكرهه الله، وهذا هو مفرق الطريق "(١).

"كما أن من مستلزمات شهادة" أن لا إله إلا الله" العبودية الخالصة له، الممثلة في الاعتقاد والشعور والعمل والطاعة والإتباع للمنهج العملي المتمثل في أحكام الكتاب، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون: أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله ولا تستقيم مع شهادة الله – سبحانه – بأنه لا إله إلا الله " (٢).

ويزيد الأمر وضوحاً فيقول: " إن الأمر في هذا الدين – الإسلام – بل في دين الله كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ هو لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٨/١ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٨ .

على هؤلاء الناس؟ وعلى الإجابة عن هذا السؤال يترتب كل شيء: لمن الألوهية؟ ولمن الربوبية؟

لله وحده - بلا شريك من خلقه - فهو الإيمان إذن وهو الإسلام وهو الدين.

لشركاء من خلقه معه أو لشركاء من خلقه دونه فهو الشرك إذن أو الكفر المبين.

فأما إن تكن الألوهية والربوبية لله وحده فهي الدينونة من العباد لله وحده، وهي العبودية من الناس لله وحده، وهي الطاعة من البشر لله وحده وهي الإتباع لمنهج الله وحده بلا شريك، فهذا مقتضى الألوهية والربوبية، وأما إن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله - شركة مع الله أو أصالة من دونه! - فهي الدينونة من العباد لغير الله، وهي العبودية من الناس لغير الله وهي الطاعة من البشر لغير الله، وذلك بالإتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين التي يضعها ناس من البشر لا يستندون في وضعها إلى كتاب الله وسلطانه، إنما يستندون إلى أسناد أخرى يستمدون منها السلطان، ومن ثم فلا دين ولا إيمان ولا إسلام، إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان.. ومن ثم يستوي أن يكون الخروج على حدود الله في أمر واحد أو في الشريعة كلها، لأن الأمر الواحد هو الدين،

والشريعة كلها هي الدين، فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس، أهي إخلاص الألوهية والربوبية لله – بكل خصائصها – أو إشراك أحد من خلقه معه، أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض "[1]. أما من يطيعون من يشرع غير ما أنزل الله مما يخالف شرع الله، فيرى سيد – رحمه الله – أن من أطاع غير الله في هذا الباب فهو مشرك فيقول في ظلال قوله تعالى: { وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ } [سورة الأنعام ١٢١] ، بعد أن بين أن الله – سبحانه – هو وحده صاحب الحق في وضع الميزان الذي يحتكم إليه الناس، وهو الذي تصدر عنه الأحكام والقيم والموازين: " وأمام هذا التقرير نقف لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والإتباع في هذا الدين، إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحدٍ من البشر في جزئية من جزيئات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية، أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله إلى

---

(١) في ظلال القرآن ١ /٥٩٥-٥٩٦ بتصرف يسير وينظر: ٢/٩٩٠-٩٩١ ، ١٠٥٤-١٠٥٧،٤/١٩٦٤ ، ٢٠٣٢ .

الشرك بالله، وفي هذا يقول ابن كثير: "وقوله تعالى: { وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ }. أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه، إلى قوله غيره، فقدم عليه غيره، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [سورة التوبة ٣١] وقد روي في تفسيرها عن عدي بن حاتم–رضي الله عنه–أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم. فقال: "بلى" إنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم ". (١)

وعن السدي في قوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ }، قال: " استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: {وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا } [سورة التوبة:٣١] ، أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ" (٢).

---

(١) سبق تخريجه ص٣٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ١٦٤٥/٤.

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير، وكلاهما يقرر في حسم وصراحة ووضوح – مستمدة من حسم النص القرآني وصراحته ووضوحه، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك – أن من أطاع بشراً في شريعة من عند نفسه، ولو في جزئية صغيرة فهو مشرك، وإن كان في الأصل مسلماً ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضاً، مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه بينما هو يتلقى من غير الله، ويطيع غير الله.

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإننا نرى الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية، ولم يقبل منها شرعاً ولا حكماً – إلا في حدود الإكراه – "[١].

" وحديث رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم فيه دلالة قاطعة في أن قبول التشريع من الأحبار والرهبان – ومثلهم كل أحد غير الله ورسوله متى كان يشرع من عند نفسه لا من شريعة الله – هو عبادة لهم وهو اتخاذهم أرباباً من دون الله " [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ١١٩٧/٣-١١٩٨ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص١٦٧ .

" إن إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله -ﷺ- فحد الإيمان وشرطه أن لا يتخذ الناس تشريعاً جزئياً واحداً يخالف منهج الله للحياة البشرية... والنهي عن التحاكم إلى ما لم يشرعه الله، والتعبير عن هذا النهي بأنه أمر بالكفر بالطاغوت، له دلالته في التعبير القرآني، فالقضية قضية عقدية، قضية كفر أو إيمان، بالله أو بالطاغوت، وهما لا يجتمعان في قلب إنسان "[1].

وفي ظلال قوله تعالى: { مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ } [سورة المائدة:١٠٣] . يقول سيد: " والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار، كفار يفترون على الله الكذب، مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون: شريعة الله، ومرة يقولون: إننا نشرع لأنفسنا ولا ندخل شريعة الله في أوضاعنا، ونحن مع هذا لا نعصي الله، وكله كذب على الله...

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم الذي جاء به من عند الله، فهم لم يكونوا يجحدون الله، بل كانوا يعترفون بوجوده وبقدرته وبتصريفه للكون كله، ولكنهم مع ذلك

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩-١٧١ بتصرف .

كانوا يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون أن هذا شرع الله! وهم بهذا كانوا كفاراً، ومثلهم كل أهل جاهلية في أي زمان وفي أي مكان.... وما يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول! فوق أنه مفترٍ كفور! "[١].

" أن قضية الطاعة والانقياد لغير الله تناقض الإيمان وتناقض العبودية لله، وتوقع صاحبها في الشرك بالله تعالى "[٢].

وخلاصة كلام سيد في شرك الحاكمية والتشريع والطاعة:

* بالنسبة للحاكمين بغير ما أنزل الله: فكلام سيد قطب – رحمه الله – صريح في تكفير من لم يحكم بما أنزل الله، فهو يرى أنهم بعملهم هذا – لا يعتبرون مسلمين – مهما ادعوا بألسنتهم، ويستند في حكمه عليهم بالكفر والشرك إلى الآيات القرآنية الصريحة في هذا الباب – كما سبق – والتي صرحت بكفر من لم يحكم بما أنزل الله، باعتباره رافضا لألوهية الله التي من مقتضياتها إفراده – سبحانه – بالحاكمية التشريعية [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٩٠-٩٩١ بتصرف .

(٢) ينظر: المصدر السابق ٢/١٠٥٤-١٠٥٧ ، ٤/١٩٦٤ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٣ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ٢/٨٩٨ ، ٩٠١ – ٩٠٥ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٠ .

* أما بالنسبة للمحكومين بغير ما أنزل الله: فيعتبرهم سيد – رحمه الله– كفاراً أيضاً إذا توفرت فيهم شروط أشار إليها في معرض حديثة ومنها:

١– إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله (١).

٢– الرضى وقبول حكم غير الله، وعدم الإكراه والإنكار(٢).

٣– رفض حكم الله وعدم الرضى به إذا طبق عليهم والتولي عن قبوله (٣).

كما يظهر لنا أن سيد – رحمه الله– يرى: " أن قضية الحاكمية والشريعة في هذا الدين هي قضية عقيدة ودين قبل أن تكون مسالة حكم ونظام، وهي قضية إيمان أو كفر، قبل أن تكون مسالة صلاح أو فساد، هي قضية دخول في دين الله، أو خروج منه قبل أن تكون مسالة شكل من أشكال الحكم، أو نظام من أنظمة المجتمع، إنها قضية وجود هذا الدين في الأرض أصلاً، أو محو هذا الدين!

---

(١) في ظلال القرآن ٦٩٣/٢ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١١٩٨/٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٨٩٥/٢ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٢ .

ولقد صدق رسول الله ﷺ: وهو يقول عارفاً بطبيعة هذا الدين، ومستشرفاً بروحه لما سيكون: " ينقض هذا الدين عروة عروة، فأولها الحكم وأخرها الصلاة " (١).

ولقد نقض هذا الدين عروة عروة، فلينظر الذين يدعون أنفسهم " مسلمين " أين هم من هذا الدين، لتنظر العصبة المؤمنة في الأرض من أين تبدأ طريقها لإقامة هذا الدين! "(٢).

---

(١) رواة : الحاكم ٦/١ برقم ٨٧٥٧ ،وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، مكتبة المعارف – الرياض ط١ عام ١٤٢١ هـ ، ١/ ٣٦٩ برقم ٥٧٢ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٠ .

المبحث الثاني
الكفــر

أولاً: تعريف الكفر:

الكفر في اللغة: التغطية والستر، ووصف به الليل لستره الأشخاص، والمزارع لستره البذر[1]

أما في الاصطلاح: فقد تنوعت تعريفات الفرق والعلماء للكفر بناء على الاختلاف في مسمى الإيمان.

والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن الكفر نقيض الإيمان، وما دام الإيمان: قول وعمل واعتقاد، فإن الكفر: هو كل اعتقاد أو قول أو عمل حكم الشارع بأنه يناقض الإيمان[2]، وما دام الإيمان شعب ومراتب، فالكفر كذلك شعب ومراتب، فهناك كفر أكبر يناقض أصل الإيمان، وهناك كفر أصغر يناقض كمال الإيمان[3].

---

(١) لسان العرب ١٤٤/٥ ، والمفردات للراغب، ص ٤٣٣ .

(٢) نواقض الإيمان القولية والعملية ، د .عبد العزيز آل عبد اللطيف ،ص ٣٧ وما بعدها بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ ، ونواقض الإيمان الاعتقادية د .محمد بن عبد الله الوهيبي ، دار المسلم – الرياض ط٢ عام ١٤٢٢هـ ، ص ٥٥-٥٦.

أما العلاقة بين الكفر والشرك: فيرى بعض العلماء: أن الكفر والشرك بمعنى واحد، ويرى آخرون: أن هناك فرقاً بين الشرك والكفر، فالكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب منها الشرك بالله، فالكفر خصال كثيرة، كل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان، والشرك خصلة واحدة وهو إيجاد ألوهية مع الله أو دونه، واشتقاقه ينبئ عن ذلك، والراجح: أن الكفر أعم من الشرك، وقد يرد احدهما بمعنى الآخر في بعض النصوص الشرعية (١).

أما سيد – رحمه الله – فقد أشار إلى أن معنى الكفر في الاصطلاح الشرعي مأخوذ من المعنى اللغوي حيث يقول " والتشريعات والأحكام كلها منوطة بالإيمان، وتنفيذها كما هي هو الإيمان، أو هو دليل الإيمان، فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويجحده " (٢).

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٦٠ ، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري دار الآفاق – بيروت ط٥ عام ١٤٠٣هـ . ص ٢٢٣ ، وفتح الباري لابن حجر ٨٥/١ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ص ٣٦-٤٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٨٤٨/٢ .

ويقول أيضا " والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي، هو ملحوظ في مثل هذا التعبير، أي التعبير الاصطلاحي " [1].

ثانياً: أنواع الكفر:

ذكر سيد – رحمه الله– أنواعاً من الكفر الأكبر المخرج من الملة منها:

١– السحــر:

السحر في اللغة: كلما لطف مأخذه ودق، وأصله صرف الشيء عن حقيقته إلى غيرها، ويأتي بمعنى الخداع وبمعنى الاستمالة [2].

أما في الاصطلاح: فقد تنوعت تعريفات العلماء للسحر بسبب كثرة أنواعه، وقد أشار الإمام الشافعي إلى ذلك بقوله " والسحر اسم جامع لمعانٍ مختلفة "[3]. وأقتصر على تعريفين:

الأول: "أنه كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع[1].

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤٦ .

(٢) لسان العرب ٣٤٨/٤ ، القاموس المحيط ص ٥١٩ .

(٣) الأم للإمام الشافعي – دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ١٤١٢هـ ٣٩١/١ .

والثاني: "أنه عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتب أو يعمل شيء يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله " [٢].

ويلاحظ أن سبب الاختلاف في تعريفه هو اختلاف العلماء في معناه، هل هو حقيقة أم تخيل؟ حيث يرى البعض أنه حقيقة، ويرى آخرون أنه تخيل.

والصواب والله أعلم أن من السحر ما هو حقيقة، فيفرق بين المرء وزوجه، ولذا أمر الله تعالى بالاستعاذة به – سبحانه– من السواحر، فدل ذلك أن للسحر حقيقة، وبعض السحر لا حقيقة له بل هو تخيل [٣].

وقد ذكر العلماء أن للسحر ثلاثة أقسام:

الأول: السحر الحقيقي: وهو ما له حقيقة في الخارج.

---

(١) أحكام القران للجصاص – دار الكتب العلمية – بيروت – طبعة ١٤١٥هـ ٥٠/١ .

(٢) المغني لابن قدامه تحقيق د . التركي – دار هجر – القاهرة– ط ٢ – ١٤١٢هـ – ٢٩٩/١٢ .

(٣) تراجع تفاصيل ذلك في : تفسير الطبري ٤٦٣/١ ، وتفسير ابن كثير ٣٥٣/١ ، ومقدمة ابن خلدون مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ب.ت ١٩٤/٢–١٩٥ ، وفتح القدير للشوكاني ١١٩/١–١٢١، ونيل الأوطار للشوكاني ٤٣/٩ وعالم السحر د/ عمر الأشقر دار النقاش – عمان ط٢ عام ١٤١٨ هـ ص ٨٩ ، و السحر بين الحقيقة والخيال لأحمد الحمد ، مكتبة القرآن – مكة عام ١٤٠٨ هـ ص ٣٧– ٨٨ .

الثاني: السحر الخيالي: وهو ما يعتمد على قوى التخيل في الإنسان فيتصرف فيها بإلقاء أنواع من المحاكاة والصور التي يريد، باستخدام قوة الساحر فينظرها الرائي كأنها موجودة وهي لا وجود لها في الواقع، أو بأخذ عيون الرائين وإشغالهم، ويدخل في هذا النوع ما يلقيه الساحر في قلب الإنسان وفكره من صور قبيحة للزوجة والعكس، فيحيلها بتلك الصور فيكرهها، فيحصل التفريق بسبب إحداث تلك الصور (١).

الثالث: السحر المجازي:

وهو ما يقوم على الحيل العلمية ومعرفة خواص بعض المواد، وخفة الحركة ونحوها، كمن يدخل يده في النار فلا تحترق، لأنه دهنها بدهان مقاوم للحرارة أو نحو ذلك، ويدخل ضمن هذا النوع النميمة والاستمالة بالكلام ونحو ذلك (٢).

والسحر من الأمور المنافية لأصل التوحيد والإيمان، وهو من الظواهر الموجودة في كل الأمم كما قال تعالى: {كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [سورة الذاريات:٥٢]

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/١٩٤ – ١٩٥، وتفسير الطبري ١/٤٦٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ ، وعالم السحر والشعوذة للأشقر ص ١٢٩ – ١٤٧

(٢) عالم السحر والشعوذة للأشقر ص ١٢٩ وما بعدها

، ويدخل السحر في أنواع الكفر وفي أنواع الشرك أيضا، باعتباره يقوم على تعظيم غير الله واستخدام الشياطين وعمل الكفر أو اعتقاده، وهذا هو السحر عند الإطلاق [1].

موقف سيد قطب – رحمه الله– من السحر: يمكن بيان موقفه فيما يأتي:

١– السحر موجود في كل الأمم ويقترن دائما بالوثنية:

حيث يقول سيد: " وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر، ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان! " فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة! ويقول الملحدون منهم: إن الدين سيبطل كما بطل السحر! وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر!.. إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه: " العلم "! "[2]

---

(١) المغني لابن قدامه ١٢/ ٣٠١، والأم ، الإمام الشافعي ٣٩١/١ وتفسير القرطبي ٤٣/٢ وأحكام القران للجصاص ٥٣/١ ، وأضواء البيان للشنقيطي ٤٤١/٤ ، والإعلام بقواطع الإسلام للهيثمي دار المعرفة – بيروت طبعة عام ١٤٠٢ هـ ص ٣٩١ ، والقول السديد للسعدي طبعة الجامعة الإسلامية – المدينة عام ١٤٠٤ هـ.ص ٧٤– ٧٥

(٢) في ظلال القرآن ١٣٤٨٩/٣ .

٢ -أن السحر قائم على التخيل دون أن يغير من حقائق الأشياء:

حيث يرى أن السحر يقوم على التخييل واللعب بالعقول وخداع البصر والحواس باستخدام الحيل والشياطين، لكنه لا يغير حقيقة ولا طبيعة الأشياء، ففي ظلال قوله تعالى: {وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ.... الآية } [سورة البقرة:١٠٢]

يقول سيد - رحمه الله-: " فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه.. إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها! هذا " التيليباثي " - التخاطر عن بعد - ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره، فيتلقى عنه، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟

وهذا التنويم المغناطيسي ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما

يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل قط: ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم، إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها، وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه، هذه الأحلام التنبئة – وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها – كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد، كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى.

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة، إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً.. لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على

الإطلاق حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه...

والسحر من قبيل هذه الأمور، وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور، وقد تكون صورة من صوره: القدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ } [سورة طه:٦٦]، ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه، فالانفعالات تنشأ من التأثرات، وإن كانت الوسائل والآثار والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله، على النحو الذي أسلفناه " (١).

ويقول أيضا: " فالسحر ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هدف له إلا اللعب بالعقول" (٢).

(١) في ظلال القرآن ١/٩٦ – ٩٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٨١٤ .

" وهو تخييل لا حقيقة، وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فينشئ فيه آثاراً محسوسة كآثار الحقيقة، كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها، أو في صورة غير صورتها، وما يشاهد من تأثر المسحور أحياناً تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة، وليس من هذا النوع آيتا موسى، إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقاً، تحويلاً وقتياً أو دائماً " [(١)]، { فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } [سورة الأعراف:١٠٧] : فقوله: " فإذا هي" يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى ثعبان تدب فيه الحياة، فلم يكن الأمر تخييلاً، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة " [(٢)].

" فعهد الناس بالسحر أن يكون تخييلاً، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقاً، فلا تبقي لها أثراً، ولو كان ما جاء به موسى سحراً، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها، ولكنهم – أي السحرة – ينظرون فلا يجدونها فعلاً! عندئذ لا يملكون أنفسهم من

---

(١) المصدر السابق ٢٣٤٥/٤

(٢) في ظلال القرآن ٢٥٩٣/٥ ، وينظر ١٣٤٩/٣ .

الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلاً، وهم أعرف الناس بأنه الحق "[1].

وفي ظلال قوله تعالى { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ } [سورة طه:٦٦- ٦٧] . يقول سيد-رحمه الله-: " والتعبير يشير بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى، وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى: { قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ } [سورة طه:٦٨ – ٦٩] ." تلقف ما صنعوا " فهو سحر من تدبير ساحر وعمله، والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلاً ويصنع تخييلاً، ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية، شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق "[2].

وفي ظلال قوله تعالى: { وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ } [سورة الفلق:٤] . يقول سيد – رحمه الله –: " والنفاثات في

---

(١) المصدر السابق ٢٥٩٥/٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٤٢/٤ .

العقد: السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير في المشاعر، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء!

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام: سورة طه {قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ } [سورة طه:٦٥- ٦٩] ، وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلاً، ولكن خُيِّل إلى الناس وموسى معهم أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة، حتى جاءه التثبيت، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة.

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه،

مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد، وهي شر يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه " (١)

ويذكر سيد – رحمه الله– أن للأستاذ الشيخ / محمد عبده رأياً آخراً في تفسير النفاثات في العقد، في تفسيره لجزء عم، وان ذلك يقوم على ميل المدرسة العقلية لتضيف نطاق الغيبيات حيث رد سيد – رحمه الله– على هذه النزعة عند مدرسة الشيخ / محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل (٢).

<u>٣– أن تأثير السحر في الإنسان لا يخرج عن المشيئة الإلهية ووفقها:</u>

لقوله تعالى {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ} [سورة البقرة:١٠٢] ، " فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها، وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله، فالله هو الذي أودع النار خاصية

---

(١) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦ – ٤٠٠٨ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٠٨/٦ الهامش ١ ، وينظر ٣٩٧٦/٦–٣٩٧٩ .

الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، كما وقع لإبراهيم – عليه السلام – وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ينشئ هذا الأثر بإذن الله، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار، كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء "(١).

٤- أن السحر كفر من عمل الشيطان، والساحر كافر:

يقول سيد: " فالقرآن ينفي عن سليمان – عليه السلام –أنه كان ساحراً، فيقول: { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ } فكأنه يعد السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان–عليه السلام– ويثبته للشياطين: { وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ }، { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ }، فالقرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفراً، ويذكر هذا على لسان الملكين "(٢)، " وحسبنا أن تعرف أن السحر من عمل

---

(١) في ظلال القرآن ٩٦/١ .

(٢) المصدر السابق ٩٥/١ بتصرف يسير

الشيطان، وأنه من ثم كفر يدان به الإنسان ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد " (١).

ثانياً: الإعراض عن الدين وترك طاعة النبي صلى الله عليه وسلم:

الأصل في الإيمان – كما سبق معنا– أن يتضمن التصديق والإتباع والقبول والاستجابة، فالإعراض وترك طاعة النبي صلى الله عليه وسلم ينافي ذلك ويضاده، ومن هنا كان الإعراض عن دين الله بعدم التعلم والعمل، والتولي عن طاعة الرسول – ﷺ – والامتناع عن إتباع شرعه وهديه والصدود عن قبول حكم شريعته كفراً مخرجا من الملة، بل هو حقيقة النفاق (٢).

وقد أشار سيد – رحمه الله– في أكثر من موضع في ظلال الآيات التي تتحدث عن إعراض الكفار بأنه الإعراض عن الدين والقرآن الكريم وتعاليمه وأن تلك صفة من صفات الكفار والمنافقين، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: { وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ } [سورة القمر:٢] . " فهم معرضون عن تدبر

---

(١) المصدر السابق ١ /٩٦ ، ٩٨ .

(٢) نواقض الإيمان القولية والعملية ، د/ عبد العزيز آل عبد اللطيف ص ٣٤٤ وما بعدها بتصرف .

طبيعة الآيات وحقيقتها، ومعرضون كذلك عن دلالتها وشهادتها، وكذبوا بالآيات وبشهادتها، إتباعاً لأهوائهم لا استناداً إلى حجة، ولا ارتكاناً إلى دليل، ولا تدبراً للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود " (١).

ويوضح أن الإعراض عن ما جاء به الرسول - ﷺ - علامة النفاق ودليل على عدم الإيمان، ففي ظلال قوله تعالى: { وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ } [سورة النور:٤٨] .

يقول سيد – رحمه الله-: " إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، والذين يزعمون الإيمان بأفواههم، ولكن لا يحققون مدلوله في سلوكهم يكذبون بأعمالهم ما قالوه بألسنتهم، وهذا الصنف من الناس هم المنافقون الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر، فيتظاهرون بالإسلام، ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله، ولا أن يحكم فيهم قانونه، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير: {وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ } "(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢٨/٦ بتصرف ، وينظر أيضا ٢١٥١/٤، ٢٢٧٦ ، ٢٨١٤/٥ ، ٢٩٠١ ، ٣١٠٨

(٢) في ظلال القرآن ٢٥٢٥/٤- ٢٥٢٦ بتصرف .

" فالإسلام هو طاعة الله ورسوله { قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ } [سورة آل عمران:٣٢] ' " فإما طاعة واتباع يحبه الله، وإما كفر يكرهه الله " (١).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: { فَإِن تَوَلَّوۡاْ } أي خالفوا عن أمره، { فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ }، فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي " (٢).

وفي ظلال قوله تعالى: { وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا } [سورة النساء:١١٥] . يقول سيد- رحمه الله: " والنص عام، ينطبق على كل حالة، ويواجه كل حالة من مشاقة الرسول - ﷺ - ومشاقته كفر وشرك وردة.

والمشاقة - لغةً - أن يأخذ المرء شقاً مقابلاً للشق الذي يأخذه الآخر، والذي يشاق الرسول - ﷺ - هو الذي يأخذ له

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٨/١.

(٢) المصدر السابق ٣٨٧/١ ، وتفسير ابن كثير ٧٠٠/٢ .

شقاً وجانباً وصفاً غير الصف والجانب والشق الذي يأخذه النبي - ﷺ - ومعنى هذا أن يتخذ له منهجاً للحياة كلها غير منهجه، وأن يختار له طريقاً غير طريقه، سواء أنكر منهجه ﷺ جملة، أو آمن ببعض وكفر ببعض" (١).

" وقد قاتل أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- المرتدين على عدم الطاعة لله ورسوله في حكم الزكاة، وعد قبول حكم الله ورسوله فيها، فكيف بمن يترك شريعة الله كلها؟ " (٢).

" وذلك أن الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى الإيمان " (٣).

ثالثاً: جحود وتكذيب ما جاءت به الرسل أو شيء منه:

" اجمع العلماء على أن من جحد أو كذب بشيء مما جاءت به الرسل من الآيات والأحكام فهو كافر بيّن الكفر" (٤).

" الجحود يكون لما هو مستيقن أنه حق، كما هو حال كفار قريش الذين جحدوا القرآن الكريم وجحدوا دعوة النبي ﷺ، مع علمهم بأن ذلك حق، ولكن خوفاً على ديانتهم وأوضاعهم

---

(١) في ظلال القرآن ٧٥٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ٦٩٧/٢ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ٣٦٤/١ .

(٤) الإبانة لابن بطة ٧٦٤/٢ ، والشفاء للقاضي عياض ١٠٧٣/٢ وما بعدها .

ومغانمهم، ومن قبلهم جحد فرعون وملائه ما جاءهم به موسى من الحق، وكذلك الحق دائما لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه بل لأنهم يعرفونه! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم، أو أوضاعهم أو مصالحهم ومغانمهم، فيقفون في وجهه مكابرين" [١].

ومن ذلك ما ذكره الله – سبحانه – عن قوم هود من أن كفرهم وشركهم الذي استحقوا بسببه الهلاك واللعنة، هو جحودهم بآيات ربهم وعصيانهم لرسله وأتباعهم أمر الجبارين من عبيده، وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل، وأتباع الجبارين، فهو أمر واحد لا أمور متعددة، ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله ودانوا للطواغيت بدلاً من الدينونة لله، فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك "[٢]، " فأتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر" [٣].

وقد ذكر سيد – رحمه الله– أثاراً كثيرة توضح هذا النوع من الكفر عند مشركي قريش وغيرهم حيث لم يكونوا يشكون في

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦٣/٥ بتصرف ، ٣٢٦٧/٦ .

(٢) المصدر السابق ١٩٠٣/٤ .

(٣) المصدر السابق ١٩٠١/٤ .

صدق نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته، وأن هذا القرآن الذي جاء به ليس كلام البشر، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله، ومع ذلك جحدوا كل ذلك، وكذبوا بماء جاء به، كما قال سبحانه عنهم: { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ } [سورة الأنعام:٣٣] "(١).

ومن أنواع كفر الجحود والتكذيب:

١ – الكفر بنبوة الأنبياء أو بعضهم:

يقول سبحانه وتعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا } [سورة النساء:١٥٠-١٥١] .

يقول سيد – رحمه الله–: " لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد – عليهما السلام – كما كان النصارى يقفون بأيمانهم عند عيسى–عليه السلام – فضلاً عن تأليهه – وينكرون رسالة محمد ﷺ كذلك.

---

(١) في ظلال القرآن ١٠٧٤/٢ –١٠٧٧ .

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله، بدون تفريق بين الله ورسله، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً، إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الحقيقة.

لذلك عبر السياق القرآني عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله – بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل – وعمن يريدون التفرقة بين الرسل – بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم – عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم {ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ}، وعد تفرقتهم بين الله ورسله، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض، كفراً بالله وبرسله.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته – سبحانه – وهي تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس، ووحدة الرسل الذين جاءوا به، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا

بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فالله يقول: { أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ }" [1].

٢- الكفر بالكتب أو بعضها وإنكار الملائكة واليوم الآخر:

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله – سبحانه– على أنبيائه احد عناصر الإيمان، باعتبار أن مصدر هذه الكتب واحد هو الله – سبحانه – وتحمل منهجاً واحداً يقوم على الإسلام لله وتوحيده والدينونة له بما شرعه في كل كتاب، قال تعالى: {وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا } [سورة النساء:١٣٦] . فالكفر بأحد عناصر الإيمان هذه كفر بالجميع، حيث ذكر الله – سبحانه – في أول الآية الأمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله، ولم يذكر الملائكة واليوم الأخر، وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر، ولكنه أبرزه هنا لأنه موطن تهديد ووعيد، والذي يكفر بالله ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تبعاً لكفره بالله، الذي

---

(١) في ظلال القرآن ٧٩٧/٢- ٧٩٨ بتصرف يسير ، ٩٠/١- ٩١ ، ١٠١ .

يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب، ما لا يرجى معه هدى، ولا يرتقب بعده مآب "(١).

وفي قوله تعالى: { مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ } [سورة البقرة:٩٨] دلالة على أن من عادى أحداً من الرسل أو الملائكة فقد عاداهم جميعا، وعادى الله سبحانه فهو من الكافرين "(٢). " أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفر الذي يستحق الويل والثبور"(٣)، " أما الكفر بالقرآن الكريم فإن من يكفر بشيء من آيات الله القرآنية أو شيء من كتاب الله، فقد كفر بالكتاب كله " (٤)، ".. واعتباره كافراً، فالكفر بالقرآن الكريم من علامات الكفر التي لا شبهة فيها (٥).

رابعاً: كفر الاستهزاء والسخرية:

فالاستهزاء أو السخرية بأي شيء من مسائل الدين وشرائعه، سواء كان استهزاء بالله – سبحانه – أو برسوله محمد

---

(١) في ظلال القرآن ٧٧٨/٢ بتصرف يسير ، ٩٠/١– ٩١ .

(٢) في ظلال القرآن ٩٣/١ .

(٣) المصدر السابق ٤٣٦/١ .

(٤) في ظلال القرآن ٤٣٦/١ .

(٥) المصدر السابق ٣٦٢/١ بتصرف يسير .

– ﷺ –، أو أحد الرسل، أو بالقرآن الكريم، أو بشيء مما جاء به الإسلام، كفر وردة، قال الله تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } [سورة التوبة:٦٥-٦٦] .

حيث ورد في سبب نزولها أن بعض المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك قال: ما أرى قراءنا هؤلاء، إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبَنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء – يقصدون قراء القرآن – فرفع ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فجاءوا يعتذرون إليه فنزلت الآية (١).

والنص عام في كل من يخوض في مسائل الدين والعقيدة، حيث اعتبره القرآن الكريم كفراً مهما كان دافعه وسببه (٢)، فما يستهزئ بدين الله وعباده المؤمنين به إنسان سوي العقل، فالعقل السوي يستشعر حق الله – سبحانه – في التعظيم والعبادة " (٣).

---

(١) تفسير الطبري٩/٤٠٩

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٦٧٢ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٢/٩٢٢ .

والاستهزاء بالله وآياته ورسله من صفات الكفار، وعلامات الكفر كما ذكر الله ذلك في كثير من الآيات سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب أو غيرهم، فالحكم في الجميع سواء " (١).

خامساً: رفض شيء مما جاء به الرسول ﷺ أو إنكار صلاحية الدين أو بعضه في هذا الزمان:

وذلك لان الله أكمل لهذه الأمة دينها وأتم عليها نعمته ورضيه لها، وهذا الدين منهج وشريعة لجميع جوانب الحياة البشرية إلى يوم القيامة، وبالتالي فتعديل شيء فيه كإنكاره كله، لأنه إنكار لما قرره الله – سبحانه – من تمامه وكماله، وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه، والعدول عنه لمنهج أخر هو كفر كما وصفة الله تعالى "(٢).

فالذي يتصور أن في هذا الدين الإسلامي نقصاً يستدعي الإكمال، أو قصوراً يستدعي الإضافة، أو أنه دين محلي أو لزمن وبالتالي يستدعي التطوير والتحوير، فليس بمؤمن لأنه لم يصدق الله ولم يرتضي ما ارتضاه الله... فشريعة الإسلام بشهادة الله،

---

(١) ينظر: المصدر السابق١/٢٥٢ ، ٢/٩٢٢ ، ٣/١٠٤٥ ،٤/٢١٢٩، ٥،٢٣٨٠/٢٧٦٠، ٢٩٦، ٣١٧ ، ٦/٣٢٢٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/٨٣٣ بتصرف يسير .

هي شريعة الله للإنسان في كل زمان ومكان. [١] " ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله – سبحانه–. " [٢].

" ولقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته، نزل مفصلاً محتوياً المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة، وأحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية، وبهذا يكون في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة، هذا ما يقرره الله – سبحانه – عن كتابه، فمن شاء أن يقول: إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل ولكن ليقل معه إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدين مكذب بقول رب العالمين! " [٣].

" إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله، كما أنزله الله، وكما بَلَّغه عنه رسول الله.. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم، فهم **أولاً**: " واهمون "

---

(١) في ظلال القرآن ٨٤٣/٢ بتصرف يسير .

(٢)المصدر السابق ٢٠٧٦/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ١١٩٤/٣ ، وينظر ٦٩٧/٢ .

فيما بدا لهم، وهم **ثانياً**: " كافرون " فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين، ومن أهل هذا الدين " (١).

" فأيما إنسان زعم أن هذا المنهج الرباني لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض، فقد كفر كفراً صراحاً لا مراء فيه، واختار لنفسه موقف العداء الصريح لله وللبشرية "(٢).

سادساً: طاعة الكفار:

يقول سبحانه وتعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ } [سورة آل عمران:١٠٠-١٠١] ، يقول سيد: " فالله يحذر من طاعة أهل الكتاب فإنه الكفر، ولا يليق بالمسلمين الكفر وكتاب الله يتلى عليهم وفيهم رسوله يعلمهم"(٣).

" وذلك إن طاعتهم والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن

---

(١) معالم في الطريق ص ١٠٦-١٠٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٨٣/١ .

(٣) في ظلال القرآن ٤٣٢/١ ، ٤٩١

دور القيادة، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها، وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس، والمقصود طاعتهم فيما يخالف أمر الله – سبحانه– من العقائد والتشريعات والأحكام "(١)

سابعاً: ترك الأعمال كلية أو إنكار ما علم من الدين بالضرورة:

وذلك لأن الإيمان لا يصح إلا بوجوده عملياً في الواقع من خلال العمل قال الله تعالى: { إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [سورة الأنفال:٢– ٤] .

يقول سيد – رحمه الله–: " إن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي ليدل دلالة دقيقة على مدلوله المعنوي، وفي العبارة هنا قصر بلفظ: " إنما ". وليس هنالك مبرر لتأويله – وفيه هذا الجزم الدقيق – ليقال: إن المقصود هو " الإيمان الكامل "! فلو

---

(١) المصدر السابق ٤٣٨/١ ، ٤٤٠ .

شاء الله – سبحانه – أن يقول هذا لقاله، إنما هو تعبير محدد دقيق الدلالة، إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بجملتها ليسوا بالمؤمنين، والتوكيد في آخر الآيات: " أولئك هم المؤمنون حقاً " يقرر هذه الحقيقة، فغير المؤمنين " حقاً " لا يكونون مؤمنين أصلاً، والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضاً، والله يقول: { فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ } [سورة يونس:٣٢] فما لم يكن حقاً فهو الضلال، وليس المقابل لوصف " المؤمنون حقاً " هو المؤمنون إيماناً غير كامل! ولا يجوز أن يصبح التعبير القرآني الدقيق عرضة لمثل هذه التأويلات المميعة لكل تصور ولكل تعبير!

لذلك كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد في نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان، ولم يكن مؤمناً أصلاً، جاء في تفسير ابن كثير: عن ابن عباس، في قوله تعالى: { إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [سورة الأنفال:٢] قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا – أي عن أعين الناس – ولا يؤدون زكاة

أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين...، وطبيعة هذه الصفات أنه لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلاً، وأن الأمر فيها ليس أمر كمال الإيمان أو نقصه، إنما هو أمر وجود الإيمان أو عدمه " (١).

- كما يرى سيد – رحمه الله- أن إنكار الصلاة كفر، كونها من المعلوم من الدين بالضرورة ففي ظلال تعالى: { قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ } [سورة المدثر:٤٣] . يقول سيد: " وهي كناية عن عدم الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين" (٢).

وختاماً:

انقل نصاً من النصوص التي ذكر فيها سيد – رحمه الله- جمله من المكفرات الاعتقادية والقولية والعملية، حيث يقول: " لقد اعتبر الإسلام قضية التوحيد هي قضيته الأولى والكبرى... وناط بها قضية الإيمان والكفر... فجعل الإقرار العملي الايجابي بها- في كل الصور والمجالات جملة – هو الإسلام، وجعل رفضها في أي

(١) في ظلال القرآن ١٤٧٤/٣- ١٤٧٥

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٦١/٦ .

صورة من صورها ومجالاتها هو الكفر الذي لا يتحقق معه إيمان ولا إسلام، ولا يقبل معه عمل في دنيا ولا آخرة، وجعل سواء:

* أن يعتقد الإنسان في ضميره أن ليس هناك إله.

* أو أن هناك آلهة مع الله – سبحانه وتعالى–.

* أو أن لله أبناء وأصهاراً.

* أو أن الإله هو هذا الحجر وهذا القمر.

جعل سواءً أن يعتقد الإنسان في ضميره شيئاً من هذا كله.

* أو أن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله – سبحانه وتعالى – معه أو من دونه.

* أو أن يحكم بغير شريعة الله.

* أو أن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله – سبحانه وتعالى – معه أو من دونه.

* أو أن يتحاكم إلى غير شرع الله – سبحانه – إلا وهو منكر، لا يملك غير إنكار القلب أو اللسان، فكل هذه سواء في أنها تنفي عن صاحبها صفة الإيمان وتخرجه من الإسلام وبالنصوص المحكمة والأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين. (١)

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧ .

المبحث الثالث

النـفـاق

النفاق في اللغة: مأخوذ من نافقا اليربوع، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهرها ترك قشره رقيقه حتى لا يعرف مكان هذا المخرج، فإذا رابه ريب دفع ذلك برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب كالأرض، وباطنه حفر، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر. (١)

أما في الاصطلاح: فالنفاق إظهار الإيمان وإبطان الكفر، أو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد، فهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وإن كان أصله في اللغة معروفا. (٢)

والنفاق على نوعين: أكبر مخرج من الملة، وأصغر غير مخرج من الملة.

فالنفاق الأكبر: قد يكون اعتقادياً، وقد يكون عملياً، وذلك لأن القرآن الكريم لما ذكر صفات المنافقين ذكر منها تنقصهم

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣٥٨،٣٥٩/١ المفردات للراغب ص٥٠٢

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٩٨/٥ والإيمان لابن تيميه ص٢٨٤

للرسول – ﷺ –، والسخرية بالدين، ومناصرة الكفار، ونحو ذلك من الأعمال.

أما النفاق الأصغر: فهو نوع من الاختلاف بين السرية والعلانية مما هو دون الكفر، كالرياء في غير أصل العمل، وكالخصال الواردة في حديث شعب النفاق من الكذب، وإخلاف الوعد ونحوها. (١)

. وقد كثر الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن الكريم، وبيان صفاتهم وأخلاقهم، وأنهم شر أنواع الكفار وأعظمهم ضرراً على المسلمين، وأن مآلهم إلى الدرك الأسفل من النار، وتحذير المسلمين منهم باعتبارهم أكثر الناس عداءً للإسلام، وأشدهم ضرراً عليه حتى قال فيهم ربنا – سبحانه وتعالى–: { هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ } [سورة المنافقون:٤] .

وقد وقف سيد –رحمه الله . عند ظاهرة النفاق كثيراً، في ظلال الآيات التي تتحدث عنهم، وعن صفاتهم، وأحوالهم، مبيناً سبب نشأة النفاق وضرره، ومستعرضاً صفات المنافقين والتي بسببها حكم الله عليهم بالكفر وفيما يأتي استعراض موجز لما ذكره سيد – رحمه الله – عن النفاق الأكبر المخرج من الملة.

(١) نواقض الإيمان الاعتقادية، د/ محمد الوهيبي ١٥١/٢وما بعدها بتصرف .

أولاً: ظهور النفاق وسببه:

يقول سيد: "حركة النفاق حركة مدنيه، لم يكن لها وجود في مكة، لأنه لم يكن هناك ما يدعوا إليها، فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد، الذي لا يحتاج أحدٌ أن ينافقه، فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة، وانتشر في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام، أضطر ناس ممن كرهوا لمحمد- ﷺ - وللإسلام أن يعز ويستعلى، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة اضطروا إلى التظاهر بالإسلام وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي بن سلول(١) رأس النفاق المعروف، الذي تظاهر بالإسلام بعد معركة بدر، وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية واقتصادية وتنظيمية في أول العهد المدني، وكراهيتهم كذلك لظهور محمد - ﷺ - ودينه وأتباعه، كان وجود اليهود بهذا الوضع مشجعاً للمنافقين، وسرعان ما جمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا في حبك المؤامرات، ودس الدسائس في كل مناسبة تعرض، فإن كان المسلمون في شدة ظهروا بعدائهم

---

(١) هو : عبد الله بن أبي بن مالك الخزرجي ، ينسب إلى جدته سلول ، رأس النفاق ، أظهر الإسلام بعد بدر ، وله مواقف كثيرة في حرب الإسلام والكيد له ، مات سنة ٩هـ ، انظر: الأعلام ٣/ ٦٥ .

وجهروا ببغضائهم، وإذا كانوا في رخاءٍ ظلت الدسائس سرية والمكائد في الظلام" [١].

" وقد تواتر ذكر المنافقين، ووصف دسائسهم، والتنديد بمؤامرتهم وأخلاقهم، واتصالهم باليهود واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات في السور المدنية، فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحاً أو تصريحاً، وجاءت سورة كاملة تتحدث عنهم، هي سورة المنافقين، وقد نقل سيد رحمه الله فقرات متعددة حول حركة النفاق من كتاب "سيرة الرسول " [٢] توضح سبب ظهورها ومواقفها من الإسلام، والدور الخطير الذي قاموا به "[٣].

" وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قرب وفاة الرسول ﷺ لم تنقطع في أي وقت تقريباً، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والآخر[٤]"، "وهم يمثلون العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمسلمين، العدو

---

(١) في ظلال القرآن ٣٢٩٣/٦ . ٣٢٩٤ و ١٥٧٢/٣ .

(٢) هو للأستاذ محمد عزة دروزة .

(٣) في ظلال القرآن ٣٥٧٢.٣٢٩٤/٦ ، وينظر ٤٥/١

(٤) المصدر السابق ٣٥٧٢/٦ .

الكامن داخل المعسكر، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح "(١) " ويمثلون نموذجاً مكروراً في أجيال البشرية جميعا " (٢).

ثانياً: صفات المنافقين وأعمالهم الكفرية:

أشار سيد –رحمه الله –في ظلال القرآن إلى كثير من صفات المنافقين وأعمالهم الكفرية ومنها:

١. إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء والسخرية منه:

الأصل في المسلم الحق تعظيم وتوقير النبي– ﷺ – وطاعته ومحبته فوق كل محبه، وإيذاؤه والسخرية منه والاستهزاء به – ﷺ – يناقض دعوى الإيمان، وهي أمور تدل على البغض والمعادة والمحادة له – ﷺ –، وقد كَفَّرَ اللهُ – سبحانه – من يستهزئ بالله وآياته ورسوله – ﷺ –، وأجمع أهل العلم على كفر المستهزئ بالرسول – ﷺ – وردته (٣).

وقد أشار– سيد رحمه الله– إلى: " أن أولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى، يسمي ذلك تسامحاً أو يسميه دهاءً، أو

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٧٥ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٤٢/١ .

(٣) ينظر كلام العلماء في : نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز آل عبد اللطيف ص ١٥٧ وما بعدها .

يسميه سعة صدر وأفق، وإيمانا بحرية الرأي!!! وهي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله، وهو يموه على نفسه في أول الطريق، حياءً منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان! إن الحمية لله، ولدين الله، ولآيات الله، هي آية الإيمان، وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد، وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار، وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمداً، ثم تهمد، ثم تخمد ثم تموت!

فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس، فإما أن يدفع، وإما أن يقاطع المجلس وأهله، فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق! " (١).

- أما أذية النبي ﷺ والاستهزاء به والسخرية منه ولمزه فهو النفاق والكفر الصراح كما قال تعالى: { وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٨٠- ٧٨١ .

أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ } [سورة التوبة:الآيات ٦١-٦٦] .

يقول سيد – رحمه الله-: "إنه سوء الأدب في حق الرسول – ﷺ – يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات، حيث يصفونه ﷺ بغير حقيقته، ويتهمونه بأنه لا يفطن إلى غش القول وزوره " هو أُذن " ثم ذكر ما وقع من بعض المنافقين في غزوة تبوك من استهزاءٍ بالرسول – ﷺ- وأصحابه ولمزهم ومحاولة بعضهم تنفير دابته لتطرحه على الأرض، ووصم الله إياهم بالكفر، وأن النص عام في كل من يخوض ويلعب ويستهزئ بالله وآياته ورسوله "(١).

(١) في ظلال القرآن ١٦٧٠/٣ – ١٦٧٢ بتصرف ١٦٦٧/٣ ، ١٦٧٨ ، ١٧٢٦ .

" وكذلك استهزاؤهم بالنبي – ﷺ – في سماعهم للقران عنده وخروجهم قائلين " ماذا قال آنفاً " على سبيل التهوين من شأن السورة النازلة، والتشكيك في أثرها في القلوب، والغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد – ﷺ – لا يفهم، أو لا يعني شيئاً يفهم أو السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد – ﷺ – وحرص الصحابة – رضوان الله عليهم – على كل كلمة يتلفظ بها الرسول ﷺ، وكلها أمور تدل على السخرية الظاهرة أو الخفية " [١].

٢– تولي الكافرين ومحبتهم ونصرتهم:

من صفات المنافقين الكفرية تولي أعداء الله – عز وجل – من اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة، وتأمرهم معهم ضد الإسلام وأهله، حيث يقرر القرآن الكريم في أكثر من موضع الصلة الوثيقة بين المنافقين وبين الكفار عموماً.

يقول سيد: " وهذه الحملة القوية في القرآن الكريم على المنافقين بسبب توليهم لليهود تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم " [٢].

---

(١) المصدر السابق ١٧٤١/٣ ، ٣٢٩٤/٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٣٥٢٣/٦ .

وفي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [سورة الحشر:١١] ، لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا. والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام "(١).

وقد أشار الله تعالى إلى أن أبرز صفات المنافقين توليهم للكفار من دون المؤمنين تحت أعذار واهية يتسترون وراءها ليخفوا حقيقة تفاهتهم فقال سبحانه: { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } [سورة النساء:١٣٨ – ١٣٩] .

يقول سيد – رحمه الله–: " والتهكم الواضح في استعمال كلمة " بَشِّرِ " مكان كلمة أنذر، وجعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة! ثم ببيان سبب هذا العذاب الأليم، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين، وسوء ظنهم بالله، وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة، وهذه اللمسة تكشف عن طبيعة المنافقين وصفتهم الأولى، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين، وما أحوج ناساً ممن يدعون الإسلام، ويتسمون بأسماء

---

(١) في ظلال القرآن ٣٥٢٨/٦ ، ٣٥٣٠ وينظر ٣٢٩٨/٦ .

المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض، أن يتدبروا هذا القرآن، إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين، وإلا فإن الله غني عن العالمين! "(١).

٣- الإعراض عن حكم الله ورسولهﷺ والتحاكم إلى الطاغوت:

يصف القرآن حال المنافقين حين يدعون إلى ما أنزل الله وإلى الرسول فيصدون بأنه نفاق، وأن إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، خروجاً عن الإيمان، بل وعدم دخول فيه ابتداء، كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة، فيقول سبحانه: { أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا } [سورة النساء:٦٠- ٦٢] .

(١) في ظلال القرآن ٧٧٩/٢ – ٧٨٠ بتصرف .

والراجح أن المقصود بالآية هي طائفة من المنافقين الذين يزعمون الإيمان.. ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك، إنما يريدون التحاكم إلى الطاغوت- وهو كل منهج لا يستمد مما أنزل الله – وهذا ينافي مقتضى الإيمان البدهي، وهو تحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به. فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه، فأبى وصد فهو يخالف البديهة الفطرية، ويكشف عن النفاق والزعم الكاذب للإيمان ثم يعرض النص مظهراً من مظاهر النفاق في سلوكهم، حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وانكشاف أمرهم للمسلمين، فيلجئون إلى الإيمان الكاذبة أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت إلا الإحسان والتوفيق! وهي دائماً دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته، وحجة المنافقين الملتوين.. هي هي دائماً في كل حين " [١].

ويقرر في أية أخرى هذه الصفة في المنافقين فيقول سبحانه { وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٩٣- ٦٩٥ بتصرف .

وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ } [سورة النور:٤٧- ٥٠] .

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان، ثم يسلك هذا السلوك الملتوي، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان، المنافقين الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر، فيتظاهرون بالإسلام، ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله، ولا أن يحكم فيهم قانونه، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير {ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ } . "(١).

٤- الفرح بمصاب المسلمين والتربص بهم الدوائر:

يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } [سورة النساء:١٤٠- ١٤١] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٢٦ .

يقول سيد: " فالآية تبين سمات المنافقين، وترسم لهم صورة زرية منفرة، وهم يلقون المسلمين بوجه، ويلقون الكفار بوجه، ويمسكون العصا من وسطها، ويتلوون كالديدان والثعابين، فتبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر، وما يتربصون بها من الدوائر، وهم – مع ذلك – يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة، في قلوبهم السم، وعلى ألسنتهم الدهان " (١). " فهم لا يريدون خيراً بالمسلمين، وإنهم ليسوؤهم أن يجدوا خيراً { إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } [سورة التوبة:٥٠] ، وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب، وما ينزل بهم من مشقة { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ } [سورة التوبة:٩٨] ، فينتظرون متى تدور الدائرة على المسلمين "(٢).

٥- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والإفساد في الأرض وزعم الصلاح:

قال سبحانه وتعالى: { ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ

---

(١) في ظلال القرآن ٧٨١/٢ -٧٨٢ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ١٦٦٤/٣ ، ١٧٠١ .

ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } [سورة التوبة:٦٧- ٦٨] .

يقول سيد: " المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصلية، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دساً وهمساً، وغمزاً ولمزاً، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون. إنهم – نَسُواْ اللّهَ – فلا يحسبون إلا حساب الناس والمصلحة – فَنَسِيَهُمْ – فلا وزن لهم ولا اعتبار... فهم خارجون عن الإيمان، منحرفون عن الطريق موعودون بالنار واللعنة والعذاب المقيم " (١)

وفي الآية الأخرى يبين الله أن المنافقين يفسدون في الأرض أشنع الفساد، ويخادعون الناس ويتبجحون بأنهم

---

(١) في ظلال القرآن ١٦٧٣/٣ بتصرف .

مصلحون، يقول سبحانه وتعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ } [سورة البقرة:١١- ١٢] .

والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: أنهم مصلحون، كثيرون جداً في كل زمان. يقولون لأن الموازين مختلة في أيديهم تتأرجح مع الأهواء "[١].

٦- التخلف عن الجهاد والرغبة عنه:

وهذه صفة بارزة في المنافقين، لأنهم يحبون السلامة والدعة " فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافهٍ أو مطلبٍ رخيصٍ، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، يمثلون نموذجاً مكروراً " [٢].

" يفرحون بالتخلف عن الجهاد، وتدركهم ثقلة الأرض والحرص على الراحة، والشح بالنفقة، وضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان فيتركون الجهاد، وينفرون منه،

(١) في ظلال القرآن ٤٤/١ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ١٦٦١/٣- ١٦٦٣ بتصرف

ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، وتظل هذه الصفوف في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذُّ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال "(١).

٧- المكر والخداع والإرجاف والوقيعة بين المسلمين:

يقول سيد: " إن المنافقين لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء، فهم ينفون عن أنفسهم الإفساد، ويتجاوزون إلى التبجح والتبرير بأنهم مصلحون، ويضيفون إلى ذلك اللؤم والتآمر في الظلام، { وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ } [سورة البقرة:١٤] . وبعض الناس يحسب اللؤم قوة، والمكر السيئ براعة، وهو في حقيقته ضعف وخسة، فالقوي

---

(١) في ظلال القرآن ١٦٨٢/٣ بتصرف يسير ، وينظر أيضا ١٦٨٤/٣ ، ١٥٣٣ ، ١٧٢٣ .

ليس لئيماً ولا خبيثاً، ولا خادعاً ولا متآمراً ولا غمازاً في الخفاء لمازاً " [(١)].

" وبالإضافة إلى المكر والخداع للذين آمنوا، فإن المنافقين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، ويثبطون الناس عن الجهاد ويبثون الخور والضعف في الصفوف، وإذا خرجوا مع المسلمين أسرعوا بينهم في الوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم وفي وقائع التاريخ الكثير من أفاعليهم "[(٢)].

٨- البخل والإنفاق رياءً والتضييق مادياً على المسلمين:

وصف الله – سبحانه وتعالى – المنافقين وحالهم في البخل بقوله: { وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ } [سورة التوبة ٦٧] ' فهم أبخل الناس بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وبعضهم يعاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه، ليبذلن الصدقة، وليصلحن العمل، فلما استجاب الله له تنكر لوعده وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد، فيكون ذلك سبباً في النفاق في قلبه، وإذا أنفق فإنما ينفق رياءً، ويتخذ ما ينفق مغرماً، ولهذا أخبر –سبحانه – أنه لن يقبل منه إنفاقهم،

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٤- ٤٥ بتصرف ، وينظر ٢/٧٨٣ .

(٢) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٣/١١٦٣ ، ٥/٢٨٤٠ ، ٦/٣٥٧٥ – ٣٥٧٨ .

وعلل ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله، وأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون ٠

فقال سبحانه وتعالى: { قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ } [سورة التوبة:٥٣،٥٤] ٠" (١).

ولم يقف الأمر بالمنافقين عند حد البخل والشح، بل تجاوز عداؤهم للإسلام، وخبث الطبع ولؤم النحيزة، أن يرسموا خطة لتجويع المؤمنين ومحاربتهم في لقمة العيش وذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين، وخطة التجويع يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان في حرب العقيدة ومناهضة الأديان، إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين، وهي خطة المنافقين كما تحكيها الآية: { هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ

---

(١) في ظلال القرآن ١٦٦٥/٣، ١٦٧٣، ١٦٧٩ .

مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ } [سورة المنافقين ٧] .

٩- التثاقل وعدم الرغبة في العبادة:

يقول سيد: " فمن علامات النفاق أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة، لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير، إنما يدفعون إليها دفعا، فلا يقومون إليها بحرارة الشوق إلى لقاء الله، والوقوف بين يديه، والاتصال به، والاستمداد منه، إنما هم يقومون يراءون الناس، ومن ثم يقومون وهم كسالى، كالذي يؤدي عملا ثقيلاً، أو يُسخّر سخرة شاقة، وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلاً، فهم لا يتوجهون إلى الله إنما يراءون الناس، وكذلك ينفقون ما ينفقون وهم كارهين مكرهين "(١).

١٠- اللحن في القول والتظاهر بأعمال الخير:

أشار- سيد – إلى أن القرآن الكريم أوضح أن المنافقون الذين يعيشون بين المسلمين متخفين، يتظاهرون بالإسلام وهم له كائدون، ويعتمدون على إتقانهم فن النفاق، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين، يمكن معرفتهم من خلال ملامحهم،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٨٤، ٣/١٦٦٥ بتصرف .

ولهجتهم ونبرات أصواتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم، {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } [سورة محمد:٣٠] " . (١).

" وأنهم يتظاهرون بالصلاح، ويستترون ببعض أعمال الخير تمويهاً وخداعاً للمسلمين، كما فعل أصحاب مسجد الضرار، الذين اتخذو مكيدة للإسلام والمسلمين، والإضرار بهم، وستر الكفر، والتآمر على الجماعة المسلمة، تحت شعار الدين. وهذا المسجد ما يزال يُتَخذ في صور شتى تلاءم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين، يُتخذ في صورة نشاطٍ ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه، ويُتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين، ويُتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق، ويُتخذ في صور شتى كثيرة:

ومن أجل أن مساجد الضرار هذه كثيرة، يتحتم على الدعاة كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٢٩٨/٦ بتصرف يسير .

تخفيه وراءها، ولنا أسوه في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله – ﷺ – بذلك البيان القوي الصريح" [(١)].

" ويوجد اليوم من يتمسح بالدين أحيانا ممن آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ويتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين، أما إن قال الدين كلمة الحق، وحُكْمَ الحق، فلا حاجه بهم إليه "[(٢)] وكلها صور للتستر بالدين لحربه، والله غالب على أمره.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٧١٠، ١٧١١ .

(٢) المصدر السابق ٢/٨٩٢ بتصرف .

البَابُ الرَّابِعُ

منهجه في النبوات والمعاد

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: **مقدمة حول الغيب**.

الفصل الأول: **الإيمان بالملائكة والكتب وما يتعلق بها**.

الفصل الثاني: **الإيمان بالأنبياء والرسل**.

الفصل الثالث: **الإيمان بالمعاد واليوم الآخر**.

التمهيد

مقدمة حول الغيب

لما كانت قضايا هذا الباب متعلقة بمسائل النبوات والمعاد، وهي من الأمور الغيبية، يحسن وقبل الدخول في تفاصيلها أن أنقل كلاماً نفيساً لسيد قطب -رحمه الله- حول قضية الإيمان بالغيب يقول فيه: " ليس من مستلزمات الخلافة - في الأرض- أن نطلع على هذا الغيب، وبقدر ما سخر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرَّفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب فيما لا جدوى له في معرفته، وما يزال الإنسان مثلاً على الرغم من كل ما فتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلاً مطلقاً، ولا يملك بأي أداة من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة، وهل النَفَس الذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر، لأنه لا يدخل في مقتضيات الخلافة، بل ربما كان معوِّقاً لها لو كشف للإنسان عنه! وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

ومن ثم لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه، لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره، وكل جهد يبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع، ذاهب سدى، بلا ثمرة ولا جدوى.

وإذا كان العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطلاع على هذا الغيب المحجوب، فليس سبيله إذن أن يتبجح فينكر، فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة، والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل، وليست في طوق وسائله، ولا هي ضرورية له في وظيفته.

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة، ولكن أضر منه وأخطر، التنكر للمجهول كله وإنكاره، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به، إنها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الذي يعيش في المحسوس وحده، ولا ينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق.

فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه، وحسبنا ما يقص لنا عنه، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا، فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى " (١).

ويقول أيضا: " هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد – ﷺ – يتضمن حقائق التصور الإيماني ومنهاج الحياة الإسلامية، ويتضمنً كذلك أموراً غيبية لا سبيل للعقل البشري

---

(١) في ظلال القرآن ٥٩/١ وينظر أيضا ٥٢٥/١، ٢١٣٨/٤، ٢٦٦١/٥.

أن يدركها بوسائله الخاصة، ولا مجال له لأن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها.

فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهي مفهومة المدلولات، قاطعة الدلالة، مدركة المقاصد وهي أصل هذا الكتاب، وأما السمعيات والغيبيات... فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر " الحق " ويصعب إدراك ماهيتها وكيفيتها، لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الإنساني المحدود " [(١)].

" والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، وحقيقته هو وما حوله من القوى، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون.. وعندئذٍ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والانشغال بما لم تخلق له، ولم توهب القدرة للإحاطة به،.. وعدم إدراك المجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وعليه أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٣٦٩.

يحيط بالغيب والشهادة، وبالتالي كان الغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة " (١).

" إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود، ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها، وأشواقها الخفية إلى المجهول المستتر وراء الحجب المسدلة، كما أن العقيدة التي ليس فيها إلا المعميات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة! فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي، والفكر الإنساني لابد أن يتلقى شيئا مفهوماً له، له فيه عمل، يملك أن يتدبره ويطبقه، والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك.. وهذه إحدى خواص العقيدة الإسلامية " (٢).

وهذا الباب يشتمل على قضايا النبوات وما يتعلق بها، واليوم الآخر وما يتعلق به،

<u>فالإيمان بالنبوات يشمل</u>: الإيمان بالملائكة، والكتب السماوية، والأنبياء والرسل.

---

(١) المصدر السابق: ٣٩/١- ٤٠ بتصرف، وينظر: ٤٠٣/١، ٩٨٦/٢، ١٠٤٢، ١٠٤٤، ١١١٣- ١١١٤، ١٣٥٧/٣، ١٤٨٦، ١٦٩٦، ومقومات التصور الإسلامي: ص ٤٣.

(٢) خصائص التصور الإسلامي: ص١٢٠.

أما الإيمان باليوم الآخر: فيشمل قضايا الآخرة، من الموت وحتى الاستقرار في الجنة أوفي النار. وهذه القضايا من أصول الإيمان التي وردت في الكتاب والسنة، قال تعالى: {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ } [سورة البقرة:٢٨٥]

وقال ﷺ حين سأله جبريل –عليه السلام – عن الإيمان: " الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١).

فلا يكون العبد مؤمناً إلا بأن يؤمن بهذه الأركان جميعاً، كما قال سبحانه وتعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا } [سورة النساء:١٣٦].

وقد تكلم سيد – رحمه الله – على هذه الأركان الأربعة من أركان الإيمان، وتطرق إلى عدة مسائل مما له صله بها، كالإيمان

---

(١) جزء من حديث جبريل الطويل والحديث رواه البخاري ومسلم وقد سبق تخريجه ص ٣٠٥.

بوجود الجن والشياطين، حيث رأيت أن أذكر ذلك في هذا الفصل لمناسبة سأشير إليها فيما بعد.

وعلى هذا فمنهج – سيد قطب – رحمه الله – في النبوات والمعاد يتضح من خلال الفصول الآتية:

الفصل الأول
الإيمان بالملائكة والكتب وما يتعلق بها

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني: الإيمان بالكتب.

المبحث الثالث: الإيمان بوجود الجن والشياطين.

المبحث الأول

الإيمان بالملائكة

وجه تقديم مبحث الإيمان بالملائكة على ما يليه من المباحث هو:

ورود ذكر الإيمان بالملائكة في القرآن الكريم في عدة آيات بعد الإيمان بالله مقدماً على بقية أركان الإيمان الأخرى، كما في سورة البقرة التي سبق ذكرها في توطئة الفصل.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: " وقدم الملائكة على الكتب والرسل نظراً للترتيب الواقع، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول " (١)، فالملائكة "وسائط بين الله وبين الرسل في تبليغ الوحي والشرائع، فناسب أن يقدم الملائكة على الأنبياء" (٢).

وقد تناول سيد – رحمه الله– الحديث عن الملائكة من جوانب متعددة بيانها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف الملائكة وحكم الإيمان بهم.

المطلب الثاني: طبيعة الملائكة وخصائصهم.

المطلب الثالث: المنحرفون في تصورهم للملائكة.

المطلب الثاني: التفضيل بين الملائكة وصالحي البشر.

---

(١) فتح الباري ١/ ١٦١.

(٢) المصدر السابق ١/١٦٢.

المطلب الأول

تعريف الملائكة وحكم الإيمان بهم أثره

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: تعريف الملائكة:

الملائكة في اللغة: جمع "مَلَك"، وقد اختلف العلماء في أصل اشتقاقها، ورجح ابن حجر – رحمه الله – بأنها مشتقه من "المَلَكْ" وهو الأخذ بقوه (١).

أما في الاصطلاح: فللناس في تعريف الملائكة أقوال كثيرة: " فجمهور أهل الكلام من المسلمين على أنها: أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات، وآخرون يرون أنها: الكواكب، أو الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، ويزعم الفلاسفة: أن الملائكة جواهر روحانية، وغير ذلك من الأقوال " (٢)

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يقفون في الحديث عن حقيقة الملائكة والتعريف بهم عند ما دلت عليه النصوص الشرعية

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ٦/٤٥٠.

(٢) فتح الباري ١/٢١، ٦/٣٠٦.

من الكتاب والسنة، باعتبار حقيقة الملائكة من الغيب الذي ليس للناس علم به إلا في حدود ما جاء في تلك النصوص الشرعية.

تعريف الملائكة عند سيد قطب: يقول – رحمه الله –: " لقد تضمن التصور الإسلامي عن عالم الغيب، أن هناك خلقاً من عباد الله اسمهم الملائكة، وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم يكفي لهذا التصور ويكفي للتعامل معهم في حدوده، فهم خلق من خلق الله، يدين لله بالعبودية، وبالطاعة المطلقة، وهم قريبون من الله " [(١)]. " والمأثور أن الملائكة خَلْقٌ من نور لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"[(٢)] ويقول: " والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم، لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم" [(٣)] " فالملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني، خلق طبيعة خاصة، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم " [(٤)].

الفرع الثاني: حكم الإيمان بالملائكة.

يقول سيد رحمه الله–: " ومن العوالم المغيبة عالم الملائكة،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٢.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٢٨.

(٣) المصدر السابق ٣/١٢٦٥.

(٤) المصدر السابق ٢/١٠٤٢ بتصرف.

وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقوماً من مقومات الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره " (١).

ويقول أيضاً: " وهناك عوالم أخرى من الأحياء – غير دواب الأرض التي تشمل الإنسان– وهي عوالم أخبرنا الله بوجودها، وليس لنا مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبرنا عنها، هي عالم الملائكة والجن، وقد وصف الله هذين الخلقين، وأخبرنا عن طبيعتهما، وعن علاقتهما بالإنسان، بالقدر الذي يهدي الإنسان منهج التعامل القويم مع كليهما، وجعل الإيمان بالملائكة قاعدة من قواعد الإيمان، لما للملائكة من علاقة بالوحي والرسالة،.. وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وتكذيب للقرآن، معناه الكفر طبعاً، وهو أمر عجيب!! إذ أنه لا يستند إلى شيء " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن: ١٠٤٢/٢، ٢٨٨٢/٥.

(٢) مقومات التصور الإسلامي: ص ٣٦٥ بتصرف يسير.

الفرع الثالث: أثر الإيمان بالملائكة في حياة البشر:

ذكر سيد - رحمه الله - في أكثر من موضع بعض أثار الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان ومن ذلك:

١-" أن الإيمان بحقيقة الملائكة شأنه شأن الإيمان بالحقائق الغيبية المستيقنة التي جاءت من عند الله، يوسع آفاق الشعور الإنساني بالوجود، فلا تنكمش صورة الكون في تصور المؤمن حتى تقتصر على ما تدركه حواسه - وهو ضئيل -.

٢-كما أنه يؤنس قلبه بهذه الأرواح المؤمنة من حوله، تشاركه إيمانه بربه، وتستغفر له، وتكون في عونه على الخير- بإذن الله - وهو شعور لطيف ندي مؤنس ولا شك، ثم هنالك المعرفة: المعرفة بهذه الحقيقة وهي في ذاتها فضل يمنحه الله للمؤمنين به وبملائكته "(١).

٣- " استشعار أن من الملائكة من يحفظ على الإنسان عمله ويحصيه عن يمينه وشماله، من شأنه أن يجعل الإنسان يعيش في حذر دائم ويقظة لا تغفل عن المحاسبة، ويستحضر رقابة الله، وتسجيل الملائكة وهو يهم بأي حركة أو كلمة، وأنها ستسجل في سجل حسابه الذي سيراه بين يدي الله، فيحسب حسابها، ويتأدب

(١) في ظلال القرآن ١/٣٤٢.

مع ربه ومع الملائكة الكرام حوله، وقد حكي عن الإمام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن، فسمع أن الأنين يكتب، فسكت حتى فاضت روحه –رضوان الله عليه – هذا نموذج لأولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة ويعيشون بها " [١].

---

(١) المصدر السابق ٦/٣٣٦٢ – ٣٣٦٣ بتصرف، وينظر أيضا: ٦/٣٨٥١.

المطلب الثانـي

طبيعة الملائكة وخصائصهم

أشـار القـرآن الكـريم فـي عـدة آيـات إلــى طبيعـة الملائكـة وخصائصـهم وصـفاتهم، وقـد ذكـر سيد قطـب فـي ظـلال تلـك الآيات هذه الخصائص والصفات، وبيانها في الفروع الآتية: -

الفرع الأول: صفات الملائكة: من صفات الملائكة التي أشار إليها سيد قطب ما يأتي:

١- " أنهم مخلوقون من نور " [(١)].

٢- " أنهـم مجبولـون علـى الطاعـة والإيمـان والتسـليم المطلـق لله سبحانه وتعـالى " يـدينون لله بالعبوديـة والطاعـة المطلقـة " و" لا يعصـون الله مـا أمـرهم ويفعلـون مـا يـؤمرون " وهـم " أهـل طاعـة مطلقة، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة، ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم، لما يحسون من علوه وعظمتـه، ولمـا يخشـون مـن التقصـير فــي حمــده وطاعتــه، ويشــفقون علــى أهــل الأرض المقصــرين والمنحـرفين مـن غضـب الله، فيروحـون يسـتغفرون لأهـل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير.. حتى من الذين آمنوا..

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٨.

يستغفرون ربهم ويسبحون بحمده استشعاراً ُ لعلوه ولعظمته، واستهوالاً لأي معصية تقع في ملكه، واستدراراً لمغفرته ورحمته.. "، " إنهم لا يعرفون إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان "

" لا ينزغ في أنفسهم شيطان، فليس له من تركيب طبيعتهم مكان، ولا تستبد بهم نزوة، ولا تغلبهم شهوة "، " وفطرتهم بريئة، لا تتصور إلا الخير المطلق، والسلام الشامل "، " وهم عباد مكرمون، قريبون من الله " (١)

٣- أنهم ذو أجنحة من حيث تكوينهم الخلقي كما قال سبحانه وتعالى: {جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ} [سورة فاطر:١] .

يقول سيد: " وهو وصف لا يمثلهم للتصور، لأننا لا نعرف كيف هم، ولا كيف أجنحتهم هذه، ولا نملك إلا الوقوف عند هذا الوصف، دون تصور معين له، فكل تصور قد يخطئ ولم يرد إلينا وصف محدد للشكل والهيئة من طريق معتمد، والذي ورد في القرآن الكريم هو هذا، وهو قوله تعالى: {عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦] وهو كذلك لا يحدد شكلاً ولا هيئةً، والذي ورد في الأثر: " أن

---

(١) تنظر الفقرات في: في ظلال القرآن بالترتيب الآتي: ٣٧٨/١، ٢/ ١٠٤٢، ١٢٦٥/٣، ٣٠٢٨/٥، ٣٦٤١، ١٨٢١، ١٤٢٨/٣، ٥٦/١، ١٠٤٢/٢.

النبي – ﷺ– رأى جبريل في صورته مرتين " وفي رواية: " له ستمائة جناح " [(١)]، وهو كذلك لا يعين شكلاً ولا هيئةً، فالأمر إذن مطلق، والعلم لله وحده في هذه الغيبيات.

وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحين للطائر، يذكر أن الله: " يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ " فيقرر طلاقة المشيئة، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق، وفيما نشهده نحن ونعلمه أشكال لا تحصى من الخلق، ووراء ما نعلم أكثر وأكثر، " إن الله على كل شيء قدير" وهذا التعقيب أوسع من سابقه وأشمل، فلا تبقى وراءه صورة لا يتناولها مدلوله من صور الخلق والإنشاء والتغيير والتبديل "[(٢)].

٤- أنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله، ولا يملكون الشفاعة إلا بإذنه، ولهم مقام معلوم لا يتجاوزونه، حيث ذكر الله في قصة آدم – عليه السلام– وحواره مع الملائكة وعرض الأسماء عليهم وإقرارهم بعجزهموبحدودعلمهم وهوماعلمهم: { قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ } [سورة البقرة:٣٢] وهم يواجهون المشركين الذين عبدوهم في الدنيا أو يتخذونهم شفعاء،

---

(١) رواه: البخاري في التفسير باب قوله تعالى " فأوحى إلى عبده ما أوحى " ١٨٤١/٤ برقم ٤٥٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢٩٢١/٥.

يواجهونهم يوم القيامة ويتبرؤون من عبادة القوم لهم...

فالملائكة لا يملكون للناس شيئاً، ولا يشفعون عند الله إلا لمن ارتضى" (١). "ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده " (٢).

٥- أن لهم القدرة على التمثل في صورة البشر ومخاطبتهم، كما جاء جبريل -عليه السلام -إلى مريم العذراء: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } [سورة مريم:١٧] ، وكما جاءت الملائكة إلى إبراهيم- عليه السلام – في صورة أضياف: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ } [سورة الذاريات:٢٤-٢٧] ، وكما جاءت إلى لوط -عليه السلام -في صورة فتيةٍ صباحٍ ملاحٍ (٣)، وكما جاء جبريل -عليه السلام - إلى محمد-ﷺ - في صورة رجل يسأله عن الإسلام، وغير ذلك كثير (٤).

"فالملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني، خلق ذو طبيعة يعلمها الله، وهم كما يقول الله عنهم، ونحن لا علم لنا بهم إلا

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩١١.

(٢) المصدر السابق ٥/٣٠٠١.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٤.

(٤) ينظر: المصدر السابق ٤/٢٣٠٥ – ٢٣٠٦، ٥/٢٧٣٤، ٢٨٨٢، ٦/٣٣٨٢.

مما يقوله عنهم الذي خلقهم، لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم التي خلقهم الله عليها، لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب، ولكن لهم – مع ذلك – من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم في حياة البشر "[١].

٦- أما عدد الملائكة فلا يعلمه إلا الله، يقول– سيد رحمه الله–: " ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله – ﷺ – أنه قال: " إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أطَّتِ [٢] السماء وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى، لوددت أني شجرة تعضد " [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ١٠٤٢/٢.

(٢) أطَّتِ: الأطيط: صوت الاقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي أن كثرة ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطَّت، انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٨.

(٣) رواه: الترمذي في الزهد باب قوله لو تعلمون ما أعلم ٤٨٢/٤برقم ٢٣١٢، وأحمد ١٧٣/٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٥٢٩/٢.

والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك، هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً، والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباء الطائرة في الفضاء، فهل هذا يقرب شيئا للتصور البشري عن عدد الملائكة؟! " (١).

الفرع الثاني: وظائف الملائكة وأعمالهم:

" أخبرنا القرآن الكريم أن الملائكة لهم وظائف يكلفون بها من ربهم، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم خلق من خلق الله، يدين لله بالعبودية، وبالطاعة المطلقة، قريبون من الله، مكرمون عنده، قال سبحانه: { وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ } [سورة الأنبياء:٢٦-٢٨] ، وقال سبحانه: {وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ } [سورة الأنبياء:١٩-٢٠] "(٢).

وقد أشار سيد- رحمه الله- إلى عدد من وظائف الملائكة وأعمالهم في ظلال الآيات التي تتحدث عنهم ومن ذلك:

---

(١) في ظلال القرآن ٣٥٨٧/٦- ٣٥٨٨.

(٢) في ظلال القرآن ١٠٤٢/٢ بتصرف يسير.

١- أنهم يحملون عرش الرحمن، ويحفون به يوم القيامة كذلك: "ولا ندري كيف؟ فليس لنا من علم إلا بقدر ما كشف الله لنا من هذا الغيب بقوله تعالى{ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ } [سورة غافر:٧] وقوله: {وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ } [سورة الزمر:٧٥] ، وقوله: {وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ } [سورة الحاقة:١٧] .

" فالملائكة على أرجاء السماء المنشقة أطرافها، والعرش فوقهم يحمله ثمانية أملاك، أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله، لا ندري نحن... " (١).

٢- **عبادة الله بالصلاة والتسبيح والذكر والدعاء**. وقد أشار القرآن الكريم إلى أن حياة الملائكة كلها عباده يقول سبحانه وتعالى: {وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ } [سورة الأنبياء:١٩- ٢٠] .

يقول سيد: " فقوله " ومن عنده " المفهوم القريب أنهم الملائكة، وإن كان النص عام، إلا أن المفهوم من التعبير أنهم هم الأقرب إلى الله، " لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون "

---

(١) في ظلال القرآن ١٠٤٢/٢، وينظر أيضا ٣٠٦٣/٥، ٣٠٧٠، ٣٦٨٠/٦.

أي: لا يقصرون في العبادة، فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور" (١).

وجاءت نصوص أخرى تخبر أنهم يصفون للصلاة، ويتلون التسبيح والذكر، ويسجدون ويركعون، منها:

- قوله تعالى: { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [سورة النحل:٤٩ - ٥٠] ، " فالآية تخبر أن الأشياء تخضع لله بالسجود، ومعها الملائكة، في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره" (٢).

-وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [سورة الأعراف:٢٠٦] " يضرب الله مثلاً بالذين عنده من الملائكة المقربين، فهم دائمون على تسبيح الله وذكره، لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون، وللإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح " (٣)

- وقوله تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا } [سورة الصافات:١- ٣] " وهي طوائف من الملائكة، ذكرها هنا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٧٢- ٢٣٧٣ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٧٤.

(٣) في ظلال القرآن ٣/١٤٢٨.

بأعمالها التي يعلمها، والتي يجوز أن تكون هي الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، والتاليات للذكر: القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله " (١). فالملائكة " عباد من خلق الله، لهم وظائف في طاعة الله، فهم يصفون للصلاة، ويسبحون بحمد الله " (٢).

٣- وهم خزنة الجنة وخزنة النار: يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد، قال سبحانه وتعالى: {وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ } [سورة الزمر: ٧١-٧٣].

ويقول سبحانه وتعالى: {جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ } [سورة الرعد: ٢٣ - ٢٤].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٨٢.

(٢) المصدر السابق ٥/٣٠٠١.

" فالملائكة خزنة النار يستقبلون أهل النار يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها، وملائكة النار ذو طبيعة غليظة شديدة تناسب طبيعة العذاب الذي هم به موكلون: {عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ } [سورة التحريم:٦] "(١).

" وخزنة الجنة يستقبلون أهلها استقبالاً طيباً، بالثناء وبيان السبب "طبتم " وتطهرتم، كنتم طيبين، وجئتم طيبين، فما يكون فيها إلا الطيب، ولهم الخلود في ذلك النعيم "(٢).

ومن أعمال الملائكة أيضاً ما يتعلق بالتعامل مع أهل الأرض:

يقول سيد: " وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى وذكر منها:

٤- **حفظ العباد بأمر الله:** "حيث جعل الله من الملائكة حفظةً على الإنسان " (٣) قال سبحانه: {وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً } [سورة الأنعام:٦١] ، وقال: {لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ } [سورة الرعد:١١] .

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦١٨/٦، ٣٧٥٨.

(٢) المصدر السابق ١٠٤٣/٢، ٣٠٦٢/٥، ٣٦١٨/٦.

(٣) المصدر السابق ١٢٧٣/٣.

وقال: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ} [سورة الانفطار:١٠]، " وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان من الملائكة التي ترافقه، وتراقبه، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه، ونحن لا ندري كيف يقع هذا كله، ولسنا بمكلفين أن نعرف كيفيته،.. فلا ضرورة للخوض فيما وراء النص، ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى، وأن عليه حفظة كراماً " (١)

٥- **تسجيل ما يصدر عن العباد:** "حيث جعل الله ملائكة يتابعون العباد ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم قال سبحانه وتعالى: {مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق:١٨] " (٢)، " أي رقيب حاضر، لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمي الملكين رقيب، وعتيد! ونحن لا ندري كيف يسجلان، ولا داعي للتخيلات التي لا تقوم على أساس، فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هي، ونؤمن بمدلولها دون البحث في كيفيتها التي لا تفيدنا معرفتها في شيء، فضلاً على أنها غير داخلة في حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية.

ولقد عرفنا نحن - في حدود علمنا البشري الظاهر- وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال، وهي تسجل الحركة

(١) في ظلال القرآن ١٠٤٣/٢، ١١٢٢، ٢٠٤٨/٤، ٣٨٥١/٦.
(٢) في ظلال القرآن ١٠٤٣/٢.

والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما والتليفزيون، وهذا كله في محيطنا نحن البشر، فلا داعي من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة، البعيدة نهائياً عن ذلك العالم المجهول لنا، والذي لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به الله، بلا زيادة!

وحسبنا أن نعيش في ظلال هذه الحقيقة المصورة، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة، لتكون في سجل حسابنا بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير " (١).

ويشير سيد - رحمه الله- أيضا في مواضع أخرى إلى أنه ربما يكون المقصود بالحفظة أيضاً هم الملائكة التي ترافق الإنسان وتراقبه، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه، كما قال- سبحانه -{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [سورة الانفطار: ١٠- ١٢] ، فوصف الحافظين بكونهم كراماً ليستجيش في القلوب إحساس الخجل بحضرة هؤلاء الكرام، فلا يليق أن يطلعوا منه إلا على كريم من الخصال والفعال، عندما

(١) المصدر السابق ٦/٣٣٦٣.

تشعر النفس أن عليها حفيظ ورقيب يحصي كل حركة وكل نأمة، ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء " (١).

٦- تبليغ الوحي إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: وجعل الله من الملائكة أيضاً من يبلغ الرسل وحيه، وقد أعلمنا الله – سبحانه – أن جبريل – عليه السلام – هو الذي يقوم بهذه الوظيفة، قال سبحانه وتعالى: { يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ } [سورة النحل:٢] وقال سبحانه: { قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ } [سورة البقرة:٩٧] ، ووصفه سبحانه بأنه ذو مرة " أي قوه "، وأن الرسول – ﷺ – رآه على هيئة الملائكة مرتين اثنتين، بينما جاءه في صور شتى في مرات الوحي التالية: قال سبحانه: {وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ } [سورة النجم:١-١٥] ،(٢) ووحي الله لرسله بواسطة الملك له

---

(١) في ظلال القرآن ١١٢٢/٢، ٢٠٤٩/٤، ٣٨٥١/٦.

(٢) في ظلال القرآن ١٠٤٣/٢، ١٢٧٣/٣،، ٣١٧٠/٥، ٣٤٠٦/٦-٣٤٠٧.

عدة صور سيأتي بيانها -إن شاء الله -عند الحديث عن النبوة والوحي [1].

٧- تثبيت المؤمنين، وإمدادهم في معركتهم مع الباطل، وقتال الكفار معهم:

فالملائكة " يتنزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد في معركتهم الكبرى مع الباطل والطاغوت، قال سبحانه: {إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ } [سورة فصلت:٣٠] ، وقال سبحانه {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ } [سورة آل عمران:١٢٣-١٢٦]

قال سبحانه: {إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [سورة الأنفال:١٢] ،[2] " فالله ينزل الملائكة

---

(١) ينظر أيضا: في ظلال القرآن ٥/٣١٧٠.

(٢) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٣.

على المجاهدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشرونهم كذلك، ويسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم " (١).

وذكر سيد –رحمه الله –أن هناك روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة في يوم بدر، عددهم وطريقة مشاركتهم في المعركة، وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين، وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين، وبيَّن أن طريقته في الظلال الاكتفاء في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة – والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ } [سورة الأنفال:٩] ، فهذا عددهم {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [سورة الأنفال:١٢] ، فهذا عملهم، ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا.. وحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم وهي قلة والأعداء كثرة، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيها الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله – سبحانه – في كلماته.

---

(١) المصدر السابق ١٢٧٣/٣.

قال البخاري: باب شهود الملائكة بدراً، وفيه: جاء جبريل إلى النبي -ﷺ- فقال: " ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: " من أفضل المسلمين " - أو كلمة نحوها - قال: " وكذلك من شهد بدراً من الملائكة "(١)، (٢).

كما ذكر سيد بعض الأحاديث والآثار في تبرؤ الشيطان من المشركين يوم بدرٍ لما رأى جبريل يزع الملائكة، وقوله: " إني أرى ما لا ترون " (٣).

ويشير سيد - رحمه الله- إلى أن أمر معية الله -سبحانه- للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة، أمرٌ هائلٌ عظيمٌ، لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث: كيف اشترك الملائكة؟ ولا كم قتيلاً قتلت..؟ ولا كيف قتلت..؟ فنحن نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة، ولكنا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم، فلا نملك من إدراك الكيفية التي اشتركوا بها، إلا بمقدار ما جاء في النص.. وقد أوحى إليهم ربهم: أني معكم، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا،

---

(١) رواه: البخاري في المغازي باب شهود الملائكة بدراً ١٤٦٧/٤ برقم ٣٧٧١، ٣٧٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ١٤٨٣/٣- ١٤٨٤.

(٣) المصدر السابق ١٥٣٠/٣- ١٥٣١.

ففعلوا – لأنهم يفعلون ما يؤمرون – ولكننا لا ندري كيف فعلوا، وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين وأن يضربوا منهم كل بنان، ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها..

إن البحث التفصيلي في كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذي هو طابع العقيدة والحركة، ولكنه صار من مباحث الفرق الإسلامية وعلم الكلام في العصور المتأخرة، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية في هذا الدين، وتسلط الترف العقلي على النفوس والعقول.

إن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله –سبحانه– للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة، لهي أنفع وأجدى "[١].

ويبين سيد – رحمه الله– خطأ الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – عندما قال: أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة يوم بدر إلا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم "[٢] فهذا مخالف لظاهر النص، والنص أولى بالإتباع " [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٨٥/٣– ١٤٨٦ بتصرف يسير.

(٢) تفسير المنار ٥٢٥/٩ وما بعدها.

(٣) في ظلال القرآن ١٥٣٤/٣ هامش (١).

٨- **الدعاء والاستغفار للمؤمنين والانشغال بأمرهم:** والملائكة " مشغولون بأمر المؤمنين، يسبحون ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم، ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب قال سبحانه: {ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ } [سورة غافر:٧- ٩] ،(١). " فحملة العرش ومن حوله.. يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم، ويستغفرون لهم ويستنجزون وعد الله إياهم، بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين...

فهؤلاء المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله، إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن.. الغفران والوقاية من العذاب، إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين بدخول الجنة، وصحبة من صلح من الآباء والأزواج

---

(١) في ظلال القرآن ١٠٤٣/٣.

والذريَّات في الجنة، ووقايتهم من السيئات التي توبق أصحابها في الآخرة، فإذا وقاهم منها فقد وقاهم نتائجها وعواقبها " (١).

٩- تبشير المؤمنين بما يسرهم: ولذلك عدة صور منها:

أ- تبشير المجاهدين بالنصر والغلبة. (٢)

ب- تبشير الأنبياء والصالحين بما يسرهم ومن ذلك:

١- بشارتهم لإبراهيم - عليه السلام- وزوجه، بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٣).

٢- بشارتهم لزكريا - عليه السلام - بيحيى - عليه السلام- (٤).

٣- بشارتهم لمريم بعيسى - عليه السلام - (٥).

٤- تبشيرهم للمؤمنين بولايتهم لهم في الدنيا والآخرة وبالجنة، كما قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ } [سورة فصلت:٣٠ - ٣٢] .

---

(١) المصدر السابق ٣٠٧٠/٥-٣٠٧١ بتصرف يسير، ٣١٤١/٥.

(٢) في ظلال القرآن ١٢٧٣/٣.

(٣) المصدر السابق ١٩١٢/٤.

(٤) المصدر السابق ٣٩٤/١.

(٥) المصدر السابق ٣٩٦/١ - ٣٩٧.

" فالله يكلف الملائكة بالمؤمنين، يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة، ويبشرونهم بالجنة، ويتولونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة " (١).

١٠- قبض أرواح العباد: أوكل الله – سبحانه – قبض أرواح العباد إلى ملك الموت وأعوانه وسماهم رسلاً، فقال سبحانه: { حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ } [سورة الأنعام:٦١] ، وأخبرنا القرآن الكريم أن من أعمال الملائكة قبض أرواح العباد، المؤمنين وغير المؤمنين، وصَوَّر طريقة التوفي وقبض الروح لكلا الفريقين:

أ- أما المؤمنون: فأخبر – سبحانه – أن الملائكة تبشرهم بالجنة عند قبض أرواحهم (٢)، كما في قوله تعالى: ﴿ { ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ } [سورة النحل:٣٢]

" ومشهد احتضار المؤمنين الطيبين، مشهد هينٌ لينٌ كريمٌ، نفوسهم طيبة بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت..، تسلم عليهم الملائكة طمأنة لقلوبهم، وترحيباً بقدومهم " ادخلوا

(١) في ظلال القرآن ٥/٣١٢٠ – ٣١٢١ وينظر أيضا: ٣/١٠٤٤.
(٢) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٤.

الجنة بما كنتم تعملون " تعجيلاً لهم بالبشرى، وهم على عتاب الآخرة، جزاء وفاقاً على ما كانوا يعملون "(١).

ب- أما الكافرون الظالمون: فإن الملائكة تقبض أرواحهم في مشهد مفزعٍ مرعبٍ مكروبٍ مرهوبٍ، الظالمون في غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب – والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج، وهم يتابعونهم بالتأنيب: {وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ} [سورة الأنعام:٩٣] ' عذابٌ مهينٌ، وتأنيبٌ فاضحٌ، يضفي على المشهد ظلالاً مكروبة "(٢).

وأعظم من ذلك ما صوره القرآن الكريم لمشهد احتضار الكفار في قوله تعالى: {وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ} [سورة الأنفال:٥٠] .

" فالملائكة تستل منهم أرواحهم في مشهد مهين، يضيف المهانة والخزي، إلى العذاب والموت، وهم يحتضرون وفي نهاية

---

(١) في ظلال القرآن ٢١٦٩/٤.

(٢) في ظلال القرآن ١١٤٩/٢ بتصرف يسير.

حياتهم على الأرض، ومستهل حياتهم الأخرى التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار لحظة الوفاة، والضيق والكرب والمخافة " (١).

ويختم سيد - رحمه الله- استعراضه لوظائف الملائكة وتعاملهم مع الخلق بقوله: " ولقد كان للملائكة شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم- عليه السلام- كما أن هذه الصلة امتدت في طول الحياة وعرضها، حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذي أشرنا إليه فيما سبق " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٣٤/٣، وينظر أيضا: ٧٤٤/٢، ١٢٧٣/٣، ٢٩٨٢/٥، ٣٢٩٨/٦.

(٢) المصدر السابق ١٠٤٤/٢.

المطلب الثالث

ا لمنحرفون في تصورهم للملائكة وموقف سيد قطب منهم

تبين لنا فيما سبق التصور الصحيح الذي جاءت به النصوص الشرعية لعالم الملائكة، والذي يتضمن الإيمان بوجود هذا العالم الغيبي حقيقة، وبصفاته وخصائصه وطبيعته التي تحدث عنها النصوص، والإيمان بالأعمال والوظائف التي يقومون بها بأمر الله – سبحانه – وعلاقتهم بالله وبالكون وبالبشر، على نحو ما سبق ذكره من الفروع السابقة.

ومع ذلك يوجد من انحرف تصوره لحقيقة الملائكة، وهو انحراف قديم جديد تعرض له القرآن الكريم بالبيان والنقد والتصحيح، وقد وقف سيد قطب – رحمه الله– عند هذه القضية وبين منهج القرآن الكريم في تصحيح التصور عن الملائكة ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

<u>١– تصور المشركين في الجاهلية القديمة للملائكة:</u>

ذكر سيد – رحمه الله– في ظلال الآيات التي تتحدث عن تصور المشركين للملائكة، بأن" العرب في جاهليتهم يعرفون الملائكة وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكاً يدعو معه ويصدقه ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا

يعلمها إلا الله، وكانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق، وفي نوع علاقته بربه، ونوع علاقته بالأرض وأهلها.. وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة، وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم، وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلائق.

وكان الإسلام – من هذا الجانب – منهجاً لتقويم العقل والشعور، كما كان منهجاً لتقويم القلب والضمير، ومنهجاً لتقويم الأوضاع والأحوال سواء.

وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالتهم في جاهليتهم، أنهم كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله! سبحانه وتعالى عما يصفون! وأنهم – من ثم – لهم شفاعة عند الله لا ترد!

والراجح: أن بعض كبار الأصنام كانت رموزاً للملائكة! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكاً ليصدقه في دعواه.

وقد صحح القرآن للمشركين ضلالتهم الأولى وهي قولهم: إن الملائكة بنات الله وأن لهم شفاعة عنده في مواضع شتى، من ذلك ماجاء في سورة النجم: { أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النجم:١٩ – ٢٨] ،[1].

وفي سورة الصافات: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة الصافات:١٤٩– ١٥٩] .

حيث يوجه القرآن الكريم الرسول –ﷺ– أن يناقش معهم تلك الأسطورة التي يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله، والأسطورة الأخرى التي يزعمون فيها أن بينه– سبحانه– وبين الجِنة نسباً، إنه يحاصر أسطورتهم في كل مساربها، ويحاجّهم بمنطقهم

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤١.

ومنطق بيئتهم التي يعيشون فيها، وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات، ويعدون ولادة الأنثى محنة، ويعدون الأنثى مخلوقاً أقل رتبة من الذكر، ثم هم الذين يدَّعون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله.

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة... { فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ } أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون، جعلوا لربهم البنات واستأثروا بالبنين؟! أو أختار الله البنات وترك لهم البنين؟! إن هذا أو ذاك لا يستقيم! فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم ومنشأ الأسطورة كلها، من أين جاءهم علمٌ أن الملائكة إناث؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم؟... بل هم كاذبون حتى بحكم عُرْفِهم ومنطقهم.. وحكمهم لا يتفق مع منطقهم، وليس لهم سند ولا دليل على هذا الحكم المزعوم،.. ولا على أسطورة أن بين الله وبين الجنة نسباً وأن الملائكة ولدتهم له الجِنْة " (١).

وفي سورة سبأ يبطل القرآن الكريم ما كان عليه المشركون من عبادة الملائكة، من خلال الحديث عما سيكون يوم القيامة بين الملائكة وبين المشركين فيقول: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٠- ٣٠٠١ بتصرف يسير.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ } [سورة سبأ:٤٠- ٤٢] ، " فهاهم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم.. أو يتخذونهم عنده شفعاء، يواجهون بهم، فيسبحون الله تنزيهاً له من هذا الادعاء، ويتبرأون من عبادة القوم لهم...

وبالتالي فالملائكة لا يملكون للناس شيئا، ولا الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئا.. " (١)

- كما صحح القرآن الكريم للمشركين ضلالتهم الثانية في تصورهم لطبيعة الملائكة: وهي طلبهم أن ينزل الله على رسول الله ﷺ ملكاً يدعو معه ويصدقه، فيقول- سبحانه -: {وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [سورة الأنعام:٨- ٩] ، " فهو يخبر أن الملائكة حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم، إنما ينزلوا للتدمير عليهم وإهلاكهم، ولو أن الله استجاب للمشركين فأنزل ملكاً لقضي الأمر، وتم التدمير، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل.. وهذا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١١ بتصرف يسير.

من رحمة الله بهم..

ثم إن اقتراحهم إنزال ملكٍ على الرسول -ﷺ- يصدقه في دعواه، دليل على جهلهم بطبيعة الملائكة.. فلو شاء الله أن يرسل ملكاً يصدق رسوله، لتبدى للناس في صورة رجل - لا في صورته الملائكية، لأنهم لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم الملائكية، لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب، وعندئذٍ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى، فإذا كانوا يُلبِّسون على أنفسهم الحقيقة، وهم يعرفون محمد -ﷺ- فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - في صورة رجل لا يعرفونه - يقول لهم: أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله، بينما هم يرونه رجلاً كأي منهم؟! إنهم يُلبِّسون الحقيقة البسيطة، فلو أرسل الله ملكاً لجعله رجلاً وللبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها، ولما اهتدوا قط إلى يقين "[١]. وقد صحح القرآن هذه الضلالة في مواضع أخرى [٢].

٢- تصور الملاحدة للملائكة:

الإلحاد هو: إنكار وجود الله تعالى، ويترتب على هذا الإنكار إنكار كل ما يتعلق بالإيمان بالله من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وما جاء عن الله تعالى.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٤١- ١٠٤٢ بتصرف يسير.

(٢) ينظر: المصدر السابق ٤/٢١٢٧.

ويمثل الفلاسفة نموذجاً للملاحدة قديماً، فتصورهم للإله تصور منحرف، حيث يرون أن الإله هو قانون العالم وهيكله، فهو ليس الإله الحق الذي جاء به الإسلام، وبالتالي فتصورهم لبقية أركان الإيمان تصور منحرف بما في ذلك تصورهم للملائكة، حيث يرونها تخييلات من الأنبياء، للتأثير على الجماهير (١).

ويمثل الملاحدة اليوم من يسمون " أهل العلمية الحديثة "، يقول سيد –رحمه الله–: " والعرب في جاهليتهم –على كل ما في هذه الجاهلية من خطأ في التصور– كانوا " من هذا الجانب " أرقى من أهل الجاهلية " العلمية! "الحديثة، الذين يسخرون من الغيب كله! ويعدون الإيمان بمثل هذه العوالم الغيبية سذاجة غير علمية! ويضعون "الغيبية " في كفة، و" العلمية " في الكفة الأخرى!...

ونسأل: ماذا عند أدعياء العقلية "العلمية " من علمهم ذاته، يحتم عليهم نفي هذا الخلق المسمى بالملائكة، وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك.

إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام

٦ينظر: موقف سيد قطب من الفلاسفة في الباب الثاني –الفصل الأول– المبحث الثالث – من هذا البحث، ومقومات التصور الإسلامي: ص٥٣.

أخرى، يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها، فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم، وهم لا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجودها.

إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا، ولا إلى قول الله- سبحانه-! إنما نحاكمهم إلى " علمهم " الذي يتخذونه إلهاً.. فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها – من غير أي دليل من هذا العلم – هي التي تقودهم إلى هذا الإنكار " غير العلمي "! ألمجرد أن هذه العوالم غيب؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا " العلم " اليوم بوجودها، حتى في عالم الشهادة الذي
تلمسه الأيدي وتراه العيون " (١)

٣- مدرسة الامام محمد عبده وتأويلها لعالم الملائكة:

أشار سيد- رحمه الله- إلى" أن من أخطاء مدرسة الإمام محمد عبده – رحمه الله – تأويلهم لعالم الملائكة والجن، حيث يرون أنه لا يمكن أن يكون لهم وجود مجسم على هذا النحو، وأن تكون لهم حركات حسية وتأثيرات واقعية، ومن ثم يرون أن

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٤-١٠٤٥. وينظر أيضا: مناقشة سيد لمن ينكرون الغيبية، في ظلال القرآن ٢/١١١٣-١١٢١ ومقومات التصور الإسلامي: ص ٥١-٦١ حيث توسع- رحمه الله – في الرد عليهم.

الملائكة تمثيل لقوة الخير والطاعة، والشياطين تمثيل لقوة الشر والمعصية، والرجوم تمثيل للحفظ والصيانة.. الخ "(١).

يقول سيد: ".. ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم... ثم نقل سيد – رحمه الله– كلام رشيد رضا، في أن مشاركة الملائكة في بدر كانت بإلهامهم للمؤمنين من خلال ملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم..

وقال: وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين، وقد جزم في موضع آخر بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى: {فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ }...كل هذا مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية لا ضرورة لهذا التأويل، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها، وكل ما ينبغي هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠.

دلالة صريحة، وهو المنهج الذي اتخذناه فعلاً " [١].

ثم أوضح سيد – رحمه الله – أن سبب هذا الخطأ عند أصحاب هذه المدرسة هو تأثرها بالنزعة العقلية بسبب الجمود الفكري الذي عاصرته والنزعة الخرافية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام ضد تهجمات المستشرقين، ولكن ذلك وغيره أدى بها إلى الجموح بالعقل وتأويل كثير من الغيبيات. [٢]

المطلب الرابع:

التفضيل بين الملائكة وصالحي البشر:

تعددت الأقوال حول تفضيل الملائكة على الأنبياء وصالحي البشر أو العكس: –

١– فمنهم من يقول: " إن الملائكة أفضل من جميع البشر " [٣]

٢– ومنهم من يقول: " إن الأنبياء وصالحي البشر أفضل " [٤]

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٥٣١ – ١٥٣٢، ١٥٣٤ بتصرف يسير، وينظر أيضا: موقف سيد قطب من مدرسة الإمام محمد عبده، في الباب الثاني من هذا البحث.

(٢) خصائص التصور الإسلامي: ص ١٨– ١٩.

(٣) وممن قال به: الزمخشري وجماعة، وقد رد عليهم الحافظ ابن حجر في الفتح: ١٣/ ٣٨٦ – ٣٨٨.

(٤) وهو قول بعض أهل السنة، أما الشيعة فيرون أن الأئمة أفضل من جميع الملائكة، ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٠، وفتح الباري: ١٣/ ٣٨٦.

٣- ومنهم من يقول: " بالتوقف " (١)

٤- ومنهم من يقول: " بالتفصيل، فشيخ الإسلام ابن تيمية: يرى أن الأنبياء والصالحين أفضل من الملائكة باعتبار كمال النهاية، وذلك إنما يكون إذا دخلوا دار القرار، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، فلا يظهر فضلهم في ابتداء أحوالهم، وإنما يظهر فضلهم عند كمال أحوالهم، بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره " (٢). ويرى آخرون: أن الأنبياء والرسل من البشر أفضل من رسل الملائكة، ورسل الملائكة أفضل من صالحي البشر، وصالحوا البشر أفضل من عوام الملائكة. (٣)

ومن خلال استقراء كلام سيد قطب- رحمه الله- حول الموضوع نجد أنه يميل إلى تفضيل صالحي البشر على الملائكة، ففي ظلال قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ } [سورة البقرة:٣٤] يقول: " إنه التكريم في أعلى صوره

---

(١) وهو مذهب أبي حنيفة ورجحه شارح الطحاوية، انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ص٤١١، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٨ – ٤٢٩، ٥٨٩، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ١١٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/ ٣٠٠، ١١/ ٩٥، ٤/ ٣٥٠ – ٣٩٢، و لوامع الأنوار للسفاريني ٢/٣٩٩.

(٣) ذكره القرطبي وأشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ١/٢٩٨، والرازي ٢/٣٤.

لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، ومنها سر المعرفة، وسر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق، فازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة، بعض أسرار تكريمه " (١).

" فالإنسان يملك أن يرتفع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه، عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه، وهذا مظهر من مظاهر التكريم ولا شك " (٢).

ويقول أيضاً: " إن الإنسان بازدواج طبيعته واستعداداته، يتحرك في مجال بعيد الآماد مع نفسه ذاتها، إنه يعرج إلى السماوات العلى ويتجاوز مراتب الملائكة، حين يخلص عبوديته لله، ويترقى فيها إلى منتهاها، أو يهبط إلى مستوى البهيمة حين يتخلى عن خصائص إنسانيته، ويتمرغ في الوحل " (٣)

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٧.

(٢) المصدر السابق ١/ ٦١.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٣، ٥/ ٢٥٨١، ٣٩٣٧/٦، ٣٩٥٢، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٨، ٣٧٤.

المبحث الثاني

الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله –عز وجل –على أنبيائه ورسله ركن من أركان الإيمان الستة، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله –سبحانه وتعالى – أنزل كتباً على بعض الأنبياء والمرسلين وأنها اليوم على قسمين:

القسم الأول: كتب ذات أصل سماوي، لكنها حرفت وبدلت كالتوراة والإنجيل، أو فقدت كالزبور، وصحف إبراهيم وموسى، والإيمان بهذا القسم من الكتب السماوية يعني: التصديق بأنها كلام الله، وأن ما تضمنته حق، قبل أن يصيبها ما أصابها، وأن الموجود منها اليوم ليس هو الذي أنزله الله "(١).

والقسم الثاني: ما سلم من التحريف والتبديل، وهو القرآن الكريم فقط، وبالتالي فالحديث عن الإيمان بالكتب يشمل جانبين:

الأول: الإيمان المجمل، بأن أصولها نزلت من عند الله على الرسل هداية للناس.

الثاني: المفصل وهو الإيمان بما أنزل علينا منها وهو القرآن الكريم، والعمل به وتحكيمه دون سواه

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ١٧٢/١، ١١٧/١، وتفسير المنار ٤٥٩/٥.

وقد قرر سيد قطب – رحمه الله – هذين المعنيين في مواضع متفرقة، ويمكن بيان منهجه في باب الإيمان بالكتب فيما يلي:

المطلب الأول

الإيمان العام بالكتب إجمالاً

يقرر – سيد قطب – رحمه الله – في هذا الباب ما يأتي:

أولا: أن الإيمان بجنس الكتب السماوية من مقتضيات الإيمان بالله تعالى، وعنصر من عناصر الإيمان الشامل، قال سبحانه: {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ} [سورة البقرة:٢٨٥] ، وقال سبحانه: {لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ} [سورة البقرة:١٧٧] .

وقد وقف سيد –رحمه الله– في ظلال هذه الآيات مقرراً حقيقة ترابط أركان الإيمان بما فيها الإيمان بالكتب فقال: " والإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام، فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة

الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم "[1].

" فالإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعاً، وبالرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية، ووحدة إلهها، ووحدة دينها، ووحدة منهجها الإلهي " [2]، " وإنزال الكتب على الرسل من سنن الله "[3]، والله تعالى يقول: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا } [سورة النساء:١٣٦]

" حيث بيَّن عناصر الإيمان الذي يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا، فهو إيمان بالله ورسوله، وهو إيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله.. وهو إيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل، بما أن مصدر الكتب كلها واحد هو الله، وأساسها واحد هو إسلام الوجه لله، وإفراده بالإلوهية – بكل خصائصها – وطاعة منهجه في الحياة، وهذه الوحدة هي المقتضى الطبيعي البديهي لكون هذه الكتب – قبل تحريفها – صادرة عن الله،..

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢/١.

(٢) المصدر السابق ١٥٩/١.

(٣) المصدر السابق ١١٤٧/٢ بتصرف يسير.

" فالإيمان بالكتاب كله – بوصف أنها كلها كتاب واحد في الحقيقة – هو السمة التي تنفرد بها هذه الأمة المسلمة عن غيرها " [١].

ثانياً: أن الإيمان بالكتب يعني الإيمان بجهة صدورها، فالله وحده هو مصدرها، وهو من يملك حق تنزيل الشرائع، وفرض القوانين " [٢]. " وبالتالي الإيمان بأن الكتب السماوية التي نزلت من الله– قبل تحريف ما حرف منها– متفقة في أصول العقيدة، أما الشرائع فقد جعل الله لكل أمة شرعةً ومنهاجاً"[٣] خلافاً لما يقوله أصحاب مقارنة الأديان من الغربيين ومن تأثر بهم ممن تأثر بالثقافة الغربية التي تزعم أن أصول العقيدة – بما فيها العقائد السماوية– قد تطورت وترقت، بتطور الأقوام وترقيتها " [٤].

ثالثاً: الإيمان بأن الله –تعالى–أنزل على بعض أنبيائه ورسله كتباً ذكر الله بعضها في القرآن الكريم، يقول – سيد –: " فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى، والزبور مع داوود، والإنجيل مع عيسى.... والقرآن الكريم المنزل على – محمد ﷺ – [٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٧٧–٧٧٨ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٢/٩٠٢، ٥/٣١٥٠.

(٣) المصدر السابق ٢/١١٤٧، ٦/٣٤٩٤.

(٤) المصدر السابق ٢/١١٤٧–١١٤٨ بتصرف يسير.

(٥) المصدر السابق ٢/١١٤٧–١١٤٨ بتصرف يسير.

رابعاً: إن هذه الكتب نزلت على الرسل على قسمين:

أ- **خاصة** بالأقوام الذين نزلت عليهم، كما هو الحال في التوراة التي أنزلت على بني إسرائيل، والإنجيل الذي جاء بعدها لبني إسرائيل أيضاً، وتبقى بعد موت الرسل في قومهم إلى حين، ككتب موسى وداود وعيسى – عليهم السلام –.

ب- **عامة** لقوم النبي الذي أنزلت عليه وتبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن "[1].

خامساً: أن الأصل في الكتب التي أنزلها الله على رسله، أنها كتب هداية وإرشاد للأمم – قبل تحريفها – قال تعالى: { إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ } [سورة المائدة:٤٤] ، " فالله أنزل التوراة لتكون هدى ونوراً للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات وشريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج

الله، يحكم بها النبيون، للذين هادوا، فهي شريعتهم الخاصة نزلت في حدودهم هذه وبصفتهم هذه "[2].

وقوله تعالى أيضاً{وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

---

(١) المصدر السابق ١١٤٤/٢، ١١٤٦.

(٢) في ظلال القرآن ٨٩٦/٢.

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ } [سورة المائدة:٤٦] " فقد آتى الله عيسى بن مريم الإنجيل، ليكون منهج حياة وشريعة حكم، ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعاً، إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة وقد جاء مصدقا لها، وجعل الله فيه هدى ونوراً، وموعظةً للمتقين، وجعله خاصاً بأهل الإنجيل، فليس رسالة عامة للبشر، شأنه شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول قبل هذا الدين الأخير"(١).

سادساً: الإيمان بما أخبر الله به في القرآن الكريم من أن الكتب السماوية قد حرفت وبدلت وغيرت بعد أنبيائها، ماعدا القرآن الكريم فهو محفوظ بحفظ الله –تعالى – بحيث أصبح هذا الأمر معلوما من الدين بالضرورة، فقد أخبر الله –تعالى– في أكثر من آية أن أهل الكتاب حرفوا وغيروا وبدلوا

كتبهم، وانحرفوا عنها إلى أهوائهم وشهواتهم، وما يمليه عليهم أحبارهم ورهبانهم، وندّد القرآن الكريم بفعلهم هذا والذي اتخذ عدة صور منها:

١ – كتمان ما أنزل الله من الكتاب: قال سبحانه وتعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٠٠ بتصرف يسير.

وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }
[سورة البقرة:١٧٤] وآيات كثيرة جدا تندّد بكتمان أهل الكتاب للحق الذي جاءت به كتبهم (١).

" والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولاً أهل الكتاب، ولكن مدلول النص عام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمناً قليلاً "(٢).
" ومظهر آخر من مظاهر الكتمان وهو نبذ كتاب الله وراء ظهورهم، وكتمان ما تضمنته من البشرى بهذا النبي "(٣)، " حيث جعلوا الكتاب قراطيس أي في صحائف يتلاعبون بها، فيبدون للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع، والتلاعب بالأحكام والفرائض، ويخفون مالا يتفق مع خططهم من صحائف التوراة " (٤).

---

(١) ينظر البقرة: الآيات ١٤٢ – ١٤٦، ١٥٩، آل عمران ٧١، ١٨٧، النساء ٣٧.
(٢) في ظلال القرآن ١/١٥٧.
(٣) المصدر السابق ١/٩٤.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٤٦.

٢- عدم الالتزام بما جاء به كتابهم والانحراف عنه إلى غيره مما يضعه لهم البشر:

" لقد كان أهل الكتاب أولى الناس بإتباع الكتاب، وتحكيمه في حياتهم، وعدم اتباع الطاغوت – وهو كل شرع لم يأذن به الله – ولكنهم.. اتبعوا الباطل وما شرعه لهم الكهان والأحبار ولم يلتزموا بما أوتوه من كتاب " (١).

٣- تأويل نصوص الكتاب بما يوافق أهوائهم: وهذه هي الصورة الثالثة من صور تحريف أهل الكتاب لكتابهم، ففي ظلال قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [سورة آل عمران:٧٨] ' يقول سيد – رحمه الله-: " والآية تعرض نموذجا للمضلين، الذين يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة، ويشترون بهذا كله ثمناً قليلاً ومن بين ما يلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويؤولونه ما يختص بمعتقداتهم التي ابتدعوها عن المسيح عيسى بن مريم، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء... وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة

---

(١) المصدر السابق ٦٨١/٢. بتصرف يسير.

طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين، وهذه الحال التي يذكرها القرآن الكريم عن هذا الفريق من أهل الكتاب، نعرفها نحن جيداً في زماننا هذا، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم، ويلوونها لياً ليصلوا منها إلى مقررات معينة، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص، وأنها تمثل ما أراده الله منها، بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها، معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلجاءً، وهي آفةٌ تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه، فهذا النموذج من بني إسرائيل، كانوا يتلمسون الجمل ذات التعبير المجازي - في كتاب الله ويلوون بها ألسنتهم - أي في تأويلها واستخراج مدلولات منها هي لا تدل عليها، ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هي من كتاب الله، ويقولون هذا ما قاله الله، وهو -سبحانه- لم يقله "(١).

(١) في ظلال القرآن ٤١٨/١-٤١٩ بتصرف يسير.

وعموماً " فقد أصبحت الديانات العظمى قبل الإسلام فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة – المحرفين والمنافقين – حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها "(١).

" وإذا كان الأمر كما سبق بيانه من أن الكتب السماوية السابقة للقرآن قد حرفت وبدلت، فلا يجوز بالتالي أن يستمد منها، ولا أن يتلقى عنها شيء من أمور الدين، فما كان حقاً فيها فقد احتوى عليه القرآن الكريم أو نسخه، وما كان باطلاً فلا يجوز أخذه بل ولا الالتفات إليه، لأن التلقي عن هذه الكتب المحرفة يعنى الهزيمة الداخلية ابتداءً، والتخلي عن دور القيادة المناط للأمة المسلمة، والشك في كفاية كتابها ومنهجها لقيادة الحياة، وهذا بذاته دبيب الكفر" (٢).

" ولذا كان رسول الله – ﷺ – يتشدد مع أصحابه – رضوان الله عليهم – في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج عن أهل الكتاب، ومن ذلك ما جاء عن عمر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، إني مررت بأخ يهودي من بني قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول

---

(١) المصدر السابق ٣١٤٩/٦. والعبارة نقلها سيد عن أبي الحسن الندوي، من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٢٢.

(٢) في ظلال القرآن ٤٣٨/١.

الله – ﷺ –... فقال عمر: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً قال فسري عن النبي – ﷺ – وقال: "والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى – عليه السلام – ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين "(1)، وقال ﷺ: " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني "(2)، هؤلاء هم أهل الكتاب، وهذا هو هدي رسول الله ﷺ في التلقي عنهم "(3).

سابعاً: اعتقاد كفر من لم يؤمن بكتب الله جميعها أو بعضها:

ففي ظلال قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [سورة الأنعام:91]، يقول سيد –رحمه الله–: " كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون: إن الله لم يرسل رسولاً من البشر، ولم ينزل كتاباً يوحي به إلى بشر، بينما كان إلى جوارهم

---

(1) رواه: أحمد 471/3، قال الأرناؤوط في إسناده ضعف: انظر: المسند بتحقيق الأرناؤوط 198/25.

(2) رواه: 338/3، قال الأرناؤوط في إسناده ضعف 468/22.

(3) في ظلال القرآن 439/1-440 بتصرف.

في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود، ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى - عليه السلام - إنما كان قولهم ذلك عناداً، ليكذبوا برسالة محمد - ﷺ- وهذا القول الذي كان يقوله مشركوا مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان، ومنهم:

١- الذين يزعمون أن الأديان من صنع البشر، وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم، دون تفريق منهم بين الديانات الوثنية التي من صنع البشر، وبين الديانات التي جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى، جاء بها كل رسول، فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة، ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها،...

٢- بعض الفلاسفة في القديم والحديث، والذين يقولون: إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعني بالإنسان " الضئيل " في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض! بحيث يرسل له الرسل، أو ينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير،.. ٣- الماديون الملاحدة الذين يقولون: إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل.. إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين" [١].

---

(١) في ظلال القرآن ١١٤٥/٢ بتصرف يسير.

٤- ومثلهم من كذب بكتابٍ واحدٍ من كتب الله التي أنزلها على رسله في أي زمان ومكان، كما قال سبحانه: { ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [سورة غافر:٧٠] ' وهم كذبوا كتاباً واحداً، ورسولاً واحداً، ولكنهم إنما يكذبون بهذا بكل ما جاء به الرسل، فهي عقيدة واحدة.. ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وكل رسول"(١).

(١) في ظلال القرآن: ٣٠٩٦/٦.

المطلب الثانـي

الإيمـان بالقرآن الكريـم

الـذي يقـرأ مـا كتبـه سـيد قطـب –رحمـه الله– وخاصـة فـي الظلال والمعالم والمقومات، يجد أنه يولي عناية خاصة بالقرآن الكريم، وقد سبق معنـا – عند الحديث عن مصادر التلقـي – بيان كلامه عن القرآن الكريم وبيانه لأهمية العيش في ظلال هذا الكتـاب العظيم، والاستمداد منـه، وأهميته فـي حيـاة الأمـة المسلمة، والحكمة من تنزيله، كما أوضحنا منهجه –رحمه الله – وطريقته في فهم القرآن والانتفاع والحركة به في الحياة الواقعية، واعتباره المصدر الوحيد للعقيدة الإسلامية، باعتبار أن حديث رسول الله – ﷺ – ليس إلا أثراً من آثار القرآن الكريم.

وعرضـنا أيضـا كلامـه –رحمـه الله – حـول أهميـة حصـر مصدر التلقي فـي القرآن الكريم، وأثر ذلك فـي حيـاة البشرية، والـذي يتمثل فـي صـلاحها، ووحـدتها فكـراً وسـلوكاً، وبعـداً عـن الهوى والخرافة. (١)

كما بينا عند الحديث عن الصفات الإلهية وموقف سيد منها:

---

(١) ينظر: المطلب الأول من المبحث الأول – الفصل الثاني– الباب الثاني من هذا البحث.

أنه يقرر أن القرآن الكريم كلام الله ووحيه إلى نبيه – ﷺ – وينكر على المعتزلة قولهم بخلق القرآن [١].

ونضيف هنا ما يتعلق ببيان سيد – رحمه الله – لمكانة القرآن الكريم بين الكتب الإلهية، وما امتاز به عليها، وما اشتمل عليه من الخصائص، وذلك كما يلي:

<u>أولاً: خصائص القرآن الكريم:</u> أشار سيد إلى بعض خصائص القرآن الكريم ومنها:

<u>١– أنه ناسخ لما قبله، ومهيمن عليه، ومصدق لما قبله من الحق:</u>

قال سبحانه وتعالى: { وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } [سورة المائدة:٤٨] ، يقول سيد: " إنها الرسالة التي جاءت تعرض " الإسلام " في صورته النهائية الأخيرة، ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً، ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجع النهائي، ولتقيم منهج الله الحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا الكتاب هو المرجع الأخير في منهج الحياة، وشرائع الناس ونظام حياتهم ومن ثم فكل اختلاف يجب

---

(١) ينظر: ص

أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة، أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم "(١).

" فهو يصدّق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله – في صورتها التي لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت: إنه من عند الله – هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة، أما الشرائع فقد جُعل لكل أمة شرعةٌ ومنهاجً، في حدود العقيدة الكبرى في الله "(٢).

* أما ما اختلف فيه أهل الكتب السابقة فإن القرآن يقص عليهم أكثر الذي هم فيه يختلفون كما قال سبحانه: { إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [سورة النمل:٧٦] ،

ومما قصه الله عليهم وفصل الخطاب فيه:

١- اختلافهم في ماهية المسيح – عليه السلام – هل هو إنسان؟ أم الله؟ أم ابن الله؟ أم أحد الأقانيم الثلاثة التي يتركب منها الإله بزعمهم، إلى آخر ما ثار في المجامع النصرانية وبين

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٠١-٩٠٢.

(٢) المصدر السابق ٢/١١٤٧.

الفرق، فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا: قال عن المسيح إنه: كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وإنه بشر وليس إله..

٢- اختلافهم في مسالة صلب المسيح – عليه السلام- فجاء القرآن بالخبر اليقين فقال سبحانه: { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [سورة النساء:١٥٦-١٥٧] .

٣- ومن قبل حرف اليهود التوراة، وعدلوا تشريعاتها الإلهية، فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ } [سورة المائدة:٤٥]

٤- " وحدثهم القرآن الكريم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مطهراً من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً... فطهر القرآن صفحات هؤلاء الرسل مما لوثتهم به

الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة، كما صحح الأساطير عن عيسى بن مريم –عليه السلام– فهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله، الذي يفصل في خلافات القوم فيها، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.. هو الحكم الفصل " (١).

٢– أنه محفوظ من التحريف والتبديل باقٍ إلى قيام الساعة:

فالقرآن الكريم يختلف عن الكتب السابقة، في أنها نزلت على أقوام معينين، وأسندت مهمة حفظها والقيام عليها على الأنبياء والأقوام التي نزلت عليهم، فبقت فتره من الزمن بعد أنبيائها، ثم دخلها التحريف والتبديل – كما سبق بيانه – أما القرآن الكريم، فإنه نزل للبشرية عامة إلى قيام الساعة، وتكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل حتى آخر الزمان، كما قال سبحانه وتعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ } [سورة الحجر:٩] ، يقول سيد: " فهو باقٍ محفوظٌ لا يندثر ولا يتبدل، ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف، وهو يقود البشرية إلى الحق برعاية الله وحفظه،... وننظر اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٦٤–٢٦٦٥ بتصرف يسير.

رغم تقلبات الأحوال والظروف والملابسات والعوامل على هذا الكتاب في خلال القرون السابقة، والتي ما كان يمكن أن تتركه مصوناً محفوظاً لا تتبدل فيه كلمة، ولا تحرف فيه جملة، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل، وتصونه من العبث والتحريف.

وقد حاولت الفرق الكثيرة أن تدس في حديث النبي ﷺ وأن تؤول معاني النصوص القرآنية لتوافق أهواءها.. لكنها عجزت جميعاً أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص هذا الكتاب المحفوظ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله، حجة باقية على كل محرِّفٍ وكل مؤوِّلٍ، وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

وحتى في زمن الضعف الذين يعيشه المسلمون اليوم، والذي ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم، وعن حماية عقيدتهم، وأرضهم، وأعراضهم وأموالهم وأخلاقهم وعقولهم، وتسلط عليهم أعداؤهم في كل جوانب الحياة، إلا أن أعداء هذا الدين مع هذا كله لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال، لكنهم لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب الذي لا حماية له من

أهله المنتسبين إليه، فدل على ربانيته وإعجازه " [١].

٣. أنه دستور شامل ومنهج كامل للحياة البشرية إلى قيام الساعة:

" أراد الله – تعالى– أن يكون هذا القرآن هو الرائد الحي للبشرية بعد وفاة الرسول ﷺ لقيادة أجيال هذه الأمة، وتربيتها، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به، كلما اهتدت بهديه... وهذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى، ولكنه دستور شامل، دستور للتربية، وللحياة العملية، تضمن عرض تجارب البشرية من لدن آدم – عليه السلام – وقدمها زاداً للأمة المسلمة في جميع أجيالها "[٢].

" ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي، جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة، التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

لقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة، وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢١٢٧– ٢١٢٩ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ١/٢٦١ بتصرف.

إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب الظروف، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.. وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق، في كل تشريعاته وتكاليفه.. "[1].

٤- أنه معجزة الإسلام الخالدة: " إن معجزة الإسلام هي القرآن، وهو كتاب يرسم منهجاً كاملاً للحياة، ويخاطب الفكر والقلب، ويلبي الفطرة القويمة، ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة، أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلاً من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل "[2].

"ولقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة – ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها للتسليم– ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٤٠١ بتصرف، وينظر ٤/ ٢٥٠٨، ٥/ ٢٥٨٤.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧.

والقريب "[1]، وسيأتي بيان أوجه الإعجاز في القرآن الكريم عند الحديث عن المعجزات في الفصل القادم – أن شاء الله –.

ثانياً: بعض صفات القرآن الكريم: أشار سيد –رحمه الله – إلى بعض صفات القرآن الكريم في مواضع متعددة، ومنها:

١– **أنه كتاب مبارك:** قال تعالى: {وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ } [سورة الأنعام:٩٢] .

يقول سيد – رحمه الله–: " إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب، وهذا الكتاب الجديد الذي ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك، وصدق الله، فإنه والله مبارك.. مبارك بكل معاني البركة: –

* إنه مبارك في أصله، باركه الله وهو ينزله من عنده.

* ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل، قلب محمد ﷺ الطاهر الكريم الكبير.

* ومبارك في حجمه ومحتواه، فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٨٥.

أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر، وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير، أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية، وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز – ولا في أضعاف أضعافه– عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات.

* وإنه لمباركٌ في أثره، وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل، ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن، فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل، ذلك أن به من الله سلطاناً، وليس في قول القائلين من سلطان!.

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب، وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه " مبارك " ففيها فصل الخطاب! " [1].

<u>٢– أنه نور:</u> قال – سبحانه – {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } [سورة النساء:١٧٤]، وقال: {قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ } [سورة المائدة:١٥]، يقول سيد – رحمه الله–

---

(١) في ظلال القرآن ١١٤٧/٢ وينظر أيضا: ١٢٣٧/٢.

: " – نورٌ وكتابٌ مبينٌ – وصفان للشيء الواحد، لهذا الذي جاء به الرسول الكريم، وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب – القرآن – وعلى طبيعة هذا المنهج – الإسلام – من أنه " نور "، إنها حقيقة يجدها المؤمن في قلبه وفي كيانه، وفي حياته، وفي رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص، يجدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان في قلبه.

" نور " نور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف، ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم.

* ثقلة الطين في كيانه، وظلمة التراب، وكثافة اللحم والدم، وعرامة الشهوة والنزوة، كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى، تخف الثقلة، وتشرق الظلمة، وترق الكثافة، وترف العرامة.

* واللبس والغبش في الرؤية، والتأرجح والتردد في الخطوة، والحيرة والشرود في الاتجاه والطريق البهيم الذي لا معالم فيه، كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى، يتضح الهدف ويستقيم الطريق إليه، وتستقيم النفس على الطريق.. "(١)

" نور" تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً مرسوماً، في داخل النفس وفي واقع الحياة سواءً، حيث تجد النفس من هذا

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٦٢.

النور ما ينير جوانبها أولاً، فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحاً، حيث يتلاشى الغبش وينكشف، وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة، ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه، يحس يسراً وبساطةً ووضوحاً في رؤية الأمور، ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوءٍ، وتلتزم حقائقها في يسرٍ، وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة، لتبدو في براءتها الفطرية، ونصاعتها كما خرجت من يد الله.

ومهما قلت في هذا التعبير " وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً " فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني! ولا بد من التذوق الذاتي! ولا بد من التجربة المباشرة! " [١].

٣- أنه هدى: قال سبحانه: { ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ } [سورة البقرة:٢]، " فالهدى حقيقته، والهدى طبيعته والهدى كيانه، والهدى ماهيته"[٢].

(١) المصدر السابق ٨٢٢/٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣٨/١، وينظر ٢٦٢٦/٥.

ويقول سبحانه: { إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ } [سورة الإسراء:٩] ، " هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

* يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

* ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم...

* ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

* ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض،

أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض...

* يهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان "(١).

" فهو هدى يقي من الاختلاف والضلال، ويوحد المنهج، ويعين الطريق، ويصل بالسنن الكبرى التي لا تتخلف "(٢).

<u>٤- أنه عليٌ حكيم:</u> قال سبحانه: { إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ } [سورة الزخرف:٤ ٣] ، وقال سبحانه: { تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ } [سورة لقمان:٢] ، وقال سبحانه: {يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ } [سورة يس:١- ٢] "

فالله يُبِّين القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن.. فهو " عليٌ ".. " حكيمٌ ".. وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة، وإنه لكذلك! وكأنما فيه روح، روح ذات سمات وخصائص.. وهو في علوه وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢١٥ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٥/٢٦٦٥، وينظر ٥/٢٧٨٣، ٢٨٠٦،، ٣/١٤٢١.

طبيعته وخصائصه، وينشئ في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان: علي، حكيم(١).

* فالقرآن "حكيم" يخاطب كل أحدٍ بما يدخل في طوقه، ويضرب على الوتر الحساس في قلبه، ويخاطبه بقدر، ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه.

* والقرآن "حكيم" يربي بحكمة، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم، ويقرر للحياة نظاماً كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم " (٢).

* والقرآن "حكيم " ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في صفحة الكون وتضاعيفه، في السماء والأرض.. وما فيهما.. " (٣)

٥- أنه برهان: " فهو برهان على المصدر الذي جاء منه، وبرهان على إعجاز ه وبلاغته " (٤).

٦- أنه بلاغ وكفاية: قال سبحانه: { إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ } [سورة الأنبياء:١٠٦] .

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٧٦/٥، وينظر أيضا ٥/ ٢٧٨٣.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٩٥٨.

(٣) المصدر السابق ١٧٥٩/٣.

(٤) في ظلال القرآن ٨٢٢/٢ بتصرف يسير.

يقول سيد – رحمه الله–: " إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة، ومن مصائر الناس في الدنيا والآخرة، ومن قواعد العمل والجزاء، إن في هذا لبلاغاً وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله " (١).

٧– أنه مجيد وكريم وعظيم: قال سبحانه: { بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ } [سورة البروج:٢١] وقال سبحانه: {إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ } [سورة الواقعة:٧٧] وقال سبحانه: { وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ } [سورة الحجر:٨٧] .

* " والمجيد: الرفيع الكريم العريق بذاته، وهل أمجد وأعرق من قول الله العظيم " (٢).

* " والكريم: كريم بصدوره، وكريم بذاته، وكريم باتجاهاته، فليس كما يقولون قول كاهن، ولا قول مجنون، ولا مفترى على الله، ولا تنزلت به الشياطين" (٣).

* " والعظيم: القائم على الحق، المستمد من الحق الأكبر، والمتصل بالحق الأكبر" (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

(٢) في ظلال القرآن ٣٨٧٦/٦، ٣٣٥٧.

(٣) المصدر السابق ٣٤٧١/٦.

(٤) المصدر السابق ٢١٥٤/٤.

٨- أنـه بشيـرٌ ونذيـر: قـال - سبحانه - {كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ } [سورة فصلت:٣- ٤] ، فهو " يبشر المؤمنين العاملين، وينذر المسيئين، ويبين أسباب البشرى، أسباب الإنذار، بأسلوبه العربي المبين " (١).

٩- أنه ميسر ومبين: قال- سبحانه-: { وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ } (٢). " فـالقرآن سـهل التنـاول، ميسـر الإدراك، فيه جاذبية ليُقْرَأ ويُتَدبْر، فيه جاذبية الصدق والبساطة، وموافقة الفطرة، واستجاشة الطبع، لا تنفد عجائبه، ولا يخلق على كثـرة الـرد، وكلمـا تـدبره القلـب عـاد منـه بـزاد جديـد، وكلمـا صحبته النفس زادت له أُلفةً وبه أُنساً " (٣)، وأما وصف المبين فقد جـاء فـي كثير من الآيات القرآنيـة (٤)، ولا أدق من وصف الله لكتابه في كتابه.

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٠٨/٥.

(٢) سورة القمر: الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

(٣) في ظلال القرآن ٢٤٣١/٦.

(٤) ينظر الآيات: سورة المائدة: الآية ١٥، سورة يوسف: الآية ١، سورة الحجر: الآية ١، سورة الشعراء: الآية ٢، سورة النمل: الآية١ سورة القصص: الآية ٢، سورة يس: الآية ٦٩، سورة الزخرف: الآية ٢، سورة الدخان: الآية ٢.

المبحث الثالث

الإيمان بوجود الجن والشياطين

ومناسبة إدخال مبحث الإيمان بوجود الجن والشياطين، في مباحث الإيمان بالنبوات هي:

أن الجن والشياطين ممن جاء ذكرهم في الوحي المنزل من الله تعالى، وممن أخبر النبي ﷺ عن وجودهم وعن بعض أوصافهم، فكان الإيمان بذلك من جملة الإيمان بالنبوات.

" ولم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً – ﷺ – إليهم وجمهور طوائف الكفار أيضا من المشركين وأهل الكتاب مقرون بهم كإقرار المسلمين، ومع ذلك فقد وجد في الكفار وفي المسلمين من ينكر وجود الجن والشياطين، أو يجعل المراد بهم على خلاف ما دل عليه الوحي الإلهي، ومعلوم أن وجودهم مما تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوما بالاضطرار، وأنهم أحياء عقلاء، فاعلون بالإرادة، مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعم بعض الملاحدة " (١)

وقد تكلم سيد قطب –رحمه الله – عن وجود الجن وبعض

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه ١٠/١٩ بتصرف يسير.

المسائل المتعلقة بهم، وردَّ على من ينكر وجودهم، وبيان ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول

تعريف الجن والشياطين

<u>أ- تعريف الجن</u>: يعرف سيد قطب – رحمه الله – الجن فيقول:

- " الجن كل ما خفي، وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقاً يسمون الجن خافيين علينا " (١).

ويقول: " والجن كل مستور لا يراه البشر، وهناك خلق سماهم الله الجن، لا نعرف من أمرهم شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم.. "(٢)، ".. والجنة الخافية.. " (٣).

<u>ب- تعريف الشياطين</u>: يقول سيد قطب في تعريف الشيطان: ".. والشيطنة هي: التمرد والغواية والتمحض للشر، وهي صفه تلحق الإنس كما تلحق الجن، وكما أن الذي يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطاناً، فكذلك الذي يتمرد من الإنس

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٩١/٤.

(٢) المصدر السابق ٢٨٩٨/٥.

(٣) المصدر السابق ٤٠١١/٦.

ويتمحض للشر والغواية، وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضاً، إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه!

وقد ورد في الحديث: " الكلب الأسود شيطان " (١)... فالذي يتشيطن من الجن ويتمحض للشر والغواية – كإبليس وذريته – يسمى شيطاناً، وكذلك الحال في الإنس " (٢).

المطلب الثاني

إثبات وجود الجن والرد على من ينكر ذلك

أ- **<u>إثبات وجود الجن والشياطين</u>**: يقرر سيد – رحمه الله – في مواضع كثيرة حقيقية وجود الجن كعالم من عوالم الغيب، استناداً إلى النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة والتي تقرر وجود عوالم أخرى من الأحياء – غير دواب الأرض التي تشمل الإنسان – وهي عوالم أخبرنا الله بوجودها، وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها، ومنها عالم الجن والشياطين،... وإخبار الله عن وجود الجن والشياطين يجعل الاعتقاد بوجود هذا الخلق على النحو الذي وصفه الله به ضرورة اعتقاديه، وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وتكذيب للقرآن،

---

(١) رواه: مسلم في كتاب الصلاة باب قدر ما يستر المصلي ٣٠٥/١ برقم ٥١٠.

(٢) في ظلال القرآن ١١٨٩/٣ بتصرف يسير، وينظر ٣٧٢٢/٦.

معناه الكفر طبعا، والجن والشياطين وإبليس، من عالم الغيب الذي أخبرنا الله به، فالتصديق بها ينشأ ابتداء من هذا الإخبار..
كما قرر أيضاً في مواضع أخرى: " أن النصوص القرآنية تقرر أن هناك خلقاً يسمون الجن، خافيين علينا، ومنهم الشياطين، لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن، وما أخبرنا من صفاتهم، ونقف عند ذلك ولا نزيد " (١).

ب- الرد على من ينكر وجود الجن والشياطين: أما موقف سيد- رحمه الله – من المنكرين لوجود الجن أو الذين يتصورونهم على غير حقيقتهم، فقد بين- رحمه الله – في مواضع مختلفة أن الإيمان بوجود الجن من الإيمان بالغيب الذي أمر الله تعالى بالإيمان به، وأن وجود الجن من الحقائق المقررة شرعاً وعقلاً، وبالتالي فإنكار الجن مخالف للشرع، بل لما عليه أهل الملل الذين أجمعوا على وجودهم – إلا من شذَّ – وهو مخالف أيضاً للعقل الذي يقضي بأن إنكار الشيء لمجرد عدم رؤيته أو الإحساس به غير سديد، كما استعرض منهج القرآن في تصحيح التصور عنهم، وفيما يأتي بعض النصوص من كلام –سيد – في الرد على من ينكرون وجود الجن والشياطين

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٥٩/١، ١١٨٩/٣، ٢٣٩١/٤، ٢٦٣٥/٥، ٢٨٩٨، ٣٢٧٠/٦، ٣٦٣٤، ٣٧٢١.

أو يؤولون حقيقتهم أو يتصورونها على غير ما أخبر بها القرآن ومنها: -

١- يقول في تقديمه لسورة الجن " ثم إنها- أي السورة- تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس الناس، ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف، فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض، فقال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ثم بات آمناً! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون، وفيهم من عَبَد الجن، وجعل بينهم وبين الله نسباً، وزعم له -سبحانه وتعالى - زوجة منهم تلد له الملائكة!

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً في كل الجاهليات، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا!!!

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم، وما تزال.. نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلاً، يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة..

وبين الإغراق في الوهم، والإغراق في الإنكار، يقرر الإسلام حقيقة الجن، ويصحح التصورات العامة عنهم، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم.

* فالجن لهم حقيقة موجودة فعلاً، ولهم صفات جاء بعضها في سورة الجن بالإضافة إلى ما جاء عنهم في سورة الرحمن، ومواضع أخرى، بحيث تعطي صورة عن ذلك الخلق المغيب، تثبت وجوده، وتحدد الكثير من خصائصه، وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق، وتدع تصور المسلم عنه واضحاً دقيقاً متحرراً من الوهم ومن الخرافة، ومن التعسف في الإنكار الجامح كذلك!...

* أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقاً، فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار، بصيغة الجزم والقطع، والسخرية من الاعتقاد بوجوده، وتسميته خرافة!

- ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها؟!

إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم، وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام!

- ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها؟!

إن أحداً لا يدعي هذه الدعوى، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم، وهي كانت مجهولة بالأمس، والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية، وهم يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها، أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد!

- ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها، فلم يروا الجن من بينها؟!

ولا هذه فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة، ولكن أحداً منهم لم ير الكهرب قط، وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهرباً من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها!

ففيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء؟

- أَلأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة؟

إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات

والأساطير كما صنع القرآن الكريم، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس، بلا حجة ولا دليل!

ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبأه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه، فما يقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع "(١).

٢- في تعليقه في سورة الأحقاف على حادثة صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - ﷺ -، يقرر - رحمه الله- أن ذكر القرآن لهذا الحادث، وحكاية ما قالوا وما فعلوا، هذا وحده كافٍ بذاته لتقرير وجود الجن ووقوع الحادث،...

كما حاول أيضاً إيضاح حقيقة وجود الجن في التصور الإنساني، وبيَّن أن الكون حافل بالأسرار والقوى والخلائق المجهولة لنا كنهاً وصفةً وأثراً.. ونحن نعيش معها ونعرف عنها القليل، ونجهل الكثير، وفي كل يوم نتعرف وندرك بعضها بذواتها، أو بصفاتها، أو آثارها في الوجود.

وما عرفناه اليوم يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسه قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن.. ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٢١ - ٣٧٢٣ بتصرف يسير، وينظر أيضا ٢/ ٧٦١، ٦/ ٣٧٢٨.

عنها اليوم لظنوه مجنوناً، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابةً من الجن قطعاً.. وسنعرف كثيراً مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر بقوله سبحانه وتعالى: {وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا } [سورة الإسراء:٨٥] ... فليس لنا - والحالة هذه - أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره أو عدم تصوره، من عالم الغيب المجهول، ومن أسرار هذا الوجود وقواه، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة، ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها، فضلاً على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا!

فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى، عن طريق كلامه - لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً - فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم، نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها، لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة، وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار! "(١).

٣- ويقول أيضا: " والجن كله غيب من غيب الله، لا نعرف

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧٠- ٣٢٧١ بتصرف.

عنه إلا ما يخبرنا به مَنْ عنده مفاتح الغيب،.. ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء نقول: من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها، ونصدق بخبره في الحدود التي قررها.

– فأما أولئك الذين يتترسون " بالعلم " لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن، فلا ندري علام يرتكنون؟

إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء، في هذا الكوكب الأرضي! كما أن علمهم هذا لا " يعلم " ماذا في الأجرام الأخرى! وكل ما يمكن أن " يفترضه " أن نوع الحياة الموجود في الأرض يمكن أولا يمكن أن يوجد في بعض الكواكب والنجوم.. وهذا لا يمكن أن ينفي – حتى لو تأكدت الفروض – أن أنواعاً أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا " العلم " عنها شيئاً! فمن التحكم والتبجح أن ينفي أحد باسم " العلم " وجود هذه العوالم الحية الأخرى.. " (١)

– أما الذين يؤولون العوالم الغيبية تأويلاً ينفي عنها الحركة

---

(١) المصدر السابق ١١٨٩/٣ بتصرف يسير، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٥.

الحسيه فيقول سيد- رحمه الله - في تعليقه على قصة تزيين الشيطان للمشركين يوم بدر: " ولا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم،.. ذلك أن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث.

فإلى هنا ينتهي اجتهادنا، ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية " إن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين في المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم. "(١)

وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين، وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابسة لأرواح المشركين، هو منهج تلك المدرسة بجملتها "(٢).

---

(١) تفسير المنار ٥٢٩/٩ وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣١- ١٥٣٢ بتصرف.

المطلب الثالث

أصل الجن وبعض صفاتهم

تحدث سيد – رحمه الله– عن أصل الجن وطبيعتهم وأشار إلى بعض أوصافهم وخصائصهم، أخذاً من الأدلة والنصوص الواردة في شأنهم، ويمكن بيان ذلك كما يأتي:

أولاً: أصل الجن والشياطين:

يقول سيد: "الجن خلق من خلق الله الخافين علينا، أخبرت النصوص الشرعية بأنهم خلقوا من مارجٍ من نار، أي لهيب متموج من النار " (١).

كما جاء في القرآن الكريم حكاية عن إبليس في الحديث عن آدم عليه الصلاة والسلام {قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ } [سورة الأعراف:١٢] ، وإبليس من الجن لقوله – سبحانه –: {إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ } [سورة الكهف:٥٠] ، فأصله من الجن "(٢)، "والذي يتمرد من الجن يسمى شيطاناً كإبليس وذريته" (٣).

ويقول: " وأما خلق الجان من مارج من نار، فمسألة خارجة

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١١٨٩، ٥/٢٦٣٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧١؟

(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٨٩، ٦/ ٣٧٢٢.

عن حدود العلوم البشرية، والمصدر الوحيد فيها هو هذا القرآن، خبر الله الصادق، الذي خلق وهو أعلم بمن خلق.. والمارج: المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح! " (١).

ويقول: " وما دام أن الجن ومنهم الشياطين خلقوا من نار، فإن إبليس إذاً ليس من الملائكة، وإن جاء ذكره معهم في السياق كما في قوله – سبحانه –: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ } [سورة البقرة:٣٤] ' لأنه قد جاء في آية أخرى بيان أن إبليس من الجن وهي قوله – سبحانه–: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لأدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٢)." ويوحي السياق أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة، إنما كان معهم، فلو كان منهم ما عصى، وصفتهم الأولى أنهم {لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } والاستثناء هنا لا يدل على أنه من جنسهم، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء، كما تقول: جاء بنو فلان إلا أحمد، وليس منهم إنما هو من عشيرهم، وإبليس من الجن بنص القرآن، والله خلق الجان من مارج من نار، وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة " (٣).

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٤٥١

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٨، وينظر أيضا ٣/ ١٢٦٥، ٥/ ٢٦٣٦، ٢٠٢٨.

ومما سبق يتبين لنا أنه ليس هناك أي علاقة أو صلة نسب أو بنوة أو مصاهرة بين الجن وبين الله – سبحانه وتعالى – كما كان يزعم المشركون، وذلك باعتراف الجن أنفسهم كما حكى الله عنهم بقولهم: {وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا } [سورة الجن:٣] ، وبتنزيه الله – سبحانه وتعالى – لنفسه، ورده على المشركين بقوله: { وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [سورة الصافات:١٥٨] ، فالجِنة تعلم أنها محضرة يوم القيامة بأذن الله، وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر، لو كان ما يزعمونه حقاً، – سبحانه وتعالى عما يصفون – "(١).

ثانيا: بعض أوصاف الجن وخصائصهم:

تعرض سيد – رحمه الله– لبيان صفات الجن وخصائصهم في مواضع متعددة، ومنها:

١– أن كيان الجن والشياطين غير مرئي للبشر: في حين أن كيان الإنس مرئي للجن، وبناءً على اختلاف أصل المادة التي خلق منها كيان الجن عن أصل المادة التي خلق منها كيان الإنسان، قال تعالى: {خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ } [سورة الرحمن:١٥]

فالجن والشياطين يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم – في

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠١، ٦/ ٣٧٨٢١.

هيئـتهم الأصـلية – وكـم مـن خلائـق تـرى الإنسـان ولا يراهـا الإنسان.

قـال- سبحانه وتعـالى -عن إبليس – وهو من الجن – { إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ } [سورة الأعراف:٢٧] "(١)

٢- أنـهم مزودون بالقدرة علـى الحيـاة فـي الأرض: وفي باطن الأرض وفي خارج الأرض أيضا، وأنهم يملكون الحركة في هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر .

- أما قدرتهم على الحياة في هذا الكوكب الأرضـي – لا ندري أيـن – لقولـه تعـالى لآدم وإبلـيس { قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ } [سـورة الأعـراف:٢٤] ، والجن الذين سخروا لسليمان – عليه السلام – كانوا يقومون له بأعمـال فـي الأرض تقتضـي أن يكونـوا مـزودين بالقـدرة علـى الحياة فيها.

- وأما قدرتهم كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب فلقوله تعالى حكايـة عـن الجـن: {وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا } [سورة الجن:٨-٩] "(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١١٨٩/٣، ٢٦٣٥/٥، ٣٢٧١/٦، ٣٧٢٢.

(٢) في ظلال القرآن ١١٨٩/٣، ٣٢٧١/٦.

٣- أن لهم تجمعات تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس:

لقوله تعالى: { إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ } [سورة الأعراف:٢٧] ، فقد أهبط آدم - عليه السلام - وزوجه إلى الأرض، مع إبليس وقبيلة، هبطوا ليصارع بعضهم بعضا إلى نهاية الحياة "(١).

٤- أنهم يأكلون ويشربون ويتناسلون:

وقد أورد سيد- رحمه الله- الروايات المتعلقة بحادثة اجتماع النبي- ﷺ - بالجن، وفيها قوله ﷺ: " أتاني داعي الجن، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن"، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ". وسألوه الزاد، فقال " كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم، قال رسول الله ﷺ: " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم " (٢).

أما تناسلهم فلقوله تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } [سورة الكهف:٥٠] .

٥- أنهم مكلفون في الدنيا، ومحشورون ومحاسبون ومجزيون بالجنة أو النار يوم القيامة:

---

(١) في ظلال القرآن ٣٢٧١/٦.، وينظر ٣/ ١٢٧٠.

(٢) رواه: مسلم في الصلاة باب بالجهر بالقراءة في الصبح ٢٧٨/١ برقم ٤٥٠، والترمذي ٣٥٧/٥ برقم ٣٢٥٨.

- أما كونهم مكلفون فلقوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات:٥٦] .

يقول سيد: " فالآية تقرر أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده وأصبح بلا وظيفة، وهذه الوظيفة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود هي العبادة لله، والعبودية له وأن مدلول العبادة أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا، وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنس، وهي الخلافة في الأرض، وعمارتها "(١).

وإذا كانوا مكلفين فهم إذاً " قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم، وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم:

{وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } [سورة الجن:١٣- ١٥] (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٣٨٦/٦- ٣٣٨٧.

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٢١/٦.

"كما تدل النصوص أيضاً على أن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ويحاسب ويجازى بالجنة أو بالنار كالجنس الإنساني "(١)، ومن ذلك قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [سورة الأنعام:١٢٨ -١٣٠] ، وقوله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا} [سورة مريم:٦٨] ، وقوله تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [سورة الجن:١٥] ، " وهذا يدل على أن الجن يعذبون بالنار، ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة، هكذا يوحي النص القرآني، وهو الذي نستمد منه تصورنا، فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئاً يستند فيه إلى تصور غير قرآني، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة، فسيكون ما قاله الله حقاً بلا جدال! " (٢).

---

(١) المصدر السابق ١١٨٦/٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٣٤/٦ وينظر أيضاً: ١٢٠٦/٣ – ١٢٠٨، ٢٣١٧/٤.

٦- أنهم لا يعلمون الغيب وأن صلتهم بالسماء قد انقطعت بعد بعثته ﷺ:

" فالغيب موكول لله وحده، لا تعرفه الجن: {وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا } [سورة الجن:١٠] . ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمه يعلمها "[١]، ومن النصوص في ذلك قوله تعالى في قصة موت سليمان – عليه السلام –: { فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ } [سورة سبأ:١٤] ، "فالآية تصور مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله، وهي لا تعلم نبأ موته، حتى يدلهم على ذلك أكل الأرضة لعصاه التي كان مرتكزاً عليها وسقوطه،.. وحينئذٍ فقط علمت الجن بموته، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب.. فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس،.. هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد! "[٢].

- أما انقطاع صلة الشياطين بالسماء بعد بعثة النبي – ﷺ – فقد حكاها الله تعالى في سورة الجن بقوله عنهم: {وَأَنَّا لَمَسۡنَا

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٠، ٦/ ٣٧٢١، ٣٧٢٢.

ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا } [سورة الجن:٨- ٩] "

فهي توحي بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة، ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى -عليه السلام -كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى، واستراق شيء مما يدور فيه بين الملائكة عن شؤون الخلائق في الأرض، مما يكلفون قضاءه تنفيذاً لمشيئة الله وقدره، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين، وخلو الأرض من رسول...

وهذا النفر من الجن يقول: إن استراق السمع لم يعد ممكناً، وإنهم حين حاولوه الآن وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء وجدوا الطريق إليه محروساً بحرس شديد، يرجمهم بالشهب، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئاً عن الغيب المقدر للبشر: {وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا }، فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه.. وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب، يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئاً،

فقد انقطع كل قول، وبطل كل زعم، وانتهى أمر الكهانة والعرافة، وتمحض الغيب لله، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته، ولا على التنبؤ به.

أما أين يقف ذلك الحرس؟ ومن هو؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب؟ فهذا كله مما لم يفصله القرآن... ولا مجال للاعتراض أو الجدل حول الشهب، فلا يمنع كونها تسير وفق نظام كوني، قبل البعثة وبعدها من أن ترجم الشياطين بها...

والقول بان هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل، وأنه لا يؤخذ على ظاهره.. ومن ثم يرون الشياطين تمثيلاً لقوة الشر والمعصية، والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة... الخ، سببه محاكمة النصوص الشرعية إلى مقررات ذهنية سابقة مأخوذة من مصادر أخرى غير القرآن" [1].

والخلاصة: " أن السماء محفوظة من الشياطين، وهم مطرودون عنها، مردودون بالشهب كلما حاولوا استراق السمع، ولا داعي للخوض في قضايا الغيب بأكثر مما جاء في النصوص الشرعية "[2]

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٢٩- ٣٧٣٠ بتصرف يسير، وينظر ٦/٣٦٣٤.

(٢) المصدر السابق ٤/٢١٣٣ بتصرف يسير.

٧- أن طبيعتهم قابلة للإيمان والكفر ومستعدة للهدى والضلال ومنهم المؤمن والكافر:

يقول سيد: " فالجن خلق قابلون للإيمان وللكفر، مستعدون للهدى وللضلال، بدلالة قول النفر منهم في سورة الجن: {وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ} [سورة الجن:١٤]، وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان بعدما وجدوه في نفوسهم، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد، وكذا حادثة صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - ﷺ - وحكاية ما قالوا وما فعلوا -كما في سورة الأحقاف - مما يدل على أنهم قابلون للهداية من الضلال، مستعدون لإدراك القرآن سماعاً وفهماً وتأثرا "(١)، " وبناءً على قابليتهم للهدى والضلال، صاروا فريقين كالإنس، منهم الصالحون المؤمنون، ومنهم الشياطين المتمردين " (٢).

"وقد قرر القرآن أن للجن طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال حيث جاء في حديث النفر من الجن - في سورة الجن - عن عقيدتهم في ربهم وقد آمنوا به، وعن ظنهم بعاقبة من يهتدي ومن يضل: {وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٢٧٠- ٣٢٧١، ٣٧٢١ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق: ٣/١١٨٩، ٦/٣٧٢١.

كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } [سورة الجن:١١- ١٥]

" وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين، مسلمين وقاسطين، يفيد ازدواج طبيعة الجن، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق، فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر، وقد خلصت طبيعتهم له، وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة، وهذا ناشئ من مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا، وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة!. "(١).

وقد جاءت نصوص في الكتاب والسنة تبين أن موقف الجن من النبي ﷺ ومن القرآن الكريم والإيمان هو نفسه موقف الإنس، حيث انقسموا إلى فريقين: مؤمنين وكافرين، كالذي ذكره الله في سورة الجن (٢)

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٧٣٢.

(٢) سورة الجن: الآية ١- ١٥.

وفي سورة الأحقاف [١] وكذا الروايات الواردة في لقاء النبي ﷺ بالجن واستماعهم له وغير ذلك [٢].

٨- أنهم يستطيعون أن يسمعوا صوت الإنسان، ويفهموا لغته: بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما يلفظه رسول الله - ﷺ - وفهمهم له وتأثرهم به وذهابهم إلى قومهم منذرين، وقد جاءت روايات كثيرة في استماع الجن لقراءة النبي ﷺ ولقائهم به وحوارهم معه [٣].

٩- أنهم يملكون التأثير في إدراك البشر: ومأذون لهم في توجيه الضالين منهم -غير عباد الله- وهناك نصوص كثيرة منها قوله تعالى في حكايته حوار إبليس اللعين: { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [سورة ص:٨٢ - ٨٣] وغيرها من النصوص التي تبين أن الشياطين مسلطون على بني الإنسان يغوونهم ويضلونهم، وهم قادرون على الوسوسة لهم، بالإيحاء بطريقة لا نعلمها، لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه، ولكننا نعلم - بالخبر الصادق وهو وحده

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٢٩ - ٣٢.

(٢) ينظر في ذلك: في ظلال القرآن ٦/٣٢٦٩- ٣٢٧٤، ٣٧٢١ - ٣٧٣٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٦/٣٢٧٠- ٣٢٧٣ بتصرف يسير.

المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أن إغواءً على البشر يقع في صورة من الصور، وإيحاءً بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات، وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان"(١).

ومع ذلك فالشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين، وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى، وإذا غفل برز فوسوس له، وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف، فضعف الإنسان يمكن إنقاذه بالإيمان والذكر حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير "(٢).

١٠- أن منهم من سخره الله لبعض البشر: فقد أخبر الله - سبحانه - عن تسخير طائفة من الجن فقط وليس كلهم لسليمان - عليه السلام - يغوصون له ويبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام، ويعملون عملاً دون ذلك، وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده، ومنهم الذين كانوا يظهرون في موكبه كما قال - سبحانه وتعالى - { وَحُشِرَ

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢٦٨/٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١١٨٩/٣، ١٢٦٨/٤، ٥/ ٢٦٣٥، ٣٢٧١/٦، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٥

لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [سورة النمل:١٧] ، وقوله تعالى: { وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ } [سورة سبأ:١٢- ١٣] ، " فهذه الآيات تدل على أن من الجن من سخروا لبعض الإنس بإذن الله " (١).

١١- أن الله جعل منهم أعداء للرسل يوالون أعداء الرسل من البشر:، وكل ذلك بمشيئة الله لحكمة، قال سبحانه: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [سورة الأنعام:١١٢] .

يقول سيد – رحمه الله–: " يخلص لنا ابتداءً: أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء هم « شياطين » من الإنس ومن الجن، وأنهم يؤدون جميعاً وظيفة واحدة! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك، مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله..

ويخلص لنا ثانياً: أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله، ولا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٣/ ٢٣٩١، ٤/ ٢٦٣٥، ٢٨٩٨، ٦/٣٧٢٢.

بقدرة ذاتية، إنما هم في قبضة الله، وهو يبتلي بهم أولياءه لأمر يريده، من تمحيص وتطهير لأوليائه.

ويخلص لنا ثالثا: أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا، وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان – ليبتلي أولياءه وينظر هل يصبرون؟ ويثبتون على الحق الذي معهم أمام انتفاش الباطل ويخلصون من حظوظ أنفسهم في السراء والضراء سواء.

ويخلص لنا رابعاً: هوان الشياطين من الإنس والجن، وهوان كيدهم وأذاهم، فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم، والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر، وهو الذي يأذن، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدَّعى " (١).

١٢- **كون إبليس من المنظرين:** وهذا يعني أن المعركة بينه وبين المؤمنين دائمة إلى قيام الساعة فإبليس لما أمر بالسجود لآدم – عليه السلام – فأبى وأستكبر حقت عليه اللعنة، وطرد من الجنة ومن رحمة الله تعالى، وكتب عليه الصغار، وعندئذٍ لم ينس الخبيث أن آدم هو سبب الطرد والغضب، فطلب من الله – تعالى– أن ينظره إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم النفخة

---

(١) في ظلال القرآن ١١٩٠/٣ بتصرف يسير.

الأولى التي يصعق فيها الخلائق كما في الروايات، فاستجاب الله لطلبه لحكمة أرادها – سبحانه – وعند ذلك أعلن الخبيث انه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم فيصد عنه كل من يهم باجتيازه، ويحول بينه وبين الطاعات من كل الجهات، إلا القليل الذي يفلت منه وهم " عباد الله المخلصين " (١).

ومن هنا بدأت المعركة الخالدة، وأُهبط آدم – عليه السلام – وزوجه، مع الشيطان وقبيله إلى الأرض لتنتقل المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر" (٢)، " والشيطان في معركته مع الإنسان يستعمل كل وسائل الخداع والمكر والإيحاء والوسوسة والتخويف والإرهاب والتزيين (٣).

وتصور المسلم لطبيعة المعركة مع الشيطان وأتباعه، ودوامها يشعر المؤمن بأمور:

<u>الأول:</u> أنه يخوض معركة واحدة صارمة ضاربة وإن تعدد أطراف الصراع فيها " الهوى – الشهوة – أولياء الطاغوت من

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢٦٦ – ١٢٦٧ بتصرف

(٢) المصدر السابق ١/٥٨، ٦١، ٢/١٢٧٣، ٦/ ٤٠١١.

(٣) المصدر السابق ١/٥٢١، ٣/ ١٢٧٤ – ١٢٧٥، ٥/ ٢٦٣٥.

البشر- الفساد والشر والانحلال الذي ينشئونه في الأرض "(١).

والثاني: أن يعرف المؤمن حقيقة الشيطان وحزبه وضعفهم وهوانهم أمام قدرة الله، فلا يرهبهم فهم أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته، فإن الله هو المسيطر على الخلق كله وإن كان قد أذن لإبليس بالحرب، فهو آخذ بناصيته ولم يسلطه إلا على من شرد عن ربه "(٢).

والثالث: أن شعور الإنسان بأن الشيطان عدوه القديم وهو الذي ينصب له الشراك، ويأمره بالموبقات يثير في نفسه -على الأقل- الحذر من الفخ الذي نصبه العدو، فلا يغفل عن المعركة ولا يستسلم" (٣).

ثالثاً: هل كان في الجن رسل؟

يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: {يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي} [سورة الأنعام:١٣٠] : " والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس، فهل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر، ولكن

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٥ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٥٢١/١، ٤٠١٢/٦ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ٧٦١/٢ بتصرف يسير.

النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل، وينطلقون إلى قومهم منذرين به، كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف: ﴿{وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ } [سورة الأحقاف:٢٩-٣١] فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة.. والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه! " (١)

رابعاً: المس والصرع " تلبس الجن بالإنس ":

الذي يظهر أن سيداً- رحمه الله- يثبت قضية تلبس الجن بالإنس وهو ما يسمى المس أو الصرع وذلك من خلال كلامه في ظلال قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ } [سورة البقرة:١٧٥] ، حيث يقول: " وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة، صورة الممسوس المصروع،

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢٠٨- ١٢٠٩.

وهي صورة معروفة معهودة للناس " [١].

وعند حديثة عن المنكرين للغيبيات ومنها عالم الجن والشياطين والرد عليهم يقول: " والملائكة والجن والشياطين وإبليس من عالم الغيب الذي أخبرنا الله به، ويجب التصديق به، وإنكار المنكرين له إلام يستند؟ هل إلى أن علم الناس بوسائلهم وأدواتهم لا يتمكن من رؤيتهم؟.. أم يستند إلى عدم استطاعة الإدراك البشري أن يتصور كيف يتعالم الإنسان مع هذين الخلقين، وكيف يؤثران فيه وهما ليس من جنسه؟ ولكن هل وصل هذا الإدراك إلى معرفة كيف يؤثر إنسان على إنسان في التنويم المغناطيسي؟ والتخاطب عن بعد وهي حقيقة واقعة؟ فلماذا يستبعد تأثير ملك أو شيطان في إنسان؟ ألا إنه قول الله، وهم هاربون من الله؟! " [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ١/٣٢٣- ٣٢٤، وخصائص التصور الإسلامي ص ٨٠.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٥ بتصرف يسير.

الفصل الثاني

منهجه في الإيمان بالرسل وما يتعلق به

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل.

المبحث الثاني: الإيمان بنبوة محمد ﷺ وما يتعلق بها.

المبحث الثالث: منهجه في الصحابة – رضوان الله عليهم

المبحث الرابع: منهجه في الإمامة والخلافة.

المبحث الأول

الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف النبوة وحقيقتها.

المطلب الثاني: حاجة البشرية إلى الرسل وحكم الإيمان بهم.

المطلب الثالث: صفات الرسل وخصائصهم.

المطلب الرابع: وظائف الرسل.

المطلب الخامس: دلائل النبوة وآيات الأنبياء.

المطلب السادس: التفاضل بين الأنبياء والرسل.

المطلب السابع: وقفة مع كلام سيد قطب عن موسى عليه السلام

المطلب الأول

تعريف النبوة وحقيقتها

الفرع الأول: تعريف النبي والرسول والفرق بينهما:

تعددت أراء العلماء في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما على أقوال:

الأول: أنهما مترادفان، وهذا غير صحيح لما تقرر من أنهما متغايران لفظاً ومعنى (١).

الثاني: أن النبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ والرسول من أوحي إليه وأمر بالتبليغ " (٢).

الثالث: " أن النبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ عما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله فهو رسول، وأما إن كان إنما يعمل بشريعة من قبله، ولم يرسل إلى أحد فهو نبي لقوله تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ } [سورة الحج:٥٢] ، فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فهو الرسول المطلق الذي أمره الله

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ١١٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٥.

بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح – عليه السلام - " (١).

أما سيد – رحمه الله – فيعرف النبي والرسول بقوله: ".. والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس، والنبي لا يكلف إبلاغ الناس دعوة إنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله، وكان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التي جاء بها من عند الله { إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ } [سورة المائدة:٤٤] ." (٢).

فالرسول أخص من النبي يقول- سيد- في ظلال قوله تعالى: {وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ } [سورة الرعد:٤٠] : " إن هذا القول إنما يقال للنبي ﷺ الرسول الذي أوحي إليه من ربه، وكلف مخاطبه الناس بهذه العقيدة " (٣).

ويلاحظ أن تعريف سيد قطب يقترب من التعريفين الثاني والثالث نوعاً ما، ويتفق معهما في أن الرسول أخص من النبي.

---

(١) النبوات لابن تيمية: ص ٢٥٥.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٣١٣.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧١.

الفرع الثاني: طبيعة النبوة وحقيقتها:

النبوة عند جمهور المسلمين وأهل السنة والجماعة فضلٌ إلهي، وهبةٌ ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص بها ويصطفي لها من يريد من خلقه، فهي محض فضل إلهي، واصطفاء واختيار، لا تدرك بالنصب والجد، ولا تنال بالذكاء والعبقرية كما هو مفهومها عند المنحرفين من الفلاسفة وغيرهم.

طبيعة النبوة وحقيقتها عند سيد قطب:

يمكننا بيان موقف سيد قطب – رحمه الله – ومنهجه فيما يتعلق بحقيقة النبوة فيما يأتي:

أولا: النبوة اصطفاء واختيار: يتفق سيد – رحمه الله– مع أهل السنة والجماعة حول طبيعة النبوة وحقيقتها، من أنها هبة لدينه، واختيار واصطفاء من الله – سبحانه– حيث يقول: " والرسل جماعة خاصة، ذات طبيعة خاصة... هذه الطبيعة الخاصة هي التي تتلقى الوحي، فتطيق تلقيه، لأنها مهيأة لاستقبالها " (١).

" فالله ينتدب للنبوة المختار من عباد الله، ثم يسلمها إلى المختار بعده، وليس للنبي في نفسه من شيء، وما له في هذه المهمة من أرب شخصي، ولا مجد ذاتي، إنما هو عبد مصطفى، ومبلغ مختار، والله – سبحانه – هو الذي ينقل خطى هذه الدعوة

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧٨/١ بتصرف.

بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء " (١). "
فموكب الأنبياء يظم الصفوة المختارة من البشر " (٢)

وفي ظلال قوله تعالى: { وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ } [سورة الأنعام:١٢٤] يقول: " يرد الله على قولتهم المنكرة الغبية أولاً: بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير...

إن الرسالة أمر هائل خطير، أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأَزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد، ويتصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان المحدود، وتتصل فيه السماء بالأرض، والدنيا بالآخرة، ويتمثل فيه الحق الكلي، في قلب بشر، وفي واقع ناس، وفي حركة تأريخ، وتتجرد فيها كينونة بشرية من حظ ذاتها، لتخلص لله كاملة، لا خلوص النية والعمل وحده، ولكن كذلك خلوص المحل الذي يملؤه هذا الأمر الخطير.

فذات الرسول - ﷺ - تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة، وهي لا تتصل هذه الصلة إلا أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي صالحة للتلقي المباشر الكامل بلا عوائق

---

(١) المصدر السابق ١/٤٢٠ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٢/٨٠٥، وينظر: ٢/١١٤٤.

ولا سدود والله وحده – سبحانه – هو الذي يعلم أين يضع رسالته، ويختار لها الذات التي تنتدب من بين ألوف الملايين، ويقال لصاحبها: أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير، والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة، أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول، هم أولاً من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر، فهم يتخذون من ذواتهم محوراً للوجود الكوني، والرسل من طبيعة أخرى، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً، ويهب لها نفسه، وينسى فيها ذاته، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب: {وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة القصص:٨٦] ، ثم هم بعد ذلك جُهَّال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح، فـ {ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ}، وقد جعلها سبحانه حيث علم، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم، حتى انتهت إلى محمد – ﷺ – خير خلق الله وخاتم النبيين" (١).

وقد بين سيد – رحمه الله– في نصوص كثيرة أن النبوة هبةُ من الله، واصطفاء لبعض عباده واختيار لهم من بين البشر كما قال – سبحانه – {ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٠٢/٣ – ١٢٠٣.

} [سورة الحج:٧٥] . وقال: {وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ } [سورة النمل:٥٩] وغيرها" [١].

ثانيا: أن موكب الأنبياء واحد في تاريخ البشرية كلها: بيَّن سيد – رحمه الله– أن الرابط بين موكب الأنبياء هو رابط الاصطفاء والاختيار الإلهي، وأن الصلة بينهم هي عهد الله عليهم أن يسلم السابق منهم للاحق وينصره، وأنهم يواجهون مواقف متشابهة ويمضون في طريق ثابت " [٢].

" فموكب الأنبياء موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد، للإنذار والتبشير، موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان، وداود، وموسى.. وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه – ﷺ – في القرآن، وممن لم يقصصهم عليه،

موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضيين، في شتى الآونة والأزمان، لا يفرقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا

---

(١) ينظر في ذلك: في ظلال القرآن ٣٩١/١، ١٩٠٩/٤، ٢٢١١، ٢٤٤٥، ٢٦٥٤/٥، ٢٩٦١.

(٢) في ظلال القرآن ١٢/١، ٤١٠، ٤٢٠ بتصرف.

وطـن، ولا زمـن ولا بيئـة، كلهـم آت مـن ذلـك المصـدر الكـريم، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي، وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير، وكلهـم يحـاول أن يأخـذ بزمـام القافلـة البشـرية إلـى ذلـك النـور، سواء منهم من جاء لعشيرة، ومن جـاء لقوم، ومن جـاء لمدينـة ومن جاء لقطر، ثم من جاء للناس أجمعين، محمد رسول الله - ﷺ - خاتم النبيين " (١).

الفرع الثالث: منهج القرآن الكريم في تصحيح التصورات الجاهلية عن الرسل والرسالات:

أشـار سـيد - رحمـه الله- فـي ظـلال كثيـر مـن الآيـات إلـى منهج القرآن الكريم في بيان حقيقة الرسل والرسالات، وتصحيح التصـورات الجاهليـة والبشـرية عمومـاً عـن الرسـل والـرد علـى التصـورات الضـالة حـول طبيعـة النبـي ووظيفتـه سـواءً عنـد المشركين أو عند أهل الكتاب على حد سواء، ومن ذلك:

١- فـي ظـلال قولـه تعـالى: {وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى

---

(١) في ظلال القرآن ٨٠٥/٢، ١١٣٧، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٧، ١٥٥٥/٣، ٢١٠٠/٤، ٢٣٩٥- ٢٣٩٦.

خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ } [سورة الأنعام:٤٨ -٥٠] ، يقول سيد: " لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلي.. وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية، التي تلوي الأعناق.. إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله، وهي في ذاتها خوارق معجزة ودائمة.. وقد اقتضى ذلك تربية طويلة على هذا الأمر.. بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية، أو التصورات الحسية المادية التي سادت الفلسفات الإغريقية والهندية والمصرية والبوذية والمجوسية والحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية،

وتتمثل جانب من هذه التربية في بيان وظيفة الرسول، وحقيقة دوره في الرسالة، فالرسول بشر، يرسله الله ليبشر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته..، وبهذا ينفي القرآن الكريم كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله، مما كان سائداً في الجاهليات.. بعدما عبثت وابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة، وحقيقة الوحي، وحقيقة الرسول، ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل، حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضاً! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب، وأن يأتي بالخوارق، وأن

يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر!

- لقد جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل التي شاعت في الجاهليات كلها، وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم، وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه!...

وكانت مطالب المشركين للخوارق من النبي - ﷺ - تصوغها تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة والنبي في الجاهليات حولها...

حيث شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من " النبوءات " الزائفة، يدعيها " متنبئون " ويصدقها مخدوعون.. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب، والاتصال بالجن والأرواح، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ، أو بغيرها من الوسائل في مراسيم مختلفة...

حيث حفلت الجاهليات كلها بتصورات منحرفة عن طبعة

النبوة والنبي، فجاء القرآن الكريم ليصحح هذه الانحرافات ويقرر حقيقة النبوة وطبيعة النبي بعيداً عن الأساطير والخرافات" (١).

- كما صحح للمشركين تصورهم عن النبي واعتقادهم أنه لا يكون بشراً، بل لابد أن يكون ملكاً، حيث ذكر اعتراض المشركين في كل الأمم على بشرية الرسل ن وبين أن ذلك مرده إلى الجهل بوظيفة الرسول، وحقيقة الرسالة " (٢).

- كما رد القرآن الكريم على الذين ينكرون إرسال الرسل في مواضع كثيرة، وندد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسولاً، ولم ينزل على بشر كتاباً، بأنهم لم يقدروا الله حق قدره، فما قدر الله حق قدره من يقول: إنه - سبحانه - تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور، فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته، إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلاً، وأن ينزل على بعض الرسل كتباً، ليحاولوا جميعاً هداية البشرية إلى بارئها، واستنقاذ فطرتها " (٣).

- كما رد على مقولات المشركين الذي جعلوا للنبوة مواصفات،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٣ - ١٠٩٧ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٧٥٩، ٥/ ٢٩٦١.

(٣) المصدر السابق ١١٣٧/٢ وينظر ١٢٠٢/٣.

واعترضوا على نبوة النبي– ﷺ – بقولهم: { وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [سورة الزخرف:٣١] ، وناقش مقولتهم هذه، وما تنطوي عليه من خطأ في تقدير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة... والقيم الزائفة التي تخايل لهم وتصدهم عن الحق... بقوله – سبحانه–: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [سورة الزخرف:٣٢] .. فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل... فلا علاقة بين النبوة وبين عرض الحياة الدنيا، ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا الزائفة من المال والزعامة ونحوها " (١).

ومن ذلك ما روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبي– ﷺ –: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سناً، وأكثر من مالاً " (٢) وهذا كله من انحراف تصورهم لحقيقة النبوة والنبي.

– كما صحح القرآن الكريم للمشركين تصورهم للنبوة وحقيقتها، فقد صحح لأهل الكتاب أيضاً تصورهم المنحرف للنبوة والأنبياء، حيث انحرفت تصورات اليهود لأنبيائهم بعد تحريف لكتب ربهم، أما النصارى فقد صحح القرآن الكريم لهم تصوراتهم

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٨٤/٥، ٣١٨٦، ٣١٨٧ بتصرف، وينظر ١٨٧٢/٤.

(٢) في ظلال القرآن ١٢٠٢/٣.

عن عيسى – عليه السلام – وقص عليهم الخبر اليقين في أنه عبد الله ورسوله، وروح منه وكلمته ألقاها جبريل –عليه السلام– على مريم العذراء، فليس إلهاً، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة، ومما تعتقده النصارى فيه.

– أما اليهود فقد حدثهم القرآن الكريم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مطهراً من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً.

– إبراهيم – عليه السلام – بزعمهم قدم امرأته لأبي مالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما!

– ويعقوب – عليه السلام – الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب، وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو!

– ولوط – عليه السلام – بزعمهم أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتتجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر، وكان ما أرادتا!

– وداود – عليه السلام – رأى من سطوح قصره امرأة جميلة

عرف أنها زوجة أحد جنده، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته!

- وسليمان – عليه السلام – مال إلى عبادة " بغل " – بزعمهم – مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها!

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم –عليه السلام –. " (١).

---

(١) المصدر السابق ٥/٢٦٦٤ – ٢٦٦٥ بتصرف يسير.

المطلب الثاني

حاجة البشرية إلى الرسل وحكم الإيمان بهم

لا شك أن الحاجة إلى النبوة والوحي ضرورة للبشر لا غنى عنها بحال من الأحوال. يقول ابن القيم – رحمه الله–: " ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم.. فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير " (١).

وقد بين سيد – رحمه الله– حاجة البشر إلى الرسالة، ورد على الذين يقولون بأن الإنسان يمكن أن يستغني بعقله عن الوحي، كما بين حكم الإيمان بالرسل في مواطن كثيرة، نجملها في الفرعين الآتيين:

---

(١) زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت ط٣٠ عام ١٤١٧هـ ٦٨/١ وما بعدها.

الفرع الأول: الحكمة من إرسال الرسل:

يقول سيد- رحمه الله-: " ولو علم الله أن العقل البشري يكفي الإنسان لبلوغ الهدى والمصلحة في دنياه وآخرته لوكله إليه، وجعله حجته على عباده، ولكن لما علم أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى - بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط - وقاصرة عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة... لما علم الله - سبحانه - هذا كان من رحمته وحكمته أن يبعث بالرسل، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (١).

" وهذا يعني أن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم، في الدنيا والآخرة " (٢).

ويقول أيضاً: " أما حكمة الله في إرسال الرسل فهي واضحة، والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر وعقله هو أداته للتمييز، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٠٦ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٨٠٩.

كلما غم عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات، وجذبته التيارات والشهوات، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحياناً من النقيض إلى النقيض، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه، وينزل على إرشاده، ويرجع إلى الصواب على هداه، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله " (١).

" إن العقل حين يستقل بنفسه بعيداً عن الوحي، يتعرض للضلال والانحراف، وسوء الرؤية ونقصها، وسوء التقدير والتدبير، بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلاً واحداً، فيتعذر عليه أن يقيم أحكاماً ونظاماً ملحوظاً فيه الشمول والتوازن، ومن ثم يضل ويضطرب...

ويضل أيضاً بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات، إذا لم تضبط بميزان الوحي فإنها ستدمر الحياة "(٢).

" فالحاجة إلى الرسالة والوحي أمر ضروري لاستنقاذ الفطرة من الركام والانحراف، لتكشف للبشر عن القوانين الكونية الثابتة

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٧٦٠-١٧٦١٦، وينظر: ١/٢٨١، ٢/١١٤٥-١١٤٦، ٦/٣٩١٨.

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٩٧- ١٠٩٨ بتصرف.

وما وراءها، مما حجب عن الإنسان رؤيته ومعرفته، ولتكون مصدراً للمعرفة اليقينية لما وراء المادة " [١].

" ومن العجب أن يأتي على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه ورعايته ورحمته وهدايته ودينه ورسله بالعقل، فمثال ذلك كالطفل الذي يحس ببعض القوة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده، ليتكافأ ويتعثر!...

فالعقول مهما كانت كبيرة لا تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة.. ولم يسجل التاريخ أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة – أفلاطون وأرسطو كما يزعمون – اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية بالرسالة.. فعندما نقارن بين تصور أفلاطون لإلهه – كما وصفه – وبين تصور المسلم العادي لإلهه مهتديا بهدي الرسالة، نرى مسافة هائلة تفصل بينهما، وكذلك في مجال الأخلاق والمبادئ والنظم والتشريعات، لا يمكن أن نقارن بين ما جاء به الرسل وبين ما وصلت إليه العقول البشرية "[٢].

الفرع الثاني: حكم الإيمان بالرسل وموقف الناس منهم:

تباينت مواقف الناس من رسل الله تعالى، بين مؤمن ومنكر.

---

(١) المصدر السابق /٢٧٨، ٣/١٣٩٥– ١٣٩٦، ٥/١٧٦٠.

(٢) المصدر السابق ٢/٨١١–٨١٢ بتصرف.

- فقد كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا قليلاً منهم، وكانت شبهتهم استبعاد أن يبعث الله بشراً رسولاً - كما سبق - وقريباً من موقف العرب يقف اليهود الذين أنكروا أن يختص الله بهذه الرحمة من يشاء من عباده، وأوجبوا أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده، على أنهم كفروا بأنبيائهم وقتلوا بعضهم، ونسبوا إليهم ما لا يليق، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم.

- ومن بين هذه المواقف جاء موقف الإسلام، حيث جعل من أركان الإيمان الحق الذي لا يتم إلا به، الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله جميعا لهداية الأمم، وعدم التفريق بينهم، ومحبتهم جميعا، واعتبار أن من كذب واحداً منهم فهو مكذب للجميع، فالكفر ببعضهم كالكفر بهم كلهم(١).

- وقد بين سيد - رحمه الله- حكم الإيمان بالرسل ومكانته في هذا الدين في أكثر من موضع يقول -رحمه الله-: " الإيمان بكتب الله ورسله، بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي رسمها الإسلام، فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة الأصل

(١) ينظر: الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي ز بيروت، ط ٩ عام ١٣٩٩، ص١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٣.

الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم، وانتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد – ﷺ – فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد " [١].

" والقران يدعو إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته في تكوين العقيدة الإيمانية، والتصور الإسلامي "[٢]، " ذلك التصور الذي يجعل دين الله واحداً، ويجعل رسل الله موكباً يحمل هذا الدين الواحد، ويجعل التفرقة بين الرسل، والتفرقة بين ما جاءوا به كفراً صراحاً "[٣].

" وذلك أن التوحيد المطلق لله –سبحانه– يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل، أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية.. لذلك عبر عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله – بأن

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢/١.

(٢) المصدر السابق ٧٧٤/٢.

(٣) المصدر السابق ٧٩٢/٢.

يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل – وعمن يريد التفرقة بين الرسل – بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم – عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ }، وعد تفرقتهم بين الله ورسله وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض، كفراً بالله وبرسله.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته – سبحانه – ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها – كوحدة – على أساسه، ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ووحدة الموقف تجاههم جميعاً، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة، إلا بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! لكنهم الكافرون حقاً..

أما " المسلمون " فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً، بلا تفرقة. فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام.. وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسله، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض، منقطعين عن موكب الإيمان، مفرقين للوحدة التي جمعها الله، منكرين للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله "(١).

" وقد ندد الله بكفر من أنكر النبوات، سواءً المشركين الذين

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٩٧-٧٩٨ بتصرف يسير.

قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، أو الذين يزعمون أن الأديان من صنع البشر وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم دون تفريق بين الأديان الوثنية التي هي من صنع البشر، وبين الأديان التي جاء بها الرسل من عند الله، والتي هي ثابتة في أصولها، والتي ينحرف عنها الناس فترة حتى يبعث الله لهم رسولاً بذات الدين الواحد الموصول، أو الفلاسفة والملحدين من الماديين الذين يرون أن الإله لا يمكن أن يعنى بغير ذاته، وبالتالي فلا يمكن أن يلتفت إلى الخلق، فليس هناك وحي ولا رسل، إنما هي أوهام الناس وخداع بعضهم لبعض باسم الدين "(١).

" وقد جاءت آيات كثيرة تصرح بكفر من كذب رسولاً واحداً، واعتباره مكذباً لجميع الرسل منها قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ } [سورة الشعراء:١٠٥] ، وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحاً، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين، لأن الرسالة في أصلها واحد، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين جميعاً "(٢) ، وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ } [سورة الشعراء:١٢٣] ، وقوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ } [سورة الشعراء:١٤١] ، وقوله تعالى{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ

(١) المصدر السابق ١١٤٥/٢ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٢٦٠٧/٥.

ٱلْمُرْسَلِينَ } [سورة الشعراء:١٦٠] ، وقوله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ } [سورة الشعراء:١٧٦] ' ومن ذلك أيضاً وقوله تعالى: { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ } [سورة الحجر:٨٠] وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح – عليه السلام– ولكن ليس صالح إلا ممثلاً للرسل أجمعين، فلما كذبه قومه قيل: إنهم كذبوا المرسلين، توحيداً للرسالة وللرسل وللمكذبين، في كل أعصار التاريخ، وفي كل جوانب الأرض، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام "[1].

وخلاصة موقف سيد قطب: أنه يرى وجوب الإيمان برسل الله كلهم، بدون تفرقة بينهم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم جاء بدين الله، وأن عدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعاً، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعاً "[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٤ /٢١٥١.

(٢) المصدر السابق ٢/٨٥٨.

المطلب الثالث

صفات الرسل وخصائصهم

النبوة -كما تقدم- منةٌ من الله- تعالى- يمن بها ويختص بها من يشاء من عباده، وهؤلاء المختارون خصهم الله بصفات كمال النوع الإنساني من العلوم والمعارف، والفضائل والآداب، مع التنزه عن النقائص. (١)

وقد جاء ذكر بعض أوصاف الأنبياء ومميزاتهم في القرآن الكريم، من كونهم بشراً، يوحى إليهم وكونهم معصومون عن ما ينافي النبوة والبلاغ، واتصافهم بجميل الصفات والأخلاق، وقد تكلم سيد -رحمه الله - في مواضع كثيرة عن أهم صفات وخصائص الأنبياء -عليهم السلام -ومما ذكره- سيد- من صفات وخصائص الأنبياء ما يأتي:

أولاً: أنهم بشر: من صفات الرسل – عليهم السلام – أنهم رجال من البشر، ليسوا ملائكة، ولا أرباباً، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء.

وقد افترق الناس في مسألة بشرية الرسل إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: الذين غلوا في الأنبياء – عليهم السلام –

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر ٣٦٨/١٢ بتصرف يسير.

وأفرطوا في تصوير خصوصيتهم حتى رفعوهم فوق جنس البشر، وجعلوا لهم صفات وخصائص الألوهية والربوبية.

الطائفة الثانية: جعلوا صفة البشرية مانعاً من النبوة، وبالتالي أنكروا نبوتهم لكونهم بشر.

الطائفة الثالثة: الذين توسطوا والوسط هو الحق، فإن كون الأنبياء – عليهم السلام – بشراً هو ما تقتضيه حكمة الله وصلاح البشرية [1].

وقد تعرض سيد – رحمه الله– كثيراً في ظلال الآيات التي تتحدث عن طبيعة الأنبياء، إلى مسألة بشريتهم، وبين أنها من صفات الرسل – عليهم السلام – وكذا الحكمة من كونهم بشراً، وردَّ على اعتراضات المشركين في مسألة بشرية الرسل، حيث قرر –رحمه الله –أن الرسل جميعاً هم بشر، اختارهم الله من بين البشر، لحمل أمانة الوحي، والبلاغ، والإنذار، وما داموا بشراً فإنهم محكومون بالسنن الجارية على البشر من الحياة والموت والفناء، وخضوعهم لألوهية الله – سبحانه – فالنبي عبد يتوجه لله بالعبودية كغيرة من المخلوقات، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء.

كما أنهم لا يعلمون الغيب، ولا يدعون أنهم ملائكة، ولا

---

(١) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٨/ ٢٧٨ – ٢٧٩ بتصرف يسير.

يقدرون على فعل الخوارق والمعجزات بأنفسهم، ولهذا كان جواب النبي ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أمور من خوارق العادات": {قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا } [سورة الإسراء:٩٣] ، وقد قرر القرآن الكريم بشرية الرسل في آيات كثيرة منها:

- قوله تعالى: {قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ } [سورة إبراهيم:١١] .

- قوله تعالى: {قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ } (١)، فالرسل والأنبياء - عليهم السلام - بشر يوحى إليهم، وتنحصر حقيقتهم في كونهم " بشراً يتلقون الوحي" (٢).

الحكمة من كون الرسل بشراً، والرد على المعترضين:

ذكر سيد - رحمه الله- أن بشرية الرسل كانت موضع اعتراض في كل الجاهليات بقوله " لقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم " (٣) " وبدلاً

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١١، وسورة فصلت: الآية ٦.

(٢) ينظر كلام سيد حول بشرية الرسل في ظلال القرآن ١/٤١٩، ٤٢٠، ٤٨٥، ٢/ ٧١٩، ١٠٩٣ - ١٠٩٥، ١١٤٥، ٣/١٤٠٩ - ١٤١٠، ١٧٥٩، ٤/ ١٨٧١، ٢٠٧٨، ٢٣٦٨، ٥ /٢٥٥٢، ٢٦١٥، ٢٩٦١، ٣٠٠٥، ٣٠٠٨، ٦/ ٣٤٣٢، ٣٥٨٦.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٨ وينظر: ٢/١١٤٥.

من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم "(١).

<u>أسباب الاعتراض على بشرية الرسل</u>: بين سيد قطب أسباب الاعتراض على بشرية الرسل بقوله: " وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول.. والتوقع أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته، تكمن وراءه الأوهام والأساطير.. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت؟! (٢).

" وهذا الاعتراض على بشرية الرسل هو اعتراض فج:

– ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة، وكونها منهجاً إلهياً للبشر، فلا بد أن تتمثل واقعياً في بشرٍ يحيا بها، ويكون بشخصه

(١) المصدر السابق ٢٠٩١/٤ وينظر: ٤/ ٢٦١٥، ٥/ ٢٥٠٢، ٣٤٣٢، ٦/ ٣٥٨٦.

(٢) المصدر السابق ٢٩٦١/٥ وينظر: ٥/ ٣٠٠٨.

ترجماناً لها، فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون، ولا ينعزل هو عنهم بجنسه، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم، وفي حياتهم ومعاشهم.

- وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون، ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله! وهي تهيئة لاستقبال الرسالة من الله، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى، وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله، حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله!

- وناشئ في النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن إتباع رسول من البشر، كأن في هذا غضاً من قيمة هؤلاء الجُهَّال المتكبرين! فجائز في عرفهم أن يتبعوا رسولاً من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة، أما أن يتبعوا واحداً منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة! "(١).

<u>أما الحكمة من كون الرسل بشراً:</u> فقد تحدث عنها سيد - رحمه الله- كثيراً ومن ذلك:

---

(١) في ظلال القرآن ٣٥٨٦/٦ وينظر أيضا: ١٨٧١/٤، ٥/ ٢٩٦١.

* في ظلال قوله تعالى {وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡ} [سورة ص:٤] ، يقول: " وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم، بشراً يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون، ويحس ما يعتلج في نفوسهم، وما يشتجر في كيانهم، وما يعانون من نقص وضعف، وما يجدون من ميول ونزعات، وما يستطيعون أولا يستطيعون من جهد وعمل، وما يعترضهم من عوائق وعقبات، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات.

- بشراً يعيش بين البشر وهو منهم فتكون حياته قدوة لهم، وتكون لهم فيه أسوة، وهم يحسون أنه واحد منهم، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة، فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه، ويدعوهم لإتباعه، وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته.

- بشراً منهم، من جيلهم، ومن لسانهم، يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم، ويعرفون لغته، ويفهمون عنه، ويتفاهمون معه، ويتجاوبون وإياه، ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه، أو اختلاف لغته، أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته.

- وأيضا فقد أراد الله- للبشرية وبخاصة في الرسالة الأخيرة -

أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية، عيشة طيبة ونظيفة وعالية، ولكنها حقيقة في هذه الأرض، لا وهماً ولا خيالاً ولا مثلاً طائراً في سماء الأساطير والأحلام! يعز على التحقيق ويهرب في ضباب الخيالات والأوهام! " (١).

* وفي ظلال قوله تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ } [سورة الأنبياء:٧] ، يقول سيد: " فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر، يتلقون الوحي فيدعون به الناس، وما كان الرسل من قبل إلا رجالاً ذوي أجساد، وما جعل الله لهم أجساداً ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية، وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين.

هذه هي سنة الله المطردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل، إن كانوا هم لا يعلمون.

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس، فالكلمة الحية هي التي تؤثر وتهدي، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة.

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام، ولا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٨ بتصرف يسير.

يمشون في الأسواق، ولا يعاشرون النساء ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس، فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون.

وأيما داعيةٍ لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره، فإنه يقف على هامش حياتهم، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه، ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول، لما بينه وبينهم من قطعية في الحس والشعور.

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب، مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة، فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل، هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين للعمل.

- والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزهاً عن انفعالات البشر.. كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها.. لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص، وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته

دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس.

- وهنالك اعتبار آخر، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته، لأنه من جنس غير جنسهم، وطبيعة غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية، وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس.

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرسل منه، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه.

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر، وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت، ومن عواطف وانفعالات، ومن آلام وآمال، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء.. وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة " (١).

* وفي ظلال قوله تعالى: { وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ } [سورة الفرقان:٢٠] يستعرض سيد - رحمه الله - استغراب المشركين من كون الرسول بشراً يأكل

(١) في ظلال القرآن ٢٣٦٨/٤ - ٢٣٦٩.

الطعام ويمشي في الأسواق، ويتصرف تصرفات البشر، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان، المعروف لهم، المألوف في حياتهم، الذي يأكل ويعيش مثلهم، كيف يمكن أن يكون رسولاً من عند الله يوحى إليه؟ وكيف يتصل بالعالم الآخر ويتلقى عنه؟...

والمسألة من هذا الجانب قد تبدو غريبة مستبعدة، ولكنها من الجانب الآخر تبدو طبيعية مقبولة، لقد نفخ الله من روحه في هذا الإنسان، وصار بها إنساناً، واستخلف في الأرض، ومن رحمة الله بهذا الإنسان قاصرِ العلم محدودِ التجربة ضعيفِ الوسيلة أنه لا يدعه دون عون وهدي، وقد أودعه الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته، فلا عجب أن يختار الله واحداً من هذا الجنس، صاحب استعداد روحي للتلقي الوحي وهداية إخوانه البشر وهنا يبدو التكريم الإلهي للجنس البشري،...

وتبدو الحكمة الإلهية في جعل الرسل بشرا، ليحس بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم ويقدر بواعثهم

وتأثراتهم واستجاباتهم، لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق!

وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد، لأنه بشر منهم، يتسامى بهم رويداً رويداً، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطراً سطراً، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها، لأنها ممثلة في إنسان، ولو كان ملكاً ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته، ولا شوق إلى تحقيق صورته!

فهي حكمة الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، هي حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشراً ليؤدي دوره في قيادة البشر، والاعتراض على بشرية الرسول جهل بهذه الحكمة، فوق ما فيه من جهل بتكريم الله للإنسان " (١).

" وبهذا تبدو حكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم، رجل يعرفهم ويعرفونه، يطمئنون إليه ويأخذون عنه، بلا تكلف

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٢- ٢٥٥٣ بتصرف يسير.

ولا جفوة ولا تحرج " (١).

ثانياً: أنهم رجال: لقوله تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم } (٢) " لم يكونوا ملائكة، ولا خلقاً آخراً، إنما رجال من البشر " (٣).

ويعقب سيد – رحمه الله– على الآيات التي جاء فيها ذكر الأنبياء، وختمت بقوله تعالى: {وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ } (٤) بقوله: " وأخيراً يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها – عليه السلام – ولا يذكر اسمها هنا لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها – عليه السلام – وقد جاءت هي تبعاً له، إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها " (٥). وكلامه يدل على أن النبوة في الرجال فقط، كما صرحت بها الآية السابقة.

ثالثاً: أن كل نبي أو رسول بعث بلسان قومه:

قال سبحانه { وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٩ وسورة النحل: الآية ٤٣.

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٠٣٥، ٢١٧٢.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٩١، وينظر الآيات التي قبلها ٤٨– ٩٠.

(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.

لَهُمْ } [سورة إبراهيم:٤] " وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة " (١).

رابعاً: أنهم يوحى إليهم:

وهذه الصفات التي تميز بها الأنبياء عن باقي البشر، وهي أنهم رجال ذو طبيعة خاصة، آتاها الله الاستعداد اللدني، وجعلها مهيأة لاستقبال الوحي، ولذلك تطيق تلقيه ويجد الأنبياء في نفوسهم بينة، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحي إليهم" (٢).

أ- معنى الوحي: يذكر سيد - رحمه الله- " أن من معاني الوحي: التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن أخر " (٣).

ب- واسطة حمل الوحي بين الله ورسله: النزول بالوحي إلى الأنبياء من مهام الملائكة – كما سبق – وقد جعل الله تعالى الواسطة بينه وبين رسله جبريل – عليه السلام – وذكر من

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٨، ٢٠٨٧.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٧٩ بتصرف يسير، ١٨٦٤/٣.

(٣) في ظلال القرآن ١١٨٩/٣.

صفاته أنه ملك كريم عند ربه، ذي قوة لأن الوحي يحتاج في حمله إلى قوة، مكين عند ربه في مقامه ومكانته، مطاع في الملأ الأعلى، أمين على ما يحمل وما يبلغ، قال سبحانه: {إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [سورة التكوير :الآيات ١٩-٢١] وهذه الصفات لجبريل – عليه السلام- في مجموعها توحي بكرامة هذا القول – الوحي- وضخامته، وسموه كذلك وارتفاعه "(١).

– كما جاء تسميته أيضا "بروح القدس" يقول سيد: " أما روح القدس فالقرآن يعني به جبريل – عليه السلام – فهو حامل الوحي إلى الرسل، وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم، وهو الذي يثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل، وهو الذي يتنزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق "(٢).

" وقد أعلمنا الله – سبحانه- أن الذي يقوم بمهمة إبلاغ الوحي إلى الرسل – عليهم السلام – هو جبريل – عليه السلام- فقال سبحانه: { يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ } [سورة النحل:٢] ، وقال سبحانه: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ } [سورة البقرة:٩٧] ، وقد رآه

(١) في ظلال القرآن ٣٨٤٢/٦ بتصرف وينظر أيضا:
(٢) في ظلال القرآن ٢٨٢/١.

رسول الله – ﷺ – على هيئته الملائكية مرتين اثنتين، بينما رآه في صور شتى في مرات الوحي التالية "(١).

ج– صور الوحي إلى الرسل: أما صور الوحي إلى الرسل، فقد ذكرها الله تعالى في سورة الشورى بقوله: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ } [سورة الشورى:٥١–٥٢] يقول سيد – رحمه الله –: " ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهه، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها: " من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " (٢). إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث:

١– " وَحْيًا " في النفس مباشرة فتعرف انه من الله.

٢– " أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ " كما كلم الله موسى – عليه السلام – وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم يطق تجلي الله على الجبل {وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ } [سورة الأعراف:١٤٣] .

٣– " أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا " وهو الملك " فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ "

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤.

بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ.

الأولى: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ: " إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب "(١).

والثانية: أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول.

والثالثة: أنه كان يأتيه في مثل صلصله الجرس، وكان أشده عليه، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

والرابعة: أنه يرى الملك في صورته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم ".

ثم ذكر سيد –رحمه الله–: " أن هذه هي صور الوحي وطرق الاتصال، وذكر كلاماً أدبياً يصور فيه مشاعره كلما وقف أمام آية تذكر الوحي أو حديث، فما تأمل هذا الاتصال إلا وأحس له

---

(١) رواه: ابن أبي شيبة ١٢٩/٨ وعبد الرزاق في المصنف ١٢٥/١١ والبيهقي في شعب الإيمان ٣٣٩/٣ وصححه الألباني في الصحيحة ٨٦٥/٦ برقم ٢٨٦٦

رجفة في فؤاده " (١).

د- شبهة المنكرين للوحي والرد عليها:

في ظلال قوله تعالى: { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ } [سورة يونس:٢] يقول سيد - رحمه الله-: " سؤال استنكاري، يستنكر هذا العجب الذي تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل، لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول: ابعث الله بشراً رسولاً؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة الإنسان.. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل به عن طريق الوحي

هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول - ﷺ - وشبهة أمثالهم في القرون الأولى.

- أما في هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتاً عن تلك!

إنهم يسألون: كيف يتم الاتصال بين بشرٍ ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق والذي ليس كمثله شيء؟

وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٦٩/٥-٣١٧٠ وقد أشار سيد في الهامش انه نقل ذلك عن زاد المعاد لابن القيم – رحمه الله –

علماً بحقيقة الله سبحانه، وطبيعة ذاته الإلهية كما أحاط علماً بكل خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه، وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله ويعرف حدود هذا العقل، بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد، ولم يقف العلم بعد حتى يقال: إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك، فضلاً على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائماً آفاق من المجهول بعد آفاق.

ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة، وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة، ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كل خلية، وكل بنية، وكل مخلوق، وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها.

ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب.

ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه، فللعلم ميدان هو الميدان الذي يملك أدواته، وللعلم أفاق هي الأفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها، والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقياً

عن الروح، فهي ليست داخله في نطاق عمله، لأنها ليست شيئا قابلاً للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله، لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل في ميدان الروح.

أما ما يسمى " بالعلوم الروحانية " فهي محاولات وراءها الريب والشكوك في حقيقتها، وفي أهدافها كذلك [١]، ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان، إلا ما جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث، وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس، إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية، والعقل هنا في غير ميدانه، وليس معه أدواته، لأنه لم يزود بأدوات العمل في هذا الميدان " [٢].

خامساً: العصمة.

١- معنى العصمة والحكمة منها:

أ- العصمة في اللغة تعني: المنع والامتناع عن الشيء [٣].

وعصمة الرسل يقصد بها: أن يكون الرسل والأنبياء معصومين في تحمل الرسالة والتبليغ عن الله، فلا يكتمون شيئا، ولا ينسون

---

(١) أشار سيد هنا في الهامش إلى مراجعة الكراسة التي كتبها الدكتور محمد بن محمد حسين بعنوان: الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٧٥٩-١٧٦٠ بتصرف يسير.

(٣) لسان العرب ٩/٢٤٤

شيئاً من الوحي أمروا ببلاغه، وهذا متفق عليه عند الأمة [(١)] ".

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالتبليغ، فيقصد بها حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمحرمات والنقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية.

والعصمة ثابتة للأنبياء والرسل دون غيرهم، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله بها وميزهم على سائر البشر [(٢)].

ب- الحكمة من ذلك: أن الله -عز وجل- جعلهم قدوه للخلق، وأمر الخلق بإتباعهم والاقتداء بهم، وبالتالي لو وقعوا في المعاصي، لأصبحت المعصية مشروعه، ومن ناحية أخرى لابد عقلاً وشرعاً أن يكونوا معصومين، حتى يكون لهم تأثير في نفوس الناس، فلو كانت حياتهم ملوثة بالمعاصي فلن يكون لكلامهم ودعوتهم أثر" [(٣)].

وقد اختلف العلماء في عصمة الأنبياء، هل هي قبل النبوة وبعدها، أم بعد النبوة؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط؟ أم

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية١/٢٨٩. والمواقف للإيجي ص٣٥٨.

(٢) ينظر: فتح الباري ٧/٢٦ و مجموع فتاوى ابن تيمية١٢٩٠ والنبوة والأنبياء. محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، طبعة عام ١٤٠٠هـ، ص ٥٥-٥٦.

(٣) النبوة والأنبياء. للصابوني ص٥٣-٥٥.

عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟ على أقوال، [١].

رجح شيخ الإسلام ابن تيميه أن القول بعصمتهم بعد النبوة من الكبائر مما هو متفق عليه، وأما عصمة الأنبياء قبل النبوة فمن مواضع النزاع، وكذا عصمتهم عن الصغائر، وأجاب عن القائلين بالعصمة المطلقة واحتجاجهم بأننا مأمورون بالتأسي بهم ووقوع الصغائر يقدح في التأسي، بأن التأسي إنما هو فيما اقروا عليه، كما أن النسخ جائز فيما يبلغون من الأمر والنهي، وليس تجويز ذلك مانعاً من وجوب الطاعة، لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ، فعدم النسخ يقرر الحكم، وعدم الإنكار يقرر الفعل، والأصل عدم كل منهما "[٢].

٢- موقف سيد قطب - رحمه الله - من مسالة عصمة الأنبياء:

يقرر سيد- رحمه الله-أن الأنبياء معصومون، وأن الاعتقاد بعصمة النبي أصل من أصول العقيدة[٣]، وفي ظلال قوله تعالى: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى

---

(١) تفسير القرطبي ٣٠٨/١ وفتح الباري لابن حجر ١٤٤/٧، ٦٩/٨، ١٠١/١١، ٤٤٠ ومجموع فتاوى ابن تيمية٣١٩/٤، ٣٠٩/١٠، ٢٩٢، ٢٩٣ والنبوة والأنبياء للصابوني ص٥٣-٥٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية٣١٩/٤، ٣٢٠، ٢٩٣/١٠، ١٤٨/١٥-١٥٠.

(٣) في ظلال القرآن ٢٤٣١/٤ -٢٤٣٢.

ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [سورة الحج:٥٢] .

يقول سيد: " والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين، وتعطيل المعوقين، ومعاجزة المعاجزين، يحفظها كذلك من كيد الشيطان، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية، وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانيّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها...

ثم ذكر روايات لقصة الغرانيق، وفيها أن قريش كانت تتمنى أن يذكر الرسول -ﷺ- آلهتها بخير، وكان رسول الله- ﷺ - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذى وتكذيب، وأحزنه ضلالهم، فكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله في سورة النجم قوله: { أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ } ألقى الشيطان عندها كلمات فقال: وأنهن لهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك.. فلما بلغ رسول الله – ﷺ – آخر النجم سجد، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك... وانتشر خبر سجود المشركين حتى بلغ الحبشة وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا، فرجع المهاجرون من الحبشة بعدها.. وقد نسخ

الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته وأنزل: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ} وساق كلام ابن كثير – رحمه الله– حول القصة، وكيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله – سبحانه – لرسوله – ﷺ – وحكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن الرسول ﷺ، وليس كذلك في الواقع.

ثم عقب سيد – رحمه الله– على ما أورده ابن كثير – رحمه الله – بقوله: " هذه خلاصة تلك الروايات في هذا الحديث الذي عرف بحديث الغرانيق، وهو من ناحية السند واهي الأصل، قال علماء الحديث: إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند سليم متصل يجوز ذكره، وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلاً من أصول العقيدة وهو عصمة النبي ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئاً في تبليغ رسالته.

وقد أولع المستشرقون والطاعنون في هذا الدين بذلك الحديث، وأذاعوا به، وأثاروا حوله عجاجة[1] من القول، والأمر في هذا كله لا يثبت للمناقشة، بل لا يصح أن يكون موضوعاً للمناقشة.

---

(١) العجاجة: الغبار والدخان، انظر لسان العرب ٩/٥٤.

- وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئاً كهذا، فالنص يقرر أن هذه القاعدة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم: { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ }، فلا بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل.

وحاول سيد - رحمه الله- بيان ذلك بأن الرسل عندما كلفوا بحمل الدعوة، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يتبع الناس الدعوة ويدركوا الخير، ولكن لكثرة العقبات في الطريق، ولمحدودية عمر الرسل يتمنون لو يجذبون الناس بأسرع طريق، ولومن خلال السكوت المؤقت على بعض عادات وموروثات الناس حتى يدخلوا في الدين ثم بعد ذلك تتم تربيتهم الصحيحة

- وهذه الرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة في حين أن الله يريد أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق.

- والشيطان يجد في رغبات الرسل البشرية تلك فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن خطها، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويصحح ما وقع من خطأ في اجتهادات الرسل... وفي حياة

النبي ﷺ أمثلة من هذا، تغنينا عن تأويل الكلام ومن ذلك:

- قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه (١) الأعمى الفقير الذي جاء إلى الرسول ﷺ يطلب منه أن يعلمه وهو ﷺ مشغول ببعض صناديد قريش، والأعمى لا يعلم ذلك، حتى كره ﷺ إلحاحه فعبس في وجهه وأعرض عنه، فأنزل الله قرآناً يعاتب فيه الرسول ﷺعتاباً شديداً {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ } [سورة عبس:الآيات ١- ١٠] وبهذا صحح القرآن الكريم تصرف رسول الله ﷺ وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة

- وكذلك ما جاء في الصحيح " من أنه كان مع النبي - ﷺ - ستة نفر من الصحابة، فجاءه المشركون فقالوا: أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله - ﷺ - ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل {وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ } [سورة الأنعام:٥٢] ، وهكذا رد الله كيد الشيطان من أن يدخل من ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بطرد الفقراء من مجلس الرسول - ﷺ -.

---

(١) هو: عبد الله بن قيس بن زائدة القرشي، كان ضريراً مؤذناً للرسول - ﷺ - هاجر بعد بدر واستخلفه الرسول - ﷺ - على المدينة مرتين، مات بعد القادسية في المدينة، انظر سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١.

- ومنها كذلك قصة زواج النبي- ﷺ - بزينب بنت جحش- رضي الله عنها-[1]، حيث خشي النبي - ﷺ - من زواجها حتى لا يقال تزوج مطلقة متبناه، فنزل القرآن الكريم يكشف ما في خاطر رسول الله -ﷺ- ويقرر الحق وصدقت عائشة رضي عنها وهي تقول: " لو كتم محمد - ﷺ - شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ } [سورة الأحزاب:٣٧] ' وهذا هو ما نطمئن إليه في تفسير تلك الآيات...

وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم، فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة " مصلحة الدعوة " وهي أمر يجب أن يرتفع من قاموس الدعوات باعتبارها مزلة ومدخل للشيطان،.. وقد تتحول إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة، وينسون معه منهج الدعوة الأصيل "[2].

---

(١) هي: زينب بنت جحش بن رئاب، ابنة عمته ﷺ، من المهاجرات الأوائل، زوجها الله تعالى لنبيه ﷺ بنص كتابه بلا ولي ولا شاهد بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة، كانت من سادة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً، انظر: سير أعلام النبلاء ٢/٢١١-٢١٨

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣١- ٢٤٣٦ بتصرف.

- وفي ظلال قوله تعالى: { وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا } [سورة الإسراء:٧٣ - ٧٤] . يقول سيد - رحمه الله -: " وقد حاول المشركون في صور شتى، منها مساومتهم أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وآبائهم، ومنها أن يجعل أرضهم كلها حراماً كالبيت العتيق، ومنها طلب بعض كبرائهم مجلساً غير مجلس الفقراء...

والنص يشير إلى هذه المحاولات دون تفصيل، ليذكر فضل الله على الرسول- ﷺ - في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً، ويلقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين..

وهذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً لإغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوة من يفتن بهذا عن دعوته.. " (١)

وعموماً فسيد - رحمه الله - يرى أن الأنبياء معصومون

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٥.

فيما يتعلق بالبلاغ والدعوة والوحي كما سبق في تعليقه على قصة الغرانيق، وأنه قد يصدر منهم خطأ بناء على طبيعة البشرية في اجتهاداتهم في قضايا الدعوة التي لم ينزل فيها وحي فيأتي الوحي فيصحح الخطأ ويقيم الميزان الحق، ومن ذلك ما ذكره سيد - رحمه الله- حول قصة ابن أم مكتوم، ومساومة المشركين للنبي - ﷺ - في طرد بعض فقراء المسلمين من المجلس ليجلسوا معه هم، وكذلك ما أشار إليه في مواطن أخرى مثل عتاب الله لرسوله - ﷺ - في قضية أسرى بدر [1] وإذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك [2] وغيرها.

٣- شبهات حول عصمة الأنبياء وموقف سيد قطب منها:

جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى وقوع بعض المخالفات من بعض الأنبياء والرسل - عليهم السلام - فكيف يتفق ذلك مع القول بعصمتهم؟

والجواب: أن العصمة ثابتة للأنبياء كما دلت على ذلك النصوص الشرعية، وكما يقضي بذلك العقل السليم، أما ما وقع من بعضهم من أمور ظاهرها أنها مخالفات ومعاصي فهي

---

(١) ينظر في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٠ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٦٦٢.

محمولة على بعض الوجوه الآتية:

١- إما أنها ليست معصية، وإنما هي فعل خلاف الأولى.

٢- أو أنها خطأ في الاجتهاد.

٣- أو أنها كانت قبل النبوة على فرض أنها معصية. (١)

وقد ذكر البعض أمثلة لذلك يمكن استعراضها مع بيان موقف سيد – رحمه الله– منها:

١- عصمة آدم – عليه السلام–: ترد في مسالة عصمة آدم – عليه السلام– قضيتان:

الأولى: أكله من الشجرة وعصيان أمر الله: قال تعالى: { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ } [سورة طه:١٢١] ، والمفسرون على أن هذه المعصية كانت قبل نبوته – عليه السلام – أو أنه أكل ناسياً بدليل قوله تعالى: { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [سورة طه:١١٥] ، ومادام الأمر وقع بدافع النسيان فإنه لا يؤاخذ عليها، ما لم تكن تعمداً (٢).

---

(١) النبوة والأنبياء للصابوني: ص٦١.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي: ص١٢٤٩، وتفسير القرطبي ٣٠٦٩/١، وتفسير المنار ٣٨٠٠/١.

وهو ما يقرره سيد- رحمه الله - حيث يرى أن المخالفة كانت من آدم قبل أن يعهد إليه بالخلافة في الأرض، وكانت منه نسيانا وليس تعمداً (١).

الثانية: نسبة الشرك إلى آدم وحواء - عليهما السلام: -

أورد بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: {فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [سورة الأعراف:١٩٠] روايات تنسب الشرك إلى آدم وحواء - عليهما السلام- من خلال طاعتهما للشيطان في تسمية ولدهما بعبد الحارث حتى يعيش، نظراً لأنه كان لا يعيش لهما ولد.

ويرى سيد- رحمه الله - " أن ظاهر ما في هذه الروايات طابع إسرائيلي، ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات، فالنص إنما يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية، والمثل هنا مضروب للفطرة"(٢).

- عصمة إبراهيم - عليه السلام -: مما يرد في قضية عصمة إبراهيم - عليه السلام - مسائل.

الأولى: نسبة الشرك إليه، أورد بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّىۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٥٣ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٤١١ - ١٤١٢. ويراجع ما سبق عن نشأة الشرك.

أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ } [سورة الأنعام:الآيات ٧٦-٧٩] ، روايات وآثاراً في أن إبراهيم – عليه السلام – اعتقد في طفولته أو بعد بلوغه أن الكواكب هي إلهه (١).

وجمهور المفسرين على أن القصة جاءت في سياق استدراج إبراهيم – عليه السلام – لقومه، ومناظرتهم والتنزل معهم لإبطال شركهم بالله، وفساد عقيدتهم فيها. (٢)

أما سيد – رحمه الله– فيرى أن القصة الواردة في الآيات ترسم مشهدا للفطرة السليمة، وهي تبحث عن إلهها الحق، الذي تجده في أعماقها، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها، فالآيات تصور فطرة إبراهيم– عليه السلام – وهي تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، وتنطلق بعد أن نفضت عنها الخرافة تبحث عن إلهها الحق الذي تجده

---

(١) تفسير الطبري: ٥/٢٤٤-٢٤٦.

(٢) ينظر في ذلك: تفسير ابن كثير ١٣٢٦/٣ والكشاف للزمخشري ٤٠/٢ واحتكام القرآن لابن العربي ٧٣٢/٢. وأضواء البيان للشنقيطي ٣٦٣/١.

في ضميرها... وتختبر ما أمامها فتجده زائفاً لا يطابق لما هو مكنون من حقيقة الإله وصفته، فهي تصور رحلة طويلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي، الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع... وبعد اختبار أُلوهية الكواكب وبطلانها بمنطق الفطرة، يجد إبراهيم إلهه الحق في قلبه وفطرته، وعندئذ تكون المفاصلة الحاسمة للآلهة الزائفة، وللمشركين بها "(١).

الثانية: الشك في قدرة الله. أخبر الله تعالى أن إبراهيم – عليه السلام – سأل ربه أن يريه كيف يحي الموتى بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى} [سورة البقرة: ٢٦٠] حيث قد يفهم منه أن إبراهيم – عليه السلام – كان شاك في قدرة الله على إحياء الموتى، وهذا الفهم غير سليم، فإبراهيم – عليه السلام – إنما كان مستفهما عن الكيفية، وليس عن الماهية، فلم يقل: هل تقدر يا رب على أن تحيي الموتى؟ " (٢).

– أما سيد قطب– رحمه الله– فيقول في ظلال هذه الآية: " إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٢/١١٣٧ – ١١٤١ بتصرف.

(٢) الكشاف للرازي ١/ ٣٠٨.

التشوف من إبراهيم الأواه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل، حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين!

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية الإيمان، إنما هو أمر آخر له مذاق آخر إنه الشوق الروحي، إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي

ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان....

وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة،... لقد أمره أن يختار أربعة من الطير، ويقربهن إليه، حتى يتأكد من مميزاتهن وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة، ثم يدعوهن فتتجمع الأجزاء مرة أخرى، وترتد إليها الحياة، ويعدن إليه ساعيات.

رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه.. وهو سر يعلو على التكوين البشري إدراكه، فهو قد يراه، ويصدق به كما فعل إبراهيم، لكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته " (١).

٣- عصمة يوسف - عليه السلام -:

في قصة يوسف - عليه السلام - صورة مشرقة عن النزاهة والبراءة والعصمة، مع وجود الإغواء والإغراء والكيد، ومع ذلك فقد جاء في بعض التفاسير روايات إسرائيلية حول قصة يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز " حيث أورد بعضهم في تفسير قوله تعالى: { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ } [سورة يوسف:٢٤] .

يقول سيد: " لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة، فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعاً شبقاً، والله يدافعه بالبراهين الكثيرة فلا يندفع! صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على أصبعه بفمه! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن!! - تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي! حتى أرسل الله- جبريل- يقول له: أدرك عبدي، فجاء

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٠١- ٣٠٢ بتصرف.

فضربه في صدره.. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع! "

- أما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل، وهم بها هم النفس، ثم تجلى له برهان ربه فترك، وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي، وقال: إنها إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة، وهم هو برد الاعتداء، ولكنه آثر الهرب، وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة، وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص.

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف - عليه السلام -، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما..

الذي خطر لي أن قوله تعالى: { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ } هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة.. ولكن السياق القرآني لم

يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة... بل ذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً.

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبي " (١).

وقد أيد سيد – رحمه الله– كلامه هذا بما ذكره الزمخشري (٢) في الكشاف: " فإن قلت: كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همٌ بالمعصية وقصدٌ إليها؟ قلت المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه، ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨١ – ١٩٨٢ بتصرف يسير.

(٢) هو: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، أبو القاسم، ولد بزمخشرى من خوارزم سنة ٤٦٧هـ كان محدثاً ومتكلماً ومفسراً معتزلي العقيدة له عدة مؤلفات توفى سنة ٥٣٨هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ١٥١/٢٠، شذرات الذهب ١٠٨/٤.

تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدّته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته. انتهى.. " [1]، ثم قال سيد – رحمه الله– معلقاً على النص: " وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري: " ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم " فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أن البرهان عقلي، والبرهان الذي أخذه الله على المكلفين هو ما قرره في شريعته، ولكن هذا خلافٌ مذهبي تاريخي لا شأن لنا به، فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي" [2]

هذه نماذج خاصة بعصمة الأنبياء مما ورد في القرآن الكريم.

أما ما ينسب إلى بعض الأنبياء – عليهم السلام – زوراً وكذباً وافتراءً من أهل الكتاب في كتبهم المحرفة، فقد أشار سيد

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ عام ١٤١٧هـ ٢/٤٣٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٢ هامش رقم ١.

- رحمه الله- إلى ذلك " كما سبق في تصحيح القرآن الكريم لأهل الكتاب صورة الأنبياء التي شوهت في كتبهم المحرفة ".

سادساً: الصدق والأمانة في التبليغ:

من صفات الأنبياء - عليهم السلام- الصدق والأمانة في التبليغ، وهذه الصفات ملازمة للنبوة، بل هي من الصفات الفطرية فيهم، يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ } [سورة الحاقة:٤٤ -٤٦] : " وهذا تهديد رعيب، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره، وهو صدق الرسول - ﷺ -وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ... ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً - ﷺ - صادق فيما أبلغهم به، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق " (١).

وقد أورد سيد - رحمه الله - روايات عن إقرار المشركين

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩.

بصدق النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها، مع أنهم لم يؤمنوا به، من ذلك قول النضر بن الحارث لقريش: "يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر! لا والله، ما هو بساحر... لا والله ما هو بكاهن... لا والله ما هو بشاعر... وما هو بمجنون... فانظروا في شأنكم، فإنه قد نزل بكم أمر عظيم "(١).

وأيضا حديث: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش، فقال: " أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ". فقال أبو لهب. ألهذا جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله: {تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [سورة المسد:١] "(٢).

فالمشركون كانوا يعرفون الرسول ﷺ في عمره الطويل معهم، لكنهم لما جاءهم بالحق قالوا فيه ما قالوا، وهو صاحبهم الذي لا يجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثهم عنه عن يقين،

---

(١) المصدر السابق ٦/٣٦٨٨.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩٩.

لقد كانوا يعرفون رجاحة عقله، وصدقه وأمانته وتثبته، فراحوا يعللون ما جاءهم به أنه سحر وكهانة وجنون وشعر.. وتركوا التعليل الوحيد الصادق: وهو أنه وحي وتنزيل من الله، وأن محمداً ﷺ مؤتمن على الغيب، لا تظن به الظنون فيما يقول فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين " [1].

" وهذه هي صفات الرسل جميعاً، فالبلاغ الكامل لما أنزل الله هو مقتضى العصمة [2].

" وكل رسول جاء إلى قوم قال لهم " {وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ } " في مودة الناصح وصدق الأمين "[3].

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨٤٢ – ٣٨٤٣ بصرف.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٣٨.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٣٠٥، ١٣١١ بتصرف.

المطلب الرابع

وظائف الرسل

للرسل – صلوات الله وسلامة عليهم– وظائف جليلة، ومهمات جسيمة في حياة البشرية، يقول سيد – رحمه الله –: " إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم في الدنيا والآخرة،... ومن ثم كان الرسل – صلوات الله عليهم – يحسون بجسامة ما يكلفون، وكان الله – سبحانه – يبصرهم بحقيقة العبء الذي ينوطه بهم،... إنه الأمر الهائل العظيم، أمر رقاب الناس، أمر حياتهم ومماتهم، أمر سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية سعادة وشقاء " (١).

وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى عدد من وظائف ومهام الرسل –عليهم السلام– في مواطن متفرقة يمكن إجمالها في الآتي:

أولا: تعريف العباد بربهم – سبحانه – ودعوتهم إلى توحيده وعبادته:

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٩ بتصرف يسير.

وهذه هي المهمة الكبرى الذي بعث الله من أجلها الرسل الكرام، والمتمثلة بتعريف الخلق بالخالق - جل وعلا - وتخصيص العبادة له دون سواه قال - سبحانه -: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ } [سورة الأنبياء:٢٥] ، وقال أيضاً: ﴿{ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ } [سورة النحل:٣٦] .

يقول سيد - رحمه الله-: " إن الدعوة الإسلامية - على يد محمد رسول الله - ﷺ - إنما تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام، وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً: هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق، وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق...

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري، إنها تستهدف" الإسلام " إسلام العباد لرب العباد وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة"(١).

ويقرر سيد - رحمه الله- في مواطن كثيرة: " أن الإنسان

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٥.

أُهبط إلى الأرض مؤمناً بربه، مهتدياً تائباً موحداً، وأنه تتقاذفه الأمواج بين الحين الآخر فيضل ويشرك، وبالتالي فمن رحمة الله به أن أرسل إليه الرسل لإنقاذه وهدايته "، " لقد جاءت الرسل – رسولاً بعد رسول – بالتوحيد الخالص وبربوبية رب العالمين: جاء كل رسول إلى قومه بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم السابق ليدعوهم إلى توحيد الله بقوله: {يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ } " فالتركيز في كل رسالة كان على أمر واحد: هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده – رب العالمين – باعتبارها القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعاً "، " والقران يقرر أن جميع الرسل – عليهم السلام – جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص، الذي لا ظل فيه للشرك، في صورة من صوره "، " وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد سبحانه وتعالى "، " ولقد كان هذا الجهد الموصول المكرر مع كل رسالة ومع كل رسول، وكان الإصرار من الرسل صلوات الله عليهم على كلمة التوحيد بلا هوادة، على اعتبار أن وظيفتهم الأساسية في الحياة هي إقرار وإقامة هذه الحقيقة في البشرية " (١).

---

(١) ينظر في ذلك: في ظلال القرآن ٢٧٩/١، ٢/*١١١٠، ١١٣٧، ١١٤٧، ١٣٠٤، ١٣٥، ١٣٠٦، ١٥٥٥، ١٨٥٣/٤، ٢١٠٠، ٢١٧١، ٢٣٩٧، ٣٠١١/٥.

ثانياً: تبليغ أوامر الله ونواهيه للعباد وإقامة الحياة على وفق منهج الله:

جعل الله سبحانه وتعالى من وظائف الرسل: تبليغ أوامره ونواهيه للبشر، وقد قام الرسل جميعا بهذه المهمة كما قال سبحانه: { ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا } [سورة الأحزاب:٣٩] وجعل علامة الرسول تبليغ الرسالة، فقال سبحانه: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ } [سورة المائدة:٦٧] .

يقول سيد: " فوظيفة الرسول التلقي من الله، وأداء الرسالة المتمثلة في تبليغ ما يأتيه من ربه "(١) " ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل، لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة الوجود الإنساني، ولغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني، ومن هذا التصور ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم،.. وهي أمور لا يمكن للعقول أو التجارب البشرية أن تصل إلى الحق فيها،.. فالذي يضع خطه الرحلة للطريق كله، هو الذي يدرك الطريق كله، والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق، فأنى له أن يضع الخطة لقطع

---

(١) في ظلال القرآن ٧١٩/٢، ١٠٩٥، ١٤٢٠/٣ بتصرف وينظر أيضا: ١٨٥٣/٤، ٢٠٧٨ ٢٩٦١/٥، ٣١٧٢.

الطريق المجهول؟ إنه إما الخبط والضلال والشرود، وإما منهج الرسالات والرسل المستمد من خالق الوجود "[1].

ويقرر – سيد – أنه: " ليست وظيفة الرسل مجرد البلاغ، بل البلاغ هو قاعدة عمل الرسول والدعاة من بعده، وهذا البلاغ أول مراتب الجهاد، فمتى صح تبليغ حقائق الدين فلابد أن الجاهلية ستواجه الداعية إلى الله، ومن ثم تجيء مرحلة الجهاد نتيجة طبيعة للتبليغ الصحيح لا محالة "[2]. فلا بد من بلاغ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون، وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة، وتفتن الناس بالباطل وبالقوة وإلا فلا بلاغ...

- فأما رسل الله –عليهم السلام– فقد أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها – مع هذا– قدوة ممثلة في العمل، وجهاداً مضيئا بالليل والنهار، لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة

---

(١) المصدر السابق ٢٨١/١ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٢٠٧١/٤. بتصرف يسير.

وتفتتهم في الدين، كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان {حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ } [سورة الأنفال:٣٩] ، وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته في التبليغ، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة – تبعة إقامة حجة الله على الناس، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا – إلا بالتبليغ والأداء، على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله ﷺ وأدى، فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، والضلالات والأهواء، والشبهات والشهوات، وقوى الطغيان والعقبات، هي هي " (١).

- ويقول أيضا في بيان أن مهمة الرسل إقامة منهج الله في حياة البشر: " وصورة الإسلام الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة – كما جاء به رسل الله جميعا – من ناحية أصول العقيدة تحتوي الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلاً، ومعرفة الله سبحانه وتعالى بصفاته.. والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلاً، ومن ثم نفي الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده

(١) في ظلال القرآن ٨٠٩/٢ بتصرف.

"[١]، " فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه، ولا يطيعون إلا أمره ونهيه" [٢].

ثالثاً: هداية البشر إلى الطريق المستقيم وتزكيتهم وتطهيرهم وتربيتهم وتعليمهم:

من وظائف الرسل الجليلة، هداية الناس إلى الطريق المستقيم، يقول سيد: " فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية: {إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ } [سورة الرعد:١٧] " [٣]، "ولقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة تأخذ بيد البشرية وتمضي بها صعداً في الطريق على هدى وعلى نور"[٤] " وآية أن ما يتم بالرسالة – عن طريق العقل نفسه – لا يمكن أن يتم بغيرها، فلا يغني العقل البشري عن الرسل، وتاريخ البشرية لم يسجل أن عقلاً مهما كبر قد اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول بالرسالة، لا في تصور اعتقادي، ولا في خلق نفسي، ولا في نظام حياة، ولا في تشريع واحد لهذا النظام"[٥]. " فينابيع الهدى في الأرض، تتمثل في ما جاءت به الرسل"، " ولذلك لم يكل الله الناس إلى

---

(١) المصدر السابق ٤/١٩٦٠.

(٢) المصدر السابق ٤/١٨٦٦.

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٠٤٨.

(٤) في ظلال القرآن ١/٢٨١.

(٥) المصدر السابق ٢/٨١١ بتصرف يسير.

عقولهم وفطرتهم وحدها لأنها قد تضل وتفسد، إنما يكلهم إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها، ويرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها"(١).

" إن إرسال الرسل يوحي بعظمة التفضل الإلهي على الناس، فمن مهمات الرسول- ﷺ - أن يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره، ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة، ويطهر المجتمع والحياة من الربا والسحت والغش والسلب والنهب، وكلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر، ويلطخ المجتمع والحياة ويطهر حياتهم من الظلم والبغي وينشر العدل النظيف الصريح،.. ويطهرهم من سائر الملوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان وفي كل زمان "(٢).

رابعا: التبشير والإنذار وإقامة الحجة على الناس.

" من مقتضى عدالة الله ورحمته أن بعث رسلاً إلى عباده، يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان،

---

(١) المصدر السابق ١١٤٤/٢، ١١٤٦ وينظر ١٢١٠/٣، ١٣٩٥/٣-١٣٩٦.

(٢) المصدر السابق ١٣٨/١-١٣٩ بتصرف وينظر أيضا ٢٠٧٠/٤، ٢٨٢٩/٥.

وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كل ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، قال سبحانه: { رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [سورة النساء:١٦٥] ، ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنه – سبحانه – رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم – أداة العقل – اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل { مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } يذكرونهم ويبصرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق "(١).

" فوظيفة الرسول أنه منذرٌ ومحذرٌ ومبصرٌ {إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ } [سورة الرعد:٧] {إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [سورة الحج:٤٩]؛" فالرسول يرسله الله ليبشر وينذر، وعليها تكون استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة "(٢). {إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } [سورة الأعراف:١٨٨] ولكن لا ينتفع بما جاء

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٢/١٠٩٣، ٤/٢٠٤٨، ٢٤٣١ بتصرف.

به الرسل من النذارة والبشارة إلا المؤمنون الذين يفهمون حقيقة ما جاء به، ويدركون ما وراء هذا الذي جاء به الرسول "(١).

ولقد لخص الله هذه المهمة من مهمات الرسل بقوله: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا } [سورة الأحزاب:٤٥-٤٨] ، " فوظيفة النبي - ﷺ - أن يكون "شاهداً " عليهم، وأن يكون "مبشراً " لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران وفضل وتكريم، وأن يكون " نذيراً " للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال، فلا يؤخذوا على غرة، ولا يعذبوا إلا بعد إنذار، "وداعياً إلى الله " لا إلى دنيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عزة قومية، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان أو جاه، ولكن داعياً إلى الله في طريق واحد يصل إلى الله، " بإذنه " فما هو بمبتدع، ولا بمقطوع، ولا بقائل من عنده شيئاً، إنما هو إذن الله له وأمره لا يتعداه، " وسراجاً منيراً " يجلو الظلمات، ويكشف الشبهات، وينير الطريق، نوراً هادئاً هادياً كالسراج المنير في الظلمات " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤١٠.

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٨٧٢. وينظر أيضا ٥/٢٩٥٩.

- ولقد كانت تربية الأمم وهدايتها من خلال القدوة أكثر نفعا، والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي، النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به، ومن ثم كانت حياة الرسول - ﷺ - معروضة لأنظار أُمته، بمعالمها الرئيسية في الحياة وبأصغر تفصيلاتها وأحداثها... وحتى خطرات قلبه أحيانا لتطلع عليها الأجيال، وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان " [1]، هذه هي أهم وظائف ومهام الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - إجمالا.

---

(١) المصدر السابق ٥/٢٦٦١ بتصرف يسير.

المطلب الخامس

دلائل النبوة وآيات الأنبياء

" الطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، وكثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر، ونحو ذلك، ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتمييز بين الصادق والكاذب" (١).

فأهل السنة والجماعة يثبتون النبوة بدلائل كثيرة منها:

١. القرائن والأحوال التي تدل على صدق النبي.

٢. نصر الله لأنبيائه وإهلاك أعدائهم في النهاية.

٣. المعجزات وخوارق العادات.

وقد أشار سيد رحمه الله إلى بعض دلائل النبوة، يمكن بيانها

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٤٠ وما بعدها .

إيجازاً فيما يأتي:

أولاً: قرائن الأحوال: " وذلك أن النبوة إنما يدعيها اصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتفرق يهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة، فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال الشاعر في وصفه - ﷺ -:

لو لم تكن فيه آيات مبينة.... كانت بديهته تأتيك بالخبر (١).

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين، إلا وقد ظهر عليه من الكذب والفجور واستحواذ لشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز " (٢).

وقد أشار سيد- رحمه الله - إلى أن أحوال الأنبياء من الصدق والزهد والصبر ونحوها من دلائل نبوتهم، ففي ظلال قوله تعالى عن الرجل المؤمن وهو يخاطب قومه: { ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ } [سورة يس:٢١] ، يقول سيد: "

(١) أنشده المبرد في الكامل ص ٩ لحسان ، وهو في البيان والتبيين ١/١٥، والروض الأنف ١/١٨٧ وعيون الأخبار ١/٢٢٤ غير منسوب ، وفي الإصابة ص ٤٦٦٧ لعبد الله بن رواحه ، انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٤١ هامش رقم ١

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٠ - ١٥٠ بتصرف .

فالذي يدعو مثل هذه الدعوة، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفاً من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً.. "(١)

- وعند حديثه عن اقتراحات المشركين وطلبهم الآيات من النبي ﷺ يقول: " وبهذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله - ﷺ - الذي يعرفونه جيداً بالخبرة الطويلة، ما يدلهم على صدقة وأمانته، وهم كانوا يلقبونه الأمين، ويودعون أماناتهم لديه حتى وهم معه على أشد الخلاف.. وكذلك كان صدقه مستيقناً كأمانته، فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا - حين أمره ربه بذلك - وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق.. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان؟ ولقد كانوا يعلمون: أنه لصادق، كما قال الله عنهم: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٦٣ .

ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ } [سورة الأنعام:٣٣] ، فهي الرغبة في الإنكار والإعراض والعناد والاستكبار عن الحق وليس الشك في صدق النبي ﷺ "[١].

- كما ذكر سيد - رحمه الله - في مقدمة سورة العلق حديث بدء الوحي، وفيه استدلال خديجة رضي الله عنها[٢]، على صدق النبي ﷺ بعد أن تخوف على نفسه بقولها: كلا، أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق "[٣].

ثانيا: نصر الله للأنبياء وإهلاك أعدائهم:

من دلائل النبوة أيضاً: " أن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ويهلك أعداءهم في نهاية الصراع، كما أخبر -سبحانه- عن إهلاك قوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم، ولما ذكر الله قصص إهلاك أعداء الأنبياء في سورة

---

(١) في ظلال القرآن ١٠٤٠/٢ .

(٢) هي : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي ، تزوجها النبي ﷺ وعمرها ٤٠ سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ورزق منها أبناءه كلهم إلا إبراهيم ، أول من آمن به من النساء ، توفيت في السنة العاشرة للبعثة ، انظر : الاستيعاب ١٧٢/٤ وأُسد الغابة ٤٣٤/٥

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٣٦/٦ .والحديث في البخاري في كناب - بدء الوحي ٤/١-٥ برقم ٣ .

الشعراء قال في آخر كل قصة: { إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ } (١)، (٢).

- وقد أشار سيد رحمه الله إلى هذه الدلالة في مواطن متفرقة منها:

* في ظلال قوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [سورة الشعراء:٢٤] . يقول سيد: " وهذه الشبهة يعللون بها موقفهم من الوحي، وهو قول مردود، فما كان الله ليدع أحداً يدعي أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه شيءٌ، وهو قادر على أن يختم على قلبه فلا ينطق بقرآن كهذا، وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويمحوه، وأن يظهر الحق من ورائه ويبينه.. فهي شبهة لا قوام لها، ودعوى تخالف المعهود عن علم بالسرائر، وعن قدرته على ما يريد، وعن سننه في إقرار الحق وإزهاق الباطل، وإذن فهذا الوحي حق، وقول محمد - ﷺ - صدق" (٣).

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩١٠ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٥١ .

(٣) في ظلال القرآن ٣١٥٤/٥- ٣١٥٥ بتصرف يسير .

*وفي ظلال قوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ } [سورة الحاقة:٤٤ – ٤٧] يقول سيد – رحمه الله–: " وهذا تهديد رعيب لمن يفتري على الله في شأن العقيدة، وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره، وهو صدق الرسول – ﷺ – وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ..

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً ﷺ صادق فيما أبلغهم، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولمَّا كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق " (١)، " فمن دلائل صدق الأنبياء نصر الله لهم، وإهلاك أعدائهم، حيث كانت العاقبة دائما للرسل وأتباعهم "(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩ .

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ١٦٥٦/٣ ،٢٠٣٦/٤، ٢٠٣٧ ، ٢٦٠٨/٥ .

ثالثاً: المعجزات وخوارق العادات:

المعجزات: هي الأمور الخارقة للعادة، المصحوبة بالتحدي[١]، فهي أخص من مطلق الآيات وعلامات النبوة عند البعض.

وسميت معجزة: لعجز من تقع عندهم عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة [٢].

وقيل: أن المعجزة اسم يعم كل خارق للعادة في اللغة وفي عرف العلماء، وتسمى بالآيات أيضاً[٣].

وقد وقف الناس من قضية المعجزات والخوارق مواقف متباينة، فمنهم من جعلها وحدها هي دليل النبوة وأنكر وقوع خوارق للعادات وكراماتٍ لغير الأنبياء، كما هو الحال عند المعتزلة والظاهرية وبعض الأشاعرة [٤] ومنهم من ضيق نطاق الخوارق وأولها أو انكرها، كما فعل بعض أصحاب الأهواء [٥].

أما سيد -رحمه الله- فله حديث طويل عن المعجزات

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي – المكتبة العصرية ط عام ١٤٠٧هـ ، ٣/٤ .

(٢) فتح الباري لابن حجر: ٥٨١/٦-٥٨٢.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣١١/١١.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ص١٤٠.

(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٣٩٧٧/٦ .

وخوارق العادات يمكن إجماله فيما يأتي:

١- إثباته للمعجزات:

عبر القرآن الكريم عما أيد الله به الأنبياء - عليهم السلام - من أجل إيمان الناس بهم " بالآيات " واصطلح العلماء على تسميتها " بالمعجزات ".

وكلام -سيد - عن المعجزات يدل على أنه يرى أنها تشمل أمرين:

أ - ما كان مصحوبا بالتحدي، مما يطلبه الكفار من أنبيائهم للتدليل على صدقهم.

ب- وما كان خارقاً للعادة، بدون تحدي، وهو الآيات التي تأتي بها الأنبياء بإذن الله، فتنة للناس، أو عند الحاجة إليها.

حيث يقول: " كانت البشرية جيلاً بعد جيلٍ تطلب خارقة معجزة من الرسول، تدل على أنه حقاً مرسل من الله {فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ} [سورة الشعراء:١٥٤] ، كما طلبت ثمود تلك الخارقة، فاستجاب الله لعبده صالح وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة "(١).

" وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات، لتصديق الرسل،

(١) في ظلال القرآن ٢٦١٢/٥.

وتخويف الناس من عاقبة التكذيب، وهي الهلاك لمن كذب بها " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: { وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } [سورة الرعد:٧] ، يقول سيد: " إنهم يطلبون خارقة، والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه، إنما يبعث بها الله معه، حين يرى بحكمته أنها لازمة "(٢).

وفي تعليقه على تأويل يوسف – عليه السلام – لرؤيا الملك يقول: " والهبة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء " (٣).

ويأتي كثيرا في حديث سيد – رحمه الله– عن آيات الأنبياء التي أيدهم الله بها تصديقا لهم، أو إجابة لطلب أو تحدي الناس، تسميته لها بالمعجزات، وإثباتها للأنبياء – كما سيأتي ذلك مفصلاً بعد قليل – مما يدل على أنه – رحمه الله – يطلق لفظ المعجزة على ما كان خارقاً للعادة من آيات الرسل

---

(١) المصدر السابق ٢٢٣٧/٤.

(٢) في ظلال القرآن ٢٠٤٨/٤.

(٣) المصدر السابق ١٩٩٣/٤ .

وبياناتهم التي أيدهم الله بها على سبيل التحدي أو بدونه .
كما يقرر سيد – رحمه الله– أن هذه المعجزات والخوارق التي يأتي بها الرسل ليست من عمل الرسل – عليهم السلام – ولا في مقدورهم، إنما يبعث بها الله معهم حيث يرى بحكمته أنها لازمة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد " (١).

" فالمعجزات تشهد بأن الله وراءها، وأن قوة الله تؤيدها، وتؤيد من جاءت على يده " (٢)، " فكل خارقة جاء بها نبي إنما جاء بها من عند الله " (٣).

" وقد بين الرسل لقومهم أن الإتيان بالخوارق من شأن الله، ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية وذواتهم البشرية، وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذي لا يلتبس بمشابهة في ذات ولا صفات، وهي المتاهة التي تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات المسيحية عندما تلبست بالوثنيات المختلفة، وكانت نقطة البدء في المتاهة هي نسبة الخوارق إلى عيسى–عليه السلام– "(٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٠٤٨/٤ .
(٢) المصدر السابق ٤٠١/١ .
(٣) في ظلال القرآن ١ /٣٩٩ بتصرف يسير .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩١ بتصرف يسير .

٢- تفسير سيد قطب للمعجزات والخوارق:

يقرر سيد- رحمه الله -"أنه ليس هناك جدية آلية في الخلق والإنشاء، ولا في الحركة والحدث والنواميس التي يراها الناس مطردة في الكون - بوجه عام - ليست قوانين آلية أنشاها الله وسلطها، لتعمل بذاتها آليا وحتميا، ولكنها تطرد - على الجملة - لأن قدر الله في شانها يطرد في غير جبرية آلية فيها، وفي غير حتمية على الله سبحانه وتعالى في أطرادها، إنما هي مشيئته وحكمته تجريها هكذا كما أرادها، وقد يجري غيرها في تعلق مشيئته وحكمته به، فيجري قدره بما يشاء، وهكذا تقع المعجزات الخارقة لما يسمى بالقوانين الطبيعية، فالنار قد أودعها الله خاصية حرق الأجسام، كما أودع الأجسام خاصية الاحتراق بالنار، ولكن مشيئته جرت بقدر غير هذا في حادث إبراهيم - عليه السلام - { قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ } [سورة الأنبياء:٦٩-٧٠] والناس يتعاملون مع النواميس الثابتة - في جملتها - وقد شاء الله أن يجعلهم قادرين على إدراك بعض هذه النواميس، والتعامل معها على ثبات نسبي بها، يسمح لهم باستخدام حصيلة تجاربهم في تعاملهم مع سنة ثابتة، وأن تكن لا آلية ولا حتمية، لا بالقياس إلى الله -

سبحانه– ولا بالقياس إلى ذاتها كذلك.

وفي تصور المسلم لا يقوم " السبب " ولا العادة، ولا المألوف من النواميس، حاجزاً بين العبد وإرادة الله به، وبالوجود كله من حوله، في كل حالة، وفي كل لحظة...

فالمشيئة الإلهية في تصورها– كما هي في الحقيقة – طليقة من وراء تلك النواميس، ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة، ويأخذ بالأسباب التي تتلاءم مع هذه النواميس لأنه مأمور أن يأخذ بها – وأخذه بها عبادة وطاعة – ويتعامل مع سنة الله وهو يعلم أن لا تبديل لسنة الله، لا بسبب حتميتها على الله، ولا بسبب جبرية آلية فيها هي ذاتها، ولكن الله أراد ألاَّ يبدلها، وجرى قدره باطرادها – إلا أن يشاء غير ذلك – مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه، وفي هذا يختلف التصور الإسلامي تماماً ويتميز عن كل تصور آخر" (١).

ويقول أيضاً: " فلا عجب من أمر الله، فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل، فعندما يشاء الله لحكمة يريدها، يقع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التي لا نعلم حدودها، ولا نحكم عليها.. والذين يقيدون

---

(١) مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – ص٦٣-٦٤ بتصرف يسير .

مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله– سبحانه – في كتابه...

نعم إن الله – سبحانه – يجري هذا الوجود وفق النواميس التي قدرها له، ولكن هذا شيء والقول بتقييد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر! إن الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها، فهو لا يجري ولا ينفذ آلياً، فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ما قدره الله ولم يقف الناموس في وجه القدر الجديد، ذلك أن الناموس الذي تتدرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق.. "[1].

ويقرر سيد " أن عصر الخوارق لم يمضِ! فالخوارق تتم في كل لحظة – وفق مشيئة الله الطليقة – ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها، وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها، ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً، ويلابسون آثارها المبدعة "[2].

---

(١) في ظلال القرآن ١٩١٢/٤ بتصرف يسير ، وينظر أيضا ١٣٨٣/٣ ، ٢١٥٠/٤، ٢٢١١ .

(٢) المصدر السابق ١٨٩٣/٤.

" إننا لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعاً ولا دلالة من جريانه على ألسنة الخارقة للمألوف، فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر، إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهي معهودة كل يوم- وإن ولادة كل طفل خارقة -وهي تقع كل لحظة - وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! "(١).

" ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة.. فإن القمر في ذاته آية أكبر! هذا الكوكب بحجمه، ووضعه، وشكله، وطبيعته، ومنازله، ودورته، وآثاره في حياة الأرض، وقيامه هكذا في الفضاء بغير عمد، آية كبرى قائمة دائمة توقع إيقاعها وتلقي ظلالها، وتقوم أمام الحس شاهداً على القدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عناداً أو مراءً! " (٢).

ويقول أيضا: " إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم، وإن كان لا

---

(١) المصدر السابق ٣٩٧٧/٦.

(٢) المصدر السابق ٣٤٢٧/٦ بتصرف يسير .

يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق.

٣- الرد على المنحرفين في تفسير الخوارق والمعجزات:

يقول سيد - رحمه الله- عند حديثه عن الطير الأبابيل في سورة الفيل: " وتختلف الروايات في تحديد نوع الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها، كما يروى أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة، ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عليها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير كل ما يطير...

ثم نقل عن الإمام محمد عبده تفسيره لحادثة الفيل بما سبق وقوله: " وهذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل، إن صحت روايته"، وعقب عليه سيد - رحمه الله- بقوله: " ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أو غيرها من الروايات التي تصف الحجارة بأنها كانت تخرق الرؤوس والأجسام.. لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله، ولا أولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن

حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت فأهلكت قوماً أراد الله إهلاكهم، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، فسنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وعرفوه، فهذه الخوارق – كما يسمونها– هي من سنة الله، ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهده وما عرفه البشر.

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها – متى صحت الرواية – أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم " (١).

فأما في هذا الحادث بالذات، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأن الله أرسل طيراً أبابيل غير معهودة، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود.. لأن جو الملابسات للحادث يتناسق مع كونه على غير المألوف والمعهود، إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية من تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٩٧٦ – ٣٩٧٧ بتصرف .

المألوف المكشوف من السنن الكونية، حيث كانت تواجه النزعة الخرافية الشائعة، وسيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير، والفتنة بالعلم الحديث، وموجة الشكّ في مقررات الدين، فقامت هذه المدرسة بمحاولة ردَ الاعتبار للدين، باعتباره موافق للعقل، وتنقيته من الخرافات، لكن ذلك أدى إلى المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل المألوف من السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله ولهذا شاع في تفسير الإمام وتلاميذه (١) جميعاً الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف السنن، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه " المعقول "، وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات، ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر من التصور القرآني الكامل، وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن المألوفة منها وغير المألوفة "(٢).

" فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة

---

(١) منهم الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي- رحمهما الله- كما أشار إلى ذلك سيد - رحمه الله - .

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٧٧/٦ - ٣٩٧٨ بتصرف .

حسب ما اعتاده ورآه، ولكن المعتاد ليس هو الحكم " [١].

٤- موقف سيد قطب من آيات الأنبياء ومعجزاتهم:

آيات الأنبياء هي أدلتهم وبراهين صدقهم كما سماها الله آيات وبراهين[٢]، وقد بعث الله الأنبياء لهداية الناس، وأيدهم بالبينات كدليل على صدقهم، قال سبحانه {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ } [سورة الحديد:٢٥]. يقول سيد: " فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق، وبعضهم أنزل عليه كتاب "[٣].

وتحدث سيد –رحمه الله – في مواضع كثيرة عن آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وقارن بينهما وبين آيات نبينا محمد –ﷺ– ، ورجح أن آية نبينا محمد ﷺ باقية على مر الأيام والسنين، شاهدة شهادة صدق دائم لا يغيب – وسيأتي بيان ذلك في المبحث الخاص بنبوة نبينا محمد – ﷺ – قريبا.

*** ويقسم سيد المعجزات إلى قسمين:**

١- معجزات حسية: وهي الآيات المتعلقة بالكون والأفاق، وهي

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢١١ .

(٢) النبوات : لابن تيميةص٥.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٤٩٤.

كما يقول: " تدهش القلب البشري في طفولته، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل – صلوات الله عليهم – قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق" (١).

لتي كانت تصاحب الرسالات لتصديق الرسل، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب، لم يكن يؤمن بها إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم " (٢).

<u>٢- معجزات غير مادية:</u>

يقول سيد: " اقتضت التجارب البشرية أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها، لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته، وبناء على ذلك فقد كانت معجزة الإسلام هي القرآن، معجزة باقية للأجيال إلى يوم القيامة، يخاطب الفكر والقلب والفطرة، ويقيم منهجاً للحياة، أما الخارقة المادية فهي

---

(١) المصدر السابق ٣٤٢٧/٦.

(٢) في ظلال القرآن

تخاطب جيلاً واحداً من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل"[1]، وهذا من الفروق بين آية خاتم النبيين وآيات من سبقه – كما سيأتي –.

أما تفاصيل آيات الأنبياء ومعجزاتهم، فقد وقف سيد – رحمه الله– في ظلال الآيات القرآنية التي تتحدث عن معجزات وآيات الأنبياء مثبتاً لها، ويمكن الإشارة إلى بعض معجزات الأنبياء التي تعرض لها سيد–رحمه الله – إجمالاً، حيث يقرر الآتي:

أ– أن الأنبياء بعثوا بما يدل على صدقهم من الآيات والبينات، وبعضهم جاء بالمعجزات والخوارق[2].

ومن الأنبياء الذين تعرض سيد – رحمه الله– للحديث عن معجزاتهم وآياتهم وخوارقهم:

١– نوح –عليه السلام– وكانت آيته: في تحديه لقومه وهو وحيد، وفي الطوفان [3] .

٢– صالح –عليه السلام– وكانت معجزته: " الناقة " [4]

٣– إبراهيم –عليه السلام – وكانت معجزته: خروجه من النار سالما [1]

---

(١) المصدر السابق ٢٢٣٧/٤ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٣٤٩٤/٦.

(٣) المصدر السابق ١٨٧٥/٣ وما بعدها و٣٧١٦/٦.

(٤) المصدر السابق ١٩٠٨/٤، ٢١٥١ ، ٢٦١٢/٥ .

٤- داود -عليه السلام - وكانت آياته: تسخير الجبال والطير يسبحن معه، وإلانة الحديد له. (٢)

٥- سليمان- عليه السلام- وكانت آياته: تسخير الريح والجن، ومعرفة لغات الطير والحشرات والحيوانات. (٣)

٦- يوسف عليه السلام: وكانت آيته: تفسير الرؤيا. (٤)

٧- موسى عليه السلام: وكان أكثر الأنبياء آيات ومنها: العصا، واليد، والبحر، والجراد، والقمل والدم، والضفادع، والجبل، والماء، وغيرها. (٥)

٨- عيسى عليه السلام: ومن آياته: خلقه من غير أب، وكلامه في المهد، وإحياء الموتى، وإبراء المرضى، والإخبار عن بعض المغيبات. (٦)

ب - أن آيات ومعجزات الأنبياء كانت متناسقة مع العصر الذي جاءوا فيه، فآيات يوسف-عليه السلام- كانت متناسقة مع

---

(١) المصدر السابق ٢٣٨٧/٤.

(٢) المصدر السابق ٢٣٩٠/٤ ، ٢٨٩٧/٥، ٣٠١٧ .

(٣) المصدر السابق ٤ /٢٣٩١ ، ٢٦٣٦/٥، ٢٨٩٨ .

(٤) المصدر السابق ١٩٩٣/٤ .

(٥) في ظلال القرآن ٧٢/١-٧٣ ، ٨٠٠/٢، ٨٦٩ ، ١٣٤٧/٣، ١٣٥٦، ١٣٥٨ ، ٢٢٥٢/٤، ٢٣٣٢، ٢٣٤٠ ، ٢٥٩٠/٥.

(٦) المصدر السابق ٢٨٢/١، ٣٩٥، ٣٩٩ ، ٢٣٠٤/٤، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨ .

جو العصر الذي يعيشه من الاهتمام بالرؤيا وتأويلها [١]، وآيات موسى -عليه السلام- كانت متناسقة مع جو السحر الذي كان منتشراً في عصره[٢]، وآيات عيسى- عليه السلام- كانت متناسقة مع العصر الذي جاء فيه وطبيعة مولده [٣].

---

(١) المصدر السابق ٤/١٩٩٣.

(٢) المصدر السابق ٤/٢٣٤٠ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٩٩ .

المطلب السادس

التفاضل بين الأنبياء والرسل

وفي هذا المطلب أجمل بعض القضايا المتعلقة بالأنبياء والرسل والتفاضل بين إفراد هذا الموكب الكريم – عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين– وذلك فيما يأتي:

أولاً: أول الأنبياء وأول الرسل:

دلت النصوص الصحيحة على أن آدم –عليه السلام – هبط إلى الأرض موحداً، وأنه عاش مع بنيه على التوحيد " فهو نبيٌ مكلمٌ " كما جاء في الحديث (1)، وهذا على اعتبار أن النبي من بعث في قوم موافقين، فآدم بعث بشريعة وعلمها أبناءه لأنه لم يكن قبله شرك ولا انحراف عن التوحيد.

أما أول الرسل فالراجح والصواب أنه نوح –عليه السلام– حيث دلت النصوص على أن الانحراف وقع بعد آدم بعشرة

---

(1) الحديث رواه الإمام أحمد 265/5 وابن حبان في صحيحة 69/14 والحاكم في المستدرك 262 . وقال على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، لنظر : مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ، المكتب الإسلامي – بيروت – ط3 عام 1405هـ ، 1599/3.

قرون[1]، وأن الناس وقعوا في الشرك والوثنية، فبعث الله إليهم أول رسله نوحاً- عليه السلام - " باعتبار أن الرسول من بعث إلى قوم مخالفين " [2].

- وقد ذكر البعض أن أول الرسل هو إدريس -عليه السلام - [3]، لكن الراجح عند الجمهور هو أنه نوح -عليه السلام - [4].

أما سيد - رحمه الله- فكان موافقاً للجمهور حيث يرى أن أول الرسل بعد - آدم عليه السلام - هو نوح - عليه السلام - حيث صرح بذلك في مواطن متعددة.

يقول سيد: "هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه، وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى"[5].

" فالإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم

---

(١) تفسير الطبري ١/١٩٤ ، والأثر رواه الحاكم ٢/٥٤٦ ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، وقال صحح على شرط البخاري ووافقه الذهبي ، وله شاهد حسن من حديث قتادة بسند صحيح ٠

(٢) فتح الباري ١١/٤٣٤ .

(٣)النبوات لابن تيمية ص ٢٥٥ ، وشرح الطحاوية ص ١٥٥

(٤) فتح الباري ١/١٥.

(٥) في ظلال القرآن ٤/١٨٨٢.

-عليه السلام- أبي البشر الأول، ثم على يدي نوح -عليه السلام- أبي البشر الثاني، ثم بعد ذلك على يدي كل رسول"(١).

ويقول: " ونوح -عليه السلام- كان أول هؤلاء الرسل بعد آدم -عليه السلام- وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض وممارسته لهذه الحياة، ولعله كان معلماً لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد.. واتخذوا لهم أصناماً آلهة... فأرسل الله إليهم نوحاً يردهم إلى التوحيد، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود، والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس -عليه السلام - سابقاً لنوح، ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب "(٢)، "ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس -عليه السلام- ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم -عليه السلام- وليس من أنبياء بني إسرائيل، فلم يرد ذكره في كتبهم، والقرآن الكريم يصفه بأنه كان صديقاً نبياً ويسجل له أن الله رفعه مكاناً علياً، فأعلى قدره..

---

(١) المصدر السابق ١٩٤٣/٤-١٩٤٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣٧١٠/٦.

وهناك رأي نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه، ويقول به بعض الباحثين في الآثار المصرية، وهو أن إدريس تعريب لكلمة " أوزريس " المصرية القديمة، كما أن يحيى تعريب لكلمة "يوحنا" وكلمة اليسع تعريب لكلمة "إليشع "، وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة، فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم، وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق " بأوزريس " الذي جعلوه إلهاً لهم، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء.

وعلى أية حال فنحن نكتفي بما جاء عنه في القرآن الكريم، ونرجح أنه سابق على أنبياء بني إسرائيل "(١).

وقد صرح سيد- رحمه الله – في مواضع كثيرة بأن أول موكب الرسل هو نوح –عليه السلام- وان آخرهم محمد – ﷺ –. (٢)

<u>ثانياً: أولو العزم من الرسل:</u>

الأنبياء – كما سبق- هم صفوة الله من خلقه، والرسل هم الصفوة من الأنبياء، ونص الكثير من أهل العلم على أن أفضل المرسلين هم: أولوا العزم منهم، وهم الذين خصوا بالذكر

---

(١) المصدر السابق ٢٣١٣/٤ ، وينظر أيضا ٢٣٩٢/٤.

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ١٨٧٠/٣، ١١٤٣ ،٢٨٢٩/٥، ٣١٨٥ ، ٣٧٠٩/٦ .

مجتمعين في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا } [سورة الأحزاب:٧] وفي قوله تعالى: { شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ } [سورة الشورى:١٣].

وأختص نبينا – ﷺ – عن غيره من الأنبياء والرسل، فنال بذلك التفضيل المطلق على العالمين من الجنة والناس والملائكة المقربين " (١).

يقول سيد – رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى} [سورة الأحزاب:٧] : " ومناسبة ما سطر في كتاب الله، وما سبقت به مشيئته، ليكون هو الناموس الباقي والمنهج المطرد، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة، والنبي– ﷺ – وأولي العزم من الرسل خاصة، في حمل أمانة هذا المنهج، والاستقامة عليه، وتبليغه للناس، والقيام عليه في الأمم التي أرسلوا إليها... إنه

(١) ينظر : لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٤٩/١– ٥٠ ، ٢٩٤/٢ – ٢٩٥ ، والفرقان لابن تيمية ص ١٠ .

ميثاق واحد مطرد من لدن نوح – عليه السلام– إلى خاتم النبيين محمد – ﷺ –، وقد عم النص أولاً {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ}، ثم خصص صاحب القرآن الكريم، وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين " وَمِنْكَ "، ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل، وهم أصحاب أكبر الرسالات– قبل الرسالة الأخيرة –{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى}(1).

ويقول أيضا: " وقد كان لإبراهيم – عليه السلام – أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض –كلمة التوحيد – وإبلاغها إلى الأجيال من بعده، عن طريق ذريته وعقبه، ولقد قام بها من بنيه رسل كان منهم ثلاثة من أولي العزم: موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل– عليهم صلوات الله وسلامه "(2).

ثالثاً: التفاضل بين الرسل:

لا يمنع اتفاق الأنبياء في الدعوة من كونهم متفاضلين في الدرجات، فهناك نصوص صريحة في تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وبعض الرسل على بعض.

---

(1) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٢٩ – ٢٨٣٠ بتصرف يسير .

(2) المصدر السابق ٥/٣١٨٤ .

يقول سيد – رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا } [سورة الإسراء:٥٥] : " فالعلم المطلق لله... وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض، وهو تفضيل يعلم الله أسبابه "(١).

أما مظاهر التفضيل فقد تحدث عنها سيد – رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: {تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ } [سورة البقرة:٢٥٣] بقوله: " هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات – كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس – فهي تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض، وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره والتفضيل هنا قد يتعلق: –

* بالمحيط المقدر للرسول والذي تشمله دعوته ونشاطه، كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال.

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٣٤ .

* كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته.

* كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وقد ذكر النص هنا مثالين في موسى وعيسى - عليهما السلام - وأشار إشارة عامة إلى من سواهما: {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ}، وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى - عليه السلام - ومن ثم لم يذكره باسمه، وذكر عيسى بن مريم - عليه السلام - وهكذا يرد اسمه منسوباً إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية، والحكمة في ذلك – الرد على الأساطير الشائعة حول عيسى–عليه السلام– وبنوته لله – سبحانه– وازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت... وغيرها من الأساطير... ولم يذكر النص هنا محمداً - ﷺ - لأن الخطاب موجه إليه، كما جاء في الآية السابقة في السياق {تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ }... الخ، فالسياق سياق إخبار له عن غيره.

وحين ننظر إلى مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية نجد محمداً - ﷺ - في القمة العليا،

وسواءً نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها، فإن النتيجة لا تتغير " [1]، وسيأتي الحديث عن تفاصيل أفضلية الرسول- ﷺ - قريبا.

هذه ما يتعلق بالتفاضل بين الأنبياء، أما وجه الجمع بين هذه النصوص، وبين قوله - ﷺ -: لا تفاضلوا بين أنبياء الله " [2]، وقوله -ﷺ - " لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بساق العرش، فلا أدري هل آفاق قبلي أو كان ممن استثني"[3]، وقوله ﷺ: " لا يقولن أحدكم أني خير من يونس بن متى" [4] وفي لفظ " ما ينبغي - لا ينبغي - لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " [5].

فقد ذكر بعض العلماء خمسة من أجوبة عما ورد من النهي

---

(١) في ظلال القرآن ٢٨٢/١ – ٢٨٣ بتصرف يسير .

(٢) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء ١٢٥٤/٣ برقم ٣٢٣٣ ، ومسلم : كتاب الفضائل برقم ٢٣٧٣ .

(٣) رواه البخاري : كتاب الخصومات ٤/ ١٤٧٠برقم ٢٤١١ ، ومسلم : كتاب فضائل موسى ١٤٧١/٤برقم ٢٣٧٣ .

(٤) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ١٢٥٤/٣برقم ٣٢٣١ .

(٥) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٤١٦ ، ٣٦٣٠ ، ومسلم : كتاب الفضائل باب ذكر موسى برقم ٢٣٧٧ .

عن التفضيل بين الأنبياء مع ثبوته في الكتاب والسنة:

الأول: أنه- ﷺ - قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فلما علم أخبر به.

الثاني: أنه قال ذلك أدباً وتواضعاً.

الثالث: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول.

الرابع: أن النهي عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة كما هو مشهور في سبب الحديث.

الخامس: أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة، فلا تفاضل فيها، وإنما التفاضل بخصائص وفضائل أخرى [١] .

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/١٠٨-١٠٩ ، وفتح الباري لابن حجر ٦/٤٤٦، ٤٥٢ ، ٥٢٠- ٥٢١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨- ١٦٤ ، والوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا – المكتب الإسلامي – بيروت – ط٩، ١٣٩٩هـ ص ٢٠٤-٢٠٨.

المطلب السابع

وقفة مع كلام سيد قطب عن موسى- عليه السلام-

يكثر الكلام حول طعن سيد - رحمه الله- في نبي الله موسى – عليه السلام –، حيث أورد د/ ربيع المدخلي تحت عنوان " أدب سيد مع رسول الله وكليمه موسى – عليه السلام – "(١)، كلاماً لسيد - رحمه الله- في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم " وعلق عليه بأن سيداً – رحمه الله– نسى الآيات التي تبين إكرام الله لموسى أو تناساها لينسجم ذلك مع سخريته بهذا النبي الكريم، والتشنيع والذم والتحقير له (٢).

ولابد من إيضاح بعض القضايا حتى تستبين لنا حقيقة الأمر وذلك من خلال الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: لا شك أن الذي يقرأ ما كتبه سيد - رحمه الله- عن موسى – عليه السلام – في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم " يرى أن سيداً - رحمه الله-، أخطأ في عبارات

---

(١) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب . د/ ربيع المدخلي ص١٩-٢٣ ، والحد الفاصل ص١٢٣-١٢٥ ، ونظرات في كتاب التصور الفني ص٢٧-٣٠.

(٢) ينظر كلامه في : أضواء إسلامية ص٢٥ ، نظرات من كتاب التصوير الفني ، هوامش الصفحات ٢٧-٣٠ ، والحد الفاصل ص١٢٥.

ولا شك.

ولكن الذين نقلوا كلام سيد - رحمه الله- في التصوير الفني، وقيموه من خلاله غفلوا أو تغافلوا عن حقائق كان الواجب النظر فيها وهي كما يلي:

١- الحقيقة الأولى:

أن كتاب " التصوير الفني " ألفه سيد عام (١٩٤٥م) في بداية تحوله نحو الإسلام، بعد مرحلة الضياع والانحراف الفكري، وكان ينطلق في هذه المرحلة " الإسلاميات الفنية " من منطلق أدبي نقدي فني، وليس من منطلق ديني في تعامله مع النصوص القرآنية، حيث صرح سيد - نفسه- بذلك في مقدمة كتابه " مشاهد القيامة " وهو الكتاب الثاني في مشروع سيد الذي أعلن عنه بعنوان: " مكتبة القرآن الجديدة " ويعتبر مكملاً لكتاب " التصوير الفني " حيث وضح سيد: أن هدفه من هذا المشروع هدف **فني بياني أدبي جمالي**، وأنه ينظر في أسلوب القرآن بعين الناقد الأدبي، ويتدبره بحاسته الأدبية النقدية الذوقية، ويختتم كلامه بقوله: " وهدفي هنا فني خالص محض، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل، فإذا التقت في النهاية قداسة الفن بقداسة الدين، فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم

أتأثر بها "[1]، وفي خاتمة "مشاهد القيامة" يسوق كلاماً قريباً من هذا يوضح فيه أن بحثه في القرآن في تلك الفترة بحثاً فنياً محضاً بعيداً عن قضية العقيدة. [2]

وعندما نسوق مثل هذا الكلام ليس القصد التبرير لخطأ سيد – رحمه الله– فهو خطأ بلا شك، لكننا نسوقه لنعرف طبيعة المرحلة التي ألف فيها الكتاب الذي جاء فيه هذا الكلام، فهي مرحلة كان كلامه فيها منطلق من الفن والأدب لا من البحث الديني.

<u>٢– الحقيقة الثانية:</u>

بما أن كتاب " التصور الفني " كان في بداية تحول سيد – رحمه الله– نحو الدراسات الإسلامية بهدف فني نقدي، وإن له كتباً أخرى ألفها في مرحلته الإسلامية الأخيرة، فإنه ينشأ سؤال مهم وهو: ما موقف سيد قطب فيما يتعلق بنبي الله موسى – عليه السلام– في كتاباته التي كتبها في مرحلته الإسلامية؟ .

<u>والجـواب:</u> حتى يتبين لنا حقيقة موقف سيد – رحمه الله– النهائي في كتبه الإسلامية نستعرض كلامه حول الفقرات التي ذكرها في التصوير الفني، مع كلامه في الظلال، ونقارن بينهما

---

(١) ينظر: مقدمة مشاهد القيامة ص ٧–١٢ . والتصور الفني ص١٩٣ .

(٢) ينظر: خاتمة " مشاهد القيامة " ص٢٦٦–٢٧٢.

لنعرف هل هما متفقان؟ أم مختلفان؟ وفيما يلي مقارنة بين كلامه في " التصوير الفني " وكلامه في " الظلال " حول ما يتعلق بموسى – عليه السلام –.

أولا: حادثة قتل موسى – عليه السلام– للقبطي:

أ– يقول سيد في " التصور الفني": ".. لنأخذ موسى إنه نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج، فها هو ذا قد ربى في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قوياً { وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ }(١)، وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحاً، وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين {قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ } [سورة القصص:١٥ – ١٨] ، وهو تعبير مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفزع المتلفت

(١) سوره القصص : الآية: ١٥.

المتوقع للشر في كل حركة، وتلك سمة العصبيين أيضاً، ومع هذا، ومع أنه قد وعد بأنه لن يكون ظهيراً للمجرمين، فلننظر ما يصنع، إنه ينظر، {فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ} مرة أخرى على رجل آخر {قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ} ولكنه يهم بالرجل الأخر كما هم بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يذكره من يهم به بفعلته، فيتذكر ويخشى {فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ} [سورة القصص:١٨-١٩]، وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا " (١).

ب- كلام سيد – رحمه الله- حول الحادثة في ظلال القرآن الكريم:

استعرض سيد – رحمه الله- الآيات التي تتحدث عن قصة موسى – عليه السلام – في سورة القصص، وعندما وصل إلى الآيات التي تتحدث عن قتل موسى – عليه السلام – للقبطي، ذكر كلاماً طويلا ننقل هنا موضع الشاهد فقط.

---

(١) التصور الفني في القرآن ، سيد قطب ص١٦٤-١٦٥.

ففي ظلال قوله تعالى {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ } [سورة القصص:١٤] ، يقول سيد: " وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية، والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي، وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين... وسياق الحوادث يلهم أن موسى - عليه السلام - اعتزل القصر، ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها **نفس مصفاةً مجتباةً كنفس -موسى عليه السلام-** وخاصة وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع،... والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم بقوله: { وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ } يشير بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم.

ولما دخل المدينة وجد رجلين يقتتلان، أحدهما قبطي.. والأخر إسرائيلي.. فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجداً، ولعله عرف أن موسى من بني إسرائيل وأنه ناقم على الملك ومنتصر لقومه المضطهدين، ولم يعد متصلاً بالقصر، وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى - عليه السلام - فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد.

فوكز موسى-عليه السلام - القبطي وكزة واحدة فقتله، مما

يشير بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه، ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به ٠

ويبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي، ولم يعمد لأنه ندم على فعلته، وعزاها للشيطان وغوايته، فقد كانت من الغضب، والغضب شيطان، أو نفخ من الشيطان...

ثم يستطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب، ويعترف بظلمه لنفسه.. ويتوجه إلى ربه، طالباً مغفرته وعفوه.. واستجاب الله إلى ضراعته، وحساسيته، واستغفاره،... وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز في حرارة توجهه إلى ربه، أن ربه غفر له، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء فور الدعاء.. وعند ذلك يقطع على نفسه عهداً، ألا يقف في صف المجرمين ظهيراً ومعيناً، وهي براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها، حتى ولو كانت اندفاعاً تحت تأثير الغيظ، ومرارة الظلم والبغي، وهذه الإرتعاشة العنيفة، وقبلها الاندفاع العنيف، تصور لنا شخصية موسى - عليه السلام- شخصية انفعالية، حارة الوجدان، قوية الاندفاع، وهي سمة بارزة فيه تظهر في مواضع أخرى كثيرة...

ومر يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره، يترقب الافتضاح والأذى، ولفظ " يترقب " يصور هيئة القلق الذي

يتلفت ويتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة... وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ،...

وإذا بصاحبه الإسرائيلي مشتبك مع قبطي آخر، وهو يستصرخ موسى لينصره، كما فعل بالأمس، ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى.. وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه، ثم توجسه من الأذى المتوقع، فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه، ويصفه بالغواية والضلال... فاشتباكاته لا تثمر في هذا الوقت إلا الضرر لبني إسرائيل.

وانفعلت نفسه بالغيظ من القبطي، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس، ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى – عليه السلام– بالغيظ من الظلم، والنقمة على البغي، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، والتوفز لرد العدوان الطاغي، الطويل الأمد، الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخاديد...

ولقد طال الظلم ببني إسرائيل، فضاقت به نفس موسى – عليه السلام –حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله،.

ولذلك لم يتخل الله عنه، فالله يعلم أن للطاقة البشرية حداً للاحتمال، فلم يهول في وصف الفعلة التي فعلها موسى، كما أنه لا يبررها، ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية، وهو المختار ليكون رسول الله، المصنوع على عين الله، أو لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها.. كما كف الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان... وبعد أن نصحه الرجل المؤمن بالخروج {فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ }ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية، التو فز والتلفت، ونلمح معها التوجه المباشر بالطلب إلى الله والتطلع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة، وترقب الأمن.

وانتهى به السفر إلى ماء مدين.. وإذا به يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، السليمة الفطرة، كنفس موسى – عليه السلام– رجال يسقون دون النساء، فتقدم وسأل المرأتين فأطلعتاه على السبب، فثارت نخوة موسى – عليه السلام – وفطرته السليمة فسقى لهما، مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله وبقوته أيضا، ولعلها قوة نفسية، فإنما

يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب {ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [سورة القصص:٢٤]، ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن، والركن الركين، والظل الظليل "[١].

* وفي ظلال قوله تعالى لموسى {وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا} [سورة طه:٤٠]، يقول –سيد –: " وذلك حين كبر وشب في قصر فرعون، ثم نزل المدينة يوماً فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر مصري، فاستغاثه الإسرائيلي فوكز المصري بيده فخر صريعاً، ولم يكن ينوي قتله إنما كان ينوي دفعه، فامتلأت نفسه بالغم على هذه الفعلة وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته، وتحرج ضميره وتأثم من اندفاعه.. فربه يذكره هنا بنعمته عليه "[٢].

ثانياً: موقف النداء في الصحراء والتكليف بالنبوة:

أ– كلام – سيد– في "التصوير الفني" يقول: " فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادئ الطبع حليم النفس، كلا! فها هو ينادى

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦٨١/٥–٢٦٨٦ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٣٥/٤ .

من جانب الطور الأيمن، أن ألقِ عصاك، فألقاها فإذا هي حية تسعى، وما يكاد يراها حتى يثب جرياً ولا يعقب ولا يلوي، إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلاً، فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبة "(١).

ب- كلام سيد – رحمه الله- في الظلال: تحدث سيد قبل ذكر الحادثة عن تدبير الله لموسى – عليه السلام – وعنايته به رضيعاً، وطفلاً، وفي القصر، وبعد قتله القبطي، وفي خروجه من مصر إلى مدين، وفي عمله عند الشيخ وزواجه، وكل ذلك إعداداً له لتحمل تكاليف المهمة المنتدب لها، فلما استكملت نفس موسى – عليه السلام – تجاربها قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدةً به إلى مسقط رأسه ٠

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله، وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف، فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى، في طريقه إلى هذا التكليف، في طريقه، وهو يبحث لأهله عن جذوة من نار يصطلون بها، إذا به يتلقى النداء المباشر من الله،.. ووقف موسى في أكرم موقف يلقاه إنسان { فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ

(١) التصور الفني في القرآن : ص١٦٥ .

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [سورة القصص:٣٠-٣١] ،.. وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه، ولكن ماذا؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلاً، ويعرفها يقيناً، إنها حية تدب في سرعة، وتتحرك في خفة، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾، " إنها المفاجأة التي لم يستعد لها، مع الطبيعة الانفعالية، التي تأخذها الوهلة الأولى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها، وليتأمل هذه العجيبة الضخمة، وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في موعدها، ثم يستمع إلى ربه الأعلى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾، وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه، ومن ترعاه عين الله؟.

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعاً على هذه النفس، ويتعاورانها في جميع مراحل حياتها، إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها، وإن هذا الانفعال الدائم المقصود في تلك النفس، مقدر في هذه الحياة، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل، وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق "(١).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٩١-٢٦٩٢ بتصرف .

* وفي ظلال قوله تعالى: { وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ } [سورة الشعراء:١٠-١٣] ، يقول سيد: " والظاهر من حكاية قوله – عليه السلام – أن خوفه ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها { وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى } [سورة طه:٢٧-٢٨] ، ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً وهكذا، وهي حالة معروفة، فمن هنا خشي موسى أن تقع له وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالمٍ جبارٍ كفرعون، فطلب من ربه إعانته بأخيه هارون، وإشراكه معه في الرسالة إتقاءً للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف، فهارون أفصح لساناً ومن ثم هو أهدأ انفعالاً، فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق، نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان فهو الاحتياط للدعوة، حتى لا تبدو ضعيفة قاصرة.. وهذا هو الذي يليق

بموسى – عليه السلام– الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه " (١)

* وفي ظلال الآيات التي تتحدث عن الحادثة في سورة طه، يقول سيد – رحمه الله–: " إن القلب ليجفُ، وإن الكيان ليرتجف، وهو يتصور مجرد تصور ذلك المشهد.. موسى فريد في تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء... {وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ} فيا للتكريم! ياللتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار عبداً من العبيد.. وبعد أن يلخص له ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة: الاعتقاد بالوحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة، وهي أسس رسالة الله الواحدة،.. ولا بد أن يكون موسى قد نسي نفسه ونسي ما جاء من أجله، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه، وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب {وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ} فأجاب: {قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٨٥–٢٥٩٠ بتصرف .

وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ}

فيأتيه الأمر: {قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ} [سورة طه:٢٠-٢١] .

ووقعت المعجزة الخارقة... فدهش لها موسى وخاف.. ثم اطمأن والتقط الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى! عصا.

ثم تحدث سيد – رحمه الله– عن حوار موسى مع ربه بكلام قريب مما سبق في سورة الشعراء، حول مراحل رعاية الله لموسى – عليه السلام – من ولادته إلى لحظته، ووقف عند قوله تعالى: {وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ } قائلاً: " وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب {وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ } وكيف يصف لسان بشري خلقاً يصنع على عين الله؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه، إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعاً على عين الله؟ إنه بسببٍ من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه {وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي } خالصاً مستخلصاً ممحصاً لي ولرسالتي ودعوتي، وليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا، إنما أنت

للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها" (١).

ثالثاً: موقف مواعدة الله لموسى – عليه السلام – وعبادة قومه للعجل في غيابه.

أ- كلام –سيد– في التصوير الفني، يقول عن قصة السحرة: " ثم لندعه فترة أخرى، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه، لقد انتصر على السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعبر بهم البحر، ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور، وإنه لنبي، ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية {فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ } [سورة الأعراف:١٤٣] عودة العصبي في سرعة واندفاع!

ثم ها هو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلها، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يتريث وما يني {وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ } وإنه ليمضي منفعلاً يشد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣٠-٢٣٣٥ بتصرف .

رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولاً { قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } [سورة الأعراف:١٥٠] ، وحين يعلم أن "السامري " هو الذي فعل الفعلة، يلتفت إليه مغضباً ويسأله مستنكراً، حتى إذا علم سر العجل { قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا } [سورة طه:٩٧] ، هكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة "(١).

ب- كلامه عن الحادثة في الظلال:

عرض سيد - رحمه الله- وقفات كثيرة في ظلال الآيات التي تتحدث عن هذه الفترة من قصة موسى - عليه السلام - وهي الفترة من انتصاره على السحرة وخروجه ببني إسرائيل من مصر، وحتى عبادة قومه للعجل أثناء غيابه عنهم، وسأحاول تلخيص كلامه والاقتصار على موضع الشاهد منه:

* يقول بعد قصته مع السحرة وتآمر فرعون وملأه: "ويرفع الستار في السياق القرآني على مشهد النبي موسى - عليه

(١) التصوير الفني في القرآن ص١٦٥-١٦٦.

السلام – مع قومه، يحدثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره، ويوصيهم بالصبر والاستعانة بالله ويلوح لهم عن رجائه في ربه أن يهلك عدوهم، ويستخلفهم في الأرض، إنها رؤية " النبي " لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه، ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمل فيه، ولحقيقة السنة الإلهية.. ورؤية "النبي" لحقائق الوجود الكبرى، ويتبرم قومه ويمضي النبي الكريم على نهجه، يذكرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوح لهم بالأمل.. إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله، تجري وفق وعده، للصابرين، وللجاحدين"(١).

ويتحقق وعد الله لموسى – عليه السلام – فيهلك فرعون وجنوده في البحر، ويجاوز ببني إسرائيل، قال سبحانه وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ }
[سورة الأعراف:١٣٨] .

" إنه أمر غريب أن يطلبوا إلى نبيهم رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة! ولو أنهم اتخذوا آلهة لكان الأمر أقل غرابه.

ويغضب موسى – عليه السلام – غضبة رسول رب

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٥٥-١٣٥٦ بتصرف .

العالمين، لرب العالمين – يغضب لربه – سبحانه – ويغار على أُلوهيته أن يشرك بها قومه! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب: { إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }، على إطلاقه دون تحديد لمعنى الجهل،.. ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى – عليه السلام – على ربه والغضب له – سبحانه – والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم – وهي حاضرة ظاهرة ٠

ثم يأتي مشهد تهيؤ موسى– عليه السلام – للقاء ربه العظيم، واستعداده للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا، ليتلقى عنه، وكانت فترة التهيئة أربعين ليلة، روض فيها موسى نفسه على اللقاء الموعود، وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء، ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل، وتصفو روحه وتشف وتستضيء، وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة.

ثم يأتي المشهد الفذ الذي اختص الله به نبيه موسى– عليه السلام – مشهد الخطاب المباشر بين الجليل – سبحانه – وعبد من عباده { وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ } [سورة الأعراف:١٤٣] ، " إنها الوهلة المذهلة

وموسى يتلقى كلمات ربه، وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق! فينسى من هو، وينسى ما هو، ويطلب ما لا يكون لبشرٍ في هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود.. حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة {قَالَ لَن تَرَىٰنِى} ثم يترفق به الرب العظيم الجليل، فيعلمه لماذا لن يراه، إنه لا يطيق، {وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى} والجبل أمكن وأثبت، ومع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان البشري، ومع ذلك فماذا؟ {فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا}.

فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حين تشف أرواحنا وتصفو.. وأدركت موسى رهبة الموقف، وسرت في كيانه البشري الضعيف، {وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا}، {فَلَمَّآ أَفَاقَ} وثاب إلى نفسه، وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله {قَالَ سُبْحَٰنَكَ}تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك

{تُبۡتُ إِلَيۡكَ} عـن تجـاوزي للمـدى فـي سـؤالك، {وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} والرسـل دائمـاً هـم أول المـؤمنين بعظمـة ربهـم وجلاله، وبما ينزله عليهم من كلماته،..

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى، فإذا هو يتلقى البشرى بالاصطفاء على الناس، في زمانه بالرسالة، واصطفائه وتفرده – عليه السلام – بكلامه سبحانه وتعالى.. وأعطاه الألواح وفيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً، وأمره أن يأخذها بقوة وعزم، ويأمر قومه بذلك "(١).

وبينما كان موسى – عليه السلام – في حضرة ربه، في ذلك الموقف الفريد، الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار، وتدركـه الأرواح وتحـار فيـه الأفكـار، كـان قومـه مـن بعـده يرتكسون وينتكسون، ويتخذون لهم عجلاً جسداً له خوار يعبدونه من دون الله!... كل ذلك وموسى – عليه السلام– بين يدي ربه، في مناجاة وكلام، لا يدري ما أحدثوا بعده إلا أن ينبئه ربه "(٢) " وينبئـه ربـه بمـا كـان خلفـه {قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ} [سورة طه " ٨٥] ، وعاد موسى غضبان

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٦٥-١٣٧٠ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٣٧٣-١٣٧٤ بتصرف .

أسفاً يوبخ قومه، ويؤنب أخاه، عاد ليجدهم عاكفين على عجلٍ من ذهب، فراح يسألهم في حزن وغضب ويعتذرون بعذرٍ عجيبٍ يكشف عن نفسياتهم وما فيها من بلادة وتفاهة، وخلل في التفكير،.. فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه ولحيته في انفعال وثورة "(١).

" وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية، والنقلة بعيدة، وهي حركة تدل على شدة الانفعال، فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه، وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب"(٢).

"فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، ليسكن من غضبه، ويكشف له عن طبيعة موقفه "(٣) فتهدأ ثائرة موسى – عليه السلام – أمام هذا البيان، ويتجه بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة.. يسأله عن السبب، ويسمع جوابه وتملصه، فيعلن موسى – عليه السلام – طرده من جماعة بني إسرائيل، ويواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده، ليرى قومه

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٤٦/٤-٢٣٤٨ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ١٣٧٤/٣ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ١٣٧٤/٣، ٢٣٤٨/٤ بتصرف .

بالدليل المادي أنه ليس إلها { قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا } [سورة طه:٩٧] ،.. وفي حنقٍ وعنفٍ أمر أن يُهوى على عجل الذهب، فيُحرق ويُنسف ويُلقى في الماء، والعنف إحدى سمات موسى – عليه السلام – وهو هنا غضبه لله ولدين الله، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة "(١) .

رابعاً: قصته – عليه السلام – مع العبد الصالح:

أ- كلام سيد – رحمه الله- في " التصوير الفني، " يقول: " فلندعه سنوات أخرى، لقد ذهب قومه في التيه، ونحسبه قد صار كهلاً حينما افترق عنهم، ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه الله علماً، ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسر ما يصنع مرةً ومرةً ومرةً فافترقا، تلك شخصية موحدة بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة "(٢).

ب- كلام سيد – رحمه الله- في الظلال: يقول: " وهذه الحلقة

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٤٨-٢٣٤٩ بتصرف ، وينظر ٣/١٣٧٤-١٣٧٦.

(٢) التصوير الفني في القرآن : ص١٦٦.

من سيرة موسى – عليه السلام – إنما ذكرت في موضع واحد من القرآن(١)، والقرآن الكريم لم يحدد المكان، ولا التاريخ، وهل كانت في مصر؟ أم بعد خروجه منها؟ أم في التيه؟ وكذا لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح، من هو؟ ما اسمه؟ هل هو نبي أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولي؟... ويلتقي موسى بالعبد الصالح { قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا } [سورة الكهف:٦٦] ، بهذا الأدب اللائق بنبي، يستفهم ولا يجزم، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم.

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح، إنما هو جانب من العلم اللدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده، ومن ثم لا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبياً رسولاً، لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي، وبالأحكام الظاهرة، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة، وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار... وينبه الرجل الصالح موسى – عليه السلام – ويعزم على الصبر والطاعة ويستعين بالله، ويذكر له شرط صحبته ألا يسأله حتى يحدثه، ويرضى موسى.. ويقفا في

---

(١) سورة الكهف : الآية ٦٠–٨٢.

المشهد الأول، يخرق الرجل السفينة، - وهو عمل في ظاهره شر- وينسى موسى ما قاله وما قال له صاحبه أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي، فالإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد، ولكنه يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى، ولذا فموسى يندفع مستنكرا.

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته، منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي فقتله، ثم أناب إلى ربه مستغفراً معتذراً حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يقتتل مع مصري آخر، هم بالآخر مرة أخرى.

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة، ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذي قطعه أمام غرابتها، ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعاً وطعماً غير التصور النظري، ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها.

وبعد استنكاره يذكره العبد الصالح في صبر ولطف بما كان قد قاله منذ البداية.. ويعتذر موسى بنسيانه.. ويقبل الرجل اعتذاره.

ويأتي المشهد الثاني: قتل نفس عمداً، وهي فظيعة كبيرة لم

يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده،.. فليس ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً، ولكنه قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابا..

ويرده العبد الصالح إلى شرطه الأول ووعده، ويرجع موسى فيقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة.

ويأتي المشهد الثالث: أهل قرية بخلاء، والرجل الصالح يقيم لهم جداراً خوفاً من أن يسقط، فيشعر موسى بالتناقض في الموقف، ويسأل، وكانت هي الفاصلة، ولم يعد له بعدها من عذر، وينتهي السياق ببيان حقيقة الأمر في المواقف الثلاثة، وما فيها من مفاجآت وعجائب. (١)

هذه النقولات الطويلة من الظلال التي تعمدت نقلها للمقارنة بينها وبين ما جاء في " التصوير الفني " تبين لنا بوضوح أن حديث سيد – رحمه الله– عن نبي الله موسى – عليه السلام – اختلف في الظلال عنه في التصوير فكلامه في التصوير جاء مقتضباً موجزاً تبدو فيه الكلمات القاسية في وصفه لموسى – عليه السلام –.

أما في الظلال فقد استرسل في الحديث عن موسى – عليه

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٧٨–٢٢٨١ بتصرف .

السلام – في مراحل حياته، وخاصة المواقف التي أخذت عليه في " التصوير الفني ".

ومع بقاء بعض الألفاظ التي تصف موسى بالاندفاع والغضب وسرعة الانفعال والعصبية في بعض المواقف، إلا أننا نلمس من خلال السياق التي جاءت فيه، أنه لم يكن القصد منها الاستهزاء والسخرية والذم والتحقير لموسى – عليه السلام – كما يقوله البعض، فسيد – رحمه الله– كما لاحظنا من النقولات السابقة يتحدث في كل المواقف المذكورة عن موسى، مادحاً لنفس موسى – عليه السلام– المصطفاة المجتباة التي لا تستروح العيش في الأوضاع الآسنة، ويصفه بأنه أحسن مع الله فأحسن إليه وأن غضبه وانفعاله في حادثة قتل القبطي تدل على غضبه وغيظه من الظلم الذي طال ببني إسرائيل، والتوفز لرد العدوان، ويكثر سيد من ترديد عبارة " وهو المصنوع على عين الله "، ويصور غضب موسى – عليه السلام – على قومه في طلبهم آلهة بعد خروجهم من البحر، بأنه غضب لربه وأُلوهيته التي يجهلها قومه.

أما موقف النداء وطلبه رؤية الله، فإن كلام سيد – رحمه الله– يظهر فيه التعظيم والتبجيل والمدح والثناء لموسى – عليه السلام – وبيان إكرام الله له وتفرده بكلامه ويعلل سؤاله رؤية

الله بالشوق والحب لربه – سبحانه وتعالى –.

كما يمدح موسى – عليه السلام – في غضبه على قومه بشأن العجل، ويصور تصرفه مع الألواح ومع هارون ومع السامري بأنه: " غضب لله ولدينه، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة في مثل هذه المواقف ".

أما في قصته مع العبد الصالح فيظهر فيها ثناؤه على موسى، ويعلل عدم التزامه بوعده بالإضافة إلى شخصية موسى – عليه السلام – الاندفاعية، بأن الموقف في كل مره يستدعي الإنكار، فنفس موسى لا تطيق وهي المصنوعة على عين الله أن ترى منكراً أمامها لا مبرر له.

ومما سبق نستطيع أن نخلص إلى الآتي:

أولاً: أن عبارات سيد– رحمه الله– في الحديث عن نبي الله موسى – عليه السلام – اختلفت في الظلال عنها في التصوير الفني مع أنها في المواقف نفسها، مما يدل على أن كلامه السابق كان في مرحلة لها خصائصها وفي كتب كان لها أهدافها – كما سبق –.

ثانياً: مع وجود بعض العبارات في نصوص الظلال يصف فيها موسى – عليه السلام – بالانفعال والعصبية والاندفاع والغضب، إلا أن السياق الذي جاءت فيه هذه الألفاظ يدل على

أنها لم تأتِ على سبيل السخرية والذم، بل السياق يدل على المدح، بالإضافة إلى توضيح سيد – رحمه الله– في أكثر من موضع عند ذكر هذه الألفاظ للسبب وراء هذا الاندفاع والانفعال، ومن الأسباب التي ذكرها:

١– أن الله – سبحانه وتعالى – أراد أن تكون شخصية موسى – عليه السلام – شخصية انفعالية حادة في طبيعتها لتكون الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل، وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق "(١).

٢– أن الغضب والاندفاع وسرعة الانفعال من موسى – عليه السلام – في المواقف المختلفة كان غضباً لله وغيرة على ألوهيته– سبحانه – من تصرفات قومه الجاهلين بربهم، كما في طلبهم آلهة وفي اتخاذهم العجل في غيبته، وهي مواقف كما يقول سيد – رحمه الله– " يستحب فيها العنف وتحسن عندها الشدة " (٢).

٣– أن نفس موسى – عليه السلام – كانت نفساً أبيةً ترفض الظلم، وتتدفع في وجه المنكر، كما حدث في قصة قتله للقبطي، وفي إنكاره على العبد الصالح ما رآه منه من أعمال

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦٩٢/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٣٦٩/٣ ، ٢٣٤٩/٤ .

هي في ظاهرها مخالفات ومنكرات" (١).

ثالثا: مما يدل على تعظيم سيد - رحمه الله- لموسى -عليه السلام - ما جاء عنه في مواضع كثيرة من الظلال وغيره من مدحٍ وثناءٍ على هذا النبي العظيم يمكن أن ننقل عبارات منها:

* يصفه كثيراً بأنه رسول كريم، أجرى الله على يديه خوارق كثيرة " (٢).

* يصفه بأنه زعيم ومنقذ ورحمة من الله لبني إسرائيل، من حياة الذل والعبودية (٣).

* يصفه بالمعلم والمربي المشفق على قومه، فرغم سفاهتهم وانحرافهم، فقد تحمل - عليه السلام الرذالات والانحرافات والنتوءات التي صدرت من قومه، حرصاً على هدايتهم (٤).

* يذكر تفضيل موسى - عليه السلام - وانفراده بالتكليم من بين الرسل (٥).

* يصف موسى -عليه السلام- بأنه كان مخلصاً استخلصه الله

---

(١) المصدر السابق ٢٣٣٥/٤ ، ٢٦٨١/٥- ٢٦٨٦ .

(٢) المصدر السابق ٧٢/١- ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ٧٧/١ ، ٨٦٧/٢ ، ١٣٣٢/٣، ١٣٦٥ .

(٤) المصدر السابق ٧٨/١ ، ٨٦٩/٢، ٨٧١ .

(٥) في ظلال القرآن ٢٨٢/١ ، ١٣٦٨/٣، ١٣٧٠ ، ٢٣١٣/٤ .

له ومحضه لدعوته وكان رسولاً نبيا (١)

* يعرض صفحات من أخلاق موسى- عليه السلام – والمتمثلة في قوة إيمانه بربه، وثقته بوعده، والالتجاء إليه – سبحانه –في كل وقتٍ، ومفاصلته للعصاة والفاسقين، ويكرر دائماً في التعقيب على كثير من المواقف بان هذا " أدب النبي، الذي يليق بمن صنع على عين الله واستخلصه الله لنفسه "

* كثيرا ما يعقب على بعض مواقف موسى- عليه السلام – بقوله: " كيف وهو الذي صنع على عين الله " ويقف في ظلال قوله تعالى: {وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي } [سورة طه:٤١] ، قائلاً: " وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب... وكيف يصف لسان بشري، خلقاً يصنع على عين الله؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه.. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعاً على عين الله؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه "(٣).

---

(١) المصدر السابق ٢٣١٣/٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٧٨١/٢، ١٣٥٥/٣ ، ٢٣٣٢/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٣٣٥/٤ ، وينظر أيضا ٢٣٣٤/٤ .

المبحث الثاني

نبوة نبينا محمد ﷺ وما يتعلق بها

تقدم معنا أن الإيمان بجميع الأنبياء أصل من أصول الإيمان التي لا يكون العبد مؤمناً حتى يؤمن بها جميعاً، وأن الإيمان بهم إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل، ويخص نبينا محمد – ﷺ – بوجوب الإيمان به على التفصيل، لما له – فداه أبي وأمي – من فضائل وخصائص ميزه الله بها عمن سواه من الأنبياء والمرسلين فضلاً عن سائر البشر، ويرشد إلى هذا المعنى ما ورد في دعائه – ﷺ – في صلاة التهجد وفيه: ".. ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق "(١).

فقد ذكر ﷺ النبيين، وذكر نفسه بعد ذلك خاصة، ويدل ذلك على أنه ﷺ فاقهم بأوصاف مختلفة (٢).

لذا كان من المناسب أن يفرد خاتم النبيين وأفضلهم على الإطلاق ﷺ بمبحث مستقل، وذلك في المطالب الآتية:

---

(١) رواه : البخاري في التهجد ٣٧٧/١ برقم ١٠٦٩ ومسلم في صلاة المسافرين ٤٤٨/١ برقم ٧٦٩ .

(٢) فتح الباري : ٤/٣.

المطلب الأول: حاجة العلم إلى بعثته ﷺ وآثارها في البشرية.

المطلب الثاني: أدلة نبوته ﷺ.

المطلب الثالث: خصائصه ﷺ.

المطلب الأول

حاجة العالم لبعثة خاتم المرسلين – ﷺ – وأثارها في البشرية.

الفرع الأول: حاجة العالم لبعثة خاتم المرسلين محمد – ﷺ –:

في ظلال قوله تعالى {لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} [سورة البينة:١-٣] ، يقول سيد – رحمه الله–: " لقد كانت الأرض في حاجه إلى رسالة جديدة، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، ومنهج جديد، وحركة جديدة، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء.

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة، وإلا على يد رسول هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة {رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً} مطهرة من الشرك والكفر {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} والكتاب يطلق على الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب

القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة – وهي هذا القرآن – فيها كتب قيمة، أي موضوعات وحقائق قيمة.

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها، وجاء هذا الرسول في وقته، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثاً لا تصلح الأرض إلا به، فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة والى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم " السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي " بعنوان: " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وهو أوضح وأخصر ما قرأته في موضوعه:

يقول: " وكان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب، فضلاً عن

البيوت، فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفراراً من تكاليف الحياة وحدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة، والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل...

" وأصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المجرمين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة، والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشروعاً صافياً من الدين السماوي، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري" (١).

" هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حال البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية، وقد أشار القرآن إلى مظاهر

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي

هذا الكفر الذي شمل أهل الكتاب في مواضع شتى:

* من ذلك قوله تعالى عن اليهود والنصارى: { وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ } [سورة التوبة:٣٠] ، وقوله تعالى عن اليهود {وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ } [سورة المائدة:٦٤] وقوله تعالى عن النصارى: { لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ } [سورة المائدة:٧٢] و{لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ } [سورة المائدة:٧٣] وقوله تعالى عن المشركين: {قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ } [سورة الكافرون:١-٦] ، وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض.. " وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة قدسية على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية

على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء " (١).

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة، وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين " (٢).

ويتحدث سيد – رحمه الله– في مواضع كثيرة عن حالة العالم عموماً والعرب خصوصاً قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم مصوراً رجس الجاهلية، وأهمية بعثة الرسول ﷺ لتطهير العالم من هذا الرجس.

فيذكر كلام جعفر بين أبي طالب(٣) – رضي الله عنه – للنجاشي(٤) – وهو يصف حالهم في الجاهلية: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٤٨/٦- ٣٩٥٠ .

(٣) هو : جعفر بن أبي طالب ، بن عم الرسول ﷺ ،أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ،وقدم عام خيبر واستشهد في غزوة مؤتة ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠٦/١

(٤) هو : ملك الحبشة اصحمه بن أبجر ، اسلم في عهد النبي ﷺ وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، توفي قبل فتح مكة وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب ، انظر : الإصابة لابن حجر ١١٧/١ وسير أعلام النبلاء ٤٢٨/١

ونقطع الأرحام ونسيُ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف "[١].

ويستعرض –سيد– أيضاً رجس الجاهلية في باب العلاقات الجنسية، ويورد حديث عائشة – رضي الله عنها – وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية [٢]، والذي يظهر الصورة الهابطة الحيوانية المزرية التي تدل على هبوط التصور الإنساني وبهيميته، وهي لا تحتاج إلى تعليق، ويكفي تصور الرجل وهو يرسل امرأته إلى " فلان " لتأتي له منه بولدٍ نجيب، تماماً كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب... ويكفي تصور الرجال – ما دون العشرة! – يدخلون إلى المرأة مجتمعين – " كلهم يصيبها! ".. ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها!

أما البغاء – وهو الصورة الرابعة – فهو البغاء! يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة! وليس في ذلك معرة! إنه الوحل الذي كانوا غارقين فيه إلى الأذان.

ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفاً من

---

(١) الحديث : رواه أحمد ٢٠١/١ ، ٢٠٣ ، ٢٩٠/٥ ، وبن هشام في السيرة ٢٠٦/٢ وما بعدها وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية – المكتبة الإسلامية عمان ط ١ عام ١٤٢١ هـ ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) رواه : البخاري في كتاب النكاح باب لا نكاح إلا بولي ١٩٧٠/٥ برقم ٤٨٣٤ .

النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية، والمتمثلة في: أكل حقوقها، وحرمانها من الميراث، وعضلها بعد الطلاق أو وفاة الزوج، والتعامل معها كالمتاع الذي يورث، وتحريم بعض المأكولات عليها، والزواج بغير عدد محدد ووأد البنات أحياء وغيرها...

واستعرض- سيد- أيضاً أصل الرجس في الجاهلية وهو الشرك والوثنية الهابطة الساذجة في اتخاذ الأصنام، على مختلف المستويات، الفرد والبيت والقبيلة والمدينة، وعبادة الجن والملائكة والكواكب واعتقاد أن الملائكة بنات الله، واتخاذ الشفعاء والوسطاء وغير ذلك من الرجس الذي كان منتشراً في أوساط الجاهلية.

كما استعرض كذلك ما كان عليه الجاهليون من إراقة الدماء وكثرة الحروب لأسباب تافهة، وفراغ حياتهم من الاهتمامات الكبيرة التي تشغلهم عن السفاسف "[١].

وأما وضع أهل الكتاب فكان أكثر انحرافاً وضلالاً [٢].

(١) ينظر: في ظلال القرآن ١/٧٠٥-٥١١ وينظر أيضا ٣/١١٨٣ ، ٦/٣٩٩٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/٦٧٩ ، ١٦٣٤- ١٦٤٢ .

الفرع الثاني: أثر بعثه ﷺ على البشرية:

أما أثر بعثته ﷺ فتبدو واضحة في تطهير البشرية وتنقيتها، فالله- سبحانه - بعث محمداً - ﷺ - " ليطهر الناس ويرفعهم وينقيهم، يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم"(١)

" أما العرب فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها بالدين، فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين "(٢).

" أما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد

---

(١) المصدر السابق ١ /٥٠٧ .

(٢) المصدر السابق ٣١٩١/٥ بتصرف يسير ، وينظر ٢/ ٦٨٥ – ٦٨٦ .

بدأت منذ اللحظة الأولى، بدأت في تحويل خط التاريخ، منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني، منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه، إنها ليست الأرض وليس الهوى، إنما هي السماء والوحي الإلهي.... ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة – الإسلام – في كنف الله ورعايته، يحسون يد الله تنقل خطاهم في الطريق،...

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد ولد الإنسان من جديد.... لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط، وكما لم يتحول من بعد أيضاً، وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق، وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ولا الأحداث، وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة، ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعاً، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية، ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض! وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ

وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } [سورة الأنفال:٤٢] ، إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة، الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد، والذي كان فرقاناً في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل "(١).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٣٧/٦ – ٣٩٣٨ بتصرف ، وينظر أيضا ١/١٣٧– ١٣٩ .

المطلب الثاني

أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ

أشار سيد – رحمه الله– في معرض حديثه عن نبوة نبينا محمد – ﷺ – في مواضع متفرقة إلى بعض أدلة نبوته – ﷺ – ، وقد سبق الإشارة إلى أدلة نبوة الأنبياء عموماً في المبحث السابق، وسنفرد هنا الأدلة الخاصة بنبوة محمد – ﷺ – وهي:

أولاً: البشارات في الكتب السابقة:

ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة أن الكتب القديمة فيها بشارات نبوة نبينا– ﷺ –، وأنه ذكر باسمه وبصفاته ومن ذلك:

١– قوله تعالى: {وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ} (١).

يقول سيد – رحمه الله–: " فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن، كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين، ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة، وينتظرون هذا الرسول، ويحسون أن زمانه قد أظلهم، ويحدث

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٩٦– ١٩٧ .

بعضهم بعضاً بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي [١]، ولسان عبد الله بن سلام [٢] – رضي الله عنهما – والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين " [٣].

٢– قوله تعالى: { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ } [سورة هود:١٧] ، يقول سيد – رحمه الله–: " وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى: { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ }، وفي قوله تعالى: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ}، وفي عائد هذه الضمائر في: " رَبِّهِ " وفي " يَتْلُوهُ " وفي " مِنْهُ ".. وأرجحها كما يبدو لي هو أن المقصود بقوله تعالى: { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ } هو رسول الله – ﷺ – وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به وأن المقصود بقوله تعالى: {وَيَتْلُوهُ

---

(١) هو : سلمان أبن الإسلام ، أبو عبد الله الفارسي ، صحب رسول الله – ﷺ – وخدمه وحدث عنه عمر طويلاً وولي المدائن وكان متواضعاً مصدق بعطائه توفى في المدائن سنة ٣٦ هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٥٠٥/١ والإصابة ٢٢٣/٤ .

(٢) هو : عبد الله بن سلام الإسرائيلي ، أبو يوسف حليف الخزرج قيل اسه الحصين فسماه رسول الله – ﷺ – عبد الله ، مشهور له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ٤٣هـ انظر التهذيب ٤٢٢/١ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٧ ، وينظر ٨٤/١ .

شَاهِدٌ مِّنۡهُ } أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر { وَمِن قَبۡلِهِۦ } أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن { كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ } يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ سواء بما تضمنه من البشارة به، أو بموافقة أصله لما جاء به محمد ﷺ من بعده، ويكون المعنى الكلي للآية: فهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه، حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه، وحيث يتبعه أو يتبع يقينه هذا شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني، وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله، هو كتاب موسى الذي جاء إماماً لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تتنزلت عليهم، وهو يصدق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الإعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله..

يقول: أفمن كان هذا شأنه يكون موضعاً للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد " [١].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٦٤– ١٨٦٥ بتصرف يسير .

٣- قولــه تعــالى: { ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ } [سورة الأعراف:١٥٧] ، يقول سيد – رحمه الله-: " وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى – عليهما السلام – منذ أمد بعيد، جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته، وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل- على يد نبيهم موسى عليه السلام – كشف الله –سبحانه- عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن أتباعه، وعن مستقر رحمته، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين: وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام – وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه – يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في" استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به " (١).

٤- قوله تعالى عن عيسى –عليه السلام- {مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ } [سورة الصف:٦] ، يقول سيد – رحمه الله-: " وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٧٨/٣ بتصرف يسير .

النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها، فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن.

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: { ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ } [سورة الأعراف:١٥٧] ' وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بكتمها!

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية، ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم، فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه "(١).

"وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال: " أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥٥٧ .

أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام ". (1)، (2).

ثانياً: قرائن أحواله – صلى الله عليه وسلم –:

اشرنا فيما سبق عند الحديث عن دلائل نبوة الأنبياء عموما إلى أن أحوالهم – عليهم السلام– من الأمور التي يستدل بها على صدق نبوتهم، ونذكر هنا بعض النصوص الخاصة بنبينا – ﷺ – ومنها:

١- في ظلال قوله تعالى {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ } [سورة التكوير:٢٢] يقول سيد –رحمه الله–: " أما الرسول الذي حمله إليكم فهو " صَاحِبُكُمْ " عرفتموه حق المعرفة عمراً طويلاً، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون، وتذهبون في أمره المذاهب، وهو " صَاحِبُكُمْ " الذي لا تجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين...

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون رجاحة عقله، وصدقه وأمانته وتثبته... "(3)

٢- في ظلال الآيات التي تتحدث عن اقتراحات المشركين

---

(1) رواه : الحاكم ٢٢٨/٨ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٢٠/١ وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٥٤٥ وصحيح السيرة النبوية ص ١٦ .

(2) في ظلال القرآن ٣٥٦٥/٦ وينظر أيضا : ٢٠٦٥/٤ الهامش ٢

(3) في ظلال القرآن ٣٨٤٢/٦ .

وطلبهم الآيات من الرسول – ﷺ – يقول سيد – رحمه الله–: " ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه جيداً بالخبرة الطويلة ما يدلهم على صدقة وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف، وقد هاجر ﷺ وترك ابن عمه علياً – رضي الله عنه – يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده، وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقناً كأمانته، فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا – حين أمره ربه بذلك – وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق "[١]، فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان، ولقد كانوا يعلمون: إنه لصادق، وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه أنهم لا يكذبونه { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ } [سورة الأنعام:٣٣] فهي الرغبة في الإنكار والإعراض، وهو العناد

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٢٦١٩/٥ .

والاستكبار عن الحق، وليس أنهم يشكون في صدقه ﷺ "[١]
"فالمشركون لم يكونوا يشكون في صدق محمد ﷺ فلقد عرفوه صادقاً أميناً، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة، وحتى الذين كانوا يتزعمون معارضته لم يكونوا يشكون في صدق رسالته، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله.

ومع ذلك – كانوا يرفضون إظهار التصديق، والدخول في دينه لا شكاً في صدقه، ولكن لأن في دعوته خطر على نفوذهم ومكانتهم،...

وقد أورد سيد – رحمه الله– روايات عديدة من السيرة، توضح أن المشركين والمعاندين لرسول الله – ﷺ – كانوا على يقين بصدق نبوته ﷺ، وتحدثهم فيما بينهم بذلك، واعترافهم بان الذي حملهم على الكفر به هو الحسد والكبر" [٢].

" فإذا كان محمد ﷺ كما يعلمون عنه قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون، فكيف يكذب على الله، وينسب إليه قولاً لم يقله "[٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٤٠ .
(٢) المصدر السابق ٢/١٠٧٤ – ١٠٧٧ بتصرف ، وأيضا ٥/ ٣٠٠٨ – ٣٠٠٩ .
(٣) المصدر السابق ٥/٢٥٥١ يتصرف يسير .

وبقرائن الأحوال أيضاً استدلت خديجة – رضي الله عنها – على صدق نبوته ﷺ بقولها: " والله لا يخزيك الله أبداً، انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرئ الضيف، وتعين على نوائب الحق" (١).

كما يلفت القرآن الكريم أنظار المشركين إلى حياة النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه، فقد لبث فيهم عمراً كاملاً من قبل إرساله – أربعين سنة – فلم يحدثهم بشيء من هذا القرآن، لأنه لم يكن يملكه، ولم يكن قد أوحي إليه به، ولو كان في استطاعته عمل مثل هذا أو أجزاء منه، فلماذا تأخر عمراً كاملاً؟ ألا إنه الوحي"(٢).

ثالثا: شهادة الله – تعالى – لنبيه ﷺ بالنبوة:

شهادة الله – سبحانه – لنبيه ﷺ بالنبوة دليل شرعي عقلي، جاء به الشرع وأيده العقل، قال تعالى: { لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا } [سورة النساء:١٦٦] يقول سيد – رحمه الله–: " فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة، وهي جارية على سنة الله

---

(١) سبق تخريجه ص٨٦٧ ، وانظر في ظلال القرآن ٣٩٣٦/٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١٧٧١/٣ بتصرف .

في إرسال الرسل، مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وهم يعترفون بالرسل قبل محمد – ﷺ – فإذا أنكروا رسالتك – يا محمد – فلا عليك منهم فلينكروا {لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا }.

وفي هذه الشهادة من الله.. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله.. إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب، فمن هم والله يشهد؟ والملائكة تشهد؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية؟! [(١)].

وفي ظلال قوله تعالى: {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ } [سورة الرعد:٤٣] . يقول سيد – رحمه الله-: "ويختتم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة، وقد بدأها بإثبات الرسالة، فيلتقي البدء والختام، ويشهد الله مكتفياً بشهادته، وهو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب" [(٢)].

رابعا: القرآن الكريم.

يعتبر سيد قطب – رحمه الله- القرآن الكريم أقوى حجة

---

(١) في ظلال القرآن ٨١٢/٢بتصرف يسير ، وينظر أيضا ١٠٤٥٦/٢

(٢) في ظلال القرآن ٢٠٦٥/٤ .

وأظهر برهان على صدق نبوة رسولنا محمد – ﷺ – حيث يذكر في ظلال الآيات التي تتحدث عن طلب المشركين للآيات الدالة على صدق نبوته – ﷺ- غفلة المشركين عن الآية الخارقة الدالة على صدق نبوته – ﷺ- وهي هذا القرآن. ففي ظلال قوله تعالى: { وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ } [سورة الرعد:٢٣] . يقول سيد – رحمه الله-: " وهؤلاء العمي الذين لا يرون آيات الله في الكون، ولا يكفيهم هذا القرآن، فإذا هم يطلبون آية... أما القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله، فلا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن، وهذا القرآن بين أيديها، هذا القرآن العميق التأثير، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض، ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية، قال سبحانه: {وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا } [سورة الرعد:٣١] أي أن هذا القرآن عجيب فلو كان من شان قرآن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات لكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء "(١) وبالتالي "

---

(١) في ظلال القرآن ٢٠٥٩/٤، ٢٠٦١ بتصرف .

فإن الذين يطلبون الآيات والخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على طفولتهم العقلية، ويعلقوا إيمانهم بالرسول ﷺ عليها يغفلون عن الخارقة الباقية في القرآن، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس"(١).

وفي ظلال قوله تعالى: { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٌ مِّنۡهُ } [سورة هود:١٧] ، يقول سيد – رحمه الله–: والراجح– كما يبدو لي– هو أن المقصود بقوله تعالى: " أفمن كان على بينة من ربه " هو رسول الله – ﷺ – وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به وأن المقصود بقوله تعالى: " ويتلوه شاهد منه " أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته، وهو هذا القرآن، الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر " ومن قبله " أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن، " كتاب موسى " يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ"(٢)، " فالسياق يذكر أن هذا القرآن الذي يشهد للنبي ﷺ بأنه على بينة من ربه، وأنه مرسل من

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢٥٠/٤ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ١٨٦٤/٤ .

عنده "[1]، واقتراح المشركين برهاناً على أن رسول الله ﷺ مرسل من الله في صور مختلفة كلها تبين مدى التعنت والجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه ما يدل على صدقة وأمانته...

ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون، فإن هذا القرآن شاهد بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير على أنه من عند الله وهم كانوا يحسون ذلك ويعرفونه "[2] فالقران إذاً هو المعجزة الخالدة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وسيأتي بيان لأنواع الإعجاز في القرآن الكريم عند الحديث عن معجزاته ﷺ إن شاء الله.

خامساً: معجزاته وآياته – صلى الله عليه وسلم –:

من دلائل صدق نبوته ﷺ والأنبياء قبله كذلك ما يؤيدهم الله به من المعجزات والآيات الخارقة، وقد سبق معنا أن المعجزات والخوارق على نوعين:

حسية مادية: وهي ما يكون من الآيات الكونية، ومعنوية: كالقران الكريم.

والذي يظهر من خلال جمع كلام سيد – رحمه الله– حول

---

(١) المصدر السابق ٤/١٨٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٤٠ بتصرف يسير .

موضوع المعجزات والخوارق أنه يرى أن هناك فرقا بين المعجزة والخارقة، فالمعجزة ما كانت على سبيل التحدي، لإثبات نبوة النبي ﷺ بينما الخارقة ما وقع من غير تحدٍ، وإنما لابتلاء الناس وفتنتهم أو كنوع من رحمة الله وعنايته بالنبيﷺ وأصحابه وقت الشدائد ومن هذا المنطلق يرى سيد – رحمه الله– أن معجزة النبي ﷺ التي أيده الله بها وقام بها التحدي هي القرآن الكريم، وهو معجزة تناسب كون الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ رسالة خاتمة للرسالات باقية إلى قيام الساعة، ولم يجعل معجزته في خارقة مادية تنتهي بانتهاء من يشاهدها، وهذا هو الفارق بين معجزته ﷺ ومعجزات الأنبياء قبله.

ويؤيد هذا الرأي بنصوص قرآنية منها قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا } [سورة الإسراء:٥٩] " فالأنبياء كلهم طولب بالآيات والخوارق، وكلهم تمنى لو يأتي الله بخارقة يذعن لها المكذبون، ولكن ما من آية إلا بإذن الله، في الوقت الذي يريده الله "(١).

" ومن خلال قصص الأنبياء وخاصة قصة موسى – عليه

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠٩٩ .

السلام – والذي كانت آياته وخوارقه المادية أكثر من غيره، يظهر لنا صدق قول الله تعالى وتقريره بان الآيات والخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهل للإيمان "[1]، " فقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهي الهلاك بالعذاب ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا بها، ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق "[2]، " والسبب في ذلك أن الأولين الذين جاءتهم الخوارق المادية وكذبوا حق عليهم الهلاك، وأمة محمد – ﷺ – لم يقدر عليها الهلاك، لذلك لم يرسل الله نبيه – ﷺ – بالخوارق المادية "[3]. " فالله سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة معجزاً في كل ناحية "[4]. "لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة

---

(١) المصدر السابق ٣١٩٣/٥ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٢٢٣٧/٤ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٣٦/٤ بتصرف يسير .

(٤) المصدر السابق ٢٥٨٤/٥ .

على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل. والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى، لا واقعاً يشهد، فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً كتاب مفتوح ومنهج مرسوم، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم ويلبي حاجاتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل، وأفق أعلى، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيراً مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته، ويبقى رصيده لا ينفد، بل يتجدد، ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى، فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين "[١]. " فالقرآن معجزة مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل "[٢].

وبناءً على ما سبق فإن سيد قطب – رحمه الله– يرى أن القرآن هو معجزة النبي ﷺ الخارقة الباقية المتحدى بها، وأما الآيات والخوارق التي حصلت للنبي ﷺ فإنما كانت إكراما له وأصحابه أو فتنة للناس، ومن هنا يمكن أن نستعرض موقف

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٨٥ .

(٢) المصدر السابق ٤/٢٣٧٠ .

سيد قطب – رحمه الله– من المعجزات والآيات النبوية فيما يأتي:

١– القرآن الكريم:

يعتبر سيد قطب – رحمه الله– القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة المطلقة، والتي وقع بها التحدي ولا يزال، وقد سبق بيان أن القرآن من أعظم دلائل نبوة النبي ﷺ، وهنا نتعرض لإعجاز القرآن وأوجه الإعجاز فيه عند سيد قطب – رحمه الله– وذلك كما يلي:

أ– القرآن الكريم معجزة هذا الدين الخالدة:

في ظلال قوله تعالى: { وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ } [سورة يونس:٢٠] . يقول سيد – رحمه الله–: "فكل الآيات التي يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم،.. وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل في الأمم قبلهم، غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية، وطبيعة معجزتها، فهي ليست معجزة وقتية تنتهي بمشاهدة جيل، إنما هي المعجزة الدائمة التي تخاطب القلب والعقل في جيل بعد جيل "[(١)]. "لقد كانوا يطلبون آية خارقة، كالخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة،

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٧٢/٣ .

ولا يقنعون بآية القرآن الباقية، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد، وتعلن عهد الرشد الإنساني، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي، والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة المادية، بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى يوم القيامة.

كانوا يطلبون خارقة، ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة، وإهلاكهم في الدنيا، ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها – كما وقع في الأقوام قبلهم – فيحق عليهم الهلاك، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن "[١]، " ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كلها معها، ولكنه – مع هذا – يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير، بنفس الحيوية، ونفس الواقعية

---

(١) المصدر السابق ١٠٧٩/٢ .

التي له هناك يومذاك "(١).

ب- التحدي بالقرآن الكريم:

وقع التحدي للمشركين بالقرآن الكريم على عدة صور:

الأولى: التحدي بأن يأتوا بمثله. ومن ذلك قوله تعالى: { قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [سورة الإسراء:٨٨] وقوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ } [سورة الطور:٣٣-٣٤]، حيث يرى سيد - رحمه الله- أن المشركين تلقوا هذا التحدي بالعجز، ووقفوا تجاهه صاغرين، ولذلك راحوا يطلبون الخوارق المادية هروباً من التحدي "(٢).

الثانية: التحدي بعشر سور من القرآن:

وذلك في قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ } [سورة هود:١٣] " وهي نفس المقولة التي رددوها

(١) في ظلال القرآن ٣٤٨/١ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٢٢٥٠/٤ ، ٣٣٩٩/٦ .

مراراً: إن هذا القرآن مفترى، فتحدّهم إذن أن يفتروا عشر سورٍ كسوره، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء "(١).

الثالثة: التحدي بسورة واحدة:

وذلك في قوله تعالى: { وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [سورة البقرة:٢٣] ،وقوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [سورة يونس:٣٨] ففي هاتين الآيتين يتحدى الله المكذبين أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن الكريم وليدعوا من يستطيعون جمعهم، وليدعوا من يشهد لهم بهذا – من دون الله – فالله قد شهد لعبده بالصدق في دعواه، وقد ثبت هذا التحدي، وثبت العجز عنه، وما يزال ثابتاً ولن يزال، فقد ظل التحدي قائما في حياة الرسول – ﷺ – وبعدها، وما يزال قائماً إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها، وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزاً واضحاً وقاطعاً، وسيظل أبداً تصديقاً لقوله تعالى: { فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا }

---

(١) في ظلال القرآن ١٨٦١/٤ .

[سورة القرة:٢٤] ، والتحدي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة، وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها، ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً، فلو أنهم جاءوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك فالخطاب للناس جميعاً، ولو أنه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية "[1].

ج- مراحل التحدي ورأي سيد قطب فيها:

ذكر سيد – رحمة الله-: " أن المفسرين القدامى يقولون إن التحدي بالقرآن كان على الترتيب: بالقرآن كله، ثم بعشر سورٍ، ثم بسورةٍ واحدةٍ.

بينما ترتيب آيات التحدي في سور القرآن ليس كذلك، ففي سورة البقرة كان التحدي بسورة، وكذا في سورة يونس، وفي سورة هود كان التحدي بعشر سور، وفي سورة الإسراء والطور كان التحدي بالقران كله.

ويرى سيد أن الترتيب الذي قال به المفسرون القدامى ليس

(١) ينظر في ظلال القرآن ٤٨/١ ، ١٧٨٤/٣-١٧٨٥ بتصرف .

عليه دليل، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور.

وحقيقة أن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود، والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز.

ولقد حاول- السيد رشيد رضا – في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد "عشر سور" علة، فأجهد نفسه طويلاً – رحمة الله عليه – ليقول: إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشراً، فتحداهم بعشر، لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه، واحتياج المتحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى "(١).

ونحسب – والله أعلم – أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد، وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول، لأن

---

(١) تفسير المنار : ١٢/٢٩-٣٠ .

القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة، فيقول مرة: ائتوا بمثل هذا القرآن، أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور، دون ترتيب زمني، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن، كله أو بعضه أو سورة منه على السواء، فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار، وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة، ولا يلزم ترتيب، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة، فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن. ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن "(١).

<u>د- أوجه التحدي بالقرآن الكريم:</u>

تحدث سيد - رحمه الله- عن إعجاز القرآن الكريم، وأوجه هذه الإعجاز في مواطن متفرقة من كتبة وخاصة " التصوير الفني " و" الظلال " أما " التصوير الفني " فكان حديثة مقتصراً على الإعجاز البياني للقرآن الكريم وما يتفرع عنه، أما حديثة في "الظلال " فقد تحدث عن أنواع كثيرة من الإعجاز في القرآن

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٦١-١٨٦٢ بتصرف يسير.

الكريم، وفي وقفات مطولة، يصعب نقلها كلها، ولذا فسأحاول تلخيص كلامه عن إعجاز القرآن الكريم وأوجه هذه الإعجاز في ما يلي:

١- إعجاز القرآن الكريم إعجاز مطلق وشامل:

يقرر سيد – رحمه الله- في مواضع كثيرة أن إعجاز القرآن الكريم إعجاز مطلق، وأنه دليل على أنه كلام الله تعالى، وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ، فيقول: " إن هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه، من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة، في أي زمان وفي أي مكان، لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلي آخر الزمان"(١).

ويقول: " إن في هذا القرآن سراً خاصاً، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس... هذا العنصر يصعب تحديد

(١) المصدر السابق ١٤٢١/٣ .

مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟

ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء، ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله:

* في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل، لحقيقة وجود الله - سبحانه - وحقيقة الوجود الكوني والإنساني.

* وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري.

* وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها، والاستواء على أفق واحد فيها كلها، مما لا يعهد إطلاقاً في أعمال البشر،

فهذه الظواهر المدركة.. وأمثالها.. مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره، يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور، وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه، ويحترم نفسه ويحترم الحقيقة التي تطالعه بقوة

وعمق ووضوح، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم"(١)

" وقد ثبت هذا التحدي، وثبت العجز عنه، وما يزال ثابتاً ولن يزال، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية الإنسانية، والأصول التشريعية، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة.. كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه..

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها..

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني،

---

(١) في ظلال القرآن ٣٣٩٩/٦ بتصرف يسير .

يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب، والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي، والإنساني بصفة عامة، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً "(١).

" ومن ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئاً من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال، وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول، على توالي الأزمان! "(٢).

<u>٢- أنواع الإعجاز في القرآن الكريم:</u>

كان حديث سيد - رحمه الله- عن الإعجاز في تفسيره الحروف المقطعة في فواتح السور، وفي تفسيره لآيات التحدي في سورة البقرة ويونس وهود والإسراء والطور، وفي وقفته أمام الآيات التي تبين موضوع القرآن الكريم وسماته وخصائصه الدالة على مصدره.

وكانت أكثر وقفاته في الظلال عن الإعجاز في تفسيره لآية التحدي في سورة يونس، تحدث فيها عن الإعجاز البياني والموضوعي والإعجاز في التأثير والأداء.

---

(١) المصدر السابق ١٧٨٥/٣ .

(٢) المصدر السابق ٢٦٥٧/٥ .

وكان سيد – رحمه الله– يريد أن يستدل بإعجاز القرآن الكريم على مصدره الرباني، وأن يتوصل به إلى أن القرآن الكريم كلام الله، فلم يكن حديثه عن الإعجاز من أجل الإعجاز أو من أجل عرض أساليب البيان أو فنون البلاغة في القرآن الكريم كما فعل بعض من كتب عن الإعجاز [١].

ومن أنواع الإعجاز التي تحدث عنها سيد قطب– رحمه الله– ما يأتي:

أولاً: الإعجاز البياني:

تحدث سيد – رحمه الله– عن الإعجاز البياني في القرآن الكريم وما يتفرع عنه من إعجاز في الأداء والتعبير والعرض والتأثير والتصوير في مواطن متعددة يمكن إيجازها فيما يلي:

١– الإعجاز في الأداء والتعبير:

يقول – رحمه الله–: " إن هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه، من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة في أي زمان وفي أي مكان.. لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان!

فهذا جانبه التعبيري، ولعله كان بالقياس إلى العرب في

---

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي ص٣٧١ . وينظر :في ظلال القرآن ١/٣٨ ،٤٩ ،٢/٨٢١ – ٨٢٢ ،١١١٢ – ١١١٣ . .

جاهليتهم أظهر جوانبه - بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني، ويتفاخرون به في أسواقهم! - ها هو ذا كان وما يزال إلى اليوم معجزاً لا يتطاول إليه أحد من البشر، تحداهم الله به وما يزال هذا التحدي قائماً، والذين يزاولون فن التعبير من البشر، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز.. سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أو لا يؤمنون.. فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس موضوعية يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون.. وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن - في جاهليتهم - ما لا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم - وهم جاحدون كارهون - كذلك يجد اليوم وغداً كل جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون! ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد "[١].

ويقول: " فهذا القرآن الكريم بخصائصه الموضوعية والتعبيرية، بهذا الكمال في تناسقه، لا يمكن أن يكون مفترى... والذين يدركون بلاغة هذه اللغة، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان....

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٢١/٣ .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها..

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب "(١).

وقد عرض سيد – رحمه الله– مزايا الأداء القرآني ومنها: –

<u>أ– دقة التناسق بين العبارة والمدلول: –</u>

يقول سيد: " إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آنٍ واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال، ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية

---

(١) المصدر السابق ٣/١٧٨٥ – ١٧٨٦ بتصرف يسير .

في هذا المجال، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً "(١).

ب- تنوع مدلولات النص القرآني:

يقول سيد: " وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني.. هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات، وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مصوغ ابتداءً لهذا المجال ولهذا الموضع! وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها "(٢).

ج- استحضار المشاهد واستحيائها:

يقول سيد: " وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد، والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضراً بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر، ولا

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٨٧/٣ ، وينظر أيضا ٣٩٦٤/٦ .

(٢) المصدر السابق ١٧٨٧/٣ ، وقد أشار سيد إلى أمثلة من ذلك في مقدمة سورة يونس ، انظر ١٧٤٥/٣ وما بعدها .

يملك الأداء البشري تقليدها، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطربا غير مستقيم مع أسلوب الكتابة! وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر على طريقة الأداء القرآني في مثل هذه المواضع:

* { وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ } [سورة يونس:٩٠] .

" وإلى هنا هي قصة تحكى، ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد { ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ } ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ } [سورة يونس:٩١-٩٢] .

* {قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ }إلى هنا أمر يوجه ورسول يتلقى، ثم فجأة نجد الرسول يسأل القوم: {أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ } وإذا به يعود للتلقي في شان هذا الذي سأل عنه قومه – وأجابوه! {قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } [سورة الأنعام:١٩] وكذلك في الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات:

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ} [سورة الأنعام:١٢٨- ١٣٠] ، وأمثالها كثير في القرآن كله، وهو أسلوب متميز تماماً من الأسلوب البشري، وإلا فمن شاء أن يماري، فليحاول أن يعبر على هذا النحو، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم، فضلاً على أن يكون له هذا الجمال الرائع، وهذا الإيقاع المؤثر، وهذا التناسق الكامل! هذه بعض جوانب الإعجاز في الأداء نلم بها سريعاً "(١).

<u>٢- الإعجاز في التصوير: -</u>

وهو فرع من فروع الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ويقصد

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٧٨٧- ١٧٨٨ .

به: طريقة القرآن الكريم المعجز في التعبير عن المعاني المجردة، والأوصـاف المعنويـة، والحـالات النفسـية، والنمـاذج والحـوادث والقصص والمشاهد، بصورة حية شاخصة متحركة "[١].

وهذه النوع من الإعجاز البياني هو الذي بني عليه –سيد – نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم.

وقد عرض نماذج كثيرة من هذا اللون من ألوان الإعجاز البياني في القرآن الكريم تأخذ منها نموذجاً واحد فقط:

في ظلال قوله تعالى: { وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ } [سورة الأنعام:٥٩] ، يقول – رحمه الله–: " إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب..

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن – بأسلوبنا البشري المعهود – من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير

---

(١) ينظر : التصوير الفني في القرآن ص ٣٤-٣٥ بتصرف .

الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحي؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود.. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فجٍ ووادٍ، وهو يرتاد - أو يحاول أن يرتاد - أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط..

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصور آمادها الخيال.. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في

بضع كلمات.. ألا إنه الإعجاز!. الناطق بمصدر هذا القرآن "[1].
" ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال.. في هذا التعبير القصير.. من؟ إلا الله! "[2].

٣- الإعجاز الموضوعي:

موضوع القرآن الكريم دليل على أنه من عند الله، والإعجاز الموضوعي فيه شاهد على مصدره، ولم يقف سيد - رحمه الله- عند الإعجاز في الأداء والتصوير بل عرض أيضا للإعجاز في الموضوع الذي يعرضه السياق القرآني، والقران معجز بأدائه ومعجز بمضمونه [3].

وقد تحدث -سيد- عن الإعجاز الموضوعي في مواضع متعددة من الظلال، كان أشملها وأوفاها حديثه في ظلال آية التحدي في سورة يونس، فبعد أن ذكر جوانب من الإعجاز في الأداء قال: " ويبقى الإعجاز الموضوعي، والطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١١١١-١١١٢ وينظر ٢/١٧٩٠-١٧٩٢ .

(٢) المصدر السابق ٢/١١١٣ وينظر أمثلة أخرى في التصوير الفني في القرآن : ص ٣٦-٦١ ومشاهد القيامة كاملا .

(٣) المنهج الحركي في ظلال القرآن : د/ صلاح الخالدي ص ٣٠٠ ، وفي ظلال القرآن ٣/١٦٤٠، ١٧١٢ ، ٦/٣٤١٦ .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة، وقلبها الشاعر مرة، وحسها المتوفز مرة، ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبها من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها، وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق، وبهذا الشمول، وبهذه الدقة وهذا الوضوح، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً! "[١].

وقد عرض سيد – رحمه الله– وهو يتحدث عن الإعجاز الموضوعي عدة مزايا لمنهج القرآن الكريم في عرض موضوعاته، نقلها من كتابه " مقومات التصور الإسلامي " وهي:

أ– انه يعرض الحقيقة – كما هي في عالم الواقع – في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها.. وهو– مع هذا الشمول– لا يعقد الحقيقة، ولا يلفها بالضباب! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها، ولا يملك الأداء البشري هذا، فكل كاتب يخاطب

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٨٨/٣ .

مستوى معيناً، ولا يكاد غيره يفهم عنه...

ب- أنه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات " العلمية " والتأملات " الفلسفية " والومضات " الفنية " جميعاً، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب " الكل " الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية، إنما يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى، في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده...

ج- أنه يحافظ على إعطاء كل جانب من جوانب الحقيقة- المتماسكة والمتناسقة – في الكل المتناسق مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله – وهو الميزان- ومن الأمثلة على هذا التناسق في عرض حقيقة الألوهية والى جانبها قضية العبودية وما يلحق بها من قضايا الوجود الكوني والإنساني بحيث يبدو التناسق والتوازن، فتنال كل حقيقة منها نصيبها المتناسق مع عالم الواقع، فلا تطغى حقيقة على غيرها ولا تهمل ولا تضيع معالم بعض الحقائق في المشهد الكلي الذي تعرض فيه الحقائق

د- أنه يمتاز بالحيوية الدافقة المؤثرة الموحية – مع الدقة

والتقرير والتحديد الحاسم، وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا في الأسلوب البشري في التعبير، ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة.

هـ- أنه يقدم الحقائق- أحياناً- في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو، ومن هذا القبيل ما جاء في سورة الأنعام في تصوير حقيقة العلم الإلهي ومجالاته { وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ } [سورة الأنعام:٥٩] الآية. فهذه المطارح المترامية، الخفية والظاهرة، ليست مما يتوجه الفكر البشري إلى ارتيادها على هذا النحو، وهو في معرض تصوير شمول العلم، مهما أراد تصوير هذا الشمول، ولو أن فكراً بشرياً هو الذي يريد تصوير شمول العلم لاتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته.

ننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا

يقوله بشر فليس عليه طابع البشر"(١).

وبعد أن يعرض سيد – رحمه الله– لظلال الآية في كلام أدبي طويل لا يسع المجال هنا لذكره، يذكر أيضاً مثالاً آخر وهو قوله تعالى: { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ } [سورة سبا:٢] قائلا: "ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء، والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات، لا يصمد لها الخيال!

ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين! "(٢).

و– أن طريقة الاستدلال في هذا القرآن تقوم على الاستدلال بأشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه.. بحيث يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكررة، قضايا كونية كبرى

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٨٨/٣–١٧٩٠ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ١٧٩٢/٣ ، وينظر أيضا ١١١٢/٢–١١١٣ .

يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً، ويجعل منها منهجاً للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والمشاعر ومن الأمثلة لذلك الاستدلال بالآيات المعروضة على البشر في أنفسهم وفي زرعهم وفي الماء الذي يشربون وفي النار التي يوقدون وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات الحياة " (١). وغيرها من المشاهدات لينشئ بها عقيدة في نفوس المخاطبين " (٢).

" ثم يبقى وراء ذلك مادة القرآن وموضوعه، وما تتسع صفحات عابرة – في ظلال القرآن – للحديث عن مادة هذا القرآن وموضوعه، فالقول لا ينتهي والمجال لا يحد! وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات؟!

* منهج هذا القرآن العجيب في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود، بحيث يواجهها بجملتها، دون أن يدع جانباً منها لا يخاطبه، أو نافذة لا يدخل منها، ولا يدع هاتفاً فيها لا يلبيه.

* منهج هذا القرآن العجيب وهو يتناول قضايا الوجود، وتعامل الفطرة معها.

* منهج هذا القرآن العجيب وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية

---

(١) ينظر الآيات ٥٨ –٧٣ من سورة الواقعة .

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٧٩٢-١٧٩٤ بتصرف .

خطوة خطوة، في رفق وحيوية، ووضوح إلى القمة السامقة

* منهج هذا القرآن العجيب، وهو يلمس الفطرة الإنسانية، من حيث لا يحتسب أحدٌ، فإذا بها تنتفض وتستجيب، ذلك المنهج؟.. أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج..

إن الذي يكتب هذه الكلمات قضى - ولله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية الدارسة لهذا الكتاب خمسة وعشرين عاماً، يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب، في حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقته معارف البشر وما لم تطرقه - ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب.. ويرى.. يرى ذلك الفيض الغامر المنفسح الواسع في هذا القرآن، وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة، وتلك النقر الصغيرة.. وتلك المستنقعات الآسنة أيضاً "(١).

٤- الإعجاز في التأثير:

وهو من وجوه الإعجاز التي أشار إليها سيد - رحمه الله- وعرض صوراً منها، يقول: " إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٢١-١٤٢٣ بتصرف .

الذين لا يعرفون من العربية حرفا "[١]. ومن النماذج والصور التي عرضها سيد – رحمه الله– لتأثير القرآن في البشر:

أ– تأثير القرآن في النجاشي -رضي الله عنه– وفي أصحابه عندما تلا عليهم جعفر ابن أبي طالب –رضي الله – عنه سورة مريم، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع[٢].

ب– تأثر وفد النصارى الذين قدموا إلى النبيﷺ فسمعوا القرآن، وبكوا وآمنوا [٣].

ج– تأثر المشركين بالقرآن ومن ذلك عدة حوادث متفرقة رواها أصحاب السير[٤].

د– تأثر امرأة يوغسلافيه سمعت– سيد قطب– وهو يخطب على ظهر السفينة، ويقرأ القرآن [٥].

هـ– تأثر سيد نفسه، مع بعض رفاقه عندما سمعوا سورة النجم [٦].

ويبين –سيد – سبب هذا النوع من الإعجاز القرآني –الإعجاز في التاثير –فيقول: " إن في هذا القرآن سراً خاصاً،

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٨٦/٣ .

(٢) المصدر السابق ٩٦٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ٩٦٥/٢ .

(٤) المصدر السابق ٨٢٢/٢، ١٠٧٤-١٠٧٦ .

(٥) المصدر السابق ٨٢١/٢، ١٧٨٦ .

(٦) المصدر السابق ٣٤٢٠/٦-٣٤٢١ .

يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟! ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء، ثم يأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير"(١).

" إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتح القلب، وصفا الحس، وارتفع

---

(١) المصدر السابق ٣٣٩٩/٦ .

الإدراك، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان"(١).

" ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد، ذلك السلطان الذي له على الفطرة، متى خُلي بينها وبينه لحظة! وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب، وثقل فوقها الركام، تنتفض قلوبهم أحياناً وتململ تحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن...

ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين يستخفونهم – ويقولون لأنفسهم في الحقيقة –: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [سورة فصلت:٢٦] لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لا يقاوم! وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب! غير أن هذا القرآن يظل – مع ذلك كله – غلاباً.. وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر، حتى تتميز وتتفرد بإيقاعها، وتستولي على الحس الداخلي للسامعين، وتتحي ما عداها من قول البشر المحير الذي تعب فيه القائلون.

---

(١) المصدر السابق ٢٨٠٥/٥ وينظر أيضا " التصوير الفني في القرآن " ص ١١-٢٣ .

ثانياً: الإعجاز التشريعي.

أشار سيد – رحمه الله– إلى الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم في ظلال آية الدين في سورة البقرة حيث قال: " وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب أمام التعبير التشريعي في القرآن – حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل عميق الإيحاء قوي التأثير، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية، وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب، فينفي هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها، بحيث لا ينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينها وبين نقطة جديدة يقتضي الإشارة إلى الرابطة بينهما...

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني

المطلق على هذا النحو الفريد.

وذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادئ للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون كما يعترف الفقهاء المحدثون! "[1].

وبعد أن استعرض سيد – رحمه الله– عظمة التشريع الإسلامي في مسالة الدين وما يتعلق به، قارن بين عظمة وإعجاز القرآن في التشريعات والنظم وبين ما سواه من قوانين وتشريعات ومناهج بشرية، لا تثمر إلا الشقاء والعنت [2].

ثالثاً: الإعجاز الحركي.

ويقصد به: الإعجاز في مهمة القرآن الدعوية وطبيعته الحركية، وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى هذا النوع من الإعجاز في مواضع من الظلال منها:

حديثه عن بيان القرآن الكريم لطبيعة المعركة المستمرة بين المسلمين وأعدائهم، على اختلاف الزمان والمكان، حيث بين القرآن الكريم بياناً شاملاً شافياً وافياً معجزاً، سواءً طبيعة هذه المعركة أو أهدافهم منها، أو اتفاق جميع فئاتهم على تحقيقها،

(١) في ظلال القرآن ١/٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٣٥-٣٣٨ .

أو أسلحتهم المختلفة فيها. (١).

ففي مقدمة تفسير الجزء الثاني من سورة البقرة يقول سيد – رحمه الله–: " ابتداء من هذا الجزء – نجد التركيز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى – أمانة العقيدة، وأمانة الخلافة في الأرض باسم هذه العقيدة،.. وإعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة وشخصيتها المستقلة بقبلتها وشرائعها ومنهجها الشامل المتميز، وقبل ذلك بتصورها الخاص للوجود والحياة وعلاقتها بربها ووظيفتها في الأرض وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف في النفس والمال والشعور والسلوك "(٢).

" ومن خلال مراجعة نصوص القرآن في هذا الشأن ندرك طبيعة المعركة التي كان يخوضها القرآن وطبيعة الغاية التي كان يستهدفها في بناء الأمة المسلمة، وهي معركة ضخمة مع الدسائس والفتن والألاعيب والبلبلة والتلبيس والكذب، ومع الضعف البشري، ومداخل الفتنة ومسارب الغواية في النفس البشرية على السواء، وهي كذلك معركة للبناء والتوجيه وإنشاء التصور الصحيح الذي يمكن أن تقوم عليه الأمة المستخلفة في الأرض، والتي تتولى القيادة الرشيدة للبشرية جميعاً.

---

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي : ص ٣٨٣-٣٨٤ .

(٢) في ظلال القرآن ١٢٣/١ بتصرف يسير .

أما الإعجاز القرآني فيتجلى في أن هذه التوجيهات، وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشئ الجماعة المسلمة الأولى، هي هي ما تزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان، لا بل إن أعداءها التقليدين الذين كان يواجههم القرآن ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم، هم هم، ووسائلهم هي هي، تتغير أشكالها بتغير الملابسات وتبقى حقيقتها وطبيعتها، وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح، وإدراك موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص وذات التوجيهات، ونجد فيها معالم طريقها واضحة، كما لا تجدها في أي مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه.

ويظل القرآن الكريم كتاب هذه الأمة العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل الكامل، الذي تستمد منه منهج الحياة، ونظام المجتمع، وقواعد التعامل

الدولي والسلوك الأخلاقي والعملي، وهذا هو الإعجاز " [١].

وفي مقدمة تفسيره لسورة النساء يوضح سيد - رحمه الله- إن هذه السورة تمثل جانباً من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع، ونماذج من المجتمع الذي انبثق من خلال نصوص هذا القرآن، ونشأ من خلال المنهج الرباني.

حيث نلمح من منهج القرآن طريقة تعامله مع الجاهلية ورواسبها في النفس والمجتمع، وصراعها مع الحق، وكيف يرتقي هذا المنهج بالإنسان والحياة إلى القمة السامقة، وما هي الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي.

حيث نجد بيان حقيقة الربوبية ووحدانيتها، وحقيقة الإنسان وأصله وعلاقته بغيره، ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكاملي للجماعة المسلمة، وتنظيم العلاقات المختلفة بين

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٢٤ .

أفرادها، وحماية المجتمع من الفاحشة والوقاية منها، ونجد التشريعات الخاصة بالقيادة والطاعة والولاء والبراء والجهاد بأنواعه، وعلاقة الجماعة المسلمة بغيرها سلماً وحرباً، والحرب المشبوبة عليها وعلى عقيدتها وقيادتها من المنافقين وأهل الكتاب والمشركين عموما، حيث نجد المنهج الرباني الذي يأخذ بالجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة، والأحابيل الماكرة، يقودها ويوجهها ويحذرها ويكشف لها طبيعة أعدائها، وطبيعة المعركة التي تخوضها، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة وزواياها وجوانبها الخبيثة (١).

وبعد استعراض سيد - رحمه الله- لما سبق يقول: " ومن علامات الإعجاز في القرآن الكريم، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليدين الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة

---

(١) ينظر : المصدر السابق : ١/٥٥٤-٥٦٦ بتصرف .

وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة قبل أن يعزهم الله ويجمعهم بالإسلام، وبالقيادة المسلمة، وبالمنهج الرباني" (١).

رابعاً: الإعجاز العلمي.

ويقصد به: " مطابقة ما توصلت إليه الكشوف العلمية من حقائق ونظريات في الكون والآفاق والأنفس لما أشار إليه القرآن من الحقائق التي لم تكن معروفة للسابقين" (٢).

وقد انقسم العلماء إزاء هذا النوع إلى مؤيد ومعارض، ولكل منهما وجهة النظر التي انطلق منها، وأدلته في التأييد والمعارضة، (٣).

موقف سيد قطب من الإعجاز العلمي:

---

(١) في ظلال القرآن ٥٦٦/١ .

(٢) علم الإعجاز القرآني : د/ خليل رجب الكبيسي ، مركز عبادي ، صنعاء ، ط ١ عام ١٤٢٢هـ ، ص ١٨١ وما بعدها .

(٣) ينظر ذلك بالتفصيل في : المصدر السابق : ص ١٨١-١٨٧ .

أشار سيد – رحمه الله– في مواضع متعددة من " الظلال " و"المقومات " إلى موقفه مما يتعلق بقضية الإعجاز العلمي في القرآن عند حديثه عن بعض القضايا الكونية، وباستقراء كلامه حول الموضوع يمكن إيجاز موقفه في القضايا الآتية:

أولاً: موقف الناس من النظريات العلمية وعلاقتها بالقران:

أشار سيد– رحمه الله– إلى: " أنه وجدت في هذا العصر فتنة بالنظريات والبحوث والكشوف العلمية، جعلت بعض المهزومين أمام فتوحات العلم الحديث يحاولون أن يلتمسوا الموافقات بين النصوص القرآنية التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية، وبين النظريات والكشوف العلمية الحديثة، ليتخذوا منها سنداً لهذا القرآن ولهذا الدين! وهو اتجاه خاطئ وخطر كذلك من الناحية الإعتقادية، فوق خطئه من الناحية المنهجية " (١). " كما حاول بعض الطاعنين في القرآن الكريم أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم، وكلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله "(٢).

ثانياً: طبيعة القرآن ووظيفته ومجاله وعلاقة ذلك بالعلوم العصرية:

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص٣٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١/١٨١ .

* أما طبيعة القرآن فيحددها سيد – رحمه الله– في أنه: " منهج هداية للضمير وللعقل البشري معا، ليستقيما على منهجٍ واضحٍ ثابتٍ مستقرٍ في القواعد الكلية الأساسية، ثم هو منهج هداية كذلك لنظام الحياة البشرية كي يصبح واقع الحياة متناسقاً مع استقامة الضمير والعقل، بحيث يسمح هذا الواقع للضمير والعقل أن يسلكا طريقهما في سلامٍ واستقامةٍ إلى ما يحبه ويرضاه، وعندما يستقيم نظام الحياة بكل جوانبه، ويستقيم الضمير والعقل، فان للإدراك البشري حينئذ أن يبحث في سنن الكون وينتفع بها ليحقق الخلافة في الأرض، فالحقائق العلمية الكونية متروكة تفاصيلها للإدراك البشري، وبحوثه وتجاربه ولم يتكفل المنهج القرآني ببيان تفصيلاتها له، وبناءً على ذلك فالقران لم ينزل إذن ليكون كتاب علوم فلكية، أو طبيعية، أو بيولوجية، أو فسيولوجية، أو طبية، والحقائق التي وردت فيه عن مثل هذه المسائل إنما وردت في صورة الإشارات الكلية، في معرض الهداية الإعتقادية، ولتصحيح الانحرافات والأضاليل والأوهام والتخبطات الإعتقادية، التي أحاطت بهذه المسائل، وبالقدر الذي يكفي لتصحيح العقيدة، فلا ينبغي إخراج المنهج

القرآني عن طبيعته في هذا الصدد " (١).

*أما وظيفته ومجاله فيقول- سيد -: " إن مجال القرآن هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومنها العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان - وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال، إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته، أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته، بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه...

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه،

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٧-٣٢٨ بتصرف .

وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها، كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!

إن القرآن الكريم كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه، وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور في التفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطئ ويصيب، في مجال العلم والبحث والتجريب "(١).

ثالثا: الموقف من النظريات والحقائق العلمية:

يوضح سيد – رحمه الله– الموقف الذي ينبغي أن يكون نحو النظريات والحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، والذي يقوم على أمرين:

الأمر الأول: عدم تعليق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٨١-١٨٢ بتصرف يسير ، وينظر أيضا ٤/١٨٥٨ .

بفروض العقل البشري ونظرياته:

حيث يرى- سيد- أنه لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه، لا يجوز تعليقها بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه " حقائق علمية " مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره " (١).

" وليس لنا أيضاً أن نلتمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات التي تسمى " العلمية " حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق "(٢).

ويعلل سيد - رحمه الله- ذلك بما يلي:

١- أن النصوص القرآنية قطعية الدلالة، ومطلقة الدلالة كذلك، ونهائية في تقرير الحقيقة التي تقررها، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها بقول آخر إلا من جنسها، ومن مستواها من حيث قطعية الدلالة ونهائيتها المطلقة، وقول البشر ومنه كل ما يقررونه سواءً من الحقائق العلمية أو النظريات ليس من جنس تلك النصوص، ولا هو من مستواها حتى يستشهد به

---

(١) في ظلال القرآن ١٨٢/١ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١٨٥٧/٤ .

على صدقها، وفي هذا يتجلى الخطاء الاعتقادي، والخطاء المنهجي معاً في الاستشهاد بتقريرات البشر " العلمية" على صحة أو صدق النصوص القرآنية.

فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها، والمؤمن بها لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر، فيشهد به على صدقها وصحتها " (١).

٢- أن ما تعارف عليه البشر على أنه " نظريات علمية " أو " حقائق علمية " كلاهما ليس قطعي الدلالة ولا مطلق الدلالة، فهو علمٌ ظنيٌ في أحسن الأحوال.

فأما " النظريات العلمية " فمعروف عند العلماء المحدثين أنفسهم أنها ليست سوى " فروض راجحة " فروض علمية لتفسير ظاهرة، أو ظواهر كونية، وتظل النظرية قائمة ومعتبرة إلى أن يوجد فرض علمي آخر يفسر تلك الظاهرة – أو الظواهر – تفسيراً أوضح أو أصح، أو يفسر عدداً أكبر من الظواهر تفسيراً متناسقاً، وهي عرضه دائماً للتبدل والتغير والتعديل والإلغاء، فأين يذهب النص القرآني إذا نحن فسرناه بإحدى تلك النظريات وعلقناه بها؟ أين يذهب عندما يظهر خطأ

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٦ ، و في ظلال القرآن ١٨٢/١ .

تلك النظرية، أو عندما تعدل في بعض أجزائها، أو عندما يضاف إليها جديد؟

إننا سنضطر أن نحمله ونجري به وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه! وهكذا لا نكف عن حمله والجري به، فالنظريات العلمية لا تكاد تستقر، وهو عناء أغنانا الله عنه، فلا ينبغي أن نتكبده، وأن نعرض قول الله لمثله!

أما " الحقائق العلمية" فهي كما يقرر العلماء المحدثون كذلك، مجرد احتمالات راجحة وليست قطعية الدلالة، ولا مطلقة الدلالة – إنها حقائق ظنية – بما أنها احتمالات راجحة، وطبيعة المنهج العلمي التجريبي لا تسمح بغير هذا، فالإنسان هو الذي يقوم بالتجربة ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية، وإنما يعتمد على نتائج قياسية يجري تجاربه على ما تناولته هذه التجارب، لأن كل أجزاء المادة ليست في يده، ولا تحت سلطانه البشري، وليست جميع الظروف خاضعة لسلطانه، بالإضافة إلى أن عمره – لا الفردي ولكن الإنساني – محدود كذلك، فلا يملك إجراء التجربة على كل أجزاء المادة، ولا يحيط بجميع الظروف والعوامل، وبالتالي فهو مضطر إلى أن يتخذ البرهان القياسي لا الإحصائي، ومن المسلم به أن البرهان القياسي برهان ظني لا قطعي، ومقيد الدلالة كذلك، بالإضافة إلى عامل " النسبية" الذي يتدخل في الموقف

فيجعل كل حقيقة يصل إليها البشر حقيقة " نسبية" لا مطلقة، فالحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله –سبحانه وتعالى– بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون، وبحكم علمه المحيط غير المقيد بالزمان والمكان، وبحكم أنه – سبحانه – هو الأول والأخر والظاهر والباطن، وهي الصفات اللازمة لعلم الحقيقة القطعية المطلقة، وهي الحقيقة التي يقص منها في كتابه ما يشاء، ومن ثم لا تحتاج إلى برهان خارج عنها ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشيء من الحقائق الظنية النسبية المقيدة، لا من الناحية الإعتقادية وحدها ولكن كذلك من الناحية المنهجية العملية " [١].

٣- "أن كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة – أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا – تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم..

<u>الأول:</u> هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٦-٣٢٧ بتصرف ، وينظر: في ظلال القرآن ١٨٢/١، ١١١٥/٢ ، ١٨٥٨/٤ .

كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة "[(١)].

" وتلمسُّ موافقات من النظريات " العلمية " للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه، وأنه من لدن حكيم خبير، هزيمة ناشئة من الفتنة " بالعلم " وإعطائه أكثر من مجاله ومداه... فلينتبه إلى دبيب الهزيمة في نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على " العلم " يخدم القرآن ويخدم العقيدة ويثبت الإيمان! إن الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم البشري المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء. أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجاربه "[(٢)].

<u>والثاني:</u> سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق – بقدر ما تسمح طبيعة

---

(١) في ظلال القرآن ١٨٢/١ .

(٢) في ظلال القرآن ١٨٥٨/٤ .

الإنسان النسبية – مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته، نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة!

والثالث: هي التأويل المستمر– مع التمحل والتكلف– لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا " [١].

الأمر الثاني: الانتفاع بما يثبت من الحقائق العلمية:

مع أن سيد – رحمه الله– يقرر أنه لا يجوز تعليق الحقائق القرآنية بالنظريات والفروض والحقائق العلمية البشرية وعدم تلمس موافقات لنصوص القرآن الكريم من النظريات العلمية، باعتبارها غير قطعية الدلالة، وما يترتب عليها من سوء فهم لطبيعة القرآن الكريم ووظيفته وحصول الهزيمة أمام فتنة العلم مما يؤدي إلى التكلف في تأويل نصوص القرآن الكريم جرياً

(١) المصدر السابق ١/١٨٢-١٨٣ .

وراء النظريات والفروض التي لا تستقر أبداً، إلا أنه يقرر أن ذلك المنهج في التعامل مع النظريات والحقائق العلمية لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من" الحقائق العلمية " وليست " النظريات العلمية " في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية " [(١)].

يقول سيد – رحمه الله–: " وهذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات – ومن حقائق – عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن.. كلا! إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان، ولقد قال الله سبحانه: { سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ } [سورة فصلت:٥٣] ، ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصوراتنا "[(٢)].

ويسأل سيد – رحمه الله– سؤالاً: كيف يمكن الانتفاع بما كشفه العلم من نظريات وحقائق دون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة؟.

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١/١٨٣ .

يرى سيد – رحمه الله– أن الجواب يتضح من خلال المثال، حيث ضرب أمثلة للانتفاع الجائز والمأمون بالكشوف العلمية، وأمثلة لما لا يجوز ولا يصح علمياً، ومن هذه الأمثلة:

*يقول القرآن الكريم مثلاً: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا } [سورة الفرقان:٢] و {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ } [سورة الرعد:٨] و { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [سورة الحجر:٢١] ... الخ، ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون.. الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه وبميل محورها هذا، وبتكوين سطحها هذا.. وبآلاف من الخصائص.. هي التي تصلح للحياة وتوائمها.. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة.. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا } وتعميقه في تصورنا.. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه، وتوسع مدى الرؤية البشرية لدلالة هذه النصوص"(١).

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٨٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٨ .

* كذلك حين يقول الله – تعالى –: { وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًۭٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [سورة النحل:٧٨] فإنه يجوز لنا أن ننتفع بالكشوف العلمية المستحدثة، فيما تكشف عنه من الدقة الباهرة والتعقيد المدهش في أجهزة السمع والبصر، وفي الإدراك العقلي للإنسان، لتوسيع مدى الرؤية البشرية لحقيقة ما أمتن الله – سبحانه – به عليهم في الأجهزة التي لا يقاس إليها شيء مما صنعة البشر من الأجهزة "(١)، هذا جائز ومطلوب.

ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى:

*يقول تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ } [سورة السجدة:٨] ، ثم توجد نظرية النشوء والارتقاء لـ "والاس دارون " تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان.. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن!! لا.. إن هذه النظرية أولاً ليست نهائية، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرنٍ من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً، وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ .

ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما يكاد يبطلها، وهي معرضة غداً للنقض والبطلان.. بينما الحقيقة القرآنية نهائية، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها، فهي تثبت فقط أصل نشأة الإنسان، وكفى "(١).

*وكذلك قوله –سبحانه–: { أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا } [سورة الأنبياء:٣٠] ، فإنه لا يجوز أن نحمل هذا النص على نظرية أن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها، فهذه ليست سوى نظرية، أي مجرد فرض ظني، وليست نهائية في موضوعها. بل إن هناك الآن نظريات أخرى تعادلها وترجح عليها "(٢).

* وكذلك قوله– سبحانه– { ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ } [سورة فصلت:١١] ، فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على نظرية السديم، فالسديم ليس إلا مجرد نظرية، ومثلها سائر النظريات الأخرى عن نشأة هذا الكون التي لم يشهدها أحد من البشر ولا من غيرهم من خلق الله { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) في ظلال القرآن ١٨٣/١ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ ، و في ظلال القرآن ١٨٣/١، ١٨٤ .

وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ } [سورة الكهف:٥١] . " ومع هذا قد يكون الكلام صحيحاً لأنه اقرب ما يكون إلى المدلول الذي تقرره الحقيقة القرآنية في الآية " (١).

" ولعل هذه الأمثلة أن توضح المنهج الصحيح المأمون في التعامل مع الإشارات القرآنية والنظريات والحقائق العلمية البشرية، في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق، وفرق بين هذا وذاك، وفي هذا القدر كفاية "(٢).

وهنالك أمثلة أخرى ذكرها سيد – رحمه الله– في مواطن متفرقة على ما يصح وما لا يصح النظريات والحقائق العلمية، يمكننا هنا الإشارة إليها من باب إتمام الفائدة ومنها:

<u>أ– نماذج من النظريات والحقائق التي يصح الاستفادة منها في بيان مدلول النصوص القرآنية:</u>

١– قوله تعالى: {وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ } [سورة الأعراف:١٧٢] ، حيث ذكر سيد – رحمه الله– بعض الآثار التي تدل على اخراج ذرية آدم من صلبه على

---

(١) في ظلال القرآن ٣١١٤/٥ ، و مقومات التصور الإسلامي ص ٥٥ مع الهامش .

(٢) في ظلال القرآن ١٨٤/١ ، و مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ .

هيئة الذر وإشهادهم، ثم يعلق سيد على ذلك بقوله: " لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة في أعماق الفطرة والوجود، قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدي البشر بعد قرون إلى طرف من هذه الحقائق، فإذا " العلم " يقرر أن الناسلات، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل " الإنسان " وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها ولا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب كلمة لو قيلت للناس يوم ذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال وصدق الله العظيم { سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ } [سورة فصلت:٥٣] ."(١).

٢-قوله تعالى {يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ} [سورة الزمر:٥] . يقول سيد – رحمه الله –: " وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٩٢/٣-١٣٩٣ .

أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان، لأنها نظريات تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتبطل غداً، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته، ولا يستمدها من موافقةٍ أو مخالفةٍ لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل!

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، وكلما تحركت الأرض غمر الليل السطح الذي كان عليه النهار وهكذا في حركة دائبة، واللفظ القرآني يرسم الشكل، ويحدد الوضع، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر "(١).

٣-قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } [سورة الأنبياء:٣٠] ، يقول سيد-رحمه الله-: " وفيها تقرير حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً، ويمجدون " دارون " لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول.

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٣٨/٥ .

وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات "(١).

٤- قوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوۡقِهَا } [سورة فصلت:١٠] ، حيث نقل سيد - رحمه الله- عن بعض علماء الجيولوجيا ما يتعلق بوضع الجبال وفائدتها في تثبيت الأرض "(٢).

٥- قوله تعالى: {خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ } [سورة الرحمن:١٤] ، حيث ذكر سيد - رحمه الله- ما أثبته العلم الحديث من احتواء جسم الإنسان على العناصر التي تحتويها الأرض جميعاً، إلا أنه يجب ألا يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للآية، فقد يكون ما تعنيه وقد يكون شيئاً آخر. "(٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٧٦/٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٣١١٢/٥ وما بعدها ، ٢٣٧٦/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٤٥١/٦ .

ب-نماذج من النظريات والحقائق التي يرى سيد- رحمه الله- أنه لا يصح تفسير القرآن بها:

١- حملهم قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ } [سورة الرعد:٤١] ، على نقص أطراف الأرض عند القطبين، وانبعاجها على خط الاستواء، حيث يرى-سيد - أن هذا هراء، وأن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات بأنه بيان لعمل يد الله فيما حولهم، فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد، فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وامتداد "(١).

٢- تفسير بعضهم قوله تعالى: { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } [سورة الحجر:٢٢] بأن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، حيث يرى سيد - رحمه الله- أن السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه {فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبات حتى يكون هناك ظل في المشهد للنبات، والتعبير القرآني دقيق في رسم

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٦٥ مع الهامش ١ .

ظلال المشاهد من قريب ومن بعيد يدرك ذلك من يعيش في ظلاله ناجياً من الشوائب والإيحاءات الغريبة " (١).

اكتفي بهذه الأمثلة التي نبه بها سيد –رحمه الله– على المنهج المأمون في التعامل مع الحقائق العلمية والنظريات، وفيها كفاية.

والخلاصة في موقف سيد – رحمه الله– من الإعجاز العلمي:

١– أنه يجب الإيمان بصدق ما جاء به القرآن ابتداء سواءً وافق ما توصلت إليه النظريات والحقائق العلمية أم لا.

٢– لا يصح أن نحمل النصوص القرآنية المستيقنة على النظريات والحقائق التي تتغير على سبيل القطع والجزم بأن هذه النظريات والحقائق هي ما تعنيه النصوص.

٣–جواز الاستفادة من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن وتوسيع مدلولاتها المجملة في تصوراتنا، دون القطع بأنها كل ما تعنيه النصوص، بل على أن يكون هذا بعض ما تشير إليه، وهذا ما أشار إليه سيد – رحمه الله– في بعض الأمثلة كما سبق.

٤– استعلاء سيد – رحمه الله– بدينه، واعتزازه بالقران، وحديثه

---

(١) في ظلال القرآن ٢١٣٤/٤ مع الهامش ١ .

عنه حديث المؤمن الذي لا يحتاج على دينه دليل من سواه.

خامساً: شبهة القول بالإعجاز بالصرفة وموقف سيد – رحمه الله– منه:

الإعجاز بالصرفة يعني: " أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله، لأن الله –سبحانه– صرفهم عن ذلك، وأمسك بهم أن يقوموا له، ولو قاموا لقالوا مثل ما قال، ولعارضوه قولاً ونظماً وبلاغةً لأنه من جنس كلامهم، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة وبه وقع الإعجاز "[1].

أما سيد قطب – رحمه الله– فهو مع إجماع العلماء في بطلان القول بالصرفة، حيث يقول: " فتحداهم مرة ومرة... ولكنهم لم يأتوا بعشر سور، ولا بسورة مفردة! ولم يحاولوا هذه المحاولة أصلاً، إلا ما قيل من محاولة بعض المتنبئين بعد محمد ﷺ وليس هذا من الجد في شيء، ولا يجوز أن يحسب له في هذا المجال حساب، أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام! "[2].

---

(١) أول من قال بهذا القول هو : أبو إسحاق إبراهيم من سيار النظام ، المعتزلي ، شيخ الجاحظ ، المتوفى سنة بضع وعشرين ومائتين ، وهو قول مخالف لإجماع العلماء قديماً وحديثاً، وقد ورد عليه أهل العلم قديماً وحديثاً ، ينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١٤٢/١ ، والإتقان للسيوطي ١١٨/٢ ، والإعجاز القرآني . أ .د / خليل الكبيسي ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) التصوير الفني في القرآن : ص ١٤-١٥ .

ب. آيات النبي صلى الله عليه وسلم الكونية:

في سياق الحديث عن آيات نبينا ﷺ يثبت سيد – رحمه الله– وقوع آيات كونية لنبينا ﷺ على نحو ما وقع لمن سبقه من الأنبياء، إلا أنه يرى أن النصوص القرآنية تدل بمفهومها على أن النبي ﷺ لم يرسل بالخوارق المادية التي جاءت مع الرسل قبله، لسببين:

الأول: تكذيب الأولين بها، كما قال سبحانه: {وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ } [سورة الإسراء:٥٩] . يقول سيد – رحمه الله–: " ومفهوم النص القرآني ومدلوله أن النبي ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله.. فقد اقتضت حكمة الله منع الآيات– أي الخوارق – لما كان من تكذيب الأولين بها "(١).

ويقول: " والخوارق التي سبقت على أيدي الأنبياء قبل رسالة محمد ﷺ امتنعت في هذه الرسالة لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك، والهلاك لم يقدر على أمة محمد ﷺ لذلك لم يرسله بالخوارق المادية، وما كانت الخوارق إلا تخويفاً للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢٦/٦-٣٤٢٧ بتصرف يسير .

كذبت بعد مجيئها "(١). " وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ﷺ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشراً رسولاً، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة { قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا } [سورة الإسراء:الآيات ٨٨-٩٣] ،(٢).

الثاني: أن التجارب البشرية في تكذيب الأمم بالخوارق المادية

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٣٦-٢٢٣٧ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٤٢٧ .

بعد طلبها وهلاكهم بعد ذلك، هذه التجارب اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه " (١).

" إن الخوارق الحسية، قد تدهش القلب البشري في طفولته، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل – صلوات الله عليهم – قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج، يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق!... ولهذا كان اتجاه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن الكريم وحده، وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب عن طريق القرآن الكريم إلى آيات الله القائمة في الأنفس والأفاق وفي أحداث التاريخ سواء " (٢).

" فمعجزة الإسلام هي القرآن الكريم، وهو كتاب يرسم منهجاً

---

(١) المصدر السابق ٢٢٣٧/٤ .

(٢) المصدر السابق ٣٣٢٧/٤ .

كـاملاً للحيـاة، ويخاطـب الفكـر والقلـب، ويلبـي الفطـرة القويمـة، ويبقـى مفتوحـاً للأجيـال المتتابعـة تقـرؤه وتـؤمن بـه إلـى يـوم القيامـة، أمـا الخارقـة الماديـة فهـي تخاطـب جيلاً واحـداً مـن الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها " [١].

" والقرآن الكريم فرقانٌ، بما فيه من فارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، – يرسم منهجاً واضحاً للحياة في كل صورها – ويمثل عصراً جديداً للبشرية، فرقان ينتهي به عصر الطفولة ويبدأ به عهد الرشد، وينتهي به عهد الخوارق المادية، ويبدأ به عهد المعجزات العقلية، وينتهي به عهد الرسالات المحلية الموقوتة، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة " [٢].

وبناء على ما سبق فإن سيداً – رحمه الله– يثبت وقوع الآيات والخوارق المادية للنبي ﷺ، لكنه يتوقف في تعليلها بأنها كانت دليلاً لإثبات رسالته، بل يرى أنها إما إكراماً من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ أو فتنه للناس.

يقول– رحمه الله–: " فأما ما وقع فعلاً للرسول ﷺ من خوارق صحيحة فكانت إكراماً من الله لعبده، دليلاً لإثبات رسالته...

---

(١) المصدر السابق ٢٢٣٧/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٥٤٧/٥ .

ومن ثم نثبت حادثة انشقاق القمر بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكانه وزمانه وهيئته، ونتوقف في تعليل الذي ذكرته بعض الروايات من أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين "[1].

ويقول في تعليقه على قصة الإسراء " أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء... ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً...

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين؟ وما زادتهم خارقة الإسراء إلا طغياناً كبيراً؟

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده، ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة، فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق، أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين، ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين وظل

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢٧/٦ .

القرآن معجزة الإسلام كتاباً مفتوحاً لجيل محمد - ﷺ - وللأجيال بعده، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب، وقد يكون منهم من هو أشد إيماناً وأصلح عملاً، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه " (١).

ومن الآيات التي تحدث عنها سيد قطب - رحمه الله-:

أولاً: الإسراء والمعراج:

١- تعريفه: يقول- سيد -: " الإسراء من السرى: وهو السير ليلاً، فكلمة " أسرى " تحمل معها زمانها، ولا تحتاج إلى ذكره، ولكن السياق ينص على الليل {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا } [سورة الإسراء:١] . للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم - فيلتقي ظل الليل الساكن، ويخيم جوه الساجي على النفس، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها "(٢).

" وقصة الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس - ومعها قصة المعراج - من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى وذلك العالم الغيبي المجهول لنا، كانتا في ليلة واحدة، وهذه القصة جاءت فيها روايات

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٣٧ - ٢٢٣٨ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢١١/٤- ٢٢١٢ .

شتى، وثار حولها جدل كبير، ولا يزال إلى اليوم يثور" (١).

٢- المكان الذي أسري منه: اختلف في المكان الذي أسري منه على أقوال:

- فقيل: هو المسجد الحرام بعينة - وهو الظاهر- وروي عن النبي ﷺ: " بينما أنا في المسجد في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل - عليه السلام - بالبراق... " (٢)

- وقيل: أُسري به من دار أم هاني بنت أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد.

وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ وقال: " مثل لي النبيون فصليت بهم " ثم قام ليخرج إلى المسجد، فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال: " مالك؟ " قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم. قال: " وإن كذبوني " فخرج فجلس إليه أبو جهل، فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب ابن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفقٍ

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٢١٠ بتصرف يسير .

(٢) رواه : البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣/١١٧٣ برقم ٣٠٣٥ وأيضاً برقم ٣٦٧٤ .

وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناسٌ ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر – رضي الله عنه – فقال: أو قال ذلك؟ قالوا نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي في الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! فسمي الصدّيق، وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد، فجلي له، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية –لمراقبة مقدم العير– فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد.. ثم لم يؤمنوا: وفي الليلة ذاتها كان العروج إلى السماء من بيت المقدس "(١).

٣- حقيقة الإسراء والمعراج:

يقول سيد: " واختلف في أن الإسراء كان في اليقظة أم في المنام، – فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢١٠ ، والقصة في سيرة ابن هشام ٢/٢٤٨-٢٥١ .

جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه "(١).

- وعن الحسن كان في المنام رؤيا رآها.

- وفي أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه، وأن فراشه ﷺ لم يبرد حتى عاد إليه.

- والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله ﷺ ترك فراشه في بيت أم هانئ إلى المسجد فلما كان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسري به وعرج، ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد.

على أننا لا نرى محلاً لذلك الجدل الطويل الذي ثار قديماً والذي يثور حديثاً حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسول ﷺ والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم، وبين أن تكون رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة.. المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئاً، وكونها كشفاً وتجلية للرسول ﷺ عن أمكنة بعيدة، وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة، والذين يدركون شيئاً من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون في الواقعة شيئاً، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢١٠/٤ ، والقصة في سيرة ابن هشام ٢٤٨/٢-٢٥١ .، وينظر: شرح الطحاوية ص ٢٧٠ .

والصعوبة حسب ما اعتاده وما رآه، والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله.

أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملأ الأعلى على غير قياس أو عادة لبقية البشر، وهذه التجلية لمكان بعيد، أو عالم بعيد، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ والتلقي عنه، وقد صدق أبو بكر – رضي الله عنه –وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول: إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! "[1].

<u>٤ فوائد وأحكام من حادثة الإسراء والمعراج:</u>

تعرض سيد – رحمه الله– في مواطن متعددة لبعض الحكم والأسرار والفوائد والأحكام المستفادة من هذه الحادثة ومنها:

أ– ذكر وصف العبودية في حادثة الإسراء " أسرى بعبده " يقرر ويؤكد حقيقة العبودية في مقام الإسراء والعروج التي لم يبلغها بشر، وذلك كي لا تنسى هذه الصفة، ولا يلتبس مقام العبودية، بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى – عليه السلام –، بسبب ما لابس مولده ووفاته، وبسبب

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢١٠–٢٢١١ .

الآيات التي أعطيت له، فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية، وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة، من قريب أو من بعيد "[1].

ب- " أن الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام -، إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى "[2].

ج- وصف المسجد الأقصى بأنه " الذي باركنا حوله " وصف يرسم البركة حافةً بالمسجد، فائضة عليه، وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل: باركناه، أو باركنا فيه، وذلك من دقائق

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢١١/٤ ، ٢٥٤٧/٥-٢٥٤٨ .

(٢) المصدر السابق ٤ /٢٢١٢ و معركتنا مع اليهود – سيد قطب – ص ٣٦ .

التعبير القرآني العجيب "[1].

د- " أن الإسراء آية صاحبتها آيات، كشفت عن حكمتها بقوله: " لنريه من آياتنا " والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش الرسول ﷺ أياً كانت صورتها وكيفيتها.. آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري، والاستعدادات اللدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة. "[2]

هـ - ثقة الرسول - ﷺ - بالحق الذي جاء به " حيث يلاحظ - بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادي الذي طلبوه يومئذ في قصة العير وصفتها، أن الرسول ﷺ لم يسمع لتخوف أم هانئ -رضي الله عنها - من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة، فإن ثقته ﷺ بالحق الذي جاء به، والحق الذي وقع له، جعلته يصارح القوم بما رأى كائناً ما كان رأيهم فيه، وقد ارتد بعضهم فعلاً، واتخذها بعضهم مادة للسخرية

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٢١٢ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .

والتشكيك، ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول ﷺ عن الجهر بالحق الذي آمن به، وفي هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه في نفوس الناس، ولا يتملقون به القوم، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال "(١).

و- أن النبي ﷺ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل، ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها، فلم يكن جهر رسولﷺ بالواقعة ناشئاً عن اعتماده عليها في شيء من رسالته، إنما كان جهراً بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة "(٢). "فالخوارق التي وقعت للرسولﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج لم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء.. ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً "(٣).

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٢١٢ .

(٣) المصدر السابق ٤/٢٢٣٧ وينظر أيضا : ٣/١٨٢٠ .

ز- في هذه الرحلة إثبات لرؤية النبي ﷺ لجبريل -عليه السلام- على هيئته وصورته التي خلقه الله عليها، يسد الأفق بخلقه الهائل، حيث رآه وصاحبه إلى سدرة المنتهى.. التي انتهت إليها رحلة المعراج، أو انتهت إليها صحبت جبريل لرسول ﷺ حيث وقف هو، وصعد محمد ﷺ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى، وكله غيب من غيب الله، اطلع عليه عبده المصطفى، ولم يرد إلينا إلا هذا، وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته "[(١)].

كما رأى الأنبياء في السموات العلى، ورأى البيت المعمور، وهو بيت عبادة الملائكة في السماء كما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء: " ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم "[(٢)]، يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم"[(٣)]

ح- أما رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج، فإن سيد -رحمه الله- يقرر ما عليه أهل السنة والجماعة من أنه لم يره، وإنما رأى النور، حيث أشار إلى فيض نور الله تعالى على

---

(١) المصدر السابق ٣٢٠٦/٦-٣٤٠٧ بتصرف . وينظر ٢٩٢١/٥ .

(٢) رواه : البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة ١١٧٤/٣ برقم ٣٠٣٥ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٩٣/٦ وينظر ٢٨١٤/٥، ٣١٨٥ هامش ١ .

قلب محمد ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، فلما سألته عائشة: هل رأيت ربك؟ قال: " نور أنى أراه"[1]. وذكر عن عائشة - رضي الله عنها- قولها أيضا: " من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية "[2]. [3].

ثانيا: انشقاق القمر:

وهي الآية الكونية الثانية التي تعرض لها سيد - رحمه الله- في الظلال وهو يتحدث عن الخوارق المادية للنبي - ﷺ - ففي ظلال قوله تعالى: {ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ } [سورة القمر:١-٢] ، يقول سيد: " والروايات عن انشقاق القمر، ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة، تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث وتختلف في رواية هيئته تفصيلاً وإجمالاً، وقد ذكر سيد - رحمه الله- عدة روايات حول حادثة انشقاق القمر[4].

ثم قال سيد: " فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع الحادث، وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم نذكرها -

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٥٩.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٥١٩/٤ ، ٣١٦٩/٥ .

(٤) رواه : البخاري في التفسير باب انشقاق القمر ١٨٤٤/٤ برقم ٤٥٨٣ - ٤٥٨٧ .

أنه كان في منى"، وتحديد زمانه في عهد النبيﷺ قبل الهجرة، وتحديد هيئته – في معظم الروايات أنه انشق فلقتين، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف).. فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة.

وهو حادث واجه به القرآن الكريم المشركين في حينه، ولم يروَ عنهم تكذيب لوقوعه، فلا بد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذر معها التكذيب، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات لو وجدوا منفذاً للتكذيب، وكل ما روي عنهم أنهم قالوا: سحرنا! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر، فعرفوا أنه ليس بسحر، فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه "(١).

ومع إثبات سيد قطب– رحمه الله– لهذه الآية من الآيات الخارقة التي وقعت للنبي ﷺ إلا أنه – كما سبق – يرى أنها لم تكن معجزة لتأييده، حيث يقول بعد سرد الروايات السابقة: " بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول: إن المشركين سألوا النبي ﷺ آية، فانشق القمر، فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤٢٥-٣٤٢٦ بتصرف يسير و وينظر أيضا : مشاهد القيامة : ص ٩٥ .

التي جاءت مع الرسل قبله، لسبب معين: {وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ } [سورة الإسراء:٥٩] ، فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات – أي الخوارق – لما كان من تكذيب الأولين بها.

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسولﷺ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشراً رسولاً، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة...

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية – أي خارقة – يبدو بعيداً عن مفهوم النصوص القرآنية، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده، وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب– عن طريق القرآن الكريم – إلى آيات الله القائمة في الآفاق والأنفس، وفي أحداث التاريخ سواء.. فأما ما وقع فعلاً للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراماً من الله لعبده، لا دليلاً لإثبات رسالته.

ومن ثم نثبت الحادث – حادث انشقاق القمر – بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه

وهيئته، ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات،..
ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة،
باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب.
فانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار
إليها، كما يوجهها دائماً إلى الآيات الكونية الأخرى، ويعجب من
موقف الناس تجاهها...

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة، فإن القمر في
ذاته آية أكبر.. والقرآن جاء ليقف بالقلب البشري في مواجهة
الكون كله وما فيه من آيات " [١].

<u>ثالثا: تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ وحنين الجذع إليه.</u>

ذكر سيد قطب – رحمه الله– بعض الآيات التي حدثت
للنبي ﷺ إجمالاً، ومنها:

١– تسليم الحصى والحجر والشجر عليه: ففي الصحيح قال
رسول الله ﷺ: " إن بمكة حجراً كان يسلم عليّ ليالي بعثت، إني
لأعرفه الآن "[٢].

وعن علي – رضي الله عنه– قال: كنت مع رسول الله بمكة

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤٢٦-٣٤٢٨ بتصرف .

(٢) رواه مسلم : في الفضائل باب فضل النبي– ﷺ – ٤/١٤٢٣ بلفظ " أني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث أني لأعرفه الآن "

فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول " السلام عليك يا رسول الله "[1].

٢- حنين الجذع إليه ﷺ في الصحيح عن أنس -رضي الله عنه - قال: "خطب رسول الله ﷺ إلى لزق جذع، فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة، فنزل الرسول فمسحه، فسكن "[2].[3].

٣- ما حدث يوم الخندق، عندما ضرب النبي ﷺ الصخرة بالمعول، فلمعت ثلاث مرات فلما سئل قال: " أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق " [4].

هذه بعض الآيات التي أشار إليها سيد - رحمه الله- والتي يرى -كما سبق -أنها كانت إكراماً لنبيه ﷺ من ربه جل وعلا.

---

(١) رواه الترمذي : في باب إثبات نبوة النبي- ﷺ - ٥٥٣/٥ برقم ٣٦٢٦ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص٤١٢ والمشكاة برقم ٥٩١٩

(٢) رواه الترمذي : في الصلاة باب الخطبة على المنبر ٣٧٩/٢ برقم ٥٠٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٨٥/١

(٣) في ظلال القرآن ٣٤٧٨/٦، ٣٦٠٩ .

(٤)رواه النسائي في الجهاد باب عزو الترك ٣٥٠/٦ برقم ٣١٧٦ ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ٣٩٧/٢- ٣٩٨ ، و في ظلال القرآن ٢٨٤٢/٥ ، وسيرة ابن هشام ٢٣٤/٣..

المطلب الثالث

خصائص النبي ﷺ

اختص الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً – ﷺ – بجملة من الخصائص والمميزات في نفسه وفي رسالته، وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى بعض منها وهي:

١– أنه – ﷺ – خاتم الأنبياء والرسل:

وهذا بنص القرآن الكريم: { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ } [سورة الأحزاب:٤٠] ، وقد ذكر سيد – رحمه الله– هذه المزية في كثير من المواضع، مشيراً إلى أن ذلك يقتضي أن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة، وشريعته هي الشريعة الثابتة التي لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير كونها آخر رسالة السماء إلى الأرض لتسير عليها البشرية ومن ثم انقطع الوحي بعده "[١].

٢– أنه أفضل الأنبياء والرسل:

وكما مر معنا في مسالة التفاضل بين الأنبياء من أن الله – سبحانه – فضل بعض النبيين على بعض وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى أن أفضلهم هو محمد – ﷺ – في مواضع

(١) في ظلال القرآن ٢٨٧٠/٥ وينظر أيضا ٩١/١، ٢٨٣ ، ٨٠٥/٢، ٨٠٩ .

عديدة، حيث يقول: " ومحمد – ﷺ – أفضل الرسل وأولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه "(١).

ويقول: " وحين ننظر إلى مقامات الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – من أية ناحية نجد محمداً – ﷺ – في القمة العليا، وسواءً نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها، فإن النتيجة لا تتغير "(٢).

٣- عموم رسالته وكمالها وشمولها:

حيث وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين عموم رسالة النبي – ﷺ – للخلق أجمعين، كقوله سبحانه { قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا } [سورة الأعراف:١٥٨] وقوله: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ } [سورة الأنبياء:١٠٧] وقوله: {لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا } [سورة الفرقان:١] وقوله: {إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ } [سورة التكوير:٢٧] وغيرها.

وقد وقف سيد – رحمه الله– في ظلال هذه الآيات وغيرها مقرر عالمية رسالة النبي – ﷺ – وكمالها وشمولها، موضحاً أن القرآن الكريم صدع بهذه الحقيقة منذ فجر الرسالة، والآيات المكية في

---

(١) المصدر السابق ٥/٢٨٨٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٢٨٣ .

ذلك كثيرة جداً، " حيث أمر النبي – ﷺ – أن يواجه برسالته الناس أجمعين، كما في الآية الأولى: {إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا } وهي آية مكية في سورة مكية، وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب الذين يزعمون أن محمداً – ﷺ – لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها.. كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنوها قديماً على هذا الدين وأهله، وما يزالون ماضين فيه! "(١).

وقوله تعالى في سورة الفرقان: {لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا } وفي سورة القلم: {وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ } وفي سورة التكوير: {إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ } وهي سورة مكية، والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود... وهي في هذا الوقت المبكر، وفي هذا الضيق المستحكم تعلن عن عالميتها، كما هي طبيعتها وحقيقتها، فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة – كما يدعي المفترون اليوم – إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٧٩/٣ .

الأولى، لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها.

كذلك أرادها الله وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى، وكذلك تتجه إلى أخر الزمان، والله الذي أرادها كذلك هو صاحبها وراعيها والمدافع عنها وحاميها... وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين " (١).

" فهي إذاً الرسالة الكاملة، يحملها الرسول الكامل، للبشر جميعا، ولقد كانت رسالة محمد - ﷺ - رحمة لقومه وللبشرية كلها من بعده، يقود البشرية إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة " (٢).

ويقرر سيد- رحمه الله- أنه لو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة، لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله، فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة، فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى، أو بعد عيسى - عليه السلام - لا يتفق مع عدل الله، في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ.. ولم يسبق أن كانت هناك رسالة عامة، ولم يكن بد من هذه الرسالة العامة، فكانت بعدل الله ورحمته بالعباد، وكان حقاً

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٤٨ ، ٦/ ٣٦٧١-٣٦٧٢، ٣٨٤٣ .

(٢) المصدر السابق ٥/٢٤٠١ ، ٦/٣٦١٧ بتصرف .

قول الله سبحانه: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ } رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة "[1].

وقد تحدث سيد – رحمه الله– عن وجوب محبة النبي ﷺ وطاعته والإيمان به، وعن كفر من لم يؤمن به أو أنكر نبوته أو شاقة في طريقته، وتحدث أيضا عن ولاية النبي ﷺ للمؤمنين، وعن كثير من أخلاقه وصفاته، وعن حياته مع زوجاته وأصحابه وتعامله مع أعدائه وأقاربه، مما حقه أن يفرد ببحث مستقل، في السيرة والتربية " [2].

واختتم هذا المبحث بنص لسيد – رحمه الله – حول خصائص بعثة النبي ﷺ وصفاته حيث يقول في مقدمة سورة التحريم: " عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة، والمنهاج الباقي إلى آخر الخليقة، وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام، جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة، شاملاً كاملاً متكاملاً، يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم بما يليق وكرامتهم، فاختار الله رسوله ﷺ إنساناً تتمثل فيه العقيدة بكل خصائصها، ويكون هو بذاته

---

(١) المصدر السابق ٨١٤/٢ .

(٢) ينظر في ذلك على سبيل المثال : في ظلال القرآن ١٢٨/١، ٤١٠ ، ٤٢٠– ٤٢١، ٤٦٠ ، ٦٩٦/٢، ٩٥٢ ، ٢٢١٠/٤ ، ٢٢٦٢ ، ١٦٦٨/٣ ، ٢٥٢٦/٥ ، ٢٥٧٧، ٢٨٢٨، ٢٨٢٩، ٢٨٦٥ ، ٣٦٥٦/٦، ٣٨٩٠، ٣٨٩٢، ٣٩٣٧ وغيرها .

وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لها، إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها، ضليع التكوين الجسدي، قوي البنية، سليم البناء صحيح الحواس، يقظ الحس، يتذوق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً، وهو في الوقت ذاته ضخم العاطفة، حي الطبع، سليم الحساسية، يتذوق الجمال، متفتح للتلقي والاستجابة، وهو في الوقت ذاته كبير العقل، واسع الفكر، فسيح الأفق، قوي الإرادة، يملك نفسه ولا تملكه، ثم هو بعد ذلك كله.. النبي الذي تشرق روحه بالنور الكلي، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج، والذي ينادى من السماء، والذي يرى نور ربه، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر، فيسلم عليه الحصى والحجر، ويحن له الجذع، ويرتجف به أحد الجبل..! ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها، فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها.

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمته وللبشرية كلها، تقرأ فيه صورة هذه العقيدة وترى فيه تطبيقاتها الواقعية، ومن ثم يعرض القرآن الكريم جوانسب كثيرة من حياته، حتى مواضع ا ل ض عف البشري الذي لا حيلة فيه للبشر " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦٠٩/٦ بتصرف يسير .

المبحث الثالث

منهجه في الصحابة – رضوان الله عليهم –

من القضايا المتعلقة بنبوة نبينا ﷺ قضية الحديث عن الصحابة – رضوان الله عليهم– كونهم الجيل الذي اختاره الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ وحمل هذا الدين.

والصحابي هو: من لقي النبي – ﷺ – مؤمنا به ومات على الإسلام (١). ومن عقيدة أهل السنة والجماعة موالاة جميع الصحابة – رضي الله عنهم – والاعتراف بفضلهم وسابقتهم إلى الإسلام، والاحتجاج بإجماعهم والاقتداء بهم، وتحريم كراهتهم أو سبهم، لما لهم من شرف الصحبة والجهاد والصبر والبلاء والتضحية وتزكية الله لهم في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه ﷺ وأصبح كل ذلك جزءاً من عقيدة أهل السنة والجماعة.

وفي هذا المبحث بيان لمنهج سيد قطب– رحمه الله – وموقفه من الصحابة – رضوان الله عليهم – وهو أمرٌ كثر حوله الجدل في الآونة الأخيرة، حيث ينسب إلى سيد قطب– رحمه الله– الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ بناء على كلام له

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر ٧/١ .

في بعض كتبه حول بعض الصحابة [١].

وحتى يتبين لنا موقفه - رحمه الله - من الصحابة كان لابد من النظر في جميع كتبه السابق منها على التزامه بالإسلام واللاحق منها، ومعرفة طبيعة المرحلة التي ألف فيها كل كتاب وطبيعة ما فيه من صواب أو من خطاء، للخروج بنظرة تكاملية قائمة على الاستقراء والموضوعية بعيداً عن الاجتزاء والخلط بين المراحل التي كتب فيها الكلام، وبعيداً أيضا عن التعسف في التبرير، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم -.

المطلب الثاني: طبقات الصحابة - رضوان الله عليهم - ومراتبهم.

المطلب الثالث: مميزات وخصائص جيل الصحابة - رضوان الله عليهم -.

المطلب الرابع: وقفات مع دعوى " مطاعن سيد قطب في الصحابة - رضوان الله عليهم -.

---

(١) ينظر : مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ص ٢٧ وما بعدها ، والحد الفاصل ص ١٢٩ و ما بعدها ، وجميعها للدكتور / ربيع المدخلي .

المطلب الأول

مكانة الصحابة في هذا الدين والواجب نحوهم

جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم في مدح الصحابة – رضوان الله عليهم – وبيان شرفهم وفضلهم وما يجب لهم، وكذلك جاءت أحاديث كثيرة في بيان مكانتهم وعلو منزلتهم وما ينبغي نحوهم.

ونذكر كلام سيد – رحمه الله– في ظلال هذه الآيات وما ذكره من أحاديث عن النبي – ﷺ – في هذا الشأن:

١– في ظلال قوله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [سورة آل عمران:١١٠] . يقول سيد: " وهم أصحاب رسول الله – ﷺ – المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق " (١).

" فالجماعة التي صاحبت رسول الله – ﷺ – تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله " (٢).

٢– في ظلال قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

---

(١) في ظلال القرآن ٥٢٩/١ .

(٢) المصدر السابق ٥٣٣/١ .

لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
} [سورة التوبة:١٠٠] ، يقول سيد: " وهذه الطبقة من المسلمين – بمجموعاتها الثلاث " السابقون الأولون من المهاجرين، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان " كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح وكانت هي التي تمسك هذا المجتمع كله في كل شدة، وفي كل رخاء كذلك، فابتلاء الرخاء كثيراً ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة!

والسابقون من المهاجرين نميل إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر، وكذلك السابقون من الأنصار، أما الذين اتبعوهم بإحسان، – الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم في فترة الشدة قبل بدر، وهي أشد الفترات طبعاً.

وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار،

* فقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر.
* وقيل: هم الذين صلوا للقبلتين.
* وقيل: هم أهل بدر.

* وقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية.

*وقيل: هم أهل بيعة الرضوان.

ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية، أن الاعتبار الذي اعتبرناه أرجح، والله أعلم "(١).

٣- في ظلال قوله تعالى: {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ} يقول سيد - رحمه الله-: " ورضى الله عنهم هو الرضى التي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه، والثقة بقدره، وحسن الظن بقضائه، والشكر على نعمائه، والصبر على ابتلائه، ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة - من البشر - حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون، وهو حالٌ وشأنٌ وجوٌ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يُتنسم ويُستشرف ويستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول!

ذلك حالهم الدائم مع ربهم: " رضي الله عنهم ورضوا عنه ". وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى " وأعد لهم جنات تجري

---

(١) في ظلال القرآن : ١٧٠٢/٣-١٧٠٣ .

تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً "، " ذلك الفوز العظيم " وأي فوز بعد هذا وذلك عظيم؟؟؟ " (١).

٤- في ظلال قوله تعالى: {لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [سورة الفتح:١٨] . يقول سيد - رحمه الله-: " هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين وحديث مع المؤمنين، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها، ويده فوق أيديهم فيها، تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله - ﷺ - {لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} وسمعت رسول الله - ﷺ- يقول لها: " أنتم اليوم خير أهل الأرض " (٢).

"حديث عنها من الله - سبحانه وتعالى - إلى رسوله - ﷺ - وحديث معها من الله سبحانه وتعالى يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح، وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه

---

(١) المصدر السابق ١٧٠٥/٣-١٧٠٦ .

(٢) رواه البخاري : في كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ١٥٢٦/٤ برقم ٣٩٢٣- ومسلم في الإمارة ١١٧٩/٣ برقم ١٨٥٦ .

الرحلة، وفيما سيتلوها، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبداً، ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديداً شديداً، ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح... وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين، أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود، وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم، أنهم هم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم: لقد رضي عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى: "إذ يبايعونك تحت الشجرة " يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل..

يا لله! كيف تلقوا – أولئك السعداء – تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت أنت بذاتك، يبلغك الله، لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة! وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع " الله ولي الذين آمنوا " فيسعد، يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع " إن الله مع الصابرين " فيطمئن، يقول في نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون، واحداً واحداً، أن الله يقصده بعينه وبذاته، ويبلغه: لقد رضي عنه! وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه! يا لله! إنه أمر مهول!....

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله – ﷺ – طائعين مسلمين صابرين " فأنزل السكينة عليهم " بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً " (١).

ويمضي السياق في وصفهم بقوله: {فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا } [سورة الفتح:٢٦] والسكينة الوقورة الهادئة، كالتقوى

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٢٥-٣٣٢٦ بتصرف يسير .

المتحرجة المتواضعة، كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة، المطمئن بما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يبطر ولا يطغى، ولا يغضب لذاته، إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ، خشع وأطاع في رضى وطمأنينة.

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها، وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة، وما أودع فيها من تقوى، فهم قد استحقوها في ميزان الله، وبشهادته، وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير"(١).

٥- في ظلال قوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا} [سورة الفتح:٢٩] ، يقول سيد – رحمه الله-: " وتختتم السورة بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع

---

(١) في ظلال القرآن ٣٣٢٩/٦ .

صحابة رسول الله - ﷺ - وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها، وبلغها رضاه فرداً فرداً...

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: " أشداء على الكفار رحماء بينهم " ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم: " تراهم ركعاً سجداً " ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها: " يبتغون فضلاً من الله ورضواناً " ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم: " سيماهم في وجوههم من أثر السجود" " ذلك مثلهم في التوراة " وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل " كزرع أخرج شطأه " " فآزره " " فاستغلظ " "فاستوى على سوقه " " يعجب الزراع" " ليغظ بهم الكفار".

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - ﷺ - صفته التي أنكرها المشركين " محمد رسول الله " ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع.

والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة، وإرادة

التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها، التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم: " أشداء على الكفار رحماء بينهم " أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله، وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها، قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة، " تراهم ركعاً سجداً " والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق

سرائرهم: " يبتغون فضلاً من الله ورضواناً " فهذه صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سماتهم: " سيماهم في وجوهم من أثر السجود " سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله "من أثر السجود " فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحه ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة " ذلك مثلهم في التوراة" وصفتهم

التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.

" ومثلهم في الإنجيل " وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه، أنهم " كزرع أخرج شطأه " فهو زرع نامٍ قوي، يخرج فرخه، من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده، " فآزره " أو أن العود آزر فرخه فشده " فاستغلظ " الزرع وضخمت ساقه وامتلأت " فاستوى على سوقه " لا معوجاً ومحنياً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً.

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع العارفين بالنامي منه والذابل، المستثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: " يعجب الزراع " وفي قراءة يعجب " الزارع" وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج، وأما وقعه في نفوس الكفار فيوحي بأن هذه الزرعة هي زرعه الله، أو زرعه رسوله ﷺ وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله!

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، صحابة رسول الله ﷺ فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا} وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة، بعد ما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.

مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ.. وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضى وحده أجرٌ عظيم ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

*ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن استشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم، وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم، وينظر بعضهم إلى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه، ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه إلا من بعيد؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم، فيقرب له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد؟!! " (١).

٦- قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [سورة الحشر:٨-٩] . يقول سيد - رحمه الله-: " في الآية الأولى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين أخرجوا إخراجاً من ديارهم وأموالهم، أكرههم قومهم على الخروج، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله.

وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم" يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا " اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه، لا ملجأ لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حماه، وهم مع أنهم مطاردون قليلون " ينصرون الله ورسوله " بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات وأضيق

---

(١) في ظلال القرآن ٣٣٣١/٦-٣٣٣٣ .

الأوقات " أولئك هم الصادقون " الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم، وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس!..

وفي الآية الثانية كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلاماً طائرة ورؤى مجنحة ومُثُلاً عُليا قد صاغها خيال محلق.

" والذين تبوءوا الدار" أي دار الهجرة، يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار " يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا " ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال

الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين! " ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا " مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع، ومن مال يختصون به كهذا الفيء، فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا، ولا يقول: حسداً ولا ضيقاً، إنما يقول: " شيئاً " مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلا تجد شيئاً أصلاً. " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر" (١).

ويكفي جيل الصحابة شرفاً قول الله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ } فالله سبحانه وتعالى يطمئن رسوله ﷺ والعصبة المسلمة من ورائه، إلى ولاية الله سبحانه له ولها، وهو حسبه وحسبها "(٢).

هذه ملامح صورة جيل الصحابة – رضوان الله عليهم – ومكانتهم في القرآن الكريم، أما مكانتهم عند رسول الله ﷺ فتمثل

(١) في ظلال القرآن ٣٥٢٦/٦ وينظر أيضا ٣٤٨٣/٦-٣٤٨٤ .
(٢) المصدر السابق ١٥٤٩/٣ .

في إكرامهﷺ لأصحابه، وإعزازه لهم، والتنبيه في كل مناسبة إلى فضلهم ووجوب رعاية حقهم وخاصة السابقين الأولين، ومن الأمثلة لذلك:

١- ما جاء في الصحيح " أن أبا سفيان –رضي الله عنه – أتى على سلمان وصهيب وبلال- رضي الله عنهم – ونفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها! فقال أبو بكر- رضي الله عنه –: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره. فقال: يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي " (١).

يقول سيد – رحمه الله–: " وما يملك أي تعليق أن يبلغ هذا المدى، وما نملك إلا أن نتملاه! "(٢).

٢- نهي النبي ﷺ أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على أحدٍ من أصحابه فكان يقول: " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر " (٣)، (١).

---

(١) رواه مسلم : في الفضائل باب فضائل سلمان وصهيب وبلال ١٥٤٦/٤ برقم ٢٥٠٤ .

(٢) في ظلال القرآن ١١٠٢/٢- ١١٠٤ بتصرف يسير .

(٣) رواه :والترمذي المناقب فضل أزواج – ﷺ – ٦٦٧/٥ برقم ٣٨٩٦ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٤٤٦.

٣- الإشادة بهم والنهي عن سبهم أو انتقاصهم، ومن ذلك ما سبق من اختلاف خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وقول خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها! فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: " دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلغتم أعمالهم " (٢).

وقوله ﷺ: "لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " (٣)، (٤).

فهذه الإشارات وغيرها كثير تدل على مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم - في نفس رسول الله- ﷺ- وإعزازه لهم - رضي الله عنهم - أجمعين.

***أما الواجب نحو الصحابة - رضوان الله عليهم** -:

فيتحدث عنه سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: { وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦٦٢/٦ .

(٢) رواه أحمد ٣/ ٢٦٥ ، وإسناده صحيح ، رجاله رجال الشيخين غير أحمد الحراني ، روى له أصحاب السنن ، انظرمسند أحمد ٣١٩/٢١ برقم ١٣٨١٢ تحقيق الأرناؤوط.

(٣) رواه البخاري في فضائل الصحابة ١٣٤٣/٣ برقم ٣٤٧٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ١٥٦٢/٤ برقم ٢٥٤٠ وأحمد ١١/٣ .

(٤) ينظر في ظلال القرآن ٣٤٨٤/٦

ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر:١٠] ، بقوله: " وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار، سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان، وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته، ودعائه بهذه الرحمة، وتلك الرأفة: " ربنا إنك رءُوف رحيم ".

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود، في الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف،

ويمضـي الخلـف علـى آثـار السـلف، صـفاً واحـداً وكتيبـة واحـدة علـى مـدار الزمـان واخـتلاف الأوطـان، تحـت رايـة الله ؛ إنهـا صـورة بـاهرة، تمثـل حقيقـة قائمـة، كمـا تمثـل أرفـع وأكـرم مثـال للبشرية يتصوره قلب كريم.. ويبدو ذلك عندما تقارن بغيرها...

هذه هي قافلة الإيمان، وهذا هو دعاء الإيمان، وإنها لقافلة كريمة، وإنه لدعاء كريم "[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٧ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

طبقات الصحابة ومراتبهم

مع فضل وشرف جيل الصحابة – رضوان الله عليهم – إجمالاً، إلا أنهم كانوا متفاوتين في المقامات والمراتب، وقد تحدث سيد – رحمه الله– عن مكونات جيل الصحابة وطبقاتهم ومراتبهم ونشأة كل طبقة، وذلك في ظلال الآيات التي تتحدث عنهم:

١– ففي ظلال قوله تعالى: {وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ} [سورة التوبة:١٠٠] ، تحدث سيد – رحمه الله– عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية وبين كيف ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة، فعندما أحست قريش والجاهلية من ورائها بخطر الدعوة الإسلامية أعلنتها حرباً شعواء، وانتفض المجتمع الجاهلي يدافع عن وجوده، وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم، وبالتالي فلم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، إلا كل من نذر نفسه لله وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع

والغربة، والموت في أبشع الصور أحيانا.

وبذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر إلا العناصر المختارة الفريدة التكوين.

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ بيعة العقبة – قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين.

حيث قالوا لرسول الله ﷺ ليلة العقبة: " اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ". قالوا: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: " الجنة " قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل " (١).

(١) القصة رواها البيهقي في دلائل النبوة ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢ عام ١٤٢٣هـ ٢/٤٥٤ .

فقد كانت بيعتهم للرسول ﷺ دون أن يرتقبوا من ورائها شيئاً إلا الجنة، ووثقوا هذا البيع، فأعلنوا أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين، بل كانوا مستيقنين أن العرب سترميهم عن قوس واحدة ومع ذلك... فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بُنوا هذا البناء وأُعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة..

وبعد غزوة بدر تغيرت تركيبة مجتمع الصحابة – رضوان الله عليهم –، فبالإضافة إلى القاعدة الصلبة المكونة لهذا المجتمع وهم المهاجرون والأنصار، فقد دخل في الإسلام أقوام لم يكونوا قد فقهوه بعد وما انطبعوا بطابعة، ومنهم من دخل نفاقاً، ومع ذلك فقد استمرت عملية الصهر للعناصر الجديدة التي تدخل في الإسلام باستمرار، مع بقاء الاعتماد على القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار وخاصة في وقت الشدائد حتى قبيل فتح مكة حيث كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة، وأقرب ما يكون إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد.

ومع ذلك كانت هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية

ذاتها، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها.

- تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.
- وتميز أهل بدر.
- وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية.
- ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة، وتنص عليها.

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركة الإسلامية، لم يكن مانعاً أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبل الفتح، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف، والكثير من ظواهر الضعف والشح من ذلك المجتمع المدني.

إلا أن فتح مكة وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف - وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة - قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجاً جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون، وفيهم المنساقون إلى الإسلام

الظـاهر القـاهر، وفـيهم المؤلفـة قلـوبهم دون انطبـاع بحقـائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك " بإحسان " يصل بهم إلى مستواهم الإيماني وبلائهم الحركي، وندرك حقيقة دورهم الباقي في بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملي يبقى مؤثراً في التاريخ البشري كله، كما نستشرف حقيقة قول الله سبحانه فيهم: {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ } " (١).

٢- فـي ظـلال قولـه تعـالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة الحديد:١٠] . يقول سيد – رحمه الله-: " ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين، من المهاجرين والأنصار، ما وسعها من النفس والمال، في ساعة العسرة وفترة الشدة – قبل الفتح – فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريباً محاصراً من كل جانب، مطارداً من

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٧٠/٣-١٥٧٦، ١٧٠٣- ١٧٠٥ بتصرف.

كل عدو، قليل الأنصار والأعوان، وكان هذا البذل خالصاً لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض، ولا من رياءٍ أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام، كان بذلاً منبثقاً عن خيرة اختاروها عند الله، وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعاً، ولكن ما بذلوه – من ناحية الكم – كان قليلاً بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه، فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان، ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان...

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء، غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال. ذلك متعلق مباشرة بالله، متجرد تجرداً كاملاً لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب، لا يجد على الخير عوناً إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته، وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين.

جاء في المسند عن أنس – رضي الله عنه[١] – قال: كان بين خالد بن الوليد[٢] وبين عبد الرحمن بن عوف[٣] كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي – ﷺ – فقال دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد– أو مثل الجبال– ذهباً ما بلغتم أعمالهم " [٤].

وفي الصحيح: " لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " [٥].

ومن هذين الحديثين يتحدد معنىً لأصحاب الرسول ﷺ الذين تكرر تحذيره بشأنهم فهم أولئك السابقون، وقد كان يقول للمسلمين حوله ممن صحبوه " دعوا لي أصحابي " فدل على

---

(١) هو : أنس بن مالك بن النضر النجاري ،صحب النبي ولازمه وخدمه وغزا معه وبايع تحت الشجرة ، له ٢٢٨٦ حديثاً ،وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة ،سنة ٩١هـ ،انظر: سير أعلام النبلاء ٣٩٥/٣ ،والأعلام ٢٤/٢ . .

(٢) هو : خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ،سيف الله ، أسلم قبل الفتح ، من قادة الفاتحين ، حارب المرتدين ،وشارك في فتوحات الشام والعراق قائداً وجندياً مطيعاً ،مات سنة ٢١هـ ،انظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٦/١،والأعلام ٣٠٠/٢ .

(٣) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف من أجلاء الصحابة ، واحد العشرة المبشرين بالجنة ،كان من الأغنياء الأجواد الشجعان ،شهد بدراً والمشاهد كلها ،توفي في المدينة سنة ٣٢هـ، انظر: الإصابة ٣١١/٦ ،والأعلام ٣٢١/٣ . .

(٤) سبق تخريجه ص ٩٥٠.

(٥) سبق تخريجه ص ٩٥٠.

أنه ﷺ يعني صحبه خاصة كما قال مرة عن الصديق – رضي الله عنه – " دعوا لي صاحبي ". ومع ذلك فان القرآن الكريم يقرر أن للجميع الحسنى {وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ }فقد أحسنوا جميعاً على تفاوت ما بينهم في الدرجات " (١).

٣– عند استعراض سيد – رحمه الله– لأحداث غزوة تبوك " العسرة " وما حصل للصحابة فيها يقول: " ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت " العسرة "، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية:

– من اليقين الجاد عند طائفة.

– إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة.

– إلى القعود والتخلف – بغير ريبة – عند طائفة.

– إلى النفاق الناعم عند طائفة – إلى النفاق الفاجر عند طائفة – إلى النفاق المتآمر عند طائفة، مما يشي أولاً بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة، ويشي ثانياً بمشقة الغزوة الممحصة الممتحنة الكاشفة، والتي لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز" (٢).

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٤ مع الهامش .

(٢) المصدر السابق ١٧٢٧/٣ .

ومن خلال عرض النصوص السابقة يتضح لنا أن سيد – رحمه الله– قسم الصحابة إلى مراتب أفضلها كما يسميها " القاعدة الصلبة " وهي الرعيل الأول السابقين من المهاجرين والأنصار، ثم الذي اتبعوهم بإحسان، وتميز منهم أهل بدر ثم أهل بيعة الرضوان، ثم بعدهم من سار على نهجهم ممن أسلم بعد الفتح وقاتل، ومع ذلك فالكل قد وعده الله الحسنى لإحسانه.

المطلب الثالث

خصائص ومميزات جيل الصحابة

أولاً: خصائص ومميزات جيل الصحابة – رضوان الله عليهم –

أفرد سيد– رحمه الله– فصلاً في كتاب " معالم في الطريق " بعنوان: " جيل قرآني فريد " قال فيه: " هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان، وأن يقفوا أمامها طويلاً، ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها.

لقد خرَّجت هذه الدعوة جيلاً من الناس – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – جيلاً مميزًا في تاريخ الإسلام كله، وفى تاريخ البشرية جميعه، ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى، نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ، ولكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل ذلك العدد الضخم، في مكان واحد، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة " [1].

وقد حاول سيد– رحمه الله– أن يبين الأسباب التي جعلت من ذلك الجيل نموذجاً فريداً في تاريخ البشرية في أكثر من موضع يمكن إجمالها فيما يلي:

---

(١) معالم في الطريق ص ١٤ .

١- أنهم جيل صنع على عين الله ورعاه رسول الله ﷺ:

يقول سيد - رحمه الله-: " إن نعمة وجود الرسول بين القوم، يدعوهم بلغة السماء، ويخاطبهم بكلام الله، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم، نعمة فوق التصور حين نتملاها نحن الآن من بعيد، فهذه الفترة - فترة الوحي وحياة الرسول ﷺ فترة عجيبة حقاً.

إن الله - جل جلاله - يخاطب هذا البشر من صنع يديه، على لسان عبده ﷺ في رحمة علوية ندية يقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك! ها هو ذا طريقي فاسلكوه! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح، تعالوا ولا تشردوا بعيداً، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء.. وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - قلت كذا، وهو خطأ، ونويت كذا وهو إثم، وفعلت كذا وهي خطيئة، فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حماي، وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذي يعضلك هذا حله، وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه، وعملك الذي عملت هذا وزنه!

إنه الله، هو الذي يقول، يقول لهؤلاء المخاليق، وهم يعيشون معه، يحسون أنه معهم، حقيقة وواقعاً أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها، وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعنى بها.

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور، ولكنهم عاشوها فعلاً....

ورد في الصحيح أن " رسول الله – ﷺ – قال يوماً لأصحابه: " أي المؤمنين أعجب إليكم؟ قالوا الملائكة. قال: " وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ " قالوا: الأنبياء. قال: " وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ " قالوا فنحن. قال: " وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها " (١).

وصدق رسول الله– ﷺ – إنه لأمر متفاوت، وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائلٌ هائلٌ، عجيبٌ عجيب " (٢).

فجيل الصحابة – رضوان الله عليهم – إذاً جيل صنع على عين الله – سبحانه – " فقد كان القرآن الكريم هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد، جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية – لا من قبل ولا من بعد – جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممتد، الذي لم يدرس حق دراسته إلى الآن " (٣).

---

(١) رواه : البيهقي في دلائل النبوة ٥٣٨/٦ ، وهو مرسل .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤٨٣/٦ ، ٤/ ٢٤٩٤ ، وينظر أيضا : هذا الدين لسيد قطب ص ٤٢-٤٣ .

(٣) في ظلال القرآن ١٤٢٣/٣ .

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع، فعندما سُئلت عائشة -رضي الله عنها - عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: " كان خُلقه القرآن " (١).

لقد كان هذا النبع هو المصدر الوحيد لهذا الجيل، لاعن فقرٍ في الثقافات والحضارات، ولكن عن قصدٍ وتصميمٍ مرسومٍ، يدل عليه غضب رسول الله ﷺ عندما رأى صحيفة من التوراة في يد عمر- رضي الله عنه - حيث كان يريد ﷺ صنع جيل خالص القلب والعقل والتصور والشعور والتكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي، الذي يتضمنه القرآن الكريم، وهو الأمر الذي كان له الأثر في صنع ذلك الجيل الفريد في تأريخ البشرية " (٢).

٢- صدق إيمانهم وبذلهم لله:

أشار سيد - رحمه الله- إلى ما تميز به الصحابة - رضوان الله عليهم - من صدق في الإيمان، وبذلٍ لأنفسهم وأموالهم طلباً لمرضاته ومثوبته، وخاصة السابقين الأولين من المهاجرين

---

(١) رواه : أحمد ١٦٣/٦ ، والحاكم ٤٩٩/٢، وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٨١١ ، والأرناؤوط في المسند ١٨٣/٤٢ ..

(٢) ينظر : معالم في الطريق ص ١٥- ١٧ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ١٤١٠/٣ .

والأنصار ومن تبعهم بإحسان، كونهم صفوة لا تعرف النفاق [1]. ويضرب سيد - رحمه الله- أمثلة لصدق إيمانهم وبذلهم في سبيل الله لكل ما يملكون، ومن هذه الأمثلة:

أ- موقف السابقين الأولين من المؤمنين في مكة، حيث ثبتوا على دينهم في وجه البلاء والفتنة واستعلوا بإيمانهم في وجه الجاهلية، وتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا بدينهم رغبة في ما عند الله، مما يدل على صدق إيمانهم [2].

ب- موقف الأنصار في بيعة العقبة الثانية، وما ظهر فيها من صدق في الإيمان واستعدادٍ للبذل والتضحية حيث كانت بيعتهم دون أن يرتقبوا من ورائها شيئا إلا الجنة، ووثقوا ذلك بقولهم: " لا نقيل ولا نستقيل " [3].

ج- موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - في بيعة الرضوان حيث علم الله - سبحانه - ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، والطاعة لربهم فأنزل سكينته على قلوبهم وأثابهم فتح قريباً [4].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١١ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٣/١٥٧١، ١٧٠٣ .

(٣) المصدر السابق ٣/١٥٧١، ١٧٠٤ .

(٤) المصدر السابق ٦/٣٣٢٦ بتصرف يسير .

ويكفيهم تزكية الله لهم في صدق إيمانهم بقوله: {مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا} [سورة الأحزاب:٢٣] ، وهي صورة وضيئة للإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الأهوال والأخطار (١).

حيث صدقوا ربهم في بيع أنفسهم وأموالهم له كما صور القرآن حالهم يقول: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [سورة التوبة:١١١] ، حيث كان بذلهم لأنفسهم وأموالهم خالصاً لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض، ولا من رياء (٢).

- ويقارن سيد - رحمه الله- بين الصحابة - رضوان الله عليهم - وبين أصحاب عيسى - عليه السلام - " الحواريين " عند تعليقه على طلب الحواريين من عيسى - عليه السلام - مائدة من السماء فيقول: " والقصة تكشف لنا عن طبيعة قوم عيسى -عليه السلام- المستخلصين منهم وهم الحواريون فإذا بينهم

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٥/٢٨٤٣- ٢٨٤٤ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٦، ٦/ ٣٤٨٤ بتصرف .

وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد..

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى – عليه السلام – فآمنوا، وأشهدوا عيسى على إسلامهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى– عليه السلام – ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة، تطمئن بها نفوسهم، ويعلمون منها أنه صدقهم، ويشهدون بها له لمن وراءهم.

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن،

هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام – وحواريي محمد ﷺ ذلك مستوى، وهذا مستوى، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون، ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله " (١).

٣- جديتهم في التعامل مع القرآن الكريم وتعاليمه:

وهذه الصفة ثمرة لصدقهم في إيمانهم " فالذين يؤمنون هم الذين ينتفعون بما جاء به الرسول ﷺ ويفقهون حقيقة، ويدركون ما وراءه،... إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٩٨ .

المفتوح لها، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها، وإن هذا القرآن الكريم لا يفتح كنوزه، ولا يكشف أسراره، ولا يعطي ثماره، إلا لقوم يؤمنون، ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ﷺ: " كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن.

وهذا الإيمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من الزمان.

لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد من حلاوة القرآن، ومن نوره، ومن فرقانه، ما لا يجده إلا الذين يؤمنون إيمان ذلك الجيل، ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم إلى الإيمان، لقد كان الإيمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحه إلا الإيمان!.

لقد عاشوا بهذا القرآن، وعاشوا له كذلك، ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذي لم يتكرر – بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى – في التاريخ كله، اللهم إلا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسيرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب! "(١).

*ويرجع سيد – رحمه الله– أسباب ذلك إلى ما يأتي:

أ– أن القرآن الكريم كان هو النبع الوحيد الذي استقى منه جيل الصحابة – رضوان الله عليهم – كما سبق – فقد خلصوا لهذا

---

(١) المصدر السابق ٣ /١٤١٠ بتصرف يسير .

القرآن فترة طويلة من الزمان، فلم تشب نبعه الرائق شائبة من قول البشر، اللهم إلا قول رسول الله - ﷺ - وهديه، وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك، ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان، وما أجدر الذين يحاولون أداء ما أداه ذلك الجيل أن ينهجوا نهجه، فيعيشوا بهذا القرآن ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان، لا يخالط عقولهم وقلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان " (١).

ب- أن منهج التلقي عند الصحابة - رضوان الله عليهم - قائم على التلقي للتنفيذ والعمل، " فلم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على

---

(١) المصدر السابق ٣/١٤١٠-١٤١١ ، وينظر معالم في الطريق ص ١٥-١٧ .

عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه' هذا الشعور.. شعور التلقي للتنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل ويخفف عنهم التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة...

إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول، ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه، وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسيًا كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد. (١)

ج- أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كان أحدهم حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، كان يشعر في تلك اللحظة أنه يبدأ عهداً جديدًا منفصلاً عن

---

(١) معالم في الطريق ص ١٧-١٩ بتصرف يسير ، وينظر أيضا : في ظلال القرآن ١١٤٣/٣ .

حياته التي عاشها في الجاهلية، وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام!

وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبته عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة، شعر في الحال بالإثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني.

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي والروابط الاجتماعية حوله.. حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر.... وكان هذا مفرق الطريق [١].

٤- كونهم مع ذلك كله بشراً:

مع كون جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - جيلاً فريداً مميزاً في تاريخ البشرية كما سبق، تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا التي ظلت فريدة في سموقها والتي حققت المنهج الإلهي

---

(١) معالم في الطريق ص ١٩-٢٠ بتصرف يسير .

في حياتها على ذلك النحو العجيب، قد ظلت مع هذا بشراً لم يخرجوا عن طبيعتهم ولا عن فترتهم، زاولوا كل ألوان النشاط الإنساني، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحاً لهم في بيئتهم وزمانهم، وأخطأوا وأصابوا وعثروا ونهضوا وأصابهم الضعف البشري أحياناً، كما يصيب سائر البشر، وغالبوا هذا الضعف، وانتصروا عليه أحيانا أخرى [1].

* يقول سيد – رحمه الله– في تعليقه على قصة الخندق وأحوال الصحابة – رضوان الله عليهم – فيها: " لقد كانوا ناساً من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر، وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس، ويفقدوا خصائصه ومميزاته، فلهذا خلقهم الله، خلقهم ليبقوا بشراً، ولا يتحولوا جنساً آخر، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجراً...

كانوا ناساً من البشر يفزعون ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة، ولكنهم كانوا– مع هذا– مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط، وكانوا بهذا وذاك نموذجاً فريداً في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص ٤٣ .

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور، علينا أن ندرك أنهم كانوا بشراً، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبداً! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصَّر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى، عروة السماء، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة ونسترد الثقة والطمأنينة.

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام، النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله " (١).

*وفي ظلال حادث تخيير النبي ﷺ لأزواجه في سورة الأحزاب، يقول سيد –رحمه الله–: " ونحن نحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث تتدبره من بعض زواياه...

---

(١) في ظلال القرآن ٢٨٤٤/٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضا : ٢٤٩٢/٤ .

إنه يصور لنا من جانب حقيقة حياة رسول الله ﷺ والذين عاشوا معه واتصلوا به، وأجمل ما في هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية، مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التي ارتفعوا إليها، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه، فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت في تلك النفوس، ولكنها ارتفعت، وصفت من الأوشاب، ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان.

وكثيراً ما نخطئ نحن حين نتصور للنبي ﷺ ولصحابته – رضوان الله عليهم – صورة غير حقيقية، أو غير كاملة، نجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية، حاسبين أننا نرفعهم بهذا وننزههم عما نعده نحن نقصاً وضعفاً!

وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية، صورة متلفعة بهالات غامضة لا نتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة، ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم، وتبقى شخوصهم في حِسِّنا بين تلك الهالات أقرب إلى الأطياف التي لا تلمس ولا تتماسك في الأيدي! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقا آخر غيرنا، ملائكة أو خلقاً مثلهم مجرداً من مشاعر البشر

وعواطفهم على كل حال!

ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر، يأساً من إمكان التشبه بهم أو الاقتداء العملي في الحياة الواقعية، وتفقد السيرة بذلك أهم عنصر محرك، وهو استجاشة مشاعرنا للأسوة والتقليد، وتحل محلها الروعة والانبهار، اللذان لا ينتجان إلا شعوراً مبهماً غامضاً سحرياً ليس له أثر عملي في حياتنا الواقعية، ثم نفقد كذلك التجاوب الحي بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة، لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التي نعانيها نحن، ولكنهم هم ارتقوا بها وصفوها من الشوائب التي تخالج مشاعرنا " (١).

هذه بعض خصائص ومميزات وفضائل جيل الصحابة كما ذكرها سيد – رحمه الله – إجمالاً، وقد أشار في مواضع متفرقة إلى فضائل بعض أصحاب النبي ﷺ ممن ورد ذكرهم في السياق الذي يتحدث عنه، (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٨٥٥/٥-٢٨٥٦ .

(٢) ينظر: المصدر السابق : ١٤١٦/٣، ١٧٢٣/٣، ٢٥٠٤/٤ ، ٣١٤٣/٥ ، ٣١٤٤/٥، ٣٣٠٩/٦، ٣٣١٢، ٣٤١٤، ٣٨٢٧، ٣٨٢٩ . ومعركة الإسلام الرأسمالية : ص ٧٣ ، وهذا الدين : ص٨٤-٨٥ ومعركتنا مع اليهود : ص ٣٣ .

المطلب الرابع

وقفة مع دعاوى" مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ "[(١)]

مما يثار حول سيد قطب- رحمه الله – أنه يطعن في أصحاب رسول الله ﷺ ويعتمد من تحدث عن هذه القضية على كتابات لسيد في بعض كتبه السابقة لالتزامه أو ما ألفه في بداية مرحلة تحوله نحو الإسلام، أو في طبعات تم تعديلها بعد ذلك، ويجعل ذلك وصفاً ثابتاً لسيد دون النظر في طبيعة المرحلة التي ألف فيها هذه الكتب، وكذا النظر في الطبعات المعدلة لهذه الكتب، أو النظر في كتبه الأخيرة، التي ألفها بعد التزامه بمنهج الإسلام كـ " الظلال، المعالم، المقومات، وغيرها "، ومعلوم أن سيداً – رحمه الله – كما ذكرنا في الباب الأول – مرَّ بمراحل مختلفة في حياته، وحصل له انحراف في بعضها، وبالتالي فمن الظلم تقييم فكر الرجل وعقيدته من خلال جمع النصوص من مراحل انحرافة وجعلها هي حقيقة ما كان عليه، كما فعل البعض [(٢)].

---

(١) ما بين القوسين عنوان كتاب لـ د / ربيع المدخلي .

(٢) انظر مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ للدكتور / ربيع المدخلي ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره ، وكذا الحد الفاصل للمدخلي أيضا ، وسيأتي بيان حقيقة ما في هذه الكتب ، في هذا المطلب .

فالموضوعية والأمانة في البحث العلمي المتجرد من الهوى والتعصب تقتضي النظر في موقفه من الصحابة – رضوان الله عليهم – عموماً، وكذا كلامه في بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – وحقيقته، وفي أي مرحلة كان؟ وهل تراجع عنه أو عدله؟ وما هو موقفة في كتبة الأخيرة من الصحابة – رضوان الله عليهم – الذي تكلم فيهم في كتبة الأدبية السابقة؟ وهو ما نحاول عرضة في الفروع الآتية:

الفرع الأول: لمحة تاريخية عن الكتب التي تكلم فيها سيد قطب عن بعض الصحابة:

العبارات التي انتقدت على سيد قطب عند كلامه عن بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – جاءت في كتابين:

الأول: كتاب " كتب وشخصيات ": وهو في الأصل عبارة عن مجموعة مقالات أدبية ونقدية، كان سيد – رحمه الله– ينشرها في بعض الصحف والمجلات في فترات متفرقة، بين عامي (١٩٤٢م –١٩٤٦م) أي قبل سفره إلى أمريكا بسنتين ثم جمعها وأصدرها في كتاب بهذا العنوان يقع في (٣٣٦) صفحة وتحدث فيه عن الصراع بين علي[١] ومعاوية – رضي الله عنهما –

---

(١) هو:علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ،ابن عم رسول الله ﷺ وزوج الزهراء،أبو الحسن والحسين،أول من آمن من الصبيان، شهد المشاهد كلها إلا

في معرض رده على بعض الكُتّاب، مستعرضاً أسباب غلبة معاوية على علي – رضي الله عنهما – بعبارات غير لائقة بمعاوية وعمرو بن العاص – رضي الله عنهما – منطلقاً – كما يقول – من الانتصار للخلق الفاضل، وليس لأنه شيعياً (١).

<u>الثاني: كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام "</u>: وهو أول كتاب فكري ألفه في بداية مرحلة تحوله إلى الدراسات الإسلامية، حيث كان قد ألف قبله كتابين هما: " التصوير الفني في القرآن الكريم " و" مشاهد القيامة " وخلال دراسته الفنية للقرآن الكريم وجد أنه يحتوي على حقائق وموضوعات فكرية وتشريعية المجتمع المعاصر في أمس الحاجة إليها، خاصة مع نشاط الشيوعيين في الدعاية لمناهجهم في تلك الفترة، وفساد أحوال الأنظمة والمجتمعات، فتحول سيد – رحمه الله – من الدراسات البيانية البلاغية للقران الكريم إلى الدراسات الفكرية وألف كتابة " العدالة الاجتماعية في الإسلام " عام ١٩٤٨م قبل سفره إلى أمريكا، وأصدره أخوه محمد قطب – حفظه الله – ١٩٤٩م، وكان سيد حينها في أمريكا.

تبوك، قتل بالكوفة سنة ٤٠هـ ،انظر: الإصابة لابن حجر،١٣١/٨والاستيعاب لابن عبد البر٥٧/٧ .

(١) ينظر : كتب وشخصيات سيد قطب ص ٢٤٢،٢٤٣ ، وكذا سيد قطب الأديب الناقد للدكتور / صلاح الخالدي ص ٣٤٢ وما بعدها .

والكتاب يتحدث عن نظرة الإسلام إلى الدين والمجتمع والإصلاح، وتميزه عن غيره من الأديان وخاصة المسيحية، وكذا الحديث عن طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام وعلاقتها بالعقيدة، وعن أسس ووسائل العدالة في الإسلام، وانتقل للحديث عن سياسة الحكم والمال والواقع التاريخي في الإسلام وعرض نماذج من عصر الصحابة – رضوان الله عليهم – في سياسة الحكم والمال من الوجهة الرسمية في الدولة واختلاف تصرفات الحكام المسلمين الأمويين والعباسيين عن ما كان عليه الوضع في الخلافة الراشدة.

وتكلم في هذا الفصل عن عثمان ومعاوية – رضي الله عنهما – بكلام غير لائق بهما، انتقده العلامة محمود شاكر – رحمه الله – في مقالات نشرها عام – (١٣٧١هـ – ١٩٥٢م)، ثم انضم سيد – رحمه الله– إلى الإخوان المسلمين عام (١٩٥٣م)، وعمل معهم حتى كانت محنة عام (١٩٥٤م) حيث سجن سيد قطب وحكم عليه بالأشغال الشاقة، واستمر حتى عام (١٩٦٤م) حيث خرج بعفو صحي، وفي عام (١٩٦٤م) أعاد النظر في كتاب العدالة الاجتماعية، وخاصة المواضع والألفاظ التي انتقده فيها محمود شاكر، حيث حذف بعضها وعدل بعضها، وأبقى بعضها كما هو، واصدر الطبعة

السادسة المعدلة عام (١٩٦٤م).

ومن هذا العرض التاريخي السابق لطبيعة الكتب والمرحلة التي جاء كلام سيد – رحمه الله– عن بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – فيها نجد:

١– أنها كانت في بداية مرحله تحوله نحو الدراسات الإسلامية بعد مرحله طويلة من الضياع الفكري والدراسات الأدبية والنقدية.

٢– أن سيد – رحمه الله– عدل بعض الألفاظ التي انتقدها عليه محمود شاكر – رحمه الله – كما سيأتي– بعد ١٢عاما، في مرحلة سيد الإسلامية والتي تعمق فيها في الدراسات الإسلامية أكثر من ذي قبل، مع بقاء بعض الألفاظ التي كان الأولى بسيد – رحمه الله– أيضا أن يعدلها.

٣– أن كلام سيد – رحمه الله– عن الصحابة – رضوان الله عليهم – عموماً وعن بعض الصحابة الذين تكلم فيهم في هذين الكتابين مختلف تماماً في كتبه الأخيرة – كما سيأتي بيانه – مما يدل على أن هذا الكلام كان في مرحلة ولها حكمها، وبالتالي فالاعتماد على ما في هذه الكتب، وعلى الطبعة غير المعدلة، ليس من الإنصاف والموضوعية في الردود والمناقشات العلمية.

الفرع الثاني مع الدكتور/ ربيع المدخلي حول " مطاعن سيد قطب في الصحابة "

يعتبر الدكتور / ربيع المدخلي أبرز من تفرغ في هذا العصر للتصدي لفكر سيد – رحمه الله – ومواجهته حيث ألف عدداً من الكتب في بيان مخالفات –سيد– وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة (١). وما انتقده على سيد – رحمه الله – لاشك أن فيه ما هو صواب وحق، وفيه ما هو غير ذلك.

وقد سبق بيان كثير من الأمور التي انتقدها المدخلي على سيد قطب في ما سبق من مباحث الرسالة كل في موضعه (٢).

ونقف هنا مع ما يتعلق بالصحابة – رضوان الله عليهم – حيث خصص الدكتور المدخلي كتابا بعنوان " مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ " جمع فيه العبارات التي اخطأ فيها سيد في حق بعض الصحابة – رضوان الله عليهم –، كما أورد فصلاً كاملاً في كتابه " أضواء إسلامية "حول " موقف سيد قطب من عثمان– رضي الله عنه– ومعظم الصحابة "

---

(١) منها : مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره ، والحد الفاصل .

(٢) ينظر على سبيل المثال القضايا الآتية : موقف سيد قطب من حديث الآحاد ، وسحر النبي ﷺ ، والألوهية والربوبية ، وموقف سيد قطب من الصفات وتأويلها ، ووحدة الوجود ، وخلق القرآن ، وغيرها ، من القضايا التي ذكرها الدكتور المدخلي في كتبه .

وكذا أعاد نفس الكلام في كتابه " الحد الفاصل " (١).

ومن خلال الاطلاع على كتب الكتور المدخلي السابقة، وعلى رسالة العلامة محمود شاكر – رحمه الله – التي انتقد فيها سيد قطب حول الموضوع، وعلى كتاب العدالة الاجتماعية لسيد قطب – رحمه الله – والمقارنة بين كلامه في الطبعات الأولى وبين الطبعة المعدلة وجدت الآتي:

أولاً: أن سيد –رحمه الله– عدل بعض الألفاظ التي انتقدها عليه محمود شاكر– رحمه الله – في الطبعة السادسة، ومع ذلك ففيها عبارات كان الأولى بسيد–رحمه الله– حذفها أو تعديلها كما فعل في غيرها.

ثانياً: يلاحظ على كلام الدكتور / ربيع المدخلي في كتبه حول موقف سيد من الصحابة ما يلي:

١– أن الدكتور / ربيع المدخلي جعل اعتماده في نقد سيد – رحمه الله– وإدانته له على الألفاظ السابقة التي ذكرها محمود شاكر– رحمه الله– في نقده لسيد، أي أنه أعتمد على الطبعة الخامسة قبل تعديل سيد لها وجعلها هي الأصل، وربما أصبحت مفقودة في عالم اليوم لأنها طبعت قبل أكثر من خمس

---

(١) ينظر : مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ ، وأضواء إسلاميه : ص ٢٧- ٦٢ والحد الفاصل : ص ١٢٩- ١٣٧ .

وأربعين عاما، ولم يعتمد في نقده على الطبعة التي عدلها سيد قبل موته بسنتين عام "١٩٦٤م " والتي تكررت طباعتها إلى اليوم، بل كان المدخلي يشير في الهامش بعد أن يذكر النص من الطبعة الخامسة بقوله ومعناه في الثانية عشر– أي في المعدلة – مما يدل على أنه يرى أن التعديل غير ذي قيمة!! وأحيانا يذكر أن سيد – رحمه الله– تلاعب بالألفاظ وتحايل في تغيير شكلها مع بقاء المضمون!!.

وعلى فرض صحة كلام الدكتور المدخلي ومع أنه دخول في نية الرجل، إلا أن المنهج العلمي والموضوعي في النقد يقتضي الاعتماد على آخر ما سطره الرجل ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى ما قبل التعديل إن كان الناقد يرى أن التعديل غير حقيقي أو أنه شكلي، واستسمح القارئ في أن انقل له جدولاً فيه مقارنة بين كلام سيد –رحمه الله– في الطبعة القديمة من العدالة الاجتماعية التي انتقده فيها الشيخ محمود شاكر ونقل عنها المدخلي في الغالب، وبين الطبعة المعدلة للكتاب، حتى يتبين الأمر وذلك كما يلي:

أولا: مقارنه بين ما أنتقده محمود شاكر وبين الطبعة المعدلة:

رقم الفقرة	نص الفقرة في الطبعة الخامسة قبل التعديل وفي رسالة	نص الفقرة في الطبعات المعدلة

	محمود شاكر – رحمه الله –	
(١)	فلما أن جاء معاوية وصير الخلافة الإسلامية ملكاً عضوضاً في بني أميه، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية، فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات (١)	فلما أن جاء الأمويون، وصارت الخلافة الإسلامية ملكاً عضوضاً في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية الذي أطفأ إشراقة الروح الإسلامي (٢)
(٢)	يقول شاكر: " ثم يذكر يزيد بن معاوية بأسوأ الذكر، ثم يقول: أي-سيد- " وهذا هو الخليفة الذي يفرضه معاوية على الناس، مدفوعا إلى ذلك	اثبت سيد – رحمه الله- بعض الروايات والملابسات التي صاحبت البيعة ليزيد وطريقة معاوية – رضي

(١) مجلة المسلمون : العدد ٣ سنة ١٣٧ه مقال للعلامة محمود شاكر رحمه الله ، نقلا عن : مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٣ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٤ .

	بدافع العصبية العائلية القبلية وما هي بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه، فمعاوية هو ابن أبي سفيان، وابن هند بنت عتبة(١)، وهو وريث قومه جميعاً، وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام، فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية فهو منه ومنهم بريء " (٢).	الله عنه – في إكراه الناس عليها، ثم يذكر في الهامش معلقا عليها بقوله " ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة(٥٦هـ) ونحن لا نحب أن نجزم بصدق مثل هذه الرواية، ولكن تبرئة للإسلام في ذاته نقول: " إنها إن صحت كان هذا مخالفة أساسية لطبيعة المنهج الإسلامي في الحكم لا تبررها حجة، ولا يقوم لها عذر"، ثم ذكر مقالة لبعض خصوم يزيد بن معاوية في وصف يزيد،

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي ، أم معاوية رضي الله عنها ، كان لها دور في قتل حمزة رضي الله عنه وأسلمت عام الفتح ، انظر: الإصابة لابن حجر ٤٢٥/٤ .

(٢) مطاعن سيد قطب : للمدخلي ص ١٣، ١٤ .

		وقال: فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد فإن تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد من قتل للحسين- رضي الله عنه- على ذلك النحو الشنيع إلى حصار البيت ورميه.. تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا كثيرا فيما قالوه. وأياً ما كان الأمر فان أحداً لا يجرؤ على الزعم بأن يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة – رضوان الله عليهم – والتابعون، إنما كانت مسالة وراثة الملك في البيت الأموي، وكان هذا

		الاتجاه طعنة نافذة في قلب الإسلام واتجاه الإسلام، وفي سبيل تبرئة الإسلام – روحه ومبادئه – من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعا في الإسلام نقرر هذه الحقائق، لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته " (١).
رقم الفقرة	نص الفقرة في الطبعة الخامسة قبل التعديل وفي رسالة محمود شاكر – رحمه الله –	نص الفقرة في الطبعات المعدلة
(٣)	"ولسنا ننكر على معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام	– في الطبعة المعدلة أول فقرة وهي قولة "

(١) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٥٤- ١٥٥ بتصرف، حيث يلاحظ أن الفقرة التي انتقدها محمود شاكر - رحمه الله- حذفها سيد بأكملها في الطبعة المعدلة .

	الوراثة وقهر الناس عليها فحسب!! إنما ننكر عليه أولاً وقبل كل شيء إقصاء العنصر الأخلاقي في صراعه مع عليٍّ، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاءً كاملاً لأول مرة في تاريخ الإسلام. فكانت جريمة معاوية الأولى التي حطمت روح الإسلام في أوائل عهده هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفياً باتاً، ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام، ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة. ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض	ولسنا ننكر على معاوية... إلى قوله.. سننه الرفيعة " وأثبت فقط من قوله: ولكي ندرك مع تعديل فيها على النحو الآتي: " ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان، وعلى أيدي علي الإمام ثم على أيدي الملوك من بني أمية، ومن بعدهم من بني العباس، بعد هذه

	صوراً من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان.. ثم على أيدي الملوك من بين أمية... ومن بعدهم من بني العباس، بعد أن خنقت روح الإسلام خنقاً على أيدي معاوية وبني أمية (١)	الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام. (٢)
(٤)	" ومضى عليٌ إلى رحمة ربه، وجاء معاوية ابن هند وابن أبي سفيان، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته كانت تقف حاجزاً أمام أمية، لقد أنهار هذا الحاجز، وانساح ذلك السد، وارتدت أمية طليقة حرة إلى وراثتها في الجاهلية والإسلام، وجاء معاوية تعاونه	" عدّل سيد – رحمه الله – الفقرة جذرياً في الطبعة المنقحة ونصها " ومضى عليٌ إلى رحمة ربه، وجاء بنو أمية، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، كانت تقف حاجزاً أمام أمية، لقد انهار هذا

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة – د/ المدخلي ص ١٤ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٦ .

العصبة التي على شاكلته، وعلى رأسها عمرو بن العاص، قوم تجمعهم المطامع والمآرب وتدفعهم المطامح والرغائب، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير "، " ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية، فنحن لا نؤرخ له هنا، وبحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك، لنعلم أي رجل هو!! ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقرر أي جريمة كانت تعيش في أسلاخ أمية على الإسلام والمسلمين "

ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية في أهل الكوفة بعد الصلح يقول فيها: " وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين " ويعقب عليه بأن الله أمر بالوفاء بعهود المشركين المعاهدين، ثم يقول أما معاوية فيخسيس بعهده

الحاجز، وانفتح الطريق للانحراف....

ثم تحدث عن انحراف ملوك بني أمية وبني العباس في سياسة المال وتصريفه والهبات لمن لا يستحق، باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز الذي أعاد الأمر إلى ما كان عليه في عهد الخلافة الراشدة، في الحكم والمال، وذكر نماذج من سيرة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله– في رده للمظالم وعدله في حكمه، ثم قال " وإذا كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية، ولكن الروح الإسلامي في الحكم،

فإننا نكتفي في إبراز مظاهر التحول والانحسار في هذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك وبموازنتها بالخطب الثلاث التي سبقت في عهد الخلفاء تبين الفارق العميق. ثم ذكر خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، وفيها ".. إلا أن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين " وحذف التعقيب الموجود في	للمسلمين ويجهر بهذه الكلمة جهرة المتبجحين، إنه من أمية التي أبت نحيزتها أن تدخل في حلف الفضول " (١)	

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٤- ١٥ بتصرف يسير .

		الطبعة السابقة كاملاً. (١)
(٥)	ثم يذكر خطبه أخرى لمعاوية في أهل المدينة " أما بعد فإني والله ما وليتها بيعة بمحبة علمتها منكم " ثم يعلق بقوله " أجل!! ما وليها بمحبة منهم، وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضا في دين الإسلام ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام، وهو ابن هند وابن أبي سفيان!! " (٢)	- يذكر خطبته في أهل المدينة فقط، ويحذف التعقيب كاملاً من قوله " أجل!! " إلى نهاية الفقرة. (٣)
(٦)	يقول: " وأما معاوية بعد عليٍّ فقد سار في سياسة المال سيرته التي ينتفي منها العنصر الأخلاقي، فجعله للرشى واللهى	" فأما بنو أميه فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرى، حتى كان عمر عبد العزيز، فصنع

(١) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٦٤- ١٦٧ بتصرف م.

(٢) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٢ .

(٣) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٦٨ .

	وشراء الأمم (ولعله الذمم) في البيعة ليزيد وما أشبه هذه الأغراض، بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال " (١).	الذي أسلفنا من رد المظالم، وفي الكف عن بعثرة أموال المسلمين في غير حقها، فلم يكن لبني أميه إلا ما لسائر الناس، ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب في هذا المال، فقد انقطع عن الشعراء المداح "(٢). حيث يلاحظ حذف الفقرة المنتقدة كاملة، وتعديل فكرتها تماماً كما في النص.
(٧)	" هذا هو الإسلام، على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى من غلبة أُسرة لم	" وهذا هو الإسلام على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى،

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٥ .

(٢) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٧٦ .

	تعمـــر روح الإســـلام نفوســـها، فأمنـت علـى حـرفٍ حـين غلـب الإسـلام، وظلـت تحلـم بالملـك الموروث العضوض حتـى نالتـه، فسـارت بـالأمر سـيرة لا يعرفهـا الإسلام " (١)	مـن انحـراف فـي تصـور معنـى الحكـم وسياسـة المال التي كانت لـه آثار ضخام.. " (٢). والفـرق بـين الفقـرتين واضح.
(٨)	" أبو سفيان هو ذلك الرجل الـــذي لقـــي الإســـلام منـــه والمسلمون ما حفلت به صفحات التـاريخ والـذي لـم يسـلم إلا وقـد تقررت غلبة الإسلام، فهو إسـلام الشـفة واللسـان، لا إيمـان القلـب والوجـدان، ومـا نفـذ الإسـلام إلـى قلب ذلك الرجل... " (٣)	محذوفــة كلهــا فـــي الطبعة المعدلة.
(٩)	" ولقد كـان أبـو سـفيان يحلـم	محذوفــة كلهــا فـــي

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٦ .
(٢) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٨١ .
(٣) مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ : د/ المدخلي ص ١٦ .

	بملك وراثي في بني أمية منذ تولى عثمان... " (١).	الطبعة المعدلة.
(١٠)	" ذلك أبو معاوية، فأما أمه هند بنت عتبة فهي تلك التي وقفت يوم أحد تلغ في الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة.... " (٢).	محذوفة تماما في الطبعة المعدلة. (٣)

هذه هي النقاط العشر التي انتقدها الشيخ محمود شاكر – رحمه الله – على سيد قطب في الرسالة التي أوردها الدكتور المدخلي في مقدمة كتابه: " مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ "، وكما لاحظنا من خلال المقارنة بينها وبين الطبعة التي عدلها سيد قطب فيما بعد أن سيداً حذف ما كان أساء فيه، وعدل بعض الألفاظ عما كانت عليه في الطبعة السادسة، ولا أدري لماذا يصر الدكتور المدخلي على وصف حذف سيد – رحمه الله– لما انتقده عليه محمود شاكر كما رأينا في الجدول السابق بأنه تلاعب بالألفاظ مع بقاء المعنى

---

(١) المصدر السابق: د/ المدخلي: ص ١٦ .

(٢) مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ : ص ١٧ .

(٣) انظر العدالة الاجتماعية: ص ١٧٦ وما بعدها حيث حذفت العبارات ٨-١٠ منها،

والمضمون مع أن القارئ المنصف يجد أن التعديل جذري بحذف العبارات والجمل المنتقدة، أو تعديلها لتعطي معنى مغايراً، كما سبق بيانه في جدول المقارنة.

* وهناك ملاحظة أخرى: وهي أن الدكتور المدخلي وبعد أن أورد رسالة محمود شاكر – رحمه الله – في نقده لسيد، أورد رسالة من سيد – رحمه الله – لأحد أصدقائه حول ما كتبه محمود شاكر من انتقادات لكتاب العدالة الاجتماعية، وفيها كلام حول نقد شاكر له، بين فيها سيد قطب أن سبب كلامه في معاوية وبني أمية، ليس عداءً شخصياً، وليس سباً للصحابة، وسوء نية في تدنيس المسلمين، إنما كان محاولة منه لبيان انحراف سياسة الحكم والمال عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة، ومحاولة تبرئة الإسلام من ما يلصقه به أعداؤه من التهم بسبب انحرافات الحكام من بني أمية في سياستهم في الحكم والمال. (١)

وهذه الرسالة نشرها سيد –رحمه الله– في مارس عام "١٩٥٢م "، أي في نفس الفترة التي نُشِرَ فيها نقد العلامة محمود شاكر –رحمه الله–.

ومع أننا لا نوافق سيداً في العبارات التي انتقده فيها محمود

---

(١) تنظر الرسالة في : مطاعن سيد قطب د/ المدخلي ص ٢٥-٢٩ .

شاكر، ولا في التبريرات التي ذكرها في رسالته حول نقد شاكر له، إلا أننا يجب أن نذكر أن- سيداً- عدل ما انتقده فيه محمود شاكر بعد "١٢ عاماً "، مما يعني أن سيداً تحول عما كان عليه في موقفه من انتقاد شاكر له، وبالتالي فلا يصح أن ندندن كثيراً حول رفض سيد قطب لانتقاد شاكر مادام الأمر قد أصبح في خبر كان، والأولى النظر في ما استقر عليه سيد – رحمه الله- في كتابه بعد التعديل، ونقده فيما اخطأ فيه.

ثانياً: مقارنة بين ما ذكره المدخلي في كتبه وبين الطبعة المعدلة لكتاب العدالة الاجتماعية:

ذكر الدكتور / المدخلي في كتبه الثلاثة حول سيد قطب انتقادات لما جاء في كتاب العدالة مما يتعلق بالإساءة إلى الصحابة – رضوان الله عليهم – والطعن فيهم، وقبل أن أورد جدولاً للمقارنة بين العبارات الموجودة في كتب الدكتور/ المدخلي وبين ما في العدالة الاجتماعية، أود التذكير بما سبق من أن الدكتور / المدخلي اتخذ منهجاً في معالجة الموضوع يقوم على الاعتماد على الطبعة الخامسة " قبل التعديل " ونقل النصوص منها وجعلها هي " النسخة الأم!! " مع علمه بأن سيد – رحمه الله- عدلها في الطبعة السادسة أو حذفها منها، واكتفى بالإشارة في الهامش بعد كل فقرة بقوله: " صفحه كذا

الطبعة الخامسة، ومعناه في صفحة كذا الطبعة الثانية عشرة – أي المعدلة – [١].

وأحيانا ينقل في الهامش التعديل ويعقب عليه بقوله: " ما هو إلا تغيير للفظ مع الحفاظ على المعنى"[٢].

وأحيانا ينقل من الثانية عشرة ما لم يكن من الألفاظ في الخامسة، وأحيانا العكس – كما يعمل المحقق لنسخ المخطوطة [٣]. ولا أدري ما هو السبب الذي حمله على فعل ذلك، مع أن الأصل في المنهج العلمي والنقدي أن يُعتمد الرأي الأخير الذي استقر عليه المؤلف وينقد أو يناقش ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى رأيه السابق إن كان لا يوجد بينه وبين الجديد خلاف.

وفيما يأتي جدول يبين النقولات التي أوردها الدكتور المدخلي في كتبه، مقارنة بما هو في الطبعة المعدلة من العدالة الاجتماعية لسيد قطب:

	الفقرة قبل التعديل	بعد التعديل

(١) انظرأمثلة لذلك في : " أضواء إسلامية " د/ المدخلي هوامش الصفحات ٣٢، ٣٣ ، ٣٤، ٣٥، ٣٨ ، ٣٩ و" مطاعن سيد قطب " هوامش الصفحات ٦٦ ، ١١٤ ، ١٦٤ .

(٢) أضواء إسلامية: هوامش الصفحات ٤٣ ، ٤٤ و " مطاعن سيد قطب " ص ٦٦ هامش ٣ ، ص ١٠٨ هامش ١ ، ص ٢٠٧ هامش ٢ .

(٣) مطاعن سيد قطب : ص ٦٦ هامش ١ ، ص ٦٧ هامش ٢ ، ص ٩٩ هامش ٢ ، ص ١١٧ هامش ١ .

(١)	" وفي سبيل تبرئة الإسلام – روحه ومبادئه – من ذلك النظام الذي ابتدع ابتداعاً في الإسلام نقرر هذه الحقائق لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته. ومما ضاعف الكارثة أن هذا الانحراف باكر الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة، فلم تتح له فرصة الثبات والاستقرار وتكوين التقاليد العميقة والأوضاع النظامية التي يصعب فيما بعد الخروج عليها وهو سوء حظ ولا شك فيه ولكنه في الواقع ليس	حذف سيد – رحمه الله– الفقرة التي تحتها خط من قوله: " ومما ضاعف الكارثة..... إلى – أصعب على من يحاولها – " وعدل في الفقرة الأخيرة قوله " بعد أن خفقت روح الإسلام " إلى " بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام ". (١)

(١) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٥- ١٥٦.

	المصادفة السيئة الأولى، فلقد كانت أسوأ مصادفة هي: تأخير علي وتقديم عثمان وهو شيخ ضعيف، وتسلم مروان بن الحكم الأموي مقاليد السلطة، فلو شاء حسن الطالع أن يتقدم عليٌ بعد الشيخين لاستمرت تقاليد الإسلام فترة أخرى، ولاستطردت موجته عهداً ثالثاً، ولكان غير ما كان من طمس روح الإسلام، فإن استقرار التقاليد الإسلامية فترة أخرى وقيام أوضاع نظامية محدودة من شأنه أن يجعل النكسة أصعب على من يحاولها، ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة	

	يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم و" المال " في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان، وعلى أيدي علي الإمام، ثم على أيدي الملوك من بني أمية ومن بعدهم من بني العباس بعد أن خفقت روح الإسلام " (١)	
(٢)	" لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح؟! ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا	حذف الجملة الأولى التي تحتها خط وعدل الأخيرة بقوله " لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل " (٤).

(١) مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٦٥، وقد نقلها عن الطبعة الخامسة من العدالة الاجتماعية ص ١٨٢، وكلمة " المال " أضافها من الطبعة الثانية عشرة المعدلة وأشار في هامش إلى ذلك !!!

(٤) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٤.

	الدين، وفيض عارم في طاقته لكانت أيام أمية كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير " [1].	
(٣)	" هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئا ما بدون شك على عهد عثمان، ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان، وكيد أمية من ورائه. فهم عثمان – رحمه الله – أن كونه إماماً يمنحه حرية التصرف في مال	" هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئا ما بدون شك على عهد عثمان – وإن بقي في سياج الإسلام – ولقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمور بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما إن طبيعة عثمان الرخية، وحدبه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ٨٢- ٨٦ ، حيث نقله من الطبعة الخامسة قبل التعديل ، وأضواء إسلامية ص ٥٣ .

	المسلمين بالهبة والعطية، فكان رده في كثير من الأحيان على منتقديه في هذه السياسة " وإلا ففيم كنت إماما؟! " كما يمنحه حرية أن يحمل بني معيط وبني أمية – من قرابته – على رقاب الناس، وفيهم الحكم طريد رسول الله ﷺ لمجرد أن من حقه أن يكرم أهله ويبرهم ويرعاهم " (١).	صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى منها الإسلام كثيراً " (٢). حيث حذف الجملة ابتداء من قوله " فهم عثمان – رحمه الله – أن كونه إماما.... إلى أخرها. " ومع ذلك يثبتها المدخلي في أكثر من مكان من كتبه نقلاً عن الطبعة السابقة للتعديل.
(٤)	"ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح	–" ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ٨٩ وأضواء إسلامية للمدخلي ص ٣٢ .

(٢) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٥٩ ، وقد أشار إليها المدخلي في هامش ص ٨٩ من كتاب المطاعن .

	الإسلام، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته وهرمه لا يملك أمره من مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ، الذي هو خطا المصادفة السيئة في ولايته الخلافة وهو شيخ موهون تحيط به حاشية سوء من أميه " (١)	الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ، الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان " (٢).
(٥)	تحت عنوان: سيد قطب	– عدل فيها سيد ما تحته

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ١٠٨ ، نقله من الخامسة ، ثم أشار في الهامش إلى أن سيداً أو غيره تحايل فحذف هذه التهم الأولى ، وأبقى= =معناها ومضمونها ، وقد غير بعض الألفاظ في النص محافظاً على معناه ، ثم ذكر ما في الطبعة المعدلة . وينظر أيضا: أضواء إسلامية ص ٣٤

(٢)العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٩- ١٦٠..

	يرى أن الثورة التي قادها ابن سبأ اليهودي أقرب إلى روح الإسلام من عثمان بن عفان! ينقل نصاً من الطبعة الخامسة وفيه " وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان واختلط فيها الحق بالباطل، والخير بالشر، ولكن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام أن يقرر: أن تلك الثورة في عمومها كانت أقرب إلى روح الإسلام، واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدق من	خط بقوله: " أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام. وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ لعنه الله! " (١).

	موقف مروان ومن ورائه بنو أميه " (١).	
(٦)	واعتذرنا لعثمان – رحمه الله – أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين، واهن القوى ضعيف الشيخوخة..... "(٣)	واعتذرنا لعثمان – رحمه الله – أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين " (٤) حيث حذف قوله " واهن القوى ضعيف الشيخوخة "
(٧)	" جاء عثمان فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو	عدل فيها ما تحته خط بقوله: " فإذا نوع من

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٠ـ ١٦١، ١٧٤.

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ١١٤ ، ويقول في الهامش وقد تغير هذا النص شيئا من التغيير ، مع الإصرار على مضمونه ، و أضواء إسلاميه ص ٣٤، ٤٥ .

(٣) مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ١١٥ ، وأضواء إسلاميه ص ٣٥ . وكلاهما منقول من الطبعة الخامسة قبل التعديل .

(٤) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٦١ .

	أحدهما، ترك الفضول لأصحابها.. وترك الأعطيات.. ووسع على الناس..... فإذا عهد من عهود الإقطاع يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله " (١)	الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده –رحمه الله –" (٢)
(٨)	– " ولقد كان ذلك براً ورحمه بالمسلمين وبكبرهم خاصة ولكنه أنشأ شراً عظيماً لم يكن خافياً على فطنة أبي بكر وعمر بعده، أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما	حذف منها ما تحته خط فأصبحت " كما أنشأ طبقه تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب " (٤).

(١) مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٧٠٢ وأضواء إسلاميه ص ٤٣ ، مع الإشارة في الهامش إلى أن سيداً غير بعض الألفاظ مع بقاء المعنى .
(٢) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٧٣,
(٤) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٧٣.

	أنشأ طبقة ارستقراطية فارغة يأتيها رزقها من كل مكان دون كدٍ ولا تعب " (١).	
(٩)	فلما أن جاء عليٌ لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هوادة، وقد علم المستنفعون على عهد عثمان وبخاصة من أمية، أن علياً لن يسكت عليهم فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية. – ولو قد جاء علي عقب عمر ما كان لهم إلى هذا الانحياز من سبيل، فقوة معاوية يوم ذاك لم تكن تصمد لقوة	حذف سيد – رحمه الله– الفقرة كاملة في الطبعة المعدلة ابتداءً من قوله " ولو قد جاء علي عقب عمر – إلى آخر الفقرة (٤)

3مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٢١٥.

(٤) العدالة الاجتماعية: ص ١٦١ .

	الخلافــة، ولا لقــوة الــروح الدينيــة فــي النفــوس ومــا كــان معاويـــة ليخـــاطر بالخروج علـى الخليفة كما خــرج، فــإن ثلاثــة عشــر عاماً من حكم عثمان هي التــي جعلــت مــن معاويــة معاويـة، إذ جمعت لـه قـوة المــال وقــوة الجنــد وقــوة الدولـة في الأقطار الأربعة بالشام.. إنها المحنة الحقة أن عليــا لــم يكــن ثالــث الخلفاء! " (١)	
(١٠)	والــذين يــرون فــي معاويــة دهاءً وبراعةً ولا يرونها في علي، ويعزون إليهما غلبة	حــذف ســيد – رحمــه الله– الكلمات التـي تحتها خط " ووهنـــه "، " فمـــا جـــدوى

(١) أضواء إسلامية ، للمدخلي ص ٣٨ نقله من الطبعة الخامسة قبل التعديل ، وأشار في الهامش إلى أن ملخصه في الطبعة الثانية عشر المعدلة ، وينظر أيضا الحد الفاصل : ص ١٣٠ .

استبدال معاوية بمعاوية "، وعدل قوله " فلو جارى معاوية...، بقوله " فلو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية " - وزاد عند ذكره الرواية عن علي قوله " فيما روي عنه إن صحت الرواية " (١)	معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف كما يخطئون فهم عليٍ وواجبه، لقد كان واجب علي الأول والأخير: أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلى الدين روحه وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي أمية في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر الأخلاقي من حسابه لسقطت مهمته ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين، فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية؟ إن عليا إما أن	

---

(١) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٣- ١٦٤.

	يكون علياً، أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه- كرم الله وجهه - وهو يقول: " والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس " (١).	
(١١)	ومما انتقده المدخلي على سيد أنه ساق التوارث ومنها ثورة القرامطة مساق الاعتزاز والتباهي، ونقل نصاً من الطبعة الخامسة، ليس موجوداً في الطبعة المعدلة (٣).	حذف سيد كلامه حول الثوارت من الطبعة المعدلة.

(١) أضواء إسلامية: ص ٤١ نقلها من الطبعة الخامسة والمعدلة.

(٣) أضواء إسلامية: ص ٤٦.

وعموما فهذه نماذج لمنهج الدكتور/ ربيع المدخلي في جميع كتبه في قضية نقده لسيد قطب واعتماده على فقرات من الطبعة القديمة رغم أن المعدلة بين يديه، ولا يعني ذلك أن سيداً لم يخطئ بل نوافق المدخلي في بعض العبارات التي انتقدها على سيد – رحمه الله– في حديثه عن بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – والتي كان الأولى بسيد – رحمه الله– حذفها أو تعديلها.

<u>الفرع الثالث: " موقف سيد قطب من الصحابة في كتبه الإسلامية الأخيرة:</u>

ذكرنا سابقاً أن سيد – رحمه الله– مر بمراحل مختلفة، وكانت كتاباته مختلفة أيضاً في كل مرحلة، وإذا كنا قد استعرضنا في الفرعين السابقين ما كتبه سيد – رحمه الله– في بعض كتبه الأدبية والفكرية التي ألفها في بداية تحوله نحو الإسلام، فإن من الواجب أن ننظر في كتبه الإسلامية الأخيرة وما يتعلق بموقفه من الصحابة – رضوان الله عليهم – عموماً والصحابة الذين تكلم فيهم في كتبه السابقة خصوصاً، لنعرف هل عدَّل سيد– رحمه الله– موقفه منهم، أم ما يزال هو هو؟ وبيان ذلك فيما يلي:

<u>أولاً: موقف سيد قطب من الصحابة عموماً:</u>

استعرضنا في المطلب الأول من هذا المبحث مكانة الصحابة – رضوان الله عليهم – من خلال كلام سيد – رحمه الله– في ظلال الآيات التي تحدثت عن مكانة الصحابة في هذا الدين وفضائلهم ونستطيع هنا أن نلخص رؤية سيد – رحمه الله– لمكانة الصحابة عموماً فيما يأتي:

١– الصحابة هم الصفوة المختارة من البشر، الذين رفعهم الله، ورفع من شأنهم – حتى أنهم يبادلونه الرضى والحب.

٢– وعد الله لهم بالجنة والفوز [١].

٣–الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا أهل صدق وحمية لدينهم وطاعة لربهم ونبيهم وبالتالي حصلوا على رضوان الله عنهم، وتكريم الله لهم. [٢]

٤– تكريم الله لهم في مدحه وتصويره لظاهرهم وباطنهم بما يدل على عظمتهم وحب الله لهم، فهم أخلص العباد ولاءً وبراءً، وهم أعبد الناس لربهم وأحرص الخلق على رضوانه سبحانه وإثبات مكانتهم في الكتب السابقة والأديان الأولى، قبل أن يظهروا إلى الوجود. [٣]

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٣/١٧٠٥-١٧٠٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٢٥- ٣٣٢٦ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٣٣١-٣٣٣٣ بتصرف .

٥- إشادة سيد - رحمه الله- بالقاعدة الصلبة لهذه الأمة والمتمثلة بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ووصفهم بأنهم لم تشهد البشرية مثلهم في إيمانهم وبذلهم وصدق أخوتهم وشرف صحبتهم لرسول الله ﷺ. (١)

٦- تميز جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - مع تفاوت الأفراد في هذا الجيل حيث يقرر- سيد - ما عليه أهل السنة في أن أفضل الصحابة - رضوان الله عليهم - هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ثم أهل بدر ثم أصحاب بيعة العقبة، ثم الذين أنفقوا وجاهدوا قبل الفتح، ثم مسلمة الفتح " (٢). ومع هذا إلا أن الله وعد جميع الصحابة بالحسنى {وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ} على تفاوت ما بينهم (٣).

٧- أن الصحابة هم الجيل الذين صنعوا على عين الله، وتربوا على يد رسول الله ﷺ فهم جيل مميز من بين البشر، عايشوا النبي ﷺ وسدد الوحي خطواتهم أولاً بأول استقوا من النبع الصافي – الوحي – فكانوا جيلاً فريداً في تاريخ البشرية (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٦، ٣٤٨٣.

(٢) المصدر السابق ٣/١٥٧٠- ١٥٧٦، ٣/١٧٠٣ -١٧٠٥.

(٣) المصدر السابق ٦/٣٤٨٤.

(٤) المصدر السابق ٣/١٤٢٣، ٤/٢٤٩٤، ٦/٣٤٨٣ ومعالم في الطريق: ص ١٥-١٧ هذا الدين: ص ٤٢، ٤٣.

٨- جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - أصدق الناس إيماناً وتضحيةً وثباتاً في مواجهة الأهوال والأخطار، وتصديقاً لما جاء به الرسول ﷺ (١).

٩- وعموماً فسيد قطب يرى أن جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - " جيل قرآني فريد " لم ولن تشهد الحياة تكرر جيل مثله بتلك الصورة وبذلك التجمع.

هذا مجمل ما جاء في كلام سيد - رحمه الله- في كتبه الأخيرة عن جيل الصحابة إجمالا.

ثانياً: الخلفاء الراشدون ومكانتهم:

تحدث سيد قطب في " الظلال والمعالم " وغيرها عن الخلفاء الراشدين الأربعة حديث المعظم لهم والموقر لمكانتهم، ويمكن الإشارة إلى بعض فضائل الخلفاء الراشدين التي ذكرها سيد قطب فيما يأتي:

أ- فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وبعض صفاته:

أشار- سيد- إلى عدد من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في مواطن متفرقة يمكن إجمالها فيما يلي:

١- " أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أكرم من أقلت

---

(١) في ظلال القرآن ٩٩٨/٢ ، ١٥٧١/٣، ١٧٠٣ ، ١٧١٦ ، ٣٣٢٦/٦، ٣٤٨٤ .

الأرض بعد رسول الله ﷺ" [1]، وأعرف أصحاب رسول الله ﷺ بروح الإسلام" [2].

٢- صدق إيمانه وقوة يقينه وثباته في مواطن الخطر: والأمثلة على ذلك في حياة الصديق - رضي الله عنه - كثيرة جداً منها:

* ثباته على الأذى في مكة: يقول سيد: " فلقد كان أبو بكر الصديق- رضي الله عنه - يردد والمشركون يتناولونه بالأذى، ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه حتى تركوه وما يعرف له فمٌ من عينٍ! كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ: " رب ما أحلمك! رب ما أحلمك! رب ما أحلمك! " كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه! لقد كان واثقاً أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه، كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه! " [3].

* موقفه في حادثة الإسراء والمعراج:

عندما حدث رسول الله ﷺ الناس بما وقع له في الإسراء

---

(١) في ظلال القرآن ١٤١٦/٣.

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية: ص ٧١.

(٣) في ظلال القرآن ١٤١٦/٣ .

والمعراج تفاوتت مواقفهم " بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر - رضي الله عنه- فقال: أو قال ذلك؟ قالوا نعم. قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! فسمي الصدّيق " (١). " وقد صدق أبو بكر- رضي الله عنه- وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول: إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! " (٢).

* موقفه في الغار في حادثة الهجرة:

وهذا الموقف من مواقف الصديق - رضي الله عنه - سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: { إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا } [سورة التوبة:٤٠] ، وذلك حين ضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعاً كما تضيق القوة الغاشمة دائماً

(١) المصدر السابق ٢٢١٠/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٢١١/٤ .

بكلمة الحق، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صبراً، فائتمرت به، وقررت أن تتخلص منه، فأطلعه الله على ذلك، وأوحي إليه بالخروج، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصدّيق.. والسياق يرسم مشهد الرسولﷺ وصاحبه " إذ هما في الغار " والقوم على إثرهما يتعقبون، والصديق – رضي الله عنه – يجزع – لا على نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ " (١).

* موقفه في بدر وأحد والحديبية وغيرها من المشاهد:

حيث يتجلى صدق إيمانه ويقينه بربه سبحانه في موقفه مع النبي ﷺ وهو يناشد ربه، حيث جاء في الحديث: " إن النبي – ﷺ – قال وهو في قبة له يوم بدر: " أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً " فأخذ أبو بكر – رضي الله عنه– بيده، وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك! فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: " سيهزم الجمع

---

(١) في ظلال القرآن ١٦٥٦/٣ والحديث في الصحيحين ،وقد سبق تخريجه ص٥٩٦ :

ويولون الدبر "[1] " [2].

وفي رواية أخرى: أن النبيﷺ نظر يوم بدر إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً " قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه، ثم ألتزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [3]، [4].

كما روي انه – رضي الله عنه – هم بقتل ولده عبد الرحمن وكان مع المشركين في بدر. [5]

– أما في أحد فقد انقلبت المعركة على المسلمين ووقع الهرج

---

(١) رواه : البخاري ي الجهاد باب ما قيل في درعه - ﷺ - ١٠٦٧/٣ برقم ٢٧٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ٣٤٣٥ .

(٣) رواه : مسلم في الجهاد باب الإمداد باللائكة في بدر ١١٠٩/٣ برقم ١٧٦٣ .

(٤) في ظلال القرآن ١٤٨٣/٣ .

(٥) المصدر السابق ٣٥١٥/٦ .

في صفوفهم، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا نفر من أصحابه يعدون على الأصابع يدافعون عنه، وفيهم أبو بكر وعمر وبعض الأنصار" (١).

- أما في الحديبية فقد كان موقفه – رضي الله عنه – موقف المؤمن بربه، المستسلم لنبيه ﷺ فعندما راجعه عمر – رضي الله عنه – في شأن الصلح مع المشركين، قال له أبو بكر – رضي الله عنه –: إلزم غرزه، (٢) فإني أشهد أنه رسول الله " (٣)، ففي موقفه هذا – رضي الله عنه – نرى اليقين والقبول الخالص العميق، فالصديق أبي بكر – رضي الله عنه – لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها بروح رسول الله ﷺ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائماً، ولم تفارقها الطمأنينة أبداً "(٤).

– ومن مواقف ثباته ورسوخه أيضاً ما جاء في الصحيحين وغيرها: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل طعاما، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً من الراسخين منهم أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما

---

(١) في ظلال القرآن ٤٦٢/١ .

(٢) إلزم غرزه : أي التزم طريقه ، وأصله وضع القدم في الركاب موضعه .

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٠٩/٦ .

(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٣١٢ .

"(١).

* ثباته يوم وفاة النبي ﷺ: " فلقد أصيب المسلمون – عند موت النبيﷺ بالدهشة والذهول، حتى لقد وقف عمر – رضي الله عنه – شاهراً سيفه يهدد به من يقول: إن محمداً قد مات!

ولم يثبت إلا أبو بكر، الموصول القلب بصاحبه وبقدر الله فيه الاتصال المباشر الوثيق، حين ذكرهم بقوله تعالى: { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ } [سورة آل عمران:١٤٤] فإذا هم يثوبون ويرجعون " (٢).

* ثباته أيام الردة: ومن ذلك ثباته في قتال المرتدين، حيث وقف وقفته المشهورة وقال قولته الخالدة " والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه " مخالفاً في ذلك رأي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الذي كان يرى قبل أن يفيء إلى رأي أبي بكر ويشرح الله له صدره ويعلم أنه الحق "(٣).

(١) رواه : البخاري في التفسير – سورة الجمعة ١٨٥٩/٤ برقم ٤٦١٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٤٨٧/١ بتصرف يسير .
(٣) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٦٩-١٧٠ .

– ومن ذلك أيضا: إنفاذه جيش أسامة [١]– رضي الله عنه – وقتال المرتدين ومانعي الزكاة، يقول سيد – رحمه الله– " وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله ﷺ صاحبه الأول أبو بكر، وصاحبه الثاني عمر، أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر، وأشد اثنين انطباعاً بهدي رسول الله ﷺ وأعمق اثنين حباً لرسول الله ﷺ وحرصاً على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه.

حفظ أبو بكر رضي الله عنه عن صاحبه ﷺ ما أراده في أمر أسامة، فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة على رأس الجيش الذي أعده رسول الله ﷺ وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة، أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل، فيستحي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشي. فيقول: " يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن " فيقسم الخليفة " والله لا تنزل، ووالله لا أركب " وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؟

ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر، وقد حمل عبء

---

(١) هو: أسامة بن زيد بن حارثة ، صحابي ابن صحابي ،ولد بمكة ونشأ على الإسلام كان يحبه الرسول ﷺ١٧حباً جماً ،أمره النبي قبل العشرين من عمره ، توفي سنة ٥٤هـ،بالمدينة ، انظر :سير أعلام النبلاء ٣٤٢/٦ والأعلام ٢٩١/١ .

.

الخلافة الثقيل، ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة، وأسامة هو الأمير، فلا بد من استئذانه فيه، فإذا الخليفة يقول: " إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ".. يا لله! إن رأيت أن تعينني فافعل.. إنها آفاق عوالٍ، لا يرقى إليها الناس إلا بإرادة الله، على يدي رسول من عند الله! " (١).

٣- بذله في سبيل الله تعالى:

بذْلُ أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – في سبيل الله من الأمور المستفاضة والتي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة والتاريخ، فقد كان – رضي الله عنه – من أصحاب السعة والفضل كما سماه القرآن الكريم، ومن ذلك:

* شراؤه – رضي الله عنه – للموالي: الذين كانوا يعذبون في أول الإسلام وإعتاقهم، ليمنع بذلك تعذيبهم بهذا الإجراء، وتمتنع فتنتهم عن دينهم، ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد (٢) .

يقول سيد في ظلال قوله تعالى: { فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ } [سورة البلد:١١-١٣] : " ثبات وطمأنينة واستقامة، ثم أورد سيد – رحمه الله– روايات في

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨٢٩/٦ وينظر أيضا : ٣٣١/١ ، ١٦٢٩/٣ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٤٣ .

أسماء من اعتقهم أبو بكر – رضي الله عنه – من الموالي والعبيد، وكان يريد ما يريد لله، فعندما قال له أبوه: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك! فقال له أبو بكر – رضي الله عنه–: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله...

لقد كان– رضي الله عنه– يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله، وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله"(١)

" بل إنه– رضي الله عنه – أسلم وله أربعون ألف درهم مدخرة بمكة من ربح تجارته فأنفقها في شراء الموالي، حتى أنه هاجر إلى المدينة وليس له إلا خمسة آلاف درهم " (٢).

* إنفاقه على المحتاجين من الفقراء والمهاجرين:

ومن ذلك ما جاء في سورة النور في سبب نزول قوله تعالى: { وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [سورة النور:٢٢] يقول سيد – رحمه الله–: "

(١) في ظلال القرآن ٣٩١٢/٦-٣٩١٣ بتصرف يسير .

(٢) العدالة الاجتماعية : ص ١٥٠ .

نزلت في أبي بكر – رضي الله عنه- بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة، وقد عرف أن مسطح بن أثاثه كان ممن خاضوا فيه، وهو قريبه، وهو من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر –رضي الله عنه- ينفق عليه، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً.

فنزلت هذه الآية تذكر أبا بكر، وتذكر المؤمنين، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه، وإن كانوا قد أخطئوا وأساءوا.

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق – رضي الله عنه- أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، وما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما يكاد يلمس وجدانيه ذلك السؤال الموحي: " ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ " حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبداً، ذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بنافعة

أبداً.

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبداً نظيفاً طاهراً زكياً مشرقاً بالنور " [1].

٤- رقته وتحرجه وحساسيته:

كان أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – رجلاً رقيقاً رحيماً شديد الحساسية والتأثير، فما أن يسمع الآية من القرآن الكريم حتى تأخذ منه مأخذاً، وقد جاءت روايات متعددة فيها إشارة إلى هذه الصفة من صفات الصديق – رضي الله عنه – منها،

– لما نزل قوله تعالى: { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ } [سورة النساء:١٢٣] . قال أبو بكر – رضي الله عنه –: " يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية؟ فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبي ﷺ " غفر الله لك يا أبا بكر. ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ " قال بلى! قال: " فهو مما تجزون به "، وفي رواية: " أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٠٤-٢٥٠٥ .

فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة " (١) (٢).

- ومن ذلك أيضا ما جاء في الصحيح: " كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- رفعا أصواتهما عند النبي - ﷺ - حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر بالقعقاع بن معبد، فقال: أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ } [سورة الحجرات:٢] قال فما كان عمر - رضي الله عنه- يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه!.. وأما أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار " يعني كالهمس! " (٣)، (٤).

- ومن ذلك بكاؤه - رضي الله عنه - مع النبي ﷺ لما نزلت الآية في شان الأسرى حين استشاره النبي ﷺ في شانهم فقال:

---

(١) رواه : أحمد ١/ ١١، والحاكم ٧٤/٣ وهو صحيح بشواهده وطرقه ، انظر :مسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ٢٣٠/١-٢٣٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٧٦٣/٢ بتصرف يسير .

(٣) رواه : البخاري في كتاب الاعتصام باب ما يكره في التعمق والتنازع في العلم ٢٦٦٢/٦ برقم ٦٨١٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٣٣٩/٦ بتصرف يسير .

يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، - واستشار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأشار بقتلهم - فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبيﷺ وأبي بكر وهما يبكيان.. الحديث "، وفي رواية أن النبي ﷺ قال: " إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم -عليه السلام- قال: {فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة إبراهيم:٣٦] ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى -عليه السلام-: قال: { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [سورة المائدة:١١٨] ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى - عليه السلام - قال: {رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ } [سورة يونس:٨٨]

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال: { وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا

تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا} [سورة نوح:٢٦] ،(١)" (٢).

– ومنها قول عائشة – رضي الله عنها – للنبي ﷺ لما قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، إن أبا بكر رجل أسيف، فإذا قام الناس لم يسمعوا صوته " (٣).

٥- تواضعه ولين جانبه – رضي الله عنه –: وذكر سيد من ذلك:

* مشيه مع أسامة – رضي الله عنه – عند إنفاذ جيشه راجلا وأسامة راكبا وحلفه عليه ألاَّ ينزل (٤).

* إنكاره على بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – (٥) كلامهم في شأن أبي سفيان– رضي الله عنه– وإخباره للنبي ﷺ فقال له: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك "

---

(١) رواه:احمد ٣٨٣/١٠ والترمذي برقم١٧١٤ وفي سنده ضعف ،انظر:المسند بتحقيق الأرناؤوط ١٣٨/٦وضعيف سنن الترمذي للألباني ص ١٦٤ حديث رقم ١٧١٤.

(٢) في ظلال القرآن ١٥٥١/٣-١٥٥٢ بتصرف يسير .

(٣) العدالة الاجتماعية : ص ١٥٣ والقصة في .

(٤) في ظلال القرآن ٣٨٢٩/٦ .

(٥) وهم سفيان وصهيب وبلال – رضي الله عنهم – مر بهم أبو سفيان فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا الشيخ قريش وسيدهم ..الحديث .

فأتاهم أبو بكر – رضي الله عنه – فقال: يا اخو تاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك " (١)، (٢).

*عندما سئل عن الكلالة قال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: الكلالة من لا ولد له ولا والد (٣).

* " قوله رضي الله عنهم بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر انطلق بنا إلى أم أيمن – رضي الله عنها – نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها " (٤).

* تواضعه بعد توليه الخلافة: حيث بقي في سكنه في منزله الصغير المتواضع بالقرب من المدينة، وكان يمشي على قدميه إلى المدينة، وكان يعمل في التجارة حتى جعلوا له من بيت المال ما يكفيه ليتفرغ وكان يحلب للضعفاء أغنامهم (٥).

---

(١) سبق تخريجه ص ٩٤٩.
(٢) في ظلال القرآن ١١٠٢/٢ بتصرف يسير .
(٣) تفسير الطبري ٣، /٦٢٥-٦٢٦، وفي ظلال القرآن ٥٩٤/٢ .
(٤) رواه : مسلم في فضائل الصحابة ، باب فضائل أم أيمن ١٥١٦/٤ برقم ٢٤٥٤ .
(٥) العدالة الاجتماعية: ص ١٥٦ بتصرف.

فهذه بعض النصوص التي ذكرها سيد – رحمه الله– عن مواقف وفضائل وصفات أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – باعتباره، كما يقول سيد – رحمه الله– واحداً من الرجال العظام في الجيل الأول في حياة الرسول ﷺ " [1].

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٤٤/٥ .

ب- فضائل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وبعض صفاته:

أشار سيد قطب في مواطن كثيرة إلى فضائل وصفات عمر - رضي الله عنه - ومن ذلك.

١- أنه هو وأبو بكر - رضي الله عنهما - أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الدين، وأشد اثنين انطباعاً بهدي رسول الله ﷺ، وأعمق اثنين حباً لرسول الله ﷺ وحرصاً على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه، فكان من تدبير الله أن يليا الأمر بعد رسول الله ﷺ " (١).

٢- ثباته وقوته في الحق:

والأمثلة في حياة عمر كثيرة جداً، تبين مدى ثباته - رضي الله عنه - وصدق إيمانه وقوته في الحق وقد مر معنا في فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - مواقف كان عمر - رضي الله عنه - صاحبه فيها ومن ذلك:

* ثباته مع النبي ﷺ في احد، ورده على أبي سفيان يومذاك " (٢).

---

(١) المصدر السابق ٣٨٢٩/٦.

(٢) المصدر السابق ٤٦٢/١.

*وثباته يوم الجمعة مع أبي بكر والراسخين حين انصرف الناس إلى القافلة (١).

* قوته أمام أهل الكفر والنفاق ومن ذلك موقفه يوم بدر في شأن الأسرى، وتمثيل النبي ﷺ له بموسى ونوح – عليهما السلام – في شدتهما على أهل الكفر (٢).

* موقفه يوم الحديبية في شأن الصلح ومعارضته لبنود الاتفاق ظناً منه أن فيها تنازل لقريش، ومراجعته لأبي بكر– رضي الله عنه – ولرسول الله ﷺ في ذلك غيرةً على الدين واعتزازاً به (٣).

*ضربه صبيغ بن عسل بعد حواره معه، عندما وجده يسأل عن المتشابهات تعنتاً، حتى ذهب ما في رأسه (٤).

٣- بذله في سبيل الله:

حيث كان من السباقين إلى البذل بعد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ومن ذلك: وقفه لأرضه التي بخيبر جاء في الصحيحين أن عمر– رضي الله عنه – قال: يا رسول الله، لم اصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما

---

(١) المصدر السابق ٣٥٦٣/٦.

(٢) المصدر السابق ١٥٥١/٣-١٥٥٢.

(٣) المصدر السابق ٣٣١٢/٦.

(٤) المصدر السابق٣٣٧٤/٦.

تأمرني به؟ قال: احبس الأصل، وسبل الثمرة" (١) " (٢).

٤- خوفه وتأثره بالقرآن الكريم: رغم ما عرف به عمر - رضي الله عنه - من القوة والشدة إلا أنه كان سريع التأثر بالقرآن الكريم والخوف من الله - سبحانه وتعالى - ومن ذلك:

* أنه خرج ذات ليلة يعس بالمدينة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: " والطور.. حتى بلغ: إن عذاب ربك لواقع، ما له من دافع " فقال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه (٣).

* خوفه لما قرأ قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ } [سورة الأنعام:٨٢] ، حيث فزع وأتى أبيّ بن كعب فقال: يا أبا المنذر، قرأت آية من كتاب الله، من يَسلم؟ فقال: ما هي؟، فقرأها عليه فأينا لا يظلم نفسه؟ فقال: غفر الله لك! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول: " إن الشرك لظلم عظيم "؟ إنما هو: ولم

---

(١) رواه : مسلم في كتاب الوصية باب الوقف ١٠١٦/٣ برقم ١٦٣٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٤٢٥/١ ، والعدالة الاجتماعية ص ١٥٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٩٤/٦ والقصة في

يلبسوا إيمانهم بشرك.[1].

٥- وصية النبي ﷺ بالاقتداء بهدي أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -:

حيث أورد سيد - رحمه الله- قوله ﷺ: " إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي وأشار إلى أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -"[2]، [3].

٦- سداد رأيه في كثير من القضايا التي اقترحها وموافقة القرآن الكريم له ومنها:

* إشارته بقتل الأسرى في بدر [4]

* قصة الحجاب وعرضه على النبي - ﷺ - حجب نسائه [5].

٧-عدله وضبطه لعماله ووفاؤه:

حيث أشار سيد - رحمه الله- إلى عدد من المواقف التي تدل على عدل عمر في رعيته واهتمامه بهم وعلى محاسبته

---

(١) في ظلال القرآن ١١٤٣/٢ .

(٢) رواه : الترمذي في المناقب ٥٦٩/٥-٥٧٠ برقم ٣٦٦٢-٣٦٦٣ ، وابن ماجة وأحمد ٣٨٢/٥ في فضائل الصحابة برقم ٩٧ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٥٠٢/٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٨ .

(٤) في ظلال القرآن ١٥٥١/٣- ١٥٥٢ .

(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٨٧٧ .

لعماله وأمره لهم بالوفاء [1].

هذه بعض النصوص التي تبين موقف سيد – رحمه الله– من فضائل عمر – رضي الله عنه – في كتبه الأخيرة، أما في كتبه السابقة ومنها: العدالة الاجتماعية فقد تحدث كثيراً عن عمر وذكر قصص وروايات عن ورعه وزهده وعدله وسياسته [2].

ج– فضائل عثمان – رضي الله عنه –:

وهنا ينبغي أن نقف قليلاً ونحن نعرض موقف سيد – رحمه الله– من عثمان – رضي الله عنه –، ذلك لأن سيد – رحمه الله– كما مر معنا سابقاً – تعرض لعثمان – رضي الله عنه – في بعض كتبه السابقة بكلام لا يليق انتقده عليه بعض أهل العلم المعاصرين له، وعدل بعضه بعد فترة، وإن كان لا يزال في كتابه " العدالة " ألفاظا تحتاج إلى حذف أو تعديل، ومن العدل أن ننظر موقفه من عثمان – رضي الله عنه – في كتبه الأخيرة وعلى رأسها الظلال، ويمكن بيان ذلك من خلال الآتي:

١– يذكر سيد قطب، عثمان – رضي الله عنه – مادحاً له في سياق ترتيبه الطبيعي بين الخلفاء الراشدين وهو يتحدث عن

---

(١) ينظر المصدر السابق ٩٤/١، ٢٤٥ ، ٣٨٢٩/٦ .

(٢) ينظر العدالة الاجتماعية : ص ١٣٥، ١٣٩ ، ١٤١، ١٥٠، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٧٢ .

الرجال العظام في هذا الدين حيث يقول وهو يستعرض مقومات العرب عند مجيء الإسلام: " ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول – ﷺ – من أمثال: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي،.... وغيرهم من تلك العصبة التي تلقت الإسلام، فتفتحت له، وحملته، وكبرت به من غير شك وصلحت" (١).

ويذكر سيد – رحمه الله– أيضا في كتاب " هذا الدين " نماذج من عدل أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – وتعاملهما مع الأمة، ويذكر بعض خطبهما ومواقفهما ويلحق بهما عثمان – رضي الله عنه – في السياق مادحاً له فيقول: " وكتب عثمان – رضي الله عنه – إلى جميع الأمصار كتاباً قال فيه: " إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لعمالي حق قبل الرعية لا متروك لهم، وقدر رفع آليا أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون، فمن أدعي شيئاً من ذلك فليوافي الموسم، يأخذ حقه حيث كان، مني أو من عمالي أو تصدقوا فأن الله

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٤١/٥ .

يجزي المتصدقين " (١).

ويذكر أن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم – قائمة على أساس الاختيار المطلق (٢).

٢- يذكر مكانة عثمان عند الصحابة – رضوان الله عليهم – وعند غيرهم في صلح الحديبية، حيث يورد سيد – رحمه الله- قول عمر رضي الله عنه – للنبي ﷺ لما دعاه ليرسله إلى قريش.. " ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان – رضي الله عنه –.. فدعاه الرسول ﷺ وأرسله إلى قريش، ثم ذكر أن عثمان – رضي الله عنه – انطلق إلى قريش فأبلغهم رسالة النبي ﷺ، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت إن شاء فأبى، وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها، وبلغ النبي ﷺ أنه قد قتل... فقال ﷺ: " لا نبرح حتى نناجز القوم " ثم دعا المسلمين إلى البيعة، فبايعوا تحت الشجرة،.. وذكر الرواية التي فيها أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان – رضي الله عنه – فضرب بإحدى يديه على الأخرى " (٣).

٣- إشادة سيد – رحمه الله- بعثمان – رضي الله عنه – وبذله

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص ٨٤-٨٥ .

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٠٦/٦- ٣٣١٠ بتصرف .

وسخائه في غزوة العسرة حيث يقول: " ثم إن رسول الله ﷺ حض أهل الغنى على النفقة... فحمل رجال من أهل الغنى محتسبين عند الله، وكان في مقدمة المنفقين المحتسبين، عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، حيث روي أن عثمان – رضي الله عنه – أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض "، وفي رواية: " خطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث، فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها – وأخرج الراوي يده كالمتعجب –: " ما على عثمان ما عمل بعد هذا ". وفي رواية: ثلاث مرات وأنه التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها (١)، (٢)

٤– دفاع سيد – رحمه الله– عن عثمان – رضي الله عنه –:

ففي ظلال قوله تعالى: { أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ } [سورة النجم:٣٣– ٣٤]، يقول سيد – رحمه الله–: "

---

(١) رواه : الترمذي في مناقب عثمان ٥٨٤/٥ برقم ٣٧٠٠ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٤٢١ وضعيف المشكاة برقم ٦٠٦٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١٧٢٣/٣- ١٧٢٤ بتصرف يسير .

ويحدد صاحب " الكشاف " شخصه، أنه عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ويذكر في ذلك قصة، لا يستند فيها إلى شيء، ولا يقبلها من يعرف عثمان – رضي الله عنه – وطبيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلا توقف وبلا حساب كذلك، وعقيدته في الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته،

ثم يعلق في الهامش بقوله: " أي صاحب " الكشاف " وروي أن عثمان – رضي الله عنه – كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح –وهو أخوه من الرضاعة– يوشك ألا تبقي لك شيئاً، فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا وإني اطلب بما أصنع رضى الله تعالى وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها! فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء فنزلت! "، يقول سيد – رحمه الله–: " وهي رواية ظاهرة البطلان، وما هكذا يتصور عثمان – رضي الله عنه –! "(١)

٥– يذكر سيد – رحمه الله– أن عثمان – رضي الله عنه – سار سيرة النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر في عدم قبولهم لصدقة ثعلبة بن حاطب أحد المنافقين، ومع أن القصة باطلة إلا أنه

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٤ مع الهامش ، وينظر : الكشاف للزمخشري – دار إحياء التراث ط١ عام ١٢١٧هـ ٤/٤٢٧ .

يفهم من خلال سياقها مدح سيد لعثمان وأنه سار بسيرة من قبله ولم يخالفهم..

٦- تحدث سيد - رحمه الله- في مواضع من الظلال وغيره عن دور اليهود في التأمر على المجتمع المسلم في عهد عثمان - رضي الله عنه -، وعن الفتنة التي أشعلها اليهودي ابن سبأ في خلافة عثمان - رضي الله عنه - فقال: " والذي ألب العوام، وجمع الشراذم، وأطلق الشائعات، في فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - وما تلاها من النكبات.. يهودي.. " (١).

وقال: ".. ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله وكانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير " (٢).

هذه لمحات من صورة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في ظلال القرآن الكريم وكتب سيد - رحمه الله- الأخيرة، لعلها تعطينا صورة عن موقف سيد - رحمه الله- من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة مقارنة بما كتب عنه سابقاً.

---

(١) معركتنا مع اليهود لسيد قطب ص ٣٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١٦٢٨/٣ ، وينظر أيضا : ٣٥٥٧/٦ ، وهذا الدين ص ٢٩ .

د- **فضائل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –:**

ذكر سيد – رحمه الله- كثيراً من فضائل ومواقف علي – رضي الله عنه – في كتبه السابقة كالعدالة الاجتماعية، وأشار في الظلال إلى بعض المواقف منها:

١- ذكره لعلي – رضي الله عنه – في الرجال العظام من الصحابة – رضوان الله عليهم – مع بقية الخلفاء الراشدين الأربعة بقوله " وهذا يفسر وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة – رضوان الله عليهم –.. كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي... " (١)

٢- استشارة النبي ﷺ له في شأن عائشة – رضي الله عنها – في واقعة الإفك (٢) وإرساله لإعلان ما تضمنته سورة براءة من المبادئ في حج العام التاسع الهجري (٣)، وفي ذلك دلالة على علو منزلته.

٣- سعة علمه – رضي الله عنه – حيث أورد سيد – رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا } [سورة الذاريات:١] أن علياً – رضي الله عنه – صعد منبر الكوفة فقال: " لا

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٤٤/٥ .

(٢) المصدر السابق ٢٤٩٦/٤ .

(٣) المصدر السابق ١٥٩٨/٣ .

تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام أحدهم، فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: {وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا }؟ قال علي – رضي الله عنه: الريح، قال: { فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا }؟ قال – رضي الله عنه –: " السحاب "، قال: { فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا }؟ قال – رضي الله عنه –: السفن، قال: { فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ }؟ قال – رضي الله عنه –: الملائكة "(١).

٤– يشير سيد – رحمه الله– إلى دور اليهود في الفتنة الكبرى في عهد عثمان – رضي الله عنه – ويقول: " وكانوا – أي اليهود – رأس الفتنة في ما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما " (٢). في إشارة إلى ابن سبأ وأتباعه، وإن كان – سيد– يعتبر قتال علي – رضي الله عنه – لأهل الجمل وصفين فقال بغاة كون علي – رضي الله عنه – هو الإمام (٣).

٥– كما أشار سيد – رحمه الله– إلى عظمة علي – رضي الله عنه – في ظلال تفسير قوله تعالى: {وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ

(١) في ظلال القرآن ٣٣٧٤/٦ ، وقد نقله عن تفسير ابن كثير ٣٣٠١/٧ .
(٢) المصدر السابق ١٦٢٨/٣ .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٣٤٣ .

غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ } [سورة الحجر:٤٧] حيث ينقل عن علي – رضي الله عنه – قوله: " أرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: " ونزعنا ما في صدورهم من غل " (١).

هذا استعراض موجز لموقف سيد – رحمه الله– من الخلفاء الراشدين في كتبه الإسلامية الأخيرة وقد أشار فيها أيضا إلى فضائل عدد من الصحابة – رضوان الله عليهم – وأمهات المؤمنين. (٢)

هـ – موقفه من معاوية وعمرو بن العاص – رضي الله عنهما –:

أفردت هذين الصحابيين – رضي الله عنهما – لننظر موقف سيد – رحمه الله– في كتبه الأخيرة منهما، حيث وأكثر ما انتقد عليه من أخطاء في حق الصحابة – رضوان الله عنهم – كان فيهما وفي عثمان – رضي الله عنه –

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٩٢/٣ ، والأثر رواه القرطبي .

(٢) ينظر كلامه في فضائل بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - فيما يأتي : فضائل أمهات المؤمنين : في ظلال القرآن ٢٥٠٤/٥ ، ٢٨٥٨ ، ٢٨٥٩ ، ٢٨٦٢ ، ٢٦٧٥ ، ٣١٧١ ، وينظر أيضا فضائل بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - في : في ظلال القرآن ١٥٥٠/٣ ، ١٧٢٤ ، ١٧٢٥ ، ٣٠٨٦/٥ ، ٣٨٠٧/٦ ، ٣٨٢٧ ، ٣٨٣٠ .

*أما موقفه النهائي من عثمان – رضي الله عنه – فقد سبق معنا قبل قليل.

* وأما موقفه من معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – فقد ذكر سيد – رحمه الله– معاوية بن أبي سفيان– رضي الله عنه– في الظلال في موضعين يفهم من سياقهما المدح والترضي عنه وهما:

١– يقول سيد – رحمه الله–: " ولقد ترك القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ في نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاماً في هذه الناحية – أي الوفاء بالعهد – ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز.. روي أنه كان بين معاوية بن أبي سفيان وملك الروم أمد، فسار إليهم في أخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمر بن عتبة: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها " فرجع معاوية بالجيش " [(١)].

٢– ذكر حديث معاوية – رضي الله عنه – قال: سمعت النبي ﷺ يقول " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء – رضي الله عنه – كلمة سمعها

---

(١) في ظلال القرآن ٢١٩٢/٤ ـ ٢١٩٣ .

معاوية – رضي الله عنه – من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها "(١).

* **أما عمرو بن العاص – رضي الله عنه** – فإن سيداً – رحمه الله– يذكره مترضياً عنه، عند ذكره حديثاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – (٢) في الرحمة.

ويصفه بأنه حاكم مسلم، عندما تحدث عن استنقاذ الإسلام لأهل مصر من الذل، وإطلاقهم من العبودية للبشر من الطواغيت الفراعنة، ثم الرومان حيث يقول: " فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص – فاتح مصر وحاكمها المسلم – ظهر ابن قبطي من أهل مصر.. " (٣).

ويقول عنه أيضا: " وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم – أي مصر – وأول أمير عليه من قِبَلِ الإسلام " (٤).

هذه لمحة عن موقف سيد – رحمه الله– من الصحابة – رضوان الله عليهم – عموماً، وعن من تكلم فيهم في كتبه السابقة خصوصاً، لعلها تصحح ما علق في كثير من الأذهان حول الموضوع مع إقرارنا بأن في كلام سيد – رحمه الله– بعد

---

(١) المصدر السابق ٣٣٤٦/٦ ، والحديث رواه : أبو داود .
(٢) المصدر السابق ١٠٥١/٢.
(٣) المصدر السابق ١٣٦٤/٣.
(٤) هذا الدين ص ٨٦.

التعديل لكتابه العدالة الاجتماعية ألفاظاً الأولى أن تحذف، أما ما يتعلق بمسألة بني أمية وبني العباس وكلام سيد – رحمه الله- في العدالة الاجتماعية والذي قد يفهمه بعضهم على أنه تكفير لهم فالذي يظهر أنه يقصد بقوله " وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائياً من دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام.. وخرج الحكام نهائياً من كل حدود الإسلام في المال " (١) خروجهم عن تعاليم الإسلام فيما يتعلق بتوريث الحكم بدلاً من كونه حقاً للأمة تختار خليفتها حسب الشروط الشرعية، وكذلك صرف المال في غير أوجهه الشرعية بدليل قوله في الظلال: " ولقد حكم الإسلام في الجولة الأولى الأرض ألف ومائتي عام تقريباً لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه " (٢).

فسيد – رحمه الله- يصرح في هذا النص ببقاء الحكام الأمويين والعباسيين والعثمانيين أيضاً على الإسلام لأن الحاكمية العامة كانت للشريعة الإسلامية، وإن حصل خروج عن بعض حدود الإسلام سواء في المال أو طريقة تولي الحكم بالوراثة ونحوها، مما انتقده في العدالة الاجتماعية.

---

(١) العدالة الاجتماعية : ص ١٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١٥٦٠/٣ .

المبحث الرابع

منهجه في الإمامة والخلافة

الإمامة العظمى أو الخلافة، منصب كبير ومسئولية عظمية، وهي تولِّي تدبير أمور المسلمين، وتعد الإمامة والخلافة من أهم المسائل الدينية، لما لها من أثرٍ كبيرٍ في حياة الناس، ولذلك أهتم علماء أهل السنة والجماعة ببيان المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الناس في شأن الإمامة والخلافة، وأدرجوه ضمن مباحث العقيدة التي يجب علمها والعمل بها.

ومناسبة إدراج مسألة الإمامة والخلافة ضمن المباحث المتعلقة بالنبوة هي: أنها امتداد لمهمة النبي ﷺ والمتمثلة في حماية الدين وسياسة الدنيا به، وفي هذا المبحث نعرض منهج سيد قطب– رحمه الله– فيما يتعلق بمسألة الإمامة والخلافة.

ومعلوم أن سيداً – رحمه الله– عاصر نهاية وسقوط الخلافة العثمانية آخر مظلة كانت تجمع المسلمين، وبسقوطها تغيرت الأحوال والأوضاع في العالم الإسلامي، الأمر الذي كان له الأثر البالغ ولا يزال على جميع جوانب الحياة الإسلامية.

وبيان منهج سيد قطب – رحمه الله– في هذه المسألة من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أهمية الإمامة والخلافة.

المطلب الثاني: خصائص ومميزات نظام الحكم في الإسلام.

المطلب الثالث: الحاكم في النظام الإسلامي.

المطلب الرابع: مصدر السلطات في النظام الإسلامي.

المطلب الخامس: الشورى في النظام الإسلامي.

المطلب السادس: شبهات حول الحكم الإسلامي.

المطلب السابع: موقف سيد قطب من الأنظمة المعاصرة ومنهجه في التغيير.

المطلب الأول

أهمية الإمامة والخلافة

ركز المنهج القرآني كثيراً على أهمية إيجاد الجماعة المسلمة، التي تحمل الأمانة الكبرى – أمانة العقيدة – وأمانة الخلافة في الأرض باسم العقيدة.

كما ركز أيضاً على أعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة، وشخصيتها المستقلة، بقبلتها وبشرائعها المهيمنة على ما قبلها من الشرائع، ومنهجها الجامع الشامل المميز، وقبل ذلك بتصورها الخاص للوجود والحياة، ولحقيقة

ارتباطها بربها، ولوظيفتها في الأرض وما تقتضيه من تكاليف، وتهيئتها للطاعة المطلقة للقيادة الإلهية المتمثلة في القرآن الكريم وتوجيهات النبي ﷺ وتلقي ذلك بالرضى والثقة واليقين والاستسلام (١)

وقد بيَّن سيد قطب – رحمه الله– أهمية وجود الخلافة القائمة على الحق في أكثر من موضع، ومن ذلك ما نقله عن المودودي في بيان أهمية الإمامة والخلافة الصالحة في الأرض حيث يقول: " وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفى عليه أن المسألة – التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها، وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعاً أو كرهاً – إلى تلك الجهة نفسها، فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية، ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمَّةِ

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٣/١ بتصرف .

الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية، فإذا كان هؤلاء الزعماء والقوَّاد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه، فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم، وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو، إن لم تمحق وتتقرض آثارها.

وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله، واتبعوا الشهوات، وانغمسوا في الفجور والطغيان، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها...

إن أول ما يطالب به دين الله عباده، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في

أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى، ثم يتطلب منهم إلا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى، وجاء به الرسول الأمي الكريم ﷺ ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم، يذكرون الله قابعين في زواياهم، منقطعين عن الدنيا وشؤونها، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات!

ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه، والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها. بالإضافة إلى ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة – ولو قيد شعره – وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، وليس لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما

هو إقامة نظام الحق، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض....

وما جعل الجهاد في أعلى المنازل في هذا الدين حتى أنه يحكم بالنفاق على من ينكلون عنه إلا لأنه سبيل لإقامة نظام الحق، ليس غيره....

إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله، ويرجون حسابه، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها "(١).

- كما بيَّن سيد -رحمه الله - أن وجود الإمامة والسلطة في الحياة الإسلامية ضرورة لإقامة منهج الله في الأرض ولتغليب

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٢٠/٣-١٣٢١ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً : فصل لابد للإسلام أن يحكم من كتاب معركة الإسلام والرأسمالية لسيد قطب ص ٥٦ وما بعدها ، والأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للسيد أبي الأعلى المودودي .

الحق على الباطل، والمعروف على المنكر، والخير على الشر، فلا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر،.. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان فإن " الأمر والنهي " لا يقوم بهما إلا ذو سلطان... فلابد إذاً من سلطة تأمر وتنهى وتحقق منهج الله في حياة البشر، وتصون الحياة من الشر والفساد، وتحقق القيم الروحية والمادية على حدٍ سواء " (١).

ويقول سيد أيضاً: " إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولوا الألباب، الذين يعلمون ما أنزل من الحق، ويدينون به لله وحده، ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالإصلاح والإحسان، وتسير على هدى الله وحده، وتصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه، أما القيادات الضالة العمياء، التي لا تعلم أن ما أنزل من الحق ولا تتبع منهج الله بل تتبع مناهج أخرى غيره كالشيوعية والرأسمالية والديمقراطية وغيرها من مناهج العمي، التي شقيت بها البشرية في تاريخها كلها ولا تزال، ولم تسعد الإنسانية إلا في ظل خلافة قائمة على منهج الله "(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٤٤٤/١، ٤٤٧ بتصرف ، ٦٠/١-٦١ .

(٢)المصدر السابق ٢٠٧٥/٤-٢٠٧٦ بتصرف .

المطلب الثاني

خصائص ومميزات نظام الحكم في الإسلام

تحدث سيد قطب– رحمه الله–عن خصائص نظام الحكم في الإسلام التي تميزه عن سائر أنظمة الحكم في الحياة، ومنها:

١– ارتباطه بالعقيدة: فالعقيدة الإسلامية تتسع لتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر على حقل دون حقل... إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، إنها تتولى روح الفرد وجسده وشعائره وشرائعه وضميره وسلوكه، وتتولى الفرد والجماعة على السواء، سواء في الحياة الشخصية أو في نظام الحكم والعلاقات الدولية.

فكل أنظمة الحياة في الإسلام موصولة كلها بالعقيدة وجوداً وعدماً، فالأحكام المختلفة في النظام الإسلامي منبثقة من المنهج الإلهي للحياة البشرية، ومرتبطة بأصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي. (١)

٢– الشمولية والتكامل بين أجزائه التشريعية: فالنظام الإسلامي كل متكامل، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه

(١) ينظر السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ٩-١٢ ، في ظلال القرآن ١٣٢/١، ٢٣٦ بتصرف ، ٨٩٥/٢ .

وضماناته، كذلك لا تصلح هذه الجزئيات في التطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملاً، ويعمل به جملة، أما اجتزاء بعض أحكامه أو مبادئه في ظل أنظمة أخرى غير إسلامية فلا جدوى منه، والجزء المقتطع منه تطبيقاً للإسلام، لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق، إنما هو نظام متكامل يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة (١).

٣- قيامة على الرضى والاختيار بين الحاكم والأمة: فنظام الحكم في الإسلام يقرر العلاقات بين الراعي والرعية على أساس من السلم والطمأنينة.. فالراعي لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحدٍ: رغبة الرعية المطلقة واختيارها الحر، لا يستبقي الراعي مكانه بين الرعية إلا عن طريق واحدٍ: طاعة الله والعمل بشريعة الله، وحكم يقوم على رضا واختيار بعد مشورة وإذن من الناس ولا يحكم إلا بما انزل الله، حكم يشيع الثقة والطمأنينة في النفوس ويثبت الرضى والارتياح في القلوب، فلا مجال للبرم به والضيق منه، والتفكير في الخروج عليه، مادام ينهض بتبعاته بالطريقة التي رسمها الإسلام، وفي الحدود التي شرعها الإسلام (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٨٨٢/٢ بتصرف يسير .

(٢) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٢٢- ١٢٣ بتصرف يسير .

أما أكذوبة الاختيار الحر في النظم الديمقراطية وغير الإسلامية فسيأتي الحديث عنه عند الكلام عن موقف سيد من الأنظمة العلمانية.

٤- قيامة على مبدأ الشورى: فنظام الحكم في الإسلام يرتكز على مبدأ الشورى لقوله تعالى: وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ } [سورة الشورى:٣٨] ، وقوله تعالى {وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ } [سورة آل عمران:١٥٩] ، وإذا كانت الشريعة لم تحدد طريقة معينة للشورى، فذلك متروك لحاجة العصر وضروراته، وطريقة حياته، ولكن المبدأ مقرر والطريقة معينة، ومن شأنها إشراك المسلمين في تدبير أمورهم، فلا مجال إذن لان يسخطوا وهم شركاء في التدبير. (١).

٥- اشتماله على الضمانات القانونية التي تحقق العدل وتحميه: " حيث يستمد الحكم الإسلامي عدالته أول ما يستمد من عدالة القانون ذاته، فهو ليس من صنع فرد، ولا من صنع طائفة، حتى تظن به الظنون، ويخشى أن يميل مع الهوى، أو يتلبس به الخطأ، فيفوته تحقيق العدالة المطلقة، أما عند التنفيذ فقد ناط الإسلام ذلك بوضوح القانون، وبضمير القاضي ورقابة

---

(١) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٢٣ .

الجماعة، وكل فرد في الجماعة الإسلامية منوط به هذه الرقابة، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع، وأن ينبه الحاكم حين يطغى، والقاضي حين يخطئ، وإنه ليبوء بالإثم حين يكتم الشهادة، أو حين يقر الخطأ، ولا ينبه إليه إذ يراه.

والعدل الذي يطلبه الإسلام هو العدل المطلق الذي لا يتأثر بالمحبة والشنآن، ولا بالمال والجاه والحكام، والآيات في ذلك كثيرة جداً، والنماذج من التاريخ الإسلامي لا تحصى. [(١)].

كما تتوفر في نظام الحكم الإسلامي ضمانات الأمن والسلامة، الأمن على الحياة والأنفس والدين، والأمن على الأموال والأعراض، والأمن على الحقوق الشخصية كالعمل والمعيشة ونحوها، فالعدل أساس النظام الإسلامي وهو الأمر الذي يجعل من النظام الإسلامي نظاماً عالمياً يملك الجميع الحياة في ظله دون تعب ولا اضطهاد [(٢)].

وقد أشار سيد إلى بعض هذه الخصائص إجمالاً بقوله: " تقوم نظرية الحكم في الإسلام على أساس شهادة أن لا اله إلا الله، حيث يتقرر عليها أن الحاكمية في حياة البشر لله وحده، ثم

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ وما بعدها بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠-١٤٢ بتصرف ، وينظر : في ظلال القرآن ١١٢/١ ، ٦٨٨/٢، ٨٧٣، ٨٨٢ ، ٨٩٠ .

بعد التسليم بقاعدة الألوهية والحاكمية الواحدة تقوم على أساس العدل من الحكام، والطاعة من المحكومين، والشورى بين الحاكم والمحكوم، وهي خطوط أساسية ترسم شكل الحكم وصورته في النظام الإسلامي " (١).

المطلب الثالث

الحاكم في النظام الإسلامي

<u>أولاً: مواصفات الحاكم في النظام الإسلامي:</u> تحدث سيد قطب – رحمه الله– عمن يصلح أن يكون حاكماً في النظام الإسلامي، وعن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الحكم ومنها:

<u>١ – الإسلام:</u> فلابد فيمن يتولى أمر المسلمين أن يكون مسلماً، يقول سيد – رحمه الله–: " فأما أولو الأمر، فالنص يعين من هم " وأولي الأمر منكم " أي من المؤمنين، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحَدُّ الإسلام المبين في الآية.. من طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداءً، والتلقي منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والإفهام والآراء، مما

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٠ .

لم يرد فيه نص، لتطبيق المبادئ العامة في النصوص "[١].

٢- الأهلية والصلاح: يقول سيد – رحمه الله-: " إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة.. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة، فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظَلَمَ – أي لون من الظلم – فقد جرَّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها " [٢].

٣- اختيار الأمة ورضاها: يقول سيد – رحمه الله-: " والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله " [٣].

ويقول أيضاً: " والإمام هو الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد أو أهل الشورى له" [٤].

ويقول أيضاً: " والحاكم في الإسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد، هو إرادة المحكومين، فالبيعة الاختيارية هي الطريقة

---

(١) في ظلال القرآن ٦٩١/٢ .

(٢) المصدر السابق ١١٢/١ .

(٣) المصدر السابق ١٩٩٠/٤

(٤) المصدر السابق ٢٠٠٩/٤ .

الوحيدة لتلقي الحكم، والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ، فخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي قامت على أساس الاختيار المطلق، ولا يتعارض هذا مع وصية أن تكون في واحد من ستة، فقد كانت هذه نصيحة للمسلمين، ولم تكن أمراً واجبَ الطاعة، ولو اختار المسلمون واحداً غير الستة لاختاروا، ولكن هؤلاء كانوا بالإجماع أصلح الجميع، فاختاروا واحداً منهم برضاهم وإذنهم، لا بأمر عمر ووصايته.

لما عدل بنو أمية عن هذه القاعدة الإسلامية الأساسية في الحكم رده إليها الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز [1]، رده إلى الأمة التي يجب أن تختار حكامها حرة طائعة مختارة، حيث صعد المنبر وقال: يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وأني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم، فقال الناس: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، فلِ الأمر باليمن والبركة.

وبذلك رد الأمر إلى نصابه في ولاية الأمر، فلا ولاية بغير

---

(١) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي القرشي ، الخليفة الصالح ،ولد ونشا في المدينة ، ووليها للوليد ،ثم استوزره سليمان بالشام ،وولي الخلافة بعده ،ولقب بخامس الخلفاء الراشدين ، توفي سنة ١٠١هـ ،انظر : سير أعلام النبلاء ١١٤/٥ ،والأعلام ٥٠/٥ .

شورى ورضى وقبول" (١).

ويقول أيضاً: " إن الراعي لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحد: رغبة الرعية المطلقة، واختيارها الحر " (٢).

ويقول: " والحاكم في الإسلام إنما يصبح حاكماً باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة لا يقيدهم عهد حاكم قبله، ولا وراثة كذلك في أسرة.. فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية " (٣).

<u>٤- أن يعترف ابتداءً بسلطان الله ويحكم بشريعته في الحياة:</u>

يقول سيد - رحمه الله-: " ولا يكون إماماً حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله، وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له "إماماً " إنما يقول عنه الله - سبحانه وتعالى - {وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ } [سورة المائدة:٤٤] ، (٤).

ويقول سيد أيضاً: " والحاكم المسلم هو الذي يطبق شريعة الإسلام " (٥).

<u>ثانياً: وضعه للقانون ووظيفته:</u>

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٣-٧٤ .

(٢) دراسات إسلامية ص ١٢٢ ، ومعركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٢ .

(٣) العدالة الاجتماعية ص ٨٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٩٤٩/٢ ، وينظر أيضاً : ٢٠٧٥/٤-٢٠٧٦ .

(٥) المصدر السابق ٨٧٤/٢ .

يرى سيد – رحمه الله– أن الإمام أو الحاكم نائب عن الأمة، حيث يقول: " إن الأمة المسلمة بمجموعها مسؤولة عن إقامة منهج الله في الحياة، ومنع الفساد والمنكر، والقيام على الشريعة وحراستها وتنفيذها، والإمام نائب عن الأمة في هذا، وهذه الحدود تنحصر حقوق الأمة وسلطتها وكذا سلطة الإمام النائب عنها. (١)

ويقول أيضاً " والإسلام يقرر حق كل فرد في المجتمع المسلم في الحياة وفي الوسائل الضرورية لحفظ الحياة.. وعلى الدولة النائبة عن الجماعة – أن توفرها له " (٢).

ومن النصين السابقين نجد أن سيداً – رحمه الله– يرى أن الحاكم أو الإمام يعتبر نائباً عن الأمة والجماعة المسلمة في تحقيق منهج الله في الأرض، وأن الحكومة والدولة ووظيفتها ومهمتها النيابة عن مجموع الأمة في تحقيق خلافة الله في الأرض على منهاجه الذي جاء به رسول الله– ﷺ – في الكتاب والسنة.

ثالثاً: طاعة الحاكم وحدودها: الأصل في هذه المسألة قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن

---

(١) المصدر السابق ٣٥٢٥/٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٨٢ .

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا }(١)

يقول سيد – رحمه الله–": وفي هذا النص القصير يبين الله – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان فالحاكمية لله وحده في حياة البشر، فيما سنة الله وشرعة في قرآنه وسنة رسول الله ﷺ. فطاعة الله واجبة ابتداءً بماله من الألوهية وحق التشريع، وطاعة الرسول ﷺ واجبة أيضاً بماله من صفة الرسالة من الله، فطاعته من طاعة الله، والإيمان يتعلق – وجوداً وعدماً – بهذه الطاعة وهذا التنفيذ بنص القرآن "إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر "، فأما أولي الأمر، فالنص يعين من هم " أولي الأمر منكم " أي من المؤمنين، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية، من طاعة الله وطاعة الرسول، وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء.

والنص يجعل طاعة الله أصلاً، وطاعة رسوله أصلاً كذلك – بما أنه مرسل منه – ويجعل طاعة أولي الأمر "منكم" تبعاً

(١) في ظلال القرآن ٣٥٢٥/٦ بتصرف يسير .

لطاعة الله وطاعة رسوله، فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول- ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله بعد أن قرر أنهم "منكم " بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعة أولي الأمر" منكم " بعد هذه التقريرات كلها، في حدود المعروف المشروع من الله، والذي لم يرد نص بحرمته، ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ الشريعة عند الاختلاف فيه، والسنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين:

- في الصحيحين قال- ﷺ -: " إنما الطاعة في المعروف " (١)، وقال ﷺ: " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " (٢). وفي رواية: " ولو استعمل عليكم عبد، يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا " (٣).

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة

---

(١) رواه : البخاري في المغازي باب سرية عبد الله بن جحش ١٥٧٨/٤ برقم ٤٠٨٥ .

(٢) رواه : البخاري في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ٢٦١٢/٦ برقم ٦٧٢٥ ، ومسلم في الإمارة ١١٦٧/٣ برقم ١٨٣٩ .

(٣) المصدرين السابقين نفسهما .

رسوله ﷺ وعلى إيمانه هو ودينه ونفسه وعقله أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة، ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع، فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة، والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: {وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ } [سورة الممتحنة:١٢] " يقول سيد: وهذا الشرط أحد قواعد الدستور في الإسلام، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته، وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر، وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع مستمدة من شريعة الله لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله، فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله، ومنها يستمدان السلطان " (٢).

ويقول أيضاً: " والحاكم الإسلامي يتلقى الطاعة بعد توليه من قيامه على تنفيذ الشريعة فقد سقطت طاعته عليهم، بقول صاحب هذا الدين ﷺ " اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٩٠-٦٩١ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٥٤٨ .

حبشـي كـأن رأسـه زبيبـة – مـا أقـام فيكم كتـاب الله تعـالى" [1]، فليس هي الطاعة المطلقة

(١) رواه : البخاري في الأحكام ٢٦١٢/٦ برقم ٦٧٢٣ ، ومسلم في الإمارة ١١٦٧/٣ برقم ١٢٩٨ واللفظ له .

لإرادة الحاكم، وليس هي الطاعة الدائمة لو ترك شريعة الله ورسوله " (١).

ومن خلال النصوص السابقة نجد:

١- أن سيداً – رحمه الله- يجعل طاعة الحاكم وولي الأمر واجبة بشرط أن يكون مسلماً لقوله تعالى: " منكم " أي من المؤمنين.

٢- أن طاعة ولي الأمر مستمدة من طاعته هو لله ورسوله وتنفيذه لشريعة الله وحكمه بها، فإذا لم يقم بذلك فلا طاعة له، فطاعته موقوتة بتنفيذه للشريعة.

٣- أن الطاعة له تكون في المعروف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

بالإضافة إلى طاعة الحاكم فإن له على الرعية أيضاً حق النصح له، والمعونة على إقامة الشريعة، وليس له حقوق أخرى وراء ذلك إلا ما لأحدٍ المسلمين (٢).

رابعاً: الخروج على الحاكم المسلم:

يقرر سيد أنه إذا كان الحاكم مسلماً يحكم بشريعة الله، فعندئذٍ يجب على الأمة طاعته – كما سبق – ولا يجوز الخروج عليه

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٤ ، العدالة الاجتماعية ص ٨١-٨٢ .

(٢) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ بتصرف .

ويعتبر الخارج على الإمام المسلم باغياً مجرماً محارباً لله رسوله، ويجب على المسلمين قتاله.

وفي ذلك يقول سيد: " إن أمن الجماعة المسلمة في دار الإسلام، وصيانة النظام العام الذي تستمتع في ظله بالأمان، وتزاول نشاطها الخير في طمأنينة، ذلك كله ضروري كأمن الأفراد، والذي يهدد أمن المجتمع هو عنصر خبيث يجب استئصاله، ما لم يثب إلى الرشد والصواب، والشريعة قررت عقوبة هذا العنصر الخبيث هو ما يعرف بـ"بحد الحرابة "، قال سبحانه وتعالى: { إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [سورة المائدة:٣٣] . وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص، هي <u>الخروج على الإمام المسلم الذي يحكم بشريعة الله</u> والتجمع في شكل عصابة، خارجة على سلطان هذا الإمام، تروع أهل دار الإسلام، وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم، ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيداً عن مدى سلطان الإمام، ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة وأخذها في الاعتداء

على أهل دار الإسلام بالقوة، يجعل النص منطبقاً عليها، سواء خارج المصر أو داخلة. وهذا هو الأقرب للواقع العملي ومجابهته بما يستحقه.

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله، المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة - سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد - لا يحاربون الحاكم وحده، ولا يحاربون الناس وحدهم، إنما هم يحاربون الله ورسوله حينما يحاربون شريعته، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة. كما أنهم بحربهم لله ورسوله، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها، يسعون في الأرض فساداً.. فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة.

إنهم يحاربون الله ورسوله.. وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم، * كما أن للنص - في صورته هذه - مفهوماً آخر متعيناً كهذا المفهوم - هو أن السلطان الذي يحق له - بأمر الله - أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله، وليس أي

سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة، في أية دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف.

نقرر هذا بوضوح، لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة، ولا يحققون وجود دار الإسلام في بلادهم، ولو زعموا أنهم مسلمون.. كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات – باسم شريعة الله – بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله، بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله.. إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله، وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه، فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه؟!

إنما هذا جزاء أفراد العصابات المسلحة التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله "[1]

ثم ذكر سيد – رحمه الله– كلام الفقهاء في عقوبة الخارجين على سلطان الإمام المسلم وماذا يوقع بهم الإمام المسلم من أنواع العقوبات المذكورة في الآية، حيث اختار رأي الإمام مالك – رحمه الله– في أن العقوبة توقع على مجرد الخروج وإخافة

---

(١) في ظلال القرآن ٨٧٨/٢-٨٧٩ بتصرف يسير .

السبيل، باعتبار هذا إجراء وقائي المقصود منه أولاً منع وقوع الجريمة، والتغليظ على المفسدين في الأرض، الذين يروعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار الأجدر بالأمن والطمأنينة والإسلام.. وذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة، وأن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة " (١).

*وفي ظلال قوله تعالى: { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ } [سورة الحجرات:٩] .

يقول سيد – رحمه الله–: " من مستلزمات الإخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك.

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في

---

(١) المصدر السابق ٨٧٩/٢- ٨٨٠ .

معارك التحكيم هذه، وألا يقتل أسير، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة، وألقى السلاح، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة، لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم، وإنما هو ردهم إلى الصف، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية.

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة، وأنه إذا بويع لإمام، وجب قتل الثاني، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام. وعلى هذا الأصل قام الإمام علي – رضي الله عنه – بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين، وقام معه بقتالهم أجِلاَّءُ الصحابة رضوان الله عليهم، وتخلف بعضهم عن المعركة إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة، وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص " ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنياً عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك " والاحتمال الأول أرجح...

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات – بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة بين بلاد المسلمين، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة – فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد، إذا خرج هؤلاء

البغاة عليه، أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه.

وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال (١).

ويوضح سيد – رحمه الله – أن الخروج على الحاكم المسلم الذي يعترف ابتداءً بسلطان الله وحاكمية شريعته لا يجوز وإن وجد منه ظلم أو طغيان في بعض الأحيان، فيقول: " كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم، مجتمع يعترف ابتداءً بسلطان الله، ويتحاكم إلى شريعته، مهما وجد فيه من طغيان الحكم، في بعض الأحيان، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان.. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ: " أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر " (٢).

فهو " إمام " ولا يكون إماماً حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله،

---

(١) في ظلال القرآن ٣٣٤٣/٦-٣٣٤٤ بتصرف .

(٢) رواه : أبو داود في الملاحم ٥١٤/٤ برقم ٤٣٤٤ ، والترمذي في الفتن ٤٠٩/٤ برقم ٢١٧٤ وابن ماجة في الفتن ٦٢٨/٤ برقم ٤٠١١ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٤٦٢/٢ .

وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له: " إمام " إنما يقول عنه الله – سبحانه –: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ } [سورة المائدة:٤٤] ، (١).

المطلب الرابع

مصدر السلطات في النظام الإسلامي

يقصد بمصدر السلطات: الجهة التي تملك سلطة وضع التشريعات والقوانين والأحكام التي يسير البشر علي وفقها، في جميع جوانب الحياة.

وقد تكلم سيد قطب عن مصدر السلطات في نظام الحكم الإسلامي، والأنظمة الوضعية المختلفة في مواطن متفرقة يمكن إجمال كلامه في النقاط الآتية:

أولاً: اهتمام القرآن الكريم بتحديد مصدر السلطة: –

تعتبر مسألة مصدر السلطات من قضايا العقيدة والمنهج الإسلامي، ونظام الحكم والحياة في الإسلام، يقول سيد – رحمه الله–: " تحدث القرآن الكريم عن نظام الحكم والحياة بشكل محدد وبنصوص وعبارات واضحة، حيث ربط القرآن الكريم بين

(١) في ظلال القرآن ٩٤٩/٢ بتصرف يسير .

ذلك وبين الألوهية والتوحيد والإيمان، فقضية الحكم والشريعة والتقاضي - ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان - تتلخص في الإجابة على هذا السؤال:

أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى، وكتبها على الرسل، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال؟ وبتعبير آخر: أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله؟ الله - سبحانه - يقول: إنه هو الله لا إله إلا هو، وإن شرائعه التي سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض، وهي التي يجب أن يتحاكم، إليها الناس وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام..

والله - سبحانه - يقول: إنه لا هوادة في هذا الأمر، ولا ترخص في شيء منه، ولا انحراف عن جانب ولو صغير، وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل، أو لما اصطلح عليه قبيل، مما

لم يأذن به الله في قليل ولا كثير!

والله – سبحانه – يقول: إن المسألة – في هذا كله – مسألة إيمان أو كفر، أو إسلام أو جاهلية، وشرع أو هوى. وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح! " (١).

ففي قول الله تعالى: {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ} [سورة آل عمران:١٣٢] بيان قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده، والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً من جزيئات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال، مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام! (٢).

وفي قوله تعالى: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ} [سورة الحشر:٧] ، تتمثل النظرية الدستورية الإسلامية، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآناً أو سنة.

والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول، فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان،

---

(١) في ظلال القرآن ٨٨٨/٢ بتصرف يسير ، ٨٩١/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٦٩٠/٢ .

لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان.. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء، وكل ما تشاء، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان.

فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها والإمام نائب عن الأمة في هذا وفي هذا تنحصر حقوق الأمة. فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع. (١).

ويبين سيد – رحمه الله– أهمية تحديد مصدر السلطة باعتباره الميزان الذي يحكم حياة البشر، فيقول: " فلا بد من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟ من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه! فلابد ابتداء من إقامة الميزان.. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتاً لا يتأرجح مع الأهواء، هذا الميزان الثابت هو ميزان الله.. فلابد من اعتراف

---

(١) في ظلال القرآن ٣٥٢٥/٦ وينظر أيضاً : ٣٥٤٨/٦ ، والسلام العالمي والرأسمالية ص ٦٢ .

بسلطان الله ومنهجه للحياة ابتداءً وعلى هذا الأساس يقام بعد ذلك البنيان"(١).

ويوضح سيد – رحمه الله– أن تشدد القرآن الكريم في مسألة مصدر السلطة على النحو الذي سبق وجعلها مسألة إيمان أو كفر يعود إلى أسباب منها:

١– أن مقتضى الإيمان بربوبية الله وأُلوهيته –سبحانه– هو إفراده بحق السلطان والحاكمية والتشريع، باعتباره– سبحانه – وحده هو الخالق الرازق المالك للوجود وبالتالي يجب أن يكون هو صاحب السلطان في حياة البشر.

٢– الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [سورة المائدة:٥٠] ، والاعتراف بهذه الأفضلية هو أساس الإيمان، وإعطاء حق التشريع والسلطان لغير الله لا يستقيم مع دعوى الإيمان والإسلام " (٢).

" فمظهر الإيمان الأول بالله هو استمداد الأنظمة من منهجه وشريعته، ولا إيمان بغير هذه القاعدة الكبيرة " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٩٥٠/٢ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٨٨٩/٢ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٥٨٤/١ .

٣- أن جعل مصدر السلطة لغير الله هو أبرز مظاهر الجاهلية، يقول سيد - رحمه الله-: " والجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام.. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة، ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة، أو أهواء جيل كامل من الناس، فكلها ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله أهواء،

*يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية، لأن هواه هو القانون، أو رأيه هو القانون لا فرق إلا في العبارات!

*وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية، لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون - أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!

*ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية.. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبداً من الأهواء، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبداً من الجهل هو القانون - أو لأن رأي الشعب هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!

*وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية. لأن أهدافها القومية هي القانون - أو رأي المجامع الدولية هو

القانون – فلا فرق إلا في العبارات!

*ويشرع خالق الأفراد، وخالق الجماعات، وخالق الأمم والأجيال، للجميع، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد، لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة، ولا لجيل من الأجيال، لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء، ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع، فلا يفوته – سبحانه – أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط.

*ويشرع غير الله للناس فإذا هم عبيد من يشرع لهم، كائناً من كان، فرداً أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم.

*ويشرع الله للناس فإذا هم كلهم أحرار متساوون، لا يحنون جباههم إلا لله، ولا يعبدون إلا الله.

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان، وفي نظام الكون كله { وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ } [سورة المؤمنون:٧١] ، (١).

ويقول أيضاً: " إن الجاهلية هي الجاهلية، ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها، لا يهم موقعها من الزمان والمكان، فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم، ومن شريعة

---

(١) في ظلال القرآن ٨٩١/٢ ، وينظر أيضاً : السلام العالمي والرأسمالية ص ١٦٠ وما بعدها .

– منبثقة من هذه العقيدة – تحكم حياتهم فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة " (١).

ثانياً: الفرق بين مصدر السلطة ومزاولة السلطة.

يبين سيد – رحمه الله– أن الجهة التي تملك حق الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات هي لله سبحانه وتعالى، وأن استمداد القوانين من مصدر أخر أو من جهة أخرى غير الله سبحانه – ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية – ينافي الإيمان والتوحيد ويكون منازعة الله سبحانه في أولى خصائص ألوهيته.

والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته، إنما مصدر الحاكمية هو الله، وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية، وما أنزل الله به من

(١) في ظلال القرآن ١/٥١٠ .

سلطان، وهذا ما يرشد إليه قوله تعالى: {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف:٤٠] ، (١).

وهذه المسألة هي الفارق بين النظام الإسلامي والأنظمة الوضعية الجاهلية التي تجعل الأمة أو الشعب هو المصدر السلطات بمعنى هو صاحب الحق في وضع التشريعات والقوانين عن طريق البرلمانات والأغلبية النيابية وإن كانت مضادة لشرع الله وحكمه.

بينما النظام الإسلامي يجعل الأمة هي صاحبة الحق في مزاولة السلطة من خلال اختيار الحاكم ومراقبة تطبيق أحكام الله لا أنها هي مصدر السلطة والتشريع.

ويقول أيضاً " ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية، وبين استمداده السلطان من صفة دينية لشخصه، فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها مباشرة من السماء كما كان لبعض الحكام في القديم في نوع الحكم المسمى " ثيوقراطية " إنما هو يصبح حاكماً باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة، لا يقيدهم عهد من حاكم قبله، ولا وراثة كذلك في أسرة، ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ شريعة الله دون أن

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩٩٠ بتصرف يسير .

يدعي لنفسه حق التشريع ابتداء بسلطان ذاتي له، فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية، وإذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة.

ومن هنا ندرك حكمة النبي ﷺ في أنه لم يعين خليفة من بعده إذ كان هذا مظنة أن يستمد خليفته سلطة دينيه ذاتية من استخلاف الرسول ﷺ له " (١).

ثالثاً: الاجتهاد لمواجهة المستجدات في الحياة وضوابط ذلك:

في الفقرة السابقة بين سيد – رحمه الله– أن مصدر السلطة هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وذلك مقتضى الألوهية وعلامة الإيمان، وأنه لا يجوز لأحد سواه أن يشرع للبشر تحت أي مسمى وأن البشر مأمورون – حكاماً ومحكومين – بالرجوع إلى ما شرعه الله لهم من أحكام ونظم في مختلف جوانب حياتهم على السواء " باعتبار أن استئناف حياة إسلامية لا يتم بمجرد وضع تشريعات وقوانين ونظم مستمدة من الشريعة الإسلامية، فهذا ركن واحد من ركنين يعتمد عليهما الإسلام في إقامة الحياة، وهو الركن الثاني لا الأول.

أما الركن الأول، فهو العقيدة الصحيحة التي تفرد الله سبحانه وتعالى بالألوهية، ومن ثم تفرده بالحاكمية وتنكر على غير الله

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٢ .

أن يدعي الحاكمية أو يزاولها " (١).

وبناء على ذلك يوضح سيد – رحمه الله– طريقة التعامل مع ما يعرض للبشر من مشكلات وأقضية على مدى الزمان فيقول بعد أن بين وجوب التحاكم إلى نصوص الشرع: " ذلك فيما ورد فيه نص صريح، فأما الذي لم يرد فيه نص، وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات – ولا يكون فيه نص قاطع، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق، مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام – فإنه لم يترك كذلك تيهاً، ولم يترك بلا ميزان، ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع، فقد وضع الله منهجاً للاجتهاد كله، وحدده بحدوده، وأقام " الأصل " الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضاً بقوله تعالى: {تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} [سورة النساء:٥٩] ، ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمناً، فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.. وهذه ليست عائمة ولا فوضى، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول: وهناك –

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٦ .

في هذا الدين – مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية، وتضع لها سياجاً خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين " (١).

– كما يحدد سيد – رحمه الله– أن الاجتهاد في حالة وجود نص يكون في تطبيق النص على الواقع فيقول: " وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات، أو من منهج الحياة ونظامها، سواء في موقف العقل إزاءه متى صح النص، وكان قطعي الدلالة ولم يوقت بوقت، فليس للعقل أن يقول: آخذ في العقائد والشعائر التعبدية، ولكني أرى أن الزمن قد تغير في منهج الحياة ونظامها، فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته. فما دام النص مطلقاً فإنه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان احترازاً من الجرأة على الله، ورمي علمه بالنقص والقصور – سبحانه وتعالى عما يقولون علواً – إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية، لا في قبول المبدأ العام أو رفضه، تحت أي مقولة من مقولات العقل في جيل من الأجيال! " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٦٩١ ، ويراجع بتوسع فصل " الثبات" في كتاب " خصائص التصور الإسلامي " ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ٨٠٨/٢ .

ويقول أيضاً: " فأما حين لا يوجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلاً من أصول ما جاء به الرسول، وهذا لا ينقض تلك النظرية – النظرية الدستورية الإسلامية التي تجعل الله وحده مصدر السلطات – إنما هو فرع عنها، فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول ﷺ إن كان هناك نص، وألا يخالف أصلاً من أصوله فيما لا نص فيه، وتتحصر سلطة الأمة – والإمام النائب عنها– في هذه الحدود، وهذا نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعيه يربط التشريع للناس بناموس الكون كله، وينسق بينه وبين القانون الذي يحكم البشر وهو من منهج الله، كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون، فيشقى الإنسان " (١).

ويقول أيضاً: " وحين يُضيِّق الإسلام سلطة الإمام فيما يختص بشخصه، يوسع له إلى أقصى الحدود في رعاية المصالح المرسلة للجماعة، تلك المصالح التي لم يرد فيها نص والتي تتجدد بتجدد الزمان والأحوال، فالقاعدة العامة: أن للإمام المسلم القائم على شريعة الله أن يحدث من الاقضية بقدر ما

---

(١) المصدر السابق ٣٥٢٥/٦ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً : نحو مجتمع إسلامي ص ٤٧ وما بعدها .

يجد من مشكلات، تنفيذاً لقوله تعالى: {وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ } [سورة الحج:٨٧] ، وتحقيقاً لأهداف الدين العامة، في إصلاح حال الفرد، وحال الجماعة، وحال الإنسانية كلها، في حدود المبادئ المقررة في الإسلام، وبشرط العدل الذي يجب توافره في الإمام، فكل ما يوقع بالأمة ضرراً من أي نوع، على الإمام ان يزيله، وكل ما يتحقق للأمة نفعاً من أي نوع عليه أن يقوم به، على أن لا يخالف نصاً من نصوص الدين" (١).

ثم يتحدث سيد – رحمه الله– طويلاً حول مبدأ " المصالح المرسلة "و" وسد الذرائع " كدائرة واسعة تشمل تحقيق كافة المصالح للجماعة، وتضمن دفع جميع المضار، وينقل نقولات عن ألائمه والفقهاء حول اعتبار مبدأ المصالح المرسلة وسد الذرائع في مواجهة مستجدات الحياة مما لا نص فيه، وينقل أمثلة لما قام به الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – بعد موت النبي ﷺ كجمع القرآن الكريم، وزيادة حد الخمر، وتضمين الصُنَّاع، وقتل الجماعة بالواحد وغير ذلك مما فيه حفاظاً على الحياة الإسلامية ويلخص سيد – رحمه الله– ما يتعلق بقضية

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٤، ٨٥ .

الاجتهاد في مواجهة مستجدات الحياة في صورة تطبيق تشريعي جزئي للشريعة الإسلامية الثابتة، مستشهداً بفعل بعض الخلفاء الراشدين ومواقفهم إزاء المستجدات في عصورهم مما ليس فيه نص، واعتبار ذلك منارات ومعالم تهتدي بها الأمة، ويذكر أن التطبيقات التي يحتاجها المجتمع لمواجهة المستجدات في أي زمن لا تخرج عن أربعة احتمالات:

الأول: أن تكون الشريعة قد نصت على حكمة نصاً معيناً صريحاً، فهذا واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل.

الثاني: أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص أو نصوص قابلة للتأويل فيكون حينئذ قابلاً للاجتهاد ترجيحاً أو توفيقاً بين النصوص والحالات المراد تطبيقه عليها، وهذا يسترشد بالتطبيقات العملية في صدر الإسلام وأقوال الفقهاء.

الثالث: أن تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام، تدخل هذه المسألة الخاصة فيه حتماً ولكنه لا ينص عليها تصريحاً، عندئذ يكون الأمر موضع اجتهاد في تطبيق المبدأ العام على الجزئيات المعروضة والاسترشاد بالسوابق التاريخية والأحكام الفقهية.

الرابع: أن لا يوجد في الشريعة نص عليه، فهو متروك للاجتهاد المطلق على ألا يصدم الحكم الذي يصل إليه مبدأً من مبادئ

الإسلام ولا أصلاً من أصول الشريعة، مع الاسترشاد بتصرف فقهاء الإسلام في ما يماثله " (١).

وفيما سبق نجد أن سيداً - رحمه الله- يرى أن ما لم يرد فيه نص من المستجدات في حياة البشر فلهم أن يواجهوها بالاجتهاد والرجوع إلى النصوص الشرعية في الكتاب والسنة واستنباط الأحكام من المبادئ العامة المقررة في الشريعة، ووضع النظم التي تحكم المستجدات بشرط ألاَّ تخالف نصوص الشرع أو تصطدم مع أصوله، وإنما تنطلق من خلال ما قرره العلماء في باب " المصالح المرسلة ودرء المفاسد " وهما مبدآن عظيمان من مبادئ النظام الإسلامي.

رابعاً: وقفة مع دعوى أن سيد قطب يجوز للبشر أن يشرعوا ما لم يأذن به الله:

أورد الدكتور/ ربيع المدخلي في كتابة " أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره " فصلاً بعنوان: " سيد قطب يجوّز للبشر أن يشرعوا قوانين لتحقيق حياة إسلامية صحيحة "، ذكر فيه كلاماً لسيد قطب في العدالة الاجتماعية ونصه: " فإذا انتهينا من وسيلة التوجيه الفكري، بقيت أمامنا وسيلة التشريع القانوني، لتحقيق حياة إسلامية صحيحة تكفل فيها العدالة

---

(١) نحو مجتمع إسلامي ص ٥٢-٥٧ بتصرف .

الاجتماعية للجميع، وفي هذا المجال لا يجوز أن نقف عند مجرد ما تم في الحياة الإسلامية الأولى بل يجب الانتفاع بكافة الممكنات التي تتيحها مبادئ الإسلام وقواعده المجملة، فكل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية ولا تخالف أصوله – أصول الإسلام – ولا تصطدم بفكرته عن الحياة والناس، يجب أن لا نحجم عن الانتفاع به عند وضع تشريعاتنا، ما دام يحقق مصلحة شرعية للمجتمع، أو يدفع مضرة متوقعة، ولنا في مبدأ المصالح المرسلة ومبدأ سد الذرائع وهما مبدآن إسلاميان صريحان ما يمنح ولي الأمر سلطة واسعة لتحقيق المصالح العامة في كل زمان ومكان" (١).

ثم يعقب الدكتور المدخلي على النص السابق بقوله: وعلى هذا مآخذ:

١-كأن سيد يرى أن الإسلام غير كافٍ ولا وافٍ بمتطلبات الأمة الإسلامية!

٢-يمكن لأي دولة تنتمي إلى الإسلام أن تأخذ بكل ما تهواه من القوانين الوضعية بحجة تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وبحجة إنها لا تنافي أصول الإسلام...

---

(١) أضواء إسلامية د/ المدخلي ص ٢١٦ ، وقد نقله عن العدالة الاجتماعية لسيد قطب – الطبعة الخامسة ولم أجده في الطبعة المعدلة .

٣-يرى سيد أخذ كل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية إذا لم تخالف أصول تلك التشريعات أصول الإسلام... أي لا تحرم التشريعات والنظم الكافرة إلا في حالة مصادمة أصولها أصول الإسلام. أما إذا خالفت أصول تلك التشريعات الكافرة نصوص الإسلام في الأمور الفرعية فلا تحرم بل يجب الأخذ بها والحال كذلك (!!!) وإذا خالفت تفريعات القوانين الكافرة أصول الإسلام فلا حرج فيها بل يجب الأخذ بها، لأنها فروع صادمت أصول الإسلام، وإنما الضرر فقط في مصادمة الأصول الكافرة لأصول الإسلام. وبهذا التأصيل والتقعيد الذي يضعه سيد تنفتح أبواب التلاعب بدين الله فكل طاغية يجلب قوانين أوربا وأمريكا تحت شعار هذه التأصيلات "[١].

والحقيقة أن هذه المأخذ التي ذكرها د/ المدخلي على كلام سيد في النص السابق لم أجد لها سنداً في النص، وبيان ذلك كما يأتي:

١- أين كلام سيد – رحمه الله- الذي يدل على أن الإسلام غير كامل ولا واف بمتطلبات الأمة الإسلامية؟!!

٢- من أين فهم الدكتور المدخلي أن سيداً يقرر أن لكل دولة

---

(١) أضواء إسلامية د/ ربيع المدخلي ص ١٢٦، ٢١٧ بتصرف يسير .

أن تأخذ ما تهواه من القوانين الوضعية؟؟؟

٤-أنه في المأخذ الثالث يطبق لازم الكلام، فإذا أشار سيد إلى الاستفادة مما عند الغير بشرط إلا تخالف أصوله أصول الإسلام ولا تصطدم بفكرته عن الحياة، فهل يعني هذا ما فهمه الدكتور المدخلي من أن سيد - رحمه الله- يرى وجوب الأخذ بأنظمة الكفار إذا كانت أصولها مخالفة لفروع الإسلام أو العكس؟؟؟

أظن أن القارئ المتأمل في كلام سيد - رحمه الله- لا يفهم شيئاً من هذه المآخذ، وخاصة إذا أضاف إليها الشروط التي وضعها سيد - رحمه الله- في النصوص السابقة للاجتهاد في مواجهة المستجدات، من رده الأمر إلى:

- النصوص التي تنطبق عليه ضمناً.

- وإذا لم يوجد، فيرد إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.

- وأن للأمة أن تضع من التشريعات لمواجهة تطور الحياة فيما لم يرد فيه نص بشرط ألاَّ تخالف نصوص الشرع ولا أصوله ومبادئه العامة من خلال مبدأ المصالح المرسلة وسد الذرائع.

المطلب الخامس

الشورى في النظام الإسلامي

الفرع الأول: تعريف الشورى وحقيقتها:

الشورى في اللغة: – الشورى والمشاورة والمشورة، مصادر للفعل " شور "، وأصلها في اللغة يعنى: الاستخراج والإظهار والإعانة. [1]

وفي الاصطلاح: هي استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للوصول إلى أقرب الأمور للحق[2].

والشورى من المبادئ الإسلامية العامة التي قررتها الشريعة الإسلامية، وتحدث عنها أهل العلم والسياسة الشرعية في أبواب الإمامة والخلافة كثيراً، موضحين أهميتها ومكانتها في الإسلام، وحدودها ومجالاتها، وشروط أهلها وكيفيها، وما يتعلق بها من مسائل إجرائية.

حقيقة الشورى:

يرى سيد قطب – رحمه الله– أن حقيقة الشورى ومهمتها هي

(١) لسان العرب ٣٤٣/٤ـ ٤٣٦ .

(٢) الشورى في ظل الحكم الإسلامي – عبد الرحمن عبد الخالق – الدار السلفية الكويت ط عام ١٩٧١ ص ١٤ .

تقليب أوجه الرأي واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ في عزم وحسم وفي توكل على الله، يصل الأمر بقدر الله ويدع لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء " (١).

ويقول: " وهذا الأمر – أي مبدأ الشورى وإنفاذه – يقتضي الأخذ بالرأي الذي بدا رجحان الاتجاه إليه في الجماعة " (٢).

الفرع الثاني: أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام:

ذكر سيد –رحمه الله– أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام وكونها أصلاً من أصول الحياة الإسلامية من خلال ما يأتي:

١– ورودها في الآيات المكية ضمن صفات الجماعة المسلمة يدل على عمقها في الحياة الإسلامية:

ففي ظلال قوله تعالى: { وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ } [سورة الشورى:٣٨] يقول سيد – رحمه الله–: " وهنا يصور خصائص هذه الجماعة المسلمة التي تطبعها وتميزها، ومع أن هذه الآيات مكية، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة " وأمرهم شورى بينهم " مما يوحي بأن وضع

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٢ .

(٢) المصدر السابق ٥١٦/١ بتصرف يسير .

الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعيا للجماعة...، وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا، جدير بالتأمل، فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولاً، وهي الإيمان، والتوكل، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والشورى الشاملة، والإنفاق مما رزق الله، والانتصار من البغي، والعفو، والإصلاح، والصبر " (١).

ويقول أيضاً: " وقوله سبحانه وتعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} هذا التعبير يجعل أمرهم كله شورى ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، وهو كما قلنا نص مكي، كان قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد... ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً، وكان مدلوله أوسع وأعمق من

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٦٠/٥ ، ٣١٦١ بتصرف يسير .

محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة " (١).

٢-أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالشورى: وذلك في قوله تعالى: { وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ } [سورة آل عمران:١٥٩] ، يقول سيد – رحمه الله– " وفي هذه الآية نجد أصل النظام الذي تقوم عليه الحياة الجماعية الإسلامية – وهو الشورى – يؤمر به في الموضع الذي كان للشورى – في ظاهر الأمر – نتائج مريرة! (٢). فهذا النص الجازم " وشاورهم في الأمر " يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم، حتى محمد رسول الله ﷺ هذا الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه (٣).

ويقول أيضاً: " ومما يلفت النظر أكثر، الكلام – في صدد التعقيب على معركة حربية، عن الشورى والأخذ بها، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة! " (٤).

---

(١) المصدر السابق ٣١٦٥/٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً : ٤٥٨/١ .

(٢) أي : نتائج غزوة أحد .

(٣) في ظلال القرآن ٥٠٠/١-٥٠١ بتصرف

(٤) المصدر السابق ٤٥٨/١ .

٣- ممارسة النبي ﷺ للشورى: ولأهمية الشورى في الإسلام فقد درب النبي ﷺ أصحابه - رضوان الله عليهم - والأمة من بعدهم على هذا المبدأ، مهما كانت نتائجه، يقول سيد - رحمه الله- " كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ويعدها للقيادة الراشدة، ولتحقيق ذلك فقد دربهما على الشورى في حياتها العملية بإشراف النبي ﷺ، ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون لكان وجود محمد -ﷺ - ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى! - وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ولكن وجود محمد رسول الله - ﷺ - ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ووجود تلك الملابسات لم يلغ هذا الحق، لأن الله - سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ومهما تكن النتائج ومهما تكن الخسائر والتضحيات والأخطار، لان

هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة، المدركة لتبعات الرأي والعمل الواعية لنتائج الرأي والعمل ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي بالشورى في مثل هذه لظروف" (١).

٥ –ممارسة النبي ﷺ وكذا خلفاؤه الراشدون:

ومما يظهر أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام أيضاً، ممارسة النبي ﷺ لمبدأ الشورى وتربية الأمة عليه وكذا ممارسة خلفائه الراشدين لهذا المبدأ، وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى أن النبي ﷺ كان يستشير المسلمين – فيما لم يرد فيه نص – ويأخذ برأيهم فيما هم اعرف به من شؤون دنياهم، ومن ذلك:

* استشارته ﷺ لأصحابه في معركة بدر في شأن القتال، وكذا أخذه بمشورة الخباب بن المنذر – رضي الله عنه – فنزل على ماء بدر بعد ان نزل على مبعدة منه (٢).

* وكذا استشارته لهم في شأن أسرى بدر وأخذه بمشورة أبي بكر – رضي الله عنه – حتى نزل القرآن الكريم مؤيداً رأي عمر – رضي الله عنه – (٣)، واستشارهم في معركة أحد(٤)،

---

(١) في ظلال القرآن ٥٠٢/١ وينظر : ٥٣٢/١، ٥٣٣ .

(٢) المصدر السابق ١٤٥٦/٣-١٤٥٧، والعدالة الاجتماعية ص ٨٣ .

(٣) في ظلال القرآن ١٥٥١/٣، العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٦٠/١ .

وسمع رأيهم في حفر الخندق، وكذا في مصالحة غطفان على نصف ثمار المدينة في غزوة الأحزاب (١)، واستشار بعض أصحابه في حادثة الإفك (٢)، وغيرها.

* وكذلك سار الخلفاء الراشدون من بعده في استشارة المسلمين، واستشار أبو بكر – رضي الله عنه – في دخول الموبؤة، وانتهى إلى رأي، ثم وجد نصاً من السنة يؤيده فالتزمه، وجعل الخلافة شورى في ستة من الصحابة ولم يستخلف أحداً بعينه، وغير ذلك. (٣)

الفرع الثالث: فيم تكون الشورى وطريقتها.

يقرر سيد – رحمه الله– أن الشورى إنما تكون فيما لم يرد فيه نص أما ما ودر فيه نص فلا مجال للشورى فيه بل يجب العمل به " (٤). فيقول: " كان النبي ﷺ يستشير المسلمين – فيما لم يرد فيه وحي ويأخذ برأيهم فيما هم عرف به من شؤون دنياهم.. أما ما كان فيه وحي فلا مجال فيه للشورى بطبيعة الحال، فهو من

(١) المصدر السابق ٢٨٣٤/٥ ، العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٤٩٩/٤ .

(٣) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٨٠٨/٢ ٣٥٢٥/٣ ، ونحو مجتمع إسلامي ص ٥٢ ما بعدها .

مقررات الدين، وكذلك سار الخلفاء في استشارة المسلمين " (١).

*<u>**أما طريقة الشورى:**</u> فيرى سيد – رحمه الله– أنها ليست محدودة بنظام خاص وشكل معين، بل طريقة تطبيقها متروك للأمة وفق أوضاعها وظروفها.

يقول – رحمه الله –: " أما شكل الشورى، والوسيلة التي تحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتهم، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى – لا مظهرها – فهي من الإسلام " (٢).

<u>ويقول أيضاً:</u> " أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية، والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة. والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء " (٣).

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٠١ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٦٥ .

ويقول أيضاً: " أن الإسلام يجعل الشورى من أسس الحكم في الدولة الإسلامية، فما كيف تتحقق الشورى على الوجه الأمثل فهذا ما لم ينص عليه، ولقد وقعت في المجتمع الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ وبعده ألوان من الشورى ولكن هذه الذي وقع لا يحدد جميع وسائل الشورى، بل إن ذلك متروك لما يجد من تطورات في جسم المجتمع الإسلامي، وفي ظروفه، ومتروك كذلك لما يبتكر من وسائل الشورى الناجحة حسب التجارب المتجددة،

- فهل تتم الشورى على الوجه الأمثل بالتصويت العام في كل الشؤون أم في بعضها؟
- أم تتم بتصويت أهل الحل العقد من ممثلي الأمة الذين لا يختلف عليهم؟
- أم تتم بواسطة ممثلين للنقابات والجامعات والطوائف المختلفة؟
- وهل تتم بالتصويت الشفهي أم الكتابي؟
- وهل تتم بمسؤولية الوزراء أمام الحاكم الأعلى المنتخب؟
- أم بمسؤوليته أمام الهيئة الممثلة للشعب؟
- وهل تتم بمجلس واحد أم بمجلسين؟... الخ

كل ذلك متروك لظروف كل أمة وزمانها ومكانها، وللتجارب

البشرية التي تحقق الشورى على الوجه الأمثل " (١).

الفرع الرابع: أهل الشورى وطريقة اختيارهم.

يرى سيد – رحمه الله– أن أهل الشورى أو أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة هم طائفة من الأمة يبرزون لا من خلال تزكية أنفسهم وترشيحهم والدعاية لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو لغيره – كما هو الحال اليوم..

وإنما تبرز هذه الطائفة في الأمة من خلال حركتهم بهذا الدين والعمل له، ففي أثناء الحركة بهذا الدين – تتميز أقدار الناس وتتحدد مقاماتهم في المجتمع، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، ومن البلاء في الجهاد، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة، وكلها قيم يحكم عليها الواقع، وتبرزها الحركة، ويعرفها المجتمع، ويعرف المتسمين بها، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية..

وهذا ما حدث في النشأة الأولى للمجتمع المسلم – في عهد النبي ﷺ حيث تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار، وأهل

---

(١) نحو مجتمع إسلامي لسيد قطب ص ١٤١، وينظر أيضاً: العدالة الاجتماعية ص ٨٣.

بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام...

وقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته، وينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة في أي زمان، دعوة إلى الإسلام، وفتنة البلاء، وتميز للصادقين المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية.. ويومئذ لن يحتاج إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم!

وقد يقال: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى، فإذا استقر المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة.. يتحرك لتحرير" الإنسان " كل الإنسان.. في" الأرض".. كل الأرض.. من العبودية لغير الله من الطواغيت وإذن فستظل الحركة التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب، ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن إلا أن ينحرف عن الإسلام.

وقد يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً، ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن

أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!

وهذا القول كذلك وهمٌ ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة، إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين – كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه، والالتزام في المجتمع المسلم – ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية.. سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية.. أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام.. بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة " (١).

ويتحدث سيد – رحمه الله– عن إشكالية محاولة تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه في المجتمعات المعاصرة وتركيبها العضوي الذي يناقض التركيب العضوي للمجتمع المسلم، فالمجتمع المسلم يقوم تركيبه على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ومجاهدة الجاهلية، وتحمل الفتنة والأذى، بينما

---

(١) في ظلال القرآن ٢٠٠٧/٤-٢٠٠٩ بتصرف يسير .

المجتمعات المعاصرة تقوم على قيم لا علاقة لها بالإسلام والقيم الإيمانية في ترتيب الشخصيات والفئات.

وبالتالي فأول ما يحير الباحثين والكتّاب هو طريقة اختيار أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية! في مجتمعات لا يعرف الناس فيها بعضهم بعضا، ولا يزنون بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة، ثم تحيرهم أيضاً طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب؟ أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد، فكيف يعودون فيختارونه؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصاً يضمن ولاءهم له؟... وأسئلة كثيرة لا يجدون لها جواب!

ويحدد سيد – رحمه الله– أن نقطة البدء في هذه المتاهة هو عدم إدراك الفرق بين المجتمعات المعاصرة بتركيبتها العضوية وبين طبيعة المجتمع المسلم المطلوب وكذا اختلاف القيم والموازين والتصورات بينهما، ما يجعل تطبيق الأحكام الإسلامية في مثل هذه الأوضاع فراغاً لا يمكن أن تعمل فيه "[١].

---

(١) ينظر : المصدر السابق ٤/ ٢٠٠٧-٢٠١٣ بتصرف .

المطلب السادس

شبهات حول نظام الحكم في الإسلام

استعرض سيد قطب – رحمه الله– عدداً من الشبهات التي تثار حول نظام الحكم في الإسلام، وبين أسبابها وحقيقتها ورد عليها وخاصة في كتابه " معركة الإسلام والرأسمالية " حيث عقد فصلاً بعنوان " شبهات حول حكم الإسلام " ويمكن استعراضها بإيجاز فيما يأتي:

<u>أولاً: أسباب الشبهات المثارة حول الحكم الإسلامي:</u>

يقول –سيد–: " تغيم على الإسلام وعلى حكم الإسلام شبهات داكنة في نفوس هذا الجيل، وهي ناشئة إما من:

١– الجهل الفاضح بكل شيء عن هذا الدين.

٢– إلتباس فكرة الدين ذاته بمن يسمون في هذا العصر بـ" رجال الدين " وهو التباس مؤذٍ للإسلام وصورته في نفوس الناس، بسبب جهلهم لحقيقة الدين، وتأثرهم بثقافة الاحتلال.

٣– إلتباس صورة الحكم الإسلامي ببعض أنواع الحكومات التي تسمى نفسها " حكومات إسلامية " وهي لا تمثل حقيقة الإسلام.

٤- إلتباس صورة الحاكم الإسلامي ببعض الشخصيات التاريخية التي تنتسب إلى الإسلام وتزعم أنها تحكم باسمه "[١].

٥- كيد أعداء الإسلام في تشويه صورة الإسلام بشتى الوسائل وعلى مر العصور.

ثانياً: بعض الشبهات والرد عليها.

عرض سيد - رحمه الله- بعض الشبهات المثارة في عصره حول الحكم الإسلامي وناقشها ورد على أصحابها ويمكن إيجازها فيما يأتي:

الشبهة الأولى: " بدائية الحكم ": عندما يسمع البعض " الحكم الإسلامي " يتصور بسذاجة أن معناه هو العودة إلى الصورة البدائية التي كانت عليها العرب عند مجيء الإسلام، والبعد عن صورة الحضارة والمدنية وما أفرزته من تأثيرات على الحياة.

ويرى سيد - رحمه الله- أن سبب هذا يعود إلى:

١- الخلط بين النشأة التاريخية للإسلام وبين النظام الإسلامي ذاته كنظام، فالنظام الإسلامي كنظام يحتوي على حاجات العصر المتجددة التي تشمل كل حضارة البشرية

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٣- ٦٥

النظيفة وتجاربها العلمية والفكرية اللائقة بالإنسان، والشظف والبداوة التي كانت عند مجيء الإسلام ليست أصلاً من أصوله، بل كانت ظاهرة اقتصادية في مرحلة معينة.

٢- الخلط بين الشريعة الإسلامية في ذاتها وبين النشأة التاريخية للفقه الإسلامي، فيظنون أن معنى استحياء القوانين من الشريعة هو الوقوف عند الأحكام الفقهية وهي لا تكفي لمواجهة حاجات المجتمع في هذه العصور!!!

ويبين سيد - رحمه الله- أن هذا خلط مضحك، فالشريعة فيها من المرونة والشمول ما يجعلها تستجيب لحاجات ومطالب الحياة في كل عصر، كما حدث ذلك في عهد النبي ﷺ وعهد الخلافة الراشدة الذي توسع كثيراً في الأرض وحتى اليوم.

٣- جهل كثير من المشتغلين بالتشريع اليوم بالإسلام وشريعته، حيث تلقوا تعليمهم غالباً في ظل عقلية تشريعية أجنبيه، لا تعرف عن الشريعة الإسلامية إلا اليسير.

ثم يقرر سيد - رحمه الله- تميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من القوانين، بما في ذلك مراعاتها لحاجات الفرد والجماعة ومطالب الحياة المتجددة والمتحضرة، من دون أن يعني ذلك إخضاع الإسلام ومبادئه وأنظمته لشهوات الجماهير

والطغاة باسم " التحضر والتجديد " على طريقة من يسمونهم " المسلمين العصريين " أو الأقزام " المتحررين " الذين يسيرون على طريقة الكنيسة في تملق شهوات الناس وتقديم الدين بالطريقة التي تناسب شهوات المجتمع [1].

الشبهة الثانية: حكم المشايخ والدراويش:

يقول سيد – رحمه الله–: " يتصور البعض أن حكم الإسلام معناه حكم المشايخ والدراويش! بسبب الثقافة السطحية الناقصة، وملابسات الواقع في هذا الجيل.

وفي الرد على هذه الشبهة يقرر –سيد– أن الإسلام الحق له أصوله وأحكامه التي يقوم عليها، وليس مسألة الزي واللباس هي التي يُوَلَّىَ الناس بناءً عليها، فالإسلام له شريعة واحدة تنظم جميع حالات الحياة وتصدر عنها نشاط البشر، والذي يتولى عملاًً في الأمة يشترط فيه أن يكون حاذقاً فيه، قاضياً كان أو طبيباً أو مهندساً أو غير ذلك.

فالحكم الإسلامي لا يتحقق بوجود طائفة من الناس " رجال الدين " على سدة الحكم، إنما يتحقق بكون شريعة الإسلام وقوانينه ومبادئه هي التي تحكم، ويكون الحكم قائماً على الشورى بين الحاكم والأمة، والتلقي من مصدر واحد هو الشرع،

١ معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥-٦٩ بتصرف .

وبالتالي فلا مكان للدراويش ومشايخ الطرق الذين يسترزقون باسم الدين في ظل الحكم الإسلامي إلا إذا تحولوا إلى العمل المثمر كغيرهم من أفراد المجتمع " [١].

الشبهة الثالثة: طغيان الحكم:

ارتبط في أذهان كثير من المثقفين وغيرهم أن الحكم الإسلامي يعني الحكومة الدينية التي من طبيعتها الاستبداد والظلم والجمود وخنق الحريات، وقد جاءت هذه الصورة البائسة من محاكم التفتيش في عصور الظلمات في أوربا، والتي حرقت العلماء واستعبدت البشر، وكذا من بعض الحكومات القائمة اليوم باسم الدين في بعض بلاد المسلمين، والتي لا تقوم على الإسلام، وإنما تتخذه شعاراً للاستبداد.

*وفي الرد على هذه الشبهة يقرر سيد – رحمه الله– أن وجود مثل هذا النوع من الحكومات المستبدة باسم الدين لا يعني اتهام الدين ووجوب إقصائه من الحياة.

ثم يذكر أمثلة كثيرة للأنظمة الديمقراطية، التي تحكم اليوم في كثير من دول العالم والتي فيها الظلم والاستبداد، وكتم الحريات وانتهاك الحقوق، ويروي قصصاً عن الجرائم والتعذيب للمواطنين في ظل بعض الأنظمة الديمقراطية المعاصرة! فلماذا

---

٢ المصدر السابق ص ٦٩-٧٥ بتصرف .

لا يطعنون في هذه الأنظمة كما يطعنون في الحكم الإسلامي بسبب سوء تطبيق البعض له أو بسبب انحرافات باسمه؟؟؟

ثم يبين سيد – رحمه الله–: أن المرجع في الحكم على نظامٍ ما يجب أن يكون هو قواعده وأصوله، أما حين تخالف هذه الأصول لأي سبب فلا يصح الطعن فيه.

فالإسلام بأصوله النظرية ومواقفه التاريخية يمثل نموذجاً فريداً للعدل وحماية الحقوق المشروعة للبشر، وحتى الحدود التي شرعها الله، والتي يخطر للبعض – ممن لم يدرس فكرة الإسلام الكلية وقواعده العامة – أن فيها قسوة، فإن الإسلام لا يقيمها إلا بعد أن لا يكون للمجرمين عذر ولا شبهة، فالإسلام يمنع أولاً الأسباب التي تضطر الفرد إلى الجريمة ويعالجها علاج وقاية قبل وقوعها، فإذا استهتر الفرد بها وأقدم عليها فالعقوبة ضرورية لحماية المجتمع [١].

الشبهة الرابعة: غموض النصوص:

يصدق بعض الجهلة ما يشيعه المغرضون بقصد التخويف، عن غموض النصوص في الشريعة الإسلامية، ويظنون أن كتب الشروح والحواشي التي تمثل المذاهب الإسلامية وخلافات الفقهاء وردودهم شيء غامض لا يمكن الاستفادة منه.

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٥-٨٤ بتصرف.

وفي الرد على هذه الشبهة يقول سيد: " ينسى هؤلاء أن المذاهب الأربعة الكبرى في الإسلام كان مصدر ما فيها من أحكام وتشريعات هو الكتاب والسنة، وإن وجد فيها آراء مختلفة في الجزئيات والتطبيقات.

وكل نظرية تشريعية في العالم تختلف حولها الشروح، ويتجادل فيها القانونيون، ومع ذلك لا يدعو أحد إلى نبذها بعذر اختلاف الشراح حولها.

إن الأصول الإسلامية واضحة في الكتاب والسنة، وهما الينابيع الأصيلة في الإسلام، وسعة المبادئ وعمومها في الشؤون العامة المتجددة تترك مجالاً لتطبيقها على الواقع في كل العصور [١].

الشبهة الخامسة: " الحريم ":

وهي شبهة أُلصقت بهذا الدين، وجدت في عهد الأتراك، حيث يتحدث البعض أن الإسلام لو حكم فسيعيد النساء رقيقاً، يحبسن في الحريم.

* وفي الرد على هذه الشبهة يقرر سيد – رحمه الله-: أن وثبة الإسلام بالمرأة وثبة إنسانية كريمة، لم تصل إليها حتى الحضارة الغربية اليوم.

---

١ معركة الإسلام والرأسمالية ص ٨٤-٨٦ بتصرف .

فالإسلام منح المرأة حقوقها التي تحتاجها لتعيش امرأة فاضلة شريفة محترمة.

ويشير -سيد- إلى أن الذين يتحككون بقضايا المرأة اليوم لهم أهدافهم في تجريد المرأة من مقوماتها الإنسانية، ليتحول المجتمع إلى بهائم باسم الحرية.

وبالتالي فلا خوف على المرأة من حكم الإسلام، لأنه يسمح لها بمزاولة نشاطها الإنساني في حدود الشرف والكرامة [1].

الشبهة السادسة: التعصب ضد الأقليات:

ذكر سيد - رحمه الله- أن التخوف من حكم الإسلام على الأقليات القومية نوع من التجني الذي لا يليق، فليس هناك دينٌ ولا حكمٌ في الدنيا ضمن لهذه الأقليات حرياتهم وكرامتهم وحقوقهم كما صنع الإسلام في تاريخه الطويل... في حين كان جزاء الإسلام من هذه القوميات هو الاضطهاد لأتباعه في بلاد الأديان الأخرى، مما يجعل الحديث عن قومية الحكم في ظل التشريع الإسلامي حديثاً بغيضاً لا سند له من الحق ولا من الواقع والتاريخ ولا من الإنصاف.

ثم ذكر مثالاً لعهد الأتراك وأورد كلاماً لأحد المستشرقين حول معاملة العثمانيين للمسيحيين مقارنة بما حدث بين بعض

---

٢ المصدر السابق ص ٨٦-٨٨ بتصرف .

الفرق المسيحية في أوربا وروسيا من اضطهاد لأفراد الفرق المخالفة لها من المسيحيين، وأشار إلى أن اليهود الذين أُضطهدوا في أسبانيا لم يجدوا لهم مكاناً يؤويهم إلا الخلافة العثمانية، وبالمقابل أشار إلى ما يعانيه المسلمون في بلاد غير المسلمين كالحبشة وروسيا ويوغسلافيا وسائر بلاد الشيوعية والمسيحية من تعصب واضطهاد [١].

وأشار سيد – رحمه الله– إلى أن هذه الشبهات وغيرها يكفي في جلائها مجرد المعرفة الصحيحة للحقائق التاريخية والاجتماعية الإسلامية [٢].

المطلب السابع

موقف سيد قطب من الأنظمة المعاصرة ومنهج التغيير عنده

تحدث سيد – رحمه الله– عن الأنظمة المعاصرة وحقيقتها، والموقف الذي ينبغي أن يكون حيالها وكيفية التعامل معها، ويمكن بيان ذلك في الفروع الآتية:

<u>الفرع الأول: نظرة سيد قطب إلى الأنظمة المعاصرة:</u>

يرى سيد – رحمه الله– أن هذه الأنظمة من صنائع

---

٣ المصدر السابق ص ٨٨ ــ ٩٢ .

٤ معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٤ .

الاستعمار ومخلفات الغزو الصليبي لبلاد المسلمين في القرنين الماضيين، وأنها أنظمة جاهلية، لأنها لا تقرّ لله بالحاكمية، وإنما تعتدي على سلطان الله، وتدعي لنفسها الحاكمية.

يقول سيد: " إنَّ العالم يعيش اليوم كله في جاهلية، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها، هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية، إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أرباباً، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأذن به الله " (١).

ويبني سيد – رحمه الله- حكمه هذا على أنه لا يوجد في الأرض إلا حكمان: حكم الله سبحانه وتعالى أو حكم الجاهلية، فلا وسط بين الطرفين ولا بديل.

* فحكم الله هو الذي يقوم على تنفيذ شريعة الله في حياة الناس، والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم

---

(١) معالم في الطريق لسيد قطب ص ١٠ ، وينظر : في ظلال القرآن ١١٣٨/٢ ، ١٧٣٥/٣ .

يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعضها - ويقبلونها ويسلمون بها فهم في دين الله، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر، ويقبلونها فهم إذن في جاهلية.. والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية وهذا مفرق الطريق" (١).

وأشار - رحمه الله - إلى دور اليهود والصليبيين في القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية، وإقامة أنظمة وأوضاع في العالم الإسلامي تتزيا بزي الإسلام، وتتمسح بالعقيدة، ولا تنكر الدين جملة، بل تحوله إلى مجرد شعائر ومشاعر في نفوس الأفراد مع طرده من واقع الحياة، وهي بذلك تنفذ الأهداف والخطط التي عجز أعداء الإسلام عن تنفيذها من خلال الشيوعية والتنصير والاستعمار بالقوة.

وأحياناً يلجأ أعداء الإسلام إلى إثارة حروبٍ مصطنعة - باردة أو ساخنة - وعداوات مصطنعة في شتى الصور، بينهم وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة!

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة، لتزيد

---

(١) في ظلال القرآن ٩٠٤/٢ بتصرف ، وأيضاً ٢٠١١/٤ .

من عمق الخدعة، ولتبعد الشبهة عن العملاء، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد، من تدمير القيم والأخلاق، وسحق العقائد والتصورات، وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم، وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين، في غفلة من الرقباء والعيون!

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولوصف الكفر بأنه الإسلام، والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقاً، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء!!! (١).

" ويحتاجون في سبيل ذلك أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام كما فعلوا مع " أتاتورك " حتى صنعوا منه بطلاً قومياً في أعين مواطنيه، وبذلك استطاع أن يلغي الخلافة ويمحوا

(١) في ظلال القرآن ١٠٣٢/٢-١٠٣٣ بتصرف .

الإسلام من تركيا ويحولها إلى دولة علمانية، وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين " (١).

ومما سبق يظهر لنا أن سيد قطب – رحمه الله– كان ينظر إلى الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي على أنها أنظمة غير إسلامية أو بتعبير أخر أنظمة جاهلية، لقيام الحاكمية فيها على غير شريعة الله، ولكن هذا لا يعني الحكم بكفر الشعوب والأفراد، فتلك مسألة أخرى!

وقد وضح سيد – رحمه الله– ذلك كما نقله عنه غير واحد وفي محاضر التحقيق أيضاً حيث سئل – رحمه الله– عن ماذا يقصد بقوله: " إن وجود الأمة المسلمة قد انقطع منذ فترة طويلة؟ " فقال: " لابد من تفسير مدلول كلمة الأمة المسلمة التي أعنيها، فالأمة المسلمة هي التي تحكم كل جانب من جوانب حياتها الفردية والعامة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، شريعة الله ومنهجه، وهي بهذا الوصف غير قائمة الآن لا في مصر، ولا في أي مكان في الأرض! وإن كان هذا لا يمنع من وجود الأفراد المسلمين، لأنه فيما يتعلق بالفرد يكون الاحتكام إلى عقيدته وخلقه، وفيما يتعلق بالأمة يكون الأحتكام

---

(١) المصدر السابق ٣٥٥٧/٦-٣٥٥٨ بتصرف .

إلى نظام حياتها كلها! وبالتالي فنظام الحكم القائم نظام غير إسلامي، أو تعبير آخر نظام جاهلي [١].

الفرع الثاني: الموقف من هذه الأنظمة:

الذي يقرا كتب سيد قطب – رحمه الله– يدرك بوضوح أنه لا يعترف بشرعية الأنظمة التي تقوم على تحكيم غير شريعة الله، ويعتبرها أنظمة طاغوتية جاهلية، وبالتالي يجب مفاصلتها وفضح حقيقتها والسعي لتغييرها، ويمكن تلخيص موقف سيد – رحمه الله– من الأنظمة العلمانية في النقاط الآتية:

أولاً: وجوب مفاصلتها والبراءة منها:

حيث تحدث سيد – رحمه الله– عن تحديد العلاقة مع الجاهلية وأهلها عموماً، ووجوب مفاصلتها والتميز عنها، ويعتبر ذلك شرطاً من شروط التمكين للعصبة المؤمنة، فيقول: " وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض، وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها – والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية – وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها، باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذي

---

(١) ينظر في ذلك : " الموتى يتكلمون " لسامي جوهر ص ١١١- ١٤٦ ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ص ٤٣٣- ٤٣٤ .

يـؤثرون البقـاء فـي الجاهليـة، والتقيـد بأوضـاعها وشـرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض.. إلا بأن تتفصل هذه العصبة عقيدياً وشعورياً ومنهج حياة عن أهل الجاهلية.. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج.. فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز، حق عليها وعيد الله هذا، وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد، دون أن يدركها فتح الله الموعود!

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. لكنها لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة انضمامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها.

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي الرسل يعطينا يقيناً جازماً بأن فتح الله ونصره، وتحقيق وعده للذين آمنوا لم يقع مرة واحدة، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة.. وطريق الدعوة واحد " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ١١٢٥/٢ بتصرف يسير ، ١٩٤٦/٤- ١٩٤٧ .

ويقرر سيد قطب – رحمه الله– أن المفاصلة تمر بمراحل:

المرحلة الأولى: المفاصلة العقدية الشعورية: وهي شعور المسلم بانفصاله عن أهل الجاهلية، وبغضهم وعداوتهم، والانخلاع من تصورات الجاهلية، وقيمها وروابطها، والتحلي بالقيم الإيمانية، وهذه المفاصلة العقيدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى (١).

المرحلة الثانية: الوضوح في دعوة الناس إلى الإسلام الحق: فلا بد من الوضوح في دعوة الناس إلى الدينونة لله وحده في كل شؤون الحياة، ونبذ الدينونة لغير في أي صورة من الصور، وقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية (٢).

وتحدث سيد – رحمه الله– عن العرض المتميز للدعوة في فصل كامل من " معالم في الطريق " بعنوان! " نقلة بعيدة " فقال: " هناك حقيقة أولية، ينبغي أن تكون واضحة في نفوسنا تماماً ونحن نقدم الإسلام للناس: المؤمنين به أو غير المؤمنين على السواء..

إن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة ذو خصائص متميزة، ينبثق منه منهج مستقل للحياة بكل مقوماتها، ويقوم

---

(١) معالم في الطريق ص ٢٠ ، وفي ظلال القرآن ١٩٤٦/٤-١٩٤٧ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٤٧/٤ بتصرف يسير .

عليه نظام خاص، يخالف سائر التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً..

ووظيفة الإسلام الأولى هي إنشاء حياة توافق هذا التصور وتمثله في الواقع نظاماً، وليس الاصطلاح مع التصورات والأوضاع الجاهلية – أو الالتقاء معها في منتصف الطريق والقبول بأنصاف الحلول،

فالإسلام وظيفته إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي قيادتها على منهجه الخاص، لم يجيء ليربت على شهوات الناس وأنظمتهم وأوضاعهم الجاهلية..

فالجاهلية خبثت قديماً وخبثت حديثاً.. يختلف خبثها في مظهره وشكله، ولكنه واحد في أصله ومغرسه.. وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون من القوة والوضوح في نفوسنا ونحن نقدم الإسلام للناس بحيث لا نتلجلج في الإدلاء بها ولا نتلعثم، ولا ندع الناس في شك منها...

يجب ألاَّ ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية.. بشتى أسمائها وشياتها وراياتها جميعاً.. وإنما هو الإسلام فقط! الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل، وأوضاعه المستقلة، وحين ندرك

حقيقة الإسلام على هذا النحو، فسيجعلنا نخاطب الناس ونقدم لهم الإسلام، في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة.. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل، وعطف الذي يرى شقوة البشر، وهو يعرف كيف يسعدهم..

لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة.. سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم.. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيِّبكم.. هذه الحياة التي تحيونها دَوْنٌ، والله يريد أن يرفعكم، والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم، ويرفعكم إلى حياة وأوضاع وقيم أفضل منها وهكذا ينبغي أن تخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام.

وهذه هي الصورة التي خاطب الإسلام الناس بها أول مرة، نظر إليهم من علٍ، خاطبهم بلغة الحب والعطف، وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طريقته.. ولم يقل لهم أبداً إنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة! أو أنه يشبه نظمهم وأوضاعهم، كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم إليهم الإسلام.. مرة تحت عنوان: " ديمقراطية الإسلام "! ومرة تحت عنوان " اشتراكية

الإسـلام "!... إلـى آخـر هـذا التدسـس النـاعم والتربيـت علـى الشهوات!

كلا، إن الأمر مختلف جداً.. فصورة الحياة الإسلامية مغايرة تماماً لصور الحياة الجاهلية قديماً وحديثاً... وهذه حقيقة يجب أن نجهر بها ونصدع، وألا ندع الناس في شك منها ولا لبس. وقد يكره الناس هذا في أول الأمر ويجفلون منه كما كرهوه في أول الدعوة وحاربوه، ومع ذلك فقد فاؤوا إلى الحق الذي لم يعجبهم أول مرة... وعموماً فليس لنا أن نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها وأوضاعها وتقاليدها، مهما كان ضغطها علينا، لابد لنا أن نثبت أولاً، وأن نستعلي ثانياً، وأن نبين حقيقة الجاهلية بالقياس إلى الآفاق العليا للحياة الإسلامية التي نريدها (١).

<u>المرحلة الثالثة: المفاصلة العملية</u>: وتكون في حالة الضعف تكون بهجر مجالس المنكر والزور وعدم مجاراة أهل الجاهلية في باطلهم أو السكوت عنهم، فالمسلم مأمور بمفاصلتهم وبمقاطعتهم إلا للذكرى (٢).

يقول سيد – رحمه الله–: " ولن يكون هذا– أي التميز

---

(١) معالم في الطريق : فصل نقله بعيدة ص ١٦٢-١٧٧ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ١١٢٨/٢ بتصرف .

والمفاصلة– بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن وننزوي عنها وننعزل.. كلا!، إنما هي المخالطة مع التميز، والأخذ والعطاء مع الترفع، والصدع بالحق في مودة، والاستعلاء بالإيمان في تواضع (١). فسيد – رحمه الله– في كلامه السابق يرفض أمرين:

الأول: مجارة أهل الجاهلية في جاهليتهم سواء كانت في التصور أو الحكم أو السلوك.

والثاني: الانعزال والانزواء في الكهوف وترك أهل الجاهلية يزاولون منكراتهم، **ويحدد طريقة التعامل:** بالمخالطة مع التميز، والتعامل مع الترفع، والصدع بالدعوة في مودة والاستعلاء بالإيمان الذي يحمله الداعية.

وهذا يرد على من يقول بأن سيد – رحمه الله– دعا إلى عزلة المجتمعات ومفاصلة الناس. **أما قضية تولي المناصب في ظل الأنظمة غير الإسلامية**، فيفهم من كلام سيد قطب – رحمه الله– في قصة يوسف – عليه السلام – أنه يرى جوازها بشرط أن يكون من يتولاها في عمله حاكماً مطاعاً لا خادماً للوضع الجاهلي، وأن يتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره وإلا فلا (٢).

---

(١) معالم في الطريق ١٧٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٠١٣/٤ .

ويقرر سيد – رحمه الله– أن فترة الدعوة قد تطول قبل المفاصلة العملية، وقد يبطئ الفصل، وتكثر التضحيات، ولكن وعد الله بالفصل يجب أن يكون في قلوب العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال فهو لا شك آتٍ، ولن يخلف الله وعده (١).

ثانياً: إزالة اللافتات المضللة عن الأنظمة الجاهلية:

يقول سيد – رحمه الله–: " وأعداء هذا الدين الراصدون لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل، يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية وبتاريخ الحركة الإسلامية على السواء وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص على رفع لافتة إسلامية على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يعدونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعاً

ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق لمواجهة "الجاهلية" الحقيقية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة!... كما فعلوا مع حركة " أتاتورك " التي ألبسوها " لافتة إسلامية " فتحتم – إذن – إزالة هذه اللافتة، وتعريتهم من ظلها الخادع، وكشفهم على حقيقتهم الواقعة، لأن السذج من الدعاة إلى الإسلام في

---

(١) المصدر السابق ١٩٤٧/٤ .

الأرض يتحرجون من إنزالها عن " الجاهلية " القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة.. وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية، بل يؤدي إلى تخدير حركات البعث الإسلامي، وتقوم حاجزاً دون الوعي الحقيقي،

وهؤلاء السذج – من الدعاة إلى الإسلام – أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق هذا الدين.

والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس في قوة أعدائه بقدر ما يكمن في سذاجة أبنائه.. لذا فالواجب الأول على الدعاة في الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية.. وهذا نقطة البدء في أية حركة إسلامية " (١).

<u>ثالثاً: السعي لتغيير الأنظمة الجاهلية وإقامة النظام الإسلامي:</u>

الذي يقرأ كتب سيد – رحمه الله– وخاصة " الظلال " و" المعالم " يجد أنه يتحدث كثيراً عن وجوب العمل الدائب لتغيير الأنظمة الجاهلية، من خلال إستراتيجية طويلة، إبتداءً بتوعية

---

(١) المصدر السابق ٣ /١٦٤٨-١٦٥٠ بتصرف .

الأمة بالإسلام وتكوين قاعدة شعبية تقبل الإسلام وتطالب به وتحافظ عليه.

ومع ذلك لا يغفل محاربة المنكرات الجزئية، بل يرى وجوب ربطها بالمنكر الأكبر وهو " حاكمية غير الله " وعدم الانشغال بها عن هذا المنكر الأكبر.

وقد انتقد رحمه الله الذين ينشغلون بالمنكرات الجزئية، ويجعلون منها إستراتيجية تشتغل الناس عن المنكر الأكبر.

ويحدد – سيد قطب – بوضوح موقفه من الأنظمة الجاهلية، ويقرر أن الاكتفاء بترقيعها والانشغال بالجزئيات عن الأصل وهو التغيير، لا يصح مطلقاً، بل هو انحراف عن المنهج الإسلامي الذي يرفض التعايش مع الجاهلية أو الالتقاء معها في منتصف الطريق فيقول: " وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان، لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولن تكون هذه وظيفته اليوم، ولا في المستقبل، فالجاهلية هي الجاهلية، الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده، وعن المنهج الإلهي في الحياة، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي والإسلام هو الإسلام، ووظيفته هي نقل الناس

من الجاهلية إلى الإسلام " (١).

ويقول: " إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور.. فإما إسلام وإما جاهلية، وليس هنالك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية يقبله الإسلام ويرضاه.. فنظرة الإسلام واضحة في أن الحق واحد لا يتعدد، وأن ما عدا هذا الحق فهو الضلال، وهما غير قابلين للتلبس والامتزاج، وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، وإما شريعة الله، وإما الهوى.. والآيات القرآنية في هذا المعنى متواترة كثيرة: { وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ } [سورة المائدة:٤٩] ، (٢).

ويقول: " ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع المجتمع الجاهلي، ولا أن ندين له بالولاء.. فهو غير قابل لأن نصطلح معه، إن مهمتنا أن نغير من أنفسنا أولاً لنغير هذا المجتمع أخيراً.

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع من أساسه لأنه يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج والتصور الإسلامي ويحرمنا بالقهر

---

(١) معالم في الطريق ص ١٦٣ .

(٢) معالم في الطريق ص ١٦٣ .

والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش "[١].

ويقول: " إن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، فهو يهدف إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان "[٢].

*** مراحل التغيير ووسائلها عند سيد قطب.**

يرى سيد قطب: أن تغيير الأنظمة الجاهلية يحتاج إلى إستراتيجية طويلة تمر بعدة مراحل هي: -

المرحلة الأولى: مرحلة الدعوة والبيان وإحياء العقيدة في نفوس الناس وتربيتهم على الإسلام:

حيث خلص -سيد قطب- من خلال مراجعته ودراسته الطويلة للحركة الإسلامية المعاصرة ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى - جيل الصحابة - إلى أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات يوم جاء الإسلام من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية، وليس فقط البعد عن النظام والشريعة الإسلامية، وفي الوقت نفسه توجد معسكرات مختلفة تحارب الدعوة الإسلامية وتعمل على تدميرها بوسائل مختلفة...

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١٤٣٥/٣.

وبما أن المجتمعات بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية والغيرة عليها، وبعدت عن الأخلاق الإسلامية، فلابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول (١).

ويرى أن" أصحاب الدعوة إلى دين الله وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين والواقع خليقون أن يقفوا أمام ظاهرة اهتمام القرآن الكريم والنبي ﷺ بتقرير العقيدة في بداية الدعوة وعدم مجاوزتها إلى غيرها.. فمتى استقرت العقيدة في النفوس استقر معها النظام الذي تتمثل فيه " لا اله إلا الله " بعد ذلك في الواقع..

وينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتم خطوات البناء على مهلٍ، وفي عمقٍ وتثبت، فبناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة (٢).

" وأشق ما تعانيه حركات الإسلام اليوم هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول" لا إله إلا الله" ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.. وبالتالي فيجب أن تبدأ الدعوة إلى الله ببيان الحق والباطل وألا

---

(١) ينظر : لماذا أعدموني ص ٢٧-٢٨ بتصرف .

(٢) ينظر : معالم في الطريق ص ٤٢-٥١ ، في ظلال القرآن ١٠٠٥/٢-١٠١٥ .

تأخذها خشية أو خوف في سبيل بيان الواقع وتعريف الناس بما يجب أن يكونوا عليه " (١).

المرحلة الثانية: التنظيم وبناء القاعدة الصلبة (العصبة المؤمنة):

يرى – سيد قطب – أن التغيير ينبغي أن يكون عن طريق تكوين تنظيم ناجح، يتنامى هذا التنظيم ويزداد انتشاراً حتى يكون قاعدة إسلامية صلبة قادرة على التغيير الشامل للأنظمة الجاهلية، فيقول: " وهذا يقتضي عملية بعث في الرقعة الإسلامية، هذا البعث الذي يتبعه – على مسافة ما بعيدة أو قريبة – تسلم قيادة البشرية، فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟

إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا، تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة..

ولا بد لهذه الطليعة من معرفة بدورها، وحقيقة وظيفتها، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة، وموقفها من الجاهلية وأين تلتقي مع الناس وأين تفترق وكيف تخاطبهم وبم تخاطبهم؟ (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١١٠٦/٢-١١٠٧ بتصرف .

(٢) معالم في الطريق ص ١١، ١٢ بتصرف يسير .

ويطلق سيد – رحمه الله– على هذا التنظيم أسماء متعددة في كتاباته، فأحياناً يسميه " الجماعة المسلمة" وأحيانا " العصبة المسلمة " وأحياناً " طلائع البعث الإسلامي " وأحياناً " الطليعة المؤمنة " وأحياناً " التجمع الحركي العضوي " (١).

ويعلل سيد – رحمه الله– ظروف وجود هذا التنظيم والتجمع الحركي لتغيير الأنظمة الجاهلية بقوله: " ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز – ولا يجدي شيئاً – أن تتمثل في نظرية مجردة، فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته، لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك

(١) ينظر : في ظلال القرآن ١٥٥٦/٣ و معالم في الطريق ص ١١ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٤ ، وهذا الدين ص ٩ .

التجمع الجاهلي القائم فعلاً " [1].

ويقول أيضاً " والمنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس مجرد تنزله، ولا مجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب، إنما يتحقق بأنه تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه – بقدر طاقتها – وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك، فتجاهد الضعف البشري والهوى داخل نفوسها، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى " [2].

وقد حاول سيد – رحمه الله– إنشاء هذا التنظيم من خلال محاولة إحياء تنظيم يستفيد من قاعدة الإخوان المسلمين المحظورة، وهو ما عرف بتنظيم " ٦٥ " والذي شارك فيه مع مجموعة من قيادات الإخوان المسلمين، ووضع له برنامجاً تربوياً يقوم على إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة، تربية إسلامية صحيحة، وفق برنامج تربوي متكامل [3].

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٥٦/٣ ، معالم في الطريق ص ٥٤ .

(٢) هذا الدين ص ٩-١٠ بتصرف يسير .

(٣) لماذا أعدموني ص ١٧، ٢٦-٢٩ بتصرف يسير ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ص ٣٨٦ وما بعدها .

وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها، بحكم اقتناع وتربية القاعدة في المجتمع والتي تكون نواة للعمل والتغيير (١).

وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى أنه " لا يجوز البدء بأي تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل، ومن الوعي بالمفاهيم الإسلامية وطريقة التعامل مع المعسكرات المعادية والعقبات في طريق الدعوة " (٢).

المرحلة الثالثة: إزالة الأنظمة الجاهلية.

وهذه المرحلة هي المرحلة النهائية في طريق التغيير عند سيد قطب، حيث يقول: " وقيام مملكة الله في الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده، وسيادة الشريعة الإلهية وحدها، وإلغاء القوانين البشرية، كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لان المتسلطين على رقاب العباد، المغتصبين لسلطان الله في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض، وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم

(١) لماذا أعدموني ص ٣١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٢، ٤٣ بتصرف .

أجمعين – وتاريخ هذه الدين على مر الأجيال!

إن هذا الإعلان العام لتحرير " الإنسان" في " الأرض " من كل سلطان غير سلطان الله، لم يكن نظرياً سلبياً، إنما كان إعلاناً حركياً ايجابياً.. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل " الحركة " إلى جانب شكل " البيان " ليواجه " الواقع " البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه " فالبيان" يواجه العقائد والتصورات، و" الحركة " تواجه العقبات المادية الأخرى، وهما معاً يواجهان" الواقع البشري" بجملته " (١).

ومن ثم لم يكن بد " للإسلام " أن ينطلق في الأرض لإزالة " الواقع " المخالف لذلك الإعلان العام، بالبيان وبالحركة مجتمعين، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تُعَبِّد الناس لغير الله – أي تحكم بغير شرع الله وسلطانه – والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى " البيان "، والذي يدرك طبيعة هذا الدين– على النحو المتقدم– ليدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة جهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان " (٢).

ويقول أيضا: " وإن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا

---

(١)في ظلال القرآن ١٤٣٤/٣ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ١٤٣٥/٣ .

يصلح إلا بعمل وكفاح، ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتقرير ألوهية الله في الأرض، وردع للمغتصبين سلطان الله، وإقامة شريعة الله في الحياة، لا بد من جهد:

- **بالحسنى:** حين يكون الضالون أفراداً ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة

- **وبالقوة:** حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم " (١).

ومما سبق عرضه من النصوص نجد أن سيداً – رحمه الله– يؤكد على ضرورة التغيير بالقوة بشرط:

١- أن يكون هذا التغير بعد مرحلة تعريف الناس بالإسلام الحق ودعوتهم إليه وتربيتهم عليه، ٢- وجود القاعدة الإسلامية الصلبة في شكل تجمع عضوي وحركي مؤثر في المجتمع.

٣- وجود القدرة على تغيير الأنظمة.

أما قبل وجود هذه الأمور فإن سيد قطب – رحمه الله– يرى استبعاد استخدام القوة لتغيير الأنظمة لان النتائج لن تكون

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٩٢-٩٩٣.

نافعة بل ضارة حيث يقول: " فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام، فهم – اللحظة وموقتاً – غير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها – ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها " (١).

ويوضح سيد قطب – رحمه الله– طبيعة تنظيم "٦٥" ووسائل التغيير التي وضعها فيقول: " وكنا قد اتفقنا على استبعاد استخدام القوة كوسيلة لتغيير نظام الحكم أو إقامة النظام الإسلامي، وفي الوقت نفسه قررنا استخدامها في حالة الاعتداء على هذا التنظيم الذي يسير على منهج تعليم العقيدة وتربية الخلق وإنشاء قاعدة للإسلام في المجتمع " (٢).

ويقول: " ولابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة: وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء

---

(١) المصدر السابق ١٥٨٢/٣ بتصرف يسير .

(٢) لماذا أعدموني ص ٤٨ .

على الحكم قبل أن تكون هناك القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به.. وفي الوقت نفسه ومع المضي في برنامج تربوي كهذا، لابد من حماية الحركة من الاعتداء عليها أو تدميرها من خلال وجود مجموعات فدائية مدربة بعد تمام تربيتها للتدخل في حالة الاعتداء على الجماعة " (١).

ويفهم من كلام سيد – رحمه الله– السابق أن استخدام القوة يكون في حالتين:

الأولى: في حالة الاعتداء على التنظيم من قبل الأنظمة الجاهلية.

الثانية: في حالة تكوين القاعدة الإسلامية في المجتمع ووجود القدرة على تغيير الأنظمة الجاهلية.

أما قبل ذلك فلا يجوز استخدام القوة، بل يجب الانصراف إلى الدعوة والبيان وتعريف الناس بالعقيدة وتربيتهم على الإسلام مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة (٢).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨-٢٩ بتصرف .

(٢) لماذا أعدموني ص ٢٩ .

***وسائل التغيير الخاطئة في نظر سيد قطب:**

تبين لنا فيما سبق أن إستراتيجية تغيير الأنظمة الجاهلية في فكر سيد قطب تقوم على التدرج في ثلاث مراحل:

الأولى: الدعوة والبيان والبلاغ وتعريف الناس بالإسلام الحق والمفاهيم العقدية الصحيحة وتربيتهم عليها.

الثانية: إنشاء تنظيم حركي من العناصر التي تم تربيتها على العقيدة والخلق، لتكون هي القاعدة

الصلبة في المجتمع والتي ستنقل المجتمع إلى الإسلام الصحيح.

الثالثة: تغيير الأنظمة عند وجود القدرة وتوفر الوسائل التي تضمن النجاح.

وقد نبه سيد – رحمه الله– إلى بعض الطرق والوسائل التي يراها خاطئة في عملية التغيير ومنها:

١– الانشغال بالمشاركة السياسية عن التربية:

وذلك نابع من نظرة سيد – رحمه الله– إلى الأنظمة القائمة اليوم سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية أو ديمقراطية بأنها أنظمة علمانية جاهلية(١).

*وبالتالي فالمشاركة فيها والانشغال بالعمل السياسي دون

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٥٦/٣ بتصرف يسير .

الاهتمام بالتربية فيه إضاعة للوقت، وفيه تلبيس على الناس بشرعية هذه الأنظمة المضادة للإسلام، يقول سيد: " أن محاولة وضع أقنعة على الإسلام أخرى كالاشتراكية والديمقراطية، وغيرها هي محاولة ذليلة، فالاشتراكية مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر، والديمقراطية نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ، بينما الإسلام منهج حياة مبرأ من النقص والعيب... فالإسلام هو الإسلام، والاشتراكية هي الاشتراكية، والديمقراطية هي الديمقراطية.. ذلك منهج الله.. وهذه مناهج البشر، ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج.. فيقدم الإسلام للناس في أزياء اليوم التي يحبها البشر، بل لابد أن يستعلي بدينه فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين، ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه، ولا مخاطبة الناس بغير منهجه ووسيلته " (١).

*" فالديمقراطية ليست إلا لافتة خادعة أوقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال وتملك معه الأغلبية البرلمانية والدساتير الوضعية والحريات الصحيفة... وغيرها مما ظنها الناس كفيلة بضمان إنسانيتهم

---

(١) المصدر السابق ١٠٨٣/٢-١٠٨٤ بتصرف .

وكرامتهم، فكانت العاقبة ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الأمور إلى مجرد لافتات وخيالات" (١).

*ويقرر سيد – كما سبق معنا– وجوب مفاصلة الأنظمة الجاهلية، وعدم لبس الإسلام باللافتات الخادعة للجماهير، فعلى العصبة المسلمة أن تتميز بعقيدتها، وتفاصل مفاصلة كاملة واضحة لا غموض فيها، كما كان رسول الله ﷺ يعرضها مفاصلاً ومتميزاً، لا كما يفعل اليوم البعض ممن يقدم الإسلام للناس مرة تحت عنوان " ديمقراطية الإسلام " ومرة تحت عنوان " اشتراكية الإسلام "... إلى أخر هذا التدسس الناعم.. والأمر مختلف جداً "(٢).

* فالإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، ولا يقبل التلبس والامتزاج بها، وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية: أمران لا ثالث لهما "(٣).

* ويؤكد سيد – رحمه الله– أن عدم مفاصلة أهل الباطل تسبب التباس الأمر على الناس وتحرم الدعوة من النصر في النهاية (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٤٢/٤-١٩٤٣ بتصرف .

(٢) معالم في الطريق ص ١٦٩ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٥ بتصرف .

(٤) في ظلال القرآن ١١٢٥/٢ بتصرف .

* وكـان مـن مآخـذ سـيد – رحمـه الله– علـى الجماعـات الإسلامية انشغالها فـي أحيـان كثيـرة بالاسـتغراق فـي الحركـات السياسـية، وشـغل نفسـها بمطالبـة الحكومـات بتطبيـق النظـام الإسلامي، بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة والغيرة عليها والأخلاق الإسلامية، ومن هنا يؤكد على أهمية التربية والتنظيم، وعدم إضاعة الوقت في الإحداث السياسية (١).

* ويـرى أن قيام حكم إسلامي فـي أي بلـد لـن يجـيء عن طريق الانتخابات، وأنه لن يكون إلا بمنهج بطيء طويل المدى يستهدف القاعدة لا القمة، ويبدأ من غرس العقيدة من جديد، والتربية الإسلامية والأخلاقية، وأن هذا الطريق الذي يبدو بطيئاً وطويلاً جداً أقرب الطرق وأسرعها (٢).

* وكـان مـن توجيهاتـه العامـة للإخـوان ولكـل الحركـات الإسلامية بعد خروجه من السجن أن لا تستغرقهم الأحداث الجارية، وألا ينغمسوا فيها وفي المناورات الحزبية والسياسية، فإن لهم حقلاً أخر أوسع وأبعد مدى وإن كان بطيئاً وطويل

---

(١) لماذا أعدموني ص ٢٨-٢٩ ، ٣١ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧ ، وكلام سيد - رحمه الله تعالى - حول اهتمامات إخوان السودان بالانتخابات في وقته ، ولكن كانت نتيجتها كما توقع سيد مخيبة لآمالهم .

الأمد، وهو حقل البعث الإسلامي للعقيدة والقيم والأخلاق والتقاليد الإسلامية في صلب المجتمع حتى بإذن الله بقيام النظام الإسلامي [١].

٢- الانقلابات على الأنظمة:

تحدث سيد - رحمه الله- عن وسائل تغيير الأنظمة الجاهلية بالخطوات الإستراتيجية كما سبق، واستبعد التغيير عن طريق الانقلابات لما فيه من مفاسد، حيث يرى أن التنظيم الذي يمثل القاعدة الصلبة لإقامة النظام الإسلامي مهمته تربية المجتمع ونقل قطاعات كبيرة من الأمة إلى الإسلام بالوسائل المشروعة، وأن المجموعات الفدائية في هذا التنظيم ليس لها أن تبدأ الاعتداء، ولا أن تحاول قلب نظام الحكم، طالما والدعوة ممكنة بغير مصادرة أو تدمير...

ويقرر أن الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي " الحكم بشريعة الإسلام ليس هدفاً عاجلاً لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها أو غالبيتها إلى ممارسة الحياة الإسلامية الحقة [٢].

وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي

---

(١) لماذا أعدموني ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨-٢٩ بتصرف .

وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى، ولكن عن طريق تغيير في تصورات المجتمع كله – أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله – وفي قيمه وأخلاقه والتزامه بالإسلام، يجعل نظامه وشريعته فريضة لابد منها في حسهم (١).

٣- رفع رايات القومية والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي وغيرها.

حذر سيد – رحمه الله– الدعاة من بعض الطرق الخاطئة التي تخالف منهج التغيير الإسلامي وتعتبر مزالق للحركة الإسلامية أو استدراج لها، ومن ذلك رفع راية للإصلاح والتغيير غير راية العقيدة، حيث يقرر أن الأصل في الدعوة الإسلامية التغييرية هو البدء بالعقيدة كما بداء بها النبي ﷺ * فقد كان من الممكن لرسول الله ﷺ أن يقوم بحركة قومية عربية، تستهدف تجميع العرب وتحريرهم من الاستعمار الفارسي والروماني، فإذا نجح طبق عليهم الإسلام بحكم ما له من سلطان، ومع ذلك بدأ بالعقيدة،

* وكذلك كان بإمكان النبي ﷺ أن يقود حركة إصلاح اجتماعي وينادي بحقوق الفقراء والمستضعفين ويقودهم لتحطيم

---

(١) في ظلال القرآن ص ٤٣ .

الطواغيت، ثم يحكم الإسلام وينشر العقيدة، ولكن الله لم يوجهه لهذا لأنه ليس هو الطريق.

* وكذلك كان بإمكانه ﷺ القيام بحركة أخلاقية لمحاربة الفساد المستشري في المجتمع، فإذا استجاب له الناس حكمهم بالإسلام، ولكنه لم ينطلق من هذا المنطلق ولا مما سبقه، وإنما وجهه الله أن يبدأ بالعقيدة وتربية الناس عليها وتجميعهم على أساسها، فإذا تقررت العقيدة في النفوس وعرف الناس ربهم وعبدوه وحده، وتحرروا من سلطان العبيد والشهوات سواء، تطهرت الأرض من الطواغيت كلها وتطهر المجتمع من المفاسد وقام " نظام الإسلام " في صورة دولة وشرائع وأحكام على الأرض (١).

(١) معالم في الطريق ص ٢٤ وما بعدها بتصرف ، وينظر أيضاً : في ظلال القرآن ١٠٠٥/٢ وما بعدها .

المطلب الثامن

أسباب معارضة الحكم الإسلامي والعدول عنه

تعرض سيد قطب – رحمه الله – لأسباب معارضة حكم الله والعدول عنه، والعداوات التي تواجهه، وكذا مفاسد العدول عن الحكم الإسلامي إلى غيره وفيما يلي عرض لهذه القضايا بإيجاز:

أولاً: معارضة نظام الحكم الإسلامي وأسبابها:

يقول– سيد –: " ولقد علم الله – سبحانه – أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه – في كل زمان وفي كل أمة – معارضة من بعض الناس، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام.. * ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خالصة، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله..

* وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت، ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة..

* وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال، ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها..

* وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتلك، ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض. علم الله – سبحانه – أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة، وأن يصمدوا لها، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال فيقول لهم: {فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ} كما علم الله – سبحانه – أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا، وهم يجدون أصحاب السلطان وأصحاب المال، وأصحاب الشهوات، لا يريدون حكم الله فيتملقون شهوات هؤلاء جميعاً، طمعاً في عرض الحياة الدنيا – كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل، فناداهم: {وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} (١)، " لقد قال الرجل العربي – بفطرته وسليقته – حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً

---

(١) في ظلال القرآن ٨٩٧/٢ بتصرف يسير ، وينظر ١٣٠٦/٣ ، ١٣٠٧ ، ١٣٣٠ .

رسول الله: " هذا أمر تكرهه الملوك!

" فما يمكن أن تجتمع شهادة " أن لا إله إلا الله " مع الحكم بغير شرع الله، ولهذا يخاف منها الطواغيت " [1].

ثانياً: أسباب العدول عن تحكيم شرع الله والحكم بما أنزل الله أو شيء منه:

يقول سيد: " وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله وإتباع أهواء المحكومين المتحكمين.. وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه، في بعض الملابسات والظروف. فحذر الله نبيه ﷺ من إتباع أهواء المتحكمين، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه..

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد، ومسايرة بعض رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام معينة.. ولكن الأمر –

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٤٨/٣ بتصرف ، وينظر معالم في الطريق ص ٢٦-٢٧ .

كما هو ظاهر – أعم من ذلك..

وقد شاء الله – سبحانه – أن يحسم هذا الأمر، ويقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء. فقال لنبيه: إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه جعل لكل منهم طريقاً ومنهاجاً، وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة... وإذن فلا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج.. فهم لا يتجمعون.. بذلك أغلق الله – سبحانه – مداخل الشيطان كلها، وبخاصة ما يبدو منها خيراً وتأليفاً للقلوب وتجميعاً للصفوف، بالتساهل في شيء من شريعة الله، في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحده الصفوف!

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد، ومشرب، ومنهج، وطريق" (١).

*وفي ظلال قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [سورة المائدة:٥٠] . يقول سيد: " وأجل! فمن أحسن من الله حكماً؟

---

(١) المصدر السابق ٢/٩٠٢- ٩٠٤ بتصرف .

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيراً مما يشرع الله لهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: أو إنه أرحم بهم من ربهم؟ أو أنه أعرف بمصالحهم من إلههم؟ أم أن الله كان يجهل ما سيطرأ ويستجد من أحوال البشر، ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية، وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟!

الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟.. ألم يكن هذا كله في علم الله، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله، وهو يشدد هذا التشديد، ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء.. ولكن المسلم.. أو من يدعون الإسلام.. ما الذي يقولونه من هذا كله، ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟ إنه مفرق الطريق... إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما كفر. إما

حكم الله وإما حكم الجاهلية " (١).

" وإردة الشيطان إضلال البشر هي العلة الكامنة وراء التحاكم إلى الطاغوت " (٢).

" كما أن مكائد وحرب أهل الكتاب لهذا الدين وإقامتهم أُلواهيات لغير الله في البلاد الإسلامية سبب من أسباب العدول عن تحكيم شريعة الله " (٣).

ثالثاً: عداوات الحكم الإسلامي:

عقد سيد قطب فصلاً كاملاً في كتابه " معركة الإسلام والرأسمالية " باسم " عداوات حول الإسلام " وضح فيه أن للإسلام أعداء كثيرون في الخارج والداخل، تلتقي مصالحهم في إقصاء الإسلام عن الحكم في الحياة، وأهم هؤلاء:

١- الصليبيون: فهم يتنادون لحماية الحضارة الصليبية المادية، والدين والتوحيد الذي يواجههم هو الإسلام الحق، الذي يقوم على الشريعة والعقيدة، وبالتالي يحاربون رجعة الحكم إلى الإسلام بنفوذهم وقوتهم، وبالمغفلين أصحاب المصالح من المسلمين.

---

(١) في ظلال القرآن ٩٠٥/٢- بتصرف يسير ، وينظر أيضا ١١٩٤/٣- ١١٩٥ .

(٢) المصدر السابق ٦٩٤/٢ .

(٣) المصدر السابق ١١٩٤/٣ بتصرف .

٢- المستعمرون: لأنهم يرون في الإسلام عقيدة تكافح الاستعمار، والحكم الإسلامي هو الذي يوقظ هذه الروح بشدة لذا لابد من أن يبقى حكم الإسلام بعيداً.

٣- المستغلون والطغاة: لأنهم يعرفون أن الجماهير تصعب قيادتها وتسخيرها ضد عقيدتها الدينية، فهم حريصون على جعل الإسلام شعاراً لا حقيقة في الواقع، فلا ضير عندهم من الإسلام حين يكون طقطقة بالمسابح، وأدعية وموالد، وطرق ونحو ذلك من أجهزة التخدير للجماهير، أما أن يكون حكما جاداً ينفذ شريعة الله في الحكم والمال والحقوق فهذا ما يتقيه الطغاة..

٤- المحترفون من رجال الدين: الذين يسترزقون باسم الدين، والذين يعرفون أن حكم الإسلام الحق لو قام لما وجدوا لهم مكاناً، لأنه يطارد الدجالين والمتبطلين والدراويش الذين يعيشون على الاستغلال للجماهير باسم الدين.

٥- المستهترون والمنحلون: الذين غرقوا في أو حال الجنس والمخدرات والفاحشة لأنهم يعلمون أن حكم الإسلام سوف يكبح جماحهم ويمنعهم من تحللهم واستهتارهم.

٦- الشيوعيون والملاحدة: وعداؤهم للإسلام وحكمه شديد

لأنه الوحيد الذي يقف في وجوه إلحادهم وفسادهم " (١).

رابعاً: مفاسد الإعراض عن حكم الله في حياة البشرية:

* بيَّن سيد قطب – رحمه الله – حتمية التلازم بين " دين الله " و" الحكم بما أنزل الله " وأن ذلك ناشئ من أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله وتحقيق مدلول الإسلام الحق، وناشئ أيضاً من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع (٢).

* "وبين كذلك توافى الديانات التي جاءت من عند الله كلها على تحتيم الحكم بما أنزل الله، وإقامة الحياة كلها على شريعة الله، وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية (٣).

* " وبين الأفضلية المطلقة لشريعة الله ومنهجه– سبحانه القائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون وطبيعة نواميس الحياة التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية.. حتى لا يقع تصادم بينهما، ومن ثم قيامه على العدل المطلق والبراءة من الهوى والميل والجهل والقصور وقيامه على

---

(١) انظر: معركة الإسلام والرأسمالية ص ٩٣-١١٢ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٢٠١٢/٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٨٢٨/٢

(٣) المصدر السابق ٨٨٨/٢ .

تحرير البشرية من العبودية لغير الله" (١).

<u>بين– رحمه الله – مفاسد وأضرار وأثار العدول عن حكم الله في حياة البشرية ومنها: –</u>

١–<u>فساد الحياة البشرية وعدم استقامتها:</u>

يقول: " فالحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد، يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك. ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي.. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع.. وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا.. حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، وبين منهجين مختلفين.. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: { لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا } [سورة الأنبياء:٢٢] ، { وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } [سورة المؤمنون:٧١] .

(١) المصدر السابق ٢/٨٩٠.

حكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان بنص القرآن " [1].

٢- القضاء على " إنسانية " الإنسان ومقومات الحياة الكريمة:

يقول سيد: " إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! وتعلق قلب إنسان بإرادة إنسان أخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٩١ .

علماً أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة.. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس – في حكم الطواغيت – أموالهم التي لا يحميها شرع... ويكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والأخلاق والعادات... ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية.. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر – أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار!... فالذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله. إنما يعيش في وهم، أو يفقد الإحساس بالواقع! " (١)

---

(١) المصدر السابق ١٣١٩/٣-١٣٢١ بتصرف .

٣- التخلف والفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي:

ربط سيد قطب – رحمه الله- بين الانحراف عن الحاكمية وبين ضعف المسلمين وتخلفهم في الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي باعتبار أن الحاكمية – على شمول مفهومها – تنطلق أول ما تنطلق إلى الجانب السياسي والذي يقوم عليه بعد ذلك النظام الاقتصادي والاجتماعي، فالنظام في المجتمع الإسلامي نظام رباني قائم على العقيدة الإسلامية والشريعة المنبثقة منها، وبالتالي فأثر العقيدة الإسلامية واضح في كل جزيئات النظام بما فيها السياسية الداخلية والخارجية، والاجتماع والاقتصاد وغيرها من النظم التي تحكم الحياة.

ويقرر- رحمه الله " أنه لابد للإسلام أن يحكم، لأن غياب الحكم الإسلامي سبَّب فساداً عريضاً في حياة المسلمين، وأدى إلى الانحطاط والتخلف والتيه في الجانب السياس ي والاقتصادي والاجتماعي على حدٍ سواء [١].

(١) ينظر : معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥-٨٥ ، والسلام العالمي في الإسلام ص ١٠٢ ، والإسلام ومشكلات الحضارة فصل تخبط واضطراب، وعقوبة الفطرة ص ٣٥، ١٢٣ ، والمستقبل لهذا الدين فصل الفصام النكد ص٢٤، ٥٨ ، وخصائص التصور الإسلامي فصل تيه وركام ص ٢٣ ، والصلة بين الحاكمية والعقيدة عند سيد قطب للوهيبي ص ١٤٩ وما بعدها .

الـفـصـل الثـالـث
منهجه في الإيمان باليوم الآخر والمعاد

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان باليوم الآخر وأثره.

المبحث الثاني: مقدمات اليوم الآخر.

المبحث الثالث: اليوم الآخر" يوم القيامة ".

المبحث الرابع: الجنـة والنــار.

توطئة

ترتبط حياة الخلق بأمرين هما:

الأول: المبدأ: وهو إخراج الخلق من العدم إلى الوجود.

الثاني: المعاد: وهو رجوعهم إلى الوجود بعد الفناء، أو إلى الحياة بعد الموت ، والى هذين الأمرين يشير القرآن الكريم في كثير من الآيات كقوله تعالى: {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} [سورة يونس:٣٤] قوله سبحانه وتعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [سورة الأعراف ٢٩] ، وغيرها، وكما أنه لا مجال لإنكار المبدأ بعد الوجود، فكذلك لا مجال لإنكار المعاد بعد الموت، لأن الذي قدر على البدء، قادر على الإعادة من باب أولى، كما قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [سورة الروم:٢٧] ، وقد وقع التعبير عن المعاد في الكتاب والسنة بعبارات متعددة منها: " اليوم الآخر " و" يوم القيامة " و" الساعة" و" البعث والنشور" وغيرها، والإيمان بالمعاد وما يتعلق به من الموضوعات الهامة التي تناولها سيد – رحمه الله – بالشرح والبيان وخاصة في

كتاب " الظلال " و " مشاهد القيامة في القرآن " ولو جمع كلامه حول الموضوع لكان في حد ذاته رسالة مستقلة أو أكثر (١).

وسأعرض في هذا الفصل لأهم المسائل التي تناولها سيد قطب بنوع من الإيجاز، وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول

الإيمان باليوم الآخر وأثره

تحدث سيد قطب – رحمه الله – عن الإيمان باليوم الآخر في كل مناسبة ورد ذكره فيها في كتاب الله تعالى، مبيناً حكم الإيمان باليوم الآخر، وأهميته في الحياة، وآثار الكفر به أيضا، ويمكن بيان ذلك بإيجاز في المطالب الآتية.

---

(١) جمع الشيخ / احمد فائز ما يتعلق باليوم الآخر من مسائل في ظلال القرآن في كتاب سماه " اليوم الآخر في ظلال القرآن " وهو كتاب نفيس ، إلا أن مما يؤخذ على المؤلف أنه لم يعزو الأقوال إلى مواضعها في الظلال ، الأمر الذي يصعب معه التمييز بين كلام سيد وكلام غيره .

المطلب الأول

معنى الإيمان باليوم الآخر وحكمه

أولا: معنى الإيمان باليوم الآخر: الايمان باليوم الآخر يعني: التصديق باليوم الذي يرجع فيه العباد إلى الله وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والتصديق بما يقع في ذلك اليوم من الأمور العظام، وما يقع قبله من الموت والحياة البرزخية.

ثانيا: حكم الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر وما فيه ركن من أركان الإيمان الستة التي يجب الإيمان بها، وهو أحد عناصر الإيمان وأصول العقيدة في كل الديانات السماوية التي جاءت من عند الله، وقد دل على وجوب الإيمان باليوم الآخر الكتاب والسنة والإجماع.

أما أدلة الكتاب فكثيرة جداً: منها قول الله تعالى: {لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ} [سورة البقرة:١٧٧] . وقوله تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ

ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا } (١).

وأما السنة: فقد جعله النبي ﷺ من أركان الإيمان، كما جاء في حديث جبريل المشهور قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت " (٢)

وأما الإجماع: فقد اجمع المسلمون على وجوب الإيمان باليوم الآخر وكفر من أنكره (٣).

وقد تحدث سيد – رحمه الله – كثيراً عن وجوب الإيمان باليوم الآخر وكفر من أنكره ومن ذلك:

* قوله –رحمه الله–: " والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية "(٤)، " وأحد عناصر وأركان الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الذين امنوا "(٥).

* ويقول أيضاً: " والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات

---

(١) سورة النساء : الآية ١٣٦ وينظر الآيات : البقرة ٦٢ آل عمران ١١٤ النساء ١٦٢ المائدة ٦٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١/ ٤٦، برقم ٨

(٣) ينظر : مراتب الإجماع لابن حزم ، دار أبن حزم بيروت – ط١ عام ١٤١٩هـ ، ص ٢٧١ ، وموسوعة الإجماع لسعدي أبو حبيب ١/١٦١ .

(٤) في ظلال القرآن :١/٢٤.

(٥) في ظلال القرآن ١/١٥٩، ٢/٧٧٧–٧٧٨.

الإيمان بالله وفق التصور الإسلامي.. فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الإسلامي... حيث ذكره الله تعالى في سياق أركان الإيمان في قوله تعالى: { ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ } [سورة البقرة:٢٨٥] . فذكرت الآية حقيقة الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين والذي يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (١).

*ويقول أيضا: " وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام، والتي يقوم عليه بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية، والتي لا يقوم هذا الدين – عقيدة وتصوراً، وخلقاً وسلوكاً، وشريعةً ونظاماً، إلا عليها و بها.. "(٢) " فالإيمان باليوم الآخر شطر الإيمان "(٣).

كما يقرر سيد – رحمه الله – أن الإيمان باليوم الآخر أحد أصول العقيدة التي جاء بها رسل الله جميعا حيث يشير رحمه

---

(١) في ظلال القرآن : ١/٣٤٠-٣٤٤ بتصرف .

(٢) المصدر السابق: ١٠٦٨/٢ وينظر أيضا ١٠٤٢/٢ .

(٣) المصدر السابق: ٣٧٠٠/٦.

الله في ظلال قصة يوسف إلى أن الإيمان بالآخرة كان عنصراً من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعا منذ فجر البشرية الأول " (١).

ثالثاً: موقف الناس من اليوم الآخر:

بين سيد قطب – رحمه الله – أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر من الأصول التي جاء بها كل نبي من أنبياء الله، ولكن البشر عندما ينحرفون عن الدين الحق تغيب هذه الحقيقة عنهم أو تصبح مشوهة.

* وأورد – سيد – فصلاً في كتابه " مشاهد القيامة في القرآن" بعنوان ": العالم الآخر في الضمير البشري "، تحدث فيه عن عقيدة الإيمان باليوم الآخر عند الأمم والشعوب في التاريخ البشري، وكيف انحرف الناس عنها، فبعض الأمم والشعوب كانت تؤمن بالحياة بعد الموت، ولكن يشوب ذلك كثير من الشوائب لأنها قامت في ظل عقيدة وثنية كما كان الحال عند قدماء المصريين.

* وبعض الشعوب لا نجد عندها إيمان باليوم الآخر ولا الحساب والجزاء، وإنما نجد عندها التناسخ والفناء في الروح الأعظم كما هو شان عقيدة " النيرفانا " في الديانات الهندوكية

---

(١) المصدر السابق: ١٩٦٠/٤، ١٩٨٨ .

والبوذية.

* أما أهل الكتاب فقد حرفوا دينهم فبعض فرق اليهود كـ" الصدوقيين" ينكرون القيامة، وآخرون يؤمنون بها " كالفريسيين " ولكنه إيمان تشوبه كثير من الشوائب والانحرافات.

و أما الأناجيل فقد أشارت إلى اليوم الآخر إشارات متفرقة، يشوبها ما شاب التوراة قبلها من تحريف لحقائق هذا اليوم العظيم(١).

* أما العرب فقد كانوا يزعمون أنهم على دين أبيهم إسماعيل وجدهم إبراهيم – عليهما السلام – ومع أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر كانت أصيلة في دين جدهم إبراهيم – عليه السلام – وفي دين أبيهم إسماعيل – عليه السلام – أيضاً، إلا أنه كان قد طال عليهم الأمد، وبَعُدَ ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – لقد اندثرت عقيدة الإيمان بالآخرة تماما من تصوراتهم، فكانت أغرب شيء عليهم وأبعده عن تصورهم، حتى لقد كانوا يعجبون ويُعَجِّبون من رسول الله – ﷺ – لأنه يحدثهم عن الحياة بعد الموت، وعن البعث والنشور والحساب والجزاء، كما حكى القرآن الكريم عنهم:

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن – سيد قطب ص ١٣-٤١ بتصرف .

{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ } [سورة سبا:٧-٨] ، (١).

" لذا كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركي العرب، ولقد لقيت منهم معارضه نفسية عميقة، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب، وينكرونها أشد الإنكار ويتحدون الرسول ﷺ في صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود، أو أن يقول لهم: متى يكون؟ " (٢). " والعجيب في أمر المشركين أنهم كانوا يعتقدون بوجود الله، وخلقه للكون أول مرة، ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء كما أخبر الله عنهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم كقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ } [سورة لقمان:٢٥] ثم يحكى عنهم في موضع آخر: { بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ } [سورة ق:٢-٣] ، (٣).

---

(١) في ظلال القرآن : ١٤٠٨/٣ .

(٢) المصدر السابق: ٣٦٩٥/٦ .

(٣)في ظلال القرآن : ٢٤/١ .

المطلب الثاني

أهمية الإيمان باليوم الآخر وآثاره

الإيمان باليوم الآخر هو أحد الأصول التي بعث بها الرسل جميعا والتي تشمل: إثبات التوحيد والنبوات والمعاد " (١).

أولاً: أهمية الإيمان باليوم الآخر:

بيَّن سيد قطب– رحمه الله – أن أهمية الإيمان باليوم الآخر تظهر فيما يأتي:

١– أنه أحد أصول الإيمان والعقيدة التي جاء بها الرسل جميعا، وعنصراً من عناصر العقيدة منذ فجر الرسالات " (٢).

٢– أنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية وأحد مقتضيات الإيمان بالله التي يجب الإيمان بها، بل هو شطر الإيمان الذي لا يتم إلا به " (٣).

٣– أنه" مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة " (٤)

---

(١)ينظر في ذلك : مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٥/١ و مدارج السالكين لابن القيم ٣١/١ ولوامع الأنوار للسفاريني ٦٤/٢ وشرح العقيدة الطحاوية ص٥-٦ ، وإرشاد الثقات للشوكاني ص ٣، ٤ وغيرها .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٦٠/٤ ، ١٩٨٨ .

(٣) المصدر السابق ٢٤/١ ، ١٥٩ ، ٧٧٧/٢، ١٠٤٢ ، ١٠٦٨ ، ٣٧٠٠/٦ .

(٤) المصدر السابق ٤٠/١ ، ٤١ .

ثانياً: أثار الإيمان باليوم الآخر:

وأما أثار الإيمان باليوم الآخر فكثيرة جداً وقد ذكر سيد – رحمه الله – عدداً منها هي:

١- " أن الاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ومن ثم لابد من أن يلقي جزاءه، فإن لم يلقي في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها، أما الذين يزيغون عن نهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب، وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادة تائبة ولم تلج في العصيان، ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير" [١].

٢- أن الاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقا للثواب في الآخرة فحسب – كما يعتقد بعض الناس – إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا، والحافز على إصلاحها ونمائها، على أن يراعى في هذه النماء أنه ليس هدفاً في ذاته، إنما هو

(١) المصدر السابق ٤/١٨٥٣-١٨٥٤ .

وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان المكرم "[١] " فالباعث على العمل الطيب، والخلق الطيب، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والتطلع إلى رضاء الله.. وجزاء الآخرة، فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس، ولا يتلقاه ابتداءً من عرف الناس! فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغي وجهه، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه، وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء.. اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس، وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة، فضلاً عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان! فيكون التأرجح المستمر وتكون الصفات الذميمة في حياة البشر" [٢].

٣- أن" الاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه، ونفي القلق والسخط والقنوط.. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة.. إن الحساب الختامي هناك؛ والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب، فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٤ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٦٦١ بتصرف يسير ٠

جزاءه، ولا قلق على الأجر إذا لم يوفَ في هذه العاجلة بمقاييس الناس، فسوف يوفاه بميزان الله، ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد، فالعدل لا بد واقع، وما الله يريد ظلماً للعباد " [1].

٤- أن الاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات بلا تحرج ولا حياء، فهناك الآخرة فيها عطاء، وفيها غناء، وفيها عوض عما يفوت، وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة، وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين؛ وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! "، " فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان، وبأن الخير لا يعدم جزاءه، ولو بدأ أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء " فهناك الجزاء عما يفوت " [2].

---

(١) المصدر السابق ١/٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٨، ١٥٩ ، ٢٤٦ .

" والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ويضمن القصد والاعتدال في الحياة، والذي لا يعتقد في الآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب، وهي قصيرة مهما طالت، وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تنال، ثم ما الذي يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته، وتحقيق لذاته ورغباته، وهو لا يحسب حساب وقفته بين يدي الله، ولا يتوقع ثواباً ولا عقاباً يوم يقوم الأشهاد، ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزيناً للنفس التي لا تؤمن بالآخرة تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء، والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها، وأن تجده حسناً جميلاً ما لم تهتدِ بآيات الله ورسالته إلى الإيمان بعالم آخر باقٍ بعد هذا العالم الفاني، فإذا هي تجد لذاتها في أعمال وأشواق أخرى، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام " (١).

" فالإيمان بالدار الآخرة وحده هو الذي يرجح الكفة، ويعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا.. فلا يصلح قلب ولا حياة ولا تستقيم نفس إلا به، وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض الأرض؟ وما الذي

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٧ .

يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتتأى؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟ لا شيء يثبت على الغِيَر والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج، وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين بالآخرة "(١).

٥- أن" اليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري، وتطلعه إلى ما عند الله، واستعلائه على أوهاق الأرض، وترفعه على متاع الحياة الدنيا، ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليل، والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (٢)، (٣).

٦- أن الإيمان بالآخرة نعمة وهبة وفسحة في التصور: " فالإيمان بالحياة الآخرة نعمة يفيضها الإيمان على القلب، نعمة

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٣٨٧ .

(٢)سبق تخريجه ص ٣٠٥ .

(٣) في ظلال القرآن ٥ /٢٧٨٤ .

يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة، فالإيمان بالآخرة – فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى– هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاءٍ بالحياة لا يقف عند حدود الأرض، إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله " (١).

" إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور، وسعة في النفس، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة، كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة عن المضي في التبشير بالخير، وفعل الخير والقيادة إلى الخير، على الرغم من النتائج القريبة، والتضحيات الأليمة.. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة..

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس " الإنسان " وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس

---

(١) المصدر السابق ١/٩٢ .

في إدراك " الحيوان "! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة! " [١].

٧- أن" الإيمان باليوم الآخر يغير من تصورات الإنسان ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه، ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله، فيزيدها قوة وفاعلية، لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله.

إن مسألة الإيمان بالآخرة مسألة أساسية في حياة البشر، إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء، وإنها إما أن تكون فيكون" الإنسان " وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان! [٢].

وذلك لان " التصديق بيوم الدين شطر الإيمان، وهو أثرذو حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً، والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه، ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث.. المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك، فيضيف إليها النتائج

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٠٨/٣ ، وأيضا ١٠٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٤١١/٦ بتصرف ، وينظر : ١٤٠٢/٢ ، ٣٧٧٤/٦ .

المرتقبة حين يزنها ويقوّمها.. والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر، ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة.. وهو بائس مسكين معذب قلق " (١).

" فالكفر باليوم الآخر سبب للضلال وتنكب الطريق والخيلاء والبخل واختلال القيم والموازين " (٢)

* ومما سبق اختياره من النصوص يظهر لنا أهمية الإيمان باليوم الآخر وأثر في حياة البشر، في كونه ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة، ومن كونه أيضاً حافزاً للعمل الصالح والخلق الطيب، ولأنه يفيض السلام على روح المؤمن وعالمه وينفى القلق والسخط والقنوط، ويحجز عن الصراع المحموم على الدنيا، ويكبح الشهوات والنزوات، و يعصم من الفتن، ويغرس في القلب الاستعلاء على الدنيا ولذائذها، ويفسح في تصور الإنسان لنفسه ولما حوله، كما أنه يقيم التصورات والموازين الصحيحة للحياة " لذلك كله كان التوكيد شديداً على

---

(١) المصدر السابق ٣٧٠٠/٦ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٦٦٠/٢ ، ٧٧٨ ، ٢٤٧٥/٤ ، ٢٨٩٥/٥ ، ٣٧٦٢/٦ .

عقيدة الآخرة في دين الله كله.. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح، حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً، وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية، تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني! " [١].

---

(١) المصدر السابق ٢/١٤٠٨ .

المبحث الثاني

مقدمات اليوم الآخر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المــوت.

المطلب الثاني: القبر والبرزخ.

المطلب الثالث: أشراط الساعة.

المطلب الأول

الموت ومقدماته

الفرع الأول: التوبـة

لسيد قطب – رحمه الله –وقفات كثيرة في ظلال الآيات التي ورد فيها ذكر التوبة وفي مواضع أخر في كتبة، ويمكن إيجاز ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: فكرة الإسلام عن الخطيئة:

تحدث سيد – رحمه الله – كثيراً عن فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة مبيناً:

١– أن الإسلام لا يقف عند حد الاعتراف في الفرد بضروراته وتنسيقها مع أشواقه، بل يعترف للفرد بدوافع الخطأ والخطيئة، فأما الخطأ والنسيان والإكراه فمعفي عنه: " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " (١)، وأما الذنب والخطيئة فباب التوبة منهما مفتوح في كل لحظة.. فإذا انزلق الفرد إلى الخطيئة لم تقطع دونه السبل: {قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟

---

(١) روا هـ : أبن ماجه بلفظ " إن الله تجاوز عن أمتي .." ٦٥١/٢ برقم ٢٠٤٥ ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبن ماجه ١٧٨/٢ ، وصحيح المشكاة برقم ٦٢٨٤ .

مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ } [سورة الزمر:٥٣] ، " إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع، يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه، حين يرتكب الفاحشة.. المعصية الكبيرة.. فمادام أن شعلة الإيمان في قلبه لم تنطفئ، وما دام يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر فما يزال بخير.. فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر، فهو واصل في النهاية ما دام يذكر ربه ويستغفره ويقر بالعبودية له، إن الطفل الذي يخطئ ويعرف أن السوط – لا سواه – في الدار.. سيروح آبقاً شارداً لا يثوب إلى الدار أبداً، فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة.. فإنه سيعود!

وهكذا يأخذ الإسلام الإنسان الضعيف في لحظات ضعفه.. ويأخذ بيده ليصعد ما دام لا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة! قال الرسول ﷺ: " ما أصر من استغفر وإن عاد في

اليوم سبعين مرة " (١) والإسلام لا يدعو- بهذا- إلى الترخص ولا يمجد العاثر الهابط كما هو حال " الواقعية "! إنما هو يقيل عثرة الضعف ويستجيش في النفس الحياء من الله! فالمغفرة تخجل ولا تطمع، وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى، والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها، ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها " (٢).

بل يذهب الإسلام مذهباً بعيداً حتى ليحسبه المرء عند النظرة السريعة يزين للناس الخطيئة ليتوبوا من الخطيئة! يقول ﷺ: " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون "(٣).

ويقول: " والذي نفسه بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم"(٤) وهو لا يزين الخطيئة هنا، ولكن ييسر التوبة، ويملئ نفوس الخاطئين بالرجاء، وينير لأرواحهم

---

(١) رواه : أبو داود في كتاب الصلاة باب الاستغفار ١٧٧/٢ برقم ١٥١٤ ، والترمذي في الدعوات ٥٢١/٥ برقم ٣٥٥٩ ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٣٩٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٤٧٦/١- ٤٧٧ بتصرف .

(٣) رواه : الترمذي في صفة القيامة ٥٦٩/٤ برقم ٢٤٩٩ ، وصحيح ابن ماجه برقم ٤٢٥١ ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٦٠٤/٢ .

(٤) رواه : مسلم في التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار ١٦٧٢/٤برقم ٢٧٤٨ ، وأحمد ٣٠٥/٢ .

الطريق، وهو في الوقت ذاته يفرض على ضمير الفرد الرقابة على نفسه ويحذره من الشهوات والفتن بأنواعها، ويبين له عداوة الشيطان ومكائده والدعوة إلى اليقظة والحذر من دوافع الشر والخطيئة وعدم الاستسلام للإغواء " (١).

٢- فردية الخطيئة وفردية التوبة: حيث يقرر الإسلام أن الخطيئة فردية، والتوبة فردية، في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده – كما تقول نظرية الكنيسة – وليست هناك تكفير لاهوتي، كالذي تقول الكنيسة من أن عيسى- عليه السلام – " ابن الله بزعمهم " قام بصلبه تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم!! كلا! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة، تصور مريح صريح، يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط: {إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}(٢).

---

(١) السلام العالمي والإسلام سيد قطب ص ٤٨ – ٥٢ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٦١/١ ، ٧٥٥/٢ ، ١٢٧٤/٣ وينظر أيضا السلام العالمي والإسلام ص ٥٢

٣-أن باب التوبة مفتوح في كل وقت لكل ذنب: " فمن رحمة الله أن جعل باب التوبة مفتوحا للإنسان في كل لحظة، فإذا نسي ثم تذكر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب، وجد الباب مفتوحاً له، وقبل الله توبته، وأقال عثرته، فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات، وضاعف له ما شاء، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه، فليست هنالك خطيئة أبدية ولا موروثة ولا تزر وازرة وزر أخرى " (١).

" والله تواب في كل وقت على من يتوب، والله رحيم في كل وقت على من يؤوب، وهو - سبحانه - يصف نفسه بصفته - تواباً رحيماً - ويعد العائدين إليه قبول التوبة.. وباب الله مفتوحاً لا يغلق ووعده قائماً، فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح.. الذي ليس عليه بواب يمنع ولا يحتاج إلى استئذان " (٢).

*أما شمول التوبة لكل الذنوب فيكفي فيها قول الله تعالى: { قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٧٤/٣ .

((٢) في ظلال القرآن ٦٩٦/٢ وينظر أيضا ٥١٥١/١ ، ٤٢٤/١ ، ٧٥٥/٢ ، ١٦٧٨/٣ ، ٣٠٥٨/٦ .

ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ } (١) حيث تظهر رحمة الله الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت "(٢).

" فباب التوبة دائماً مفتوح، يدخل منه كل من استيقظ ضميره، لا يصد عنه قاصد، ولا يغلق في وجه لاجئ، أياً كان، وأياً ما ارتكب من الآثام، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: " أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة (٣) فهل له من توبة؟ فقال: ﷺ أسلمت؟ " فقال: نعم. قال: " فافعل الخيرات واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها ". قال: و غدراتي و فجراتي؟ قال: "نعم "، فما زال يكبر حتى توارى " (٤).

٤- التوبة تصلح ما فات وتقلب السيئات حسنات: وهذا من عظيم رحمة الله بعباده كما جاء في الحديث السابق " فيجعلها الله لك خيرات كلها " وقبل هذا قول الله تعالى: إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ

(١) المصدر السابق : ٣٠٥٨/٦ .

(٢) المصدر السابق : ٣٠٥٨/٦ .

(٣) يقصد بالحاجة (الصغيرة) ، والداجه (الكبيرة) .

(٤) رواه : المنذري في الترغيب والترهيب برقم ٣١٦٤ ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٨/٣ .

[1] حيث يعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وتاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والتيه: {وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}" [2].

ثانياً: شروط التوبة النافعة:

حث الله تعالى عباده على التوبة النصوح فقال سبحانه: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [سورة التحريم:8] ، فالتوبة النصوح هي: التي تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه وتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها، وتحضه على العمل الصالح بعدها، فهذه هي التوبة النصوح، التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى

---

(1) سورة الفرقان : الآية ٧٠.

(2) في ظلال القرآن ٦/٢٥٧٩ .

الذنوب، وهي بهذا مرجوة لتكفير السيئات" (١).

وقد أشار سيد قطب- رحمه الله - إلى قاعدة التوبة النصوح وشروطها في ظلال بعض الآيات: ومن هذه الشروط:

١. الندم.
٢. الإقلاع عن المعصية.
٣. إتباعها بعمل صالح يثبت جديتها.
٤. أن تكون في وقت القبول.

حيث يقول سيد - رحمه الله -: " فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية، وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية، فالمعصية عمل وحركة، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع، وهذه لمحة في منهج التربية القرآني عجيبة تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة، ومن أخبر من الخالق بما خلق؟ سبحانه وتعالى! " (٢).

ويقول: " وباب التوبة يظل مفتوحاً للكافر والعاصي حتى يغرغر، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة، فقد ذهبت

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٦١٨/٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٢٥٨٠/٦ .

الفرصة التي لا تعود "[١]. وقول الله تعالى: { إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [سورة النساء:١٧-١٨] ، يدل على أن الذين يرتكبون الذنوب ويتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت وقبل أن يدخلوا في سكراته ويحسوا أنهم على عتباته، هم الذين تقبل توبتهم لأنها توبة ندم وانخلاع من الخطيئة ونية على العمل الصالح للتكفير...

أما التوبة عند رؤية الموت فهي توبة المضطر الذي لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشئ صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه " [٢].

---

(١) المصدر السابق : ٦/ ٣٣٠١ .

(٢) في ظلال القرآن : ٢/٦٠٣-٦٠٤ بتصرف .

" وعموما فالإسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يتطهروا، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على التوبة، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم – متى أخلصوا فيها – حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم، وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد..

" إن التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس فتدل على أنها قد أنشئت نشأة أخرى، وقد هزها الندم من الأعماق ورجها رجاً شديداً حتى استفاقت فثابت وأنابت وهي في فسحة من العمر وبحبوحة من الأمل واستجدت رغبة حقيقية في التطهر، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد " (١).

" ولذا لا يجوز تعيير التائبين بما كان منهم من ذنب تابوا عنه وتطهروا منه وأصلحوا حالهم بعده، بل ينبغي مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة تنسيهم جريمتهم، لان تذكيرهم وتعييرهم يؤذي نفوسهم، وقد يحمل البعض منهم على الانتكاس والإرتكاس واللجاج في الخطيئة وخسارة أنفسهم في الدنيا

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٦٠٤ .

والآخرة، والإفساد في الأرض وتلويث المجتمع والنقمة عليه " (١).

الفرع الثاني: حقيقة الموت وحتميته:

يقول سيد قطب – رحمه الله –: " تكثر الإشارة في القرآن الكريم إلى آيتي الحياة والموت، لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق، ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حس الإنسان، وللإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول مرة " (٢).

فقوله تعالى: { وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [سورة النجم:٤٤] ، يعني: انشأ الموت والحياة، كما قال في سورة أخرى: {ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ } [سورة الملك:٢] ، فكلاهما من خلق الله وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر، ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء.

فما الموت؟ وما الحياة؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه؟ كيف دبت الحياة في الكائن الحي؟ ما هي؟ ومن أين جاءت؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان؟

---

(١) المصدر السابق:١/٦٠٠ .

((٢) المصدر السابق: ٥/٣٠٩٦ .

وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء؟ وما الموت؟ وكيف كان.. قبل دبيب الحياة، وبعد مفارقتها للأحياء؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل، بيد الله! " (١).

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي، ما هو؟ وكيف يقع؟ وأي سلطان له لا يقاوم؟ إنه قدر الله: { نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } [سورة الواقعة:٦٠] ، ومن ثم لا يفلت منه أحد، ولا يسبقه فيفوته أحد.. وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل" (٢).

إنه الموت نهاية كل حي، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ } [سورة الزمر:٣٠] ففي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ فالموت ليس نهاية المطاف، إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى" (٣).

" إنه الموت الذي ينتهي إليه كل حي، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي، الموت الذي يفرق الأحبة، ويمضي في

(١) في ظلال القرآن : ٣٤١٦/٦، ٣٦٣٢ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن : ٣٤٦٨/٦ .
(٣) في ظلال القرآن : ٣٠٥٠/٥ بتصرف يسير .

طريقه لا يتوقف، ولا يتلفت، ولا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف! الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه " (١).

ويقرر القرآن أن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم، ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم، فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً، والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد! وبذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس... ثم ينتقل بالنفس خطوة أخرى.. فإنه إذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً، فلتنظر نفس ما قدمت لغد، ولتنظر نفس ماذا تريد؟ أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان وأن تحصرهما في هذه الدنيا؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى وإلى اهتمامات أرفع و حياة أكبر؟ وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! – مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل – فكلاهما يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب،

---

(١) المصدر السابق: ٣٧٧٢/٦ .

{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا } [سورة آل عمران:١٤٥] ، وبهذا يلمس القرآن مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ومن ابتلاء للعباد وجزاء " (١).

" والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه، فبيد الله إعطاء الحياة، وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المرسوم سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة: {وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [سورة آل عمران:١٥٦] ، (٢).

" ولكن ليس معنى هذا أن لا يأخذ الإنسان حذره وحيطته، ويستعد للموت عدته، فالإنسان لا يعرف متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ، فالحياة إلى نهاية، والموت الذي يفر منه فإنه ملاقيه: { قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ } [سورة الجمعة:٨] ، وجاء في الحديث أن النبي – ﷺ – قال: " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب، تطلبه الأرض بدَيْن،

(١) في ظلال القرآن : ١/ ٤٨٧ بتصرف ، وينظر أيضا ٢/ ٧١٦ .

(٢) في ظلال القرآن : ١/ ٤٤٦، ٤٩٦، ٥١٦، ٧١٦ .

فجاء يسعى، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره فقالت له الأرض: يا ثعلب! دَيْني، فخرج له حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات " (١)، وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء "(٢).

الفرع الثالث: سكرة الموت وقبض الأرواح:

جاءت النصوص الشرعية في الكتاب والسنة مبينة أن للموت سكرات وغمرات، وأن لحظة الاحتضار وخروج الروح من الجسد لحظة رهيبة مفزعة، وأن أحوال الناس تختلف عند الاحتضار، وقد أشار سيد – رحمه الله – في ظلال الآيات التي تتحدث عن سكرات الموت وغمراته إلى أحوال الناس عند الاحتضار، ومن ذلك:

١- في ظلال قوله تعالى {وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [سورة ق:١٩] . يقول: " والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه، أو يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنى له ذلك، والموت طالب لا يمل الطلب، ولا يبطئ الخطى،

---

(١) رواه : الطبراني في الكبير ، مطبعة الزهراء العراق ط٢ عام ١٤٠٥ هـ ، ٢٢٢/٧ برقم ٦٩٢٢ ،وفي سنده معاذ الهذلي ، قال العقيلي: لا يتابع على رفع حديثه ، وفيه أيضاً عنعنة الحسن وهو مدلس .

(٢) ينظر في ظلال القرآن : ٤/ ٢٣٧٧ ٣٥٦٨/٦ بتصرف .

ولا يخلف الميعاد، وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان: {ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ} وإنه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: " سبحان الله إن للموت لسكرات " (١). يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله، فكيف بمن عداه؟

ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق {وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ} وهي توحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت، تراه بلا حجاب، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية، ولا يجدي إدراك، ولا تقبل توبة، ولا يحسب إيمان، وذلك الحق هو الذي كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج! وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدي شيئاً ولا يفيد! " (٢).

٢- ويعقب- سيد- على وصية يعقوب – عليه السلام – لأبنائه عند موته بأنها مشهد عظيم الدلالة قوي الإيحاء، عميق

---

(١) رواه : البخاري في الرقاق باب سكرات الموت ٢٣٨٧/٥ برقم ٦١٤٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣٣٦/٦ وينظر أيضا ٢/ ٨٠٣ .

التأسي حيث لم تصرفه سكرات الموت وصراعاته، وساعة الاحتضار عن الاستيثاق من أبنائه حول القضية الكبرى " العقيدة " مما يدل على أن سكرات الموت حق على كل إنسان " (١)

ويتحدث عن لحظة الاحتضار بقوله: " ولحظة الموت.. ترجف لها الأوصال، وهي اللحظة التي تنهي كل جدال، و يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص، ويصور القرآن موقف الاحتضار تصويراً موحياً، يرسم ظلال الموقف كله في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه، وبكل ما وراءه: { فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ } [سورة الواقعة:٨٣- ٨٧] ، إنا لنكاد نسمع صوت الحشرجة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله: { فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ } ، كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله: { وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ } في هذه اللحظة، وقد فرغت الروح من أمر الدنيا، وخلفت وراءها الأرض

---

(١) المصدر السابق : ١/ ١١٦ بتصرف .

وما فيها، وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به، ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل.. وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى، وقد انفصلت عمن حولها وما حولها، الجسد هو الذي يراه الناظرون، وهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً.. هنا يجلل الموقف جلال الله، ورهبة حضوره سبحانه وتعالى وهو حاضر في كل وقت " [(١)].

" وهي صورة عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين، لا يملكون له شيئاً، ولا يدرون ما يجري حوله، ولا ما يجري في كيانه، ويخلص أمره كله لله، قبل أن يفارق هذه الحياة، ويرى هو طريقه المقبل، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير" [(٢)]، " ويصور مشهد الاحتضار أيضا في موضع ثالث بقوله سبحانه وتعالى: {كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ } [سورة القيامة:الآيات ٢٦- ٣٠] ، فحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٤٧١- ٣٤٧٢ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق : ٦/ ٣٤٦٢ .

لاستنقاذ الروح المكروب وتلوَّى المكروب من السكرات والنزع، وبطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد: { إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ } وهو مشهد يرسم حالة الاحتضار، ومعها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة، التي لا دافع لها ولا راد " (١).

٣- يقرر سيد - رحمه الله - أن الله تعالى أوكل إلى ملك الموت وأعوانه فيقبض أرواح العباد وسماهم رسلاً كما قال تعالى: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [سورة الأنعام:٦١] ، وبين في ظلال الآيات التي تتحدث عن أحوال الناس لحظة الاحتضار وكيفية قبض الأرواح:

أ- أما المؤمنون: فقد أخبر الله تعالى أن الملائكة تبشرهم بالجنة عند قبض أرواحهم بقوله: { ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [سورة الأنعام:٦١] .

"فمشهد احتضار المؤمنين الطيبين مشهد هين لين كريم و نفوسهم طيبة بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت، تسلم عليهم الملائكة طمأنة لقلوبهم وترحيبا بقدومهم: {ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٧٧٢ بتصرف .

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } تعجيلاً لهم بالبشرى وهم على أعتاب الآخرة، جزاء وفاقا بما كانوا يعملون " (١).

ب- أما الكافرون والظالمون: فإن الملائكة تقبض أرواحهم في مشهد مفزع مكروب مرهوب يصوره قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ } [سورة الأنعام الأية:٩٣] " (٢).

إنها صورة الظالمين في غمرات الموت وسكراته - ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب - والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج! وهم يتابعونهم بالتأنيب.. عذاب مهين.. وتأنيب فاضح.. يضفي على المشهد ظلالاً مكروبه "(٣)، وأعظم من ذلك ما صوره القرآن لمشهد احتضار الكفار في قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ } [سورة المائدة:٣١] ، فالملائكة تستل منهم أرواحهم في مشهد مهين

(١) في ظلال القرآن : ١٠٤٤/٢ ، ٢١٦٩/٤ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٤٤/٢ ، ٢١٦٩/٤ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق: ١٠٤٤/٢ ، ٢١٦٩/٤ بتصرف يسير .

يضيف المهانة والخزي إلى العذاب والموت – وهم يحتضرون – وفي نهاية حياتهم على الأرض ومستهل حياتهم الآخرى التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار لحظة الوفاة، والضيق والكرب والمخافة " (١).

المطلب الثاني

القبر والبرزخ

القبر هو أول منازل الآخرة، والحياة التي يقضيها الإنسان في قبره إلى يوم القيامة تسمى حياة البرزخ وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى ما يتعلق بالقبر والحياة البرزخية في مواضع متعددة يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

أولاً: مشروعية القبر: –

أشار سيد – رحمه الله – إلى مشروعية دفن الميت في ظلال قوله تعالى: {فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ

---

٢ ينظر: في ظلال القرآن : ١٠٤٤/٢ ، ١٥٣٤/٣ ، ٤/ ٢١٦٩ بتصرف يسير، وينظر أيضا : ٧٤٤/٢ ، ١٢٧٣/٣ ، ٢٩٨٢/٥ ، ٣٢٩٨/٦ .

فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ } (١)، حيث بين أن هذا كان أول حادث عدواني متعمد، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث، وفي بعض الروايات أن الغراب قتل غراباً آخر، فجعل يحفر في الأرض، ثم واراه وأهال عليه التراب.. فقال القاتل قولته، وفعل مثلما رأى الغراب يفعل.. وظاهرأن القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتاً يدفن – وإلا لفعل " (٢).

وفي ظلال قوله تعالى: { ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ } (٣)، يقول سيد: " فأمره في نهايته كأمره في بدايته، في يد الذي أخرجه إلى الحياة حين شاء، وأنهى حياته حين شاء، وجعل مثواه جوف الأرض، كرامة له ورعاية، ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر، وأودع فطرته الحرص على مواراة ميتة وقبره، فكان هذا طرفاً من تدبيره له وتقديره " (٤).

---

٣ في ظلال القرآن : ٨٧٥/٢، ٨٧٧ بتصرف .

٤ سورة عبس : الآية ٢١.

٥في ظلال القرآن : ٣٨٣١/٦ ، وينظر أيضا : ١٢٧٠/٣ ، ٢٣٣٩/٤ ، ٣٧٩٠/٦، ٣٧٩٣ .

٦ سورة المؤمنون : الآية ٩٩-١٠٠ .

ثانياً: حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن الفترة التي يقضيها الناس بعد موتهم إلى يوم القيامة تسمى بالبرزخ فقال سبحانه: { حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ } (١).

" حيث تصور الآيات مشهد الاحتضار، وطلب الرجعة إلى الحياة لتدارك ما فات، وبيان أن ذلك لا ينفع في هذا الموقف، حيث جاء الرد بأنها كلمة لا مدلول لها ولا يلتفت إليها فقد قضى الأمر وأسدلت الأستار.. " من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون " فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة، إنما هم في ذلك البرزخ بين. بين، إلى يوم يبعثون " (٢).

" وهذه الحياة البرزخية التي يقضيها الإنسان بعد موته يعيش فيها إما منعماً أو معذباً، وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب القبر لمن كان له أهلا بقوله عن قوم نوح { وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا } [سورة نوح:٢٥] ، يقول سيد – رحمه الله: "– فبخطيئتهم وذنوبهم ومعصيتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً،

---

(٢) في ظلال القرآن : ٤/٢٤٨٠-٢٤٨١ بتصرف يسير .

والتعقيب بالفاء مقصود هنا، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئاً.. وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: { ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ } [سورة غافر:٤٦] ، " يقول سيد – رحمه الله–: " والنص يلهم أن عرضهم على النار غدواً وعشياً، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة، وقد يكون هذا هو عذاب القبر، إذ أنه يقول بعد هذا: {وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ } للتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها وهو عذاب شديد وإما لمزاولتها فعلاً. فكثيراً ما يستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة، وهذه أدهى.. ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب! " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٧١٦/٦ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣٠٨٤/٦ .

وأما في السنة فقد استعاذ النبي – صلى الله عليه وسلم – من عذاب القبر[1] وأخبر ﷺ أن للشهيد ست خصال ومنها " ويأمن من عذاب القبر"[2]، [3].

ثالثا: ما ينفع الميت بعد موته

في ظلال قوله تعالى: { وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ } [سورة النجم:٢٩] ، يقول سيد – رحمه الله –: " فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله، لا يزاد عليه شيء من عمل غيره، ولا ينقص منه شيء ليناله غيره وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل، إلا ما نص عليه حديث رسول الله ﷺ في قوله: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به " [4]، وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله.

---

(١) رواه : البخاري في الصلاة باب قبل السلام ٢٨٦/١ برقم ٧٩٨ ، ومسلم في المساجد باب ما يستعاذ منه ٣٤٤/١، ٣٤٥ برقم ٥٨٨، ٥٩٠.

(٢) رواه : الترمذي في فضائل الجهاد ١٦١/٤ برقم ١٦٦٣ وابن ماجه في الجهاد ٢٣١/٣ برقم ٢٧٩٩ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٤٠/٢.

(٣) في ظلال القرآن : ٣٩٤١/٦، ٣٢٨٧ .

(٤) رواه : مسلم في الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٠١٦/٣ برقم ١٦٣١ ، والترمذي في الأحكام ٦٦٠/٣برقم ١٣٧٦.

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي – رحمه الله – ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته، ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة – رضي الله عنهم – ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما " (١)، (٢).

المطلب الثالث

أشراط الساعة

الفرع الأول: تعريف أشراط الساعة

الـ " أشراط ": بفتح الهمزة، جمع شَرَط " بفتحتين " كقلم وأقلام، بمعنى العلامات، وقيل الشرط الردى من كل شيء (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٣٤٣/٧.

(٢) في ظلال القرآن : ٣٤١٥/٦ .

(٣) لسان العرب : ٣٢١/٧-٣٣٠ ، ومعاني القرآن للزجاج ١١/٥ ، وفتح الباري ١٢١/١ ، وهدي الساري ص ١٣٨.

و" الساعة " في اللغة هي: الجزء من الزمن وتسمى ساعة زمنية، ومنه قوله تعالى: {لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً } [سورة الأعراف:٣٤] " وفي عرف أهل الميقات جزء من أربعة وعشرين جزءاً من اليوم والليلة"(١).

أما الساعة الشرعية: فالمراد بها يوم القيامة، وتأتي في القرآن معرفة بأل العهد بخلاف الساعة الزمانية، وقد جمع الله بين الساعة الزمانية والشرعية في قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ } [سورة الروم:٥٥] ، وسمي يوم القيامة " الساعة " لأنها كلمح البصر، ولم يكن في كلام العرب في المدد أقصر من الساعة، وقيل لأنها خفية، أو لوقوعها بغتة، أو لسرعة الحساب فيها" (٢).

والبعض يرى أن هناك فرق بين الساعة والقيامة، فالساعة هي الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب، والقيامة هي البعث والحشر وما يكون فيه من حساب وما يتلوه، فالساعة هي المبدأ والقيامة هي الغاية (٣).

---

(١) فتح الباري : ٣٨٩/١١ .

(٢) فتح الباري : ١٢١/١ ، ٣٨٩/١١ وهدي الساري ص ١٣٢.

(٣) تفسير المنار : لمحمد سيد رضا ٤٢/٩-٤٤ بتصرف .

والمقصود بـ " أشراط الساعة ": هي العلامات التي يعقبها قيام الساعة "[1].

الفرع الثاني: الإيمان بقيام الساعة:

جاء في القران الكريم والسنة الشريفة الإخبار عن قيام الساعة، وأنه أعظم حدث يحصل في الكون، وبه تنتهي الحياة الدنيا، والآيات والأحاديث الواردة في ذلك أكثر من أن تحصر.

وأحداث قيام الساعة وأهوالها عظام جسام لا يعلم مداها إلا الله، وقد أخبر الله تعالى وأخبر رسوله ﷺ عنها، موعظة للناس وتذكيراً لهم ليعدوا عدتهم من الإيمان والعمل الصالح.

والإيمان بقيام الساعة يشتمل على مسائل عديدة، تحدث عنها سيد قطب ويمكن بيانها فيما يأتي: -

أولاً: علم وقت قيام الساعة:

جاءت الأدلة في الكتاب والسنة على أن الله- سبحانه وتعالى – استأثر بعلم وقت قيام الساعة، فلا يعلم أحد متى الساعة إلا الله تعالى وحده، قال سبحانه: {يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } [سورة الأحزاب:٦٣] .

---

(١) فتح الباري : ٧٩/١٣ .

وقال سبحانه: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [سورة الأعراف:١٨٧] ، وغيرها من الآيات، يقول سيد -رحمه الله-: " والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه، ولم يشأ أن يطلع عليه أحداً من خلقه جميعاً، بما فيهم الرسل والملائكة المقربون، وفي حديث حقيقة الإيمان والإسلام أن جبريل – عليه السلام – قال: للنبي ﷺ... فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل الخ، ثم قال رسول الله ﷺ فإنه جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم " (١).

فالمسئول رسول الله ﷺ والسائل جبريل -عليه السلام - كلاهما لا يعلم علم الساعة " قل إنما علمها عند الله "على وجه الاختصاص والتفرد من دون عباد الله" (٢).

والله سبحانه قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه، استأثر الله به، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه " (٣)

(١) سبق تخريجه ص ٣٠٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ٢٨٨٢/٥ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق : ٣/ ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ،٢٧٩٨/٥ بتصرف ، وينظر أيضا ١٠٧٣/٢: ،٥/٤، ٣١٥١/٢١٨٥،٣١٢٩

وإذا ثبت أن علم وقت قيام الساعة مما استأثر الله تعالى به، فإن الانشغال بتحديد عمر الدنيا بطريقة ما من الطرق يعد خوضا فيما ليس للإنسان به علم، لأنه إذا حدد عمر الدنيا فقد حدد وقت قيام الساعة وهذا مستحيل لما سبق من الأدلة " (١).

ثانياً: الحكمة من إخفاء وقت الساعة وجعلها غيباً:

أشار سيد – رحمه الله – في عدة مواضع إلى بعض الحكم من كون الساعة غيباً، حيث يقول: " فأما الساعة فهي الوعد المرتقب للجزاء الكامل العادل، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق، والله سبحانه يؤكد مجيئها " إن الساعة آتية " وأنه يكاد يخفيها، فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم، والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم وهم بهذه الفطرة لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون ويأملون، ويجربون ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم،

---

(١) ينظر : رد العلماء على من يشتغل بتحديد عمر الدنيا : فتح الباري ٥١٤/٨ ، ٣٥٠/١١-٣٥١ ، تفسير المنار ٤٨٢/٩ .

وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد، يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحت فطرته واستقام، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى " (١).

ويقول " وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا، والساعة من هذا الغيب المستور، ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة، أو اختلت، ولما سارت الحياة وفق الخط الذي رسمته لها القدرة "(٢).

" قدر الله هذا لحكمة يعلمها، نلمح طرفاً منها، في ترك الناس على حذر من أمرها، وفي توقع دائم لها، وفي استعداد مستمر لفجأتها، ذلك لمن أراد الله له الخير وأودع قلبه التقوى دون الغافلين"(٣).

ثالثاً: قرب قيام الساعة:

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٣١/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢١٨٥/٤

(٣) المصدر السابق ٢٨٨٢/٥ وينظر ٢٧٩٨/٥ .

أشارت بعض الآيات والأحاديث إلى قرب قيام الساعة وهذا يعني أن ما بقى من عمر الدنيا أقل مما مضى منه، والقرب والبعد من الأمور النسبية. (١)

وقد ذكر سيد – رحمه الله – في ظلال قوله تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة سبأ:٤٦] ، تصوير القران الكريم لقرب الساعة التي توشك أن تقع، وهو تصوير فوق أنه صادق – بارع موح مثير – ثم أورد حديث النبيﷺ وفيه: أنه ﷺ خرج يوماً فنادى ثلاث مرات " أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: " إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فينما هو كذلك أبصر العدو، فاقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه، أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم " (٢).

وقال ﷺ: " بعثت أنا والساعة جميعاً أن كادت لتسبقني "(٣)، (٤).

---

(١) تفسير المنار ٤١٠/٩

(٢) رواه : أحمد ٣٤٨/٥ ، قال الأرناؤوط صحيح لغيره ، انظرمسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ٣٧/٣٨ برقم ٢٢٩٤٨ .

(٣) رواه : أحمد ٣٤٨/٥ وحسنه الأرناؤوط ، المصدر السابق ٣٧/٣٨ .

(٤) في ظلال القرآن ٢٩١٥/٥

*وفي ظلال قوله تعالى: { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ }(١) يقول سيد – رحمه الله –: " هل ينظرون إلا الساعة؟ " فقد جاء أشراطها " ووجدت علاماتها، والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات، فهي إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب، وقد قال رسول الله ﷺ: " بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها " (٢)، وإذا كان الزمن يلوح ممتداً منذ هذه الرسالة الأخيرة، فإن أيام الله غير أيامنا، ولكنها في حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى، وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحواً ولا ذكراً"(٣).

*وفي ظلال قوله تعالى: {ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ } [سورة القمر:١] ، يقول سيد – رحمه الله –: " مطلع باهر مثير، على حادث كوني كبير، وإرهاص بحادث أكبر، لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني... فيا له من إرهاص! ويا له من خبر، ولقد

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩١٥

(٢) رواه : البخاري في الرقاق باب قول – ﷺ – بعثت أنا والساعة كهاتين ٥/٢٣٨٥ برقم ٢١٣٨ – ٣١٤٠ ، ومسلم في الفتن باب قرب الساعة ٤/ ٧٩٤ برقم ٢٩٥١ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٢٩٥ .

رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر. وبعد أن أورد روايات عدة حول انشقاق القمر يقول: " ونكتفي بإشارة القران الكريم إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة باعتبار هذه الإشارة، لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب " (١).

*ويقول سيد – رحمه الله –: " فاقتراب الوعد بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: {ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ } والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضة قصيرة " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢٥/٦ ، ٣٤٢٧ ، ٣٤٢٧ ، ٣٤٢٨ ، بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢٢٩٤/٤، ٢٣٩٨ .

رابعاً: استبعاد المشركين لقيام الساعة وسببه:

أشار القران الكريم في عدة آيات إلى استبعاد المشركين لقيام الساعة وشكهم فيها، لذا راحوا يسألون الرسول ﷺ عنها ويسخرون من حديثه عن الساعة، وقد بين سيد – رحمه الله – في ظلال بعض الآيات أسباب إنكار المشركين لقيام الساعة ومن خذه الأسباب:

١- اندثار عقيدة الإيمان وما فيها من حساب وجزاء عند المشركين مع أنها عقيدة أصيلة في دين إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام– بسبب طول الأمد، وبعد ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام–، حتى أصبحت غريبة في تصوراتهم، فكانوا يعجبون منها كما حكى الله عنهم في قوله: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ } [سورة سبأ:٧-٨] ، (١).

٢- قصر علمهم وعدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره، فإنكار الذين كفروا للآخرة ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره، فحكمة الله لا تترك الناس سدى، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٠٨/٣ بتصرف يسير .

المسيء جزاء إساءته، وقد أخبر الله على لسان رسله أنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة، فكل من يدرك حكمة الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره.. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة، من ثم يقولون قولتهم هذه: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ } [سورة سبأ:٣] ، فيرد عليهم مؤكداً جازماً: {قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ} [سورة سبأ:٣] .

٣- الكفر وما ينتج عنه من حجب على القلوب، فالذين لا يؤمنون لا تحس قلوبهم، ولا تقدر ما ينتظرهم، ولذا فهم محجوبون لا يدركون، بخلاف الذين آمنوا حيث نجدهم مشفقين يخافون الساعة، وينتظرونها بوجل وخشية، وهم يعرفون ما هي حين تكون (١).

٤- الكبر والغرور والبطر والاغترار بالنعم، حيث أشارت الآيات القرآنية إلى أن من أسباب إنكار الآخرة واستبعاد قيام الساعة الكبر وعدم الإذعان للحق والجدال بالباطل، وكذا الاغترار بالنعمة، فغير المؤمن تستخفه النعمة فينسى الشكر،

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٥١/٥ بتصرف ، وينظر ٢٥٥٤/٥ .

ويستطيره الرخاء فيغفل عن مصدر النعمة، وينسى الآخرة ويستبعد أن تكون [1].

الفرع الثالث: علامات وأشراط الساعة:

علامات الساعة على قسمين:

الأول: العلامات الصغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة وتكون في أصلها معتادة الوقوع.

الثاني: العلامات الكبرى: وهي التي تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة سريعة، وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع. [2]

موقف سيد قطب من أشراط الساعة:

أما موقف سيد – رحمه الله – من أشراط الساعة فبيانه كما يأتي:

أ– موقفه من أشراط الساعة إجمالاً:

١–أما أشراط الساعة الصغرى فلم يتعرض لها سيد– رحمه الله– تفصيلاً وإنما أشار إلى اثنين منها:

الأول: بعثة النبي ﷺ

---

(١) ينظر ذلك : في ظلال القرآن ٢٢٧٠/٤ ، ٣٠٩١/٥، ٣١٢٩ ، ٣٢٣٣ .

(٢) فتح الباري ١٢١/١ ، ١٨٧ واليوم الآخر في ظلال القرآن – احمد فائز – مؤسسة الرسالة ، ط٢٨ عام ١٤١٨هـ ص١٠٢ .

الثاني: انشقاق القمر وقد سبق الحديث عنهما في الفرع السابق، حيث أشار سيد – رحمه الله – إلى أن بعثة النبي ﷺ وكذا انشقاق القمر من علامات الساعة، فذكر قوله ﷺ " بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بإصبعه السبابة والتي تليها " [(١)]، وذكر أن انشقاق القمر من أشراط الساعة. [(٢)]

٢- أشراط الساعة الكبرى: أما أشراط الساعة الكبرى فقد ذكر سيد – رحمه الله – الحديث الذي يجمعها في ظلال قوله تعالى: { فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ } [سورة الدخان:١٠] ، حديث: " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا " [(٣)].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٧٤ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٢٩١٥/٥ ، ٣٢٩٥/٦ ، ٣٤٢٥ ، ٣٤٢٧ ، ٣٤٢٨ .

(٣) رواه : مسلم في الفتن وأشراط الساعة ١٧٦٣/٤ برقم ٢٩٠١ وأحمد ٦/٤ .

وحديث: " إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال " (١)، (٢).

ب- موقفه من أشراط الساعة تفصيلا:

١- الدجال: لم يتعرض سيد - رحمه الله - للحديث عن الدجال تفصيلاً، إنما ذكره في ضمن حديث العشر الآيات الذي سبق ذكره.

٢- نزول عيسى - عليه السلام -:

يقول سيد - رحمه الله - في ظلال قوله تعالى: {وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ} [سورة الزخرف:٦١] : " وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى - عليه السلام -إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية: " وإنه لعلم للساعة" بمعنى أنه يُعلِم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية: " وإنه لَعَلَمٌ للساعة " بمعنى أمارة وعلامة، وكلاهما قريب من قريب. ثم ذكر قوله ﷺ: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل

---

(١) تفسير الطبري ٢٢٧/١١ .

(٢) تفسير الطبري ٢٢٧/١١ .

الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها " (١).

وقوله ﷺ " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال: صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله تعالى لهذه الأمة "(٢)، (٣).

٣- **خروج يأجوج ومأجوج:** جاء ذكر يأجوج ومأجوج في موضعين من القران الكريم:

الأول: قوله تعالى: { قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا } [سورة الكهف:الآيات ٩٤- ٩٩] .

والثاني: قوله تعالى: { حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ } [سورة الأنبياء:٩٦] .

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء باب نزول عيس ١٢٧٢/٣ برقم ٣٢٦٤ وكذا برقم ٢١٠٩ ، ٢٣٤٤ ، ومسلم في باب نزول عيسى بن مريم ١٢٢/١ برقم ١٥٥ .

(٢) رواه : مسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم ١٢٤/١ برقم ١٥٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٣١٩٨/٥ ، ٣١٩٩ وينظر أيضاً : ٨٠٢/٢ .

وأما في السنة فقد جاء ذكرهم في الحديث الذي يتحدث عن الآيات العشر " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات وذكر منها... خروج يأجوج ومأجوج " [١].

ويرى سيد قطب – رحمه الله – أن الآيات لا تجزم بشيء عن مكان يأجوج ومأجوج وإنما تثبت وجود قوم يسمون بـ " يأجوج ومأجوج " مفسدون في الأرض، وأن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين، أو بين سدين صناعيين تفصلهما فجوة أو ممر، وأن قوماً ضعافاً كانوا يعيشون هناك، عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، ويعيثون في الأرض فساداً... وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح، فقد رأى أن أيسر الطرق هي ردم الممر بين الحاجزين، فطلب من القوم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية فجمعوا له قطع الحديد، وكومها في الفتحة بين الحاجزين، وسخنها بالنار ثم افرغ عليها النحاس ليزيد من صلابتها، وبذلك أغلق الطريق على يأجوج ومأجوج، فلم يستطيعوا أن يتسوروه أو ينقبوه "[٢].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٧٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٢٩٢ بتصرف .

ثم يقول سيد – رحمه الله – بعد ذلك: " وبعد فمن يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: {قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا} [سورة الكهف:٩٨] ، وهذا النص لا يحدد زماناً، ووعد الله بمعنى: وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميراً.

وفي موضع آخر سي سورة الأنبياء { حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ} [سورة الأنبياء ٩٦- ٩٧] .

وهذا النص كذلك لا يحدد زماناً معيناً لخروج يأجوج ومأجوج، فاقتراب الوعد بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: {ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ} [سورة القمر:١] ، والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضة قصيرة.

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين: { ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ } ويومنا هذا، وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج.

وهنالك حديث صحيح عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: " استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول: " ويل للعرب من شر قد اقتربت، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا " وحلق بإصبعيه السبابة والإبهام. قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبيث " (١).

وقد كانت الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن. وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد -هولاكو- في خلافة... آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله، وكل ما نقوله ترجيح لا يقين " (٢).

---

(١) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج ١٢٢١/٣ برقم ٣١٦٨ ومسلم في الفتن باب اقتراب الفتن ١٧٤٩/٤ برقم ٢٨٨٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٩٣/٤-٢٢٩٤ ، وقد ذكر سيد – رحمه الله – في الهامش أنه كشف سد بمقربة من مدينة ترمز وعرف بباب الحديد وقد مر به أوائل القرن الخامس الميلادي العالم الألماني" سيلد برجر" وسجله في كتابه ، وكذا المؤرخ الاسباني "كلا فيجو" في رحلة عام ١٤٠٣م .. وقد يكون هو السد الذي بناه ذي القرنين .

وفي سورة الأنبياء يقول سيد: " ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة، يبدؤه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد وهي فتح يأجوج ومأجوج... وقد قلنا من قبل عند الكلام على يأجوج ومأجوج في قصة ذي القرنين: أن اقتراب الوعد الحق الذي يقرنه السياق بفتح يأجوج مأجوج، ربما يكون قد وقع بانسياح التتار وتدفقهم شرقاً وغرباً، وتحطيم المماليك والعروش، لأن القرآن قد قال منذ أيام الرسولﷺ {ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ }، غير أن اقتراب الوعد الحق لا يحدد زماناً معيناً للساعة، فحساب الزمن في تقدير الله غيره في تقدير البشر: {وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ }، إنما المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين يجيء، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض، هي تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب في سرعة واضطراب "(١).

وما ذكره سيد من القول بأن المقصود بخروج يأجوج ومأجوج قد يكون هو انسياح التتار في الأرض خلاف ما عليه جمهور

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٩٨ .

أهل السنة والجماعة، فالراجح أنهم من علامات الساعة الكبرى التي لم تأتِ بعد [(١)].

٤- الدخان:

في ظلال قوله تعالى: { فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ } [سورة الدخان:١٠-١١] .

يقول سيد – رحمه الله –: " وقد اختلف السلف في تفسير آية الدخان:

*فقال بعضهم: إنه دخان يوم القيامة، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد المتكررفي القرآن، وإنه آتٍ يترقبونه ويترقبه رسول الله ﷺ.

*وقال بعضهم: بل هو قد وقع فعلاً كما توعدهم به، ثم كُشف عن المشركين بدعاء الرسول ﷺ فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدها، ثم نعقب بما فتح الله به، ونحسبه صواباً إن شاء الله.

ثم ذكر سيد – رحمه الله – حديث مسروق[(١)]. قال: دخلنا مسجد الكوفة –عند أبواب كندة – فإذا رجل يقص على

---

(١) يضيف الدكتور /خليل الكبيسي –حفظه الله– قائلاً " وما المانع أن يكون لهم ظهور جزئي قبل القيامة كما أخبر النبي ﷺ عنه ، وتكون علامة الساعة الكبرى هي خروجهم الكلي فلا تعارض بينهما والله أعلم " .

أصحابه: {يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ} تدرون ما الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود- رضي الله عنه- فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد، وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: {قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص:٨٦] إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، أحدثكم عن ذلك، إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: {فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ}، فأُتي رسول الله ﷺ فقيل له: " يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا، فنزلت: {إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ

---

(١) هو : مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ،تابعي ثقة ، من أهل اليمن ،قدم المدينة في أيام أبي بكر رضي الله عنه ،وسكن الكوفة ،كان فقيها عالما بالفتيا ،توفي سنة ٦٣هـ ،انظر : سير أعلام النبلاء ٦٣/٤ ،الأعلام ٢١٥/٧ .

عَآئِدُونَ }، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عزوجل: { يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ }، قال: يعني يوم بدر، قال ابن مسعود -رضي الله عنه- فقد مضى خمس: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام " (١).

*وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما جاء في حديث: " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات وذكر منها: الدخان" (٢).

وكما جاء في قوله ﷺ: " إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال " (٣).

وكذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، قيل: لم؟ قال: قالوا طلع الكوكب ذو

---

(١) رواه البخاري في التفسير ١٨٢٣/٤ برقم ٤٥٣٤ ، وقد واقف ابن مسعود على تفسير الآية بهذا جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية ، والنخعي ، والضحاك والصوفية ، واختاره ابن جرير الطبري ، ينظر :تفسير ابن جرير ٢٢٨/١١، في ظلال القرآن ٣٢١٠/٥ .

(٢) سبق تخريجه : ص ١٠٧٦ .

(٣) تفسير الطبري ٢٢٧/١١ .

الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت " (١).

قال ابن كثير: " وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين- رضي الله عنهم أجمعين - مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها، مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: { فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي بيّن واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود - رضي الله عنه- إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: { يَغْشَى ٱلنَّاسَ }أي يتغشاهم ويعميهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ، وقوله تعالى: هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ أي يقال لهم ذلك، تقريعاً وتوبيخاً.. أو يقول بعضهم لبعض، وقوله تعالى: { رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ }أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله

---

(١) تفسير الطبري ٢٢٧/١١ .

وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلت عظمته: {وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام:٢٧]

وقوله تعالى: {إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ} يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقول: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب: {وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ} [سورة الأنعام:٢٨] .

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه، ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: {إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ} [سورة يونس:٩٨] ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم.

وقيل: معناه إنكم عائدون إلى عذاب الله.

وقوله تعالى {يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ} فسرها ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر ووافقه جماعة، وجماعة على أن

ذلك يوم القيامة، قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة "[1].

وبعد أن ساق سيد – رحمه الله – الآثار السابقة قال: ونحن نختار قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة، وقول ابن كثير في تفسيره، فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القرآن الكريم، في مثل هذه المناسبة، ومعناه: إنهم يشكون ويلعبون، فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب، يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس، ووصف هذا بأنه عذاب أليم، وصور استغاثتهم: { رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ }، ورده عليهم باستحالة الاستجابة، فقد مضى وقتها { أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ } [2].

٥- الدابة:

في ظلال قوله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ } [سورة النمل:٨٢]، يقول سيد – رحمه الله –: " والسياق يجول بهم في أشراط

---

٤ أخرجه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس وقال : وهذا إسناد صحيح عنه : وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في اصح الروايتين ، انظر: تفسير الطبري ٢٢٦/١١.

١ في ظلال القرآن : ٣٢١٠/٥-٣٢١٢ بتصرف .

الساعة، وبعض مشاهدها ويذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية...

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح، وليس في هذا الصحيح وصف للدابة، إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة، لذلك نضرب صفحاً عن أوصافها، فما يعني شيئاً أن يكون طولها ستين ذراعاً، وأن تكون ذات زغب وريش وحافر، وأن يكون لها لحية! وأن يكون رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير.. الخ هذه الأوصاف التي افتن فيها المفسرون!

وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة، وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك، وإنما يقضى عليهم بما هم عليه.. عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم، والدواب لا تتكلم، أولا يفهم عنها الناس ولكنهم اليوم يفهمون، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب

الساعة، وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله، ولا يصدقون باليوم الموعود " [1].

٦- طلوع الشمس من المغرب:

ذكر سيد حديث أشراط الساعة الكبرى وفيه قوله ﷺ: " طلوع الشمس من مغربها "[2]

ولكنه عند تفسيره لقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [سورة الأنعام:١٥٨] .

يقول: " إنه تهديد واضح حاسم، فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون، والله سبحانه يقول لهم: إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضي عليهم بعده.. وإنه يوم تأتي بعض آيات الله تكون الخاتمة التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل لنفسٍ لم تؤمن من قبل، ولم تكسب عملاً صالحاً في إيمانها، فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته في ميزان الإسلام، ولقد

---

٣ في ظلال القرآن : ٥/٢٦٦٦-٢٦٦٧ .

٤ سبق تخريجه ص ١٠٧٦ ، وانظر: في ظلال القرآن : ٥/ ٣٢١٠ .

ورد في روايات متعددة أن المقصود بقوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ } هو أشراط الساعة وعلاماتها، التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل، وعدوا من ذلك أشراطاً بعينها.. ولكن تأويل الآية على وفق السنة الجارية في هذه الحياة أولى، فقد سبق مثله في أول السورة وهو قوله تعالى: { وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ } والملاحظ أن السياق يكرر وهو بصدد الكلام عن الشريعة والحاكمية، ما جاء مثله من قبل وهو بصدد الكلام عن الإيمان والعقيدة، وأن هذا ملحوظ ومقصود، لتقرير حقيقة بعينها، فأولى أن نحمل هذا الذي في آخر السورة على ما جاء من مثله في أولها من تقرير سنة الله الجارية، وهو كاف في التأويل بدون الالتجاء إلى الإحالة على ذلك الغيب المجهول" [1].

– وكلام سيد – رحمه الله – في تفسير الآية له وجهه، وهو أن النص عام لم يخصص وما جاء في بعض الاحاديث فهو مثال لبعض الآيات، وإن كان جمهور المفسرين على أن المقصود بالآية هو طلوع الشمس من مغربها " [2]، لورود

١ في ظلال القرآن : ٣/ ١٢٣٨– ١٢٣٩ .

٢ ينظر : تفسير الطبري ٤٠٤/٥ – ٤٠٥ ، وتفسير ابن كثير ١٣٩٣/٣– ١٣٩٧ .

أحاديث عن النبي ﷺ فيها بيان أن المراد هو طلوع الشمس من مغربها، ومن ذلك:

قوله ﷺ: " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " (١).

وقوله ﷺ: " أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " إن هذه الشمس تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها، ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري، لا يستنكر الناس شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي أصبحي من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها فقال الرسول ﷺ: أتدرون متى

---

٣ رواه البخاري من كتاب التفسير ، باب " لا ينفع نفسا إيمانها " ٤/ ١٦٩٧برقم ٤٣٥٩ ومسلم ، في كتاب الإيمان ، باب " الزمن الذي لا يقبل منه إيمان " ١ /١٢٤ برقم ١٥٧ .

ذاك؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن أمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " [1].

هذه العلامات التي تعرض لها سيد – رحمه الله – بالتفصيل في ضوء الآيات التي جاء ذكرها فيها. أما بقية العلامات وهي النار والخسوفات فلم يتعرض لها بالتفصيل وإنما جاء ذكرها إجمالا في الحديث الذي جمع العشر الآيات.

٤رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب " وكان عرشه على الماء " ٦/٢٧٠ برقم ٦٩٨٨ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب " الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان "١ / ٢٥برقم ١٥٩ واللفظ له .

المبحث الثالث

يوم القيامة وأحداثه

يبدأ يوم القيامة من النفخ في الصور ثم البعث والنشور ثم العرض الحساب والموازين والصراط وينتهي بالاستقرار في دار الخلود الجنة أو النار.

وفيما يلي استعراض لأحداث هذا اليوم العظيم وما فيه ومنهج سيد قطب – رحمه الله – فيها، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

النفخ في الصور

النفخ في الصور هو المؤذن بقيام الساعة، وعنه ينشأ الصعق والبعث، كما قال سبحانه وتعالى: {وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [سورة الزمر:٦٨] .

وقد تكلم سيد–رحمه الله– عن النفخ في الصور موضحاً معناه وصفاته وعدد النفخات وذلك كالأتي:

أولاً: تعريف الصور: –

الثابت عند أهل السنة والجماعة أن الصور قرن ينفخ فيه، وهو واحد لا اسم جمع، ويسمى بالناقور أيضاً [1].

وزعم بعضهم أن الصور ليس قرناً بل صورة، كالصوف جمع صوفة، وهذا خطأ فاحش وتحريف لكلمات الله عز وجل، لان الله عز وجل قال: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}– بفتح الواو – ولا نعلم أحداً من القراء قرأها فأحسن صُوْركم – بسكون الواو – فمن قرأ: ونفخ في الصُوَر، وقرأ: فأحسن صُوْركم، فقد افترى وبدل [2].

ويرد أيضاً على من فسر الصور، بأنه جمع صورة، بقوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ} فالمعلوم أن إرجاع الأرواح يكون مرة واحدة، فهل معنى هذا أن الصور ترجع لها الروح مرتين؟ لا شك في بطلان هذا [3].

أما سيد – رحمه الله – فقد قرر ما عليه أهل السنة في تعريف الصور من أنه البوق الذي ينفخ فيه فقال: " الصور: هو

---

٢ فتح الباري : ٨/٨٢٩ ، ١١/٣٧٦ .

٣ لسان العرب : ٤/٤٧٥ بتصرف يسير .

٤ اليوم الآخر في القرآن والسنة د/عبد المحسن المطيري– دار البشائر – لبنان – ط٢–عام ١٤٢٧هـ ص٢١٢ .

القرن المجوف كالبوق، غيب من ناحية ماهيته وحقيقته، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له، والروايات المأثورة تقول: هو بوق من نور ينفخ فيه ملك، فيسمع من في القبور، حيث يهبون للنشور – وهذه هي النفخة الثانية – أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر: {وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [سورة الزمر:٦٨] ، وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا – عن يقين – أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه.. وهو من ثم غيب من غيب الله.. نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه، ولا يقين، إنما هي الظنون! " (١).

ويقول في موضع أخر: " والصور البوق ينفخ فيه، ونحن لا ندري عنه إلا اسمه، ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه، وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك، فهي لا تزيدنا إيماناً ولا تأثراً بالحادث، وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد" (٢).

(١) في ظلال القرآن ١١٣٤/٢–١١٣٥ ، وينظر : ٢٣٥٤/٤ .
(٢) المصدر السابق ٢٦٦٨/٥ ، ٣٦٧٩/٦، ٣٨٠٧ .

ويسمى أيضاً بالناقور، كما قال تعالى: {فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ} [سورة المدثر:٨] ، يقول سيد – رحمه الله –: " والنقر في الناقور، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور، ولكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه كأنه نقر يصوّت ويدوّي، والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان " (١).

ويسمى أيضاً بالقرن يقول سيد –رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: { وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ } [سورة ق:٢٠] : " وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب، وقد قال رسول الله ﷺ: " كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟ " قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال ﷺ: " قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل " فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل "(٢)، (٣).

ثانياً: عدد النفخات وكيفيتها:

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٥٥/٦ .

(٢) رواه : الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في الصور ٥٣٦/٤ برقم ٢٤٣١ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٥٧٨ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٣٦٤/٦ .

اختلف العلماء في عدد النفخات على أقوال:

القول الأول: أنها نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث، واستدلوا ببعض الآيات والأحاديث مثل قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [سورة الزمر:٦٨] ، وبحديث أبي هريرة– رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: " بين النفختين أربعون يوماً" (١)، وببعض الآثار عن بعض الصحابة والتابعين " (٢).

القول الثاني: أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث، واستدلوا بالآيات التي ذكرت الألفاظ الثلاثة وهي:

* قوله تعالى: { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ } [سورة النمل:٨٧] .

* وقوله تعالى {وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ } [سورة الزمر:٦٨] .

كما استدلوا بحديث الصور الطويل، وفيه أن النفخات

---

(١) رواه البخاري : في التفسير باب ونفخ في الصور ١٨١٣/٤ برقم ٤٥٣٦ ، ومسلم في الفتن باب ما بين النفختين ١٧٩٦/٤ برقم ٢٩٥٥ .

(٢) ممن قال بهذا : ابن عباس ومجاهد والسحن وقتادة والضحاك وغيرهم ، انظر :تفسير أبن كثير ٣٠٥٤/٧ ، وفتح الباري ٣٧٤/١١.

الثلاث[١]، ورجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير وغيرهما [٢].

- ويرد البعض على أصحاب هذا القول بأنه " لا يلزم من مغايرة الصعق للفزع كما ورد في الآيات أن لا يحصلا معاً في النفخة الأولى، فالناس يسمعون الصيحة الأولى فيفزعون ثم يصعقون، فهي نفخة واحدة لا اثنتان، وقد ورد في السنة ما يدل على أن النفخة الأولى يستمع إليها الناس من بعيد فيصغون لها الرؤوس ثم تزداد قوتها فيفزعون –كما في الآية – ثم يصعقون كما في الآية الأخرى" [٣].

القول الثالث: أنها أربع نفخات: قال الحافظ ابن حجر: " وزعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع، الأولى: إماتة يموت فيها من بقى حياً في الأرض، والثانية نفخة إحياء يقوم بها كل ميت، وينتشرون من القبور، والثالثة: نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد، والرابعة: نفخة إقامة من ذلك الغشي " ثم قال الحافظ: وهذا الذي ذكره من كون

---

(١) الحديث رواه البيهقي في البعث والنشور ص ٣٢٥ .

(٢) ينظر مجموع الفتاوى ٢٦٠/٤ ، ٣٥/١٦ ، وتفسير أبن كثير ٣٠٥٤/٧ ، لوامع الأنوار للسفاريني ١٦١/٢ ،وفتح الباري ٣٧٧/١١ .

(٣) ينظر: فتح الباري ٣٧٧/١١ ، تفسير القرطبي١٥٩/٥ ،١٨٢/٨ ، ومعالم التنزيل للبغوي ١٣١/٧ ، وفتح القدير للشوكاني ٤٥٨/٤ .

الثنتين أربعاً ليس بواضح، بل هما نفختان فقط، وقد قع التغاير في كل واحدة منها باعتبار من يستمعها، فالأولى يموت بها كل من كان حياً، ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله، والثانية: يعيش بها من مات ويفيق من غشي عليه، والله أعلم " (١).

<u>*أما سيد قطب فيرى أن عدد النفخات ثلاث: –</u>

<u>الأولى: نفخة الفزع والصعق</u>:

يقول سيد – رحمه الله –: " أما في الأولى فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمـــر: {وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ } (٢)، ويقول في ظلال قوله تعالى: { وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ } [سورة النمل:٨٧] : " وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر.. قيل هم الشهداء.. وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله... ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك، وتضطرب دورتها، ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير

---

(١) فتح الباري : ٤٤٦/٦ ، ٣٧٧/١١ .

(٢) في ظلال القرآن ١١٣٤/٢-١١٣٥ .

الجبال الراسية، وتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره، وهو مشهد يتناسق مع ظل الفزع، ويتجلى الفزع فيه، وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين، مفزوعة مع المفزوعين، هائمة مع الهائمين" (١).

وفي ظلال آية الزمر نفسها يقول سيد: " ها هي ذي الصيحة الأولى تتبعث، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من الأحياء، ومن في السماوات كذلك إلا من شاء الله ولا نعلم كم يمضي من الوقت حتى تتبعث الصيحة الثانية " (٢).

الثانية: نفخة البعث:

يقول سيد – رحمه الله –: " والصور البوق ينفخ فيه– النفخة الأولى – نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله، ثم تكون نفخة البعث "(٣).

وفي ظلال قوله تعالى: { مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٦٨ ، ٢٦٦٩ وينظر أيضاً ٢/١٢٦٦ ، ٥/٢٩٧١ ، ٦/٣٦٧٩ .

(٢) المصدر السابق ٥/٣٠٦٢ .

(٣) المصدر السابق ٥/٢٦٦٨ .

وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ } [سورة يس:٤٩] ، يقول سيد –رحمه الله–: "
فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة،
لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً
فإذا هم منتهون، كل على حاله التي هو عليها... "

ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور، ويمضون سراعاً، وهم في دهش وذعر يتساءلون "من بعثنا من مرقدنا؟ " [(١)]. فهذه هي النفخة الثانية نفخة البعث والقيام لرب العالمين.

الثالثة: نفخة الحشر والتجميع:

أشار سيد – رحمه الله – إلى النفخة الثالثة وسماها نفخة الحشر والتجميع في أكثر من موضع، ففي ظلال آية الزمر ذكر الصحية الأولى التي يصعق بها كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم تأتي الصيحة الثانية صيحة البعث والنشور من القبور ثم قال " ولا تذكر الصيحة الثالثة صيحة الحشر والتجميع" [(٢)].

*وفي ظلال قوله تعالى: { مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً } في سورة يس يقول: " فهي تأخذهم كل على حاله... ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور... ثم إذا الصيحة الأخيرة،

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩٧٢/٥ ، وينظر أيضاً ٣٠٦٢/٥ ، ٣٨٠٧/٦ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٦٢٥/٥ بتصرف يسير .

صيحة واحدة فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش يثوب {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} وتنتظم الصفوف وتتهيأ للاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى " (١).

*وفي سورة النمل يذكر سيد – رحمه الله – نفخة الفزع التي يصعق فيها كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ويقول ثم تكون نفخة البعث ثم نفخة الحشر، وفي هذه يحشر الجميع " وكل أتوه داخرين " أذلاء مستسلمين " (٢).

* وفي ظلال قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف:٩٩]، يقول سيد: " وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية، من كل لون وجنس وأرض، ومن كل جيل وزمان وعصر، مبعوثين منشرين، يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج.. ثم إذا نفخة التجمع والنظام: " ونفخ في الصُّور فجمعناهم جمعا" فإذا هم في الصف في نظام! " (٣).

---

(١) المصدر السابق ٢٩٧٢/٥ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٢٦٦٨/٥ تصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن ٢٢٩٤/٤ ،وينظر أيضاً ٢٣٥٢/٥ .

*وفي ظلال قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣- ١٤] ، يجمع سيد قطب بين النفخة الثانية والثالثة في نفخة واحدة فيقول: " وهذه الزجرة الواحدة يغلب بالاستناد إلى النصوص الأخرى أنها النفخة الثانية، نفخة البعث والحشر " (١).

ويلاحظ من كلام سيد قطب السابق في تحديد عدد النفخات أنه وإن اتفق مع أصحاب القول الثاني القائلين بأنها ثلاث إلا انه يختلف معهم في تحديدها فهم يقولون إنها: نفخة الفزع، ونفخة الصعق ونفخة البعث، وهو يقول: إنها نفخة الفزع والصعق، ونفخة البعث، ونفخة الحشر والتجميع، حيث جعل الاثنتين الأوليين واحدة وزاد نفخة الحشر والتجميع.

* **كيفية النفخ في الصور:** يرى سيد – رحمه الله – أن كيفية النفخ في الصور من الأمور الغيبية مثلها مثل كيفية الصور، فيقول: " ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث، ولا نزيد في تفصيلها شيئاً، لأنها غيب، ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة، وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال، والتفصيل لا يزيد

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨١٣/٦

في حكمة النص شيئاً، والجري وراءه عبث لا طائل تحته، إلا إتباع الظن المنهيّ عنه أصلاً " (١).

* ويقول أيضاً " والصور: البوق. ونحن لا ندري عنه إلا اسمه، ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه، وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك، فهي لا تزيدنا إيماناً ولا تأثراً بالحادث، وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون، وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد! " (٢).

* ويقول: " والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له.. ولكن الأوصاف له ولآثار النفخة فيه تعطينا -عن يقين- أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه، وهو من ثم غيب من غيب الله، نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه، ولا يقين، إنما هي الظنون! " (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦٧٩/٦ .

(٢) المصدر السابق ٣٨٠٧/٦ .

(٣) المصدر السابق ١١٣٤/٢-١١٣٥ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

البعث والنشور

أولاً: تعريف البعث والنشور:

البعث والنشور لفظان مترادفان وأصل البعث إثارة الشيء عن جفاءٍ وتحريكه عن سكون [١]

والمراد بالبعث هنا: إحياء الأموات يوم القيامة[٢].

أما النشور: فهو البعث والإحياء بعد الإماتة أيضاً، يقال نشر الله الموتى: أي أحياهم[٣].

ثانياً: حتمية البعث:

يقول سيد – رحمه الله –: " قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية، التي جاء بها الإسلام، والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية، والتي لا يقوم هذا الدين – عقيدة وتصوراً، وخلقاً وسلوكاً، وشريعة ونظاماً – إلا عليها و بها " [٤].

---

١ لسان العرب ١١٦/٢ ،ومعجم مقاييس اللغة ٢٦٦/١ ، وتفسير الطبري ٨٤/٢،وفتح الباري ٣٩٣/١١.

٢فتح الباري ٣٩٣/١١ ،شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١١٥ .

٣ فتح الباري ١١٤/١١ .

٤في ظلال القرآن ١٠٦٨/٢ .

ويقول: " والإيمان بالبعث والحشر، وبالحساب والجزاء، عنصر أصيل في العقيدة، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به، فلا بد من عالم مرتقب، يكمل فيه الجزاء، ويتناسق فيه العمل والأجر، ويتعلق به القلب، وتحسب حسابه النفس، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك.

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيباً من قضية البعث والدار الآخرة على بساطتها وضرورتها، فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور " (١).

" ولقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله الرسل للناس، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب " (٢).

وبناء على ذلك " فقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل، مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت، وطبيعة البعث والحشر، ولقد

٥المصدر السابق ٥/٢٦٦١ .

٦المصدر السابق ٤/٢١٧١ .

عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات، ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة، فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام "(١).

" والسبب في ذلك: أنهم لم يكونوا يتدبرون نشأتهم الأولى، ويغفلون عن معجزة الحياة الأولى، ويغفلون عن طبيعة القدرة الإلهية وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً، فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء فيكون.

وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث.. ليتم الجزاء في الآخرة على ما كان من الناس في الدنيا بالإضافة إلى جهل المشركين بنواميس الله الخاصة بخلق الإنسان على هذا النحو من القدرة على الاختيار والاتجاه.. وجهلهم بسنن الله في الرسالات والمعجزات والعذاب جعلهم يتسألون عن تأخر البعث والقيامة " (٢).

لذلك نجد أن المنهج القرآني اعتنى بتقرير البعث والحساب – عناية واضحة – مقرراً أهمية البعث ومؤكداً لوقوعه في كثير

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢٣٣/٤ ،وينظر أيضاً ١٤٠٨/٣ ، ٢١٨٥/٤، ٢٨٨٨ .
(٢) المصدر السابق ١٨٥٩/٤ ، ٢١٧١ ، ٢٢٣٣بتصرف .

من الآيات، ومناقشاً لشبهات المشركين الذين أنكروا البعث واستبعدوا حدوثه مدللاً على وقوع البعث بأنواع من الأدلة، وهي ما نعرض له في الفقرة الآتية.

ثالثاً: أدلة البعث:

الدليل الأول: الاستدلال بالنشأة الأولى:

كثيراً ما يربط القرآن الكريم بين البدء والإعادة وهو يناقش مقولات المنكرين للبعث ويرد عليهم، حيث يبين أن حقيقة البعث والمآب طرف من الحق الأكبر الذي يقوم عليه الوجود، يقول سبحانه وتعالى: { ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [سورة الروم:١١] ، في حقيقة بسيطة واضحة، والترابط والتناسق بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك، فالإعادة كالبدء لا غرابة فيها، وهما حلقتان في سلسلة النشأة مترابطتان لا انفصام بينهما، والرجعة في النهاية إلى رب العالمين، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة " (١).

" والمنهج القرآني يجعل حقيقة النشأة الأولى دليلاً على البعث ولهذا يكثر من مواجهة المشركين بهذا السؤال {أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ} [سورة النمل:٦٤] ، وذلك لأن بدء الخلق حقيقة

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٦١ .

واقعة لا يملك أحد إنكارها، ولا يمكن لأحد تعليلها بغير وجود الله ووحدانيتـه، وجـوده لأن وجـود هـذا الكـون ملجـئ للإقـرار بوجوده وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله، ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته، فعليها آثار التقدير الواحد، والتدبير الواحد..

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون، ولكن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء.. ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدأ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال: " أم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ "، " أإله مع الله؟ "، " قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين "..

وإنهم ليعجزون عن البرهان.. وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة، يستخدم حقائق الكون النفس، ويوقظ الفطرة ويستجيش المشاعر والوجدان بما هو مركوز فيها من الحقائق التي تغشيها الغفلة، ويحجبها الجحود والكفران، ويصل إلى تقرير الحقائق بطريقة لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد، الذي انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي،

وفشا فيما يسمى علم التوحيد، أو علم الكلام! "[1].

*وقد جاءت آيات عدة ترد على مقولات الكفار في استبعاد البعث منها:

١- قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [سورة يس:٧٧-٧٩] . يقول سيد- رحمه الله-: " والآيات تبدأ بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسه، وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعاً في حياته، ويشهده بعينه وحسه مكرراً معاداً، ثم لا ينتبه إلى دلالته، ولا يتخذ منه مصداقاً لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره..

فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب؟ إنها نقطة من ماء مهين، لا قوام لها ولا قيمة! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا.. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنيناً، ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل!

والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٦٠-٢٦٦١ بتصرف .

المبين، وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى و الدثور؟ {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} يا للبساطة! ويا لمنطق الفطرة! ومنطق الواقع القريب المنظور!

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنساناً وجعله خصيماً مبيناً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال، فما بال الجدل الطويل؟! " (١).

٢-قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الواقعة:٥٧-٦٢] .

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها، أمر الخلق وأمر الموت، إنه أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس، فكيف

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٧٧ .

لا يصدقون أن الله خلقهم؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه.. إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمنى رحمَ امرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها.. وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة.. فقصة هذه الخلية منذ أن تمنى، إلى أن تصير خلقاً، قصة أغرب من الخيال، لولا أنها تقع فعلاً، ويشهدها الإنسان!.. والنهاية فلا تقل إعجازاً، وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } فهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل.. فإذا جاء الأجل المضروب كانت النشأة الآخرى "وننشئكم فيما لا تعلمون" في ذلك العالم المغيب المجهول.. تكون النشأة الآخرة "ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون! " فهي قريب من قريب، وليس فيها من غريب.

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة، وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذي تعرفه، ولا تملك أن تجادل فيه، لأنه مأخوذ من بديهياتها هي ومن مشاهدات البشر في حياتهم القريبة، بلا تعقيد ولا تجريد ولا فلسفة تكد الأذهان، ولا تبلغ إلى الوجدان،

إنها طريقة الله مبدع الكون وخالق الإنسان ومنزل القرآن" [١].

٣-قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا } [سورة الحج:٥] .

يقول سيد – رحمه الله –: " إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة، ولينظروا في أنفسهم، وفي الأرض من حولهم، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور...

إن البعث إعادة لحياة كانت، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة، وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب، فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة " إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم، ومنطقهم، وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم كل لحظة، ويمر بهم في كل برهة.. فما هؤلاء الناس؟ ما هم؟ من أين جاءوا؟ وكيف كانوا؟ وفي أي

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٤٦٧-٣٤٦٨ بتصرف .

الأطوار مروا؟

من تراب: ولكن أين التراب وأين الإنسان؟.. نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنشأت ذلك الخلق من تراب " ثم من نطفة " والمسافة بين عناصر التراب والنطفة مسافة هائلة.. وتحول النقطة إلى علقة ثم مضغة ثم إنسان مركب معجزة تدل على القدرة الإلهية.. فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة.. فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة "(١).

٤- قوله تعالى: {وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الإسراء:٤٩-٥٢] .

وقوله تعالى: {أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٤٠٩-٢٤١١ بتصرف .

يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ } [سورة القيامة:٣٦-٤٠] .

حيث وقف سيد – رحمه الله – في ظلال هذه الآيات مبيناً منهج القرآن الكريم في الاستدلال بالنشأة الأولى على قدرة الله على البعث والنشور بعد الموت(١).

الدليل الثاني: الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الإنسان:

فالذي قدر على أن يخلق الأعظم، قادرعلى أن يخلق ما دونه مع أنه يساوي الجميع في حق الله تعالى، ومن ذلك:

* قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } [سورة الإسراء:٩٩] ، " فالقرآن يجادلهم بالمنطق الواقعي الذي يرونه فيغفلونه.. فأية غرابة في البعث، والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم، فهو قادر إذاً على أن يعيدهم " (٢).

---

(١) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٢١٧١/٤-٢١٧٢، ٢٢٣٣ ، ٣٧٥٤/٦- ٣٧٥٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٥٢/٤ .

* وقوله تعالى: { أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ } [سورة يس:٨١] " فالآية تعرض دلائل القدرة، وتبسط قضية الخلق والإيمان والإعادة للبشر أجمعين.. فالسموات والأرض خلق عجيب هائل دقيق، في أحجامها ومكوناتها، ودقتها.. فأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب؟. " فالله سبحانه وتعالى يخلق هذا وذلك وغيرهما بلا كلفة ولا جهد ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير والصغير " إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون "، يكون هذا الشيء سماءً أو أرضاً، ويكون بعوضة أو نملة، هذا وذلك سواء أمام الكلمة.. كن.. فيكون! ليس هناك صعب ولا سهل، وليس قريب ولا بعيد، فتوجه الإرادة لخلق الشيء كافٍ وحده لوجوده كائناً ما يكون إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشري المحدود " (١).

*وقوله تعالى: { فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ }

---

(١)في ظلال القرآن ٥/٢٩٧٧-٢٩٧٨ .

[سورة الصافات:١١-١٨] .

يقول سيد – رحمه الله –: " بعد أن ذكر الله الملائكة وذكر السماوات والأرض وما بينما، وذكر الكواكب التي تزين السماء الدنيا، وذكر الشياطين المردة والقذائف التي تلاحقها، يكلف الرسول ﷺ أن يسألهم أهم أشد خلقاً أم هذه الخلائق؟ وإذا كانت هذه الخلائق أشد وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها، ويستبعدون وقوعها، وهي لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى.. فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والشياطين والكواكب والشهب كلها من خلق الله، فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق؟ ولا ينتظر منهم جواباً، فالأمر ظاهر، إنما هو سؤال الاستنكار والتعجب من حالهم العجيب، وغفلتهم عما حولهم، والسخرية من تقديرهم للأمور.. وغفلتهم عن آثار القدرة الإلهية فيما حولهم، واستبعداهم للبعث، وما في هذا البعث من غريب على تلك القدرة الإلهية ولا بعيد لمن يتأمل الواقع وما يحيط به " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٨٤-٢٩٨٥ بتصرف .

* وقولـه تعـالى: { ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا } [سورة النازعات:٢٧-٣٢] .

يقول سيد- رحمه الله-: " وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل " أأنتم أشد خلقاً أم السماء؟ السماء! بلا جدال ولا كلام! فما الذي يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقاً منكم، والذي خلقها أشد منها؟ هذا جانب من إيحاء السؤال.

وهناك جانب آخر، فما الذي تستصعبونه من أمر بعثكم؟ وهو خلق السماء وهي أشد من خلقكم؛ وبعثكم هو إعادة لخلقكم، والذي بنى السماء وهي أشد، قادر على إعادتكم وهي أيسر! " (١).

* وكذلك قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [سورة الأحقاف:٣٣] " وهي لفتة إلى كتاب الكون

(١) في ظلال القرآن ٣٨١٦/٦ .

المنظور، الذي يشهد بالقدرة المبدعة ويوحي بيسر الإحياء بعد الموت " [١].

- إذاً فعجيب أمر قوم ينكرون البعث وهم يرون الآيات الضخام، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق -جل وعلا- وحكمته الناطقة بان من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس، وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم فالذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو، قادر على إعادة الأناسي في بعث جديد[٢].

وعموماً فالقرآن الكريم يجعل من الكون وما فيه من مخلوقات عظمية دليلاً كونياً على يسر الخلق وسهولة البعث، فقدرة الله يستوي عندها الواحد والكثير، والكبير والصغير، فهي لا تبذل جهداً في خلق الأشياء، إنما هي الكلمة والمشيئة " كن فيكون " وعندئذ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين، وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين قال سبحانه وتعالى: { مَّا خَلْقُكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٣٧٤ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٤/٢٠٤٤، ٢٠٤٧ بتصرف .

وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ } [سورة لقمان:٢٨] ، (١).

الدليل الثالث: الاستدلال بإحياء الأرض الميتة بالمطر:

من البراهين التي جاءت في القرآن الكريم في معرض الاستدلال على قضية البعث: الاستدلال بإحياء الأرض الميتة بالمطر، حيث جاء ذلك البرهان في كثير من الآيات منها:

١-قوله تعالى: { فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [سورة الروم:٥٠] .

يقول سيد – رحمه الله –: " السياق يقرر أن الله هو الذي يرسل الرياح، وينزل المطر، ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك يحيي الموتى فيبعثون، سنة واحدة، وطريقة واحدة، وحلقات في سلسلة الناموس الكبير... إنها حقيقة واقعة منظورة، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر، ومن ثم يتخذها برهاناً على قضية البعث والإحياء في الآخرة، على طريقة الجدل القرآني، الذي يتخذ من مشاهد الكون المنظورة وواقع الحياة المشهودة، مادته وبرهانه، ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه "

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٩٥ بتصرف .

فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير" فهذه آثار رحمة الله في الأرض تنطق بصدق هذا الوعد وتؤكد هذا المصير "(١).

٢- قوله تعالى: { يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ } [سورة الروم:١٩] .

عملية دائبة لا تكف ولا تني لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان، على سطح الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار.. ففي كل لحظة يتم هذا التحول، بل هذه المعجزة الخارقة التي لا ننتبه إليها لطول الألفة والتكرار، في كل لحظة يخرج حي من ميت ويخرج ميت من حي، ويتحرك برعم ساكن في جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم، ومن الهشيم توجد الحبة الجديدة المتهيئة للحياة والإنبات.. إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لن يتأملها بالحس الواعي والقلب البصير" وكذلك تخرجون" فالأمر عادي واقعي لا غرابة فيه، وليس بدعاً مما يشهده الكون في كل لحظة من

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧٧٥/٥ بتصرف يسير .

لحظات الليل والنهار في كل مكان! " [١]. " إن إحياء الموتى إعادة للحياة، والذي أنشأ الحياة الأولى في نفس والأرض والنبات قادر على أن ينشاها مرة أخرى " [٢].

٣- قوله تعالى: { وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ } [سورة فاطر:٩] .

يقول سيد - رحمه الله -: " وهذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن، مشهد الرياح والسحاب والمطر الذي يحي الأرض الميتة، وهي خارقة تحدث كل لحظة، والناس في غفلة عن العجب العاجب فيها، مع وقوعها في كل لحظة يستبعدون النشور في الآخرة، وهو يقع بين أيديهم في الدنيا، " كذلك النشور " في بساطة ويسر، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد! " [٣].

٤- قوله تعالى: {وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [سورة فصلت:٣٩] ، وقوله تعالى: {وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ } [سورة

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٦٢-٢٧٦٣ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤/٢٤١٠-٢٤١١ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٩٢٩ بتصرف يسير .

الحج:٥] فالآيات تشير إلى الموتى، وتتخذ من إحياء الأرض نموذجاً ودليلاً.. " إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير "، ويتكرر في القرآن الكريم عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجاً للإحياء في الآخرة ودليلاً على القدرة، فمشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول، والحياة تنبض من بين الأموات، وتوحي بالقدرة المنشئة إيحاءً خفياً في أعماق الشعور، والقرآن الكريم يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق "(١).

٥- وقوله تعالى: { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ } [سورة ق:٩-١١] ، يقول سيد - رحمه الله -: " يمضي السياق في عرض صفحات الحق في كتاب الكون، في طريقه إلى قضية الإحياء والبعث، من خلال عرض آية الماء والنبات لينتهي إلى الهدف الأخير {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ }فهي عملية دائمة التكرار، مألوفة للناس، ولكنهم لا ينتبهون إليها، ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجب،

---

(١) في ظلال القرآن ٣١٢٦/٥ ، ٣٧١٤/٦ بتصرف .

كذلك الخروج، على هذه الوتيرة، وبهذه السهولة " [1].

الدليل الرابع: الاستدلال بإحياء الله لبعض الموتى في الدنيا:

حيث وردت عدة قصص في القرآن الكريم لإحياء الله لبعض الموتى من المخلوقات إنساناً وطيراً وحيوانات، وقد أشار سيد – رحمه الله – في ظلال الآيات التي تحدثت عن إحياء الله لبعض الموتى إلى دلالتها على البعث والنشور.

* ففي ظلال قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف: { وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ } [سورة الكهف:٢١] ، يقول سيد– رحمه الله –: " إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثلٍ واقعيٍ قريبٍ محسوسٍ، يقرب إلى الناس قضية البعث، فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق، وأن الساعة لا ريب فيها.. وعلى هذا النحو بعث الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم" [2].

*وفي ظلال قوله تعالى في قصة بنى إسرائيل: { فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [سورة البقرة:٧٣] ، يقول سيد –رحمه الله –: " وهنا نصل إلى

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٦٠-٣٣٦١ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٢٦٤ .

الجانب الثاني من جوانب القصة، جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة،... إنها مجرد وسيلة تكشف لهم عن قدرة الله التي لا يعرف البشر كيف تعمل، فهم يشاهدون أثارها ولا يدركون كنهها {كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ }كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع، وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر" (١).

*ومن ذلك قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، قال سبحانه وتعالى: { أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ } [سورة البقرة:٢٥٩] ، " فهذا القائل يعرف أن الله هناك، ولكن مشهد البلى جعله يحار كيف تدب الحياة في هذا الموات؟ لم يقل له كيف، إنما أراه في عالم الواقع كيف! " فأماته الله مائة

(١) في ظلال القرآن ١/٧٩-٨٠ بتصرف .

عام ثم بعثه " فالمشاعر تكون أحياناً من العمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي والمنطق الوجداني، ولا بالواقع العام الذي يراه العيان، إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس ويطمئن بها القلب، دون كلام! فأدرك كيف يحي الله الموتى " فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير" (١).

* ومثل هذا قصة سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيف يحي الله الموتى، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة البقرة:٢٦٠] ، " وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع من إبراهيم –عليه السلام– ومنحه التجربة الذاتية المباشرة " (٢).

الدليل الخامس: تنزه الله عن العبث:

إن الذين ينكرون البعث ويرونه أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء، إنما غفلوا – كما سبق – عن معجزة الحياة

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩٩/١-٣٠٠ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣٠٢/١ .

الأولى، وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية التي لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقاتهم، وكذلك غفلوا عن حكمة الله في البعث، فهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه، فالناس يختلفون حول الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه هذه الأرض لإن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل، وألا يحل بهم عذابه في هذه الدار حتى يتم الجزاء في الآخرة، ويبلغ كل أمر تمامه هناك " (١).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فان الحياة الإنسانية التي نشأت من الأرض لا تنتهي في الأرض، لأن عنصراً غير أرضي قد امتزج بها، وتدخل في خط سيرها، ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيواني، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة، وجعلت كمالها الحقيقي لا يتم في هذه الأرض، ولا في هذه الحياة الدنيا، إنما يتم هنالك في مرحلة جديدة وفي الحياة الآخرى...

فالذين ينكرون البعث لا يدركوا حكمة الحياة الكبرى، ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض، فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا، والشر كذلك، إنما يستكملان هذا الجزاء

---

(١) المصدر السابق ٤/٢١٧١-٢١٧٢ بتصرف يسير .

هنالك، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى، التي لا خوف فيها ولا نصب، ولا تحول فيها ولا تعب، ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك الحياة السفلية ويرتدون فيها أحجاراً أو كالأحجار! " (١).

" فالبعث في الآخرة ضرورة للنشأة الإنسانية لتستكمل حسابها، وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا، فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحداً من الناس، فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله سبحانه وتعالى " (٢).

" ولقد كانت الحياة في نظر المنكرين حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية، أرحام تدفع وقبور تبلع وبين هاتين لهو ولعب، وزينة وتفاخر، ومتاع قريب من متاع الحيوان، فأما أن يكون هناك ناموس وراءه هدف، ووراء الهدف حكمة، ووجود لإنسان إلى الدنيا وفق قدر يجري إلى غاية وينتهي إلى حساب، فلم يكن في تصورهم ومداركهم "(٣)

ولهذا كان الرد الإلهي على من ينكر البعث { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٤٦٠، ٢٤٦٧ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٦/٣٧٢٩ .

(٣) المصدر السابق ٦/٣٧٧٣-٣٧٧٤ بتصرف .

خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ } [سورة المؤمنون:١١٥-١١٦] ، بهذا التعقيب ينهي القرآن الكريم الجدل مع المشركين حول إنكارهم البعث، فحكمة البعث من حكمة الخلق، محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها، وما البعث إلا حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تمامها، ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى، وهي متجلية في صفحات الكون والوجود " (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٤٨٢ .

المطلب الثالث

الحشر والقيامة

<u>الحشر في اللغة بمعنى</u>: الحشد أي الجمع، ومنه قوله تعالى: { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى} [سورة طه:٥٩] ، ويغلب استعمال الحشر للجمع مع السوق [١].

<u>أما في الاصطلاح الشرعي</u>: فالحشر يعني: جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم [٢].

وحشر الناس والخلائق وجمعهم ليوم الفصل يكون بعد البعث، وقد سبق معنا أن سيد قطب –رحمه الله– يرى أن يوم القيامة يبدأ بنفخة الصعق والفزع، التي تقضي على كل حي – إلا من شاء الله – ثم تأتي نفخة البعث والنشور والخروج من القبور، ثم تأتي نفخة الحشر والتجميع والسوق للحساب والجزاء، ويصاحب ذلك أحداثاً وأهوالاً عظاماً.

وقد قرر القرآن الكريم تلك الإحداث والأهوال في كثير من الآيات، وكلها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه ونجومه، وانقلاب في

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦٦/٢ .

(٢) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١١٥ .

أوضاعه وأشكاله وارتباطاته، تكون بها نهاية هذا العالم، وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك، وقد جاء استعراض مظاهر من هذا الانقلاب في سور متعددة مثل:

* قوله تعالى: {إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير: ١-١٤] .

* وقوله تعالى: {إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [سورة الانفطار: ١- ٥] .

* وقوله تعالى: {إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [سورة الانشقاق: الآيات ١-٥] .

* وقوله تعالى: { فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ } [سورة الرحمن: ٣٧] .

* وقوله تعالى: { فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ } [سورة الحاقة:١٣-١٧] .

* وقوله تعالى: { يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ } [سورة المعارج:٨-٩] .

*وقوله تعالى: { يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ } [سورة القارعة:٤- ٥] .

* وقوله تعالى: { فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ } [سورة القيامة:٧-٩] .

* وقوله تعالى: { وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا } [سورة طه:١٠٥-١٠٧] .

*وقوله تعالى: { يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ } [سورة إبراهيم:٤٨]

* وقوله تعالى: { يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ } [سورة

الأنبياء:١٠٤] .

* وقوله تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا } [سورة الفرقان:٢٥] .

وغيرها من الآيات التي تصور أهوال القيامة وأحداثها الكونية، وتتبئ بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة، ترج فيها الأرض وتدك، وتنسف فيها الجبال، وتتفجر فيها البحار.. وتطمس فيها النجوم وتتكور، وتشقق السماء وتنفطر، وتتحطم الكواكب وتنتثر، وتختل فيها المسافات فيجمع الشمس والقمر، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة ملتهبة حمراء.. إلى آخر هذا الهول الكوني الرهيب.

وقد استعرض سيد – رحمه الله – مظاهر هذا اليوم في كتابه " مشاهد القيامة في القرآن الكريم " وأيضاً في ظلال الآيات التي تتحدث عن أهوال وأحداث يوم القيامة في القرآن الكريم موضحاً إيحاءات تلك الآيات والأحداث وظلالها التي تطبعها على الحس وهو يطالعها ويتخيلها. (١)

وفي ظل هذه الأحداث والمشاهد العنيفة والمروعة، يبعث

---

(١) ينظر في ذلك : مشاهد القيامة في القرآن كاملاً ،وفي ظلال القرآن ٢١١٣/٤ ، ٢٣٥٢، ٢٣٩٩ ، ٣٤٢٩/٦ ، ٣٤٥٦ ، ٣٦٧٩ ، ٣٦٧٩ ، ٣٧٥٥ ، ٣٧٩٢ ، ٣٨٠٠ ، ٣٨١٢ ، ٣٨٣٦، ٣٨٤٥ ، ٣٨٦٤ ، ٣٩٥٤ ، ٣٩٥٧، ٣٩٦٠

الناس من القبور ويحشرهم إلى أرض المحشر مع بقية الخلائق ليكون الحساب والجزاء " وتنصت الجموع المحشودة، وتخفت كل حركة وكل نأمة، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يتلفتون ولا يتخلفون.. ويخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر: { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } [سورة طه:١٠٨] ، ويخيم الجلال على الموقف كله، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع، فالكلام همس، والسؤال تخافت، والخشوع ضاف، والوجوه عانية، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله، والعلم كله لله، وهم لا يحيطون به علماً، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة، والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات " (١).

" ونقف أمام المشهد المرهوب يوم القيامة، نتملى ما وراءه من الهول المذهل الذي ينطبع في النفوس ويصبح هم كل واحدٍ نفسه، فقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج وحبس النفوس على همومها " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٥٢/٤ .

(٢) المصدر السابق ٦٣٩٧/٥ بتصرف .

* " أما أحوال الناس يوم الحشر فأنهم ينقسمون إلى أصناف ثلاثة " (١) كما قال سبحانه وتعالى: { وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } [سورة الواقعة:٧-١١] .

- **فالصنف الأول: الكفار** وحالهم كما ذكره الله في كثير من الآيات القرآنية أنهم يحشرون في ذلة سود الوجوه كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً، زرقاً مبلسون، نادمون، خاشعة أبصارهم مهطعين مقنعي الرؤوس لا يرتد إليهم طرفهم و أفئدتهم هواء، عمياً وبكماً وصماً، يتلاومون فيما بينهم، ينادى على رؤوسهم: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } (٢).

وقد وقف سيد – رحمه الله – في ظلال الآيات التي تتحدث عن حال الكفار يوم القيامة وقفات عديدة بين فيها ما تدل عليه الآيات من أحوال وصفات في ذلك الموقف الرهيب. (٣)

---

(١) المصدر السابق ٣٤٩٣/٦ .

(٢) ينظر الآيات : يونس ٢٧ ، الروم ١٢ ، المعارج ٤٤ ، السجدة ١٤ ، إبراهيم ٤٣ ، عبس ٤٠-٤١ ، طه ١٠٢ ، هود ١٨

(٣) ينظر كلامه : في ظلال القرآن ١٧٧٦/٣ ، ٢١١١/٤-٢١١٣ ، ٢٣٥٢ ، ٢٧٦١/٥، ٢٨١١ ، ٣٦٩٧/٦، ٣٨٣٤ .

<u>الصنف الثاني: عصاة الموحدين:</u>

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم حال عصاة الموحدين الذين ماتوا على الذنوب والكبائر من غير توبة، و أنهم يحشرون يوم القيامة ويطالهم عذاب ذلك اليوم وشدته، وخاصة أصحاب بعض الذنوب كمنع الزكاة، وكنز العلم، والغلول، ونحوها مما جاءت النصوص بعذاب أصحابها يوم القيامة، حتى يروا سبيلهم أما إلى الجنة أو إلى النار.

<u>الصنف الثالث: الصالحون الأتقياء</u>

وهؤلاء كما أخبر ربنا –جل وعلا– عنهم في آيات كثيرة أنهم يحشرون، بيض الوجوه، لا يحزنهم الفزع الأكبر، كما في قول تعالى: { وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ } [سورة الزمر:٦١] ، وقوله تعالى: { لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ } [سورة الأنبياء:١٠٣] ، وقوله تعالى: { وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ } [سورة عبس:٣٨-٣٩] ، فهي مستنيرة متهللة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها، أو هي قد عرفت مصيرها، وتبين لها مكانها، فتهللت واستبشرت [١].

(١) في ظلال القرآن ٣٠٥٩/٥ ، ٣٨٣٤/٦ بتصرف .

المطلب الرابع

الشفاعة

الشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة [1]، والشفاعة في الآخرة على قسمين:

١- **شفاعة عامة:** يشفع فيها الملائكة والأنبياء والمؤمنون، للموحدين أصحاب المعاصي في أن لا يدخلون النار أو في إخراج من دخلها.

٢- **شفاعة خاصة:** وهي شفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف عند الله ليقضي بينهم ويبدأ الحساب، وكذا شفاعته في دخول أهل الجنة الجنة [2].

والشفاعة يوم القيامة تبدأ بالشفاعة العظمى، وتكون بعد الحشر، وذلك لأن الله تعالى يحشر الخلق إلى أرض المحشر حفاة عراة غرلاً، وتدنوا الشمس من رؤوسهم بمقدار ميل، ويغرقهم العرق، ويصبح الناس في عذاب وهم لا يطاق، فعند ذلك يفزعون إلى الأنبياء والمرسلين حتى يشفعون عند الله ليبدأ الحساب، أما الشفاعات الأخرى فهي متأخرة فبعضها بعد

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٩ .

الحساب، وبعضها بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار [١].

أما موقف سيد – رحمه الله – من الشفاعة، فقد تلكم كلاماً عاماً في ظلال الآيات القرآنية التي تتحدث عن الشفاعة، مبيناً انحراف تصور المشركين للشفاعة، وكذا الشفاعة المثبتة وشروطها، ولم يتعرض لأنواع الشفاعات، لأن حدثيه كان حول الآيات القرآنية التي ذكرت فيها الشفاعة، بيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: الشفاعة المنفية: –

وردت آيات عديدة في القرآن الكريم فيها نفي للشفاعة ومن خلال استقراء تلك الآيات نجد أنها تقرر تفرد الله سبحانه وتعالى بالحكم والقضاء، وترد على ضلالات المشركين في اتخاذ الشركاء ليشفعوا لهم بزعمهم، وتصحح أوهامهم حول الشفاعة في الآخرة ومن ذلك:

١– نفي استحقاق الشفاعة بدون إيمان وعمل صالح: ومن الآيات في ذلك:

أ– قوله تعالى: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَـٰعَةٞۗ وَٱلۡكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ }

---

(١) اليوم الآخر في القرآن الكريم د.عبد المحسن المطيري ص ٢٨٣ .

[سورة البقرة:٢٥٤] حيث تدعو الآية إلى الفرصة التي إن أفلتت منهم فلن تعود.. فهي فرصة لو فوّتوها على أنفسهم، فليس بعدها بيع تربح فيه ولا صداقة أو شفاعة ترد عنهم عاقبة النكول والتقصير (١).

ب- قوله تعالى: { وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } [سورة البقرة:٤٨ ٠] ، حيث تقرر أنه لا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيماناً وعملاً صالحاً، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته (٢).

٢- نفي حصول الشفاعة ونفعها للكافرين بسبب كفرهم:

حيث صرحت الآيات بأن الشفاعة لا تنفع المشركين بسبب كفرهم وشركهم بالله ومن ذلك:

أ- قوله تعالى: { وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [سورة غافر:١٨] وقوله تعالى: { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ } [سورة

(١) في ظلال القرآن ٢٨٥ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٧٠ .

المدثر:٤٢-٤٨] ، " فقد قضي الأمر، وحق القول، وتقرر المصير، الذي يليق بالمجرمين المعترفين! وليس هناك من شفيع للمجرمين أصلاً، وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين" (١).

٣- نفي الشفاعة التي يثبتها المشركون ومن شابههم من أهل البدع:

يظن المنحرفون في باب الشفاعة أن بعض الخلق لهم من القدر عند الله ما يجعلهم يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض، فيقبل المشفوع إليه شفاعة الشافع لحاجته إليه رغبة أو رهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة، فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم ويستشفعون بها، ويقولون: هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم (٢).
وقد جاءت آيات كثيرة ترد على أوهام المشركين حول الشفاعة، ومن ذلك:

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧٦٢/٦ ، وينظر : ١١٢٩/٢ ، ٢٦٠٥/٥ ، ٢٧٦١ ، ٣٠٧٤ ، ٦/ ٣٧٦٢ .

(٢) اليوم الآخر في القرآن الكريم د.عبد المحسن المطيري ص ٢٩٤

* قولـه تعـالى: { أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [سـورة الزمـر:٤٣-٤٤] ، يقول سيد – رحمـه الله –: " وهـو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى! يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعاً، فهو الذي يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء، فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء؟! " (١).

" يعالج الأسطورة المعقدة التي كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد بقوله: { أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ } [سورة الزمر:٣] .

" فلقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض.. ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك. إنما

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠٥٥ .

كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه، ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها، ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ليست عبادة لها في ذاتها، إنما هي زلفى وقربى لله، كي تشفع لهم عنده، وتقربهم منه!

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها، إلى هذا التعقيد والتخريف، فلا الملائكة بنات الله، ولا الأصنام تماثيل للملائكة، ولا الله سبحانه يرضى بهذا الانحراف، ولا هو يقبل فيهم شفاعة، ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق! وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول، وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقرباً إلى الله بزعمهم وطلباً لشفاعتهم عنده، وهو سبحانه يحدد الطريق إليه، طريق التوحيد الخالص الذي لا يتلبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطوري العجيب! " إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار " فهم يكذبون على الله، يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه، ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده! وهم يكفرون بهذه العبادة، ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح

الصريح "(١).

" وقد كان المشركون يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله، لها مشاركة – عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله – في تسيير الأحداث والأقدار، كالملائكة " (٢). فنفى ذلك وقرر أنه " يومذاك لا أحد ممن يدعونهم أولاداً أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله، فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن به، ومن يشهد بالحق لا يشفع في من جحده وعاداه! " (٣).

٤- نفي الشفاعة التي لا تتوافر فيها الشروط:

حيث نفى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم كل شفاعة لا تتوافر فيها الشروط المعتبرة في الشفاعة المقبولة والمثبتة، والتي تتمثل في إذن الله سبحانه وتعالى للشافع، ورضاه عن الشافع وعن المشفوع فيه أيضاً وفي حدود معينة وهو ما يأتي بيانه في الفقرة الآتية:.

ثانياً: الشفاعة المثبتة وشروطها:

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٣٧/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٠٦٣/٢ .

(٣) المصدر السابق ٣٢٠٤/٥ ، وينظر أيضاً : ١١٤٩/٣ ، ٢٩٦٤/٥ ، ٣٤٠٩/٦ .

اثبت الله سبحانه وتعالى الشفاعة في الآخرة، لكنها شفاعة ليست من جنس شفاعة الدنيا . فالله سبحانه وتعالى- هو المتفرد وحده بالحكم والقضاء والملك " فالعبيد جميعاً يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية، لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع، الذي لا يقدم بين يدي ربه، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده، إلا بعد أن يؤذن له، فيخضع للإذن ويشفع في حدوده " (١).

شروط الشفاعة عند الله وهي:

١- **إذن الله بالشفاعة**: قال سبحانه: {مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ } [سورة البقرة:٢٥٥] ، وقال أيضاً: {مَامِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ} [سورة يونس:٣] ، وقال أيضاً: { وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ } [سورة النجم:٢٦] .

فالآيات تقررأنه " ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه "(٢) و" أنه لا يجرؤ أحد على الشفاعة إلا بعد أن يؤذن له، فيخضع للإذن ويشفع في حدوده " (٣). " فالشفاعة مرهونة بإذن الله..

---

(١) في ظلال القرآن ٢٨٨/١ .

(٢) في ظلال القرآن ١٠٩٩/٢

(٣) المصدر السابق ٢٨٨/١ .

وفقاً لتدبيره وتقريره، فلا الملائكة، ولا غيرها يملك الشفاعة إلا حين يأذن الله في شيء منها " (١).

٢- رضى الله عن الشافع:

قال سبحانه وتعالى: { يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } [سورة طه:١٠٩] ، " فلا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله " (٢).

٣- رضى الله عن المشفوع فيه:

قال سبحانه وتعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ } [سورة الأنبياء:٢٨] ، " فلا شفاعة إلا بعد الإذن، ولمن ارتضاه الله، ورضي أن تقبل الشفاعة فيه " (٣).

ثالثاً: شفاعة النبي ﷺ:

لم يتعرض سيد - رحمه الله - لأنواع الشفاعات الخاصة بالنبي ﷺ عدا الشفاعة العظمى حيث ذكر في ظلال قوله تعالى: { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا } [سورة الإسراء:٧٩] . " أن الله تعالى يأمر نبيه ﷺ بالصلاة

---

(١) المصدر السابق ١٧٦٣/٣ ، ٢٩٠٤/٥ ، ٣٤٠٩/٦ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٥٣/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٣٧٥/٤ ، وينظر : ١٠٩٩/٢ .

والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به، وهو مقام الشفاعة يوم القيامة كما في بعض الروايات " (١).

المطلب الخامس

العرض والحساب

اهتم القرآن الكريم كثيراً بقضية الحساب في الآخرة وخاصة في السور المكية، وبيّن أنه بعد الحشر الجامع يكون العرض الشامل والحساب، وأن الناس في ساحة العرض الهائلة يجثون على الركب متميزين أمةً أمة في ارتقاب الحساب المرهوب (٢).

وحال الناس كما قال سبحانه: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [سورة الحاقة:١٨] ، يقول سيد قطب: " فالكل مكشوف.. الجسد.. والنفس.. والضمير.. والعمل.. والمصير، تسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود، ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه! وتكون الفضيحة القاسية

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢٤٧/٤ مع الهامش .

(٢) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٢٢٤٧/٤ ، ٢٣١٧ ، ٣٢٣٣/٥ ، ٣٦٩٧/٦، ٣٦٨١، ٣٨٠١

على الملأ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع "[١]، ويبدأ الحساب بإيتاء الكتب وينتهي بالميزان وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: إيتاء الكتب:

يبدأ الحساب يوم القيامة بإيتاء الكتب، فقد ذكر الله في القرآن الكريم الحساب بعد إيتاء الكتب، قال سبحانه: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [سورة الانشقاق:٧-٨] ، فذكر إيتاء الكتب أولاً ثم التعقيب بحرف الفاء – الذي يقتضي الترتيب والتعقيب، ثم ذكر الحساب.

ومن تمام عدل الله تعالى أن وكل مع كل إنسان ملائكة يكتبون عليه كل شيء كما في قوله سبحانه: { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ } [سورة يس:١٢] ، وقوله سبحانه: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الانفطار: ١٠-١٢] ، فإذا كان يوم القيامة نشرت الصحف كما قال سبحانه: {وَإِذَا ٱلصُّحُفُ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٢٦٨٠ بتصرف .

نُشِرَتۡ } [سورة التكوير:١٠] وتطايرت فيأخذ كل واحد كتابه ليقرأه كما قال سبحانه: { وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا } [سورة الإسراء:١٣-١٤] .

وهذا الكتاب في غاية الدقة، فلا يترك صغيراً ولا كبيراً إلا أحصاه، قال سبحانه: { وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا } [سورة الكهف:٤٩] وقوله تعالى: { وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ } [سورة القمر:٥٢-٥٣]

فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه، وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، قال سبحانه { فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ } [سورة الحاقة:١٩- ٢٩] وقال أيضاً { فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ

كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا} [سورة الانشقاق:٧-١٢] .

يقول سيد – رحمه الله –: " وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، وقد يكون تمثيلاً لغوياً جارياً على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال أو من وراء الظهر، وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد، وهو لا يستدعي جدلاً يضيع فيه جلال الموقف! " (١)، " والذي ألفناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال، أما الصورة التالية وهي إعطاء الكتاب من وراء الظهر، فليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره، فهي هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة، وكذلك لا ندري حقيقة الكتاب وكيفية إيتائه باليمين أو بالشمال ومن وراء الظهر، إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول، وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني، وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما..

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦٨١/٦ .

والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف يكون! " [(١)].

وبعد أن يأخذ الناس كتبهم يقرأونها ويعرفون ما فيها ويبدأ الحساب والسؤال والتقرير، فأما المؤمن الذي يؤتى كتابه بيمينه فهو المرضي السعيد، وهو يحاسب حساباً يسيراً، فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب، والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ وفيها غناء " [(٢)].

" فينطلق في فرحة غامرة، بين الجموع الحاشدة، تملأ الفرحة جوانحه، وتغلبه على لسانه، فيهتف {هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ}، ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناجٍ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب " ومن نوقش الحساب عذب " كما جاء في الأثر: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: " من نوقش الحساب عذب " فقلت: أليس يقول الله تعالى " فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً " فقال: " إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك " [(٣)].

---

(١) المصدر السابق ٣٨٦٧/٦ .

(٢) المصدر السابق ٣٨٦٧/٦ .

(٣) رواه : البخاري في الرقاق باب من نوقش الحساب عذب ٢٣٩٤/٥ برقم ٦١٧١، ٦١٧٢ .

وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: " يدني الله العبد يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين " (١)، (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: " اللهم حاسبني حساباً يسيراً "، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: " أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك " (٣).

فهذا هو حال المؤمن حساب ثم ينجو وينقلب إلى أهله في الجنة مسروراً " (٤).

---

(١) رواه : البخاري في المظالم ٨٦٢/٣ برقم ٢٣٠٩ ، ومسلم في التوبة باب قبول توبة القاتل ١٦٨٥/٤برقم ٢٧٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٦٨١/٦ بتصرف يسير .

(٣) رواه : أحمد ٤٨/٦ ، وصححه دون قوله " اللهم حاسبني حساباً يسيرا " فهي زيادة منكرة ، وقصة الحديث في الصحيحين ، انظر:مسند أحمد لمحقق الأرناؤوط ٢٦٠/٤٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٣٨٦٧/٦ .

وأما التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً في المعصية والإثم والضلال، فيأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره، ويعرف نهايته ومصيره، فيدرك أنه العناء الطويل بلا توقف فيدعو ثبوراً، وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء، وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به، يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه، حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه، وهذا هو المعنى الذي أراده الشاعر وهو يقول: كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً... وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا (١).

فهي التعاسة والشقاء الذي ليس بعدهما تعاسة ولا شقاء! " (٢).

<u>ثانياً: الاستجواب والشهادة:</u>

بعد أخذ الكتب يكون الاستجواب والشهادة، ومن عدل الله تعالى أن يقيم الحجة على الجميع قبل المؤاخذة، ولهذا ضرب موعداً للفصل بين الخلق يوم القيامة، وهو الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر، يقول سيد – رحمه الله –: " فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة، فالرسل قد أقتت لهذا اليوم

---

(١) البيت للمتنبي ، انظر: ديوان المتنبي ، دار صادر بيروت ط٢١ عام ١٩٨٥م ص ٢٨٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٨٦٧/٦-٣٨٦٨ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً ٣٦٨٢/٦ .

وضرب لها الموعد هناك لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم.. للفصل في جميع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية، والقضاء بحكم الله فيها، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون " (١).

يقول سبحانه وتعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ} [سورة المائدة:١٠٩] " حيث يجمع الله الرسل الذين فرقهم في الزمان فتتابعوا على مداره، وفرقهم في المكان فذهب كل إلى قريته، وفرقهم في الأجناس فمضى كل إلى قومه.. يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام، حتى جاء خاتمهم ﷺ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان...

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام، في شتى الأمكنة والأزمان ها هو ذا مرسلهم فرادى، يجمعهم جميعاً، ويجمع فيهم شتى الاستجابات، وشتى الاتجاهات، وها هم أولاء.. نقباء البشرية في حياتها الدنيا، ومعهم رسالات الله إلى البشرية في شتى أرجائها، ووراءهم استجابات البشرية في شتى أعصارها، هؤلاء هم أمام الله رب البشرية – سبحانه – في مشهد يوم عظيم.. تجمع فيه

(١) في ظلال القرآن ٣٧٩٢/٦ .

الحصيلة، ويضم الشتات، ويقدم الرسل حساب الرسالات، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد " ماذا أجبتم؟ " والرسل بشر من البشر، لهم علم ما حضر، وليس لديهم علم ما استتر لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى، فاستجاب منهم من استجاب، وتولى منهم من تولى وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى، فإنما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف، والذي يهابونه أشد من يهاب، والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير.

إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم، على مشهد من الملأ الأعلى، وعلى مشهد من الناس أجمعين، الاستجواب الذي يراد به المواجهة.. مواجهة البشرية برسلها، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم، ليعلن في موقف الإعلان، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله، وها هم أولاء مسؤولون بين يديه – سبحانه – عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون " (١)، ويتوجه السؤال إلى المكذبين: { وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٩٩٦-٩٩٧ .

مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ } [سورة القصص:٦٥-٦٦] ، { وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ... } [سورة القصص:٦٢ ٧٤] .

" وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين، ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل، والخزي والفضيحة على رؤوس الإشهاد ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال، فليس المقصود به هو الجواب " (١).

وبعد المواجهة بين الرسل والأمم تكون الشهود، والشهود يوم القيامة هم الله سبحانه وتعالى والملائكة والأنبياء، والمؤمنون والأرض والأعضاء.

* **أما الله تعالى فهو خير الشاهدين** كما قال سبحانه: {قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ } [سورة الأنعام:١٩] *__وإما شهادة الملائكة يوم القيامة__ فيقول سبحانه: { وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ } [سورة ق:٢١] ، " كل نفس معها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها، قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا، وقد يكونان غيرهما والأول أرجح، وهو مشهد أشبه شيء بالسوق

(١) في ظلال القرآن ٢٧٠٦/٥ بتصرف .

للمحاكمة، ولكن بين يدي الجبار" (١)

* **<u>وأما شهادة الأنبياء</u>** فقد جاءت في آيات كثيرة منها:

- قوله تعالى: { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [سورة النحل:٨٤]

- وقوله تعالى: { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ } [سورة النحل:٨٩]

- وقوله تعالى: { وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا... } [سورة القصص:٧٥]

- وقوله تعالى: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا } [سورة النساء:٤١]

- وقوله تعالى عن عيسى - عليه السلام -: {وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } [سورة النساء:١٥٩]

فهذه الآيات وغيرها تقرر شهادة الأنبياء على أقوامهم بما أجابوه وما استقبلوا به رسالته، وتوضح موقف الشهداء من الأنبياء وهم يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب وهو عام لكل الرسل، فالشهيد على

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٦٤ .

كل أمة هو نبيها الذي يشهد عليها (1).

* **أما شهادة المؤمنين** فيقول سبحانه { وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ } [سورة البقرة:143] . ويقول سبحانه: { وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ } [سورة هود:18] .

يقول سيد – رحمه الله –: " والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون، أو هم الناس أجمعون " (2).

* **وأما شهادة الأعضاء**، فيقول سبحانه: {يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ } [سورة النور:24]

– ويقول سبحانه { ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ } [سورة يس:65] – ويقول سبحانه: { حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ

---

(1) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن 131/1 ، 662/2، 803 ،2187/4، 2188، 2709/5 .

(2) في ظلال القرآن : 1867/3 .

تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ } [سورة فصلت: ٢٠-٢٣] .

فشهادة الأعضاء في سياق الآيات خاصة بأعداء الله من الكفار والمشركين الذين يناقشون الحساب وينكرون الكتاب ولا يقبلون الشهود إلا من أنفسهم، فتكون أعضائهم هي الشهود عليهم.

يقول سيد – رحمه الله –: " ويحشر أعداء الله كالقطيع! إلى النار حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب، إن ألسنتهم معقودة لا تنطق، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سراً، فقد يستترون من الله ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم، ويتخفون بجرائمهم، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم، وكيف وهي معهم؟ بل كيف وهي أعضائهم؟! وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين، وعن الله رب العالمين... وتأخذهم المفاجئة " وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ "، فإذا هي تجبههم بالحقيقة التي خفيت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة: " قالوا: أنطقنا الله

الذي أنطق كل شيء "، وقد أنطق كل شيء فهو يتحدث وينطق ويبين " (١).

ثالثاً: قواعد الحساب يوم القيامة:

أشار القرآن الكريم إلى عدد من القواعد التي يتم وفقها حساب الله تعالى للعباد، ومنها:

١- العدل التام والدقة في الحساب:

حيث يقرر الله تعالى أن الحساب في الآخرة يقوم على مبدأ العدل التام، فلا ظلم ولا بخس، قال سبحانه: { وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ} [سورة الأنبياء:٤٧] .

وقال سبحانه: { فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [سورة يس:٥٤] ، وقال سبحانه: {وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } (٢).

" فلا غبن ولا ضير ولا بخس في الحساب الختامي "، " ولا

---

(١) في ظلال القرآن ٣١١٨/٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضاً ٢٩٧٣/٥ .

(٢) سورة النساء : الآية ٧٧ ، وقد ورد نفي الظلم في ذلك اليوم في القرآن الكريم في احد عشر موضعاً من القرآن الكريم ، ينظر : اليوم الآخر في القرآن والسنة ، د.عبد المحسن المطيري ص ٣٢٣-٣٢٤ .

مجال للمغالطة في الوزن، ولا التلبيس في الحكم، ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين "، " فكل شيء مسجل لا يبدل، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ولا يظلم أحد، فالمجازي هو الحكم العدل "، " وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله وقدرته، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه قوله تعالى: {إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان:١٦] "[١].

٢- فردية الحساب:

فكل شخص مسئول عن نفسه، لا يتحمل أحد ذنب أحد، ولا يحاسب أحد عن أخطاء أحد فلا تزر وازرة وزر أخرى: يقول سبحانه: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}[٢].

" فكل مجزيٌ بذنبه لا يحمله عنه غيره "[٣]، " فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه، إن اهتدى فلها، وإن ضل فعليها، وما من نفس تحمل وزر أخرى، وما من أحد يخفف حمل أحد، إنما

(١) في ظلال القرآن ٧١٦/٢ ، ١٢٦١/٣ ، ٢٣١٩/٤ ، ٢٧٨٨/٥ ، ٣٣٦٥/٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٦٤ ، سورة الإسراء ١٥ ، سورة فاطر : الآية ١٨ .

(٣) في ظلال القرآن ١٢٤١/٣ .

يسأل كل عن عمله، ويجزي كل بعمله ولا يسأل حميم حميما " [١].

- وفي قوله تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [سورة فاطر:١٨] ، " لمسة أخرى بحقيقة فردية التبعة، والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً، فما بالنبي ﷺ من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه، فهو محاسب على عمله وحده، كما أن كلاً منهم محاسب على ما كسبت يداه، يحمل حمله وحده، لا يعينه أحد عليه...

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي، وفي السلوك العملي سواء. فشعور كل فرد بأنه مجزيٌّ بعمله، لا يؤاخذ بكسب غيره، ولا يتخلص هو من كسبه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً.. إن الله - سبحانه- لا يحاسب الناس جملة بالقائمة! إنما يحاسبهم فرداً فرداً كل على عمله، وفي

---

(١) المصدر السابق ٢٢١٧/٤ .

حدود واجبه " (١).

ويدخل في عمل الإنسان الذي يحاسب عليه إضلاله لغيره من الناس، كما قال سبحانه: { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [سورة العنكبوت:١٣] ، " فهم يحملون وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم، ووزر إضلالهم للآخرين دون أن يعفي هؤلاء من تبعة الضلال " (٢).

٣- إطلاع العباد على أعمالهم إعذاراً لهم ومحاسبتهم عليها.

من تمام عدل الله وحكمته أن يطلع الخلق على ما قدموه من أعمال من خلال إعطائهم كتبهم التي أحصت تلك الأعمال، قال سبحانه: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } [سورة آل عمران:٣٠] ، ويقول سبحانه: { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [سورة الكهف:٤٩] .

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩٣٨/٥ بتصرف يسير ، وينظر ٢٧٢٤/٥ ، ٣٤١٤/٦- ٣٤١٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٧٢٤/٥ .

يقول سيد – رحمه الله –: " إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا؛ ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم، مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه، وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس.

فأما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله، فعلام يحاسبون في الآخرة؟

أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي كانوا يحكمون بها، ويتحاكمون إليها؟

أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحكمون بها، ولا يتحاكمون إليها؟

إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو، لا شريعة العباد، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ويقيموا معاملاتهم – كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم – وفق شريعة الله في الدنيا، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله، وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله – سبحانه – إلهاً في الأرض، ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة، وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله – أو الشرك به بإتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر، وإتباعهم شريعة غيره في

النظـام الاجتمـاعي والسياسـي والاقتصـادي، وفـي المعـاملات والارتباطـات – والله لا يغفـر أن يشـرك بـه ويغفـر مـا دون ذلـك لمن يشاء " (١)

٤–مضاعفة الحسنات دون السيئات، وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين:

وهذا من كمال فضل الله تعالى وعدله قال سبحانه: { مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [سورة الإنعام:١٦٠] وقـال سبحانه { مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا } [سورة غافر:٤٠] .

وقـــال ســـبحانه: { إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } [ســورة الفرقـان:٤٠] ، "ففـي هـذه وأمثالهـا يقـرر الله –سبحانه– قاعـدة الحساب والجزاء في الآخرة..

فقـد اقتضـى فضـل الله أن تضـاعف الحسـنات ولا تضـاعف السـيئات، رحمــة مـن الله بعبـاده، وتقـديراً لضـعفهم وللجـواذب والموانـع لهـم فـي طريـق الخيـر والاسـتقامة، فضـاعف لهـم الحسـنات، وجعلهـا كفـارة للسيئات فـإذا وصـلوا إلـى الجنـة بعد

(١) في ظلال القرآن ١١٢٣/٢ .

الحساب رزقهم الله فيها بغير حساب "[1]. " وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وثاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة.. وقد جاء في الحديث أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة، فهل له من توبة؟ فقال: " أسلمت؟ " فقال: نعم. قال: " فافعل الخيرات واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها " قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: " نعم ". فما زال يكبر حتى توارى ". [2]، [3].

<u>٥- إقامة الشهود على الناس.</u> وقد سبق

<u>٦- وزن الأعمال لإقامة الحجة</u>، وهو ما يأتي تفضيله في الفقرة القادمة.

<u>رابعاً: إقامة الموازين:</u>

<u>الموازين لغة:</u> جمع ميزان، والميزان المقدار، وأصله موزان، فقلبت الواو ياءً لكسرما قبلها فأصبحت ميزان، والميزان العدل [4]. وقيل: ما تقدر به الأشياء خفة وثقلاً [5].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠٨٢، ٣٠٨٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٦٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٥٧٩-٢٥٨٠ بتصرف .

(٤) لسان العرب ١٣/٤٤٨ بتصرف .

(٥) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٠ .

وشرعاً: هو ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد خيرها وشرها إظهاراً للعدل الإلهي (١).

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في عدة آيات من القرآن الكريم، وكذا في عدة أحاديث، *وأهل السنة والجماعة على أنه ميزان حقيقي له لسان وكفتان، يميل بالأعمال، *وذهب بعض أهل السنة إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، فقد روى عن مجاهد (٢) في قوله تعالى: { وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ } [سورة الأنبياء:٤٧] قال: إنما هو مثل كما يجوز وزن الإعمال كذلك يجوز الحط وفي رواية عنه: قال: الموازين العدل، والراجح ما ذهب إليه الجمهور (٣).

قال الحافظ ابن حجر: " وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالت هو عبارة عن العدل.. بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها،

---

(١) السنة لابن أبي عاصم ٣٦٣/٢ ، فتح الباري ٥٤٨/١٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ٦٠٨/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٠ .

(٢) هو : مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المخزومي مولاهم ،المكي ،تابعي ،ثقة ، إمام في التفسير ،أخذ التفسير عن ابن عباس ، توفي سنة ١٠٤هـ،انظر :سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٤ والأعلام ٢٧٨/٥ . .

(٣) فتح الباري ٥٣٨/١٣-٥٣٩ ، وينظر أيضاً : شرح العقيدة الطحاوية ٦١٠/٢ ، التذكرة للقرطبي ١٢/٢ .

إذ لا تقوم بأنفسها " (١).

أما سيد – رحمه الله – فالذي يظهر من خلال استقراء كلامه في التصور الفني وفي ظلال بعض الآيات التي تتحدث عن الموازين والوزن في ظلال القرآن أنه يرى: " أن عملية الوزن بالميزان تجري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وتجسيم المعاني في صورة حسية ومشاهد ذات حركة " (٢).

يقول: " وثقل الموازين وخفتها تفيدنا قيماً لها عند الله اعتبار، وقيماً ليس لها عنده اعتبار، وهذا ما يلقيه التعبير بجملته، وهذا– والله أعلم –ما يريده الله بكلماته، فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام!

فمن ثقلت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فهو في عيشة راضية، ومن خفت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فأمه هاوية " (٣).

ويقول: " فالوزن يومئذٍ الحق، لا مجال للمغالطة في الوزن

---

(١) فتح الباري، ٥٣٨/١٣ .

(٢) التصوير الفني ص ٧١ ، في ظلال القرآن ٢٤٨١/٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٦١/٦ .

والتلبيس في الحكم، والجدل الذي يذهب بصحة الموازين " [(١)].

فهو فيما سبق من النصوص يرى أن الموازين هي عدل الله، وأن وزن أفعال العباد من أفعال الله وبالتالي فهو يقرر في موضع أخر بأن " لا ندخل في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان – كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر" الإسلامي"!.. فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل، منذ كان الله سبحانه ليس كمثله شيء.. وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق، من أن الحساب يومئذ بالحق، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة، وأن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع " [(٢)].

وهو بهذا موافق لرأي المعتزلة وبعض السلف كمجاهد في أن الوزن والموازين مثل للعدل الإلهي – كما سبق – وهو خلاف ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة من أنه ميزان حقيقي، [(٣)].

ووجدت أيضاً كلاماً لسيد قطب – رحمه الله – ظاهره أنه

---

(١) المصدر السابق ١٢٦١/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١٢٦١/٣ ، وينظر أيضاً : ٢٢٩٥/٤ .

(٣) ينظر: أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب د. ربيع المدخلي ص ١٨٠ وما بعدها .

يثبت الميزان وهو قوله: " والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العيون، وأخفه في الميزان وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع، والميزان يشيل بها أو يميل.. وهم – أي الكفار – وإن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة تعد موازينه فلا تظلم نفس شيئاً ولا يهمل مثقال حبة من خردل " (١).

ويقول: " وفضل الله يتجلى به على عباده المتقين، يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم ويجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح في الميزان " (٢)، " ويبلغ فضل الله سبحانه وتعالى وفيضه على عبده المؤمن، أنه إذا قال: الحمد لله كتبها له حسنة ترجح كل الموازين " (٣).

ويقول: " إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة، إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء " (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٨١/٤ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٥١/٥ .

(٣) المصدر السابق ٢٢/١ .

(٤)المصدر السابق ١٤٦/١ .

المطلب السادس

الحوض والصراط

أولاً: الحوض:

الحوض في اللغة: هو مجمع الماء (١)

وشرعاً: هو حوض الماء النازل من الكوثر، والذي أعطيه النبي ﷺ في عرصات القيامة (٢).

فالحوض غير الكوثر ولكنه وثيق الصلة به، حيث يطلق عليه أحياناً كوثر، لكونه يمد منه (٣).

ولم أجد سيد – رحمه الله – تعرض لتفاصيل الحوض، وإنما أشار في ظلال قوله تعالى: {إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ} [سورة الكوثر: ١] ، إلى أن الكوثر: صيغة من الكثرة، وهو مطلق غير محدد، على عكس ما أطلقه السفهاء عن النبي ﷺ وإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ فهو واجده حيثما نظر أو تصور.

هو واجده في النبوة.. وواجده في هذا القرآن الكريم، وسورة

---

(١) لسان العرب ١٤١/٧ .

(٢) فتح الباري ٤٦٦/١١ ، شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٣ .

(٣) فتح الباري ٤٦٧/١١ .

واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته، وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه.. وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون، وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره.. الهاتفة باسمه، المحبة له، وهو واجده في الخير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه ﷺ، ولهذا تركه النص بلا تحديد...

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله ﷺ ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول، فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق " (١).

ثانياً: الصرط:

الصراط في اللغة: الطريق (٢).

وشرعاً: الجسر المنصوب على متن جهنم لعبور المسلمين عليه الى الجنة " (٣).

والمفسرون على أن المراد بالورد في قوله تعالى: { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } [سورة مريم: ٧١-٧٢] . هو:

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٨٨/٦ بتصرف يسير .

(٢) لسان العرب ٣٤٠/٧ .

(٣) فتح الباري لابن حجر ٤٤٦/١١ .

المرور على الصراط، وهو الجسر المنصوب على جهنم، فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون.

ويرى آخرون أن المراد بالورود الدخول. والأول هو الراجح (١).

لم يتعرض سيد – رحمه الله – لتفاصيل حول الصراط، ولكنه يقول في تفسير آية الورود: " وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب " وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً " فهم يردون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتميز وتتلمظ، ويرون العتاة ينزعون ويقذفون " ثم ننجي الذين اتقوا " فتزحزح عنهم وينجون منها لا يكادون! " ونذر الظالمين فيها جثيا " (٢).

ويقوله في ظلال قوله تعالى: { وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ } [سورة يس:٦٦] : "كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة، وأيديهم تتكلم وأرجلهم تشهد على غير ما يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون... ثم يعرض مشهداً أخر فيه من البلاء قدر ما فيه من السخرية والاستهزاء... فهم عميان مطموسون، ثم هم مع هذا العمى

---

(١) فتح الباري ١٤٨/١١ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٢١٨/٤ .

يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين " [(١)].

" ويجعل الله للمؤمنين نوراً " يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب، ونوراً يهتدون به في الزحام المريج، ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف!.. " [(٢)].

المطلب السابع

النــار وعذابها

ومن الإيمان باليوم الآخر أيضاً: الإيمان بوجود النار، وهي دار أعدها الله سبحانه وتعالى لأعدائه ولمن عصاه وخالفه، فهي دار العقوبة في الآخرة، وقد ورد ذكر النار وعذابها في كتاب الله كثيراً، وكذا في أحاديث النبي ﷺ.

وتحدث سيد- رحمه الله- عن النار وعذابها في ظلال الآيات التي ذكرت فيها النار وهي كثيرة جداً ويكننا بيان ذلك بإيجاز في ما يأتي:

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩٧٣/٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٣٦١٨/٦ وينظر أيضاً ٣٤٨٥/٦ .

١- أنها مخلوقة موجودة: قال سبحانه وتعالى {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا} [سورة النبأ:٢١-٢٢] يقول سيد: " إنها خلقت ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فإذا هي معدة لهم، مهيأة لاستقبالهم، وكأنما كانوا في رحلة في الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقاباً بعد أحقاب " (١).

وفي ظلال قوله تعالى: { إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ } [سورة الملك:٧-٨] ، يقول سيد - رحمه الله -: " وجهنم هنا مخلوقة حية، تكظم غيظها، فترتفع أنفاسها في شهيق وزفير، ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين!

والتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم، ولكنه - فيما نحس- يقرر حقيقة، فكل خليقة من خلائق الله حية ذات روح من نوعها، وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده، وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بربه، وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها، وهذه الحقيقة وردت في القرآن

---

(١) في ظلال القرآن ٣٨٠٧/٦ .

في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن: { تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [سورة الإسراء:٤٤] ، (١).

٢- صفاتها وعذابها:

ذكر القرآن الكريم لجهنم وصفاً مفصلاً في كثير من الآيات القرآنية وقد وقف سيد- رحمه الله- في ظلال تلك الآيات وقفات عديدة ومن كلامه في وصف النار: -

* يقول: " إنها نارٌ فظيعةٌ متسعرةٌ وقودها الناس والحجارة، الناس فيها كالحجارة سواء، في مهانة الحجارة وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة، دون اعتبار ولا عناية، وما أفظعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب، عليها ملائكة غلاظ شداد تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٦٣٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٦١٨ .

ويقول: " فهي حطمة تحطم كل ما يلقى فيها، وإضافتها إلى الله في قوله تعالى: { نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ } [سورة الهمزة:٦] وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة، غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة... مغلقة على أهلها، لا ينقذهم أحد ولا يسأل عنهم فيها أحد، وهم موثوقون فيها إلى الأعمدة كما توثق البهائم بلا احترام " (١).

ويقول: " إنها شيء أعظم و أهوال من الإدراك.. فهي {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ } [سورة المدثر:٢٨] ، تكنس كنساً، وتبلع بلعاً، وتمحو محواً، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء!

تتعرض للبشر وتلوح، وتدعو من أدبر وتولى، فهي تدل على نفسها، وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس، بمنظرها المخيف! " (٢)

ويقول: " وفي النار لأهلها {سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ } [سورة الواقعة:٤٢-٤٤] ، فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام، والماء متناه في الحرارة لا يُبرد

---

(١) في ظلال القرآن ٣٩٧٣/٦ بتصرف يسير .

(٢) في ظلال القرآن ٣٧٥٧/٦ بتصرف ،وينظر أيضاً ٣٦٩٨/٦ .

ولا يُروي، وهناك ظل! ولكنه { وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ } ظل الدخان اللافح الخانق، إنه ظل للسخرية والتهكم، ظل " لا بارد ولا كريم " فهو ظل ساخن لا روْح فيه ولا برد؛ وهو كذلك كز لا يمنح وارده راحة ولا إنعاشاً!...

طعامهم من زقوم شجرة طلعها كرؤوس الشياطين، ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقي في الحس ما تلقيه! ولفظ الزقوم نفسه يصور بجرسه ملمساً خشناً شائكاً مدبباً يشوك الأكف- بله الحلوق- ومع ذلك فإنهم لآكلون منها " فمالئون منها البطون " فالجوع طاغٍ والمحنة غالبة، وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق وري البطون! وإنهم لشاربون " من الحميم " الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ " فشاربون شرب الهيم " وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء! "هذا نزلهم يوم الدين ".. والنزل للراحة والاستقرار، ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار! بما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده " (١).

" وسعير النار يشوى الجلود وينضجها، وكلما نضجت بدلت، ليعود الاحتراق من جديد، ويعود الألم من جديد " (٢)، " لهم

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٦٥/٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٦٨٤/٢ بتصرف .

ظلل من النار من فوقهم وظلل من تحتهم، وهم في طبقات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم وهي من النار " (١)

" والأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون كما تسحب الأنعام والوحوش في العذاب والمهانة، ثم ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار ونار، يربطون ويحبسون فيه على طريقة سجر الكلاب أي يملأ لهم المكان ماءً حاراً وناراً موقدة وإلى هذا ينتهون " (٢).

٣-خلود النار وأهلها:

ما دامت النار هي دار الجزاء للكافرين، وما دام الله قد حكم على الكفار بالخلود في النار فهذا يقضي بقاء النار ودوامها كالجنة، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان وهو ما قررته الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة.

وقد قرر سيد – رحمه الله – خلود النار ودوامها وبقاءها في ظلال الآيات التي تتحدث عن خلود النار وأهلها وهي كثيرة جداً (٣).

---

(١) المصدر السابق ٣٠٤٥/٥ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٩٧/٥ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ١٥١/١ ، ٢٩٣ ، ٥٩٥ ، ٨١٣/٢، ٩٥٢ ، ١٢٠٧/٣ ، ١٢٨٨ ، ١٦١٤ ، ١٧٩٨ ، ١٩٢٩/٤ ، ٢٣٥٢ ، ٢٣٩٩ ، ٢٥٧٨/٥ ، ٢٨٨٣ ، ٣٠٦٢ ، ٣٢٩٢/٦ .

وبيّن أن الاستثناء الوارد في بعض الآيات إنما هو لبيان طلاقة المشيئة الإلهية، ففي ظلال قوله تعالى: {قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [سورة الأنعام:١٢٨] ، يقول سيد: " فالنار مثابةً ومأوى، والمثوى للإقامة، وهي إقامة الدوام " إلا ما شاء الله " لتبقى صورة المشيئة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي، فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور، والمشيئة لا تتحبس ولا تتقيد، ولا في مقرراتها هي " (١).

ويقول: "ومن خلال التعبير نشهد: " الذين شقوا " نشهدهم في النار مكروبي الأنفاس" لهم فيها زفير وشهيق " من الحر والكتمة والضيق، ونشهد " الذين سعدوا " نشهدهم في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع.

هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم " ما دامت السماوات والأرض " وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام والاستمرار، وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين، وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله في النهاية، فمشيئة الله هي التي اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها، إنما هي طليقة تبدل هذه السنة حين يشاء الله " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٠٧/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩٢٩/٤ .

المطلب الثامن

الجنة ونعيمها

من الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالجنة، وأنها حق لا ريب فيه، والجنة هي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين، المشتملة على أصناف النعيم والسرور، وقد أكثر الله تعالى من ذكر الجنة ونعيمها في كتابه الكريم (١)، وكذا جاءت أحاديث كثيرة تتحدث عن الجنة وما أعده الله فيها لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد تحدث سيد- رحمه الله- عن الجنة ونعيمها عند كل موضع ذكرت فيه في القرآن الكريم، ومن ذلك.

<u>١- أن دخول الجنة مقصور على المؤمنين، فلا يدخل الجنة كافر ولا مشرك:</u>

ففي ظلال قوله تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ } [سورة الأعراف:٤٠]، يقول سيد: "

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – دار الحديث – القاهرة طبعة ١٤٢٢هـ، ص ٢٢١-٢٢٣ .

ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب.. مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة، فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، فيقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أما الآن، وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا، وتلاوموا فيها وتلاعنوا " (١).

٢- أن دخول الجنة إنما هو برحمة الله: فالمؤمن يعمل ما في وسعه، ويشعر بالتقصير، ويرجو بعد ذلك ويتطلع إلى رحمة الله وعفوه بالعمل الصالح والإيمان وإتباع الرسول ﷺ و طاعة الله ورسوله، ففي ظلال قوله تعالى: {وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ} [سورة الأعراف:٤٣] . يقول سيد - رحمه الله -: " هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم، لا يكلفون إلا طاقتهم، هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم! إنهم أصحابها - بإذن الله وفضله - ورثها لهم - برحمته - بعملهم الصالح مع الإيمان.. جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم، وعصوا وسوسة العدو

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٩١/٣ ،وينظر أيضاً : ١٩٣/١ .

اللئيم القديم! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم – في حدود طاقتهم – وقد قال رسول الله ﷺ: " لن يُدْخِلَ أحداً منكم الجنة عمله " قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " (١).

وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن، وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى.. فكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين، إنما ثار عن الهوى! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا، فكتب على نفسه الرحمة، وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف، وكتب لهم به الجنة، فضلاً منه ورحمة، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة " (٢).

ويقول سيد: " ويعرف المؤمنون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل، فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده، ورغب فيما عند الله، وهذا هو المؤهل لفضل الله " (٣).

٣- سعة الجنة: وأما سعة الجنة فيقول سبحانه وتعالى: {

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١٢٩١/٣ ، وينظر أيضاً ٣٤٧/١ .

(٣) المصدر السابق ٣٣٩٧/٦ بتصرف يسير .

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} [سورة الحديد: ٢١] .

يقول سيد – رحمه الله –: " وربما كان بعضهم في الزمن الخالي – قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون – يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية، كذلك الحديث الذي أسلفنا عن أصحاب الغرف التي يتراءاها سكان الجنة كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب.. فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود، فإن الحديث عن عرض الجنة، والحديث عن تراءي الغرف من بعيد، يقع قطعاً موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقاً! فإن ما بين الأرض والشمس مثلاً لا يبلغ أن يكون شيئاً في أبعاد الكون يقاس! وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد، ويسابق إليه كل من يشاء، وعربونه: الإيمان بالله ورسوله "(١)

١– **نعيم الجنة:** أما حقيقة النعيم في الجنة وألوانه، فقد ذكر الله

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤٩٢ .

سبحانه تعالى في القرآن الكريم وذكر رسوله ﷺ من أنواع النعيم مالا يدرك الإنسان حقيقته في هذه الحياة، يقول سبحانه وتعالى: {وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [سورة البقرة:٢٥] .

يقول سيد – رحمه الله –: " وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها– إلى جانب الأزواج المطهرة– تلك الثمار المتشابهة، التي يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل – إما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم أو الشكل، وإما ثمار الجنة التي رزقوها من قبل – فربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة.. وهي ترسم جواً من الدعابة الحلوة، والرضى السابغ، والتفكه الجميل، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد!

وهذا التشابه في الشكل، والتنوع في المزية، سمة واضحة في صنعة البارئ تعالى، تجعل الوجود أكبر في حقيقته من مظهره " [١].

ويقول: " وهذا النعيم والمتاع الآخروي هو نعيم حسي في

---

(١) في ظلال القرآن ٤٩/١ .

عمومه، ولكن هنالك فارقاً أساسياً بينه وبين متاع الدنيا.. فالذين اتقوا ربهم يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة.. وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا.. وفيه زيادة..

فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثاً مُعطياً مخصباً، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار، وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها، لا كالحرث المحدود الميقات!

وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين، ففي الآخرة أزواج مطهرة، وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة!

فأما الخيل المسومة والأنعام، وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع، فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات!

ثم.. هنالك ما هو أكبر من كل متاع.. هنالك " رضوان من الله " رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما.. ويرجح.. رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان"(١).

---

(١) المصدر السابق ٣٧٥/١ .

" فالنعيم بلا منغصات وبدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة، وفيه قمة الكمال البشري.. وهذا كله في الجنة كما وصف القرآن الكريم نعيمها الكامل الشامل " (١).

ومن الآيات التي وصفت نعيم الجنة أيضاً: ما جاء في سورة الرحمن في الآيات (٤٦-٧٨)، وتبدأ بقوله تعالى: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ } والأظهر أنهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة، ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما.. فلنشهد الجنتين ولنعش فيهما لحظات:

* إنهما { ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ } وهي الأغصان الصغيرة الندية.

* { فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ } فماؤها غزير وسهل يسير.

* { فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ } ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة.

* " وأهل الجنتين ما حالهم؟ إننا ننظرهم: "{ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } وهو المخمل الحرير السميك، فكيف بظاهر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها؟

* { وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ } قريب دان، لا يتعب في قطاف.

ولكن هذا ليس كل ما فيها من رفاهية ومتاع، فهناك بقية بهيجة

(١) المصدر السابق ٣/١٧٦٤ بتصرف .

لهذا المتاع:

* ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ فهن عفيفات الشعور والنظر، لا تمتد إبصارهن إلى غير أصحابهن، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جان، وهن – بعد هذا – ناضرات لامعات " كأنهن الياقوت والمرجان " فهذا حال الجنتين الأوليين، ومن دونهما جنتان أوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين:

* ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيها من أعشاب.

* ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ بالماء وهو دون الجريان.

* ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ وهناك ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾

* ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ بسكون ياء ﴿ خَيْرَٰتٌ ﴾ أو بتشديدها على الوصف، وتأويلها

* ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾

فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك في

الصون والعفاف.

أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما:

* ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ وهي الأبسطة،

وكأنها من صنع "عبقر " لتقريب وصفها إلى العرب" (١).

والآيات في بيان نعيم الجنة وما فيها من لذات كثيرة جداً، ووقفات سيد – رحمه الله – في ظلالها متنوعة لا يسع المجال هنا لاستقصائها وعرضها، ونكتفي بما سبق الإشارة إلية " (٢).

٥- بقاء الجنة ودوامها: يقرر سيد – رحمه الله- أيضاً في ظلال الآيات التي تتحدث عن خلود الجنة وأهلها، أن الجنة لا تبيد ولا تفنى، بل هي باقية خالدة، خالدٌ فيها أهلها (٣).

أما الاستثناء الذي جاء في بعض الآيات كقوله تعالى: { خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ } [سورة هود:١٠٧] ، وقوله أيضاً: {وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [سورة هود:١٠٨] ، ونحوها فيرى سيد قطب: أنه يقرر طلاقة المشيئة الإلهية من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي، لتبقى

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٥٧/٦-٣٤٥٨ بتصرف يسير .

(٢) لمزيد من التوسع حول الموضوع ينظر : في ظلال القرآن ٣٣٩٧/٦، ٣٤٦٣ ، ٣٧٨١ ، ٣٩٥٣ .

(٣) ينظر كلامه : في ظلال القرآن في المواضع الآتية ٥٩٥/٢ ، ٨٦٤، ٧٦١ ، ٩٦٣ ، ١٠٠٢ ، ١٦١٤/٣، ١٧٠٦، ١٧٧٩ ، ١٨٦٨/٤ ، ١٩٢٩ ، ٢٢٩٥ ، ٢٣٤٣ ، ٢٣٩٩ ، ٢٤٥٧ ، ٢٥٥٥/٥، ٢٧٨٥ ، ٣٠٦٢ ، ٣٢٦٠/٦ ، ٣٣٦٥، ٣٤٦٤ ، ٣٦٠٦، ٣٩٥٣ .

واضحة، ويبقى تصورها غير مشوب، فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود وأهل النار كذلك، وهذا الوعد صادر من المشيئة، ولكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها باختيارها، فقال عن هؤلاء وهؤلاء {خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ} وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة " [1].

٦- رأي سيد قطب في الجنة التي كان فيها آدم -عليه السلام -:

تكلم سيد - رحمه الله - حول الجنة التي كان فيها آدم- عليه السلام- وزوجه قبل أن يهبطا إلى الأرض، وفي موضعين من الظلال، وتساءل بقوله: " ولكن أين كانوا؟ أين هي الجنة؟ هذا من الغيب الذي ليس عندنا نبأ عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب وحده، وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة " [2].

وقد ذكر د/ ربيع المدخلي " أن سيد - رحمه الله - خالف أهل السنة والجماعة وسار وراء مذهب المعتزلة والقدرية في هذا

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٧٩/٦ ، وينظر أيضاً ١٩٢٩/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٢٧٠/٣ وينظر أيضاً ٥٩/١ .

الرأي " [١]. وذكر الشيخ الدويش أيضاً في المورد الزلال " أن سيداً – رحمه الله – أخطأ في هذا، وبين أن الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه – عليهما السلام – هي جنة الخلد، لكونها عرفت بالألف واللام، وهي تفيد الجنة المتعارف عليها بين الخلق عندما يطلبونها، وكذا الحديث: " أن موسى قال لآدم أخرجتنا ونفسك من الجنة " [٢]، وحديث الشفاعة: " فيأتون إلى آدم – عليه السلام – فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة؟ فيقل هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم " [٣].

وكذا إجماع أهل السنة على أنها جنة الخلد، كما حكاه القرطبي في تفسيره وابن القيم في أول مفتاح دار السعادة " [٤].

وقد جاء في تقرير إدارة المطبوعات بالرئاسة العامة للبحوث العلمية والدعوة والإفتاء والإرشاد تعقيب على كلام الشيخ الدويش السابق حول ذكره الإجماع من أهل السنة على أنها جنة الخلد، حيث جاء فيه ذكر كلام ابن القيم، الذي بين فيه حجج القائلين بأنها جنة الخلد وحجج القائلين بأنها غيرها،

---

(١) أضواء على عقيدة سيد قطب د.ربيع المدخلي ص ١٣١ .

(٢) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء باب وفاة موسى ١٢٥١/٣ برقم ٣٢٢٨.

(٣) رواه : مسلم في كتاب الإيمان ١٥٩/١ برقم ١٩٥.

(٤) المورد الزلال للدويش ص١٠– ١١ .

وأطال فيه الكلام والنقل عن غير واحد من السلف، مما يدل على أنه لم يثبت الإجماع على أن الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه – عليهما السلام – هي جنة الخلد، وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير القولين وأطال الكلام حولهما. (١)

المطلب التاسع

رؤية الله تعالى

رؤية الله –تعالى– من أشرف وأجل مسائل أصول الدين، وهي الغاية التي شمرّ إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون (٢)

وقد زعمت الجهمية والمعتزلة أن الله –تعالى – لا يدرك ولن يدرك بشيء من الحواس الخمس(٣)،

ولذلك نفوا رؤية الله– تعالى –في الدنيا والآخرة (٤).

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون بجواز الرؤية في الدنيا عقلاً، ولكنها لم تقع لأحد قط لا نبي ولا غير نبي، ولم يختلفوا

---

(١) المورد الزلال للدويش ص ٣٢٨-٢٣٠ ،وينظر : تفسير ابن كثير ٢٤١/١ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ٢٠٨/١.

(٣) ينظر في ذلك : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٣٤٨ ، والمقالات للأشعري ٢٣٨/١ والرد على المريسي للدارمي ص ١٣-١٤ .

(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٢ وما بعدها ، و ص ٣٤٨ .

في ذلك إلا في نبينا ﷺ ويقولون بجوازها عقلاً ووقوعها قطعاً في الآخرة(١).

واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

موقف سيد قطب من مسألة الرؤية: أما موقف سيد–رحمه الله– من مسألة الرؤية فبيانه فيما يأتي:

أولا: نفي رؤية الله في الدنيا وسبب ذلك:

ذكر سيد – رحمه الله– في أكثر من موضع أن الناس لا يرون الله تعالى في الدنيا، ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون.. فهو بالنسبة لهم غيب، وإن كانت قلوبهم تعرفه حين تؤمن به (٢).

* ففي ظلال قوله تعالى: { لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ } [سورة الأنعام:١٠٣] يقول سيد: " إن الذين كانوا يطلبون في سذاجة أن يروا الله، كالذين يطلبون في سماجة دليلاً مادياً على الله! هؤلاء وهؤلاء لا يدركون ماذا يقولون!

(١) ينظر ذلك : التوحيد لابن خزيمة ص ١٨٥ والسنة لابن أبي عاصم ص ١٩٣ ومنهاج السنة لابن تيمية ٣٢٩/٢ وحادي الأرواح لابن القيم ، ص ٢٢٣ .

(٢) في ظلال القرآن : ٩٨٠/٢ وينظر أيضا : ١٢٧٣ .

إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك، كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون، والقيام بالخلافة في الأرض، وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق، فأما ذات الله – سبحانه – فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها، لأنه لا طاقة للحادث الفاني أن يرى الأزلي الأبدي، فضلاً على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض، وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها " (١).

* وفي ظلال قوله تعالى: { وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ } [سورة الأعراف:١٤٣] .

يقول سيد – رحمه الله –: " إننا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد في خيالنا وفي أعصابنا وفي كياننا كله، في حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تصوره، ولنشعر بشيء من مشاعر موسى –عليه السلام – فيه.. إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه، وروحه تتشوف

(١) في ظلال القرآن : ٢/١١٦٦– ١١٦٧ ، وينظر أيضا : ٥/ ٣٠٩٣ .

وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق! فينسى من هو، وينسى ما هو، ويطلب ما لا يكون لبشرٍ في هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى، وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود، حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة {قَالَ لَن تَرَىٰنِى} ثم يترفق به الرب العظيم الجليل، فيعلمه لماذا لن يراه، إنه لا يطيق {وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى} والجبل أمكن وأثبت، والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان البشري، ومع ذلك فماذا؟ {فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا}.

فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حين تشف أرواحنا وتصفو، وتتجه بكليتها إلى مصدرها، فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً، لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلي، ونحن نميل إلى اطراح كل الروايات التي وردت في تفسيره، وليس منها رواية عن المعصوم ﷺ والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً.

{فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا} وقد ساخت نتوءاته، فبدا مسوًّىً بالأرض مدكوكاً، وأدركت موسى رهبة الموقف،

وسرت في كيانه البشري الضعيف {وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ}

مغشياً عليه، غائباً عن وعيه {فَلَمَّآ أَفَاقَ} وثاب إلى نفسه، وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله {قَالَ سُبۡحَٰنَكَ}! تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك{تُبۡتُ إِلَيۡكَ} عن تجاوزي للمدى في سؤالك! {وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله " (١).

* وفي ظلال قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ} [سورة الشورى:٥١] .

يقول سيد: " ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها: " من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية "(٢). إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث {وَحۡيًا}يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله، {أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ}كما كلم الله موسى –عليه السلام –وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٣٦٨– ١٣٦٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤ .

يطق تجلي الله على الجبل {وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}، {أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا}وهو الملك{فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ} بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ " (١).

فمن هذه النصوص يتبين لنا أن سيد – رحمه الله – يقرر ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الله تعالى لا يرى في الدنيا، ويوضح أن السبب في ذلك هو أن البشر بتركيبتهم وخلقتهم لا يطيقون رؤية الله تعالى وأن هذه الرؤية لا تلزمهم في الدنيا.

أما رؤية النبي ﷺ لربه فقد قرر سيد – رحمه الله – أيضا ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة من أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج وإنما رأى النور الذي هو حجاب الرحمن وقد أورد حديث عائشة رضي الله عنها: " من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " وحديث أنه ﷺ سئل: " هل رأيت ربك؟ فقال: نور إني أراه " (٢)، (٣).

ثانياً: إثبات رؤية الله في الآخرة:

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٣١٦٩– ٣١٧٠ .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥٩ .

(٣) في ظلال القرآن : ٤/ ٢٥١٩ ، ٥/ ٣١٦٩ .

قرر سيد – رحمه الله – أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، وأن الكفار محجوبون عن رؤيته، ففي ظلال قوله تعالى: {كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [سورة المطففين:١٥] .

يقول سيد: " لقد حجبت قلوبهم المعاصي والآثام، حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا، وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة، فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى، التي لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها، ممن قال فيهم في سورة القيامة " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة " وهذا الحجاب عن ربهم، عذاب فوق كل عذاب، وحرمان فوق كل حرمان ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم، فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم، وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم "(١).

وفي ظلال قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [سورة القيامة:٢٢– ٢٣]

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٨٥٨ .

يقول سيد: " إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها، كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها، ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم! هذه الوجوه الناضرة، نضرها أنها إلى ربها ناظرة.. إلى ربها..؟! فأي مستوى من الرفعة هذا؟ أي مستوى من السعادة؟

إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس، تراها في الليلة المقمرة، أو الليل الساجي، أو الفجر الوليد، أو الظل المديد، أو البحر العباب، أو الصحراء المنسابة أو الروض البهيج، أو الطلعة البهية، أو القلب النبيل، أو الإيمان الواثق، أو الصبر الجميل،.. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.. فتغمرها النشوة، وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة، وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألمٍ وقبح، وثقلة طين وعرامة لحم ودم، وصراع شهوات وأهواء..

فكيف؟ كيف بها وهي تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله؟

ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مد من الله، ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله، ليملك الإنسان نفسه، فيثبت ويستمتع بالسعادة، التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراك!

{ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ } ومالها لا تتنضر وهي إلى جمال ربها تنظر؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض، من طلعة بهية، أو زهرة ندية، أو جناح رفاف أو روح نبيل، أو فعل جميل، فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة، فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال، مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال! كل شائبة لا فيما حولها فقط، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله..

فأما كيف تنظر؟ بأي جارحة تنظر؟ وبأي وسيلة تنظر؟ فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني، في القلب المؤمن، والسعادة التي يفيضها على الروح، والتشوف والتطلع والانطلاق! فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟

ويشغلونها بالجدل حول مطلق، لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته؟!

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك، وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور مجرد تصور كيف يكون ذلك اللقاء.

وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام.

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض، ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض، ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال.

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة، فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات، فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان، فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات، ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز

على قدر حالنا! فما لنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات؟!

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ، وفيض الفرح المقدس الطهور، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك، ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض، فهذا التطلع ذاته نعمة، لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم " (١).

*** وقفة مع دعوى إنكار سيد قطب لرؤية الله وتأويلها:**

ذكر الدكتور / ربيع المدخلي فقرات مجتزئة من النص السابق تحت عنوان: " تشكيك سيد قطب في رؤية الله بل إنكاره لها " حيث ذكر بداية كلام سيد في النص السابق وهو قوله " إن هذا النص يشير إشارة سريعة... إلى قول سيد – رحمه الله – " بكل ما فيها من نعيم.

ثم تجاوز كلاما كثيراً لسيد بعد هذا يتحدث فيه عن سبب نضارة وجوه المؤمنين وأنها بسبب نظرهم إلى الله تعالى، ثم ذكر فقرة من كلام سيد – رحمه الله – وهي قوله " فأما كيف تنظر؟ وبأي جارحة تنظر؟ وبأي وسيلة تنظر؟ فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف الفرح الذي يطلقه النص... إلى قوله: "

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٧٧٠- ٣٧٧١ .

وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الذي شغل المعتزلة أنفسهم ومعارضيه من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية.

ثم تجاوز بقية كلام سيد – رحمه الله – كله المذكور في النص السابق، وعقب بعد ذلك بقوله: " وهكذا!! بمثل هذه السفسطة والتهاويل يظن سيد قطب أنه قد حل مشكلة الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة! ولا يدري أنه قد انحاز إلى المعتزلة في إنكار رؤية الله تعالى فما هي تلك الحالة من السعادة التي لا يدري القارئ ما هي؟ والقرآن قد حددها بالنظر إلى الله، والسنة المتواترة أكدتها وآمن بها السلف الصالح، ثم ذكر حديث النبي ﷺ: " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته " [1]، وغيره من الأحاديث التي تثبت أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة ثم قال: " وسيد قطب يشكك في هذا الأمر العظيم الثابت بالكتاب والسنة المتواترة، ويرى انه يعز تصوره مجرد تصور، ولا يدري كيف ينظر وبأي جارحه وبأي وسيلة ينظر...

(١) رواه : مسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ١٤٣/١ برقم ١٨٢ ، ١٨٣ .

ثم ذكر أنه ليس وحده الذي أدان سيد قطب بإنكاره لرؤية الله في الدار الآخرة فقد سبقه صاحب كتاب " على مائدة القرآن " [١] حيث انتقد فيه كلام سيد – رحمه الله – في كتاب " مشاهد القيامة " والذي يقول فيه: " ونشهد الفجار محجوبين عن ربهم لا يرونه، والله لن يراه إنسان.. " [٢].

وقد ذكر أيضاً سليم الهلالي في كتابه "الجماعات الإسلامية" كلاماً قريباً من كلام الدكتور المدخلي[٣]

ولنا هنا وقفة:

أولاً: أن فيما سبق بيانه من نفي سيد – رحمه الله – للرؤية في الدنيا وبيانه لسبب ذلك، ومن إثباته للرؤية في الآخرة كما في النصوص السابقة، ما يرد على من يقول بأن سيد قطب ينكر الرؤية ويشكك فيها.

ثانياً: لا أدري لماذا استبعد الدكتور المدخلي فقرات من كلام سيد – رحمه الله – وفيها إثبات النظر إلى ذات الله ووجه الكريم، وإذا كان كلامه في هذا النص كلاماً موهماً في بعض

---

(١) هو الأستاذ / احمد محمود جمال وكلامه في كتاب " على مائدة القرآن " ص ٥٣- ٥٤ .

(٢) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، د / ربيع المدخلي ص ١٣٥- ١٣٨ بتصرف .

(٣) انظر: الجماعات الإسلامية سليم الهلالي

فقراته فلماذا لم ينظر إلى كلام سيد – رحمه الله – في ظلال الآيات التي تتحدث عن رؤية الله وحجب الكفار عن رؤيته، وقد سبق عرض كلامه فيها، وكيف يقرر أن سيداً – رحمه الله – قد انحاز للمعتزلة في إنكاره الرؤية من أين فهم ذلك؟؟

إن سيداً – رحمه الله – في النص نفسه ينتقد المعتزلة الذين شغلوا أنفسهم وغيرهم من أهل السنة بالجدل حول القضية بقوله: " وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية " فكلامه نقدا للمعتزلة الذين شغلوا أنفسهم ومعارضيهم.. "، وليس نقداً لأهل السنة وانحيازاً للمعتزلة كما فهمه الدكتور المدخلي.

وأظن أن وقفة تأمل منصفة متجردة للنصوص السابقة توضح بجلاء حقيقة موقف سيد قطب من مسألة الرؤي ة، وحقيقة ما أشيع حوله من نفي لها وتأويل.

الخاتمة

أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليّ من تيسير الأسباب لإتمام كتابة هذا البحث، الذي عرضت فيه منهج سيد قطب – رحمه الله– وآراءه في أبواب ومسائل العقيدة، وقد توصلت إلى النتائج والتوصيات الآتية:

أولاً: نتائج البحث:

١- عاش سيد قطب – رحمه الله – في القرن الرابع عشر الهجري (٢٠ الميلادي)، وهو عصر شهد تحولات وتغيرات في كثير من ملامح الحياة في العالم عموماً والعالم الإسلامي خصوصاً، حيث تميز بنمو الروح القومية لدى الشعوب، وظهور الفكر الاشتراكي، وسقوط الخلافة الإسلامية ووقوع العالم الإسلامي تحت الاحتلال الصليبي، بالإضافة إلى سيادة الاتجاه العلمي وموجة الانحلال الخلقي وما نتج عنها.

٢- شهدت الحالة السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية في مصر في هذه الفترة حراكاً واسعاً وتقلبات عدة في النظم القائمة، وكذا في الأوضاع العلمية والاجتماعية والثقافية، حيث ساد الفساد السياسي في الوزارات المتعاقبة وزاد خط الانحراف

العقدي والضعف والجمود العلمي، وظهرت الطبقية في فئات المجتمع وبرزت حركات التنصير والتغريب والعلمنة، وتحرير المرأة، والصراع بين أصحاب التوجه الإسلامي والتوجهات غير الإسلامية عموماً.

٣- ولد سيد قطب في أسرة متدينة وعاش حياته الأولى في القرية، نشأ فيها وتلقى تعليمه الأولى، ثم سافر إلى القاهرة وواصل حياته فيها حتى وفاته، وقد مر سيد قطب في حياته بخمس مراحل لكل مرحلة منها ملامحها وخصائصها، وهي إجمالاً:

المرحلة الأولى: نشأته في القرية على تقاليد الإسلام السائدة في عصره، وفيها أنهى دراسته الأولية وحفظ القرآن بجهد ذاتي، مع اهتمامه بالقراءة والمطالعة.

المرحلة الثانية: انتقاله إلى القاهرة وانقطاع صلته بنشأته الأولى، وتحوله نحو الأدب وتأثره بأستاذه العقاد ومكتبته، وبالثقافة و الأوضاع السائدة.

المرحلة الثالثة: مرحلة الضياع والارتياب في الحقائق الدينية، نتيجة لتأثره بالثقافة الغربية السائدة، حيث عاش ضياعا فكرياً لا سلوكياً، عبرت عنه كتاباته في هذه المرحلة.

المرحلة الرابعة: مرحلة الإقبال على مطالعة القرآن لدواعٍ أدبية ونقدية، حيث اكتشف الإسلام من خلال الأدب.

المرحلة الخامسة: مرحلة تأثره بالقرآن وتدرجه في الإيمان وهي مرحلة حياته الإسلامية، والتي بدأت بتوجهه إلى الفكر الإسلامي قبل سفره إلى أمريكا وانتهت بإعدامه عام ١٩٦٦هـ وتشمل ثلاث محطات ولكل منها ملامحها وهي:

أ- مرحلة الإسلاميات الفنية: وتمثلت في دراسته للقرآن من منطلق الدراسة الأدبية النقدية البحتة، وفيها كتب التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن.

ب- مرحلة الإسلاميات الفكرية: وفيها تحول إلى القضايا الفكرية التي لاحظها أثناء دراسته الأدبية للقرآن، وفيها ألف كتاب العدالة الاجتماعية.

ج- مرحلة الإسلاميات الحركية: وتمثل مرحلة الانتماء الحقيقي للإسلام والعمل الدعوي والحركي، وفيها ألف كتبه الإسلامية كلها، وانشأ تنظيم ٦٥م.

٤- أتصف سيد قطب بمجموعة من الصفات تمثلت في الهمة العالية وقوة الشخصية والاستعلاء بالإيمان وسعة الثقافة والثبات وصدق التدين وغيرها.

٥- تولى سيد مجوعة من الأعمال تمثلت في التدريس والعمل في وزارة المعارف وخبيراً للمناهج وعمله التربوي مع الإخوان بالإضافة إلى رحلاته إلى أمريكا ودمشق والقدس ثم انشغاله بالتأليف طوال سجنه وحتى وفاته.

٦- تعرض سيد قطب لمحنتين في حياته تمثلت في سجنه مرتين، الأولى مع قيادات الإخوان لمدة عشر سنوات من عام ٥٤ -١٩٦٤م، حيث خرج بعفو صحي، والثانية من عام ٦٥-٦٦م وانتهت بإعدامه، حيث صب عليه صنوفا من العذاب في السجن، بالإضافة إلى أمراضه المزمنة، ومع ذلك فقد جعل من

سجنه فرصة للتأمل والتأليف حيث بلغت مؤلفاته قرابة ٣٠ مؤلفاً طبع بعضها و فقد الأخر.

٧- لسيد مكانته العلمية والدعوية والفكرية في أوساط الصحوة المعاصرة، وتتمثل في كثرة مؤلفاته التي كان لها أثرها في مسيرة العمل الإسلامي والدعوة والحركة المعاصرة، وما نتج عنها من اختلاف الناس حول فكره وآرائه بين غالٍ وجافٍ ومنصف، وكذلك في كثرة الاطروحات العلمية والمؤلفات حوله، حيث بلغت عدد الأطروحات حوله أكثر من خمسة وعشرين رسالة علمية بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والمقالات.

٨- فيما يتعلق بمنهجه في تقرير العقيدة:

أ- كان سيد قطب موافقاً لما عليه أهل السنة في الاعتماد على مصادر تلقي تقرير العقيدة، والمتمثلة في الكتاب والسنة والفطرة والعقل، ومخالفته لمنهج الفلاسفة وعلماء الكلام في تقرير العقيدة، حيث بين مخالفتهم لمنهج القرآن في هذا الباب ونقد ما عندهم من أخطاء في هذا الباب، مع وقوعه في خطأ فيما يتعلق بالأخذ بحديث الآحاد في العقيدة،

ب- فيما يتعلق بموقفه من العقل وفطرية المعرفة يقرر ما عليه أهل السنة وينتقد المخالفين، وكذا فيما يتعلق بقضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان، حيث يرى سيد بطلان نظرية تطور العقيدة وبطلان منهج علماء مقارنة الأديان الغربيين ومن تأثر بهم في هذا الباب ومخالفتهم لنمهج القرآن الكريم.

٩- اهتم سيد قطب – رحمه الله – كثيراً ببيان أهمية العقيدة الإسلامية و خصائصها ومميزاتها، وتقرير منهج القرآن في عرضها والدعوة إليها، كما حذر كثيراً من وسائل الأعداء في محاربتها وصرف الناس عنها،

١٠- فيما يتعلق بموقف سيد قطب – رحمه الله – من المخالفين عقدياً نجد أنه:

أ- يقرر ما جاء في القرآن والسنة حول الموقف من أهل الكتاب والمشركين والوثنيين والملاحدة عموماً والمتمثل في اعتقاد كفرهم ووجوب بغضهم والتميز عنهم، كما عمل على فضح أهدافهم ومخططاتهم ضد الإسلام وحذر من المذاهب والنظريات

الإلحادية والمادية كالشيوعية والوجودية والداروينية والعلمانية والقومية وغيرها، وبين فسادها و ضلالها.

ب-المخالفين لمنهج السلف من المتكلمين والفلاسفة والصوفية وأهل الأهواء "العصرانيين" وغيرهم، بيَّن سيد قطب المأخذ عليهم، ونقد ما عندهم من أخطاء في باب العقيدة.

١١- فيما يتعلق بمنهجه في باب مسائل الإيمان:

أ- يقرر سيد قطب ما عليه أهل السنة والجماعة من تعريف الإيمان لغةً واصطلاحاً، وعلاقته بالعمل، وكذا العلاقة بين الإيمان والإسلام، وزيادة الإيمان ونقصانه، وكذا حكم مرتكب الكبيرة.

ب-فيما يتعلق بقضية التكفير وما ثار حولها من جدل تبيَّن لنا من خلال جمع النصوص المتعلقة بهذه القضية أن سيد قطب يفرق بين الحكم على الأنظمة والأوضاع وبين الحكم على الأفراد، وأن الذين اعتمدوا على بعض النصوص دون بعضها الآخر، أو على فقرات مجتزأة من سياقها، أو اغفلوا الضوابط التي

ذكرت في سياق بعض النصوص فهموا كلامه على غير ما أراد.

١٢- فيما يتعلق بمنهجه في باب التوحيد:

أ- يوافق سيد قطب ما عليه أهل السنة والجماعة في حقيقة التوحيد وشموله للألوهية والربوبية والأسماء والصفات، وإن كان له رأي في بيان معنى الألوهية والربوبية غير ما عليه السلف لكنه خلاف لفظي.

ب- في باب توحيد الربوبية يقرر سيد منهج القرآن في الاستدلال على الربوبية وينتقد المناهج المخالفة في تقرير وجود الله ووحدانيته.

كما انتقد نظرية قِدم العالم، وكذا وحدة الوجود والحلول والإتحاد، فيما يتعلق بالقدر يقرر ما عليه أهل السنة في مسائل القدر عموماً ويخالف ما عند المتكلمين والفلاسفة.

ج- في باب توحيد الأسماء والصفات: يثبت الأسماء الحسنى بمعانيها التي دلت عليها.

ويثبت الصفات الإلهية إجمالاً ويرد على النفاة والمؤولين وإن وقع في بعض الأحيان في التأويل باعترافه نفسه وتراجعه عن التأويل.

أما موقفه من الصفات تفصيلاً فقد كان في الغالب موافقاً لما عليه أهل السنة والجماعة إلا في قضايا قليلة محدده كما سبق.

د- في باب توحيد الألوهية اهتم سيد قطب كثيراً ببيان منهج القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية حيث بيَّن أن للألوهية ثلاثة مجالات:

أ- مجال الاعتقاد وهو: معنى لا إله إلا الله.

ب-مجال العبادة والشعائر.

ج – مجال الحاكمية والتشريع.

١٣- في باب نواقض التوحيد والإيمان ذكر سيد -رحمه الله- النواقض المتمثلة بالشرك وأنواعه، والكفر وأنواعه، والنفاق وهو في ذلك يقرر ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة، مع اهتمامه كثيراً ببيان شرك الحاكمية وما تفرع عنه باعتباره أبرز أنواع الكفر في هذا العصر، وعنه ينتج ما سواه.

١٤- فيما يتعلق بمنهجه في باب الملائكة والجن والشياطين يقرر ما عليه السلف من وجودهم وصفاتهم وأعمالهم ويرد على المخالفين في هذا الباب.

١٥- فيما يتعلق بالأنبياء والرسل يقرر أيضاً ما عليه السلف في هذا الباب من حقيقة النبوة وصفات الأنبياء ووظائفهم وعصمتهم وغير ذلك، ويرد على المخالفين في هذا الباب، وما يتعلق بكلام سيد حول موسى عليه السلام في بعض كتبه السابقة نجد أن له كلاماً مختلفاً في كتبه الإسلامية الأخيرة فيه تعظيم لموسى عليه السلام مما يدل على أن كلامه في التصوير الفني كان في مرحلة لها حكمها.

١٦- فيما يتعلق بنبوة محمد ﷺ يقرر سيد أهمية بعثته ﷺ وحاجة العالم إليها وأثرها على البشرية، وكذا دلائل نبوته وصفاته وخصائصه ومعجزاته وبيناته، حيث يرى أن معجزة النبي ﷺ هي القرآن الكريم وما سواه من الخوارق فإنما كان إكراماً أو تثبيتاً له، ولم يكن خارقة على سبيل التحدي بها.

١٧- فيما يتعلق بالصحابة – رضوان الله عليهم – تحدث سيد قطب عن عظمة جيل الصحابة، وبين مميزات هذا الجيل الفريد

وخصائصه والواجب نحوهم، أما كلامه حول بعض الصحابة فقد تبَّين لنا أنه كان قبل التزامه أو في بداية تحوله نحو الإسلام، وأنه عدل ما جاء في كتابه" العدالة الاجتماعية" في الطبعة المنقحة قبل موته بسنتين، بالإضافة إلى أن في كتبه الأخيرة ما ينقضه.

١٨- فيما يتعلق بالخلافة يقرر سيد قطب أهمية الخلافة الصالحة ويستعرض خصائص نظام الحكم في الإسلام، وكذا مكانة الحاكم المسلم وحقوقه وواجباته، ونظام الشورى وما يتعلق به، ونظرته للأنظمة المعاصرة ووسائل التغيير، حيث يقرر أهمية بناء القاعدة الإسلامية في المجتمع كأساس للتغيير.

١٩- فيما يتعلق بالمعاد واليوم الآخر يبين سيد قطب – رحمه الله – أهمية اليوم الآخر وأثره في الحياة، كما تناول مقدمات اليوم الآخر من التوبة والموت وحياة البرزخ وأشراط الساعة وكذا أحداث القيامة وما فيها حتى الاستقرار في الجنة أو النار، وله بعض الآراء التي خالف فيها القول الراجح عند أهل السنة والجماعة في هذا الباب مثل: رأيه في خروج يأجوج ومأجوج، والميزان.

والخلاصة: نستطيع القول بأن سيد قطب – رحمه الله – كان إجمالاً في باب العقيدة موافقاً لما عند أهل السنة والجماعة مخالفاً للفرق المخالفة لهم، وأن الأخطاء التي وقع فيها سيد قطب في باب العقيدة تتمثل في الآتي:

أ- إما قضايا علمية خلافية كالموقف من حديث الآحاد، وقضية سحر النبي ﷺ.

ب- أخطاء في كتبه الأدبية السابقة لالتزامه، أو في الكتب التي ألفها في بداية تحوله نحو الفكر الإسلامي وقبل تعمقه في الدراسات الإسلامية، في الطبعات المنقحة منها وكذا كتبه المتأخرة ما يخالفها أو ينقضها.

ج- إما كلام موهم أدبي حول بعض القضايا استنتج بعضهم منه أن سيد قطب يقرر خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة، ولكن يوجد له كلام آخرأكثر وضوحاً حول تلك القضايا، من أمثلة ذلك: القول بخلق القرآن، ووحدة الوجود، وتأويل الصفات ونحوها.

ثانياً: توصيات:

١- بالرغم من كثرة البحوث التي دارت موضوعاتها حول سيد قطب - رحمه الله- من جوانب متعددة، إلا أنه لا زال هناك بعض الجوانب التي لم تدرس، أوصي الباحثين بالاهتمام ببحثها منها:

أ- منهج سيد قطب وآراءه واختياراته الفقهية.

ب- أحداث السيرة في ظلال القرآن (دروس وعبر)

ج- المنظومة القِيَمِيَّة في فكر سيد قطب.

د- معالم الدعوة في ظلال القرآن.

٢- أوصي الباحثين أيضاً بالاهتمام بتقريب تراث سيد قطب، وإبراز الجوانب المضيئة في فكره وهي كثيرة جداً، حتى يتسنى الاستفادة منها في العمل الإسلامي المعاصر.

٣- أوصي القائمين على نشر تراث سيد قطب - رحمه الله- بإعادة طباعة كتب سيد مع تدوين الملاحظات التي أشار إليها كثير من أهل العلم والباحثين حول الأخطاء التي وقع فيها سيد في المواضع التي وردت فيها من كتبه، بياناً للحق، وقطعاً للطريق

على الذين يتخذون من هذه الأخطاء ذريعةً للطعن في سيد قطب والتحذير من فكره وكتبه بدعوى حماية الشباب – زعموا –.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يلهمنا رشدنا، وأن يبرم لهذه الأمة أمراً رشداً، يُعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا إتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أج معين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المراجع والمصادر

(أ)

١- الإحسان في تقريب صحيح ابن حيان للفارسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١، عام ١٩٩١م.

٢- إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ب . ت

٣- إرشاد الفحول ، للإمام الشوكاني، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، ط٤ ، ١٤١٤هـ

٤- أساس التقديس ، لفخر الدين الرازي ، مطبعة كردستان العلمية ، عام .١٣٢٨هـ.

٥- أساليب الغزو الفكري ، د/ علي جريشة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٩٨م.

٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، دار الفكر – بيروت ، طبعة عام ١٩٩٣ م.

٧- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة الاستقامة ،القاهرة ، ب.ت ،

٨- أسرار حركة الضباط الأحرار ، حسين حمودة ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

٩- إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني ، دار العلم ، بيروت ، ط١٩٨٥م .

١٠- أصول الفقه الإسلامي : محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة – ب. ت.

١١- أصول الكافي للكليني تحقيق محمد جواد القصة ، دار الأضواء بيروت ط١ عام ١٩٩٦م.

١٢- أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره ، د / ربيع بن هادي المدخلي ، مكتبة الفرقان ، عجمان ، ط٢ ، عام ٢٠٠١م .

١٣- أضواء البيان ، للشنقيطي ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٧هـ.

١٤- أضواء على معالم في الطريق ، سالم البهنساوي، دار البحوث الكويتية ، طبعة عام ١٩٨٦م.

١٥- أفراح الروح ، سيد قطب ،مركز الشرق العربي ، ب، ت.

١٦- أقوال التابعين في مسائل الإيمان والتوحيد . عبد العزيز المبدل . دار التوحيد – الرياض . ط١ عام ١٤٢٤ هـ.

١٧- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . د / محمد محمد حسين ،المطبعة النموذجية – القاهرة – ط ٣ –١٤٠٠هـ.

١٨- الإتقان في علوم القران، لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١، عام ١٤٠٧هـ .

١٩- الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ ، عام ١٤٠٥هـ.

٢٠- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط٢ عام ١٤٠٢هـ

٢١- الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التأريخ ، لمحمود عبد الحليم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط عام ١٩٧٩م.

٢٢- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية ، زكريا سليمان بيومي ، رسالة في كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

٢٣- الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، لعبد القادر شيبة الحمد ، مطبوعات الجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية ، ط١ ، ب. ت.

٢٤- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين الجويني – مطبعة السعادة – مصر عام ١٩٥٠م..

٢٥- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ ، عام ١٩٩٥م.

٢٦- الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للسيد أبي الأعلى المودودي.

٢٧- الإسلام والخلافة في العصر الحديث : د/ محمد ضياء الدين الريس ب. ت.

٢٨- الاشتراكية العربية . أمين مصطفى وآخرون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٠م .

٢٩- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت ،طبعة ١٤٢١هـ.

٣٠- الاعتصام ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار الفكر – بيروت . ب. ت.

٣١- الإعلام بقواطع الإسلام ، ابن حجر ال ، دار المعرفة ، بيروت ، طبعة عام ١٤٠٢هـ

٣٢- .الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي.

٣٣- أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب ، د/ صلاح الخالدي ،دار القلم ، دمشق ، ط٨ ١٤٢٣هـ.

٣٤- أوراق من تاريخ الإخوان المسلمين . جمعه أمين عبد العزيز ، دار التوزيع ، القاهرة ، ط١ ، عام ٢٠٠٣م .

٣٥- الإيمان لابن تيمية ، المكتب الإسلامي – بيروت – ط٣- ١٤٠٨هـ .

٣٦- إيثار الحق ، لابن الوزير ، دار الكتب العلمية ، بيروت – ط٢ ، عام ١٤٠٧هـ.

٣٧- الإنسان الكامل ، لعبد الكريم الجيلي ، مطبعة الحلبي ، مصر ، ط ٤ ، ب . ت.

٣٨- الأم للإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٢هـ.

٣٩- أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ، دار المنارة ، جده ، ط٦، ١٤١٤هـ.

٤٠- الأوائل للباقلاني ، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – ط٣ ، عام ١٤١٤هـ ،

٤١- أحكام القرآن للحصياص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة عام ١٤١٥هـ.

٤٢- أعلام السنة المنشورة لحافظ الحكمي مكتبة الرشد الرياض ط٤ عام ١٤١٦هـ.

٤٣- أيام من حياتي لزينب الغزالي . دار التوزيع ، القاهرة ،ط١ ، ١٤٢٠ هـ.

٤٤- الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط١٢ ، عام ١٤٢٢هـ .

٤٥- الأعلام ، للزركلي ، دار العلم ، بيروت، ط ١٤ ،١٩٩٩م .

(ب)

٤٦- البداية والنهاية لابن كثير دار المؤيد – الرياض ، ط٢ ،عام ١٤١٧ هـ .

٤٧- البدر الطالع ،للإمام محمد بن علي الشوكاني ،مطبعة السعادة ، بيروت ،ط ١٩٨٤ م.

٤٨- البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني دار الوفاء المنصورة ط٣ عام ١٤٢٠هـ..

٤٩- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، لأبي الفضل السكسكي ، مكتبة المنار ،الأردن، ط١ ، عام ١٤٠٨هـ.

٥٠- البوابة السوداء ، لأحمد رائف ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط١ ، عام ٨٨م.

(ت)

٥١- التاريخ الإسلامي ، لمحمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١، عام ١٤١١هـ.

٥٢- تأويل الدعائم للقاضي نعمان بن محمد الإسماعيلي ، تحقيق الأعظمي ، دار المعارف مصر ، ب.ت.

٥٣- تاريخ الدعوة الإسلامية ، أنور الجندي ، دار القافلة ، السعودية ، طبعة عام ٩٧م .

٥٤- تاريخ النضال بين الاستقلال والاحتلال : أنور الجندي ، دار الطباعة ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٤٧م.

٥٥- تاريخ مصر الاقتصادي . أمين مصطفى عفيفي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٣، عام ٥٤م.

٥٦- تاريخ مصر السياسي . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ب.ت.

٥٧- تاريخ مصر السياسي : أمين سعيد ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٧م .

٥٨- تحكيم القوانين للشيح محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

٥٩- تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت،طبعة عام ١٣٧٤هـ.

٦٠- تعظيم قدر الصلاة لمجد بن نصر المروزي ، مكتبة الدار – المدينة – ط١ ، عام١٤٠٦هـ.

٦١- تفسير ابن كثير ، تحقيق د/ البناء ، دار بن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٩م.

٦٢- تفسير الرازي (التفسير الكبير)(المسمى: مفاتيح الغيب)لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤١١هـ .

٦٣- تفسير الطبري المسمى جامع البيان ، للإمام محمد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، عام ١٩٩٢م.

٦٤- تفسير البغوي، المسمى بصالح التنزيل ، دار الهيثم ، الرياض، ط٣، عام ١٩٩٥

٦٥- تفسير المنار ، لرشيد رضا دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١ عام ١٤٢٣هـ .

٦٦- تفسير بن كثير ، تحقيق : مصطفى السيد وآخرون ، مكتبة أولاد الشيخ – القاهرة ط١ عام ١٤٢١ هـ.

٦٧- تفسير جزء عم لمحمد عبده ، مطبعة مجلة المنار القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٢٩هـ.

٦٨- تكملة معجم المؤلفين ، محمد خير رمضان ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، عام ١٤١٨هـ.

٦٩- تهذيب اللغة للأزهري ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ.

٧٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي دار الذخائر الرياض طبعة عام ١٩٩٤م.

٧١- التصوير الفني في القرآن – سيد قطب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٩ ، ١٩٨٠م.

٧٢- تطهير الاعتقاد للإمام الصنعاني تحقيق / حلاق ، دار الهجرة ، صنعاء ، ط١ عام ١٤١١هـ.

٧٣- التعريفات للجرجاني ، دار الريان ، القاهرة ، ب. ت.

٧٤- التمهيد ، لابن عبد البر ، تحقيق أسامة إبراهيم ، دار الفاروق ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٤٢٠ هـ.

٧٥- التمهيد لقواعد التوحيد ، لمحمود بن زيد اللامشي الماتريدي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٧٦- التوحيد لابن خزيمة.تحقيق د / عبد العزيز الشهوان دار الرشد ، ط١ ، ١٤٠٨هـ

٧٧- التوحيد لابن منده ، تحقيق د/ علي الفقيهي مكتبة العلوم والحكم – المدينة ط١ عام ١٤٢٣هـ .

(ث)

٧٨- الثورة العرابية ، عبد الرحمن الرافعي ، بيروت ، دار نشر ، ط٣ ، عام ١٩٦٦م.

٧٩- الثورة والتنظيم السياسي، جلال يحيى ، دار المعارف ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٦م .

(ج)

٨٠- الجامع لشعب الإيمان ، الحافظ أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، الدار السلفية ، الهند ،ط١ عام١٤٠٦هـ.

٨١- الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة ، تأليف / سليم الهلالي ، دار البصيرة الإسكندرية ، ب . ت.

٨٢- جامع العلوم والحكم لابن رجب ،تحقيق الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط٧ ،عام ٢٠٠٢م.

٨٣- جمع الجوامع ، للسبكي ، مطبعة الحلبي – القاهرة – ط٢ – ب . ت .

٨٤- جمهرة اللغة لابن دريد ، دار العلم للملايين – بيروت– ط(٢) ، عام ١٩٨٧م .

٨٥- جهود علماء الحنفية في العقيدة، لشمس الدين الأفغاني، دار الصميعي، الرياض، ط١ ،١٤١٦ هـ.

٨٦- جواهر المعاني في فيض أبي العباس التيجاني ، لعلي بن حرازم الفارسي ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة عام ١٤٠٨هـ .

(ح)

٨٧- الحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ، كتاب الأمة ، قطر ، العدد ١٢٨، سنة ١٤٢٨هـ.

٨٨- الحد الفاصل د/ربيع المدخلي مكتبة الفرقان عجمان ، ط٣ عام ١٤٢٢هـ .

٨٩- الحدود ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، مؤسسة الزغبي ، حمص ، ط١ ، عام ١٣٩٢هـ.

٩٠- الحدود لابن سيناء ، تحقيق أميليه حواشن – منشورات المعهد الفرنسي –القاهرة ، ب . ت .

٩١- الحركة الإسلامية ، مجموعة من الباحثين ، تحرير د / عبد الله النفيسي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ب.ت.

٩٢- حكم الجاهلية لأحمد شاكر ، مكتبة السنة – القاهرة ط١عام ١٤١٢ هـ.

٩٣- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ عام ١٤٠٨ هـ .

٩٤- حين غابت الشمس ، لعبد المنعم خفاجي ، دار الوفاء ، القاهرة ،ب .ت.

(خ)

٩٥- خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب – دار الشروق – ط١٥ – ٢٠٠٢م.

٩٦- خلق أفعال العباد للبخاري الدار السلفية الكويت ط عام ١٤٠٥هـ .

(د)

٩٧- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني دار الكتب العلمية ب٠ت.

٩٨- الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع عبد الرحمن النجدي ،ط٦ ، ب.ت ، عام ١٤١٩هـ.

٩٩- الدلالة العقلية في القرآن ومكانها في تقرير العقيدة . د/ عبد الكريم عبيدات، دار النفائس . الأردن.ط١، ١٤٢٠ هـ

١٠٠- درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام بن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض ،عام ١٣٩٩هـ.

١٠١- دراسات إسلامية ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط٨ ، عام ١٤١٢هـ.

١٠٢- دراسات في السيرة لمحمد سرور زين العابدين ، دار الأرقم ، بريطانيا ، ط٥ ، عام ١٤١٤هـ .

١٠٣- دراسات في الفرق والعقائد ، د / عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠٤ هـ.

١٠٤- دراسات في حضارة الإسلام . هاملتون جب ، ترجمة د / إحسان عباس وآخرون ، دار العلم ، بيروت ، ب .ت.

١٠٥- دعاة لا قضاة، للهضيبي.

١٠٦- دعوة التقريب بين الأديان ، د / أحمد القاضي ، دار بن الجوزي ، الدمام ، ط١ ، عام ١٤٢٢هـ.

١٠٧- دعوة التوحيد لمحمد خليل هراس مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، عام ١٤٠٧هـ.

١٠٨- دلائل الإمامة لأبى جعفر الطبري الشيعي المطبعة الحيدرية النجف طبعة عام ١٣٦٩هـ

١٠٩- دلائل التوحيد ، لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٥هـ.

١١٠- دلائل النبوة ، البيهقي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢ عام ١٤٢٣هـ.

١١١- ديوان المتنبي ، دار صادر بيروت ط٢١ عام ١٩٨٥م.

١١٢- ديوان سيد قطب : جمع عبد الباقي محمد حسن ، دار الوفاء ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ.

١١٣- الدين الخالص، لمحمد صديق خان، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، عام ١٤٢٨هـ.

(ذ)

١١٤- ذكريات لا مذكرات ، عمر التلمساني ، دار الطباعة الإسلامية ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٨٥م.

(ر)

١١٥- الرد على الجهمية للدارمي الدار السلفية الكويت ط١ عام ١٤٠٥هـ .

١١٦- الرسالة ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر – المكتبة العلمية – بيروت – ب .ت.

١١٧- الرسالة الذهبية للشيخ / بكر أبو زيد .

١١٨- الرسالة القشيرية ، لأبى القاسم القشيري ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ب.ت.

١١٩- روضة المحبين لابن القيم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١، عام ١٤١٤هـ.

١٢٠- رائد الفكر الإسلامي ، الشهيد سيد قطب ، ليوسف العظم ، دار القلم ، دمشق ، طبعة عام ١٩٨٠م.

١٢١- رد الدارمي على بشر المريسي، تحقيق :الفقي طبعة باكستان ،عام ١٤٠٢ هـ.

١٢٢- رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، لابن تيمية ، دار البصيرة – الإسكندرية – ط١ ، عام ١٤٢٩هـ

١٢٣- روضة التعريف بالحب الشريف ،للسان الدين الخطيب ، دار الفكر ص ٤٩٧، بيروت، د.ت .

١٢٤- روضة الناظر لابن قدامه المقدسي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠١هـ.

(ز)

١٢٥- زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت ط٣٠ عام ١٤١٧هـ.

١٢٦-

(س)

١٢٧- السحر بين الحقيقة والخيال ، أحمد الحمد ، مكتبة التراث ، مكة ، ط١، عام ١٤٠٨هـ.

١٢٨- السلام العالمي في الإسلام،سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٢ ، عام ١٩٩٢م.

١٢٩- السنة لابن أبي عاصم، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣ عام١٤١٣هـ.

١٣٠- السنة ومكانتها في التشريع، د/ مصطفى السباعي- المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ عام ١٣٩٨هـ.

١٣١- السيرة النبوية لابن هشام دار التراث العربي القاهرة ، ب.ت.

١٣٢- سلسلة أعلام المسلمين سيد قطب للخالدي ، دار القلم ، بيروت ، ط٢ ، عام٢٠٠٠م.

١٣٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ، دار المعارف ،الرياض ،ط ١ ، عام ١٤١٥هـ..

١٣٤- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ، مكتبة المعارف - الرياض ، ط٥ ، ١٤٠٨ هـ.

١٣٥- سنن ابن ماجة للحافظ محمد بن يزيد القزويني ، دار المعرفة بيروت ط١ عام ١٤١٩ هـ.

١٣٦- سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب.ت.

١٣٧- سنن النسائي ، دار المعرفة ، بيروت ، ب. ت.

١٣٨- سيد قطب . خلاصة حياته ومنهجه في الحركة . محمد توفيق بركات ، دار الدعوة ، بيروت ، ب . ت.

١٣٩- سيد قطب الأديب الناقد . د / عبد الله الخباص ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، ط١ عام ٨٣،

١٤٠- سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي) لمحمد علي قطب ، دار الحديث ، بيروت ، ط٢ ، ب .ت.

١٤١- سيد قطب بين العاطفة والموضوعية ، لسالم البهنساوي.

١٤٢- سيد قطب حياته وأدبه ، لعبد الباقي محمد حسين ،دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، عام ١٩٩٣م.

١٤٣- سيد قطب من القرية إلى المشنقة . عادل حمودة ، دار سيناء للنشر ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٩٨٧م.

١٤٤- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد . د / صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط٣ ، عام ١٤٢٠هـ.

١٤٥- سيد قطب ومنهجه في التفسير ، إسماعيل أمين الحاج ب.ت.

١٤٦- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط١، عام ١٤٠٧م

(ش)

١٤٧- الشرك بالله تعالى ، أنواعه وأحكامه ، ماجد محمد شباله ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ط١، عام ٢٠٠٥م.

١٤٨- شريط بعنوان : (رأي معتدل في سيد قطب ، للشيخ الألباني في ١٩٩٣/٩/١٨م).

١٤٩- شريط بعنوان : (المنهج الصحيح لاستئناف الحياة الإسلامية ، لشيخ الألباني في ١٩٩٢/١١/١٤م) .

١٥٠- شريط بعنوان : (مفاهيم يجب أن تصحح ،للشيخ الألباني).

١٥١- الشفا في تعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض اليحصبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب .ت.

١٥٢- الشهيد سيد قطب، إعداد جماعة أصدقاء الشهيد ، بدون ناشر أو تاريخ .

١٥٣- الشورى في ظل الحكم الإسلامي – عبد الرحمن عبد الخالق – الدار السلفية الكويت ط عام ١٩٧١م.

١٥٤- الشوكاني وسيد قطب ، الأبعاد الحضارية ، د / حسن ناصر سرار ، إصدار وزارة الثقافة ، صنعاء ، ط١ عام ٢٠٠٤م.

١٥٥- شيخ العربية : محمود شاكر، لإبراهيم الرضواني ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ط١٤١٥ هـ.

١٥٦- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ب. ت.

١٥٧- شرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي دار طيبة – الرياض ، ط٦ عام ١٤٢٠ هـ .

١٥٨- شرح الأسماء الحسنى ،لمحمد بن عمر الرازي ،مكتبة الكليات الأزهرية ،طبعة عام ١٩٧٦م.

١٥٩- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي ، تحقيق د / عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة – القاهرة – ط١ عام ١٣٨٤هـ.

١٦٠- شرح التلويح للتفتازاني ، دار الكتب العربية – مصر – ب . ت.

١٦١- شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ب.ت.

١٦٢- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق / التركي والأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٣هـ.

١٦٣- شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ، دار ابن الجوزي – الرياض – ط٤ ، عام ١٤٢٤ هـ..

١٦٤- شرح ألفية السيوطي ، لأحمد شاكر ، دار المعرفة –بيروت – ب . ت.

١٦٥- شرح الكبرى للسنوسي،المكتبة المصرية ، ب.ت،ص ٥٠٢ .

١٦٦- شرح الكوكب المنير، لابن النجار ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ.

١٦٧- شرح المسلم ، للملوي ، بهامش حاشية الصبان . مطبعة مصطفى الحلبي – مصر – ط٢ – عام ١٣٥٧هـ .

١٦٨- شرح المقاصد للنفتازاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٢ ، عام ١٤١٩هـ.

١٦٩- شرح صحيح مسلم للإمام النووي دار المعرفة – بيروت ، ط٣ عام ١٤١٧ هـ.

١٧٠- شرح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني مع حاشية بن قطلوبغا ، دار الوطن – الرياض – ط١ ، عام ١٤٢٠هـ.

١٧١- شريط لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، درس في منزله عام ١٤١٣، تسجيلات منهاج السنة – الرياض.

١٧٢- شعراء الدعوة الإسلامية ،لأحمد الجدع وحسني جرار ،مؤسسة الرسالة ،ط١ ، ١٩٧٨م.

١٧٣- شفاء العليل ، لابن القيم ، دار الكتاب العربي – بيروت – ط١ ، عام ١٤٢٤هـ.

(ص)

١٧٤- الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين- بيروت – ط٢ ،عام ١٣٩٩هـ.

١٧٥- الصفات الإلهية، لمحمد أمان الجامي ، طبعة الجامعة الإسلامية – بالمدينة النبوية – ط١ ، عام ١٤٠٨ .

١٧٦- الصلة بين العقيدة الحاكمية عند سيد قطب . د/ عبد العزيز الوهيبي ، دار المسلم ، الرياض ، ط٢ ، عام ١٤٢٥هـ.

١٧٧- الصواعق المرسلة ، لابن القيم ، دار العاصمة ، الرياض ، ط٣ / ، ١٤١٨هـ.

١٧٨- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق، د.علي الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣ عام ١٤١٨هـ.

١٧٩- صحيح الإمام البخاري ،محمد بن اسماعيل البخاري، دار ابن كثير – بيروت – ط٥ ، عام ١٤١٤هـ.

١٨٠- صحيح السيرة النبوية للالباني– المكتبة الإسلامية عمان ط ١ عام ١٤٢١ هـ.

١٨١- صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني، مكتبة المعارف – الرياض ط١ عام ١٤١٧هـ.

١٨٢- صحيح سنن أبي داود للألباني ، مكتبة المعارف الرياض ، ط٢ ، ١٤٢١هـ.

١٨٣- صحيح مسلم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٦هـ .

١٨٤- صفحات من التاريخ ، لصلاح شادي، دار الشعاع، الكويت، ط ١ ،عام ١٩٨١م .

(ض)

١٨٥- ضعيف الترغيب والترهيب ، للألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ عام ١٤٢١هـ.

١٨٦- ضوء المعاني في شرح بدء المعالي ، للملأ علي القاري ، دار السعادة ، تركيا ،ب.ت.

١٨٧- ضوابط التكفير ، راشد الراشد ، مكتبة الرشد ، الرياض ، طبعة عام ١٤٢٧هـ.

(ط)

١٨٨- الطبراني في الكبير ، مطبعة الزهراء العراق ط٢ عام ١٤٠٥ هـ.

١٨٩- الطريق نحو حكم إسلامي ، محمد علي ضناوي ، دار الإيمان ، طرابلس ، ب . ت.

١٩٠- طبقات الحفاظ للسيوطي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٣هـ.

١٩١- طريق الهجرتين، لابن القيم المطبعة السلفية القاهرة طبعة عام ١٣٧٥هـ.

١٩٢- طفل من القرية، سيد قطب، الدار السعودية للنشر، جدة، ب. ت .

(ظ)

١٩٣- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، د/ سفر بن عبدالرحمن الحوالي ، دارالكلمة ، هولندا ، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

١٩٤- الظلم وأثره السيء على الفرد والمجتمع ، لمحمد عبدالله الحكمي ، دار المجتمع جده ، ط٢ ، ١٤١٥هـ .

(ع)

١٩٥- العالم الرباني الشهيد سيد قطب ، لعشماوي أحمد سليمان ، ب. د ، طبعة عام ١٩٦٩م.

١٩٦- العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الفضيلة، الرياض، ط١، عام ١٤٢٠هـ..

١٩٧- العدالة الاجتماعية – سيد قطب – دار الشروق ، بيروت ، طبعة عام ١٤١٥هـ.

١٩٨- العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء ، تحقيق د / أحمد المباركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ عام ١٤٠٠هـ.

١٩٩- العقيدة بين السلف والمتكلمين ، أ .د / حسن شباله ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ط١ ، عام ، ٢٠٠٤م.

٢٠٠- العلمانية ،د /سفر الحوالي ، مكتبة الطيب ،القاهرة ،ط١ ،١٤١٨هـ..

٢٠١- العلمانية وثمارها الخبيثة لمحمد شاكر الشريف، دار الرياض للنشر ، ب. ت .

٢٠٢- العواصم ما في كتب سيد قطب من القواصم ، د/ ربيع المدخلي، دار الفرقان، عجمان، ط٢، عام١٤٢١هـ.

٢٠٣- عالم السحر والشعوذة ، د/ عمر الأشقر ، دار النفائس – الأردن ، ط٢ ، عام ١٤١٨هـ.

٢٠٤- عبد الناصر وعلاقاته الخفية ، أحمد عبد المجيد ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط ١ ،١٤١٥هـ

٢٠٥- عبقري الإسلام ، سيد قطب ، د . سيد بشير كشميري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ب . ت.

٢٠٦- عصر محمد علي باشا ، عبد الرحمن الرافعي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٣ ، عام ١٩٥١م .

٢٠٧- عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني تحقيق د/ الجديع دار العاصمة الرياض ط ٢عام ١٤١٩هـ .

٢٠٨- العلم يدعو إلى الإيمان ، كريس موريسون ، ترجمة : محمود صالح ، مؤسسة فرانكلين، القاهرة ، ط٥، عام ١٩٦٥م .

٢٠٩- علم الإعجاز القرآني : د/ خليل رجب الكبيسي ، مركز عبادي ، صنعاء ، ط ١ عام ١٤٢٢هـ.

٢١٠- علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الرحمن البسام مكتبة مكة ط١ عام ١٣٩٨هـ.

٢١١- علماء ومفكرون عرفتهم ، لمحمد المجذوب، دار الشواف ، الرياض ، ط ٤، عام ١٩٩٢م.

٢١٢- عملاق الفكر الإسلامي ، سيد قطب ، للشهيد عبد الله عزام – رحمه الله – مركز شهيد عزام ، بيشاور ، ط١ ، ب. ت.

٢١٣- عوامل تقهقر الأمة المسلمة ، د/ سليم القباطي ، مكتبة الجيل، صنعاء ، ط١ ، عام ١٩٩٧م.

(غ)

٢١٤- الغاية القصوى في ولاية الفتوى ، للعلامة البيضاوي ، تحقيق : قرة داغي ، دار الإصلاح ، الدمام ، ط١ ، ١٤٠١هـ .

٢١٥- غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى ، لمرعى الكرمي ، المؤسسة السعيدية ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠١هـ .

٢١٦- الغنية لطالبي طريق الحق ، لعبدالقادر الجيلاني ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ط٣،١٩٥٦م .

(ف)

٢١٧- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية ، ترتيب أحمد الدويش ، دار العاصمة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤١٩هـ .

٢١٨- الفطرة ، حقيقتها ومذاهب الناس فيها ، علي بن عبد الله القرني ، دار المسلم ، الرياض ، ط١ عام ١٤١٤هـ..

٢١٩- فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم مطبعة الحكومة مكة المكرمة .ط١ عام ١٣٩٩ هـ.

٢٢٠- فتح الباري لابن حجر ، دار الفكر – بيروت طبعة عام ١٤١١هـ.

٢٢١- فتح القدير للشوكاني المكتبة العلمية – بيروت – ط عام ١٤١٥هـ..

٢٢٢- فتح المغيث للسخاوي ، دار الكتب العلمية – بيروت – طبعة عام ١٤٢١هـ.

٢٢٣- الفروق لأبي هلال العسكري ، دار الآفاق ، بيروت ، ط٥ ، عام ١٤٠٣هـ.

٢٢٤- فصوص الحكم لابن عربي ، تحقيق د / أبي العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي، بيروت، ب ،ت .

٢٢٥- الفقه الميسر لأحمد عاشور ، دار ال.يوسف ، بيروت ، ب.ت.

٢٢٦- فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ، الدار الشامية ، عمان ، ط١ ، عام ١٤٢٠هـ..

٢٢٧- في أعقاب الثورة المصرية : عبد الرحمن الرافعي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٥٩م.

٢٢٨- في التاريخ فكرة ومنهاج – سيد قطب – دار الشروق ، القاهرة ، ط٨ ، عام ١٤٢٢هـ.

٢٢٩- في ظلال القرآن – سيد قطب . دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، ط٣٠ ، عام ٢٠٠١م.

٢٣٠- في ظلال القرآن رؤية استشراقية فرنسية : تأليف أوليفيه كاريه ، ترجمة / محمد رضا حجاج ، دار الزهري ، القاهرة ، ط١، عام ١٤١٣هـ.

٢٣١- في ظلال القرآن في الميزان ، د / صلاح الخالدي ، دار عمار الأردن ، ط٢ عام ١٤٢١هـ.

(ق)

٢٣٢- القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٥ ، عام١٤١٦هـ .

٢٣٣- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، د / عبد الرحمن المحمود ، الدار الدولي – الرياض- ط١ ، ١٤١٤هـ.

٢٣٤- القواعد الفقهية ، لابن رجب الحنبلي . دار المعرفة ،بيروت ، ب. ت.

٢٣٥- الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي.

٢٣٦- قصة الأدب المصري ، عبد المنعم خفاجي ، المطبعة اللندنية ، ط١، عام ١٩٥٦م.

٢٣٧- قواعد التكفير ، عبد المنعم حليمه ، دار البشير، الأردن ، ط١ ، عام ١٤١٥هـ.

٢٣٨- قوانين حكم الإشراق للشاذلي ، الكليات الأزهرية – القاهرة – ١٣٨٠هـ .

٢٣٩- القول السديد للسعدي، طبعة الجامعة الإسلامية ، المدينة عام ، ١٤٠٤هـ.

(ك)

٢٤٠- الكشاف للزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ عام ١٤١٧هـ.

(ل)

٢٤١- الله ، لعباس العقاد ، دار الهلال ، القاهرة ، ب . ت .

٢٤٢- لسان العرب لابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، عام ١٤١٣هـ.

٢٤٣- لسان الميزان لابن حجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، عام ١٩٩٦م.

٢٤٤- لماذا أعدموني – سيد قطب – بدون دار النشر ولا تاريخ.

٢٤٥- لوامع الأنوار البهية للسفاريني مؤسسة الخافقين، دمشق ط٢ عام ١٤٠٢هـ.

(م)

٢٤٦- المحصول للرازي، تحقيق د/ جابر العلواني،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، عام ١٤١١هـ.

٢٤٧- المدخل لدراسة العقيدة، د. إبراهيم البريكان، دار ابن عفان، الرياض، ط٥، عام ١٤١٨هـ.

٢٤٨- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت.

٢٤٩- المستصفى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي دار الأرقم الكويت ط٣ عام ١٤٢٠هـ..

٢٥٠- المستقبل لهذا الدين – سيد قطب – دار الشروق ، القاهرة ، ط١٦ ، عام ١٤٢٥هـ.

٢٥١- المسودة في أصول الفقه لآل تيمية ، تحقيق د / أحمد الدوري ، دار الفضيلة ، الرياض ، ط ١٤٢٢هـ.

٢٥٢- المصطلحات الأربعة لأبي الأعلى المودودي، دار الفكر، الكويت،ط١، عام ١٤٠١هـ.

٢٥٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – دار الحديث – القاهرة طبعة ١٤٢٢هـ .

٢٥٤- المعجم الوسيط ، د / إبراهيم أنيس وآخرون ، دار الفكر –بيروت ، ط٢ ، ب . ت.

٢٥٥- المعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية ، طبعة المكتبة الإسلامية، تركيا، ب.ت.

٢٥٦- المفردات من غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، دار القلم ، بيروت ،ط٢ ،١٩٩٧م .

٢٥٧- المفسرون بين التأويل والإثبات للشيخ / محمد بن عبد الرحمن المغراوي ، مؤسسة الرسالة – بيروت– ط١ –١٤٢٠هـ .

٢٥٨- الملل والنحل للشهرستاني ، مكتبة الانجلومصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ب .ت.

٢٥٩- المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي دار عمار الأردن ط٢ عام ١٤٢١هـ.

٢٦٠- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبي الحسن الندوي، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٦، عام ١٩٦٥م.

٢٦١- مباحث علوم القرآن، لمناع القطان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ٨.

٢٦٢- متن الأوطار للإمام الشوكاني، دار الجيل ، طبعة عام ١٩٧٣م .

٢٦٣- مجموع رسائل ومقالات الشيخ عبد الله بن قعود ،جمع : عبد الله آل مهنا ، دار طيبة الخضراء ، مكة ، ط٢، عام ١٤٢٧ هـ.

٢٦٤- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن النجدي ، طبعة عام ١٤١٨هـ.

٢٦٥- مجموع فتاوى ورسائل الشيخ : محمد بن إبراهيم ، مطبعة الحكومة ، مكة ، ط١ ، عام ١٣٩٩هـ.

٢٦٦- محمد حسين ،دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، عام ١٩٩٣م .

٢٦٧- مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ، دار الفكر، بيروت، عام ١٤٠١هـ.

٢٦٨- مختصر الصواعق المرسلة . للموصلي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٥هـ.

٢٦٩- مختصر العلو للعلي الغفار ، للشيخ الألباني ،المكتب الإسلامي ،بيروت ،ط١ ،عام ١٤٠١ هـ.

٢٧٠- مدارج السالكين لابن القيم دار الكتاب العربي ط٣عام ١٤١٦هـ .

٢٧١- مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، دار عمار ،الأردن ،ط٢ ،عام١٤٢١هـ .

٢٧٢- مذابح الإخوان في سجون ناصر ، لجابر رزق ، دار الوفاء ، القاهرة ، ط١٩٨٦م .

٢٧٣- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ..

٢٧٤- مذكرات سائح في الشرق الإسلامي، لأبي الحسن الندوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، عام ١٩٧٥م.

٢٧٥- مذكرة في أصول الفقه للشيخ / محمد الأمين الشنقيطي ، دار القلم – بيروت – طبعة ١٣٩١هـ.

٢٧٦- مراتب الإجماع لابن حزم دار أبن حزم بيروت – ط١ عام ١٤١٩هـ.

٢٧٧- مسند الإمام أحمد ، للمصنف الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٢٠هـ.

٢٧٨- مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط١٥، عام ٢٠٠٤م.

٢٧٩- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ، تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ.

٢٨٠- مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ربيع ، الدكتور/ المدخلي.

٢٨١- مع سيد قطب في فكره السياسي والديني ، د / مهدي فضل الله . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٩٧٨م.

٢٨٢- معارج القبول للحكمي دار ابن القيم – الدمام ط٣ عام ١٤١٥هـ.

٢٨٣- معالم في الطريق – سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط١٥ ، عام ١٩٩٦م.

٢٨٤- معتقد أهل السنة والجماعة ، لمحمد بن خليفة التميمي ، دار الحريري – القاهرة ، ب.ت.

٢٨٥- معجم ألفاظ القران – مجمع اللغة العربية – القاهرة طبعة ١٤٠٩هـ.

٢٨٦- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث، بيروت، ب٠ت .

٢٨٧- معجم مقاييس اللغة لابن فارس – دار الجيل – بيروت ب٠ت.

٢٨٨- معركة الإسلام والرأسمالية- سيد قطب – دار الشروق – القاهرة ، ط١٣ ، عام ١٤١٤هـ.

٢٨٩- معركة السفور والحجاب ، لمحمد أحمد إسماعيل المقدم ، دار طيبة الرياض ، ط ٣ ، عام ١٩٠٨م.

٢٩٠- معركتنا مع اليهود سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ط٢٠٠١،١٤م.

٢٩١- المغني لابن قدامة تحقيق د/ التركي ، دار هجر ، القاهرة ، ط٢، عام ١٤١٨هـ.

٢٩٢- مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار ابن عفان، الرياض، ط١، عام ١٤١٦هـ.

٢٩٣- مقالات الاسلاميين ، لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق / محمد محي الدين ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ.

٢٩٤- مقدمة ابن خلدون ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ب.ت .

٢٩٥- مقدمة مجموع فتاوى ابن عثيمين.

٢٩٦- مقومات التصور الإسلامي ،سيد قطب ،دار الشروق ،بيروت ،ط ٥، ١٩٩٧م.

٢٩٧- من أعلام الحركة الإسلامية ،للمستشار عبد الله العقيل، دار التوزيع، القاهرة ، طبعة عام ٢٠٠٠م.

٢٩٨- من أعلام المسلمين سيد قطب ، د / صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، عام ٢٠٠٠م.

٢٩٩- منازل السائرين ، لأبي إسماعيل الهروي ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر –ط٢- ب.ت.

٣٠٠- مناهج الأدلة في عقائد الملة ، لابن رشد ، تحقيق د/ محمد قاسم . ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ب.ت

٣٠١- مناهل العرفان ، للزرقاني ، دار الفكر – بيروت ، ط عام ١٤٠٨هـ.

٣٠٢- منهاج السنة لابن تيمية، تحقيق/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض، ط١، عام ١٤٠٦هـ..

٣٠٣- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، لعثمان بن علي حسن ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط٤ – ١٤١٨هـ .

٣٠٤- منهج الإمام الخطابي في العقيدة للحسن بن عبد الرحمن العلوي ، دار الوطن – الرياض – ط(١)- ١٤١٨هـ.

٣٠٥- منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل للدكتور / محمد السحيباني ، دار الوطن ، الرياض ، ط١، عام ١٤١٧هـ..

٣٠٦- منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ، لتامر محمد متولي ، دار ماجد عسيري ، جدة ،ط١ ، عام ١٤٢٥هـ..

٣٠٧- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، طبعة الجامعة الإسلامية عام ١٤٠١هـ.

٣٠٨- مهمة الشاعر في الحياة ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ب . ت.

٣٠٩- الموافقات للإمام الشاطبي دار الكتب العلمية بيروت ب.ت.

٣١٠- المواقف في علم الكلام ، عبد الرحمن الإيجي، دار عالم الكتب- بيروت، ب.ت.

٣١١- الموتى يتكلمون ، سامي جوهر ، المكتب المصري الحديث ،القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٧٧م.

٣١٢- المورد العذب الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ، للشيخ / عبد الله بن محمد الدويش ، دار العليان ، بريده ، ط١ ، عام ١٤١١هـ.

٣١٣- موسوعة الإجماع لسعدي أبوجبيب.

٣١٤- موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ، مجموع مؤلفين ، مكتبة المعارف – الرياض ،ط١ عام ١٤١٩ هـ.

٣١٥- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، د/أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥ ، عام ١٩٩٢م .

٣١٦- الموسوعة الميسرة في الأديان المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ.

٣١٧- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط١ ، عام ١٤١٦هـ.

٣١٨- موسوعة تاريخ مصر . لأحمد حسين ، دار الشعب ، القاهرة ، ب .ت.

٣١٩- موقع الإسلام الذهبي.

٣٢٠- موقع الإسلام اليوم .

٣٢١- موقع ابن جبرين على الانترنت.

٣٢٢- موقف البشر تحت سلطان القدر ، لمصطفى صبري ، المطبعة السلفية – القاهرة – ط١ – ١٣٥٢هـ.

٣٢٣- موقف العقل والعلم من رب العالمين . لمصطفى صبري ، دار إحياء التراث – بيروت، ب.ت.

٣٢٤- ميلاد ثورة ،محمد عودة ،دار الجمهورية ، القاهرة ،طبعة عام ١٩٧١م.

(ن)

٣٢٥- النبوات لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ١٩٨٢م .

٣٢٦- النبوة و الأنبياء ، محمد بن علي مكتبة الغزالي ، طبعة عام ١٤٠٠هـ.

٣٢٧- النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي ، دار الكتب ،بيروت ،ب-ت.

٣٢٨- النحو الوافي ، لعباس حسن : دار المعارف – مصر – ط ٤ ب.ت.

٣٢٩- نحو مجتمع إسلامي – سيد قطب – دار الشروق – بيروت طبعة عام ١٤١٥هـ.

(هـ)

٣٣٠- هدي الساري مقدمة فتح الباري ، لابن حجر، دار الفكر، بيروت، ط عام ١٤١١هـ.

٣٣١- هذا الدين لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط٧ ، عام ١٤٠٢هـ.

(و)

٣٣٢- واقعنا المعاصر . محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، جدة ، ط٣ ، عام ١٩٩٠م .

٣٣٣- وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة للشيخ / محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٢ ، عام ١٤٢٢هـ.

٣٣٤- الوحي المحمدي ، لمحمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٩ عام ١٣٩٩هـ.

٣٣٥- وفيات الأعيان لأبن خلكان ، دار صادر ، بيروت ، ب .ت.

٣٣٦- واقعنا المعاصر . محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، جدة ، ط٣ ، عام ١٩٩٠م.

(ي)

٣٣٧- اليوم الأخر في القرآن والسنة د/عبد المحسن المطيري- دار البشائر – لبنان – ط٢-عام ١٤٢٧هـ.

٣٣٨- اليوم الأخر في ظلال القرآن – احمد فائز – مؤسسة الرسالة ، ط٢٨ عام ١٤١٨هـ.

ثالثاً: المجلات :

٣٣٩- مجلة (كلمة الحق) السنة الأولى – العدد الثاني – مايو ١٩٦٧م.

٣٤٠- مجلة الدعوة ، العدد ١٥٩١ ، بتاريخ ١٤١٨/١/٩هـ .

٣٤١- مجلة الرسالة ، العدد ٣٩٤ لسنة ١٩٤١م.

٣٤٢- مجلة الرسالة ، ج١ ، العدد ٦٥٣ ، سنة ١٩٤٦م.

٣٤٣- مجلة الشهاب ، العدد ٣ سنة ١٣٩٣هـ.

٣٤٤- مجلة الشهاب اللبنانية ، عدد٢١ بتاريخ ١٦/ ٢ / ١٣٩٣هـ.

٣٤٥- مجلة الشهاب اللبنانية العدد ٢١ ، صفر عام ١٣٩٣هـ.

٣٤٦- مجلة المجتمع ، عدد ٨٣٢ بتاريخ ١/ ٩ / ١٩٨٧.

٣٤٧- مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٢٧١ عام ١٣٩٥هـ..

٣٤٨- مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٥٢٠ .

٣٤٩- مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٥٦٥، جماد آخر ١٤٠٢هـ .

٣٥٠- مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٦٥٦ لعام ١٤٠٢هـ.

٣٥١- مجلة المجتمع الكويتية ،العدد:١١٢ ،تاريخ ١٩٧٢/٨/٨م.

٣٥٢- مجلة المجتمع الكويتية العدد ٢٧١شوال ، ١٣٩٥هـ .

٣٥٣- مجلة المجتمع الكويتية عدد ٥٦٥ ، جماد آخر١٤٠٢ هـ.

٣٥٤- مجلة المسلمون : العدد ٣ سنة ١٣٧هـ .

٣٥٥- مجلة المنار الجديد العدد١٩ ذو الحجة ١٤٢٥هـ.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات